

المنهج المطهر للجسم والفؤاد

من سوء الظن بأحد من العباد

المسمى كذلك

طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بجميع العباد

تأليف

الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

المتوفى سنة ٩٧٣هـ

تحقيق

محمود مرسي حسن

تقديم

د. محمد عبد القادر نصار

الجزء الثاني









الكتب النادرة التي ترفع لأول مرة

المنهج المطهر للجسم والفؤاد

من سوء الظن بأحد من العباد



هاتف محمول: ٠١١٢١٠٧٧١٧٤ ٠٠٢

Email: darelehsan@gmail.com

الكتاب: المنهج المطهر للجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد

تأليف: الإمام عبد الوهاب الشعراني

تحقيق: محمود مرسي حسن

الناشر: دار الإحسان

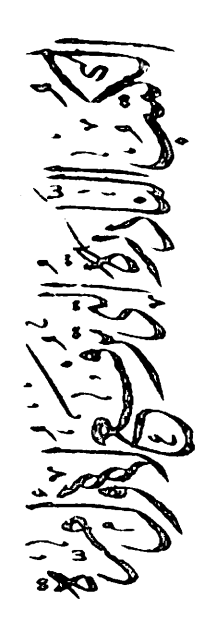
سنة الطباعة: ٢٠٢٣م

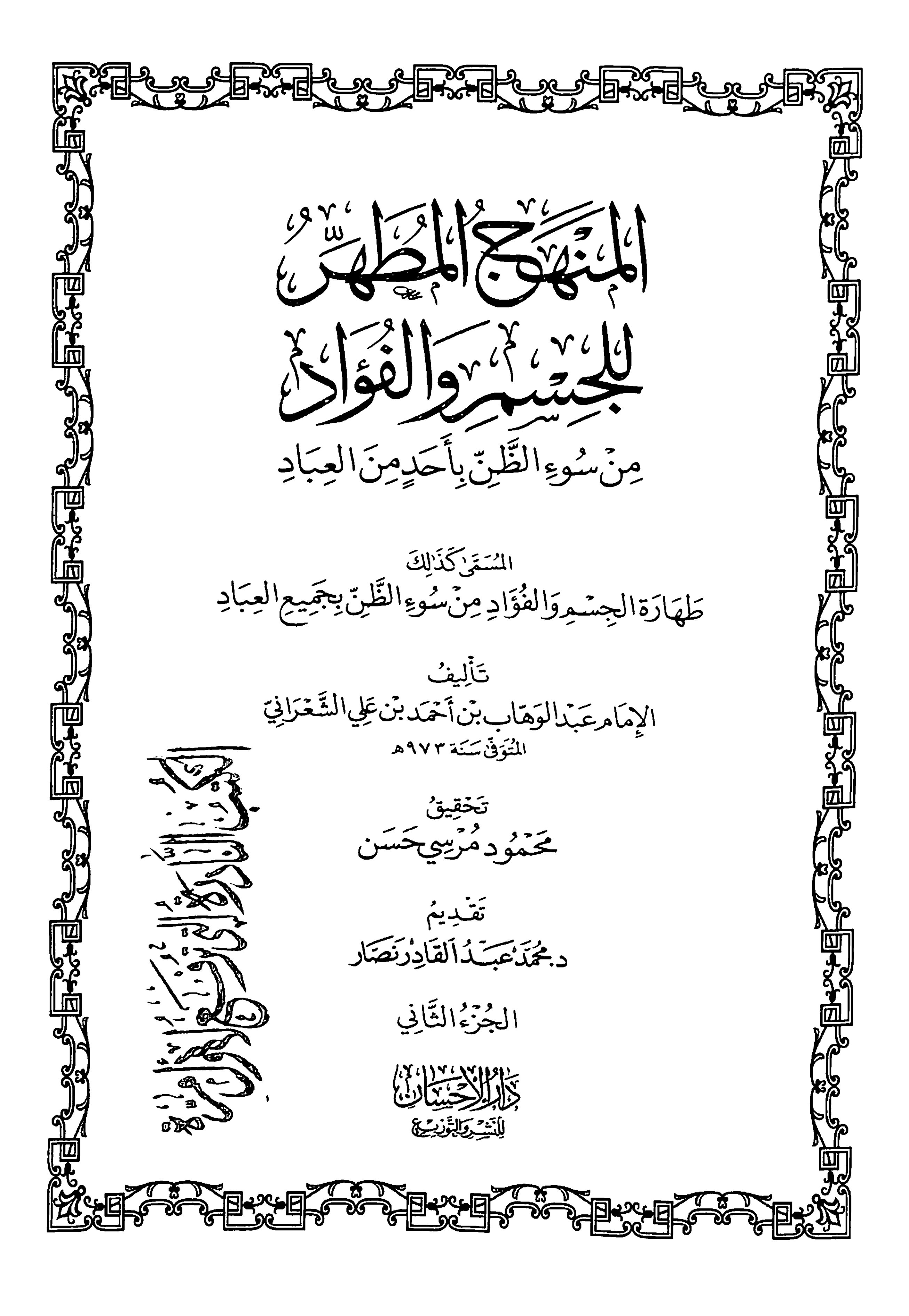
بلد الطباعة: القاهرة، مصر

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٢٧٥٨٢/ ٢٠٢٢م

الترقيم الدولي: 978-977-6816-43-5





المنهج المطهر للجسم والفؤاد

من سوء الظن بأحد من العباد

المسمى كذلك

طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بجميع العباد

تأليف

الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

المتوفى سنة ٩٧٣هـ

تحقيق

محمود مرسي حسن

تقديم

د. محمد عبد القادر نصار

الجزء الثاني

دار الإحسان للنشر والتوزيع

الباب الثامن

في جملة أخرى من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(٦٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكْثِر من إقامة العذر لمن خرج عن حدِّ الاستقامة من العوام، فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: هذا فيه فتح باب تجري العامة علىٰ الذنوب، بأنه ربما كان يشهد بنور الإيمان أن القابض علىٰ دينه في هذا الزمان كالقابض علىٰ الجمر، مع قطع النظر عن وجه الكسب، كما يقع فيه من لم يبلغ مقام الكمال.

وإنما كان القابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ الجمر، لضعف داعية غالب الخلق إلىٰ الطاعات، وعسير الصبر علىٰ دوام الإقبال علىٰ الله تعالىٰ، ومخالفة النفس فيما تهواه، فكأن من يريد عدم مفارقة دينه قابضًا كفَّه علىٰ جمرة ترعىٰ في كفِّه لا يقدر علىٰ رميها في ساعة من ليل أو نهار، مع زيادة حرارتها كلما تقارب الزمان. فهذا سبب إقامة هذا الفقير المعاذير للخلق، ولو كمُل حاله لنظر إلىٰ الخلق بالعين الأخرىٰ، فوبَّخهم وزجرهم ظاهرًا، وأخفىٰ إقامة العذر عنهم أدبًا مع الشريعة، ورأىٰ أن ذلك أولىٰ من إقامة العذر، فإن إقامة العذر تحصيل الحاصل، إذ الخلق كلُّهم في سرِّ الإرادة لا يخرجون، فاعلم ذلك، وأعْلِم الفقير بمقام الكمال، ثم أنكر عليه ما يخالف ظاهر الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي زاد تلميذه عليه في العمل الظاهر، واعتقده الناس الاعتقاد التام، وقدَّموه علىٰ الشيخ، وصار الناس يقولون: الشهرة لهذا الشيخ، والمقام إنما هو للتلميذ، فإن الباطن لا نعرفه، وما نعرف إلا الظاهر، فكلُّ من زاد علىٰ غيره في الأعمال الصالحة، قدَّمناه علىٰ غيره، بأنه لا يلزم من كثرة أعمال المريد أن يكون أعلىٰ مقامًا من شيخه، فإن أعمال المريد كالجرين القمح قبل دياسه، وعمل الشيخ كالحبِّ الذي خرج من التبن وصفوه ونقوه من الغلة، فهو أزكىٰ من عمل المريد وإن قل جرمه.

وإيضاح ذلك أن الأعمال الظاهرة كلَّها إنما هي وسيلة إلىٰ حصول مقام مشاهدة

الحقِّ بالقلوب، فإذا حصل الشهود الدائم للعارف، فقد حصل علىٰ غاية المقصود، ولو لا أن في الإنسان جزءًا يحن إلىٰ الحجاب لما كان يحب الرجوع إلىٰ الأعمال، وكان يذهب في الذاهبين في الله عزَّ وجلَّ، فكلُّ ذرة من عمل الشيخ تعدل أمثال الجبال من عمل المريد.

فإياك يا أخي والخوض مع الخائضين في ترجيح المريدين علىٰ الأشياخ بغير علم، كما يقع فيه التجار والمباشرون، فإن ترجيح هؤلاء من باب الخرافات، لعدم ذوقهم أحوال أهل الطريق، ولا يعرف مقام الشيخ إلا من كان أعلىٰ مقامًا منه، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرميه أقرانه بالعظائم وينقصونه في المجالس، ولاث الناس به وقلَّ اعتقادُهم فيه وقالوا: لولا أن هؤلاء الناس علموا من هذا خبث السريرة ما كرهوه ونقصوه بين الناس، لأن مثل هؤلاء لا يجتمعون علىٰ باطل، بأنه لا يلزم من حطِّ الأقران في فقير وتنقيصه في المجالس أن يكون كما يقولون، فقد يكون هؤلاء كلهم حسدة له ولو كانوا ألفًا، لأن العبد كلما علا مقامه وتميز عن أقرانه كثر حساده، فكثرة الحساد تغمز[1] علىٰ مقام الفقير ولو آثر هو الخفاء علىٰ الظهور.

وقد سمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول مرة: اللهم كثِّر حسَّادي! فقلت له: لم ذاك؟! فقال: لأنهم لا يحسدوني إلا إذا كثرت نعمة الله عليَّ. ثم قال لي: انظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] تفهم ما أقول، فإنه تعالىٰ ما أمرنا بالاستعاذة إلا من شرِّ الحاسد لا من وجوده، لأن وجوده مقرون بالنعمة متىٰ زال أهل الحسد زالت النعمة. انتهىٰ.

وكان عمر بن الخطاب يقول: ما ثم نعمة [إلا][2] وصاحبها محسود، فلا يسلم من حاسد أبدًا. وقد كان مالك بن دينار ومالك بن أنس رضي الله عنهما يقولان: لا تُقبَل شهادةُ القرَّاء علىٰ بعضهم بعضًا لأنهم قوم حسد. انتهىٰ.

---

(١) أي تشير.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

فاعتقد يا أخي الكمال والصلاح فيمن أَكْثَر أقرانُه فيه التجريح[1]، فإن ذلك علامة علىٰ شهودهم فيه الكمال الذي لا يقدرون علىٰ الوصول إليه، فطلبوا بتجريحهم له أن يصير بين الناس كأحدهم لا يلتفت أحد إليه ولا يعتقده. وإن أردت تحقيق الأمر في ذلك، فخالط ذلك الشيخ وانظر في أعماله، فإنك لا تكاد تجده يرتكب كبيرة ولا يصر علىٰ صغيرة، ولا يتهاون بشيء من السنة، فمن أي وجه يدخل عليه النقص؟! ولكن الحسدة لما رأوا هذا الباب مسدودًا عليه، رموه بالعظائم الباطنة كالرياء والنفاق والكبر والعجب ونحو ذلك، لعلمهم بأنه إذا رموه بالمعاصي الظاهرة يكذبهم الناس.

فاعلم ذلك، وإياك وقبول التجريح في عالم أو شيخ من أقرانه، وادع الله تعالىٰ لهم بالمغفرة إن كانوا كاذبين عليه، فإن الأصل براءة الساحة، والجرح عارض، وتكذيبنا لهم أخف إثمًا عليهم من تصديقنا لهم، فاقصد يا أخي بتكذيبك لهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا جلس الناس عنده وأكثروا من جر قوافي الناس وهو ساكت، فلاث به بعض الأقران وقالوا: إن مجلس فلان مجلس فسق، والواجب عليه أن يمنع هؤلاء من الدخول له، أو يصير يرد عن عرض إخوانه المسلمين، فإن الساكت شريك المستمع، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا العالم أو الشيخ، فربما كان له عذر شرعي أباح له السكوت علىٰ تلك الغيبة مثلًا. وربما كان من أهل الشفاعة فيهم عند الله تعالىٰ، فكل من جروا قافيته، سأل الله تعالىٰ له المغفرة فأجابه، وإذا طردهم عن مجلسه ربما لم يجدوا أحدًا يشفع فيهم.

فاحفظ يا أخي لسانك إذا جلستَ عند شيخ، وتوسل به إلىٰ الله إذا وقعتَ أن يشفع فيك، وإياك أن تقول: هذا الشيخ لا يرد في مجلسه غيبة أحد، ولا يزجر أحدًا عن ذلك، كما يقع فيه كثيرًا من [لم][2] يحفظ[3] لسانه في مجلس الشيخ، فربما يكون هذا العابد

(١) بالأصلين: التجريد.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بالأصلين: حفظ. والصواب ما أثبتناه.

أو الشيخ يزجر كلَّ واحد من هؤلاء الذين يقعون في أعراض الناس في مجلسه فيما بينه وبينهم، عملًا بقولهم: من نصح أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه، ومن نصحه جهرًا فقد فضحه وشانه. انتهىٰ. وليس ذلك ببعيد عن العلماء والصالحين.

وإن أبيتَ يا أخي إلا التجريح في هذا العالم أو الشيخ، فاحضر مجلسهما ورد عن عِرْضِ كل من ذكروه بسوء، وتنظر ما يقع لك من الأذىٰ، وهناك تعذر الشيخ في سكوته. فإنه ربما زجرهم فلاثوا بعرضه بين الأكابر، فهتكوا ستره وترتب علىٰ ذلك عدة مفاسد أشد من مفسدة السكوت، كما وقع ذلك لبعض الإخوان، فلا لوم عليه إلا إن علمنا أن له حالًا تحميه من الذين يلوثون به، وقليل ما هم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا اعتراض علىٰ رجال الرحمة من أرباب الأحوال في تمكينهم من يجر قوافي الناس عند الجلوس عندهم، لأنهم يدفعون بحضورهم معهم البلاء النازل عليهم بالدعاء والشفاعة.

ومما وقع لبعض الإخوان وكان كثير المزح أنه قال: لا أحد يشفع فيَّ إذا جريت قافية فلان بحضرة الشيخ. فرأىٰ تلك الليلة شخصًا قدَّم إليه جيفته وقال: كله في الدنيا كما تأكله في الآخرة، ولو أنك دخلتَ تحت صحبة فلان لشفع فيك في ذلك المجلس.

وذكر لي الشيخ محمد البتنوني أنه جلس هو وإنسان في مجلس، قال: فجرينا قوافي أهل مصر كلِّهم من علماء وصالحين وأمراء وتجار ومباشرين، فبينما أنا نائم تلك الليلة إذ رأيتُ مشانيق معلقين من باب زويلة[1] إلىٰ باب الفتوح[2] بمصر، وأنا وصاحبي ننهش في بطون هؤلاء المشانيق ولحومهم علىٰ ترتيب ما وقعتُ فيهم، فكان ذلك سبب توبتي عن الغيبة في الناس.

---

(١) باب زويلة: من أبواب القاهرة القديمة، وهو باق إلىٰ الآن في شارع المعز لدين الله الفاطمي الذي يضم عددًا من الأماكن الأثرية بالقرب من مسجد سيدنا الحسين بالقاهرة عاصمة مصر.

(٢) باب الفتوح: أحد أشهر أبواب القاهرة القديمة. وموقعه الآن في مدخل شارع المعز الشهير بالقاهرة بالقرب من مسجد سيدنا الحسين بمصر.

(٦٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهي أصحابه عن تعاطي أسباب المحبة لبعضهم بعضًا، ويهجر كلَّ من أعطىٰ صاحبه ثيابًا أو مالًا، أو أطعمه طعامًا، أو أفشىٰ بينه وبينه سلامًا، فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر مخالف للسنة بإجماع، فإن الشريعة قد أمرت بالتحابب ونهت عن أسباب التقاطع، وقد قال ﷺ: «اطعموا الطعام، وأفشوا السلام»[1]، وقد قال: «ألا أدلكم علىٰ ما يثبت لكم الود بينكم أفشوا السلام»[2]، وغير ذلك من الأحاديث، بأن هذا الشيخ لا يجهل مثل ذلك، ولعل أصحابه الذين نهاهم عن التوادد كانوا إذا توادوا مع بعضهم بعضًا، اشتغلوا بذلك عن الله عزَّ وجلَّ، إذ كان هذا الشيخ ممن أعطاه الله تعالىٰ الكشف، فرأىٰ أن الحق تعالىٰ يمقتهم إذا رأىٰ أحدًا من الخلق قد سكن حبُّه في قلوبهم ممن لم يأمرهم الله تعالىٰ بمحبته، ودخلت العلل النفسانية في محبتهم، فخاف عليهم من ذلك. وقد قالوا: كلُّ ما أشغلك عن الله من مال وأصحاب فهو عليك مشؤوم. فمن شرط المحبة التي أمرنا بها الشارع أن لا تشغلنا تلك المحبة عن ربنا، بقرينة قواعد الشريعة.

وقد سمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: ربما غار الحقُّ علىٰ قلب وليِّه أن يرىٰ فيه محبةً لغيره، فمقت ذلك الولي أو ذلك المحبوب. قال: وكثيرًا ما يغار الحقُّ تعالىٰ علىٰ وليِّه أن يُشغَل بقضاء حاجة أحد من الخلق، فيصير الحقُّ تعالىٰ يقضي حاجة كلِّ من توجه بقلبه إلىٰ ذلك الولي من غير أن يعلم الوليُّ بذلك، ثم يعطيه ثواب جميع تلك الحوائج التي قُضِيت بالتوجه إليه من غير علمه فضلًا منه ونعمة علىٰ وليِّه. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن ما فعله هذا الشيخ بجماعته لا ينافي الشريعة، لأنه ما نهىٰ بعضهم عن التحابب

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (١٨٥٥) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١٣٣٤) وابن حبان (٥٠٧).

(٢) أخرج الترمذي (٢٥١٠) من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم» وأحمد (١٤٣٠) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٣٧٣).

وإطعام الطعام إلا لعلمه أن ذلك إذا تسلسل منهم يشغلهم عن الله، فكأنه يقول: توادُّوا وتحابوا وأفشوا السلام بينكم، وإياكم أن تشتغلوا بذلك عن ربكم، وهو نظير مدح الله تعالىٰ الرجال القائمين في التجارة والبيع والشراء في قوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، فلم يأمرهم بترك التجارة، وإنما أمرهم بالإقامة فيها من غير أن يشتغلوا بها عن الله تعالىٰ، فافهم، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الموافقة للشريعة، أو قف عن الإنكار وسلِّم أمرهم إلىٰ الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله يقول: إن لم يظهر موافقة أفعال المشايخ وأقوالهم للشريعة، فاسكتوا عن الإنكار، فربما يكون أحدهم موافقًا للشريعة فيما لم يصل إليه عقلكم، ثم ينشد:

ما حرمة الشيخ إلا طاعة[1] الله	فقم بها أدبًا بالله لله
هم الأدلاء والقربىٰ تؤيدهم	علىٰ الحقيقة إنعامًا[2] من الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم	لا يطلبون من الله سوىٰ الله
وإن بدا منهم حال تولههم	عن الشريعة فاتركهم مع الله
لا تتبعنهم ولا تسلك لهم أثرًا	فإنهم طلقاء الله في الله
لاتقتدِ بالذي زالت شريعته	عنه ولو جاء بالأنبا عن الله

انتهىٰ[3]. والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا قلَّت أصدقاؤه وكرهه غالب الناس، ولاث به أقرانه وقالوا: هذا من علامة كراهة الله تعالىٰ له، فإن «المؤمن إلْفٌ مألوف»[4]، بأنه

---

(١) في «الفتوحات»: حرمة.

(٢) في «الفتوحات»: علىٰ الدلالة تأييدا علىٰ الله.

(٣) «الفتوحات» الباب (١٨١).

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أحمد (٩١٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مألف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»، والحاكم (٩١٩٨).

لا يلزم من كراهة الناس له أن يكون ذلك من رقَّة دينه، فقد يكون ذلك من كثرة ما ينصحهم ويأمرهم، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: ما تركت لي كلمةُ الحقِّ من صديق. وكان وهب بن مُنبِّه يقول: رأيتُ في التوراة أن من علامة العلماء العاملين زهدَ جيرانهم ومعارفهم في صحبتهم، لكثرة ما يأمرونهم بمخالفة أهوائهم. انتهىٰ. وكان كثيرًا ما يقول: ما أمر عالم جيرانه ونهاهم إلا رموه بالعظائم وكرهوه. انتهىٰ.

فإن قال قائل: فإذن صحبة الناس لعالم دليل علىٰ مداهنته لهم، فما تجيبون عنه؟ قلنا: نجيب عنه بأن ذلك دليل علىٰ حسن سياسته، فهو يأمرهم وينهاهم بسياسة ورحمة وعدم رؤية نفسه عليهم، بل ربما رآهم خيرًا منه. وصاحب هذا الحال لا يكلم أحدًا بفظاظة عكس ما عليه العالم الذي كرهه جيرانه ومعارفه. فاعلم ذلك، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة وإن تفاضلوا في المقام، فإنه ثم مقام رفيع، ومقام أرفع منه، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا صحب أميرًا وصار يقبل شفاعته في المظلومين، ويقدِّمه في الاعتقاد علىٰ جميع أقرانه، وهو مع ذلك متعفف عنه لا يأكل له طعامًا ولا يقبل له هدية، ثم ترك صحبته وتعطلت شفاعته لعدم من يقوم بمثلها في البلد، فلاث به إخوانه وقالوا: ما كان فيه أفضل مما هو فيه الآن بيقين، بأنه ربما كان العالم أو الشيخ من أهل الاجتهاد في ذلك، فصحبه باجتهاد وفارقه باجتهاد، وربما كان ذلك الأمير له تبعات كثيرة يعجز ذلك العالم عن تحملها عنه يوم القيامة إن كان من شرط صحبته ذلك، كما عليه الأكابر من الأولياء.

وكان سيدي علي المرصفي ﷺ لا يتحمل منَّة أحد جلب أميرًا إلىٰ صحبته، بل يظهر له العبوسة والغضب، ويقول للجالب: أما وجدت أحدًا تؤذيه غيري؟! فإني عاجز عن تحمل [تبعات الفقراء، فكيف أتحمل] تبعات الأمراء. انتهىٰ. وكان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: لا تدخلوا علىٰ الأمراء ولو أمرتموهم ونهيتموهم. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وسلِّم لمن هو فوقك في العلم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن علىٰ كلِّ عضو من أعضاء العبد الظاهرة ملكًا يحرسه؛ فلاث به العلماء وقالوا له: هذا أمر لم يبلغنا في كتاب ولا سنة، وما نعرف إلا الملائكة الكرام الكاتبين فقط، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار إلا بدليل صريح، فقد يكون ذلك الشيخ اطلع علىٰ دليل في ذلك، أو اطلع عليه من طريق كشفٍ فقال به، مع أنه لا يترتب علىٰ تصديقه في ذلك كبير أمر، ولا تصادم شيء من أدلة الشريعة، فالأولىٰ التسليم له.

وقد كُشِفَ لي مرةً عن ذلك في بعض الليالي، فرأيتُ علىٰ فَرْجِي ملكًا، وعلىٰ قلبي ملكًا، فعلمتُ شدة اعتناء الحقِّ تعالىٰ بي، وشكرتُه علىٰ ذلك باعترافي بفضله عليَّ. ثم إن هذا الأمر لا يكون إلا لمن أحبه الله تعالىٰ، سواء أكان ذلك من كثرة أعماله الصالحة، أو سبق له ذلك اختصاصًا من الله تعالىٰ من غير عمل.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إذا أحب الله تعالىٰ عبدًا قيَّده في حضرته، فلا يخرجه منها في ساعة من ليل أو نهار أو برزخ، وإن وقع أنه خرج من حضرة الله تعالىٰ لحاجة لا يناسب فعلها في الحضرة، أرسل الله تعالىٰ علىٰ كلِّ جارحة من جوارحه الظاهرة والباطنة ملكًا يحرسه حتىٰ يرجع إلىٰ الحضرة، فلا يقع في شيء من المكروه إذا خرج أبدًا.

ثم لا يخفىٰ أن من شرط المحبوب أن لا يدخل جوفه حرام ولا شبهة. وإن وقع أنه أكل إذا خرج من الحضرة حرامًا أو شبهة ولو لقمة واحدة، مُنِع من دخول الحضرة ثلاثين يومًا مدة إمداد تلك اللقمة[1] له في القوىٰ، وهي ثلاثون يومًا كما أعطاه الكشف. فاعلم ذلك، وسلِّم للأولياء كلَّ ما يخبرون به، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نام عن ورده، فأصبح حزينًا يُرىٰ ذلك علىٰ وجهه، فلاث به الفقراء وقالوا: ما كنا نظن في فلان أنه يحزن علىٰ عمل فاته، وما كنا نظن به إلا الكمال، إذ الكامل معتمد علىٰ الله، فلا عليه من العمل قل أو كثر، بأنه لا يلزم من حزنه علىٰ فوات عمله أن يكون معتمدًا علىٰ عمله دون الله تعالىٰ، فربما كان حزنه علىٰ فوات

---

(١) بالأصلين: الحضرة.

مجالسته لله تعالىٰ ولأهل حضرته، أو يكون حزنه علىٰ فوات الأعمال من حيثُ ذراتُ الأعمالِ التي كان يعطيها لخصومه في الآخرة لو كانت عُمِلَت، فإن حكمها في الآخرة حكم الأموال هنا، واهتمام العبد بقضاء دينه لا يقدح في كماله، فما حزن هذا إلا علىٰ فوات ما كان يريد أن يوفي منه الأخصام الذين لهم عليه حق من مال أو عرض يوم القيامة.

وقد كان أخي أفضل الدين ﵀ يقول: أكثروا من الأعمال الخالصة لتعطوا أخصامكم منها يوم القيامة، وفتشوها جهدكم، فربما كان فيها علة تحبطها ولا تشعرون، فيصير أحدكم يعمل في غير معمل بالنظر للعاقبة، كالذي فتح مطلبًا وملأ منه غِرَارَة[1] ذهبًا وحملها إلىٰ بيته، فلما فتحها إذا هي بعر وخنفس، فيا ندامته! ولعل أعمال أمثالنا حكمها كذلك يوم القيامة. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة أو اسكت، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يوقف أحدًا من محارمه قريبًا من باب المكان الذي يجامع زوجته فيه، ويقول: إني عازم علىٰ الجماع، فإن استبطأتم خروجي لكم فنادوني، فإن لم أجبكم فادخلوا وانظروا، فإن رأيتموني مت وأنا مجامع أنا وزوجتي فخلصونا، خوفًا أن يدخل علينا أحد من الأجانب، فنصير مثلًا بين الناس، واكتموا ذلك عن الناس؛ فلاث به جماعة من طلبة العلم وقالوا: هذا أمر لم يبلغنا وقوعه عن رسول الله ﷺ، مع أنه كان أقصر الخلق أملًا، حتىٰ إنه قال: «ما لقمتُ لقمة وظننتُ أني أسيغها حتىٰ أُقبَض، ولا رفعتُ قدمًا وظننتُ أني أضعها حتىٰ أُقبَض»[2]، ومع ذلك لم يأمر أحدًا ينتظره إذا أراد الجماع، وكذلك لم يقع مثل ذلك لأحد من الصحابة أو التابعين مع شدَّة قصر أملهم، ولم يزل الأكابر يخفون الجماع والغسل منه عن غيرهم في كلِّ زمان.

والجواب: أن مثل ذلك من باب دفع أكبر المفسدتين بارتكاب أخفهما، ولا شك

---

(١) الغِرَارَةُ: وعاءٌ من الخيش ونحوه يوضع فيه القمحُ ونحوه.

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٠٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٨٠).

أن إعلام بعض محارمه بأمر جماعه وتخليصه من زوجته إذا ماتا بإرادة الله تعالىٰ أخف من اطلاع الأجانب من المغسلين وغيرهم، لا سيما إذا كثر موت الفجأة.

وقد وقع لشخص من أصحابنا ذلك في سنة أحد وستين وتسعمئة، فوجدوهما ميتين وفرج أحدهما في الآخر، فحصل بذلك لوث بهما، ثم إن شخصًا رأىٰ ذلك المجامع وقال: أما كان في أصحابي من يكتم عليَّ؟! حتىٰ جرستموني في مصر! انتهىٰ. ومن تلك الواقعة صار بعضهم يقول كلما أراد الجماع: «اللهم أمسك عليَّ روحي حتىٰ أفرغ من الجماع صدقةً من صدقاتك عليَّ يا أرحم الراحمين». انتهىٰ.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ علىٰ غلبة الشهوة للجماع مع غلبة قصر الأمل، وإن كان اجتماع هذين الأمرين غير ممكن عادة، فقد يجمعهما الله تعالىٰ لبعض عباده، كما يجعله فرِحًا حزينًا في آن واحد من وجهين مختلفين، وكما يجعله يشهد نفسه موجودًا معدومًا في آن واحد، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر تلامذته بأن يعترفوا له بكلِّ ذنب فعلوه في كلِّ يوم أو ليلة عند المساء والصباح، فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا أمر لم يفعله رسول الله ﷺ مع أصحابه، فأي دليل لهذا الشيخ علىٰ ذلك؟! بل كان الأولىٰ له لو ذكروا ذلك ابتداءً أن يزجرهم ويقول: هلّا سترتم نفوسكم، بأنه لا اعتراض علىٰ الشيخ في ذلك، لأنه طبيب المريد، والمريض إذا كتم مرضه عن الطبيب، غش نفسه وفاته الدواء، ودامت عليه زمانًا طويلًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد أجمع القوم علىٰ وجوب ذكر المريد مرضه للشيخ، ولا ينتظر المريد مكاشفة الشيخ له بمرضه، لأنه ليس من شرط الشيخ الاطلاع من طريق كشفه علىٰ ذنوب المريدين، لأن ذلك كشف شيطاني يجب علىٰ الشيخ التوبة منه فورًا لو وقع، إذ مرتبة الشيخ منزهة في الأصل عن رؤية عورات الخلائق، كما هو شأن الأنبياء والملائكة.

وأما قول المعترض: إن ذكر المريد مرضه للشيخ لا دليل عليه من السنة، ولم يبلغنا

أن الصحابة كانوا يخبرون رسول الله ﷺ بجميع ما يقع لهم؛ **فالجواب**: أن الصحابة كانوا محفوظين من المعاصي، ولو قُدِّر أن أحدًا منهم وقع في معصية، لأخبر رسول الله ﷺ بها، كما وقع لماعز والغامدية، فإنهما سألا رسول الله ﷺ التطهير لما وقعا في الزنا، مع أن أحدًا من الخلق لم يرهما حال الذنب، بخلافنا نحن لكثرة وقوعنا في الذنوب، فلو لم نذكرها للشيخ ليداوينا منها لهلكنا، والله أعلم.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: ينبغي لكلِّ مريد أن يعرض صحيفته علىٰ شيخه صباحًا ومساءً ليستغفر له، أو يشفع له فيها عند الله تعالىٰ، أو يدله علىٰ فعل الأعمال والأقوال التي تكفِّر تلك الذنوب، ليخفف عليه طول الوقوف للحساب بين يدي الله عزَّ وجلَّ في يوم تشيب فيه الأطفال. وقد أجمعوا علىٰ أنه ليس بين المريد وبين شيخه عورة ينبغي كتمها عنه إلا ما أمره الشرع بكتمه ككيفية الجماع ومقدماته.

وقد حكىٰ القشيري في باب «رؤيا القوم» من رسالته أن بعضهم رؤي بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي كلَّ ذنب أقررتُ له به إلا ذنبًا واحدًا، استحييتُ أن أتلفظ له به، فأوقعني في العرق حتىٰ سقط لحم وجهي. فقيل له: وما ذلك؟ فقال: نظرتُ مرةً إلىٰ أمرٍ بشهوة حال بدايتي.[1] انتهىٰ. فلو أن هذا الشخص كان ذكر ذلك لشيخه في دار الدنيا، لربما كان استغفر له، فقبل الله استغفاره أو علَّمه فعل شيء يكفر ذلك.

قالوا: لكن ينبغي للمريد أن يذكر لشيخه مرضه بينه وبينه لا علىٰ رؤوس الأشهاد، فإنه لا فائدة لذلك إلا هتك السريرة، وقد أمر الله تعالىٰ بالستر. هذا في مريد لم يقع له اتحاد بباطن شيخه، فإن وقع له اتحاد، كفاه شكوىٰ ذلك المرض له بقلبه من غير لفظ، فيجيب الشيخ سؤاله ويدله علىٰ دوائه، أو يشفع فيه ولو كان بينه وبين الشيخ بعد المشرقين.

ولا ينبغي للمريد أن يخاف من شيخه أن يزدريه إذا ذكر له مرضه؛ فإن الشيوخ لا تزدري أحدًا من العصاة، لنظرهم إلىٰ تقدير الحقِّ تعالىٰ الذي لا مرد له. وإن زجروا مريضًا فإن ذلك قيامًا بواجب الشرع من حيثُ الكسبُ، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة

(١) الرسالة للقشيري (٢/ ٥٦٦).

إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٦١١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا سأله أمير عن حال أحد من أقرانه، فنفَّره عنه، وذكر له بعض نقائصه، فلاث الناس به وقالوا له: هذا علامة علىٰ عداوته، بأنه قد يفعل ذلك محبةً في أخيه خوفًا عليه من الركون إلىٰ ذلك الأمير الذي لا يسلم من الظلم، فيدخل في الوعيد، وإن كان أخوه[1] صادقًا فهو يشكر فضله علىٰ تنفير ذلك الأمير عنه.

وقد وقع أنني خاصمتُ عبد الله بن بغداد بسبب ظلمه للعباد، فوقع بيني وبينه وقفة، فأرسل له أخي الشيخ أحمد القليتي المالكي يوبخه ويخوفه، وذكر له أمورًا يفتح له باب الاعتقاد في جانبي، فأرسلتُ للشيخ أحمد أقول: شكر الله تعالىٰ فضلك من حيثُ قصدُك، ولا تعد إلىٰ مثل ذلك، واحتط لأخيك في ذلك، فإنه أفضل. انتهىٰ.

وقد كان أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: مذهبي تنفير جميع الولاة في هذا الزمان عن صحبة أمثالنا لأمور يطول شرحها، إذ السلامة مقدَّمة علىٰ الغنيمة، بقرينة قول القوم: طالب الدنيا ليبر بها الفقراء والمساكين والأرامل تركك لها آثر وآثر.

فاعلم ذلك، ورغِّب الأمراء وغيرهم في صحبة أخيك بنية صالحة، ونفِّرهم عنه بنية صالحة، واحتط لأخيك وللأمير، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما ثم أحد من الأمة يعرف الله تعالىٰ أبدًا؛ فلاث به العلماء وقالوا: الإطلاق في محل التفصيل خطأ، لدخول الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وغيرهم في ذلك، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي إلا ليعرفوني، كما قاله ابن عباس، فلولا معرفتهم به ما صحت لهم عبادة، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فقد يكون مراده معرفة الكنه والحقيقة، ولذلك أجمعوا علىٰ أن كلَّ شيء خطر ببال العبد، فالله تعالىٰ بخلافه، وعلىٰ ذلك فما أحد عرفه ولا حضر معه ولا راقبه. وكان أبو سعيد الخراز رضي الله عنه

---

(١) بالأصلين: أخيه. والصواب نحويًا ما أثبتناه.

يقول: والله لا يعرف الله إلا الله. انتهىٰ.

وأما معرفة الله تعالىٰ بوجه من الوجوه، فلا منع من ذلك، كما أشار إليه التكبير أول الصلاة، فإن معناه: الله أكبر، أي من كلِّ ما يخطر ببالنا من وجوه المعارف، فالحقُّ تعالىٰ معروف غير معروف من باب «والعجز عن درك الإدراك إدراك». فاعلم ذلك، واحمل كلام الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حجَّ مريدُه أو مرض، فلم يسلِّم عليه حين رجع ولا حين مرض، ولا افتقده بشيء ينفقه علىٰ نفسه في مرضه، فلاث به الناس وقالوا: كان ينبغي للشيخ أن يجبر بخاطره ويرسل له ثمن الأدوية، لا سيما وهو يعرف فقره وضيق يده، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الشيخ بذلك، فربما قصد بعدم افتقاده في المرض تخليصه من الركون إلىٰ الخلق والاعتماد عليهم دون الله تعالىٰ، ليترقىٰ في مقام المحبة لله تعالىٰ، ويتوجه إليه في ضروراته وحده، فإن الحقَّ تعالىٰ لا يصطفي عبدًا وهو يركن إلىٰ غيره أبدًا.

وأما السلام علىٰ المريد إذا رجع من الحج فربما تركه الشيخ ليخلصه من العجب بمشي الشيخ إليه، فإن الواجب علىٰ المريد أنه هو الذي يذهب إلىٰ الشيخ إذا رجع من السفر، بخلاف غيره من أقرانه. ثم إذا وقع أن الشيخ أتىٰ للسلام علىٰ المريد فمن أدبه أن يذوب من شدة الحياء منه. ولما قدِمَ أبو حفص الحدَّاد[1] إلىٰ بغداد بدأ بالسلام علىٰ الإمام الجنيد قبل أن يدخل منزله الذي ينزل فيه، فلما انصرف تبعه الجنيد في الأثر، فقال له أبو حفص: يا أبا القاسم، إنما بدأت بالسلام عليك لئلا أتعبك! فقال: ذاك فضلك، وهذا حقُّك. انتهىٰ.

وزار سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله مرةً مريدًا له، فرأىٰ عنده عجبًا بذلك، فقال: يا

---

(١) الإمام القدوة الرباني، شيخ خراسان، أبو حفص عمرو بن سلم، وقيل: عمر، وقيل: عمرو بن سلمة، النيسابوري الزاهد، كان حدادًا، وهو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور. ذكر عند الجنيد فقال: كان رجلًا من أهل الحقائق. توفي: ٢٧١هـ. «السير» (١٢/ ٥١٠) و«النجوم الزاهرة» (٣/ ٦٦)

فلان، أنا ما خرجتُ بالقصد لزيارتك، وإنما جئتُ الحارة لحاجة، فقلتُ: أسلم على فلان. انتهى. فخلص المريد بذلك من العجب.

فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ على المحامل الحسنة، فإنهم أكرم منك نفسًا، وأكثر شفقةً على المسلمين، وإنما يتركون ذلك لمصلحة هي أولى من الإحسان والشفقة التي تعرفها أنت، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ردَّ هدية الحاج من تمر وطيب وسواك وشاشات وغيرها، فلاث به الفقراء وقالوا: كان ينبغي له أن يقبل التمر والسواك والطيب، لأن رسول الله ﷺ كره رد هذه المذكورات[1]، بأنه ربما كان من المتورعين، فنظر إلى اليد التي أهدت له ذلك، فرآها لا تتورع في شيء، وكراهة الرد إنما محلها في الحلال، أما الحرام والشبهات فلا كراهة، بقرينة قواعد الشريعة، فافهم.

وقد فعلتُ مثل ذلك في هدية حمزة الكاشف لما حج، فأخذتُ التمر والطيب والسواك على وجه التبرك، ثم رأيتُ في ذلك رؤيا، فما كنتُ إلا هلكتُ، فرددتُ ذلك عليه وقلتُ له: قد قبلناه ووهبناه لك، لتفرِّقه على الناس الذي يعتبون عليك. والحمد لله رب العالمين.

(٦١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يذكر الله تعالى بمجلس ذكر كلما ألقى درسًا في المسجد أو غيره، ولاث به بعض المجادلين وقالوا: هذا أمر لم نر أحدًا فعله من المشايخ الذين مضوا الذين هم أعبد منك وأورع وأعلم، وأكثروا عليه من القول حتى كأنه وقع في خطيئة، بأن هذا الشيخ لا ينبغي الإنكار عليه، بل الذي ينبغي الإنكار على من أنكر عليه، لأن بيوت الله تعالى بالأصالة ما وُضِعَت إلا لذكر الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦].

---

(١) لم أقف إلا على حديث كراهة رد الطيب أخرج البخاري (٢٥٨٢) من حديث ثمامة بن عبد الله قال: «دخلت عليه فناولني طيبًا. قال: كان أنس ﷺ لا يرد الطيب قال: وزعم أنس: أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب» والترمذي (٢٧٨٩).

وقد سبق شيخ الإسلام الشيخ الصالح البلقيني [إلىٰ] قراءة سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ لما درَّس في المدرسة الخشَّابية والشخونية، وتبعه العلماء علىٰ ذلك، وفي الحديث: «لا يجلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا علىٰ النبي ﷺ إلا كأنما تفرقوا عن جيفة»[1].

وفي مرائي الشيخ أبي المواهب الشاذلي رحمه الله أنه قال: رأيتُ النبي ﷺ في المنام، فقال لي: يا محمد، إذا ألقيتَ درسًا في علم من العلوم، فلا تنصرف حتىٰ تذكر الله تعالىٰ ولو عشر مرات. فلم يزل أبو المواهب علىٰ ذلك حتىٰ مات.

ومن المعلوم بين القوم أن جميع المأمورات ما شُرِعت بالأصالة إلا ليناجي العبد فيها ربَّه ويشاهده فيها، فلو أن طلبة العلم قدروا علىٰ أن يحضروا في حال قراءتهم وجدالهم مع الله تعالىٰ، لكان ذلك ذكرًا لله تعالىٰ، ولم يحتج الشيخ إلىٰ مجلس ذكر عقب ذلك. فاعلم ذلك، ولا تجادل إلا في إبطال شيء تكرهه، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول كلما قُدِمَ إليه طعام: اللهم إنك تعلم عجزي عن رد أقدارِك النافذة فيَّ، فإن كنتَ تعلم أن في هذا الطعام شبهة، فاحمني من الأكل منه. وإن قدَّرتَ عليَّ الأكل منه، فلا تجعله يقيم في بطني، بل يخرج بالقيء. وإن جعلته مقيمًا في بطني، فاحمني من وقوع المعاصي الناشئة منه. وإن لم تحمني منها فمُنَّ عليَّ بالتوبة الخالصة علىٰ الفور. وإن لم تمُنَّ عليَّ بالتوبة، فمُنَّ عليَّ بحسن الظنِّ فيك. وإن لم تمُنَّ عليَّ بحسن الظن، فنجني من النار. وإن لم تنجني منها، فصبرني علىٰ العذاب صدقةً منك عليَّ يا أرحم الراحمين[2]؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا تعنت، ويكفي العبد المشي علىٰ ظاهر الشرع، فما حكمت الشريعة بحله أكل منه، وما حكمت

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٣٨٠) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا علىٰ نبيهم، إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم» وابن حبان (٥٩٠) والنسائي (٥٧٧٢).

(٢) وكان ذلك من دعاء الشيخ علي الخواص، كما مر في الجواب (٤٠٢).

بحرمته أو شبهته، امتنع منه وجوبًا في الحرام، وندبًا في الشبهات، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ في هذا الدعاء، لأنه من باب التفويض إلىٰ الله تعالىٰ والخروج عن الحيلة والتدبير، وهو من الاستبراء للدين المشار إليه بقوله ﷺ: «فمن اتقىٰ الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه»[1]، ولا يتوقف في مثل ذلك إلا جافي الطبع.

ولم أزل بحمد الله أفعل بذلك في طعام المباشرين[2]، وفي طعام كلِّ من لا يتورع في مكسبه عادةً، فتارةً يحميني الله تعالىٰ من الأكل، وتارةً يطلع بالقيء، هذا كلُّه في طعام أتانا بشهوة وميل واستشراف نفس. أما ما أتانا من حيثُ لا نحتسب بغير تمنٍ وبغير سؤال ولا تعب، فلا ينبغي التوقف فيه، بل هو بقية الله الذي قال الله تعالىٰ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦]، فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الفقراء بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا قدَّم لضيفه الكسر اليابسة حافًّا أو مع الملح، وعنده العسل النحل والجبن والطعام المطبوخ باللحم، فلاث به بعض الفقهاء وقال: قد أمر الشارع بإكرام الضيف وتفكيهه بالطعام الزائد علىٰ حكم العادة، بأن هذا الشيخ ربما رأىٰ أن الطعام اللذيذ ينقِص مقام ضيفه، فأخرج له ما لا ينقِص مقامه. وقد يكون من أهل الكشف، فرأىٰ أن لا نصيب للضيف في ذلك العسل أو الطعام، وقد يكون ذلك قُسِم له، ولكن لا يجد نيةً صالحةً فيه، أو كان في شهر رمضان، فإن من أطعم ضيفه فيه الشهوات، فقد أساء إليه من حيثُ يظنُّ أنه أحسن إليه. فاعلم ذلك، واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، فإن لهم معاملة مع الله تدق علىٰ مثلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جاءه ضيف في الشتاء، فلم يخرج له غطاءً مع قدرته عليه، ونوَّمه في البرد، فلاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه إخراج الغطاء؛ لأنه من حقِّ الضيف كالطعام، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، لأن الشيخ حكيم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) المباشر: هو الموظف الإداري في الدولة المملوكية.

الزمان، فربما خاف عليه أن يترك قيام الليل إذا دفيء، فقصد من نومه في البرد أن يكون استيقاظه أكثر من نومه، ليصلي أو يذكر الله ويستغفره أو يراقبه ونحو ذلك. وإن غضب الضيف منه في الدنيا سوف يرضىٰ عنه في الآخرة ويشكر فضله.

وكان سيدي محمد بن عنان لا يخرج للضيف غطاءً ولا وطاءً إلا إن وثق بنشاطه، وكذلك كان لا يخرج له طعامًا كثيرًا إذا عرف أنه أكول إذا وجد الطعام، بل يخرج له رغيفًا أو رغيفين ويقول: من أخرج للأكول طعامًا كثيرًا، أساء في حقه.

وكان سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: إذا خاف الإنسان من وقوع الضيف في عرضه إذا لم يخرج له غطاءً أو وطاءً أو طعامًا كثيرًا، فمن العقل إجابته لما طلب بالقرائن، ولا حرج علىٰ المضيف حينئذٍ عند الله إن شاء الله تعالىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي باع عبدًا أو بهيمةً أو ثوبًا أو غير ذلك وقال: لا أبيع ذلك إلا لشخص لا يعصي الله تعالىٰ فيه أو به؛ فلاث به الفقراء وقالوا: هذا فيه تزكية للنفس، كأنه يقول: لا أبيعه إلا لمن لا يعصي الله تعالىٰ مثلي، أو لا يعصي بسببه ولا فيه مثلي، بأنه لا يلزم من وصيته هذه أن يرىٰ نفسَه سالمةً من المعاصي، وإنما مراده الوفاء بحقِّ ذلك العبد أو الدابة أو الثوب مثلًا، بقطع النظر عن تزكية نفسه هو، فإن الحيوانات والثياب تفتخر بمن تقيم عنده كما تفتخر البقاع.

وقد بعتُ مرةً جبتي لإنسان من التجار، فتطورت وجاءتني في النوم وقالت: جزاك الله خيرًا عني في بيعي لهذا العبد الصالح الذي لا ينام من الليل إلا قليلًا. ووقع لأخي أفضل الدين ضد ذلك، فجاءته في المنام وقالت له: قد بعتني لشخص لا يغتسل من جنابة ولا يصلي في الليل ركعة! فاعلم ذلك، ولا تتوقف فيه، **فإن جميع الجمادات حيَّةٌ عند أهل الكشف**، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دُعِي إلىٰ وليمة، فاستعار له ثيابًا حسنة ولبسها، وسرَّح لحيته ولف عمامته لفًّا جيدًا، فلاث الناس به وقالوا: الفقير لا

يبالي بما لبس، وإذا دُعِي إلىٰ وليمة خرج بهيئته من غير تغيير هيئته، وإنما يعتنىٰ بتغيير الهيئة في مثل أبناء الدنيا والأطفال. وقد رأينا الأشياخ الذين أدركناهم يخرج أحدهم إلىٰ الوليمة بجبته المخرَّقَة، ويكون فيها أفخم[1] من جميع من حضر، ولكن قد ذهب الصالحون وما بقي إلا الاسم. وقد كان الفضيل بن عياض يقول: لو قيل لي إن أمير المؤمنين داخل عليك، فسويتُ لحيتي بيدي لقدومه، لخفتُ أن أُكتَب في جريدة المنافقين. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ وحمله علىٰ الأغراض النفسانية، فقد يريد بلبسه الثياب الفاخرة التي استعارها إدخال سرور علىٰ صاحب الوليمة حين علم منه محبة الجمال في الملبس، والغم من رؤية الثياب الدنسة المخرَّقة، لا سيما والناس عادة يتجملون بأهل الثياب الجميلة في الولائم، ولذلك يردون من يرون ثيابه دنسة ويمنعونه من الدخول.

والأمر في مثل ذلك دائر مع النية الصالحة، وقد كان ﷺ إذا قدم عليه وفد يلبس أحسن ثيابه[2] ويتعمم وينظر عمامته في حُبِّ[3] الماء[4]، ويأمر أصحابه كلَّهم بحسن الهيئة، جبرًا لخاطر الوفد الذي قدم عليه وإيناسًا له، ولذلك كان جبريل عليه الصلاة والسلام ينزل في صورة دِحْية[5]، وكان من أجمل الناس في عصره، كأن لسان الحقِّ جلَّ وعلا يقول: «ما بيني وبينك يا محمد إلا الجمال والملاطفة والأنس والمحبة».

---

(١) بالأصلين: أضخم. والصواب ما أثبتناه.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٥٨)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢/ ٥٨٤)، وفي البخاري (٨٨٦) أن عمر ﷺ رأىٰ حلة سيراء عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله لو اشتريت هذه، فلبستها يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك.

(٣) الحُبُّ: وعاءُ الماء.

(٤) تسويته ﷺ عمامته والنظر في حب الماء، عزاه العراقي في تخريج الإحياء لابن عدي في «الكامل». انظر «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٠٠).

(٥) جزء من حديث أخرجه النسائي (٤٩٩١) وأحمد (٥٨٥٧) والطبراني في «الكبير» (٧٥٨).

وقد كان أخي أفضل الدين إذا علم أن طعام الوليمة حلال يستعير له ثيابًا حسنة، ويخلع جبته ويذهب، فقالوا له في ذلك، فقال: طعام حلال، وخفتُ أن يردوني عنه إذا رأوا عليَّ جبة، فعملتُ الحيلة على الوصول إليه.

وقد روى مالك بن أنس رحمه الله بلاغًا أن أبا هريرة رضي الله عنه دُعي إلى وليمة وعليه ثياب دون[1]، فمُنِعَ ولم يُؤذَن له في الدخول، فذهب ولبس ثيابًا جيدة ثم جاء، فأذنوا له، فلما وضعوا بين يديه ثريدًا وضع كمَّه عليه، فقيل له: ما هذا يا أبا هريرة؟! فقال: هي التي أُدخِلَت، وأما أنا فلم أدخل فرَدُّوني إذ أنكروا عليَّ، وقال: قد ذهب حِبي رسول الله ﷺ ولم يقبل من هذا الطعام شيئًا، وبقيتم بعده تهديون- أي تقطفون- ثمرة أعمالكم في الدنيا[2] من باب «ومنهم من أينعت له ثمرته فهو يَهدِبها»[3]. نقله الشيخ شمس الدين التتائي المالكي[4] في شرحه للمختصر[5] في باب الوليمة. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ على المحامل الحسنة والمقاصد الجميلة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يخص الأغنياء بطعامه وثيابه وغير ذلك، ويكثر من الهدية لهم دون الفقراء، ولاث به جماعته وغيرهم وقالوا: إنه يفعل ذلك لغير وجه الله عزَّ وجلَّ، ولو أهدى ذلك لفقير أو مسكين أو يتيم أو أرملة، لكان أفضل، بأنه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار حتى تستفهمه عن ذلك، فربما كان ذلك لحكمة، كأن رأى في ذلك مصلحة ترجح على إهدائه ذلك للفقراء والمساكين، أو قصد بعدم الإحسان

---

(١) أي دون مقامه أو دون القادمين للدعوة.

(٢) ذكر القصة الحطاب الرعيني في مواهب الجليل شرح مختصر خليل (٤/ ٤).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري لكن قال: ومنا من أينعت... (١٢٧٦).

(٤) قاضي القضاة أبو عبد الله شمس الدين محمد بن إبراهيم التتائي. أقام بمدرسة الشيخونية بمصر، تخلى عن القضاء وتصدر للتأليف والإقراء، شرح الرسالة شرحًا حافلًا. توفي: بعد ٩٤٢هـ رحمه الله تعالى. «شجرة النور الزكية» (١/ ٣٩٣) و«نيل الابتهاج بتطريز الديباج» (٥٨٨).

(٥) «مختصر خليل» في الفقه المالكي.

إلىٰ الفقير إدخار أجر مثل ذلك للآخرة، وليناله أجر الصبر علىٰ الجوع والعري، وذلك أفضل للفقير، اللهم إلا أن يجد عند الفقير ضجرًا وقلة صبر، فينبغي تقديمه علىٰ الغني. [وربما أدىٰ كشفه أن الله لم يكتب علىٰ][1] الفقير شيئًا هو محتاج إليه، فلا يعطيه شيئًا. والفقراء الكُمَّل علىٰ الأخلاق الإلهية، فربما أدَّىٰ كشف الشيخ إلىٰ أن جميع طعامه وثيابه ليس للفقراء فيها نصيب، فكيف يصح له أن يعطيهم ما لم يقسمه الله تعالىٰ لهم؟! وفي الحديث القدسي: «إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، ولو أغنيته لفسد حاله. وإن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنىٰ، ولو أفقرتُه لفسد حاله»[2].

وأما حديث: «شر الطعام طعام الوليمة»[3] إلىٰ آخره، فالمراد به من يدعو الناس بغير كشف. أما من كُشِفَ له أن الفقراء ليس لهم في طعامه نصيب، فلا يدخل في ذلك. فافهم واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة دون الأغراض النفسانية، لتسلم من الإثم العظيم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سلَّم علىٰ الحجاج وبدأ بطلبة العلم دون أقرانه من أهل الطريق، فلاث به الناس وقالوا: كان الأولىٰ له البداءة بأهل الطريق، فإن طلبة العلم الذين بدأ بهم لا يصلح أحدهم أن يكون مريدًا لهؤلاء الأشياخ، ولكن عدو المرء من يعمل بعمله، ونحو ذلك من الاعتراضات، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا العالم أو الشيخ في تقديمه السلام علىٰ بعض طلبة العلم دون الأشياخ الذين حجُّوا في تلك السنة، فربما كان ذلك لمصلحة تعود علىٰ طالب العلم، كأن يخاف الشيخ عليه من الوقوع في غيبته وفي أهل الطريق، فبدأ به حفظًا له عن الوقوع في الغيبة. وأما أقرانه من أهل الطريق فهو منهم في أمان، فلذلك أخَّرهم.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا ينبغي لشيخ الزاوية أن يقصِّر في

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) جزء من حديث أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ١٤) والبيهقي في «الأسماء والصفات»(٢٣١).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥١٧٧) ومسلم (١٤٣٢).

حقِّ أحد من طلبة العلم، كأن يمرض فلا يعوده، أو يأتي من سفر الحجاج فلا يسلم عليه، لأن علم أحدهم ربما كان موضوعًا في نفسه، فلا يزداد بالعلم إلا كبرًا، بخلاف من كان علمه موضوعًا في روحه، فإنه لا يزداد بكثرة العلم إلا تواضعًا. انتهىٰ.

وقد وقع لي أنني أخرتُ السلام علىٰ بعض طلبة العلم حين جاء من سفر الحجاز، فمزَّق عِرْضِي في الآفاق، وصرتُ أعتذر إليه وهو لا يقبل عذري، وذلك في سنة اثنين وستين وتسعمئة، سنة حمزة الكاشف، مع أن حمزة هذا الذي هو أمير الحج أول ما دخل مصر، بدأ بالسلام عليَّ قبل دخوله إلىٰ داره، فتأمل يا أخي تجد أمير الحج أكثر تواضعًا من هذا الطالب، فإنه بدأني ولم يدخل بيته وينتظرني، ولو أنني تخلفتُ عن السلام عليه لم يعتب عليَّ. فاعذر يا أخي الشيخ إذا بدأ بزيارة أصحاب الأنفس الغوية، فإنه معذور من وجوه، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرد ما يأتيه من مال الولاة وما يعرضونه عليه من الوظائف، وتميز بذلك عن جميع أقرانه، ولاث الفقراء به وقالوا: كان الأولىٰ له أن يقبل ذلك مثل إخوانه، ثم يعطيه للمحتاجين إلىٰ مثله ليدخل في غِمار الناس، وقد قالوا: من أدب الفقير أن يقوي نور إخوانه ويطفيء نور نفسه، بأنه ربما كانت نيته بذلك صالحة، فإن عدم الرد لا ينبغي إلا إذا كان في الناس بقية من الورع والزهد، وأما إذا تمادوا كلُّهم في الأخذ، فلا ينبغي للشيخ أن يوافقهم، فيميت سنة القوم كلَّها، ويهدم أركان الورع، فكأن في رده لذلك المال إحياء سنة السلف الصالح. ثم إن لزم من ذلك إطفاء نور غيره، فذلك لا يقدح في دينه، لأنه حصل باللازم لا بالقصد، ولازم المذهب ليس بمذهب علىٰ الراجح.

وأيضًا فربما كان يرد ويسأل الله تعالىٰ أن يستره بين أقرانه فلا يميزه عنهم بذلك، كما عليه أكابر الفقراء، فيعمل أحدهم الأعمال الصالحة التي لا يصل إليها أحد من أقرانه، ومع ذلك لا يكاد أحد يشعر بها، فيخرجون من الدنيا وأعمالهم كاملة موفرة لم ينقص منها شيء، فلا اعتراض علىٰ الشيخ الذي يرد المال ويتميز به عن الأقران، إلا إذا كان قصده بذلك التمييز علىٰ الأقران، لا الخوف من الله تعالىٰ، ومن أين لأحد الاطلاع

علىٰ هذه النية؟! فاعلم ذلك، وعظِّم كلَّ من رد الأموال والطعام والثياب من الفقراء، واحمله علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في خراب دار أحد من الولاة، ولاث الناس به وقالوا: ليس هذا من شأن الفقراء، إنما شانهم أن يدعوا للناس بالإصلاح، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الفقير، فربما رأىٰ من طريق كشفه أنه لا يطهر ذلك الظالم إلا الموت أو العزل من ولايته.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: من أدب الفقير أن يدعو للأمير الذي يشفع عنده بالهداية والتوفيق والكف عن الظلم، وذلك ليكون رحمةً علىٰ الأمير لا عذابًا عليه. ثم إذا استوفىٰ ذلك الأمير جميع ما قدَّره الله علىٰ يديه من مظالم العباد، فليشفع فيه عند الله تعالىٰ، ليسامحه بتبعات الخلائق التي عليه، فإن لم تُقبَل شفاعته، فليدع عليه بالموت أو العزل، لكن بعد حصول التوبة أو العقوبة التي تكفِّر ذنوبه أو تخففها، ليلقي ربَّه ذلك الأمير وهو قليل الذنوب، فهذه فائدة صحبة الفقير للأمير.

وكان ﷺ إذا أراد خراب ديار أمير قد ظلم العباد والبلاد، يلبس مرقعة وعمامة من شراميط[1] الكتان، ويذهب لذلك الأمير الذي أراد الله تعالىٰ خراب دياره علىٰ يديه، ويُغلِظ عليه القول الذي لا يكلمه له إلا من هو أعلىٰ منه، فيبادر الأمير إلىٰ ضربه وإخراجه وازدرائه، فينفذ سهم الله فيه في ذلك اليوم، فيصير يصيح من وجع جنبه أو نفخ بطنه، أو يقع من فرسه، فتندق عنقه فيموت. ويحكي مثل ذلك عن سيدي إبراهيم المتبولي. انتهىٰ.

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك مع صاحبي الأمير محمد بن بغداد ﷺ، كنتُ أشفع عنده في المظلومين، فزادت مظالم العباد عليه، ورأيتُ عجزه عن القدرة عليها، فسألتُ الله تعالىٰ أن يشنقه محبةً فيه وتطهيرًا له! فكان الأمر كذلك، فالله تعالىٰ يرحمه رحمة واسعة.

ومن تأمل وجد الولاة في هذا الزمان كالتماسيح الهائجة علىٰ أكل السمك، والفقير

---

(١) شراميط: حمع «شرموطة»، وهي كلمة عامية تعني الثوب البالي الممزق.

الذي يصحبهم يقول لأحدهم: لا تأكل هذه السمكة، ولا هذه السمكة، ولا هذه السمكة؛ فلا يرضي التمساح أن يطيعه ويترك أكل السمك جميعًا، فيموت جوعًا، ولا يمكن الفقير أن يرجع عن نصحه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر؛ لأن الشريعة لا تعذره في أكله أموال الناس بالباطل، وحينئذٍ يتوجه الفقير إلىٰ الله تعالىٰ في التخفيف عنه بالموت، كما يهوّن القصَّاب[١] علىٰ البهيمة التي اشتد مرضها، فيذبحها إراحةً لها من الألم.

فعُلِمَ أنه ليس في توجه الفقير في موت ظالم جناح؛ لأنه لا يتوجه فيه إلا إذا علم من طريق كشفه انتهاء أجله، خلاف ما يتبادر إلىٰ أذهان العامة من أنه قطع علىٰ الظالم عمره، ولو أنه لم يتوجه فيه لعاش زمنًا آخر، **فليس في توجه الفقير إلا موافقة قدر**، وكذلك القول في كل من قتل، وما افترق الناس إلا من حيث إنه مأذون للقاتل في ذلك أو غير مأذون، لأجل إقامة الحدود، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا له: كيف يكون الرياء أفضل من الإخلاص؟! لأنه يرجع إلىٰ أن بعض المعاصي أفضل من [بعض][٢] الطاعات[٣]، وهو مخالف لقواعد الشريعة، فإن جنس الطاعات أفضل من جنس المعاصي بيقين.

والجواب: أن مراد هذا الشيخ أن العارف بالله لا يصح له أن يرىٰ العمل له دون الله تعالىٰ، كما أنه لا يصح له أن يراعي الخلق في عبادته، وإنما هو يراعي معية الحقِّ تعالىٰ لهم بحكم الإيمان، فصورته صورة من يرائي الخلق، والحال أنه إنما يرائي الحقَّ تعالىٰ من باب حديث: «أروا الله من أنفسكم خيرًا»[٤] ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة: ١٠٥].

---

(١) القصاب: الجزار.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بالأصلين: المعاصي. والصواب ما أثبتناه.

(٤) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٢٣٨) والخلال في «المجالس العشرة» (٦٦) والشاشي في «المسند» (١٢٢٤)

وفي كلام أبي القاسم الجنيد ﷺ: إذا قُرِنَ الحادث بالقديم، لم يبق للحادث أثر. انتهىٰ. وفوق هذا مقام آخر أرفع منه، وهو أن يقرن الحادث بالقديم، ويثبت كل واحد في مرتبته الوجوبية أو الإمكانية، ويرائي السرَّ القائم بالحادث لا الحادث، فترجع المراءاة[1] في شق الحادث إلىٰ الله تعالىٰ لا إلىٰ ذلك الحادث، وهذا الرياء بيقين أفضل من إخلاص المريدين، لأن المريد غاية أمره أن يخلص الفعل الواقع علىٰ يديه من الشوائب، ويرىٰ أن الفعل له، وأنه أهداه من عنده إلىٰ ربه، وأين هذا ممن يرىٰ الفعل لله وحده لا يرىٰ لنفسه شركة فيه؟! ولا يرىٰ أنه أهدىٰ لربه شيئًا، لأن العبد وما يملكه لسيده.

فكلام الشيخ عما فهمه المعترض عليه بمعزل. ويؤيد ذلك قول القوم: ذرة من عمل العارف أفضل من أمثال الجبال من عمل المريد. والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا تقدموا في الصلاة علىٰ جنائزكم إلا من كان سيء الظن بالميت دون من كان حسن الظن من الصالحين والعلماء العاملين؛ فلاث الناس به وقالوا: هذا مخالف لما عليه السلف والخلف من تقديم من كان أعلم وأصلح وأشفق، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ حتىٰ تستفهمه عن مراده، فربما يكون قصده أن من كان سيء الظن بالميت يطلع علىٰ ذنوبه أكثر ممن كان حسن الظن به غافلًا عن التجسس علىٰ عيوب الناس، بل ربما أن حسن الظن لا يطلع له علىٰ ذنب مطلقًا، فيكون دعاؤه له بالمغفرة خِدَاجًا[2] كدعاء الشبعان الذي عنده ألف رغيف بأن الله تعالىٰ يرزقه رغيفًا زائدًا علىٰ الألف، بخلاف من اطلع علىٰ ذنوب الميت، وحمل همَّه، فإنه يدعو له بقلب وشدَّة عزم.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: لا ينبغي أن يتقدم في صلاة الجنازة إلا من اطلع علىٰ ذنوب ذلك الميت إما من طريق كشفه، وإما من طريق مخالطته، وإما من طريق سوء الظن به، وذلك ليدعو للميت بمغفرة ذنوبه علىٰ التعيين لا علىٰ الإجمال،

---

(١) بالأصلين: زيادة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الخِداجُ: النقصان.

وإن كان الحقُّ تعالىٰ قد يجيب الصالح إلىٰ مغفرة جميع ذنوب ذلك الميت، وإن كان دعاؤه إجمالًا. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن المصلي علىٰ الجنازة شافع لها، وكلما عرف ذنوبها علىٰ التعيين، اشتد كربه عليها، وتوجه إلىٰ الله تعالىٰ بقوة وعزم كالمضطر، فيجيب الله تعالىٰ دعاءه. وأما سيء الظن فإنه يقيس الميت علىٰ نفسه، فيدعو للميت مع تخيل ذنوبه التي قاسه فيها علىٰ نفسه.

وهذا لا ينافي ما قاله العلماء من تقديم الصالح علىٰ غيره في صلاة الجنازة مطلقًا، لأن الصالح علىٰ قسمين: قسم يطلعه الله تعالىٰ علىٰ زلات الميت؛ وقسم لم يطلعه، ولا شك أن من أطلعه علىٰ زلات الميت أولىٰ من جهة صلاحه، ومن جهة معرفته بذنوبه من طريق كشفه، أو من طريق مخالطته، ليدعو له علىٰ التعيين.

وقد قدَّموا أخي أفضل الدين ؒ ليصلي علىٰ جنازة، فقال: قدِّموا غيري لأني لا أعرف لهذا الميت ذنبًا أدعو له بمغفرته. فقالوا له: قد صلَّىٰ الصحابة علىٰ رسول الله ﷺ وليس له ذنب، وعلىٰ الطفل خلف رسول الله ﷺ ولم يذنب، فصلِّ وادع للميت برفع الدرجات. فقال: لا يصلي علىٰ الميت عادة إلا من كان طاهرًا قلبه وبدنه، لأنها شفاعة، وأنا [غير][1] طاهر القلب، فقدِّموا غيري يصلي. انتهىٰ.

فإن قيل: إن سيء الظن عاصٍ بذلك، فكيف يُقدَم؟! **فالجواب**: أن مرادنا أنه كان سيء الظن فيما مضىٰ. وأما وقت صلاته علىٰ الميت فإنما هو في اعتبار وحزن وبكاء، فكأن سوء الظن محي من قلبه، فما قلنا: إن سيء الظن تقدم إلا من حيثُ إنه كان يتجسس علىٰ أحوال الميت غالبًا، فصار يشفق عليه لما لعله يتخيله من ذنوبه، وإن كان تجسسه علىٰ ذنوبه في الأصل حرامًا.

فاعلم ذلك، واحمل الصالحين علىٰ المحامل الحسنة، وتأمل حال القوم وغيرهم، فأين من يقيم الأدلة علىٰ أنه أفضل ليقدموه ممن يقيم الأدلة علىٰ أنه مفضول ليؤخروه؟! والحمد لله رب العالمين.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٦٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حضر وليمة، فصار يقوم للعوام ولا يقوم للعلماء وأشياخ الطريق، فلاث الحاضرون به وقالوا: في هذا إزراء للعلماء وأشياخ الطريق في هذا المحفل العظيم، بأنه قد يكون ممن أطلعه الله تعالىٰ علىٰ مقامات العباد عند الله عزَّ وجلَّ، كما كان سيدي ياقوت العرشي ﷺ. وربما كان سبب عدم القيام للعلماء والأشياخ ظنه فيهم أنهم يتكدرون ممن يقوم لهم في المحافل تواضعًا لله عزَّ وجلَّ، كما هو الغالب علىٰ العلماء العاملين، وقياسًا علىٰ نفسه هو، إذ كان يتكدر ممن يقوم له، وإنما قام للعوام لما هو الغالب عليهم من محبة التعظيم، فأراد بقيامه لهم تمييل قلوبهم إليه، ليصير يسارقهم بالمواعظ ونحو ذلك.

وقد يكون ذلك العاصي الذي قام له أكثر أدبًا مع الله تعالىٰ من ذلك العالم الذي لم يقم له، بحسب ما شهد هذا الشيخ من كلٍّ منهما، فإن العالم لا يرفع درجته إلا العمل بما علِم، وأما إذا لم يعمل فالعامي الذي يعمل بما علم أعلىٰ مقامًا منه وإن كان علمه قليلًا. وقد روىٰ الغزالي في «الإحياء» مرفوعًا: «قليل من التوفيق خير من كثير العلم». وفي رواية: «من العقل»[1]. انتهىٰ.

واعلم يا أخي أنه لو كانت النجاة بمجرد حمل العلم من غير عمل به لما ورد الوعيد، ولا كان من لا يعمل بعلمه أول من تسعر به النار[2].

وقد كان شخص من جبلية الوادي ينام عندنا في الزاوية، ثم انقطع وسكن في مخزن في الحارة، فقلتُ له: أوحشتنا يا فلان. فقال: ما فارقتكم إلا لعذر. قلتُ له: وما هو؟

---

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً، وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء وقال العقل بدل العلم ولم يخرجه ولده في مسنده. انظر: «تخريج أحاديث الإحياء» (٤١). قلت: وهو عند ابن عساكر عن أبي الدرداء بمثل ما في الفردوس مع زيادة في آخره. انظر «تاريخ دمشق» (٦٠/ ٣٤٩).

(٢) أخرج مسلم (١٩٠٥) في حديث أول من يقضىٰ بينهم يوم القيامة عن أبي هريرة «ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قاريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار.....» والترمذي (٢٣٨٢).

فقال: سمعتُ شخصًا من العميان يخرج ريحًا في المسجد وهو نائم، فخفتُ أن يخرج مني كذلك ريح وأنا نائم في بيت الله تعالىٰ، فأخذتُ لي مكانًا خارج المسجد، خوفًا من خروج الريح في المسجد. انتهىٰ. وهذا الأمر قلَّ أن تجده في حملة القرآن والعلم، بل ربما يخرج أحدهم الريح مرارًا عامدًا في اليقظة، ولا يعد ذلك ذنبًا. ومعلوم أن علوَّ مقام العبد عند الله إنما هو بكثرة تعظيمه له، وفي الحديث: «من أراد أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد حيث أنزله من نفسه»[1]. انتهىٰ.

ومما وقع لي أيضًا مع الحاج علي المنوفي أنه دخل عليَّ يومًا، فرأىٰ سبحتي الكبيرة علىٰ الحصير، فقال: ارفعها عن موضع الأقدام أدبًا مع أسماء الله التي تذكرها عليها؛ فجعلتُ لها مسمارًا في الحائط وعلقتُها من ذلك اليوم، فعلمتُ بذلك مقامه في الأدب مع الله تعالىٰ وتعظيمه له، مع أنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وكم رأىٰ سبحتي هذه خلائق من العلماء الذين يدخلون عليَّ ولم يهتدوا لما قاله الحاج عليٌّ هذا ولا أنا كذلك، مع أني أراها علىٰ الحصير ليلًا ونهارًا، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينثر الدراهم أو الفاكهة في صحن زاويته للفقراء إذا أتته من أحد من الأغنياء مثلًا، فيتبادر الفقراء إلىٰ التقاطها ويزدحمون علىٰ ذلك، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا من قسم النُّهبة التي نهىٰ عنها رسول الله ﷺ[2]، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ جعل ذلك من قسم النهبة، فربما ازدحموا علىٰ ذلك ولم يؤذِ بعضهم بعضًا، بل هم منشرحون يتبسمون، فزالت علة النهي.

وربما كان قصد الشيخ بنثر الدراهم وغيرها بين الفقراء معرفة من عنده شراهة نفس، ومن عنده قناعة وشبع نفس، ليبني علىٰ كلٍّ مقتضاه، ويداوي صاحب الشراهة أو يؤدبه علىٰ ذلك بما يراه، وهذا غرض صحيح، لأن للشيخ امتحان المريدين ليظهر ما كان في

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم (١٨٢٠)، وأبو يعلىٰ الموصلي (١٨٦٥) والطبراني في «الأوسط» (٥٢٥).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٧) عن عمران بن الحصين «أن رسول الله ﷺ قال: من انتهب نهبةً، فليس منا» والنسائي (٣٣٣٥) وابن حبان (٣٢٦٧) والدراقطني (٤٨٣١).

سرائرهم من محبة الدنيا أو الزهد فيها، وقد قالوا: كلما خبث الزمان احتاج الشيخ إلىٰ شدة الامتحان لأصحابه، ليخرج أضغانهم ويبادر إلىٰ تطهيرهم من خبيث الأخلاق.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ في نثر الدراهم، لأنه لغرض صحيح، ولعدم وجود الازدحام الذي يؤذي به بعضهم بعضًا إما حياءً من الشيخ، وإما لغير ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: نحن قوم لا تقليد عندنا إلا لله ثم لرسوله فقط؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا يدعي الاجتهاد المطلق، ووقعوا في عرضه، بأنه لا ينبغي لأحد الاعتراض عليه، لأنه قد يكون ممن حق له قدم الولاية المحمدية، فإن من لازمه انفكاك قلبه من تقليد المجتهدين، ويصير يأخذ الأحكام من حيثُ أخذها المجتهدون، ثم يترقىٰ فيما هو أعلىٰ من ذلك، وهو علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، كما هو مشهور بين القوم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ؒ يقول: العارف ليس مقلِّدًا ولا صاحب دليل، بل مقامه الكشف الصحيح المطابق لما في نفس الأمر، فهو ملحق بالكتاب والسنة. وسمعتُه مرةً يقول: إذا بلغ المريد مقام الاجتهاد المطلق، فقد صار مستقلًا، واستغنىٰ عن الاستمداد من شيخه. ففي ذلك إثبات مقام الاجتهاد للمريد. ونقل الشيخ محيي الدين بن العربي في ذلك إجماع القوم.

فإن قال القائل: إن سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي كان حنبليًّا، وسيدي الشيخ محمد الحنفي كان حنفيًّا، وقد بلغا درجة القطبية فيما اشتهر؛ **قلنا:** إنما اشتُهرا بذلك قبل الكمال، [فلما بلغا مقام الكمال][1] استصحب الناس ذلك عليهما، ولا يتوقف في ذلك إلا من لا علم له بأهل الطريق. وإنما كان الشيخ عبد القادر يدرِّس الناس في مذهب الإمام أحمد، والشيخ محمد الحنفي في مذهب الإمام أبي حنيفة إجابةً لسؤال المقلِّدِين لهما، ولو أنهم طلبوا منهما مذهبهما لدرساهما فيه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ساقط من «ب».

(٦٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: عظِّموني كما تعظمون أكبر ملوك الدنيا؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا مخالف لطريق الصالحين، فإنهم كلَّهم متواضعون يرون نفوسهم من أحقر الناس، بأنه لا ينبغي اللوث به، لأنه ما أمر أصحابه بذلك إلا تعظيمًا للطريق لا لنفسه، فربما كان يرىٰ الشيخُ نفسَه دون الخلق أجمعين.

وإيضاح ذلك أن مبتدأ مقام الفقراء أعلىٰ من نهاية الملوك، فإن من شرط المريد الزهد في الدنيا التي رغب فيها الملوك، فهو أعلىٰ مقامًا عند الله من هذه الحيثية، وإن كان الملوك فَضَلوه من جهة كونهم سببًا لنظام العالم وتنفيذ أحكام الشريعة، فافهم. وقد كان الجنيد يقول لمن يريد صحبته: اذهب فاخدم الملوك وتعلم آدابهم ثم تعال، فإن غاية أدب الملوك هو مبتدأ الأدب مع القوم. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: أقل ما يلزم المريد من احترام الشيخ أن يكون في عينه كأعظم ملوك الدنيا، فلا يلبس له ثوبًا ولا نعلًا، ولا يتوكأ له علىٰ عصا، ولا يسبِّح له علىٰ سبحة، ولا يجلس له علىٰ فرش، ولا يدخل عليه بغير إذن ونحو ذلك، فإن تعظيمه له سُلَّمٌ للترقي إلىٰ معرفة الأدب مع الله تعالىٰ، فمن لم يحكم الأدب مع الشيخ، لا يَشُم من الأدب مع الله تعالىٰ رائحة. وكان يقول: من علامة سوء أدب المريد وعدم انتفاعه بشيخه أن يتكدر من شيخه إذا منعه الدخول عليه، فمتىٰ تكدر منه شعرة علىٰ شيخه، فهو منافق معه لا يجيء منه شيء. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أرسل شيئًا من ثيابه إلىٰ السوق ليبيعه، فاشتراه أصحابه المعتقدون فيه وردوه إليه ثانيًا، ففرح بذلك، فلاث الفقراء به وقالوا: لو كان هذا صادقًا في قطع العلائق عن قلبه، لما رجعت إليه ثيابه ثانيًا من السوق، بأنه لا يلزم من عودها إليه أن يكون لها علاقة في قلبه، إنما العلاقة من الثوب، فهو الذي يحب أن لا يفارق الشيخ، ولم يزل الأشياخ الأكابر كسيدي عبد القادر الجيلي وسيدي علي بن وفا وسيدي محمد الحنفي وسيدي مدين وأضرابهم يرسلون ثيابهم إلىٰ السوق

وترجع إليهم من طريق أخرىٰ إما لمحبة الثياب لهم، وإما زجرًا وتأديبًا لمن ينكر عليهم الملابس الفاخرة ويقول: لو لبسوا غيرها لكان أولىٰ! فيتبين له بردها أنه ليس لهم فيها تعمل، وإنما الحق تعالىٰ هو الذي اختارها لهم.

وما وقع لبعضهم من توبيخ نفسه حين ردت عليه ثيابه التي أرسلها إلىٰ السوق. وقوله لنفسه: لولا محبتك لمتاع الدنيا وشدَّة علاقة قلبك بها ما رجعت إليك. فهو هضم نفس، كما جرىٰ عليه الأكابر، حتىٰ كان سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه يقول: من لم يتهم خواطره ويحاسب نفسه في كلِّ نَفَس، لم يكتب في ديوان الرجال. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: اللهم كثِّر حسادي ومن يؤذيني، إظهارًا للصبر علىٰ الأذىٰ، فلاث به بعض العلماء وقالوا: من لازم هذا الدعاء محبة وجود المعصية في الوجود المضرة بإخوانه المسلمين، وذلك لا ينبغي، بأنه لا ينبغي اللوث علىٰ الشيخ بسبب ذلك، لأنه ربما قصد به دوام النعمة عليه، بقطع النظر عن كون الحسد أو الأذىٰ معصية، ولا يؤاخذ الله تعالىٰ أحدًا باللازم لعدم قصده.

وقد كان شخص يؤذي سيدي إبراهيم المتبولي أشدَّ الأذىٰ، فلما مات حزِن عليه وقال: مات من كان يحصل لنا الأجر والثواب بالصبر علىٰ أذاه. انتهىٰ. فيحتاج الفقير إلىٰ عدة أعين: عين ينظر بها إلىٰ الثواب، فيحب دوام سببه؛ وعين ينظر بها إلىٰ كون الأذىٰ معصية تؤذي صاحبها أو فيها انتهاك لمحارم الله، فيكره دوام ذلك؛ وعين ينظر بها إلىٰ أن ذلك الأذىٰ الذي حصل إنما هو بوجوده، ولولا وجوده ما وقع الناس في الإثم بسببه، فيستغفر الله تعالىٰ، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يجب علىٰ العبد الصبر علىٰ الوقوع في المعاصي، حتىٰ يكون الحقُّ تعالىٰ هو الذي ينقله عنها؛ فلاث به الناس وقالوا: الإقلاع واجب، فكيف تتركه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، لأنه ربما كان قصده وجوب الصبر علىٰ المعاصي من حيثُ التقديرُ، لأن الأشياخ لا تجهل مثل ذلك، فإنهم أول ما يأخذون علىٰ المريد العهد بالتوبة يذكرون له أركانها وشروطها التي من جملتها الإقلاع، أي من حيثُ الكسبُ، وهو معنىٰ قول الأصوليين: يجب الرضا بالقضاء لا بالمقضي، أي من حيثُ الكسبُ.

وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: لو لا أراد الله تعالىٰ أن يُعصَىٰ في الأرض ما خلق إبليس. انتهىٰ. مع أنه تعالىٰ قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. وفي كلام الحارث المحاسبي ﷺ: من أعظم الخِلال الصبر علىٰ الاختلال. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، واجتمع بهم، واستفهمهم عن مرادهم قبل الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي هجر تلميذه لما بات عنده مال أو طعام وفي بلده أو جيرانه من هو محتاج إليه، فلاث به العلماء وقالوا: مثل هذا لا يجوز هجر المسلم عليه، إنما الهجر المباح في المعاصي، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يبيت عند أصحابه المال والطعام، ويعلم بذلك ويقرهم عليه، بأنه ما فعله هذا الشيخ من الهجر جائز بين القوم، لأخذهم بالعزائم. وقد كان من خلقه ﷺ أنه لا ينام علىٰ دينار ولا درهم وهو يعلم أن في المدينة أحدًا محتاجًا إليه، وفي رواية: «وكان إذا لم يجد أحدًا يقبل منه ذلك المال، لا يأوي إلىٰ منزله تلك الليلة»[1]، وكان أبو ذر وجماعة يرون تحريم الادخار. وما ثبت عن رسول الله ﷺ من الادخار إنما ذلك رخصة للضعفاء، وفي الحديث: «كل عمل ليس فيه أمرنا فهو رد»[2].

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء(٢/ ٣٦٠): أخرجه أبو داود من حديث بلال في حديث طويل ... وذكر الحديث، قال: ولأبي عبيد في غريبه من حديث الحسن بن محمد كان لا يقبل مالًا عنده ولا يبيته. قلت: والحديث الذي أشار إليه العراقي برقم (٣٠٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

وقد مات ﷺ ولم يخلف في بيته دينارًا لا درهمًا[١]، وقال: «ما أحبُّ أن لي مثل أحد ذهبًا تمضي عليه ثالثة وعندي منه درهم واحد إلا درهمًا أرصده لدَين»[٢]. انتهى. وإنما مثَّل ﷺ بالثلاث ليال توسعةً لزمان التفرقة، فإن الإنسان لا يقدر عادة أن يفرِّق مثل أحد ذهبًا في ليلتين مثلًا ولو قال للناس: أبحته لكم؛ لكثرته، ولولا ذلك لمثَّل بالليلة الواحدة، فافهم.

فمذهب أبي ذر يؤيد هذا الشيخ في هجر مريده، فإنه هجر على ارتكابه محرَّمًا عنده. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ على المحامل الحسنة، فإن أحدهم ربما هجر مريده هجرًا جميلًا لا حقد فيه ولا ازدراء، لمصلحة تعود على المريد هي أفضل من مصلحة موادته وتقريبه.

وربما كان الشيخ في مقام الاجتهاد فيما يفعله بمريده. وبتقدير أن يكون هجر المريد لأجل الادخار لا يجوز، فهو من باب تعارض المفسدتين، فافهم، وأكثرُ من هذا التنزل لا يكون في حق الشيخ، فإن الشيخ أمين على كلِّ شيء يرقي المريد ويقربه إلى الله تعالى، فلا يهجره إلا لمصلحة تعود على المريد.

وبالجملة، فإن كان المريد راضيًا بهجر شيخه له على كلِّ ذنب، فأيش فضول الأجنبي؟! فإياك يا أخي والمبادرة إلى الاعتراض على الأشياخ ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا لبس صوفًا جديدًا أو مُضَرَّبة[٣] جديدة مثلاً، وصار ينظر إليها وإلى هندامها كلَّ قليل، ويسارق النظر إليها،

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه مسلم (١٦٣٥) من حديث عائشة ﵂ قالت: «ما ترك رسول الله ﷺ دينارًا، ولا درهمًا، ولا شاةً، ولا بعيرًا، ولا أوصى بشيء» وأبو داود (٢٨٦٣).

(٢) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٣٨٩) من حديث أبي هريرة ﵁ قال: « قال رسول الله ﷺ: لو كان لي مثل أحد ذهبًا ما يسرني أن لا يمر علي ثلاث، وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين» ومسلم (٩٩١).

(٣) المُضَرَّبة: نوع من الثياب ذو طاقَين مخيطَين خياطةً كثيرةً وبينهما قطنٌ.

فلاث به المريدون وقالوا: مثل الشيخ لا ينبغي له الإعجاب بملبوسه كالعوام، فإن ذلك يجر إلىٰ المقت، وقد رأىٰ رسول الله ﷺ فاطمة تنظر إلىٰ ثوب جديد لبسته، فأمرها بنزعه وقال: «إن الله يمقت ذلك»[١] ولما نظر إلىٰ كساء أبي جهم فأعجبته نزعها، وأرسلها إلىٰ أبي جهم وقال: «إنها أشغلتني عن صلاتي»[٢]. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العالم أو الشيخ في نظره إلىٰ ثوبه الجديد مثلًا، ولا حمله علىٰ العجب به، فربما كان ذلك منه لتكرر الشكر لله تعالىٰ عليه كلما رأىٰ حسنه وجماله، ويرىٰ أن مثله لا يستحق مثل ذلك الثوب.

وقول رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلىٰ المعجب بشيء من أحواله وثيابه»[٣] وأمره فاطمة بنزع الثوب محمول علىٰ التشريع لضعفاء أمته. وكذلك نزعه كساء أبي جهم وقوله: «إنها شغلتني عن صلاتي» وإلا فاعتقادنا في رسول الله ﷺ أنه لا يشغله عن ربِّه شيء في الكونين، وكذلك الحكم في كُمَّل الأولياء من أمته، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: لا تجالسني إلا إن كنت تدري أن المندوبَ واجبٌ، والمباحَ مندوبٌ، والمكروهَ حرامٌ، وخلافَ الأولىٰ مكروهٌ، فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا عين نسخ أحكام الشريعة بغيرها، وذلك لا يجوز، فإن الشارع جعل لكل حكم من الأحكام الخمسة مرتبة لا تتعداها.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من قال ما ذُكِرَ لمريده، لأنه ربما قصد بذلك تعظيم الأحكام الشرعية، أي لازم علىٰ المستحب كأنه واجب، واجتنب

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري(٣٧٣) من حديث عائشة: «أن النبي ﷺ صلىٰ في خميصة لها أعلام، فنظر إلىٰ أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: اذهبوا بخميصتي هذه إلىٰ أبي جهم وأتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي» وقال هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة:« قال النبي ﷺ كنت أنظر إلىٰ عَلَمِها، وأنا في الصلاة فأخاف أن تفتنني» ومسلم (٥٥٦).

(٣) لم أقف عليه.

المكروه كأنه حرام، وافعل الأولىٰ كأنه مستحب، واجتنب خلاف الأولىٰ كأنه مكروه. واقلب المباح بالنية الصالحة إلىٰ خير، كما هو مقرر في كتب الفقه. وهذا مراد هذا الشيخ، [لا](١) أن مريده يصير يعتقد وجوب المندوب، ولا تحريم المكروه، ولا استحباب المباح، لأن في ذلك نسخ المندوب والمكروه والمباح، وجعل المباح مندوبًا في رتبة المندوب الذي شرعه الشارع، لأن ذلك لا يقع فيه عاقل، وكل ما كان فيه تعظيم لأمر الله تعالىٰ، فلا ينبغي لأحد الاعتراض علىٰ فاعله.

وقد أجمع أهل الكشف علىٰ أن الأحكام الخمسة نزلت من أماكن متفرقة، فلا يصح إلحاق أحدها بغيره في الرتبة، فنزل الواجب من القلم الأعلىٰ، والحرام من العرش، والمكروه من الكرسي، والمندوب من اللوح، والمباح من سدرة المنتهىٰ. انتهىٰ. وقد أوضحنا حكمة ذلك في كتاب «الجواهر والدرر». وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رضي الله عنه يقول: إنما شدد الأشياخ علىٰ مريديهم في ترك الأكل من غير ضرورة، ليُثاب مريدُهم ثوابَ الواجب في أفعاله كلِّها.

فاعلم ذلك يا أخي، واعرف اصطلاح القوم قبل أن تنكر عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا يكمل المريد في مقام الأدب مع الله تعالىٰ حتىٰ يرىٰ طاعاته كأنها معاصي، ومعاصيه كأنها كفر؛ فلاث به الفقهاء من أهل حارته، واستفتوا عليه العلماء، فأجابوا بأن هذا شطح لا يجوز في الشريعة.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ حتىٰ يُستفهَم إن كان في قيد الحياة، فربما كان مراده أنه يرىٰ طاعاته من حيثُ النقصُ الذي هو فيها كأنها معصية، ويرىٰ المعصية من حيثُ كونُها تغضب الله عليه كأنها كفر، فيتوب منها فورًا، ويستقبح وقوعه فيها كأنه ارتد عن دين الإسلام تعظيمًا لأمر الله.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وفي كلام الشيخ إسماعيل ابن المقرئ[١] صاحب كتاب «الروض» في مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه:

ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة   إذا عددت تكفيك عن كل زلة

وقد كان الفضيل بن عياض وغيره يقولون: طاعاتنا إلىٰ الإثم أقرب منها إلىٰ الطاعة.

وكان معروف الكرخيُّ يقول: إني لأنصرف من صلاتي وكأني انصرفتُ عن الزنا.

وسمعتُ سيدي محمد المُنيِّر رحمه الله يقول: من تأمل من أمثالنا نفسَه، وجد اسم الفسق منسحبًا عليه علىٰ الدوام، فإنه لا يخلو أن يكون في معصية أو طاعة أو مباح، فيرىٰ طاعاته ناقصةً خارجةً عن الكمال الذي أمره الله به، ويرىٰ فعله للمباح استدراجًا، وأما المعصية فلا يخفىٰ حكمها. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا هجر تلميذه لكونه ينبهه علىٰ[٢] نقائصه، ولاث به الناس وقالوا: كيف يدعي هذا أنه شيخ ويكره من ينبهه علىٰ عيوبه؟! وقد كان السيد عمر بن الخطاب وغيره يقولون: رحم الله من أهدىٰ إليَّ عيوبي لأتطهر منها. وكان السلف الصالح إذا أبطأ علىٰ أحدهم النصح من أصحابه، يذهبون إلىٰ داره ويقولون له: يا أخي، أوحشنا نصحك لنا، ولك زمان ما نصحتنا، فما ذنبنا؟ بأنه لا يلزم من هجر المريد المذكور أن ذلك الهجر بسبب النصح من حيثُ هو نصح، فإن ذلك لا يجوز حمل العلماء والأشياخ عليه، وإنما ذلك من حيثُ إطلاقُ المريد بصره في عيوب شيخه، فيعدم النفع به. وقد يكون ذلك العيب الذي رآه المريد في شيخه إنما هو عيبه هو،

---

(١) شرف الدّين أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله المقريء اليمني الشافعي عالم البلاد اليمنية وإمامها ومفنّنها المعروف بابن المقريء. وقيل: المقري. ولاه الأشرف صاحب اليمن تدريس المجاهدية بتعز والنّظامية بزبيد. له مصنفات منها: «مختصر الروضة» للنووي و«مختصر الحاوي الصغير» وشرحه، و«عنوان الشّرف الوافي». توفي: ٨٣٧هـ. انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ٣٢١)، «الأعلام» (١/ ٣١٠).

(٢) بالأصلين: ينهيه عن. والمثبت هو الموافق للسياق.

من باب «المؤمن مرآة المؤمن»[1]، ولا ينظر أحد في المرآة إلا نفسَه لا جرم المرآة.

وكلام السيد عمر ﷺ وغيره محمول على الإخوان الذين هم أقران للإنسان ولهم إلمام بمقامه، بخلاف المريد مع شيخه. وقد كان الإمام النووي كلما خرج للقراءة على شيخه الشيخ سلار الإربلي[2]، يتصدق بشيء ويقول: اللهم استر عني عيب معلمي حتى أنتفع به. فاعلم ذلك، واحمل هجر الأشياخ لمريدهم على الأغراض الصحيحة لا الفاسدة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده إذا جاءه: اخرج من مجلسي يا منافق يا فاسق، ونحوهما من الألفاظ، فلاث الناس به وقالوا: هذا كلام سفه لا يليق بالشيخ الذي يرشد الناس، بأنه لا ينبغي اللوث به؛ لأن كلَّ مريد قد تابع شيخه على تصديق شيخه في كلِّ عيب أضافه إليه، ليرقيه إلى مراتب الكمال. وربما سماه منافقًا أو فاسقًا بوقوعه في رياء أو مراعاة للخلق، أو بشبعه فوق العادة، أو بنومه كذلك، فإن حدَّ النفاق عند القوم أن يخالف باطنُه ظاهرَه في وصف من الأوصاف، ولو خلاف الأولى، وليس مرادهم بالنفاق ما ذمه الله ورسوله في الكتاب والسنة، كما يتوهمه من لا يعرف مصطلح القوم، وكذلك القول في الفسق حده عند القوم أن يخرج عن السنة قيد شبر في مأكله أو ملبسه أو نومه ونحو ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: إذا قال الشيخ للمريد: يا فاسق أو يا منافق، فليحذر من تكذيبه ولو في نفسه، بل يفتش على تلك الصفة في نفسه ويقول: الشيخ لا يكذب فيما أضافه إليَّ، وربما كان الناس لا يعدون ما قصده الشيخ نفاقًا ولا فسقًا. انتهى.

وربما كان قصد الشيخ بقوله: يا منافق، أنه منافق مع الشيخ يظهر له في حضوره

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٩) والبيهقي في «السنن» (١٦٦٨١).

(٢) سلار بن الحسن بن عمر بن سعيد أبو الفضائل كمال الدين الإربلي، الفقيه الشافعي كان من الأئمة الفضلاء الخبيرين بمذهب الإمام الشافعي ﷺ وكان عليه مدار الفتوى في وقته بدمشق. توفي: ٦٧٠هـ. بدمشق ودفن بمقابر باب الصغير ﷺ. «ذيل مرآة الزمان» (٢/ ٤٧٩)، «مرآة الجنان» (٤/ ١٣٠).

خلاف ما يقوله فيه في غيبته مما يستحيي أن يواجهه به. وربما كان قصده بقوله: يا فاسق، أي يا خارج عن طاعتي فيما آمره به من الخير، فلينتحل المريد للشيخ الأجوبة الحسنة ما أمكن، ويطالب نفسه بالحقائق، فإن نفاق المريد وفسقه مع الشيخ لا ينقطع، وإنما يدق فقط ولا ينقطع، وما خرج عن ذلك سوىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن حفظه الله تعالىٰ من الأولياء. وأما شهود بعض الأولياء في نفسه النفاق والفسق، فإنما هو من باب هضم النفس، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وَجَدَ[1] علىٰ مريده، فجاء مريده مستغفرًا وقبّل رجله، فرفسه برجله وقال: اخرجوا عني هذا الشيطان؛ فجروه برجله ووقعت عمامته وأخرجوه من الزاوية، مع أنه خطيب وإمام، فلاث الناس بالشيخ وقالوا: هذا خروج عن طريق السلف الصالح، ولم يبلغنا أن أحدًا جاءهم تائبًا مستغفرًا فردوه أبدًا، بأن هذا الشيخ أمين علىٰ دين المريد، فربما اطلع علىٰ أن باطنه لم يتب ولم يندم، وإنما هو خداع ونفاق، فأخرجه من حضرته ليتنبه ويخلص التوبة، وهذا الزجر والتوبيخ والتعزير واجب، لأنه وسيلة إلىٰ التوبة الخالصة، وما لا يتوصل إلىٰ الواجب إلا به فهو واجب، ولو أن الشيخ علم أنه يتنبه لنقصه بالإشارة والرمز، ما تلفظ له بالكلام الفاحش، كما أنه لو علم منه أن الكلام يكفيه في التنبيه، ما جروه برجله ولا أرموا عمامته عن رأسه.

فلا ينبغي لمن ليس من أهل الطريق أن ينكر عليهم مؤاخذة تلامذتهم بالبواطن، لأن ذلك أمر مشروع فيما بينهم، والتلامذة راضون بذلك، وقد بايعوا شيخهم عليه، اللهم إلا أن يتكدر مريد من ذلك، ويشكو شيخه للناس، فمثل هذا يحرم تعرض الشيخ له بالزجر والتعزير إلا بطريق شرعي. وأما ذلك العهد الذي كان عاهد شيخه عليه، فقد انتقض بالشكوىٰ للناس. ثم إنه لا ينبغي للشيخ أن يمكّنه من الإقامة في الزاوية أبدًا، خوفًا أن يتلف البقية.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: ذنوب الفقراء فيما بينهم لا فرق فيها بين

---

(١) بالأصلين: أوجب. والصواب ما أثبتناه، يُقال: وَجَدَ عليه: غضب.

فالعلم لا قرار له من حيثُ الفروعُ، ولا يضرنا إلا مخالفة الأصول فقط.

فافهم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم ما أخفوا الحقائق عن الناس إلا رحمةً بهم، كما يشهد لذلك قصة موسىٰ مع الخضر عليهم الصلاة والسلام. وحاشاهم من الزندقة رضي الله عنهم أجمعين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي زجر طلبة العلم عن البحث في مسألة من العلم وهم ينتظرون جنازة يصلون عليها أو تدفن، وقال: الكلام في العلم في الجنازة مكروه؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: إنما يُكرَه اللغط في الجنازة بكلام اللغو. أما العلم فلا إذا كان[1] ذلك متعلّقًا بأحكام صلاة الجنازة أو وقتها، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر. وأما القول بكراهة الكلام في العلم مطلقًا فليس عليه دليل.

والجواب عن هذا الشيخ: بأنه لا ينبغي الاعتراض عليه في قوله بكراهة الكلام في العلم في الوقت المذكور، لأنه ربما قصد أن ذلك مكروه من حيثُ ما يؤدي إليه من رفع الصوت والجدال وخروج النفس عن الحدِّ، لا من حيثُ التكلمُ بالعلم من حيثُ هو علمٌ، فإن مثل أشياخ الطريق لا يجهل مثل ذلك. وقد قال العلماء: السنة في المشي مع الجنازة السكوت والتفكر فيما إليه مصير العبد، حتىٰ كرهوا رفع الصوت [بالذكر معها، مع أن ذكر الله لا يُمنَع منه في وقت من الأوقات، فما كرهوا رفع الصوت][2] به إلا لكونه يشوش علىٰ المتفكِّر في أمر الموت، ولكلِّ وقت حال يناسبه.

وقد كنتُ أتكلم أنا والأخ الصالح الشيخ سراج الدين الحانوتي الحنفي[3] في أمر الموت والقبر والحاضرون يبكون، فدخل نحويٌّ، فسأل عن مسألة، فارتفع ذلك الخشوع لوقته.

(١) بالأصلين: إلا أن يكون.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) محمد بن عمر الملقب سراج الدين الحانوتي المصري الفقيه الحنفي، كان رأس المذهب في عصره بالقاهرة، يرجع إليه أمر الفتوىٰ والرياسة، له: إجابة السائلين، يعرف بفتاوىٰ الحانوتي ت ١٠١٠هـ. «خلاصة الأثر» (٤/ ٧٦)، «الأعلام» (٦/ ٣١٧).

وليتأمل المجادل في كراهة الكلام في العلم مع الجنازة في قوله ﷺ: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين»[1]، فلو أُخِذ بإطلاقه لم يكن ينبغي لنا أن نشتغل بغير العلم في حال من الأحوال، لكونه أفضل ما عبدنا اللهَ به، وكذلك ينبغي لهذا المجادل أن ينظر إلىٰ نفسه وهو محتضر كيف يثقل عليه سؤال أحد له ذلك الوقت في مسألة تتعلق بالصلاة أو الزكاة أو البيع أو الصوم ونحو ذلك، ويقول: اخرجوا هذا السائل عني لأتأهب للموت. فاعلم ذلك يا أخي، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينكر علىٰ فقراء المطاوعة ويرميهم بالجهل، ولاث الناس به وقالوا: الفقير ليس له نظر في عيوب الناس، فكيف يقع هذا الشيخ في الإنكار علىٰ قوم لم يخالطهم، ولم يعرف حقيقة مذهبهم ولا قواعده حتىٰ ينكر عليهم؟! والحكم في أفرادهم بحكم واحد تهور في الدين، فإن كلَّ أهل خرقة فيهم الصالح والطالح، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ بإنكاره علىٰ فقراء المطاوعة لما شاع عنهم وذاع أنهم يبغضون العلماء، ويقولون: هؤلاء أعداء الفقراء؛ فأغواهم إبليس بذلك، فلا هم يعرفون الشريعة، ولا هم يقلدون علماءها. وإن وقع أن أحدًا منهم قلَّد العلماء وأحبهم وامتثل أمرهم، فكلام هذا الشيخ محمول علىٰ غيره والحكم للأغلب.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد وسيدي محمد الحنفي وسيدي مدين وسيدي محمد الغمري ﭫ ينكرون علىٰ فقراء المطاوعة أشدَّ إنكار، وألَّفوا فيهم كتبًا، وبينوا فيها ما ابتدعوه في الدين، وفتاوىٰ المذاهب الأربع، وحرَّموا عليهم أمورًا كانوا يعتقدون حلَّها، وأمورًا يعتقدون وجوبها. وعندي في ذلك لسيدي محمد الغمري كتاب سماه «العنوان في تحريم معاشرة الشباب والنسوان» بخط والدي ﷺ أقام فيه الأدلة علىٰ إبطال مذهبهم، وبيَّن فيه أنهم لم يوافقوا الشريعة إلا في أمور قليلة، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا ذم الأشياخ لطائفة علىٰ نصرة الدين لا علىٰ حظِّ النفس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الدراقطني (٣٠٨٥) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥٨٤) والطبراني في «الأوسط» (٦١٦٦) وابن حجر في «المطالب العالية» (٣٠٨٧).

(٦٤٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر أصحابه بالتقيؤ لكل لقمة أكلها العبد وهو غافل عن ربه عزَّ وجلَّ، ويأمرهم بالتسمية علىٰ كلِّ لقمة، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا بدعة في الشريعة، ولم يأمرنا الشارع بالتسمية إلا مرةً واحدةً أولَ الأكل. وإن نسي أحدنا التسمية أوله، فليقل إذا تذكر: «بسم الله أوله وآخره»، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ لأخذه بالعزائم، وقد جرَّبوا فوجدوا كلَّ لقمة نزلت في بطن العبد وهو غافل فهي ظلمة في قلبه، وما أظلم به القلب ينبغي للمتورع أن يتقيأه، كما قالوه في اللقمة الحرام أو الشبهة.

وأما التسمية علىٰ كلِّ لقمة فهو خير علىٰ خير، وقد قال الإمام النووي رحمه الله: لو سمَّىٰ العبد علىٰ كلِّ لقمة فحسن، وقولُ المعترض: «إن الشريعة لم تأمر بالتسمية إلا مرةً واحدةً» رخصةٌ، أو ذلك محمول علىٰ من سمَّىٰ الله تعالىٰ علىٰ أول طعامه، فيدوم عليه الحضور مع الله تعالىٰ حتىٰ يفرغ من الأكل، نظير ما قالوا في الاستعاذة في الصلاة في كلِّ ركعة أو في أول ركعة فقط، أي فإن من قال: «يستعيذ في أول قراءة الركعة الأولىٰ فقط» محمول علىٰ من إذا استعاذ في الركعة الأولىٰ، يبعد منه إبليس، فلا يقربه حتىٰ يسلِّم من صلاته. ومن قال: «يستعيذ عند كل قراءة» محمول علىٰ ضعيف العزم الذي يعاوده إبليس المرة بعد المرة، فلا يُقال: الاستعاذة في كلِّ قراءة أفضل مطلقًا، ولا الاستعاذة في الركعة الأولىٰ أفضل مطلقًا، وإنما ذلك محمول علىٰ حالين، وكذلك القول في التسمية في أول الأكل أو عند كلِّ لقمة. فافهم.

وكان الإمام السهروردي رحمه الله يسمِّي الله تعالىٰ علىٰ كلِّ لقمة، وكذلك شيخه أبو النجيب، وكان كثيرًا ما يقول: آكل هذه اللقمة لله تعالىٰ. وكذلك كان يقول إذا شرب، وإذا لبس ثوبًا أو رداء مثلًا، أو نام أو تطيب، ويقول: هذه الأمور كلُّها إرفاق للنفس، ولا يميزها عن العادة والحظِّ إلا النيةالصالحة. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن كلَّ ما كان طاعة لله يسهِّل علىٰ النفس الطاعة، وما كان حظًّا للنفس يحصل به التعسير للطاعات علىٰ النفس، واستعصاؤها عن فعلها. فاعلم ذلك،

ولا تبادر بالإنكار علىٰ أهل الطريق، فإنهم في طريق العزائم، وأنت في طريق الرخص، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا بحمد الله قد عملتُ بجميع ما في الكتاب والسنة، فلم يفتني ثواب جعله الله تعالىٰ في فعل مأمور أو اجتناب منهي؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذه دعوىٰ **لا دليل عليها من حالك، بل لم يبلغنا أن أحدًا ادعاها من الصحابة والتابعين فضلًا عن غيرهم،** بأنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ ببادئ الرأي، فربما كان ممن رزقه الله النية الصالحة في سائر أحواله، وأطلعه الله تعالىٰ علىٰ مأمورات الشريعة ومنهياتها كلها، فهو يود أن لا يفوته مأمور ولا يقع في منهي، فما باشره من المأمورات، فلا كلام فيه، وما فاته منها حصَّل ثوابه بالنية. وكذلك القول في نظيرها من المنهيات، فما اجتنبه لا كلام فيه، وما وقع فيه، فله الثواب فيه، لكن من حيثُ كونُه يودُّ أنه لم يقع فيه، لا من حيثُ الوقوع، فافهم.

وقد يكون هذا الشيخ ممن حماه الله تعالىٰ من الوقوع في المخالفات منذ وعىٰ علىٰ نفسه، كما كان عليه الإمام الليث ﷺ، وأبو سليمان الداراني، والدنبلي وأضرابهما، فإياك والاعتراض إلا بصحيح العلم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سُئل عن أولياء الله تعالىٰ في هذا الزمان من هم؟ فعد للسائل جماعة من التراسين و المُكَارِية[1] الذي يحملون بنات الخطا علىٰ حميرهم، وجماعة ممن يبيعون الحشيش، فلاث الناس به وقالوا: لا نعرف أولياء الله تعالىٰ إلا المحفوظون من المخالفات، المواظبون علىٰ الصواب، وأما هؤلاء الذين ذكرهم هذا، فليس علىٰ ظاهرهم دليل واحد علىٰ ولايتهم، بأنه ربما قصد بذلك ولاية الله العامة المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ولا شك أن هؤلاء المذكورين مؤمنون، أو قصد بذكر مثل هؤلاء فتح باب حسن الظن بعباد الله،

---

(١) المُكَارِي: هو من يؤجر الدواب للركوب ونحوه. والظاهر أن التَّرَّاس من يؤجر دوابه لدرس القمح والحبوب وطحنها.

عملًا بحديث: «إن الله تعالىٰ أخفىٰ أولياءه في عباده»[1]، فنظن في كل مسلم الولاية حتىٰ يأتينا ما يخالف ذلك، إذ الولاية في المسلمين هي الأصل والفسق طاريء عليهم. أو أن هذا الشيخ اطلع علىٰ ولاية هؤلاء في الباطن من طريق كشفه بالنظر إلىٰ خاتمة أمرهم، حيث كانوا مجهولين عند الناس، فعينهم للسائل ليمسك الأدب معهم.

وقد أخبرني الشيخ عبد القادر الدشطوطيُّ رحمه الله قال: رأيتُ شخصًا من أولياء الله تعالىٰ يأكل من جمل ميت، والناس يرجمونه ويقولون: هو مجنون! فطردتُهم عنه. فترك الأكل وطردني حتىٰ عييتُ من الجري، فوقعتُ وقلتُ: التوبة. فقال: أيش فضولك؟! تدخل بيني وبين الله! ثم قال لي: قد عشنا إلىٰ زمان صار أحدنا يقدم فيه أكل الميتة علىٰ ما في أيدي الخلائق. قال: فعرفتُ أنه في مقام الاجتهاد في الأحكام، فقبَّلتُ يده وانصرفت.

وأخبرني الشيخ نور الدين الشوني[2] أن مُكَاريًا كان الناس يصفونه بالتعريص في حارته، لكونه يركِّب بنات الخطا، وهو من عباد الله الصالحين، فكان لا يركِّب امرأةً من بنات الخطا مرةً إلا تابت في الطريق قبل أن تصل إلىٰ المكان الذي طُلِبت فيه، فتنزل وترجع تائبة إلىٰ منزلها، قال الشيخ: وقد اجتمعتُ به في قنطرة الموسكي مرات، قال: وأخبرني بعض الإخوان أنه اشترىٰ مرة سمكًا مقلًا من موضع بعيد، فتعب في الطريق، فوجد هذا المكاري فأعطاه ثلاثة دراهم، وقال: احملني وهذا السمك إلىٰ مقام الخلفاء. فقال: نعم، وأركبه ومشىٰ به يسيرًا، وإذا هو واقف علىٰ باب السلام من المدينة المشرفة، فقال: انزل هذا مقام الخلفاء. فاندهش الرجل، فقال: اكتم ما رأيت، فدخل فزار النبي ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم خرج فركب، فقال: إنما قصدتُ زاوية الخلفاء التي بدرب

---

(١) تقدم الكلام عليه.

(٢) قال الإمام الشعراني في ترجمته: ومنهم شيخنا وقدوتنا إلىٰ طريق الله تعالىٰ الشيخ الصالح المجمع علىٰ جلالته وصلاحه الشيخ نور الدين الشوني رضي الله عنه. شيخ مجالس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في جامع الأزهر وفي مكة والقدس والشام وقرىٰ مصر وغيرها، رضي الله عنه. خدمته خمسًا وثلاثين سنةً، ما أظن أنه بحمد الله تغير عليَّ يومًا واحدًا. نشأ رضي الله عنه في الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ. توفي: ٩٤٤هـ، ودُفن في زاويتنا بخط بين السورين، وقبره بها ظاهر يُزار رضي الله عنه. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٤٢٠).

الكافوري[١] بمصر! فقال المكاريُّ: قد سرىٰ في ذهني أنك أردتَ مسجد رسول الله ﷺ. فمشىٰ به خطوات وإذا به واقف علىٰ زاوية الخلفاء بدرب الكافوريِّ، فنزل وقبَّل يده وقال: يا سيدي، بم نلت هذا؟! قال: باحتمال الأذىٰ من الناس. انتهىٰ.

وأخبرني رأس الخدَّام بالحجرة المشرفة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام في سنة ثلاث وستين وتسعمئة أن شخصًا نزل من شراريف الحرم المدني بعد العشاء، فوقف علىٰ باب الحجرة وقال: افتح لي. فقلتُ له: ما معي إذن. فأشار إلىٰ القفل فانفتح، ثم دخل فصار يتكلم مع رسول الله ﷺ إلىٰ الفجر وأنا أنتظره، فلما خرج تعلقتُ به، فقلتُ له: الله عليك! بحق محمد ﷺ من أي البلاد أنت؟! فقال: أنا ترَّاس في مدينة منف[٢]. انتهىٰ.

وأخبرني شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي[٣] أنه زار مع سيدي الشيخ عثمان الحطاب شخصًا يبيع الحشيش في باب اللوق، فقال له الشيخ عثمان: قبِّل رجل الشيخ! قال: فقبلتُها وعندي توقف في أمره، فقال له: يا عليُّ، وعزة الله ما أخذها أحد من يده إلا وتاب عن بلعها إلىٰ أن يموت. انتهىٰ. وهذا الحشَّاش هو الذي سلب الشيخ سراج الدين البلقيني[٤] علمه حين أنكر عليه، ووضعه في قلب الديك الذي عنده،

(١) تقع الزاوية خلف مسجد السيدة نفيسة، وتعرف بقبة الخلفاء، دفن فيها الخلفاء العباسيون بدولة المماليك.

(٢) تقع مدينة منف علىٰ بعد ٢٠ كم جنوب القاهرة، علىٰ الضفة الغربية لنهر النيل. ويدخل في حدودها التاريخية مدن وبلدات ميت رهينة الحديثة، دهشور، أبو صير، أبو غراب، زاوية العريان، جنوب القاهرة.

(٣) قال الإمام الشعراني: ومنهم شيخ الإسلام المجمع علىٰ جلالته وعلمه وزهده وصيامه وقيامه وضبط لسانه الشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي. كان مفننًا في العلوم. وكتب لي علىٰ عدة مؤلفات، وزارني كثيرًا في بيتي لما أنقطع عنه لعذر، فكنت أكاد أذوب من الحياء منه لما يأتيني. وكان متواضعًا، حسن الظن بالمسلمين.

وكان يؤذن في شباك زاويته عند كل وقت من الخمس بصوت حسن بخشوع وتدبر أيام ولايته وبعدها إلىٰ أن مات. وكان لا يأكل قط من معلوم محكمته شيئًا، مع أنه وُلِّي كرهًا. وكان كثير الصدقة سرًّا وجهرًا. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٥٤٠).

(٤) عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب بن عبد الخالق بن عبد الحق السراج، أبو حفص الكناني البلقيني ثم القاهري الشافعي. ولد في ليلة الجمعة: ٧٢٤هـ ببلقينة من الغربية. وحفظ بها القرآن وصلىٰ به وهو

كما حكاه ولده شيخ الإسلام علم الدين.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ في تعيينه الولاية في مثل هؤلاء الطوائف، إلا إذا لم يُقِم علىٰ ذلك برهانًا، وأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من يضيف الولاية والصلاح إلىٰ المجهولين الحال، إلا بعد مخالطة شديدة، وتسليم زائد، وإلا فمِن لازمِهم الاحتجاب عمَّن لا تسليم عنده، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدرِّس في علم النحو والأصول والمعاني وغير ذلك، فلاث به جهلة المتصوفة وقالوا: هذا جرح في أهل الطريق، ولو أن هذا الشيخ عرف الله تعالىٰ، ما اشتغل بعلوم المحجوبين، بل كان يجعل عمره كله ذكرًا لله ومراقبة له، بأن هذا الاعتراض من هؤلاء جهل بالشريعة والحقيقة، وأن تدريس هذا الشيخ في كتب الشريعة وآلاتها علامة علىٰ كماله، **إذ الكامل هو من عرف الله تعالىٰ في سائر مراتب التنكرات، وحضر مع الله تعالىٰ في كلِّ علم قرأه أو درسه.** وكان علىٰ ذلك سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي والإمام الطِّيبي[1] صاحب «حاشية الكشاف» للزمخشري، فكان صوفيًّا محدثًا، فقيهًا نحويًّا، أصوليًّا مقرئًا ﷺ، فما جعل هذه العلوم تحجب عن الله إلا كلُّ جاهل.

ومن تأمل الشريعة وآلاتها، وجد الشريعة كالمدينة العظيمة، وآلاتها كالمنجنيقات التي علىٰ سور المدينة ترمي كلَّ عدو أرادها بسوء، فلا تكمل الشريعة ويتم نظامها ويرد المبتدعة والملحدين عنها إلا بالنحو والأصول والمعاني وغير ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: لم تزل جهلة الصوفية ينكرون علىٰ من يشتغل بالفقه والنحو وغير ذلك من كُمَّل الصوفية، كما أنه لم يزل جماعة من طلبة العلم

ابن سبع. له مصنفات منها: «ترجمان شعب الايمان» و«حاشية علىٰ الكشاف» للزمخشري توفي: ٨٠٥هـ. انظر: «الضوء اللامع» (٦/ ٨٥) و«طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص: ٥٤٣).

(١) الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي الإمام المشهور. كان شديد الرد علىٰ الفلاسفة والمبتدعة مظهرا فضائحهم. من مؤلفاته: «التبيان في المعاني والبيان» و«الخلاصة في معرفة الحديث» و«شرح الكشاف» و«شرح مشكاة المصابيح». توفي: ٧٤٣ هـ. انظر: «الدرر الكامنة» (٢/ ١٨٥)، «الأعلام» (٢/ ٢٥٦).

ينكرون على من يشتغل بطريق الصوفية، وذلك لقصورهم، إذ الفقه هو أساس التصوف، والتصوف ثمرة العمل بالشريعة، فلا يتم أحدهما إلا بالآخر، وقد قالوا: حقيقة الصوفي أنه عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص، فمن أنكر ذلك فهو علامة على شدَّة جهله. انتهى.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من تأمل في قوله ﷺ: «فعلمتُ علم الأولين والآخرين»[1] علم أن جميع آلات الشريعة من نحو وفقه وأصول وبيان ونحوها كله من جملة علوم رسول الله ﷺ، فكيف يُقدَح فيمن يُعلِّمها أو يدرِّس فيها؟! فإن أمهات علوم الشريعة ثلاث: التفسير والحديث والفقه، والعالمون بهذه الثلاثة هم علماء الإسلام حقيقة، لأنهم هم الذين استنبطوا الأحكام من الكتاب والسنة، وردوا الحوادث المتجددة إلى أصولها من النصوص، فحمى الله تعالى بهم الدين.

وأعظم مقام في العلم علماء التفسير، لمعرفتهم بوجه التفسير وعلم التأويل، ومذاهب أهل اللغة من العرب، وغرائب النحو والتصريف، وأصول القصص، واختلاف وجوه القراءات، وتبحروا في لغة العرب حتى عرفوا مجازاتها واستعاراتها، فاتسع بطريقهم علوم القرآن على الأمة.

وكذلك أهل الحديث ميزوا بنقدهم بين الحسن والصحيح والضعيف، وتفردوا بمعرفة الرواة وأسامي الرجال، وحكموا بالجرح والتعديل، ليتبين الصحيح من السقيم، والمعوج من المستقيم، وحفظ الله بطريقهم طريق الرواية والسند، وبذلك حُفظت السنة المحمدية.

وأما الفقهاء رضي الله عنهم فانتدبوا لاستنباط الأحكام، والتفريع في المسائل ومعرفة التعاليل، ورد الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع، واستوعبوا الحوادث بذكر النصوص، وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه، مع تفريع شيء من أصول الدين. وكان من جملة علم الفقه علم الفرائض المشتمل على قسمة المواريث على أربابها، ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة إلى غير ذلك، فتمهدت بالعلماء الشريعة وآلاتها وقامت على

---

(١) تقدم تخريجه.

ساق، وما علينا بعد ذلك من دخول الآفات في علومها، ولا محبة علمائها للدنيا. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وتأمله فإنه نفيس، وإياك والمبادرة [بالإنكار] علىٰ الفقيه إذا أنكر علىٰ الصوفي وعكسه، فإن ذلك جهل بالشريعة والحقيقة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لتلامذته: اجعلوا الناس في أعينكم كالبهائم؛ فلاث به الناس وقالوا: في ضمن هذا إزراء بالعلماء والصالحين والأكابر، وذلك مذموم شرعًا.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأنه ربما قصد بذلك عدم مراعاة الخلق في العبادات، والوقوف مع نظرهم إليه حال فعلها، كما لا يراعي البهائم، ليخرج من الرياء ويخلص نيته في أعماله، ولم يقصد بذلك احتقار الناس ولا ازدراءهم، بقرينة قوله ﷺ: «لا يكمل إيمان عبد حتىٰ يكون الناس عنده كالأباعر»[1]. انتهىٰ.

وأجمع القوم علىٰ أن جميع الآفات التي تدخل علىٰ المريدين ترجع إلىٰ وقوفهم مع ملاحظة الخلق، وأن باب دخول الآفات لا يُغلَق عندهم إلا إن قطعوا النظر عن الخلق، وخرجوا عن التقييد بعوائدهم. وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: ما وقف أحد مع هؤلاء الخلق وراعاهم في أعماله وأحواله إلا سقط من عين رعاية الله عزَّ وجلَّ. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا وقع أحد من أقرانه في مصيبة، وأخذوه إلىٰ بيت الوالي، فأرسل الشيخ أو العالم قاصده، أو ذهب هو إلىٰ بيت الوالي ليستفهم منهم الخبر الصحيح، وصاروا كلما يقولون له: إن الأمر الذي اتهموه به غير صحيح؛ فيقول: انظروا ما تقولون! أنا عندي أنه صحيح! فلاث به الناس وقالوا: هذا من

---

(١) قال الزبيدي قال العراقي: لم أجد لَهُ أصلا فِي حَدِيث مرفوع. قلت: وفي كلام أبي الدرداء ما يشبهه فإنه قال: إنك لا تفقه كل الفقه حتىٰ تمقت الناس في جنب الله ثم ترجع إلىٰ نفسك فتكون لها أشد مقتًا للناس. رواه أحمد في الزهد. إتحاف السادة المتقين (١٣/ ١٥٦).

أدل دليل علىٰ أن هذا عدو، وبلغ ذلك إلىٰ المصاب، فصدَّق الناس في أنه عدو له، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ حمل الشيخ أو العالم علىٰ العداوة، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه إنما أرسل قاصده إلىٰ الوالي أو ذهب هو إليه ليستفهمه عن حقيقة الأمر، ليحمل همه ويدعو له بالصبر أو التصبر، ولمن رماه أو شمت فيه بالمغفرة.

وقد وقع مثل ذلك لبعض الإخوان، فخاف صاحب المصيبة وقال: أما بلغك ما فعله فلان الذي هو أعز أصحابي؟ فقلتُ له: وما ذاك؟ فقال: ذهب إلىٰ مقدَّم الوالي، وصار يستفهم منه خبري ليشمت بي. فقلتُ له: ولم لا تحمله علىٰ أنه إنما استفهم جماعة الوالي عن خبرك ليحمل همك؟! فقال: إنهم صاروا كلما أبرؤني يقول: انظروا الأمر مليحًا. فقلتُ له: يحمل علىٰ أنه فعل ذلك ليحمل همَّك بعزم وقوة. فقال: هذا أبعد من بعيد. فقلتُ له: إذا احتمل فعل أخيك أمرين أحدهما يسر، والآخر يغم، فلأي شيء تحمله علىٰ الذي يغم ويشوش علىٰ نفسك؟! فما درىٰ ما يقول. فقلتُ له: إياك وسوء الظن بأخيك، أو أن تنسخ ما تعلمه من محبته السابقة بأمور لاحقة الغالب علىٰ أهلها عدم تحقيقها. فاعلم ذلك، وكن حسن الظن بالمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا كالباب لا أتحرك إلا إن حُرِّكت؛ فلاث به العلماء وقالوا: هذا زندقة، لأن فيه إحالة للأشياء علىٰ الله تعالىٰ وحده دون الخلق، وفي ذلك انخلاع عن الدين ورسمه بالكلية، لإبطال إقامة الحدود الشرعية كلِّها، بأنه ينبغي حمله علىٰ أنه قال ذلك مع مراعاته لأحكام الأصول، والتزام حدود العبودية، كأن يعتقد أن أصل الأشياء كلِّها من تقدير الله عزَّ وجلَّ، وأن علىٰ العبد اللوم في سائر المخالفات، وهذا قصد حسن.

ولا يجوز حمله علىٰ أنه يعتقد الجبر في أفعاله، ويرىٰ أنه لا فعل له مع الله بوجه من الوجوه، ويسترسل في المعاصي والشهوات، ويركن إلىٰ التظالم والغفلة، ويرفض أحكام الشريعة جملة، لأن حال الأشياخ في رتبة المريدين يخالف هذا كله، فاعلم ذلك أيها الأخ، وظن بالأشياخ خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: والله إن فلانًا قد أصبح في خير عظيم، ومن حين صحبناه وهو يسهر معنا الليالي في العبادة؛ فلاث به الفقراء الحاذقون وقالوا: مثل هذا لا يليق بالفقير النطق به، لأن في ضمنه مدح نفسه بقوله: سهر معنا.

والجواب: أنه ينبغي حمل هذا الشيخ علىٰ أنه إنما قصد مدح ذلك الصاحب، بقطع النظر عن مدح نفسه، كأن قال ذلك في غفلة كما يقع فيه كثير من الساذجين، فليتنبه الفقير لمثل ذلك، فيسقط قوله «معنا»، لئلا يلوث به الحذّاق من الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٢) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا خاطب اليهودي أو النصراني مثلًا بالألفاظ المفخمة، كالمعلم والأسطىٰ ونحو ذلك، ولاث به الناس وقالوا: هذا لا يجوز، بل صرَّح بعض الحنفية بكفر من خاطب الكافر بقوله: يا معلم.

والجواب: أنه يُحمَل علىٰ أنه قال ذلك سهوًا أو جهلًا بكراهة ذلك أو تحريمه، وكثيرًا ما يقول الإنسان لليهودي: يا سيدي، سبق لسان، فلا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار في مثل ذلك، فإن العالم ربما قصد بتفخيمه المذكور إمالة قلبه للإسلام، كما فرش النبي ﷺ رداءه لبعض المشركين وأجلسه عليه[1]، فاعلم ذلك، وإياك وحمل العلماء والأشياخ علىٰ غير المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يفضل نفسه علىٰ بعض مشايخ الطريق، وعن الشيخ الذي يفضل نفسه علىٰ بعض العلماء، ولاث الناس به وقالوا: ما يمدح نفسه إلا إبليس، بأن العالم معذور في تفضيل نفسه، لظهور علمه المتعدي نفعه إلىٰ الخلق، وخفاء علم الصوفي، فلا يكاد العالم يرىٰ مع الفقير علمًا يتميز به، ومعلوم أن التفضيل في كل جنس إنما هو بحسب ما يظهر.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢٦٦) من حديث جرير قال: «لما بعث النبي ﷺ أتيته لأبايعه. فقال: لأي شيء جئت يا جرير؟ قلت: جئت لأسلم علىٰ يديك. قال: فدعاني إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: فألقىٰ إليَّ كساءه ثم أقبل علىٰ أصحابه فقال: إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه» والبيهقي في «السنن» (١٦٦٨٧).

وأما الصوفي إذا فضَّل نفسه فربما كان بحق، لأنه زاد علىٰ العالم عادة بمراعاة سرائر الأعمال، وحفظها عن الرياء والحظوظ النفسانية، فكلُّ صوفيٍّ فقيه ولا عكس. ولا تظن يا أخي أن القوم يريدون بالصوفيِّ من كان قليل العلم كثير العبادة، كما هو مشهور بين العوام، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٤) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي قدم من سفر، فبدأ بالسلام علىٰ أبناء الدنيا وأخَّر العالم الكبير أو الشيخ إلىٰ الآخر، فلاث بعض العوام به وقالوا: إن الذي كان ينبغي له تقديم زيارة أبناء الآخرة علىٰ أبناء الدنيا، بأنه ربما فعل ذلك تعظيمًا لذلك الشيخ، وإظهارًا لبيان مقامه في التواضع، وعدم تكدره من تقديم الناس [عليه][1] في الزيارة.

وقد فعل معي نحو ذلك الأخ الصالح القاضي درويش الرومي لما قدم مصر، فبدأ بزيارة الأكابر من أبناء الدنيا وأخرني إلىٰ آخرهم، وقال لي: والله ما أخرتُ السلامَ عليك استهانة بحقِّك، وإنما قصدتُ بتأخير السلام عليك غسل الدَّرَن الذي يحصل لقلبي وبدني من زيارة أبناء الدنيا. انتهىٰ. فينبغي حمل العلماء والأشياخ علىٰ مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي هجر مريده في كلمة قالها في عرض يهودي أو نصراني، فلاث به بعض الجهلة وقال: كيف يهجر مسلمًا موحِدًا في غيبة شخص غضب الله عليه؟! بأنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إذا هجر مريده في غيبة يهودي مثلًا، لأن الغيبة حرام في حقِّ الكفار كالمسلمين، وقد قال ﷺ: «من ظلم ذميًّا كنتُ خصمه يوم القيامة»[2]، أو كما قال، ولاشك أن الغيبة للذميِّ ظلم له.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٠٥٢) من حديث أبي صخر المديني «أن صفوان بن سليم، أخبره عن عدة، من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم دنية عن رسول الله ﷺ قال: ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة» والبيهقي في «الكبرىٰ» (١٨٧٣١).

وبلغنا عن سفيان الثوري أنه دخل عليه طبيبان كافران، فقال: لولا أخشىٰ أن تكون غيبة، لقلتُ: إن أحدهما أطبُّ من الآخر. وروىٰ الإمام أحمد بإسناد حسن مرفوعًا، فقال: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا ففجوره علىٰ نفسه»[1]. وفي رواية: «وإن كان كافرًا»[2] ذكرها الحافظ المنذري[3]. ووقع رجل مرة في عِرْض الحجاج بحضرة محمد بن سيرين، فقال للواقع: اعلم يا أخي أن الله تعالىٰ حكم عدل، فكما ينتقم من الحجاج، كذلك ينتقم للحجاج. انتهىٰ.

وكان ميمون بن مِهْرَان[4] رحمه الله يقول: من وقع في ظلم لأحد وأراد أن يتحلل من مظلمته فلم يقدر، فليستغفر الله تعالىٰ له دبر كلِّ صلاة، فإنه يخرج من مظلمته إن شاء الله تعالىٰ.

وكان الشيخ أبو المواهب الشاذلي رضي الله عنه يقول: رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا محمد، إذا وقعت في غيبة أحد ولم تبلغه، فاقرأ سورة «الفاتحة» و«الإخلاص» والمعوذتين، وصلِّ عليَّ، ثم اجعل ثواب ذلك في صحائف من اغتبته، فإن ذلك كفارة لتلك الغيبة. وفي رواية: «فإن الثواب والإثم يتجاذبان فيغلب الثواب».

فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الشيخ إذا هجر من اغتاب ذميًّا، فإنما هجر من كان خصم رسول الله ﷺ يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يعتني بالبدعة المكروهة، ويشدد في إنكارها أكثر من الزنا وشرب الخمر، فلاث به الناس وقالوا: التشديد في إزالة المنكرات إنما يكون بحسب مراتبها تخفيفًا وتشديدًا، فلو عكس هذا الأمر لكان أفضل، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا العالم، فربما كان قصده بالتشديد في إزالة البدعة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٨٧٩٥)، وابن أبي شيبة (٢٩٣٧٤)، والطبراني في الدعاء (١٣١٨).

(٢) أخرجها الطبراني في «مكارم الأخلاق» (١٢٧).

(٣) ذكرها المنذري «الترغيب والترهيب» (٣٣٧٢) بلفظ: «وإن كان فاجرًا ففجوره علىٰ نفسه».

(٤) بالأصلين: ميمون. والصواب ما أثبتناه.

المكروهة خوفه أن يتوهم أحد أنها من جملة الشريعة المأمور بها، فيثبتها في الدين، ويدوم عمل الناس بها، فشدد فيها، بخلاف المعاصي الظاهرة، فإنها معروفة للخاص والعام، فلا يخاف أن أحدًا يلحقها بالطاعات.

قالوا: ومن الفرق بين العاصي والمبتدع أن العاصي يعرف قبح معصيته، ويعلم صدق من أنكرها عليه، ويلتمس التوبة منها ويرجو العفو. وأما المبتدع فيعتقد أنه علىٰ حقٍّ، وأن الذي ينصحه علىٰ باطل، فلا تصح له توبة، ولا يُرجَىٰ له فلاح، كما عليه الروافض والمعتزلة.

وقد بسطتُ الكلام علىٰ البدع في الباب الثالث عشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق» وذكرنا أن البدع تنقسم إلىٰ خمسة أقسام: إلىٰ واجب، وإلىٰ مندوب، وإلىٰ حرام، وإلىٰ مكروه، وإلىٰ مباح، فالواجب كتعلم النحو، والحرام كاتباع مذهب القدرية، والمندوب كإحداث الربط والمدارس، والمكروه كزخرفة المساجد، والمباح كتوسيع الأكمام. قالوا: تعرف ميزان هذه الأقسام بما يوافق قواعد كلٍّ منها، فما وافق قواعد الوجوب فهو واجب، وما وافق قواعد الحرام فهو حرام، وهكذا.

فمن قواعد الواجبات تدوين القرآن والشريعة إذا خيف عليهما الضياع، فإن التبليغ لمن بعدنا واجب إجماعًا، وإهمال ذلك حرام إجماعًا. **ومن قواعد المحرَّمات** المكوس والمحدثات من النُّظم[1] المخالفة لقواعد الشريعة، كتقديم الجهال علىٰ العلماء في تولية المناصب الشرعية التي لا يصلحون لها.

[**ومن قواعد المندوبات**: مخالفة الولاة والقضاة لما عليه السلف الصالح من الورع والعفة][2]. **ومن قواعد المكروهات** أن تتناول تلك البدعة أدلة المكروهات، كأن يزيد في المندوبات المحدودات كالتسبيح عقب الصلوات علىٰ العدد المشروع، أو يزيد في صاع زكاة الفطر، لأن ذلك سوء أدب مع الشارع ﷺ. قالوا: والزيادة في الواجب أو عليه أشد

---

(١) بالأصلين: الظلم. والصواب ما أثبتناه.

(٢) ساقط من «ب».

في المنع، لمخالفته لغرض الشارع في محبته التخفيف على أمته. ومن قواعد المباحات ما تتناوله أدلة الإباحة، كاتخاذ المناخل للدقيق، لأن لين العيش وإصلاحه من المباحات.

وأما حديث: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[1] محمول على البدع المحرَّمة، كما تشهد له قواعد الشريعة. فاعلم ذلك وتأمله واحفظه، فإنه نافع، وإياك والمبادرة إلى الإنكار على من هو أعلم منك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا ترك النصح لإخوانه، وسكت على ما يراهم يفعلونه من المنهيات، ولاث به الناس وقالوا: النصح واجب عليه، فكيف يتركه؟! بأنه ربما كان في نصحه لأصحابه أو نهيهم عما هم فيه مفسدة ترجح على مفسدة السكوت، كأن يقطعوا في عرضه ويرموه بالعظائم بين الأعداء، حتى يُشتَهر بذلك بين الخاص والعام إذا نصحهم.

وكان سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني ﵁ يقول: ما بقي من مراتب إنكار المنكر إلا الإنكار بالقلب، والهجران بسياسة إن غلب على ظنه أن الهجران يصلح ذلك العاصي، فإن غلب على ظنه أنه يورث الفتنة والشحناء تركه. وكذلك النصيحة إذا غلب على ظنه أنها تورث عداوة وبغضاء تركها، وكيف يقبل نصيحتك من يعتقد عداوتك؟!

فاعتبر يا أخي حالك مع من تنصحه، فإن رأيتَ المحبة لك تبقى إذا نصحته، فانصحه برفق. وإن رأيتَ العداوة تبدو منه إذا نصحتَه، فاطلب السلام، وافزع إلى العزلة، وادعُ له بالإصلاح، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يجيب عن طلبة العلم المتظاهرين بمحبة الدنيا، والمزاحمة على صحبة الأمراء، ولاث به أقرانه وقالوا: هذا مداهن في دينه، وإنما اللائق به النصح لهؤلاء والتوبيخ والتقريع لهم، لينزجروا ويحموا خرقة العلماء

---

(١) جزء من حديث أخرجه النسائي (١٥٧٨) بلفظه، ومسلم (٨٦٧)، وابن ماجه (٤٥)، مقتصرًا على «وكل بدعة ضلالة».

من وقوع الناس في أهلها، بأنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا حمله على المداهنة، وإنما ينبغي حمله على أنه قصد بالجواب عن هؤلاء أن يميل خاطرهم إليه بالمحبة، ثم ينصحهم بعد ذلك.

وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين إذا أراد أن ينصح عالمًا قد وضع علمه في نفسه دون روحه، يطعمه الحلوىٰ ويهدي إليه بعض فضة، ويقول: قد جاء علىٰ يدنا شيء من الزكاة فتذكرتُكم، فلا تؤاخذونا بقلته. وكان يقول: هذه من أعظم السياسات، فإن الفقيه لا يعتقد في طائفة الفقراء أنهم أعلم منه ولا أورع ولا أزهد أبدًا، فكيف ينقاد لنصحهم له؟! انتهىٰ.

وكان إذا رأىٰ فقيهًا لا يعمل بعلمه، يأتي إليه بكتاب «الترغيب والترهيب» ويقول: مقصودي أصحح عليكم هذه الأحاديث خوفًا من اللحن، ثم يقرأ عليه نحو حديث الشيخين مرفوعًا: «إنه ليُؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فيُلقىٰ في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيمرُّ عليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، مالك؟! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر؟! فيقول: بلىٰ، كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهىٰ عن الشر وآتيه»[١]، ونحو حديث الطبراني بإسناد حسن مرفوعًا: «مثل الذي يعلِّم الناس الخير وينسىٰ نفسه، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»[٢]، [ونحو حديث الطبراني وغيره مرفوعًا: «الزبانية أسرع إلىٰ فسقة القراء منهم إلىٰ عبدة الأوثان، فيقولون: يُبدَأ بنا قبل عبدة الأوثان؟! فيُقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم»[٣]][٤] ونحو حديث الطبراني والبيهقي مرفوعًا: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالـمًا لم ينفعه الله بعلمه»[٥].

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩) وغيرهما.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٦٨٥)، والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (٧٠) وأحمد في «الزهد» (١٠١٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٨٦).

(٤) ساقط من «ب».

(٥) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٤٢) والطبراني في «الصغير» (٥٠٧).

ثم لا يزال يذكر ما ورد من الأحاديث لذلك الفقيه وهو يوهمه أنه يصححها عليه، وإنما قصده أن الفقيه يتعظ بكلام نبيه ﷺ لا غير. وكان يقول مرةً: من لم يتعظ بكلام نبيه ﷺ لا يتعظ بكلام أفضل الدين.

فاعلم ذلك يا أخي، واحمل أشياخ الطريق إذا أجابوا عن الفقهاء على المحامل الحسنة دون المداهنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٩) ومما أجبتُ به عن العالم الذي لا يؤمن بولاية مشايخ زمانه كلِّهم، وإنما يؤمن ببعض، وينكر ولاية بعض، ولاث به المتصوفة وقالوا له: من أين لك معرفة الوليِّ من غيره وأنت لم تدخل [حضرة][1] أولياء الله تعالىٰ؟! بأنه لا ينبغي الإنكار عليه، فإن الاعتقاد وعدمه إنما هو من باب الاجتهاد، فمن أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ ولاية أحد أو نفيها عنه، فهو مع اجتهاده، ولم يزل الأولياء أخفياء في كلِّ عصر بين العلماء، فتقول للعالم: أما تؤمن بأن لله تعالىٰ أولياء؟ فيقول: نعم، ذلك بنص القرآن. ثم إذا ذكرتَ له أحدًا من مشايخ العصر وذكرتَ له خصوصياتِه، يأخذ في معارضتها ويقول: ليس هذا منهم، حتىٰ لو عرضتَ عليه مشايخ الدنيا كلهم يزنهم بميزان عقله، ولا يلزمه غير ذلك، فمن أمره بالجزم بولاية أحد من مشايخ عصره، فقد كلَّفه شططًا. فأثبت يا أخي ولاية أحد عنده، ثم اعترض عليه إذا أنكر عليه، وما لم يثبت ذلك عنده، فلا يلزمه اعتقاد الولاية في أحدٍ علىٰ التعيين.

وقد جاءني مرة فقيه وقال لي: قد جعلتُ للوليِّ ثلاثين علامة، من لم تكن فيه، فلا أعتقد ولايته. فقلتُ له: لا يعرف علامة الوليِّ إلا الوليُّ، فمن أين علمت صفات الأولياء؟! إنما ذلك أمر جعلتَه بعقلك، وصدك به إبليس عن الانتفاع بأولياء عصرك، وقال لك: كلُّ من لا يكون فيه هذه الخصال، فلا تعتقده، فحُرِمتَ الإمداد.

وقد كان سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﵀ يقول: لا يعرف أولياء الله إلا من دخل حضرته، ولا يدخل أحد حضرته إلا إن كان مُطهَّرًا من سائر الذنوب، إما بعدم

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

الوقوع فيها أصلًا، وإما بقبول توبته إذا وقع، ومن أين للفقيه الوصول إلىٰ معرفة مثل ذلك حتىٰ يعرف أولياء الله في تلك الحضرة؟! ولذلك يقول: أنا مؤمن بأولياء الله، وإذا عينتَ له أحدًا منهم [ما][1] آمن به. ومعلوم أن أولياء الله علىٰ أقدام الرسل، فكما لا يصح إيمان من كفر ببعض الأنبياء وآمن ببعض، كذلك لا يصح كمال إيمان من كفر ببعض الأولياء وآمن بالبعض، فكيف بمن يكفر بكل من عينتَه له؟! حتىٰ لا يكاد يؤمن بواحد من أهل عصره. ثم يقول: إن هي إلا إسرائيلية! فإن بني إسرائيل آمنوا بموسىٰ حيث لم يروه، وكفروا بمحمد حيث رأوه حسدًا وعدوانًا. انتهىٰ.

فاعذر يا أخي العالم إذا نفىٰ ولاية أحد من مشايخ عصره، فإنه ما تعدَّىٰ دائرة نفسه، ولذلك كان محميًا من التأثير فيه، لاستناده إلىٰ قواعد علمه. وهذا من جملة رحمة الله عزَّ وجلَّ بعباده، فما آذىٰ أحد منهم وليًا وهو يعتقد ولايته أبدًا، إنما يقول: هذا نصَّاب، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا خاف من مخلوق، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا وليًا لله عزَّ وجلَّ، لم يخف من مخلوق، فإن من شرط الوليِّ الخوف من الله تعالىٰ، ومن خاف من الله خافه كل شيء، ولم يخف هو من شيء، فكيف صح من هذا الشيخ الخوف من المخلوقات وهو يدعي الولاية والصلاح؟!

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، ولا يلزم من خوفه من مخلوق قلة خوفه من الله، فقد خاف الأكابر من الأنبياء من الجبابرة كالنمرود وفرعون، ولم يقدح ذلك في مقامهم، وذلك لعدم وقوفهم مع المخلوقات، فإنهم لا يرون في الوجود فاعلًا حقيقةً إلا الله. وإن وقع أنهم خافوا من جبَّار فإنما ذلك الخوف حقيقةً من الله أن يسلِّط ذلك الجبار عليهم، فرجع خوفهم إلىٰ الخوف من الله لا من المخلوق، فافهم. وكأن الحق تعالىٰ أجرىٰ عليهم صورة الخوف، ليقتدي بهم ضعفاء قومهم الذين قصروا بصرهم علىٰ الخلق دون الحق تعالىٰ، رحمةً بأولئك الضعفاء.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: الكامل هو من يخاف من كل شيء يؤذيه، وذلك لسلامته من حكم الحال عليه، بخلاف صاحب الحال لا يخاف من أحد، لقوة حاله وتلاشي الأسباب في عينه.

وقد قالوا: من خاف من شيء دون الله، كان جزاؤه أن يُسلَّط ذلك الشيء عليه، ولو كان ذلك الخائف من أكبر الأولياء، فإن الكامل يعرف أن في ذاته جزءًا يخاف من الخلق يدق ولا ينقطع، وما خرج عن ذلك إلا الأنبياء لعلو مقامهم. ومن قال في الأنبياء غير ذلك، فعليه الخروج من ذلك بين يدي الله عزَّ وجلَّ. وربما استدل بكونه ﷺ اتخذ له حرَّاسًا لما خاف إلىٰ أن أنزل الله تعالىٰ عليه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فترك اتخاذ الحرس[1]، وذلك لا يصلح دليلاً، لأنه يفعل ذلك تشريعًا لضعفاء أمته، وإذا تطرق الاحتمال سقط الاستدلال. وقد قالوا لعلي بن أبي طالب: ألا نتخذ لك حارسًا يحرسك من أعدائك؟! فقال: حارس كل إنسان أجله. فإذا كان هذا قول الإمام عليٍّ، مع كونه فرعًا من فروع رسول الله ﷺ، فكيف بسيد الأولين والآخرين؟! فاعلم ذلك، ولا تخض في مقامات الأكابر إلا بعلم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي رماه بعض العلماء بالزندقة والعظائم، وصار يدعو عليه ذلك الشيخ فلا يُستجَاب له، فقال الناس: لولا أن ما قاله هذا العالم فيه صحيح، لكان أهلكه الله تعالىٰ، بأنه لا يلزم من عدم استجابة دعاء الشيخ علىٰ العالم أن يكون مبطِلًا في كونه مظلومًا، فقد يكون الشيخ مظلومًا، والعالم معذورًا.

وقد وقع أن بعض أشياخ الطريق بمدينة بغداد انتصب[2] شخص من العلماء لمعاداته، وصار يرميه بالعظائم، وجماعة الشيخ يدعون علىٰ ذلك العالم فلا يُستجَاب لهم فيه، فبلغ ذلك الشيخ فقال: لو دعوتم عليه إلىٰ أن تقوم الساعة لا يُستجَاب لكم فيه؛ لأنه محروس بنيته، وذلك أنه يعتقد فيَّ أنني زنديق فاسد العقيدة، فهو يريد قتلي أو

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٤١٨)، وفي الأوسط (٣٥١٠).

(٢) بالأصلين: يندب. والصواب ما أثبتناه.

إخراجي من بغداد ليستريح الناس مني، ولو أنه كان يؤذيني بحظِّ نفس، لأهلكه الله من أول ما دعوتم عليه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واعذر الفقيه إذا أنكر علىٰ فقير، ولا تزدري الفقير إذا دعا فلم يُستجَب له؛ لأنه لا يدعو علىٰ أحد إلا مع التفويض إلىٰ الله ورد العلم في ذلك إليه، فيقول: اللهم افعل كذا إن كان فيه مصلحة لي أو لغيري، فإذا وقع له بعد ذلك ردٌّ كان جبرًا له، ولا يقدح ذلك في مقام ولايته، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا ترك القرب من زوجته مدة طويلة، وطلبت منه الطلاق، فلم يفعل، فلاث الناس به وقالوا له: إما تقضي وطرها، وإما تطلقها، بأنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن الوطء بالأصالة حقه فله تركه، وربما اطلع من طريق كشفه أنه لا نصيب لها في التزوج بغيره، فلم يجبها إلىٰ الطلاق، وربما كان عدم إجابتها للطلاق إنما هو شفقة علىٰ دينها، عملًا بحديث: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة»[1]، وربما اطلع الشيخ من طريق كشفه أن طلبها منه القرب منها إنما هو بطر وشره نفس لغفلتها عن الله تعالىٰ، فأراد بذلك رياضة نفسها، لأنها مع الشيخ كالمريد في باب التربية، فإذا أجابها إلىٰ شهوة نفسها فقد غشها.

واعلم يا أخي أن بعض الفقراء ربما استحكمت فيه هيبة الله تعالىٰ لاستيلاء الغيرة الإلهية علىٰ قلبه، فصار كلما قرب من زوجته أخذه الحياء من الله والخشية والرعدة حتىٰ يكاد يذوب جسمه، كما يؤيد ذلك حديث: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش»[2].

ومما وقع لبعض الفقراء أنه قرب من زوجته غافلًا عن ربه عزَّ وجلَّ، فلما صار منها بمكان برز له ملك بدبوس وأراد يضرب رأسه وقال له: إلىٰ متىٰ أنت غارق في شهوات نفسك؟! فلم يقرب بعد ذلك من زوجته حتىٰ مات.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٢٥٨) بلفظه، وابن ماجه (٢٠٥٥)، وأحمد (٢٢٣٧٩) بنحوه

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) وأحمد (٢١٥١٦).

إليه ﷺ، وإنما ذكرها عن بعض العارفين من أهل الاجتهاد في الطريق، وما استحسنه المجتهد فهو حسن.

وصورة دعاء هذه الاستخارة أن يقول: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم لا أعلم، وأنت علَّام الغيوب، اللهم إن كنتَ تعلم أن جميع ما أتحرك فيه أو أسكن في هذا اليوم من هذا الوقت إلىٰ مثله من الغد، ويتحرك فيه غيري أو يسكن كذلك، في حقِّ أنفسنا وفي حقِّ غيرنا خيرًا لنا في ديننا ومعاشنا، وعاقبة أمرنا وعاجله، فاقدره لنا ويسره لنا. وإن كنتَ تعلم أنه شرٌّ لنا ولغيرنا في ديننا ومعاشنا، وعاقبة أمرنا وعاجله، فاصرفه عنا واصرفنا عنه، واقدر لنا الخير حيثُ كان، ثم رضنا به يا أرحم الراحمين». انتهىٰ. وإن فعلها كلَّ جمعة قال في دعائه: من هذا الوقت إلىٰ مثله من الجمعة الآتية، ويُقاس علىٰ ذلك الشهر والسنة.

قالوا: فمن فعل ذلك كانت حركاته وسكناته في حقِّ نفسه وغيره كلُّها سعيدة. قالوا: وقد جربنا ذلك فوجدناه صحيحًا، فهو وإن لم يصح فيه شيء عن الشارع، فلنا العمل به من حيثُ التجربةُ، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦٦) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يجتمع عليه أصحاب الحقوق من التجار وغيرهم، فيعلمهم كيف الدعوىٰ بحقوقهم، فلاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا يجوز، فقد ورد في الحديث مرفوعًا: «من أعان ظالمًا علىٰ ظلمه، أو لقنه حجة يدحض بها حق امريء مسلم، فقد باء بغضب من الله تعالىٰ»[1]، بأنه لا ينبغي اللوث به إلا إن أدَّىٰ ذلك إلىٰ تضييع الحقوق وإبطالها. ويحتاج من يريد معرفة ذلك إلىٰ علم وافر وخلطة شديدة، وإلا فمن كان دونه في العلم أو لم يخالطه، لا يجوز له الخوض في عرضه، والواجب حمله علىٰ المحامل الحسنة، وهي منع المبطِل أن يصل إلىٰ ما طلب، ومساعدة المحِقِّ

(١) ذكره أبو الليث السمرقندي في تنبيه الغافلين من كلام سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ ص٣٧٧، ويشهد له الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٩٤٤) من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «من أعان ظالمًا بباطل ليدحض بباطله حقًا فقد بريء من ذمة الله وذمة رسوله....» والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٠).

أن يصل إلىٰ حقِّه بالطرق الشرعية، ولا يجوز حمله علىٰ غير ذلك، ومن خالفنا في ذلك، فالآخرة تجمعه هو وذلك العالم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا وعد أحدًا بوعد وأخلف، من حضور عنده، أو إعطائه شيئًا مثلًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا من أخلاق المنافقين، وذلك لا يليق بالعلماء والصالحين، بأنه يجب حمله علىٰ أنه لم يخلف ذلك الوعد تهاونًا به، وإنما ذلك لعذر شرعيّ من نسيان، أو عدم وجود ما وعد به من وجه حلال، ونحو ذلك، فإنه لا يؤمر[1] أن يعطي أحدًا شيئًا من الحرام والشبهات، كما هو مقرر في علم الشريعة.

وقد اعتذرتُ مرةً لبعض الإخوان بنحو ذلك حين سألني أن أسأل له أحدًا من التجار في شيء ينفقه، ثم نسيتُ ذلك مدة، فلما تذكرتُ لم أجد محلًّا قابلًا للسؤال، فقطع في عِرْضِي ذلك الشخص في عدة مجالس، فاعتذرتُ إليه، فقبل عذري، لكن بعد تعب شديد. فاحمل يا أخي العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم أعظم مروءة منك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان له صاحب من الولاة، فعُزِل وتولىٰ غيره، فأصبح عند المتولي يسلِّم عليه، فلاث الناس به وقالوا: فلان مع كلِّ خيل مغيرة، أيش للعلماء والصالحين مع الظلمة حتىٰ ينحشروا فيهم؟! بأنه يجب حمل ذلك العالم أو الشيخ علىٰ المحامل الحسنة، وأنه لا يصحب أحدًا من الأمراء إلا لله تعالىٰ أو للأغراض الصحيحة، كأن ينصحه ويكفه عن الظلم، أو عن بلص[2] أحد من رعيته، وعن المشي بينهم بالأغراض الفاسدة، أو عن أذىٰ المعزول وجماعته، فإن الغالب علىٰ من يتولىٰ وظيفة أحد أن يكون بينه وبينه عداوة، فإن كان بين هذا العالم وبين المتولي[3] صداقة، فربما قبل شفاعته في المعزول وجماعته، فلم يتعرض لهم بسوء، ولا يخفىٰ أن

(١) بالأصلين: لأمر. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بَلَصَهُ من المال: لم يترك له منه شيئًا.

(٣) بالأصلين: السائل. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

العالم لا يصحب الأمير غالبًا إلا لتفريج الكرب على يديه، فلما عُزِل ذلك الأمير، بطلت منفعة ذلك العالم أو الشيخ من صحبته[1]، فتردد للثاني ليفعل معه ما كان يفعله مع الأول من النصح والخير. ولا يجوز حمله على المحامل السيئة والأغراض الفاسدة، فإن ذلك أبعد ما يكون في حقِّ العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا ذكر أحدًا بسوء في غيبته، ولاث به الناس وقالوا: كيف يدعي هذا العلم أو الصلاح وهو يستغيب الناس في المجالس؟! بأنه لا يجوز المبادرة إلى الإنكار على مثل هذا العالم أو الشيخ إلا بعد الاطلاع على نيته وقصده، فقد يريد بذكره بنقائصه في غيبته أن السامعين يبلغونها له، ليحصل له التنبيه للتوبة عنها، إذ من شأن البشر أن يأخذ في التطهر[2] عن كلِّ شيء نقصه الناس [به] في المجالس، ولا يحب أن يذكره الناس إلا بالكمالات، فقصد هذا العالم أو الشيخ بما ذكره الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن بواسطة غيره، ولم يقصد بذلك محض تنقيصه على محض التشفي. ومن حمل العالم أو الصالح على ذلك، فإنما هو صورة ما في نفسه هو.

ثم إنه إن لم ينزجر من اغتابه العالم أو الشيخ بذلك، فله العود إلى غيبته ثانيًا وثالثًا، وهكذا مادام غرضه صحيحًا، ثم إن كان صالحًا فهو يشكر فضل العالم أو الشيخ، وإن كان فاسقًا فلا عليه منه، فإنه إن غضب منه في الدنيا، فسوف يشكر فضله في الآخرة.

فإياك يا أخي أن تحمل العالم على التشفي والتنقيص والتفكه في أعراض الناس إذا قال: فلان قليل العقل، أو ثوبه وسخ، أو نعله مقطع، أو داره ضيقة، أو حمارته عرجاء، أو واسع الكم، أو طويل الذيل، أو كثير الكلام، أو كبير العمامة، أو يغتاب الناس، أو يحب التعظيم، أو يزاحم على صحبة الأغنياء، أو يحب الدنيا ونحو ذلك، بل الواجب

---

(١) بالأصلين: بينه. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: التغفل.

حمله على الأغراض الصحيحة، فإن العلماء والأشياخ يجل مقامهم عن ازدراء أحد من المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أن الله تعالىٰ أطلعه علىٰ عدد من كان في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام من السعداء، فأنكر عليه الناس ذلك وقالوا: هذا يدخل في مشاركة الحقِّ تعالىٰ في العلم الذي اختص به، بأنه قد يكون صادقًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي معلوماته إلا بما شاء، ومثل هذا قد يشاء الله تعالىٰ أن يطلع أولياءه عليه.

وممن أدركتُه من أهل هذا المقام أخي أفضل الدين ﵀، فإني سألتُه عن عدد أهل الجنة من البشر الذين لا تمسهم النار، فقال: هو ما تحصَّل من ضرب سبعمئة ألف ألف ألف تسع مرات ونصف وسبعة عشر ألف وستمئة وستة وستين وسدسًا في ثلاثمئة وستين ألفًا، لا يزيدون علىٰ هذا واحدًا ولا ينقصون. انتهىٰ. فقلتُ له: فأهل النار؟ قال: لا يحصىٰ عددهم إلا الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي معرفة الطب علىٰ غير قواعد الأطباء المشهورين، [فلاثوا به][1] وقالوا: هذا لا يجوز لأحد أن يعتمد علىٰ كلامه، ويترك قواعد الأطباء الأقدمين الذين أخذ العلماء قديمًا وحديثًا بقولهم، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان طبه أصح من طب هؤلاء الأطباء، إذ مبنىٰ طب هذا علىٰ الكشف الصحيح، ومعلوم أن الكشف الصحيح شبيه بنصوص الشارع في الصدق، وإن كان لا يجب علىٰ أحدٍ العمل به إلا بعد عرضه علىٰ الشريعة المطهرة، فافهم. وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: طب الأطباء يخطيء ويصيب، وطب أرباب الكشف لا يخطيء أبدًا. انتهىٰ.

وكان سيدي عليٌّ الخواص كثيرًا ما يصف للناس أمورًا تخالف قواعد طب الأطباء،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

ويكون في ذلك سرعة الشفاء. وكان ﷺ لا يتوقف في طبه على رؤية المريض، ولا مس نبضه[١]. ولما مرض ولدي عبد الرحمن الذي من حليمة القصبية وأشرف على الموت، وعجز الأطباء عن طبه، أرسل له عزقًا من شجرة نبق، وقال: علِّقوه عليه يبرأ؛ فكان الأمر كذلك في الحال، وكأنه لم يكن به مرض.

ولما أطعمتْ ابنةُ الشيخ الصالح محمد العجمي الذي كان ينشد كلام سيدي عمر بن الفارض والدَها المذكورَ السمَّ، عجز أطباء البيمارستان عن تشخيص مرضه، فأرسلتُه للشيخ عليّ، فأول ما رأى وجهه عرف أن ابنته أطعمته السم، ولم يكن للشيخ محمد علم بذلك، فقال له: الله تعالى يأخذ حقَّك منها. فقال: يا سيدي من هي؟! فقال: ابنتك أطعمتك سمًّا في قَطْر. فقال: صحيح! أكلتُ عندها زلابية أمس وغمستها بقَطْر[٢]. فقال: اذهب إلى غيط فلان، وأعطيه نصفًا وخذ به نارنجًا[٣]، وكل منه ما تقدر عليه بشحمه، فكان شفاؤه بذلك.

ولما حصل الاستسقاء لزوجة صاحبنا الحاج محمد الملقب بـ«جزيرة» بناحية إبيار[٤]، عجز عنها الأطباء، فأرسلتها إلى الشيخ عليّ، فقال لها: كلي سبعة أيام ورق الفجل أول النهار وعند النوم، ومصي عليه عود السوس؛ فكان الشفاء في ذلك، فقال له أخي أفضل الدين: ألا تكتب هذا الطب؟ فقال: لا؛ لأن السرَّ في ذلك استعماله بالإشارة منا، وإلا فهذه الأمور لا تفعل هذه الأفاعيل بنفسها.

وسمعتُه ﷺ يقول: إذا مرض أحد من الفقراء، فانظروا في أمره، فإن وجدتُم في نفسه هيجانًا، وفي قلبه نيرانًا، وفي بدنه طيشانًا بسبب حال قاهر، فلا تتعبوا نفوسكم فيه، ولا

---

(١) بالأصلين: مسك بنصة.

(٢) القطر: شربات الحلوى المعقود من الماء والسكر.

(٣) النارنج: شجر مثمر من الفصيلة البرتقاليّة دائم الخضرة، ثمرته لُبِّيَّة ذات عصارةٍ حمضيَّة مُرَّة، وأزهاره بيض ذوات رائحة طيِّبة تُستعمل في صُنع العطور، وقشرة الثّمرة تستعمل في عمل المرَبيّات وفي الطبّ دواء.

(٤) إبيار: إحدى قرى مركز كفر الزيات التابع لمحافظة الغربية بمصر.

تدعوا له طبيبًا، بل ادعوا له بتخفيف المرض وانصرفوا، فإن محله لا يقبل التطبب؛ وإن وجدتم حاله كحال الأموات لشدة الألم الذي في باطنه، والضعف الذي في بدنه، والانحطاط الذي في روحه، ومع ذلك كثير الغيبة والاستغراق، فذلك فتوح من الله تعالىٰ قَبِلَه محلُّه بقوة الاستعداد، وليس ضعفه من ضعف المزاج حتىٰ تعرفه الأطباء، فإنهم لا يعرفون من الأمراض إلا ما كان سببه المزاج المتولِّد من الطعام والشراب لا غير. فاعلم ذلك يا أخي، وسلِّم للأولياء ما يدعونه من الطب، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا رأيناه يعظِّم الأمير أعظم ما يقع منه للفقير، ولاث الناس به وقالوا: إنه لا يعظمه إلا للدنيا، بأنه لا يجوز حمله علىٰ ذلك، فربما كان تعظيمه له لكثرة نفعه للعباد والبلاد، أو لكونه كثير التواضع كما هو الغالب علىٰ الولاة، وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه»[1]، ومن ر فعه الله استحق التعظيم. وربما كان الأمير الكبير أشد تواضعًا من الفقراء من بوَّاب داره، بل من كثير من المتصوفة الذين يدعون الصلاح.

وقد دخلتُ مرةً علىٰ الوزير علي باشاه لما كان نائبًا في مصر، فقام لي عن الكرسي الذي كان تحته، وجلس علىٰ كرسي دونه، وقبَّل يدي، وقدَّم لي نعلي، ووضعه بيده في رجلي، وهذا لا يفعله أحد من متصوفة زماني معي إلىٰ وقتي هذا.

وكذلك لما دخلت علىٰ الأمير عامر بن بغداد في مولد سيدي أحمد البدوي، وكان في دواره نحو العشرة آلاف نفس ما بين أمراء ومشايخ عرب وتجار وغيرهم، فقام عن الكرسي وأجلسني مكانه، ووقف بين يدي، وعجزتُ فيه أن يجلس فلم يرض، ولما ركبتُ حلف أني أضع رجلي[2] علىٰ وركه حتىٰ أركب، فخلعتُ نعلي لأجل يمينه، ووضعت رجلي من غير نعل، فمسك النعل وقبَّله بحضرة هؤلاء الخلائق، فاستحييتُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٣٥)، والبيهقي في الشعب (٧٧٩٠).

(٢) بالأصلين: نعلي. والصواب ما أثبتناه، بدلالة السياق.

من الله تعالىٰ أن ألبس ذلك النعل مع وضع الأمير فمه عليه، فقطعتُ موضع فمه، وأعطيتُه لبعض أصحابي، فوضعه عنده في علبة.

فانظر يا أخي وقس بعقلك هل يفعل أحد من أقرانك معك مثل ذلك، ثم يرىٰ لنفسه الشرف بذلك؟! تعرف أن هؤلاء الأمراء من أشد الناس تواضعًا لعلو مقامهم، بخلاف من كان منخفض المقام، فإن عنده من النفس ما لا يوصف. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والزموا الأدب مع العلماء والصالحين، فإنكم دونهم في العلم والعقل والخوف من الله تعالىٰ، والزهد في الدنيا بيقين، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يحب أعداءه أكثر من أصدقائه، أو الشيخ الذي يذكر الناس بالسوء من أصدقائه وأعدائه، ولاث الناس به وقالوا: فلان لا يعرف الصديق من العدو، وهو قائم في حظ نفسه، يذم بغير حقٍّ، ويمدح بغير حقٍّ، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار بمجرد ما ذُكِر، لأنه ربما كان أصدقاؤه يداهنونه ولا ينصحونه، فرأىٰ الأعداء الذين يقعون في عرضه أكثر نفعًا من هؤلاء الأصدقاء بالنظر للثمرة، فإنهم يذكِّرونه بعيوبه ويقبِّحونها في عينه، ليأخذ حذرَه من الوقوع فيها.

وأما وقوعه في غيبة أعدائه، فينبغي حمله علىٰ تنبيههم علىٰ عيوبهم، مجازاةً لهم علىٰ ما فعلوه معه من الخير، لا علىٰ التشفي والتفكه في أعراضهم كما يقع فيه الجهلة، فإن الأشياخ يَجِلُّ مقامهم عن مثل ذلك.

وأما وقوعه في عرض أصدقائه من ورائهم، فربما قصد به فتح باب الوقوع في عرضه، ليتنبه لنقائصه حين رآهم مداهنين له، غاشين له، ويُقال في مثل هذه الأمور: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امريءٍ ما نوىٰ»[1]، فإنها تحتاج إلىٰ علم وافر، وميزان دقيق، وخروج عن حظِّ النفس بالكلية، فإن من كان في حظِّ نفسه لا يقدر علىٰ فعل شيء مما ذكرناه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من علامة صدق من يدعي محبة عدوه

---

(١) تقدم تخريجه.

أكثر من صديقه المداهن له أن ينشرح صدره إذا دعاه العدو إلىٰ أن يتلمذ له، فإن أجاب إلىٰ ذلك بانشراح، فهو صادق خارج عن حظ نفسه، وإلا فهو مدعٍ كذاب. انتهىٰ. فاعلم ذلك أيها الأخ، وصدِّق الفقراء فيما يدعون ما لم يدعوا باطلًا كالنبوة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: إياكم أن تناجوا ربكم في صلاتكم مع الحضور، فإن ذلك جهل، وناجوه بحكم الغيبة، فإن ذلك علم؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: الحضور مع الله من كمال الصلاة، فكيف ينهىٰ هذا أصحابه عنه؟! بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ إلا بعد الاستفهام منه ماذا أراد بذلك، فربما أراد بعدم حضورهم مع الحقِّ تعالىٰ تنزيهه عما تخيلوا أنهم حاضرون معه من الأمثال التي تتمثل في خيالهم، ويصرفونها عن قلوبهم فورًا ويقولون: إن الله تعالىٰ بخلاف ذلك، فأراد لهم أن يعبدوه علىٰ الغيبة عن ما تخيل لهم، ويعتقدون أن الله تعالىٰ يراهم ولا يرونه. وهذا أكمل في التنزيه لجناب الحقِّ جلَّ وعلا، فلا اعتراض علىٰ الشيخ، إلا لو نهاهم عن الحضور مع الله مطلقًا، بأن يحضروا مع الأكوان دون الله تعالىٰ، وهذا بعيد أن يقع من آحاد المسلمين فضلًا عن أشياخ الطريق.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: كلُّ من حصل له لذة بمناجاة الحقِّ جلَّ وعلا فهو محجوب بذلك عن الله بسبعين ألف حجاب، لأن حضرة الله تعالىٰ حضرة هيبة وخوف، لبعد الأمر الجامع بين الله تعالىٰ وبين عبده، إذ لا مجانسة[1] بينه تعالىٰ وبين عبده بوجه من الوجوه. ومعلوم أن اللذة لا تكون إلا بالمجانس، ولذلك كان الإنسان يفزع من رؤية الجن والوحوش. قال: ومن هنا كان الأكابر يستغفرون من كلِّ صلاة حصل لهم فيها لذة حال ذكرًا أو قراءة، ويعدون ذلك من سوء الأدب مع الله تعالىٰ. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول مرارًا: مما يَدُلُّك علىٰ أن عبادة الله تعالىٰ مع الغيبة من غير شيء يتمثل في الذهن أكمل كونُ القطب الغوث دائمًا بحجاب[2]، وكذلك جبريل، فقد أجمع

---

(١) بالأصلين: مجالسة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: من غير حجاب. والصواب ما أثبتناه بدلالة السياق.

أهل الكشف علىٰ أن حجابهما لا يُرفَع إلا في الدار الآخرة. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة حسب الطاقة، وإن لم تجدوا لهم محملًا فسلِّموا لهم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا توسع في المآكل والملابس والمناكح، ولاث الناس به وقالوا: لو أن هذا تورَّع عن الحرام والشبهات، ما قَدِر علىٰ تحصيل الخبز الحاف، ولا الجبة الخشنة، ولا مهر جارية سوداء، ولا ثمن حمارة عرجاء، بأنه لا يجوز الاعتراض علىٰ هذا الشيخ إلا بعد مخالطة شديدة ومعرفة ما هو عليه، فإن الله تعالىٰ ربما وسَّع علىٰ العبد الدنيا وجرَّد قلبه عن الميل إليها، وقسم له المآكل الفاخرة والملابس الحسنة والمراكب النفيسة من غير تعب وحساب، حتىٰ لو أراد الخروج عن ذلك إلىٰ أضداده لا يقدر، وكيف يقدر علىٰ تغيير القسمة الإلهية؟! فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك في حقِّ العلماء والصالحين، ولا تدخل بينهم وبين مقاصدهم، والحمد لله رب العالمين[1].

(٦٧٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي شكا إليه شخص كثرة ما يقاسيه من ألم العشق لامرأة في الحرام، فأرسل خلف المرأة فأتت، فجمعهما عنده في تلك الليلة، فلاث الجيران به وقالوا: أيش خلىٰ هذا لصاحب جهة بنات الخطا؟! بأنه لا يجوز المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ بمجرد جمعهما عنده، فربما كان قصده بالجمع بينهما من غير تخويفهما وعظهما بحضرة بعضهما بعضًا، لتنفر نفوسهما من الحرام، فإن الجمعية لها تأثير في مثل ذلك، وربما قال لهما: قوما فافعلا ما بدا لكما بحضرتي؛ فإذا امتنعا من ذلك، يقول لهما: الله تعالىٰ أحقُّ بالاستحياء مني. وقد رأيتُ أخي أفضل الدين فعل مثل ذلك، فخرج الشاب والمرأة تائبين، ولم يزالا علىٰ التوبة إلىٰ وقتنا هذا.

وقد كان ﷺ من أحسن الناس كلامًا للعصاة، فإن العاصي كالمريض الذي يشكو مرضه إلىٰ الطبيب، فإذا زجره الطبيب ولم يسمع له شكواه، فاتته المداواة والأجر،

---

(١) راجع الجوابين: (٢٥٨)، (٣٥٧).

وقد ورد في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد أنه ﷺ نهىٰ الصحابة عن كلامهم له بالعنف وقال: «لا تزعجوه حتىٰ يفرغ من بوله، ثم دعاه ﷺ وقال: يا أخي، إن المساجد لم تُبنَ لمثل هذا، إنما بُنيتْ للذكر والصلاة وقراءة القرآن، ثم دعا بدلو من ماء فصبه علىٰ موضع بوله[1]، وقال: إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[2].

وروىٰ الحافظ الدمياطي بإسناد حسن: «أن شابًا جاء إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به. فقال: أَقِرُّوهُ أَقِرُّوهُ. فدنا منه النبي ﷺ وقال له: أتحب ذلك لأمك؟ قال: لا يا رسول الله! جعلني الله فداك! فقال: كذلك لا يحبه الناس لأمهاتهم. ثم قال: أتحبه لابنتك؟ قال: لا! قال: كذلك لا يحبه الناس لبناتهم، حتىٰ ذكر الأخت والخالة والعمة، ويقول: كذلك الناس لا يحبونه. ثم وضع رسول الله ﷺ يده علىٰ صدر الشاب وقال: اللهم طهِّر قلبه، واغفر ذنبه، وحصِّن فرجه، فلم يكن بعد ذلك شيء أحب إليه من ترك الزنا»[3]. انتهىٰ.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين إذا لاطفوا العصاة وألانوا لهم القول، واحملهم علىٰ أحسن المحامل، فإن حملك العالم الكبير أو شيخ الزاوية علىٰ أنه جمع بين العاشق والمعشوق ليعينهما علىٰ الحرام أبعد من البعيد، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا سمعناه يقول لأمير أو صاحب جهة: لا تخف يا أخي من هذا الظلم الذي وقع علىٰ أيامك، فإنك لم تنزله علىٰ العباد، وإنما الحق تعالىٰ هو الذي أنزله علىٰ الخلق بذنوبهم؛ فلاث الناس به وقالوا: هذا القول لا يجوز، لأنه كالسعي في هدم قواعد الشريعة، ويجريء الناس علىٰ انتهاك حرمتها وتعدي حدودها، إنما الواجب علىٰ هذا العالم أو الشيخ أن يقبِّح المظالم التي وقعت في

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥) من حديث أنس بن مالك، والبخاري مختصرًا (٦٠٢٥).

(٢) أخرج هذه الرواية البخاري (٢٢٠) وأبو داود (٣٨٠) والترمذي (١٤٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٢١١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٠٣٢) والطبراني في «الكبير» (٧٦٧٩).

أيامه في عينه ويخوِّفه ويزجره أشدَّ الزجر، بأن مثل هذا العالم أو الشيخ لا يجهل هذا الذي قاله الناس، وربما كان له عذر شرعي في ذلك، كأن رآه قد غلب عليه القنوط من رحمة الله عزَّ وجلَّ، حتىٰ كاد يقطع بأنه من أهل النار، فخفف هذا العالم عنه الأمر. ليذهب عنه القنوط، ثم بعد ذلك يعظه ويخوِّفه حتىٰ يبلغ حدَّ الاعتدال في الخوف، فإن وظيفة العلماء **هكذا: يخوِّفون من غلب عليه الرجاء، ويرجُّون من غلب عليه الخوف.**

ولا يجوز لأحد حملهم علىٰ أنهم قالوا ذلك القول للظالم بغير طريق شرعي. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك ولحوم العلماء فإنها سمٌّ قاتل، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٨) ومما أجبتُ به عن الطبيب المسلم الحاذق إذا قصَّر في مداواة مريض، وطوَّل عليه المرض، فلاث الناس به وقالوا: ما بقي أحد من أطباء المسلمين عنده شفقة علىٰ مسلم، ولعله إنما طوَّل عليه المرض لأجل الفلوس التي يأخذها كلما يأتي إلىٰ المريض، بأنه لا ينبغي اللوث [به][1]، فلعله إنما لم يصف له الدواء الذي يسرع بشفائه لمصلحة تعود علىٰ ذلك المريض، كأن علم منه كثرة الذنوب والبخل، فإذا مرض تصدَّق علىٰ الفقراء وكُفِّرت عنه خطاياه ونحو ذلك. وربما جاء بعده يهوديٌّ فوصف له ما يسرع بشفائه، فيصير الناس يقولون: إن هذا اليهوديَّ أنصحُ من فلان للمسلمين؛ ويصير يمدح اليهودي ويذم المسلم، وغاب عنه أن اليهوديَّ لم يهتد لتلك الحكمة التي رآها الطبيب المسلم.

وقد كان حاتم الأصم ﷺ إذا رأىٰ بخيلًا يتصدق في مرض موته يقول: اللهم أدم مرضه، فإنه تكفير لخطاياه وأفضل للفقراء. انتهىٰ. وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله إذا رأىٰ أحدًا من الشرطة أو الذين يؤذون الناس في أعراضهم قد مرَّ من [أمامه مريضًا][2] يقول: اللهم أدم مرضه حتىٰ لا يؤذي نفسه بأذىٰ المؤمنين، فاعلم ذلك.

(٦٧٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصالح الذي يموت في حارته أو بلده عالم

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

كبير، فيثني عليه الناس خيرًا، فلا يوافقهم في ذلك ويقول: أنا لا أعتبر شكر هؤلاء الناس كلِّهم؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقال: هذا مخالف لقول رسول الله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الارض، فمن أثنيتم عليه خيرًا فهو خير، ومن أثنيتم عليه شرًّا فهو شر»[1]. انتهىٰ.

والجواب: أنه ينبغي حمل هذا العالم الذي لا يوافق الناس في السير علىٰ أمر خاص أنه ينهِض همم أبناء جنسه، ليزيدوا عليه في الأعمال والزهد والورع، فإن الناس كلما تقارب الزمان كانت أعمالهم كبيرة الجرم، قليلة المعنىٰ والإخلاص.

وأيضًا فإن شكر العامة للعالم لا عبرة به، لجهلهم بمقامه الذي خلقه الله تعالىٰ به، ولا يكتفىٰ من العالم بالمشي علىٰ قانون العوام، لابد من تميز كثير عنهم، **فشكر العامة يُعتبَر في العامة، وشكر الخاصة يُعتبَر في الخاصة**. فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل العالم الذي لم يشكر ذلك العالم الميت علىٰ الحسد والبغضاء، كما قد يتبادر إلىٰ الأذهان، فإن ذلك لا يجوز في حق العلماء. وفي التوراة: «من أثنىٰ عليه جيرانه العوام خيرًا فهو من أهل الشر». انتهىٰ. لأنه كان لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولو أنه أمرهم ونهاهم لم يشكروه، بل ربما رموه بالعظائم.

وكان أبو حمزة البغدادي[2] ﷺ يقول: لا تنظروا لشكر العامة في العلماء إذا ماتوا، ولكن انظروا إلىٰ شكر الزهَّاد والعبَّاد فيهم، فإن العامة قد ترىٰ الحرام فلا تنكره، وتنكر علىٰ الناس المباح، فترىٰ أحدهم يقع في الغيبة والنميمة، والغلِّ والحقد والحسد، والكبر والعجب وغير ذلك، ويرىٰ وقوعها من الناس، ولا ينكر علىٰ نفسه ولا علىٰ الناس، ثم يعتب علىٰ العلماء والصالحين لبس الثوب الذي فيه حرير مباح، أو أكلهم الحلاوة، أو شربهم المُسَكَّر. انتهىٰ.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٦٧) ومسلم (٩٤٩).

(٢) شيخ الشيوخ، أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي. جالس بشرا الحافي، والإمام أحمد. وصحب السري بن المغلس. وكان بصيرًا بالقراءات. وكان كثير الرباط والغزو. كان يقول: من المحال أن تحبه ثم لا تذكره، وأن تذكره ثم لا يوجدك طعم ذكره، ويشغلك بغيره. توفي: ٢٦٩هـ وقيل: ٢٨٩هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ١٦٥) و«طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمي (٢٢٧)

وكان عيسىٰ عليه الصلاة والسلام يقول: «لا يسب النبي أو الصالح إلا أهل مدينته أو جيرانه»[١] وذلك لأنه ينصحهم، فيكرهونه ويسبونه وينكرون عليه [...][٢] وربما كان أكثر عذرًا في حضوره، وأقل لومًا منهم علىٰ لومهم له. وربما كان دخول العالم أو الصالح مواضع المعاصي ليسوس أهلها بالشريعة حتىٰ يتوبوا

فيُحمَل قول رسول الله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض»[٣] إلىٰ آخره علىٰ العارفين لدسائس الأعمال والأحوال، كما كان عليه الصحابة الذين خاطبهم بذلك، ولا منافاة بين ما قلناه وبين الحديث، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٠) ومما أجبتُ به عن القاضي الذي يعتني بتخليص حقوق العلماء أكثر من اعتنائه بتخليص حقوق آحاد الناس. وإذا وقع أحد في حقِّهم، شدد في تأديبه أكثر مما يشدد في حقِّ آحاد الناس، فلاث به بعضهم وقالوا: الحق ليس فيه محاباة، بل كما تحكم علىٰ الوضيع، كذلك تحكم علىٰ الشريف، لا تراعي في الحقِّ أحدًا، بأنه قد يكون تشديده في تخليص حقِّ العالم وتأديب من وقع في عرضه باجتهاد، فلا اعتراض علىٰ الحاكم بذلك. ويؤيده في ذلك قول عكرمة ﵁: إياكم أن تؤذوا واحدًا من العلماء، فإن من آذىٰ عالمًا فقد آذىٰ رسول الله ﷺ. انتهىٰ. ومعلوم أن من آذىٰ رسول الله ﷺ فللحاكم التشديد في عقوبته، وإن كان صغير المسلمين عند الله كبيرًا كما قاله أبو بكر الصدِّيق ﵁.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: قد قال عبد الله بن عباس: إن المؤمن أعظم حرمة عند الله تعالىٰ من الكعبة[٤]، وأنت لو رأيت إنسانًا يلطِّخ الكعبة بعذرة

---

(١) ذكره المؤلف في «تنبيه المغترين» ص٧٢.

(٢) الظاهر من سياق الكلام وجود سقط هنا في الأصلين.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) وعن عبد الله بن عمر ﵄ قال: «رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه وأن نظن به إلا خيرًا» أخرجه الطبراني «في مسند الشاميين» (١٥٦٨) والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٦٠).

لكدت أن تكفره، ولا ترىٰ أن الصفع والحبس يكفيه، فإيذاء العالم وإيذاء رسول الله ﷺ أشد من إيذاء الكعبة.

فاعلم ذلك، ولا تعترض علىٰ الحاكم إذا شدد في عقوبة من وقع في عرض عالم، وإياك أن تحمله علىٰ حظِّ النفس، والعصبية مع أهل حرفته، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا زوَّج ابنته أو موليته لعالم، وصار يسمع كلامها في حقِّ العالم، ولا يسمع للعالم، فلاث الناس بالشيخ وقالوا: هذا يقوم في حظِّ نفسه وينصرها، ولا ينبغي أن يكون مثله شيخًا علىٰ الفقراء.

والجواب عنه: بأن ذلك قد يكون لسذاجة لا لحظِّ نفسه، وما كل الرجال أُعطوا الفرقان بين حظِّ الله تعالىٰ وحظِّ نفوسهم، فلما كانت وصلة ابنته به مثلًا أكثر من وصلته بالعالم، سمع لابنته أكثر، ولو أنه بلغ مبلغ الرجال لقدَّم كلام العالم علىٰ كلام ابنته وغيرها، فعلِّمه يا أخي المراتب ثم أنكر عليه.

وقد كان حاتم الأصم ﷺ يقول: كن مع زوج ابنتك أو أختك عليها، تصلح عليهما دينهما، ولا تكن مع ابنتك أو أختك علىٰ زوجها، تفسد عليهما دينهما. انتهىٰ. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: كلام الرجل ولو بلغ الغاية في القبح لا يساوي قبح كلام المرأة. ولذلك قال خلف بن أيوب[1]: خصلتان لا رأي للرجل الكامل معهما: الحقن بالبول، ونقارة المرأة. وكان شقيق البلخي يقول لامرأته: لو كان أهل بلخ كلهم معي وأنت عليَّ لغلبتني.

وقد شكا نبي من الأنبياء سوء خلق امرأته، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: إني جعلتُ ذلك حظَّك من سوء العتاب، وقد جعلتُ للرجال علىٰ النساء درجة، فمن لم يصبر علىٰ أذىٰ زوجته له، فكيف يطلب أن يكون له عليها درجة؟! انتهىٰ. فتعلم يا أخي السياسة، وكن

---

(١) بالأصلين: أيوب بن خلف، والصواب ما أثبتناه، وهو خلف بن أيوب أبو سعيد العامري الإمام، المحدث، الفقيه، مفتي المشرق، أبو سعيد العامري، البلخي، الحنفي، الزاهد، عالم أهل بلخ. توفي: ٢٠٥هـ وقيل: ٢١٥هـ «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٥٤١) «تاج التراجم» لابن قطلوبغا (١٦٦).

مع زوج ابنتك على ابنتك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير إذا رأيناه يزاحم على الرئاسة، وينشرح إذا قام من مجلس درسه مثلًا فأكب الناس على تقبيل رجليه، وصاروا يشيعونه إلى داره، فلاث الناس به وقالوا: فلان يحب الرئاسة والمشيخة، ولو أنه كره ذلك ما قبَّل أحد رجله، ولا تبعه يمشي في ركابه إلى داره، بأنه ربما كان يزاحم على الرئاسة في ذلك الأمر بحقٍّ، كأن يكون أعلم من أقرانه بعلم الشريعة، أو أقدر على إنصاف تلامذته من بعضهم بعضًا، أو أقدر على تخليص خراج الوقف إن عمل ناظرًا، أو أعلم بمداوة أمراض المريدين إن كان مسلِّكًا، وقس على ذلك كلَّ ما فيه رئاسة.

ولا يلزم من إكباب الناس على تقبيل رجليه والمشي في خدمته أنه يحب ذلك، فقد يكرهه، ولكن الخلق يفعلون معه ذلك من كثرة اعتقادهم فيه. وإنما كان السلف الصالح يذمون من يفعل الناس معه ذلك، لأنهم كانوا كلهم متواصين على سدِّ الأبواب التي فيها حظٌّ للنفس غالبًا، كما قالوا في الأشعث بن قيس[1] ﷺ لما مشى معه الناس يشيعونه من المسجد إلى بيته: قاتله الله من جبار! لكونه أول من فعل الناس معه ذلك، وقالوا: هذا فيه فتنة للمتبوع، وذِلَّة للتابع. وفي كلام عيسى عليه الصلاة والسلام: «إذا جعلكم الناس رؤوسًا، فكونوا أذنابًا». انتهى. وكان سفيان الثوري يقول: لا يطلب أحدكم الرئاسة على إخوانه إلا بعد مجاهدته نفسه في الرياضة سبعين سنة. انتهى.

فإياك يا أخي أن ترى شيخًا قد طعن السن يزاحم على الرئاسة بعد أن كان يزهد فيها، فتقول: هذا قد ختم عمره بسوء، بل احمله على أنه ما طلبها أواخر عمره وصار يرى نفسه أحق بتلقين المريدين مثلًا من أقرانه إلا بحق، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٣) ومما أجبتُ به عن العوام إذا مدحوا عالمًا أو صالحًا بالصلاة في وقتها، أو

---

(١) الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، كان شريفًا مطاعًا جوادًا شجاعًا وله صحبة، ورواية. شهد اليرموك والقادسية وغيرها، وسكن الكوفة وشهد مع علي صفين، ت سنة ٤٠هـ بعد استشهاد علي بأربعين ليلة. «الإصابة» (١/ ٢٤٠)، «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٧).

بترك شربه للخمر مثلًا، فلاث بهم أصحاب ذلك الشيخ وقالوا: مدحكم هذا كالهجو! إنما يُمدَح الشيخ بما فوق ذلك من الأخلاق الحسنة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالعامة بذلك، فإنهم مدحوا العالم بحسب درجتهم، فيُثابون علىٰ ذلك ثواب من ذكر الناس بخير، فينبغي لمن سمع أحدًا من العوام يمدح عالمًا أو صالحًا أن لا يزجره، بل يعلمه المدح اللائق بذلك العالم أو الصالح، لا بالعامة في غفلة عن أحوال الأكابر.

وقد مدحوا رجلًا عند الفضيل بن عياض مرةً وقالوا: إنه لا يأكل الخَبِيص[1]. فقال: وما ترك الخبيص؟! انظروا كيف صلته للرحم! انظروا كيف كظمه للغيظ! انظروا كيف عطفه علىٰ الجار والأرملة والمسكين! انظروا كيف خلقه مع إخوانه! انظروا كيف احتماله للأذىٰ! ثم إحسانه إلىٰ من آذاه! ونحو ذلك، فهذا هو الأمر الذي ينبغي مدح الرجال لأجله. انتهىٰ.

وكان وهب بن مُنَبِّه يقول: بلغنا أن شخصًا كان يصنع البراذع[2] للحمير، فمر عليه المسيح عليه الصلاة والسلام، فوجده يقول في سجوده: يا رب، لو علمتُ أين حمارك الذي تركبه، لأصنعن له برذعة وأرصعها بالجواهر. فحرَّكه السيد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك أَوَلله تعالىٰ حمار؟! فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ: دعه فإنه مجدني بقدر وسعه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإذا دعا لك أحد من العوام بأن الله تعالىٰ يتوب عليك، فلا تتكدر وتقول في نفسك: إن مثلي تائب، فإن الله تعالىٰ لو أخذك بصغير ذنبك لأهلكك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٤) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا أظهر الغمَّ والحزن، وترك الأكل والشرب ليلة العيدين ويومهما، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا جاهل قد خالف السنة، فإن رسول

---

(١) الخَبِيصُ: المعمول من التمر والسمن.

(٢) البراذع: جمع برذعة، وهي ما ما يُوضع علىٰ ظهر الحِمار أو البغْل ليُرْكَبَ عليه.

الله ﷺ أقر أصحابه وأولادهم علىٰ إظهار الفرح والسرور، والأكل والشرب يوم العيد وقال في أيام منىٰ أنها أيام أكل وشرب وذكر لله[1]، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الفقير بمجرد ظهور هذه الصفات منه، وإنما يكون الإنكار بعد أن تستفهمه عن السبب الداعي له إلىٰ ذلك، فإن رأيناه قد ترك الفرح والسرور لغلبة خوفه من الله تعالىٰ، وشهوده أنه لم يوفِ شهر رمضان مثلًا حقَّه، سلمنا له ذلك. وإن رأيناه فعل ذلك بحكم الطبع اليابس فقط، علَّمناه أن المطلوب من المسلمين إظهار السرور والتبسط في المأكل والملبس والجماع ونحو ذلك، إعطاءً للنفس حقَّها الذي شرعه الحقُّ تعالىٰ لها.

وقد كان الإمام صالح بن عبد الجليل ﷺ يجمع عياله وأهله كلَّ يوم عيد ويجلسون يبكون، فقيل له في ذلك، فقال: إني عبد كُلِفتُ بأمور لا أدري هل وفيتُ بها أم لا؟! وإنما يليق الفرح والسرور في يوم العيد بمن كان آمنًا علىٰ نفسه من دخول النار.

وقد قالوا للحسن يومًا: هل الأولىٰ بنا الخوف أو الأمن؟ فقال: [الخوف][2] حتىٰ يجاوز أحدكم الصراط. وكان ﷺ يقول: كيف يرجو أحدنا النجاة من النار وجميع أعماله تجره إلىٰ النار؟! انتهىٰ. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وسلِّموا للفقراء مشاهدهم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا لم نره يبكي عند سماع القرآن والمواعظ، ويبكي العامةُ وغيرُهم وهو لا يخرج من عينه دمعة، فلاث به العوام وقالوا: ما رأينا أقسىٰ قلبًا من هذا العالم أو الشيخ، بأنه ربما تعدىٰ مقام البكاء بعينيه، وصار يبكي بقلبه الذي هو البكاء الحقيقي.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، إنما الخائف الذي ترك الذنوب التي يبكي من أجلها. وإيضاح ذلك أن الرجل إذا كَمُلَ في مقام العرفان، غلب عليه النظر إلىٰ السوابق التي لا تبديل فيها ولا تغيير.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨١٣)، ومسلم أخرجه دون قوله: «وذكر لله» (١١٤١).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وبلغنا أن عمر بن الخطاب ﷺ رأىٰ شخصًا يبكي عند سماع القرآن، فقال: هكذا كنا حتىٰ قست قلوبنا، يعني حتىٰ قويت وصلبت فصارت راضية بحكم الله تعالىٰ عليها، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للناس: احمدوا الله تعالىٰ الذي حجبكم عن شهوده في هذه الدار؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: كيف يأمر الناس بالحمد علىٰ الحجاب الذي هو سبب لوقوع العبد في المعاصي.

والجواب: أن مرادَ هذا الشيخ بهذا الحجاب الرؤيةُ التي تقع للمؤمنين بعد الموت، فكأنه يقول لهم: من أحب منكم أن يرىٰ ربه، فكأنه يحب الموت، لحديث: «إنكم لن تروا ربكم حتىٰ تموتوا»[1]. وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: لولا الغفلة عن الله، لمات الخلق كلُّهم من خشية الله تعالىٰ. انتهىٰ. فظاهر الغفلة نقمة، وباطنها نعمة، لأن العبد إذا كُشِف حجابه طالبه الله تعالىٰ بآداب [لا][2] يطالب بها المحجوب، وأخذه بأمور لم يؤاخذ بها المحجوب.

وبالجملة فينبغي حمل هذا الشيخ علىٰ أنه أمر إخوانه بأن يحمدوا الله علىٰ الحجاب من حيثُ التقديرُ، ويستغفروا الله منه من حيثُ الكسبُ، كما هو اللائق بمقام الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: يا كذاب بشهادة الله في محبته لله؛ فلاث به بعض الناس وقال: من أين يعلم هذا أن الله تعالىٰ قد شهد بكذب هذا المريد؟! وما ثم وحي بعد رسول الله ﷺ ينزل، بأنه قد يعلم بشهادة الله تعالىٰ من طريق الإيمان بما ورد في الأحاديث، نحو حديث: «يا داود، كذب من ادعىٰ محبتي فإذا جنه الليل نام عنىٰ»[3] رواه الطبراني وغيره، ونحو حديث: «يقول الله عزَّ وجلَّ حين يتجلىٰ

---

(١) جزء من حديث أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (٧٧١٦) وأحمد (٢٢٧٦٤) والبزار (٢٦٨١).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) سبق تخريجه.

في الثلث الأخير من الليل: أين المدَّعون لمحبتي في النهار؟ أليس كلُّ محبٍّ يحبُّ الخلوة بحبيبه، فها أنا مطَّلِع علىٰ أحبابي يكلمونني علىٰ الحضور، ويخاطبونني علىٰ المشاهدة، غدًا أقر أعينهم في جنتي»[١]. انتهىٰ.

وكل شيء صح الإيمان به من طريق الخبر، يصح للعبد أن يعبر عنه بنحو قوله: سمعتُ الله يقول كذا وكذا، كما هو معلوم بين العلماء، فلا اعتراض علىٰ هذا الشيخ في قوله المتقدِم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي يتباله[٢] لمن يريد صحبته، ويظهر له أمورًا يعلم الناس منه خلافها، فلاثوا به وقالوا: فلان واسع الباطن وعنده مكر وخداع ما رأيناه في أحد من أقرانه، ويذكرون ذلك علىٰ سبيل الذم له.

والجواب: أن مثل ذلك معدود من كمال عقل الرجل، فإن العاقل يقدِم التجريب قبل التقريب. وقد أنشد سيدي علي بن وفا في ذلك:

تباله تزن عقل الأنام ويظهروا ... عليك خباياهم كأنك أهلها

ولا ترهم منك الحذاقة يكتموا ... عليك أمورًا ربما ضر جهلها

انتهىٰ.

والعلماء والأكابر وأشياخ الطريق أحقُّ بهذا الامتحان لتلامذتهم، لدقة[٣] علومهم وأسرارهم عن فهم فحول العلماء، فضلًا عن غيرهم، فربما ركنوا إلىٰ تلميذ وأخرجوا أسرار الطريق عليه، ثم غيَّر وبدَّل، وصار يذكر للمحجوبين ما ينكرونه من علوم العارفين، ليشنوا عليه الغارة بذلك، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، كما وقع ذلك للشيخ نجم الدين الكُبْرىٰ مع مريد له كان أطلعه علىٰ أسرار الطريق، ثم غيَّر وبدَّل وخرج عن صحبة الشيخ، واجتمع علىٰ الشيخ نصير الدين الطوسي، فكان بذلك خراب بغداد في قصة طويلة.

---

(١) ذكره أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٩).

(٢) تبالَه الشَّخصُ: تَصنَّع وتظاهر بالبلاهة والغَفْلة عندما سُئِل عن فعلته.

(٣) بالأصلين: لقلة. والصواب ما أثبتناه.

فاحمل يا أخي العلماء والصالحين على أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما بقي أحد يتورع في هذا الزمان عن الشبهات؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: هذا لا نسلمه لك! بل الورع موجود في كلِّ عصر، لكن بحسب مقام كل إنسان، بأنه ينبغي التسليم لهذا الشيخ، لأنه ربما أراد بذلك أن ينهض همة إخوانه إلى الترقي إلى مقام ورع السلف الصالح دون أهل زمانهم، كما هو معلوم أن كل زمان ينقص أهله عن أحوال أهل الزمان الذي قبله.

وقد كان السلف الصالح أيام الإمام أحمد بن حنبل لا يعدون أحدًا من أهل زمانهم وَرِعًا إلا إن كان يفتش في الأيدي التي تداولت على ذلك الطعام مثلًا قبله، فإن رأى أنه تداولت عليه عشرة أيدي في الحلِّ أكل منه وإلا تركه، ثم تنازل الزمان إلى ثلاثة أيدي، ثم إلى يدين، ثم إلى واحدة، وعليها استقر غالب الناس اليوم، فيُحمَل كلام هذا الشيخ على الحالات التي مضت، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما بقي في هذا الزمان إلا من هو قليل الدين؛ فلاث به بعض العلماء وقالوا له: هذا من سوء ظنك بالناس ونقصك، فقستَ الناس عليك، بل فيهم الكاملون الدين والإيمان إلى أن تقوم الساعة أو مقدماتها، بأنه ربما أراد ما بقي أحد ممن أعرفهم أنا من الإخوان، لا الأولياء وأكابر العلماء الذين هم أرفع منه مقامًا.

وقد ذكر يحيى بن معاذ صفات العبد التي يكون بها كامل الإيمان، فينبغي لمن ينكر على هذا الشيخ أن يعرفها قبل أن ينازعه، فإن رآها مجتمعةً في أهل زمانه، فلينكر عليه تعميمه الحكم وإلا فليصدِّقه، وهي: كثرة الحياء، وقلة الأذى، وكثرة الإحسان إلى البر والفاجر، وصدق اللسان، وقلة الكلام، وكثرة العمل، وقلة الزلل والفضول، وصلة الرحم وإن كان مقاطعًا[1] له، وكثرة الصبر على أذى الناس له، وكثرة الرضا عن الله إذا أمرضه وضيَّق عليه الرزق وقسَّى قلوب الناس عليه، وكثرة الشكر لله تعالى على البلاء، وكثرة

---

(١) بالأصلين: عذرًا.

الحلم علىٰ من جنىٰ عليه، وكثرة العفة عن الشهوات، فيمكث الثلاثين سنة ونفسه تطالبه بشهوة مباحة فلا يجيبها إليها تورعًا، لا لعَّانًا ولا سبَّابًا، ولا غيَّابًا ولا نمامًا ولا مغتابًا، ولا عجولًا ولا حقودًا ولا حسودًا، ولا متكبرًا علىٰ أخيه، ولا معجبًا بنفسه، ولا راغبًا في شيء من أمتعة الدنيا ومناصبها وجاهها وحظوظها، ولا طويل الأمل، ولا كثير النوم، ولا مرآئيًا ولا منافقًا ولا بخيلًا، هشاشًا بشاشًا، لا حساسًا ولا جساسًا، يحب في الله ويبغض في الله لا لهوىٰ نفس ولا لإحسان، يرضىٰ في الله، ويغضب لله، زاده تقواه، وهمته عقباه، وجليسه الله، وحبيبه مولاه، وسعيه لأخراه، وأطال في ذلك نحو ثلاثمئة وصف لا يبلغ أحد مقام الكمال في دينه حتىٰ يتصف بها كلِّها. فاعلم ذلك، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة، والعامة علىٰ محبة من ينبهها علىٰ نقصها، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده ولأقرانه: اشتغلوا بعلم التصوف، وإياكم والاشتغال بعلم الفقه والأصول مثلًا؛ ولاث به الفقهاء وقالوا: هذا من شدة جهله، وقد قال ﷺ: «ما عُبِدَ الله بشيء أفضل من فقه في دين»[١].

والجواب: بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الشيخ[٢]، لأنه لا يجهل أن الاشتغال بعلوم الشريعة محمود، لكون ذلك أساس طريق القوم، وإنما ينبغي حمله علىٰ أنه رأىٰ أن علوم الشريعة أهلها كثير لا يحتاج معهم إلىٰ من يدرس فيها، بخلاف طريق القوم[٣]، فإنها قد اندرست حتىٰ لا يكاد الآن أحد يتطلبها، لغلبة اشتغال النفوس

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بالأصلين: الشيء. والصواب ما أثبتناه.

(٣) قال الإمام الشعراني في «الطبقات الكبرىٰ» في ترجمة سيدي أحمد الزاهد: «وما كان يأذن للفقراء القاطنين عنده إلا في تعلم فرائض الشرع وواجباته المتعلقة بالعبادات. وكان يمنعهم من تعلم الأمور المتعلقة بفصل الأحكام في البيوع والرهون والشركات، ونحو ذلك، ويقول: ابدؤوا بالأهم، ولا أهم من معرفة الله في هذه الدار، والفقهاء قد قاموا عنكم بفروع الشريعة فإن قتلوا والعياذ بالله، وتعطلت الأحكام، وجب عليكم تعلم هذه الفروع لئلا تندرس الشريعة».

بما فيه حظها، وعلم التصوف كله مبني علىٰ مخالفة الأهوية، فكما أن الناس محتاجون إلىٰ من يقوِّم عباداتهم في الظاهر، كذلك هم محتاجون من يقوِّم عباداتهم في دولة الباطن، ويخلصها لهم من الرياء والعجب والكبر والنفاق، فلا تكمل الشريعة إلا بمراعاة الباطن، ولا تكمل الحقيقة إلا بمراعاة الشريعة، فلا يجوز الطعن علىٰ هذا الشيخ في أمره إخوانه بالاشتغال بعلم الصوفية دون الفقه مادام أهل الفقه كثيرون.

ولو أن الناس كلَّهم اشتغلوا بالتصوف وتركوا الاشتغال بالفقه [لكان هذا الشيخ ينهىٰ أصحابه عن الاشتغال بالتصوف، ويأمرهم بالاشتغال بالفقه][1] لخلوص الأشياخ عن التعصب لنفوسهم، فهم دائرون مع الحقِّ حيث دار، ويحبون أن يكون الدين قائمًا في دولة الظاهر والباطن، فإن في حديث مسلم: «إن الله تعالىٰ لا ينظر إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم»[2]. انتهىٰ.

ويُحتمَل أنه ما نهاهم عن الاشتغال بغير التصوف إلا لما رأىٰ من عدم الإخلاص في العلم، فأراد أن يشغلهم بعلم التصوف ليمهد للإخلاص محلًا في قلوبهم، لما في التصوف من رياضة النفوس وزوال الرعونات، ثم بعد ذلك يأمرهم بالاشتغال بالفقه وغيره علىٰ وجه الإخلاص.

فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حقِّ أشياخ الطريق، وإياك أن تحملهم علىٰ التعصب لطريقهم التي اختُصوا بها قياسًا علىٰ غيرهم، فإن ذلك عمل باطل، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تصدق بماله كلِّه في مرض موته، ولم يترك منه شيئًا لذريته، فلاث به الناس وقالوا له: قد قال رسول الله ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»[3]، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه، فربما

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٣٧٣) ومسلم (١٦٢٨).

كان الباعث ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وقد يكون هذا الشيخ ممن كُشِفَ له أن ذلك المال لم يقسمه الله تعالىٰ لهم، والإنكار لا يسوغ إلا علىٰ من حرم ورثته شحًّا عليهم من غير كشف. وقد تصدق محمد بن كعب القرظي التابعي الجليل ﷺ بماله كلِّه في مرض موته، فقيل له: هلا ادخرت شيئًا لذريتك! فقال: ادخاره لنفسي أولىٰ، وأما ذريتي فقد ادخرتُ لهم فضل ربي.

وكان أبو حازم يقول: أنفقوا مالكم قبل موتكم، ولا تخشوا الضيعة علىٰ أولادكم، فإنهم إن كانوا مؤمنين فإن الله تعالىٰ يرزقهم بغير حساب، وإن كانوا فاسقين فلا تساعدوهم علىٰ الفسق بأموالكم.

وتصدق سالم بن أبي الجعد[1] بماله كلِّه في مرض موته، فلامته امرأته، فقال: لأن أذهب بخير وأترككم بلا مال أحب إليَّ من أن أذهب بشرٍّ وأترككم بخير. انتهىٰ. فيُحمَل الحديث السابق علىٰ من لم يكن مشهده كمشهد هؤلاء القوم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بنىٰ له مدفنًا، وعمل عليه قبةً أو مقصورةً، وكتب علىٰ الباب: قف علىٰ الباب خاضعًا، وأحسن الظنَّ وارتجِ، فهو باب مجرَّبٌ لقضاء الحوائج؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا من علامة الرياء حتىٰ بعد الموت، وكيف يقول: إن باب مقصورته باب مجرَّبٌ لقضاء الحوائج، ومن أين عرف ذلك؟! وقد يكون ترابه في غير بلده التي بنىٰ له المدفن فيها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه فعل ذلك كلَّه من طريق الكشف، ولا يلزم من ذلك الرياء، لا في حياته ولا بعد مماته، [فإن الله تعالىٰ قد يعطيه

---

(١) سالم بن أبي الجعد رافع الأشجعي الغطفاني مولاهم، الكوفي، الفقيه، أحد الثقات. روىٰ عن: ثوبان مولىٰ رسول الله، وجابر، وابن عباس، وغيرهم. وحديثه مخرج في الكتب الستة. توفي: ١٠٠هـ وقيل: ١٠١هـ. «السير»(٥/ ١٠٨)، «شذرات الذهب» (١/ ٤٠٤).

قضاء حاجة كل من توسل به إلىٰ الله في حال حياته وفي حال مماته]. وقد قال سيدي علي ابن وفا في قصيدته:

من توسل بك عندي يا علي فاز بأمني   كلُّ من والاك حقًّا أنا منه وهو مني

وصدَّقه أتباعه علىٰ هذه الدعوىٰ. وما أعطاه الحقُّ لعبد يجوز أن يعطيه لعبد آخر وإن لم يصدِّقه الناس علىٰ ذلك.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ الذي عمل له مدفنًا وكتب عليه ما تقدم علىٰ المحامل الحسنة، ولا تعترض عليه، فإنه قال: قف علىٰ الباب خاضعًا وأحسن الظن وارتجِ، فما وعد بقضاء الحاجة إلا من اجتمعت فيه هذه الخصال.

ويُحتَمل أن يكون مراده بالباب بابَ الله تعالىٰ، وبإحسان الظن والرجاء لله، سواء أضيف ذلك الباب إليه هو أم لا، فإن أبواب الخلق كلَّها أبواب لله تخرج منها منافع العباد. ثم إن هذا الأمر لا يختص به، بل **كل شيء توجه إليه العبد بصدق، وجد الحقَّ تعالىٰ عنده**، فقضىٰ حاجته، كما قال تعالىٰ في السراب إذا قصده الظمآن[1] غيرةً إلهيةً أن يرد العبد خائبًا.

فاعلم ذلك، وإياك أن تعترض علىٰ الشيخ الذي حفر له قبرًا وتقول: قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤]، فإن الله تعالىٰ صدق، وقد قال: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌ﴾، ولم يقل «روح» فما نفىٰ العلم إلا عن النفس التي هي بيت الحجاب، فإذا انحلت وصارت روحًا، كانت كالملائكة لها تطواف بالملكوت الأعلىٰ وعلم بأحوال الأقلام والألواح الإلهية. وقد أوضحنا الكلام علىٰ هذا المبحث وما يرد عليه من الإشكالات في كتاب «منهج الصدق والتحقيق»، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يرقص في الذكر كلما ذكر، ولاث به الناس وقالوا له: هذا من سوء الأدب، لأنه إما أن يكون حاضرًا مع الله تعالىٰ، فذلك سوء أدب مع الله، وإما أن يكون غائبًا، فلم يحصل علىٰ طائل، فما وجه الرقص؟!

---

(١) في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

والجواب: أنه قد يطرب من السُّكْر الذي يحصل له من شهود أن الله تعالىٰ لولا ذكره ما ذكره، ومن يستطيع أن يلحظ ذكر الحقِّ تعالىٰ له ولا يطرب من أمثالنا؟! وقد دخل علىٰ الشِّبلي يومًا الجنيد وهو يتواجد ويرقص، فأعرض عنه الجنيد حتىٰ راق، وقال له: يا أبا بكر، هذا سوء أدب، سواء أكنتَ غائبًا أم حاضرًا. فقال: التوبة؛ فتاب من ذلك. وقد كان أبو المليح[1] ﷺ إذا ذكر الله تعالىٰ كثر طربه ويقول: إنما طربي بذكر الله لي، واعتنائه بشأني.

وبالجملة فالناس بين أقوياء وضعفاء، فالضعيف يُسامَح بالرقص والطرب، لأنه يتنفس به مما يجده عنده من الحصر، والقوي يؤاخذ به لعدم حاجته إليه. وقد قالوا للجنيد: نرىٰ الناس يتحركون عند السماع ولا نراك تتحرك. فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل كل من اضطرب في الذكر علىٰ الضعف، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعمر بيتًا ويزخرفه كبيوت أهل الدنيا، ويسأل من إخوانه المساعدة، فلاث به الفقراء الصادقون وقالوا: كان الأولىٰ به أن ينصح إخوانه ويقول: اصرفوا مالكم في شيء يخلفه الله تعالىٰ عليكم، فقد ورد أن كلَّ درهم ينفقه العبد، فإن الله تعالىٰ يخلفه عليه، إلا ما كان في بنيان أو معصية[2]. انتهىٰ. فمن مكَّن أصحابه من صرف أموالهم في الماء والطين فقد غشهم.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الفقير إلا إذا لم يرد بذلك البناء وجه الله تعالىٰ، فإن أراد به ذلك، كان نفقة علىٰ جهة قربة، فلا حرج عليه في ذلك، فينبغي للمنكر

---

(١) أبو المليح ابن أسامة بن عمير بن عامر بن أقيشر الهذلي، الكوفي، ثم البصري، أحد الأثبات. قيل: اسمه عامر. وقيل: زيد. أرخ وفاته: أبو بكر بن أبي عاصم، وابن سعد سنة: ١١٢هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٩) و«الوافي بالوفيات» (١٦/ ٣٣٩).

(٢) إشارة إلىٰ ما أخرجه الترمذي (٢٤٨٢) عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه».

التربص إلىٰ أن يموت، فإن وقفه فلا إنكار، وإلا أنكر، فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي دعي إلىٰ حضور وليمة مثلًا فلم يجب، فتشوش منه الداعي، فظن أنه إذا لم يجبه إزراء به، بأنه ربما كان له عذر منعه. وفي كلام أبي عبد الله الأنطاكي ﷺ: إذا علمتَ من الناس الوقوع في عرضك إذا رأوك، فلا ينبغي لك الاجتماع رحمةً بهم. انتهىٰ.

فينبغي حمل هذا الممتنع من الحضور علىٰ مثل ذلك، فربما كان في الجمع الذين حضروا في الوليمة جماعة من أعدائه، كما هو الغالب في الولائم، فخاف علىٰ عرضه أن يقعوا فيه، فترك الحضور رحمةً بهم، اللهم إلا أن يكون الحضور واجبًا كصلاة الجمعة مثلًا، فذلك محل نظر واجتهاد.

وقد كان أبو مسلم الخولاني التابعي ﷺ كثيرًا ما يمر علىٰ القوم فلا يسلم عليهم ويقول: أخاف أن يزدروني فلا يردوا عليَّ السلام، فأكون سبب حصول الإثم عليهم وتلعنهم الملائكة. انتهىٰ. والأعذار المبيحة لعدم حضور وليمة العرس كثيرة مذكورة في كتب الفقه، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٧) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي ينكر وجود الأوتاد والأبدال والقطب والإمامين[1]، ويقول: لم يأتنا بذلك كتاب ولا سنة؛ فلاث الفقراء به وقالوا: نخاف علىٰ

---

(١) **الأوتاد**: أربعة رجال، منازلهم علىٰ منازل الأربعة الأركان من العالم، شرق، وغرب، وشمال، وجنوب.
الأبدال: سبعة رجال، من سافر من موضع ترك جسدًا علىٰ صورته حيًّا بحياته، ظاهرًا بأعمال أصله، بحيث لا يعرف أحدٌ أنه فقد، وذلك هو البدل لا غير، وهو في تلبسه بالأجساد والصور علىٰ صورته قلب إبراهيم ﷺ.
الإمامان: شخصان اللذان أحدهما عن يمين الغوث، أي القطب، ونظره في الملكوت، وهو مرآة ما يتوجه من المركز القطبي إلىٰ العالم الروحاني من الإمدادات، التي هي مادة الوجود والبقاء، وهذا الإمام مرآته لا محالة، والآخر عن يساره، ونظره في الملك، وهو مرآة ما يتوجه منه إلىٰ المحسوسات من المادة الحيوانية، وهذا مرآته ومحله، وهو أعلىٰ من صاحبه، وهو الذي يخلف القطب إذا مات.

هذا المقت من الله تعالىٰ، بأنه لا ينبغي اللوث به، لجهله بدوائر الأولياء وعدم دخولها، وله أن ينكر كلَّ ما لم يعلم أنه من الشريعة، وهذا من ذلك، وفي القرآن العظيم: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، وفي ذلك رائحة العذر للمنكرين، وإن كان الأولىٰ بهم التسليم ما لم يعارض النصوص.

وقد جادلني مرةً فقيه وقال: إن هؤلاء المجاذيب عندكم إنما هم من قسم المجانين، لأن ما ثم لنا إلا عاقل أو مجنون، ولو كان المجذوب من صفات الأولياء، لكان الأولىٰ به الصحابة، ولم يُنقَل لنا أن أحدًا منهم كان كهؤلاء المجاذيب يبول علىٰ نفسه، ولا يتطهر من حدث ولا خبث، والناس مع ذلك يتبركون به، وطالبني بدليل. فقلتُ له: لا أعلم في ذلك دليلًا عن الشارع، وإنما اعتقد الناس فيهم لما يقع لهم من المكاشفات بالأمور التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، فقالوا: لولا أن الله تعالىٰ اتخذهم أولياء ما أعطاهم هذا الكشف، وما رأينا مجنونًا قط يُكاشَف بشيء من أحوال الدنيا والآخرة، فإن شئت يا أخي فاعتقد في المجاذيب، وإن شئت فأنكر، وإن شئت فاسكت؛ فرضي مني بذلك.

ومما قالوه في الفرق بين المجذوب والمجنون: أن المجذوب ذهب عقله من عظيم ما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله تعالىٰ، فعكف قلبه في حضرة الله، وغفل عن هذا الكون جملة، ولا يرىٰ إلا الله تعالىٰ. والمجنون ذهب عقله من استعمال مطعوم كونيٍّ لا يناسب مزاجه، أو من صياح أو فزع لا يستطيعه، فصار غائبًا عن الله تعالىٰ وعن الخلق[1]. قالوا: **وكل جذب لا يمنح صاحبه علمًا وأدبًا فهو إلىٰ الجنون أقرب.**

ومما يدل علىٰ وجود الأبدال قوله ﷺ: «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثير صوم ولا صلاة، وإنما دخلوها بسخاوة النفوس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة»[2]. ومما يدل علىٰ وجود الأبدال والعصائب والنجباء قول الإمام عليٍّ ﷺ: «الأبدال بالشام،

انظر «التعريفات» للجرجاني (ص٣٣، ٣٦، ٣٩، ٤٠).

(١) انظر الفتوحات «المكية» الباب (٤٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٣٩٣)، والديلمي (٨٨٤) وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٥٨).

والعصائب بالعراق، والنجباء بمصر». انتهىٰ. قال الشيخ محيي الدين وغيره: ويكون الأبدال من النساء، فلا يُشترط في طريقهم الذكورة.

وكان الحسن البصري ﷺ يقول: لولا الأبدال لخسفت الأرض بمن فيها، ولولا الصادقون لفسدت الأرض، ولولا العلماء لكانت الناس كالبهائم، ولولا السطان لأهلك الخلق بعضهم بعضًا، ولولا الحمقىٰ لخربت الدنيا، ولولا الريح لأنتن ما بين السماء والأرض. انتهىٰ.

واعذر يا أخي الفقيه إذا أنكر الأولياء في زمانه، فإنه لم يعرفهم، واعذر الأولياء إذا اختفوا، لأنهم لو ظهروا لأهلك الله كلَّ من أذاهم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٨) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي انقطع في تربة[1] أو جبل أو في المواضع الخراب البعيدة عن الناس، ثم صار يعتب عليهم في عدم زيارته، ويعرِّض لهم بالاشتياق إليهم، فلاث به الناس وقالوا: ما لهذا وللناس يطلب ترددهم إليه؟! فإن كان لا يقدر علىٰ البعد عنهم، فليدخل وليسكن بينهم، لأنه أبعد عن النفاق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأنه قد يفعل مثل ذلك من باب حسن الخلق مع إخوانه، حتىٰ لا يوحش قلوبهم منه، أو قد يفعل مثل ذلك سترًا لمقامه حيث اعتقده الناس بسبب انقطاعه عنهم، **فإن من شأن البشر طلب القرب ممن يتباعد عنهم، والزهد فيمن يخالطهم**.

وممن أدركتُه من أهل هذا المقام الشيخ شاهين[2] بالجبل المقطم، وخليفته الشيخ

---

(١) التُّربة: المدافن.

(٢) قال عنه الإمام الشعراني: ومنهم الشيخ العابد الزاهد المنفرد عن الناس بالجبل المقطم الشيخ شاهين ﷺ. أخذ الطريق عن الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي أحمد بن عقبة اليمني المدفون بحوش السلطان برقوق. وكان الشيخ شاهين من مماليك السلطان قايتباي، وكان مقربًا عنده، فسأل السلطان أن يعتقه ويخليه لعبادة ربه، ففعل، فساح إلىٰ بلاد العجم وغيرها، ثم رجع إلىٰ مصر فأقام بالمحل الذي دُفن فيه. ثم انقطع لا ينزل من الجبل سبعة وأربعين سنة. توفي: ٩٥٤هـ. ودُفن بزاويته بالجبل، وبنىٰ السلطان عليه قبةً وأوقف علىٰ مكانه

وقد سمع الحسن البصري ﷺ شخصًا يقول: اللهم ارزقني الحلال الصافي. فقال: سل ربك رزقًا لا يعذبك عليه، فإن الحلال الصافي إنما هو رزق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. انتهىٰ. وكان عبد الله بن عباس ﷺ يقول: كسب الحلال أمرُّ علىٰ العبد المؤمن من نقل جبل إلىٰ جبل. وكان يونس بن عبيد[1] ﷺ يقول: من طلب من الله أن يرزقه حلالاً في هذا الزمان فقد سأل شططًا، إنما يسأل الحلالَ أحبابُ الله وأصفياؤه، فيستخلص لهم الحلال كما يستخلص اللبن من بين فرث ودم. وأما نحن فلو وجدنا صاعًا من حلال لاستشفينا به، فكلُّ مريض أكل منه شفي بإذن الله. وكان سفيان الثوري يقول: دين الرجل حيث رغيفه، وإن أهل بيت يوجد علىٰ مائدتهم رغيف من حلال في هذا الزمان لغرباء. انتهىٰ.

وتقدم أن الحلال موجود في كلِّ زمان بحسب مقامات الخلق، فيُحمَل كلام هؤلاء الأشياخ علىٰ الحلال اللائق بمن كان فوقهم في الدرجة. والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي قال له شخص: أوصني بوصية. فقال: أنا محتاج إلىٰ من يوصيني؛ ولم يوصه، فلاث به بعض الناس وقال: كان الواجب عليه أن يوصيه بما يراه قد أخل به من أمور الدين، فإن من يأتي بأحكام الدين علىٰ الكمال اليوم في الناس أعزُّ من الكبريت الأحمر.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أنه قد يكون ممن غلب عليه حقارة نفسه، فازدرىٰ نفسه أن يكون آمرًا لغيره، أو أنه لم يرَ فيه نقصًا يوصيه بالتوبة منه، أو يكون ممن يعرف بالقرائن أنه متناطع في سؤاله، وليس قصده العمل بتلك الوصية، فخاف عليه من وقوعه في ترك العمل بما علم.

وقد يكون تركه الوصية لخوفه أن ذلك الرجل يعقبه بتلك الوصية ضررًا لا يطيقه

---

(١) يونس بن عبيد بن دينار العبدي مولاهم، البصري. رأىٰ: أنس بن مالك. قال علي بن المديني: له نحو مائتي حديث. وقال هشام بن حسان: ما رأيت أحدًا يطلب بالعلم وجه الله، إلا يونس بن عبيد. كان ثقةً حافظًا ثبتًا ورعًا، رأسًا في العلم والعمل، له مناقب كثيرة. توفي: ١٣٩هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٨٨) و«الوافي بالوفيات» (٢٩/ ١٨٥) و«حلية الأولياء» (٣/ ١٥).

ونحو ذلك، وقد دخل عابدٌ مرةً علىٰ عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: أوصني. فقال له: لو علمتُ أنك ممن يخاف الله تعالىٰ ويخشاه لوصيتُك ووعظتُك؛ فغشي علىٰ عمر من كلامه، وصار يضطرب حتىٰ كادت مفاصله تتخلص من بعضها، فيُحتمَل أن هذا الشيخ إنما ترك الوصية خوفًا علىٰ ذلك الفقير أن يقع له مثل ما وقع لعمر بن عبد العزيز ﷺ، فترك وصيته شفقةً عليه.

ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ إنما ترك الوصية لمن سأله لعذر لا ينبغي إفشاؤه، أو ترك الوصية لمعرفته بالقرائن أنها لا تؤثر فيه، كما هو مذهب بعضهم، وإن كان مرجوحًا.

وقد تقدم في هذا الكتاب أن السلف الصالح كانوا إذا سألهم إنسان في وصية نظروا، فكلُّ وصف رأوه أخلَّ به من الأمور المحمودة أوصوه به، كما كان ﷺ يفعل مع أصحابه، فكان يأمر كلَّ واحد بما فيه كماله إذا سأله عن أفضل الأعمال. فقال لرجل: «أفضل الأعمال الصلاة لأول وقتها»[١] لكونه كان يتساهل في الصلاة في أول الوقت. وقال لآخر: «أفضل الأعمال أن تجاهد بنفسك ومالك في سبيل الله»[٢] لكونه كان جبانًا بخيلًا. وقال لآخر: «بر الوالدين»[٣] لكونه كان غير بارٍّ بوالديه. وقال لآخر: «احفظ عليك لسانك»[٤] لكونه كان لا يحفظ لسانه في أعراض الناس، وقس علىٰ ذلك.

فليس في كلام الشارع تناقض كما فهمه بعضهم، لأنه كان يخاطب كلَّ إنسان بما يناسبه، وتبعه علىٰ ذلك العلماء، فقال رجل لأبي ذر: عظني. فقال: عسكر الموت ينتظرونك؛ لكونه كان طويل الأمل. وقال رجل للحسن البصري: أوصني. فقال: أَعِزَّ

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٢٧) من حديث أبي عمرو الشيباني يقول: حدثنا صاحب هذه الدار، وأشار إلىٰ دار عبد الله قال: «سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلىٰ الله؟ قال: الصلاة علىٰ وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين قلت: ثم أي؟ قال: ثم الجهاد في سبيل الله. قال: حدثني بهن ولو استزدته لزادني» ومسلم (٨٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٤٠٦) من حديث عقبة بن عامر قال: « قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك علىٰ خطيئتك» وأحمد (١٧٤٥٢).

أمرَ الله حيث ما كنتَ، يعزك الله حيث ما كنتَ؛ لكونه كان يتساهل بنظر الله إليه. وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: أوصني. فقال: احذر أن تكون ممن يخالط الصالحين ولا ينتفع بهم، أو يلوم المذنبين ويقع في الذنوب، أو يلعن الشيطان في العلانية ويطيعه في السر؛ لكونه كان يخِل بهذه الأمور.

وقال رجل لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام: عظني. فقال: إلىٰ كم يوعظ أحدكم ولا يتعظ؟! لقد كلفتم الواعظين شططًا! وسمع الحسن البصري شخصًا يقول: المرء مع من أحب. فقال له الحسن: لا يغرك يا أخي مثل ذلك، فإنه مشروط بمن يقع في الذنوب بغير ميل، ولن يحلق أحد بالأبرار إلا إن عمل بعملهم، وإن اليهود والنصارىٰ وأهل البدع يحبون الأنبياء وليسوا معهم في الجنة. انتهىٰ. فقوله ﷺ: «المرء مع من أحب»[1] جري علىٰ الغالب، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سمع شخصًا يقول: النظر إلىٰ وجه العالم عبادة. فقال: ذلك في حق علماء السلف، وأما علماء هذا الزمان، فالنظر إليهم يقسي القلب؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: إن لحوم العلماء سمٌّ، فكيف يقع هذا في الغيبة المحرَّمة وهو يدعي الصلاح؟!

والجواب: أن مراده أن رؤية بعض علماء الزمان يقسي القلب لا رؤية جميعهم. ولم يزل في العلماء في كلِّ عصر العامل بعلمه، والمخل بالعمل، فيُحمَل كلام الشيخ علىٰ من كان مخلًّا بالعمل. وقد كان كعب الأحبار يقول: يكون في آخر الزمان علماء يتغايرون علىٰ القرب من الأمراء، كما يتغاير الرجال علىٰ النساء، أولئك شرار خلق الله. انتهىٰ. ومعلوم أن رؤية الشرار تورث القساوة في القلب.

وقد وقفت امرأة يومًا تنظر إلىٰ وجه إبراهيم بن يوسف[2] ﵀، فقال لها: ألك حاجة؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨) ومسلم (٢٦٤٠).

(٢) إبراهيم بن يوسف بن ميمون بن قدامة البلخي. وقيل: رزين بدل قدامة، عالم بلخ، أبو إسحاق الباهلي، البلخي، الفقيه، المعروف: بالماكياني. وماكيان: قرية من قرىٰ بلخ. وثقه: النسائي، وابن حبان. توفي: ٢٣٩هـ.

فقالت: لا، غير أني سمعت أن النظر إلىٰ وجه العالم عبادة، فأنا أنظر إليك لأجل ذلك. فبكىٰ إبراهيم حتىٰ تغرغرت[١] عيناه بالدموع، ثم قال: يا هذه! قد غلطت فيَّ! إن الذين كان النظر إلىٰ وجوههم عبادة قد صاروا في المقابر بين أطباق الثرىٰ منذ أربعين سنة، مثل أحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، وخلف بن أيوب، وشقيق البلخي، وبشر الحافي، والفضيل بن عياض وأضرابهم، فاذهبي إلىٰ قبورهم، فانظري ألواحها وتأملي فيها نيابة عن وجوههم.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: إذا ناظرت عالمًا فغضب، فلا تخف منه، لأنه ذهب دينه. وكان عبد الله بن عمر يقول: لستُ بعالم، وإنما أحدثكم اتقاء ألسنتكم، ولو أن عمر بن الخطاب رآني وأنا أحدِّث، لأوجعني وإياكم ضربًا! وكان الأعمش[٢] يقول: لي منذ ثلاثين سنة ما رأيتُ عالمًا مخلصًا في علمه، إنما صار العلم حرفةً للمفاليس. وقيل للشعبي مرة: أفتنا أيها العالم. فقال: لا تقولوا لي عالمًا، فإن العالم هو من تقطعت أوصالُه من خشية الله عزَّ وجلَّ. وقال رجل لإبراهيم التيمي: ما تقول في هذه المسألة يا فقيه؟ فبكىٰ إبراهيم وقال: إن زمانًا يُقال فيه لمثلي فقيه لزمان سوء.

وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «تنبيه المغترين». فيُحمَل كلام هذا الشيخ الذي قاله عن علماء زمانه: إن النظر في وجه أحدهم يقسي القلب علىٰ تنهيض همتهم إلىٰ الاجتهاد والعمل كما كان عليه سلفهم، لا ازدراؤهم والغيبة فيهم، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: كلما ازداد العالم علمًا، كلما ازداد فسقًا؛ ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: هذا قريب من الكفر، بأنه ربما قصد أن العبد

«سير أعلام النبلاء» (١١/ ٦٢) و«الوافي بالوفيات» (٦/ ١١٠).

(١) تغرغرت عيناه: تردَّد فيهما الدّمعُ.

(٢) الأعمش سليمان بن مهران، الإمام أبو محمد الأسدي، الكاهلي مولاهم، الكوفي. أصله: من نواحي الري. قيل: ولد بقرية أمه من أعمال طبرستان، في سنة: ٦١هـ وقدموا به إلىٰ الكوفة طفلًا. وقيل: حملًا. قد رأىٰ أنس بن مالك، وحكىٰ عنه. وقال أحمد بن عبد الله العجلي: الأعمش: ثقة، ثبت، كان محدث الكوفة في زمانه. توفي: ١٤٦هـ وقيل: ١٤٨هـ. انظر: «السير» (٦/ ٢٢٦) و«حلية الأولياء» (٥/ ٤٦).

كلما زاد علمه، عجز عن العمل به إما كسلًا، أو لعدم القسمة، فانسحب عليه اسم الفسق، وليس مراده أن العبد يفسق بالعلم من حيثُ هو، فإن ذلك لا يقوله عاقل، وفي الحديث مرفوعًا: «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها»[1].

وكان وهب بن مُنبِّه ﷺ يقول: كان في بني إسرائيل علماء فسقة، وسيكون في هذه الأمة علماء فسقة. وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: استعيذوا بالله من أمور تحدث في العلماء بعد مئتي سنة. وكان ابن أبي رَوَّاد[2] يقول: كان زناة أهل الجاهلية أكثر حياءً من فقهائنا اليوم. وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: والله إني أخشىٰ إذا نادىٰ المنادي يوم القيامة أين القراء الفسقة؟ أن يُقال: وسفيان منهم فخذوه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٥) ومما أجبتُ به عن العالم إذا نهىٰ الناس عن رفع أصواتهم بالذكر في الجنازة، فلاث به العوام وقالوا: كيف يمنعنا من قول: لا إله إلا الله؟! بأن هذا العالم مشىٰ في نهيه الناس عن رفع أصواتهم بالذكر علىٰ السنة، فلا ينبغي اللوث به، فينبغي لطالب العلم أن يعرِّف العوام بالسنة في ذلك، ويقول لهم: إن هذا الوقت إنما هو وقت تفكر وتأمل فيما إليه مصير ذلك الميت. وقد كان السلف الصالح إذا مات لهم ميت يعمهم الحزن والصمت، حتىٰ لا يكاد أحد منهم ينطق. وكانوا إذا رجعوا من الجنازة يمكث أحدهم الأيام المتوالية لا يأكل ولا يشرب، ولا يبتسم، ولا يتجرأ أحد يكلمه من شدة ما يرونه من حزنه، وكان يحيىٰ بن أبي كثير إذا شيَّع جنازة يرجعون به في النعش من شدة انحلال مفاصله.

وكان وهب بن مُنبِّه يقول: كان العصر الأول يستحبون خفض الصوت عند الجنائز،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤١٠) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٦١) والطبراني في «الكبير» (٨٤١) بنحوه.

(٢) عبد العزيز بن أبي رَوَّاد الأزدي. شيخ الحرم. قال ابن المبارك: كان من أعبد الناس، وقال أحمد بن حنبل: كان مرجئًا، رجلًا صالحًا، وليس هو في التثبيت كغيره. توفي: ١٥٩هـ. ولم يصل عليه سفيان الثوري؛ لكونه يرىٰ الإرجاء. فقيل للثوري فقال: والله إني لأرىٰ الصلاة علىٰ من هو دونه، ولكن أردت أن أُري الناس أنه مات علىٰ بدعة. «السير» (٧/ ١٨٤) و«الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٩٧) طبعة دار الإحسان.

ويقولون لمن يرفع صوته: ما أنت إلا جبار! أما في رؤيتك لهذا الميت موعظة؟! ورأىٰ عبد الله بن مسعود رجلًا يضحك في جنازة، فزجره ثم هجره أيامًا. ورأىٰ الحسن البصري رجلًا يأكل في المقابر، فقال له: إنك لمنافق! لو كنت مؤمنًا لما وجدتَ عندك داعية للأكل!

[سبب سكوت علماء الإسلام على رفع الناس صوتهم بالذكر في الجنائز]

فإن قال قائل: فكيف سكت علماء الإسلام علىٰ رفع الناس صوتهم بالذكر في هذا الزمان؟ **فالجواب:** أنهم إنما سكتوا عن الإنكار حين رأوا كثرة لغط الناس في الجنازة وذكرهم أمور الدنيا، فرأوا ذكر الله تعالىٰ أولىٰ من اللغط. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما بقي أحد في هذا الزمان يسلم من النفاق؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا يخرج العلماء والصالحين كلَّهم.

والجواب: أنه ربما يكون مراده وجود النفاق في غالب الناس لا كلِّهم، كما هو الغالب من الإنسان إذا خرج خلقه واشتد غضبه، ثم إذا راق من ذلك رجع عن تعميم الحكم.

وقد كان سفيان الثوري يقول: لو نبت للمنافقين أذناب لضاقت الأرض بهم. وكان مالك بن دينار يقول: من علامة المنافق أن يخبيء رزق غدٍ، ويحصل عنده غم إذا رفعوا أقرانه عليه في الفضل والعلم. وكان سفيان الثوري يقول: إذا ذُكِرَ الصالحون كنَّا عنهم بمعزل، وإذا ذُكر المنافقون كنا في جوف المنزل. وكان يونس بن عُبَيد يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ منافق فلينظر إليَّ. فقيل له: كيف ذلك؟! فقال: لأني أعدُّ المئة خصلة من الخير، فلا أجد فيَّ واحدة منها، وأعدُّ خصال السوء فأجدها كلَّها فيَّ. انتهىٰ.

والأحاديث في علامات المنافقين مشهورة في كتب الحديث[1]، فاحمل يا أخي قول هذا الشيخ: ما بقي أحد يسلم من النفاق، أي فيمن علمهم من أهل الشر، لا كل الناس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) كالحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» ومسلم (٥٩).

(٧٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه عن الصلاة خلف إمام يحب الدنيا، فلاث الفقهاء به وقالوا: هذا أمر لم يتعرض له الشارع ولا الصحابة، فلا يقدح ذلك في كمال الصلاة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فإنه لم يمنع أصحابه وجوبًا، وإنما ذلك علىٰ سبيل التورع، لاسيما إن كانوا لا يحبُّون الدنيا. وبلغنا عن الحسن البصري ﷺ أنه كان يقول: لا تصلوا خلف محبِّ الدنيا إلا لضرورة. وكان يقول: [ينبغي][1] للإمام أن يكون أزهد الناس، وأورع الناس، وأعلم الناس. وصلَّىٰ مرةً خلف إمام، فلحَن، فلما سلَّم زجره، وقال: والله لولا فضل الجماعة ما صليتُ خلفك! لم لا تقرأ العربية علىٰ العلماء؟! وكان يقول: من كان إمامًا في الصلوات فهو أحق بالإمامة في صلاة الجنائز ما لم يحب الدنيا. وكان يقول: أدركنا الناس وهم يرون الأحقَّ بالصلاة علىٰ جنائزهم من رضوه لفرائضهم. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا رأىٰ أحدًا يرفع صوته في المسجد أو يلغو فيه، فضربه بسوط، فلاث به أقرانه وقالوا: مثل هذا لا ينبغي ضرب المسلم لأجله بالسوط.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا العالم بسبب ذلك، فقد ضرب عمر بن الخطاب بالدِّرَّة من رآه يرفع صوته في المسجد، وقال له: أتدري أين أنت؟! وبلغنا أن عيسىٰ ابن مريم رأىٰ قومًا يلغون في المسجد، فلف رداءه وضربهم به، وأخرجهم من المسجد. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٩) ومما أجبتُ به عن طالب العلم إذا كان جالسًا في المسجد ثم دعي لجنازة، فلم يخرج، سواء أكان جالسًا لقراءة قرآن أو علم أو ساكتًا، فلاث به أهل الجنازة وقالوا: إنما ترك ذلك احتقارًا لنا، وتكبرًا علينا، بأنه ربما كان في مقام الترجيح في الأعمال التي لم يرد عن الشارع فيها ترجيح [بعضها] علىٰ بعض، فأدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ أن الجلوس في المسجد

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

أفضل من حضور تلك الجنازة، كما عليه جماعة من كبار التابعين رضي الله عنهم أجمعين.

وقد سُئل سعيد بن المسيِّب ﷺ مرةً: أيما أحب إليك: حضور الصلاة علىٰ الجنازة، أو الجلوس في المسجد؟ فقال: الجلوس في المسجد أحبُّ إليَّ، لأن الملائكة تستغفر لي ما دمتُ فيه، وذلك أفضل من حصول القيراط أو القيراطين أو القراريط التي تحصل لي بالصلاة علىٰ الجنازة والمشي معها، وحضور دفنها كما ورد في أجرها[1]، لأن استغفار الملائكة لا يُرَدُّ لعصمتهم، بخلاف صلاتي علىٰ الجنازة، فقد لا تكون خالصة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحمل طلبة العلم علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم أعلم منك بالأعمال الراجحة والمرجوحة، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اجتمع به شخص من التجار فقال: إن كنتَ تصحبني، فاترك التجارة واشتغل بالعبادة؛ فافتقر وصار يسأل الناس، فلاث به الأقران وقالوا: كيف يأمر هذا الرجل بالعبادة ويترك الكسب الذي يكف به نفسه وعياله عن سؤال الناس؟! بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأنه ربما رآه لا يعرف شروط الكسب وآدابه فيها [فنهاه عنها][2] وعن التجارة حتىٰ يعلِّمه الشروط والآداب، ثم بعد ذلك يأمره بالتجارة، لأن مثل الشيخ لا يجهل كون الكسب الحلال مقدَّمًا علىٰ الاشتغال بالعبادة مع الحاجة لسؤال الناس، ويعلم أن سؤال الناس أفضل من الكسب الذي يدخله الغش والحلف الكاذب ونحو ذلك.

وقد كان الإمام مالك ﷺ يأمر أمراء الأسواق بجمع التجار والسوقة كلَّ جمعة ويعرضونهم عليه، فإذا وجد منهم أحدًا لا يفقه الشراء والبيع، ولا يعرف الحلال والحرام، أقامه من السوق وقال له: تعلَّم أحكام البيع والشراء، ثم اجلس في السوق،

---

(١) أخرج البخاري (١٣٢٥) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتىٰ يُصَلِّي، فله قيراط، ومن شهد حتىٰ تدفن كان له قيراطان، قيل: وما القيراطان؟ قال: مثل الجبلين العظيمين» ومسلم (٩٤٥).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.



فإنَّ من لم يكن فقيهًا في باب البيع أكل الربا، شاء أم أبىٰ. انتهىٰ.

وكان قتادة ﷺ يقول: عجبًا للتاجر! كيف يسلم له دينه وهو بالنهار يحلف، وبالليل يحسب ويضرب الحيلة في تحصيل الدنيا؟! وكان الحسن البصريُّ يقول: لا يخلص التاجر إلا إن كانت الدنيا عليه ساخطة، والآخرة عنه راضية. وكان سفيان الثوري يقول: لا تنظروا إلىٰ ثياب التجار والسوقة، فإن تحتها ذئاب كاسرة. وكان مالك بن دينار يقول: السوق مكثِرة للمال، مفسِدة للدين. وكان ابن السمَّاك إذا دخل السوق يقول: يا أهل السوق، سوقكم كاسد، وجاركم[١] حاسد، وبيعكم فاسد. وكان حماد بن زيد[٢] يقول: الجلوس في السوق يغني ويفقر، فمن تورَّع في بيعه استغنىٰ، ومن غش فيه افتقر. وكان كثيرًا ما يقول: ما افتقر تاجر قط إلا بوقوعه في خصلة من هذه الخصال، وهي: اللغو والكذب، والحلف والغش، والغل والخيانة والحسد، وترك صلاة الجماعة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء وأشياخ الطريق، فإنهم أعرف منك بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٧١١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأىٰ الناس له المرائي التي تسوؤه وتزري به، ولاث الناس به وقالوا: هذا يدل علىٰ خبث باطنه، وأن الذي يظهره لنا من الزهد والورع إنما هو زور وبهتان، بأنه لا يلزم من رؤيا السوء ما ذُكِرَ، فقد تكون الرؤيا السوء للرائي لا للمرئي له، كما وقع أن رجلًا قال لأبي يزيد البسطامي: رأيتُ وجهك في المنام وجه خنزير. فقال: صدقتَ، لأني مرآةُ الوجود، فرأيتَ نفسَك فيَّ، فحسبتَ أنك أنا.

---

(١) بالأصلين: خياركم. والمثبت من «محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء و البلغاء».

(٢) حماد بن زيد بن دِرْهَم الأزدي، العلامة، الحافظ، الثبت، محدث الوقت، أبو إسماعيل، مولىٰ آل جرير بن حازم البصري، الأزرق، الضرير. أصله من سجستان، سبي جده دِرْهَم منها. قال أحمد بن حنبل: حماد بن زيد من أئمة المسلمين، من أهل الدين، هو أحب إليَّ من حماد بن سلمة. توفي: ١٧٩هـ. في شهر رمضان. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٥٦) و«الطبقات الكبرىٰ» (٧/ ٢٨٦).

وقد قال عبد الله بن المبارك: قد يرىٰ بعضهم الرؤيا السوء[١] للرجل الصالح، ليزداد بها نشاطًا. وقد يرىٰ بعضهم الرؤيا الصالحة للرجل السوء، ليزداد بها استدراجًا، كما رأىٰ بعضهم أن الربيع بن خيثم[٢] ﷺ دخل النار، فكان الربيع بعد ذلك لا ينام الليل ويقول: خوف النار طيَّر نومي.

وكان سفيان بن عُيينة يقول: رأيتُ قائلًا يقول علىٰ جبل أبي قبيس: أمان الله علىٰ أهل الأرض إلا علىٰ سفيان الثوري وفلان الزنديق، فكان سفيان الثوري بعد ذلك لا يقر له قرار من الرعب. وقال رجل للعلاء بن زياد[٣]: رأيتُك البارحة وأنت تتبختر في الجنة، فقال: أما وجد إبليس أحدًا ليسخر به غيري، ولا أحد يحمله هذه الرسالة غيرك؟! انتهىٰ. فاعلم في ذلك يا أخي، واحمل من رأيتَ له رؤيا قبيحة أنها لك لا للمرئي له، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٢) ومما أجبتُ به عن العالم الذي سمع شخصًا يدعو لشخص بأن الله يكثِّر في المسلمين من أمثاله، فنهاه عن ذلك، فلاث الناس به وقالوا: كيف ينهىٰ شخصًا يدعو لأخيه بأن الله تعالىٰ يكثِّر في المسلمين من أمثاله في العلم والعمل؟! بأنه قد يكون نهيه له عن الدعاء إنما هو لجهله بمقام ذلك الشخص عند الله تعالىٰ في الأعمال الصالحة، فنهاه أن لا يدعو بمثل ذلك إلا لمن علم صلاحه، لئلا يدعو بالهوىٰ بأن الله يكثِّر في عباده من ليس بصالح. وقد قال رجل لزياد بن طيبان: أكْثرَ اللهُ تعالىٰ في المسلمين من أمثالك. فقال: لقد سألتَ الله تعالىٰ شططًا، وسألتَ للناس أن يصيروا من أهل السوء

---

(١) بالأصلين: الصالحة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الربيع بن خثيم بن عائذ أبو يزيد الثوري، الكوفي، أحد الأعلام. أدرك زمان النبي ﷺ وأرسل عنه. وروىٰ عن: عبد الله بن مسعود، وأبي أيوب الأنصاري، وعمرو بن ميمون. وهو قليل الرواية، إلا أنه كبير الشأن. وقال له ابن مسعود: يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين. توفي: ٦٥هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٥٨) و«حلية الأولياء» (٢/ ١٠٥).

(٣) العلاء بن زياد بن مطر العدوىٰ أبو نصر من أفاضل أهل البصرة وعبادهم ممن يصبر علىٰ السهر الطويل والتهجد الكثير مات في آخر ولاية الحجاج سنة ٩٤هـ. «مشاهير علماء الأمصار» ص١٤٦.



مثلي. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك من العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول: محل العقل القلب؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا قول ضعيف، وإنما محل العقل الرأس. واستدل بقول بعضهم: العقل في الرأس قاضيـها وواليـها.

بأن الحقَّ مع من قال: إن العقل في القلب وعليه أهل الكشف قاطبة. وقد سُئل عن ذلك الإمام عليٌّ بن أبي طالب ﷺ فقال: في القلب. فقيل له: فأين مسكن الرحمة؟ فقال: في الكبد. فقيل له: فأين مسكن الرأفة؟ فقال: في الطحال. فقيل له: فأين مسكن النفس؟ فقال: في الرئة. انتهىٰ.

ومما وقع أن الشيخ نجم الدين[1] كان يقول: العقل في القلب، فنازعه في ذلك نصير الدين الطوسي، فلما دخل التتار بغداد، قال الشيخ نجم الدين لأصحابه: إذا قطعوا رأسي فانظروا، فإن طأطأتُ وأخذتُها بيدي ومشيتُ بها، فاعلموا أن العقل في القلب، فلما قطعوا رأسه، طأطأ وأخذها ومشىٰ بها حتىٰ وصل بها إلىٰ محل قبره الآن!

وقد سألتُ مرةً سيدي عليًّا الخواص ﷺ عن العقل: هل هو في القلب أو الرأس؟ فقال: لا تسأل عن محلِّه، ولكن اسأل أولًا عن وجوده. ثم قال: هشام الدستوائي[2] ﷺ يقول في أول المئة الثانية: من أراد أن ينظر إلىٰ قوم بلا عقول فلينظر إلينا. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا ينبغي لأحد أن يقول لمن ظلمه

(١) نجم الدين الكبرىٰ، وقد تقدمت ترجمته.

(٢) أبو بكر هشام بن أبي عبد الله سَنْبَر البصري، الربعي مولاهم. صاحب الثياب الدَّسْتُوائية، كان يتجر في القماش الذي يجلب من دَسْتُوا. ولذا قيل له: صاحب الدَّسْتُوائي، ودَسْتُوا: بُلَيْدة من أعمال الأهواز. قال شعبة: ما من الناس أحد أقول إنه طلب الحديث يريد به الله، إلا هشامًا صاحب الدَّسْتُوائي، توفي: ١٥٢هـ. وقيل: ١٥٣هـ. «السير» (٧/ ١٤٩) و«حلية الأولياء» (٦/ ٢٧٨) و«الوافي بالوفيات» (٢٧/ ٢٠٥).

بغير حق: حسبي الله ونعم الوكيل؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: إن الله تعالىٰ قد مدح من يقول: «حسبي الله ونعم الوكيل» فكيف ينهىٰ هذا الشيخ عن ذلك؟! بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه بمجرد هذا القول، لأنه ربما أراد من المظلوم العفو عن من ظلمه، فإن العبد إذا احتسب بالله علىٰ عبد أهلكه الله، وكان احتسابه أشد من بغي الباغي عليه. وقد قال مجاهد ﷺ: لو بغىٰ جبل علىٰ جبل، لهُدَّ الباغي ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ [النساء: ٨٤]، فالعبد يحتسب بالله تعالىٰ ولا يقابل أحدًا بنظير بغيه، ثم يسأل الله تعالىٰ للباغي أن يغفر له ولا يؤاخذه، نظير ما قالوه في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، فقال العارفون: قد رضينا بأن يكون أجرنا علىٰ الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا حضر زفة ختان أو عريس كما جرت به عادة الناس في مصر، فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: هذا لا يليق فعله بعالم ولا صالح، لأنه بدعة يجتمع فيها عادة الطبل والمزمار اللذان هما حرامان، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار بمجرد الحضور، فربما كان له عذر باطن لا يقدر علىٰ إفشائه ولا علىٰ امتناعه إذا دعي إلىٰ حضور تلك الزفة، وربما كان حضوره ليسامرهم بترك الطبل والزمر، وما في تلك الزفة من التشبه بالنساء في الملبس والتكسير ونحو ذلك، ففتش يا أخي علىٰ القضية أولًا ثم أنكر.

وقد سُئل الإمام عليٌّ ﷺ عن الخُلُق الحسن: ما هو؟ فقال: هو موافقة الناس في كلِّ شيء ماعدا المعاصي. انتهىٰ. وكان ابن عباس ﷺ يقول: من أدخل علىٰ إخوانه سرورًا فهو من الآمنين من عذاب الله يوم القيامة. انتهىٰ. فربما كان قصد ذلك العالم إدخال السرور علىٰ صاحب الزفة بأمر مباح لم يرد فيه نهي. وكان الحسن البصري يقول في حديث: «وخالق الناس بخلق حسن»[1]: الخلق الحسن هو السخاء والعفو واحتمال الأذىٰ. انتهىٰ.

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (١٩٨٧) والحاكم (١٧٨) وأحمد (٢١٤٠٣).



فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الأكابر، فإنهم أعلم منك بأحكام الشريعة، فلا يفعلون مكروهًا مثلًا إلا لدفع حرام، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جمع في زاويته جماعة لا حرفة لهم ولا وقف عليهم، وقال: تعبدوا وأنا أقوم بما تحتاجون إليه؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: كلُّ هذا محبة في المشيخة، وكان الأولىٰ به الصبر حتىٰ يقف الناس عليه وعلىٰ جماعته شيئًا، ثم يجمعهم عنده.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بمثل هذا الشيخ، فإنه فعل بالفقراء معروفًا، ولا يجوز حمله علىٰ محبة المشيخة أو غيرها من الأغراض الفاسدة. وقد قال الضحَّاك[1] في قوله تعالىٰ في قصة يوسف: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] كان يوسف يخدم كلَّ من مرض في السجن أو لم يتفقده أحد من أهله. وكان إذا لم يجد عنده شيئًا يدور يسأل علىٰ الأبواب ويدفعه لهم. انتهىٰ. وكان إبراهيم التيميُّ ﷺ يجمع له جماعة في المسجد ويقول لهم: تعبدوا وأنا أقوم بما تحتاجون إليه من الطعام والشراب وغيرهما.

وكانت معيشة الربيع بن خيثم وإبراهيم النخعي وعطاء السلمي وأبي حفص الحداد من صلة الإخوان، ولم يكن لأحدهم زرع ولا ضرع. وكان أحدهم إذا لم يصله أحد بشيء، يدور علىٰ الأبواب والحوانيت يسأل الناس. وقيل للجنيد: لم جعلت هؤلاء الفقراء عندك؟ فقال: لأتذكر بحاجتهم إليَّ فقري إلىٰ ربي، لأن العبد ربما نسي ربَّه إذا وسَّع عليه الدنيا. انتهىٰ.

وممن أدركتُه علىٰ هذا القدم الشيخ إبراهيم الرحبي الذي كان مقيمًا بباب جامع الأزهر الكبير ﷺ، وسبقه إلىٰ ذلك الشيخ عثمان الحطَّاب بمصر، كان إذا احتاج

---

(١) الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد، وقيل: أبو القاسم، صاحب التفسير. كان من أوعية العلم، وثقه: أحمد بن حنبل، ويحيىٰ بن معين، وغيرهما. وحديثه في السنن. وقد ضعفه: يحيىٰ بن سعيد. قال سفيان الثوري: كان الضحاك يُعلم ولا يأخذ أجرًا. توفي: ١٠٢هـ. وقيل ١٠٥هـ. «السير» (٤/ ٥٩٨)، «الطبقات الكبرىٰ» (٦/ ٣٠٠).

الفقراء المقيمون عنده شيئًا سأل لهم السلطان قايتباي[١] أو غيره من الأمراء والأكابر ﷺ، فاعلم ذلك واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كاتب الولاة في قضاء حاجة وألان القول لهم، فلاث به صاحب الحاجة وقال: لم لا يغلظ له في القول ويلزمه بقضائها؟! فإنه أسرع لقضاء حاجتي، ولكن قد صار الناس كلُّهم يداهنون أبناء الدنيا لينالوا من دنياهم، وأما أنا فليس معي شيء يأخذونه، بأنه لا ينبغي اللوث علىٰ ذلك العالم، لأنه مشىٰ علىٰ ما أمر الله تعالىٰ به الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤]، وذلك لأن الحكام والجبابرة لهم السلطان والحكم في هذه الدار، لأنهم آلة لتنفيذ قضاء الله تعالىٰ وقدره في عباده في هذه الدار، والإغلاظ عليهم لا يزيدهم إلا قساوة، لأنهم ليسوا تحت أمر ذلك العالم أو الشيخ، بل لو شاء الله تعالىٰ لحبسوا ذلك العالم أو الشيخ وضربوه أو قتلوه، فمن طلب من أصحاب الحوائج أن الشيخ يغلظ علىٰ ذلك الظالم، فقد جهل طريق السياسة. ولا يجوز له حمل العالم علىٰ المداهنة، بل من حمله علىٰ ذلك فقد أخطأ ولم يستحق أن يشفع[٢] ذلك العالم فيه.

واعلم يا أخي أن من أعظم السياسة في قضاء الحاجة [إرسال هدية للمشفوع عنده، فقد كانت عائشة ﷺ تقول: مفتاح قضاء الحاجة][٣] الهدية بين يديها. وكان ميمون بن مهران يقول: إذا كان لك عند أحد من الأمراء حاجة، فاجعل رسولك الهدية. وكان الزهريُّ[٤] يقول: إذا كان لك إلىٰ أحد من الأمراء حاجة، فأته في بيته فإنه أقضىٰ للحاجة.

---

(١) الملك الأشرف قايتباي المحمودي. السلطان الحادي والأربعون من سلاطين المماليك. كان صالحًا محبًّا للصوفية، معتقدًا ومعظمًا لأولياء عصره. توفي سنة (٩٠١هـ).

(٢) بالأصلين: يشنع. والصواب ما أثبتناه.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء.



وكان عبد الله بن عباس يقول: لا تطلبوا من أحد حاجة في الليل، فإن الحياء في العينين.

وكان محمد بن واسع[1] إذا شفع عند أمير يقول له: قد رفعنا أمر هذه الحاجة إلىٰ الله تعالىٰ، فإن أذن لك في قضائها حمدناك، وإن لم يأذن لك في قضائها عذرناك. انتهىٰ.

وفي الأثر: «لا تنزلوا حوائجكم بمن لا يشتهي قضاءها». انتهىٰ. فينبغي للعالم أو الشيخ أن لا يراسل أميرًا أو يشفع عنده إلا إذا انشرح قلبه لذلك، وعلم بالقرائن أن ذلك الأمير مثلًا ينشرح لقضائها، فإن علم انقباضه من قضائها عنده، تربص لقضائها وقتًا آخر، ولا ينبغي أن يلتفت إلىٰ غضب صاحب الحاجة إن لم يكاتب ذلك الأمير، فإنه أعمىٰ لا يطلب إلا قضاء حاجته ولا عليه مما يترتب علىٰ ذلك من الإخلال بحرمة العالم أو غيره، فعُلِمَ أن السياسة أسرع في قضاء الحاجة من العنف، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الذي يقول: ليس عندي محبة لأحد من علماء هذا الزمان وصالحيه فضلًا عن العامة؛ فلاث به الناس وقالوا: بغض العلماء والصالحين من علامة مقت الله تعالىٰ للعبد، وكيف ينبغي للعبد أن يبغض أولياء الله وحملة شريعته؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ، فقد يكون بمعزل عما فهمه الذين لاثوا به، ويكون مراده بذلك القول الاعتراف بعجزه عن القيام بحقوق المحبة لهم فقط، وليس في كلامه ما يشعر بأنه يبغضهم، إنما قال: «ليس عندي محبة لهم» علىٰ سبيل الذم لنفسه العليمة بحقوق المحبة، فخاف أن يقول: «أنا أحبُّهم» فيقع في الكذب كما عليه أكثر الناس اليوم.

تابعي، من أهل المدينة. وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه. توفي: ١٢٤هـ. «الأعلام» (٧/ ٩٧) و«حلية الأولياء» (٣/ ٣٦٠).

(١) محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس الأزدي الإمام، الرباني، القدوة، أبو بكر. ويقال: أبو عبد الله الأزدي، البصري، أحد الأعلام. قال ابن عيينة: قال ابن واسع: لو كان للذنوب ريح، ما جلس إليَّ أحد. وقال أيضًا: إذا أقبل العبد بقلبه علىٰ الله، أقبل الله بقلوب العباد عليه. توفي: ١٢٣هـ. «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١١٩) و«الطبقات الكبرىٰ» (٧/ ٢٤١) و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٤٥)

وقد كان السلف الصالح لا يتجرأ أحد منهم أن يقول لأخيه: «أنا أحبُّك» إلا بعد أن يعرض علىٰ نفسه أنه لو أمره بطلاق زوجته التي يحبها ليأخذها هو، لطلقها له بانشراح صدرٍ، ولو طلب منه جميع ما بيده من المال، لأعطاه له بطيب نفس. وفي الحديث: «سيأتي آخر الزمان قوم إخوان العلانية، أعداء السريرة. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يتواخون رغبة ورهبة»[1].

وكان حبيب بن ثابت[2] يقول: إياك أن تقول لأحد: أنا أحبُّك وأنت تكتم عنه شيئًا من سرِّك. وسُئل سفيان الثوريُّ عن المحبة في الله للإخوان، فقال: تلك طريق نبت الشوك فيها، فلا أحد يسلكها اليوم. وكان علي بن بكار[3] يقول: ما رأيتُ أحدًا قام بحق الصحبة مثل إبراهيم بن أدهم، كان يقسم الثمرة بينه وبين أخيه، وإن كان غائبًا حفظها له حتىٰ يحضر. وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: من ادعيتَ محبتَه وأنت تحوجه إلىٰ أن يعتذرَ لك أو يداريك فدعواك باطلة، فإن من شرط المحب أن لا يحوج أخاه إلىٰ المداراة له ولا إلىٰ الاعتذار، إذ الاعتذار تهمة للمعتذر إليه وتزكية للنفس.

وقال رجل لبشر بن صالح[4]: إني أحبك في الله. فقال: انظر ما تقول! فربما كانت

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٥٥) من حديث معاذ أن النبي ﷺ قال: «يكون في آخر الزمان أقوام إخوان العلانية أعداء السريرة. فقيل: يا رسول الله، وكيف يكون ذلك؟ قال: ذلك برغبة بعضهم من بعض، ورهبة بعضهم من بعض» والطبراني في «الأوسط» (٤٣٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٢٨) بنحوه.

(٢) حبيب بن أبي ثابت أبو يحيىٰ القرشي الأسدي مولاهم، فقيه الكوفة. قال أحمد بن يونس: عن أبي بكر بن عياش: كان بالكوفة ثلاثة، ليس لهم رابع: حبيب بن أبي ثابت، والحكم، وحماد، كانوا من أصحاب الفتيا، ولم يكن أحد بالكوفة إلا يَذِلُّ لحبيب. توفي: ١٢٢هـ «السير» (٥/ ٢٨٨)، «حلية الأولياء» (٥/ ٦٠).

(٣) علي بن بكار أبو الحسن البصري الإمام الرباني، قال موسىٰ بن طريف: كانت الجارية تفرش لعلي بن بكار، فيلمسه بيده، ويقول: والله إنك لطيب، والله إنك لبارد، والله لا علوتك الليلة. وكان يصلي الفجر بوضوء العتمة. توفي: ٢٠٧هـ. وقيل: ٢٠٩هـ. «السير» (٩/ ٥٨٤)، «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٧).

(٤) لعله بشر بن موسىٰ بن صالح، محدث حافظ ثقة، سمع من الحميدي شيخ البخاري وجماعة. وروىٰ عنه الطبرانيُّ وجماعة. كان من بيت حشمة وأدب. توفي سنة (٢٨٨هـ). سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٥٣).



بردعة حمارك أغلىٰ قيمة من ثيابي وعمامتي، وربما كنت تهتم بعلفه صباحًا ومساءً أكثر من اهتمامك بي. وكان مالك بن دينار يقول: قد صارت أخوة الناس اليوم لبعضهم كمرقة الطباخ طيبة الريح ولا طعم لها.

وقد كان السلف الصالح ربما أن أحدهم لا يلقىٰ أخاه إلا كلَّ شهر مرة، ولو أنه سأل أخاه شطر ماله، لأعطاه له، ونراهم اليوم يتلاقون في النهار كذا كذا مرة، وفي كلِّ مرة يقول لأخيه: أيش حالك؟ ولو سأله دجاجة لم تسمح نفسه بها. وكان عبد الله بن عباس يقول: كيف يدعي أحدكم محبة أخيه ولا يتحفه بتحفة كلما زاره؟! انتهىٰ.

فقد علمتَ يا أخي من جميع ما قررناه أن قول هذا العالم ليس عندي محبة لأحد من العلماء والصالحين محمولٌ علىٰ الصدق والحقِّ، لعجزه عن القيام بحقوقهم، لا بغضًا لهم، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دُعِيَ إلىٰ وليمة فلم يجب وقال: إن كان يريد أكلي من طعامه، فليرسله إلىٰ بيتي؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: قد قال رسول الله ﷺ: «من دُعِي إلىٰ وليمة فليجب»[1]، وما قال: من عمل وليمة فليرسل الطعام إلىٰ الناس، بأنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له عذر يمنعه من الحضور لا يقدر علىٰ إفشائه، وربما كان لا يعتقد حلَّ مال الداعي، فخاف إن حضر ولم يأكل أن يُدخِل عليه غمًّا، وإن أكل ارتكب إثمًا، فأراد بإرساله الطعام مباسطته وإظهار محبته، ثم يترك ذلك الطعام إلىٰ المحتاج إليه من أصحاب الضرورات.

وقد كان عبد الله بن عمر لا يجيب إلىٰ وليمة إلا إن وثق بورع صاحبها ويقول: لا ينبغي لأحد أن يأكل إلا من طعام التقي النقي. وكان سفيان الثوري لا يجيب إلىٰ وليمة من تفاخر بالطعام ويقول: نهانا رسول الله ﷺ أن نأكل من طعام المتفاخرين[2]. وكان

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٧٣)، ومسلم (١٤٢٩).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٧٥٤) من حديث ابن عباس يقول: «إن النبي ﷺ نهىٰ عن طعام المتباريين أن يؤكل» والحاكم (٧١٧٠) وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في «الكبير» (١١٩٤٢).

محمد البيكندي[1] يقول: أدركنا الناس وهم لا يكلفون الناس إلىٰ الحضور في البيوت إذا أولموا، وإنما كانوا يملون الجفان من الطعام، ثم يعدون بها إلىٰ المسجد، فيأكل منها من كان حاضرًا من غني وفقير وشريف ووضيع، وفي رواية: مضت السنة في الولائم أن الجفان كانت تملأ من الطعام ثم يُغدَىٰ بها إلىٰ المسجد.

وكان ميمون بن مهران لا يحضر وليمة فيها عدو له ويقول: مؤاكلة العدو تخمة، ومؤاكلة المحب تهضم الطعام، فأخاف أن يلحقني تخمة بمؤاكلتي معه. وكان شقيق ﷺ يقول: ما بقي في هذا الزمان وليمة علىٰ موافقة السنة، ولقد ندمتُ علىٰ إجابتي للولائم في الزمن الماضي. وقال: وبلغنا أن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ﷺ كانا لا يجيبان إلىٰ حضور الولائم ويقولان: نخاف أن يكون الطعام مباهاة وتفاخر. وكان حاتم الأصم لا يجيب إلىٰ وليمة من لا يتورَّع، وإن قالوا له: إنه يذمك بذلك؛ قال: إن مذمة هؤلاء مدحة لنا. وكان يجيب إلىٰ طعام أصدقائه.

وأرسل شخص بطعام إلىٰ عثمان بن عفان ﷺ مع عبد له، وقال: إن قبله منه فأنت حر. فقال: إن كان فيه عتقك ففيه رقي ولم يقبله. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم أعلم منك بالسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي أرسل لبعض العلماء الكبار أو المشايخ الكبار طبقًا فيه ثمرة واحدة أو لقمة، فلاث به أصحاب ذلك العالم أو الشيخ، وقال بعضهم: هذا استهزاء بالشيخ! وقال بعضهم: هذا هوس في العقل! وقال بعضهم: هذا امتحان للشيخ وغير ذلك، بأنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون له غرض صحيح في ذلك خارج عن جميع ما قاله هؤلاء. وقد كان الحسن البصريُّ وغيرُه

---

(١) محمد بن سلام بن الفرج السُّلمي مولاهم، أبو عبد الله، الإمام، الحافظ، الناقد، البخاري، البيكندي. نسبته إلىٰ (بيكند) بقرب بخاري. رأىٰ: مالك بن أنس. وكان من أوعية العلم، وأئمة الأثر. قال أحمد بن الهيثم الشاشي: قال لي يحيىٰ بن يحيىٰ: بخراسان كنزان: كنز عند محمد بن سلام البيكندي، وكنز عند إسحاق بن راهويه. توفي في سابع صفر، سنة: ٢٢٥هـ. «السير» (١٠/ ٦٢٨) و«الوافي بالوفيات» (٣/ ٩٦).

يرسلون إلىٰ أخيهم الرغيف أو التمرة أو النعل مثلًا ويقولون له: إنا نعلم غناك عن مثل ذلك، وإنما أردنا أن نُعْلِمَك بأنك علىٰ بال منا. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأكابر علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتصدق بالكِسَر اليابسة دون اللينة، وبالخليقات البالية دون الجديدة، فلاث به بعض الناس وقال: هذا يدل علىٰ جهله بالأدب مع الله تعالىٰ. وقد قال تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، **حتىٰ كان ابن عمر يتصدق بالسكر ويقول: إني أحبه،** بأنه قد يكون مشهده أن المُلْك لله تعالىٰ في جميع الوجود، فإذا أعطىٰ المعيب فكأنه نقل ملك الحق من موضع من خرابته إلىٰ مكان آخر فقط.

[مذهب النخعي في إخراج المعيب في الزكاة والأضحية]

وقد كان النخعي يقول: من كان يرىٰ أنه لا يملك مع الله تعالىٰ شيئًا، فلا عليه أن يتصدق بالمعيب في زكاة الفطر، ولا عليه لوم في ذبح المعيب في الأضحية، إلا ما صرَّح الشرع بمنعه، لكن هذا مذهب مرجوح، والجمهور علىٰ الأمر بالتصدق بالسليم، حتىٰ كان السلف الصالح منهم محمد بن سيرين يخرج زكاة فطره مغربَلة مطيَّبة. وكان عروة ابن الزبير[1] يقول: تخيروا للصدقة، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

فينبغي لمن ينكر علىٰ من يتصدق بالمعيب أن يعلمه بما عليه الجمهور، ثم ينكر عليه بعد ذلك ولا يبادر إلىٰ الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير يقول لأصحابه: من أعطىٰ فقيرًا شيئًا ورأىٰ له فضلًا عليه، فهو ممن أبطل صدقته بالمنِّ والأذىٰ؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: كيف يبطل الصدقة بذلك؟! وهو أمر لا يكاد الإنسان ينفك عنه، ولا يكون المن إلا بذكره للناس.

---

(١) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله: أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان عالمًا بالدين، صالحًا كريمًا، لم يدخل في شيء من الفتن. وانتقل إلىٰ البصرة، ثم إلىٰ مصر فتزوج وأقام بها سبع سنين. وعاد إلىٰ المدينة فتوفي فيها. وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه. و(بئر عروة) (بالمدينة) منسوبة إليه. توفي: ٩٣هـ. انظر: «الأعلام» (٤/ ٢٢٦) و«الطبقات الكبرىٰ» (٥/ ١٧٨).

والجواب: بأن هذا الشيخ قد يكون مجتهدًا مطلقًا، ولا ينبغي الاعتراض علىٰ المجتهدين ولا من تبعهم، لأنه يجب علىٰ المجتهد العمل باجتهاده، ويحرم عليه العدول عنه، [وكان الليث بن سعد دائم التصدق والإهداء][1] وكثيرًا ما كان يقول: من أخذ مني صدقة وهدية، فحقُّه عليَّ أعظم من حقي عليه، لأنه قبِل مني قرباني إلىٰ الله تعالىٰ، وحمله لي إلىٰ الآخرة من غير أجرة. انتهىٰ. ويؤيد ذلك قول معاذ النسفي[2] ﷺ: من لم يرَ نفسه أحوج إلىٰ ثواب صدقته من الفقير إلىٰ صدقته هو، فهو ممن أبطل صدقته بالمن والأذىٰ، وضرب بها وجهه. انتهىٰ.

وكان الأعمش يقول: حكم من أخذ صدقتك حكم من غسل ثوبك، أو فصدك وأخرج منك الدم الفاسد الذي يؤذيك، فمن الأدب أن ترىٰ له الفضل عليك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي تكرر منه أنه كلما رأىٰ سائلًا يسأل الناس علىٰ الأبواب، يمسكه ويقيده بالحديد إلىٰ الصباح، فلاث به الفقهاء وقالوا: كيف يجوز له أن يقيد من ليس له عليه ولاية؟!

والجواب: أن ذلك قد يكون باجتهاد، كما وقع لأبي الأسود الدؤلي[3] أنه قيَّد سائلاً

---

(١) زيادة يقتضيها السياق، وقد استكملناها من «تنبيه المغترين» للمصنف.

(٢) أبو عبد الرحمن معاذ بن يعقوب النسفي، كان زاهدا عالما، وكان من خيار المسلمين ومن عباد الله الصالحين، الّذي أسس الجامع العتيق في زمانه، وذلك في سنة تسع عشرة ومائتين، وهو الّذي بنىٰ المسجد والرباط في سكة الزهاد. الأنساب للسمعاني (١١/ ٢٠).

(٣) أبو الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو، ويقال: الديلي. العلامة، الفاضل، قاضي البصرة. ولد: في أيام النبوة. قال أحمد العجلي: ثقة، كان أول من تكلم في النحو. وقد أمره علي ﷺ بوضع شيء في النحو لما سمع اللحن. قال: فأراه أبو الأسود ما وضع. فقال علي: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت! فمن ثمَّ سُمِّي النَّحو نحوًا. وهو أول من نقط المصاحف. توفي في طاعون الجارف، سنة:٦٩هـ. «السير» (٤/ ٨١)، «الطبقات الكبرىٰ» (٧/ ٩٩)، «هدية العارفين» (١/ ٤٣٤).

بعد أن رآه خرج يسأل بعد أن كان عشاه وأشبعه إلىٰ الصباح، وقال: أمنعك عن الصياح بالمسلمين بالباطل.

فإن قال قائل: كيف ساغ لأبي الأسود تقييده بالحديد؟! مع أنه لم يقع في معصية توجب ذلك، ولم يكن لأبي الأسود ولاية عليه حتىٰ يقيده؛ **والجواب**: أنه يُحتمَل أن يكون له ولاية علىٰ ذلك السائل من طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قال قائل: قد يحتاج إلىٰ دخول الخلاء، أو يكون وراءه عيال تضيع مصالحهم في تلك الليلة؛ **قلنا**: يُحتمَل أنه لم يكن يحتاج إلىٰ الخلاء، وأن لا يكون له عيال. ويُحتمَل أنهم كانوا يحلونه من القيد إذا احتاج إليه، ولم يمنعوه سوىٰ من الطواف علىٰ الناس، والمحامل كثيرة، **فلا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ كبار التابعين إلا بعلم صحيح**، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي اعتزل عن جميع أهل حارته، وصار كالغريب بينهم، فلاثوا به وقالوا: إنما ترك مجالستنا احتقارًا بنا، أو لظنه فسقنا، أو جهلًا بالشريعة، فإنها أمرت بالتوادد والتواصل.

والجواب: بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا الفقير، ولا حمله علىٰ المحامل السيئة، فقد يكون ممن اكتفىٰ بالله تعالىٰ في المجالسة والأنس بعباداته له، فإنه تعالىٰ كافٍ من توكل عليه.

وقد كان يحيىٰ بن معاذ يقول: من أقبل علىٰ الله تعالىٰ آنسه بلا عشيرة، وأغناه بلا مال. وأوحىٰ الله إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، أقبل عليَّ دون الناس، أنكِّس لك رؤوس الجبَّارين، وأجعلهم تحت طاعتك كالكبش تحت السكين. يا داود، أنا أولىٰ بك من الناس، لأني أستر عليك زلاتك، ولا أفضحك بها إذا غضبتُ عليك، وأما الناس فلا يسترون عليك، ويفضحونك بها إذا غضبوا عليك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٥) ومما أجبتُ به عن الفقراء الذين يميلون في الذكر يمينًا وشمالًا، فلاث بهم بعض الفقهاء وقال: إن ميلكم هذا بدعة حتىٰ تأتوا لنا بدليل.

والجواب: قد ثبت عن الفضيل بن عياض أنه كان يقول: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا ذكروا الله تعالىٰ يميدون كما تميد الشجرة في يوم الريح، وتهمل أعينهم بالدموع حتىٰ تبتل ثيابهم. انتهىٰ[1].

[سبب استحباب مشايخ الصوفية للتمايل]

وقد استحبت ذلك أشياخُ الطريق من أبي القاسم الجنيد إلىٰ عصرنا هذا وقالوا: يبدأ بـ«لا إله» من الجانب الأيمن، ويختم بالأيسر فيقول: «إلا الله» بعزم وشدَّة، لأن النَّفْسَ في الجانب الأيسر. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا أنكر علىٰ الناس تقبيلهم أضرحة المشايخ وأعتابهم، ولاث العوام به وقالوا: هذا قليل الاعتقاد في الصالحين، وكيف يعيب علىٰ أحدنا تقبيل ضريح الإمام الشافعي ﷺ مثلًا نيابة عن يده أو رجله لو كان حيًّا أو عتبة ضريحه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا العالم، لأنه لم يثبت عن رسول الله ﷺ تقبيل شيء من قبور إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا أقرَّ أحدًا من أصحابه علىٰ تقبيله قبر أخيه المسلم، فترك تقبيل أضرحة المشايخ إذن أولىٰ من تقبيلها، ويجعل الإنسان المعتقِد فيهم بدل ذلك الاقتداء بأقوالهم وأفعالهم، وكثرة محبتهم والخضوع لهم بالقلب، فإن ذلك هو التعظيم الحقيقي والمحبة الصحيحة، فيحصل لنا ولهم الخير والبركة بالاقتداء بأفعالهم وأخلاقهم[2].

وربما بالغ الناس في تعظيم قبور الأولياء حتىٰ عبدوهم من دون الله، كما قال ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع. قالوا: يا رسول الله، اليهود

---

(١) لم أقف عليه في «الشفا» ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٨٨).

(٢) يرىٰ الإمام هنا

والنصارىٰ؟ قال: فمن؟!»[1]، ويؤيد ما ذكرناه قول عمر بن الخطاب لما قبَّل الحجر الأسود: لولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتُك[2]. انتهىٰ[3]. فاعلم ذلك، وتقيد بالسنة المحمدية قولًا وفعلًا واعتقادًا، فإن النجاة في ذلك. والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لتلميذه: أخرج إلىٰ الكنيسة وعاشر القسيسين والرهبان خير لك من معاشرة الفقراء؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: كيف تكون مخالطة الكفار والجلوس في الكنيسة خيرًا من الجلوس في المسجد ومعاشرة المسلمين؟!

والجواب: أنه ربما كان قصده أن ذلك المريد صار من الداعين إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، لحسن علمه وعمله وسياسته، كأنه يقول له: اذهب إلىٰ الكنيسة وعاشر الرهبان وغيرهم، فلعلَّهم يهتدون إلىٰ الإسلام، ويحصل لك ولهم بذلك الخير.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

(٣) يجيب الإمام هنا عن العذر الذي قام برأس هذا العالم، فجعله ينكر تقبيل الأضرحة إنكارًا شديدًا، وإلا فإن الأمة المحمدية معصومة من الشرك دائمًا وأبدًا، بدليل قوله ﷺ فيما أخرجه البخاري (١٣٤٤): «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلىٰ حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض - أو مفاتيح الأرض - وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها».

أما تقبيل الأضرحة، فقد اختلفت فيها مشارب المشايخ الأولياء وفتاوىٰ العلماء العالمين بين مانع ومجيز، ولكلٍّ مشهده. وجملة من مشايخ مصر يقبلون الأضرحة والأعتاب الشريفة، ويرون فيها الترقي والاستمداد من صاحب الضريح الشريف، ويعتقدون أنها تقوم مقام تقبيل يده. وكما قال سيدنا الشعراني في هذا الكتاب: «إن الأدب لا تأباه الشرائع» فكل ما كان طريقًا إلىٰ زيادة الأدب والتعظيم يجوز الأخذ به وإن لم يرد ما دام لا يقع في دائرة المنهي عنه كالسجود مثلًا الذي لا يرتفع إن فعله بعض العوام إلىٰ مرتبة الشرك، بل لا يزيد عن مرتبة الحرام. وقد نقل الإمام الشمس الرمليُّ في «تحفة المحتاج» وهو ممن يجلهم سيدنا الإمام الشعراني ويثني عليه وعلىٰ والده الشهاب خيرًا: «إن قصد بتقبيل أضرحتهم التبرك لم يكره كما أفتىٰ به الوالد» (٣/ ٢٤). وغير الإمام الرملي كثير كالشرقاوي في تحريره (١/ ٣٤٥) والباجوري في حاشيته (١/ ٢٥٥) وغيرهما. هذا غير أئمة بقية المذاهب الثلاثة، غير أن الموضع لا يتسع لفتح هذا البحث بالتفصيل هنا، فنكتفي بذلك.

ويُحتمَل أن يكون مراده بذلك أن سكنىٰ التلميذ للكنيسة ومخالطة الرهبان خير له، لما هو عليه من الصفات النجسة، فإذا سكن الكنيسة سَلِم من مقت قلوب المؤمنين له كلما رأوه، بخلاف ما لو سكن في المسجد، إذ الرهبان لا يمقتونه علىٰ تلك الصفات، ولو مقتوه لم يؤثروا فيه، فافهم.

(٧٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدخل علىٰ الولاة ويقول: مرادنا تكاتبون مولانا السلطان علىٰ لساني أنه يبني بيمارستان[1] بمكة أو بمصر أو بالقدس؛ فلاث به الأقران وقالوا: مثل هذا لا يكاتب الولاةُ السلطانَ علىٰ لسانه عادة، وإنما يكاتبون علىٰ لسان الشيخ الكبير الذي أجمع الناس علىٰ جلالته حتىٰ وصل خبره للسلطان، ولكن مقصود هذا أن يشتهر عند الولاة والسلطان بأنه يسعىٰ في الخير، وأنه من الصالحين، وإذا وقعت له الشهرة بذلك، فلا عليه بعد ذلك بنوا البيمارستان أم لم يبنوه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ سوء الظن بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون الباعث له علىٰ بناء البيمارستان الرحمة بالضعفاء لا الشهرة بدليل [...][2]. ويجب أن يُظَنَّ به أنه لو سأل في ذلك غيرُه وأجابه الولاة، لفرح بذلك أشد مما يكون علىٰ يديه، ومن ظن خلاف ذلك، فعليه الخروج من عهدته بين يدي الله عزَّ وجلَّ، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٩) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يشرب ما يقطر من أطراف المجذوم أو ما يتقيؤه، ويزعم أنه يحصل له بذلك المدد العظيم، فلاث به الناس وقالوا: المدد لا يكون إلا بفعل الطاعات أو الأمور التي أذن الشرع فيها، وأما ما يخالف الشريعة فلا مدد في فعله، بل هو إلىٰ الإثم أقرب.

والجواب: أن هذا الفقير ربما يكون ممن كشف الله تعالىٰ عن بصيرته، فرأىٰ أن ذلك المجذوم لا يمد إلا من اعتقد فيه الصلاح، وعلم أنه متىٰ شرب صديده أوقيأه

---

(١) البيمارستان: كلمة فارسية معناها المستشفىٰ.

(٢) سقط بالأصلين.

حصلت له خلافة ذلك الولي، كما وقع لسيدي قمر الدولة[2] مع سيدي أحمد البدوي ﷺ، فإن سيدي قمر الدولة كان من جند محمد بن قلاوون[2]. فمر بطندتا[3] وهو مسافر في وقت الحر، فسمع الناس يقولون: إن سيدي أحمد البدوي على موت، فدخل زائرًا له ولم يكن رآه قبل ذلك، فلما شرب سيدي أحمد ماء البطيخة تقيأه في إناء، فأخذه سيدي قمر وشربه فكانت الولاية.

وكذلك وقع لزوجة سيدي أبي عبد الله القرشي[4] كانت تضع الكوز تحت أصابع يديه ورجليه، فإذا امتلأ من الصديد شربته، فحصلت لها الولاية وجنست بعده للمشيخة، وكمّلت جماعة من الفقراء. وهذا من باب شرب أم أيمن بول رسول الله[5] ﷺ، وشرب الحجام دم رسول الله[6] ﷺ، فهو للأولياء بحكم الإرث المحمدي. وكان شيخ الإسلام

(١) انظر ترجمته في: «الطبقات الوسطى» للإمام الشعراني، الترجمة (٣١٧) طبعة دار الإحسان.

(٢) نقل العلامة نور الدين الحلبي هذا الموضع في «النصيحة العلوية»، وعلق عليه محقق الكتاب أ. أحمد عز الدين خلف الله قائلًا: إن هذا سبق قول، لأن الناصر بن قلاوون لم يكن معاصرًا لسيدي أحمد البدوي. اهـ. وذلك لأن مولده متأخر عن وفاة سيدي أحمد البدوي، فقد توفي سيدي البدوي سنة (٦٧٥هـ)، وولد ابن قلاوون سنة (٦٨٤هـ).

(٣) وتعرف الآن باسم «طنطا» إحدى مراكز محافظة الغربية بمصر.

(٤) قال عنه الإمام الشعراني: الشيخ أبو عبد الله القرشي ﷺ، واسمه محمد بن أحمد بن إبراهيم. تلميذ الشيخ أبي الربيع المالقي. كان جليل المقدار. وكان يجتمع كثيرًا بالخضر ﷺ ويبيت الخضر عنده. لم يتيسر معرفة تاريخ وفاته. انظر: «الطبقات الوسطى» للإمام الشعراني الترجمة (٢٨٠).

(٥) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الحاكم (٦٩١٢) من حديث أم أيمن ﷺ، قالت: «قام النبي ﷺ من الليل إلى فخارةٍ من جانب البيت فبال فيها، فقمت من الليل وأنا عطشى فشربت من في الفخارة وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبي ﷺ قال: يا أم أيمن قومي إلى تلك الفخارة فأهريقي ما فيها. قلت: قد والله شربت ما فيها. قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: أما إنك لا يفجع بطنك بعده أبدا» والطبراني في «الكبير» (٢٣٠) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٦٥) وابن حجر في «المطالب العالية» (٤٨٢٤).

(٦) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣٤٤٣) من حديث سالم قال: «حجمت رسول الله ﷺ وشربت الدم من المحجمة. وقلت: يا رسول الله، شربته. فقال: ويحك يا سالم أما علمت أن الدم حرام؟ لا تعد».

البلقيني يقول بطهارة بول النبي ﷺ وطبيعته. وكان يقول: لو وجدت طبيعتَه لأكلتُها ورأيتُ لنفسي بذلك الشرف. انتهىٰ.

وسألت سيدي عليًّا الخواص مرة عن شرب بعض المريدين بول شيخه علىٰ وجه التبرك به، فقال: هذا لا يتمشىٰ إلا علىٰ قول من يقول: «جلب المصالح مقدم علىٰ درء المفاسد» وهو خلاف ما عليه الجمهور[1]، فمن أراد أن ينكر علىٰ من فعل مثل ذلك، فليعلمه بمذهب الجمهور أولًا ثم ينكر عليه بعد ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(۷۳۰) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يضحك في المقابر ويأكل ويشرب، فلاث به بعض الناس وقالوا: لو أن هذا من الصالحين لشغله رؤية القبور وما هم فيه عن الأكل والشرب. وقد رأىٰ الحسن البصري شخصًا يأكل في المقابر، فزجره وقال: أما في رؤيتك لهذه الأموات ما يلهيك عن تذكر الأكل؟! وفي رواية أنه قال له: والله إنك لمنافق! كيف تأكل بين المقابر؟! انتهىٰ.

والجواب: أن مثل هذه الأمور تخفىٰ علىٰ كثير من الناس، فينبغي إعلامه بكلام الحسن البصري، ثم بعد ذلك ينكر عليه علىٰ وجه التنزيه. وقد يكون هذا الفقير ممن لا يأكل إلا إن سمع الهاتف يقول له: سألتُك بالله تأكل، كما كان عليه سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، فهو لا يأكل إلا إبرارًا لسؤال الهاتف له بالله، فرجح بذلك جانب القسم علىٰ جانب الاعتبار، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

وقد ورد أن عبد الله بن الزبير شرب دم النبي ﷺ وذلك فيما رواه الحاكم (٦٣٤٣) من حديث الهند بن القاسم بن عبد الرحمن بن ماعز قال: «سمعت أن عامر بن عبد الله بن الزبير كان يحدث، أن أباه حدثه، أنه أتىٰ النبي ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ قال: يا عبد الله، اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد، فلما برزتُ عن رسول الله ﷺ عمدت إلىٰ الدم فحسوته، فلما رجعت إلىٰ النبي ﷺ قال: ما صنعت يا عبد الله؟ قال: جعلته في مكان ظننت أنه خاف علىٰ الناس. قال: فلعلك شربته؟ قلت: نعم. قال: ومن أمرك أن تشرب الدم؟ ويل لك من الناس، وويل للناس منك» والبزار (٢٢١٠) بنحوه، وابن حجر في «المطالب العالية» (٣٨٢١).

(١) إذ الجمهور علىٰ أن درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح.

(٧٣١) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يلح في طلب طعام أو ثياب أو دراهم، ويقول الناس: ما رأينا أملح[١] **رقبة من هذا السائل!** بأنه قد يكون من أولياء الله الذين كُشِفَ لهم عن رزقهم الذي جعله الله تعالىٰ عند ذلك الشخص، فهو يلح عليه ليعطيه بسرعة، لئلا يشغله عن العبادة بغير فائدة، فإنه لا يقدر أحد غيره أن يأكله.

وقد أخبرني سيدي الشيخ حسن الريحاني[٢] ﵀ أن جماعة من سكان الجبل المقطم كانوا علىٰ هذا الجبل، وربما كان رزق أحدهم في أقصىٰ المشرق أو المغرب، فيذهب إليه ويأتي به. قال الشيخ حسن: ولقد أرسلوا مرةً النقيب ليفتش لهم علىٰ الحلال من الرزق، فلم يجد ذلك إلا في مدينة مراكش عند امرأة عجوز، فأتىٰ به إليهم، وكان نخالة شعير، فلما وضعه بين أيديهم فأكلتُ منه فإذا هو سكر. فإياك يا أخي وسوء الظن بالفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٢) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي يخالط أهل البدع كالقَلَنْدريَّة والحيدرية[٣] **والروافض، ولاث به الناس وقالوا: [لولا]**[٤] **أنه علىٰ مذهبهم ما خالطهم.**

والجواب: أنه قد يخالطهم ليسارقهم بالتنفير عن بدعتهم شيئًا فشيئًا، أو ليدفع عنهم البلاء بدعائه لهم ونحو ذلك. وقد قال سيدي ياقوت العرشيُّ ﵁: مررتُ علىٰ مكان القَلَنْدريَّة في إسكندرية، فرأيتُ منهم أمورًا تخالف الشرع، فأنكرتُ عليهم كلِّهم، وإذا بقائل يقول لي وهو جالس في الهواء: أتنكر علىٰ القَلَنْدريَّة وأنا منهم؟! قال سيدي ياقوت: فتبتُ إلىٰ الله تعالىٰ عن المبادرة إلىٰ الإنكار. انتهىٰ.

قلتُ: وقد يكون ذلك الجالس في الهواء شيطانًا، فكان من الحزم البقاء علىٰ الإنكار

---

(١) كذا بالأصلين.

(٢) حسن الريحاني كان عابدًا زاهدًا صالحًا مجاهدًا، مات في القرن العاشر. «الكواكب الدرية» (٤/ ٢٦٠).

(٣) القلندرية والحيدرية: طريقتان صوفيتان منحرفتان. وقد تميز القلندرية بلحق رؤوسهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

على من رآه يفعل المنكر فقط لا على العموم، فإنه تهور في الدين، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي هجر مريده على كثرة نومه المباح، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: الهجر لا يشرع إلا في فعل المعاصي، والنوم مباح، فكيف يهجر مريده عليه؟! وما ثم شريعة نزلت على الشيخ وحده!

والجواب: أن مثل ذلك إنما يفعله الشيخ لمصلحة تعود على ذلك المهجور، وذلك أن من أكثر من النوم جرَّه ذلك إلى موت القلب، كالقمار والميسر والشطرنج، فلما رأى الشيخ ما يؤول إليه كثرة النوم من موت القلب، هجر ذلك المريد عليه هجرَ رحمةٍ وشفقة، لا هجر حقد ومكر وبغضاء. وربما كان ذلك المريد هو السائل في تأديبه على ذلك حين دخل في عهده، ولا اعتراض إلا على من يتحكم في الأجانب عن العهد.

وقد أجمع القوم على أن النوم نقص، فمن أحبه فقد أحب النقص واللحوق بالأموات، إذ النوم أخو الموت، ولذلك كان الملائكة لا ينامون، وكذلك الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم[1]، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ جماعته ويذهب بهم إلى البساتين التي فيها الفواكه كالتين والمشمش والتوت وغير ذلك، ويلوث الناس به ويقولون: هذا أمر لا يجوز، لأنه حصل بسيف الحياء، وإلا فغالب الناس لا يحتمل مثل هؤلاء الخلائق أنهم يدخلون بستانه، فيقطعون فواكهه بلا عيار.

والجواب: أن مثل هذا يُحمَل على ظنِّه طيبة نفس صاحب البستان بذلك، لقرينة أنه لم يمنعهم من الدخول، ولو أنه علم كراهيته لذلك، ما دخل بجماعته بستانه. فأعلِّم يا أخي هذا الشيخ الساذج بأن مثل ذلك لا تطيب به النفوس غالبًا، وأن الورع تركه، ثم بعد ذلك اعترض عليه.

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠١٣) عن عائشة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ قال: يا عائشة، «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي» ومسلم (٧٣٨).

وتقدم في هذه الأجوبة أن من الأولياء من يُكشَف له بأن صاحب البستان قد أذن لهم في ذلك بطيبة نفس، فهو علىٰ بصيرة من أمره، فلا لوم عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينزل بلاد الريف للسياحة[1] كالمطاوعة وأضرابهم، ويبيت عند مريد شيخ آخر، وصار ذلك المريد متحيرًا بين ضيافة هذا الشيخ وبين تغير خاطر شيخه، ولاث الناس به وقالوا: كان ينبغي له أن لا يبيت عند مريد غيره، لئلا يكدر عليه قلبه، بأنه ربما كان ساذجًا لا يدرك مثل ذلك، أو يدركه ويظنُّ أن مثل شيخ هذا المريد يفرح بنزوله هو وجماعته علىٰ مريده، فينبغي لمن يريد الإنكار علىٰ مثل هذا الشيخ أن يعلمه بأحوال الخلق في هذا الزمان، ثم إن خالف فله الاعتراض عليه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ علىٰ الوظائف الدينية معلومًا[2] كالخطابة والإمامة وتدريس العلم وقراءة القرآن، ولاث الفقراء به وقالوا: هذا أمر ما رأيناه وقع من أحد من المشايخ الذي أدركناهم.

والجواب: أن أخذ المعلوم المذكور لا يقدح في مقام الشيخ، فقد يكون الباعث له علىٰ فعل تلك الوظيفة الدينية القيام بشعائر الدين فقط، ثم إنه يأخذ ذلك المعلوم ابتداءً إعطاءً من الله عزَّ وجلَّ لا في مقابلة تلك العبادة، ولكن محكُّ الصدق في ذلك أن لا يطالب بقلبه ولا بلسانه ولا بوكيله جابيًا ولا ناظرًا إذا صار الوقف رقبة إلا بنية صالحة، كأن عرف بالقرائن أن الجابي أو الناظر يأكل ذلك المتوفر بغير طريق شرعي، ولا يعطيه لأحد من المحتاجين إليه، أو لا يصرفه في عمارة الوقف ونحو ذلك، فللشيخ المذكور أن يطالبه بذلك المعلوم صيانةً له عن الوقوع في الإثم، فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ

(١) بالأصلين: للسيارة.

(٢) المعلوم: الراتب المقرر لمن يقوم بالوظيفة.

الإنكار علىٰ الأشياخ إذا رأيت صورة فعلهم صورة محبِّ الدنيا، فإن القصد مختلف[1]، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يطلب التميز عن إخوانه من المستحقين ويتكدر من الجابي أو الناظر إن لم يميزه، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا من الصالحين ما تميز عن إخوانه ودخل إلىٰ كراهة الحق تعالىٰ له، فإنه يكره العبد المتميز عن أخيه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما أنه كان يعلم أن في الوقف فائضًا، وشرط واقفه أنه يصرف للفقراء والمساكين أينما كانوا، أو يصرف للمستحقين، ولكن الناظر يأكله بغير طريق شرعي، وعلم ذلك الشيخ أنه يستحق الأخذ من ذلك لفقره وحاجته. فابحث يا أخي أولًا علىٰ القضية، فإن رأيتَه يأكل ذلك بغير طريق شرعي، فأنكر عليه، وإلا فكف عن الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يطالب الناس بالحق الذي له عليهم بعنف وشدة، فلاث به الناس وقالوا: حاشا أن يكون هذا من الصالحين! فإن من شأن الصالحين أنهم إذا أعطوا أحدًا شيئًا من الدنيا يتاجر لهم فيه مثلًا أن لا يطالبوه بذلك لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولكن إن أتاهم منه بشيء قبلوه من الله تعالىٰ علىٰ يد ذلك العبد، وأن لم يأتهم به لا يطالبونه به.

والجواب: أنه لا يلزم من شدَّة المطالبة أن يكون ذلك لكونه يحبُّ الدنيا، فقد يكون قصده بذلك تعظيم حقوق الناس في عينه، لئلا يتساهل فيها.

وكان علىٰ هذا القدم سيدي عليٌّ الخواص، كان يطالب الإنسان بالجديد النقرة إذا أخذ منه اليوم بعد اليوم، ويظهر له الغضب ويقول: إنما أفعل ذلك لأقبِّح في عينه التساهل بحقوق الناس في هذه الدار؛ فإن عبادته كلَّها قد لا ترضي شخصًا واحدًا عليه [له][2] حق في الآخرة.

---

(١) وسيأتي نظائر لمشابهة الكامل لغيره في صورة الفعل مع الاختلاف في القصد في الجواب (٨٣٢).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ شيخ رأيتَه يشاحح بياع الفجلِ أو الليمون أو المقيلي[١]، أو حبس من له عليه دين وتقول: كيف يدعي هذا أنه شيخ ويشاحح من رأس ماله نصفان فضة أو نصف واحد؟! والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا سرقوا له قِدْرة ذهب كان جمعها بنية صالحة، فتغير وتكدَّر، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا شيخًا ما تغيرت منه شعرة علىٰ زوالها من يده، بأنه قد يكون في الباطن عكس[٢] ذلك، وربما أظهر التغير سترةً لمقامه في الزهد في الدنيا، فربما قالوا فيه إذا لم يتغير: شيء لله! المدد! سرقوا له قدرة ذهب فلم يتغير! فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إذا صار قلب الوليِّ سماويًّا أو طوَّافًا بالسماء، حفظ من إبليس، ولا يحتاج إلىٰ الاستعاذة بالله منه؛ فلاث به الناس وقالوا: إن قلب محمد ﷺ كان طوَّافًا بالسماء ولا بد، ومع ذلك فأمره الله بالاستعاذة من الشيطان الرجيم.

والجواب: بأن هذا الشيخ صادق في قوله، ملبَّس عليه، وذلك أنه ظن نسخ حكم الجسم إذا صار القلب طوَّافًا بالملكوت الأعلىٰ، والحقُّ أن حكم الجسم باقٍ، فالتسليط واقع من إبليس عليه، وإنما يُحفَظ الوليُّ من إبليس إذا صعد بالجسم إلىٰ السماء، وذلك ممنوع قطعًا، إذ ليس لبني آدم[٣] قدم محسوس في السماء أبدًا.

[استعاذته ﷺ تشريع لأمته لا لخوف الوسوسة]

وأما استعاذته ﷺ فإنما هي تشريعٌ لأمته، لأنه معصوم من العمل بوسوسته، [وكذلك كلُّ نبي فهو يوسوس لهم وهم لا يعملون بوسوسته، وإذا كانوا معصومون عن

---

(١) المقيلي: نوع من الفول مطبوخ بطريقة خاصة.

(٢) بالأصلين: علىٰ. والصواب ما أثبتناه.

(٣) بالأصلين: لغير.

العمل بوسوسته][1] فكأنه معدوم، لانتفاء العمل بأثر وسوسته.

[سبب كون الاستعاذة باسم «الله» دون غيره من الأسماء الإلهية]

وإنما جاء تعالىٰ في الاستعاذة باسم «الله» تعالىٰ، لأنه الاسم الجامع لسائر حقائق الأسماء الإلهية، وإبليس ربما أتىٰ العبد من طريق اسم دون آخر لو كانت الاستعاذة بغير الاسم «الله»، بخلاف الاسم «الله» يسد جميع طرقه التي يأتي منها للعبد، فكل طريق طلب أن يدخل للعبد منه، وجد الاسم الجامع مانعًا له من الوصول إليه.

[رد المحققين على الإمام الغزالي في هذه المسألة]

وقد وقع للإمام الغزالي أنه قال: إذا صار الوليُّ سماويًّا، حفِظ من الشيطان. فقال له المحققون: إنما يُحفَظ لو كان في السماء بجسمه؛ فذوق الغزالي صحيح وحكمه غير صحيح لفقد الشرط المذكور.

فاعلم ذلك، فإنه نفيس، وإياك أن تظن أن إبليس يخفي عداوته ووسوسته للوليِّ كلما ترقىٰ في المقام، فإنه ظن غير صحيح، بل كلما قرب من حضرة الله تعالىٰ، ازداد فيه عداوة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي يجالس أعداءه ويؤاكلهم ويضحك معهم، فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا نفاق ورياء، كيف يصح له ذلك مع تحقق عداوتهم له؟!

والجواب: أن ذلك ليس بنفاق ولا رياء، بل هو سياسة وزيادة عقل ومداراة، وهي مطلوبة. وقد كان مالك بن دينار والفضيل بن عياض وسفيان وغيرهم يجالسون أعداءهم ويعزمون عليهم في الأكل معهم ويقولون: تخمد بذلك نار عداوتهم.

وخرج بالعداوة من يكره أخاه حسدًا لما أتاه الله من فضله، فمثل هذا لا يزيده الإحسان عليه إلا بغضًا وحسدًا. وقالوا: من الفرق بين العدو والحاسد: أن الحاسد لا

---

(١) ساقط من «ب».

يقدر علىٰ تصوير دعوىٰ صحيحة علىٰ الإنسان لا في الدنيا ولا في الآخرة، إنما يكره لغير ذنب ظاهر. ومن هنا قالوا:

كُلُّ العداوةِ قَدْ تُرجَىٰ مودتُها إلا عداوة من عاداك من حسد

فدار أعداءك دون حسَّادك، فإنه أكثر راحة من ضده، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتغير من كلام الأعداء فيه، ولاث به الفقراء وقالوا: هذا يدل علىٰ عدم كماله، فإن الكامل لو قام عليه الوجود كاملًا يلعنه ويسبه لا يتغير منه شعرة، لأنه ناظر إلىٰ خالق الأفعال[1] وهو الله دون المخلوق، ففعلهم[2] من الخالق، ولا يمكن إرسال غضبه علىٰ فعل ربه.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون تغيرُه من ذهاب نفع الناس به إذا قبلوا تجريح الأعداء فيه، فيتغير لذلك لا لحظٍّ نفسه، كما مر تقريره مرارًا، فإن حكم الأعداء مع العارف حكم ناموسة نفخت علىٰ جبل تريد أن تزيله من مكانه. فاعلم ذلك، وإياك وحمل الأشياخ علىٰ المحامل السيئة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن العبد لا يملك مع الله شيئًا في الوجود، والعبيد عبيده، والرزق رزقه؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذه كلمة حقٍّ أُريد بها باطل، فلا يجوز التلفظ بها لما يترتب عليها من عدم إثم السارق والغاصب، لكونه أخذ رزق الله وهو عبده.

والجواب: أن مراد هذا الشيخ أن المُلك لله تعالىٰ في جميع الأمور بالأصالة، ولعبده بحكم الاستخلاف، ومثل الشيخ لا يجهلون تحريم الغصب والسرقة، وإنما مرادهم بقولهم «العبد لا يملك مع سيده شيئًا» فتح باب الأدب مع الله تعالىٰ، وعدم تأسفهم علىٰ فوات شيء من أمور الدنيا.

---

(١) بالأصلين: الكمال. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: فيهم. والصواب ما أثبتناه.

وأما إثم الغاصب والسارق فليس هو من حيث إن العبد يملك ذلك، فإن العين الواحدة لا يتوارد عليها مِلْكان حقيقيان، وإنما ذلك من حيثُ تعدي الغاصب والسارق حدود الله تعالىٰ، فكأنه تعالىٰ يقول: من أخذ شيئًا مما ملكه عبدي بطريق شرعي بغير طيب نفس منه، عذَّبته. وفي عبارة الثوري رحمه الله: ولا يملك العبد بتمليك[1] سيده في الأظهر. انتهىٰ.

وقد قالوا: اختلاف العلماء في العلة لا يقدح فيهم، فهم متفقون علىٰ إثم الغاصب والسارق، ولكن الفقيه يقول: الإثم من جهة كونه أخذ ملك غيره بغير إذنه، والصوفي يقول: العلة في التحريم تعدي الغاصب والسارق حدود الله، فافهم، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة الموافقة للشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا قام للظلمة والعصاة كالمكَّاسين والحشَّاشين، ولاث الناس به وقالوا: هذا خروج عن الشريعة، وإنما الواجب علىٰ العالم تحقير العصاة وزجرهم وتوبيخهم.

والجواب: أن الذي ينبغي حمل هذا العالم أو الشيخ علىٰ أنه إنما قام للظالم أو العاصي من شَرِبَة الخمر وأَكَلَة الحشيش تليينًا لقلوبهم، ليميلوا إليه بالمحبة، فيسمعوا نصحه وإرشاده، ويقبلوا شفاعته ووعظه. ولا يجوز حمل العالم علىٰ أنه قام لغير غرض صحيح، فإن ذلك من أبعد ما يكون وقوع العالم فيه، كما تقدم ذلك في الجواب عن العالم الذي يخالط الظلمة ويتردد إلىٰ بيوتهم[2]، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقل ندمه إذا ارتكب المعاصي، فلاث به المريدون وقالوا: لو كان هذا كاملًا لكان أشد ندمًا منا إذا وقع في معصية، ولكن أين الكمال؟!

والجواب: أنه لا يلزم من قلة ندمه أن يكون ناقصًا، فقد يغلب عليه شهود التقدير الإلهي في حضرة الإحسان، فلا يجد له ذلك الأثر العظيم في إيجاد الفعل، وإنما يندم بقدر

---

(١) أي لا يملك العبد شيئًا وإن ملَّكه سيدُه هذا الشيءَ.

(٢) انظر الجواب (٣١٣).

شهوده نسبة التكليف والكسب، فالمريد يشتد ندمه بقدر شهود نسبة الفعل إليه كثرةً وقلةً، فكلما شهد العبد الفعل له وغاب عن شهود كونه فعل الحق، كثر ندمه، وكلما شهد الفعل للحق وغاب عن شهود الفعل لنفسه، قل ندمه، فما ربحه هذا من جهة، خسره من جهة أخرىٰ، وإنما الكامل من كثر ندمه من حيث نسبةُ التكليف تعظيمًا لجناب الله، وهروبًا من مواطن سخطه، ولم يحجبه عن ذلك شهود الفعل لله، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشكر ربه علىٰ كلِّ ليلة نام فيها عن قيام الليل، فلاث به بعض الناس وقال: لا ينبغي لعبد أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ ترك العبادة، وإنما اللائق أن يشكره علىٰ تركه المعاصي.

والجواب: أنه قد يكون شكر هذا الشيخ لربه إنما هو من حيثُ التقديرُ لا من حيثُ كسبُه هو، فهو يحمد الله من حيثُ التقديرُ، ويستغفره من حيثُ الكسبُ. ويُحتمَل أن يكون شكره من حيثُ العافيةُ التي هو فيها حتىٰ نام، فإنه لو كان به مرض لما نام من شدَّة الوجع. ويُحتمَل أن يكون شكره من حيثُ إن الحقَّ تعالىٰ ستره بعدم وقوفه في حضرته بين الأنبياء والملائكة والأولياء الذين هم أهل الحضرة الإلهية حقيقة، فإنهم مطهَّرون من سائر الأدناس، فلما رأىٰ هذا الشيخ تلطخه بالقاذورات في كلِّ جارحة، استحيا أن يقف بين هؤلاء الأصفياء، فكان حكمه حكم من وقع في معصية والناس ينظرونه من حيث لا يشعر، ثم ستروه ولم يفشوا ذلك لأحد، فهو يشكر فضل من ستره، بخلاف من هتكه، فإنه يحصل له الخزي به.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقول: كيف يزاحم أحدُنا علىٰ دخول الحضرة الإلهية بين الأنبياء والأولياء، وما من جارحة من جوارحه إلا وقد تلطخت بمعصية من يده ورجله، وعينه وأذنه، ولسانه وفرجه وغير ذلك؟! فكان حكم من أنامه الله عن قيام الليل منا حكم من وقع في كبيرة وستره الله تعالىٰ، فهو يشكر الله علىٰ ذلك، فاعلم ذلك، واستغفر ربك من حيث كسبُك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال في حزبه: «أستغفر الله مما سوىٰ الله» فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا لفظ لا يجوز، لأنه كالتبري من الأنبياء والأولياء والشريعة، لأن هذه الأمور كلها سوىٰ الله تعالىٰ، وذلك مجانب للإيمان بها.

والجواب: أنه ينبغي حمل هذا الشيخ علىٰ أنه أراد بذلك: أستغفر الله من أن أميل إلىٰ شيء بالمحبة إلا بإذنه تعالىٰ، فخرج بذلك محبة كلِّ شيء أمره الحقُّ تعالىٰ بمحبته، كالأنبياء والشريعة وصالحي المؤمنين، فإن مثل ذلك لا يجهله الشيخ، ولا ينبغي إدخاله في عموم الأمور التي استغفر الله تعالىٰ منها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: كلُّ من حصل له لذة بمناجاة ربه، حبط عمله؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا مخالف لما عليه العلماء العاملون والعباد المجتهدون.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به بسبب هذا القول، فربما خاطب بذلك مريدًا صادقًا، ليترقىٰ من حفظ نفسه إلىٰ ما فيه رضا الله عنه، وذلك أن تلذذ العبد بمناجاة ربه يرجع إلىٰ حظ النفس، وربما استحكمت فيه اللذة، فصارت هي الباعث له علىٰ قيام الليل، وذلك من الرياء عند العارفين.

وقد قررنا مرارًا أنه لا يصح الأنس بالله تعالىٰ لأحد، لعدم مجانسة الحقِّ تعالىٰ لأحد من الخلق[1]. ومعلوم أن **الأنس لا يكون إلا بالمناسب والمشاكل**، ولكن لما كان غالب الناس يعسر عليه تخليص حظ نفسه من نصيب ربه، أطلق الأنس بما من الحق إليه، وجعل ذلك أنسًا بالحق تعالىٰ، وليس كذلك كما عليه المحققون، فمن حقق النظر وجد أنسه بما أسداه الحق تعالىٰ إليه من التقريبات والأنس بالأعمال لا غير، وعرف أن الأنس بالله تعالىٰ حقيقة لا يصح بوجه من الوجوه، وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، قل لفلان العابد يقوم الليل امتثالًا لأمري، فإني اطلعتُ علىٰ قلبه فوجدتُه إنما يقوم لما يجده من اللذة لعبادته لا لي، فلنفسه قام لا لي، فإني آليتُ علىٰ نفسي أن لا أقبل عملًا أشرك فيه غيري معي، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر الجواب (٤٣٦).

(٧٤٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي للصائم أن ينوي مع نية الصوم أن يترك سائر الشهوات التي لا يفطر بها إجماعًا أو بخلاف، وكذلك لا ينبغي له أن يجرِّد نيته في الجماع عن طلب قضاء وطره هو، فينوي قضاء وطر زوجته فقط دونه؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا شيء ما سمعنا أحدًا من العلماء قال به.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأنه كمال علىٰ كلِّ حال. وإيضاح ذلك أن العبد إذا نوىٰ ترك شيء لله عزَّ وجلَّ، كان محفوظًا بنيته من الآفات، ومن الإخلال بما يرىٰ، بخلاف ما وقع له اتفاقًا من غير قصد، فإنه لا يُثاب عليه. وأما تجرد النية في الجماع عن طلب قضاء وطر نفسه، فيحتاج إلىٰ قوة زائدة، وغالب الناس لا يقدر علىٰ ذلك. وقد وقع لبعضهم أنه قال لزوجته: إني أنوي بجماعي قضاء وطرك دون وطري، فأنوِ أنت الأخرىٰ. فقالت: يكفي واحد منا يكذب؛ لاستبعادها وقوع ذلك، فذوقها صحيح، لأنها لم يبعد مقامها، وحكمها باطل ، فإن الله تعالىٰ أقدر علىٰ ذلك بعض عباده.

[القطب لا يخرج عن تقليدِ لأحد المجتهدين ولو بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق]

فكلام هذا الشيخ في غاية الأدب، لأن القوم قد أجمعوا علىٰ أنه ينبغي للعبد أن يخرج من خلاف العلماء إلىٰ وفاقهم ما أمكن لتصح عبادته علىٰ سائر المذاهب، ولو كان القطب الغوث، فإنه ولو بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق لا يخرج عن تقليد أحد من الأئمة المجتهدين أدبًا مع الله تعالىٰ، حيثُ جعلهم قدوةً للناس، وأشهرهم بالعلم في الوجود، بخلافه هو، فإن من شأنه الخفاء في هذه الدار، فهو يتنزل أدبًا مع الأئمة ومع السلطان الظاهر من حيثُ إنه داخل تحت حكمه، ومعدود من رعيته، فإن كان السلطان حنفيًّا فالقطب حنفي، لو شافعيًّا فالقطب شافعي وهكذا، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يستحب زيارة الإخوان في رمضان، لكن في أواخر النهار دون أوله، فنازعه بعض الفقهاء في الاستحباب وقال: هذا أمر لم يبلغنا عن أحد من العلماء أنه قال به.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار عليه، لاحتمال أن يريد بذلك أنه مستحب عنده، وذلك أنه إذا زار أخاه أول النهار رجع بلا أكل عنده، وذلك نقص في ملاقاة الإخوان، إذ من كمال اللقاء الأكل والشرب عند الأخ، فقصد هذا الشيخ باستحباب الزيارة أواخر النهار أن يدخل علىٰ أخيه السرور بفطره عنده.

وإيضاح ذلك أن الإنسان مركَّب من روح وجسم، فالروح لا تطلب الطعام، والجسم يطلبه، ومن لم يأكل عند أخيه، فكأنه زار قبرًا، وكأنه زاره بروحه فقط دون جسمه. ومعلوم أنه لا يحصل كمال السرور إلا بإعطاء الروح حقَّها والجسم حقَّه، ولذلك ورد: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه»[1] فلا يتم له كمال السرور إلا باللقاء والأكل، فالروح تفرح بلقاء الله، والجسم يفرح بلقاء الطعام، وتأمل كيف عادل بين الطعام وسر لقاء الله تعالىٰ، تطلع علىٰ سرٍّ غامض، وأنشدوا:

إذا عاينتَ ذا سير حثيث ... فذاك السير في طلب الرغيف

لأن الله صيره حجابًا ... علىٰ اسميه المهيمن واللطيف

فمن شرف الرغيف يمين ربي ... عليه للوضيع وللشريف

يضج الخلق إن عدموه وقتا ... عن إذن الواحد البر الرؤوف

هو المعنىٰ ونحن إذا نظرنا ... به عند التفكر كالحروف

هو الجود الذي ما فيه شك ... فيا شوقي لذا الجود الظريف

فديتك من رغيف فيه سر ... جلي[2] بالتليد وبالطريف

فقل للمنكرين: صحيح قولي ... لقد غبتم عن المعنىٰ الظريف

أليس الرب صيره عديلًا ... لرؤيته علىٰ رغم الأنوف

ذكره في أثناء كتاب الصلاة من «الفتوحات المكية» في فصل قيام رمضان، فاعلم ذلك وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العارفين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٩٢)، ومسلم (١١٥١).

(٢) في الأصلين: خفي.

(٧٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال:

توضأ بماء الغيب إن كنتَ ذا سر   وإلا توضأ بالصعيد وبالصخرِ
وقــدِّم إمــامًــا كنت أنــت إمامه   وصل صلاة الفجر في أول العصرِ
فـهـذي صــلاة العارفين بربهم   فإن كنت منهم فانضح البر بالبحرِ

انتهىٰ، وقد عزي هذا الشعر للشيخ محيي الدين بن العربي، وقد لاث به بعض الفقهاء وقال: هذا كلام لا يُفهَم!

والجواب: أنه مفهوم للعارف، ومعناه «توضأ» أيها العارف ولا تغفل عن تطهير أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية. وقوله: «بماء الغيب» أي غيب التوحيد الذي ليس علىٰ تطهيره مزيد، وهو توحيد العيان، فإن لم تذقه فتطهر بصعيد البرهان. وقوله: «وقدِّم إمامًا كنتَ أنت إمامه» أي قدم إمامًا كان [إمامك][1] في يوم الخطاب، ثم صرت أنت إمامه بعد إسدال الحجاب. وقوله: «وصل صلاة الفجر» أي صلاة نهار كشف شهودك بعد حجاب ظلمة وجودك. وقوله «في أول العصر» أي في أول زمان انفجار فجرك، ولا تتأخر لآخر دورك، لأن الحكم للوقت، والتفويت له مقت. وقوله: «فهذي صلاة العارفين بربهم» أي الذين لم يخرجوا عن متابعة الأحكام الشرعية في جميع مشاهد شهود الربوبية، فإن كنتَ منهم وقمتَ بآدابهم «فانضح البر بالبحر» أي اغسل بماء بحر الحقيقة ما يدنس برك في بر الشريعة[2]، والله أعلم، وذكر الشيخ أبو المواهب[3] نحو هذا الجواب، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي لكل من صلىٰ إمامًا أن يقول بتوجه قلب: اللهم إن كان في هؤلاء الذين أصلىٰ بهم أحدًا من أوليائك، فاحفظني من الخواطر المذمومة التي تبطل الصلاة عنده، أو احمني من الإمامة به وبكل من فضل عليَّ في مقام من

---

(١) ساقط من الأصلين، مستكمل من «الطبقات الكبرىٰ».

(٢) بـ«الطبقات الوسطىٰ» للمصنف: اغسل بماء بحر الحقيقة ما تدنس بالغفلة من بر الشريعة.

(٣) أبو المواهب الشاذلي، وانظر ترجمته رقم (٣٦١) في «الطبقات الوسطىٰ» دار الإحسان.

المقامات، أو طهرني من سائر الأدناس في هذا الوقت، لأصلح بالصلاة بأوليائك؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذه بدعة لم يبلغنا أن أحدًا من أئمة السلف راعاها.

والجواب: أن هذه الأمور تقبلها الشريعة ولا تأباها، بدليل قوله ﷺ: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهىٰ ثم الذين يلونهم»[1]، فأشار ﷺ إلىٰ مراعاة عدم تقدم المفضول علىٰ الفاضل.

وكان وهب بن مُنبِّه رضي الله عنه يقول: بلغنا أن رجلًا تقدم فصلَّىٰ بوليّ لله تعالىٰ في بني إسرائيل، فناداه منادٍ من السماء: لا تتقدم علىٰ وليّ الله الذي في هؤلاء القوم. فتأخر ذلك الرجل ونظر في وجوه القوم، فعرف الوليَّ فقال: ما علمك الذي فضَّلك الله به عليَّ؟! فقال: هو خصلة واحدة، وهي أني إذا قمتُ إلىٰ الصلاة رأيتُ الله تعالىٰ في القرب مني كأنه علىٰ منكبي. فقال له الرجل: بهذا فضلتني، لستُ أنا كذلك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ مشايخ الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن لله تعالىٰ عبادًا يثيبهم علىٰ أعمالهم الصالحة التي رأوا أنهم فعلوها في منامهم كذلك؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا خرق لإجماع المسلمين.

والجواب: أن ذلك قد يقع للعارفين من حضرة الإطلاق التي يفعل الحقُّ منها ما يشاء، وأما حضرة التقييد فلا يتمشىٰ مثل ذلك عليها، لحديث: «رُفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتىٰ يستيقظ، وعن الصبي حتىٰ يبلغ، وعن المجنون حتىٰ يفيق»[2].

وفي كتاب «الدلالة علىٰ الله تعالىٰ»: اعلم أن للأولياء أحوالًا تخالف الناس، فربما كان أحدهم تنام عينه ولا ينام قلبه بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، فإذا قرأ أحدهم القرآن في المنام ثم استيقظ، بنىٰ علىٰ قراءته التي قرأها في المنام، وربما وسوس الشيطان لأحدهم بمعصية في المنام، فنفر من تلك الوسوسة وحفظه الله من العمل بها كما في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٤٢)، وأبو داود (٤٣٩٨) والنسائي (٣٤٣٢) وابن ماجه (٢٠٤١).

اليقظة، وربما عمل أحدُهم بها فيؤاخذه الله تعالىٰ بها، ويوجب عليه التوبة منها كما في اليقظة. انتهىٰ. ولا يخلو ذلك من نظر، فلو أنكر ذلك أحد، فلا لوم عليه وإن كان وقوع ذلك ممكنًا، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن لله تعالىٰ عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، لا يُبْلىٰ لهم جسم إذا ماتوا ودُفنوا في الأرض إلىٰ يوم البعث، كرامةً من الله لهم. قال: ولله تعالىٰ عبادًا يُرفَعون من قبورهم ولا يقيمون في التراب إجلالًا لهم ورفعةً لقدرهم؛ فلاث به بعض الفقراء[1] وقال: هذا أمر لم يبلغنا وقوعه إلا للأنبياء والشهداء فقط، أما الأولياء فيبلون، كما هو مشاهد في الأولياء الذين ينقلون من قبورهم لضرورة.

والجواب: أنه لا ينبغي تكذيب هذا الشيخ، لأنه أمر ممكن لم يرد لنا في الشريعة ما يرده.

وقد وقع أن جدي الأدنىٰ الشيخ عليًّا الشعرانيَّ رحمه الله كان من المتورعين الصادقين، فلامه يومًا فقيه علىٰ مبالغته في الورع، فقال له: يا أخي، قد بلغنا أن كل من أحكم أكل الحلال لا يبلىٰ له جسم في الأرض. فلما مات والدي بعد إحدىٰ وعشرين سنة من موت أبيه، حفروا قبره فإذا هو طريٌّ كما وضعوه، هكذا أخبرني الحاج عليٌّ التَّرَّاس، وهو الذي ألحد والدي وجدي.

وكذلك وقع للشيخ نور الدين الشوني شيخ الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ أنه كان يقول: من صحت له محبة رسول الله ﷺ لا يبلىٰ له جسد. ففتحنا لحده لندفن عنده طفلًا، فوجدناه طريًّا كما وضعناه، وذلك بعد سنة، هذا أمر شهدته أنا، فسلِّم يا أخي للأولياء ما يقولونه ما لم يعارض نصًّا أو إجماعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٥) ومما أجبتُ به عن سيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في قوله: «من لم يتغلغل في علوم القوم مات وهو مُصِرٌّ علىٰ الكبائر» مع أن الشريعة هي السيف القاطع بحدِّه لكل بدعة وضلالة.

---

(١) هكذا بالأصلين، والغالب أن صوابها «الفقهاء».

والجواب: أن مراد الشيخ أنه قد يموت مُصِرًّا علىٰ كبائر الباطن من كبر وحسد، وعجب ورياء وحقد وغير ذلك. وأما كبائر الظاهر فهي كلُّها معلومة من الشريعة. وإيضاح ذلك أن طريق الوصول إلىٰ مقام التحلي بالمقامات خاص بالقوم، وأما غيرهم فلا يعرف إلا محض أن ذلك الفعل منهيٌّ عنه لا غير، فإن قلتَ له: دلني علىٰ طريق كراهة نفسي للزنا أو الزهد في الدنيا مثلًا، لا يهتدي لذلك، وإنما يقول: قد نهاك الله عن ذلك، أو أمرك به، بخلاف مشايخ القوم، فإنهم يدلون المريد علىٰ الطريق الموصلة إلىٰ المقامات إذا مشىٰ علىٰ هديهم، ويصير يكره الزنىٰ بالطبع، ويزهد في الدنيا بالطبع، كما يعرف ذلك من سلك الطريق علىٰ يد القوم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: قد اختص القوم عن غيرهم بأمور، منها الاطلاع علىٰ حقائق الإخلاص في التوحيد والأعمال، [ومنها معرفة آداب الحضرة الإلهية، وآداب مجالسة الحقِّ جلَّ وعلا، ومنها تخليص دواعي الحقِّ من دواعي الهوىٰ والعقل][1] ومنها معرفة ثمرات الأعمال في هذه الدار. انتهىٰ، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: إذا رأيتُم من يكرهنا فاكرهوه ولو لم تعلموا له ذنبًا غير ذلك، وإذا رأيتُم من يحبنا من العلماء فحبوه[2] ولو لم تعلموا له طاعة غير ذلك؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: قد يكون ذلك العالم يكره ذلك الشيخ بحق، وقد بلغنا أن بعض المريدين كان يرىٰ النبي ﷺ في المنام كثيرًا، فرأىٰ شخصًا يتكلم في عِرْضِ شيخه فهجره، فانقطعت عنه رؤية النبي ﷺ، ثم إنه رآه بعد سنة فقال: يا رسول الله ما ذنبي؟ فقال: أما علمت أن فلانًا يحبني؟ لم لا أفنيت[3] بغضه لشيخك في محبته لي؟! انتهىٰ[4].

(١) ساقط من «ب».

(٢) كذا بالأصلين، أي أحبوه.

(٣) كلمة غير واضحة بالأصلين، وقد أثبتناها اجتهادًا.

(٤) وقد حصلت مثل هذه الواقعة مع الشيخ الأكبر، قال في «الفتوحات»: «رأيت رسول الله ﷺ سنة تسعين

والجواب: أنه لا ينبغي اللوم على هذا الشيخ، لأنه ربما خاف على تلامذته أن يصغوا لما يقوله عدوه في شيخهم، فيعدموا النفع به، ولا يلزم من ذلك أن الشيخ يبغض ذلك العالم الذي كرهه، فقد يكون محبًا له في الباطن، أو يقيم له العذر في إنكاره.

وقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي ﵀ يقول: إذا رأيتم من يعادي الأولياء والعلماء فعادوه ولو لم تعرفوا له ذنبًا غير ذلك، وإذا رأيتم من يوالي العلماء والأولياء فوالوه ولو لم تعلموا له طاعة غير ذلك، وإذا أحب الله تعالى عبدًا عرَّف بينه وبين أوليائه، وعادى بينه وبين أعدائه، وإذا أبغض عبدًا عادى بينه وبين أوليائه وحبب بينه وبين أعدائه. انتهى.

فكل وليّ لله تعالى يكره من يكره الأولياء بغير حق. أما بحق فهو يحبهم، لكونهم حملة الشريعة المطهرة، ويجعل اللوم على نفسه الذي تكلم بما لا يتعقله العلماء، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلى الإنكار على العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن بعض النساء قد يكون أفضل من الرجال؛ فلاث به فقيه وقال له: فأين قول الله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؟!

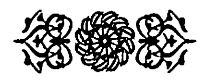
والجواب: أن مراد هذا الشيخ أنهن أفضل من الرجال في بعض الصفات لا في كلِّها، وقد خلق الله تعالى النساء على حكم النقص، كما أشار إليه حديث: «كمُل من الرجال

وخمسمئة في المنام بتلمسان، وكان قد بلغني عن رجل أنه يبغض الشيخ أبا مدين، وكان أبو مدين من أكابر العارفين، وكنتُ أعتقد فيه على بصيرة، فكرهتُ ذلك الشخص لبغضه في أبي مدين، فقال لي (أي النبي): أليس يحب الله ويحبني؟ فقلت له: بلى يا رسول الله، إنه يحب الله ويحبك. فقال لي: فلم بغضته لبغضه أبا مدين وما أحببته لحبه الله ورسوله؟! فقلتُ: يا رسول الله من الآن! إني والله زللتُ وغفلتُ، والآن فأنا تائب، وهو من أحب الناس إليَّ، فلقد نبهتَ ونصحتَ صلى الله عليك. فلما استيقظتُ أخذتُ معي ثوبًا له ثمن كثير أو نفقة لا أدري، وركبتُ وجئتُ إلى منزله، فأخبرتُه بما جرى فبكى وقبَّل الهدية، وأخذ الرؤيا تنبيهًا من الله، فزال عن نفسه كراهته في أبي مدين وأحبه، فأردتُ أن أعرف سبب كراهته في أبي مدين مع قوله بأن أبا مدين رجل صالح، فسألتُه فقال: كنتُ معه ببجاية فجاءته ضحايا في عيد الأضحى، فقسمها على أصحابه وما أعطاني منها شيئًا فهذا سبب كراهتي فيه ووقوعي، والآن قد تبتُ». انظر «الفتوحات» الباب (٥٦٠).

كثير، ولم يكمُل من النساء إلا مريم وآسية امرأة فرعون»[١].

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: مِنْ نقص النساء الذي نزلن به عن درجة الرجل أن الحقَّ تعالىٰ لم يجعل منهن داعيةً إلىٰ الله تعالىٰ بعد أمهات المؤمنين، وإن دعت واحدة إلىٰ الله تعالىٰ، فليست علىٰ يقين ولا كشف، وذلك لما هي عليه من الحمل ومن الشهوة اللتين غلبا علىٰ النساء، ولا يُنكَر فضل الصالحة منهن، غير أن الله تعالىٰ قد جعل المرأة من متاع الدنيا وزينتها، وحبب إليها الدنيا، فلا توجد امرأة ناسكة ولا زاهدة إلا وهي تميل إلىٰ الدنيا للضعف الذي جعله الله فيهن، والنقص الذي خلقه عليهن. ومعلوم أن من شرط الداعي إلىٰ الله تعالىٰ أن يكون زاهدًا في الدنيا، فإن الراغب لا يدعو الناس إلا إلىٰ ما هو راغب فيه، ولو قدر أنه زهَّد الناس في الدنيا، فهو بلسانه دون قلبه، فلا يؤثر ذلك في أحد.

قال: ولا تجد فيهن واحدة تكاشف بعلم الأحوال، ولو بلغت في الاجتهاد ما بلغت، غايتها إذا تعبدت أن لا تجاوز طلب الثواب علىٰ عملها، ولو كان ذلك طلب القرب من الله تعالىٰ، بخلاف الذكور من الأولياء يصل أحدهم إلىٰ حقائق اليقين، ولا يطلب علىٰ عبادته ثوابًا ولا قربًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين[٢].



(١) أخرجه البخاري (٥٤١٨) ومسلم (٢٤٣١).

(٢) قال الشيخ الأكبر ابن عربي: «وقد تبلغ المرأة في الكمال درجة الرجال، وقد ينـزل الرجل في النقص إلىٰ أسفل من درجة نفس المرأة، وقد يجتمعان في أحكام العبادات ويفترقان، غير أن الغالب فضل عقل الرجل علىٰ عقل المرأة؛ لأنها خُلقت منفعلةً عنه، فَعَقِلَ عن الله قبل عقلِ المرأة لتقدمه عليها في الوجود، وهذه هي الدرجة التي يزيد بها الرجل علىٰ المرأة». انظر «الفتوحات» الباب (٧٢).

الباب التاسع

في جملة من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(٧٥٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يمقت أصحابه تارةً بالكلام الجافي، وتارةً بالنظر إليهم شزرًا، لا يكاد الإنسان يسمع منه إلا الشتم والتنقيص، فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا معدود من قطَّاع الطريق إلىٰ الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ الأشياخ في ذلك، فربما كان أصحابهم غلَّاظ الحجب، جافين الطبع، فصار يكلمهم بالكلام الجافي الذي يشبه الجمر تنهيضًا لهمتهم، فإن كلَّ من لا همة له فهو معدود من النساء وإن كان له لحية، ولو أنه رأىٰ من تلامذته رقة الطبع والهمة لما كلمهم كلمةً جافية.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: كلُّ مريد لا يفهم بالإشارة، فلا يجيء منه شيء في الطريق، وذلك علامة علىٰ أن الله تعالىٰ لم يرده للطريق ولا أن يكون من أهل حضرته. انتهىٰ.

وقد بلغنا أن فقيرًا خطب ابنة ملك من الملوك، فقال له الملك: إنك لا تقدر علىٰ مهرها. فقال: وما هو؟ فقال: عشرة آلاف دينار وثلاثون جوهرة. فقال له: وأين موضع الجواهر؟ فقال: في بحر الظلمات. فأخذ قصعته ومضىٰ إليه، وصار ينضح ماء البحر بقصعته، وعزم أنه لا يرجع حتىٰ يجد الجواهر، ولو نضح ماء البحر كلَّه، فعلم بذلك الملك، فأرسل وراءه وزوَّجه ابنته، وجعله وزيرًا لمكان همته.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: رجال الزينة نساء، ونساء المئزر رجال. فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ الأشياخ في تربية المريدين علىٰ الجفاء هذا الزمان، فإن الكلام الحلو يفسدهم، لعدم الصدق وضعف الهمة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: حصل من بعض الملائكة هفوة، فسقط إلىٰ الأرض وطلب مني أن أشفع فيه عند الله، فشفعت فيه؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا كلام يشبه الهذيانات، وأين ذلك الملك الذي شفع هذا فيه؟! وأين الوليُّ الذي مقامه أرفع من مقام الملائكة حتىٰ يشفع فيهم؟!

والجواب: أنه قد يصدق في ذلك، لكن في حقِّ ملائكة التسخير الذين هم من عوام الملائكة دون خواصهم، كجبريل وميكائيل وإسرافيل ونحوهم، فإن بعض الأولياء قد يكون أرقىٰ مقامًا من ملائكة المطر وملائكة الحفظ ونحوهم.

وقد بلغنا أنه وقع في مجلس الشيخ عبد الرحيم القنائي مرةً شبح، فاختلج[1] ثم ارتفع، فقالوا له: ما هذا؟ فقال: ملك وقعت منه هفوة، فسقط من السماء، فلاذ بنا فشفعنا فيه، فرده الله إلىٰ حاله الأول. فاعلم ذلك يا أخي، وصدِّق الأولياء فيما يخبرون من مواجيدهم ما لم يعارضها نص أو إجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعرف العمل المقبول مني والمردود؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا أمر لا يكون إلا لمن يُوحَىٰ إليه، وأما بغير وحي فهو حدس بالظن.

والجواب: أن الشيخ قد يعرف العمل المقبول والمردود من أعماله، كما أنه قد يعرف ما قدَّره الله تعالىٰ عليه من المعصية قبل وقوعها، وذلك أن العبد إذا قسم الله تعالىٰ له عمل طاعة، سبق نور إلىٰ قلبه، فيعلم أنه عمل صالح؛ وإذا قسم له معصية خالصة أو عبادة فيها رياء وإعجاب مثلًا، سبق لقلبه ظلمة، فبهذين العلامتين يعرف العبد العمل المقبول والمردود.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ يقول: خصلتان يُرَدُّ بهما العمل: وهي أن يعمل بعلمه خوفًا أن تذهب رئاسته، أو يتزين للمخلوقين به خوف السقوط من أعينهم.

وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقول: احذروا من هاتين السكرتين: وهما سكرة العلم للثناء[2]

---

(١) خَلَجَ الشيءُ: تحرّك واضطرب.

(٢) بالأصلين: للسناء. والصواب ما أثبتناه.

والرئاسة، وسكرة العمل بالعجب وحب المحمدة. وقليل من طلبة العلم من يفيق من هاتين السكرتين، وغالب طلبة العلم يموتون سكارىٰ إلا أن يحدث الله تعالىٰ لأحدهم شوقًا مقلقًا، أو خوفًا مزعجًا. ومن لم يحصل عنده شوق أو خوف كما ذكرنا، فلا يقدر علىٰ التحول عن هاتين السكرتين قبل موته.

وسمعته أيضًا يقول: بالعلم ينجو العبد من غضب الله، وبالعمل ينحو من عذابه، كما أنه بالعلم صحَّ لأهل الإيمان دينهم، وبالعمل اقتسموا الدرجات في آخرتهم، كما أنه بالجمع بينهما يترقىٰ العبد إلىٰ مقام الخشية من الله والمعرفة به. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا الخوَّاص رحمه الله يقول: من لم يعرف المقبول من أعماله والمردود منها فهو قريب من البهائم. وكان يقول: من كان فيه خصلة واحدة من هذه الخمس فعمله مردود عليه: الشك في الإيمان، والعمل علىٰ البدعة في الدين، والإصرار علىٰ الاغترار بالعمل، والعمل بغير نية صالحة، والعمل مع قطع صاحبه بأنه مقبول. انتهىٰ.

فقد بان لك صحة قول الشيخ أنه يعرف المقبول من أعماله والمردود منها، لاسيما إن حصل فيها عجب، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعرف عاقبة أمري الآن من موتي علىٰ الإيمان أو غيره؛ فلاث الناس به وقالوا: هذا غيب لا يعلمه إلا الله.

والجواب: أن العبد قد يعرف ذلك من طريق الكشف. وقد سمعتُ سيدي عليًا المرصفيّ رحمه الله يقول: إذا أطلع الله تعالىٰ العبد علىٰ أنه كتب في قلبه الإيمان، فهو موهبة من الله تعالىٰ، وحينئذٍ يأمن من السلب، فإن رسول الله ﷺ قد نهىٰ المؤمن أن يرجع في هبته[1]، والله تعالىٰ أكرم المتفضلين، فيبعد من كرمه وفضله أن ينزعه من صاحبه، فإذا رأيتم أحدًا سُلِبَ الإيمان عند الموت، فاعلموا أن إيمانه لم يكن مكتوبًا ولا موهوبًا، ولكنه عاد إلىٰ ما بدأ منه ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[الأعراف: ٣٠]. انتهىٰ.

---

(١) قال ﷺ: «العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه» أخرجه البخاري (٦٩٧٥)، ومسلم (١٦٢٢).

فعُلِمَ أن من لم يعرف كون إيمانه موهوبًا، فالواجب عليه الخوف، وعدم الأمن من مكر الله.

[أمانه ﷺ من مكر الله تعالى به]

وقد وقع في اليوم الماضي من وقت كتابتي لهذا الموضع جدالٌ في أن رسول الله ﷺ يصح أن يأمن مكر الله أم هو غير آمن. وأفتىٰ علماء مصر بكفر من قال: إنه ﷺ آمن مكر الله، لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وأفتىٰ بعضهم بكفر من قال: إنه غير آمن. **والصواب** أنه ﷺ كان آمنًا من مكر الله تعالىٰ به لعصمته، والآية وردت في غير المعصوم. وقد ورد أن العشرة من الصحابة مقطوع لهم بالجنة، فكيف بسيد الأولين والآخرين؟!

وأيضًا فإن المكر والاستدراج لا يكون إلا لمن عمل علىٰ غير سنة. أما من يعمل علىٰ وفق السنة فلا يلحقه مكر ولا استدراج، لأن الأعمال المشروعة لا تُتخَذ حبالة للمكر الإلهي. وما وقع من خوف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما هو خوف إجلال لا خوف مؤاخذة، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

وأما ما رُوي عن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام أنه قال يومًا للحواريين: «أنتم تخافون من الذنوب، ونحن معاشر الأنبياء نخاف من الكفر»[1]. انتهىٰ. فمحمول بتقدير صحته علىٰ كفران نعمة من النعم غفلوا عن الشكر عليها، أو محمول علىٰ أمور لم تبلغها عقولنا، أو أنه قال ذلك إظهارًا لفضل الله عليه، كما قال نبينا ﷺ: «لو يؤاخذني الله وعيسىٰ بن مريم بما جنت هاتان -يعني الإصبعان- لعذبنا ثم لم يظلمنا شيئًا»[2].

وقد صرح المحققون بأن خوف الأنبياء في الدنيا والآخرة إنما هو علىٰ أممهم لا

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ٣٧٩)، والغزالي في الإحياء (٤/ ١٧٢).

(٢) تقدم تخريجه.

علىٰ أنفسهم، لأنهم هم الآمنون يوم القيامة. وما ورد أن جبريل وميكائيل طفقا يبكيان لما خلق الله النار، وأوحىٰ الله إليهما: «هكذا كونا لا تأمنا مكري»[1] فالمراد: لا تأمنا مكري بأحد من غير الأنبياء. فاعلم ذلك، وإذا تعارض عندك دليلان أحدهما يميل إلىٰ تعظيم الأنبياء، فخذ به دون الآخر، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: الولاية غير مكتسبة؛ فلاث به طلبة العلم وقالوا: الحقُّ أن الولاية مكتسبة، وليس موهوبًا إلا النبوة.

والجواب: أن كلام هذا الشيخ محمول علىٰ أصل الولاية لا علىٰ فروعها، وذلك أن أصل ولاية الله تعالىٰ للعبد موهوبة، وفروعها مكتسبة كما قالوا في الإيمان، وذلك أن محبة الحق تعالىٰ قد سبقت لأوليائه قبل وجودهم في الدنيا، بل قبل خلق السماوات والأرض، **وما تفاوت الناس في الولاية إلا من حيثُ الأمورُ المكتسبةُ لا من حيثُ الأمورُ الموهوبةُ الاختصاصيةُ؛ لأنه لا تَعمُّل لهم في الموهوبة.**

فإن قلت: فما مثال الأمور المكتسبة؟ **فالجواب**: أن مثالها مثال تزايد البصيرة في العلم والعمل، ومزيد الهداية في العمل، وقوة المعرفة، وتمييز الأحوال، ووجود الخشية، والفقه في الدين ونحو ذلك، فهذا كله اكتساب. ومن هنا كانت درجة من علم أعلىٰ من درجة من لم يعلم، ودرجة من علم وعمل أعلىٰ من درجة من علم ولم يعمل، ودرجة من علم وعمل وتورَّع أعلىٰ من درجة من علم وعمل ولم يتورَّع، ودرجة من علم وتورَّع وزهد أفضل من درجة من علم وعمل وتورَّع ولم يزهد، وهكذا القول في زيادة اليقين وعين اليقين وحق اليقين، ومنها تترقىٰ إلىٰ مقام الإمامة، فتكون إمامًا في الدين يُقتدَىٰ به بحكم النيابة لرسول الله ﷺ، وكلُّ هذه الأمور معدودة من فروع الولاية المكتسبة علىٰ حكم الاصطلاح، وإلا فالتحقيق أنه ليس لنا أمر مكتسب من غير وهب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ذكره القشيري في الرسالة القشيرية ص٢٥٧.

(٧٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن الوليَّ يصح له التطور[1] في ألف مكان في آن واحد، وهو واحد في نفسه يجيب كلَّ من ناداه، وليس جسم أولىٰ به من جسم؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا من المحال.

والجواب: أن القدرة الإلهية صالحة لمثل ذلك، ولم يرد لنا في السنة ما يرده، بل ورد ما يؤيده، وذلك فيما رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما في حديث اليد والقبضة أن آدم عليه الصلاة والسلام كان في قبضة الحق جلَّ وعلا كما يليق بجلاله في حال كونه خارج القبضة[2]، ففيه كون آدم في مكانين في آن واحد، فما تقول يا أخي في هذا الحديث؟! وفي حديث الشيخين وغيرهما في قصة الإسراء أنه ﷺ وجد موسىٰ وغيره من الأنبياء في السماوات، وصلَّىٰ بهم إمامًا، وراجع موسىٰ في شأن الصلوات الخمس[3]، مع أن أجسامهم في قبورهم في الأرض ما عدا إدريس وعيسىٰ، فإنه ﷺ قال: «رأيت موسىٰ» «رأيت إبراهيم» قولًا واحدًا ما قال: رأيت روح آدم، ولا روح موسىٰ مثلًا، ولا جسده.

وقد صنف الجلال السيوطي مؤلَّفًا في صحة تطور الولي[4]، واستدل علىٰ ذلك بدلائل كثيرة. ووقع لصاحبنا الشيخ أبي الحسن البكري أنه قال يومًا في درسه في جامع الأزهر: ربما أتطوَّر في ألف مكان في آن واحد، ومن شك في قولي هذا، فليسافر إلىٰ الحجاز والهند والسند والعراق والغرب يجدني! فلاث به جماعة من الجامع وقالوا: هذا كله هذيانات! ولو أن هؤلاء كانوا سلكوا طريق القوم، لم يستبعدوا ذلك، لأن الله علىٰ كلِّ شيء قدير.

وهذه المسألة من مسائل ذي النون المصري الستة التي تحيلها العقول، كإدخال

---

(١) التطور: أي الوجود في أكثر من طور (صورة) أو جسم في آن واحد.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٥) عن أبي موسىٰ الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالىٰ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم علىٰ قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب» وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن حبان (٦١٦٠).

(٣) حديث الإسراء والمعراج أخرجه البخاري (٣٨٨٧) ومسلم (٢٣٧٥).

(٤) وهي «المنجلي في تطور الولي» منشورة ضمن «الحاوي للفتاوي» للسيوطي.

الواسع في الضيق من غير أن يتسع الضيق، والجمع بين الضدين، وطي الزمان بالنسبة لشخص دون آخر، كالذي غطس في الدجلة، فرأىٰ أنه بنيل مصر، وتزوج وأتىٰ بعدة أولاد في مدة سبع سنين، وهو خادم شيخ الشيوخ ابن مسكين، ثم طلع فوجد ثيابه، فلبسها وأدرك صلاة الجمعة، ثم إن أولاده الذين وُلدوا له في تلك الغطسة أتوه، وعرفهم وعرفوه، وأقره علىٰ ذلك علماء عصره كالشيخ عز الدين بن عبد السلام وابن دقيق العيد. كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الباب الحادي عشر من كتاب «المنن والأخلاق».

وأخبرني سيدي عليٌّ المرصفي ﷺ قال: قرأتُ حال سلوكي في يوم وليلة ثلاثمئة وستين ألف ختمًا، كل درجة ألف ختم! فقلتُ له: بالحروف والألفاظ؟! قال: نعم. انتهىٰ.

وذكر الشيخ محيي الدين أوائل «الفتوحات المكية» أنه دخل أرضًا، فرأىٰ فيها كلَّ تفاحة لو وُضعت بين السماء والأرض، لحجبت أهل الأرض عن رؤية السماء، فيأخذها الواحد منا بيده المعهودة، فتحيط بها وتسترها كلها[1].

وبالجملة فالعقل معزول عن مثل هذه الأمور، والعاقل من سلَّم للقدرة الإلهية، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٤) ومما أجبتُ به عن الفقيه إذا انتقل من مذهب إلىٰ مذهب آخر، ولاث به الناس وقالوا له: هذا تلاعب بالدين وطعن في إمامك، وذلك لا يجوز.

والجواب: بأن ذلك جائز صرَّح به الإمام الرافعيُّ وتبعه علىٰ ذلك في «الروضة»[2]، وعبارة «الروضة»: إذا دُونت المذاهبُ فهل يجوز للمقلِّد أن ينتقل من مذهب إلىٰ مذهب آخر؟ إن قلنا يلزمه الاجتهاد في طلب الأعلم، وغلب علىٰ ظنه أن الثاني أعلم، فينبغي أن يجوز، بل يجب. وإن خيَّرناه فينبغي أن يجوز أيضًا، كما لو قلَّد في القبلة هذا أيامًا، وهذا أيامًا. انتهىٰ كلام «الروضة»[3].

---

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٨).

(٢) أي الإمام النووي في كتابه «روضة الطالبين وعمدة المفتين» في الفقه الشافعي.

(٣) انظر «روضة الطالبين» (كتاب القضاء) (١١/ ١٠٩)

وذكر القرافي[١] في كتاب «التنقيح» عن الزناتي[٢] أنه يجوز تقليد المذاهب في النوازل، والانتقال من مذهب إلىٰ مذهب، لكن بثلاثة شروط:

الأول: أن لا يجمع بينهما علىٰ وجه يخالف الإجماع، كمن تزوج بغير صداق ولا ولي[٣] ولا شهود، فإن هذه الصورة لم يقل بها أحد.

الثاني: أن يعتقد فيمن يقلده الفضل بوصول أخباره إليه.

الثالث: أن لا يقلِّد من هو في عماية من دينه، كأن يقلِّد في الرخص من غير شرطها.

قال: ويحرم عليه أن يفضِّل مذهبه حتىٰ يصل إلىٰ حدٍّ يُفهَم منه التنقيص لغير إمامه. قال: وأجمع الصحابة علىٰ أن من استفتىٰ أبا بكر وعمر وقلَّدهما، فله بعد ذلك أن يستفتي غيرهما من الصحابة، ويعمل بقوله من غير نكير.

وانعقد الإجماع أيضًا علىٰ أن من أسلم فله أن يقلِّد من شاء من العلماء بغير حجة. ومن نازع في هذين الإجماعين فعليه الدليل. وأطال القرافي رحمه الله في ذلك، ثم قال: فعُلِمَ أن المذاهب كلَّها طريقٌ إلىٰ السعادة ودخول الجنة، فكلُّ من سلك طريقًا منها أدخلته الجنة[٤].

وقد سُئل الجلالُ السيوطيُّ رحمه الله عن الانتقال من مذهب إلىٰ مذهب هل يجوز؟ فأجاب: أن للمتنقل ثلاثة أحوال:

الأول: أن يكون الحامل له علىٰ الانتقال أمر دنيويٌّ لحصول وظيفة أو مرتب، فهذا

---

(١) محمد بن يحيىٰ بن عمر بن يونس، بدر الدين القرافي المصري المالكي القاضي بالباب المصري، رئيس العلماء في عصره وشيخ المالكية كان صدرًا من صدور العلم، له همة عالية وطلاقة وجه مع خلق وضي وخلق رضي، ولي قضاء المالكية وألف كتبًا منها: «شرح ابن الحاجب» و«شرح الموطأ». توفي:١٠٠٨هـ. انظر: «خلاصة الأثر» (٤/ ٢٥٨)، «الأعلام» (٧/ ١٤١).

(٢) قال الطاهر بن عاشور: يحيىٰ الزناتي نسبة إلىٰ زناة - بوزن قَطَاة - بسرقسطة من الأندلس، وظني أنه يحيىٰ بن محمد بن عجلان من تلامذة سحنون، كان مشهورًا بالعلم والفضل. «حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح» (٢/ ٢٠٣).

(٣) بالأصلين: هو. والصواب ما أثبتناه.

(٤) انظر «شرح تنقيح الفصول» للقرافي (١/ ٤٣٢).

حكمه حكم مهاجر أم قيس[1]، لأنه الأعزُّ من مقاصده.

الحال الثاني: أن يكون الانتقال لغرض ديني لا دنيوي، فإن كان فقيهًا في مذهبه وترجَّح عنده المذهب الآخر، لما رآه من وضوح أدلته وقوة مداركه، فهذا إما يجب عليه الانتقال أو يجوز كما قاله الرافعي. ولهذا لما قدم الإمام الشافعيُّ مصرَ، تحول أكثر أهلها شافعيةً بعد أن كانوا مالكية.

وإن كان من انتقل للغرض الديني عاريًا من الفقه، كأن اشتغل بمذهبه فلم يتحصل منه على طائل، ووجد مذهب غيره أسهل عليه، فهذا يجب عليه الانتقال قطعًا، ويحرم عليه التخلف، لأن التفقه في مذهب إمام من الأئمة خير من الإقامة على الجهل، فتصح عبادته.

الحال الثالث: أن يكون انتقاله عن مذهبه مجردًا عن قصد الدنيا والدين، فهذا يجوز فعله للعامي، ويكره أو يُمنَع منه الفقيه، لأنه قد حصَّل فقه ذلك المذهب، ويحتاج إلى عمر آخر يحصِّل فيه فقه المذهب الآخر، فيشغله ذلك عن الأمر الأهم وهو عمله بما علم. وربما انقضى عمره قبل حصول غرضه من المذهب الآخر، فالأولى ترك ذلك.

قال: وإذا كان المنتقل من مذهبه لغرض دنيوي عاميًّا، فهذا أمره خفيف، بخلاف ما إذا كان فقيهًا، فإن أمره أشد. قال: وعندي أنه يصل إلى حد التحريم، لأنه متلاعب بالدين لمجرد غرض الدنيا. انتهى.

فاحمل يا أخي من انتقل من مذهبه على أحسن المحامل حتى تعرف حاله يقينًا، ثم أنكر عليه. وقد بسطنا الكلام على ذلك في الباب التاسع من كتاب «منهج الصدق والتحقيق» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٥) ومما أجبتُ به عن العالم إذا امتنع من الفتوى على الأمور التي لم تقع بعد، فلاث

---

(١) مهاجر أم قيس، وهو الذي هاجر لأجل زواجه بها، وهو سبب ورود حديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امريء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينحكها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، وقد تقدم تخريجه.

به الناس وقالوا: هذا لا يجوز لقوله ﷺ: «من كتم علمًا أُلجم بلجام من نار يوم القيامة»[١].

والجواب: أن مثل ذلك يجوز للعالم ترك الإفتاء فيه، لعدم الحاجة إليه في ذلك الوقت، وبه صرَّح جماعة من السلف الصالح ﷺ، منهم عبد الله بن مسعود ﷺ كان يقول: من سألكم عما لا يعنيه فلا تفتوه. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يلعن من سأل عما لم يكن. وكان زيد بن ثابت إذا سُئل عن أمر يقول: هل وقع هذا؟ فإن قالوا: نعم، أفتاهم، وإن قالوا: لم يقع؛ قال: ذروه حتىٰ يقع. وكذلك كان عمار بن ياسر يقول، وكذلك طاووس وعكرمة ومجاهد ومالك بن أنس وربيعة[٢] ومعاذ بن جبل، فاعلم ذلك يا أخي ولا تعترض علىٰ العلماء إلا بنص أو إجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا سأل الناس عن دقائق العلوم حتىٰ أعجزهم وصفَّر وجوههم، فلاث به الناس وقالوا: قد نهىٰ رسول الله ﷺ عن الأغلوطات[٣]. قال الخطابي: معناه أن العالم يعترض العلماء بصغار المسائل التي يكثر فيها الغلط، ليسترسل الناس بها، ويسقط بها رؤوسهم. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا يجوز حمل هذا العالم علىٰ ذلك، فقد يكون قصده تنهيض همم إخوانه، لتحقيق العلم وتحرير الأحكام، لا تصفير وجوههم، ومعلوم أن الاحكام تتبع المقاصد. وربما قصد بذلك إعلامهم بأن عنده من العلم ما ليس عندهم، ليبادروا إلىٰ طلب ذلك حين كانوا جاهلين به، ثم إن أبقىٰ عليهم المسائل الصعاب ولم يجبهم

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١)، وأحمد (٨٥٣٣).

(٢) ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ التيمي مولاهم، مفتي المدينة، وعالم الوقت، أبو عثمان - ويقال: أبو عبد الرحمن - القرشي، المشهور بربيعة الرأي، من موالي آل المنكدر. قال مطرف: سمعت مالكًا يقول: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة. وثقه: أحمد بن حنبل، وأبو حاتم، وجماعة. توفي: ١٣٦هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٨٩) و«وفيات الأعيان» (٢/ ٢٨٨).

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٦٥٦) من حديث معاوية: «أن النبي ﷺ نهىٰ عن الغلوطات» وأحمد (٢٣٦٨٨) والطبراني في «الكبير» (٨٢٠٤).

عليها، حملناه علىٰ أنه لم يرَ عندهم أهلية لذلك. وقد كان الإمام شهاب الدين الأودني من أصحابنا يناظر العلماء، ثم يقوم من المجلس مغلوبًا وهو يعرف الجواب وإفحام الخصوم، ويقول: نعرِّفهم مقدار العلم. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: إياكم أن تدعوا أن الله تعالىٰ يحفظ سائر المسلمين من المعاصي؛ فلاث به بعض الناس وقال: هذا دعاء للناس بخير، فكيف يحذِّر أصحابه منه؟!

والجواب: أن الصواب مع هذا الشيخ، لأنه دعاء لا يُجاب صاحبه، فهو ملحق بالعبث، مثل من يقول: يا ربِّ اجعل البحر نارًا، والنار بحرًا، إذ لا بد في الناس من طائع وعاصٍ. وقد قال عمر بن عبد العزيز: لولا أن الله تعالىٰ أراد وجود المعصية في الأرض ما خلق إبليس.

ومن هنا كان بعضهم يقول في دعائه: اللهم اغفر لنا ولمن شئتَ من المسلمين، ولا يقول: «ولجميع المسلمين» لما ورد في الصحيح من أنه لا بد من طائفة يدخلون النار من الموحدين[١].

وقد وقع لإبراهيم[٢] أنه قال: خلا المطافُ ليلةً، فطفتُ وصرتُ أقول: يا رب أسألك

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث سليمان بن يسار قال: «تفرق الناس عن أبي هريرة، فقال له ناتل أهل الشام: أيها الشيخ، حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتِيَ به فَعرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار. ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه، ثم ألقي في النار» والترمذي (٢٣٨٢) والنسائي (٣١٣٧).

(٢) كذا بالأصلين، ولعله إبراهيم بن أدهم، تقدمت ترجمته.

الحفظ من الوقوع في المعاصي أنا وجميع إخواني. فهتف بي هاتف: يا إبراهيم، أنت تسألني الحفظ، وكلُّ عبادي يسألوني الحفظ، فإذا حفظتُهم من المعاصي، فعلىٰ من أتفضل وأظهر فضلي عليه؟! انتهىٰ.

فعُلِمَ أن من كمال الوجود أن يكون فيه الطائع والعاصي، لتحكم حضرات الأسماء في أهلها. ويؤيد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، وحديث: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم»[١].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: كلُّ من كشف الله حجابه رأىٰ كمال الوجود بالطائع والعاصي، وعلم أن جميع الأحكام التي جرىٰ بها القدر عدْلٌ وحكمة، لأنها من تقدير العالم العادل الحكيم، ورأىٰ ارتباط أهل الدارين بأعمالهما ارتباطًا لا يزول، فلم يطلب قط تغيير ما وقع ولا إبداله بغيره، عكس من لم يُكشَف حجابه، فربما قال: لو جعل الله تعالىٰ كذا علىٰ هيئة كذا، لكان أهون علىٰ الناس! كما قال بعضهم: أيُّ فائدة لخلق الله تعالىٰ جبل قاسيون[٢]، مع أنه حجب الريح الطيب عن الشام؟! أو أيُّ فائدة لجعل الله تعالىٰ الخلق سعداء وأشقياء، ثم يدفع إلىٰ كلِّ مسلم يوم القيامة يهوديًّا أو نصرانيًّا ويُقال له: هذا فداؤك من النار[٣]، فإذا كانوا سعداء كلهم لم يحتج أحد إلىٰ فداء، وكان ذلك أكثر إحسانًا علىٰ العباد. وهذا كله جهل بأحكام الله تعالىٰ.

وقد سأل شخصٌ الإمام الغزالي: أيُّ فائدة في خلق الله تعالىٰ جبل قاسيون الذي هو غمة من غمم الدهر في وجه دمشق ليس فيه نبات، وهو مانع من وصول الهواء الشمالي

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٧٤٩) وأحمد (٨٠٨٢) والحاكم (٧٦٢٢) وغيرهم.

(٢) جبل قاسيون: جبل يشرف علىٰ مدينة دمشق عاصمة سوريا.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٦٧) من حديث أبي موسىٰ قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة، دفع الله عز وجل إلىٰ كل مسلم، يهوديًا، أو نصرانيًا، فيقول: هذا فكاكك من النار» وأحمد (١٩٦٧٠).

إليها، وذلك يورثهم المرض؟! فقال له: تب يا أخي من الاعتراض علىٰ أفعال الله، فإن في ذلك بشارة لأهل دمشق بأنهم أهل الجنة، لقول أبي هريرة ﷺ: «إن ريح الجنوب من ريح الجنة وهي اللواقح، وريح الشمال من النار»[1] فهو يحجب عن أهل دمشق النار في الدنيا وفي يوم القيامة. وأما إخلاؤه من الأشجار فلما سبق في علم الله أنه يكون محلًا لدفن أمواتهم، فأمواتهم الآن كلُّهم في سفحه، فلو أنه كان فيه أشجار، لكانت عروقها في الأرض تمنعهم من الدفن إلا بمشقة شديدة. انتهىٰ جواب الغزالي.

وقد ورد «أن الله تعالىٰ ابتلىٰ نبيًّا من الأنبياء بالفقر والجوع والقمل عشر سنين، وهو يسأل رفع ذلك فلا يُجاب، ثم أوحىٰ الله تعالىٰ إليه: كم تشكو إليَّ حالك؟ هكذا كان بدو شأنك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أغير خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن تبدل ما قدَّرتُه عليك؟ فيكون ما تحب دون ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد»[2]. الحديث.

فإن قال قائل: إذا كانت السعادة والشقاوة إنما هي بحسب ما سبق به العلم الإلهي، فلا أول للسعادة ولا للشقاء، وإذا كان لا أول لهما، فما معنىٰ حديث: «الشقيُّ من شقي في بطن أمه»[3]؟ **فالجواب**: أن معناه أول ما يظهر للخلق السعادة أو الإشقاء من بطن أمه، فيطلع الله علىٰ ذلك الملائكة، أو من شاء الله من أصفيائه علىٰ سعادة ذلك الشخص أو شقاوته، أو رزقه أو أجله، مع أن ذلك قد كان سبقت كتابته في اللوح المحفوظ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من لم يطلعه الله تعالىٰ علىٰ سرِّ القدرة، فلا يعرف شيئًا مما سبق به العلم الإلهيُّ، ألا ترىٰ كيف تستخرج [الملائكة][4] ما عند

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرعد والبرق» (١٣٧) وأبو الشيخ الأصبهاني في «العظمة» (٤/ ١٣٠٦).

(٢) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٦٨) والغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٤٦).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٤٥) والبخاري، بنحوه (٧٤٥٤).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

الله تعالىٰ من العلم حال خلق النطفة، فيقول: يا رب، ما الرزق؟ وما الأجل؟[1].

وقد كان أبو المظفر السمعاني[2] رحمه الله يقول: لا مدخل للعقول والقياسات في هذه الأمور، وإنما طريق معرفتها ما ورد في الكتاب والسنة، فمن ترك ما ورد فيهما، ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يصل إلىٰ ما يطمئن به القلب، فإنه من علم سرِّ القدَر الذي ضُرِبَت دونه الأستار، فلا تصل إليه عقول الخلق ولا تعرفه معارفهم.

فإن قال قائل: فما معنىٰ قول آدم لموسىٰ لما تحاج هو وإياه: يا موسىٰ، أتلومني علىٰ أمر قدَّره الله تعالىٰ عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة[3]؟! كيف يصح له أن يعبر عن تقدير الله القديم بأربعين سنة؟ **فالجواب**: أن مراد آدم بالأربعين سنة مدة ظهور التقدير له، لا ابتداء التقدير، فإنه لا أول له.

فإن قال قائل: فما معنىٰ «فحج آدمُ موسىٰ» برفع آدم عليه السلام وهو الصحيح علىٰ أنه فاعل؟ مع أن أحدنا لو عصىٰ ربه وقال: هذا أمر قدَّره الله عليَّ لا يخرج بذلك عن اللوم، وإن كان صادقًا في هذا القول، ولذلك قال آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] مع علمه بأن ما وقع فيه كان بقضاء وقدر؛ **والجواب**: أن محاجة آدم وموسىٰ لم تكن في دار التكليف، وإنما كان ذلك بعد الموت، ولم يكن آدم يحتاج هناك إلىٰ زجر وتوبيخ، وإنما غايته التخجيل، بخلاف المعاصي هنا، فإنه في دار التكليف، وتجري عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ، هذا علىٰ كون معصية آدم كانت حقيقية. وأما علىٰ كونها صورية، فلا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٣١٨) من حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل وكل بالرحم ملكًا، يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقه قال: أذكر أم أنثىٰ، شقي أم سعيد، فما الرزق والأجل، فيكتب في بطن أمه» ومسلم (٢٦٤٦).

(٢) أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي السمعاني الحنفي ثم الشافعي. ولد: سنة ٤٢٦هـ. مفسر، من العلماء بالحديث. له مصنفات منها: «تفسير السمعاني»، «الانتصار لأصحاب الحديث». توفي: ٤٨٩هـ. انظر: «السير» (١٩/ ١١٤)، «الأعلام» (٧/ ٣٠٣).

(٣) تقدم تخريجه.

لوم عليه حقيقة، كما مر بسطه في الباب الأول.

ومن هنا تعلم يا أخي أنه لا يجوز لأحد الاعتراض على الأقدار الإلهية، وإنما الواجب التسليم والتفويض، بدليل أن آدم لما احتج على موسى بالقدَر، سلَّم له ولم يعترض، ولذلك قال ﷺ في الحديث: «فحج آدمُ موسى»[1] أي غلبه في الحُجَّة. وكان مراد آدم بإقامة الحُجَّة على ولده موسى أن يفتح له كمال الأدب والتسليم للأقدار الإلهية باطنًا، وإقامة العذر لقومه كذلك، فيشهد أولًا من ناصية العباد بيد قدرته، ثم بعد ذلك يأمرهم وينهاهم من حيثُ كسبُهم، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٨) ومما أجبتُ به عن الإمام الغزالي في قوله في كتاب «الإحياء»: اعلم أن كلَّ ما قسمه الله تعالى في هذا الوجود من رزق وإيمان وكفر، ليس في الإمكان أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، فإن بعض الناس أنكر عليه وقال: يلزم من ذلك أن كفر الكافر أحسن من إيمانه.

والجواب: أن مراده من سبق له في علم الله تعالى أن يكون كافرًا ويموت على كفره، فهو لا يوصف بكون كفره أحسن من إيمانه، لأنه لا يُتصوَّر منه إيمان حتى يكون كفره أحسن، فبطل الإلزام. وقد تقدم في أوائل الباب الثالث الجواب عن قول الغزالي: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»[2] فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٩) ومما أجبتُ به عن قول الإمام سهل ابن عبد الله التستري ؓ: إن لله عبادًا لو سألوه أن لا يقيم القيامة لأجابهم ولم يقمها، ولكن لا يفعلون. انتهى. قال قائل: كيف يصح وقوع هذا القول وهو معارض للنصوص القطعية المصرِّحة بأن لا بد من قيام الساعة.

والجواب: أن ذلك كفرض المحال، مثل قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] بقرينة قول سهل: «ولكن لا يفعلون» أي لأنهم لا يريدون إلا ما أراد، ولا يسألونه فعل شيء لم تتقدمه مشيئتُه وإرادتُه، لاسيما والنصوص

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧٥١٥) ومسلم (٢٦٥٢).

(٢) الجواب (١٨٤).

القطيعة تعارض سؤالهم، وقد تصدر قوم للرد علىٰ سهل وعلىٰ الغزالي حين نقله عنه ولم ينكره ولم يتأملوا في قوله: «ولكن لا يفعلون».

وهي من المسائل التي كان الحسدة دسوها عليَّ في كتاب «العهود» مع أني ما سمعت بهذه المسألة إلا منهم، وما كنتُ أعلم أن سهلًا قالها، فالله يغفر لنا ولهم، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول لأصحابه: إياكم أن تجيبوا عن الصوفية بالكلية، فيحصل بذلك ضرر شديد، ولكن أجيبوا عن بعض دون بعض؛ فقال قائل: كيف ذلك؟! بل الحق أن يجيب عن كلِّهم ما أمكن، فإنهم كلَّهم أئمة أخيار.

والجواب: أن الحقَّ والأولىٰ الجواب عن بعضهم لا عن كلهم ممن كان قليل الذوق لأحوالهم، لئلا يكلف نفسه شططًا، كما أن الحق والأولىٰ الجواب عن جميعهم لمن أعطاه الله تعالىٰ الذوق لأحوالهم، والملكة في الجواب عنهم، كما فعلتُ أنا في هذا الكتاب بالنسبة إلىٰ من هو دوني في الذوق، اللهم إلا أن يترتب علىٰ الجواب ضررٌ في الشريعة، فإن الإنكار حينئذٍ علىٰ ذلك الوليِّ أولىٰ نصرةً للشريعة، ويجعل اللوم علىٰ ذلك الوليِّ الذي يتكلم بما يخالف ظاهر الشريعة، ولكن ينبغي للمنكر أن يقول بقلبه ولسانه: دستور يا سيدي الشيخ أنكر عليك في قولك كذا وكذا - سواء أكان حيًّا أم ميتًا- خوفًا أن يضل بقولك أحد من الخلق، فتصير في حكم الأئمة المضلين، ثم ينكر عليه بعد ذلك.

ثم إن كان ذلك الرجل وليًّا في نفس الأمر، فهو يفرح بذلك الإنكار، ويشكر فضل المنكر عليه، وإن كان غير وليٍّ فلا حرج علينا في الإنكار عليه.

وتأمل يا أخي ابن الحرازم[1] شيخ أبي الحسن الشاذلي لما أنكر علىٰ الإمام الغزاليِّ كيف ضُرِبَ بين يدي النبي ﷺ بالسياط حتىٰ صار أثره علىٰ جسمه إلىٰ أن مات، ولو أنه كان قال: دستور يا إمام أنكر عليك من كلامك ما يخفىٰ علىٰ الناس فهمُه لما ضُرِبَ بالسياط.

(١) بالأصلين: ابن أبي الخوارزم. وكذلك في كل المواضع في هذه الفقرة، والصواب ما أثبتناه.

وقد ذكر اليافعيُّ القصة في ذلك فقال: أخبرني الشيخ أبو العباس ابن الميلق الشاذلي[1] قال: أخبرني الشيخ ياقوت العرشي، أخبرني الشيخ أبو الحسن الشاذلي، قال: خرج علينا شيخنا ابن الحرازم يومًا، فقال ومعه كتاب «إحياء علوم الدين» وكان من أشد المنكرين على الإمام الغزالي، فكشف لنا عن جسمه، فإذا هو مضروب بالسياط، وقال لنا: أتاني رجل في المنام من صفته كذا وكذا يصف الإمام الغزالي، وقال لي: أنا أدعوك إلى رسول الله ﷺ؛ فمشيتُ معه، فلما وقفنا بين يدي النبي ﷺ قال: يا رسول الله، هذا يزعم أني أقول عنك ما لم تقل! قال: فأمر النبي ﷺ بضربي، فضربتُ، ثم تاب ابن الحرازم من حينه، وحسنت توبته واعتقاده في الإمام الغزالي، وصار من أهل الطريق، وأخذ الناس عنه. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: قد مات وأثر السياط ظاهر على جسمه. انتهى.

قال شيخ الإسلام شمس الدين الصفدي رحمه الله: وفي ضمن رؤيا ابن أبي الخوارزم إجازةٌ من النبي ﷺ للإمام الغزالي بجميع أحاديث «الإحياء» وما أعلاها وأشرفها من إجازة برزخية! إذ هي من النبي ﷺ بلا واسطة، وقد أكدَّها بهذه الأمارة العظيمة، وهي ظهور أثر السياط على جسمه في اليقظة إلى أن مات.

فاعلم ذلك، وأجب عن القوم تارة، واترك الجواب عنهم تارة بحسب المصالح.

وقد بسطنا الكلام على مناقب الإمام الغزالي في الباب العاشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعرف الملائكة البوَّابين في كلِّ سماء على اختلاف طبقاتهم بنور أعطاه الله تعالى لي؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا أمر لا يُعلَم إلا بالوحي، إذ ليس للوليِّ قدم محسوس في السماء حتى يعرف أهلها.

والجواب: بأن معرفة مثل ذلك لا يتوقف على وحي، بل يُعرَف ذلك بطريق الكشف، فيكشف الله تعالى عن قلب وليِّه الحجاب، فيدرك أحوال أهل السماء، كما يعرف ذلك أهل الخلوات من الصوفية.

---

(١) شيخ سيدي السلطان الحنفي في الطريق.

وقد يعرف ذلك بتكرر رؤيته لأهل السماء في منامه، حتىٰ يصير ذلك كأنه يقظة، مثل ما يقع لمن تكرر له رؤية نبيه ﷺ أو شيخه في المنام وصار يأمره وينهاه، كما وقع لسيدي عبد الرحيم القنائي والشيخ أبي مدين والشيخ أبي السعود ابن أبي العشائر وسيدي إبراهيم المتبولي وأضرابهم، حتىٰ كان سيدي إبراهيم يقول: نحن أربعة في الدنيا ليس لنا شيخ إلا رسول الله ﷺ. ويذكر هؤلاء الثلاثة.

وقد كان سمنون المحب ينشد:

فأجسادهم في الأرض قتلىٰ بحبه وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطيّ ﷺ يقول: الشيخ محمد بن عنان يعرف أزقة السماء وأبوابها وطبقاتها، ومواضع سكن أكابر الملائكة التي فيها.

ومن وصية شيخنا شيخ الإسلام[1] رحمه الله: كن في الدنيا بجسمك، وفي الآخرة بقلبك؛ وهو قريب مما نحن فيه، فإن من كان في الآخرة بقلبه لا يخفىٰ عليه أحوال الناس فيها، فكذلك من كان في السماء بقلبه.

وتقدَّم في هذا الكتاب الجواب عن قول من يقول لمن سأله في حاجة: اصبر حتىٰ أسأل لك جبريل[2]، وبيان أن سؤال جبريل في حاجته ليس بممتنع، لأنه ليس بوحي ولا إرسال. وقد ورد أن جبريل يصافح من قام ليلة القدر، ومن صافحه جبريل لا يبعد أن يكلمه في حاجة حين كشف حجابه من باب خرق العوائد.

وقد جاء فقيه مرة لسيدي محمد الشربيني ﷺ وقال: أريد أسألك عن مسألة في الطريق. فقال: وأنا الآخر أريد. فقال: قل. فقال: ما اسم بوَّابي[3] السماوات السبع، والأرضين السبع؟ فأعجز الفقيه ومضىٰ. ولعل الفقيه كان سؤاله الشيخ امتحانًا أو تعنتًا، فاعلم ذلك، وسلِّم للأولياء ما يجدونه من مواجيدهم ما لم يعارض نصًّا أو إجماعًا،

---

(١) أي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري.

(٢) الجواب (٢٨١).

(٣) بالأصلين: بوَّابين. والصواب نحويًّا ما أثبتناه.

والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول إذا قُدِّر له طاعة كبيرة: الحمد لله الذي لم يكن أقل من ذلك؛ وإذا قُدِّر عليه معصية صغيرة يقول: الحمد لله الذي لم يكن أكثر من ذلك؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: كلُّ شيء قد سبق به العلم الإلهيُّ في الأزل، فلا يصح فيه زيادة ولا نقص، والشكر لا يكون إلا على شيء يقبل الزيادة والنقص.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ إنكار ذلك، وإلا لبطل حكم الشكر لله عزَّ وجلَّ. ومعلوم أن العبد يُثاب من حيثُ الكسبُ والقصدُ، وإن كان أصلهما مقدَّرًا في الأزل لا يقبل زيادة ولا نقصًا.

وهذه المسألة من المسائل التي أنكروها علىٰ الغزالي ونقضوا بها قوله: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»[1]. وقالوا: إذا كان كلُّ بلاء وقع، أو نعمة وقعت يحمد العبد ربَّه عليها الذي لم يكن أكثر من ذلك أو لم يكن أقل، ففي الإمكان أبدع مما كان. وعبارة الغزالي في كتاب الشكر من «الإحياء»: اعلم أن في كلِّ مصيبة من فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور: منها أن كلَّ مصيبة يُتصوَّر أن يكون أكثر من ذلك، فإن مقدورات الله تعالىٰ لا تتناهىٰ، ولو أنه تعالىٰ كان ضعَّفها وزادها ماذا كان يرده ويحجزه؟! فليشكر العبد ربه الذي لم يكن أكثر من ذلك وأعظم. انتهىٰ.

وقد سألتُ عن ذلك شيخ الإسلام زكريا رحمه الله فقال: قول الإمام الغزالي حقٌّ وصدق، لأن القدرة الإلهية واسعة لا نهاية لها، إذ هي صفة ذاتية له تعالىٰ، وصفاته لا حد لها، فكذلك مقدوراته، لكن القدرة لا تتعلق إلا بما تعلقت به المشيئة، والمشيئة تابعة لما سبق به العلم، وسطَّره في اللوح المحفوظ، قال تعالىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢]. انتهىٰ.

ومعنىٰ قول الإمام الغزالي: «فلو أنه تعالىٰ كان ضعَّفها وزادها ماذا كان يرده ويحجزه»

---

(١) تقدم الجواب عن هذه العبارة في الجواب (١٨٤) والجواب (٧٦٨).

أي لو قدَّر عليه أكثر من ذلك في الأزل، ولعلَّ هذا مراده ﷺ، فلا ينبغي الاعتراض عليه، لأن الحقَّ تعالىٰ [فعَّال][1] لما يريد أزلاً وأبدًا، وما بينهما بالقوة وبالفعل. وفي كلام أبي حنيفة في كتاب «الفقه الأكبر»: قد كان الحق تعالىٰ خالقًا قبل أن يخلق، ورازقًا قبل أن يرزق، وراحمًا قبل أن يرحم، ومنتقمًا قبل أن ينتقم.

فعُلِمَ أنه يجب علىٰ العبد الشكرُ لله من حيثُ تقديرُه المعصية عليه، والاستغفارُ من حيثُ كسبُه لها وتعديه حدود الله، وكلٌّ ذلك بإرادة الله، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما خان موكل فيما وُكِّل فيه إلا من خيانة الموكِّل، ولا أبق عبد إلا من إباق السيد عن طاعة الله، ولا نشزت امرأة إلا من نشوز زوجها كذلك عن طاعة ربه؛ فلاث به بعض الفقهاء، وقال: هذا غير صحيح، فقد خان بعض سعاة الزكاة في عهد رسول الله ﷺ وغلُّوا في الغنيمة[2]، ومعلوم أن من ولَّاهم أو كان أميرهم معصوم من كلِّ ذنب أو خيانة.

والجواب: أن القواعد أكثرية لا كلية، فلا يقدح في القاعدة خروج بعض أفرادها عنها. وأما ما دخل في حكم القاعدة، فلا اعتراض علىٰ مقابله، لأنه من باب تعليق المسبَّب علىٰ السبب. وقد كان الفضيل بن عياض ﷺ يقول: إني لأتعوج عن طريق الاستقامة، فاعرف ذلك في خلق حماري وخادمي وزوجتي. وكأن لسان الحقِّ جلَّ وعلا يقول لعباده: من أطاعني فأطيعوه، ومن عصىٰ أمري فاعصوه، فيأبق عبده، وتنشز زوجته، ويشمص حماره،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٢٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ يقول: «افتتحنا خيبر، ولم نغنم ذهبا ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ وادي القُرَىٰ، ومعه عبدٌ له يقال له مِدْعمٌ، أهداه له أحد بني الضِّبابِ، فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائرٌ، حتىٰ أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئًا له الشهادة. فقال رسول الله ﷺ: بل، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تُصبها المقاسم، لتشتعل عليه ناراً، فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراكٍ أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته. فقال رسول الله ﷺ: شراك – أو شراكان – من نار» ومسلم (١١٥).

وفي ذلك رحمةً بالعبد، ليتنبه علىٰ شؤم فعله، فيستغفر الله تعالىٰ ويتوب إليه، فإذا قبل الحق تعالىٰ توبته، رجع الخلق إلىٰ طاعته ضرورةً من عبد وامرأة وغيرهما.

وفي زبور داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، أعلِم بني إسرائيل أنهم إذا أطاعوني آمر الوجود كلَّه بطاعتهم، وأُذِل لهم الحكَّام حتىٰ يصيروا تحت حكمهم كالكبش تحت السكين. وإن عصوني أمرتُ الوجود كلَّه بعصيانهم، فلا يأتونهم إلا بما يكرهون، جزاءً علىٰ إتيانهم ما أكرهه لهم. انتهىٰ.

ولما فتح عمر بن الخطاب الفتوح، أتوه بمال كثير حتىٰ صار كومًا كبيرًا في المسجد، فحرَّكه عمر بعصا كانت في يده، ثم قال: والله إن الذي أتانا بهذا لأمين! فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله، وهم يردون إليك ما أديتَ إلىٰ الله، فإذا وقعتَ وقعوا. فقال عمر: صدقت. رواه البيهقي وغيره[1].

وكان مالك بن دينار إذا عصىٰ غلامه أمرَه يقول: ما أشبه معاملتك معي بمعاملتي مع ربي. انتهىٰ.

لكن هذه القاعدة أكثرية لا كلية كما تقدم، فإياك أن تظن بأحد من مشايخ الطريق إذا كان ناظرًا علىٰ مسجد وخان الجابي في وقفه أن الشيخ لولا خان في الوقف ما خان الجابي، فإن ذلك ظن فاسد لا يجوز، بقرينة ما صح عن بعض عمال النبي ﷺ من الغلول في الغنيمة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يجب علىٰ الخلق أن يشكروا ربهم علىٰ إخراجهم من العدم إلىٰ الوجود، سواء أكانوا طائعين أم عاصين؛ فلاث به بعض الناس وقال: أما طائعين فهو مُسلَّم. وأما عاصين فلا! لأن مكثهم في العدم أولىٰ من خروجهم إلىٰ الدنيا وعصيانهم لربهم، ولذلك قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا ليت أمي لم تلدني! وقال مالك بن دينار: لا أغبط نبيًّا مرسلًا، ولا وليًّا مقربًا! وإنما أغبط من لم يُخلق.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» (١٣٠٣٣)، وابن المبارك في «الزهد» (٧٦٨)، وابن زنجويه في «الأموال» (٧٩٩).

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ كما يقع فيه كثير من الناس، فيقول أحدهم: لو أن أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لم يأكل من الشجرة، لكان لم يخرج من الجنة وأراحنا من هذا الشقاء والتعب، فيُقال لهذا: ألم تعلم أن الله حكيم عليم؟! فلا يسعه إلا أن يقول: نعم. فيُقال له: فمن حكمته البالغة تقديره علىٰ أبينا آدم وغيره ما قدَّره، وإنزاله إلىٰ الأرض، ليظهِر تعالىٰ ما سبق في علمه من إخراج ذريته من ظهره من أنبياء وأولياء، ومؤمنين وفاسقين، وكافرين ومشركين، ويميز تعالىٰ بذلك الخبيث من الطيب، والطائع من العاصي بأعماله وأقواله. فتب يا أخي عن مثل هذا، فإنه اعتراض علىٰ ربك الحكيم العليم [الذي لا معقب لحكمه، وكأنك تريد أن تعقب حكمه بجهلك وتقول: كان الأولىٰ خلاف ما فعله تعالىٰ][1]، وفي ذلك من سوء الأدب ما لا يخفىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ترك الحضور مع الله تعالىٰ في الصلاة أفضل من الحضور معه فيها؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا شيء مخالف لإجماع الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فقد يريد أن من لازم حضور العامة مع الله تعالىٰ تخيله شكلًا في قلوبهم، وإذا غاب عنهم الشكل، لا يصح الحضور لهم، وتعالىٰ الله عن الشكل والصورة، فكلامه مع العوام لا مع الأكابر من العلماء الذين يحضرون معه من غير تشكل صورة في ذهنهم، فعدم حضور العوام أفضل من حضورهم، لأن عبادتهم حينئذٍ تكون مع الغيبة عن الشكل، كما هي عبادة العارفين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٦) ومما أجبتُ به عن العلماء والصالحين الذين حضروا جنازة شيخ كبير من أهل الطريق، فلم يبكِ أحد منهم عليه، فلاث بهم العامة وقالوا: من شرط العلماء العاملين والفقراء الصادقين رقة القلب وكثرة البكاء، كما هو منقول عن السلف الصالح، ولكن هؤلاء ما حازوا من أحوالهم سوىٰ لبس الزي والدعاوىٰ الكاذبة.

---

(١) ساقط من «ب».

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهؤلاء العلماء والصالحين بسبب عدم بكائهم، ولا نسبتهم إلىٰ النقص، بل ذلك من علامة كمالهم، إذ الناس علىٰ ثلاثة أقسام: منهم من تبكي عينه و[لا][1] يبكي قلبه، وهم غالب الناس؛ ومنهم من يبكي قلبه دون عينه، وهم المتوسطون في المقام، المخفون أعمالهم عن الخلق؛ ومنهم من يبكي عينه وقلبه، وهم خواص الخواص، فيرضي أحدهم ربه ويرضي خلقه ببكائه بقلبه وعينه.

وبهذا الجواب أجبتُ عن علماء مصر وصوفيتها لما حضروا جنازة سيدي يحيىٰ الرفاعيّ شيخ الخرقة الرفاعية في مصر وقراها ﷺ، فقال لي شخص: أين صلاح هؤلاء؟! وما نرىٰ أحدًا منهم يبكي علىٰ هذا الرجل العظيم! فقلتُ: إنهم بحمد الله كلهم يبكون بقلوبهم. والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٧) ومما أجبتُ به عن العلماء والفقراء الذين وقع أخوهم في كشف وأخطأ فيه [ففرحوا][2]، فلاث بهم بقية الناس وقالوا: كيف يدعي هؤلاء أنهم علماء أو صالحون وهم يفرحون بتنقيص الناس لأخيهم ويشمتون به؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء العلماء والفقراء، لاحتمال أن يكونوا إنما فرحوا بحصول الأجر والثواب لأخيهم بسبب وقوع الناس في عرضه، فإنه ورد أن حسناتهم تنتقل في صحائف من استغابوه ووقعوا في عرضه، فكان فرحهم إنما هو بما حصل لأخيهم من الحسنات والأجور، كما أن الناس إذا لاثوا كذلك بالفقراء أو العلماء الذين لاثوا بأخيهم يفرح لهم من حيثُ حصولُ الأجر لهم كذلك، فيحتاج صاحب هذا المقام إلىٰ عينين: عين يفرح بها من حيثُ حصولُ الحسنات لإخوانه، وعين يحزن بها عليهم من حيثُ تعديهم حدود الله، ليعطوا الشريعة والحقيقة حقَّها، فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل العلماء والفقراء الذين أظهروا الفرح بوقوع الناس في عرض أخيهم علىٰ الحظوظ النفسانية، إنما يجب حملهم علىٰ شيء من المصارف الشرعية كما ذكرنا، ويبعد عن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

العلماء وأشياخ الطريق أن يقع أحدهم في الشماتة بأخيه المسلم.

وقد أجبتُ بنحو ذلك عن العلماء والفقراء الذين لاثوا بعرضي في مصر لما أشاع بعض الحسدة عني أنني قلتُ: إن عبد الله بن بغداد يشنق، وحسن بن حماد يتولىٰ في الوقت الفلاني: فإنه لم يسلم من الوقوع في عرضي إلا القليل من العلماء والفقراء، فحملتُهم علىٰ أنهم لم يفرحوا إلا لما حصل لي من الأجر والثواب بكلام الناس فيَّ من غير علم، لكوني لم أنطق بشيء من ذلك، فإن اعتقادنا في علماء عصرنا وصوفيته أنهم لا يجهلون ما ورد من نقل حسنات من يقع في أعراض الناس إلىٰ صحائف من وقعوا في عرضه.

وقد تقدم في هذا الكتاب أن الله تعالىٰ إذا أراد أن يرقي عبدًا من عبيده إلىٰ درجات لم يبلغها بعمله، قيض له جماعات من العلماء العاملين، والفقراء الصادقين، فوقعوا في عرضه، فنقل الله تلك الأعمال الصالحة التي عملوها طول عمرهم في صحائف ذلك العبد، فأصبح من أعلىٰ الناس مقامًا، وأكثرهم عملًا في ليلة واحدة، والناس مع ذلك يقعون في عرضه، ويرون نفوسهم أحسن حالًا منه، لحجابهم عما وقع له. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يدعي أنه تساوىٰ عندي الذهب والتراب علىٰ حد سواء، ولاث به الناس وكذبوه في ذلك، بأنه لا ينبغي اللوث به، لأن هذا مقام يحصل للسالك في أوائل دخوله في الطريق، فيُحتمَل أن هذا العالم عمل علىٰ تحصيل مقام تساوي الذهب والتراب في الميل إليه علىٰ حد سواء بأحكام الرياضة وترك الشهوات جملة، حتىٰ لم يصر له ميل إلىٰ شهوة واحدة، لأنه مادام له ميل إلىٰ شهوة واحدة، فمن لازمه محبة الدنيا وذهبها وفضتها، لأن شهوته لا يصل إليها إلا بالذهب والفضة، فإذا أحكم ترك الشهوات جملة، تساوىٰ عنده الذهب والتراب، لخروجه عن رق الشهوات وعن محبة ما يجلبها إليه.

فاعلم ذلك يا أخي، وأتِ إلىٰ كلِّ مقام من بابه، فإن كثيرًا غلطوا فيما قلناه، وطلبوا أن

يتساوىٰ عندهم الذهب والتراب، مع محبتهم للشهوات، فلم يصح له ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٩) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يقول: قد تساوىٰ عندي الناس كلهم مطيعهم وفاسقهم علىٰ حد سواء؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف يكون مقام المطيع لله الراضي ربه عنه، كالعاصي لأمر الله الساخط ربه عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من قال ذلك، لاحتمال أن يكون مشهده من الخلق السر القائم بهم من أمر الله، ومن شهد هذا المشهد، تساوىٰ عنده الخلق كلهم، فهو يخاطب من الناس السر القائم بهم معهم، أو مع حجابه عن شهودهم، كما يعرف ذلك أهل الكشف، وهو مقام سهل بن عبد الله التستري وجماعة، فكان سهل ﷺ يقول لي: منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالىٰ والناس يظنون أنني أكلمهم. **وإذا احتمل فعل الإنسان أو قوله وجهًا صحيحًا ولو فوق مقامه عادةً، فلا ينبغي الإنكار عليه إلا بطريق شرعي واضح لا تلبيس فيه**، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يسمع منشدًا ينشد شيئًا من كلام القوم، فيقوم ويتواجد وتقع عمامته، ثم يجلس ويقوم يصلي بالناس ولا يجدد وضوءه، فلاث به الحاضرون وقالوا له: إن كنت غائب العقل وجب عليك الوضوء مثلًا، وإن كنت حاضر العقل فلم رميت عمامتك عن رأسك؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، فقد صرَّح الشيخ شمس الدين التتائي المالكي في شرح «الرسالة» و«المختصر» بأن من غاب عقله من الهيام وشدة المحبة لله تعالىٰ لا تنتقض له طهارة، فإن حكم أهل حضرة الله تعالىٰ يخالف حكم من كان خارجًا عنها، بقرينة عدم تكليف المجاذيب، فإن الله تعالىٰ لما أخذ عقولهم وخبأها في حضرته، صاروا بلا عقول، ثم إنه إذا ردهم إلىٰ إحساسهم في حضرته، استمر منهم ذلك الإحساس من غير تخلل غفلة حتىٰ يخرجوا من الحضرة، فلم يزل عقلهم حقيقة، وإنما

تنوعت عليهم أحوال، مع دوام الإدراك والشعور. وبذلك فرَّقوا بين زوال عقل المجانين وزوال عقل المجاذيب، فإن المجنون إذا خرج عقله ينتقل إلىٰ حضرة برزخية لها وجه لأحكام الدنيا، ووجه لأحكام الآخرة، فلم تتخلص عقولهم لحضرة الله بالكلية، فلذلك غلَّب العلماء زوال عقلهم، وحكموا بنقص طهارتهم احتياطًا لهم، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين[1].

(٧٨١) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يظهر الغرض لأمير علىٰ خصمه ويقول: أنا مع[2] غرضك، ولا أقدر أسمع لخصمك ذكرًا! فلاث به الناس وقالوا: قد صارت العلماء أصحاب أغراض فاسدة كالعوام، لأجل سحت الدنيا، وطاب الموت لكلِّ عاقل!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بالعالم إذا قال لأمير مثل ذلك، لاحتمال أن يكون قصد بذلك تمييل خاطر الأمير له، ليصير يسمع له النصح والتدبير بينه وبين خصمه، ليختصر بينهما الفتنة، لاسيما إن كان الولاة نصَّبوه ولو سرًّا ليزيد علىٰ المتولي مالًا في وظيفته لجهة مولانا السلطان، فإنه ربما يحب إظهار الغرض معه خوفًا أن لا يسمع منه إذا أظهر الغرض لعدوه، ويصير يزيد في البلاء أو في تلك الوظيفة، ثم يأخذونها من الرعية بالضرب والحبس والنهب، كما هو مشاهد في مشايخ العرب والكشاف الذين لهم أضداد، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا يقبل الله صلاة من صلَّىٰ علىٰ محمد ﷺ إلا إن كان علىٰ طهارة؛ فلاث به بعضُ طلبة العلم وقالوا: هذه من قسم الأذكار،

---

(١) قال الشيخ الأكبر في «الفتوحات المكية» الباب (٤٤) ما معناه: «الفرق بين المجانين والمجاذيب: أن المجانين كان سبب جنونهم فساد المزاج عن أثر كوني من غذاء أو جوع أو غير ذلك، فأمَّا المجاذيب فكان جذبهم عن تجلٍ إلهي لقلوبهم جاءهم علىٰ فجأة فذهب بعقولهم، فعقولهم مخبؤة عنده، منعمة بشهوده، عاكفة في حضرته، متنزهة في جماله، فهم أصحاب عقول بلا عقول، وهؤلاء الذين عُرفوا في الظاهر بـ«عقلاء المجانين» أي المستورين عن تدبير عقولهم».

(٢) بالأصلين: من.

والأذكار لا يُشترَط في صاحبها الطهارة، فهي مقبولة ولا ترد، إلا لو كانت الطهارة شرط فيها، كالصلاة والركوع والسجود.

والجواب: بأن الإجماع قد انعقد على أنه ما بعد كمال الله عزَّ وجلَّ وتعظيمه إلا كمال محمد ﷺ وتعظيمه، فلا يبعد أن تُرَد صلاة من صلى عليه محدثًا، كما قال ﷺ في الصلاة ذات الركوع والسجود: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»[1] بجامع أنها مناجاة لله عزَّ وجلَّ، كالصلاة ذات الركوع. ويؤيد ذلك حديث البيهقي -وقال: إنه ضعيف الإسناد- «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث، والصلاة عليَّ»[2].

وأخبرني الشيخ الصالح عمير المغربي الذي يرى النبي ﷺ كثيرًا أنه قال: يا رسول الله، الصلاة عليك مقبولة دائمًا غير مردودة كما هو في أفواه الناس؟ فقال ﷺ: نعم، إذا كان صاحبها على طهارة. انتهى، فاعلم ذلك، ولا تنكر إلا بعلم، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا سمعتُ تسبيح الجماد والنبات والحيوان الذي ليس بناطق؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا أمر لا يكون إلا للصحابة والتابعين، وكذَّبوه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به ولا تكذيبه، بل الأولى تصديقه لأنه أمر ممكن. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فلا ينافي ذلك، لأن كلامنا في السمع، والآية في الفهم، فما نفى تعالى عنا إلا الفهم لا السماع، اللهم إلا أن يكون أحدنا أعطاه الله تعالى منطق الطير بحكم الإرث لسليمان عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا نسلِّم له معرفة تسبيح الطير.

وأما الجماد فقد يعرفه من طريق الكشف، كما وقع لي ذلك من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، ثم حُجِبَ ذلك عني رحمةً بي، فسمعتُ تسبيح كلِّ شيء حتى السمك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥٤)، ومسلم (٢٢٥).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

الذي في البحر المحيط، فسمعتُ تسبيحه وهو يقول: سبحان الحنان المنان، خالق الخلق والنباتات والحيوانات. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن أهل الكشف يفهمون تسبيح كلِّ شيء من طريق كشفهم بحكم خرق العادة، ولا منع من ذلك. وفي كلام الإمام الغزالي: اعلم يا أخي أن أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالىٰ في حقِّهم كلَّ ذرة في الأرض والسماوات بقدرته التي أنطق بها كلَّ شيء، حتىٰ سمعوا تقديسها وتسبيحها، وشهادتها علىٰ أنفسها بالعجز بلسان ذلق[1] يتكلم بلا صوت ولا حرف، ولا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون.

قال -أعني الغزالي-: ولستُ أعني به السمع الظاهر الذي يُخلَق من الأصوات، فإن الحمار يشاركهم في ذلك، ولا قدْر لما يشاركنا فيه البهائم، وإنما أعني به السمع الذي يدرك الكلام بغير صوت ولا حرف، ولا هو عربي ولا هو عجمي.

فإن قيل: إن هذه أعجوبة لا يقبلها العقل، فبين لنا كيفية نطقها، وكيف نطقت؟ وبماذا نطقت؟ وكيف سبَّحت وقدست؟ وكيف شهدت علىٰ نفسها بالعجز؟ **فالجواب**: أن هذا أمر لا يُدرَك إلا بالكشف، فمن كُشِفَ له عَلِمَ أن لكلِّ ذرة في السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر، وذلك مما لا يُحصىٰ ولا يتناهىٰ، فإنه كلام يستمد من بحر كلام الله تعالىٰ الذي لا نهاية له، فيناجيهم بأسرار الملك والملكوت، ولكنهم لا يفشون أسرار الحقِّ جلَّ وعلا ولو قتلوا، وتأمل قوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»[2] فإن فيه تعريضًا بتحريم إفشاء أسرار الحق، وكذلك تأمل في قول أبي هريرة في جراب العلم الذي أعطاه له رسول الله ﷺ فإنه قال: «لو بثثتُه لقُطِع مني هذا البلعوم»[3]. وكذلك في قول الإمام زين العابدين:

يا رب جوهر علم لو أبوح به   لقيل لي: أنت ممن يعبد الوثنا

---

(١) ذَلَقَ اللِّسانُ :كانَ ذَلَقًا، ذَلِيقًا، أَيْ فصيحًا، طَلْقًا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٢٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٩١٠).

ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

يتضح لك ما عليه أهل الله، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: العارفون لا يموتون وإنما يُنقلون من دار إلىٰ دار؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: قد قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

والجواب: أن مراد هذا الشيخ أن العارفين من كثرة مجاهداتهم قد حيت قلوبهم، وطلبت الانتقال من هذه الدار إلىٰ الدار الآخرة، لما فيها من مجالسة الله عزَّ وجلَّ والنعيم المقيم، بحكم الإرث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم أحياء في قبورهم، وكذلك الأولياء، لكن حياتهم أضعف من حياة الأنبياء، لعدم عصمتهم، فربما تعاطىٰ أحدهم أفعالًا أماتت قلبه، ولا هكذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: الموت أمر متردد بين الوجود والعدم، كما عليه الجمهور، فليس هو بعدم محض ولا فناء محض، وإنما هو انقطاع تعلق الروح ببدنها ومفارقته، وحيلولة بينهما وتبدل حال، وانتقال حال من دار إلىٰ دار. انتهىٰ. وكذلك نقله الجلال السيوطي عن العلماء، وكذلك رُوي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كان يقول: إنما خلقتُم للأبد، ولكنكم تنقلون من دار إلىٰ دار. وكان بلال بن سعد[1] يقول في خطبته: إنكم أهل خلود وأهل بقاء، وإنكم لم تُخلقوا للقضاء، وإنما خُلقتم للخلود والأبد، ولكنكم تُنقلون من دار إلىٰ دار. انتهىٰ.

ثم إن هذا المقام لا يكون إلا لمن بالغ في المجاهدة في نفسه، حتىٰ فنيت جميعُ أغراضه النفسانية، وصار مراده هو مراد الله. وأما من بقيت عليه بقية، فهو يقاسي

---

(١) بلال بن سعد بن تميم السَّكوني الإمام الرباني الواعظ، أبو عمرو الدمشقي، شيخ أهل دمشق. كان لأبيه سعد صحبة. قال الأوزاعي: كان من العبادة علىٰ شيء لم نسمع أحدًا قوي عليه، كان له كل يوم وليلة ألف ركعة. وثقه: أحمد العجلي. قال أبو زرعة: كان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق. توفي: سنة نيف وعشرة ومائة. «السير» (٥/ ٩٠)، «حلية الأولياء» (٥/ ٢٢١).

الشدائد في طلوع روحه بسببها، فكلما تريد الروح تخرج من الجسد إلىٰ البرزخ، تجذبه تلك الأغراض إلىٰ الإقامة في دار الدنيا، فيحصل من ذلك تعسير طلوع الروح علىٰ بعض الناس، ويقع هذا كثيرًا للتجار والأمراء، وكلِّ من له دور وبساتين وأولاد ومال وحشم وجاه، بخلاف من كان بالضد من ذلك.

فإن قال قائل: إننا نرىٰ بعض الأولياء يقاسي الشدائد عند طلوع روحه، ويطلب البقاء في هذه الدار، مع كثرة مجاهداته وزهده وقلة علائقه الدنيوية؛ **فالجواب**: أن شدة طلوع روح الوليِّ ليست لأغراض دنيوية، وإنما هي لأغراض صحيحة، كأن يطيع أحدهم ربه ويزيد في العبادة، ليزداد في الثواب، ويقوم بشعائر دين الله في هذه الدار، وليكمِّل تلامذته في المقامات ونحو ذلك.

ومصداق ذلك ما يقع للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من تشديد طلوع روحهم، مع أن أحدهم لا علاقة له في الدنيا بإجماعٍ إلا طلب الزيادة من الطاعات، وكمال هداية الخلق إلىٰ طريق الله عزَّ وجلَّ، وفي الحديث: «إني أُوعَكُ كما يُوعَكُ رجلان منكم»[1]. وقالت عائشة: «ما رأيت أحدًا اشتد عليه الكرب مثل ما اشتد علىٰ رسول الله ﷺ، فكان يُغمَىٰ عليه من شدته، ثم يقول: إن للموت لسكرات»[2]. انتهىٰ.

وقد دخلتُ علىٰ شيخنا الشيخ محمد الشناوي وهو يعالج في سكرات الموت، فقلتُ له: أنتم بخير؟ قال: نعم، ولكن أحبُّ البقاء في هذه الدار حتىٰ أكمِّل سلوك أصحابي، ويعرفوا كمال الأدب مع الله عزَّ وجلَّ.

فقد بان لك أن العارفين لا يموتون كموت غيرهم، وإنما ينتقلون من دار إلىٰ دار،

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٦٦٠) ومسلم (٢٥٧١).

(٢) قولها: «ما رأيت أحدًا .... لسكرات» حديثان جمع بينهما المصنف ـ رحمه الله ـ الأول أخرجه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما رأيت أحدًا أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ». والثاني جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٤٤٩) أنه ﷺ جعل يدخل يديه في الماء فيسح بهما وجهه، يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات».

لعدم العلاقة التي لهم في الدنيا. ومعلوم أنه لا يتحارب الجسم والروح إلا إذا كان للنفس علاقة، لكن تارةً تكون العلاقة محمودة، وتارةً تكون مذمومة، وفي الحديث: «إن الله تعالىٰ قال للروح حين دخلت في الجسد: ادخلي كَرهًا، واخرجي كَرهًا»[١] أي ادخلي كَرهًا عليك، واخرجي كرهًا علىٰ الجسد، لأنه لولا الروح لكان عدمًا، **والوجود له لذة عظيمة بخلاف العدم**. ومن هنا خاف كلُّ عاقل من كلِّ شيء يؤذي بدنه من جرح أو ضرب مؤلم، لأنه قد يلحقه بالعدم، وأنشد أبو علي[٢] ابن سينا[٣] في مثل ذلك:

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقـاء ذات تـعـزز[٤] وتمنع
محجوبة عـن كـل مقلة ناظر ... وهـي التي سفرت ولـم تتبرقع
وصلت علىٰ كـره إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات توجع
أنفت وما رضيت فلما واصلت ... ألفت مـجاورة الـخراب البلقع
حتىٰ إذا قرب المسير من الحما ... وبـدا الرحيل إلىٰ المحل الأرفع
هجعت وقد كشف الغطا فأبصرت ... مـا ليس يـدرك بالعيون الهجع
فـكـأنهـا بـرق تـألـق بالحمىٰ ... ثـم انـطـوىٰ فـكـأنـه لـم يلمع

فاعلم ذلك، وأوِّل كلام الأكابر حسب الطاقة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقتل الخلق بحاله أو يعزلهم أو يُمْرِضهم أو يحوِّل عنهم النعمة، فلاث به بعض الفقراء وقالوا له: إن كنتَ فقيرًا صالـحًا، فانفع الخلق واحتمل

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) بالأصلين: محمد. والصواب ما أثبتناه.

(٣) الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي، الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب، والمنطق والطبيعيات والإلهيات. أصله من بلخ، ومولده في إحدىٰ قرىٰ بخارىٰ. ونشأ وتعلم في بخارىٰ. تقلد الوزارة في همذان، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته فتوارىٰ. ثم صار إلىٰ أصفهان، وصنف بها أكثر كتبه. له مصنفات منها: «الشفاء» و«المنطق» و«أسرار الحكمة المشرقية» وغيرها. وعاد في أواخر أيامه إلىٰ همذان، فمرض في الطريق، ومات بها سنة: ٤٢٨هـ. «الأعلام» (٢/ ٢٤١) و«هدية العارفين» (١/ ٣٠٨).

(٤) بالأصلين: تقنع. والمثبت من «العينية» لابن سينا.

أذاهم، فإن الرجل هو من ينفع الخلق لا من يضرهم، فيكون عليه الإثم في الدنيا والآخرة.

والجواب: أن العبد ولو ارتفعت درجته فهو في أسر التقدير الإلهي، فإن شاء الحقُّ تعالىٰ جعله قاضيًا، وإن شاء جعله جلَّادًا، لكن لا يجلد إلا من استحق، ولا يقتل إلا من استحق بالطريق الشرعيِّ، وإن خفي ذلك علىٰ المتشرِّع من طريق البينة، فهو يثاب علىٰ ذلك من طريق الباطن دون الظاهر، ولا ينقص له بذلك رأس مال.

قالوا: ومن علامته أنه يقتل الناس ويؤذيهم بحاله، ثم يحمي نفسه من متولي الحدود في الدنيا، فتيبس يد الجلاد مثلًا، أو يحصل للحاكم تأثير في جسده حتىٰ يصير يصيح ويطلب الموت من الضيق ونحو ذلك، فإن وقع له ذلك في الدنيا فهو دليل علىٰ عدم مؤاخذته علىٰ ذلك في الآخرة. انتهىٰ.

ورأيتُ في «الفتوحات المكية» في الباب التاسع والعشرين ومئة أن بأفريقية جماعة يقتلون بالهمة من شاؤوا، وذلك أن الهمة إذا اجتمعت أثَّرت في أجرام العالم وأحواله، ولا يصعب عليها شيء، لكن لا يقع ذلك إلا من صاحب حال، وأصحاب الأحوال ناقصون عند القوم، لأنهم ينظرون إلىٰ الخلق بعين الازدراء، والعارف لا يقدر علىٰ ذلك. انتهىٰ.

وقد أخبرني الشيخ أفضل الدين رحمه الله عن شيخه الشيخ بركات[1] الخياط[2] الذي دفن سيدي عليًّا الخواص في زوايته أنه مر عليه تاجر وهو جالس في باب زويلة بمصر، فقام وقبض علىٰ طوق التاجر وقال: يا مالي يا رحلي! سرقه هذا! فدخل به بيت الوالي، فقال للوالي: اضرب هذا مقارع وكسَّارات، وإن مات فأنا عوضه! فضرب الوالي التاجر مقارع حتىٰ كاد أن يهلكه، ثم نظر الشيخ محمد في وجه التاجر وقال للوالي: يا أمير، قد غلطتُ فيه!

---

(١) بالأصلين: محمد، والصواب ما أثبتناه.

(٢) الشيخ بركات الخياط كان مقيمًا بالدرب الأحمر، خارج باب زويلة، كان شيخًا صالحًا، له أبهة في الصدور، وعلىٰ وجهه مسحة من نور البدور، يرتزق من الخياطة ومما يفتح عليه ممن يأتي دكانه أو رباطه، ت ٩٢٣هـ، ودفن بزاويته، ودفن معه جماعة من الصلحاء منهم سيدي علي الخواص رحمه الله. الطبقات الكبرىٰ (٢/)، الكواكب السائرة (١/ ١٦٩).

ما هو هذا! فضربه الوالي بالخيزرانة، فخرج واضطجع وتوسد عتبة الوالي وقال: لا بد من عزله، فنزل [منشور][١] الباشاه[٢] بعزله بعد عشر دُرْج، فقام الشيخ، فقلتُ له: ما هذا الحال؟ فقال: إن التاجر ادعىٰ علىٰ شخص بالباطل، وضربه الوالي مقارع، فأخذتُ له تارَه[٣]. وأما عزل الوالي فإني رأيتُه يسكر، ومن كان يسكر فلا يصلح أن يكون حاكمًا. انتهىٰ.

[القتل بالهمة وقصة الحجر في بيت المؤلف لتأديب الناس، ولمقابلة الظالمين بالأذى][٤]

ولما كثر تخاصم الناس عندي واستحق بعضهم التأديب بالضرب أو الحبس أو الموت وأنا رجل متشرع، أرسل لي الشيخ العارف بالله تعالىٰ شعبان المجذوب[٥] المدفون قريبًا من سويقة اللبن حجرًا نحو ربع قنطار، وقال لي: علِّقه عندك في حائط، وكلُّ من كان مظلومًا فقل له: دقه علىٰ قلب من ظلمك، فإنه يمرض أو يموت، وإن رفقتَ بالظالم حين لم يرجع عن ظلمه، فقل: يا بَيْضَه اطول واكبر، فإن ذلك يقع له؛ فجربتُ ذلك فصح، فتركتُه وهو إلىٰ الآن عندي لا أعلِّقه إلا لمن أجمع الناس علىٰ ظلمه وآذاه للناس. وقد ضربه الفقراء مرة علىٰ قلب أمير، فمات من ليلته، وضربوه علىٰ قلب رجل آخر، فطلع في وجهه شيئًا يشبه الحبَّ الفرنجيَّ لكنه أسود، فمكث لا يخرج من بيته حياءً من الناس مدة شهر، ثم تاب فشفي من ذلك. وعندي في استعماله توقف، لعدم تحرير أمر ظلم من يستحق ذلك، وإنما عملتُ به لكثرة اعتقادي في الشيخ المذكور، فإن الحجر يصيب قلب الظالم ولو كان بيننا وبينه مسيرة ثلاثة أيام، فلولا أن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: الباباه.

(٣) كلمة عامية تعني الثأر.

(٤) عنوان علىٰ هامش المخطوط.

(٥) الشيخ الصالح المجذوب الصاحي شعبان، كان صاحب تصريف عظيم بمصر المحروسة إلىٰ أن مات، كان سيدي علي الخواص إذا شك في أمر يحدث في السنة أرسل إليه يستفهم منه، صحبه الشيخ الشعراني نحو خس وثلاثين سنة، ت سنة ٩٥٧هـ. الطبقات الكبرىٰ (٢/ ٨٢٧)، الكواكب الدرية (٣/ ٣٨٠).

الشيخ يعلم من الله عدم مؤاخذته علىٰ هذه الإشارة لما كان أشار بها، ولا كان مشَّىٰ له ما أراد، فإن الدق وقع عندي في حائط القاعة.

ومما وقع بحضرتي من الشيخ زين العابدين البلقيني أنني خرجت أنا وإياه لزيارة فقراء مصر، فمررنا علىٰ الشيخ محيي الدين[1] بجامع ابن طولون، فوقفنا علىٰ باب خلوته التي هي بجانب محراب الجامع، فناديناه فلم يخرج، فقلنا له: من عندك؟ فقال: نصرانيٌّ من جهة أمير. فقال الشيخ زين: يقدم مجالسة نصرانيٍّ علينا وقد جئناه من موضع بعيد! ثم ضرب بالحربة التي في عكازه في دعامة الجامع التي هي تجاه باب خلوة الشيخ محيي الدين، فقال: وعزة ربي دخلت في وركه الأيسر. ثم فارقناه، فما وصلنا إلىٰ مكاننا إلا ونقيبه جاء وأخبرنا أنه حصل له في وركه شيء ما كان إلا مات. فقلتُ له: أي الأوراك؟ فقال: الأيسر. وقد أرسل وراء الحكيم فوصف له حقنة، فمكثت رجله في صندوق خشب خمسين يومًا، فقلتُ للشيخ زين العابدين: الفقراء يجرحوا ويداووا![2] فقال: وعزة ربي ما فيها دواء! وبقي من أجله ثلاثة أيام! فكان الأمر كذلك، فقلتُ له: هو في ذمتك. فقال: أنا عبد مأمور. ثم قال لي وهو مبتسم: أنا ما طعنتُ إلا في دعامة الجامع.

فاعلم ذلك، وإياك وإقامة ميزان الشرع علىٰ أرباب الأحوال، فإنهم من قسم المجاذيب الذين لا تكليف عليهم، ولهم موازين بينهم وبين الله، فيؤثرون فينا ولا نقدر نؤثر فيهم، وإن شككتَ فجرِّب، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يجب علىٰ العبد الاستغفار من كلِّ ذنب فعله ما دام يتذكره، فإذا نسيه لم يجب عليه استغفار، لأن الله تعالىٰ حينئذٍ قد قبِل توبته؛ فلاث به بعض العلماء وقال: قد تكون التوبة مقبولة من الذنب، ولو لم يُمْحَ ذكره من قلب العبد.

---

(١) الشيخ الصالح يحيىٰ محيي الدين الذاكر بجامع ابن طولون بمصر، أحد أصحاب الشيخ تاج الدين الذاكر، كان معتزلًا عن الناس ذاكرًا خاشعًا عابدًا صائمًا ت سنة ٩٦٠هـ. «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٥٧).

(٢) كذا بالأصلين، وقد تركناها علىٰ ما هي عليه، وكذلك بعض الألفاظ الواردة في هذه الحكاية؛ لأن الغالب أنها محكية بالعامية قصدًا.

والجواب: بأن قبول التوبة يُعرَف بطريقين:

أحدهما أن يمحو الحقُّ تعالىٰ معرفة ذلك الذنب من قلب المذنب ومن الصحف السماوية، فلا يكون له وجود في ذهن العبد.

الطريق الثاني: أن يقبل توبة العبد ويبدل سيئاته في المعنىٰ لا في الكتابة، فيبقيها الله تعالىٰ في الصحف وفي الذهن، ليستغفر العبدُ ربَّه كلما تذكر ذنبه، ويحصل له ثواب من أُصيب في ماله أو ولده أو بدنه، بل مصيبة الدين أعظم، لكن لا يخفىٰ أن الثواب في الذنب إنما هو من جهة الرضا بالقدَر، لا من جهة اكتسابه للذنب، فإياك والغلط. فيحمل كلام هذا الشيخ علىٰ الطريق الأولىٰ. وقد ورد أن الله تعالىٰ يبعث بعض الأكابر من الأصفياء وخطيئته مكتوبة في كفه يسأل الله اللطف، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٧) ومما أجبتُ به عن العالم إذا رُمي بفاحشة مثلًا وقال: ما أنا بأول من رُمي بالبهتان والزور؛ فلاث به الفقراء وقالوا: كان يجب عليه السكوتُ ولا يجيب عن نفسه بشيء، حتىٰ يكون الحقُّ تعالىٰ هو الذي يبرئه عند الناس، وذلك لأن في هذا الكلام انتصارًا للنفس، وذلك مذموم.

والجواب: أن جواب العالم عن نفسه واجب، ولا يلزم منه طلب براءته عند الناس، بل ربما ازداد الناس فيه تهمةً بجوابه عن نفسه، امتحانًا من الله تعالىٰ له، ليشهد به علىٰ كذبه في دعواه الصبر أو الرضا عن الله تعالىٰ مثلًا، لاسيما إن كان خطيبًا أو واعظًا لا يرىٰ عيوب نفسه، فيبتليه الله تعالىٰ بتهمة، فيظهر له كذب نفسه أو صدقها. وتأمل يا أخي القاضي إذا اتُّهم بفساد جارية كيف يصير الناس كلُّهم يصدقونها ويكذبون القاضي، وأين عقل الجارية ومقامها من مقام القاضي وعقله؟!

وقد سُئل بعضُ العارفين عن سبب اكتتاب دم الحلاج حين قتلوه «الله الله» ولم يقع ذلك في دم الحسين بن علي[1] حين قُتل، مع أنه أفضل من الحلاج، فقال: المتهم يحتاج

(١) أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، الإمام، الشهيد، الشريف، الكامل، سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا، ومحبوبه. ولد في خامس شعبان، سنة: ٤هـ. واستشهد في يوم عاشوراء:

إلىٰ تزكية، أي لأن الحسين بن علي قُتِل من جهة الملك، والحلاج قُتِل من جهة الاتهام بالكفر، فكان دمه يشهد له بالبراءة من الشرك. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لولا قول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣] ما قال الملك: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ [يوسف: ٥٤]. ثم لا يخفىٰ أن محل السكوت ما إذا لم يترتب علىٰ الجواب مصلحةٌ ترجح علىٰ مصلحة السكوت، وإلا فالجواب عن نفسه أفضل، بل ربما كان واجبًا، كما إذا ترتب علىٰ ذلك حدٌّ أو تعزير. وأما حديث: «لو كنتُ مكان يوسف لأجبت الداعي»[1] فهو محمول علىٰ أن نبينا محمدًا ﷺ قاله تواضعًا مع أخيه يوسف عليه الصلاة والسلام، أي لو أني كنتُ مكان يوسف لسارعتُ إلىٰ براءة نفسي، ولم أتخلف عن السعي في براءتها، فهو من باب قوله ﷺ: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم»[2]. وإيضاح ذلك أن كلَّ داعٍ إلىٰ الله تعالىٰ يجب عليه السعي في براءة ساحته عند المرسَل إليهم حتىٰ يسمعوا له، فقصد السيد يوسف بتخلفه عن الحضور البراءة الكاملة، لأنه إذا حضر ربما كان الناس يراعونه ويبرئون ساحته مما رُمِي به، فكانت تبرئتهم له في غيبته أقوىٰ من قوله، وهو كلام نفيس.

وسمعنا سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: الحقُّ أن سكوت الإنسان إذا رُمي ببهتان وجوابه عن نفسه علىٰ حالين: فتارةً يكون الجواب أفضل إذا ترتب علىٰ السكوت مفسدة، وتارةً يكون السكوت أفضل، كما إذا لم يترتب عليه مفسدة، لاسيما إن كان في مقام الرياضة للنفس. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي مرَّ عليه أحد وهو يكلم امرأة في عطفة[3]، فقال للمارِّ: إنها ابنتي أو أختي أو أم زوجتي ونحوها من المحارم؛ فلاث

٦١هـ. «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٨٠) و«شذرات الذهب» (١/ ٢٧٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) العطفة: منعطف الطريق.

عيون الفقراء الصادقين وحضراتهم صباغة تُشقِي وتُسعِد بإذن الله تعالىٰ.

وقد خرج سيدي يوسف العجمي يومًا من الخلوة، فوقع بصره علىٰ كلب، فانقادت إليه كلاب مصر كلُّها حتىٰ إن مشىٰ مشوا، وإن وقف وقفوا، فضاقت عنهم أزقة مصر، فخرجوا إلىٰ الكيمان[1]، وصار الناس يعتقدون في ذلك الكلب، وبعضهم يقول: هذا من صالحي الجن! وصاروا يصنعون لهم الطعام، ويذبحون لهم البقر، فبلغ ذلك سيدي يوسف، فأرسل وراءه فحضر، فقال له: إخسأ؛ فأكلته الكلاب من ساعته، فقال: آه! لو أن تلك النظرة وقعت علىٰ آدمي، لكان صار إمامًا يُقتدَىٰ به! انتهىٰ.

ولُقِّب رسول الله ﷺ بـ«صبَّاغ» كما سمعتُ ذلك من الشيخ محمد الشربيني؛ لأنه يصبغ الأمة بنظرة [كما] في الخبر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩١) ومما أجبتُ به عن العالم أو الفقير الذي يسافر أخوه الحجاز، ولا يلاقيه من نحو بركة الحجاج مثلًا، ولا يخرج معه للتوديع إلىٰ خارج البلد، فلاث به أخوه وجماعته وقالوا: ما هكذا الإخوان! بأنه ربما قصد بذلك عدم تكليف أخيه بمثل ذلك إذا سافر الآخر الحجاز شفقةً عليه، ومحبةً له، لا إخلالًا بحقِّه، وإن كان ذلك ليس بعذر ظاهر.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يودِّع المسافر من باب داره ويقول: لا يُطلَب الخروج للتوديع، لأنه لا بد من مفارقته والرجوع عنه، بخلاف الخروج للقاء. وكان يلاقي من قدم من الحجاز بالحلو والخبز اللين من عرف ومن لم يعرف، ويتلثم بحيثُ لا يعرفه أحد حتىٰ يكافئه علىٰ ذلك.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي رحمه الله لا يخرج لملاقاة المريد من سفره إن علم منه أنه يصير يتفاخر بذلك علىٰ المريدين ويقول: عدم ملاقاتنا له أنفع له وأكثر رياضة لنفسه. فاعلم ذلك يا أخي، واشكر الله تعالىٰ علىٰ عدم ملاقاة أحد لك أكثر من شكرك عند ملاقاتهم لك بالطعام والثياب وغير ذلك، فإنهم حملوا عنك المنة.

---

(١) الكيمان: جمع كوم، وهو كلُّ ما اجتمع وارتفع له رأسٌ من تراب أو رمل أو حجارة أو قمح أو نحو ذلك.

فإن قال قائل: فإذا لاقوه وأسقطوا المنة عنه في الدنيا والآخرة؟ قلنا: ذلك أعظم من المنة في حق من له مروءة، فتأمل، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٢) ومما أجبتُ به عن الفقير أو طالب العلم إذا أذن له شيخه في أخذ العهد أو التدريس في العلم، وصار يسابق إلىٰ أخذ العهد أو التدريس من هو أقدم منه هجرة؛ فلاث الناس به وقالوا: إن فلانًا يبادر للرئاسة، وما هكذا كان الفقراء وطلبة العلم إذا أذن لهم أشياخهم، بل كان بعضهم يجيزه شيخه بالفتوىٰ والتدريس وأخذ العهد، فلا يفعل ذلك حتىٰ يموت شيخه وجميع أقران شيخه، حتىٰ إن الرُّوياني[1] مكث نحو عشرين سنة من حين إجازة شيخه لم يفتِ حتىٰ مات شيخه، فسأله إنسان في مسألة وهم في الجنازة، فقال: اصبر حتىٰ نواري شيخنا التراب.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ من يزاحم علىٰ التدريس وأخذ العهد علىٰ المريدين إذا كان أهلًا لذلك، فإن الله تعالىٰ مدح الذين يسارعون في الخيرات، والعلماءُ والمشايخُ كالتجار في السوق، فلهم مناغشة من يشتغل عليهم، كما يناغش التجار من يشتري منهم بطريقة الشرعي. ولأي شيء لا تحمل أنت العالم أو الشيخ علىٰ محبة الخير له ولطلبته بتلك المزاحمة والمسابقة دون حظ النفس؟! وتخلص أنت من الإثم، فإن الله لم يكلفنا أن نناقش الناس في سرائرهم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا زوج ابنته مثلًا، واستعار لها ثيابًا مذهبة أو محررة[2] بأجرة، فلاث الناس به وقالوا: بذل[3] [المال][4] في مثل هذا من

---

(١) القاضي العلامة فخر الإسلام شيخ الشافعية أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الروياني الطبري الشافعي. مولده: ٤١٥هـ. وتفقه ببخارىٰ مدة. وكان يقول: لو احترقت كتب الشافعي، لأمليتها من حفظي، وله مصنفات منها: «البحر» في المذهب، «حلية المؤمن»، «الكافي». قتله الإسماعيلية سنة: ٥٠١هـ. «السير» (١٩/ ٢٦٠)، «شذرات الذهب» (٦/ ٨).

(٢) أي مصنوعة من الحرير، أو تحتوي علىٰ خيوط الحرير.

(٣) بالأصلين: وزن. والصواب ما أثبتناه.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

باب السفه، لأنه إعانة علىٰ هوىٰ النفس، وقد قال ﷺ: «المتشبع بما لم ينل كلابس ثوبي زور»[(١)]، فكيف يساعد ابنته مثلاً علىٰ ما تأثم به، ويبذل علىٰ ذلك مالاً؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به بسبب ذلك، لأنه من باب تنزل الرجل الكامل لعقول الأطفال، وبذل المال في الشخشاخة[(٢)] والزمارة التي يلتهون بها عن النكد علىٰ أمهم، وإن كان ترك الاستعارة أولىٰ. ولم يزل السلف الصالح يستعيرون الحلي في الأعراس من غير نكير فيما بينهم، فالأدب التسليم للعالم والشيخ في مثل ذلك، لأنه في مقام الاجتهاد، وربما كانت له ضرورة في ذلك إن لم يفعله من غضب أم العروس عليه ونحو ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يستعمل بعض المريدين في العمل المرجوح، ويأمره بترك الأرجح، فلاث به الناس وقالوا: الشيخ من مرتبته أنه أمين علىٰ المريد، وليس له أن يستعمله إلا فيما كان أرقىٰ له.

والجواب: أن هذا الاعتراض جواب عن الشيخ! فربما رأىٰ أن ذلك الفعل المرجوح أرقىٰ له لما رأىٰ في الأرجح من الآفات، وذلك كمن رآه يزداد بالعلم كبرًا ونفسًا علىٰ الإخوان، فاستعمله في خدمة مطبخ الفقراء، أو كنس بيوت الخلاء ونحو ذلك. ولا يجوز حمل الشيخ علىٰ أنه ينهىٰ أحدًا عن الأفضل بغير ضرورة، لأن ذلك غش، والأشياخ بعيدون عن أن يقعوا في غش أحد، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ العالم الكبير الذي يعلِّم العلم لمن لا يعمل به، ولاث به بعض الصوفية وقالوا له: كيف تضع العلم عند من لا يعمل به، فيكون زاده إلىٰ النار؟ بأنه لا ينبغي الإنكار ولا اللوث بهذا العالم، فإن العلم نافعٌ علىٰ كلِّ حال، ولو لم ينفع صاحبه نفع غيره، وربما كان اللوث به دسيسة من إبليس قصد بها اضمحلال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الشخشاخة: الشخشيخة، وهي آلة موسقية يلعب بها الأطفال.

الشريعة، فلما عجز عن العالم أن يطيعه في ترك التعليم، وسوس لبعض المتصوفة بذلك في حجة النصح، فاحذر يا أخي من ذلك، وعلِّم العلم لكل من طلبه من المسلمين، إحسانًا للظن بالطالب.

وقد كان سفيان بن عُيينَة يقول: طلبنا العلم لغير الله، فأبىٰ أن يكون إلا لله، أي لأنه كله يدعو صاحبه إلىٰ الإخلاص، فيغلب عسكر الإخلاص علىٰ عسكر الرياء، ولو لم يكن من نفع العلم إلا أن يهدي صاحبه إلىٰ التوبة إذا وقع في ذنب، ويأمره بعدم الإصرار، لكان فيه كفاية في الحث علىٰ تعليمه وتعلمه. وقد تقدم عن سيدي عليٍّ الخواص أنه كان يقول: لا يُشترَط في تسمية العالم عاملًا بعلمه أن لا يقع في معصية أصلًا كما قد يتبادر إلىٰ الأذهان، وإنما المراد بكونه عاملًا بعلمه كونه لا يصر علىٰ ذنب إذا وقع فيه، فإذا تاب ولم يصر فهو عامل بعلمه معدود من العلماء العاملين. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي يأكل في بيته الطعام الدسم من اللحم الضاني والدجاج السمان والماوردية بقطر النبات، ويعمل لطلبته أو تلامذته الطعام العدس القليل الدسم الذي لا يسمن صاحبه ولا يعطيه قوة، فلاث به بعض طلبة العلم والتلامذة وقالوا: هذا نقص في مقام العالم والشيخ، لأنه مأمور أن يطعم أهله مما يأكل من الطعام اللذيذ الدسم، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢]، **حتىٰ كان عبد الله بن عمر يتصدق كثيرًا بالسكر ويقول: إني أحبه.**

والجواب: أن العالم أو الشيخ لا يجهل ما قلتَه أيها المعترض، ولكن ربما فعل ذلك رحمةً بطلبته وتلامذته، لعلمه بعجزهم عن القيام بشكره، لما هم عليه من الكسل، فقال في نفسه: أنا أحملُ عن طلبتي حساب ذلك الطعام اللذيذ يوم القيامة؛ فأكل اللذيذ بذلك القصد لا شحًّا في النفس، فإن ذلك بعيد عن العلماء والأشياخ، وربما كُشِفَ للشيخ أن ذلك الطعام اللذيذ هو الذي قسمه الله له، وذلك العدس القليل الدسم مثلًا هو الذي قسمه الله لتلامذته، فلم يعزم عليهم بشيء، لعلمه بأنهم لا رزق لهم فيه. ويقاس بذلك من يلبس الثياب الفاخرة، ويلبس إخوانه الثياب الخَلِقة، فمثل هذا لبس الثياب الفاخرة

علىٰ بصيرة [وألبس غيره الثياب الخَلِقة علىٰ بصيرة، وأطعم غيره رزقه علىٰ بصيرة][1]، فلا ينبغي الاعتراض عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا وقع الأعداء في عرضه وصار يقول: ردوا فلانًا عني، فإنه آذاني وشغلني عن الله عزَّ وجلَّ؛ فلاث به الفقراء وقالوا: كيف يزعم هذا أنه من العارفين وهو لا يكتفي بعلم الله تعالىٰ فيه؟!

والجواب: أنه ربما كان لا يتأثر بكلام الناس فيه، ويقدر علىٰ تحمل أضعاف ذلك، ولكنه خاف من فتنة التحمل، وهي كثرة ثناء الناس عليه بكثرة تحمله الأذىٰ، وقولهم: شيء لله المدد! وهؤلاء هم الصالحون! فقصد بإظهاره الضجر سترته بين العباد وعدم تميزه عنهم.

وقد كان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: حكم الخلق إذا قاموا علىٰ العارف بالأذىٰ والتنقيص طلبًا لتأثره بذلك حكم ناموسة نفخت علىٰ جبل تريد إزالته عن مكانه بنفختها. فاعلم ذلك، واحمل أشياخ الطريق علىٰ أحسن المحامل، ولا تقس حالهم علىٰ حالك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يثني علىٰ أعدائه إذا آذوه، ولاث الناس به وقالوا: النفس تكره من يؤذيها بالطبع ولا تثني عليه إلا لعلة، وهذا الشيخ يعرف طرق الأذىٰ مليح[2]، والذي عندنا أنه إنما يثني علىٰ أعدائه طلبًا لنسبته للصلاح وقيام الجاه في قلوب الناس.

والجواب: أنه ربما كان بمعزل عما ظنه هؤلاء فيه، وإنما قصده بذلك كف الأعداء عن وقوعهم في الإثم رحمةً بهم، فإنهم إذا بلغهم كثرة ثنائه عليهم، استحيوا منه ضرورةً، وندموا علىٰ ما كانوا فعلوا به من الأذىٰ. ولا يجوز حمله علىٰ أنه يثني عليهم لحظ

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) كذا بالأصلين، وتركناها علىٰ ما هي عليه لاحتمال أنها محكية عن العامية.

نفس، فإن ذلك لا يجوز ظنه في الأشياخ، كما لا يجوز حمل عدوه علىٰ أنه قصد بتنقيصه احتقار الناس له بذلك، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه قصد بذلك تحذيره مما لعله يقع فيه في المستقبل، ليفتح له باب الحذر منه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٩) ومما أجبتُ به عن العارف إذا جادله فقيه متصوف بغير علم، فسكت ولم يجبه، فلاث الفقراء به وقالوا: كان الواجب علىٰ العارف رد هذا المتصوف للصواب، بأنه ربما تفرَّس فيه عدم الرجوع، وأنه ليس بأهل للترقي، فاختصر الكلام معه رحمةً بنفسه وبذلك المتصوف.

وقد سمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إياكم ومجادلة الفقيه الذي يدعي التصوف بمطالعته كتب الصوفية من غير شيخ، فإنه يتعبكم من غير فائدة، فإنكم إن بحثتُم معه في الشريعة عدل إلىٰ الحقيقة وبالعكس، بخلاف الفقيه الجامد علىٰ ظاهر الشريعة ولا دعوىٰ عنده. انتهىٰ.

وقد كان أخي أفضل الدين إذا جادله فقيه في مسألة يقول له: قد رأيتُ كلامًا لبعض أهل الطريق وهو كذا وكذا مما فيه جوابه، فأيش تقولون فيه؟ فإن قال: كلام مليح، نقله له، وإن قال: هذا خارج عن الشريعة، كفَّ عن ذكره له، وشكره علىٰ قوله: هذا خارج عن الشريعة، أي عند ذلك الفقيه، ثم يقول له: الشريعة نور، ولولا علماؤها لكان الناس كالبهائم، فالحمد لله الذي مَنَّ علىٰ المسلمين بمثلكم في هذا الزمان. ويقول: يحتاج من يبحث مع المتصوف بالدعوىٰ إلىٰ سياسة تامة. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: الحقيقة لا تخالف الشريعة؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقال له: قد تخالفها، كما إذا حكم الحاكم ببينة زور، فإن في هذه الحالة يخالف الشريعة ما في نفس الأمر.

والجواب: أنه يُحمل كلام هذا الشيخ علىٰ الشريعة التي حكم الحاكم فيها ببينة عادلة لا بينة زور، لكن لا يخفىٰ أن محل هذا الكلام ما إذا لم يتبين الزور، فإن تبين فما

ذلك الحكم بشريعة حتىٰ يقرن بها الحقيقة.

وأما قول الإمام أبي حنيفة ﷺ: «إن حكم الحاكم ينفذ ظاهرًا وباطنًا» يعني في الدنيا والآخرة، أي ولو كان بينة زور في نفس الأمر، فإنما قال ذلك إجلالًا لمنصب الشريعة وحكّامها، وقد يمشّي الله تعالىٰ ذلك للحاكم في الآخرة، كما يمشّي شهادة الزور هناك لبعض الصالحين إذا شهدوا بالخير فيمن كان فاسقًا، كما ورد في الحديث أن رجلًا مات، فشهد الناس كلهم فيه بالسوء إلا أبا بكر، فإنه شهد فيه بالخير، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ: «[إن] الذين شهدوا فيه بالسوء لصادقون، ولكن الله أجاز شهادة أبي بكر تكرمة له»[1]، فمثل هذه الشهادة في معنىٰ الزور، لكن صاحبها غير آثم، لأنه ما شهد بالخير في أهل السوء إلا لحسن ظنه بهم، فما هو زور حقيقة، **وإذا صح كلام العالم علىٰ محمل حسن وجب المصير إليه.**

وأيضًا فإن الإمام أبا حنيفة من أعظم المجتهدين، فيعلم من أسرار الشريعة ما لا نعلم، فقولهم: «حقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا حقيقة عاطلة» علىٰ قول هذا الإمام كفرض المحال، لعدم انفكاك الشريعة عن الحقيقة وعكسه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أسمع كلام ملك الإلهام، أو أرىٰ شخصه إذا جاء؛ فلاث به الناس وقالوا: سماع كلام الملَك إنما يكون للأنبياء، وكذلك رؤية شخصه.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ، لأن الممنوع إنما هي رؤية الولي للملَك حال إلقائه عليه أمرًا من الأمور، لأن ذلك من خصائص الرسالة والنبوة. وأما الولي فإن رأىٰ شخص الملَك لا يكلمه، وإن كلّمه لا يرىٰ شخصه، **فلا يجمع بين رؤية شخص الملَك وسماع كلامه إلا نبي**، وذلك لأن الولي يدعو الناس إلىٰ شرع مقرر ثابت، فلا يحتاج إلىٰ مزيد تأييد؛ لأنه لو أتىٰ بشيء من طريق الإلهام يخالف ظاهر الشريعة، رددناه عليه، بخلاف النبي الذي أُرسِل، فإنه يحتاج إلىٰ مزيد تأييد، لكونه يريد ينسخ

(١) ذكره الإمام الشعراني في «لواقح الأنوار القدسية في العهود المحمدية» وعزاه للإمام سُنيد في التفسير (٢/ ٢٢٦).

برسالته شرعًا مقررًا لمن قبله. وقد يخرق الله تعالىٰ العادة للولي، فيجمع بين رؤية الملك وسماع كلامه، وبه قال بعضهم، ولكن الجمهور علىٰ خلافه[1]، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أسمع تسبيح الريح بصوت جهوري، وكذلك سائر الجمادات؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر ما سمعنا به.

والجواب: أن الله تعالىٰ قد يكشف لبعض أوليائه عن ذلك، وليس الممنوع إلا فهم كلام الجمادات، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فما بقي إلا الفهم لا السماع. وقد قدمنا عن الغزالي أن كلام الجماد أمر غريب[2]، لأنه ليس بعربي ولا عجمي، فراجعه قبل هذا المحل بنحو ثلاثة أوراق، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: لا يجامع أحدكم زوجته إلا بعد أن يستأذن الحقَّ جلَّ وعلا في ذلك، فيقول: دستور يا الله أجامع زوجتي؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: هذه بدعة! ولم يبلغنا عن أحد من السلف أنه فعل ذلك، بل اكتفوا في مثل ذلك بالإذن العام من الشارع ﷺ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في أمره أصحابه بهذا الأمر، وإن كان ذلك بدعة، فكم من بدعة حسنة. وقد قال العلماء: إن للمتوضيء أن ينوي عند كل عضو الوضوءَ وإن شملتها النيةُ الأولىٰ عند غسل الوجه. وهذا الأمر لا ينبغي التوقف فيه، لأنه مما تقبله الشريعة ولا تأباه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: يتأكد علىٰ العبد إذا كان في عبادة غير واجبة وأراد الجماع بنية صالحة كإعفاف نفسه أو إعفاف زوجته أو طلب ولد صالح أن يقول: دستور يا الله أترك ما أنا فيه لأفعل كذا وكذا، بخلاف ما إذا ترك العبادة للجماع

---

(١) نقل الإمام في الجواب (١٧٨) الإجماع علىٰ عدم جواز الجمع بين رؤية الملك وسماع كلامه لغير نبي. وما قاله مشعر بالمخالفة لما نقله هناك.

(٢) انظر الجواب (٧٨٣).

بلا نية صالحة، بل لمجرد اللذة، فإنه لا ينبغي الاستئذان فيه، لأن ذلك مما فيه رائحة الذم والنهي من حيثُ إنه داخل في اتباع الشهوات.

وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: «يا داود، حذِّر وأنذر قومك أكل الشهوات، فإن قلوب أهل الشهوات عني محجوبة، وإن أهون ما أنا صانع بالعبد إذا آثر شهوته علىٰ طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي». انتهىٰ.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: لا ينبغي استئذان الحق تعالىٰ إلا في فعل الأمور المحمودة. أما المذمومة فلا ينبغي استئذانه فيها، لأن الحق تعالىٰ لا ينهىٰ عن شيء علىٰ لسان رسول الله ﷺ، ولا قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[1] [إلا وقد منع الإذن فيها][2]. انتهىٰ.

وقد وقع لي أنني كنتُ في صلاة التهجد، فخطر في بالي الجماع، فقلتُ في نفسي: اقضي وطركِ منه، ليفرغ قلبك للصلاة من غير التفات بقلبك إلىٰ أمر آخر؛ فقطعتُ النافلة، أعني سلمتُ من ركعتين، وتركتُ بقية التهجد، وأتيتُ عيالي، فعوقبتُ بحرمان لذة المناجاة في جميع العبادات مدة أربعين يومًا. فاعلم ذلك يا أخي، **ولا تعترض علىٰ شيء فيه أدب مع الله تعالىٰ أبدًا وإن لم يرد، فإن الأدب تقبله الشرائع كلُّها ولا ترده.**

وقد تقدم نظير ما قلناه هنا من استئذان الحق تعالىٰ في مد الرجل بغير ضرورة، واستئذانه في كلام اللغو وإن كان ذلك مباحًا بنص الشرع، ومعاتبة إبراهيم بن أدهم حين مد رجله، وقول الهاتف له: يا إبراهيم ما هكذا مجالسة الملوك[3]. وقد بلغنا أنه كان يستأذن الحق تعالىٰ كلما أراد النوم ويقول: يا رب، دستور أنام بين يديك، فإن جسمي قد تعب، وأنت غني عن عبادتي، ولم أترك العبادة استهانةً بها، ثم ينام ﵁، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٤٢) وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر الجواب (٣٢٢).

(٨٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدخل في النظر على الأوقاف أو العالم الكبير، ولاث الناس به وقالوا: هذا لا ينبغي للعلماء وأهل الطريق أن يدخلوا فيه، لتحكيم الولاة في كل من يدخل في أمور الدنيا، والإرسال وراءه لعمل الحساب والتفتيش عليه، ومنصب العلماء والصالحين ينبغي صيانته عن مثل ذلك، بأنه قد يكون ممن أقدره الله تعالىٰ علىٰ تخليص دفع الوقف وصرفه إلىٰ أربابه من غير أن يأخذ لنفسه منه الدرهم الفرد، أو ممن أقدره الله تعالىٰ علىٰ إرشاد تلامذته وتسليكهم مع مطالبته بحقوقهم.

ويحمل قول من قال: «لا ينبغي للشيخ أن يجعل نفسه ناظرًا» علىٰ وقف زاويته، لأن المريدين يصيرون يطلبون الدنيا والآخرة من محل واحد، وذلك متعذر علىٰ الشيخ الذي ليس له حال ولا تصريف.

وقد أخبرني سيدي علي المرصفي ﵀ بأنه لم يسكن في زاويته التي دُفِنَ فيها إلا بعد أن فتش فلم يجد لها وقفًا، وقال: كلُّ موضع كان فيه وقف علىٰ الفقراء لا ينبغي لشيخهم أن يسكن بهم فيه، لكونهم يقل نفعهم به من حيثُ طلبُهم منه الدنيا، والشيخ من شأنه منعهم منها ومن جميع شهواتهم، فربما رأىٰ أن ترك الفقير معلومه[1] أولىٰ، ورأىٰ الفقير أن أخذه أولىٰ، فيصير الفقير يحارب شيخه بباطنه أو بلسانه، ولذلك لم يقبل سيدي يوسف العجمي ﵁ من الولاة ولا غيرهم وقفًا علىٰ زاويته، وأمرهم بسؤال الناس كلما جاءوا وقال: إنه أخف ضررًا من الاعتماد علىٰ المعلوم.

ومكث الشيخ شهاب الدين المرحومي[2] عند سيدي الشيخ مدين سبعة عشر سنة لم يأكل للشيخ طعامًا ولا شرب عنده ماء، وقال: لا أشرك في قصدي للشيخ غرضًا آخر

---

(١) المعلوم: الراتب المقرر صرفه من الوقف.

(٢) الشيخ شهاب الدين المرحومي ﵁ أحد أصحاب سيدي مدين ﵁. وكان من أكابر الورعين. مكث ﵁ عند سيدي مدين إلىٰ أن توفي سيدي مدين. لم يذق لزاويته طعامًا ولا شرب منها ماءً، وكان يقول: لا أشرك في محبة شيخي أمرًا آخر، فأقيم عنده لعلة من العلل. وكان يأكل ويشرب من السوق. لم يتيسر لنا الوقوف علىٰ وفاته انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٣٧٠).

من أغراض النفس. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العالم أو الشيخ إذا دخل في نظر مسجد، وصار يحاسب الجباة وغيرهم، فإن الدنيا لا تضرُّ الأشياخ، وإنما تضر التلامذة، لميلهم إليها بالطبع، بخلاف الأشياخ، فإنهم خرجوا عن محبتها بالطبع إلىٰ محبتها بتحبيب الله تعالىٰ الدنيا لهم، لمصالح تعود عليهم وعلىٰ الناس في الدنيا والآخرة.

وكان الشيخ سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ [طه: ١٧- ١٨] الآية كذلك يقال للولي من باب الإشارة لا التفسير: وما تلك بيمينك أيها الولي؟ فيقول: هي دنياي أنفق منها علىٰ نفسي وعيالي وإخواني، فيُقال له: ألقها، فيلقها فيراها حية تسعىٰ، فيُقال له حينئذٍ: خذها ولا تخف حيث علمت أنها حية، فكما ألقاها الولي أولًا بإذن، كذلك أخذها ثانيًا بإذن، وكلُّ شيء كان بإذن من الحق، فلا لوم علىٰ فاعله. فتأمل ذلك، واحمل العالم أو الشيخ إذ دخلا في أمور الدنيا علىٰ أن ذلك بالإذن، وأن للشيخ القدرة علىٰ أن يعطي الدنيا والآخرة لمريده من باب واحد، ولا يؤثر ذلك نقصًا في محبة المريد لشيخه، ولا يقطعه عن السلوك، ولا تدخل بين الناس ومقاصدهم، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يعترف بأنه من أهل الطريق، وربما حلف أنه ليس من أهلها، ثم إنه يأخذ العهد علىٰ المريدين ويلقنهم الذكر ويربيهم، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا علامة علىٰ دعواه أنه من أهل الطريق، وإذا كان من أهل الطريق، فكيف ينكر ذلك ويحلف بالله عليه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار عليه، لاحتمال أن يريد أنه ليس من الصادقين المحققين فيها، وإنما هو من المتشبهين بأهلها. ولم يزل السلف الصالح علىٰ ذلك حتىٰ كان الفضيل بن عياض يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ منافق مُراءٍ فلينظر إليَّ. وكان مالك بن دينار يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ من أفعاله أفعال أهل النار فلينظر إليَّ. انتهىٰ.

وقد جاء شخص إلىٰ سيدي عبد الحليم بن مصلح وأنا جالس عنده، فقال: يا سيدي، أريد منك أن تتوبني عن الذنوب، فقال: يا أخي النجاسة لا تطهِّر غيرها. انتهىٰ.

وكان شيخنا الشيخ محمد الشناوي إذا لقَّن أحدًا يقول له: يا ولدي، لسنا من أهل الطريق، وإنما نحن متشبهون بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمشبهين، ست مرات، يعني من عهد الجنيد إلىٰ وقته، فاعلم ذلك يا أخي، وخذ عن الأشياخ ولو نفوا نفوسهم من الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: من أحب الخير للناس كلهم فهو جاهل؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف يكون طالب الخير للناس جاهلًا؟ وقد قال ﷺ: «لا يكمل إيمان عبد حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] يعني من الخير كما في رواية أخرىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فلعله يريد أن من طلب جعل الناس كلهم سعداء فهو جاهل، لأنه طلب تغيير القسمة الإلهية، فإنه تعالىٰ ما سبق في علمه إلا أن يكون الناس قسمين: شقي وسعيد، فالكامل من يطلب من الله تعالىٰ الحكمة في ذلك، وقد قال تعالىٰ لنبينا محمد ﷺ حين طلب أن يكون الناس كلهم مؤمنين: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إنما طلب رسول الله ﷺ أن يكون الناس كلهم مؤمنين من باب حضرة الإطلاق التي يفعل الحقُّ منها ما يشاء، وإلا فهو ﷺ يعلم أن الله تعالىٰ قد قسم العباد إلىٰ شقي وسعيد، أو أنه المخاطب والمراد به غيره، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥] انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: للرحمة حدٌّ لا تتعداه، ولكن إذا غمر الله تعالىٰ عبدًا في الرحمة، صار يود للناس كلِّهم الجنة، ويتوارىٰ عنه أهل النار. فثم مقام رفيع ومقام أرفع، فالكامل من عثر علىٰ حكمة قسمة العباد إلىٰ شقي وسعيد، ورأىٰ

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

ذلك أكمل من جعلهم كلهم سعداء، فإن الله تعالىٰ أرحم بهم من والديهم كما ورد في الصحيح[1]، ومع ذلك فهو الذي يدخلهم النار. وهنا أسرار يذوقها أهل الله سوف تنكشف للناس في الآخرة لا تسطر في كتاب، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ يقول: ترك الدعوىٰ أقبح من الدعوىٰ، وترك الكبر أقبح من الكبر، والتوبة أقبح من ترك التوبة، والزهد في الدنيا أقبح من الرغبة فيها، وذكر أشياء كثيرة من نحو ذلك؛ فلاث به الناس وقالوا: في هذا مخالفة للشريعة، لأنه جعل ما مدحته الشريعة مذمومًا.

والجواب: أن مثل الأشياخ لا يجهل ما ذكر، وإنما أراد أن ذلك أقبح من حيثُ الأثرُ المرتِبُ علىٰ ذلك، فإن الناس يعظِّمون العالم أو الشيخ إذا ترك الدعوىٰ أكثرَ مما يعظِّمون المدعي، ويعظِّمون من ترك الكبر أكثر مما يعظِّمون المتكبر، ويعظِّمون من يقول: إنه مذنب كثير الخطأ لم تصح له توبة أكثر ممن يقول: أنا تائب من سائر الذنوب لا أعلم لي ذنبًا واحدًا، ويعظِّمون الزاهد في الدنيا أكثر مما يعظِّمون من أظهر الرغبة فيها وهكذا، فمراد الشيخ أن هذه الأمور وأشباهها أعظم آفات من أضدادها.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: من شأن الكُمَّل أن يخافوا من ترك الدعوىٰ أكثر من الدعوىٰ، ومن الزهد في الدنيا أكثر من الرغبة فيها، ومن الطاعات أكثر من المعاصي، وذلك لأن آفات هذه الأمور خفية لا يكاد يدركها كلُّ أحد، وربما استلذت بها النفس، فلا يكاد صاحبها يقدر علىٰ إخراجها منها. مثال ذلك ما إذا سمع الشيخ الناس يقولون: فلان من أعظم مشايخ مصر الآن، ومع لك فلا نسمعه قط يدعي مشيخةً كما يقع من غيره، والناس غافلون عنه، فإنه ربما استلذ بذلك أكثر مما يستلذ

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٩٩٩) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ: «قدم علىٰ النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأةٌ من السبي قد تحلب ثديها تَسقِي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحةً ولدها في النار. قلنا: لا، وهي تقدر علىٰ أن لا تطرحه، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها» ومسلم (٢٧٥٤).

بقولهم فلان يحب المشيخة. انتهىٰ.

ومن هنا كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: الهالك من القوم أكثر من الناجي، أي لدقة أسباب الهلاك التي في عباداتهم. وكان يقول: إن لم يخف العبد أن الله يعذبه علىٰ أحسن طاعاته فهو هالك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير في قوله: علامة غش هؤلاء الصوفية كثرة أتباعهم؛ فلاث به الفقراء وقالوا: كيف ذلك ورسول الله ﷺ أكثر الأنبياء تبعًا، وكذلك أكابر أمته، فقد بلغنا أنه كان في رواق أبي القاسم الجنيد ثمانون ألفًا، وفي رواق سيدي أحمد ابن الرفاعي خمسة عشر ألفًا من المريدين، وكان عند سيدي عبد القادر الجيلي ثلاثون ألفًا، وكان عند سيدي عمر[1] شيخ الشيخ دمرداش ثلاثون ألفًا.

والجواب: أن مراد الشيخ والله أعلم بما قال إنما هو في حق من لا قدم له في الطريق من الفقراء المتمشيخين بأنفسهم ممن جلسوا للمشيخة من غير إذن من أشياخهم، فإن مثل هؤلاء لا يعرفون طرق السياسة التي يدخلون بها إلىٰ هداية الناس من طريق مخالفة نفوسهم، فيصير أحدهم يطيع المريد في هوىٰ نفسه، ويكتفي أحدهم بلبس الصوف وإرخاء العذبة ونحو ذلك من المراسم الظاهرة، فإن مثل هذا لو أمر الفقراء الذين حوله بما يخالف أهويتهم لفروا منه، ولم يبق معه إلا القليل.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: أجمع أهل الطريق علىٰ أن من لم يكن عنده سياسة الملوك وحكمة الحكماء وعلم العلماء لا يصلح للطريق، وما يفسده أكثر مما يصلحه. وسمعتُه مرة يقول: كلُّ شيخ لم تضمحل جميع رعونات نفسه فهو لا يصلح للطريق، لأن مثل هذا إنما يطلب هداية الناس علىٰ يديه، ليصير له الرئاسة

---

(١) عمر الروشني، شيخ طريق العصابة الخلوتية علىٰ الإطلاق، قصد للأخذ عنه من جميع الآفاق. وأصله من توريز العجم، وبها نشأ واشتهر ذكره، وبعد صيته، ورحل إليه من مصر للأخذ عنه الشيخ دمرداش وغيره، وعمت بركته، وعظمت منزلته، وكثرت أتباعه جدًا، وكراماته كثيرة، ومناقبه شهيرة، مات في القرن التاسع. «الكواكب الدرية» (٣/ ٢١٨).

عليهم. قال: ومحك الصدق في ذلك أن لا يكون ميله إلىٰ من يتلمذ له أكثر من ميله إلىٰ تلامذة غيره، فمتىٰ رجح ميله إلىٰ تلميذه أكثر من تلميذ أحد من أقرانه فهو قائم في حظ نفسه لا في نصرة دين الله، وليس عنده من الصدق رائحة. وسمعتُه أيضًا يقول: متىٰ شهد الشيخ أنه أحسن حالًا من تلميذه، فقد خرج عن طريق القوم. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي الشيخ أبا السعود الجارحي ﷺ يقول: كلُّ أصحابي أحسن حالًا مني. فقالوا له: كيف؟ فقال: لأنهم يروني أعلىٰ مقامًا منهم، ويقبِّلون يدي وأنا لا أفعل معهم ذلك. وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ربما يغش الفقير إخوانه ولا ينصحهم خوفًا أن يفروا عنه، وتقول له نفسه: إنما تفعل معهم ذلك جريًا علىٰ هدىٰ السلف الصالح من الرفق بالمريدين وعدم مطالبتهم بالمشي علىٰ قدم التلامذة الذين سبقوا، وذلك تلبيس من النفس والشيطان. فانصح يا أخي إخوانك وشدد، وهيهات أن يصل أحدهم إلىٰ مقام الكسالىٰ من التلامذة! وفي الحديث: «ما قل وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ»[1]، فإذا صح مع الشيخ واحد صادق كان أولىٰ من ألف لا قدم لهم في الطريق. وسمعته يقول: قد صارت القلوب متخرقة في هذا الزمان، وقل مدد الأشياخ حتىٰ لا يكاد يفيض عن[2] أحدهم مدد يأخذه غيره، ثم بتقدير أنه يفيض فلا يجد وعاء يضعه فيه من قلوب المريدين، وربما أعطىٰ الشيخ المريد مددًا، ثم خرج من عند شيخه، فسقط كله في الطريق، فلم يصل معه شيء منه إلىٰ بيته.

ورأيتُ شخصًا أتىٰ إليه وقال: يا سيدي، قد أذن لي شيخي أني أجلس لإرشاد الناس وجمع نظامهم علىٰ الخير. فقال له: يا ولدي، إن كنت تقدر تقطر جمال الحجاج[3] إذا رجعوا من مكة وأشرفوا علىٰ رؤية أوطانهم، فأنت تقدر علىٰ جمع نظام الناس اليوم

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (٢١٧٢١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٨٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣٦٦٢)، والطبراني في «الأوسط»(٢٨٩١).

(٢) بالأصلين: علىٰ.

(٣) أي جعلهم يسيرون علىٰ هيئة قطار.

علىٰ الخير. وسمعتُه مرة أخرىٰ يقول: حكم من يريد جمع الناس اليوم علىٰ خير حكم الفقيه إذا فتح المكتب بعد آذان الظهر يوم الخميس ليقريء الأطفال، فإن أهلهم لو أكرهوهم علىٰ الجلوس في المكتب فما مع الفقيه إلا أجسامهم، وأما قلوبهم فلا يقدر علىٰ جمعها أبدًا، بل تنفلت من يده إلىٰ اللعب والبطالة. انتهىٰ.

وقد كان الشيخ نور الدين الحسني يلقن المريدين ويأخذ عليهم العهد، فسمع يومًا قائلًا يقول: يا قفة شيوخ بعثماني؛ فأخذته غيرة وترك التلقين من ذلك اليوم، وكان معه خشب الشيوخ التي يسرح النساء بها الكتان. فعُلِمَ مما قررناه صحة كلام هذا العالم الذي قال: من علامة غش الشيخ كثرة أتباعه، وأن الشيخ الصادق عزيز في كل زمان، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي نصحه إنسان أو دعا له بالتوبة، فصار يقول: ما دريتم ما جرىٰ لنا اليوم مع فلان؟! جاء لنا فنصحنا، فشكرنا فعله وأوهمناه أننا كنا محتاجين إلىٰ نصحه، خوفًا أن يخجل إذا قلنا له: إن مثلنا لا يحتاج إلىٰ نصحك ونحو ذلك من الألفاظ؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ من هذا الشيخ، بل هو محتاج إلىٰ من ينصحه ويدعو له بالتوبة، قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، فلم يجعل مؤمنًا يستغنىٰ عن التوبة.

والجواب: أنه قد يكون هذا الشيخ كُشِفَ له عن ذلك الأمر الذي نصحه ذلك الشخص لأجله أنه لم يقدره الله تعالىٰ عليه، بأن كان ممن ينظر في اللوح المحفوظ الذي هو الإمام المبين، قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقد أدركتُ أنا من رجال هذا المقام سيدي عليًّا الخواص والشيخ عليًّا أبا خوذة والشيخ محمد الشربيني وجماعة، كان أحدهم إذا أخبر عن شيء من الأمور المستقبلة لا بد أن يقع الأمر كما قال.

وقد وقع لي أنني دخلتُ أنا وأخي أفضل الدين علىٰ شيخ، فدعا له أخي المذكور بأن الله تعالىٰ يتوب عليه ولا يخسف به الأرض، فتمعر وجهه ووجه أصحابه، وصار يقول:

قد جاءنا فلان ودعا لنا بالتوبة كأنه رآنا علىٰ ذنب. انتهىٰ. فأقسم عليَّ أخي المذكور بالله أنني لا أعود أزور مثل هذا، وقال: أين هذا من قول الحسن البصري: لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، لقلت له: صدقت لا تكفِّر عن يمينك؟! أو من قوله: كيف يرجو أحدنا النجاة من النار وجميع أعماله تجره إلىٰ النار؟! انتهىٰ، فاعلم ذلك، وعظِّم الصادقين، واستغفر للكذَّابين، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٠) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا كان جالسًا علىٰ سجادة أو مُضَرَّبة، فدخل عليه شخص من تلامذة أحد من أقرانه، وزاحمه علىٰ الجلوس علىٰ السجادة بحضرة الملأ من الناس، حتىٰ رماه علىٰ جنبه ولكمه وهدَّ عمامته، فتغير الشيخ لأجل ذلك، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا من علامات بقاء رعونات نفسه، ومن كان كذلك فلا يصلح أن يكون شيخًا، وقد كان الإمام عليُّ بن أبي طالب ﷺ يقول: إن أردتَ أن تعرف كمال عقل شخص، فزاحمه علىٰ الجلوس علىٰ تكرمته وزحزحه عنها، واجلس أنت عليها، فإن تغير منه شعرة فهو ناقص العقل. انتهىٰ، أي وناقص العقل لا يصلح أن يكون داعيًا إلىٰ الله.

والجواب: بأنه لا يلزم من تغيره أن يكون ذلك من الكبر، فقد يكون إنما تكدَّر بسبب ذلك الذي زاحمه خوفًا عليه من مقت الحق تعالىٰ له بسوء أدبه، لا من جهة قلة أدبه معه، بقطع النظر عن الخوف عليه من المقت، فإن منصب الأشياخ يجل عن التكدر لحظوظ نفوسهم المذمومة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال للواعظ: إياك أن تبين للناس جميع أمور دينهم، فتخطيء طريق الشريعة؛ فلاث به بعض طلبة العلم فقال: كأن هذا الشيخ يأمر الواعظ بأن يغش الناس، وذلك جهل، فإن الشرع قد أمر العلماء بأن يبينوا للناس ما أُنزَل إليهم، ولا يعموا عليهم في شيء.

والجواب: أن مراد هذا الشيخ أن الواعظ لا ينبغي له أن يكشف القناع في وعظه، حتىٰ يكاد أحدهم أن يقنط من رحمة الله، ولا يبقىٰ له رائحة عذر يعتذر به عند الله تعالىٰ، وفي

الحديث: «إن من البيان لسحرًا»[1]، قال الحسن البصري: ولا نرىٰ السحر إلا حرامًا. انتهىٰ.

ثم إن ذلك في آداب الشريعة لا في الواجبات والمحرَّمات، فإن هذه الأمور يجب عليه بيانها لكلِّ الناس، لعموم التكليف بها، بخلاف نحو الورع والزهد وقيام الليل ونحو ذلك. وعند أهل الطريق أن من التلبيس علىٰ المريدين ما هو محمود، وذلك أن يكتم عنه الأمور التي ليست من مقامه ولا يقدر علىٰ العمل بها إلىٰ أن يقدر علىٰ العمل بها، ويؤيده قوله ﷺ: «أُمرتُ أن أخاطب الناس علىٰ قدْر عقولهم»[2]. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا مدحه إنسان، فقال: نحن أقل من ذلك؛ فلاث به الفقراء وقالوا: كان سكوته عن قوله: «نحن أقل من ذلك» أولىٰ، لأنه من حظوظ النفس، فربما يفعل ذلك ليستجلب به التعظيم [لنفسه][3] لأن من شأنها الخيانة والكذب، فإن رأت غيرها في التواضع تواضعت، أو الكبر تكبرت.

والجواب: أن مثل العالم الكبير لا يجهل مثل ذلك، وإنما ينبغي حمله علىٰ أنه قال ذلك تواضعًا لربِّه عزَّ وجلَّ وحياءً منه، حيث قيَّض له من يمدحه، مع كونه ليس أهلًا لأن يمدحه الناس، وهو مع ذلك غافل عما الناس فيه من طلب الجاه بتواضعه.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: إذا مدحك الناس بأمر فانظر، فإن رأيتَ نفسك متلبسًا به فاحمد الله، وإلا فاستغفره، فربما يكون ذلك استدراجًا ومكرًا بك. وقد

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦) وأبو داود (٥٠٠٧) وابن حبان (٥٧٩٥) والترمذي (٢٠٢٨).

(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (١٦١١) بنحوه، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٤/ ٤٢٥)، قال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: له شاهد من حديث مالك عن سعيد بن المسيب رفعه مرسلا: إنا معاشر الأنبياء أمرنا وذكره، بل عند البخاري في صحيحه عن علي موقوفا: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله، ونحوه ما أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود، قال: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

كان الإمام أبو بكر والإمام عمر ﷺ إذا مدحهما أحد من الملأ يقولان: «اللهم اجعلنا خيرًا مما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون» وهذا أحسن من قول الإنسان: «نحن أقل من ذلك» لعدم لوث الإنسان بقائله، لأنه من فعل هذين الإمامين.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: إن من طبع النفس التكبر، ولا تقول إذا مُدِحت: «نحن من أقل الناس» إلا إذا استشعرت أن الناس ينسبونها إلىٰ الفرح بالمدح، وذلك نقص لها، فتريد بقولها: «نحن من أقل الناس» أن تدفع عن نفسها ما ظنه الناس فيها من محبتها المدح.

ومن كلام الجنيد ﷺ: لا تصلح هذه الطريق إلا لأقوام كنسوا بأرواحهم المزابل، أي لما هم عليه من الذل ورؤية النقص، حتىٰ لو أراد الأعداء أن ينزلوه[1] عما يشهده في نفسه من الذل لا يقدرون. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة، وارْفَعْ مقامهم عن مقام العامة، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: لا تأمر بمعروف ولا تنه عن منكر حتىٰ آذن لك؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، والواجبات لا تتوقف علىٰ إذن من الشيخ.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يريد بذلك: أنك لا تأمر بمعروف ولا تنهَ عن منكر حتىٰ أعلِّمك طريق السياسة، ثم آذن لك، خوفًا علىٰ ذلك المريد أن يأمر وينهىٰ بقلة سياسة مع حظِّ نفس، فيحصل له ضرر لا يطيقه، ويصير يقول: أنا الظالم الذي أمرتُ أو نهيتُ؛ فيجعل الواجب مكروهًا من قلة سياسته. وقد قالوا: من شرط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يُعطَىٰ العبدُ كمالَ السياسة، بحيث يمهِّد للعاصي بساطًا يشهده فيه ما أعدَّه الله تعالىٰ له من الخير في الدنيا والآخرة إن فعل ذلك المأمور، وما أعد الله له من الخزي والعذاب إن فعل ذلك المنهي، حتىٰ يصير ذلك العاصي هو المبادر لفعل الخير وترك الشرِّ، لما رأىٰ لنفسه في ذلك من الحظِّ والمصلحة.

---

(١) في «ب»: يتركوه.

وكان سيدي عليٌّ المرصفيُّ يقول: ينبغي لمن يأمر بمعروف أو ينهىٰ عن منكر أن يشهد أولًا من ناصية ذلك العبد بيده، ليصير يأمره وينهاه برحمة، فيكون له عينان: عين ينظر بها إلىٰ تقدير الله الذي لا مردَّ له، وعين ينظر بها إلىٰ كسب العبد ومخالفته الشريعة. وقد رأىٰ سيدي عبد القادر الجيلي سكرانًا يتمايل، فنظر إليه نظرة غضب، فقال: يا عبد القادر! قادر أن يجعلك مثلي! فطأطأ رأسه واستغفر من مبادرته إلىٰ الإنكار قبل شهود من ناصيته بيده.

وقد كان سيدي الشيخ إبراهيمُ المتبوليُّ ﷺ يقول: تغيير المنكر باللسان للعلماء العاملين، وتغييره باليد للولاة ومن والاهم ممن يقدر علىٰ إزالة ذلك المنكر، ولا يقدر علىٰ مقابلته بالأذىٰ أحدٌ، وتغييره بالقلب لأرباب الأحوال من الأولياء، فيتوجه أحدهم بقلبه إلىٰ الله تعالىٰ، فيمتنع الظالم عن ظلمه، والعاصي عن عصيانه، وتنفلق جرَّة الخمر بنفسها، فيذهب ما فيها من الخمر علىٰ الأرض. فقيل له: قد قال رسول الله ﷺ في هذا القسم «وذلك أضعف الإيمان»[1] وظاهره الذم للذي يغيِّر المنكر بقلبه، لإيثاره نفسه علىٰ مرضاة الله، فكان الأولىٰ أن يغير المنكر بيده أو لسانه ولو ضُرِبَ. فقال ﷺ: لضعف الإيمان معنيان: أحدهما مذموم، والآخر محمود، فأما المذموم فهو من يقول بقلبه: اللهم هذا منكر لا أرضاه، مع استشعاره من نفسه القدرة علىٰ إزالته باليد أو اللسان. وقوله: «فإن لم يستطع» أي عند نفسه بحسب ما يتخيله منها. وأما المحمود وهو أن يرق حجاب إيمانه، ويقوىٰ شهوده، لكونه في حضرة الحق التي هي مقام الإحسان، فارتقىٰ إلىٰ ما هو أعلىٰ من مقام الإيمان، ولذلك صح توجهه في إزالة المنكر، وانفعلت عن همته الأمور بإذن الله. قال: فهذا هو مراد الشارع بتغيير المنكر بالقلب. وأما قولهم: إن تغييره بالقلب هو قول العبد: «اللهم هذا منكر لا أرضاه» فليس فيه تغيير، بل المنكر باقٍ علىٰ حاله لم يزل. انتهىٰ، وهو كلام ما سمعتُه من غيره، فليُتأمَل، والله أعلم.

(٨١٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يفرح وينشرح إذا انتفع الناس علىٰ يديه، ويحزن إذا انتفعوا علىٰ يد غيره، حتىٰ يظهر الحزن علىٰ وجهه، فلاث به بعضُ الحذَّاق وقالوا:

---

(١) تقدم تخريجه.

هذا من علامة الرياء وحب الرئاسة، ولو كان هذا مخلصًا لفرح برجوع الناس إلىٰ ربهم من غير واسطة أو بواسطة غيره أكثر، لأن مقصوده محض الهداية للناس بأي طريق كانت.

والجواب: أنه لا يلزم من حزنه بهداية الناس علىٰ يد أحد من أقرانه الرياء وحب الرئاسة، فقد يكون حزنه علىٰ فوات ذلك الأجر الحاصل بهداية ذلك الرجل، لا علىٰ فوات الرئاسة.

فإن قال قائل: فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يكمل إيمان عبد حتىٰ يحبَّ لأخيه المؤمن ما يحبُّ لنفسه من الخير»[1]، فكان الأولىٰ بهذا أن يفرح بهداية الناس علىٰ يد أخيه، كما يفرح إذا وقعت الهداية علىٰ يديه هو؛ **فالجواب**: أنه لا يلزم من إظهار الحزن أن يكون ذلك من حيثُ كونُ ذلك الرجل فاز بالثواب، فقد يكون من الفرِحين لأخيه بذلك، وإنما يحزن علىٰ فوات حظِّه من الله تعالىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: علامة المخلص في إرشاد الناس أن لا يتجسس علىٰ زلَّات الناس لينصحهم، بل يتكدر من اطلاعه علىٰ زلاتهم، ويودُّ أنهم لو رجعوا من ذات نفوسهم إلىٰ ربهم ولم يطَّلِع لهم علىٰ زلة. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نصحه إنسان بين المعتقدين له ووبخه، فتكدَّر لذلك، فلاث به الفقراء وقالوا: كيف يدعي هذا أنه من الصالحين وهو يتكدر ممن ينصحه؟! وكان الواجب عليه أن يشكره إيثارًا لجناب الحق علىٰ جناب نفسه وناموسها، فإن من يدعي محبة الله يغار علىٰ انتهاك محارمه ولو من نفسه، ويحب توبيخها بين الناس، ولكن أين الصادقون؟!

والجواب: أنه لا يلزم من تكديره عند النصح أن يكون من النصح، فقد يكون من تذكر أمر آخر ورد عليه من عدو أو حاسد، أو من وقوعه في تلك الزلة التي نصحه لأجلها، فربما كان نسيها، فذكره هذا الناصح بها، فندم عليها وتكدَّر من وقوعه فيها. هذا اعتقادنا في أشياخنا.

---

(١) تقدم تخريجه.

وأما اعتقادهم في نفوسهم الصلاح والإخلاص، فلا ينبغي لهم تسليم ذلك للنفس، بل لهم امتحانها، فإن رأوها تحب من ينصحها ويوبخها أكثر ممن يجيب عنها، وجب عليهم الشكر لله. وإن رأوها تكره من ينصحها ويوبخها، وجب عليهم التوبة وتكذيب نفوسهم في ادعائها الصلاح، فاعلم ذلك أيها الأخ، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا تصدَّر لإزالة المنكرات في زمانه، وأكرمه الناس وعظَّموه لقيامه بالعدل والمعروف، فلاث به بعض المتصوفة وحملوه علىٰ الرياء ومحبة الشهرة بالخير، وقالوا له: مالك ولهذه الأمور في هذا الزمان؟! سلِّم الأمر إلىٰ الله فهو أولىٰ، بأنه لا ينبغي للمتصوفين مناقشة العالم، لأن ذلك يكسر قلبه، وإنما الواجب عليهم شكرانه ومدحه وشدُّ عضده، ولا يجوز حمله علىٰ الرياء ومحبته الصيت. وقولهم له: «سلِّم الأمر إلىٰ الله فهو أولىٰ» جهل عظيم بالشرع، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينافي التسليم لله، فالعبد يسلِّم الأمر إلىٰ الله من حيثُ التقديرُ، وينازع من فعل المنكر من حيثُ كسبُه للسيئات.

وقد تقدَّم عن سيدي عبد القادر الجيليِّ أنه كان يقول: ليس الرجل من إذا ذُكر عنده القدَر سلَّم، وإنما الرجل من ينازع أقدار الحقِّ بالحقِّ للحقِّ، فالرجل هو المنازع للقدَر لا المسلِّم له. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: علم العبد بأن ما وقع فيه العاصي كان بقضاء وقدَر سابق لا يسقط وجوب النهي عن المنكر، فقد جاهدت الأنبياء في الكفار وضربوهم بالسيوف، وهي أكثر الخلق تسليمًا لله بإجماع. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ليس غير الله شيء أبدًا؛ فلاث به العلماء وقالوا: هذا الإطلاق حرام، فأين العالم العلوي والسفلي؟

والجواب: أن ذلك من باب قوله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خـلا الله باطل»[(١)]

أي الحق هو من كان وجوده بنفسه، وأما القائم بقدرة غيره فهو كالباطل، وإن كان موجودًا من حيثُ قيامُه بغيره وفناؤه، وليس مراده أنه باطل من كل وجه، لأجل قيامه بما كُلِفَ به، وتوجه الأحكام عليه وله وبه، وتُسمَىٰ هذه الحضرة «حضرة بدو الحقيقة وتلاشي غيرها» ولكن الكامل من يشهد الخلق مع الحقِّ معًا في آن واحد لا علىٰ التتالي والتتابع [بل علىٰ][(٢)] البدلية ،لا يحجبه الخلق عن الحق وعكسه. وقول الإمام الجنيد: «من شهد الخلق لم ير الحق، ومن شهد الحق لم ير الخلق» فهو في حقِّ أهل البدايات.

وتقدم في الجواب عن السيد هارون في الباب الثاني[(٣)] من هذا الكتاب أن مراد القوم بقولهم: «نستغفر الله من شهودنا غير الله» أي من شهودنا له حال حجابنا عن خالقه، وليس مرادهم نفي الغير في نفس الأمر، لأن الحس يكذِّبهم، وإنما المراد أن العبد إذا غلب عليه شهود الحقِّ تعالىٰ، حُجِبَ عن شهود الخلق مادام مبتدئًا في الطريق، كصاحب المصيبة الذي مات له ولد، وصار الناس يعزونه وصاحبه الأكيد جالس عنده لا يراه. ثم إنه يقول: فلان ما رأيناه اليوم! فيقول له الناس: إنه جالس هنا من بكرة النهار! فيقول: والله من الهم ما رأيتُه! فعُلِمَ أنه لا يلزم من قول العبد: «أستغفر الله مما سوىٰ الله» أنه يقول بنفي السوىٰ مطلقًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إذا رجوتم الله تعالىٰ فارجوه من غير ترجيح للمغفرة أو العطاء مثلًا علىٰ المؤاخذة والمنع؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: من

---

(١)أخرجه البخاري (٦١٤٧) ومسلم (٢٢٥٦) وغيرهما.

(٢) بالأصلين: إذ. وما أثبتناه الأنسب للسياق.

(٣) بالأصلين: الثالث. والجواب عن السيد هارون ﷺ برقم (٤٣) وليس فيه جواب عن قول السادة: «نستغفر الله من شهودنا غير الله» بل الجواب عن ملاحظة السيد هارون ﷺ شماتة الأعداء. أما الجواب عن قولهم: «أستغفر الله مما سوىٰ الله» فهو الجواب رقم (٧٤٧).

شرط الراجي ترجيح ظنه المغفرة علىٰ المؤاخذة، والعطاء علىٰ المنع، فكيف الخلاص؟

والجواب: أن الخلاص أن يسأل العبد ربه ويرجوه عبودية لا ترجيح فيها للعطاء علىٰ المنع، لأن هذا هو رجاء العارفين، لأنهم يهربون من التحجير علىٰ الحقِّ جلَّ وعلا أن يفعل بهم كذا دون كذا، بخلاف العامة، فإنه لا لوم عليهم في ذلك، لعدم ذوقهم لمقام الأدب الكامل مع الله تعالىٰ، حتىٰ إن بعضهم كان يقول: لولا أن الله تعالىٰ يحبُّ العفو عن عباده ما أحببته عني، بل كان تعذيبه لي أولىٰ عندي. انتهىٰ، وهو كلام غوره بعيد.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: لما قربتُ من مقام الأدب مع الله تعالىٰ، مكثتُ ستة أشهر لا أتجرأ أن أسأل الله تعالىٰ حاجةً، فنوديتُ في سرِّي: يا عليُّ، اسأل ربَّك عبودية لا ترجيح فيها للعطاء علىٰ المنع، ولا للرجاء علىٰ المؤاخذة. قالوا: وليس من الترجيح المذموم ترجيح الطاعات علىٰ المعاصي، ولا ترجيح الفعل الذي كُلِفَ به علىٰ الترك، فإن ذلك من شأن المكلَّف، ولولا الترجيح والاختيار لتفسخت عزائمه، ولم يقع منه ما كُلِّف به، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أهون مقام يطلبه العبد من ربه محبته تعالىٰ له؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف يكون ذلك أهون مقام وهو موقوف علىٰ اتباع النبي ﷺ في سائر أقواله وأفعاله وأخلاقه؟ وذلك أعزُّ من الكبريت الأحمر.

والجواب: أنه قد يريد بأنه أهون من حيثُ كونُه معلَّقًا في حديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله»[1] علىٰ الزهد في الدنيا، وهي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فمراده أهون من حيثُ ما جعله الحقُّ تعالىٰ ثمنًا لمحبته تعالىٰ، فإن محبته لا تُقابَل بالأعراض الدنيوية والأخروية، وقد علَّق الشارع محبته في هذا الحديث علىٰ ترك العبد ما هو أقلُّ من جناح بعوضة، وذلك غاية الكرم واللطف والجود.

وتقدَّم في هذا الكتاب في هذا الجواب عن السيد سليمان عليه الصلاة والسلام في

(١) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم (٧٨٧٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٤٣).

الباب الثاني[١] أن المراد بالزهد في الدنيا حيثُ أُطلِقَ هو الزهد في الميل للمال الذي يشغل العبد عن ربه، لا الزهد في إمساكه كما قد يتوهمه بعضهم، ولو كان ذلك هو مراد الشارع ما أذن في التجارة لأحد، وأن الزاهد لا يصح زهده فيما قسمه الله تعالىٰ له أبدًا، فلابد من تناوله، وما زهد الزاهدين وتورَّع المتورعون إلا فيما لم يُقسَم لهم مما كانوا يتوهمون أنه لهم، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يجب علىٰ العبد الإيمان بأن أفعال العباد خلق لله تعالىٰ في حال إضافتها إليهم معًا في آن واحد؛ فنازعه بعضهم وقال: هذا إيمان بطريقين متناقضتين، وذلك من أصعب الأمور!

والجواب: أنه لا تناقض، لأن المؤمن الكامل يُكنىٰ «أبا العيون» فعين ينظر بها إلىٰ كون الفعل لله وحده، وعين ينظر بها إلىٰ كون الفعل للعبد، لتُقام عليه الحدود أو له، ويخرج عما كُلِّف. وقد ذكرنا في كتاب «العقائد» أن مسألة خلق الأفعال مما لم يخلِّص العقل ولا الكشف ولا الشرع إشكالها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: فلان ممن مقته الله تعالىٰ، فلان ممن أحبه الله؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا لا يُعلَم إلا بوحي، والوحي قد انقطع، والفراسة لا تكفي في الإخبار عن الله تعالىٰ، فقد يخطئ.

والجواب: أن الفقراء يعرفون المقت بعلامات:

منها أن يكون الإنسان يحب الدنيا أكثر من الآخرة، فيفوته صلاة الجماعة، أو مجلس العلم أو الذكر، فلا يتأثر علىٰ ذلك، بل يضحك ويأكل ويشرب ويجامع، ويفوته دينار فيحزن عليه أكثر، وإذا عُزِلَ من وظيفة دنيوية لا يأكل ذلك النهار ولا يشرب ولا يجامع. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص والشيخ محمد بن عنان يقولان: يعرف المقت في الفقراء بإدبارهم عن الله، وإقبالهم علىٰ الدنيا، فيخف عليه سهر ليلة كاملة في تحصيل

(١) بالأصلين: الثالث. والصواب ما أثبتناه. والجواب المشار إليه رقم (٤٦).

الدنيا، ويثقل عليه سهرها في تحصيل الآخرة، ويأتيه النعاس من سائر الجوانب. انتهىٰ. وقد مقت سبعة من جماعتي، فصاروا أبدانًا بلا أرواح بمحبتهم للدنيا، نسأل الله العافية.

ومنها أن يكون الإنسان معجبًا بنفسه يستحسن عبادته علىٰ عبادة غيره، وعمامته علىٰ عمامة غيره، فلو أن إنسانًا ألبسه عمامته لا يرضىٰ بها، بل ينقضها ويلفها ثانيًا علىٰ مصطلحه هو.

ومنها أن يكون يقع في أعراض الناس من أقرانه وغيرهم. وقد كان مالك بن دينار والفضيل بن عياض وسفيان الثوري وغيرهم يقولون: ثلاثة أشياء أهلها ممقوتون لا تنزل عليهم الرحمة: محب الدنيا، والمعجب بأحواله، والواقع في أعراض الناس. انتهىٰ. فاعلم ذلك واحمل كلام هذا الشيخ علىٰ أنه عرف المقت للناس بوقوع أحدهم في خصلة من هذه الخصال.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: المقت يعظم ويصغر بحسب الذنب الذي مقت العبد بسببه، فأعلىٰ الخلق مقتًا الكافر، ثم صاحب الكبيرة، ثم صاحب الصغيرة، ثم صاحب المكروه، فلكلِّ ذنب مقت يخصه ويناسبه. انتهىٰ. فاعلم ذلك فإنه نفيس.

فمن أراد يعرف من نفسه المقت فلينظر فيها، فإن وجد فيها خصلة من هذه الخصال الثلاث، فليحكم بأنه ممقوت، ومن لم يكشف له مقته في الدنيا، فسوف يمقت نفسه بين يدي الله حيثُ ينكشف له الحجاب، قال تعالىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] أي إذا كُشف الحجاب يمقت العبد نفسه ويوبخها [بين يدي الله عز وجل، لا أن الله تعالىٰ هو الذي يوبِّخه] كما قد يتبادر إلىٰ الذهن، ولا فرق في كشف الحجاب بين وقوعه في الدنيا والآخرة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول: ما بقي الآن يجب علىٰ أحد نهي عن منكر، لأن النبي ﷺ قال لبعض أصحابه: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهن عن المنكر، حتىٰ إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوىٰ متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة

نفسك، ودع عنك أمر العامة»[١]، وقد وُجِدَت هذه العلامات؛ فلاث به عالم آخر وقال له: قد قال رسول الله ﷺ: «الجهاد ماضٍ في أمتي إلىٰ يوم القيامة لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل»[٢] وهو يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه من فروع الجهاد الأكبر.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ العالم الأول، ويُحمل قوله: «وقد وُجِدَت هذه العلامات» أي شرعت في ظهورها في الناس، ويُحمَل كلام النبوة علىٰ حصول كمال الشح، وكمال الهوىٰ المتبع، وكمال الإعجاب، وكمال الإقبال علىٰ الدنيا، وذلك لم يحصل إلىٰ الآن، بل غالب الناس يحب الآخرة، ويعرف نقصه إذا اتبع هواه أو أعجب بنفسه، فلا تنافي بين كلام العارفين.

وقول العالم الأول: «ما بقي الآن يجب علىٰ أحد نهي عن منكر» أي علىٰ وجه التشديد، كما كان في زمن الصحابة والتابعين، لكثرة وقوع علامات الساعة من أهل هذا الزمان من الظلم والجور وترك الصلاة ومنع الزكاة وغير ذلك. وقد كان سفيان الثوريُّ يخرج يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ثم ترك ذلك، فقيل له في ذلك، فقال: كلما رأينا قناة انفتحت في الإسلام، فأردنا سدها، فانفتح لنا أبحر فعجزنا؛ مع أن أهل ذلك العصر كانوا يحملون التشديد من الآمر والناهي لكثرة إيمانهم بخلاف أهل هذا الزمان، فلا تكاد تأمر أحدًا بمعروف بلسانك إلا وآذاك بالفعل في مقابلة ذلك، وربما سعىٰ في قتلك، أو إخراجك من وطنك، وعزلك من وظيفتك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي رأىٰ شخصًا يدعو لمريض أو لمكروب مات له ميت، أو عُزِل من وظيفة، فنهاه عن ذلك، فلاث به فقيه وقال: الدعاء للمريض والمكروب مشروع من نفسه وغيره.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان من أهل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤) وابن حبان (٣٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٣٢) ولفظه: «والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلىٰ أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار» والبيهقي (١٨٤٨٠) وعبد الرزاق (٩٦١١) وأبو يعلىٰ (٤٣١٢).

الكشف، فكُشِفَ له عن سبب ذلك المرض، أو ذلك العزل من تلك الوظيفة، فإنه إما عقوبة له، أو كفارة، أو رفع درجات، وكلٌّ [من][1] هذه الثلاثة يحتاج الداعي إلىٰ معرفته، فإن كان عقوبةً فلا ينبغي سؤال رفعه إلا إذا أشرفت العقوبة علىٰ الفراغ، وأما قبله فلا فائدة للدعاء، وإن كان كفارةً أو رفعَ درجات، فلا ينبغي سؤال رفعه كذلك.

فإن قال قائل: إنه يُستحَب الدعاء مطلقًا كما ورد؛ **فالجواب:** أن ما قلناه لا ينافي ما ورد، لأن ما ورد إنما هو في حقِّ من لا يعرف سبب المرض هل هو عقوبة أو كفارة أو رفع درجات، وما قلناه في حقِّ من أطلعه الله تعالىٰ علىٰ سبب المرض، **وفرقٌ بين عبادة آحاد الناس وبين عبادة أهل الكشف من العارفين.**

وأما الدعاء بعود الوظيفة والنعمة لمن عُزِلَ وافتقر من الولاة وأعوانهم، فكذلك لا يكون إلا بعد معرفة سببه في حقِّ العارف، فإن كان عقوبةً صبر حتىٰ تبلغ العقوبةُ حدَّها فيه، ثم يدعو له بعد ذلك بعود النعمة عليه علىٰ حسب طول العقوبة وقصرها، فإن من كان مدمن خمر أو زنا أو تعاون في الناس تطول مدته، بخلاف غير المدمن، وإن لطف به الحقُّ تعالىٰ، أدام عليه زوال النعمة بقدْر المدة التي كان يعصي ربه فيها من سنين أو سنة، فلينتبه الفقير الساذج لما ذكرناه، ولا يتوجه في ردِّ نعمة أحد ممن أزال الله تعالىٰ عنه النعمة من الظلمة والعصاة إلا بعد أمره بالتوبة النصوح، وبعد إشرافه علىٰ انتهاء العقوبة فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: فلان يُعزَل، فلان يموت، فلان يأتي في الوقت الفلانيِّ؛ فلا يقع شيء من ذلك في الوقت الذي عيَّنه، فلاث به الناس وقالوا: هذا كذَّاب! وأيش قام عليه بالمكاشفة؟!

والجواب: أنه لا يلزمُ من عدم وقوع ما ذكر في الوقت الذي عيَّنه كذبُه، فقد يكون مطمح بصره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا، وهي ألواح المحو والإثبات، فهو ينظر فيها ويتكلم، ثم يمحو الله تعالىٰ ما رآه ويثبت غيره، ولم يتفق لهم أن يسألوه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

بعد أن مُحِي ذلك الأمر وأُثبِت غيره، فظنوا أنه كاذب وليس كذلك، فلو أنهم سألوه بعد أن أخبرهم ثانيًا وعيَّن ذلك الوقت الذي كان عيَّنه، لقال لهم: إن الأمر قد مُحِي وأُثبت غيره من الولاية أو الحياة أو عدم الإتيان لذلك الغائب، لكنهم لم يسألوه.

وكان مطمح بصر سيدي عليّ الخواص اللوح المحفوظ -أعني عن المحوّ- فكان إذا أخبر عن شيء لا بد من وقوعه كما ذكر، وكان يقول: من لم يكن مطمح بصره اللوح المحفوظ، فلا ينبغي له الإخبار بشيء، لئلا يبادر الناس إلىٰ الإنكار عليه. وسمعتُه يقول كثيرًا: من لم يكن له كشف ولا كرامة، فلا ينبغي له أن يصحب أحدًا من الولاة، لأنهم ربما سألوه عن مدة ولايتهم أو عزلهم مثلًا، فلم يعرف، فسقط من أعينهم، إذ الكرامة للولي كالمعجزة للنبي. انتهىٰ.

وقد صحبني جماعة من الأمراء، فكان أحدهم يسألني عن أحوال السلطان في اصطنبول[1]، وعن حوائجهم التي أرسلوا يسألون الوزراء عنها هل تُقضَىٰ أم لا؟ وعن القصَّاد هل يصلون سالمين أم لا؟ فكنتُ أسكتُ ولا أردُّ لهم جوابًا، فانقطعوا عن التردد إليَّ، وصرتُ إذا رأوني كأنهم لم يعرفوني، بعد أن كان أحدهم يقبِّل رجلي علىٰ ظنٍّ أني من الأولياء، فيا فضيحتنا يوم القيامة حين تبدو السرائر! والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٥) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول عن المكَّاسين: إنهم أزهد في الدنيا من هؤلاء المشايخ الذين ظهروا في هذا الزمان؛ فلاث به بعض الحاضرين وقالوا: هذا شطح عظيم! وفيه إزراء بالأولياء.

والجواب: أنه ربما كان صادقًا، فكثيرًا ما رأينا بعض المشايخ يفطر عند المكَّاسين والظلمة في رمضان، ويقبل هداياهم، فيأخذها لنفسه ويأكل منها ويلبس. ومعلوم أن الظالم لم يعطِ فقيرًا شيئًا إلا بعد زهده فيه، ولو أنه كان راغبًا فيه لما أعطىٰ الفقير شيئًا، فعُلِمَ أن من أخذ من الظالم ما زهد فيه الظالم فهو أقلُّ زهدًا وورعًا منه بيقين، وصدق هذا العالم، وكيف يليق بسيدي الشيخ أن يرغب فيما يزهد فيه الظلمة، مع عمامته الصوف

---

(١) إستانبول، وقد تركناها علىٰ نفس رسمها في الأصلين.

وإرخائه العذبة وتصدره لأخذ العهد علىٰ المريدين؟! هذا من أعجب العجاب! وقد صحَّ قولُ من قال: لا ينبغي لأحد أن ينكر [علىٰ][1] من رآه يتمنىٰ الموت في هذا الزمان. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: إذا عزم أحد علىٰ معصية، فليغلق بابه عليه؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقال له: هلا قال له: إياك أن تغلق بابك، لتخرج عن النفاق، أو لا تعصِ ربَّك مطلقًا، فإنه كان أولىٰ.

والجواب: أن ذلك من باب ظلم دون ظلم، فإن ستر العاصي نفسه عن الناس حال معصيته أولىٰ من تعاطيه أسباب الهتيكة، وفي الحديث: «إذا بليتم- يعني بمعصية- فاستتروا»[2]. انتهىٰ، فإن المجاهرة بالمعاصي معصية زائدة علىٰ نفس المعصية التي فعلها.

فإن قال قائل: إن غلقه الباب عليه معصية كبرىٰ من حيثُ إنه خاف من رؤية الخلق، واستهان برؤية الله تعالىٰ له، وذلك أشدُّ من نفس المعصية؛ فالجواب: أنه لا يلزم من غلقه بابه عليه استهانة برؤية الله تعالىٰ له، لأنه لا يقع في معصية وهو يرىٰ أن الحق تعالىٰ يراه أبدًا، لا بد من غفلة أو سهو أو نسيان، والاستهانة لا تكون إلا مع علمه بأن الله يراه، وذلك غير واقع.

وقد سُئل سفيان الثوري عمن يغلق بابه ويعصي ربه: هل ذلك لاستهانة بالحق تعالىٰ؟ فقال: لا، إنما أغلق بابه خوفًا من اطلاع الخلق عليه، فيهتكوا سريرته. وأما الحقُّ تعالىٰ فالعاصي يعلم أن من شأنه تعالىٰ أنه لا يهتك عباده غالبًا، وإن وقع أنه تعالىٰ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) قال: العجلوني في «كشف الخفاء» (٢١١) «إذا بُليتمْ بالمعاصي فاستَتِروا» قال السخاوي: يأتي فيمن أتىٰ من هذه القاذورات شيئًا، فينبغي للعبد أن يتوب منها، ولا يظهرها للناس حيث سترها الله عليه، وهذا الحديث رواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر وقال إنه علىٰ شرطهما، بلفظ اجتنبوا هذه القاذورات التي نهىٰ الله عنها، فمن ألم منها بشيء فليستتر بستر الله وليتب إلىٰ الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله، قاله ﷺ بعد رجم ماعز ﷺ.

أهتك عبدًا فذلك لحكمة ترجح على ستره، لأنه ربما تمادى في المعاصي إذا ستره حتى يستوجب النار، فهتكه تعالى ليرتدع، وليأخذ في التوبة[1] من الذنوب الماضية، ويأخذ حذره من الذنوب المستقبلة، وذلك أرجح في حقه من الستر.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إذا أراد الله عزَّ وجلَّ هتك سريرة عبد، جاءه إبليس، فقال له: اعص الله تعالى، وازنِ بفلانة، وأغلق بابك حتى لا أحد يراك، ثم إذا أغلق بابه، ذهب إبليس إلى أهل الحارة أو جماعة الوالي وقال لهم: تعالوا انظروا إلى فلان مع فلانة في البيت الفلاني، فربما تسلقوا عليه من سطوح البيت أو طاقة[2] من طيقانه، أو خلعوا باب داره، فرأوها وهو فوقها يزني بها. انتهى.

وسألتُ مرةً سيدي عليًا المرصفي رحمه الله: لم حجب الله تعالى العاصي عن شهود ربِّه تعالى حال المعصية؟ فقال: دفعًا لخجل عبده منه، فلذلك أسدل عليه الغفلة والحجاب رحمةً به، فإنه تعالى حيي ستير. انتهى، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا ينبغي للفقير إذا عرف بالصلاح أن يبيع أو يشتري؛ فلاث به بعض المجادلين وقال له: النبي ﷺ والصحابة والتابعون كانوا أجلَّ من جميع هؤلاء المشايخ، ومع ذلك فباع ﷺ واشترى، وكذلك من بعده من الأئمة.

والجواب: أنه ليس مراد الشيخ كراهة البيع من حيثُ هو بيع، وإنما ذلك لما يترتب عليه من محاباة الناس لمن اعتقدوا فيه الصلاح، فربما أرجحوا له الميزان، وربما أخذوا منه متاعه حين باعه برخص، فاستحيا أن يقول: لا أبيعه إلا بزيادة؛ فأضرَّ بحاله.

وقد وقع لي ذلك كلُّه، فكنتُ إذا اشتريتُ رجحوا لي الميزان، وإذا بعتُ شيئًا يأخذونه مني برخص، وبعضهم يقول لي: ادعُ لي يا سيدي دعوة نهار مبارك، شيء لله المدد، انظروا هذا النور الذي على وجهه! ثم يعطيني التين أو العنب الحامض أو اللحم الذي كله عظام

---

(١) بالأصلين: التفصيل. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الطاقة: هي فتحة في جدار يدخل منها الهواء والضوء.

وشَغْت[١]! فعُلِمَ أنه إذا لم يترتب علىٰ بيع الشيخ وشرائه محظور فلا بأس بذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من أرذل الأمور أن يدور الفقير أو العالم مع الدلَّال إذا باع شيئًا في السوق وهو وراءه يقول: ما أبيع بذلك، فإنه يقدح في المروءة. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٨) ومما أجبتُ به عن المجاورين في الزوايا والمساجد إذا خرجوا إلىٰ مواضع التنزهات والأنهار من البساتين، وصحبوا معهم بعض المختثين والفسقة، فلاث الناس بهم وظنوا بهم السوء، بأنه لا يجوز المبادرة إلىٰ سوء الظن بهم، فربما قصدوا بإخراج أصحاب الريبة معهم تأليفهم علىٰ الخير والتوبة، فهم في وادٍ، وأنت يا أخي في واد، ولولا أنك من أهل الريبة لما ظننتَ بهم السوء، كما قدمناه في خطبة الكتاب.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا يظنُّ بالناس السوء إلا أهل السوء، فإن كلَّ إناءٍ بالذي فيه ينضح. فنظِّف باطنَك يا أخي من الرذائل، وإلا فمن لازمك غالبًا سوء الظن بالمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٩) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يقول: أنا أعلم رضا ربي عني، وأعلم رضا رسول الله عني، وأعلم رضا شيخي في قبره عني، وأعلم غضبه كذلك، فلاث به الناس وقالوا: من أين لك هذا وما ثم وحي؟!

والجواب: قد يعلم العبد ذلك إذا نظر في أفعال نفسه وأقواله وعقائده، فإن رآها موافقةً للكتاب والسنة، عَلِمَ أن الله أو رسوله أو أولياءه عنه راضٍ وإلا فهو ساخط، وكذلك الأنبياء والأولياء. وقد قال شخص للسري السقطي: هل يعلم العبد أن الله تعالىٰ راض عنه؟ فلم يدرِ له جوابًا، وكان هناك تلميذه الجنيد وهو شاب أمرد، فقال: نعم، قد يعلم العبد أن الله تعالىٰ راضٍ عنه. فقال له السري: من أين تعرف ذلك؟! فقال:

---

(١) الشغت: تُطلق علىٰ مجموعة من أجزاء البهيمة، كاللسان والكرشة (معدة البهيمة) والأمعاء والقراقيش (وهي عظام لينة سهلة الأكل)، والفشة (الرئة)، وغير ذلك. ويُطلق عليها المصريون «فواكه اللحوم»، وتُعتبر من الأكلات الشعبية.

إذا كنتُ راضيًا عنه فهو راضٍ عني. فأعجب السري ذلك وقال: يا محمد، أخاف أن يكون حظُّك من الله لسانك. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٠) ومما أجبتُ به عن طالب العلم إذا دعاه أحد من أعدائه إلىٰ وليمة فلم يحضر، فلاث الناس به وقالوا: لا ينبغي أن يكون بين العلماء شحناء ولا بغضاء.

والجواب: أنه ربما يكون عما ظنوه فيه بمعزل، كأنه استحيا من جلوسه مع الناس في ذلك المحفل، أو كان ممن محق نفسه التواضع حتىٰ صار يرىٰ أنه ينجس المكان الذي يجلس فيه، كما وقع ذلك لصاحبنا الشيخ العالم العلامة الشيخ إبراهيم العجمي شيخ قبة السلطان الغوري[1] تجاه مدرسته، فإني أعلم منه المحبة الشديدة لي. ودعوتُه مرةً إلىٰ وليمة، فاعتذر لي وقال: أخاف أن أنجِّس حضرتَه والله! فصدقناه، فلا تستبعد يا أخي مثل ذلك علىٰ طالب علم، فربما كان وليًّا لله تعالىٰ، وكان يتستر بطلب العلم، كما قالوا في الإمام الشافعي ﷺ إنه كان من الأوتاد، وكان الاشتغال بالعلم حجابًا عليه. ورأيتُ أنا من يذهب إلىٰ دروس الفقهاء يقرأ عليهم، مع أنه وليٌّ كبير وفي قدرته أن يدرسهم في العلم، ولكن يقصد بذلك التستر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا فائدة في التحويط علىٰ النفس والمال، فإن كل ما سبق به العلم واقع لا محالة، وإذا كان الله تعالىٰ علىٰ كلِّ شيء حفيظًا ولا فاعل في الوجود إلا هو، فممن يحفظ تعالىٰ الأشياءَ منه؟! ولاث به العلماء وقالوا: هذا كلام جاهل بالشريعة لم يشم منها رائحة.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار عليه، فقد يكون مشهده مشهد من قال: «وأعوذ بك منك» فممن استعاذ؟ وبمن لاذ؟ ولابد لكلام الله تعالىٰ وحديث رسول ﷺ من محمل يُحمَل عليه، والذي ظهر لي في هذا الوقت أن ذلك من باب تعليق الأسباب علىٰ ظهور مسبَّباتها، فالفاعل في المسبَّب والسبب هو الله تعالىٰ كما سبق به العلم، فسبق في العلم

---

(١) وما زالت قائمة إلىٰ الآن علىٰ مدخل الغورية، منطقة معروفة بوسط البلد بمحافظة القاهرة بمصر.

أن الإنسان إذا حوَّط نفسه أو غيره من الآفات بأسماء الله تعالىٰ وآياته مثلًا، حُفِظَ ذلك الشيء من الآفات، وإن [لم][1] يحوِّط لحقته الآفات، وفي علم الله أنه يحوِّط أو لا يحوِّط.

وقد سألتُ سيدي عليًا المرصفي عن حديث: «وأعوذ بك منك»[2]، فقال: هذا يتمشىٰ علىٰ مذهب من يقول: إن صفات الحقِّ تعالىٰ عينية، فكأنه ﷺ قال: وأعوذ بك أن تقوم بي صفة من صفات الكبرياء والعظمة التي لم تأذن لي في التخلق بها، وذلك أن شرف العبد إنما هو بالذل والانكسار، لا بالعظمة والاستكبار.

[هل ينسحب الحفظ على الأعيان الثابتة؟]

فإن قال قائل: فهل ينسحب الحفظ علىٰ الأعيان الثابتة[3] في العلم التي لا يصح ذهاب عينها، أم هو خاص بما برز إلىٰ عالم الشهادة، لأنه هو الذي يلحقه التغيير والتبديل؟ **فالجواب:** أنه ينسحب حفظه تعالىٰ عليها، ولكن حتىٰ لا يختلط بعضها ببعض، حتىٰ لو قُدِّر أن الأعيان أُحرقت وذريت في الريح، لحفظ تعالىٰ عليها جميع ذراتها أن تختلط بذرة من ذرات ذات أخرىٰ. وأما من وجودها الذاتي في العلم، فلا ينسحب عليها الحفظ، لأنه لا يصح انعدامها، لأنها معلوم علم الله تعالىٰ، وإنما العدم لها نسبيٌّ مجازيٌّ من حيثُ انتقالُها من حال إلىٰ حال، لأن الله تعالىٰ خلقها للبقاء، فهي باقية بإبقاء الله تعالىٰ، كالأوليات التي خلقها الله للبقاء لا تقدر علىٰ حفظ نفسها عن الفناء.

وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي يقول: لم تزل الأعيان الثابتة في العلم الإلهي تنظر إلىٰ موجدِها بعين الافتقار، ليخلع عليها اسم الوجود، فلم تزل ممكنة في حال

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٩) والترمذي (٣٤٩٣).

(٣) الأعيان الثابتة: هي حقائق الممكنات في علم الحق تعالىٰ، وهي صور حقائق الأسماء الإلهية في الحضرة العلمية لا تأخر لها عن الحق إلا بالذات لا بالزمان، فهي أزلية وأبدية، والمعنىٰ بالإضافة التأخر بحسب الذات لا غير. «التعريفات» للجرجاني (ص٢٨).

عدمها وحال وجودها، والإمكان لها كالوجوب له تعالىٰ. انتهىٰ[١]. فاعلم ذلك فإنه نفيس، ولعله ما طرق سمعك عن غير الشيخ أبدًا، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: توكل علىٰ الله، وإياك أن تجعل لدارك بابًا، أو أحدًا يحرسك ليلًا في السفر؛ فلاث به فقيه وقال: هذا جهل من الشيخ بحقيقة التوكل، فقد قال ﷺ للذي ترك ناقته بلا عِقَال علىٰ باب المسجد توكلًا علىٰ الله [ودخل للنبي ﷺ][٢]: «اعقل وتوكل»[٣].

والجواب: ليس ذلك بجهل من الشيخ بحقيقة التوكل؛ **لأن صحة التوكل لا يكون إلا بعد الخلوص من الاعتماد علىٰ الأسباب**، وذلك أن النفس ربما زينت لصاحبها أنه يتوكل علىٰ الله، والحال أنه يتوكل علىٰ الأسباب، فليمتحن الحاذق نفسه بسكنىٰ الخرائب التي لا باب لها في أطراف بلده، فإن رآها مطمئنة غير خائفة من اللصوص والسباع والآفات، فهي معتمدة حينئذٍ علىٰ الله دون غيره، فإذا تحقق بذلك صح توكله، ووجب عليه أن يسكن في الدور الحصينة دون الخربة، وأن يتخذ له حرَّاسًا في السفر؛ لأنه حينئذٍ معتمد علىٰ الله تعالىٰ لا علىٰ الحيطان والأبواب والحرَّاس. وهذا هو موضع إشارة النبي ﷺ بقوله: «اعقل وتوكل» فرجع صورة الكامل إلىٰ صورة حاله في البداية حين كان معتمدًا علىٰ الحيطان والأبواب، فكلُّ من رآه اعتقد أنه معتمد علىٰ غير الله، والحال بخلافه، فيُحمَل كلام هذا الشيخ علىٰ [غير][٤] الحال الذي أشار إليها رسول الله ﷺ فافهم.

ولو أن الشيخ أمر هذا المريد بسكني الدار الحصينة في ابتداء أمره لم يخلص له توكل، لأن تلك هي الحالة التي فتح عينه عليها، **فلابد من خروجه عن حكم الطبع إلىٰ حكم الشرع.**

---

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٢٩٣).

(٢) زيادة من «أ».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، وابن حبان (٧٣١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٥٩).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

[نظائر مشابهة الكامل لغيره في صورة الفعل مع الاختلاف في القصد]

ونظير ذلك أيضًا تقليد العبدِ المجتهدَ، ثم خروجه عن التقليد إذا توسط الطريق، ثم رجوعه إلىٰ التقليد أدبًا مع الله تعالىٰ، فيجعل نفسه كعبد العبد، فصورته في نهايته صورة المقلِّد حال البداية، والقصد مختلف.

ونظير ذلك أيضًا مدح المؤثرين علىٰ أنفسهم، ليخرجوا عن حكم الشح المركوز في جبلتهم، فإذا تحققوا بذلك وعرفوا أن جميع ما آثروا به غيرهم لم يكن لهم، وإنما هو لذلك الغير، أُمروا بعدم الإيثار علىٰ أنفسهم، لأن الأقربين أولىٰ بالمعروف، ولا أقرب إليه من نفسه. وعليه يُحمَل حديث: «ابدأ بنفسك»[1]، فرجعت صورة العبد إلىٰ صورة من لا يؤثر، والقصد مختلف.

ونظير ذلك أن العبد في بدايته أمره يحب الدنيا ويشاحح الناس علىٰ جديد [نقرة][2]، فإذا توسط الطريق تكرَّم وأعطىٰ الناس المال وسامحهم، فإذا بلغ مقام الكمال رجع إلىٰ صورة حاله الأول وشاحح الناس علىٰ جديد ولم يسامح به، خوفًا أن يرىٰ له منة علىٰ أحد من عباد الله في الدنيا والآخرة، ولو خطورًا علىٰ البال، فصورته صورة محب الدنيا، والقصد مختلف.

ونظير ذلك أيضًا محبة العبد لمخالطة الناس في ابتداء أمره، ثم هروبه منهم حال دخوله في الطريق، ثم مخالطته لهم حال توسطه من حيثُ مصاحبةُ الحقِّ تعالىٰ لهم، ثم هروبه منهم إذا كمل حاله ولم يتصدر لتربية المريدين، إيثارًا لجناب الحق علىٰ الخلق، كما في حديث: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»[3] أي غير الاشتغال بعبادته، فصورته حال كماله صورته حال ابتداء دخوله في الطريق، والقصد مختلف.

ونظير ذلك أيضًا محبة الإنسان لتقبيل الناس يده مثلًا، ثم كراهته لذلك إذا توسط

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) تقدم تخريجه.

الطريق من حيثُ إن ذلك كالعبث؛ لأنهم جزء منه، فكأنه يقبل يد نفسه بنفسه، ثم محبة تقبيل الناس ليده من حيثُ إن تلك الخلعة التي يعظِّمه الناس لأجلها لله تعالىٰ لا له هو، فصورته صورة محب التعظيم لنفسه، والقصد مختلف.

ونظير ذلك **أيضًا** محبة العبد للجماع من حيثُ اللذةُ الطبيعيةُ فيه، ثم كراهته من حيثُ إنه يحجب عن كمال شهود الحقِّ تعالىٰ، ثم محبته بتحبيب الله تعالىٰ له فيه من حيثُ إن فيه الإنتاج المطلوب شرعًا لعمَّار الدارين، فيودُّ أنه لا يفارق الجماع ليلًا ولا نهارًا، فصورة هذا صورة محب الجماع للذة النفس، والقصد مختلف.

ونظير ذلك **أيضًا** شهود العبد أنه يملك مع الله تعالىٰ شيئًا، ثم خروجه عن ذلك وشهود المُلْك في جميع الأمور لله تعالىٰ وحده، ثم شهوده أنه يملك مع الله بتمليك الله تعالىٰ له الأمور، مع غناه تعالىٰ عن ذلك كله، فصورته صورة من يشهد الملك مع الله وهو غافل عن الله تعالىٰ، وعن كونه هو المالك الحقيقي، فالصورة واحدة، والقصد مختلف.

ونظير ذلك **أيضًا** دخول العبد في طاعة ولاة الأمور، ثم خروجه عن طاعتهم لعدم خوفه منهم، ثم رجوعه لطاعتهم أدبًا مع الله الذي ولَّاهم علينا، وأعطاهم التصريف فينا، فصورة هذا صورة المبتدىء، والقصد مختلف.

وقس علىٰ ذلك سائر المقامات، لأنها كلها صعود وهبوط، **ولابد أن يرجع العبد إذا كمُل حالُه إلىٰ صورة البداية، ولكن القصد مختلف.**

فاعلم ذلك يا أخي، فإنه نفيس لا يعرفه إلا من سلك الطريق بحقٍّ وصدق، فإذا بلغك عن شيخ أنه قال لمريده شيئًا، فهو بلسان ذلك المقام الذي فيه مريده من عالٍ أو نازل، والحاذق في الطريق يعرف مقام المريد من كلام[1] شيخه له، **فلا يلزم من كلام شيخ في مقام البداية أن يكون الشيخ مبتدئًا**، إنما ذلك بلسان مقام المبتدىء تنزلًا منه إليه، والشيخ في مقامه العلي علىٰ ما هو عليه، ولو لم يتنزل لمريده ما عرف المريد يمشي وراءه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: كمال. والصواب ما أثبتناه.

(٨٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: إياكم أن تبتدعوا في الشريعة شيئًا ولو حسنًا، أو تقيسوا شيئًا؛ فلاث به فقيه وقال: الابتداع الحسن ملحق بالشريعة، والقياس أحد الأدلة الشرعية. وقال عمر ﷺ في التواريخ[١]: نعمت البدعة هي؛ فليس المذموم إلا بدعة لا يستحسنها العلماء.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فلعله كان يرىٰ أن الوقوف علىٰ حدِّ ما ورد أفضل من الابتداع ولو استُحسن. وبه قال الإمام مالك وجماعة، لأنه في حال الوقوف علىٰ حد ما ورد متبع، وفي حال ابتداعه مبتدع ولو استحسن. وفي كلام الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله: من أراد أن لا يضل، فلا يضع ميزان الشريعة من يده، ويقف عند ما حدث له، وإن وقع تناقض عند بعضهم في الأدلة، فذلك إلىٰ الشارع لا إلينا. وأطال في ذلك.

ثم قال: وعندنا أن التناقض في كلام الشارع ممتنع، لأنه كان يخاطب كلَّ جليس بما يناسب مقامه، فقال لبعضهم: «أنفق ولا تخشَ من ذي العرش إقلالًا»[٢] وقال لآخر: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»[٣] وقال لبعضهم: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»[٤]. وقال لآخر: «لا عدوىٰ ولا طيرة»[٥] وقال لبعضهم: «من مس ذكره فليتوضأ»[٦] وقال لآخر: «هل هو إلا بضعة منك»[٧] عند من لا يقول بنسخه، فكل هذا وأمثاله له محمل صحيح عندنا لا نرىٰ فيه تناقضًا.

وقد سبرتُ بحمد الله أدلة الشريعة، فلم أجد فيها تناقضًا أبدًا، بل كل حديث محمول

---

(١) أي في اعتماد سيدنا عمر سنة الهجرة النبوية بداية التقويم الهجري.

(٢) جزء من حديث أخرجه الطبراني (٩٤١)، والبزار (١٩٧٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٨٣).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٧٥٧) ومسلم (٢٧٦٩) بنحوه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) تقدم تخريجه.

علىٰ حال، وكل من قال بالتناقض فهو قاصر النظر عن مقام العلماء العاملين، والحمد لله رب العالمين.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ؒ يقول: لا تبتدع من عند نفسك شيئًا بالقياس إلا إن أُجمع عليه، فقد يكون الحقُّ تعالىٰ لا يرضىٰ منك ذلك، وترك ذلك المقيس توسعةً علىٰ الأمة، لأنه تعالىٰ لا يضل ولا ينسىٰ، وكذلك نبيه ﷺ، وقد قال ﷺ: «وسكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها»[1]، وتأمل يا ولدي قوله ﷺ: «إذا تراءىٰ الشيطان لأحدكم، فليقل: ألعنك بلعنة الله»[2] أي ولا يلعنه العبد بلعنة ينشؤها من عند نفسه.

[سؤال عبد الرحمن الشعرانيّ والده الإمام عن سبب تخصيص الشارع لعن الشيطان بلفظ: «ألعنك بلعنة الله»]

وقد سألني الولد عبد الرحمن حفظه الله حال كونه ابن سبع سنين عن ذلك، وقال: هذا الأدب وجهه ظاهر فيمن لم يرد فيه نص بالشقاء كآحاد الكفار من اليهود والنصارىٰ ونحوهم، لاحتمال أن يختم الله لهم بالإسلام، فإن اللعن إخبار عن كون ذلك العبد من أهل الطرد عن حضرة الله في الدنيا والآخرة، وأنه مخلَّدٌ في النار، فليس للعبد أن يلعن من لم يرد فيه لعن بخصوصه إلا بلعنة الله تعالىٰ، كما في حديث: «لعن الله من عَمِل عَمَلَ قوم لوط، لعن الله من غيَّر حدود الأرض، لعن الله من انتسب إلىٰ غير أبيه»[3] ونحو

(١) أخرجه الحاكم (٧١١٤)، والدارقطني (٤٣٩٦)، والطبراني في «الأوسط» (٨٩٣٨).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٥٤٢) من حديث أبي الدرداء قال: «قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك. ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثًا، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك. قال: إن عدو الله إبليس، جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك، ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر، ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة». وابن حبان (١٩٧٩) والنسائي في «الصغرىٰ» (١٢١٥) والبيهقي في «الكبرىٰ» (٣٤٢٦).

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن حبان (٤٤١٧) من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من كمه الأعمىٰ عن السبيل، ولعن الله من سب

ذلك. وأما إبليس فقد ثبت شقاؤه وخلوده في النار بالنصوص القاطعة، فأي حاجة لقول أحدنا: «ألعنك بلعنة الله»؟ وما وجه عدم الإذن لنا بإنشاء اللعنة عليه كلما تراءىٰ لنا من حيثُ مرتبةُ إيماننا بأن الله لعنه؟! فقلتُ له: يا ولدي، هكذا أدب الأكابر مع الله تعالىٰ أن يكونوا دائمًا تبعًا لما ورد، ولا ينشئون من عند أنفسهم شرعًا ولو حسنًا، فإن من استحسن فقد شرَّع. ومن هنا نهىٰ الشارع عن النذر من حيثُ إن فيه مزاحمة لتشريع الله تعالىٰ، فإنه جعل المباح مباحًا، والمندوب مندوبًا، فكيف يجعله العبد بالنذر واجبًا؟! فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لتلميذه: اذهب إلىٰ الموضع الفلاني، فأتني بالشيء ألفلاني منه. فقال له: إن هناك سبعًا، أو دونه بحر مغرق، أو نار محرقة. فقال: يجب عليك امتثال أمر شيخك ولو أكلك السبع أو غرقت أو حرقت في النار؛ فلاث به فقيه وقال: هذا حرام عليك يا شيخ! وقد قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»[1] بعد أن حكىٰ رسول الله ﷺ عن ملك من الملوك أنه لما أخذ علىٰ رعيته بالسمع والطاعة له وأجابوه، أوقد لهم نارًا وقال: إن كنتم في طاعتي فادخلوا في هذه النار. قال النبي ﷺ: «لو دخلوها لم يخرجوا منها إلىٰ الأبد»[2]. وأطال في الاستدلال علىٰ الشيخ.

والجواب: أنه ربما كان هذا الشيخ مما أعطاه الله تعالىٰ التصريف والقدرة علىٰ أن يحمي مريده من السبع والغرق والنار، أو ممن كُشِفَ له أن السبع والماء والنار ليس لها

والديه، ولعن الله من تولىٰ غير مواليه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط -قالها ثلاثًا في عمل قوم لوط-» والحاكم (٨٠٥٢) والبيهقي في«الكبرىٰ» (١٧٠١٧) وأحمد (٢٩١٥).

(١) أخرجه أحمد بلفظه (١٠٩٥)، والبخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠) بلفظ مقارب.

(٢) لم أقف عليه، وقد أخرج البخاري (٣٤٤٠) عن علي ﵁، قال: «بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلىٰ، قال: فاجمعوا لي حطبًا، فجمعوا، فقال: أوقدوا نارًا، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضًا، ويقولون: فررنا إلىٰ النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتىٰ خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلىٰ يوم القيامة، الطاعة في المعروف» ومسلم (١٨٤٠).

علىٰ مريده سبيل، لعدم تقدير ذلك عليه ونحو ذلك.

وفي كلام سيدي عمر ابن الفارض:

لو قال تيها قف علىٰ جمر الغَضَا لـوقـفـتُ ممتثلًا ولـم أتـوقـفِ

انتهىٰ. فلا يجوز حمل الشيخ علىٰ أنه أمر تلميذه بما فيه هلاكه، مع عجزه عن إنقاذه من الهلاك.

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أن المريد لا يطيع شيخه قط في شيء مهْلِك إلا بعد تجربته شيخه أنه يأخذ بيده في الشدائد والمهالك، ولو كان بينه وبينه مسيرة ألف سنة، كما أن أحدًا من الفقراء لم يسلك البراري والقفار البعيدة بلا زاد إلا بعد أن أعطاه الله تعالىٰ القدرة علىٰ عدم الأكل الأيام أو الجمع أو الشهور، فلا ينبغي لفقيه أن يعترض علىٰ فقير خرج للحج بلا زاد ولا راحلة إلا بعد معرفته حاله يقينًا، بل يقول: «لولا قوة عزم الفقير واعتماده علىٰ الله تعالىٰ بحكم التجربة مرارًا، ما سافر بلا زاد» بل كان يسفه عقل كل من أمره بذلك، فإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ.

وقد حكىٰ الشيخ [...][1] ورُوي عن إبراهيم بن شيبان[2] قال: أرسلني شيخي أبو عبد الله المغربي أيام بدايتي استسقي له ماء من عين هناك، فذهبتُ إليها، فوجدتُ علىٰ العين سبعًا عظيمًا، وكان الموضع ضيقًا، فصرتُ أزاحم السبع مرةً، ويزاحمني أخرىٰ، حتىٰ ملأتُ السقاء لشيخي، لما أعلم من ملاحظة شيخي لي. وكان يقول: لا يكافيء مريدٌ شيخه أبدًا علىٰ تعليمه أدبًا من الآداب ولو خدمه الدهر. وكان يقول: عقوق الوالدين يُمحَىٰ بالتوبة، وعقوق الأستاذين لا يمحوه شيء ألبتة. انتهىٰ. فاعلم

(١) سقط بالأصلين.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسيني، كان شيخ الجبل في وقته. له المقامات والتقوىٰ يعجز عنها أكثر الخلق، صحب أبا عبد الله المغربي، وإبراهيم الخواص، وكان شديدًا علىٰ المدعين متمسكًا بالكتاب والسنة ملازمًا لطريقة المشايخ والأئمة، حتىٰ قال فيه عبد الله بن منازل: إبراهيم بن شيبان حجة الله علىٰ الفقراء، وأهل الأدب والمعاملات. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١/ ٢٤٥).

ذلك، وأطع شيخك فيما أمرك به إن وثقت بحفظه لك من الآفات، وإلا فأنت ونفسك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول: أنا لا أحتاج إلىٰ شيخ يرشدني إلىٰ الطريق، لأني أعرف الحلال والحرام، وما بقي إلا العمل؛ فلاث به بعض الفقراء وقالوا له: الإمام الغزالي كان حجة الإسلام، والشيخ عز الدين بن عبد السلام كان سلطان العلماء، ومع ذلك فقد اتخذ كلٌّ منهما له شيخًا.

والجواب: لا ينبغي اللوث بمن يقول ذلك، لأنه لم يخالط القوم ولم يدخل طريقهم، ولو خالطهم لعلم أنه **يجب علىٰ كلِّ فقيه علاج نفسه، وإخراجها عن رعوناتها، ولا يتم له ذلك إلا بشيخ**، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وسمعتُ الشيخ محمد الشناوي ﵀ يقول: لا ينبغي للعبد إذا مات شيخه أن يمكث ساعة بلا شيخ، بل يتخذ له شيخًا يعيش في حسِّه[1]. انتهىٰ. ولما مات شيخه الشيخ ابن أبي الحمائل اجتمع بسيدي علي المرصفي، وأخذ عنه، لكونه كان من أقران شيخه، وقال: لا أقدر أمكث ساعة بلا أستاذ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﵀ يقول: إذا مات شيخ أحدكم، فخذوا الطريق عن أحد من أقرانه، وإن لم يكن أهلًا لذلك، فالله تعالىٰ يجعله لكم أهلًا علىٰ حسب صدقكم في طلب الطريق، وكأن شيخكم لم يمت.

وكان سيدي أحمد الزاهد ﵀ يقول: من قال من العلماء: «أنا لا أحتاج إلىٰ شيخ ويكفيني العمل بالكتاب والسنة وأقوال الأئمة» فلا يخلو حاله من أمرين: إما أن يكون عارفًا بما يلزمه من آداب الطريق ومنازلها أم غير عارف، فإن كان عارفًا بما يلزمه فيها، فقد قصَّر عن طلب الترقي، وصار وقته ضائعًا، لأنه ربما كانت كلُّ ذرة من أعمال العارفين أفضل من أمثال الجبال من أعمال غيرهم، وإن كان غير عارف بمنازل الطريق

---

(١) الحس: صوت الحركة البسيطة. ويعني به المصريون في اللهجة العامية: مطلق الصوت. ويقول أحدهم للآخر: أنا عايش بحسك، أي في ظلك أو بركتك.

وآدابها فهو جاهل، والجاهل لا يصلح أن يكون قدوةً للناس. انتهىٰ.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: لا بد للعالم من الشيخ في الطريق، ولا يكفيه معرفة النقول، لأن طريق القوم طريق غيب، أو غيب الغيب، فما هي محسوسة حتىٰ يسلك فيها الإنسان بنفسه. قال: وهذا الأمر يقع فيه كثير من الفقهاء الذين لم يجتمعوا علىٰ الفقراء، فيقول أحدهم: وهل ثم طريق غير ما نحن فيه من العمل بالكتاب والسنة؟! ثم إذا دخل أحدهم طريق القوم، يعترف للقوم بالعلم والقرب من الله تعالىٰ، ويقول: ضيَّعنا عمرنا في البطالة، كما وقع ذلك مع الإمام الغزالي، والشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يقول: وهل ثم طريق يُتقرَب بها إلىٰ الله تعالىٰ أعلىٰ مما بيدنا من العمل بالكتاب والسنة؟! فلما اجتمع بالشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ صار يقول: من أعظم دليل علىٰ كون القوم قعَّدوا علىٰ قواعد الكتاب والسنة، وقعَّد غيرهم علىٰ الرسوم ما يقع علىٰ يدهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيء من ذلك علىٰ يد فقيه ولو بلغ في العلم ما بلغ إلا إن سلك طريقهم. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: من مكائد إبليس بالفقيه أن يقول له: أنت تعرف أحكام الكتاب والسنة، فلا حاجة لك بشيخ؛ فيبعده بذلك عن طريق الترقي في مقامات الطريق، وعن معرفة طريق الوصول إلىٰ العمل بما علم. وبتقدير أنه يعمل بما علم فلا يخلو من العلل القادحة في الإخلاص غالبًا. ولو أنه اجتمع بأحد من أهل الطريق، لرقاه في المقامات، وأوصله إلىٰ طريق العمل بالكتاب والسنة، وسلامته من العلل القادحة في الإخلاص.

وقد حدُّوا الطريق بأنها المشي علىٰ رائحة ما كان عليه الصحابة والتابعون دون الرخص والتأويلات، وقالوا: إن حقيقة الصوفي عالم عمل بالكتاب والسنة علىٰ وجه الإخلاص لا غير. فعُلِمَ أن من اكتفىٰ بما عنده من نقول الشريعة، فإنه علىٰ[1] [خطر][2] كبير.

---

(١) بالأصلين: علم. والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي يقول: صحبة الفقهاء للصوفية تزيدهم علمًا إلىٰ علمهم، وما ثَمّ دليل يردّ طريق الصوفية أبدًا، وكيف تُرَدُّ طريق مشيدة بالكتاب والسنة قولًا وفعلًا واعتقادًا، وفي الحديث: «من قال إني عالم فهو جاهل»(١). انتهىٰ، وقد قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: لا يكفي فقراء الأحمدية والرفاعية والبرهانية والقادرية الاكتفاء بنسبتهم إلىٰ هؤلاء الأشياخ، إلا إن وصلوا إلىٰ حدٍّ يسمعون فيه كلام الأموات -علىٰ نزاع في ذلك- فيصير يكلم الشيخ من ضريحه ويسأله عن أحواله، ويسمع جوابه وهذا أمر عزيز. انتهىٰ.

وقد سمعتُ سيدي محمدًا الشناوي ﷺ يكلِّم سيدي أحمد البدوي في حاجة، فقال له: افعل وتوكل علىٰ الله. وليس هناك سوىٰ أنا والشيخ محمد.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ليس شيخ الإنسان إلا من اجتمع به، وأخذ عنه يقظةً ومشافهةً، ورباه بلطيف تربيته. وأما أشياخ الخرق، فيقول أحدهم: شيخي سيدي أحمد بن الرفاعي مثلًا، فإنما ذلك أدب معه، كما يقول المقلد لمذهب الشافعي مثلًا: شيخي الشافعي ﷺ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تجرد من ثيابه، وجعل علىٰ رأسه لُبْدَة(٢)، وفي وسطه مِئْزَرًا(٣)، وترك لباس الزينة، فلاث به بعض الناس وقال: هذا خروج عن الشريعة، فقد أمر الله تعالىٰ بلبس الثياب والعمائم، لاسيما في المساجد ويوم الجمعة.

والجواب: أنه ينبغي حمل هذا الشيخ علىٰ أنه لم يجد ثيابًا ولا عمامة من وجه

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٨٤٦) وفي «الصغير» (١٧٦) وأبو بكر الخلال في «السنة» (١٢٨٢)، وقال السخاوي: وسنده ضعيف، وهو عند الديلمي في «مسنده» عن جابر بسند ضعيف جدًا، ورواه الحارث بن أبي أسامة من جهة قتادة عن عمر بن الخطاب موقوفًا عليه، وهو منقطع. انظر: «المقاصد الحسنة» (١١٦٠).

(٢) اللُّبْدَة: غطاء من أغطية الرَّأس يُشبه الطاقيّة، يُتَّخذ من الصُّوف المتلبِّد.

(٣) المِئْزَر: إزارٌ؛ ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

حلال، ولو أنه وجدها للبسها، ولا يؤمر أحد أن يلبس من الحرام والشبهات لأجل الناس، وقد قال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١] ولا يتزين الإنسان إلا بشيء يرضاه الله تعالىٰ.

وقد يكون ذلك الشيخ الذي ترك لباس الزينة له عذر آخر، وهو عجزه عن حمل القميص والعمامة لشدة ما عنده من الحرارة في جسده.

وقد أنشد الشِّبْلي رحمه الله:

حملتني ما لا أطيق وإنني عن ... حمل أثواب أكِلُّ وأضعف

ووقع مثل ذلك لسيدي علي بن وفا، فكان يقول: بلغتُ من الضعف عن حمل ليمونة أو بندقة من شدة الحال الذي ينزل عليَّ، وحج متجردًا بلا ثوب ولا عمامة، مع أنه كان من أعظم المترفين رضي الله عنه. وقد أقر رسول الله ﷺ أصحابه علىٰ التجريد، فروىٰ البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه «أنه رأىٰ سبعين رجلًا من أهل الصُّفَّة ما من رجل عليه قميص ولا رداء»[1].

وكان مصعب بن عمير يلبس إهاب كبش ليس عليه غيره، وكان أرفه غلام بمكة، وقال النبي ﷺ: «انظروا إلىٰ مصعب دعاه حب الله ورسوله إلىٰ ما ترون»[2]. وفي الحديث: «أحب الخلق إلىٰ الله كلُّ أشعث أغبر ذي طمرين»[3] الحديث، وثبت في الصحيح أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه خرج من ماله كله[4]، وتخلل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢)، وابن حبان (٦٨٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ. وقد أخرجه مسلم (٢٦٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم علىٰ الله لأبره».

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٦٧٨) من حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه يقول: «أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي. فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. قال: وأتىٰ أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلىٰ شيء أبدا». والترمذي (٣٦٧٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٧٧٧٤) والدارمي (١٧٠١).

بالعباءة[1]، وتجرَّد وتقشف، وكذلك عمر تجرد حتىٰ صار يلبس الثوب المرقع بالأُدُم[2]، وخرج رسول الله ﷺ يعود مريضًا في المدينة هو وأصحابه حافيًا راجلًا ليس عليه قميص ولا قلنسوة ولا عمامة، ومات ولم يترك دينارًا ولا درهمًا ولا شيئًا، وتبعه علىٰ ذلك زهَّاد الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلىٰ وقتنا هذا، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٧) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يتعبد ويترك الحرف والصنائع، ويخرج عن ماله كلِّه، فلاث به بعض الناس وقالوا: الاشتغال بالأسباب من التجارة وغيرها والأكل منها مع يسير العبادة خير من كثيرها مع الحاجة للناس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن ترك الأسباب واشتغل بالعبادة، لأن رسول الله ﷺ أقرَّ أصحابه علىٰ مثل ذلك، منهم أهل الصُّفَّة، وكانوا أربعمئة رجل علىٰ عهد رسول الله ﷺ، قاله الجلال السيوطي رحمه الله. وفي القرآن العظيم: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ولم يكن رسول الله ﷺ تاجرًا ولا صانعًا ولا زارعًا، وكذلك أبو بكر وعمر وغالب الصحابة، ولم يكن يتاجر منهم إلا أفراد، وبقيتهم كان يقنع باللقمة وساتر العورة. وفي البخاري ومسلم: «إن أهل الصُّفَّة لم يكونوا يلوون علىٰ أهل ولا مال»[3]، وفي رواية: «لغيرهما»، ولم يكونوا

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن شاهين في «اللطيف لشرح مذاهب أهل السنة» (١٢٥) من حديث ابن عمر قال: «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر الصديق، وعليه عباءة قد خلها في صدره بخلال، فنزل عليه جبريل فقال: يا محمد مالي أرىٰ أبا بكر عليه عباءة فدخلها في صدره بخلال...» وابن المقريء في «معجمه» (١٦٦) وأبو نعيم في «فضائل الصحابة» (٦٣) وقال العراقي: أخرجه ابن حبان والعقيلي في «الضعفاء» قال الذهبي في الميزان: هو كذب. «إحياء علوم الدين» (٢/ ١٦٦).

(٢) الأدم: الجلد.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٥٢)، والترمذي (٢٤٧٧).

يتسببون ولا يخرجون إلىٰ جهاد، وإنما شغلهم عبادة الله وذكره والتفكر في أمر معادهم، والجلوس في المساجد، وكان النبي ﷺ يطعمهم ويموِّنهم هو وأصحابه، ويثبتهم علىٰ طرائقهم، ويقول لهم: «ابشروا أهل الصُّفة»[١]. وطريقة أقر رسول الله ﷺ خواص أصحابه عليها لا يجوز لأحد إنكارها، وفي الحديث: «أن أبا بكر خرج عن ماله كله، ولم يبق لنفسه منه شيئًا، وأرسل له الحقُّ جلَّ وعلا السلامَ وقال: هل أنت عني راض في فقرك هذا؟ فقال: أنا عن ربي راض، قالها ثلاث مرات»[٢].

وفي موطأ الإمام مالك: إذا كان الرجل صحيحًا فهو أحق بجميع ماله يصنع فيه ما شاء، إن شاء يخرج من جميعه، خرج فتصدق به، أو أعطاه لمن شاء[٣]، والله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]. انتهىٰ.

فإن قيل: إن الخير المتعدي أفضل من القاصر، وقال العلماء: لو اشتغل الإنسان بعلم والكسب يمنعه [فهو][٤] فقير [يُعطَىٰ من الزكاة][٥]، ولو اشتغل بالنوافل، فلا يُعطَىٰ من الزكاة، وهؤلاء نفعهم قاصر؛ **فالجواب:** أن هذا ينتقض علىٰ هذا القائل بحال أويس القرني، فإنه كان متجرِّدًا جدًّا، ومع ذلك فقد أمر رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر أن يزوراه ويسألاه الدعاء[٦]، مع أن الخير الذي كان فيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما متعديًا إلىٰ الأمة كلِّها، فلولا مزيد خصوصية باطنة في أويس، ما أمرهما رسول الله ﷺ بالسفر إليه. وذلك نظير

(١) أخرجه السلمي في «الأربعون في التصوف» (١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «الموطأ» (٣٠٠٨).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٦) الذي وقفت عليه أن النبي ﷺ قال لسيدنا عمر رضي الله عنه «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم علىٰ الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» أخرجه مسلم (٢٥٤٢)، وأحمد (٢٦٦).

قصة موسىٰ مع الخضر عليهما الصلاة والسلام، وقد شهد الحقُّ تعالىٰ بأن الخضر أعلم من موسىٰ، مع أن موسىٰ نبي مرسل من أولي العزم.

فإن قال قائل: إن أهل الصُّفَّة وغيرهم من الصحابة كانوا علىٰ قدم في العبادة لم يصل إليه فقراء هذا الزمان؛ **فالجواب**: نعم، وهو كذلك، **فلم يزل الناس ينقصون**، حتىٰ كان الحسن البصريُّ يقول: ما أنتم إلا كاللاعبين بالنسبة إلىٰ أصحاب رسول الله ﷺ. وكان يقول: والله لقد أدركنا أقوامًا كنا في جنبهم لصوصًا، ولو رأوكم وما أنتم عليه لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب!

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: للصوفية حظٌّ عظيمٌ من الاقتداء بالصحابة لم يكن لغيرهم، كالزهد في الدنيا، وعدم مزاحمة الناس عليها، واحتمالهم الأذىٰ، مع غربتهم في الزمان وغربة الإسلام، ودوام طهارتهم، وقيام الليل، وكفِّهم جوارحهم الظاهرة والباطنة عن كلِّ معصية. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لم يبلغنا أن النبي ﷺ أمر بالكسب مشافهةً سوىٰ رجل واحد رآه يسأل الناس إلحافًا، فباع رسول الله ﷺ حِلْسًا[1] للسائل كان يفرشه تحته، واشترىٰ له من ثمنه قَدُّومًا[2] وقال: اذهب فاحتطب، ولا أرينك حتىٰ تجمع لك من ثمنه شيئًا يكفك عن سؤال الناس أو كما قال[3].

(١) الحِلْس: ما يُبسَط في البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع.

(٢) القدُّوم: آلة للنّجر والنحت.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٦٤١) من حديث أنس بن مالك أن رجلًا من الأنصار أتىٰ النبي ﷺ يسأله فقال: «أما في بيتك شيء؟ قال: بلىٰ. حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: ائتني بهما. قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده. وقال: من يشتري هذين؟ قال رجل: أنا، آخذهما بدرهم. قال: من يزيد علىٰ درهم مرتين، أو ثلاثًا. قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري. وقال: اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلىٰ أهلك، واشتر بالآخر قدومًا فأتني به، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودًا بيده، ثم قال له: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يومًا، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترىٰ ببعضها

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: كان ﷺ ناصحًا لأصحابه يَدُلُّ كلَّ إنسان علىٰ ما هو خير له، فأمر قومًا بالتوكل ورفض الأسباب، وأمر قومًا بالتوكل مع القيام في الأسباب وعدم الاعتماد عليها، وأمر قومًا بالعبادة، فلا يُقال: السبب أفضل مطلقًا، ولا تركه أفضل مطلقًا. انتهىٰ، فاعلم يا أخي ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٨) ومما أجبتُ به عن العلماء والفقراء الذين لا يغفلون عن نظافة ثيابهم، ويضيق صدر أحدهم إذا اتسخ ثوبه، فلاث بهم بعض المتصوفة وقال: هذه رعونات للنفس! ولم يكن السلف الصالح يسعون إلا في نظافة قلوبهم، حتىٰ كان مالك بن دينار يتسخ ثوبه حتىٰ يكون كالأرض، فيقولون له: ألا تغسل ثوبك؟ فيقول: ليت قلبي في القلوب مثل ثوبي في الثياب.

والجواب: أن هذا الاعتراض مردود بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والثوب النظيف مما يُتزَين به، بخلاف الوسخ، وأمر رسول الله ﷺ بالنظافة، وهي تنقية البدن والثياب من الفضلات والأوساخ، كوسخ الأذن والرأس والأنف والأسنان ومعاطف البدن، وتسريح اللحية، وتنظيف عقد الأصابع، وما تحت الأظفار، وشعور الإبطين، وحلق العانة، وقص الشارب، وغسل البدن كلِّه، وما أشبه ذلك، فلعل المنكِر علىٰ الفقراء النظافةَ المذكورةَ إنما أنكر لظنِّه فيهم أنهم يفعلون ذلك لحظِّ النفس من غير قصدهم بذلك اتباع السنة، وفي الحديث: «لا تقوم الساعة حتىٰ تصير السنة بدعة، والبدعة سنة، حتىٰ إذا تُرِكَت البدعة، قالوا: تركت السنة»[1]. انتهىٰ. وقد وُجِدَ ذلك في طائفة الفلاحين وغيرهم، فيعيب أحدهم علىٰ الرجل الكحل، وإرداف الزوجة علىٰ الدابة خلف زوجها ونحو ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ثوبًا، وببعضها طعامًا، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدقعٍ، أو لذي غُرْمٍ مُفظعٍ، أو لذي دم مُوجِعٍ» وابن ماجه (٢١٨٩) والبيهقي في «السنن» (١٣٢١٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٨٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يلبس المرقعة والصوف والفَرَجيَّة[١] والجبة السوداء، ويربي الشعرة، ويتميز عن غالب الناس بالهيئة، ولاث به بعض الفقراء وقالوا له: هذا من لباس الشهرة الذي نهىٰ عنه رسول الله ﷺ بقوله: «من لبس ثوب شهرة ألتهب نارًا يوم القيامة»[٢].

والجواب: أن ذلك ليس من ثياب الشهرة التي نُهِي عنها، لثبوت هذه الأمور من فعل النبي ﷺ وأصحابه، أو تحمل ذلك علىٰ من قصد بذلك الشهرة والتميز، حتىٰ صار الناس يشيرون إليه بالأصابع، فقد رُوِي أن أول من لبس المرقعة أبونا آدم عليه الصلاة والسلام وأمنا حواء، وذلك أنه لما أكل من الشجرة تطاير عنه الحلل، فرقع له ثوبًا من ورق الشجر، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ولم يكن أحد من الخلق يستحييان منه، لأنه لم يكن لهما ولد، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١]، أي لا لغيرهما، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة وعائشة: «لا تستخلفا ثوبًا حتىٰ ترقعاه»[٣]، وأنه ﷺ كان يخصف النعل ويرقع الثوب[٤]، وكان بين كتفي عمر بن الخطاب ﷺ ثلاث رقاع لُبَد[٥] بعضها فوق بعض، وذلك أيام خلافته. وكذلك رقَّع أبو بكر وعليٌّ، وكان يقول: لقد رقَّعتُ مَدْرعتي[٦] هذه

---

(١) الفرجية: ثوبٌ واسع طويل الأكمام يتزيَّا به علماءُ الدين.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الذي وقفت عليه أنه قال للسيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إذا أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلقي ثوبًا حتىٰ ترقعيه» أخرجه الترمذي (١٧٨٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٠١٠)، والحاكم (٧٨٦٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٧٧٠).

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن حبان (٥٦٧٦) من حديث عروة قال: «قلت لعائشة: يا أم المؤمنين، أي شيء كان يصنع رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: ما يفعل أحدكم في مهنة أهله، يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويرقع دلوه» والبخاري في «الأدب المفرد» وأحمد (٢٤٧٤٩).

(٥) اللبد: جمع اللِّبْدَةُ، وهي كلُّ شعر أو صوف مُتَلَبِّد.

(٦) المدرعة : جبة من صوف مشقوقة المقدم.

حتىٰ استحييتُ من ترقيعها! وكان إزار عمر ﷺ موصولًا.

وقد ربىٰ رسول الله ﷺ شعر رأسه حتىٰ كان يضرب منكبيه، ولبس الفَرَجِيَّة والكم الضيق، وفي صحيح مسلم عن حذيفة قال: «ألبسني رسول الله ﷺ فضل عباءة كانت عليه»[1]، وقسَّم النبي ﷺ أقبية بين أصحابه[2]، والأقبية كالفرجية[3]، ولبس ﷺ مِرْطًا[4] أسود، أي منسوجًا من الشعر الأسود[5].

فإياك يا أخي أن تنكر علىٰ الفقراء لبس الجبة السوداء وتقول: هذا لبس الرهبان، وفي الحديث أيضًا: «أن رسول الله ﷺ لبس جبة شامية ضيقة الكمين، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يخرج يده من كمها ليتوضأ ضاقت عليه، فأخرج يديه من ذيلها وغسلهما»[6]، ولبس ﷺ الصوف، وكذلك موسىٰ وعيسىٰ وهود وصالح وشعيب. وكان موسىٰ عليه الصلاة والسلام يوم كلَّمه ربُّه عليه جبة صوف وكساء صوف، وكذلك عيسىٰ يوم رُفِع. وكان الصحابة يلبسون الصوف حتىٰ يصير ريحهم يوم الجمعة في الحر كريح الضأن، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ فعل السنة بالجهل، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٠) ومما أجبتُ به عن الفقراء المجاورين في المساجد إذا مرضوا في المسجد، وعجزوا عن الخروج والدخول لصلاة الجماعة وغيرها، فلاث بهم الناس وقالوا: قد

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٧٨٨) وابن حبان (٧١٢٥) والحاكم (٤٣٢٥).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٥٩٩) من حديث المسور بن مخرمة ﷺ، قال: «قسم رسول الله ﷺ أقبية، ولم يعط مخرمة منها شيئًا، فقال مخرمة: يا بني، انطلق بنا إلىٰ رسول الله ﷺ، فانطلقت معه، فقال: ادخل، فادعه لي، قال: فدعوته له، فخرج إليه وعليه قباء منها، فقال: خبأنا هذا لك. قال: فنظر إليه، فقال: رضي مخرمة» ومسلم (١٠٥٨).

(٣) بالأصلين: عن الفرجية.

(٤) المِرْط: كساءٌ من خزٍّ أو صوف أو كتَّان يُؤتَزر به.

(٥) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٠٨١) عن عائشة، قالت: «خرج النبي ﷺ ذات غداةٍ وعليه مرط مرحل من شعر أسود» وأبو داود (٤٠٣٢) والترمذي (٢٨١٣)، وغيرهم.

(٦) تقدم تخريجه.

قال رسول الله ﷺ: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم»[١]، وليس ذلك إلا للخوف من نجاسة المسجد، وهذا الأمر موجود فيمن مرض بالبطن مثلًا.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار على مثل ذلك، فقد ثبت في الحديث «أن سعدًا أصيب يوم الخندق، وضربوا عليه خيمة في المسجد، وصار الناس يعودونه من بعيد ومن قريب والدم يسيل منه في المسجد[٢]»، ولما قدم وفد ثقيف أنزلهم النبي ﷺ في المسجد، وقال: «هو أرق لقلوبهم»[٣]، وفي الحديث أن الصحابة كانوا يأكلون مع رسول الله ﷺ ويشربون في المسجد[٤]. ولم يبلغنا أن أحدًا من أهل الصفة كان يخرج من المسجد حتى يأكل خارجه. انتهى، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤١) ومما أجبتُ به عن كثرة شم بعض الفقراء الرياحين، فلاث بهم بعض الناس وقالوا: هذا ترفُّه لا يليق بالفقراء، وإنما يليق بهم التقشف.

والجواب: قد رُوي في الحديث أن الصحابة ﷺ كانوا يتثرون زهر الفاكهة والرياحين في العقيقة، وفي الحديث: «من عُرِضَ عليه طيب أو ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الريح»[٥]. انتهى، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٢) ومما أجبتُ به عن حمل الفقراء الحربة والجوكان[٦] والقنديل، حتى لاث

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٧٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٣٦) وقال ابن حجر: قال البيهقي: وروي عن مكحول عن يحيى بن العلاء عن معاذ وليس بصحيح. وقال ابن الجوزي إنه حديث لا يصح. انظر: «التلخيص الحبير» (٤/ ١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣)، ومسلم (١٧٦٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٢٦)، والبيهقي في «السنن» (٤٣٣٤) وأحمد (١٧٩١٣) والطبراني في «الكبير» (٨٣٧٢).

(٤) أخرج ابن ماجه (٣٣٠٠) من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي يقول: «كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الخبز واللحم» وابن حبان (١٦٥٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٥٣)، وأبو داود (٤١٧٢).

(٦) الجوكان: عصى مدهونة طولها نحو أربعة أذرع برأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد عن نصف ذراع، تستخدم في لعب الكرة.

بهم بعض الناس وقال: هذه هيئة لم تبلغنا عن أحد من السلف الصالح.

والجواب: أنه ثبت في الحديث: أنه ﷺ كان له حربة في قطعة رمح يتوكأ عليها، ويركزها أمامه يصلي إليها[١]، وفي أوقات كانت تُحمَل بين يديه إلىٰ مصلىٰ العيد، فيصلي إليها[٢]، وهي المسماة بالعَنَزة، ومثل الحربة في ذلك الجوكان -بلغة العجم- وهو المِحْجن[٣].

ولما حجَّ أبو بكر وأفاض من جمع، صار يحوش بعيره بمِحْجنه ثم يجذبه إليه، يريد بذلك تحريكه، وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ استلم أركان البيت بمِحْجنه لما حج»[٤]، وفي الحديث: «أن بعض الصحابة كان يمشي إلىٰ المسجد في الليلة المظلمة بالنور»، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٣) ومما أجبتُ به عن الفقراء الأحمدية أو البرهانية وغيرهم في ندائهم بالجمع لمناقشة كلِّ من أساء الأدب معهم، وهجرانهم له إذا ترك موافقتهم علىٰ الإرث، وطلبهم الصلح بين الفقراء من غير أن يطلبوا ذلك، وأنكر عليهم الفقهاء وقالوا: هذا الأمر لا يكون إلا لمن ولَّاه وليُّ الأمر من قاضٍ وحاكم سياسي.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ مثل ذلك، فقد ثبت في الأخبار الأمر بالصلح بين المسلمين، وقد أخر ﷺ الصلاة وذهب يصلح بين قوم وقال: «إن أبطأتُ فقدِّموا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٩٨) من حديث عبد الله بن عمر: «أن النبي ﷺ كان يركز له الحربة فيصلي إليها» ومسلم (٥٠١).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث أخرجه البخاري (٩٥٧) من حديث عبد الله بن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يصلي في الأضحىٰ والفطر، ثم يخطب بعد الصلاة» ومسلم (٥٠١).

(٣) المِحْجَن: كلُ معوج الرأس كالصَّولجان.

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (١٢٧٣) من حديث جابر قال: «طاف رسول الله ﷺ بالبيت في حجة الوداع علىٰ راحلته يستلم الحجر بمحجنه، لأن يراه الناس وليشرف وليسألوه، فإن الناس غشوه» وأبو داود (١٨٧٩).

أبا بكر يصلي بالناس». ويُسَمِي ما ذُكِرَ القومُ بالمنافرة والمطالبة والمناقشة، وقالوا: لا يزال الفقراء بخير ما تنافروا، وبذلك ترتفع المداهنة بينهم، ثم إن رجع الفقير الذي جمعوا عليه الجمع وأطاع فذاك، وإلا قالوا: تعزير كل من خرج عن الحقِّ بالضرب وغيره، ويؤيد ذلك حديث مسلم مرفوعًا: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم أنه يخلف من بعدهم خُلُوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1]. انتهىٰ. «ومن جاهدهم بيده» شمل ضربهم علىٰ وجه التعزير.

وإذا كان المريد صادقًا، فهو يتقدم للضرب والتعزير بنفسه، وإن وقع أنه رجع عن تحكيم الشيخ في نفسه، فقد نقض العهد، وما بقي للشيخ ولاية عليه.

واعلم يا أخي أن من أجاب عن نفسه وخاصم من نصحه، استحق الهجران. وقد مضت سنة الأشياخ أن يهجروا من أجاب عن نفسه واتبع هواه. وقد هجر رسول الله ﷺ بعض نسائه شهرًا في غيبة وقعت منها [في حق ضرتها][2]، وهجر رسول الله ﷺ من كذب عليه مرة واحدة ثلاثة أشهر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي وعد الفقراء بأن يصنع لهم طعامًا، ثم أبطأ عليهم، فصفعوه وآذوه بالكلام، فلاث بهم بعض الفقهاء وقال: للمحسن أن يحسن أو لا يحسن.

والجواب: أن خلف الوعد من صفات المنافقين كما هو معلوم، وفي مطالبة هذا الفقير بالوفاء بالوعد مصلحةٌ له، وتأديةٌ لحقوق الإخوان الذين وعدهم، ونهي عن منكر، وربما ظن بعض من لا خلطة له بالقوم أنهم إنما يصفعونه لحظ نفوسهم، وهو ظن فاسد،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٠)، وابن حبان (٦١٩٣).

(٢) ساقط من «ب». أخرج أبو داود (٤٦٠٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنه اعتل بعير لصفية بنت حيي، وعند زينب فضل ظهر فقال رسول الله ﷺ لزينب: «أعطيها بعيرا» فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية؟ «فغضب رسول الله ﷺ فهجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر».

إنما يصفعونه ليخرج عن صفة النفاق التي تضره في دينه. وليس بين القوم بحمد الله ضغائن ولا شحناء، وكيف يصح من أحدهم ارتكاب ما يمنع أعمالهم عن الرفع إلىٰ السماء؟! وفي الحديث مرفوعًا: «أولم ولو بشاة»[١] لمن تزوج . وفي هذا دليل علىٰ مُطالبة الإخوان بالحقوق من حيثُ إن الوليمة علىٰ العرس سنة، ومنفعتها ترجع علىٰ الإخوان من حيثُ إطعامُ الطعام، فاعلم ذلك، وظنَّ بالفقراء خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر المريد إذا طلب التنصيل من ذنبه أن يستغفر قائمًا مكشوف الرأس، فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا أمر لم يأت به كتاب ولا سنة، ويكفيه الاستغفار علىٰ أي حالة كان من قيام أو قعود وعمامته علىٰ رأسه.

والجواب: أنه لا إنكار علىٰ هذا الشيخ، لأن مقصوده حصول الصفاء والمسارعة إلىٰ براءة الذمة بكلِّ حيلة، ولا شك أن كشف المستغفِر رأسه أبلغ في الذل، وفي سرعة رقة قلب المظلوم عليه ورحمته له، وما لا يُتوصَل إلىٰ المستحَب إلا به فهو مستحَب، ورُوِي أن آدم وحواء لما تاب الله عليهما، استغفرا الله تعالىٰ قائمين، و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فكان استغفارهما قائمين إنما هو إظهار لشدة اعتنائهما بالتوبة، وإلا فمن المعلوم صحة الاستغفار قاعدًا ومضطجعًا. ويؤيد ذلك أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فقدَّم القيام اهتمامًا به، والاستغفار ذكر الله تعالىٰ بيقين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ المريدين عن الأكل من طعام النساء، [فلاث به الناس وقالوا: كان النبي ﷺ يأكل من طعام النساء][٢] فكانت أم حرام بنت مِلْحان[٣]

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥١٦٧) ومسلم (١٤٢٧).

(٢) سقط بالأصلين، وقد استكملناه اجتهادًا بما يناسب السياق.

(٣) أم حرام بنت ملحان بن خالد الأنصارية، خالة أنس بن مالك، كانت تخرج مع الغزاة وتشهد الوقائع. حضرت فتح قبرص فسقطت عن بغلتها فاندق عنقها، فماتت ودفنت في الجزيرة ت ٢٧هـ. الإصابة (٨/ ٣٧٥)، الأعلام (٢/ ١٧٢).

تدعو النبي ﷺ وبعض أصحابه إلىٰ طعام تصنعه وهي بقباء[1]، فكان ﷺ يذهب إليها هو وأصحابه[2]. ومعلوم أن رسول الله ﷺ أكبر الناس مروءة، فلو كان في ذلك قدح في المروءة لما فعله رسول الله ﷺ.

والجواب: أن الشيخ لا يخفىٰ عليه مثل ذلك، وإنما نهىٰ المريد عن الأكل من طعام النساء رفعًا لهمته أن تكون امرأة تقوم عليه في ذلك النهار، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

وأيضًا فإن المريد ربما مال بالقلب إلىٰ تلك المرأة بسبب إحسانها، ولاسيما إن كانت شابة جميلة، فإنها ربما أتلفت باطن ذلك المريد بالكلية، بخلاف من كان يملك إربه من الأشياخ.

وأرسلت بعض النساء له ﷺ لبنًا وهو واقف يخطب بعرفة فشربه[3]، وأرسلت أم عطية كتف شاة مطبوخة إلىٰ بيت النبي ﷺ، فأكل منها وقال: قد بلغت محلها[4]، أي لكون أم عطية كانت تأخذ الصدقة[5]، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٧) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يتواجد عند سماع القرآن وتقع عمامته، فقال له فقير: هذا حرام عليك؛ فلاث به العلماء وقالوا: كيف يكون التواجد عند كلام الله تعالىٰ

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٢٨٢) من حديث عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك ﷺ، أنه سمعه يقول: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب إلىٰ قباء، يدخل علىٰ أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت تحت عبادة بن الصامت، فدخل يوما فأطعمته...» ومسلم (٢٠٤٠).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٥٧٨) عن أنس قال: «قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلىٰ رسول الله ﷺ ...» ومسلم (٢٠٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٨٨)، ومسلم (١١٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٤٦)، ومسلم (١٠٧٣).

(٥) أي فالشاة لها صدقة، ثم حينما أعطتها للنبي ﷺ كانت هدية له ﷺ لكونه ﷺ لا يأكل الصدقة.

حرامًا؟! وقد قال تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨]، فمدحهم علىٰ ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير، لأن مثل هؤلاء الفقراء لا يجهلون إباحة التواجد، وإنما مراده أن ذلك حرام من حيثُ القصدُ والذوقُ حيثُ تفرَّس فيه أنه متفعل. وقد قال الشيخ محيي الدين بن العربي في الباب الرابع والثمانين ومئة من «الفتوحات المكية»: من كان لا يجد قلبه مع الله تعالىٰ إلا في السماع، فالواجب عليه تركه، لما في ذلك من المكر الإلهيِّ الذي لا يشعر به إلا الأكابر. ومن كان يجد قلبه فيه وفي غيره، ولكنه يجده في النغمات أكثر، فحضوره السماع حرام، سواء كانت النغمات بشعر أو غيره، حتىٰ في القرآن. ثم إن من وُجِدَ عليه عند سماع القرآن، فإن كان ذلك لحسن صوت القاريء، فذلك معلول، وتلك الرقة التي وجدها في قلبه من الطبيعة النفسية.

[توجيه المؤلف لما يقع للشيخ عبد الرحمن الأجهوري عند تواجده]

وقد كان أخي العالم الصالح الشيخ عبد الرحمن الأجهوري المالكي يحضر وقت سيدي عمر بن الفارض في القرافة ويتواجد، فتقع عمامته، فقالوا له: إما أن تكون غائبًا، فقد انتقض وضوؤك، وما رأيناك جددت طهارة؛ وإن كنتَ حاضرًا، فلأي شيء ترمي عمامتك؟! فأجبتُ عنه بأن رميها قد يكون من ثقلها وهو حاضر العقل، فلا تعارض. فاعلم ذلك، واحمل كلام هذا الفقير علىٰ ما يطرأ في السماع من التغفل، لا علىٰ أصل السماع، فإنه محمود، [نظير الرياء في العلم والعمل، فالأصل[١] محمود][٢]، والفرع[٣] مذموم[٤]، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزجر تلامذته عن السؤال عن حكم من الأحكام

---

(١) أي العلم أو العمل.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) أي الرياء.

(٤) بالأصلين: محمود. والصواب ما أثبتناه.

حال تدريسه، فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا درس لا فائدة فيه، إذ الفائدة إنما هي في سؤال الإنسان عما لا يعلم.

والجواب: أن الأشياخ لا تجهل مثل ذلك، و[لكن تدريسهم إنما هو تشويق لأحوال الرجال لا غير. ومراد الشيخ أن المريد يعمل علىٰ][1] جلاء قلبه حتىٰ يصير يفهم أحكام الكتاب والسنة، ويأخذ الأحكام من حيثُ أخذها المجتهدون، فلا يقنعون من المريد ببلغتَ وصدقتَ، وإنما يقنعون منه بذقتُ ورأيتُ.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: ليس في طريق القوم مجادلة ولا مماراة، ولا ممالقة[2] ولا منازعة، لحديث: «عند نبي لا ينبغي التنازع»[3]، وحضرة الأولياء كذلك لا ينبغي فيها التنازع، لأن أحدهم يتكلم بالأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها من طريق كشفه، فهو كالنصوص الشرعية، فعُلِمَ أنه لا يكفي المريد عندهم العلم من غير ذوق كغيرهم، فربما علم المريد الحكم تقليدًا، فصار يدعيه ذوقًا، فانقطع عن الترقي، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٩) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي مرَّ علىٰ بابه جماعة من الفقهاء، فوجدوه يضرب شخصًا وهو يصيح: أنا مظلوم، والباب مغلق بينه وبين الناس، فصاح به الفقهاء: ما يحل لكم من الله تعالىٰ أن تضربوا مسلمًا ظلمًا، بأنه ربما كان ذلك الشخص المظلوم عند المارين قد استحق مثل ذلك، وهو كاذب في قوله: «أنا مظلوم» كمن أفسد حريم الأمير، أو سرق له نصابًا فأكثر واستحق قطع اليد لو رُفِعَ إلىٰ الوالي، فرفق به الأمير، وأبدل قطع اليد بضربه بالسوط، وربما شكر فعله ذلك المضروب الذي لم يقطع يده إذا برد ألم الضرب عليه، فتكون هذه المسألة من باب ظلم دون ظلم. فابحث يا أخي أولًا عن سبب ضربه، ثم أنكر علىٰ الأمير بطريقه الشرعي. وأما صياحك علىٰ الأمير بأن هذا

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

(٢) الْمُمَالَقَةُ: الْمُنَافَقَةُ.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧).

أمر لا يحل لك، فتهور منك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل عليه عالم كبير فلم يحتفل بأمره ولا قام له ولا تبسم في وجهه، فلاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه أن يعطي العالم حقَّه من التبجيل، ولكن هذا إزراء بالعلماء[1].

والجواب: أن ذلك الشيخ ربما كان قلبه مشغولًا بأهوال يوم القيامة، قد أخذت بمجامع قلبه عن أحوال أهل الدنيا وهو باهت يشاهد بعين قلبه من ترجح ميزانه ومن يخسر، ومن يمشي علىٰ الصراط سالمًا حتىٰ يخلص إلىٰ الجنة، ومن يقع من علىٰ الصراط ونحو ذلك. وهذا الأمر هو الغالب علىٰ كلِّ من حَقَّ له قدم الولاية من الله تعالىٰ له.

فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ مثل ذلك، فإن وقوع أحدهم في إزدراء أحد من العلماء أبعد من البعيد، وكيف يزدري أحدهم حملة شريعة رسول الله ﷺ وهم يشهدون عظمة صاحبها ﷺ؟! فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥١) ومما أجبتُ به عن العارف الذي يقول عن الفقير المتجرِّد من الدنيا عند الناس كلِّهم: فلان غارق في محبة الدنيا؛ فلاث به الناس وحملوه علىٰ الحسد والعداوة له، وقالوا: إذا كان المشايخ يكرهون بعضهم هذه الكراهة، فما بقي أحد منا يُلَام علىٰ عداوة أحد!

والجواب: أنه قد يكون مراد هذا العارف بأن هذا الفقير غارق في محبة الجاه والصيت بالزهد والصلاح، كما هو الغالب علىٰ كلِّ من يتجرَّد من الدنيا في ظاهره، فأراد العارف أن ينبِّه ذلك الفقير علىٰ تفتيشه باطنه، فربما كانت حالته إذا لم يتجرَّد من الدنيا أحسن من حالته إذا تجرَّد، لما حصل له من الآفات بسبب تجرده. ولا يجوز حمل ذلك العارف علىٰ العداوة والحسد، إذ من شرط العارف عدم العداوة والحسد لأحد من عبيد الله عزَّ وجلَّ، فلا يليق بمقامه ذلك، فإنه جهل بأحكام الله، وعدم رضا بقسمة الله، وحاشا العارف من ذلك! حاشاه!

---

(١) انظر أيضًا الجواب (٢٩٠).

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ليس التجرد من الدنيا إلا التجرد من الميل إليها [إلا][1] لغرض صحيح، وأما التجرد منها ظاهرًا مع المحبة لها باطنًا فهو نفاق. وقد كان مالك بن دينار ﷺ يقول: يلبس أحدهم العباءة بدرهم، وشهوته في قلبه بخمسة دراهم، فأين الزهد؟! وسُئل الإمام الجنيد عمَّن لم يبقَ عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة، فقال: المكاتَب عبد ما بقي عليه درهم. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن العبد لو نظر إلىٰ حاله بعين البصيرة، لوجد نفسه غارقًا في شهوات الدنيا ليلًا ونهارًا من كلِّ يوم وشرب وجماع وجاه وعافية وغير ذلك، وما سلِم إلا من أخذ من الدنيا ما يسدُّ به الضرورة فقط. فاعلم ذلك، وسلِّم للعارفين مناقشتهم للعبَّاد والمريدين، فإنهم أعرف منهم بأحوالهم، كالبيطار يعرف مرض الدواب أكثر من أصحابها، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: تقوىٰ الله حق تقاته أسهل من تقوىٰ العبد حد الاستطاعة؛ فلاث به بعض العلماء وقالوا: هذا خلاف ما عليه جمهور العلماء.

والجواب: أن الحق مع هذا الشيخ، لأن تقوىٰ الله حقَّ تقاته أن يعلم العبد من طريق إيمانه أن الله تعالىٰ لولا وقاه المعاصي ما قدر علىٰ تلك التقوىٰ، وهذا أمر سهل، بخلاف الأمر بتقوىٰ الله حد الاستطاعة، فإنها لا تصح للعبد إلا بعد بذله الوسع في التقوىٰ، حتىٰ لا يبقىٰ فيه سعة لأعلىٰ من ذلك، وهذا أصعب علىٰ النفس، لأن من شأنها الكسل والميل إلىٰ الراحات.

وهذا نظير ما أوحىٰ الله تعالىٰ به إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام في حق الشكر، فإن اعتراف العبد لله تعالىٰ بأن جميع ما هو فيه من نعمه تعالىٰ عليه أسهل من بذله وسعه في استعمال جميع جوارحه الظاهرة والباطنة في مرضات الله عزَّ وجلَّ دون استعمالها فيما يكره. وهذا الشكر أصعب من الشكر بالاعتراف باللسان، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، ولم يكتفِ منهم بالشكر باللسان. وهذه الأمة المحمدية أحقُّ بقيامها بهذا الشكر.

ومن تأمل في قوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، عرف أن الأولياء مكلَّفون بترك الخواطر الردية، بخلاف غيرهم، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٤] عند من لا يرىٰ نسخها، وكتب القوم مشحونة بمؤاخذتهم بالخواطر، وما عُصِمَ عن ذلك سوىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم الذين لا تخطر الفحشاء علىٰ قلوبهم، ولا تقام عليهم حجة يوم القيامة. وأما حديث: «لو عرفتم الله حق معرفته، وخفتم من الله حق خوفه، لعلمتم العلم الذي ليس معه جهل، ولن يبلغ ذلك أحد من خلق الله تعالىٰ. قيل: ولا النبيون يا رسول الله؟ قال: ولا النبيون، الله أعزُّ وأعظم من أن يبلغ أحد أمره كله»[1]. ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] أي ما عبدوه حقَّ عبادته، ولا أتوا بواجب الحق الذي له عليهم، فالمراد به هضم نفوسهم والاعتراف بفضل الله تعالىٰ عليهم، وإلا فالواجب اعتقادنا في جميع الأنبياء والمرسلين أنهم قدروا الله حق قدره القدرة التي تمكن البشر علىٰ اختلاف مقاماتهم، ولم يبقَ عليهم حجة تقام عليهم يوم القيامة، وتكون الآية في حق غيرهم من الأمة لعدم عصمتهم.

وإيضاح ذلك أن الأمر بتقوىٰ الله حق تقاته لا بد له من محل يقبله، ولو لم يكن له محل يقبله، لكان الأمر بالتقوىٰ يرد علىٰ غير محل قابل له، وذلك تأباه الحكمة الإلهية نظير ما قلنا مرارًا في قدرة العبد، فإنه لولا جعل الله له قدرةً ما خاطبه بقوله: «افعل كذا وكذا» لأنه ليس من الحكمة أن يقول: افعل يا من لا يفعل، وامش يا مقعد ونحو ذلك،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الديلمي (٥١٢٣) من حديث معاذ بن جبل: «لو عرفتم الله عز وجل حق معرفته لمشيتم علىٰ البحور، ولزالت بدعائكم الجبال، ولو خفتم الله حق خوفه لعلمتم العلم الذي ليس معه جهل، وما بلغ ذلك أحد ولا أتىٰ، الله عز وجل أعظم من أن يبلغ أحد أمره كله» ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٨٠٢).

فللشيء تقوىٰ بحسب مقامه، وللمؤمن تقوىٰ تناسب مقامه، فإذا اتقىٰ النبي التقوىٰ التي أُمر بها كان متقيًا لله حق تقاته، وكذلك المؤمن.

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: للتقوىٰ مراتب، وأهل الله لا يقنعون إلا بأعلىٰ مراتبها وأكملها:

فأولها: أن يتقي المؤمن ما حرَّم الله عليه، وليس عليه بعد ذلك جناح فيما أُبيح له.

ثانيها: أن يتقوا الرياء في الأعمال بالإخلاص، والشك فيها بالصدق، والشبهات بالورع.

ثالثها: أن يتقوا ويحسنوا، أي يتقوا السعة في الدنيا، ويتنزهوا عنها، كما عليه الأنبياء والأولياء، ويحسنوا بالمراقبة لله تعالىٰ والحياء منه، كما أشار إلىٰ هذه المراتب قوله تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ﴾ [المائدة: ٩٣]، فكان آخر تقواهم منوطًا بالإحسان، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «منهج الصدق والتحقيق» في الباب الحادي عشر منه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي جاع وأحضروا بين يديه طعامًا من مكَّاس، وطعامًا من قاضٍ، فأكل من طعام المكَّاس دون طعام القاضي، فقال له بعض الناس: طعام القاضي أخف من التحريم من طعام المكَّاس. فقال: بل المَكْس[1] أخف.

والجواب: أن الحق مع هذا العالم، لأن الرِّشوة كالمكس في التحريم، وتزيد عليه في الإثم من حيثُ كونُها تتعلق ببيع الدِّين، هكذا قال جماعة. وقالوا: مما يؤيد ذلك أن النمل لا يأكل من طعام القاضي ويأكل من طعام المكَّاس، ومن شك فليمتحن. ثم إن مثل هذا الأمر يدخله الاجتهاد، فمن ترجَّح عنده أن المَكْس أقوىٰ في التحريم أو طعام القاضي، وجب عليه العمل بمقتضاه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يجب عليَّ التورع عن الشبهات لأجل

---

(١) المَكْس: الضَّريبة.

الناس، لا لأجل نفسي؛ فأشكل ذلك علىٰ بعض العلماء وقال: كيف ذلك؟!

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون ممن أحكم ترك الأكل من الشبهات، وظن في الله تعالىٰ حمايته منه حتىٰ يموت، وإنما يتورع الآن لئلا يُرَد دعاؤه لمصالح العباد، فكان الباعث له علىٰ ترك الشبهات إنما هو خوفه أن يُرَد دعاؤه إذا سأله الناس في حاجة، وهذا الأمر يتعين فعله علىٰ كلِّ من تصدر لقضاء حوائج الناس عند الله عزَّ وجلَّ.

وقد استحميت مرةً عن الأكل من طعام كلِّ من لا يتورع في مكسبه، فغلبتني النفس يومًا، وأردت أن آكل من طعام شخص من المباشرين، فرأيتُ زوجتي أم عبد الرحمن لها ثلاثة أشهر مستحمية عن الزفر والجبن والبطيخ والعنب وغير ذلك لأجل ولدها المرضع، فقلتُ في نفسي: إذا كان هذا فعل امرأة لأجل مصلحة ولدها الذي لم يظهر منه نفع للناس، فاستحمائي أنا لأجل من ظهر نفعه للناس[1] أولىٰ! فكانت لي جندًا من جنود الله إلىٰ وقتي هذا، ونسأله الدوام علىٰ ذلك إلىٰ الممات.

فمعنىٰ كلام الشيخ أني فرغتُ من حكم التورِّع لأجل مصلحة نفسي، وأنا الآن إنما الباعث لي علىٰ الورع مصلحة الناس، وإن كان ذلك يرجع أيضًا إلىٰ مصلحة نفسه، فتأمل، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للناس: لا أحد منكم يؤذيني، فإني مجاب الدعوة؛ فلاث به الناس وقالوا: من أين يعرف هذا أنه مجاب الدعوة؟!

والجواب: أنه يعرف ذلك بإحكامه الأكل من الحلال، فإن من أحكم أكل الحلال لا يصير له عضو ظاهر ولا باطن يتحرك فيما يكرهه الله أبدًا. ومن وصل إلىٰ هذا المقام أجيب دعاؤه في كلِّ أمر علَّقه الله تعالىٰ علىٰ الدعاء، فعدم إجابة الدعاء إنما هو لارتكاب المعاصي، ومن لا معصية له أصلًا، أو له معصية وتاب منها توبة مقبولة، فدعاؤه كدعاء الملائكة لا يُرَد. فعُلِمَ أن من يأكل الشبهات ويطلب إجابة دعائه في حقِّ نفسه أو غيره، فقد رام المحال، وقد يجيبه الحقُّ تعالىٰ استدراجًا ومكرًا به.

---

(١) بالأصلين: من الناس.

(٨٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزعم أن الله تعالىٰ يحدِّثه بلا واسطة، ولاث به الناس وقالوا: هذا زندقة.

والجواب: أنه قد يكون عُمَرِيَّ المقام، كما أشار إليه قوله ﷺ: «إن يكن من أمتي محدَثون فعمر بن الخطاب»[1] أي إن يكن من أمتي من يحدثه الله تعالىٰ في سرِّه، فعمر منهم. وهذه هي الحالة التي كانت للعبد عند أخذ الميثاق يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فإن الله تعالىٰ خاطبه هناك بلا واسطة، ولذلك سمىٰ الروح «عالم الأمر».

وقد أجمع العارفون علىٰ أن غاية ما يصل إليه العبد بالسلوك هو أن الله تعالىٰ يكلِّمه في سره بلا واسطة، ويعرف العبد أن ذلك هو الحقُّ تعالىٰ، [فإن غالب الناس يحدثهم الحق تعالىٰ في سرائرهم، ولا يعرفون أنه الحق تعالىٰ][2] بل يقول بعضهم: قالت لي نفسي كذا، فقلت لها: لا أو نعم، فمن عرف الحق تعالىٰ إذا حدثه، فهو العارف بالله تعالىٰ.

فإن قلت: كيف صفة هذه المعرفة؟ **فالجواب:** أنها أمر يلقيه الله تعالىٰ في قلب العبد، ويخلق له علمًا ضروريًا أن هذا هو الحق، ولا يلزم من ذلك معرفة الذات، فإن بين المقرَّبين وبين حضرة الذات سبعين ألف حجاب من نور وظلمة وثلج، كما صرح به جبريل حين قال: «هل رأيت ربك؟»[3].

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفيَّ رحمه الله يقول: من ادعىٰ أن الحقَّ تعالىٰ يحدِّثه في سره فصدقوه، أو أنه يكلمه فلا تصدقوه، لأن الكلام خاص بالأنبياء المكلَّمين دون غيرهم. فإياك أن تنكر علىٰ من قال: حدثني قلبي عن ربي، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٩) ، وأحمد (٨٤٦٨).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٠٧) من حديث أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «سألت جبريل عليه السلام هل ترىٰ ربك؟ قال: إن بيني وبينه سبعين حجابًا من نور، لو رأيت أدناها لاحترقت» والديلمي في «الفردوس» (٣٤١١) والدلابي في «الكنىٰ والأسماء» (١٧٦٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥١) وفيه قائد الأعمش. قال أبو داود: عنده أحاديث موضوعة، وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: يهم.

(٨٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أرىٰ الآن ما يُكتَب في الألواح السماوية الثلاثمئة وستين لوحًا، وأعرف ما تكتبه الملائكة في شأني؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا مجنون أو كذَّاب.

والجواب: أن هذا المقام يحصل للعبد إذا ترقَّىٰ إلىٰ مقام حقِّ اليقين بعد عين اليقين، ثم إنه يترقىٰ من ذلك إلىٰ مشاهدة ما يُكتَب في اللوح المحفوظ، أي عن المحوِّ. وصاحب هذا المقام إذا أخبر عن شيء من الأمور المستقبلَة لا يخطئ، بخلاف من كان مطمح نظره ألواح المحو والإثبات، كما مرَّ تقريرُه مرارًا.

وقد كان الإمام عليُّ بن أبي طالب ﷺ يقول: قد وصلتُ إلىٰ شهود اللوح المحفوظ، وشاركتُ الملائكة المقربين في مشاهدة تلك الرقوم الغيبية من الكائنات العلوية والسفلية المسطورة في اللوح، ولولا آيةٌ في كتاب الله لأخبرتُكم بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة. قيل: وما هي؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] التي هي مفاتح الغيب المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، قاله الإمام سعيد بن سليمان الكوفي[١] ﷺ. وقول الشيخ محيىٰ الدين: إن ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو اللوح المحفوظ المعبَّر عنه بـ«الإمام المبين» الذي أحصىٰ الله تعالىٰ فيه كلَّ شيء، وقال: قد أطلعني الله تعالىٰ علىٰ ما فيه، فعلمتُ عدد الكوائن إلىٰ يوم القيامة، وعدد أمهات هذه الكوائن هو ما يحصل من ضرب ثلاثمئة ألف وستين ألفًا في مثلها. انتهىٰ.

فقد علمت تصريح الإمام عليٍّ والشيخ محيي الدين باطلاعهما علىٰ اللوح المحفوظ، بحكم الإرث لرسول الله ﷺ. وإنما منع العلماء من دعوىٰ ذلك سدًّا لباب ما يعارض الشريعة، فإننا إذا صدقنا من يقول: رأيت كذا في اللوح المحفوظ، فربما عارض

---

(١) أبو الغنائم سعيد بن سليمان الكوفي الكندي الحنفي. له مصنفات منها: «شمس المعارف وأنس العارف» و«معارف القلوب بذكر كشف الغيوب في نهاية المطلوب». توفي: ٦١٦هـ. «هدية العارفين» (١/ ٣٩١)، «كشف الظنون» (٢/ ١٧٢٤).

القرآن العظيم، ولا يجوز لنا العمل بقوله، لعدم عصمته، بخلاف القرآن، فإنه متواتر قطعي، فأي فائدة لتصديقنا لهذا الشيخ؟! ومن هنا لم يصرِّح الإمام عليٌّ ﷺ بما يراه في اللوح المحفوظ من الأمور الكائنة، خوفًا أن يُنكَر ذلك عليه، ولذلك لم يعبر بالأمر الحازم والثبوت اللازم. وكان الإمام عليٌّ كثيرًا ما يقول: تعلمتُ ألف علم، ففُتِحَ لي في كلِّ علم ألفُ علم، ولو أُذِنَ لي لشرعتُ في معنىٰ أَلِفِ «الحمد لله» سبعين وقرًا، ولو شئت لحكمتُ لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، وبينتُ لهم ما بُدِّل وما نُسِخَ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: ليس في اللوح المحفوظ ما يقبل التعقب، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١] أي في اللوح المحفوظ. وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقوله: مقام حقِّ اليقين لا يكون إلا لمن بلغ الغاية في الترقي، لأنه هو نور الله الأعظم المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، وبقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فانظر في قوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ و﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ لم يقل فيهما بنوره ولا بالإسلام، إشارةً إلىٰ مبادئ السلوك دون غايته، كما يُقال: توضأتُ للصلاة، وتأهبتُ للقتال. وإيضاح ذلك أنه لا يُقال: هدىٰ الله فلانًا بنوره، وشرح صدره بالإسلام، إلا إذا كان مبتدئًا في السلوك، بخلاف الكامل، فإن الله تعالىٰ هداه لنوره وللإسلام -باللام- والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: صديق الإنسان هو من يعمل بعمله. فقال له شخص: هذا غلط! وإنما هو عدو الإنسان من يعمل به.

والجواب: أن كلا هذين الشخصين صادق، لكن الأول محمول علىٰ حال من خرج عن الرعونات النفسية، وطهَّر باطنه من الرذائل، والثاني محمول علىٰ أهل الرعونات، فإن كل واحد منهما يطلب الرئاسة والانفراد بها، فهو يعادي كلَّ من زاحمه عليها بالأعمال.

[سؤال المؤلف شيخه المرصفيَّ عن سبب عداوة إبليس]

وقد قلتُ لسيدي عليٍّ المرصفي رحمه الله: ما سبب عداوة إبليس لنا، مع أنه ليس من جنس البشر؟ فقال: سبب عداوته لنا ما فينا من الجزء الناريِّ، ولولا ذلك الجزء ما كان

بيننا وبينه عداوة، ولا كان الحقُّ تعالىٰ سلَّطه علينا. قال: ومن هنا كان الإنسان لا يقدر علىٰ أن يمنع إبليس من الوسوسة له، وإنما يقدره الله علىٰ عدم العمل بما يوسوس به له فقط، فإن كان نبيًا فبالعصمة، وإن كان وليًا فبالحفظ. وفي المثل السائر: «قالوا للشجرة: بلغنا أن الحديد يريد أن يقطعك. فقالت: ما بيني وبين الحديد عداوة! لأنه جنس وأنا جنس. فقالوا لها: لا بد من مجيئه لك. فقالت: انظروا فلعله يكون معه شيء من جنسي. فقالوا: نعم، يد الفأس. فقالت: هي التي جرته إليَّ». انتهىٰ. فقلتُ له: إن بعض الناس يزعم أنه يجتمع بإبليس ويراه ويحدِّثه، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فقال: إن إبليس أُعطِي قوة التطور، فربما رآه هذا الشخص حال تطوره، ويُحتَمل أن يخرق الله له العادة، كما يخرق العادة برؤية الملَك أو سماع كلامه لبعض الأولياء.

وقد كان شيخنا شيخ الإسلام زكريا ؒ يفسر الهاتف بأنه ملك، أو وليٌّ، أو الخضر، أو جنيٌّ من صالحي الجن، ويقول: لا يجمع بين رؤية الملك والجني وسماع كلامه في آن واحد إلا نبي. وأما غيره فيسمع كلامه من غير رؤية شخصه، أو يرىٰ شخصه من غير كلام. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي كلام من يزعم أنه يرىٰ إبليس في صورته الأصلية [علىٰ ذلك][1] وكتب القوم مشحونة باجتماعهم به.

وذكر الشيخ مجد الدين بن سعيد الكوفي ؒ [أن إبليس][2] لقي موسىٰ عليه الصلاة والسلام أواخر عمره علىٰ جبل الطور، فقال له موسىٰ: بئس ما صنعت بنفسك في امتناعك من السجود لآدم، فلم فعلت ذلك؟ فقال: لأني كنتُ قد ادعيتُ محبة الله تعالىٰ، فلما توجه السجود لغيره، امتنعتُ ورأيتُ العقوبة في الدنيا والآخرة علىٰ زعمكم أخفُّ عليَّ من كوني [كاذبًا][3] في دعواي المحبة، وكيف أسجد وأخضع لغير من ادعيتُ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

محبته؟! وكذلك أنت يا موسىٰ لما ادعيتَ محبته امتحنك وقال: انظر إلىٰ الجبل مكيدةً بك، ثم لما نظرتَ إليه ناقشك في دعواك المحبة له، وكأنه يقول لك: لو كنتَ محبًّا ما التفت إلىٰ غيري. وأطال في ذلك، ثم قال: فلو كنتَ غمضتَ عينيك عن النظر إلىٰ الجبل، وعلمتَ أن ذلك مكيدة، لكنتَ رأيتَ ربك كما رآه الجبل، بل أنت أولىٰ بالرؤية، ولكن حق أن لا يراه إلا من عمي عن سواه. انتهىٰ.

فسلِّم يا أخي للشيخ الذي يقول: اجتمعتُ بإبليس، أو يقول: إني أجري في عروق مريدي مجرىٰ الدم، فإن غايته أنه ادعىٰ مقامًا أعطاه الله لإبليس، لكن ذاك ليضل به العبد، وهذا ليهديه به، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يحطُّ علىٰ العالم إذا اعتزل عن الناس في هذه الأيام، فلاث به بعضُ المتصوفة وقالوا: قد حثَّ الشارعُ علىٰ العزلة في آخر الزمان[١]، وما مات الصحابة حتىٰ قالوا: قد حلَّت العزلةُ في هذا الزمان، أي وجبت، فكيف يأمر هذا الشيخُ العالمَ بالخلطة للناس في أواخر القرن العاشر؟!

والجواب: أن كلام الشارع ﷺ محمول علىٰ العالم الذي لا يحتاج الناس إلىٰ علمه [إما لعلمهم كلِّهم، أو لاستغنائهم عنه بغيره. أما من يحتاج الناس إلىٰ علمه][٢]، فلا ينبغي له أن يعتزل عن العامة، ويدع الشيطان يركض بينهم، ويأمرهم بارتكاب البدع حتىٰ يهلكهم. وقد كان سفيان الثوريُّ ﷺ يقول: لولا العلماء لكان الناس كالبهائم. فيُحمَل كلام هذا الشيخ علىٰ أنه رأىٰ الناس محتاجين إلىٰ علم هذا العالم، فخاف من إضلال إبليس للعامة باعتزاله، أو خاف عليه من فتنة العزلة، كما إذا سمع الناس يقولون: ما في مصر الآن من هو علىٰ خير من العلماء إلا فلانًا، قد لزم بيته واستراح من

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (١٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن» وأبو داود (٤٢٦٧).

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

الناس. فربما مالت نفسه إلىٰ ذلك، وزاد في العزلة، فحكمه حكم من استرعاه الشارع علىٰ غنمه، فتركها في البرية للذئب، ولزم بيته حتىٰ أكلها الذئب.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من مكائد إبليس بالعلماء أن يزِّين إلىٰ أحدهم الوحدة والعزلة، ويوسوس للأمراء والأغنياء وغيرهم بمدحه والثناء عليه، فيزيد في العزلة، وفي ضمن ذلك كتمان العلم، وعدم تعليمه للناس، حتىٰ يصير غالب الناس جهَّالًا بأحكام الشريعة، وهناك يغويهم إبليس، ولا يجد أحدًا يمنعه، لجهل الناس بمعرفة قواعد الشريعة، بل الذي نقول به: إنه **كلما قربت الساعة تعين علىٰ العلماء المخالطة للناس ونشر علمهم، والنداء به علىٰ رؤوس الأشهاد**. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: إذا رأيتُم عالـمًا يعتزل عن الناس، فأمروه بالخروج للناس، لئلا يتربىٰ له بذلك الجاه والرئاسة فيهلك، وليس له شيخ يأخذ بيده، وإن أبىٰ ولم يخرج للناس، فقولوا له: فتش يا أخي في نفسك، فربما تكون عزلتك لغير مرضاة الله تعالىٰ. فإن قال: لا أعلم إلا أني في مرضاة الله إن شاء الله؛ فقولوا له: اعرض علىٰ نفسك ما لو نسبك الناس إلىٰ عمل الزَّغَل[1] في عزلتك، أو الفجور بامرأة أو غلام، وامتلأت البلد بذلك، فإن اطمأنت ولم تقلق من سماع ذلك في حقِّها، فهي معتزلة لله، وإن تقلقت أو وجدت وحشة في نفسها بسبب ذلك فهو لغير الله. انتهىٰ.

وقد ذكرنا أقسام المعتزلين في الباب الحادي عشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق»، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه عن حضور مجالس العلم ويقول: كلُّ من حضر أحدًا من هؤلاء العلماء مُقِتَ؛ فلاث به العلماء وقالوا: كيف يمنع فلان أصحابه من حضور مجالس العلم التي تنزل فيها الرحمة؟!

والجواب: أن مثل الشيخ في الطريق لا يجهل مثل ذلك، ولعل مراده أن هذه المجالس

---

(١) الزَّغَل: الغِش.

لا تسلم من المراء أو الجدال، أو الوقيعة في الناس، أو العجب ونحو ذلك، وقد قال سفيان الثوريُّ والفضيل بن عياض رحمهما الله: لا يحضر الملائكة مجلس علم فيه شيء من هذه الخصال، بل ربما مقت الله جميع أهل ذلك المجلس، وهي: الجدال، والمراء، والخصومة في السنة، والضحك، وذكر الدنيا، واحتقار أحد من الحاضرين. انتهىٰ.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ يقول: إياكم والاجتماع بعالم يدعوكم إلىٰ فضول الدنيا بمأكله وملبسه ومسكنه ومركبه، واستعيذوا بالله من القرب منه، واقربوا من كل من يزيده العلم عملًا، والعمل تواضعًا. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ الذي نهىٰ أصحابه عن مجالس العلم علىٰ المجالس التي يقع فيها شيء من الإثم، بأن لا يستطيع أحدٌ منهم أن يأمر أحدًا من أهلها بمعروف إلا ويقابله بالأذىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦١) ومما أجبتُ به عن المشايخ الذين دار عليهم مكروب، فلم يفرِّج أحد منهم كربته بدعائه، فلاث بهم وقال: ما بقي أحد من هؤلاء المشايخ به نفع في الأرض!

والجواب: أنه قد يكون المانع لهم من تفريج كربه من جهته هو لا المشايخ، فقد قال أنس بن مالك ﷺ: سيأتي علىٰ الناس زمان يدعو الصالح لغيره فلا يُستجَاب له، تقول الملائكة: ادعُ لنفسك يستجب الله لك، فأما غيرك فلا، إنهم قد أغضبوني باستهزائهم بالزاهدين والورعين، واتخاذهم مجلس العلم معدنًا للخوض في أعراض المؤمنين، والمسجد موطنًا لذكر الدنيا، ولم يبالوا بما نقص من دينهم، وحزنوا علىٰ ما فاتهم من دنياهم. انتهىٰ. فانظر يا أخي في نفسك هل وقعتَ في شيء من هذه الأمور؟ فإن رأيت نفسك سالمةً من ذلك، فاللوم علىٰ المشايخ، وإلا فاللوم عليك.

[محاورة بين المصنف وشيخه زكريا الأنصاري حول الأولياء]

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ يقول: من أنكر وجود الأولياء، وقع في الكذب، واستحق المقت من الله، وحُرِم مددهم عقوبةً له، فإنه لولا الأولياء في كلِّ عصر وشفاعتهم في الناس، لهلك الناس.

فقلتُ له: قد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: قد غلب التسليم علىٰ الأولياء في هذا الزمان، فلا يكاد أحدهم يشفع في أحد، لعدم استحقاقه الشفاعة فيه حتىٰ ينقضي زمن المؤاخذة.

فقال: الأولياء في ذلك علىٰ قسمين: قسم غلب عليهم التسليم والرضا بمجاري الأقدار علىٰ الخلق علىٰ الكشف واليقين، فهو يختار للناس ما اختاره الحقُّ تعالىٰ لهم، ويراه خيرًا لهم، فلا يسأل الله في رفعه، بل يشكر الله الذي لم يجعل ذلك البلاء أعظم من ذلك من حضرته التي يزيد منها الأعمار والأرزاق، ويفعل منها ما يشاء؛ وقسم غلب عليهم الشفقة والرحمة علىٰ العباد، فيستأذن أحدُهم النبي ﷺ، ثم يشفع في الناس بحكم النيابة، ولولاهم[1] لهلك الناس، علىٰ أن التسليم لله تعالىٰ هو الأصل، والشفاعة فرع، فالكامل يسلِّم لله من وجه التقدير والحكمة، ويشفع عنده بالأمر.

فقلتُ له: فهل إذا شفع الوليُّ في أحد في هذه الدار، وقَبِلَ الله شفاعته، يحتاج إلىٰ إعادة الشفاعة فيه في الدار الآخرة أم لا؟

فقال: هو نظير حكم الحاكم، تارةً ينفذ باطنًا وظاهرًا، أي في الدنيا والآخرة، وتارة ينفذ في الدنيا فقط. انتهىٰ.

[محاورة بين المصنف وشيخه الخوّاص حول دفع الأولياء للبلاء]

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله **يقول**: إذا دخلت سنة خمسين وتسعمئة كثرت المعاصي في الأرض، حتىٰ لا يكاد الإنسان يرىٰ أحدًا تائبًا من ذنبه توبةً خالصةً، فهناك يقيض الله تعالىٰ طائفةً من أوليائه للتوجه إليه في دفع البلاء النازل علىٰ أهل ذلك الزمان من عدم طلوع النيل، ونزول المطر، وقلة البركة في الرزق والعمر، وربما زرع الفلاح وحرث وحصد ودرس ووزن المغارم كلَّها، فلم يجد الحب يفي بذلك، فهرب بأولاده إلىٰ بلاد أخر.

---

(١) بالأصلين: للناس. والصواب ما أثبتناه.

فقلتُ له: فما يرد ذلك البلاء؟

فقال: يرده التوبة النصوح من الولاة ورعيتهم.

فقلتُ له: هذا أمر ما بقي يصح وقوعه.

فقال: فليصبروا على البلاء حتى يموتوا، ولولا سؤال أولياء ذلك الزمان الذين كلُّ واحد منهم مقوَّمًا بسبعين رجلًا من أولياء العصر الماضي، لكان البلاء أعظم. انتهى، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: فلان يموت في الوقت الفلاني، أو يُعزَل أو يتولى، أو يسافر ونحو ذلك؛ فلاث به بعض العلماء وقال: قد ثبت عن عائشة ﵂ أنها كانت تقول: «من حدثكم بما يكون غدًا فلا تصدقوه». انتهى.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يطلعه الله تعالى على ما يخبر به عن مستقبل الزمان. ويحمل كلام عائشة ﵂ على أنه لا يجب علينا تصديقه على القطع، وقد قال عبد الله بن عباس في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] العالم يرى الغيب، ولكن من وراء ستر رقيق. انتهى. **على أن الغيب الذي يطلع الله عليه الأولياء ليس هو غيبًا عندهم، وإنما هو غيب عند المحجوبين، فيري الله تعالى وليَّه الأمرَ، فيتكلم به، فهو من قسم الشهادة عنده.**

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فلا ينافي ما ذكرناه، لأنه لم يقل: [إن] هذا العلم الذي يحيط به وليه [من] الغيب، فيشمل ما أوتيناه من العلم الذي كان غيبًا عنا قبل أن يؤتيه لنا، فإن كلَّ علم بأيدي الخلائق هو من علم الله أي معلوماته، وقد بسطنا الكلام على ذلك أواخر الباب الحادي عشر من كتابنا «منهج الصدق والتحقيق» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٣) ومما أجبتُ به عن العالم إذا دُعِيَ إلى وليمة أو محفل، فلما وصل إلى الباب قال: من هنا؟ فقالوا: العالم الفلاني؛ فرجع، وعجزوا فيه فلم يدخل، فلاث الناس به

وقالوا: إنما لم يدخل لأنه علم أنه لا يطلع له طالعة مع وجود ذلك العالم الكبير، ولو أنه علم أنهم يكبرونه ويعظمونه ما رجع.

والجواب: أن ذلك سوء ظن به، فيُحتمَل أنه ظنَّ بالحاضرين أنهم يرفعونه فوق ذلك العالم بالجهل، فيسيء الأدب مع ذلك العالم.

فإن قال قائل: إنه كان يقدر علىٰ عدم إساءة الأدب، وذلك بأن يقبِّل رجل ذلك العالم إذا دخل، ويجلس بين يديه، فيعلم الحاضرون بالقرينة أنه أعظم؛ **فالجواب**: أنه ربما تركه خوفًا علىٰ ذلك العالم من أن يرىٰ نفسه علىٰ إخوانه إذا قبَّل ذلك العالم الداخل رجله، فلأجل ذلك لم يقبل رجله.

فإن قال قائل: فنفس خوفه عليه من ثوران نفسه سوء ظن به، فلم لا قبَّل رجله وظن به التواضع وعدم رؤية النفس؟ **فالجواب**: أن ما فعله ذلك الداخل من ترك ذلك أحوط لدين أخيه، فهو يعامله معاملة من يخاف عليه العجب، مع عدم اعتقاده فيه أنه يقع في العجب.

فاعلم ذلك يا أخي، وادخل كلَّ وليمة فيها عالم كبير أو شيخ، وقبِّل رجل أحدهم قيامًا بواجب حقِّه في العلم والصلاح، وإياك أن تفعل معه ذلك وتقول: إنما فعلتُ ذلك خوفًا علىٰ خاطره من التشويش لو تركتُه، فإن ذلك سوء ظن به. وإياك أن تظن بالممتنع من الدخول أنه إنما امتنع خوفًا أن لا يقوم له ناموس مع وجود ذلك العالم، وخلِّص نفسك أولًا، وأخاك ثانيًا، والحاضرين في ذلك المجلس ثالثًا حسب طاقتك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اتُّهِمَ بتهمة، وأخذوه إلىٰ بيت الوالي، فصار يرعد خوفًا من الوالي، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا شيخًا صادقًا ما خاف من الخلق. وقد قال القوم: من استأنس بربه لم يخف من مخلوق. وقالوا: إذا رأيتُم من يدَّعي الولاية يخاف من ظالم، فاعلموا أنه غير صادق في دعواه. وقالوا: حكم الوليِّ دائمًا حكم المحفوف بألف مقاتل من الشجعان فأكثر، وعدوه كالأعمىٰ المقعَد الضعيف، فإن قلوب الأولياء مرتبطة بعضها ببعض، فلا يسلِّمون أحدًا منهم إلىٰ من يؤذيه، فإذا

رأيتُم وليًّا استوحش من الخلق، فاعلموا أنه قد قُطِعَ به عن طريق الولاية. وأيضًا فإن من شأن الوليِّ العكوفَ في حضرة ربه، والعاكفُ في حضرة ربه ليس لأحد من شياطين الإنس والجنِّ عليه سبيل. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا يلزم من حصول الرعدة أن يكون خائفًا من المخلوق من حيثُ هو مخلوق، فقد يكون خوفه إنما هو من الله تعالىٰ أن يسلِّط ذلك المخلوق عليه، فرجع صورة خوفه إلىٰ الخوف من ربه، وعليه يُحمَل خوفُ موسىٰ عليه الصلاة والسلام وغيرُه من الأكابر في نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، وخوفه من الحية، فإن مثل الأنبياء لا يخاف من مخلوق إذا رآه إلا من حيثُ علمُه أنه مسلَّطٌ عليه بإذن الله عزَّ وجلَّ، فهو ناظر إلىٰ الحقِّ الذي سلَّطه عليه، لا إلىٰ ذلك الحيوان مثلًا، فهم يخافون من كلِّ شيء يؤذي جسدهم من حيثُ كونُ الحقِّ تعالىٰ أمرهم بحفظه، ونهاهم أن يلقوا بأيديهم إلىٰ التهلكة حسب الطاقة.

وقد أجمع العلماء علىٰ أن الخوف من الله تعالىٰ لا يقدح في كمال مقام الأكابر، بل هو من شأنهم علىٰ الدوام، لكنه خوف إجلال لا خوف عقاب بدخول النار، كما تقدم تقريره مرارًا[1].

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من شأن الأولياء أن لا يخافوا أحدًا غير الله إلا عن إذن الله، ولا يرجوا أحدًا غير الله إلا عن إذنه، ولا يعتصموا بمخلوق دونه إلا عن إذنه، ولا يزدروا أحدًا من خلقه إلا عن إذنه.

قال: وقد أجمع القوم علىٰ أن كل وليٍّ ارتكب بدعة، قُطِعَ به عن طريق الولاية، وحُجِب عن التوبة النصوح، وكلُّ وليٍّ ادعىٰ دعوىٰ [بغير][2] إذن حُرِم الطاعات، وكلُّ من لم يستغن بالله حرم التوفيق في سائر أعماله الصالحة، وكلُّ من لم يعمل بآداب السنة، منع حقائق التوبة، وكلُّ من آثر هواه علىٰ مرضاة الله، منع إجابة الدعاء، وكلُّ من

---

(١) انظر الأجوبة: (٣٠٦)، (٤٦٧)، (٦٦٠).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

أحب الدنيا منع الخشية، وكلُّ من وقع في صغير ما نهاه الله عنه، عُدم التوفيق للطاعة، وكلُّ من كره أحدًا من أولياء الله أو أحب أحدًا من أعداء الله، حُرِمَ الحفظ من الآفات في الدنيا والآخرة، وكلُّ من أُشرِبَ قلبُه حب الدنيا مُنِع الحكمة. فقلتُ: وما علامةُ تشرُّب قلبه لمحبة الدنيا؟ فقال: علامته أن يكون لا يجد إيمانه إلا معها، ولا يعادي أحدًا إلا من أجلها، ولا يوالي أحدًا إلا عليها، ولا يفرح إلا بها، ولا يحزن إلا علىٰ فقدها. قال: وهناك يستحكم فيه المقت، فلا تنفعه المواعظ. انتهىٰ، فاعلم ذلك، واحمل الأولياء علىٰ مراتب الكمال، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: حقيقة التوبة [التوبة] من التوبة؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: التوبة من التوبة إصرار وذلك حرام.

والجواب: أن مراد هذا الشيخ التوبة من رؤية كونه صادقًا في توبته، خوفًا من تزكية نفسه، وهو معنىٰ قول رابعة العدوية وغيرها: استغفارنا يحتاج إلىٰ استغفار. وكان رُوَيم[1] ﵀ يقول: التوبة الصادقة هي توبته من كلِّ خاطر يخطر له في غير مرضاة الله وهو غافل. وسُئل ﵁ عن شخص يتوب من الشيء ويتركه، ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به، فيجد حلاوة في نفسه: هل يقدح ذلك في كمال التوبة؟ فقال: وجود الحلاوة لازم لطبع البشرية، ولابد من الطبع، وليس للعبد حيلة إلا بالتضرع إلىٰ مولاه، وإلزام نفسه الذكر لله عزَّ وجلَّ ليلًا ونهارًا، فهناك يُرجَىٰ له أن الله تعالىٰ ينسيه تلك الحلاوة، وإلا خيف عليه العطب. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: إذا تمكن[2] العارف في مقام العرفان، لم يسكن في قلبه حلاوة شيء يكرهه الله أبدًا، فإن العارف من المحبين لله بلا شك،

---

(١) أبو محمد رُوَيم بن أحمد ﵁ هو بغدادي الأصل من جلة مشايخ بغداد. وكان فقيهًا علىٰ مذهب داود الأصفهاني ﵁. مات رحمه الله تعالىٰ سنة ثلاث وثلاثمئة، ودُفن قريبًا من أبي القاسم الجنيد. تاريخ بغداد (٨/ ٤٢٩)، تاريخ الإسلام (٧/ ٦٧).

(٢) بالأصلين: لم يكمن. والصواب ما أثبتناه.

والمحب لا يدخل قلبه شيء يكرهه ربه، ولا يجري علىٰ جوارحه الظاهرة والباطنة شيء يكرهه ربه. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن أولياء الله ولو بلغوا الكمال لا بد من اتهامهم لنفوسهم في سائر الأحوال، أدبًا مع الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ شيء من ألفاظ القوم إلا بعد معرفتك بأحوالهم، وحينئذٍ تصير لا تنكر علىٰ أحد منهم إلا نادرًا، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: حقيقةُ الزهد هي الزهد في الزهد؛ ولاث به بعض الناس وقال: الزهد في الزهد هو الرغبة في الدنيا، وهو مذموم، فكيف الحال؟

والجواب: أن معناه أن العبد يزهد، ولا يرىٰ نفسه بالزهد علىٰ أحد من المسلمين. وقد كان الشِّبلي ﷺ يقول: لا زهد في الحقيقة؛ لأن العبد إما أن يزهد فيما ليس هو له، فليس ذلك بزهد، وإما أن يزهد فيما هو له، فذلك لا يصح.

قلتُ: وفي هذا نظر، لأن ذلك لو اطرد لهدم قاعدة الاجتهاد والكسب، ولعل الشبلي أراد بذلك تقليل الزهد في عين الزاهد، لئلا يغتر بالزهد، ويؤيده قوله: الزهد غفلة، لأن الدنيا لا شئ، والزهد في لا شيء غفلة، ولما رأىٰ الزاهدون حقارة الدنيا، زهدوا في زهدهم في الدنيا، لهوانها عندهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: ثم مقام في الزهد أعلىٰ منه، وهو أن يأخذ العبد الدنيا بإذن من الله كما تركها بإذن، فيستوي عنده الأخذ والترك، لفناء اختياره في اختيار الله له، ثم يترقىٰ من ذلك إلىٰ ما هو أعلىٰ أيضًا، وهو أن الخيار أن لا يكون له اختيار، ويرد الحق تعالىٰ عليه اختياره لطهارة نفسه، وسعة علمه، فتزهد هذا زهدًا ثالثًا، ويترك الدنيا بعد أن تمكَّن من أخذها، وأعادها الحقُّ تعالىٰ له موهبة من الله تعالىٰ، فيكون ترك هذا للدنيا في هذا المقام باختياره، واختياره من اختيار الحقِّ تعالىٰ، فقد يختار تركها حسًّا تأسيًا بالأنبياء والأولياء، ويرىٰ أخذها في هذا المقام الذي هو مقام الزهد في الزهد رفقًا أُدخِل عليه من الله تعالىٰ، لموضع ضعفه عن درك مقام الأكابر من الأنبياء والصديقين. فيترك الرفق من الحق بالحق للحق، وقد يتناوله باختياره رفقًا

بنفسه علىٰ وجه تدبير يسوسه فيه صريح العلم، ولا يمكث فيه إلا أقوياء العارفين. انتهىٰ. وهو كلام نفيس صدر عن ذوق، فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ القوم وأنت لا تعرف إشاراتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يثني علىٰ كلٍّ من أحسن إليه، ويكثر من مدحه في المجالس، فلاث به الفقراء الصادقون وقالوا: هذا نقص في أجر من أحسن إليك، وكان الواجب عليك أن تحفظ ثوابه عن النقص، كما كان عليه السلف الصالح، فقد كان أحدهم يحرص علىٰ أن لا يذكر أخاه بخير مع صحبته له، خوفًا أن ينقص أجره بذلك.

والجواب: قد يكون هذا الشيخ غافلًا عن كون ذلك الثناء ينقص أجر المحسن إليه، أو ذاكرًا لذلك ولكن أعطاه الله تعالىٰ القوة علىٰ حماية أخيه من أن يعظِّمَه الناس بسبب ذلك، لعدم شعورهم بإحسانه، أو حماية أخيه من أن يحب مدحه في مجلس من المجالس، فلا ينقص له بذلك أجر. ومعلوم أن الأجر لا ينقص إلا إذا رضي المحسِن بشكره في المجالس، نظير ما قال العلماء في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] الآية، أنه يجب استثناء من عُبِدَ من دون الله ولم يرضَ بذلك، كعيسىٰ والعزير عليهما الصلاة والسلام، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بلغه أن شخصًا من أقرانه يتكرَّم بكلِّ شيء دخل في يده من نقد وطعام وثياب وغير ذلك، فصار الناس يعتقدونه ويمدحونه علىٰ ذلك، فقال: هذا كلُّه إنما يفعله فلان ليُقال، لا لله تعالىٰ؛ فلاث به بعض الناس وقالوا له: هذا حسد منك لهذا الرجل، ومرادنا أن تفعل أنت مثله.

والجواب: أنه لا يجوز حمل هذا الشيخ الذي اعترض علىٰ هذا الكريم علىٰ الحسد والعداوة، فقد يريد بذلك القول أن ذلك يبلغه، فيصير يتكرم سرًّا بحيثُ لا يشعر به أحد، ليحصل له ثواب مضاعفة صدقة السرِّ الزائدة علىٰ صدقة الجهر بسبعين ضعفًا.

ولا يلزم من قول المعترض: «إن ذلك ليقال» أنه يعتقد من الكريم أنه قصد ذلك،

وإنما مراده أنه إذا جهر بالعطية يشعر به الناس، فيمدحونه علىٰ ذلك، فصار كرمه ومدحه يُقال بين الناس، وإن لم يقصد هو ذلك في الأول، فقد يصغىٰ إليه آخرًا، فأراد هذا المعترض سدَّ الباب علىٰ هذا الكريم محبةً له وشفقةً عليه.

وكان علىٰ هذا القدم ممن أدركتُهم من الأولياء: سيدي أبو العباس الغمري، والشيخ محمد بن عنان، والشيخ محمد المُنيِّر، والشيخ أبو بكر الحديدي[1]، والشيخ محمد بن داود، والشيخ عبد الحليم، كان أحدهم يشفق علىٰ ظهور شيء من كمالات إخوانه، كما يشفق الناس علىٰ عدم ظهور نقائصهم، رضي الله عنهم أجمعين، وكانوا من شدة صدقهم لا يحملهم أحد علىٰ بغض من نقصوه وأنكروا عليه من إخوانهم، عكس ما عليه بعض فقراء هذا الزمان، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه عن مجالسة العلماء الكبار، فلاث به العلماء وقالوا: قد أجمع المسلمون علىٰ استحباب طلب القرب من العلماء ومزاحمتهم بالركب، فكيف ينهىٰ هذا الشيخ جماعته عن القرب من العلماء؟

والجواب: أن الشيخ في الطريق لا يجهل مطلوبية القرب من العلماء، ولعلَّه إنما نهىٰ أصحابه عن القرب من العلماء لجهلهم بالأدب معهم، فكأنه يقول: اصبروا عن مجالسة العلماء حتىٰ أعلمكم الأدب معهم، ليفيدوكم العلم، ويمكث في قلوبكم، أو اصبروا عن مجالسة العلماء حتىٰ تكملوا في طريق السلوك، وتخرجوا عن الشطح عن ظاهر الشريعة، فإن أحدكم ربما غلب عليه الحال، فشطح عن ظاهر الشريعة، فشنَّ العلماء عليه الغارة، ووقعوا في أهل الطريق وقالوا: كلهم مخالفون لظاهر الشريعة. ولا يجوز حمل هذا الشيخ علىٰ أنه يبغض أحدًا من العلماء أو يزدريه، أو يكره العلم.

---

(١) قال عنه الإمام الشعراني: الشيخ الصالح العابد الزاهد الشيخ أبو بكر الحديدي ﷺ كان رفيق الشيخ محمد المُنيِّر في الحج كل سنة مدة أربعين سنة. وكان من أكرم الناس وأحسنهم خلقًا وأشدهم ملازمةً للسنة. وكان في رأسه مقصًا يحمله دائمًا لمن يرىٰ شاربه طويلًا، فيقصه. توفي ﷺ بالمدينة النبوية سنة نيف وعشرين وتسعمئة، ودُفن بالبقيع، وقبره ظاهر مشهور ﷺ. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٣٩٥).

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: لا ينبغي لأحد من الفقراء أن يخالط العلماء إلا بالأدب، وطلب العمل بما يتعلمه منهم، وعدم كراهته لهم إذا أنكروا عليه، **إذ لا بد للمتشرِّعين من الإنكار علىٰ بعض القوم الذين غلبت عليهم الحقيقة، فيجب** علىٰ الفقير أن يشكر فضلهم إذا أنكروا عليه، لأنهم قوَّموا عوجه، فإن السلطان في هذه الدار للشريعة، وأما علوم الحقيقة فإنما محلها الدار الآخرة، فمن تكلم بعلوم الحقيقة في هذه الدار، فربما حُبِسَ أو قُتِلَ، وتخلفت الحقيقة عن نصرته، كما وقع للحلاج. وإن وقع أن وليًا خرق سور الشرع ولم يؤدب، فذلك نادر.

وقد روىٰ ابن حبان والبيهقيُّ مرفوعًا: «النظر إلىٰ وجه العالم عبادة»[1]. فاعلم ذلك، واقرب من العلماء، وتحمل إنكارهم، فإنهم لا ينكرون عليك إلا ما خرجتَ به عن ظاهر الشريعة عندهم، فيا سعادة من كان مقيمًا في مثل جامع الأزهر! فإن أهله لا يكادون يقرونه علىٰ بدعة، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يصلي منفردًا كلما دخل وقت الصلاة ولا ينتظر الجماعة الذين يحضرون، فلاث به بعض الناس وقال: انتظار الجماعة أفضل حيثُ لا ضرورة. فقال: إنما شرعتُ الجماعة لمن لا يقدر علىٰ الوقوف بين يدي الله تعالىٰ وحده، أما من قوي علىٰ ذلك، فمبادرته للوقوف بين يديه أفضل.

والجواب: أن هذا الشيخ ربما قال ذلك حين كُسِفَت شمسُ معرفته، ثم يرجع عن ذلك إذا زال الكسوف، فهو معذور من وجه، غير معذور من وجوه أخر، فإن الجماعة شُرِعت لإقامة شعار الدين، فإن شعار الدين لا يقوم إلا مع اجتماع القلوب والأجسام صورةً ومعنىٰ، ولا يقوم بالمنفرد شعار.

وأيضًا فإن الله تعالىٰ لا يجالس إلا أولياءه، وأجمع أهل الكشف أنه لا يجتمع ثلاثة فأكثر إلا وفيهم وليٌّ لله تعالىٰ، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٣٤٤)، وذكره الديلمي في «الفردوس» (٦٨٦٧) وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٢٥١) : أورده الديلمي بلا سند عن أنس مرفوعًا ولا يصح.

رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧]، فلم يجعل تعالىٰ نفسه ثالث ثلاثة، بل حكم بكفر من قال: إن الله ثالث ثلاثة بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[المائدة: ٧٣]. ومن هنا قال بعضهم: أقل الجماعة ثلاثة لا اثنان، لأنه تعالىٰ لم يجعل نفسه مع الاثنين في معية الاختصاص التي ينفرد بها أولياؤه، وإنما جعلها في معية العموم، كما أشار إلىٰ ذلك بقوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وهذه المعية ليست هي مطلوب القوم، لأنه لا خصوصية فيها.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: ما اجتمع ثلاثة في الصلاة إلا وكان فيهم وليٌّ لله تعالىٰ يجالسه الحقُّ تعالىٰ، ويشفِّعه في صاحبه أو أصحابه إن كانوا أكثر من ثلاثة. ويؤيد كلام الشيخ حديث: «الواحد شيطان، والاثنان شيطان، والثلاثة ركب»[1]، والشطن هو البعد عن حضرة الله تعالىٰ، فهو يجالس الثلاثة ولا يجالس الاثنين.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إنما قال القوم: إذا رأيتُم المريد يتهاون في فوات تكبيرة الإحرام مع الإمام، فاعلموا أنه لا يجيء منه شيء في الطريق، أي لأن العبد إذا لم ينهضه مجالسة الله تعالىٰ التي أعز ما يعطاه العبد في الدارين، فما بقي شيء ينهضه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧١) ومما أجبتُ به عن العالم الذي كان يشكر في شخص يحسن إليه ويعطيه زكاته كلَّ سنة، ثم حوَّل زكاته عنه إلىٰ شخص آخر من أقرانه، فتكدَّر ذلك العالم، فلاث به الناس وقالوا: هذا ما يحب الصدقة والإحسان إلا له وحده، وإلا فلأي شيء يتكدر من الإحسان إلىٰ غيره؟!

والجواب: أن تكدير هذا العالم ربما كان لنقص أجر ذلك المحسن بإعطائه الزكاة إلىٰ من هو أغنىٰ عنها منه، ولم يكن تكديره من حيثُ حظِّ نفسه، فإن مرتبة العلماء أن يدوروا مع الفضل حيث دار، ويبعد عنهم أن يتكدروا لحظوظ نفوسهم، وينقصوا أجر

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٧) بلفظ: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب» والترمذي (١٦٧٤) والنسائي (٨٧٩٨).

ذلك الشخص الذي كان يحسن إليهم سابقًا، بل يود أحدهم له خير الدنيا والآخرة، ويزداد فيه محبة إذا حوَّل زكاته وإحسانه إلىٰ من هو أحوج إلىٰ ذلك منه، **فإن العبد كلما ازداد خيرًا، وجب علينا الزيادة في محبته**، وقد ازداد خيرًا بتحويله صدقته وزكاته إلىٰ من هو أحوج إليها منا.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: ينبغي للفقير أن لا يقبل من أخيه هدية أو صدقة إلا بعد أن يفتش في حارته أو بلده، فلا يجد أحدًا أحوج إليها منه، وذلك لأنه كما أحسن إليك فمن الواجب أن تطلب له زيادة الدرجة بإعطائه صدقته لمن هو أحوج إليها منك، ومتىٰ علمتَ أن هناك أحدًا أحوج إليها منك، فقد غشيته وأسأت الأدب معه، لكون قبولك لتلك الصدقة نقص أجره، فإن أجرَّ المتصدق يعظم بحسب حاجة الفقير. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٢) ومما أجبتُ به عن التاجر الصاحب إذا اشترىٰ منه صاحبه جوخة[١] أو عمامة مثلًا، وفضل عليه من حقِّها بعض دراهم، فعوَّق ذلك القماش علىٰ بقية الثمن، فلاث به المشتري والناس وقالوا: هذا يقدح في المروءة والصحبة.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ العتب عليه، فربما كان المال الذي في دكانه[٢] لأجنبي وكلَّه في البيع، وقال: لا تبع لأحد[٣] إلىٰ أجل، ولا تصبر علىٰ أحد بشيء من الثمن، وبع حاضرًا بحاضر. وبتقدير أن يكون ذلك المال للصاحب، فله مطالبة صاحبه بالإلحاح والشدة، مسارعةً لبراءة ذمة صاحبه، وتقبيحًا للدَّين في عينه، وقطعًا للطمع في الأصحاب، فإن غالب الفقراء إذا اشتروا من صاحبهم التاجر شيئًا يخطر لهم أنه يسامحهم ببعض الثمن، فقصد بالمشاححة له سدَّ باب الطمع في الناس، والبعد عن[٤]

---

(١) الجوخة: ثوب قصير الكمين والبدن بغير بطانة من تحته ولا غشاء من فوقه، يتخذ من الصوف الثخين.

(٢) بالأصلين: زكاته. ولعل الصواب ما أثبتناه أو تجارته أو وكالته.

(٣) بالأصلين: أحدًا.

(٤) بالأصلين: من.

تحمل منتهم، فما فعله مع المشتري من المشاححة أفضل من مسامحته بسيف الحياء، بل كان اللائق بالمشتري أن يشكر فضل من شاححه، لا أن يعتب عليه ولو في نفسه، مع ما في ذلك من حصول ازدراء التاجر له إذا طرق قلبه أنه ما قصد بالشراء من عنده بخصوصه إلا لأجل مسامحته بشيء. هذا كله في الأصحاب الذين لم يتمكن لهم قدم في الصحبة الحقيقية. أما من تمكَّن منهم في الصحبة فلهم ميزان آخر أدق من هذا.

وقد كان لي تلميذ ربيتُه اسمه محمد السندبصطي ولد عم الشيخ إبراهيم النقيب، كان دائمًا يشتري لي القماش والطعام ويحمل أولادي، ومهما احتاج أحد منهم إلىٰ حلاوة أو غيرها يشتري ذلك ولا يعلم أحدًا، ويرىٰ للأولاد الفضل بما يطلبونه منه. وإن لم يجد معه شيئًا رهن عمامته، ثم بعد ذلك يخلصها. ومن بعده ما رأيتُ لهذا الأمر فاعلًا معي ولا مع أولادي إلىٰ وقتي هذا، فأسأل الله أن يدخله الجنة بغير حساب ولا عتاب، آمين آمين آمين. فاعلم ذلك، واحمل كلفتك عن الناس جَهْدك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٣) ومما أجبتُ به عن جابي وقف زاوية الفقراء إذا قلَّ رزقُ الفقراء، وأمره الشيخ أن يدروز لهم فلم يفعل، ولاث فقراء الزاوية به وقالوا: كان الأدب معه إجابة الشيخ إلىٰ ذلك، بأنه قد لا يكون وجد نية صالحة في ذلك، أو كان قليل السياسة لا يعرف استخلاص شيء من البخلاء، لاسيما عند كساد السوق وقلة البيع والشراء. وقد يكون سبب امتناعه كونه وجد في نفسه الفرح بما يدروزه من حيثُ كونُه يوفر عليه شيئًا مما بيده من مال الوقف ليأخذ لنفسه، لا من حيثُ حصولُ الأجر للمحسنين ونحو ذلك.

وقد قالوا: من شرط النقيب أن يكون عنده سياسة يحل بها عقد البخل من قلوب البخلاء، فيمهد للغني بساطًا يريه فيه ماله من الخير والثواب إذا تصدَّق علىٰ الفقراء، ويكون هو المبادر إلىٰ ذلك. وقد كان لي نقيب اسمه الشيخ إبراهيم السندبصطي كان علىٰ هذا القدم، كان يدروز للفقراء المقيمين عندي ولا يلحس مما يدروزه لحسة. وكان إن وجد الأمير متعززًا بالباشاه وليس للشيخ عنده قدْرًا قال: إن الباشاه أرسل لسيدي يطلب الإذن في زيارته، فلم يرض! وإن رآه مستندًا إلىٰ شيخ آخر لا يعتقد إلا

هو، قال: إن شيخكم يعتقد في سيدي ويقول: يا فوز من كان مجاورًا عنده ينظره صباحًا ومساء! فيعتبر بعظمه ويقول: إذا كان شيخي يحبُّ هذا الشيخ فأنا أولىٰ. وكان يأخذ من الأغنياء الشيء للشيخ والفقراء بطريق لا يلحق الشيخ المنَّة عليه ولا علىٰ الفقراء بذلك، بل يرىٰ الأغنياء الفضل للشيخ والفقراء الذين قبلوا منهم ذلك، فرحمه الله رحمة واسعة. وقد قالوا: النقيب ثاني مرتبة للشيخ، فاعلم ذلك أيها الأخ، ولا تقم الميزان الماضي علىٰ نقباء هذا الزمان، فإن أهل الزمان قد تغيروا، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ العالم الكبير الذي يعيب علىٰ مشايخ الصوفية عدم ترددهم إلىٰ زيارة ولاتهم، حتىٰ إنهم ربما أتوهم في زواياهم؛ فلاث المتصوفة به وقالوا: ناموس الفقراء أكبر من ناموس هؤلاء الولاة، فإتيانهم للفقراء أولىٰ.

والجواب: بأن ما قاله هذا العالم وعابه علىٰ الصوفية أولىٰ مما مالوا إليه، لاسيما ضعيف الحال في الإخلاص، فإن زيارة الباشاه أو قاضي العسكر أو الدفتردار هلاكٌ له، وقل أن يخلص مثله من التزين لهم إذا دخلوا عليه. ومن شك في قولي هذا، فليعرض علىٰ نفسه ما إذا دخل عليه أحد من الزوالق وأحد من الولاة عنده ونقصه وسبه بحضرته، ونسبه إلىٰ محبة الدنيا وإلىٰ الرياء والنفاق، فإن تكدَّر منه شعرة فليس له في الإخلاص نصيب، وكذلك إذا تهلل وجهه وانشرح صدره، وحصل عنده سرور بمدحه بالصلاح والولاية، فهو مراءٍ خالص ذلك الوقت، فكان ذهاب هذا الشيخ إلىٰ الولاة أخف مفسدةً في حقه، لكن بشرط التعفف عن أموالهم، فاعلم ذلك، وإياك وحمل العالم علىٰ أنه قال ذلك للشيخ حسدًا علىٰ تردد الولاة إليه، فإن ذلك سوء ظن به، والحمد لله رب العالمين][١].

(٨٧٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي لكلِّ من تلطخ بمعصية أن يترك صلاة النافلة من صلاة الليل والنهار؛ فلاث به بعض [طلبة][٢] العلم وقالوا له: هذا يخالف ظاهر الشريعة، وإنما يؤمر بالنوافل تكفيرًا لخطاياه.

---

(١) سقط هذا الجواب من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

والجواب: أن هذا الشيخ ربما أراد بذلك أن وقوف العاصي بين يدي الله تعالىٰ في النوافل مع الإصرار علىٰ الذنب [يضرُّه][1]، فأمره بترك النوافل حتىٰ يتوب ويتطهر، ثم يدخل حضرة الله عزَّ وجلَّ، ولولا أن الفرائض أوجبها الله تعالىٰ جزمًا علىٰ أي حالة كان العبد فيها بلا مانع شرعي، لكان تركها كذلك أولىٰ، حتىٰ يتطهر العبد ويصلح للوقوف بين يدي ربِّه عزَّ وجلَّ.

وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، قل لبني إسرائيل لا تقفوا بين يدي في بيت من بيوتي إلا بقلوب نقية، وأبدان من المعاصي طاهرة، فإن وقف أحدهم بين يدي وجارحة من جوارحه متلطخة بمعصية، لعنته من فوق سماواتي[2]. انتهىٰ.

وكان الشيخ أفضل الدين يقول: إذا وقع أحدُكم في غيبة أو نميمة أو قذف، فليتب علىٰ الفور، فإن لم يتب فلا ينبغي له الوقوف بين [يدي][3] الله تعالىٰ، ويقذِّر حضرة الأنبياء والملائكة والأولياء.

وكان ﷺ إذا خطر في باطنه شيء من الغلِّ والحقد والحسد أو الكبر ونحوها من الأمراض الباطنة، يترك قيام الليل ويقول: أستحيي أن أقف بذاتي القذرة في حضرة الله عزَّ وجلَّ. وربما تلصصتُ فدخلتُ فيخرجني خدَّام الحضرة ويقولون لي: أيش دخلك بين أصفياء الله؟ أما تخشىٰ من المقت؟! ولكل مقام رجال. فاعلم ذلك، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ أحد إلا إن كنتَ أعلم منه بدقائق الأدب مع الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٦) ومما أجبتُ به عن البزدار[4] الذي يكون عند الأمير الذي يشفع عنده العلماء والصلحاء، وكلما رأىٰ قاصد ذلك العالم أو الصالح يشفع في أحد، يعارضه ويقول للأمير: هذا نصَّاب ليس بشيخ! وإنما الشيخ فلان وفلان الذين أجمع الناس علىٰ جلالتهم؛ ليحوِّل

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: مشيئة سماواتي.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) بزدار أو بازدار: من يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد علىٰ يده.

باطن الأمير عن الاعتقاد، فلاث به طلبة العلم والفقراء وقالوا: فلان سيئة من السيئات في بيت الأمير! فنسأل الله أن يقطع أثره، بأنه ربما قصد بمعارضة ذلك العالم أو الصالح تنفير قلبه من الأمير، وتنفير قلب الأمير منه، خوفًا من ركونه إلىٰ الأمير، أو اعتقاد الأمير فيه، فيحبُّه فتمسه النار، أو قصد بذلك رحمة العالم أو الشيخ، خوفًا أن يصير الأمير يحملهما حملته كلما أصابته مصيبة. وقد يكون ذلك البزدار من أولياء الله أصحاب الكشف، فنفَّر الأمير من ذلك العالم أو الشيخ ونفَّرهما من الأمير مصلحةً لكلٍّ منهم.

وقد يكون ذلك المشفوع فيه لا يستحق الشفاعة فيه، لعدم بلوغ العقوبة حدَّها فيه، ولم يزل الأولياء في أبواب الحكَّام يتصرفون بإذن الله في قلوب الولاة علىٰ بصيرة من ربهم، وكشف ويقين، متسترين في صورة بزدار أو بوَّاب أو غلام أو مشاعلي أو مباشر، كما يعرف ذلك من نوَّر الله بصيرته، فمثل هذا ربما يكون ذلك العالم أو الصالح حكمه عندهم حكم الأطفال الذين لا يعرفون حقائق الأحوال.

وقد كان شيخُ سيدي محمد وفا جالسًا عند والي إسكندرية بمثابة مقدَّم الوالي، وكان يجلس علىٰ كرسي تجاه الوالي، وكان بينه وبين الوالي أمارة، فالبريء علامة براءته أن يمسك الشيخ لحية نفسه ويدفعها إلىٰ خارج، وغير البريء يدفعها إلىٰ داخل، فيعرف الوالي أنه سرق أو قتل مثلًا، فيشدد علىٰ الغريم أو يخلي سبيله، وكان اسمه داود بن باخلا، وكان أميًا لا يقرأ ولا يكتب[1]، وأملىٰ كتابًا سمَّاه «عيون

---

(١) تعرض شيخنا ومربينا سيدي محمد نصار في ترجمته لسيدي داواد بن باخلا في مقدمة تحقيق فضيلته لكتابه «عيون الحقائق» لمسألة كونه أميًا، فقال ﷺ تحت عنوان: هل كان المصنف أميًا؟: «قد يبدو السؤال عن مؤلِّفٍ أميّ غريبًا، ولكن هذا الوصف في نفسه غير مستبعد إن كان تلقاه منه شفاهةً أحدُ تلاميذه وكتبه عنه، كما وقع لسيدي علي الخواص مع سيدي الشعراني، وللقطب الدباغ مع العلامة أحمد بن المبارك، وللشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي مع خليفته الشيخ زروق. وقد وقع في تحليته بالطبقات الكبرىٰ والوسطىٰ وصفُه بالأميّ، وكلمة الأمي قد تحتمل معانيَ عند الصوفية، ولكنه قيد المعنىٰ بقوله «لا يقرأ ولا يكتب» فامتنع التأويل. ولكن الإشكال يرجع إلىٰ أن عبارة الكتاب كذلك عبارة عالم أديب يعرف جيدًا كيف يتصرف في الكلام وكيف يأتي بوجوه البلاغة، فضلًا عما استشهد به من أبيات الشعر وهي كثيرة في الكتاب،

الحقائق»[1] يعجز عن فهمه فحول الرجال. وقد لخصتُ عيونه في كتاب «الطبقات» في ترجمته.

بل في كثير من هذه الأبيات تصرف وتضمين لأبيات أخرىٰ، وهذا ليس بحال رجل أمي، ناهيك بأن الشعر الوارد في الكتاب ليس من نوع الأشكال الشعرية التي يشيع فيها عدم الالتزام بقواعد اللغة والعروض، بل هو شعر منضبط عروضيًّا، سليم نحويًّا. فيبعد أن يكون كاتبه أميًّا.

ثم إنه نسب له ﷺ كتب في الفقه بل في النحو والبلاغة، حتىٰ ضمنه الإمام السيوطي في «بغية الوعاة في طبقات النحاة»، فقال: «داود بن عمر بن إبراهيم الشاذلي الإسكندري. قرأت بخط الشيخ كمال الدين والد شيخنا الشُّمُنِّي: من الأئمة الراسخين، تفقه علىٰ مذهب مالك، له فنونٌ عديدة، وتصانيف مفيدة. صحب الشيخ تاج الدين بن عطاء الله، وأخذ عنه طريق التصوف، وكان يتكلم علىٰ طريق القوم. صنف: مختصر التلقين للقاضي عبد الوهاب في الفقه، مختصر الجمل للزجاجي، بديع. وله كتاب في المعاني والبيان، وغير ذلك. مات بالإسكندرية سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة».

فهو عند الإمام السيوطي – وهو الحجة – متفقه علىٰ مذهب الإمام مالك، مشارك في علوم وفنون «عديدة»، صاحب «تصانيف مفيدة». والتصانيف إن جاز أن تكون إملاءً عن القلب في التصوف، فهذا لا يقع في غيره من الفنون. وكل هذا في جانب، ووصف الإمام السيوطي لشرحه علىٰ جمل الزجاجي بـ«البديع» في جانب آخر. وهذا الوصف لا يكون إلا بعد اطلاع الإمام السيوطي علىٰ الكتاب.

فكل هذه البراهين تقطع بعدم أميته، وتثبت بتضلعه في العلوم ورسوخ قدمه فيها. فماذا يقال فيما قاله الإمام الشعراني وتابعه عليه تلميذه العلامة عبد الرؤوف المناوي في «الكواكب الدرية»؟ الحال أن الإمام الشعراني في أخباره إنما ينقل عمن لقاه من مشايخ عصره ممن يكون له اطلاع علىٰ حال هذا أو ذاك من الأولياء. والإمام الشعراني كان همه الأول تربويًّا وعظيًّا، لذا كان لا يتوقف ﷺ في الأخبار التي لا تخالف هدفه من الكتاب، وهو هدف نرىٰ ويرىٰ أهلُ الإنصاف أنه تحقق بالفعل، فطبقات الإمام الشعراني – رغم ما فيها مما يستشكله البعض – أعظم ما كتب في ترجمة رجال التصوف، والنقل عنها مستفيض في كتب السادة الصوفية بما لا مزيد عليه. ويكفيه في هذا الصدد أن كل من نقل كلام سيدي ابن ماخلا سواه فقد اعتمد عليه كما أسلفنا.

وختام القول أننا نقطع بأن العارف ابن ماخلا كان من العلماء الكبار ولم يكن أميًّا، اللهم إلا أن تكون أميته بمعنىٰ أنه إذا تكلم في التصوف لم ينقل إلا عن مشهده هو. وهذا هو الغالب في كتابنا اللهم إلا في موضع أو اثنين».

(١) أصدرته دار الإحسان بتحقيق د. محمد نصار، وفي مقدمته ترجمة وافية لسيدي داود بن باخلا.

ومممن أدركتُه علىٰ هذا القدم الشيخ محمد البوَّاب ببيت شمس الدين ابن عوض مباشر السلطان الغوري، وكان أعمىٰ، وكان سيدي عليًا الخواص يزوره كلَّ قليل ويسأله الدعاء. وأخبرني الشيخ نور الدين الشونيُّ أن فقيرًا مرَّ بباب القنطرة، فرأىٰ شخصًا جالسًا عند دكان الشواء يتمنىٰ رطل شواء، ويسأل الناس بالنبي ﷺ، فلا يشتري له أحد ما طلب، فقال: ما في هذا البلد أحد في قلبه رحمة! ثم اشترىٰ له حاجته، وأخرج له[1] نصفًا، فوجده زَغَلًا[2]، فقال: هات غيره. فأخرج له آخر، فوجده زغلاً وهكذا! فشكوه وأتوا به للوالي، فأول ما رآه المقدَّم قال له: ما بقي في البلد أحد في قلبه رحمة إلا أنت يا مهبول! ثم قال له في أذنه سرًّا: تب إلىٰ الله عن مثل ذلك. فقال: من أعلمك بذلك وأنت بعيد عني؟ فقال: سمعتُها منك حين تكلمتَ بها. ثم أخذ تلك الدراهم وفركها بيده وقال: هذه خيار الفضة وأطلقه. فاعلم ذلك، ولا تبادر إلىٰ الوقيعة في بزدار الأمير إذا عارضك في الشفاعة، إلا إن كنتَ تعلم أن ذلك لحظِّ نفس، وأنه لا قدم له في الولاية، واحمله علىٰ أنه فعل ذلك مصلحةً لك أو لذلك المشفوع فيه، أو كان لم يجيء وقت تفريج كربه الذي جعله الحقُّ تعالىٰ له.

وقد ابتلاني الله بسوء حظي بشخص يعارضني في بيوت الولاة كلما أشفع عندهم، لكونه صاحبًا لهم، فألهمني الحقُّ تعالىٰ أنني أرسلتُ أقول له: بلغني يا أخي أنك تتعب نفسك في المساعدة لقاصدي كلما أرسله يشفع في أحد عند فلان أو فلان، فمن فضلك لا تشوش علىٰ نفسك لأجلي، فربما كنتُ أشفع فيمن لا يستحق الشفاعة، فتحمل ذمتك الإثم من أجلي. فاستحيا وترك معارضتي من ذلك اليوم، ثم صرتُ أمدحه في المجالس حتىٰ زال ما كان عنده بالكلية، ولو أنني كنتُ أرسلتُ أقول له: إنك سيئة من السيئات، لربما دام علىٰ المعارضة لي وزاد فيها، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: إذا كان لأحدكم حاجة إلىٰ

---

(١) أي لصاحب دكان الشواء، ثمنًا لما اشتراه للفقير الجائع.

(٢) الزَّغَلُ: الغِشُّ.

الله، فليقسم عليه بي، فإنها تُقضَىٰ، وليحذر من أن يقسم عليه بأحد غيري ولو ارتفعت درجته؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة! فإن في أولياء الله من هو أعلىٰ منه درجة، فضلًا عن أنبيائه وأصفيائه، فسؤال الله تعالىٰ بهم أسرع في قضاء الحاجة.

والجواب: أن الشيخ لا يجهل مثل ذلك، وإنما أراد أن الأولياء الأكابر مقامهم غير مشهود لذلك المريد، لكونه محبوسًا في دائرة شيخه، فأراد تقريب الطريق عليه، وما كلُّ مريد يقدر علىٰ معرفة مقام الأكابر. وقد كان سهل بن عبد الله التستري ﷺ يقول لتلامذته: «إذا كان لأحدكم حاجة عند الله، فليقسم عليه بي» وما قال لهم ذلك إلا حين رآهم يجهلون مقام غيره.

ووقع للشيخ شمس الدين الحنفي الشاذلي أنه مشىٰ علىٰ بحر النيل من مصر العتيق إلىٰ الروضة وخلفه تلميذه يمشي علىٰ الماء تبعًا له، فقال له: قل يا حنفي، وإياك أن تقول غيره. فقال في نفسه: الله عزَّ وجلَّ أعظم. فقال: يا الله! فغرق، فالتفت إليه الشيخ وقال: إنك لا تعرف الله ولا عظمته! قل: يا حنفي؛ فقالها فطفا علىٰ الماء، فعُلِمَ أن العمدة في قضاء الحوائج وسرعتها صحةُ الاعتقاد في الشيخ، لا علىٰ كون الشيخ صادقًا.

وقد جهدتُ كلَّ الجهد أن أقضي لأحد ممن هو مستند إلىٰ غيري حاجة، فلم أقدر، بخلاف من هو مستند إليَّ، فربما توجه فقضىٰ الله تعالىٰ حاجته من غير علمي، وربما توجه إلىٰ بلاد بعيدة، فظهرت له صورتي فكلَّمها وكلَّمتُه، ولم أعلم بذلك إلا منه لموضع صدقه في الاعتقاد. وكثيرًا ما يسبق في علم الله تعالىٰ عدم قضاء حاجة أحد من خواص أصحابي علىٰ يدي، فينزع الله تعالىٰ منه قوةَ الاعتقاد في جانبي، ويشككه في حالي، فلا أقدِر أقضي له حاجة. فاعلم ذلك يا أخي، ولُمْ نفسَك إذا لم يقضِ شيخك لك حاجة، ولا تلم الشيخ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان واسطة في وصول أرزاق أصحابه علىٰ يديه في زاوية أو غيرها، فقال لهم يومًا: أكثروا من شكر الله علىٰ هذه النعمة التي أنتم فيها، وإلا سألتُ الله تعالىٰ تحويلها عنكم؛ فلاث به بعضُ الجهلة منهم وقالوا: رزقنا

لا يزيد ولا ينقص، وليس بيد الشيخ زيادة ولا نقص، بأنه ربما كان الحقُّ تعالىٰ أعطاه القدرة علىٰ تحويل ذلك الرزق الذي وصل علىٰ يديه لجماعته، فكما أعطاه القدرة علىٰ وصوله إليهم، كذلك يعطيه القدرة علىٰ تحويله عنهم. وفي الحقيقة ليس ذلك الرزق الذي يحوَّل عنهم برزق لهم، وكأن الحقَّ تعالىٰ أذن لهم في الأكل من طعام الزاوية والشرب من مائها إلىٰ ذلك الوقت الذي تحوَّل الرزق عنهم ورزقهم غيره، ولكن **الحق تعالىٰ أمرنا بشكر الوسائط لنا في الخير**، فامتثلنا أمره في ذلك، مع علمنا بأنه هو الرزَّاق. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك أن تظنَّ بالشيخ أنه يمنُّ علىٰ الفقراء بذلك الذي كان واسطةً فيه، فإن ذلك بعيدٌ علىٰ الشيخ أن يقع فيه، ولو لم يكن في ذلك إلا امتثال الأمر في شكر الوسائط، لكان فيه كفاية، فإن **من شكر شيخه أثابه الله، ومن ذمه مقته الله**، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ الناس عن التطوع بالحج، وعن تزويج أكثر من واحدة، ويكاد يقول بكراهة ذلك أو تحريمه، فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: التطوع بالحج سُنَّة، فكيف ينهىٰ هذا عن السُّنة؟! ولو لم يكن في الحج إلا معرفة المناسك بالفعل دون السماع ومغفرة الذنوب، لكان في ذلك كفاية في الحثِّ علىٰ سفر الحج. وأما التزويج فهو مطلوب، لأن مطلوب رسول الله ﷺ يباهي يوم القيامة بكثرة أمته[1].

والجواب: أن هذا الشيخ لا يجهل مثل ذلك، وإنما خاف علىٰ الناس من عدم الوفاء بما يلزمهم شرعًا أو عرفًا في طريق الحج أو مدة التزويج. وكان ذلك من دأب سيدي إبراهيم المتبولي، وسيدي عليّ الخواص ﷺ. وكانا إذا شاورهما أحدٌ في الحجِّ بعد الفرض، أو التزويج بعد فراق زوجته لموت أو غيره يقول: شاور غيري، فإنك يا أخي قد قمتَ بالأمر مرةً، وهي كفاية في هذا الزمان. انتهىٰ.

---

(١) وفي ذلك ورد «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم» أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧) وابن حبان (٤٠٥٧).

[آداب الصوفي إذا سافر إلى الحج]

إذا علمتَ ذلك، فمن أدب الفقير إذا سافر إلىٰ الحج زيادة الإيثار علىٰ ما كان عليه في الحضر، وعدم حجه في محفَّة[1] ونحوها بغير ضرورة، ويصير يأكل من الطعام اللذيذ والماء المخلوط بالسكر، ويرىٰ الفقراء والمساكين جياعًا عطاشًا مشاةً عرجًا حفاةً أو مرضىٰ، فلا يطعم أحدهم لقمة، ولا يسقيه جرعة، ولا ينزل يمشي ويركبه خطوة.

ومن أدبه أن لا يجلس في المحطة يأكل الخبز واللحم، والطيب والعسل النحل، والقطر النبات، والسمن الطري، ويقف عليه السائل فلا يعطيه لقمة، ولا يأذن له في الجلوس معه للأكل.

ومن أدبه أن لا يرىٰ نفسه أحقَّ بماله وزاده وجماله من غيره، إلا إن كان أحوج منه. وهذا وإن كان مطلوبًا في الحضر فيتأكد في السفر.

ومن أدبه إذا وقع عطش أو غلاء أن لا يخص نفسه عن إخوانه بزيادة أكل ولا شرب، ومتىٰ زاد علىٰ إخوانه فقد خانهم في الصحبة. ووقع للسيد محمد المُنيِّر ﵀ أنه لما حصل موت الجمال في الطريق، بقي معه جمل واحد، فكان إذا رأىٰ فقيرًا عاجزًا يُنزِل عياله وأولاده يمشون ويُرْكِبُه، فعجز عياله وأولاده، فقال له فقير: قد بلغت الفتوة حدَّها، فأركب أولادك وعيالك. انتهىٰ.

ومن أدبه أن يؤثر إخوانه المسلمين في المناهل والمضايق، فلا يزاحم بجمله علىٰ الماء، ولا يطلب الموضع الواسع ويلجيء جمال أخيه إلىٰ العطش والمضايق، ويعرِّضهم للموت أو الوقوع في الوادي، أو يلجئها إلىٰ الزحمة حتىٰ ينكسر محمله، ويتعصر أضلاع جماله.

ومن أدبه مشاركة جميع من في الركب في همومهم من أمير الحاج إلىٰ آحاد الناس، ويديم التوجه إلىٰ الله تعالىٰ في حفظ الجمال والدواب وما عليها من الأمتعة، وفي أن الله تعالىٰ يمد الجمال والمشاة كلَّهم بالقوة إلىٰ المحطة، وإذا نزلوا يصير متوجهًا إلىٰ الله تعالىٰ

---

(١) المحفَّة: هودج مسقوف أو بقبة محمول بين جملين أحدهما أمام الآخر.

في حفظ أمتعة الناس من اللصوص حتىٰ يرحلوا، لاسيما في الليلة المظلمة والطريق الوعرة.

ولما حججتُ مع عيسىٰ شيخ عرب البحيرة سنة ثلاث وستين وتسعمئة، كنتُ أحوط الركب بالآيات والأذكار، وأن يمد أهل الركب كلهم بالقوة، حتىٰ يرجعوا إلىٰ أوطانهم من حين يرحل إلىٰ حين ينزل، ومن حين ينزل إلىٰ حين يرحل. وما كنتُ أفرغ من التوجه إلىٰ الله في ذلك حتىٰ يذوب بدني وكأنني شربتُ رطلًا من السم، وكنتُ أرىٰ أنني مؤاخذٌ بكلِّ جمل بطل، أو فقير عجز، أو متاع ضاع، فما وصلتُ إلىٰ مصر وفي عيني قطرة من الهم والكرب علىٰ الحجاج.

ومن أدبه إذا دخل مكة أن يدخل وهو يرىٰ نفسه أحقر من جميع من في الركب وأعصاهم لربه عزَّ وجلَّ، وإذا دخل الحرم يكاد يذوب من الحياء والخجل من الله عزَّ وجلَّ، ويرىٰ أنه قذَّر الحرم والطائفين بالبيت، ولولا أن الله تعالىٰ أوجب عليه الطواف ما فعله. وإذا خرج إلىٰ منىٰ وعرفات، فلا يأكل ولا يشرب حتىٰ يُلْقِي الله تعالىٰ في قلبه أن الله تعالىٰ غفر لجميع أهل الموقف. وإذا رجع إلىٰ مكة فليجعل الدعاء كلَّه لإخوانه دون نفسه فتوةً منه، ويؤخر نفسه إلىٰ يوم الرحيل، وإذا شرب ماء زمزم فليشربه كذلك علىٰ نية إزالة أمراض[1] جميع إخوانه الظاهرة والباطنة، ويؤخر نفسه ويشرب لها علىٰ نية الري من العطش يوم القيامة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: يخلع الله تعالىٰ علىٰ الحاج خلعتين: إحداهما عند الحجر الأسود عند الفراغ من طواف الوداع؛ والثانية عند وجه رسول الله ﷺ إذا زاره ووقف قبالة وجهه الشريف، لتقر بذلك عينه ﷺ ويدخل عليه السرور. قال: وعلامة صحة الخلعة الأولىٰ أن يزداد العبد إيمانًا بأحوال يوم القيامة، حتىٰ كأنها رأي عين، وعلامة الخلعة الثانية أن يتخلق العبد بالأخلاق المحمدية، حتىٰ لا يخل بشيء منها إلا لعدم القسمة. انتهىٰ.

وكان يقول: ما احتاج فقير إلىٰ شيخ يسلِّكه بعد أن حج إلا لإخلاله بآداب الحج، فإنه

---

(١) بالأصلين: أمرًا من. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

لا يرد علىٰ حضرة الحقِّ تعالىٰ أحد إلا أعطاه من العلم ما يستغني به عن علم العلماء.

وما رأت عيني أكثر قيامًا بآداب الحج من أخي العبد الصالح شمس الدين الخطيب الشربيني الشافعي، والشيخ أحمد الهنيدي بناحية منبوبة[1] ﷺ.

[آداب الصوفيِّ المتزوج أكثر من واحدة]

وأما آداب المتزوج فوق واحدة:

فمن أدبه أن لا يحمل همَّ الرزق، ولا يتعاطىٰ في طريق كسبه ما لا يليق، وأن لا يشتغل بذلك عن الله تعالىٰ، ولا يتناول من الدنيا إلا الحلال دون الشبهات، وأن لا يذم أحدًا من الخلق علَّق أمله به ليعطيه شيئًا، فلم يعطه.

وقد شاور شخص سيدي عليًّا الخواص علىٰ تزويج امرأة فقال له: تزوجت؟ فقال: نعم. فقال له: قد حصلت السُّنة، فاشتغل بعبادة ربك. فقال له فقيه: كيف تنهاه عن فعل السنة؟ فقال له الشيخ: أما تنظر إلىٰ الآفات التي تتبعها، فمن يقول لمن لا حاجة له بالنكاح: تزوج، فكأنه يعلمه خطف العمائم. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل كلام الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة دون مخالفتهم للسنة، فإنهم أعلم بالسنة منك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يمدح أخاه في الحضر، فلما سافر للحج صار يقطع في عِرْضه عند أمير الحاج وغيره، ولاث الناس به وقالوا: ما يحب هذا أحدًا يزاحمه في المشيخة.

والجواب: أن الشيخ ربما خاف علىٰ أخيه من كثرة اعتقاد الناس فيه وتعظيمهم له، حتىٰ إذا وقعوا في عطش أو خرج عليهم عدوٌّ أو حصل لهم غلاء أو موت، ألزموه برفع ذلك وقالوا: الحملة عليكم يا سيدي الشيخ؛ فأتعبوا قلبه، وربما لم يجب الله دعاءه في إنزال المطر، فتحوَّل اعتقادهم عنه واحتقروه، فقصد الشيخ بذمِّه وتنقيصه راحته من مثل هذه الحملات.

---

(١) وهي المنطقة المعروفة بـ«إنبابة»، قُلبت النون ميمًا في لغة العامة، وهي تابعة لمحافظة الجيزة بمصر.

وقد وقع لسيدي أفضل الدين مثل ذلك، فظنَّ الناس به أنه يكرهه، وأنه يحب الانفراد بالمشيخة، فلما لم يرجعوا عن اعتقادهم فيه، صار يدعو له بالتدبير، ثم لما وقع للناس العطش وسألوا ذلك الشخص أن يدعو الله ينزل لهم المطر، توجه أخي أفضل الدين إلىٰ الله، فأنزل المطر، ثم إنه أظهر للناس أن ذلك ببركة ذلك الشيخ، ثم ذهب إليه وقبَّل يده وقال: الله يكثر في المسلمين من مثل سيدي الشيخ! والحال أنه إنما نزل بدعائه هو، ولكن قصد بذلك ستر أخيه بين الناس، فرضي الله عن الصادقين.

ولما حج سيدي عليٌّ ابن وفا علىٰ التجريد علىٰ جمل لا محمل عليه بقلنسوة بلا عمامة، عطش الحجاج، فجاؤوا إليه، فأنشد موشحه الذي أوله:

اســـــقِ الـــعـــطـــاش تـكـرمـا فـالـعـقـل طـــاش مــــن الـظـمـا

فنزل المطر كأفواه القرب حتىٰ خاض الناس في الماء. انتهىٰ. فإن كنتَ يا أخي من أهل هذا المقام، فأظهر نفسك في الركب، وإلا فاشكر فضل من نقَّصك، فإنه حماك من الهتيكة إذا طلبوا منك المطر فلم تقدر، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي عزم علىٰ شيخ ورد علىٰ بلاده أن يضيفه هو وجماعته، وعمل لهم طعامًا، فلما وصلوا إلىٰ باب الدار هرب وتركهم، أو دخل وأغلق بابه دونهم، أو أدخلهم الدار وأطعم الطعام لغيرهم، أو قال لهم: اخرجوا فقد تغيرت نيتي! ونحو ذلك؛ فلاث به الشيخ وجماعته وكلٌّ من علم بذلك من الناس وقالوا: هذا استهزاءٌ بالشيخ أو جنون.

والجواب: أن الضيافة إنما تُشرَع بنية صالحة، فإذا دعا الشخص أحدًا ليطعمه ثم تغيرت نيته، فلا يؤمر بالضيافة. وقد يكون ذلك الطعام من وجه شبهة وعمله لهم سهوًا أو عمدًا، كأن أهداه له شيخ عرب مثلًا مع اعتقاد حلِّه، فقبله وعمله لهم، ثم علم بعد ذلك ببينة أنه بَلَصه[1] من الناس ونحو ذلك، فمنع من أكلِه الشيخَ وجماعتَه شفقةً عليهم،

---

(١) بَلَصَهُ من المال: لم يترك له منه شيئًا.

وضاق الوقت عن عمل طعام آخر في تلك الليلة، ولم يجد معه دراهم يشتري بها شيئًا من السوق يضيفهم به تلك الليلة.

ويُحتمَل أنه قصد بما فعله بيان حسن خلق ذلك الشيخ وجماعته حين كان يعتقد فيهم الصلاح، كما وقع لإبراهيم بن أدهم لما دعا سفيان الثوريَّ من البصرة إلىٰ الرَّملة ليضيفه ويزوره، فأتاه وقال للناس: إنما دعوتُه من هذا المكان البعيد لأعرفكم بحسن خلقه القديم. انتهىٰ.

ووقع لأبي سليمان الداراني أن شخصًا دعاه إلىٰ وليمة، فلما وصل إلىٰ باب الدار قال: ارجع! فأني دعوتُك سهوًا! فتبسم ورجع، ثم دعاه ثانيًا وقال له: ارجع! فإني لم أردك! فرجع ثانيًا، ثم دعاه ثالثًا فقال: ارجع! إني لم أردك! فأخذ الرجل يمدح خلقه، فقال: يا أخي الأمر أقل من ذلك، فإنه خلق الكلاب، فإن الكلب إذا دُعِيَ أجاب، وإذا زُجِرَ انزجر، ولا ينبغي مدح فقير علىٰ خلق يجد مثله في الكلب. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة التي تليق بمقامهم.

(٨٨٢) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أرسل له السلطان الأعظم في الأرض كالسلطان سليمان ابن عثمان هدية من بلاد الروم، كمطعوم أو ملبوس أو شيء من فراشه، وصار هذا الفقير يطلع عليه كلُّ من دخل عليه من العلماء والفقراء، وهو فَرِحٌ بذلك ويقول: انظروا ما أرسله لي السلطان دون غيري في البلد! ونحو ذلك، فلاث به الأقران وغيرهم، وصاروا ينقصونه في المجالس، وينسبونه إلىٰ خفَّة العقل ويقول: كان الأولىٰ رد ذلك، كما كان عليه السلف الصالح، كسفيان الثوري، والفضيل بن عياض ونحوهما، فإنه أخلص لدينه[1].

والجواب: أن أخذ ذلك أولىٰ من وجوه عديدة، منها الأدب مع مولانا السلطان الذي هو ظلُّ الله في الأرض كما ورد[2]، ومن يرد عليه ما يهديه له، فكأنه يدعي أنه أعلىٰ مقامًا من السلطان وأورع وأتم نظرًا منه، وذلك جنون، فإن عقل مولانا السلطان يرجح

(١) بالأصلين: لكونه.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن» (١٦٦٥٠)، وفي «شعب الإيمان» (٦٩٩١) والبزار (٥٣٨٣).

علىٰ عقل جميع رعيته لو وُزِنَ بعقولهم، ولولا رجحان عقله ما ولَّاه الله تعالىٰ عليهم.

وقد دخل أبو عبد الله الأصمعيُّ علىٰ هارون الرشيد فوعظه، فلما فرغ من وعظه، قال له: يا أبا عبد الله، إن كنتَ أعلم منا، فنحن أعقل منك، لا ترىٰ نفسك علينا، ولا تنصحنا في ملا، ولا تغشنا في خلا. انتهىٰ.

ومنها أن اللائق بالفقير أن يعتقد في جميع تصرفات مولانا السلطان أنها صحيحة مخلِّصة لذمته، وأنه لا يفعل شيئًا من السفه، وأنه أجلُّ عند الله من أن يطعمه أو يلبسه شيئًا من الحرام الذي يسأله عنه يوم القيامة، حيث ارتضاه إمامًا لجميع المسلمين، مجاهدًا مرابطًا حاميًا لبيضة الإسلام، فما يأكله ويلبسه ويهديه فكأنه من المال الذي يخصُّه من الغنائم، بل يستحق أكثر مما يأخذه.

ومنها أن فتنة ردِّ مال السلطان أعظم من فتنة الأخذ، فإنه إذا رد عظم جاهه عند السلطان وجماعته أكثر كما هو مشاهد، فكان الأخذ أستر للعبد بين الإخوان، ولكن يحتاج الفقير إلىٰ عدة عيون: فعين ينظر بها إلىٰ فضل الله تعالىٰ عليه، وتمييزه بالهدايا عن أقرانه، ومن أين لأمثالنا أن يذكر اسمَه مولانا السلطانُ أو يعتقد صلاحه؟! وعين ينظر بها إلىٰ تفريطه وتظاهره بالأعمال الصالحة حتىٰ اشتُهر بالصلاح وبلغ ذلك السلطان، وكان الأولىٰ له كتمان أعماله الصالحة، كما كتم غيره من العلماء والصالحين الذي لا يصلح هو أن يكون خادمًا لأحدهم، وعين ينظر بها إلىٰ إذن الشارع ﷺ بالأخذ من السلطان في حديث أبي داود بقوله: «فإن كان ولا بد أن يكون أحدكم سائلًا، فليسأل الصالحين أو ذا سلطان»[١]، فقوله: «أو ذا سلطان» فيه الأمر بالأخذ منه، لاسيما إن كان الفقير مسؤولًا في ذلك، ولم يسأل هو السلطان لا بالحال ولا بالقال.

وبالجملة فللعارفين مشاهد في معاملتهم الله تعالىٰ ومعاملة خلقه لا يكون لغيرهم من العلماء والعباد؛ لأنهم علىٰ بصيرة من أمرهم من طريق كشفهم، فربما ردَّ أحدُهم ما

---

(١) تقدم تخريجه.

أعطاه له شيخ من الصالحين، وقبل ما أعطاه له أحد من الولاة وأعوانهم، ولذلك قالوا: لكلٍّ مقام رجال.

[إرسال السلطان العثماني سليمان القانوني بساطه للمؤلف]

وقد أرسل لي مولانا السلطان سليمان ابن عثمان نصره الله في سنة أربع وستين وتسعمئة بساطًا كان يصلي عليه صحبة جاويش من جماعته، فتلقيتُه بالقبول، ووضعتُه عندي على مخدة، وصرتُ أصلي عليه وأنا في غاية الحياء والخجل أن أضع رجلي عليه مكان رجل السلطان، أو وجهي موضع وجهه، وكأني قبلتُه من القطب الغوث الذي هو محلُّ نظر الحق تعالىٰ لعباده، ونظرتُ إليه بالعيون السابقة، وحصل بذلك بعضُ غمٍّ لأقراني الحاسدين، فالله تعالىٰ يغفر لنا ولهم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا مات له والد مجهول الحال أو ولد، وصار يمدح ذلك الميت ويذكر عنه[1] الأوصاف الشريفة التي لا يقدر علىٰ المشي عليها إلا العلماء العاملون، والأولياء الصالحون، ولم يكن لأحدهما سلف مشهور بالعلم والصلاح، فلاث به الأقران، وصاروا يقولون: إنما يمدح فلان والده بالعلم والصلاح رياءً وسمعةً، كأنه يقول: نحن كلنا أهل بيت علم وصلاح، ما نحن بحمد الله متجددون في ذلك.

والجواب: أنه قد يكون بمعزل عما ظنَّه الناس فيه، وإنما يحكي للناس أوصافه الصالحة استجلابًا للترحم عليه، ووفاءً بحقِّه، وليقتدي به الناس في تلك الصفات التي كان عليها ويكتمها عن الناس، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «المنن والأخلاق الكبرىٰ» من وجوب حمل كلِّ [من][2] مدح نفسه أو أحدًا من أصوله أو فروعه علىٰ التحدث بالنعمة، وأن كل من حمله علىٰ الرياء والسمعة فإنما ذلك وصفه هو، فإن كلَّ إناء بالذي فيه ينضح. وقال الإمام عليٌّ ﷺ: «المرء مخبوء تحت طي لسانه» أي يظهر مقامه بما ينطق به من

---

(١) بالأصلين: عنده. والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

شرف وخسة، وإخلاص ورياء، وورع ورغبة وغير ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي عمل لأبيه تابوتًا وسترًا لما مات، وكان جده فلاحًا أو من فقراء المطاوعة، وأبوه مجهول الحال في العلم والصلاح، فلاث به الحسدة والأقران وقالوا: إنما فعل ذلك لأبيه، ليعرف الناس أنه من بيت صلاح وخير، وليعملوا له الآخر كذلك ضريحًا إذا مات، أو يدفنوه عند والده تحت ذلك التابوت والستر.

والجواب: أنه لا يجوز حمل هذا الشيخ علىٰ ما ظنَّه الحسدةُ فيه، فقد يكون غافلًا عن ذلك كلِّه، وإنما فعل ذلك إكرامًا لوالده، بمثابة تعليم قبره بعلامة، أو ليزوره الناس علىٰ مرور السنين، ويقرؤوا الفاتحة، ويدعوا له، لاسيما إن كان يحفظ «البقرة» و«آل عمران»، فإن في الحديث: «من قرأ البقرة وآل عمران ولم يُدْعَ بالشيخ فقد ظُلِمَ»[1] رواه الديلمي وغيره.

وقد أجبتُ بهذا الجواب عن أخي الشيخ الصالح أبي العباس الحريثي لما عمل لوالده تابوتًا مسنَّمًا كتابوت الإمام الشافعي وسترًا، ولم يكن والده مشهورًا إلا بقراءة الأعمال[2] دون إرشاد المريدين، ولاث به الحسدة وقالوا: هذا ما كان يستحق ذلك! بل الذي أقول به: إن الشيخ يوسف الحريثي هذا كان من أولياء الله عزَّ وجلَّ، ووقع له عدة كرامات، وانتفع به خلائق في حفظ القرآن في بلاد الشرقية[3]، وكان قائمًا بالسنة، قطبًا تدور عليها رحاها، مع أنها أكثر بلاد مصر مبتدعة، رضي الله عنه.

فاعلم ذلك، واعتقد أن المشيخة والولاية ليست بالآباء والجدود، وربما كان والد الإنسان عاميًّا وأعطاه الله الولاية الكبرىٰ. وقد كان والد سيدي الشيخ إبراهيم الدسوقي مصموديًا يحرس جرين القمح في بلاد الفلاحين، وكان والد سيدي إبراهيم المتبولي عاميًّا يبيع الحمص المسلوق، وكان والد سيدي محمد بن عنان رجلًا أميًّا، وكان والد سيدي أحمد الزاهد فلاحًا بالصعيد وهكذا، فإياك وازدراء الفقراء والعلماء

---

(١) لم أقف عليه، وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١١٦١) لا أصل له.

(٢) أي الأوراد والوظائف.

(٣) الشرقية: إحدىٰ محافظات مصر.

بالنظر إلىٰ أصولهم، فإن ذلك من الجهل، وعظِّم كلَّ ذات بحسب ما أعطاها الله، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا زاره الباشاه أو قاضي العسكر أو الدفتردار أو أحد من سناجق السلطان وصار يحكي ذلك للداخلين عليه، مع إظهار الفرح بذلك، فلاث به الناس وقالوا: هذا من خفة العقل! ولو كان عاقلًا لحزن علىٰ زيارة أحد من هؤلاء له، خوفًا من فضيحته يوم القيامة إذا أظهر الله تعالىٰ السرائر، وتبين للناس أنه لم يكن صالحًا.

والجواب: أنه قد يكون ساذجًا غافلًا عما ظنَّه الناس فيه، أو أعلم الناس بذلك من باب خبث الزمان الذي صار الأكابر مثله فيه. وقد قال شخص لإبراهيم التيمي ﷺ: يا فقيه. فقال: والله إن هذا زمان سوء الذي صار مثلي يُنادَىٰ فيه بالفقيه. انتهىٰ.

وأما إظهاره الفرح بزيارة الأكابر، فينبغي حمله علىٰ أنه قصد بذلك السترة بين الأقران، قياسًا علىٰ حالهم لو أن أحدًا من الأكابر زارهم، حتىٰ لا يتميز عنهم بعدم التفاته إلىٰ مثل ذلك، فإن من أقوىٰ أبواب الستر في هذا الزمان الدعاوىٰ العريضة، فربما رأىٰ العارف شدَّة اعتقاد الناس فيه كلما تواضع حتىٰ أشغلوه عن الله تعالىٰ بالتردد إليه، فقصد تنفيرهم عنه بالدعاوىٰ العريضة، حتىٰ صار الواحد من الناس لا يزوره ولا يعتقد فيه صلاحًا، ويقول: كنا اعتقادناه لظننا فيه التواضع واحتقار الناس، فرأينا عنده دعاوىٰ عريضة! فتركناه.

وكان علىٰ هذا القدم الشيخ أبو الحسن البكريُّ، وربما كان ولده سيدي محمد علىٰ هذا القدم بحكم الإرث لوالده، فإن جميع الأولياء تحنُّ أواخر أعمارها للوحدة وعدم تردد أحد إليها، عكس ما كانت عليه في الابتداء، وذلك لأن كلَّ داع إلىٰ خير يود أن لو عرفه الناس ليأخذوا عنه تلك العلوم والآداب، فإذا عرف أنه بلغ ما أفاضه الحقُّ تعالىٰ عليه، حنَّ إلىٰ الانتقال للدار الآخرة، وأخذ في الطي بعد الانتشار.

[توجيه آخر مناسب لمقام الجواب عن أمر الله رسوله بالاستغفار]

ولما أنزل الله عزَّ وجلَّ سورة «النصر» عرف أبو بكر وخواص الصحابة أن الحقَّ تعالىٰ نعىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ أجله، فأخذ في التسبيح لله تعالىٰ عند الزوال، والاستغفار من رائحة الاشتغال بالخلق أيام الرسالة بالنظر لمقام اشتغاله بالله وحده، فثم مقام رفيع ومقام أرفع، ولابد لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] من مركز يحتاج إلىٰ استغفار بالنظر لمقامه الشريف. ويحتمل أن يكون الأمر بالاستغفار إنما هو من لازم رسالته، كما تقدم تقريره في الجواب عنه ﷺ في الباب الثاني[1]، وذلك أنه لولا رسالته ما عُذِّب أحد من أمته، فإن الحجة ما أُقيمت عليهم إلا برسالته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فهو ذنب تشريع لا ذنب وقوع، فافهم.

ولما حضرت وفاة سيدي الشيخ أحمد ابن الرفاعي قال لخادمه يعقوب: والله ما كان لحُمَيد -يعني نفسه- خيرة إلا في الوحدة، فيا ليت حُميدًا لم يعرف أحدًا، ولم يعرفه أحد. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، وإن لم يحضرك جواب حسن فاسكت، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا تورَّع عن الأكل من طعام الناس كلهم من تاجر ومباشر، وأمير وفقير، ومن يمسك الميزان أو القباني، أو شيخ البلد، وبالغ في الورع حتىٰ ترك أكل عسل النحل حين قالوا له: إنه يرعىٰ من زهر فواكه الناس، وترك أكل فراخ الحمام التي ترعىٰ من فول الناس أو قمحهم في الغيط أو الجرين، ولاث به الأقران وقالوا: هذا تنطع في الشريعة، فإنها أباحت الأكل من كلِّ طعام لم يعلم العبد أنه حرام، أو يغلب فيه الحرام، ولكن قالوا في المثل السائر: «خالفوا تعرفوا» ولم يبلغنا أن أحدًا من زهَّاد الصحابة والتابعين ترك أكل فراخ الحمام أو غيرها من الطيور إذا رعت من زرع الناس، ولا ترك أكل عسل النحل كذلك.

والجواب: أنه بلغ من ورع السلف ما هو أبلغ من ذلك، حتىٰ كان بعضهم لا يأكل

---

(١) بالأصلين: الأول. والصواب ما أثبتناه. والجواب المشار إليه (٥٣). وللمزيد انظر الجوابين (٤٩)، (٦٣).

من زرع أرضه التي ورثها عن آبائه واحدًا عن واحد إلىٰ إقطاع النبي ﷺ لأجداده إذا خرجت بقرته إلىٰ أرض جاره في مطر ونحوه، ورجعت وفي قوائمها بعض طين اختلط بطينه. وبلغ من ورعهم أن أحدهم امتنع من الأكل من سمك الدجلة من حين نفض جنديٌّ سفرتَه فيها، وأكل السمك من ذلك الفتات. وبلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يأكل من طعام إلا إن تداولت عليه عشرة أيدي في الحلِّ، فإن لم يبلغ العدد المذكور لم يأكل. وبلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يأكل من ثمن شيء باعه غلامه وذكر اسم الله عليه أو صلَّىٰ علىٰ النبي ﷺ ويقول: إنك أطريت عليه بذكر الله ورسوله حتىٰ ظنَّ الناس أنه لولا هو سالم من العيب ما قال عليه: تبارك الله، ونحو ذلك مما ذكرناه في[1] كتابنا المسمَّىٰ «تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر علىٰ ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر» وهو كتاب ما أظنُّ أنه صُنِّف في الإسلام مثله، وكلُّ من طالع فيه من المدعين للصلاح يجد نفسه قد انسلخت من صفات الصالحين كما تنسلخ الحية من ثوبها.

وكان جدي الشيخ عليٌّ ﷺ لا يأكل فراخ الحمام، ولا عسل النحل الذي يرعىٰ في زرع الناس أو زهر فواكههم من حين شكا ذلك إليه أهل الفواكه إلىٰ أن مات. واستفتىٰ له والدي شيخ الإسلام علم الدين البلقيني، والشيخ يحيىٰ المناوي، والشيخ سعد الدين الديري[2] والشيخ شمس الدين البساطي[3]، والشيخ جلال الدين المحلي[4]،

---

(١) بالأصلين: من. والصواب ما أثبتناه.

(٢) سعد الدين سعد بن محمد بن عبد الله أبو السعادات الحنفي، المعروف بابن الديري، جد الأسرة الخالدية بفلسطين، ولد في القدس وانتقل إلىٰ مصر، من مصنفاته: الحبس في التهمة، والسها م المارقة في كبد الزنادقة، وشرح العقائد للنسفي ت سنة ٨٦٧هـ. الضوء اللامع (٣/ ٢٤٩)، الأعلام (٢/ ٨٧).

(٣) محمد بن أحمد بن عثمان الطائي البِسَاطي أبو عبد الله شمس الدين: فقيه مالكي من القضاة. ولد في بِسَاط (من الغربية، بمصر) وانتقل إلىٰ القاهرة، فتفقه واشتهر ودرس. له مصنفات منها: «المغني»، و «شفاء الغليل في مختصر الشيخ خليل» و«مقدمة في أصول الدين» ثم تولىٰ القضاء بالديار المصرية سنة: ٨٢٣هـ واستمر ٢٠ سنة لم يعزل إلىٰ أن توفي ٨٤٢هـ بالقاهرة. «الأعلام» (٥/ ٣٣٢) و«هدية العارفين» (٢/ ١٩٢).

(٤) الشيخ جلال الدين المحلي محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد. ولد بمصر: ٧٩١هـ. واشتغل

فأفتوا بالإباحة في ذلك بغير شبهة، وقالوا: قد أذن الله تعالىٰ للنحل أن تأكل من كلِّ الثمرات، وهو المالك[1] الحقيقي. فقال جدي: هل مراد الحق تعالىٰ الثمرات المباحة والَّا[2] المملوكة؟! وقد حرَّم الله تعالىٰ كل ما أُخِذَ من عبيده بغير طيبة نفوسهم، مع كونه هو المالك الحقيقي، وقد شكا إليَّ أهل الفواكه من نحل بلدي حين أكل زهر فواكههم، فلا آكل إلا من عسل نحل بلد ليس بقربها زهر فواكه. انتهىٰ.

ثم لا يخفىٰ أنه يتعين الورع المذكور علىٰ من عُرِفَ بقضاء حوائج الناس عند الله أو عند خلقه، ويجب عليه الاستحماء عن كلِّ الشبهات، لئلا يقف دعاؤه أو شفاعته عند الأمراء وغيرهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، ومن يأكل الشبهات قد أهانه الله بلا شك.

وقد رأيتُ زوجتي أم عبد الرحمن احتمت عن أكل اللحم والعنب والبطيخ والجبن وغير ذلك مدة خمسة أشهر لأجل ولدها الرضيع، وتحملت المشقة لأجله، فكيف لا يتحمل الشيخ الحمية لأجل مصالح آلاف من الناس؟!

فاعمل يا أخي بالورع في نفسك ولو اعترض عليك الناس، ولا لوم إلا علىٰ من يأمر الناس بذلك ويضيق عليهم، ولذلك قالوا: من حكمة العالم أن يضيِّق علىٰ نفسه ويوسع علىٰ الناس، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، وامدح من بالغ في الورع في هذا الزمان ولو لم تصرح الشريعة بمثل ذلك، وقد كانوا يتركون تسعة أعشار الحلال مخافةَ أن يقعوا في الحرام، ويحرم عليك أن تذم من بالغ في الورع وكأنك تقول

وبرع في الفنون. وكان متقشفًا في ملبوسه ومركوبه، ويتكسب بالتجارة، وألف كتبًا تشد إليها الرِّحال؛ في غاية الاختصار والتحرير والتنقيح منها: كتابًا في التفسير أتمه الجلال السيوطي. فسمي «تفسير الجلالين» و«كنز الراغبين» في شرح المنهاج في فقه الشافعية و«شرح الورقات». توفي: ٨٦٤هـ. انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ٤٤٧)، «الأعلام» (٥/ ٣٣٣).

(١) بالأصلين: المأكل. والصواب ما أثبتناه.

(٢) والَّا: لغة عامية مصرية تعني «أم» بالفصحىٰ.

له: لا تخف من الله ولا تخشه! والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر إخوانه بحضور مجالس الذكر والمواظبة عليها ولا يواظب هو، فلاث به بعض المجادلين وقالوا له: قد قال أشياخ الطريق: ينبغي للشيخ أن يحضر الأوراد مع المريدين، لينهض همتهم، فإنهم كلَّهم ناظرون إليه، فإن قام قاموا، وإن نام ناموا، وإن غفل غفلوا.

والجواب: أنه ربما ترك الحضور مع المريدين في بعض الأوقات رفقًا بهم وشفقةً علىٰ دينهم، خوفًا أن يحضر أحدهم لأجل حضوره، لا امتثالًا لأمر الله تعالىٰ، فلا يكون له ذلك الأجر العظيم الذي يحصل لمن يحضر مجالس الخير احتسابًا لوجه الله، وقد ترك رسول الله ﷺ الخروج مع أصحابه في بعض الغزوات شفقةً عليهم، وخوفًا أن يتكلف أحد منهم الخروج لأجله دون امتثال أمر الله عزَّ وجلَّ، وأرسل موضعه أسامة بن زيد، كما رواه البيهقي وغيره[1]. فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل الشيخ علىٰ أنه ترك حضور مجالس الذكر رغبةً عن الذكر أو استهانةً به، وإنما ذلك لحكمة، فإن مقام الأشياخ قد ارتقىٰ عن مثل ذلك، بخلاف المريدين، فربما ترك أحدهم حضور مجلس الذكر كسلًا وآثر النوم أو اللغو علىٰ الحضور. علىٰ أن ثواب جميع المجالس التي في الزاوية في صحائف الشيخ، لأنه لولا مدده ما اجتمع أحد علىٰ خير في الزاوية، لعدم انقياد بعضهم لبعض.

وقد يكون الشيخ دائم الحضور مع الله تعالىٰ، فلا يحتاج إلىٰ من يذكِّره بالله، وإنما يحضر في بعض الأوقات تنهيضًا لهمم أصحابه، فكان من الحكمة ترك الحضور إذا رأىٰ منهم قوة العزم، والحضور إذا رأىٰ فيهم ضعف العزم، وعليه يُحمَل قوله تعالىٰ لمحمد

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه سعيد بن منصور في «السنن» من حديث عمرو بن الحارث أن بكيرًا، حدثه: «أنه بلغه أن رسول الله ﷺ لما أمَّرَ أسامة بن زيد أكثر الناس في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: إنكم تقولون في أسامة أن أسامة حدث السن، وإن تقولوا فقد قلتم لأبيه من قبله، وأيم الله إنه لخليق للإمرة. قال بكير: فبلغني أن عبيدة بن سفيان قال: فإني لأرجو أن تكون هذه إلىٰ اليوم...» وعبد الرزاق (٧٧٧٩) بلفظ آخر، والبيهقي في «السنن» (٤٥٥٢١) بلفظ آخر.

ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، فأمره بالجلوس معهم في مجلس الذكر بالغداة والعشي، وإن كان هو حاضر القلب مع ربِّه عزَّ وجلَّ على الدوام. وإنما قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ ردًا إلى الحجاب بعد كشفه، فإن الذكر لا يكون لا إلا لغائب عن العيان بالبصر أو البصيرة، وأما حضرة المشاهدة فلا ذكر فيها باللفظ، وإنما هو ذكر بمعنى شهوده أنه بين يدي ربه لا غير، وأصعب ما على العارف بالله إسدال الحجاب بعد رفعه، فعُلِمَ أنه لولا تنزل رسول الله ﷺ إلى مقام آحاد الأمة لفاتهم الأدب والعلم. وإذا كان العبد المقرَّب في حضرة ربه، ثم أمره تعالى بأمر فيه حجاب عنه، فسلوك ذلك الحجاب أولى امتثالًا لأمر ربه، وليس له أن يقول لربه: لا أفارقك من مجلس الشهود إلى مجلس الحجاب؛ فإن ذلك عصيان لأمر ربه وطاعة للهوى. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ على خلاف حالك، ووجِّه لهم أفعالهم وأقوالهم حسب الطاقة، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير الذي يحسِّن اعتقاد كلِّ أمير أراد صحبتَه في اعتقاد غيره من مشايخ العصر، ويقول له: أنا ما أصلح خادمًا له؛ فلاث به بعض الفقراء وقالوا له: هذه خطيئة عليك يا سيدي الشيخ! فوَّتَ على نفسك الخير، وأدخلتَ غيرك في الورطة، فقد لا يقدر ذلك الفقير على حفظ نفسه من الميل لذلك الأمير مع ظلمه وشؤمه، وربما قبل منه هدية فتلف بالكلية.

والجواب: أنه إذا تعارض عند الإنسان هلاك نفسه وهلاك غيره، فهلاك غيره أولى إذا أدَّى اجتهادُه إلى ذلك، ولم يزل العارفون يمتحنون من يريد صحبتهم من الولاة قبل أن يدخلوا في صحبتهم، فإن الفقير الصادق لا يدخل مع الأمير إلا قاتلًا مقتولًا، وإذا وقع للأمير مصيبة لا يهدأ ولا ينام، ولا يأكل شهوة من الشهوات ولا يجامع، ولا يضع جنبه الأرض ولا يضحك، ولا يغفل عن الله تعالى وهو متوجه في إزالة الهم عن ذلك الأمير، فلا يزال كذلك حتى يفرج الله عنه، **وكلُّ صادق لا يمتحن من يريد صحبته، فهو يتعب مع من لا يستحق التعب.**

ثم إذا زين في عين ذلك الأمير الاعتقاد في ذلك الفقير ومال إليه الأمير، فقد كفاه المؤنة والتعب، وإن لم يلتفت لغيره، فهناك [لا][1] يتعب معه وقلبه مطمئن بمساعدة الحقِّ تعالىٰ له في أمره، فإن من يلتفت إلىٰ غيرك لا يستحق أن تتعب معه، ولو تعبتَ لا تساعدك القدرة.

وقد ادعىٰ عابد من العباد أنه يحب شيخًا، فقال له: فلو رأيتَ ذلك الشيخ -وأشار إلىٰ شخص- فالتفتَ إليه بنظره، فقال: أنت لا تصلح مريدًا! ولو كنتَ مريدًا ما التفتَ إلىٰ غير شيخك ولو كان هو القطب أو الخضر، لأن القطب والخضر ليس لك عندهما نصيب في التربية، بخلاف شيخك. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل أفعال الأشياخ علىٰ المحامل الصحيحة.

(٨٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسأل الناس من الأكابر وغيرهم ولا يمل من السؤال، فلاث به الفقراء وقالوا: إنما أُبيحَ السؤال للفقير عند الحاجة فقط، أما إذا جمع ومنع فلا إباحة.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الفقير، لأنه ربما كان كثير الدنيا في عينه قليلًا، وكلما ازداد منها ازداد إلىٰ الله تعالىٰ فقرًا كما عليه الصادقون، فإنهم كلما اتسعت عليهم دنيا، ازدادوا في الله تعالىٰ محبةً وإليه فقرًا وحاجة، ويرون أن من قنع من الدنيا باليسير كان قليل المروءة، فإنها كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة، فإذا أعطىٰ الفقير ألف دينار، فكأنه أعطي حبة شعير علىٰ حدٍّ سواء.

ثم إن رأينا ذلك الفقير يسأل ويجمع، حملناه علىٰ أنه رأىٰ ذلك حرامًا أو شبهة، فحبسه علىٰ اسم أصحاب الضرورات؛ وإن رأيناه ينفق ما يأخذه أولًا فأولًا، شكرناه علىٰ ذلك، ولا يجوز لنا ذمه في الحالين. وقد أوضحنا الكلام علىٰ ذلك في الباب الحادي عشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق» والحمد لله رب العالمين.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٨٩٠) ومما أجبتُ به عن العلماء والصلحاء الذين ظهروا[١] في النصف الثاني من القرن العاشر وسمنوا وكبرت بطونهم، فلاث بهم الناس وقالوا: هذا من أكل الحرام والشبهات، وفي الحديث: «إن الله تعالىٰ يكره الحبر السمين»[٢]، والحبر هو العالم.

والجواب: أنه لا يلزم أن يكون سمن هؤلاء من أكل الحرام والشبهات، بل ولا من الحلال، وإنما ذلك من برد المزاج، وقلة الهم، وقلة الاعتراض علىٰ الله تعالىٰ، وغلبة التسليم له فيما قدَّر عليهم وعلىٰ غيرهم، عكس من كان حديد المزاج. وقد تقدم في هذا الكتاب أن الشِّبْلي كان سمينًا جدًّا، وكذلك محمد بن الحسن من أجل أصحاب الإمام أبي حنيفة، وكانوا إذا قالوا للشِّبْلي: ما هذا السِّمَنِ؟! يقول: كلما أتذكر أني عبده أزداد سِمَنًا! ومصداق ما قلناه نزول الطفل سمينًا من بطن أمه إلىٰ أن يراهق البلوغ، مع أنه لا تكليف عليه ولا مؤاخذة، وثم لبن يسمن الطفل، ولبن يهزله.

وقد رأيتُ من يأكل اللحم والدجاج صباحًا ومساءً، ولا يظهر عليه سِمَن ولا يربو له بدن، ورأيتُ من يأكل الخبز الحاف وهو كالدب. فاحفظ لسانك يا أخي في حقِّ العلماء والصالحين إذا سمنوا، فقد يكون ذلك من كثرة محبة الله عزَّ وجلَّ، فإنها [تضني قومًا][٣]، وتسمن قومًا. وقد اجتمعتُ بشخص من الفقراء من جماعة سيدي محمد بن عراق كان يطوي الخمسين يومًا فيسمن فيها، فإذا أكل هزل! هذا أمر شاهدتُه.

ويُحمَل الحديث السابق من أن الله يكره الحبر السمين علىٰ الغالب من أن العالم الكبير لا يعجبه كل طعام حتىٰ يأكل منه، لما هو عليه من التورع، فيهزل ضرورة، فما سَمِن هذا إلا من قلة ورعه، ولو أنه تورَّع لم يجد حلالًا يسمن بدنه. فاحمل يا أخي العلماء والصالحين والمسلمين أجمعين علىٰ المحامل الحسنة حسب الطاقة، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: صدقوا.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث كعب قال: «إن الله يبغض أهل البيت اللحميين والحبر السمين» وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٦٦) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٥٩٧).

(٣) ساقط من «ب».

(٨٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وصل إليه مال عظيم من وصية أو سلطان مثلًا، وفرَّقه على الأجانب، وحرم جماعته مع شدة فاقتهم وجوعهم وعريهم، فلاثوا به وقالوا: نحن كنا أحق بذلك، لأننا منقطعون عنده وقائمون بقراءة أوراده وخدمته، ولكن النفس لا تحب أن تعطي برَّها إلا لمن يشكرها بين الناس.

والجواب: أنه لا تجوز المبادرة إلى الاعتراض على هذا الشيخ، فربما كان ذلك المال شبهة، والغالب فيه الحرام، فحمى جماعته منه مع شدة فاقتهم، طلبًا لرفع درجاتهم لا بغضًا فيهم، ولا طلب شكران من غيرهم، فينبغي للفقراء أن يستفهموا الأمر من شيخهم قبل أن يعترضوا عليه ولو بقلوبهم، فإن قال لهم: إنما حرمتُكم من ذلك لعدم قسمته لكم، أو شفقةً على دينكم لشدة محبتي لكم؛ وجب تصديقه، فإن كان هذا أخذ لنفسه منه شيئًا، وجب حمله على أنه رأى لنفسه الخلاص في ذلك دون جماعته، ولا يجوز حمله على أنه أخذ ذلك بغير طريق شرعي، فإن الشيخ يرى ما لا يراه غيره.

وقد كان سيدي عمر الكردي[1] المقيم في بركة فيدان خارج الحسينية[2] إذا أتته هدية يفرقها على الحشاشين الذين ينامون تحت شجر الجميز، ويقول لهم: يا إخواني، مالي أرى عيونكم حمراء؟! وكان حوله سبعة من النقباء لقضاء حوائج الناس، وكان لا يطعمهم شيئًا من الحلاوات التي تأتيه، ولا من الأطعمة الفاخرة، فلاثوا به يومًا، فقال لهم: خذوا من هذه الحلاوة طبقًا بيدكم وغطوه بالمكبة. ففعلوا، فقال: تعالوا ورائي. فجلس هو وإياهم في الجزيرة الخضراء التي في وسط البركة، وقال لهم: أطعمونا من حلاوتكم. فرفعوا المكبة فوجدوا الحلاوة قد صارت خُنْفُسًا! فتعجبوا من ذلك، فقال: إنما أمنعكم

---

(١) قال عنه الإمام الشعراني: الشيخ الصالح سيدي عمر الكردي، [واسمه عمر بن إبراهيم بن أبي بكر] ﷺ كان مقيمًا بزاويته على ساحل بركة الخازندار خارج جامع الملك الظاهر بيبرس. وكان يغتسل لكل فريضة صيفًا وشتاءً. وكان عنده جماعة من النقباء لقضاء حوائج الناس عند الأمراء وغيرهم. مات ﷺ سنة نيف وثمانين وثمانمئة. انظر: «الطبقات الوسطى» للشعراني الترجمة (٣٦٢).

(٢) الحسينية: حي من الأحياء القديمة، يجاوره حي الظاهر، وهو تابع لمحافظة القاهرة عاصمة مصر.

من الأكل من أطعمة الناس خوفًا عليكم أن يستحيل في قلوبكم خُنْفُسًا تأكل قلوبكم. فتابوا من ذلك اليوم، وصاروا يفرحون بحرمانهم من تلك الأطعمة والحلاوات.

وقد جاءني مرة وصية من قاضي إسكندرية، وكانت أربعة آلاف دينار، فحرمتُ جماعتي منها ورددتُها علىٰ ورثته، فتكدر مني جماعة في الباطن، وفرح بذلك جماعة، منهم الولد شهاب الدين المنشاوي، والشيخ محمد السبكي، زادهما الله تعالىٰ من فضله عفةً وورعًا، آمين آمين آمين.

(٨٩٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: فلان العالم من تلامذتنا، وما رأينا أحد انقاد لنا فيما نأمره به وننهاه عنه مثله؛ فلاث به العقلاء وقالوا: في ضمن هذا الشكر للعالم تعظيم الشيخ لمقام نفسه، ولا ينبغي للشيخ النطق بمثل ذلك.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون غائبًا عمَّا يترتب علىٰ كلامه، وإنما ذكر ذلك إخبارًا بالواقع، ولا ينبغي لأحد من أمثالنا مناقشة الأشياخ في أحوالهم، إنما تكون المناقشة منهم لأنفسهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: لا ينبغي لشيخ هذا الزمان أن يرىٰ نفسه بالمشيخة علىٰ أحد بعد قوله ﷺ «إذا وُسِّد الأمر لغير أهله، فانتظروا الساعة»[1]. ومن لم ير نفسه أنه لا يصلح خادمًا لطالب العلم الذي يجتمع عليه، وأنه ليس بأهل للمشيخة فهو مغرور. وسمعتُه يقول: كل فقير لا تزكيه أعماله الصالحة فلا يفيده شكر الناس له، لاسيما من لا ذوق له في طريق القوم. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا تثاءب في الصلاة، ولاث به بعض الفقراء وقالوا: إذا كان إبليس ينفخ في وجه هذا وهو يناجي ربه، فكيف به حال الغفلة عن ربه عزَّ وجلَّ؟!

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٩) بلفظ «فانتظر»، وأحمد (٨٧٢٩)، وابن حبان (١٠٤).

والجواب: أن ذلك لا يقدح في كمال العبد، وإنما يقدح فيه الغفلة عن الله تعالىٰ في حال صلاته، وكما أن المصلي لا يقدح فيه وسوسة إبليس له وإنما يقدح فيه العمل بها، فكذلك نفس التثاؤب إذا لم يغفل به عن الله عزَّ وجلَّ لا يقدح في كمال العبد، وإنما يقدح فيه لو غفل عن ربه بالتثاؤب، وفي الحديث: «إذا تثاءب أحدكم فليضع يده علىٰ فيه»(1).

وقوله بعضهم: «لا يتثاءب العبد إلا إن كان غافلًا عن ربه» محمول علىٰ حال غير الأكابر الذين حفظهم الله من الغفلة في أغلب أحوالهم، عكس حال من كان الغالب عليه الغفلة، وفي القرآن العظيم مدح الذين ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١] فأثبت لهم مس الشيطان مع مدحه لهم، لكونهم تذكروا به ربهم.

وفي كلام الحكم لابن عطاء الله: «إنما سلَّط الحقُّ عليك الشيطان ليحوشك إليه» فاعلم ذلك، واعذر الناس بما تعذر به نفسك، فهل سلمت أنت من التثاؤب في صلاتك؟! فكما لم تسلم من التثاؤب كذلك غيرك، وعليك بالاستغفار كلما تثاءبت، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي حضر وليمة، فضاع نعله أو اختلسوا جوخته فصاح وقال: أخذوا نعلي وجوختي. وأدخل بذلك علىٰ صاحب الوليمة الغم والهمَّ، فلاث به الحاضرون وقالوا: كان من مقام هذا العالم السكوت وعدم إعلام صاحب الوليمة، لأنه ما حضر إلا جبرًا لخاطره، فالذي حصَّله من جبر الخاطر أذهبه هذا بالصياح عليه بضياع جوخته ونعله.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن أخبر الناس بضياع متاعه، ولو حصل بذلك غم وهم علىٰ صاحب الوليمة، لأنه لم يقصد ذلك، ولا يؤاخذ العبد إلا بما قصده، وقد يكون ذلك النعل أو تلك الجوخة من وجه حل لا يكاد يجد بدلهما حلالًا، وليس اللوم إلا لو طلب بدلهما من صاحب الوليمة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٧٤٦) وقال: حديث حسن، والبخاري (٢٧٤٦).

(٨٩٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي عزم علىٰ سفر الحج، فصار يسأل الولاة وحاشيتهم في أن يساعدوه في الزاد والجمال وغيرهما من آلات السفر، فلاث به الناس وقالوا: هذه حجة ثلاثة أرباعها شحاتة كحج المغاربة.

والجواب: أن مثل ذلك لا يقدح في العالم أو الشيخ، فقد يقصدان بذلك صرفه علىٰ محاويج الرَّكْب، لعلمهما أن الفقراء يقصدونهما في المأكل والمشرب والركوب، لشهرة اسمهما في الركب، وما كل زاد يناسب العالم أو الشيخ الأكل منه، ولا يجدان من الحلال ما يفضل عن صاحبه[1]، فاعلم ذلك، وإياك ولحوم العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا كان أقرانه يكرهونه ويذكرونه بسوء، فلاث به الناس وقالوا: لولا علم أهل خرقته أنه مرتكب أمورًا توجب كراهته ما كرهوه، وقد قال ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض، فمن أثنيتُم عليه خيرًا فهو خير، ومن أثنيتُم عليه شرًّا فهو شر»[2].

والجواب: أنه لا يلزم من كراهة الأقران للعالم أو الشيخ أن يكون مرتكبًا شيئًا من المحظورات، فقد يكون ذلك حسدًا علىٰ ما هو عليه من الجاه والاعتقاد فيه دونهم. ومصداق ذلك أنك تقول له: ما وجه كراهتك لفلان؟ فلا يقدر يثبت في حقِّه معصية ظاهرة من شرب خمر أو تضييع صلاة أو نظر إلىٰ أجنبية ونحو ذلك، وإنما يرميه بالرياء والنفاق والكبر ونحو ذلك من الأمراض الباطنة التي لا يعلمها حقيقة إلا الله، فاعلم ذلك، وعظِّم كلَّ عالم أو صالح رأيتَه متعففًا زاهدًا ورعًا، ولا تلتفت إلىٰ قول الأقران فيه، فإنهم يتمنون له زَلَقة كأعداء البهلوان إذا مشىٰ بالقَبْقَاب[3] علىٰ الحبل، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: صاحبهما.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) القَبْقَابُ : النَّعْلُ تُتَّخَذُ من خشب، وشِرَاكُها من جلد أو نحوه.

(٨٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: من لم يسلك علىٰ قواعد الصوفية من العلماء، فعلمه زاده إلىٰ النار؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: كيف يكون علم العالم زاده إلىٰ النار إذا لم يتصوف؟! مع أن علم التصوف لم يأت به كتاب ولا سنة، إنما هو طريقة اصطلح عليها الصوفية في الهيئة والملبس والمنطق، وإلا فإن صلوا فغيرهم يصلي، وإن صاموا فغيرهم يصوم، وإن حجُّوا فغيرهم يحج وهكذا، فقول هذا الشيخ: «إن من لم يتصوف، فعلمه زاده إلىٰ النار» دعوىٰ لا برهان عليها.

والجواب: أن كلام هذا المعترض كلام من لم يعرف حقيقة الصوفي، ولو أنه عرفها لصدَّق هذا الشيخ، فإن حقيقة الصوفي التي اصطلح عليها القوم هو عالم عمل بعلمه علىٰ وجه الإخلاص لا غير، فكيف يجوز الإنكار علىٰ صاحب هذا الحال؟!

واعلم يا أخي أن قواعد الصوفية في تحصيل العلم أن يحفظوا نقول الناس في العلم أولًا، ثم استخراج الأحكام من الكتاب والسنة وأقوال المجتهدين ثانيًا، ثم رياضة النفس وتطهيرها من سائر النجاسات والرذائل ثالثًا، ثم ورود المواهب علىٰ الصوفي من الحضرات الإلهية رابعًا، وهو علم التعريف الإلهي، فيصير يفهم العلوم التي في الكتاب والسنة من غير معلِّم، فلا يكاد يتعسر عليه فهمُ علمٍ جعل الحقُّ تعالىٰ للخلق إليه سبيلًا، كما كان عليه الجنيد وأضرابه، فيصير مثل هذا من أعلم أهل الأرض [ولكن لا يعلم به أهل العلم الظاهر لكتمانه علمه، وعدم مشي أحد ومن العلماء معه](١)، وعدم صلاحية أحد منهم لحمل أسرار الشريعة. ووالله إني لأعرف من عباد الله الآن من لا يصلح أكابر العلماء أن يكونوا من طلبته، ولو أبدىٰ لهم علمًا من علومه ما فهموه، ومعلوم أن من شرط الطالب أن يفهم كلام شيخه، وإلا فليس له من اسم الطالب إلا الاسم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﵀ يقول: غاية علم التصوف أنه يطيِّب القلب حتىٰ يصلح لنزول الواردات الإلهية عليه، كما يطيِّب الفلاح الأرض للزراعة.

---

(١) ساقط من «ب».

[مثال من يطلب العلم وحب الشهرة][1]

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: مثال من يطلب العلم مع رعونة النفس والرياء وحب السمعة ونشر الصيت والفرح بتقدمه علىٰ الأقران عند الناس مثال الفلاح الذي يبذر الحب علىٰ الأرض الفلتة اليابسة من غير حرث ولا سقي ولا طراوة في الأرض، فلا تنبت له من بذره حبة. وإن وقع أنه نبت له من ذلك شيء، فهو كالشوك الذي نبت في زبل ودخان، أو كالنبات الذي نبت في أرض مسها الماء وذهب عنها بسرعة، فصارت كالأرض الندية التي لا يكفي نداوتها الحب شربًا ولا نموًا، فهو ينبت نباتًا ضعيفًا لا ثمرة له، أو له ثمرة ممصوصة لا تسمن ولا تغني من جوع، فإياك أن تقول: إن علوم الصوفية لا يحتاج الفقيه إليها في طريق تحصيل ثمرة العلم، كما يقوله بعض المجادلين الذين يتعلمون العلم من غير إخلاص، فإن الحس يكذبك يا أخي من عدم اعتقاد الناس فيمن لم يعمل بعلمه، فإنه يكون يابس الطبع كأنه خشبة يابسة لا يكاد ينتفع هو بعلمه، ولا ينتفع به أحد، ولو بدره في الدرس علىٰ الطلبة لا يثبت منه شيء في قلوبهم، وربما يصير أحدهم يقرأ علىٰ غيره حتىٰ تشيب لحيته ولم يؤهل لإفادة غيره شيئًا، بخلاف من كان عاملًا بعلمه، فإن طلبته يكونون علىٰ أخلاقه من اعتقاد الناس فيه الصلاح وانتفاعهم بعلمه، ويقول الناس عن أحدهم: هذا حل عليه نظر سيدي الشيخ نفعنا الله ببركاته.

واعلم يا أخي أن من جملة العلوم التي اختص بها الصوفية عن غيرهم: علم الجمع والتفرقة، وعلم الهدادة والهجوم، وعلم التجلي والاستتار، وعلم التجريد والتفريد، وعلم السكر والصحو، وعلم المحو والإثبات، وعلم الفناء والبقاء، ونحو ذلك مما ذكره الإمام القشيري أوائل رسالته.

وقد ألفتُ بحمد الله تعالىٰ كتابًا في علوم القوم ذكرتُ فيه نحو ثلاثة آلاف علم لا يعرف غالب العلماء أسرارها، فضلًا عن الخوض فيها، وكتب عليه مشايخ الإسلام بمصر علىٰ وجه التسليم للقوم، وقد جردتُه من نحو مئتي ألف علم وسبعة وأربعين ألف

---

(١) عنوان علىٰ هامش الأصلين.

علم وتسعمئة وتسعة وتسعين علمًا ذكرها أخي الشيخ الكامل أفضل الدين واستخرجها كلَّها من سورة «الفاتحة» وقال: إن ذلك سبب تسميتها «أم الكتاب» أي الحاوية لمعاني القرآن كله، وقال: إن هذه العلوم التي استخرجتُها من «الفاتحة» هي أمهات علوم القرآن، وأما فروعها فلا يعلم عددها إلا الله تعالىٰ.

وقد بسطنا الكلام علىٰ علوم القوم وكيفية الوصول إليها في أواخر الباب الأخير من كتابنا المسمَّىٰ بـ«منهج الصدق والتحقيق في بيان تفليس غالب المدعين للطريق» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ العهد في الطريق علىٰ من كان عاقًّا لوالديه أو أحدهما، ولاث به المتشرِّعون وقالوا: العاقُّ لوالديه الحقُّ تعالىٰ غضبان عليه، ومن غضب عليه الحقُّ تعالىٰ، فلا يقدر أحد يدخله حضرة الله تعالىٰ إلا بعد أن يرضي والديه أو والده، ليرضىٰ الله عنه، ثم بعد ذلك يسلكه الطريق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد اجتماعنا عليه واستفهامنا الأمر منه، فإن رأينا له قدرة علىٰ إرضاء الحق تعالىٰ عنه فذاك، وإلا أنكرنا عليه بعد ذلك. وأما المبادرة إلىٰ الإنكار عليه فلا ينبغي.

وقد أخبرني سيدي عليٌّ الخواص ﷺ أن مريدًا كان عند سيدي إبراهيم المتبوليِّ علىٰ عبادة عظيمة، فقال له سيدي إبراهيم يومًا: ما لي أراك يا ولدي كثير الأعمال ناقص الدرجات؟! فقال: لا أعلم! فقال: لعل والديك أو أحدهما مات وهو غضبان عليك. فقال: نعم! مات والدي وهو غضبان عليَّ. فقال الشيخ: أرني قبره؛ فأراه قبرَه خارج الحسينية بمصر، فلما وقف سيدي إبراهيم علىٰ القبر، قال له: يا حاج أحمد اخرج بإذن الله؛ فشق القبر وخرج رأسه، فقال له: ارضَ عن ولدك هذا، فإنه في كرب بسبب غضبك عليه. فقال: يا سيدي قد رضيتُ عنه. فقال له سيدي إبراهيم: ارجع مكانك؛ فرجع. وأخبرني الشيخ يوسف الكردي[1] أنه كان حاضرًا هذه الواقعة.

---

(١) ذكر الشيخ الشعراني في «البحر المورود» ص٣٨٣ أنه أخص أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ الذي أخذ العهد علىٰ العاقِّ لوالديه علىٰ أن له قوة علىٰ إرضاء والده عليه، ولو استبعد عقلك ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يجلِس ولدَ الشيخ الذي مات علىٰ سجادة المشيخة، ويأمر جماعة والده بطاعته والانقياد له كما كان والده، مع أنه لم يظهر من ذلك الولد أمارات المشيخة، فلاث به الناس وقالوا: المشيخة ليست بالإرث كالإرث الظاهر، وإنما هي بالأعمال الصالحة، فمن سلك مسلك والده في طريق الصدق والزهد والورع، وقيام الليل وحفظ جوارحه الظاهرة والباطنة، فهو شيخ وإلا فلا.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ الذي أجلس ولد الشيخ مكان أبيه، فقد يكون فعل ذلك جمعًا لنظام الزاوية عن تشتت أهلها بموت الشيخ، ثم بعد ذلك يسلِّكه في طريق القوم، هذا إن كان طريق والده سلوك طريق الإمام الجنيد ﷺ. أما مشايخ الخرق كالقادرية والأحمدية، فالأمر في ذلك سهل، لأنها طريق تزيي بزي الفقراء في الملبس والسجادة والعذبة، والغالب علىٰ جماعة والد هذا الولد الأدب معه، فلا يتجرأ أحد منهم علىٰ الخروج عن خرقته.

وقد أجلسوا الشيخ محمد خليفة سيدي أحمد البدوي للمشيخة وهو ابن سبع سنين وخدموه حتىٰ صار رجلًا، وكما وقع لسيدي الشيخ سليمان الخضيري[1] مع ولد الشيخ محيي الدين الذاكر بجامع ابن طولون، وكما وقع لسيدي الشيخ أحمد بن النحال مع سيدي أبي العباس الغمري، فإن الشيخ سليمان أجلس ولد الشيخ محيي الدين قبل ظهور علامات المشيخة، والشيخ أحمد النحال أجلس سيدي محمد الغمري كذلك،

---

(١) سليمان الخضيريّ المصري الشافعي. الشيخ الصالح الفاضل العارف بالله تعالىٰ. أخذ العلم عن الجلال السيوطي، والقطب الأوجاقي، وأخذ الطريق عن الشّهاب المرحومي، وأذن له أن يربّي المريدين ويلقّنهم الذّكر، فتلمذ له خلائق لا يحصون. وكان زاهدًا، ديّنًا، لا ينتقص أحدًا من أقرانه، ويقول: لا يتعرض لنقائص الناس إلّا كل ناقص. توفي: ٩٦١هـ ودفن في زاويته المرتفعة داخل باب الشعرية. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٧٦).

ثم جاء آيةً من آيات الله في العلم والصلاح. وقد قال الأشياخ: **ربما زرع الشيخ في المريد مقامات الطريق ولم تظهر إلا بعد زمان بحكم الإرث لرسول ﷺ**، [فإنه كان نبيًّا من عالم الذر، ولم يزل نبيًّا في الأصلاب إلىٰ وقت ظهوره الرسالة ﷺ] والطريق تعرف أهلها، فمن لم يسلك كما سلكوا رفضته الطريق قهرًا عليه، وإن رقعها من ناحية تمزقت من نواحٍ، كما هو شأن المغفلين من أمثالنا، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فعُلِمَ أنه يتعين علىٰ ولد الشيخ إذا أجلسوه علىٰ سجادة والده ألا يقتنع بذلك، بل يأخذ في طريق الجد والاجتهاد إن طلب أن يكون شيخًا علىٰ جماعة والده، وكذلك ينبغي أن ينقاد لكبراء جماعة والده، ليعلِّموه ما كان والده علَّمه لهم، ويقولون له: كان والدك يفعل كذا، أو يقول كذا، ولا يظهرون التمشيخ عليه، فتنفر نفسه منهم، لكونه لم يخرج من رعونات النفوس، فيفوته ويفوتهم الأجر، وإنما يقولون له: إنما نطلب منك الاقتداء بأحوال والدك، ومن يشابه أباه فما ظلم. ويجب عليه بعد والده أن يكون إمام الفقراء كلِّهم في الزهد والورع والعفة وقراءة الأوراد وسائر العبادات، وليحذر أن يتأخر عن ذلك، فإنه يتأخر عن الرئاسة علىٰ الفقراء، وكيف يطلب أن يكون شيخًا علىٰ قوم يزهدون في الدنيا وهو راغب فيها؟! ويقومون الليل وهو نائم؟! ويشتغلون بالآخرة ويشتغل هو بالدنيا وملابسها ومآكلها ومناكحها؟! هذا أمر لا يصح له به رئاسة علىٰ أحد، فلينتبه ولد الشيخ لمثل ذلك، ويخدم الحقَّ جلَّ وعلا كما خدمه والده إن طلب أن يكون شيخًا بعده علىٰ فقراء الزاوية، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يردُّ مال الولاة إذا أعطوه له من غير سؤال، مع أن له عيالًا وأصحابًا في غاية الفاقة والحاجة والعري، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: لو أنه أخذ المال وفرَّقه علىٰ المحتاجين، ولم يتناول هو منه شيئًا، لكان أرجح له عند الله وعند خلقه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن القاعدة عند المحققين أن السلامة مقدَّمة علىٰ الغنيمة، وإذا تعارض عند العاقل هلاكه وهلاك غيره، كان من العقل دفع

الهلاك عن نفسه أولًا، ودفعه عن غيره ثانيًا، وقالوا: من كمال المؤمن أن لا يطعِم أخاه إلا بما يحب أن يطعِمه هو. ومن قال: أعطني الحرام والشبهات واتركه أنت، فهو سفيه، فلا يجاب لما طلب، فكان من المعروف ردُّ هذا الشيخ المال وحرمان نفسه وإخوانه منه، مع أنه لم يُقسَم لهم في الأصل، إذ لو قُسِمَ لهم أو له، ما قدر علىٰ رده أحد من أهل السماوات وأهل الأرض.

وقد أرسل السيد عثمان بن عفان مالًا جزيلًا لأبي ذر رضي الله عنه وقال لفتاه: إن قبله منك فأنت حر. فرده أبو ذر، فقال: يا سيدي، إن في أخذه فك عنقي! فقال: إن كان فك عنقك، ففيه رقي. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: لا يخرج أحد من الولاة عن مال للفقراء إلا بعد زهده فيه، ولولا زهده فيه ما أعطاه لهم، فشيء زهد فيه الولاة، فكيف يرغب فيه الفقراء؟! وأيضًا قال: الولاة لا يخرجون عن مالهم المحبوب لقلوبهم إلا لمن اعتقدوا فيه الصلاح، ولولا اعتقادهم فيه الصلاح ما سمحوا له به، فمن أخذ ذلك منهم فقد باع دينه بدنياه. انتهىٰ.

فليحذر الفقير الساذج من قبول شيء من المال الذي أرسله السلطان أو أحد من نوَّابه إلىٰ الزهَّاد والصلحاء، فإنه لا يجوز له اعتقاد الصلاح في نفسه، وظنُّ الناس فيه الصلاح لا يكفي. ومن شك في ذلك من المتمشيخين، فليعرض علىٰ السلطان أو نائبه جميع الزلات التي[1] فعلها طول عمره وينظر كيف يحكم بفسقه ويخرجه عن الزهد والصلاح، ولا يسمح له بدرهم.

وقد أرسل لي نواب مصر كثيرًا المال فرددتُه بحمد الله. وكذلك أرسل لي أمس تاريخه الباشاه إسكندر مالًا جزيلًا مع الشيخ أبي اللطف[2] سبط شيخنا رضي الله عنه، وكان قال له: فرِّقه علىٰ الصلحاء والزهاد بمصر. فلما أتاني بشيء منه، قلتُ له: قد خرجتُ أنا بشرط الباشاه،

(١) بالأصلين: حتىٰ. والصواب ما أثبتناه.

(٢) أبو اللطف هو ابن بنت الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري بالقاهرة في عهد المصنف.

فإني لستُ بصالح ولا زاهد. فبلغ ذلك بعض إخواني من طلبة العلم، فلاموني وقالوا: لو أخذه وفرَّقه كان أفضل! فقلتُ لهم: إنما أنا تابع في ذلك سلفي الطاهر. وأما جماعة الزاوية فمدحوني علىٰ ذلك، وعلىٰ حرماني لهم من ذلك، فأسأل الله تعالىٰ من فضله أن يسبغ عليهم نعمة العافية، ويغنيهم بالقناعة حتىٰ يلقوا الله تعالىٰ، آمين اللهم آمين.

فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ أشياخ الطريق، فإنهم أعلم منك بأمور الدنيا والآخرة، ولا يعترض علىٰ الأشياخ إلا من هو أعلىٰ مقامًا منهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا كثرت المرائي الردية له من الناس، حتىٰ كاد الخلق أن يجعلوه من أهل النار، بأنه ربما كان سبب تلك المرائي له ليجِدَّ في الطاعات ويترك التواني والكسل، وهو في علم الله تعالىٰ من أكابر الأولياء. وقد تكون المرائي كلُّها للرائين لا للمرئي له كما تقدم في هذا الكتاب مرارًا، فلا يلزم من ذلك نقص درجة ذلك العالم أو الشيخ.

ومما وقع لي أنني اشتهيتُ فاكهةً مرةً فأكلتُها ثم نمت، فرأيتُ الذباب عافًا علىٰ بدني وثيابي، فعرفتُ أن حكمي حكم الذباب علىٰ العسل، ثم توالت عليَّ الطاعات حتىٰ ظننتُ النجاة، فنمتُ تلك الليلة، فرأيتُ أنني متُّ ونزلتُ القبر فرأيتُ فيه طَرَّاحة من الخيش محشوةً من شوك أم غيلان[1] وأنا نائم عليها عريان أنقلب علىٰ ذلك الشوك. وكثيرًا ما أنام عن قيام الليل، فأجد نفسي تارةً مع اللاعبين لخيال الظل، أو مع النساء، أو مع الأطفال، أو مع العميان، أو مع البهائم، فأعرف أني لا قدم لي في الصلاح! وأني أعمي أو بهيم!

وكثيرًا ما أنام في ليلة الجمعة وأنا جالس في مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ، فأرىٰ بستاني أو رِزَقي[2] التي كنتُ زرعتُها فواكه استحالت إلىٰ الأثل والحور[3] والصفصاف

---

(١) أمُّ غيلانَ: شَجرُ السَّمُرِ، وهو نوع من جنس السَّنْط من الفصيلة القرنية

(٢) جمع رِزقة، وقد تقدم معناها.

(٣) أنواع من الشجر.

والصنت وشوك الجمال[1]، فأستيقظ وأجدد الوضوء، وأسجد لله شكرًا الذي ينبهني علىٰ مثل ذلك، وأعرف اعتناءه تعالىٰ بي، فله الحمد والشكر عدد كل ذرة في الوجود العلوي والسفلي، مضروبة في أمثالها أضعافًا مضاعفة أبد الآبدين، ودهر الداهرين، آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: من المحال أن يتقبل الله من العبد عملًا يرىٰ لنفسه شركة فيه؛ فلاث به بعض العلماء وقال: شركة العبد لله في الفعل لا بد منها كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال: تفعلون، تعملون.

والجواب: أنه يجب حمل كلام هذا الشيخ علىٰ الشركة الحقيقية، كمن يرىٰ نفسه فاعلًا مع الحقِّ جلَّ وعلا كالمعتزلة، كما يجب حمل الآيات والأخبار علىٰ الشركة المجازية، لأجل إقامة الحدود وغيرها، فهي شركة إسناد لا شركة إيجاد، قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩] إسنادًا وإيجادًا ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] أي إسنادًا لا إيجادًا ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]: أي المتقين شركة أنفسهم في الفعل مع الله علىٰ وجه الإيجاد لا الإسناد، وذلك أن الله تعالىٰ لا يتقبل من العبد إلا ما كان باقيًا ببقاء فاعله أبد الأبدين. وأما عمل العبد فهو فانٍ بفنائه، فهو كالعدم الذي لا وجود له. انتهىٰ.

وقد سُئل الجنيد عن العبد وعمله: هل هو موجود أو معدوم؟ فقال: هو موجود، ولكن وجوده متردد بين وجود وعدم لا يخلص لأحد الطرفين. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: من أراد الإخلاص في أعماله، فليُرِض

---

(١) عشبة شوك الجمل لها العديد من الأسماء، مثل: خرشوف الجبل، والأرضي الشوكي البري، والعكوب، وهي نبتة تنمو في أوروبا وآسيا وشمال إفريقيا، وتنتمي إلىٰ العائلة النجمية.

نفسه حتىٰ[1] يشهد أن العمل لله تعالىٰ وحده كشفًا ويقينًا، وليس له منه إلا نسبة التكليف فقط، وهناك يحفظ العمل من الرياء وسائر الآفات. وأما من يرىٰ العمل لنفسه ويغفل عن كونه لله تعالىٰ فمن لازمه الرياء والإعجاب وسائر الآفات. قال: وهذا هو الإخلاص الذي أمرنا الله به. قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] يعني ولا نفسه إلا بقدر نسبة التكليف فافهم، فإن من عرَّىٰ نفسه من العمل مطلقًا، أخطأ الشرائع كلَّها، لأنها كلها جاءت بإضافة العمل إلىٰ الخلق، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي دخل إلىٰ وليمة اجتمع فيها خلائق من العلماء وغيرهم، فقال أول ما دخل من الباب: والله ما يقوم لي أحد منكم؛ ولم يكن في عزم أحد القيام له، فلاث به الناس وقالوا: إنما حلف تكبيرًا لنفسه وكسرًا لخجلها لما خاف أن لا يقوم أحد له، فيزدريه الحاضرون، فحلف حتىٰ يُقال: إنهم كانوا عازمين علىٰ القيام له، ولكنهم لم يقوموا إبرارًا ليمينه، ولأي شيء لا يعمل هذا علىٰ حصول مقام التواضع حتىٰ لا يكاد يخطر في باله أن أحدًا يقوم له لحقارته عند نفسه؟! فإن كثيرًا من الناس يظهر الكراهية لقيام الناس له، وتقوم القرائن علىٰ محبته لذلك حين تظهر العبوسية علىٰ وجهه والخجل إذا لم يقوموا له. والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون غائبًا عن تعظيم الناس له جملةً، ويعتقد في نفسه الحقارة، وإنما حلف علىٰ الناس أنهم لا يقومون له، لظنه أنهم يقومون له، مع أنه لا يستحق القيام له، فحلف عليهم حياءً من الله تعالىٰ. ولا يجوز حمله علىٰ محبة القيام له، ولا أنه قصد بحِلْفِه تكسير الخجل، فإن ذلك بعيد من العالم أن يقع فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي خزَّن قوت سنته ثم غلا السعر حتىٰ أكل الناس الشعير غير منخول وهو يأكل القمح الخالص المنخول، فلاث به الفقراء الحاذقون وقالوا: لو كان هذا من الصالحين، لأخرج القمح الذي في حاصل الفقراء

(١) بالأصلين: قد. والصواب ما أثبتناه.

وباعه للمحتاجين، ثم صار يشتري كآحاد المسلمين بقدْر الغداء أو العشاء فقط، حتىٰ لا يتميز عن إخوانه المسلمين.

والجواب: أن ذلك لا يؤمر به إلا الفقراء الصابرون الراضون عن الله إذا جاعوا، كما وقع للإمام عمر بن الخطاب وأصحابه عامَ الرمادة. وأما من يقع في السخط وعدم الرضا عن ربه إذا جاع، فلا يؤمر بإخراج ما عنده للناس، ثم يصير يشتري ذلك من الناس.

وقد قال الإمام الشافعي ﵁: لا يتم لعبد العبادة إلا إذا أحرز قوته. وأما إذا لم يكن عنده في داره قوت، فذهنه مشتت لا يقدر علىٰ جمعه في عبادة ولا غيرها. وكان يقول: لا تشاور من ليس في بيته دقيق، أي لأن تدبيره ناقص. انتهىٰ.

لكن ينبغي للشيخ أن لا يبالغ الترفه أيام الغلاء كأن يشبع من اللحم الضاني والدجاج والحلو وجاره لا يجد كسرة يابسة. ومن فعل ذلك فقد خرج عن طريق الاستقامة. ومما يتأكد عليه تصغير الرغيف توسعةً علىٰ الفقراء، فإن من كبَّر رغيفه لم يفضل عنه شيء يعطيه للسائل، فتصغير الرغيف أول يوم لقيمة ثم لقيمة حتىٰ يتعود الجوع من غير ضرر. قالوا: ولا ينبغي للشيخ أن يأمر أحدًا من المجاورين بالخروج من الزاوية أيام الغلاء، بل يضع كلَّ شيء تيسر بين أيديهم، لاسيما إن كان سماط الزاوية وقفًا علىٰ غير معين. فاعلم ذلك، وإياك أن تنكر علىٰ العلماء والصالحين إلا بنص صريح، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي إذا زار رسول الله ﷺ أو أحدًا من الأولياء يمشي حافيًا من حين يرىٰ مقامه، وربما كانت الأرض وعرة أو فيها شوك، فتمتلئ رجلاه شوكًا، ويصيران يخران دمًا، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذه من البدع، والنبي ﷺ أرحم بأمته من أن يؤذي أحدٌ منهم نفسَه لأجله.

والجواب: أن ذلك قليل في جانب محبة رسول الله ﷺ أو محبة أوليائه. وقد نزل سيدي الشيخ أبو العباس الغمري والشيخ محمد بن عنان والشيخ أبو بكر الحديدي والشيخ محمد المُنيِّر والشيخ عبد القادر الدشطوطي وغيرهم، فنزلوا كلهم لما دخلوا

مكة من مساجد عائشة، ولما زاروا رسول الله ﷺ نزلوا من آبار السيد علي ﷺ مشاة حفاة وخرَّ من أرجلهم الدم.

ولما دخل سيدي عبد القادر الدشطوطي باب الحرم المدني، وضع خده علىٰ عتبته ثلاث أيام ولياليها، حتىٰ رحل الركب ولم يدخل، فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: هو أقرب عندنا ممن دخل إلينا وهو متلطخ بذنب. انتهىٰ.

وسمعت سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: يرسل رسول الله ﷺ رسلًا يتلقون الزوار بالخلع من آبار عليٍّ علىٰ اختلاف مراتبهم، ويسر بذلك رسول الله ﷺ غاية السرور، فإذا وقفوا تجاه وجهه الشريف، أمدهم رسول الله ﷺ بالأمداد الإلهية اللائقة بهم، ومن استحيا من رسول الله ﷺ أن يقرب منه أرسل له المدد. انتهىٰ.

ولما زار السلطان قايتباي سيدي أحمد البدوي وسيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ نزل ومشىٰ من حين رأىٰ مقامهما حافيًا، وقلعوا من رجله كذا كذا شوكة. ولما زار سيدي الشيخ عمر النبتيتي[1] سيدي أحمد البدويَّ نزل من ناحية نفيا[2]، فلما زار ركب من عتبة سيدي أحمد، فقالوا له في ذلك، فقال: إن سيدي أحمد تلقاني ماشيًا من ناحية نفيا، فلم أكن لأركب وهو ماش. ولما زرته خرج معي إلىٰ باب المقام، وحلف عليَّ أن أركب، فأبررتُ قسمه. فاعلم ذلك يا أخي، ولا تستكثر ما بينا لك في محبة نبيك وأولياء الله، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي للمريد أن لا يتمنىٰ قط مقامًا فوق مقام شيخه؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا تحجير علىٰ الناس، والحقُّ أن له أن

---

(١) بالأصلين: تكثيرًا لنفسه.

(٢) عمر بن علي بن غنيم الشافعي النبتيتي الأصل، الخانكي المولد والمنشأ، حفظ القرآن وربع العبادات من التنبيه، كان مداومًا علىٰ التهجد والصوم وإكرام الوافدين وملازمة الصمت، وقد صحبه جماعة كإمام الكاملية والزين زكريا وغيرهم، أقام بنبتيت نحو خمسين سنة، ويؤثر عنه أحوال صالحة وكرامات كثيرة ت سنة ٨٦٧هـ. «الضوء اللامع» (٦/ ١٠٨)، الكواكب الدرية» (٣/ ٢١٩).

يتمنىٰ ماعدا النبوة فهذا هو الممنوع.

والجواب: أن قول هذا الشيخ لا ينافي ما ذكره المعترض، فله أن يسأل من المراتب العالية ما شاء، لكن يكون ذلك من باطنية شيخه، فيسأل الله تعالىٰ الترقي لشيخه حتىٰ يترقىٰ الآخر تبعًا له، إلىٰ أن لا يبقىٰ إلا مقام القربة الذي بين الصديقية والنبوة، فهناك يقف، وليس له أن يسأل ما انتهىٰ إليه شيخه مما لا رقي بعده من مقام القربة. وهذا هو أحد الأقوال في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] أي لا تحدثوا نفوسكم بطلب منزلة في الأدب فوق منزلة رسول الله ﷺ، بل كونوا تبعًا له.

قال السهروردي: وهذا من محاسن الآداب التي أدَّب الله تعالىٰ بها أصحاب رسول الله ﷺ معه قبل ظهور خصوصياته لهم، فينبغي للمريد أن يتأدب مع شيخه كذلك، فلا يتمنىٰ منزلة فوق منزلة شيخه، بل يطلب لشيخه الرقي إلىٰ أعلىٰ المقامات ليسلك إليها خلفه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: يجب علىٰ المريد أن يحب لشيخه كلَّ مقام يعطاه الأولياء، ولا يجوز له طلب مقام يجاوز به مقام شيخه أدبًا معه. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل كلام الأشياخ علىٰ محامل العلم دون الجهل، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي إذا جاءه فقير ووقف علىٰ الباب يطلب الإذن في الزيارة لا يفتح له الباب، بل يكلمه من وراء الباب، أو يفتح له بعض الباب بقدْر ما يمد يده يصافحه ثم يرجع، وإذا جاءه أحد من أبناء الدنيا، يفتح له الباب ويظهر له السرور ويخرج إليه ويتلقاه ويجلسه علىٰ فرشه، فلاث به الناس وقالوا: كان الأولىٰ به أن يعكس، فيفتح للفقراء ويغلق الباب علىٰ أبناء الدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ أفعال الأشياخ، فقد يكون لهم أعذار تخفىٰ علىٰ كثير من الناس. وقد وقع ذلك من سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، فلما لاموه علىٰ ذلك قال: إنما لم أجلس مع الفقير لأن رابطته معنا قلبية، فيكتفي منا بموافقة القلب، ويقنع بملاقاتنا وخطابنا له ولو من وراء حجاب، بخلاف أبناء الدنيا، فإنهم واقفون مع العادات ورؤية الظواهر، وليس بيننا وبينهم رابطة قلبية، ومتىٰ لم نوفِ

لأحدهم حقه من الظاهر استوحش منا. انتهىٰ. فلو كان المريدون المعترضون علىٰ الأشياخ صادقين، لكانوا أجابوا عن الشيخ بمثل هذا الجواب، وسلموا من المقت، فكم مقت مريد من الاعتراض بغير علم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: ينبغي لكل مريد أُشكِلَ عليه شيء من حال شيخه أن يتذكر قصة موسىٰ مع الخضر عليهما الصلاة والسلام، وينظر ويتأمل. ومن هنا قالوا: كل شيء أنكره المريد من حال شيخه، فإنما هو لجهله بحقيقة ما الشيخ فيه، فإن للشيخ في كل شيء عذرًا بلسان العلم والحكمة.

وقد كان الجنيد ﷺ إذا ألقىٰ علىٰ أصحابه علمًا وأنكروه يقول: فإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون. وكان الإمام القشيري ﷺ يقول: من تأمل الأدب مع الوسائط وجده أدبًا مع الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير إذا صار يزور المتمشيخين بغير حقٍّ، ولا يمشي أحد منهم إليه، فلاث به الصادقون وقالوا: في زيارة الشيخ لهؤلاء ازدراء الأشياخ الصادقين، وهلاك ذلك المتمشيخ الذي لا يصلح تلميذًا له، فالأولىٰ له تركه.

والجواب: أن زيارة الأشياخ الصادقين للمتمشيخين واجبة، ليرشدوهم إلىٰ طريق الاستقامة بحسن سياستهم وإلا هلكوا. وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: يجب علىٰ عارف الوقت إذا تمشيخ أحد في عصره وأبىٰ أن يتلمذ للأشياخ أن يذهب هو إليه، ويرشده ويقوِّم عوجه ولو بأن يتلمذ له، فإن كلَّ ما لا يُتوصَل إلىٰ الواجب إلا به فهو واجب، ومتىٰ أخلَّ العارف بذلك كان حكمه حكم من قدر علىٰ إزالة منكر ولم يزله. انتهىٰ.

وأما قول المعترض: «إن في زيارة العارف للمتمشيخين هلاك لهم» فالجواب: أن ذلك لا يكون هلاكًا مع وجود العارف وإرشاده، وإنما ذلك مع [عدم][1] اجتماع العارف به، فلا يزال العارف يكشف للمتمشيخ عن عيوبه ونقائصه شيئًا فشيئًا، حتىٰ يرىٰ نفسه كالتراب،

(١) ساقط من «ب».

وأنه لا يستحق مشي أحد من العصاة إليه خطوةً فضلًا عن أهل الخير إن شاء الله تعالىٰ.

وقد قدَّمنا مرارًا أن سيدي عليًّا الخواص ﵀ زار شيخًا من أصحابه، وكان الشيخ عزيز الزيارة، فلما رآه يحصل له رؤية نفس بذلك قال له: يا فلان، إني لم أقصدك بالزيارة، وإنما خرجتُ لحاجة في حارتك، فمررتُ علىٰ بابك، فقلتُ أنظر حاله هل هو باقٍ علىٰ قلة أدبه وغفلته عن الله أم تاب من ذلك؟ انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة.

فعُلِمَ أن تلمذ الشيخ الكبير للمتمشيخ حتىٰ يربيه واجب. ثم إنه يحفظه من رؤية النفس بذلك، وكان علىٰ هذا القدم أخي أفضل الدين كان يزورني يربيني حين علم من نفسي الكبر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرىٰ أحدًا من إخوانه مرتكبًا فاحشة، فلا يقطع عنه البشاشة ولا الكلام الحلو، ولا يوبخه لجناب الحقِّ تعالىٰ، فلاث به بعض المريدين وقال: قد أمرنا الله تعالىٰ بإظهار الغضب إذا انتُهِكَت حرمات الله، وبالنصح لكلِّ مسلم، وأن لا يأخذنا في الله لومة لائم، وكان الواجب علىٰ الشيخ أن لا يبش في وجهه، ويريه الجفاء والكلام المر، خوفًا من لعنة الله تعالىٰ له، كما وقع لبني إسرائيل كان أحدهم إذا رأىٰ أحدًا علىٰ معصية آكله وشاربه وخالطه من غير نكير، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩] **الآية.**

والجواب: أن مقام الناصح والواعظ أن لا ينص علىٰ أحد معين بحضرة الناس، من حيثُ إن ذلك يخجله ويفضحه ويصفر وجهه بين الناس، وينفره من ذلك الناصح، وفي الحديث أنه ﷺ كان لا ينص في وعظه علىٰ أحد معين إنما كان يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»[1]. انتهىٰ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤٧٨٨) بلفظ: «يقولون»، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٧٤٥).

ووقع أن شخصًا خرج منه ريح في مجلس عمر بن الخطاب، فقال: عزمتُ علىٰ صاحب هذا الريح إلا ما قام وتطهر ثم جاء. فقال له جرير بن عبد الله البجلي(١): أو نقوم كلنا نتطهر يا أمير المؤمنين. فقال: أو كلكم! فأعجبه ذلك من جرير. انتهىٰ، فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ الأكابر من غير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أهل السكر والزنا والمعاصي الظاهرة أخف حالًا من صحبة متصوفة زماننا هذا؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف تكون صحبة العصاة أولىٰ من صحبة أهل الله تعالىٰ؟!

والجواب: أنه ينبغي حمل كلام هذا الشيخ علىٰ وجوه:

منها أن يكون مراده بترجيح صحبة أهل الفساد أنه يحصل لمن يصاحبهم من الفقراء الأجر بتقويم عوجهم، بخلاف المتصوفة، فإنهم لا يقع منهم المعصية إلا قليلًا، فيقل أجر من نصحهم.

ومنها أن يكون مراده بالمتصوفة من اغتر بنفسه، وقنع بالزي والمنطق، ووقع في الرغبة في الدنيا والرياء والإعجاب وغير ذلك من الكبائر، ولم يقبل نصح ناصح، فيسرق طبع من خالطهم من حيثُ لا يشعر، لرؤيته لظاهرهم دون باطنهم.

ومنها أنه قد يكون مراده أن النفس تميل إلىٰ من نُسِبَ إلىٰ الصلاح لعلة الجنسية في الطريق والأعمال، فيشتغلون بالمحادثة في أمور الدنيا عن الله تعالىٰ، ولا هكذا العصاة، فإن نفس الفقير تنفر منهم بالطبع.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: ربما ظن كلٌّ من المتصاحبين أن صحبتهما لله تعالىٰ، والحال أن صحبتهما إنما هي لعلة الجنسية، ولا يفرِّق بين هاتين

---

(١) جرير بن عبد الله البجلي أبو عمرو، كان ممن هاجر إلىٰ رسول الله ﷺ ما حجبه رسول الله ﷺ منذ أسلم ولا رآه إلا تبسم في وجهه سكن الكوفة فلما وقعت الفتن خرج هو وعدىٰ بن حاتم وحنظلة الكاتب وقالوا لا نقيم ببلدة يشتم فيها عثمان فخرجوا إلىٰ قرقيسياء وسكنوها ومات جرير سنة ٥١هـ. مشاهير علماء الأمصار ص٧٦، الإصابة (١/ ٥٨١).

الصحبتين إلا العلماء الغوَّاصون علىٰ دقائق النفوس، فقد ينفسد الإنسان بصحبة المدَّعين للصلاح أكثر مما ينفسد بصحبة أهل الفساد. قال: ووجه ذلك أن الإنسان يعرف فساد أهل الفساد، فيأخذ حذره منهم، وأهل الصلاح يغتر بصلاحهم، فيميل إليهم لجنسية الصلاحية، ثم يحصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية تحول بينهم وبين حقيقة الصحبة لله تعالىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩١١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي نفر منه طلبته وجميع معارفه، ولم يبق حوله أحد، وصار الناس يقولون: إن فلانًا مقت، فإن الله تعالىٰ ما نفَّر الناس عنه بعد ذلك الإقبال والاعتقاد إلا بذنب وقع فيه. وقد قال بشر بن الحارث: إذا عصىٰ العبد ربَّه سلبه من يؤنسه، فينفر منه الأشياخ إن كان مريدًا، وينفر منه المريدون إن كان شيخًا. وقال علي بن سهل أيضًا: من عصىٰ الله نفر منه جميع الوجود، ومن أطاعه أحبه سائر الوجود، لأنهم كلهم تبعًا للحقِّ جلَّ وعلا.

والجواب: أنه لا يلزم من نفرة الطلبة والإخوان عن العالم وقوعه في زلَّة، فقد يكون ذلك من محبة الحقِّ تعالىٰ له، فأراد أن يفرده بالاشتغال به صرفًا دون خلقه. ومن الفرق بين الرجلين أن من نفر عنه الخلق لمعصية وقعت منه، تكون نفرتهم منه مع وجود الازدراء له، بخلاف من نفر عنه الخلق اعتناءً من الله تعالىٰ به، فإنهم ينفرون عنه مع التوقير والتعظيم وعدم ظن السوء به. فاعلم ذلك، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة، فإن الله تعالىٰ لم يؤهل العلماء لحمل شريعته ثم يمقتهم أبدًا، هذا اعتقادنا في الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ورد عليه شخص من أكابر العلماء ضيفًا هو وجماعته، فلم يتبسط لهم في الطعام مع أنه قادر علىٰ ذلك، وأخرج لهم خبزًا حافًا وملحًا، فلاث به بعض العلماء وقالوا: التبسط في طعام الضيف مطلوب شرعًا للقادر عليه.

والجواب: أن الشيخ قد يفعل ذلك خوفًا علىٰ نفس الضيف وأصحابه، خوفًا من

الفتنة، كأن يزدري أحدهم مأكله في بيته حين ينظر ألوان الطعام عند غيره، ولا يجوز حمله علىٰ أنه فعل ذلك بخلًا ولا ازدراء لذلك العالم وجماعته[1].

وقد ورد أبو حفص وجماعته علىٰ الشيخ أبي القاسم الجنيد ببغداد، فصنع له الجنيد ألوانًا كثيرة، فأنكر عليه أبو حفص ذلك وقال: صيرتَ أصحابي كالمخانيث! تقدم إليهم ألوان الطعام! فقال الجنيد: إنما فعلتُ ذلك من باب الإكرام للضيف! فقال: شرط الإكرام أن لا يتولد منه مفسدة. انتهىٰ. وقد تقدم أن عمر بن عبد العزيز قدَّم للحسن البصري كسرة يابسة ونصف خيارة لما قدم عليه أيام خلافته[2]، وقال: كل يا حسن، فإن هذا زمان لا يحتمل الحلال السرف. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٣) ومما أجبتُ به عن طالب العلم أو المريد الذي يخالط المردان[3] وينام معهم في فراش واحد ويقول: هذا لا يضرني بحمد الله لأني أحبهم لله تعالىٰ؛ فلاث به الناس وقالوا: فلأي شيء لا تحب الرجال الذين هم أكثر طاعة وعبادة لله تعالىٰ منهم؟! ما ذاك إلا تلبيس من نفسك الخبيثة.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ من يقول ذلك، فقد يكون صادقًا، بخلاف من يخالط النساء ويزعم ذلك، لورود الأحاديث الصحيحة بالنهي عنه[4].

ولكن هنا نكتة ينبغي لمن يدعي أن صحبته للأحداث لله أن يتفطن لها، وهو أنه لا يشتهي قط تقبيل ذلك الأمرد ولا مس جلده لو وجد إلىٰ ذلك سبيلًا، كما لا يشتهي تقبيل الحمار أو الحائط أو الشيخ الذي قد طعن في السن، فليعلم أنه صادق، ومتىٰ وجد

---

(١) وانظر جوابًا آخر علىٰ اعتراض شبيه بهذا الاعتراض في (٦١٧).

(٢) انظر الجواب (٢٩٥).

(٣) المردان: جمع أمرد، وهو الشاب الذي لم تنبت لحيته.

(٤) منها ما أخرجه أبو داود (٥٢٧٢) عن أبي أسيد الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: وهو خارج من المسجد فاختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق عليكن بحافات الطريق» فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتىٰ إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به.

ترجيحًا للأمرد علىٰ ما ذُكِرَ، فليعلم أنه كاذب، وهي ميزان تطيش علىٰ الذر. هذا ميزانه في نفسه، وأما نحن فليس لنا تكذيبه إذا ادعىٰ عدم الترجيح، لأن ذلك أمر لا يعلمه إلا الله وهو، وإحسان الظن به واجب علينا.

وسمعتُ الشيخ عبد الحليم بن مصلح يقول: كل من نظرت إليه من المردان ولم تشبع عينك من النظر إليه في أول مرة، فهو جميل الصورة فلا تنظر إليه، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: وصلتُ إلىٰ مقام متىٰ خالفتُ نفسي عصيتُ ربي، ومتىٰ وافقتُها أطعتُ ربي؛ فلاث به العلماء وقالوا: إن الشريعة قد جاءت بالنهي عن موافقة النفس في كلِّ ما تهواه، فمن أي[1] مقام صار هذا كما قال؟!

والجواب: أن أشياخ الطريق قد صرَّحوا بأن القلب إذا استقام صار يكره ما كره الله، ويحب ما أحب الله، وصار أجره من الله، ذكر ذلك السهروردي في «عوارف المعارف» قال: وهذا هو المقام الذي يُحفَظ الأولياء منه من قبول وسوسة إبليس، ولا يصير له عليهم سلطان.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: لا يكمل العبد في الطريق حتىٰ يصير يرىٰ خواطره المحمودة كلَّها رسلًا من الله إليه، ومن عصىٰ رسل الله فقد عصىٰ الله. انتهىٰ. ويؤيده قول سيدي أحمد بن الرفاعي: وصلتُ إلىٰ مقام إن عصيتُ قلبي عصيتُ ربي. انتهىٰ.

فيُحتمَل أن هذا الشيخ أراد ما ذكرناه، لكن ذلك لا ينبغي أن يُسلَّم لكلِّ من ادعاه، لعزة مقام استقامة القلب علىٰ مرضاة الله تعالىٰ، حتىٰ يصير يكره المعاصي طبعًا، ويحب الطاعات طبعًا، وذلك إذا اطمأنت النفس، وتمكنت من رد وسوسة الشيطان، ووافقت القلب والسر، وحينئذ تصير خواطرها ربانية يجب علىٰ العبد العمل بها لموافقتها للشريعة. وإن كانت من النفس اللوامة أو القلب أو الروح قبل التمكن، وجب علىٰ العبد أن يزنها بميزان الشريعة قبل الإقدام علىٰ العمل بها، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) بالأصلين: أين. والصواب ما أثبتناه.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ ﴾ [الحجرات: ٦] أي كاذب بنبأ ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ وهذا من باب الإشارة لا التفسير. ومن هنا قالوا: الكذب من صفات النفس إذا لم تطمئن، فتملي علىٰ صاحبها الأمور علىٰ غير حقائقها، ولذلك تعين التثبت عند خواطرها وإلقائها.

[محلُّ مرتبة السِّر]

فإن قيل: فهل السِّرُ الذي يشير إليه القوم مرتبة بعد القلب أو بين الروح والقلب؟ فالجواب: أن من القوم من جعله بعد القلب وقبل الروح، فقال: نفْس، ثم قلب، ثم سر، ثم روح؛ ومنهم من جعله بعد الروح، فقال: نفْس، ثم قلب، ثم روح، ثم سر، وقالوا: إن السرَّ أعلىٰ من الروح وألطف، لأنه محل المشاهدة، وأما الروح فهو محلُّ المحبة، كما أن القلب محلُّ المعرفة، ولاشكَّ أن محلَّ المشاهدة أعلىٰ من الكلِّ، وأطال السهروردي في ذلك في الباب السابع والخمسين من كتابه «عوارف المعارف» فراجعه، وسلِّم يا أخي للأشياخ ما يدعونه من مواجيدهم التي لا تعارض النص ولا الإجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٥) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ إذا صنف كتابًا في العلم الشرعي أو رسالة في علم القوم، وأرسله إلىٰ علماء الأكوان لينظروه، فلاث به بعض الأقران وقالوا: قد عرف الناس أنك طالب علم أو شيخ في الطريق، ولكن ربما يقول: إن أحدًا لا يعرف مقامي، فأطلعه علىٰ مؤلفاتي ليعرف مرتبتي في العلم.

والجواب: أنه لا يجوز أن يُظنَّ في العلماء والصالحين ذلك، وإنما الواجب حملهم علىٰ أنهم إنما أطلعوا العلماء عليها ليصلحوا ما فيها من الخطأ الذي لعله يقع منهم في نقل أو فهم، لأنهم يحبون أن لا ينفرد أحدهم في دين الله بفهم، ويظنون في نفوسهم الوقوع في الخطأ، فإذا كتب علىٰ ذلك علماء الإسلام وأجازوه، فكأنهم وافقوا المؤلف علىٰ ما فهمه، فيقوىٰ بذلك قولهم، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: من رأىٰ نفسه خيرًا من الكافر، فقد

أظهر الكبر؛ ولاث به بعض العلماء وقال: لا شك أن المسلم أكبر من الكافر عند الله وعند خلقه وخيرًا منه.

والجواب: أن مراد هذا الشيخ أن الخاتمة مغيَّبة، وليس هو علىٰ يقين من موته علىٰ الإيمان، فلا ينبغي له أن يرىٰ نفسه خيرًا من الكافر إلا بعد مجاوزة الصراط. وأما حاله في الدنيا فليس معه إلا الظن لا غير. وقد كان حمدون القصَّار[1] أحد رجال رسالة القشيري يقول: من رأىٰ نفسه خيرًا من فرعون فقد أظهر الكبر. وكان أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول: لا يخرج أحد عن الكبر ويدخل مقام التواضع حتىٰ يرىٰ أنه ليس بأهل أن تناله رحمة الله عزَّ وجلَّ، أي وإنما له رحمة الله تعالىٰ من باب المنة والفضل، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[2]. انتهىٰ. ومن أعظم آفات الكبر أن صاحبه كما لا يدخل الجنة في الآخرة، فكذلك لا يدخل حضرة الله تعالىٰ في الدنيا لا في صلاة ولا غيرها.

وقد حكىٰ الشيخ محيي الدين إجماع أهل الكشف علىٰ أن من كان فيه خصلة من هاتين الخصلتين لا يصح له دخول الحضرة الإلهية أبدًا، ولو أنه استحضر أنه بين يدي الله لا يقدر، بل ينزل عليه الحجاب في أسرع من لمح البصر، وهما: الكبر والغنىٰ، فأما الكبر فهو شهود العز في نفسه، وأما الغنىٰ فهو غفلته عن شهود حاجته إلىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وكان الشيخ أبو المواهب[3] يقول: حكم الملك القدوس أن لا يدخِل حضرته أحدًا من أهل النفوس. انتهىٰ. فعُلِمَ أن كلَّ من لم يدخل حضرة الله فصلاته وجميع عباداته جسم بلا روح، كالخشب اليابس.

---

(١) حمدون بن أحمد بن عمارة أبو صالح القصار النيسابوري، شيخ أهل الملامة بنيسابور، كان عالمًا فقيهًا، صحب أبا تراب، وأبا حفص النيسابوري، وكان من الأبدال، يذهب مذهب الثوري، توفي سنة ٢٧١هـ بنيسابور. طبقات الصوفية للسلمي ص١٠٩، السير (١٣/ ٥٠)

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩١) وأبو داود (٤٠٩١).

(٣) أبو المواهب الشاذلي، تقدمت ترجمته.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: حقيقة التواضع الذي يخرج به العبد عن الكبر أن يشهد نفسه دون الخلق أجمعين من ناطق وصامت، حتىٰ لو أراد الخلق أن يضعوه فوق ما يشهده في نفسه لا يقدرون. قال: فليس المتواضع من يثبت لنفسه مقامًا عاليًا في نفسه، ثم يتنازل للناس منه كما هو تواضع العوام، ولذلك يقول أحدهم: كلما أتواضع لفلان تكبر نفسه. فافهم، واحمل كلام أهل الطريق علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم محققون، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إنما يبتلي الله تعالىٰ عباده من حيثُ دعواهم محبته تعالىٰ، فابتلاهم ليظهر لهم صدقهم أو كذبهم، ليشكروا أو يستغفروا؛ فجادله إنسان وقال: هذا مسلَّم في غير الأنبياء. أما الأنبياء فهم صادقون في محبتهم، فلا يحتاجون إلىٰ امتحان. فقال الشيخ للمجادِل: يمكن أن يكون الله تعالىٰ ابتلاهم بالبلايا والمحن ليردهم إليه حين شردوا عن حضرته لأهوية نفوسهم. فقال له المجادل أيضًا: هذا مسلَّم في غير الأنبياء. أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهم معصومون عن شرودهم عن حضرة ربهم؛ لأن مقامهم العكوف في حضرة الإحسان علىٰ الدوام لا يبرحون منها.

والجواب: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيهم جزء يحب، وجزء محبوب، فيمكن أن يكون الحقُّ تعالىٰ ابتلاهم من حيثُ ذلك الجزء المحب، كما يُفهَم من حديث كونهم محبوبين بالاختصاص الإلهيّ، فلا اعتراض.

ويُحتمَل أن يكون الحقُّ تعالىٰ ابتلىٰ الأنبياء ليرفع بذلك درجاتهم، أو ابتلاهم ليقتدي بهم قومهم في الصبر والرضا، فإن البلاء علىٰ ثلاثة أقسام: عقوبة، وكفارة، ورفع درجات، فاللائق بالأنبياء الثالث؛ لأن العقوبة والكفارة لا يليقان بالأنبياء، لأن الله تعالىٰ طهَّر طينتهم بسابق العناية من جميع الذنوب، لا بعمل عملوه ولا بخير قدَّموه، وما وقع علىٰ يدهم من مسمَّىٰ الذنوب والخطايا صوريٌّ لا حقيقي، كما قدمنا بيانه في الباب الأول من هذا الكتاب، فراجعه.

[البلاء على قدر محبة النبي ﷺ]

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من طلب محبة النبي المحبةَ المشهورةَ بين القوم، فليستعد للبلاء في بدنه وماله وعرضه، فإنه لابدَّ له من ذلك شاء أم أبىٰ، فكأن من يدعي المحبة قطب تدور عليه رحا البلاء كما تدور الرحا علىٰ قطبها، فلا ينفك من بلاء حتىٰ يستقبله بلاء آخر، وهكذا حتىٰ يلقىٰ الله تعالىٰ. انتهىٰ.

وسمعتُه أيضًا يقول: من أهل الله من يطلب البلاء مسارعةً لمعرفة مقامه في المحبة، إما ليشكر، أو ليأخذ في تحصيل ذلك المقام. ومن هنا تلذذوا بالبلاء، وقدروا علىٰ احتمال الأذىٰ، وسماع البهتان والزور في حقِّهم، وقالوا: لا يخلو من يؤذينا وينقصنا في المجالس من أمرين: إما أن يكون محقًّا [أو مبطلًا، فإن كان محقًّا][1] فالغيظ منه حمق وسخافة عقل، لأنه قد كُتِبَ في ديوان السماء قبل أن يظهر في الأرض غالبًا؛ وإن كان كذبًا فالغيظ كذلك منه حمق، لأنه لم يُكتَب في ديوان السماء، ولا يُخاف من عاقبته، لأن الله تعالىٰ لا يؤاخذ العبد إلا بما فعله أو قاله، فالعاقل لا يتكدَّر من كلام قيل فيه بكل حال إلا إن كان محجوبًا عما ذكرناه، وقد قالوا: شهود الله تعالىٰ مع الأنفاس ليس من مقدور البشر. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحمل ابتلاء الأنبياء علىٰ رفع الدرجات، والأولياء علىٰ التكفير، والعوام علىٰ العقوبة. وقد يشارك الأولياءُ الأنبياءَ في رفع الدرجات، والعوامُ الأولياءَ في التكفير، والأولياءُ العوامَ في العقوبة، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول: أنا لا أعتقد في أحد من مشايخ هذا الزمان لعدم كرامتهم، فإن الكرامة للأولياء كالمعجزة للأنبياء، فلولا المعجزات ما تميزوا عنا، وكذلك يُقال في الأولياء: لولا الكرامة ما تميزوا عن العامة.

والجواب: أن المعجزة للأنبياء ليست بشرط في صحة اعتقادنا فيهم النبوة، لأنه لم يتوقف في تصديقهم إلا من كان عنده شكٌّ في دينه، وأما من لم يكن عنده شكٌّ،

---

(١) ساقط من «ب».

فقد أجاب إلىٰ الإيمان بأول وهلة، ولم يتوقف علىٰ حصول المعجزة، كأبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ وبقية العشرة ومن أُلحق بهم، بل نقول: إن من توقف إيمانه علىٰ المعجزة كان إيمانه متوفرًا عنده، لكنه لم يتجرأ علىٰ إظهاره، خوفًا من أذىٰ قومه، فلما وقعت المعجزة، صار له عذر في الإيمان عند قومه، ولو أنه لم يكن عنده إيمان متوفر، لبقي علىٰ شركه وكفره، ولم يستجب إلىٰ الإيمان بالمعجزات ولا بغيرها، كأبي جهل وأبي لهب وعقبة بن أبي معيط وأضرابهم.

وقد أجمع القوم علىٰ أن من أعظم كرامة للولي استقامته في أفعاله وأقواله وعقائده علىٰ الكتاب والسنة، فما ثم كرامة أعظم منها. وأما نحو الكشف والطيران في الهواء فليس هو بكرامة يُثاب عليها من حيثُ ذاتُها، لأن إبليس يجري في ابن آدم مجرىٰ الدم، والغراب والحدأة والناموسة يطيرون في الهواء، ولا عبرة بكرامة يشارك الولي فيها إبليس والغراب.

وقد أنشد سيدي عليٌّ بن وفا رحمه الله:

ثم نفيسات تفرح بالمنىٰ تفريح ... تطير وتقصر وتمشي في الهوا كالريح

لو التفت من يخلصها من التبريح ... كانت بنات روح ليست من بنات الروح

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: كثرة كرامات الولي دليل علىٰ قلة إيمان أصحابه بطريقه، ولو كانوا أقوياء لما أحوجوا شيخهم إلىٰ ظهور كرامة، ولذلك قلَّت الكرامات في الصحابة جدًّا، وكثرت فيمن بعدهم، لنقص إيمانهم عن إيمان الصحابة، فلا تزال كرامات الأولياء تكثر إلىٰ دخول النصف الثاني من القرن العاشر، فهناك يجب علىٰ الوليِّ عدم إظهار الكرامة، خوفًا أن يهلكه الناس، أو يقيله أصحاب النوبة، كما وقع للشيخ أحمد بن السروي[1] لما دعا جسر شوبر[2] فغار، وكان لهم فيه خمسة شهور يجرفون فيه، وكان سبب ذلك أنهم سخروا غلامه في الجرافة ولم يطلقوه.

ثم من أعظم ما يقع للوليِّ إذا اعتقدوه أنهم يطالبونه بإزالة منكرات لا يقدر علىٰ إزالتها،

---

(١) لم أقف له علىٰ ترجمة، وقد ذكره المؤلف في المنن الكبرىٰ (١/ ٤٣٦).

(٢) شوبر: إحدىٰ قرىٰ مركز طنطا التابع لمحافظة الغربية بمصر.

ويقولون له: السلطان أو الباشاه في يدك، لكثرة اعتقاده فيك، فلا يسعه إلا أن يشفع، ولا يسع السلطان أن يجيبه إلىٰ كلِّ ما سأل، وربما كان للسلطان في ذلك عذر لا يمكن إفشاؤه للرعية، حتىٰ إني سمعته يقول: إذا دخلت سنة خمسين وتسعمئة وكان مع الفقير كشف يكشف به الأمور الآتية في المستقبل، وجب عليه التظاهر بالغلط فيها، سترًا لحاله، ولعدم اعتقاد أهل ذلك الزمان في الأولياء، وربما أظهر أحدهم كرامة فقالوا: هذا ساحر. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحمل كلام هذا العالم الذي لا يعتقد إلا فيمن ظهرت له كرامة علىٰ ما تعارف عليه أهل الزمان، لجهله بما قال المحققون من أنه لا يُشترَط في الاعتقاد إلا استقامة العبد علىٰ الكتاب والسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي جعل عنده شاعرًا يهجو[1] كلَّ من تعرَّض له بسوء من الأقران وغيرهم، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا يليق بعالم.

والجواب: أن العالم قد يكون جعل ذلك باجتهاد، فأدىٰ اجتهاده إلىٰ أن رد ذلك الشاعر عن عِرْضِه وعن أصحابه أولىٰ من سكوته علىٰ الأذىٰ، ودوام ذلك علىٰ أصحابه، كما هو الغالب في الأصحاب من تقلقهم[2] ممن يؤذيهم ورحيلهم من أوطانهم، فيكون لسان ذلك الشاعر أقطع فيهم من السيف أو النبل، وعلىٰ ذلك يُحمَل أمره ﷺ حسانًا أن يجيب عنه الكفار نصرةً للدين وللمسلمين[3]، وما كان للأصل فهو للفرع، والعلماء نوَّابه ﷺ، فنصرتهم من نصرته، وإخذال طريقتهم من إخذال دينه. وقد تقدَّم قول الإمام الشافعي رضي الله عنه: ينبغي للعالم وكلِّ كبير أن يكون له سفيه يسافه عنه السفهاء الذين يقصدونه بالأذىٰ. انتهىٰ، فاعلم ذلك، واحمِ لسانك وسمعك وبصرك في حقِّ العلماء، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: يهجو.

(٢) بالأصلين: تعلقهم. والصواب ما أثبتناه.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٥٣) من حديث عبد الرحمن بن عوف: «أنه سمع حسان ابن ثابت الأنصاري، يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله، هل سمعت النبي ﷺ يقول: يا حسان، أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس. قال أبو هريرة: نعم» ومسلم (٢٤٨٥).

(٩٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يمكِّن أحدًا يجيب عنه من آذاه، فتمادىٰ الناس في إيذائه، وحصل لهم غاية الإثم، فلاث به أصحابه وقالوا: دعنا نجب عنك، ونكف هؤلاء عن وقوعهم في عِرْضك بغير حقٍّ؛ فأبىٰ.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون في مقام الرياضة لنفسه، فهو يحبُّ كلَّ من آذاه، لأنه يحصل له به التمرين علىٰ تحمل البلايا التي هي أشد من ذلك، فإن كل بلاء كالسُّلَّم للبلاء الآتي بعده.

وقد يكون تحمله الأذىٰ بالتجريح في عِرْضه إنما هو غيرة علىٰ جناب الحقِّ تعالىٰ أن يشاركه أحد في مسمَّىٰ المدح والشكر، ليتميز الحقُّ تعالىٰ بالكمال المطلق، ويتميز العبد بالنقص المطلق، ولا يخفىٰ أن سعي الإنسان في خلاص نفسه من الآفات مقدَّم علىٰ تخليص نفس غيره، فلا يلحقه إثم بسكوته علىٰ ما يُقال فيه من الزور والبهتان، لأنه لم يقصد وقوعهم في الإثم، ولا قال لهم: سبوني، ولازم المذهب ليس بمذهب علىٰ الراجح، فكذلك القول هنا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: يجب علىٰ العبد الرضا بما يُقال فيه من حيثُ التقديرُ الإلهيُّ، ويجب عليه الإنكار علىٰ من قطع في عِرْضه من حيثُ تعديه حدود الله، كما يجب عليه أن يرد عن عِرْض أخيه المسلم علىٰ حدٍّ سواء، فإن الحكم في ذلك واحد لا يختلف بالنسبة إليه.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ لا يمكِّن أحدًا يجيب عنه الذين يؤذونه، ويقول: إن هؤلاء كالفلاحين لي الذين يزنون لي الخراج، فإنهم كلما اغتابوني حكَّمني الله تعالىٰ في أعمالهم الصالحة يوم القيامة آخذ منها بقدر مظلمتي.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: ما أحب أحد أن يكون من أهل الله إلا أحب من يقطع في عِرْضه وينقصه في المجالس، من حيثُ إن ذلك يبين مقامه في دعواه محبة الله، فهو يحبُّ كلَّ من نقصه، ليأخذ في كمال المقام، خوفًا أن يُكْتَب عند الله من الكذَّابين في محبته، فيخسر في الدارين.

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: لابد لكلِّ من يطلب أن يكون من أهل الله من وجود عدو وحاسد ومبغض يؤذونه ويبالغون في إيذائه، فإن صبر نال مقام الإمامة في الوجود؛ وإن لم يصبر خرج نحاسًا وتأخر، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يصطفي الحقُّ جلَّ وعلا قط عبدًا من عبيده ويدخله إلىٰ حضرته وهو يطلب له مقامًا عند أحد من الخلق، فلذلك كان الحقُّ تعالىٰ يحسن عنايته وتدبيره، ويسلِّط علىٰ العبد الخلق بالأذىٰ، حتىٰ لا يصير يركن إلىٰ أحد من الخلق لما قاساه منهم، فإذا تحقق بذلك، ركن بقلبه إلىٰ الحقِّ تعالىٰ وحده، فاصطفاه وأدخله حضرته، ومادام يركن إلىٰ الخلق ويراعيهم في الحمد والذم له، فهو بعيد عن مقام الاصطفاء.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول: جرت سنة الله تعالىٰ في أنبيائه وأصفيائه أنه يسلِّط علىٰ أحدهم الأذىٰ في مبتدأ أمره، ثم تكون له الدولة آخرًا إن صبر.

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: لما علم الله تعالىٰ في الأزل ما سيُقال في أنبيائه وأصفيائه وأوليائه، قضىٰ علىٰ قوم بالشقاء، فجعلوا لله تعالىٰ زوجةً وولدًا، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، حتىٰ إذا ضاق ذَرْع النبي أو الولي من كلامٍ قيل فيه، نادته هواتف الحقِّ جلَّ وعلا: أما لك أسوة بي؟ فقد قالوا: إن لي زوجة وولدًا، وقالوا فيَّ ما لا يليق بجلالي، مع أني خالقهم ورازقهم، وأنت لستَ خالقًا ولا رازقًا، فلا يسع النبي أو الولي إلا التأسي بربه عزَّ وجلَّ، فكأن ذلك الهاتف جندًا من جنود الله عزَّ وجلَّ لهم، ليتحملوا من أممهم الأشقياء ما يقولونه فيهم من السحر والجنون وغيرهما.

فاعلم ذلك يا أخي، واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة إن أجابوا عن أنفسهم أو سكتوا، فإن لهم مشهدًا في كلِّ فعل، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا ظلمه أحد وصار يدعو عليه فلا يُستجاب له، فازدراه خصمه والناس وقالوا: لو كان هذا له قدْر عند الله تعالىٰ، لأجاب دعاءه فيمن ظلمه.

والجواب: أن عدم إجابة دعائه يدل علىٰ علو مقامه عند الله تعالىٰ، وشدة اعتنائه وتكثير الأجر له. وقد كان جبَّار يؤذي نبي الله داود أشدَّ الأذىٰ، وداود يدعو عليه فلا يُجاب، فقال: يا رب، كم أدعوك علىٰ هذا الظالم ولا تجيب دعائي! فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، أما لك فيَّ أسوة؟! فإن من أسمائي «الحليم» فلا أعاجل أحدًا بالعقوبة. فسكتَ داودُ، فزاد الجبار في إيذائه، فقال: يا رب، نَفِّس عني بإجابة دعائي في هذا الجبار الذي لا ينقص ملكك. فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: إنما أبطيء بإجابة دعائك علىٰ من ظلمك، لأعاملك بنظير ذلك، فإنك إذا ظلمتَ أحدًا ودعا عليك فإن طلبتَ سرعة إجابة دعائك في حقِّ عدوك، فلا تستغرب سرعة إجابة دعاء غيرك عليك. فسكتَ داود، والله أعلم.

وقد كان سيدي أحمد ابن الرفاعي يقول: إذا قُضيت للكامل حاجةٌ في الدنيا نقص مقامه في الآخرة درجة، حتىٰ إن العبد يودُّ يوم القيامة أن الحقَّ تعالىٰ ما كان أجاب له دعاء. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين[1].

(٩٢٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا استعان بأحد من الخلق علىٰ من ظلمه، واشتكاه من بيت الوالي والقاضي، ولاث به الناس وقالوا: هذا يدلُّ علىٰ أن هذا ما له قدْر عند الله تعالىٰ، ولو أنه كان من العلماء بالله، لم يستعن بغيره من الخلق.

والجواب: أن ذلك لا يقدح في العالم أو الشيخ، لأنه يرىٰ الاستعانة بالخلق من جملة الاستعانة بالله تعالىٰ، فإن لله الفعل بلا آلة، والفعل بالآلة. وقد استغاث الأنبياء بالخلق، فقال السيد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] أي مع

---

(١) انظر أيضًا الجواب (٣٤٨).

الله، فالكامل يستعمل الوسائط حتىٰ لا يعطِّلها عن الاستعمال وهو معتمد علىٰ الله تعالىٰ لا عليها، ولم يرد لنا أن الله تعالىٰ فعل شيئًا بلا آلة إلا المخلوق الأول الذي لم يتقدمه مادة، وخلقه جنة عدن بيده، وكتابته التوراة بيده ونحو ذلك، وأما الباقي فيخلقه بآلة[1]، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا قابل من أساء عليه بالإساءة، ولاث به الناس وقالوا: كان اللائق بهذا العالم أو الشيخ العفو والصفح، فإن الله تعالىٰ ما جعل للعبد أن يجازي بالسيئة السيئة إلا رحمةً به، لعجزه عن تحمل السيئة، فنفَّس له بالانتصار لنفسه، والعالم الكبير أو الشيخ له قدرة علىٰ تحمل مثل ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث بالعالم المذكور أو الشيخ، لأنه ربما قصد بالمقابلة تخفيف العقوبة عليه في الآخرة مثلًا، فإنه إذا لم يقابله كان خصمه الله، لحديث الطبراني مرفوعًا: «يقول الله تعالىٰ: أنا وليُّ من سكتَ، ومن كان الله خصمه قصمه»[2]، فما قصد هذا العالم إلا خيرًا بالظالم، ولا لوم إلا علىٰ من يقابل المسيء بالإساءة من باب الانتصار للنفس والتشفي لها. فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ العلماء والصالحين إذا انتقموا ممن آذاهم، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحكمة، ولا يجهلون أن العفو والصفح خير، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٤) ومما أجبتُ به عن الذين يتقلقون من مجالس الذكر، ولا يقدرون علىٰ إطالة الجلوس فيها، وإذا قرؤوا القرآن بعرض من الدنيا، يجلس أحدهم للقرآن طول الليل من غير ملل، ولاث الفقراء بهم وقالوا: هؤلاء يبيعون الدين بالدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهم، أما في الذكر فلما فيه من رفع الحجاب، وما كلُّ أحد يقدر علىٰ إطالة الجلوس بين يدي الله علىٰ الكشف والشهود، إنما ذلك خاص

---

(١) بالأصلين: بلا آلة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) لم أقف عليه.

بالأنبياء ومن دونهم من الأولياء، وذلك لأنه من تجلي الجمال الممزوج بالجلال. وأما من يقرأ القرآن بعَرَض من الدنيا فهو في حجاب عن هذا المشهد، وليس مشهوده إلا الدنيا، فحكمه حكم الحارس الذي يحرس أمتعة الناس ودُورَهم في الليل بأجرة، فهو يطرد النوم عن نفسه كلما طرقه، خوفًا من نقص أجرته وتضمينه ما سُرِقَ واختُلِسَ، فلذلك كان سهر الليل عنده أخف من سهره في الذكر.

[التخلق بمقام الحضور لا يكون إلا على يد شيخ]

ويحتاج من يتخلق بمقام الحضور مع الله والمراقبة إلىٰ شيخ يسلِّكه، حتىٰ يقلب تلك الداعية التي عنده للدنيا للآخرة، ويصير ينام في تحصيل الدنيا، ولا يأخذه نوم في تحصيل الأجر في الآخرة.

فاعلم ذلك، وإياك وازدراء الفقهاء الذين يقرؤون القرآن بعرَض من الدنيا، فإنهم في حجاب عما أهل الله فيه، ولو اجتمعوا علىٰ أحد من العارفين لأدخلهم من طريق لا تضرهم فيه الدنيا، فيقرؤون القرآن فيه، ويأخذون الفلوس ابتداءً عطاءً من الله، فإن الفلوس حاصلة باللازم، وما دعوهم[1] إلىٰ القراءة إلا ليعطوهم الدنيا، والاشتغال بتحصيل الحاصل تضييع للوقت، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أحضر مع الله تعالىٰ في قراءة النحو والفقه وغيرهما من العلوم كما أحضر في مجلس الذكر أو في الصلاة علىٰ حدٍّ سواء؛ فلاث به بعض المجادلين وقالوا: هذا أمر قد عجز عنه مشايخ الإسلام فضلًا عن مثلك.

والجواب: أن هذا أمر ممكن لمن سلك في طريق القوم، عَسِرٌ علىٰ غير السالكين، فذوق المعترض صحيح، وحكمه بأن أحدًا لا يذوق مثل ذلك غير صحيح.

وقد سلَّك بعض العارفين مريديه بقراءة كتاب «الآجرومية» وبلغوا مبلغ الرجال

(١) بالأصلين: وعدهم. والصواب ما أثبتناه.

بالعمل بما فيها من القواعد، وشرح ابن غانم المقدسي[١] «الآجرومية» بالتصوف[٢]، مثال ذلك: «الفاعل مرفوع» وهو الله، أي مرفوع الرتبة علىٰ جميع العالم، لأنه ربهم وسيدهم، فلا يجوز لأحد منهم الاستخفاف بحقِّه، ولا أن يتناول شيئًا يحجبه عن مشاهدته، ولا شيئًا يبعده عن حضرته، لا في الظاهر ولا في الباطن، ومن أخلَّ بواجب من الواجبات أو وقع في شيء من المخالفات، فما أعطىٰ رفعة مقام سيده حقها.

وأما المفعول فإنما كان منصوبًا غير مرفوع لأنه مفعول للحقِّ، والصنعة دون صانعها بيقين، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ومن شأن المنصوب الدوام[٣] في العبادة والخدمة ليلاً ونهارًا بإمداد الله تعالىٰ له وإرادته، لا بحوله ولا بقوته.

وإنما كان المضاف إليه مخفوضًا، لأن الخفض بيت التواضع، ومن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبَّر قصمه الله، ولا يجري فيه مدد. ولا تجوز إضافته إلىٰ الحقِّ تعالىٰ علىٰ وجه التشريف والتقريب، وإنما يُضاف إليه علىٰ وجه التقدير والخلق، وذلك أمر يشاركه فيه البهائم والكفار.

وسمعتُ سيدي عليًّا البحيريَّ ﷺ يقول: من علامة أصفياء الله خفض رؤوسهم فلا يكاد أحد منهم يرفع رأسه حياء من الله عزَّ وجلَّ. انتهىٰ، فعُلِمَ أن كل شيء في الوجود يصح الدخول بواسطته إلىٰ حضرة الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه دليل علىٰ موجِده.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: الكامل هو من يسلِّك الناس وهم في حرفهم وصنائعهم من طريق حرفهم وصنائعهم، ولا يحوجهم إلىٰ ما يحتاج إليه تلامذة

---

(١) عبد السّلام بن أحمد بن الشيخ القدوة غانم بن علي المقدسي الواعظ. أحد المبرَّزين في الوعظ، والنّظم، والنّثر. له مصنفات منها: «تفليس إبليس» مناظرات له مع الشيطان! و«حل الرموز» تصوف، و«الروض الأنيق» مواعظ، و«كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار» توفي: ٦٧٨ هـ بالقاهرة في شوال. انظر: «شذرات الذهب» (٧/ ٦٣٢) و«الأعلام» (٣/ ٣٥٥).

(٢) وممن شرح «الأجرومية» بالتصوف العارف ابن عجيبة صاحب شرح «إيقاظ الهمم في شرح الحكم».

(٣) بالأصلين: الدوب. والصواب ما أثبتناه.

المتصوفة من كثرة الذكر والصمت والعزلة والسهر. انتهىٰ.

وكان شيخ الإسلام زكريا يقول: الذاكر جليس الله تعالىٰ، والمشتغلُ بالعلم مجالسٌ لأصحاب ذلك الكلام من العلماء، وأين المقام من المقام؟! لكن من كشف الله تعالىٰ عنه الحجاب، جالس الله تعالىٰ في العلم كما يجالسه في الذكر، من حيثُ كونُه تعالىٰ هو المشرِّع له بأصل الوحي علىٰ ألسنة رسله. انتهىٰ. فسلِّم يا أخي للأشياخ ما يدعونه من الأمور التي لا ذوق لك يا أخي فيها، والحمد لله رب العالمين[1].

(٩٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقيم العذر لمن ظلمه ويقول: إنما آذاني وحبسني أو عزلني من وظيفتي بذنوبي؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: في هذا إحالة لحصول الإثم لمن يظلم الناس من الولاة.

والجواب: أنه ليس في ذلك إحالة، لأن لذلك وجهان: وجه إلىٰ العبد، ووجه إلىٰ الظالم، فالعبد يهضم نفسه تواضعًا للأقدار الإلهية، وعملًا بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]. ووقع لسليمان بن مهران أنه لبس ثيابه وخرج لصلاة الجمعة، فصبَّت عليه جارية من سطح رمادًا، فعمته من رأسه إلىٰ ذيله، فقال: الحمد لله! فقيل له في ذلك، فقال: من استحق النار فصولح بالرماد الواجبُ عليه الشكر لا السخط. انتهىٰ.

وأما وجه الظالم فهو معلوم للمظلوم، ويجب عليه الإنكار عليه به من حيثُ تعديه حدود الله تعالىٰ، كما يجب عليه الإنكار عليه إذا ظلم أحدًا غيره علىٰ حدٍّ سواء. وقد تقدم أن صورة الظلمة في هذه الدار صورة الزبانية يوم القيامة[2]، فكما أنهم هناك لا يأخذون الناس إلا بذنوبهم، فكذلك الظلمة هنا، لكنهم يأثمون بظلمهم، لكونهم في دار التكليف، بخلاف الزبانية، فالسبب متحد، والتكليف مختلف. وهذا المشهد هو

---

(١) انظر أيضًا الجواب (٦٤٧).

(٢) انظر الجواب (٤٣٣).

الذي أعان أهل الله علىٰ عدم التكدير ممن آذاهم في هذا الدار، لأنهم يرونه كالسوط في يد الضارب، فافهم، وإياك أن تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ فقير سمعتَه يقيم العذر لأحد من الظلمة بقوله: إنهم لم يظلمونا إلا بذنوبنا، لأنه عذر لا يرفع عنهم الإثم كما تقدم.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إياكم أن ترموا ميزان الشريعة من يدكم، فيقول أحدكم إذا وقع في ذنب: أيش أعمل أنا؟! هذا أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن أُخلَق، فإن في ذلك رائحة إقامة الحجة علىٰ الله، وذلك خروج عن سياج الأدب، فإن الله أضاف إلىٰ العبد العمل، وفي عدم إضافته إلىٰ العبد ما لا يخفىٰ علىٰ عبد. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا يسلم أحدنا من وقوعه في حسد ولو صار من الأقطاب؛ فلاث به الفقراء وقالوا: الحسد كبيرة، فكيف يحكم هذا بارتكابها علىٰ جميع الأولياء؟! هذا اعتقاد فاسد، ولعل هذا لا يؤمن بكرامات الأولياء.

والجواب: أن كلام هذا الشيخ صحيح؛ لأن الحسد كامن في ذات كلِّ مؤمن ماعدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن يوقف الولي [عن][1] العمل به مادامت المعونة من الله تحفه، فإذا تخلفت عنه العناية، ظهر منه الحسد وسائر الكبائر الباطنة، كما بسطنا الكلام عليه في كتاب «بيان ما اشتملت عليه الطينة الآدمية».

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، تعرف أن الفلاح إنما هو في توقيه الشحَّ أن يعمل به، لا أنه يزول منه بالكلية، وكذلك الحسد والكبر والعجب وسائر المهلكات الباطنة، فقول الشيخ: «لا يسلم أحد من حسد» محمول علىٰ غير الأنبياء، كما أشار إليه جعلُ الغاية القطبية، وأن الوليَّ يسلم من العمل بالحسد وإظهاره، لا من وجوده فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يلقب أصحابه بالألقاب التي تحتاج إلىٰ تأويل بعيد، نحو سراج الدين أو نور الدين أو شمس الدين ونحو ذلك، ولاث به بعض

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

المجادلين وقال: الأولىٰ ترك الألقاب، لأنه الصدق المحض الذي كان عليه الصحابة والتابعون، فكان أحدهم ينادي أخاه باسمه المجرَّد عن اللقب والكنية.

والجواب: أن التلقيب من سنة رسول الله ﷺ، وهو من هدي الأنبياء قبله، فكان لقب إبراهيم «الخليل»، ولقب عيسىٰ «المسيح». ولقَّب رسولُ الله ﷺ أبا بكر بـ«الصديق»، وعمر بـ«الفاروق»، وعثمان بـ«ذي النورين»، وخالد بن الوليد بـ«سيف الله»، وحمزة بـ«أسد الله»، وجعفر بـ«ذي الجناحين»، ولقب الأوس [والخزرج][1] بـ«الأنصار» فغلب عليهم هذا اللقب، ذكره الحافظ ابن حجر.

وقد لقَّب الحسن البصري محمد بن واسع بـ«زَين القراء»، وكذلك لقَّب سفيانُ الثوري المُعَافىٰ بن عمران[2] بـ«ياقوتة العلماء»، ومحمد بن يوسف بـ«عروس الزهاد»[3]، ولقبوا الإمام الشافعي بـ«ناصر الحديث»، ولقبوا ابن سريج «الباز الأشهب»[4].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) المُعَافىٰ بن عمران بن نفيل بن جابر بن جَبَلَة، أبو مسعود الأزدي، الموصلي، الحافظ. ولد: سنة نيفٍ وعشرين ومائة. قال أحمد بن يونس: كان سفيان الثوري يقول: المُعَافىٰ بن عمران ياقوتة العلماء. ويُروىٰ عن الأوزاعيِّ أنه قال: لا أُقدِّمُ علىٰ المُعَافىٰ الموصلي أحدًا. توفي: ١٨٥هـ وقيل: ١٨٦هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٨٠) و«شذرات الذهب» (٢/ ٣٨٥).

(٣) محمد بن يوسف بن معدان الأصبهاني الزاهد، العابد، القدوة، أبو عبد الله الأصبهاني، عروس الزهاد. قال يحيىٰ القطان: ما رأيت خيرًا منه، فذُكر له الثوري، فقال: هذا شيء، وهذا شيء. وكان لا يضع جنبه، وقد رابط وزار قبر أبي إسحاق الفزاري، وكان يأتيه في العام من أصبهان سبعون دينارًا، فيحج، ويرجع إلىٰ الثغر ؒ. توفي: ١٨٤هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٢٥) و«الوافي بالوفيات» (٥/ ١٥٩).

(٤) أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج، الفقيه الشافعي؛ قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في حقه في كتاب«الطبقات»: كان من عظماء الشافعيين، وأئمة المسلمين، وكان يقال له: «الباز الأشهب» ولي القضاء بشيراز، وكان يُفضل علىٰ جميع أصحاب الإمام الشافعي، حتىٰ علىٰ المزني. توفي ٣٠٦هـ ببغداد ودفن في حجرته (بسويقة غالب) بالجانب الغربي بالقرب من محلة الكرخ، وعمره سبع وخمسون سنة وستة أشهر، رحمه الله تعالىٰ. وقبره ظاهر في موضعه يُزار. انظر: «وفيات الأعيان» (١/ ٦٦) و«طبقات الفقهاء» لأبي إسحاق الشيرازي (١٠٩). وممن لقِّب بـ«الباز الأشهب» سيدي عبد القادر الجيلاني.

وكان الجلال السيوطي ﷺ يقول: أول تلقيب وقع في الإسلام تلقيب رسول الله ﷺ لأصحابه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ العلماء إلا إن كنتَ أعلم بالشريعة منهم، ولم تجد نقلًا يؤيدهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا عاشر المخنثين وأكثر من مجالستهم، ولاث به الناس وقالوا: عشرة الأراذل لا تليق بالعلماء والصالحين.

[والجواب: أن عِشرة العلماء والصالحين](١) للمخنثين لا يقدح في كمالهم، فإن كان المخنثون من جملة قوم لوط، فهم يجالسونهم ليتوبوهم(٢) عن ذلك بذكر ما ورد في عقوبة صاحب هذا الذنب من الآيات والأخبار. وإن كان المراد بهم من به مرض الأُبْنة(٣) فذلك ليس بمذموم كذلك شرعًا، فإن حكمه حكم من به وجع رأس أو وجع عين ونحو ذلك.وقد كان عطاء السُّلَمِيُّ ﷺ يعاشر المخنثين ويخدمونه في البيت، وإذا لاموه في ذلك يقول: والله لهم أطهر عندي من نفسي.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين إذا عاشروا من فيه ريبة حتىٰ تعرف مقاصدهم، فإن كانوا يتوبونهم بعشرتهم لهم شيئًا فشيئًا، أو يداوونهم من الأُبْنة، فلا إنكار. وإن كان عشرتهم لغير ذلك، فلا يخفىٰ حكمه. ومن الأدوية المجرَّبة للشفاء من مرض الأُبْنة أن يغلي جلود السمك القديد حتىٰ يخرج خاصيته، ثم يحقنونه بذلك ثلاث مرات، فإنه يزول بإذن الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشكو دائمًا، وإذا قيل له: أيش حالكم؟ يقول: أسوأ الأحوال؛ مع أنه في غاية النعمة من التوسعة في دنياه ودوره، وبساتينه وخدَّامه،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: ليتوبونهم، والمثبت الصواب نحويًا.

(٣) الأُبْنة: مرض و علّة يصاب بها الإنسان يشتهي صاحبها أن يؤتىٰ في دبره. ويجب عليه الصبر والمجاهدة والسعي في العلاج، وإن وقع في المحظور أقيم عليه الحد.

ومراكبه وملابسه، واعتقاد الناس فيه الخير ونحو ذلك، ولاث به العلماء وقالوا له: قد قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ: ١١]، فقوله: «في أسوأ الأحوال» لا يجوز، لأنه يذم ربه مع كثرة إنعامه عليه.

والجواب: أنه قد يكون شاكرًا ناشرًا من فضل الله عليه، وإنما يريد بقوله: «أنا في أسوأ الأحوال» عدم إدخال الغمِّ والهمِّ علىٰ أعدائه، لما جبله الله تعالىٰ عليه من الرحمة. وقد كان سيدي عليٌّ الخواص رضي الله عنه يستغفر الله تعالىٰ من وجوده، ووجود نعمة الله عليه ويقول: لولا وجودي ووجود النعمة، ما وقع حاسدي في الحسد! ثم يستغفر للحاسد أيضًا، ويقيم[1] العذر له ويقول: إنه مسكين لم يقنعه الله تعالىٰ بما رزقه وضيَّق صدَره، ولو أنه تعالىٰ وسَّع صدره وقنعه بما رزقه، لما وقع في حسد أحد. وكان يشكر الله تعالىٰ كلما حسده أحد ويقول: لولا أني في نعمة ما حسدوني، لأن النعمة لا يحسد أحد أخاه عليها من حيثُ هي نعمة، وقد قال العقلاء: نعمة مع الحاسد خير من نقمة مع عدم الحاسد.

وقد كان أخي أفضل الدين يقول لإخوانه: إياكم أن تذكروني بخير عند من يكرهني، فإنكم تدخلون عليه الغمَّ، ولا أحب أن أدخل علىٰ عدوي غمًّا زيادة علىٰ الغمِّ الحاصل عنده من وجودي ووجود نعمتي.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقول: لا ينبغي لفقير أن يلبس الثياب النظيفة المبخرة ويمر علىٰ عدوه، فإن من شرط الفقير أن لا يدخل علىٰ عدوه غمًّا ولا همًّا، رحمةً به وشفقةً عليه، وكذلك لا ينبغي له أن يطبخ طعامًا ويدعو الناس إليه في مواضع التنزهات وغيرها، وكذلك لا يبني دارًا ولا يغرس بستانًا. وكان يقول: حق العدو آكد من حق الصديق، وحفظ حرمته ومراعاة عِرْضه أولىٰ، بدليل أنه لا يكاد يبريء ذمتك إذا استغبتَه، بخلاف الصديق.

وكان أخي أفضل الدين رضي الله عنه يقول: أدركنا أشياخنا وهم يكرهون كلَّ شيء يدخل الهمَّ والغمَّ علىٰ عدوهم، ولا يحبون ذلك إلا من حيثُ كونُ ذلك تطهيرًا له، أو رفع درجات يحبونه لعدوهم، ومتىٰ دخل ذلك تشفٍ للنفس، كان ذلك مذمومًا لهم يُؤاخَذون به.

---

(١) بالأصلين: يقوم. والصواب ما أثبتناه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص يقول: من تأمل نفسه من أصحاب النعم الدنيوية أو الأخروية، وجد نفسه في الدنيا كالماشي على حبل البهلوان على قبقاب، وجميع الأعداء والحاسدين واقفين ينتظرون وقوعه ليشمتوا به! نسأل الله اللطف بنا وبأعدائنا، آمين، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا قام على من أشاع أمرًا عنه فاحشة، ووبّخه كل التوبيخ، ثم لما طلب القائمون على ذلك الشخص إقامة الحد أو التعزير عليه، رجع عما كان فيه، وصار يساعده ويكذب الناس، فلاثوا به وقالوا له: كان الأولى لهذا أن يثبت على حالة واحدة، فإن كان قيامه على هذا الشخص بحقٍّ، فلأي شيء يرجع عنه؟! وإن كان بباطل، فكيف يقوم مع الناس في الباطل؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ، لأنه ربما قصد بالقيام عليه في أول الأمر الزجر والتنفير عما أشاعوه عنه دون إقامة الحد أو التعزير، فلما تحققت الحقائق وطلبوا إقامة الحد عليه، احتاط لنفسه حين لم يجد عنده أمرًا واضحًا يشهد عليه به. وكثيرًا ما يتعصب الناس على إنسان بالباطل، ويشيعون عنه الفاحشة حتى تمتلىء البلد، والحال أن الإشاعة أصلها من واحد من أعدائه.

[نصرة الإسنوي للتاج السبكي على ما كان بينهما]

وقد أشاع الأعداء على الشيخ تاج الدين صاحب «جمع الجوامع»[١] [ابن] السبكي في الشام أنه يَسكَر ويلوط ويلبس الزنار حتى امتلأت الشام، فأرسل سلطان مصر، فأحضره مقيدًا مغلولًا، وكان الشيخ جمال الدين الأسنوي يكرهه ويكره والده، وكان السلطان قد طلب أن يوليه القضاء فأبى، فلما بلغه أن ابن السبكي قد أتوا به على تلك الصورة، طلع للسلطان وطلب أن يوليه القضاء فأجابه، ثم خرج إلى ناحية قطية[٢] واجتمع بابن السبكي،

---

(١) من أشهر متون أصول الفقه، وهو مؤلف على طريقة الجمع بين طريقة الفقهاء وطريقة المتكلمين، وهما طريقا التأليف في أصول الفقه، ثم ظهرت طريقة الجمع طريقًا ثالثًا.

(٢) قطية: قرية كانت تقع في شبه جزيرة سيناء في الطريق بين مصر والشام. وقد اندثرت الآن.

ونصب له مُدعيًا، وحقن دمه، ثم عزل نفسه وقال: يا تاج الدين، إنما فعلتُ ذلك معك صيانةً للخرقة عن أن يُرمَىٰ أهلها بالسوء، والذي في قلبي منك ومن والدك باقٍ. انتهىٰ.

وفي الحديث: «اقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم»[1] قال العلماء: والمراد بـ«ذوي الهيئات» هو كل من لم يُشتَهر عنه الوقوع في معصية، وفي الحديث أيضًا: «تجافوا عن ذنب السخي، فإن الله آخذ بيده كلما عثر»[2]. انتهىٰ. فربما كان ذلك الشخص الذي قام الناس عليه من ذوي الهيئات أو سخيًّا، فلا اعتراض علىٰ العالم أو الشيخ الذي قام عليه أولًا ثم رجع وساعده.

فاعلم ذلك، وإياك أن تمشي في تنقيص أحد من أقرانك إذا قام عليه قائم ليعلو أمرك عليه، فإن ربك بالمرصاد، وما تعدىٰ أحدٌ حدوده إلا أهانه الله، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٢) ومما أجبتُ به عن قاضي العسكر أو غيره إذا تورَّع عن شيء من متحصل نوَّابه، وقال للنائب: إن هذا المال كالرجم بالحجارة، كلُّ شيء فاتنا منه كان أفضل؛ فلاث به المجادلون وقالوا: هذا من مثله رياءٌ وسمعةٌ، ولو أنه كان صادقًا في الورع، لحكم هو ونوَّابه احتسابًا لله عزَّ وجلَّ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا القاضي، بل يجب مدحه علىٰ هذه الكلمة، وحمله علىٰ أنه قالها بحقٍّ وصدق، خوفًا من الله، لا طلبًا للصيت في مصر وباب السلطان[3] ونحو ذلك.

وقد تكررت هذه الكلمة من مولانا قاضي العسكر الملقب ببرويز[4] في سنة أربع

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧١٠) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٢٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٣٧١).

(٣) باب السلطان: أي قصر الحكم الأعلىٰ في إستانبول، مما يعرف في التاريخ باسم «الباب العالي».

(٤) برويز بن عبد الله مظفر الدين، أحد الموالي الرومية، اشتغل بالعلم، وتولىٰ قضاء حلب، وفي يوم دخوله إليها بشر بقضاء الشام، ثم تولىٰ قضاء مصر، ثم المدينة، ثم القسطنطينية، ثم قضاء العسكر الأناضولي،

وستين وتسعمئة، كما أخبرني بذلك القاضي وجيه الدين الشافعي المقيم بمحكمة باب زويلة وقال: جئتُه يومًا بالمتحصل وأنا مستحٍ منه لقلته، فقال: يا وجيه الدين، هذا مثل رجم الحجارة! كل ما فاتنا منه كان أفضل في الدنيا والآخرة؛ وما سمعتُ بمثلها من قاضٍ قبله، بل سمعتُ من غيره أنه يقول: كلُّ من كان أكثر متحصلًا فهو أولىٰ بالقضاء وإن كان أقلَّ علمًا. وشفعتُ عنده مرة في تولية قاضٍ من أهل العلم كان ولَّىٰ مكانه جاهلًا، وقلتُ له: هذا أتقن علم الشريعة علىٰ مشايخ الإسلام، وهو مبريء لذمتكم في الدنيا والآخرة، فقال: ماذا أصنع بعلمه إذا كان أقل متحصلًا؟! فجزىٰ الله تعالىٰ مولانا هذا خيرًا وكلَّ من تبعه علىٰ هذه المقالة بحق وصدق، آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لشيخ الإسلام: تلمذ لي حتىٰ أربيك؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا غلط عظيم! فلان طلب من شيخ الإسلام أن يتلمذ له.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ حتىٰ يستفهمه وينظر مراده، فلعله رأىٰ شيخ الإسلام يخلُّ بشيء من أخلاق أولياء الله، فأراد أن يرقيه إلىٰ التخلق بها، كما إذا رآه يتأثر من كلام الأعداء في عِرْضه، أو يرجِّح الذهب علىٰ التراب، أو يتأثر من طلبته إذا تركوه واجتمعوا بأحد من أقرانه وصاروا يقولون: إنه بالنسبة لشيخنا الآن كالعاميِّ، فإننا اجتمعنا بهذا وهذا، أو رآه يتأثر من عزله من تدريسه وإعطائه لأحد من طلبة العلم الذين هم أفقر منه، ونحو ذلك.

وقد فعل مثل ذلك سيدي عليٌّ المرصفيُّ مع بعض المدرسين، فراض نفسه علىٰ يديه، حتىٰ صار إذا نقصه أحد يقول: والله إن قلب هذا نيِّر الذي عرف خبث باطني وما أنا عليه من الأمور التي أخادع بها ربي عزَّ وجلَّ، وصار يرىٰ أن كلَّ من نقصه غير آثم، لأنه إنما نقصه بحقٍّ وصدق، خوفًا من تزكية نفسه وتبرئتها من العيوب، وصار يناقش نفسه إذا كرهت أحدًا من المسلمين ويقول لها: إن كراهتك لأخيك إنما هو حظُّ نفس!

مات في سنة ٩٨٦هـ. «الكواكب السائرة» (٣/ ١٢٣).

فكان رحمه الله علىٰ نفسه حتىٰ مات.

وقد بلغنا عن مالك بن دينار أنه قال: مكثتُ سنةً ونفسي تنازعني في دعوىٰ الإخلاص وأنا أقول لها: بل أنت مرائية، حتىٰ مررتُ بامرأة في طاقٍ لها بالبصرة، فقالت لجارتها: من أرادت أن تنظر إلىٰ مراءٍ، فلتنظر إلىٰ هذا -تعني مالكًا- فقلتُ لنفسي: اسمعي لقبك من هذه المرأة الصالحة، فهبي أني أكذب لكونك قريبة مني، فما تقولين في هذه المرأة الغريبة عنك؟!

وكان الفضل بن عياض يقول: لأن أحلف أني مُرَاءٍ أصدق من أن أحلف أني لستُ مرائيًا.

فقد علمتَ أن قول هذا الشيخ لشيخ الإسلام في هذا الزمان: «تعالَ أعلِّمك الإخلاص، وأسلك بك طريق القوم» لا اعتراض عليه في ذلك، لأنه حق وصدق، فإن هذه الأمور عزيزة الوجود في غالب طلبة العلم، لا يتخلص منها إلا بالسلوك علىٰ يد الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن الله تعالىٰ أطلعني علىٰ ما يقع مني ومن غيري في المستقبل من ألواح المحو والإثبات؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا أمر لا يعرفه إلا نبي بوحي من الله تعالىٰ لا من ذاته هو.

والجواب: أنه يمكن اطلاعه علىٰ ذلك من طريق الكشف، فإن قلب الوليِّ إذا انجلىٰ الجلاء التام، ارتسم فيه سائر الوجود العلويِّ والسفليِّ، فيصير يقرأ ما في الألواح السماوية من قلبه، هكذا قاله السيد أحمد ابن الرفاعي وغيره.

ومن كلام سيدي عليٍّ الخواص رحمه الله: إذا أطلعك الله تعالىٰ من طريق الكشف علىٰ ما قدَّره الله تعالىٰ عليك من المعاصي، فإياك والمبادرة إلىٰ فعلها وتقول: إنه لابد لي من الوقوع فيها، فأنا أبادر إلىٰ فعلها، لأستريح من مشاهدتها، فإن المعاصي تتشكل بين العبد وربه صورة قبيحة. وكان يقول: ينبغي للفقير إذا كُشِفَ له عما قدَّره الله عليه في المستقبل أن يقول بتوجه تام: اللهم إنك تعلم عجزي عن ردِّ أقدارك النافذة فيَّ، ولكن إن كان هذا المقدَّر أمرًا لا محو فيه، فاسترني فيه بين عبادك في الدنيا والآخرة، فإن عبادك

يفضحوني وأنت تسترني يا أرحم الراحمين. فاعلم ذلك، ولا تنكر علىٰ الأولياء إلا ما ورد الشرع بردِّه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم إذا ألَّف كتابًا وبالغ في تحريره، فلاث به بعض أقرانه وقالوا: أليس ولو بالغ في تحرير كلامه لا يسلم من الخطأ والتحريف؟! ولكن من شأن النفس محبة الشفوف علىٰ أقرانها وأن يُقال: إن شرح فلان أكثر تحريرًا من شرح فلان، وذلك كلُّه رياءٌ وسمعةٌ.

والجواب: أنه يجب إحسان الظن بالعلماء وأنه لا يجوز أن يُظنَّ بهم أن أحدهم قصد بتحرير كتابه ما ذُكِرَ، ويجب حمله علىٰ أنه إنما قصد بكثرة تحرير كتابه تقريب الطريق علىٰ الطلبة، وكثرة اعتمادهم عليه، بخلاف الكتاب الذي لم يحرره صاحبه. وكان سيدي أحمد الزاهد ﵀ يقول: ليس لأحد أن يتعب سرَّه في تنميق الألفاظ في كتابه إلا بنية صالحة، لا ليمدحه الناس علىٰ ذلك، كأن يقولوا: والله ما قصَّر فلان في هذا التأليف. انتهىٰ.

[سبب وجود الخطأ والتحريف والتناقض في كلام البشر]

واعلم يا أخي أن سببَ وجود الخطأ والتحريف والتناقض في كلام البشر عدمُ اليقظة الدائمة، فلذلك كان يقع في كلامهم الغلط والسهو، أو نسيان شرط للمسألة في بعض الأوقات، وإطلاق في محل التفصيل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﵀ يقول: لي سبع وخمسون سنة وأنا أحرِّر في شرح «البهجة» وكل قليل يبدو لي فيه تغيير، مع هروبي من مضاهاة كلام الشارع ما أمكن. ثم يقول: قال شيخنا الحافظ ابن حجر ﵀: لا سبيل للعبد إلىٰ التخلص في كتابه من الاعتراض أبدًا، وذلك لعدم قدرة العبد علىٰ استحضار ما يرد علىٰ ذلك الكلام في منطوقه ومفهومه، ولو قدر العبد علىٰ ذلك، لما وجد أحدٌ من الشرَّاح مطعنًا في صاحب المتن،

ولما احتاج الشرح إلىٰ حواشٍ. وإيضاح ذلك أن كلَّ كلام كالمجمل لمن يأتي بعده، فيبين الشارح ما أُجمِلَ في المتن، ويبين صاحب الحاشية ما أُجمِلَ في الشرح وهكذا، فلم يزل الإجمال ساريًا من القرآن إلىٰ السنة، ومن السنة لكلام العلماء إلىٰ يوم القيامة. انتهىٰ.

فليحذر المؤلِّف من العجب والزهو بمؤلَّفه إذا بالغ في تحريره، **لأن كل الأعمال الصالحة تحتف بها الآفات**. وقد كان عمر بن عبد العزيز إذا كتب كتابًا وأعجبه لفظه، مزقه ويكتب غيره، فاعلم ذلك، واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٦) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي غلب عليه الخوف من الله تعالىٰ حتىٰ صار يخاف الخسف به إذا جلس أو مشىٰ أو نام، ويمسح وجهه كل قليل، مخافة أن يكون الله تعالىٰ مسخ صورته، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا سوء ظن بالله لا يجوز.

والجواب: أنه لا يلزم من خوفه الخسف به والمسخ لصورته أن يكون ذلك من سوء الظن بربِّه عزَّ وجلَّ، فقد يكون ممن أشهده الله تعالىٰ سرَّ كلمته في الأمور، وجعل له عدة عيون، فعين يخاف ربَّه منها لسوء ما يتعاطاه من المخالفات، وعين يرجو فضل ربه منها من حيثُ إن رحمته سبقت غضبه، وأنه أرحم به من والدته، وعين لا يخاف ولا يرجو لانطراحه بين يدي ربه كالميت بين يدي الغاسل، فإن رحمه رأىٰ ذلك حسنًا، وإن عذَّبه رأىٰ ذلك حسنًا، لا يرىٰ في فعل ربه خللًا، بل هو تعالىٰ أحكم الحاكمين.

[سبب كون السلف كلهم على قدم الخوف]

وإنما كان السلف الصالح كلُّهم علىٰ قدم الخوف لشدة معرفتهم بالله عزَّ وجلَّ، وأنه تعالىٰ لا يحكم عليه خلق، يفعل ما يشاء ويختار، ومنهم من كان يخاف من ربه خوف إجلال، كالأنبياء والأصفياء والصحابة والتابعين ونحوهم من الأولياء المحفوظين من الزَّلات، حتىٰ كان أبو بكر الصدِّيق يقول: ليتني كنت تِبْنة! وكان عمر يقول: ليتني لم أخرج إلىٰ هذه الدار! وفي رواية: ليت أمي لم تلدني! وكان الحسن البصري دائم الخوف

والحزن حتىٰ يبُس جلده علىٰ عظمه، وكذلك معروف الكرخي، وكان يقول: أحبُّ أن لا أدفن ببغداد. فقيل له: لماذا؟! فقال: أخاف أن لا يقبلني قبري فافتضح. وكان السري السقطي يتنبه مرعوبًا، فيمسح وجهه ويقول: أخاف أن يكون الله قد مسخ صورتي صورة خنزير وأنا نائم عن خدمته[1].

[سبب فتح سيدي عبد القادر الجيلاني للناس باب الرجاء]

ولم يزل الناس كذلك إلىٰ زمن سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ، ففتح للناس باب الرجاء، رحمةً بهم لنقص أعمالهم، ووقوعهم في المخالفات. ولولا الرجاء لانفطرت مرائرهم، وذابت أكبادهم. والأمر في زيادة، حتىٰ صار أمثالنا لا يظنون أن الله تعالىٰ يدخلهم النار أبدًا، مع تمادينا في المعاصي ليلًا ونهارًا، ولو أنه تعالىٰ آخذنا بأحسن أعمالنا عندنا لأهلكنا. فاعلم ذلك، واحمل العلماء والصالحين علىٰ أحسن المحامل، واعتقد أنهم أعلم بأمور الدنيا والآخرة منك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية أو شيخ السوق أو شيخ البلد أو شيخ الإقليم الذي تولىٰ، ففر غالب المحبين لمن كان قبله من الأشياخ، وخرجوا من بلاده، ولاث به الناس وقالوا: إنما فرَّ هؤلاء من ظلمه وغشمه.

والجواب: أن العلة في الفرار قد تكون من أمر آخر عن الظلم والغشم، أو تكون العلة مركبة من الجهتين، كأن يكون ذلك الشيخ قليل السياسة غليظ القلب، وكذلك رعيته معه يكونون قليلي[2] السياسة جافي الطبع، فلا ينبغي الإنكار علىٰ كلٍّ منهما، حتىٰ يعلم كلُّ واحد ما يجب عليه من الأدب في حقِّ الآخر، ثم ينكر عليه بعد ذلك.

ويقع هذا كثيرًا في أولاد مشايخ العرب وأولاد مشايخ الزوايا، فيخرب الإقليم أو الزاوية، فينبغي لولد شيخ العرب أو ولد شيخ الزاوية أن لا يتعدَّىٰ ما كان عليه والده

---

(١) انظر الجواب (١٢٤).

(٢) بالأصلين: قليلين. والأصوب نحويًّا ما أثبتناه.

من السياسة والإحسان إلىٰ الناس، ويحبُّ جميع أصحاب والده، حتىٰ إنهم يركنون إليه ويعضدونه ويقوون ساعده، وإلا كانوا عليه مع أعدائه، فيضعف حاله، وتزول رئاسته.

وقد لعب إبليس بشخص من أولاد المشايخ، فقال: قد رأيتُ والدي بعد موته وقال لي: كلُّ من كنتُ أحبه، فأبغضه وأخرجه من الزاوية! ففعل ذلك، فأخرب الزاوية في جمعة، فاجتمعتُ به وقلتُ له: إن الذي أتاك في المنام ليس هو والدك، وإنما هو إبليس، ولو أن ذلك كان صحيحًا لتعدَّىٰ الأمر إلىٰ محبة أبي بكر وعمر وبقية الصحابة، فكيف تنسخ محبتهم الحقيقية الواجبة بمنام صادر عن إبليس؟! هذا من الضلال المبين! انتهىٰ. ولم تزل زاوية والده خرابًا[1] إلىٰ وقتنا هذا بعد أن كان فيها نحو مئة فقير، فالله يحفظ أولاد الفقراء من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: غالب الناس اليوم صلاتهم صورية لا حقيقية؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف ومن غالب الناس العلماء والمدرِّسون في علم الشريعة؟! وإذا لم يعرف هؤلاء آداب الصلاة، فمن يعرفها؟!

والجواب: أن كلام هذا الشيخ في غاية الصدق، لجهل غالب الناس اليوم بآداب الوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فإن أمهات آداب الصلاة ألف أدب، تحت كلِّ أدب ألف أدب كما قاله الإمام علي ﷺ، فاسأل يا أخي غالب الناس عن عشرة آداب منها، تعلم صدق هذا الشيخ.

[ذكر بعض آداب الصلاة]

وقد ذكرنا جزءًا وافرًا في أسرار الصلاة والزكاة والصيام والحج في «رسالة الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» فراجعها، ولكن لا نخلي الإخوان من فائدة في هذا المحل، فنقول وبالله التوفيق:

(١) بالأصلين: خراب. والصواب ما أثبتناه.

صفة صلاة العارفين[1]

من آداب المصلي أن يتوضأ وضوءًا كاملًا، حاضرًا بقبله مع الله تعالىٰ، متذكرًا جنايةَ كلِّ عضو غسله، تائبًا من ذلك توبةً خالصةً يقبل مثلها الله تعالىٰ، وذلك ليقف في حضرة الله تعالىٰ متطهرًا من جناية أعضاء الوضوء، متطهرًا من كبائر الباطن كلِّها، كالغلِّ والحسد والكبر، والعجب والرياء، والنفاق والحقد ومحبة الدنيا، ليناجي الله تعالىٰ بقلب طاهر وجسد طاهر، ويستشعر عند القيام صورة وقوفه بين يدي الله رب العالمين في يوم تقلب فيه القلوب والأبصار، ويشيب فيه الأطفال، وتذوب فيه الجبال، و تذهل كل مرضعة عما أرضعت.

ثم ينوي ويكبر الله تعالىٰ عن كلِّ شيء يخطر بالبال من صفات التعظيم، ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم حتىٰ لا يحضره في صلاته، ثم يسمي الله عزَّ وجلَّ، ليحضر مع الاسم قبل المسمَّىٰ، ثم يترقىٰ من ذلك إلىٰ شهود المسمَّىٰ علىٰ سبيل التخيل بحسب مقام ذلك المصلي، ثم يحمده علىٰ إذنه له في الوقوف بين يديه، ثم يستشعر رحمته به، ثم يمجده بكونه ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤] الذي هو أعظم المواكب الإلهية، لكون الأولين والآخرين حاضرين في ذلك الموقف كلهم لم يغب منهم واحد، ثم يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ علىٰ وجه الإخلاص لله تعالىٰ في عبادته، فيتلفظ بما هو كامن في قلبه، إظهارًا للعبودية، ثم يقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ أي فيما نتحرك أو نسكن في تلك العبادة أو غيرها، قال شيخنا: ونقول ذلك علىٰ سبيل التلاوة فقط، لا علىٰ وجه الاستعانة التي هي شركة العبد في إيجاد الفعل، فإن الشركة لا تصح في الإيجاد، وإنما تصح في الإسناد فقط، كلُّ ذلك ليخلص للعبد توحيد الفعل لله تعالىٰ كشفًا ويقينًا، لا ظنًا وتخمينًا، ثم يسأل الهداية من ربه لصراط الذين أنعم عليهم من الأنبياء والأصفياء وكمَّل المؤمنين، وذلك حتىٰ تكون صلاته أهلًا لأن تقبل عادة.

ثم يقرأ السورة بعد «الفاتحة» كالجبر لما أخلَّ به من حضور قلبه مع الله تعالىٰ في «الفاتحة» حين ذهل من تجلي عظمته تعالىٰ، فربما غاب عن حسه، فلم يستحضر قراءة

---

(١) عنوان علىٰ هامش الأصلين.

بعض كلمات «الفاتحة» فجبر ذلك بقراءة السورة، إذ هي قرآن أيضًا، وربما أرجع بعض العارفين جميع معاني «الفاتحة» التي هي «أم القرآن» إلىٰ معاني تلك السورة، كما أرجع معاني جميع القرآن إلىٰ «فاتحة الكتاب»، وكما أرجع معاني جميع «فاتحة الكتاب» إلىٰ أي حرف شاء من حروف الهجاء.

ثم إنه إذا استحضر عظمة الله كما ذُكِر وهو واقف، ثقلت عليه العظمة، فخضع لله تعالىٰ بالركوع، رحمةً من الله به. ولو أنه وقف بلا خضوع، لذاب من الحجاب، إذ الوقوف حجاب بالنسبة للركوع، والركوع حجاب بالنسبة للسجود، وليس بعد السجود مرتبة قرب أبدًا، لأنها حضرة «قاب قوسين». وقد أشار إلىٰ ذلك حديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[1]، أي أقرب في شهود العبد لا في وجود الحقِّ، فإن قرب الحقِّ تعالىٰ ليس كقرب الأجسام من الأجسام، تعالىٰ الله عن ذلك.

ثم لما خضع العبد لله في الركوع، ثقلت عليه العظمة، فنفَّس الله تعالىٰ عليه بمشروعية الرفع من الركوع إلىٰ الاعتدال، رحمةً بالعبد حتىٰ يستريح من ثقل تجلي عظمة الله له في الركوع، فينزل إلىٰ السجود بعد قيام ومناجاة لله بالحمد والثناء عليه بما هو أهله.

ثم إن كان ذلك المصلي من الأقوياء علىٰ تحمل ثقل ذلك التجلي، رفع من الركوع يسيرًا؛ وإن كان من الضعفاء رفع كثيرًا واطمأن، ليأخذ له راحةً طويلةً قبل أن ينزل لتحمل التجلي الأعظم في السجود.

ثم من رحمة الله تعالىٰ أنه نفَّس عن الساجد أن يرفع رأسه ويعتدل بين السجدتين طويلًا أو قصيرًا، كما قدَّمنا في الركوع بالنسبة لقوة المصلي وضعفه، فيُحمَل قول من قال [بعدم وجوب الطمأنينة في الاعتدال بين الركوع والسجود وبين السجدتين علىٰ حال الأقوياء من الأنبياء والأولياء][2]، ويحمل قول من قال بوجوب الطمأنينة علىٰ حال الضعفاء الذين لا يستطيعون تحمل توالي العظمة في الركوع والسجود، فلا يُقال: الطمأنينة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

مطلقًا أفضل، ولا عدمها مطلقًا أفضل، كما لا يُقال: إن تطويل القراءة في القيام أفضل من إطالة الركوع والسجود ولا عكسه، لأن ذلك محمول علىٰ حال رجلين، فإذن وجوب الطمأنينة في الركوع والاعتدالين وجوب رحمة وشفقة بالعبد، لئلا يكلِّف نفسه ما لا تطيق من تحمل توالي العظمة، فيذوب لحمه وعظمه، ويحس أنه احترق، كما مرت الإشارةُ إليه في الجواب عن اختلاف مشاهد الأئمة الأربعة في الصلاة في الباب الثالث[1].

[احتواء الصلاة على جميع عبادات العالم العلويِّ والسفليِّ]

واعلم يا أخي أنه ليس في العبادات أكمل من الصلاة أبدًا، لأنها حاوية لعبادة العالم العلويِّ والسفليِّ، لا تخرج عنها عبادة أحد من أهل السماوات وأهل الأرض من حيوان وإنسان وملك وجنيٍّ، فللمصلي أسوةٌ بالمتطهرين حال طهارته، وأسوةٌ بالملائكة القائمين حال قيامه، وأسوةٌ بالمكبِّرين حال تكبيره، وأسوةٌ بالحامدين حال حمده، وأسوةٌ بالممجدين حال تمجيده، وأسوةٌ بالداعين حال دعائه، وأسوةٌ بالتالين حال تلاوته، وأسوةٌ بالراكعين حال ركوعه، وأسوةٌ بالمسبِّحين حال تسبيحه وتنزيهه، وأسوةٌ بالمعظمين لله حال تعظيمه، وأسوةٌ بالخاشعين لله حال خشوعهم بجميع جوارحهم الظاهرة والباطنة، الساجدين له بأجسامهم وجلودهم وشعورهم، وأسماعهم وأبصارهم وما حملته أقدامهم، وله أسوةٌ بالرافعين رؤوسهم للوقوف بين الركوع والسجود، المفوِّضين له، الموحِدين له في العطاء والمنع، المؤمنين بأنه لا ينفع عنده سبحانه وتعالىٰ ذا الغنىٰ غناه، وإنما ينفع العبد عند ربه العمل الصالح والتواضع والذل والافتقار. وهكذا القول في جميع التأسي بالملائكة في أفعال الصلاة إلىٰ السلام.

واعلم يا أخي أن من خصائص إطالة الوقوف أو الجلوس بين يدي الحقِّ جلَّ وعلا أن العبد يزداد بذلك هيبة، وذلك لتوالي التجليات المتجددة غير المتكررة، بخلاف إطالة القيام أو الجلوس بين يدي الملوك من الخلق يزداد بها العبد قلة هيبة واحترام، فلكل تجل من تجليات الحق تعالىٰ هيبة جديدة في قلب عبده.

---

(١) انظر الجواب (١٩٤).

وأشد ما يكون على العبد التجلي الآخر، ولذلك رحم الله تعالىٰ هذه الأمة المحمدية [بالإسرار][1] بعد أمرهم بالجهر بالقراءة والأذكار في بعض الصلوات وفي بعض الركعات فرضًا ونفلًا، فإنه لو أمرهم بالقراءة جهرًا مع تلك الهيبة التي تجلت لقلوبهم لكان ذلك كالتكليف بما لا يطاق، لاسيما في حق الكُمَّل من الأولياء العارفين بجلال الله وعظمته. وإنما أمرنا الله تعالىٰ بالجهر في الصبح والجمعة وأولتي المغرب والعشاء والعيدين والتراويح وغير ذلك لحكمة لا تُذكَر إلا مشافهة لمن هو من أهلها! وأيضًا لما يحصل لغالب الناس من الاستئناس ببعضهم بعضًا عند كثرة الجماعة، فلذلك لم تنكشف لهم عظمة الله تعالىٰ كل ذلك الانكشاف الذي يقع للعارفين، ولذلك قدروا علىٰ الجهر في صلاة النهار الذي تجليه أثقل التجليات دون غيرهم من العامة.

وإنما خالفنا ذلك في صلاة كسوف الشمس وأمر الأكابر بالإسرار فيها لأنها من الآيات التي يخوِّف الله بها عباده، فكانت في حقِّهم كالركعة الثالثة أو الرابعة من المغرب والعشاء، فلم يكلِّفهم الحق جلَّ وعلا بالجهر فيما ذكر، لشدة ما تجلىٰ لقلوبهم من عظمة الله عزَّ وجلَّ، وإنما أُمروا بالجهر في خسوف[2] القمر وإن كان الآخر مما يخوِّف الله به عباده ككسوف الشمس لخفة ما يتجلىٰ فيه من شهود عظمة الله تعالىٰ لقلوبهم، أو لضعف آيته عن آية الشمس، فإن نور القمر مستفاد من نور الشمس دون العكس، كما لم يؤمروا أيضًا بالجهر في صلاة الاستسقاء والجنازة لما في الاستسقاء من طلب التذلل والخضوع والخوف من الله تعالىٰ، ولما في الجنازة من شدة الحزن وذكر الموت وفتنة القبر، وما بعد ذلك.

فقد بان لك يا أخي أن قول هذا الشيخ: «إن غالب صلاة الناس اليوم صورية لا حقيقية» حق وصدق ولا ينبغي اللوث به، وإنما ينبغي لنا أن نشكر فضله، لكونه نبهنا علىٰ نقص صلاتنا، لنأخذ في التلبس بآداب الصلاة بالسلوك علىٰ يد شيخ مرشد، فإن معرفة أسرار الصلاة بغير شيخ قد لا يحصل للعلماء، فضلًا عن غيرهم. وإن شككت

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: كسوف.

في قولي فاسأل من شئتَ منهم عن بعض هذه الأسرار التي ذكرتُها لك، واطلب منه الجواب تعرف صدقي، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي لم يقرِ الضيف وعنده المال والطعام، ولاث الناس به وقالوا: مثل هذا الفعل نقص كبير في العلماء والصالحين، بأنه ربما كان لا يعتقد خلوص ذلك المال والطعام من الشبهة، ومعلوم من قواعد الشريعة أن «السلامة مقدمة علىٰ الغنيمة» وإذا كان في طريق السنة ارتكاب مكروه، فاجتناب المكروه أولىٰ من فعل السنة مع ارتكاب المكروه. وقد ورد الأمر بالسحور في رمضان وغيره[١]، وقيَّده الشارع بالحلال، فقسنا عليه قِرَىٰ الضيف، بجامع سنيَّة كلٍّ من قِرَىٰ الضيف والسحور. ومن قال من العلماء: «إن العبد يقري الضيف من الشبهة، من حيثُ جوازُ أكلها في الجملة» فله وجه كذلك، وهو أن يطعم الإنسان كلَّ شخص مما يناسب مقامه، فمن رآه متورِّعًا عن الشبهات، ترك إطعامه منها، [ومن رآه يأكل من الشبهات، أطعمه منها][٢] تبعًا لما يفعله هو بنفسه. والأول مبني علىٰ أن الإنسان مأمور بأن يكون أولىٰ بأخيه المؤمن من نفسه، بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الناس إلا بعلم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٠) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا جفا الدَّيِّن من الفقراء، وقرب الأشرار وجعلهم أصدقاءه، ولاث به فقراء الزاوية وقالوا له: كنتَ قربتَ فلانًا وفلانًا أحسن، بأنه لا ينبغي اللوث به، فربما قصد بتقريب الأشرار مداواتهم ومسارقتهم في تهذيب أخلاقهم شيئًا فشيئًا، ليكفي الناس شرهم، ويصير إخوانهم منهم في راحة، بخلاف الدَّيِّنين الخيرين، فإن الناس منهم في أمان.

وربما كان الجماعة الدَّيِّنين عندهم حدَّة ونزاقة، فلا يصلحون لأن يقيمهم الشيخ

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (١٩٢٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: «قال النبي ﷺ: تسحروا فإن في السحور بركة» ومسلم (١٠٩٥).

(٢) ساقط من «ب».

في خدمة الفقراء، فأبعدهم الشيخ رحمةً بهم وبالفقراء، لاسيما إن كان في أمل الدَّيِّن الخيِّر أن الشيخ يقيمه في حياته [ناظر][1] وقف الفقراء مثلاً، ويصير يقبض ويصرف، فإن المستحقين ربما لاثوا بعرضه وقالوا له: أكلتَ وقفنا! فإنه يقع له ما لا خير فيه، بخلاف تخين الجلد[2] من الجماعة. ولا يخفىٰ يا أخي أن الحدَّة تعتري خيار الأمة كما ورد[3]، فليست الحدة طعنًا في دينه، وفي الغالب أنه لا يكون عنده حقد ولا مكر ولا خيانة، ولذلك كان أشق ما عليه من ينسبه إلىٰ الخيانة، فربما شنق نفسه من القهر كما وقع لبعضهم، فعُلِمَ أن الشيخ لا يقرِّب ولا يُبعِد أحدًا إلا لحكمة، فلا ينبغي للفقراء الاعتراض عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤١) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية أو العالم الكبير إذا صار يمدح الفسقة ويذم الناس المِلَاح، فلاث به بعض أصحابه وقالوا له: إنما يليق بك أن تمدح الناس المِلَاح وتذم الفسقة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأنه ربما قصد بمدح الفسقة من ورائهم في المجالس تنبيههم علىٰ التوبة من صفاتهم الخبيثة، فيقول أحدُهم لنفسه: انظري كيف يمدحك الناس بما ليس فيكِ! فيأخذ في التوبة، ويطلب تحقيق ظنهم فيه الخير حتىٰ لا يخيب ظنُّهم فيه.

وقد كان أخي أفضل الدين يفعل بالأشرار ذلك، فيلجم أحدهم عن الشرِّ. وخاصمه فقيه مرةً، وأتىٰ معه بجماعة شريرين، فأول ما رآهم أخي المذكور قال: الحمد لله الذي ما جئتَ معك إلا بناس دَيِّنين خيرين يخافون علىٰ دينهم؛ فالتجموا، وصار الخصم يغمزهم لأن يسفِّهوا علىٰ أخي، فلا يتحرك أحد منهم، فقال لهم الخصم: لو عرفتُ ما

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أي ثخين الجلد، وعامة مصر تقلب الثاء تاءً، أي سميك الجلد، وهي تقال علىٰ الشخص الجريء الذي لا يستحيي أن يواجه من أمامه بالكلام الغليظ.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٤٧١) من حديث ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: الحِدَّةُ تعتري خيارَ أمتي» وابن أبي شيبة في «مسنده» (٦١٦) وأبو يعلىٰ الموصلي (٢٤٥٠).

جئتُ بكم معي! انتهىٰ، وهي سياسة حسنة ينبغي العمل بها.

ومما وقع للإمام أبي حنيفة أنه كان يقوم ثلث الليل الآخر، فمرَّ يومًا علىٰ جماعة، فقالوا: هذا الرجل لا ينام الليل؛ فصار يقوم الليل كلَّه، وقال: لا أحب أن يصفني الناس بما لم أفعل. فكان قول الناس ذلك كله جندًا من جنود الله عزَّ وجلَّ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.



الباب العاشر

في جملة أخرى من الأجوبة

فأقول وبالله التوفيق:

(٩٤٢) ومما أجبتُ به عن العالم[1] الكبير أو شيخ الطريق إذا قيل له عن أحد من أقرانه: إنه كثير التردد إلىٰ الأمير الفلاني. فقال: هو أسقط نفسًا من ذلك، وهو دائر علىٰ شيء يلفه من الأمير. ولاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه أن يحمل أخاه علىٰ محمل حسن، ولا يحمله علىٰ سقاطة النفس والطمع، وينقصه بين الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا العالم أو الشيخ، فقد يريد بسقاطة النفس تواضعه وعدم تكبره وشهامة نفسه علىٰ الأمراء، كما هو الغالب علىٰ أهل الرعونات النفسية، فيحتقر أحدهم الأمير ولا يتردد إليه خوفًا أن ينقصه الناس بذلك. ومعلوم أن التنقيص لا يحصل إلا لمن طمع فيما بأيديهم، أما من زهد في ذلك فهو عندهم في غاية التعظيم.

وأما قوله: «إنه دائر علىٰ شيء يلفه» فيُحمَل علىٰ شيء من أمور الآخرة لا الدنيا، وذلك محمود شرعًا وعقلًا، ولا يجوز حمله علىٰ شيء يلفُّه من أمور الدنيا إلا لو صرَّح بذلك، ثم إنه يجب حمله بعد ذلك علىٰ شيء يحصله من أمور الدنيا بطريقه الشرعي، لا بغير طريق شرعي كالنصب والحيل. ولم يزل العلماء والصالحون يترددون إلىٰ أمراء بلدهم، وبعضهم يأخذ منهم الهدايا، ويأكل عندهم الطعام، ومع ذلك فالواجب حملهم علىٰ المحامل الحسنة الموافقة للشريعة، فاعلم ذلك، وإياك وحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل التي لا تليق بمقامهم، فتخسر دينك بقدْر ما وقعتَ في حقِّهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل عليه مكروب قبيل غروب الشمس

---

(١) بالأصلين: الأمير. والصواب ما أثبتناه.

بحيث لا يسع الوقت فعل صلاة العصر، وقال له: يا سيدي، لي عندك حاجة. فقال له: اصبر، فإن عليَّ صلاة العصر؛ فلاث به في باطنه وقال: كيف يكون هذا شيخًا وهو يؤخر العصر إلىٰ وقت لا يسعها؟!

والجواب: أنه لا يجوز حمله علىٰ أنه أخر العصر بغير طريق شرعي، فيُحتمَل أنه رأىٰ في ثوبه نجاسةً قبيل المغرب كان قد صلَّىٰ العصر بها ولم يشعر، أو صلَّىٰ بغير طهارة ناسيًا، أو أخره ذهولًا عنه بما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله تعالىٰ كما وقع للشِّبلي، ثم أنشد:

نسيتُ اليـوم من عشقي صـلاتي

لكن ذلك لا يقع إلا لأهل البدايات في الطريق. أما الأشياخ الكُمَّل فيردون إلىٰ عقولهم وقت فرائضهم. ولذلك لما ذكروا للجنيد ما يقع للشِّبلي من طول الاستغراق، فقال: هل يصحو وقت الصلاة؟ فقالوا له: نعم. فقال: الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب. انتهىٰ. فتأمل يا أخي قوله: «لسان ذنب» أي في الشريعة، وإلا فالحقيقة قد تعطي العذر لمن استغرق في مشاهدة جلال الله عزَّ وجلَّ، فإنه حينئذ كالمجذوب الغارق، لكونه أُخِذَ بمجامع قلبه عن جميع ما كان كُلِّف به. وقد كان الشبلي قبل كماله يعيد كلَّ صلاة فاتته في الاستغراق، فإياك والإنكار علىٰ القوم إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٤) ومما أجبتُ به عن المدرِّسين الذين يدرِّسون العلم في مسجد واحد، فيتغير أحدهم علىٰ طالبه إذا تركه وحضر درس غيره وهو ينظر، فلاث الناس به وقالوا: هذا من علامة الرياء! فقد يكون تكدُّره إنما هو علىٰ فوات الأجر والثواب الذي كان يحصل له علىٰ يدي ذلك الطالب، وهو راضٍ عنه -أي عن ذلك الطالب- وعن شيخه الذي انتقل إليه. وكلام الإمام النووي[1] محمول علىٰ من ثبتت كراهته لذلك الطالب وشيخه، ومن أين لنا ثبوت ذلك؟! فاعلم ذلك، واحمل العلماء وطلبتهم علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) لعل في بداية الجواب سقط فيه استدلال المعترض بكلام للإمام النووريِّ حول هذه الصورة.

(٩٤٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا زاد في بيوت الخليج الأجرة وسكن بها أيام النيل[1]، وصارت المراكب تمرُّ عليه وفيها الخمر وآلات الملاهي وما يلائم ذلك، فلاث به طلبة العلم وقالوا: هذا لا يليق بأهل العلم ولا بمشايخ الطريق! ولم نرَ أحدًا من العلماء الذين أدركناهم يزيد في الأجرة علىٰ الناس في بيوت الخليج أبدًا.

والجواب: أن العالم أو الشيخ قد تكون نيته بذلك خيرًا، كأن يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ أن يتوب علىٰ كلِّ جماعة مروا عليه في الخليج، ويقصد بزيادة الأجرة الوصول إلىٰ العلم بالذين يمرُّون عليه، حتىٰ يشفع فيهم عند الله تعالىٰ حين لم يجد أحدًا يشفع فيهم، ولو أنه علم أن أحدًا يشفع فيهم عند الله تعالىٰ، ما زاد في أجرة ذلك البيت ولا سكن فيه. علىٰ أن جماعة من العلماء كرهوا السكنىٰ علىٰ الخلجان وبحر النيل مطلقًا، منهم شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله لم يسكن علىٰ الخليج أبدًا. وأما تلميذه الجلال السيوطي فسكن في الروضة علىٰ بحر النيل أواخر عمره عشر سنين، فذكروا أنه لم ينظر البحر[2] من البيت مدة إقامته فيه إلىٰ أن مات، فاحمل يا أخي العلماء علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان مجاب الدعوة في الظالمين، فكلُّ من دعا عليه أهلكه الله تعالىٰ، ثم إن الحكم تغير، فصار يدعو علىٰ الظلمة ليلًا ونهارًا فلا يُستجَاب له، فلاث الناس به وقالوا: إن فلانًا سُلِبَ الولاية، أو صار يأكل من الحرام، فبطلت إجابة دعائه.

والجواب: أن عدم دعاء الفقير علىٰ الناس هو الكمال، وكذلك عدم إجابته لو دعا علىٰ أحد، وذلك لرؤيته الخلق بعين الكمال. ومعلوم أن إجابة الدعاء في أحد إنما يكون علىٰ وجه احتقاره في عين الداعي، ورؤيته فيه أنه ظلم الناس بغير حقٍّ، والكامل ينظر إلىٰ أن أحدًا لا يظلم أحد إلا بذنب سلف، فهو يرىٰ أن المظلوم قد استحق ما فعله معه الظالم، فلا يصير له همة في هلاك الظالم.

---

(١) أي أيام فيضان النيل.

(٢) أي نهر النيل.

وقد يكون منع الولي من الإجابة إنما هو لحكمة إلهية، لا لهوان بذلك الولي ولا لعزته وشرفه، كما بلغنا أن جبَّارًا في زمن داود عليه الصلاة والسلام كان يؤذيه ويؤذي أصحابه، فكان داود يدعو عليه آناء الليل وأطراف النهار فلا يُستجَاب له، فقال يومًا: يا ربِّ كم أدعوك علىٰ هذا الظالم ولم تستجب لي مع علمك بظلمه! فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، إنما أفعل معك ذلك لأعلِّمك الحلم علىٰ العباد، فإن عبادي يأكلون رزقي ويعصون أمري وأنا أرزقهم وأحلم عليهم. فسكت داود، ثم إن ذلك الجبار زاد في الظلم والجور علىٰ أصحاب داود، فدعا عليه فلم ير إجابة، فشكا إلىٰ الله تعالىٰ ثانيًا، فأوحىٰ الله إليه: يا داود، إنما أبطيء بإجابة دعائك علىٰ من ظلمك، لأعاملك بنظير ذلك إذا ظلمتَ أنت أحدًا ودعا عليك. فسكت داود، ثم إن ذلك الجبار زاد في الظلم، فدعا عليه داود، فلم ير أثر الإجابة، فشكا إلىٰ الله تعالىٰ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، إني قدَّرتُ علىٰ هذا الجبَّار في سابق علمي أنه يقع علىٰ يديه أمور تخالف شريعتي في سنين عديدة، لا يقع كلُّ أمر إلا في الوقت الذي سبق به علمي، أفتريد أن أغير ما سبق به علمي لأجلك؟ فسكت داود، وعلم أن لله تعالىٰ حِكَمًا وأسرارًا تدق عن علم الخلق، والجاهلون عنها بمعزل.

وفي كلام سيدي أحمد ابن الرفاعي: لا يكمل الرجل عندنا في مقام العرفان حتىٰ يصير يوجِّه لكل ما وقع في الكون وجوهًا عديدة، ويرىٰ كل شيء وقع هو عين الحكمة والكمال، فلا يطلب تعجيل ما أُخِرَ ولا تأخير ما قُدِّم. وكان يقول: كلُّ وليٍّ قُضيَت له حاجة في هذه الدار، نقص تمكنه درجة. ولكن يحتاج صاحب هذا المشهد إلىٰ عينين: عين ينظر بها إلىٰ الحكمة الإلهية، وعين ينظر بها إلىٰ كسب العبد وفعله لما لم يأذن به الله، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٧) ومما أجبتُ به عن العلماء والأشياخ إذا خرجوا في الاستسقاء عند توقف النيل عن الزيادة، أو عدم نزول المطر، فدعوا وبالغوا في الدعاء، فلم يُستجَب لهم، فلاث بهم العوام وقالوا: ما بقي أحد من العلماء والمشايخ يُستجَاب له دعاء.

والجواب: أنه لا يلزم من عدم إجابة دعاء العلماء والأشياخ هوانهم عند الحقِّ جلَّ

وعلا، وإنما ذلك لحكمة بالغة، كأن يعلمهم الحقُّ تعالىٰ بأنه لا يدخل تحت حكم أحد من عبيده، أو يكون في الناس الذين حضروا قاطع رحم أو مُصِرٌّ علىٰ معصية، أو قاتل نفس، أو نمام. وقد خرج السيد موسىٰ ببني إسرائيل مرةً للاستسقاء عشرين يومًا، فلم يسقوا، أفترىٰ ذلك كان لهوان موسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ ربه؟! لا والله! ثم إن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ: «قل: لبني إسرائيل لو دعوتموني حتىٰ صار أحدكم كالسوط لا أجيب لكم دعاء حتىٰ تردوا المظالم إلىٰ أهلها» ففعلوا فسقاهم الله تعالىٰ.

وقد يكون الحقُّ تعالىٰ إنما منع إجابة دعاء العلماء والصالحين الذين خرجوا للاستسقاء لكون كلٍّ واحد منهم يظنُّ بنفسه الخير، وأن النيل لم يتوقف من جهة ذنوبه، وذلك يؤدي إلىٰ العجب والكبر والزهو، فلا يستحق أحد منهم إجابة دعائه، فينبغي للعارفين أن ينبهوا العلماء والفقراء علىٰ أن كلَّ واحد منهم يرىٰ أن توقف النيل إنما هو لأجل ذنوبه هو لا غير، فإذا رأىٰ كلُّ واحد في نفسه ذلك، أجابهم الله تعالىٰ، لما عندهم حينئذٍ من الذلِّ والانكسار.

وكذلك ينبغي للخطيب أن يأمر الذين يخرجون للاستسقاء أن يخرجوا ما عندهم من الطعام والثياب والدراهم للمحتاجين إليها، ثم بعد ذلك يخرجون، فإن دعاء العطشان[1] الغني خِدَاج[2] لا يُجاب لعدم ضرورته، كمن عنده في داره من القمح ما يجيء ألف رغيف ذلك اليوم وهو يقول: يالله رغيف، فليس هو كمن هو جيعان وليس عنده رغيف يأكله أو عياله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقد دُعِيَ مالك بن دينار إلىٰ الخروج للاستسقاء، فامتنع من ذلك وقال: أخاف أن تمطر السماء علىٰ الناس حجارةً بخروجي معهم. فخرج الناس فسقوا وقالوا: قد سقانا الله تعالىٰ ولم يحوجنا لدعاء مالك. فسمع أهل البصرة هاتفًا يقول بين السماء والأرض تلك الليلة بصوت سمعه الناس الذين خرجوا كلُّهم: إن الله تعالىٰ قد أسقاكم لأجل احتقار مالك بن دينار نفسه. انتهىٰ.

---

(١) بالأصلين: الشيطان. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الخِداجُ: النقصان.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ينبغي للعلماء وأشياخ الطريق أن يلبسوا ثياب غلمانهم، ويخرجوا حفاة حاسرين عن رؤوسهم، مع إطراق وخجل من الله تعالىٰ، ويتذكر أحدهم ذنوبه التي عملها طول عمره، ويستغفر الله منها، ولا يتهاون في ذلك لأجل تقادم زمانها، فقد يكون الحقُّ تعالىٰ لم يغفرها. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٨) ومما أجبتُ به عن سيدي محمد البكريِّ لما خطب في جامع عمرو[١] للاستسقاء، لما توقف النيل عن الزيادة في سنة أربع وستين وتسعمئة، ولم يتعرض لكف الباشاه والولاة الحاضرين عن ظلم الرعية، ولاث به المتفقهون وقالوا: كان الواجب عليه أن يذكر في الخطبة بعض أحاديث في الظلم، لينبه نائب مصر والقاضي والدفتردار علىٰ ما فيه الرعية من الظلم والغلاء، فأجبتُ عنه بأنه ما ترك ذلك إلا خوفًا أن يفتح باب الصياح من الرعية علىٰ الباشاه والقاضي، وربما كبَّروا عليهما، فحصل بذلك فتنة عظيمة، فكان ترك الحط عليهما من حسن سياسته ﷺ.

ثم إنه بلغني من طريق صحيحة أنه كتب الأحاديث الواردة في الظلم والجور، وأرسلها للباشاه، فحصل بذلك المقصود من غير فتنة ولا هجو للولاة بحضرة رعاع الناس، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق العلماء، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٩) ومما أجبتُ به عن المجاورين الذين مات شيخهم أو ولده فلم يُظهِر أحد منهم الحزن عليه، فلاث بهم الناس وقالوا: ما بقي في أحد اليوم خير! كيف يموت شيخهم الذي رباهم أو ولده العزيز ولم يحزن أحد منهم عليه، ولا اهتم بحفر قبره، ولا تحصيل كفنه، ولا غسله، ولا ذكر علىٰ قبره، ولا مشىٰ في جنازته، ولا عمل له وَحشَة؟! ونحو ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء المجاورين بعدم إظهار حزنهم، فقد يكون حزنهم بقلبهم، لما هم عليه من التمكين، إذ الحزن علىٰ من مات ليس بمشكور من

(١) جامع سيدنا عمرو بن العاص، أقدم مساجد مصر، بني في مدينة الفسطاط، وهي أول المدن المستحدثة بعد الفتح سنة ٢١ هـ.

أصله، وإنما ذلك رخصة للضعفاء الذين يجدون بالبكاء والحزن تفريجًا عنهم. وأما الأقوياء فلا، فإن البكاء لا يرد فائتًا، مع ما فيه من تضييع الوقت.

وأما تجهيز الميت فهو فرض كفاية، وقد قام به جماعة المحبِّين من غير المجاورين، فسقط الحرج بهم، لاسيما وغالب المجاورين كالبهاليل أو المجاذيب، ولا يملكون شيئًا من الدنيا، بل هم من جملة عيال الشيخ، فلا يُطالَبون بثمن كفن ولا مؤنة تجهيز.

وكان هذا جوابي عن مجاوري[1] بعض زوايا الأشياخ بحارتنا لما مات ولد الشيخ الكبير، فلم يرَ الناس عند غالبهم حزنًا، فلاثوا بهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٠) ومما أجبتُ به عن الجيران الذين يسمعون في بيت جارهم ضرب آلات اللهو مع الغناء، ويضجون بأعلىٰ صوتهم: أحيه! زيدونا من ذلك! فلاث بهم بعض الحنفية وقالوا: قولكم «أحيه» علىٰ المحرمات كفر، بأن الجيران ربما كانوا جاهلين بتحريم مثل ذلك، فلا ينبغي الإنكار عليهم إلا بعد العلم بأنهم يعرفون تحريم ذلك.

وأما من سمع من الجيران ذلك ولم ينكره، فينبغي حمله علىٰ عذر يبيح ترك الإنكار، كما إذا كان الجار قريب عهد بتُهمَة وأدخلوه بيت الوالي، وصار يستحيي أن يتكلم مع الناس، فخاف إن أنكر عليهم أن يتكلموا في عرضه بالباع والذراع. وربما لم يكن من أرباب التهم، ولكن عرف من الذين يضربون آلات اللهو أنهم ذوالق يرمونه بالبهتان، ويتكلمون في عِرْضه بأمور لا يقدر غالب الناس علىٰ سماعها في حقِّه، لاسيما إن كان السامع من الجيران قاضيًا أو خطيبًا أو مدرسًا أو شيخًا في الطريق، فإنه يحصل من ذلك مفاسد أشد من ضرب العود وسماع الغناء، أقل ما هنالك شماتة الأعداء في ذلك العالم أو الخطيب بتجريحه عندهم بالباطل. وربما كان ذلك الجار الذي سكت عن الإنكار من رجال الله الذين يتحملون البلايا والمحن عن الناس بتوجههم إلىٰ الله تعالىٰ، فيصير ينكر عليهم بقلبه لأجل الشريعة، ويدعو لهم بالهداية بلسانه، ويسأل الله أن لا يُطْلِع

---

(١) بالأصلين: مجاورين. والصواب ما أثبتناه.

عليهم أحدًا من جماعة الوالي ولا غيرهم، فاعذر يا أخي جيران الضاربين للعود بما تعذر به نفسك، فإنك لولا سمعتَ ضرب العود كما سمعوا ما كنتَ عرفتَ أنهم سكتوا عن الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينظر أولاده علىٰ تعاطي ما لا يليق بشيخ، ولا ينهاهم عن ذلك، فلاث به الناس وقالوا: إذا كان هذا الشيخ لا يقدر علىٰ هداية ولده، فكيف يهدي غيره؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه بسبب ذلك، فربما كان سكوته ذلك الوقت إنما هو لعلمه بأن كلامه لا يؤثر فيهم، فخاف أن يشتغل بذلك عن ذكر الله عزَّ وجلَّ ومراقبته، فقدَّم نفسه علىٰ هداية أولاده، وهو أحد المذهبَين، فإن الجمهور علىٰ أن الأمر بالمعروف واجب مطلقًا ولو لم يؤثر ما لم يخف ضررًا يحصل له يعجز عن احتماله. وفي القرآن العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] فربما فهم هذا الشيخ من هذه الآية أنه إذا اشتغل بماله والإنكار علىٰ ولده، وألهاه ذلك عن ذكر الله، لا يطالب بنصح ولده، وأن ذلك خاص بمن لم يشغله نصح ولده عن الله تعالىٰ، فيحتاج من يبيِّن له وجه الحق في المسألة، ثم ينكر عليه بعد ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدخل داره فقير وعنده جماعة من الضيوف، فيقول: أخرجوه وأغلقوا عليه الباب لئلا يأكل طعام الضيف ويهتكنا؛ فلاث به الفقراء وقالوا: لا يخلو إما أن يكون قد كُشِفَ للشيخ أن لذلك الداخل رزق في ذلك الطعام أم لا، فإن كان كُشِفَ له عن كونه له رزق فيه، فلا فائدة لغلق الباب عليه، وكذلك إن لم يقسم له، ويستفيد الشيخ بالعزومة عليه بياض الوجه وعدم كسر الخاطر.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ بذلك، لأنه قد مشىٰ علىٰ ظاهر الشرع، فما لم تطب نفسه علىٰ دخوله وأكله من الطعام، لا ينبغي له تمكينه من الدخول،

بل يمنعه تعليمًا للأدب، ومنعًا له عن أكل ما [لا][1] ينبغي له أكله.

وقد كان عمر بن عبد العزيز لا يأكل طعامه منفردًا، بل يطلب من يأكل معه كلما أكل، فقال يومًا لنافع: انظر لنا من يأكل معنا. فخرج وأتاه بشخص، فأكل الطعام كله بلقمتين، فقال: يا نافع لا تعد تأتنا بمثل هذا. فقال: يا سيدي، لم أكن أعرف حاله. فقال: لتكن عندك فراسة تعرف بها من يأكل كثيرًا، ومن يأكل مثل العادة برؤية أنفه، فإن كلَّ ما في ضمير الإنسان يظهر في أنفه عند أهل الفراسة، فعُلِمَ أن استعمال الأسباب أكمل من تركه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لو كان أهل مصر مثلًا كلهم عيالي وصار كل حبة بدينار، ما حملتُ لهم همًّا. ثم إن قمحه الذي في الدار فرغ، فظهر الهم والكرب علىٰ وجهه، فلاث به الناس الذين كانوا يسمعون قوله في عدم حمل الهم وقالوا: لو كان هذا صادقًا ما تغيرت منه شعرة حين فرغ قمحه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث به، فقد يكون مراده أنه لا يحمل همًّا من جهة قسمة أرزاقهم، فهو يعلم أن الله تعالىٰ لابد أن يوصل إليهم أرزاقهم في الوقت الذي عيَّنه لهم في سابق علمه، لا أنه لا يحمل من جهة طلبهم رزقهم منه، فإن ذلك لا ينفك صاحبه عن الهم حين يتوجهون إليه ويطلبون منه أن يسوق إليهم أرزاقهم قبل وقتها الذي عيَّنه الحقُّ تعالىٰ لهم، فإن مثال ذلك مثال مفلس أُحيلَ علىٰ مفلس، فاعلم [ذلك][2] يا أخي، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل اللائقة بهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتردد إليه أمير، فقال الأمير له يومًا: مرادي أزور فلانًا اليوم. فقال له: لا تزره، ولكن أنا أرسله لك تجتمع به. فقال له الأمير: ناموس الفقراء أكبر من ناموسي، ورواحي له أولىٰ! فقال الشيخ: ذهابك إليه أكبر إثمًا من ذهابه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

إليك. فسمع بذلك الفقراء، فلاثوا بهذا الشيخ وقالوا له: كان إرسالك الأمير إلىٰ أخيك أفضل في حق أخيك، وأكثر تواضعًا من ذلك الأمير، ولكن ما كل أحد يطلب الرئاسة إلا لنفسه دون أخيه، ولأي شيء لا ينه الأمير عن المجيء إليه هو؟

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي منع الأمير من زيارة أخيه، وقال: «أنا أرسل لك أخي» لاحتمال أن يكون الباعث له علىٰ ذلك الخوف علىٰ أخيه من الميل لذلك الأمير بالمحبة إذا جاء الأمير إليه، والأمان عليه إذا ذهب هو للأمير، وكأن لسان حاله يقول: يكفي واحد يُحشَر إلىٰ النار مع الظالمين بركونه إليهم، يعني نفسه، فلا ينبغي لي أن أكون سببًا في تعريض غيري لدخول النار. ولو أنه كان علم من أخيه قوة التمكين وعدم الركون بالمحبة إلىٰ ذلك الظالم لو زاره، ما كان منع الأمير من زيارته.

فإن قال قائل: فلأي شيء لم يمنع هذا الشيخ الأمير من المجيء إليه خوفًا علىٰ نفسه هو من الركون إليه كما خاف علىٰ أخيه؟ فإن ذلك يؤذن بتزكية نفسه وازدراء أخيه؛ **فالجواب**: يُحتمَل أنه علم من نفسه التمكين والتحرز من الميل إلىٰ الأمير مع تردده إليه، ولولا ذلك لمنعه. وأما أخوه فأخذ له بالاحتياط، مع اعتقاده فيه التمكين أيضًا، وطلب أن يكون أخوه هو الذي يمنع الأمير من زيارته لا غيره، خوفًا أن يظن الأمير أو غيره أن ذلك ليس هو احتياطًا لأخيه، وإنما ذلك حسد، فاعلم ذلك، واحمل إخوانك علىٰ المحامل الحسنة حتىٰ المعترِض عليهم كما فعلتُ أنا في هذا الجواب، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سافر إلىٰ بلاد الروم من مصر في طلب جوالي[١] ومرتب من بيت مال المسلمين، فاجتمع بالسلطان أو الوزير، فعظَّمه وبجلَّه وأعطاه ما سأل بالحال أو بالقال، فقال له السلطان أو الوزير: انظر هل في مصر أحد من أقرانك محتاج نرتب له شيئًا، أو نعطيه حصةً من هذه الألف التي خرجتُ عنها للفقراء مثلًا؟ فقال: لا أعلم أحدًا من أقراني محتاجًا إلىٰ شيء من ذلك. فعلم بذلك أقرانه وجماعتهم،

---

(١) الجوالي: جمع جالية، وهو المال (الجزية) الذي كان يُؤخذ من أهل الذمة. وهي من أحل الأموال، ولذلك جُعلت للعلماء والصالحين.

فلاثوا به وقالوا: عهدنا بصنَّاع الولائم أنهم يعلمون بعضهم بعضًا إذا علموا بوليمة في حارة، ويشفعون لبعضهم، ليعطيهم من الطعام كما أعطاه، وكان الأولىٰ بهذا الشيخ أن يعلم السلطان أو الوزير بالمحتاجين من إخوانه، ليرتب لهم مرتبًا كذلك، لاسيما والسلطان أو الوزير هو السائل له في ذلك، ولكن قد ذهبت المروءة في فقراء هذا الزمان!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان عدم ذكر اسم غيره من إخوانه للباشاه أو الوزير، أو عدم مساعدته في تحصيل جوالي أو مرتب إنما هو للخوف عليه من الفتنة عليه في دينه، ومنعه من أكل الشبهات. ولا يجوز حمله علىٰ أنه ترك تعريف السلطان والوزير بحالهم بغضًا فيهم وعداوة لهم، فإن ذلك بعيد من الأشياخ أن يقعوا فيه. وقد فعلتُ أنا ذلك مرارًا مع بعض الإخوان لما صحبتُ محمد بن بغداد وعيسىٰ شيخ البحيرة، ولكن لم يبلغ ذلك الإخوان، فالحمد لله رب العالمين.

(٩٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يستر علىٰ زلات المريدين أو زلات أولاده، ويجيب عنهم دائمًا، فلاث به بعض الناس وقالوا: قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[الكهف: ٢٩]**، وقال تعالىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[النساء: ١٣٥]**، فكان الأولىٰ بفلان أن يوبِّخ تلامذته وأولاده بين الناس ويَشهَد عليهم.**

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه ما أجاب عنهم إلا لعدم ثبوت ذلك عن أولاده ومريديه، ولو أنه رأىٰ منهم سوءًا أو دعاه الحاكم إلىٰ الشهادة، لشهد عليهم، فكان جوابه عنهم أولىٰ لما فيه من الستر علىٰ المسلمين، واستمالة خواطرهم، وعدم شماتة الأعداء، فإن من نصح أخاه جهرًا، فقد فضحه وشانه. وربما كان يوبِّخهم سرًّا فيما بينه وبينهم، ويؤثر ذلك فيهم أكثر من الجهر. وكان هذا من خلق سيدي عليٍّ الخواص، فكان يجيب عن أصحابه بحضرة الناس ويوبِّخهم فيما بينه وبينهم، وذلك معدود من حسن السياسة، فالعاقل في هذا الزمان من تبعه علىٰ مثال ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: القطب والأوتاد نوَّاب عن هؤلاء الأربعة، وهم إدريس وعيسىٰ وإلياس والخضر، وليسوا مستقلين بالمقام؛ فلاث به أشياخ العصر كلُّهم وقالوا: هذا أمر ما سمعناه من أحد من أشياخنا، وما نعرف القطب والأوتاد إلا أصحاب مراتب مستقلين لا نوَّابًا.

والجواب: أن الحق مع هذا الشيخ، فقد صرَّح بذلك الشيخ محيي الدين، وابن أبي المنصور وغيرهما، وقالوا: إنه من علوم الأسرار، وأكثر الناس لا يعرفون القطب والأوتاد إلا أصحاب مراتب مستقلين، ولذلك يتطاول كلُّ واحد إلىٰ نيل هذه المراتب، فإذا منَّ الله تعالىٰ عليه بها، عرف حينئذٍ أنه نائب من نوَّاب الأربعة السابقين لا مستقل، فإن لكلِّ نبي وليًّا نائبًا عنه[1].

فإن قلت: فقد صرح القوم بأن الأقطاب كثير، فكل من دار عليه مقام في بلده أو إقليمه فهو قطبه، وأنتم جعلتم القطب واحدًا؛ **فالجواب**: مرادنا بالواحد هو القطب الغوث الفرد الجامع، وهذا هو المشهور بين الناس. وأما كلام القوم فلا ينافي ما ذكرناه، لأن ذلك من باب التوسع، كما يُسمَّي القاضي النائب قاضيًا، ويجعلونه في الاسم كقاضي العسكر علىٰ حدٍّ سواء في اسم القاضي.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: كل من دار عليه مقام ما من المقامات وانفرد به في زمانه عن أبناء جنسه، فهو قطب في ذلك البلد أو الإقليم، كما أن شيخ الجماعة قطب تلك الجماعة، فللورع قطب، وللزهد قطب، ولتحمل البلايا قطب، وللعلم قطب، وللعمل قطب وهكذا، والقطب الغوث جامع لحقائقهم كلهم. انتهىٰ.

[محاورة بين المؤلِّف وشيخه الخوَّاص حول القطب الغوث]

وقد ذكر الشيخ عبد القادر الجيلي أن للقطابة ستة عشر عَالَـمًا إحاطيًّا، الدنيا والآخرة عالم من هذه العوالم، فقلتُ لسيدي عليٍّ الخواص: قد ذكر سيدي أحمد ابن

---

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٧٣).

الرفاعي أن الرجل لا يكمل حتىٰ يعرف سبعين ألف أمة بأسمائهم وأنسابهم، ولا شك أن القطب أكمل أصحاب الدوائر.

فقال: لا تنافي بين الشيخ عبد القادر والشيخ أحمد، لأن كلام الشيخ عبد القادر في أمهات العوالم، وكلام الشيخ أحمد في فروعها.

فقلتُ له: قد قالوا إن مقام القطابة لا يحيط به صاحبه فضلًا عن غيره، فكيف أحاط الشيخ عبد القادر بعوالمه؟

فقال: ليس معرفته بالعوالم المذكورة إحاطة به، لأن رعاية القطب لهذه العوالم من بعض وظائف المقام، إذ مقام القطب مقابل لعالم الأمر[1] علىٰ حد سواء، فإنه الخليفة الأعظم في العالم.

فقلتُ له: فهل كان أولياء السلسلة أقطابًا، كسيدي يوسف العجمي وسيدي أحمد الزاهد وأضرابهما؟

فقال: ليس مثل هؤلاء أقطاب، إنما هم كالحجَّاب علىٰ الملك الذين يعلِّمون كل من دخل حضرة الملك الآداب المتعلِّقة بالله تعالىٰ. وأما ما ظهر علىٰ يديهم من الكرامات فإنما هو لشدة صفاء نفوسهم، وكثرة إخلاصهم لله تعالىٰ، ومراقبتهم له تعالىٰ، ومجاهداتهم فيه[2]، وأما القطبية فجل أن يلمح مقامها الأحوط غيرُ من اتصف بها.

وسمعتُه مرارًا يقول: العلماء العالمون[3] بوَّابو حضرة الأسماء والصفات، والأولياء المكملون بوَّابو حضرة الذات. انتهىٰ.

---

(١) عالم الأمر أو عالم الملكوت أو عالم الغيب: عالم الأرواح والروحانيات؛ لأنها وجدت من الحق بلا توسط مادة أو مدة. ويقابلها عالم الخلق أو عالم الملك أو عالم الشهادة: وهو ما يوجد بعد الأمر بمادة ومدة. معجم القاشاني (ص١٢٤).

(٢) بالأصلين: له. والصواب ما أثبتناه.

(٣) بالأصلين: الحاضرون.

[محل إقامة القطب]

فقلتُ له: فهل محل إقامة القطب دائمًا بمكة كما يُقال؟ فقال: لا، هو بجمسه حيث شاء الله لا يتقيد بمكان يمكث فيه، فتارة يكون نوَّالًا[١]، وتارة يكون أمشاطيًا[٢]، وتارة يكون حدادًا، وتارة غير ذلك، ولكن قالوا: إن مكة نظير جسده، والكعبة نظير روحه.

[اجتماع المؤلِّف بقطب عصره مع أخيه أفضل الدين، ومحاورة حول القطب]

قلت: وقد جمعني الأخ أفضل الدين بقطب الزمان بمصر بسوق الأمشاطيين وهو يبيع الفول الحار والله أعلم.

فقلتُ له: هل يقيم القطب في مقام القطبية إذا وليها حتىٰ يموت أم يصح عزله بغيره كالولاية الظاهرة؟

فقال: لا ينعزل إلا بالموت، لأنه عَدْل بإجماع، فلا ينعزل إلا بموته، نظير الخلفاء الأربعة ﷺ.

فقلتُ له: قد قال بعضهم: إن مقام القطبية ثقيل لا يقيم أكثر الناس فيه إلا يومًا أو يومين أو ثلاثة أو جمعة.

فقال: هذا ينتقض علىٰ هذا البعض بولاية الخلفاء الأربعة، لكن ربما تولىٰ شخص القطابة أواخر عمره، فمات علىٰ أثر توليته، فظن بعضهم أنه ما مات إلا من ثقل المرتبة، والحال أنه انتهىٰ أجله حين مات.

فقلت له: فهل للقطب خصيصة في علم من العلوم لا يشاركه فيه أحد كما قيل؟

فقال: نعم، ومن ذلك العلم معرفته بمعاني الحروف المقطعة أوائل السور، فلا يمكن للقطب أن يلي القطبية إلا بعد أن يعرف معاني هذه الحروف، فإذا أطلعه الله تعالىٰ علىٰ حقائقها ومعانيها، سبقت إليه الخلافة وكان أهلًا لها، صرَّح بذلك الشيخ محيي الدين

---

(١) أي الذي يعمل علىٰ النَّول، وهي مكنة لغزل الخيوط لها عجلة تُدار باليد أو القدم ومغزل واحد.

(٢) لعلها نسبة إلىٰ صنع الأمشاط.

في الباب الخامس وخمسين ومئة من «الفتوحات». انتهىٰ.

[مما اختُص به القطب عن سائر الأولياء]

ومما اختُص به القطب أيضًا عن سائر الأولياء خلوته بالحقِّ جلَّ وعلا وانفراده[1] به، ثم إذا مات القطب انفرد الحقُّ تعالىٰ بشخص آخر، فلا ينفرد قط لشخصين في زمان واحد. وهذه الخلوة من علوم الأسرار. وأما ما ورد من خلوة الحق تعالىٰ بعبده في الآخرة، فلا ينافي ما ذكرناه، لأن ذلك من باب انفراد العبد بالحقِّ تعالىٰ لا من باب انفراد الحق بالعبد، فافهم واكتم.

[القطبية في الأمم السالفة]

فإن قلت: فهل القطبية خاصة بهذه الأمة المحمدية أم كانت الأقطاب في الأمم السالفة أيضًا؟ **فالجواب:** أن الأقطاب كانوا في الأمم السالفة، لكن إذا نظرتَ إلىٰ كون الأنبياء السابقين نوَّابًا لمحمد ﷺ مدة غيبة جسمه، رجع الأمر إلىٰ هذه الأمة، **فإن الأمم السابقة واللاحقة كلُّهم من أمة محمد ﷺ علىٰ حدٍّ سواء.**

فإن قلت: فكم تولىٰ قطب في الكون قبل ظهور محمد ﷺ؟ **فالجواب:** قد ذكر الشيخ في الباب الرابع عشر من «الفتوحات» أن عدد الأقطاب الذين تولوا مقام القطبية من عهد آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ ظهور محمد ﷺ خمسة وعشرون قطبًا، أشهدنيهم[2] الحق جلَّ وعلا في مشهد أقدس بمدينة قرطبة، وهم: المفرق، ومداوي الكلوم، والبكَّاء، والمرتفع، والشفاء، والماحق، والعاقب، والمنحور، وشجر الماء، وعنصر الحياة، والشريد، والراجع، والصانع، والطيار، والسالم[3]، والخليفة، والمقسوم، والحي، والرامي، والواسع، والبحر، والملصق، والهادي، والمصلح[4]، والباقي،

---

(١) أي انفراد الحق بالعبد، كما سيأتي.

(٢) الكلام هنا للشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي.

(٣) بالأصلين: الصابغ. والمثبت من «الفتوحات».

(٤) بالأصلين: الأصلح. والمثبت من «الفتوحات».

فهؤلاء الأقطاب الذين سُمُّوا لنا من آدم إلىٰ محمد عليهما الصلاة والسلام.

وأما القطب الواحد لجميع الأنبياء والرسل والأقطاب من حيث النشأ الإنساني إلىٰ يوم القيامة، فهو روح محمد ﷺ. انتهىٰ.

قلتُ: ولعل هذا مراد من قال: «القطب لا يموت أبدًا» والله تعالىٰ أعلم، وتقدم نبذة صالحة في أحوال القطب في الباب السادس فراجعه[١]، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يدرس في بلد خارج مصر[٢] كإسكندرية أو المحلة الكبرىٰ أو دمياط، أو كان شيخًا في زاوية كذلك، ثم ورد مصر ولم يعرف مقامه أحد، فصار يقول لكل عالم أو شيخ اجتمع عليه: ادع لي يعينني الله تعالىٰ علىٰ الفتوىٰ أو التدريس، أو علىٰ القيام بكلفة المجاورين؛ فلاث به أهل مصر وقالوا: إنما يذكر ما يذكر رياءً وسمعةً، معناه: اعرفوا مقامي.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، فقد يكون غافلًا عما يظنُّه الناس به، وإنما يذكر ذلك بصدق نية، مثل من يكون في كرب ويسأل إخوانه الدعاء له بالفرج، فلا يجوز[٣] حمل هذا العالم ولا شيخ الزاوية علىٰ المحامل السيئة، لأن النية لا اطلاع لأمثالنا عليها، والأصل في العلماء والأشياخ الإخلاص في جميع أقوالهم وأفعالهم، والرياء أمر عارض يعرض للمبتدئين في الطريق دون المتوسطين فيها والمنتهين، فإن التوحيد الذي ذاقوه يمنعهم من أن يروا لهم شركة مع الله تعالىٰ في الفعل، وإذا لم يشهد العبد له عملًا، ذهب الرياء جملةً، لعدم ما يجده من العمل عنده حتىٰ يرائي به، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يتوقف في عطائه علىٰ من يستحق، بل يعطي

---

(١) ذكر أحوال القطب في الباب الرابع، وليس في الباب السادس. انظر الجواب (٧٩١). وكذلك انظر (٧٧٢).

(٢) يطلق المصريون علىٰ القاهرة اسم «مصر».

(٣) بالأصلين: يكون. والصواب ما أثبتناه.

من يستحق ومن لا يستحق، فلاث به أصحابه وقالوا: ينبغي للإنسان أن يتخير لصدقته وهبته وهديته، فلا يعطيها إلا للمحل الذي يكون فيه أرجح في ميزانه يوم القيامة، بحسب ما تقتضيه قواعد الشريعة.

والجواب: أن هذا الشيخ قد مشىٰ علىٰ مدرجة الأخلاق الإلهية، فإن الله تعالىٰ يعطي من يستحق ومن لا يستحق شرعًا، وفي الحقيقة ما أعطىٰ أحدًا إلا ما يستحقه بحسب القسمة الأزلية.

وكان الشيخ عبد الحليم بن مصلح ﵀ يعطي العطية لمن يشرب المُسكِر، ومن يتعاون في الناس عند الولاة، ويقول: دليلي في ذلك حديث البخاري وقوله فيه: «تصدق الليلة علىٰ زانية، تصدق الليلة علىٰ سارق، تصدق الليلة علىٰ غني، فأما الزانية فلعلها تَسْتَعِف بذلك عن الزنا، وأما السارق فلعله يتوب ويعتبر، وأما الغني فلعله يتصدق ويتنبه لبخله»[1] الحديث بالمعنىٰ لعدم استحضاري له هذا الوقت.

وسمعتُ الشيخ عبد الحليم المذكور يقول: من أعطىٰ من يستحق ومن لم يستحق، أعطاه الله ما يستحق وما لا يستحق؛ ومن أعطىٰ من يستحق فقط، أعطاه الله ما يستحق فقط. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٠) ومما أجبتُ به عن الجماعة الذي يكونون في حارة بزاوية فقير، وفيها مجلس ذكر يجتمع فيه خلائق لا يحصون، وينزل فيه مدد عظيم، وهم لا يحضرون ذلك المجلس،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (١٤٢١) من حديث أبي هريرة ﵁: «أن رسول الله ﷺ قال: قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارقٍ، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق علىٰ سارق. فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقنَّ بصدقةٍ، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانيةٍ، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة علىٰ زانيةٍ. فقال: اللهم لك الحمد، علىٰ زانيةٍ، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي غنيٍ، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق علىٰ غنيٍ. فقال: اللهم لك الحمد، علىٰ سارقٍ، وعلىٰ زانيةٍ، وعلىٰ غنيٍ، فأُتِيَ فقيل له: أما صدقتك علىٰ سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله» ومسلم (١٠٢٢).

فلاث بهم الفقراء الذين يذكرون في ذلك المجلس وقالوا: ما هذا إلا حرمان عظيم! يكون بجوار هؤلاء المجلس ولا يلين قلب هؤلاء للجلوس فيه يومًا واحدًا!

والجواب: أنه ربما يكون المانع لهم من الحضور عدم القسمة، وأحدُهم يود أنه لا يفوته حضور ذلك المجلس يومًا واحدًا، وربما كان لأحدهم وردٌ في بيته أعظم من ذلك الورد الذي في الزاوية يفعله بحيثُ لا يراه أحد، ولا يلحقه به شيء من الآفات التي تطرق الذي يحضر مجالس الخيز في الملأ، فربما رأىٰ أحد الحاضرين نفسه بالمواظبة علىٰ مجالس الخير، فأعجب بنفسه فهلك. فالزم يا أخي الأدب مع كلٍّ من لم يحضر مجلسك، وإياك أن ترىٰ نفسك عليه، فتطرد من حضرة الله تعالىٰ كما طُرِدَ إبليس. وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ ينبغي للعاقل أن يكون له شيء خفي من الأعمال لا يطلع عليه إلا الله تعالىٰ، فإن كلَّ عمل ظهر للناس، دخلته الآفات، وكان قليل الجدوىٰ في الآخرة. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦١) ومما أجبتُ به عن الوليِّ الذي يمدُّ علماء إقليمه وغيرهم بالعلوم اللَّدُنية والقواعد السنية، قيامًا بإحياء الشريعة المطهرة، ولا يكاد يراه أحد في تدريس علم ولا مطالعته، فلاث به الفقراء وقالوا له: إظهار العلم ومباشرة تدريسه أفضل من كتمه عن السائلين وإمدادهم به باطنًا، كما درج عليه الأئمة من السلف والخلف.

والجواب: أنه قد يكون هذا الولي ممن بلغ في الخوف علىٰ نفسه غايته، فصار لا يأمن نفسه في إظهار شيء من عباداته ومعاملاته، كما عليه أكابر الطريق من المَلامتية. وقد كان الإمام الشافعي ﷺ يقول: أود أن لو عمل الناس بعلمي الذي ألقيه عليهم، ولا يُنسَب إليَّ منه حرف. فإن كان مثل الإمام الشافعي يخاف من نسبة العلم إليه، فكيف بغيره من أمثالنا؟! وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: الكامل من عمل أعمال الثقلين، ثم خرج من الدنيا لم ينقص من أجر أعماله ذرة.

ويُسمَّىٰ هذا الشيخ الذي يمد العلماء في كلِّ زمان «قطب العلم» كما أن الشيخ الذي

يمد أهل الورع أو الزهد أو الخشية أو التوكل أو اليقين قطب ذلك الأمر. وهذا من جملة علوم الأسرار لا يكاد غالب الفقراء يتفطن له، بل يظن أن مدده من الله في ذلك المقام بلا واسطة، فرضي الله تعالىٰ عن أوليائه المكمِّلين.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص يمدُّ جميع علماء مصر في سائر العلوم المتعلقة بالشريعة، ويقول: نحن من خدَّام الشريعة، فلا نحب أن نرىٰ علم أهلها ينقص، وفاءً بحق صاحبها ﷺ حيث أمننا عليها من بعده.

[إمداد سيدي الخوَّاص للمؤلِّف بعلم النحو والأصول]

ومدني مرةً بالنحو، ومرةً بالأصول، فصرتُ أقرر فيه تقريرًا لم أُسبَق إليه، ففتشتُ نفسي، فوجدته منفصلًا من سيدي عليٍّ الخواص، فشكرتُه علىٰ ذلك، فقال: عرفتَ فاكتم! وإياك أن تفشي ذلك عني في حياتي. ومثل هذا يكون [أعلم أهل عصره ولا يشعر به أحد، وربما فضَّل الناس بعض طلبة العلم عليه، والحال أن][1] علم [جميع][2] أهل عصره مكتسب من نور علمه، كما يكتسب القمر نوره من الشمس. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ تفضيل بعض العلماء علىٰ بعض فقراء زمانك الخاملين الذكر، فتخطيء طريق الصواب.

وقد وقع لي أنني تكرمتُ في الشتاء بثيابي علىٰ الفقراء والمساكين، ففضلني الناس علىٰ قطب الكرم في ذلك العصر، فملتُ إلىٰ ذلك من حيثُ شكرُ النعمة، فلقيني صاحب الوقت وقال لي: اشكر من مدَّك بالكرم! فنظرتُ فإذا رقيقة الكرم ممتدة منه إليَّ! فقبلتُ رجله، فقال لي: وهكذا القول في كلِّ مقام لا تدعه حتىٰ تفتش نفسك، فربما يكون ذلك المقام مفاضًا من غيرك، فتظنه لنفسك، فيفوتك شكر الوسائط الذي[3] أمرك الله به. فأسأل الله أن يفسح في أجله للمسلمين.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) بالأصلين: التي. والصواب ما أثبتناه.

فقد علمتَ أن العلماء لا يخلون عن ممد لهم في كلِّ علم علموه، لكن منهم من يعلم ذلك كالشيخ زكريا، والشيخ شهاب الدين الرملي، ومنهم من لم يعلم ذلك كالشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني، فإني اجتمعتُ بمن أمده في «شرح التنبيه» و«شرح المنهاج» وغيره وأخبرني بذلك، فقلت له: أعلم الشيخ الخطيب بذلك؟! فقال: ما يعلم الله كفىٰ!

[إخبار الشيخ زكريا عن المد له بالعلوم]

وأما شيخنا الشيخ زكريا، فأخبرني أن الممد له بالعلم شخص كان يغربل القمح، وينخل الدقيق بالأجرة، كان يأتيه ليلًا في جامع الأزهر، ولم يزل كذلك إلىٰ أن شرح «البهجة» و«المنهج» وغيرهما، وشاع علمه بين الخاص والعام. قال: وكان آخر عهدي به أنه أتاني فقال: احمل معي هذا السلم -يعني الطويل الخاص بالوقَّادين[١] في الجامع- فنصبه لي في وسط صحن الجامع وقال لي: اصعد؛ فصعدت، فقال: اصعد؛ فلا زلتُ كذلك إلىٰ آخر درجة، فقال: انزل؛ فنزلتُ، ثم قال لي: ستعيش إن شاء الله تعالىٰ إلىٰ أن يموت جميع أقرانك، ويُنشَر علمُك في أقطار الأرض. فودعني وانصرف، فلم اجتمع به بعد ذلك.

[إمداد سيدي محمد الرويجل[٢] للشهاب الرملي بزيادة العلم]

وأما شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملي فذكر لي أنه أصبح يومًا ضيِّق اليد من الدنيا، فأتاه شخص من أرباب الأحوال كان يُلقَّب بـ«الرويجل» في مصر، فدق عليه الباب، قال: فخرجتُ له، فلما وقع بصري عليه قال: أسأل الله أن يفتح عليك، ثم انصرف.

---

(١) الوقَّادين: هم المسؤلون عن إشعال قناديل الجامع، وكانوا يستعينون علىٰ ذلك بسلم خاص.

(٢) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ الصالح المجذوب سيدي محمد الرويجل العريان ﷺ كان من أرباب الكشف التام.

وفي الطبقات الوسطىٰ ذكر تفاصيل القصة كالآتي: أخبرني شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملي ﷺ قال: أصل ما حصل لي من الخير والفتوىٰ بمصر من دعوة الشيخ محمد الرويجل، فإنه دخل عليَّ في بيتي وقت القائلة إلىٰ أن وقف علىٰ رأسي، وقال: الله يفتح عليك. ثم خرج. مات ﷺ في سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٤٥٥) طبعة دار الإحسان.

قال: فأتاني شخص بمئة نصف؛ فقلتُ: لعل هذا بدعوة فلان، لظنِّي أن الدعوة إنما هي بأن يوسِّع الله عليَّ في الدنيا، والحال أنها إنما كانت بأن يوسِّع الله عليَّ في العلم، فأدركتُ الزيادة في العلم من ذلك الوقت إلىٰ وقتي هذا.

[إمداد مشايخ آخرين لمريديهم بالعلم]

وممن بلغنا أنه أمد تلميذه بعلمه واختفىٰ هو الإمام نافع شيخ الإمام مالك، وسيدي عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل صاحب «المختصر» وسلار الإربلي شيخ الإمام النووي رضي الله عنهم أجمعين، فاطلب يا أخي الإمداد من أقطاب المقامات في كلِّ مقام تطلبه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٢) ومما أجبتُ به عن الجماعة الذين يصحبون الأشياخ، ثم يخافون من لص أو حية أو عقرب أو سبع، ولاث بهم الفقراء وقالوا: لو صحت صحبتكم لهؤلاء الأشياخ، ما خاف أحدٌ منكم من غير الله تعالىٰ أبدًا، فإن أصحاب الشيخ في حجر تربيته كولد اللبوة في حجرها لا يستطيع أحد أن يؤذيه منها.

والجواب: أنه لا أصدق من أصحاب رسول الله ﷺ في صحبته وصحة الارتباط به، وقد وقع لهم الخوف من الخلق كالجن والغول والشيطان والكفار وغير ذلك، وما ذاك إلا لأن الحقَّ جلَّ وعلا لا تقييد عليه فيما يفعل مما سبق به قضاؤه وقدره، **فلا يلزم من صحة استناد الفقراء إلىٰ شيخ أنه يحميهم من الأقدار النافذة فيهم مطلقًا، وإنما يكون ذلك في الأمور المعلَّقة علىٰ صحة استنادهم إليه، فإذا أراد الله تعالىٰ إنفاذ أمره، قطع الوصلة بين ذلك** المريد وبين الشيخ حتىٰ يقع ذلك المقدَّر. وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول لمن جاءه يحمِّله حملته: يا ولدي، لو نزل علىٰ إبراهيم ما نزل عليك ماذا كان يصنع؟! انتهىٰ.

فعُلِمَ أن للشيخ أن يحمي مريده من الوقوع في الأقدار المعلَّقة دون المبرمة، إذ الوليُّ إذا نزل عليه شيء من الأقدار يكون أول من يستسلم لذلك، وأول من يلوي رأسه تحت طي جناحه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: في كلِّ مريد جزء لا يمكنه معه الاعتقاد في شيخ اعتمادًا علىٰ الله تعالىٰ، فيرفع حكم الوسائط كلِّها من هذا الجزء، ومن هنا تدخل عليه الآفات، كما أن فيه جزءًا يعتقد في سائر الأشياخ علىٰ الدوام، ولكنه يضعف في بعض الأوقات، فلذلك يُحفَظ العبد في أوقات، ويعطب في أوقات.

وسمعتُه يقول: يجب علىٰ العبد أن لا ينام في دار لا باب لها، ولو كان حسن التوكل، لأن فيه جزءًا لا يركن إلىٰ السوابق، ويجد عند نفسه الأمان إذا أغلق عليه بابًا أكثر مما يجده إذا لم يكن عليه باب، والكامل يعطي كلَّ جزء فيه حقَّه. انتهىٰ.

ولما وقعت المناسر[1] تضرب في بيوت مصر أيام الباشاه إسكندر سنة أربع وستين وتسعمئة، تحوَّل أكثر أصحاب الفقراء من أطراف مصر إلىٰ داخلها، فلاث بهم بعض الجهلة، فكان جوابي عنهم أنهم ما تحولوا لقلة اعتقادهم في أشياخهم، وإنما ذلك لعلمهم بسعة القدرة الإلهية، وأنه ليس للأشياخ مدافعة الأقدار المبرمة، لا عن أنفسهم ولا عن أصحابهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تصدَّر لإلقاء العلوم والأسرار في بلده، وصار الناس يأخذون عنه العلوم ولا يلتفتون إليه، ولا يرون له عليهم منة، فصار يقول: اعرفوا للناس فضلهم، ويعرِّض للناس بأن يعرفوا له فضله، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا مخلصًا في علم، ما التفت إلىٰ شكر الناس له بوجه من الوجوه، بل كان يفرح بكفران نعمته أكثر من شكرها.

والجواب: أن الأشياخ لا يجهلون ما اعترضه هذا المعترض، فإنهم قطعوا النظر إلىٰ الخلق جملةً في ابتداء توحيدهم، وإنما الواجب حملهم علىٰ إرادة الخير للناس بأن لا يكفروا نعمة أحد ممن كان واسطة لهم في خير، فالباعث له علىٰ قوله: «اعرفوا للناس فضلهم» طلبه حصول الثواب لهم، لا مجرد اعترافهم بفضله هو فقط، فإن ذلك بعيد

---

(١) المناسر: عصابات اللصوص.

وقوعه من أحد ممن باشر صريح الإيمان قلبه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقبل إحسان الناس إليه، ثم يذمهم بعد ذلك في المجالس، أو يسكت عن ذلك، ولاث به العلماء وقالوا له: قد ورد: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1].

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون من المتمكنين في طريق الإيمان بأحوال يوم القيامة، وصار ينظر إلىٰ كلِّ شيء ينقص به رأس مال أخيه فيجتنبه، فربما رأىٰ أن الشكر لأخيه علىٰ إحسانه ينقص أجره في الآخرة بميله إلىٰ ذلك ولو علىٰ سبيل الفرض والتقدير، فترك شكره جملةً وفاءً بحقِّ أخيه، ومحبةً لحصول الأجر الكامل له في الآخرة.

وربما كان ذلك المحسِن من جملة المريدين الذي يعجبهم أحوالهم، فيذمه الشيخ بين الناس، حتىٰ لا يركن إلىٰ الإعجاب بحال نفسه. ثم إن هذا الأمر لا يقدر علىٰ المشي عليه إلا الأكابر الذين لا يراعون إلا مرضاة الله، ويرون الخلق كالأطفال في حجر تربيتهم. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من يأكل طعامك ويذمك في المجالس، فإنه من المحسنين إليك بتوفير أجرك، وتنفيرك من الوقوع في الإعجاب بحالك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسأل الولاة في حوائجه، ويذل لهم في طريق قضائها، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا لا يليق فعله بالأشياخ، إنما طريقهم أن يتوجهوا إلىٰ الله تعالىٰ في أن يحرِّك قلب ذلك الأمير لقضاء تلك الحاجة، ثم يكلمه عليها بلا ذلٍّ ولا انكسار.

والجواب: أن ما فعله الشيخ أولىٰ، لما فيه من إظهار الذلِّ والمسكنة لمن جعله الله تعالىٰ بابًا من أبوابه يقضي منه حوائج الناس، فإن من شرط الشيخ أنه إذا سأل الأمير في حاجة أن يراه بابًا من أبواب الله يخرج إليه تعالىٰ له منه ما طلبه من الحوائج، فهو كالوكيل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وابن حبان (٣٤٠٧).

للسيد، وفي ذلك عملٌ بالأدب مع الله تعالىٰ ومع ذلك الأمير. وفي الحديث: «من كان له حاجة فأنزلها بالله بعد خلقه يوشك أن يقضي الله تعالىٰ حاجته»[1] أو كما قال، فليس اللوم إلا علىٰ من يسأل الله ويسقط الوسائط جملة، أو من يقف مع الوسائط وينسىٰ ربه عزَّ وجلَّ.

وقد كان سيدي عبد القادر الدشطوطي وسيدي علي الخواص وغيرهما يقدرون علىٰ قضاء الحوائج بالقلب، ومع ذلك كانوا يمشون إلىٰ الحكَّام ويقولون: قد ورد في الحديث: «من مشىٰ في حاجة أخيه، ثبَّت الله قدميه علىٰ الصراط»[2] فربما [لا][3] يحصل ذلك لمن لا يمشي. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك من العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٦) ومما أجبتُ به عن الفقراء الذين قسَّم عليهم شيخهم ذهبًا أو فضة، أو حلوىٰ أو لحمًا، أو غير ذلك من الهدايا، ورجَّح بعضهم علىٰ بعض بالنور الذي أعطاه الله تعالىٰ له، فقال له بعضهم: هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله! فتمعر بذلك وجه الشيخ، فلاث به بعض الأشياخ وقالوا له: قد قال الصحابة مثل ذلك لرسول الله ﷺ وصبر[4]، فوجب عليك التأسي في ذلك به ﷺ، وإذا كان مثل الصحابة يقولون مثل ذلك لرسول الله ﷺ، فكيف بأهل النصف الثاني من القرن العاشر؟!

والجواب عن الشيخ وعن الفقراء الذين لاثوا به وعن الصحابة أن تعلم أنه لا ينبغي

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٦٤٥) من حديث ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: من أصابته فاقة، فأنزلها بالناس، لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله، أوشك الله له بالغنىٰ، إما بموت عاجلٍ، أو غنىً عاجلٍ» والبيهقي في «الكبرىٰ» (٧٨٦٩) وأحمد (٣٦٩٦) وغيرهم.

(٢) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٦٤٦) من حديث ابن عمر ولفظه: «ومن مشىٰ مع أخيه في حاجةٍ حتىٰ يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام» وفي «الصغير»(٦٠٢٦) والحاكم (٧٧٠٦).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٢٩١) من حديث عبد الله قال:«قسم النبي ﷺ يومًا قسمةً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه لقسمةٌ ما أريد بها وجه الله. قلت: أَمَا والله لآتينَّ النبي ﷺ، فأتيته وهو في ملإٍ فساررته، فغضب حتىٰ احمرَّ وجهُهُ ثم قال: رحمةُ الله علىٰ موسىٰ، أُوذِي بأكثر من هذا فصبر» ومسلم (١٠٦٢).

اللوث علىٰ الشيخ بذلك ولا علىٰ مريديه، فقد يكون ذلك وقع باتفاق بين الشيخ وخواص أصحابه، وقال لهم: قولوا لي: كذا وكذا؛ ليتأسىٰ بهم أهل عصرهم، كما كان يقع ذلك من الصحابة، ليتأسىٰ بهم من بعدهم، وإلا فاعتقادنا في كلٍّ من وقع عليه بصر رسول الله ﷺ من المسلمين أنه يصير أرق الناس قلبًا، ويصير رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه.

وقول القائل: «هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله» صحيح في نفس الأمر؛ لأن وجه الله تعالىٰ لا يُقابل بالأعراض الدنيوية ولا الأخروية، وهو غني عن العالمين، وإنما يُرَاد بتلك القسمة وجوه الخلق حقيقة، لاعتقادهم إلىٰ ذلك المقسوم، وشدة حاجتهم إليه، وهم الذين قبلوا ذلك من رسول الله ﷺ حقيقة.

فإن قال قائل: إن الله تعالىٰ حكىٰ عن الأبرار أنهم يقولون للمسكين واليتيم والأسير: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] وظاهره مدح لهم؛ **فالجواب:** أن حكاية الله تعالىٰ قول عباده لا يلزم منه أن يكون المحمود مطلقًا، فقد يكون لبيان الواقع. وربما يكون ما يتقرب به قوم في الأدب مع الله يستغفر منه آخرون، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين. ويُحتمَل أن يريد الأبرار بقولهم ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ امتثال أمره، فإن لكل عمل وجهًا للكون، ووجهًا لله تعالىٰ، فالمحمود منه وجه الله، أي الذي وافق شرعه دون ما وافق هوىٰ النفس.

وأما تمعر وجه الشيخ فلا يلزم منه نقص في مقامه، بل هو من كماله، ليظهر للناس الذين يقتدون به التغيرَ والتأثرَ وعدمَ مقابلته لمن قال له ذلك بسوء، اقتداءً برسول الله ﷺ. وقد يكون ذلك التمعر من رسول الله ﷺ صوريًّا لا حقيقيًّا، ليظهر لقومه شدة تحمله الأذىٰ. ثم لو قُدِّر أنه لم يتمعر وجهه، كان ذلك من كماله أيضًا، ليتأسىٰ به أصحابه في التحمل[1] وعدم إظهار التغير والتأثر.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بمن اعترض علىٰ الشيخ، ولا علىٰ الشيخ، ولا

---

(١) بالأصلين: القوم.

علىٰ من أنكر علىٰ من اعترض علىٰ الشيخ، فإن لكل وجهًا، وكثيرًا ما يتفق الملك مع خواص أهل حضرته علىٰ فعل أمر، ليتأدب بذلك الجفاة الطبع، ويؤاخذ خواصه علىٰ ذلك، ليقول غيرهم: إذا كان هذا فعل الملك مع خواص أهل حضرته، فكيف بأمثالنا؟! ويؤيد ذلك ما ورد من قوله ﷺ: «إنما أنسىٰ ليستن بي»[1]. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي انقطع عن الخروج من زاويته إلا لضرورة علىٰ ممر الأزمان، حتىٰ عُرِفَ بذلك، ولا يتردد لزيارة أحد من أقرانه، ويقول: أنا ممنوع من أن أدخل أسواق البلد. ثم إنه ربما دُعِيَ إلىٰ وليمة سفر يوم وأكثر، فيخرج إليها، فلاث به الناس وقالوا: انقطاع فلان عن أقرانه في زاويته إنما هو تكبر عليهم، ولو أنهم كانوا يتبركون به إذا زارهم، ويطبخون له الطعام الكثير كما يفعل له أهل الأرياف، لكان ذهب إليهم، ولكن أين أهل العزلة الذين كانوا يزهدون في لقاء الناس خوفًا علىٰ الناس أن يشتغلوا بهم عن الله تعالىٰ دون الأغراض النفسانية؟! هذا أمر قد ذهب من فقراء هذا الزمان! وأيش خلىٰ هذا الشيخ الذي يذهب إلىٰ الأرياف للمزمزمين[2]؟!

والجواب: أن اعتقاد هذا الذي ذكره المعترضون لا يجوز في حقِّ الأشياخ، فإنهم أهل اجتهاد في أحوالهم، فربما لم يزوروا جارهم إذا مرض أو جاء من سفر الحج مثلًا، وربما زاروا أحدًا من الولاة في طرف البلد، لما يترتب علىٰ ذلك من المصالح لهم أو

---

(١) أخرجه مالك (٢) قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٣٣٨): أما هذا الحديث بهذا اللفظ فلا أعلمه يُروىٰ عن النبي ﷺ بوجه من الوجوه مسندًا ولا مقطوعًا من غير هذا الوجه والله أعلم. وهو أحد الأحاديث الأربعة في الموطأ التي لا توجد في غيره مسندة ولا مرسلة والله أعلم. ومعناه صحيح في الأصول وقد مضت آثار في باب نومه عن الصلاة، تدل علىٰ هذا المعنىٰ.

(٢) زمزم المغني: ترنم ودندن. وهل المراد بهم هنا تلك الفرق الموسيقية التي تجوب الأرياف، فتتعاقد مع من تجد لديه مناسبة لإحيائها بالغناء، وما زالت بعض تلك الفرق تجوب اليوم بعض المناطق الشعبية وإن ندرت الظاهرة هذه الأيام، أم المراد بهم طائفة يسافرون في البلاد للأكل من ولائم الموالد والمناسبات؟ وأهل الصعيد يطلقون لقب «المزمزمين» علىٰ المشاركين بالإطعام والخدمة في عمل مولد سيدي أبي الحجاج الأقصري من غير نسل الأسرة الحجاجية ممن كان لأجدادهم صلة بالشيخ أبي الحجاج.

للمزور أو للناس، فالواجب حمل هذا الشيخ علىٰ أنه لا يترك الزيارة لجاره إلا لحكمة، ولا يزور أحدًا من الولاة إلا لحكمة ونية صالحة. وقد خرج الإمام أحمد من بغداد إلىٰ الرملة ليزور فاطمة الرملية، مع أنه كان لا يزور أكثر أقرانه من علماء بغداد، وخرج إبراهيم بن أدهم من الشام إلىٰ مكة ليعزي الفضيل بن عياض في ولده عليٍّ لما مات، ولم يخرج لحج ولا عمرة. وكان إبراهيم بن أدهم كثيرًا ما يرسل وراء سفيان الثوري، فيأتيه ولا يذهب هو إليه، ويقول: إنما أفعل به ذلك لأعلم الناس بما هو عليه من التواضع، مع أن إبراهيم كان لا يرىٰ نفسه أنها تعد من تلامذة سفيان ﷺ. فاعلم ذلك، وإياك وتحمل أوزار الناس بسوء ظنك بهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي نُقِلت عنه زلة عقيدته مثلًا كالزمخشري[١] وابن تيمية والذهبي[٢] والبقاعي[٣] ونحوهم، فصار الناس لا يعتقدون فيهم، مع انتفاعهم بمطالعتهم في كتبهم في التفسير والحديث وغير ذلك، بأنه ربما كانت تلك الزَّلة التي نُقلَت

---

(١) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان. أخذ النحو عن أبي مضر منصور. له مصنفات منها: «الكشاف» في تفسير القرآن العزيز، لم يصنف قبله مثله و«المحاجاة بالمسائل النحوية» و«المفرد والمركب» في العربي. وكان قد سافر إلىٰ مكة، حرسها الله تعالىٰ، وجاور بها زمانًا، فصار يقال له: «جار الله» لذلك، وكان هذا الاسم علمًا عليه. توفي:٥٣٨هـ. انظر: و «فيات الأعيان» (٥/ ١٦٨) و«إرشاد الأريب» (٦/ ٢٦٨٧).

(٢) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، حافظٌ لا يجارىٰ، ولافظٌ لا يبارىٰ، أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأبان الإبهام في تواريخهم والإلباس، جمع الكثير، ونفع الجم الغفير، وأكثر من التصنيف، ووفر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف. له مصنفات منها: «تاريخ الإسلام» و«سير أعلام النبلاء» و«الدول الإسلامية» مولده في ربيع الأول سنة:٦٧٣هـ وتوفي:٧٤٨هـ. «فوات الوفيات» (٣/ ٣١٥) و«البدر الطالع» (٢/ ١١٠).

(٣) برهان الدّين إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي الشافعي المحدّث المفسّر الإمام العلاّمة المؤرّخ. ولد: ٨٠٩هـ. له مصنفات من أجلها: «المناسبات القرآنية» و«عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران» و«تنبيه الغبي بتكفير عمر بن الفارض وابن عربي» توفي:٨٨٥هـ. انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ٥٠٩)، «الأعلام» (١/ ٥٦).

عنهم بمثابة وضع الجماجم علىٰ رؤوس المزارع، فتدفع عنهم شرَّ العين، ويحصل لهم كمال الأجر في الآخرة، بخلاف من كثر اعتقاد الناس فيهم من العلماء، فربما مالت نفس العالم إلىٰ حب الثناء الحسن عليه، فنقص أجره بذلك، أو ذهب بالكلية.

وربما تاب الله تعالىٰ علىٰ ذلك العالم قبل موته بتقدير ثبوت تلك الزَّلة عنه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ويصير الناس يقعون في عرضه بعد ذلك في حياته وبعد مماته، فينقل الله حسناتهم في صحائفه، كما كان الأعمش يقول لامرأته إذا لامته علىٰ نومه بالليل ويقول: لست بنائم، فإن أهل الكوفة كلهم يعملون لي. فتقول: كيف ذلك؟ قال: يقعون في عِرْضي، وينسبون إليَّ أمورًا أنا منها بريء، فينقل الله حسناتهم إلىٰ صحيفتي، فكأنهم يعملون لي بالأجرة.

فإياك يا أخي ولحوم العلماء، فإنها سم ساعة، وإذا وقعت من أحدهم زلَّة فلا تستصحبها وتحمله علىٰ غير التوبة، تخطيء طريق الصواب. ثم بتقدير وقوعه فيها فما حصل من النقص قد جُبِرَ بكلام الناس فيه، فما خسره من وجه، ربحه من وجه آخر، كما أن ما ربحه العالم من حيثُ انتفاعُ الناس بعلمه، قد خسره من جهة جلبه[1] لثناء الناس عليه، ولا يسلم من ذلك إلا القليل، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه من القوم، ولا يراه الناس يجلس في مجالس الذكر أبدًا، فلاثوا به وقالوا: من علامة أولياء الله كثرة ذكر الله عزَّ وجلَّ. وصاروا يفضلون بعض مشايخ الزوايا الذين لهم مجلس ذكر عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ مثل هذا الشيخ، فربما منَّ الله تعالىٰ عليه بجمعية القلب في حضرته علىٰ الدوام، فاستغنىٰ عن ذكر اللسان الذي لا يقع عادة إلا من المحجوبين عن شهود الحقِّ جلَّ وعلا. وقد كان سيدي عليٌّ الخواص وأخي أفضل الدين يجتمعان للذكر في السنة مرةً واحدةً، عملًا بحديث: «من ذكرني في

---

(١) بالأصلين: نقله.

ملأ، ذكرته في ملأ خير منه»[1]، وكانا يقولان: من أكثر من ذكر الله بلسانه، فهو علامة على حجابه عن شهود ربِّه، إلا أن يكون ممن يقتدي به المريدون في ذلك.

وسمعتُ أخي أفضل الدين مرارًا يقول: ذكر اللسان إنما جعله الأشياخ وسيلةً إلىٰ حضور القلب، فإذا حضر صار دائم الذكر تارةً يشهد الحقَّ تعالىٰ، وتارةً يشهد أنه بين يديه وهو تعالىٰ يراه، فإذا حصل للعبد هذا المقام كان هو الذاكر حقيقة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تفضل الشيخ الذي يذكر الله في جماعة صباحًا ومساءً مثلًا علىٰ الدوام علىٰ الشيخ الذي لا يحضر مجلس ذكر أبدًا، فربما كان ذلك الشيخ المواظب علىٰ الذكر لا يصلح تلميذًا لذلك الذي لا يحضر مجلس الذكر، اللهم إلا أن يكون التفضيل من حيثُ تعدي النفع إلىٰ الذاكرين والمستمعين، فهذا ربما رجح من هذه الجهة. فاعلم ذلك، واشتغل بنفسك عن المفاضلة بين الناس، فإن ذلك من الفضول، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٠) ومما أجبتُ به عن الذي يقول لصاحبه: قم بنا نسمع ما يقع في مجلس الشيخ الفلاني من الهذيانات؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا له: إن كان ما يقوله هذا الشيخ من الهذيانات مذمومًا وليس في قدرتك رده عنه، فيحرم عليك حضوره؛ وإن لم يكن مذمومًا حقيقة وإنما ظَنَّ ذلك مزحًا فهو يلاعب بالدين.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة بالإنكار علىٰ هذا القائل، لاحتمال أن يريد أن ذلك الكلام مذموم عند من لا يعرف اصطلاح القوم، لا أنه مذموم عند هذا القائل، ولكن لا يخفىٰ توجه اللوم علىٰ هذا الشيخ الذي يتكلم بأسرار طريق القوم علىٰ رؤوس الخلائق، لمخالفته لما نُقِلَ عن أشياخ الطريق.

وقد كان الإمام أبو القاسم الجنيد لا يتكلم في أسرار الطريق حتىٰ يقول للخادم: أغلق الباب، وهات المفتاح؛ فيضعه تحت وركه، ثم يتكلم ويقول: أتحبون أن يُرمَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

أولياء الله بالزندقة؟! انتهىٰ. فانظر يا أخي إلىٰ هذه الرحمة من الجنيد، وخوفه عن ذهاب دين المنكرين بوقوعهم في أعراض الأولياء بغير علم واتبع طريقه.

[سبب إظهار العارف أبي الحسن البكري وولده محمد لبعض أسرار الطريق]

فإن قال قائل: فكيف خالف ذلك من يدعي الكمال كالشيخ أبي الحسن البكري وولده سيدي محمد؟ **فالجواب**: ليس كلام هذين الشيخين مما نحن فيه؛ لأنه كلام لا يكاد يفهم منه السامع شيئًا يخالف ظاهر الشريعة أبدًا، إنما هو كلام مجمل، والباعث لهما علىٰ إظهار خوف الضرر علىٰ أبدانهما، فلولا أخرجاه عن أبدانهما، لحصل بحبسه خراريج في أبدانهما، **وإذا تعارض عند العارف خوف الأذىٰ علىٰ نفسه، وخوف الأذىٰ علىٰ الناس قدَّم إزالة ما يضر نفسه**، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧١) ومما أجبتُ به عن المريد الذي ينقل لشيخه ما يسمعه في حق شيخه من الأعداء الحاسدين، فلاث به المتشرعون وقالوا: هذا من جملة النميمة التي نهىٰ الشارع عنها.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا المريد، لاحتمال أن يريد بتبليغ ذلك لشيخه طلب العفو والصفح عن ذلك العدو أو الحاسد في الدنيا قبل الآخرة، لما يعلمه من أخلاق شيخه الحسنة، وكثرة مسامحته للناس، والحكم تابعٌ للقصد، وإذا احتمل فعل عبد أمرين محمودًا ومذمومًا، وجب حمله علىٰ الأمر المحمود. ولاشك أن حكاية ذلك الأمر لشيخه ليصفح عن ذلك الجاني في الدنيا معدود من جملة المصالح لا المفاسد، فمن كتم عن شيخه ما يسمعه في حقِّه فربما أساء علىٰ نفسه وفي حق شيخه وفي حق عدوه، ولو أنه ذكر ذلك له ولشيخه ولعدوه لأُجِر من باب قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

فعُلِمَ أن من لم يعتقد في شيخه المسامحة كما ذكرنا، فلا يجوز له نقل كلام الأعداء والحاسدين له، وهو محل ما ورد من النهي. وأما قوله ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيرًا»[1]

(١) تقدم تخريجه.

الحديث، فهو تشريع للأمة[1]، وإلا فهو ﷺ أكثر الخلق عفوًا وصفحًا على الجاني عليه، فأراد ﷺ سدَّ باب النميمة على أمته، إلا أن يترتب على ذلك مصلحة، فاعلم ذلك، وامش على الشرع في جميع حركاتك وسكناتك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٢) ومما أجبتُ به عن من كتم عن شيخه ما يسمعه من أعداء الشيخ في حقِّه، ولاث به أصحاب شيخه وقالوا: هذا منك غش لشيخك وقلة اعتقاد به، وظنُّك فيه عدم مسامحة من جنى عليه، وذلك نقص في الشيخ.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة بالإنكار على هذا المريد، ولا على من لاث به، لاحتمال أنه قصد بذلك الاحتياط لشيخه، فخاف أن شيخه تقوم عليه البشرية، فلا يسامح بذلك، فرأى أن كتمان ذلك عن الشيخ أولى، ثم إنه يدعو لذلك الواقع في عِرْض شيخه بالمغفرة.

وأما من لاث به من أصحاب الشيخ في كتمانه، وطلب منه أن يخبر بذلك شيخه، فلا ينبغي الإنكار عليه كذلك، لأن الحامل له على ذلك ظنه في الشيخ الكمال، وأنه لا يتغير على من وقع في عِرْضه، بل يسارع إلى إزالة الأمر الذي وقع [العدو][2] في الشيخ لأجله، رحمةً به، فيريحه من الوقوف للحساب لأجله يوم القيامة، وبالجملة فكتمان المريد عن شيخه ما يسمعه في حق شيخه أولى من وجوه، أقلها أنه يدخل عليه الغمَّ بذلك، كما هو الغالب من طبع البشر، ويكفي الواقع كثرة الاستغفار فيما بينه وبين الله تعالى كما قال به بعض العلماء.

وكان سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إذا لم يتحقق المريد من شيخه العفو والصفح، وجب عليه الكتمان عنه، لأنه ينقص بذلك أجر شيخه بعدم صفحه الذي أمره الله تعالى به. انتهى، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٣) ومما أجبتُ به عن الجماعة الذين لا يحضرون أوراد الشيخ الذي في حارتهم،

---

(١) انظر الجواب (٥٣).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

ولاث بهم جماعة وقالوا: إن قلوبكم أقسىٰ من الحجارة! كيف تسمعون مجلسًا[1] صباحًا ومساءً طول عمركم وأنتم جيرانه، فلا يحضر منكم أحدٌ يومًا واحدًا؟! هذا خسران مبين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء الجيران، لاحتمال أن يكون لأحدهم عذر لا ينبغي إفشاؤه، أو يخاف من اللصوص أن يسرقوا متاعه في وقت حضوره في مجلس الذكر صباحًا ومساءً، مع كونهم يذكرون الله تعالىٰ في بيوتهم من أول المجلس إلىٰ آخره.

وربما كان أحدهم يحس من نفسه بعدم الإخلاص إذا حضر مجالس الخير، فيخاف علىٰ نفسه أن يصغىٰ إلىٰ قول الناس: فلان علىٰ خير عظيم في هذه الأيام؛ فأراد بعدم حضوره الخلاص من دخول الرياء عليه، ووفر بذلك أجره.

وبالجملة فقل عمل يظهر من أمثالنا ويسلم من ثناء الناس علينا به، والميل منا إلىٰ ذلك، كما أن كل فقير حضر مجلس ذكر ورأىٰ نفسه علىٰ من لم يحضر، فقد أعجب بنفسه، وحبط أجره، إلا أن يرىٰ نفسه من حيثُ فضلُ الله عليه من غير ازدراء لمن لم يحضر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون ظاهرًا في العصر وله كرامات وخوارق، ولا يجتمع به أحد من الناس إلا قليلًا، فلاث بهم جماعة الشيخ والمعتقدون فيه وقالوا: مثل هذا الرجل العظيم يكون في عصركم ولا تصحبونه! هذا خسران عظيم!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن لم يجتمع بهذا الرجل، فقد يكون الباعث للناس علىٰ عدم الاجتماع به خوفهم منه أن يطلع علىٰ سرائرهم الخبيثة، ورأوا أن عدم اجتماعهم به من باب قوله ﷺ: «من ابتُلي بشيء من هذه القاذورات -يعني المعاصي- فليستتر بستر الله»[2] الحديث، ومن يجتمع من العصاة بمثل هذا الشيخ كأنه يظهر معاصيه ولا يستتر فيها، لعلمه بأن الشيخ يرىٰ ما في باطنه من الخواطر الردية، فضلًا عما

---

(١) هامش «ب»: لعلها مجلس الذكر أو الشيخ.

(٢) تقدم تخريجه.

فعله. وقد كان سيدي عليًّا الخواص إذا رأىٰ أنف إنسان، يعرف جميع ما أضمره وما وقع فيه، فكان أصحابه لا يجالسونه إلا أن علموا من أنفسهم الطهارة.

فإن قال قائل: إن من شرط الكامل أن لا يكشف عورات الناس، بل يحجبه الله تعالىٰ عن ذلك؛ **فالجواب:** أن الكامل يُمَلأ ويفرغ ليلًا ونهارًا، فربما نقص في وقت، فأدرك عيوب الناس ونقائصهم، ويُسمَّىٰ هذا بـ«الكشف الشيطاني» الذي يجب عليه التوبة منه فورًا[١]. فاعلم ذلك، واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، وكل من كان الباعث له علىٰ عدم اجتماعه بالشيخ عظم هيبته، أو خوف الاطلاع علىٰ عورته، فلا اعتراض عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال: اللهم لا تستجب لي دعاءً حال غضبي في حق أحد من الخلق. فقال له شيخ آخر: هذا لا ينبغي لما فيه من التحجير علىٰ الحقِّ جلَّ وعلا، ولأي شيء لا تترك الدعاء علىٰ الناس جملة وتدعو لهم؟! كما أدَّب الله تعالىٰ به رسوله ﷺ حين دعا علىٰ قوم وأنزل الله عليه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، **فإن ذلك أولىٰ من أن تدعو ثم تقول: اللهم لا تستجب لي.**

والجواب: أن الشيخ الأول قد مشىٰ علىٰ قواعد القوم من إظهار الضعف، وعدم القدرة علىٰ منع نفسه من التأثر ممن جنىٰ عليه، وقد قال ﷺ: «اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر، اللهم من سببتُه أو شتمتُه، فاجعل ذلك كفارة له وطهورًا»[٢]. انتهىٰ.

---

(١) لا تعني بالكشف الشيطاني أن للشيطان فيه مدخلاً، بل للتنفير منه. وليس مثل هذا الكشف مذمومًا بإطلاق، بل بحسب الحال والمقصد، فكم تاب معاندون علىٰ يد المشايخ بمثل هذه المكاشفة كما هو واقع في سير الأولياء. وإنما المذموم منه ما كان بلا سبب كقصد هداية أو إلجام معترض لا يلتجم عن إيذاء أولياء الله إلا بمثل هذا، أو يكون المذموم الكشف بغير إذن.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٠٣) من حديث أنس بن مالك قال: «كانت عند أم سليم يتيمة، وهي أم أنس، فرأىٰ رسول الله ﷺ اليتيمة، فقال: آنت هيه؟ لقد كبرت، لا كبر سنُّك. فرجعت اليتيمة إلىٰ أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: ما لك؟ يا بنية قالت الجارية: دعا علي نبي الله ﷺ أن لا يكبر سني، فالآن لا يكبر سني أبدًا، أو قالت قرني فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها، حتىٰ لقيت رسول الله ﷺ فقال لها

وأما الشيخ الثاني فقد ظنَّ بنفسه القوة في تحمل الأذىٰ، فحمل غيره علىٰ مثل ذلك، فلا اعتراض علىٰ الشيخين، لأن لكل واحد محملًا، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٦) ومما أجبتُ به عن الذين يضيفون الجور والظلم إلىٰ الخلق ببادئ الرأي، ولاث بهم بعض المتصوفة وقالوا: أيش كان الخلق في ذلك؟! الكلُّ من الله.

والجواب: أن الذين أضافوا الظلم والجور إلىٰ الخلق أكثر أدبًا مع الله تعالىٰ ممن أضاف ذلك إلىٰ الله بحكم التقدير، فلا ينبغي اللوث بهم، فإن نسبةَ الأمور كلِّها إلىٰ الله تعالىٰ بحكم الخلق والتقدير معلومٌ بين المسلمين لا يكاد يجهلها أحد، بخلاف ظلم الولاة، فإننا إذا أجبنا عنهم، فقد مهدنا لهم بساط الظلم، وضعَّفنا إقامة الحجة عليهم. وقد نفىٰ الحقُّ جلَّ وعلا الظلم عن نفسه بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨].

فاعلم ذلك، وأضف الظلم إلىٰ الخلق ببادئ الرأي، كما يضف المتصوف ذلك الأمر إلىٰ الله من حيثُ التقديرُ ببادئ الرأي، إلىٰ أن يبلغ كلٌّ منكما مقام الكمال، وينظر بالعينين، فيرىٰ الأمور لله بعين، ويرىٰ نسبتها إلىٰ الخلق بالعين الأخرىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٧) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي سافر إلىٰ السلطان في طلب مسموح[1] أو مرتب أو جوالىٰ بعد أن طعن في السن، فلاث به الناس بسبب ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا العالم أو الشيخ، لاحتمال أن يكون

رسول الله ﷺ: ما لك يا أم سليم. فقالت: يا نبي الله أدعوت علىٰ يتيمتي. قال: وما ذاك؟ يا أم سليم. قالت: زعمت أنك دعوت أن لا يكبر سنها، ولا يكبر قرنها. قال فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: يا أم سليم أما تعلمين أن شرطي علىٰ ربي، أني اشترطت علىٰ ربي فقلت: إنما أنا بشر، أرضىٰ كما يرضىٰ البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحدٍ دعوت عليه، من أمتي، بدعوةٍ ليس لها بأهل، أن يجعلها له طهورًا وزكاةً، وقربةً يقربه بها منه يوم القيامة» وأبو داود (٤٦٥٩)، وابن حبان (٦٥١٤).

(١) مسموح: مبلغ من المال يعينه السلطان لبعض الناس.

كُشِفَ لأحدهما عن رزقه الذي قسمه الله تعالىٰ له [في الروم، وأوقف تعالىٰ الوصول إليه علىٰ السفر إليه، فسافر هذا العالم أو الشيخ لرزقه الذي قسمه الله تعالىٰ له][١] علىٰ كشف وبصيرة، إظهارًا للذلِّ والفقر والفاقة، فلا فرق بين ذلك الرزق وبين الرزق الموضوع علىٰ باب داره علىٰ حدٍّ سواء، وإذا حمل الله تعالىٰ إلىٰ العبد رزقه، فمن الأدب قبوله.

فعُلِمَ أن لا حرج علىٰ الفقير المذكور في السفر إذا أداه كشفه إلىٰ ما ذكرناه من الرزق، وسافر إلىٰ باب السلطان، فلم يعطه شيئًا، ولا يقدح ذلك في صحة كشفه، بل كشفه صحيح، ولكن تغير الحال في الألواح السماوية لما سافر إلىٰ الروم ووقف في الديوان، ولو أن الحال تغير عند شروعه في السفر، لكان يرجع ولم يسافر، **لأن الفقراء صادقون في كشفهم إثباتًا ومحوًا**، فمن سأل السلطان أو الوزراء في مرتب مثلًا، فلم يعطه شيئًا، حملناه علىٰ أن الكتابة تغيرت في الألواح السماوية بعد سؤال السلطان أو الوزراء، وعلامة صدقه في كشفه أن لا يأخذ في نفسه علىٰ السلطان ولا علىٰ الوزراء إلا أنهم عبيد تحت أمر الحقِّ جلَّ وعلا، لا يعطون للناس إلا ما أذن لهم في إعطائهم، ومتىٰ تكدَّر مدعي هذا الكشف من أحد من الوسائط، فدعواه الكشف غير صحيحة. هذا حكم من كان مطمح نظره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا.

أما الذي مطمح نظره اللوح المحفوظ، فلا يتغير عليه حال، ولا يستطيع أحد أن يعارضه في رزقه الذي كتبه الله تعالىٰ فيه، لأنه لوح محفوظ من المحو، فحكم من ينظر في ألواح المحو والإثبات حكم الشخص إذا خرج من بيته يطلب رزقه ولا يدري أين هو حقيقة، أو كالذي دخل زُقَاقًا[٢] لا يدري هل ينفذ أم لا، فإن رآه ينفذ خرج منه وإلا رجع، وحكم من نظر في اللوح المحفوظ حكم من يرىٰ رزقه ليس دونه مانع، فاعلم ذلك، وإياك واللوث بالفقراء إذا سافروا في طلب أرزاقهم، فإنهم ليسوا كأبناء الدنيا إذا سافروا في طلبها محبةً في التكاثر والتفاخر.

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

(٢) الزُّقَاقُ: الطريقُ الضيِّقُ نافذًا أو غير نافذٍ.

وقد بلغنا عن سيدي علي المحلي[١] المدفون برشيد أنه قال: كُشِفَ لي عن قطعة لحم في دمياط أنها من رزقي؛ فسار من رشيد لأجلها، فأول ما طلع من الساحل وجد شخصًا يأكل لحمًا، فزور[٢] بقطعة لحم، فلم يقدر علىٰ بلعها، فألقاها علىٰ الأرض، فأخذها سيدي علي المذكور وأكلها، ورجع من فوره وقال: هذه الحاجة التي سافرتُ إليها. والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٨) ومما أجبتُ به عن الولاة والوزراء الذين عارضوا الشيخ الذي سافر إلىٰ باب السلطان ولم يعطوه مرتبًا ولا غيره، وعن ولاة مصر مثلًا الذين عارضوه فيما أعطاه السلطان أو الوزراء، ولاث بهم أصحاب ذلك الشيخ وقالوا عن هؤلاء الولاة: إنهم آلة سوء، وما فيهم شربة ولا صدقة لله تعالىٰ.

والجواب: عن وزراء الروم[٣] أنهم ربما كان الباعث لهم علىٰ منعه الصيانة لخرقة الفقراء عن الطعن فيها بقول الناس: إذا كان المشايخ صاروا يسافرون في طلب الدنيا فما بقي أحد ينبغي الاعتقاد فيه؛ فخاف الوزراء علىٰ بقية الفقراء إذا أعطوا هذا الشيخ ما طلبه منهم أن يحدقوا أبصارهم كذلك إلىٰ السفر في طلب الدنيا، ويتركوا الاشتغال بعبادة الله، ويلتحقوا بأبناء الدنيا، فكان منع هذا الشيخ أحسن من إعطائهم له ولبقية الفقراء، أما له فلئلا يصير معدودًا من الأئمة المضلِّين عن طريق أهل الله تعالىٰ، وأما لبقية الفقراء فلأنهم إذا رأوا ما قاساه هذا الشيخ من التعب والسفر في البرد والثلج، وطول إقامته في الروم، وكثرة طلوعه الديوان، وذله للكبير والصغير، ثم بعد ذلك لم

---

(١) ترجم له الإمام الشعراني فقال: سيدي علي المحلي المقيم بثغر رشيد ﷺ كان من عباد الله الصالحين. سافر إلىٰ زيارته الفقراء من أقطار الأرض، منهم: الشيخ حسين أبو علي، والشيخ محمد بن عنان والشيخ علي المحلاوي وغيرهم. مات ﷺ سنة إحدىٰ وتسعمئة. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٣٧٢) طبعة دار الإحسان.

(٢) أي حصلت له غُصَّة.

(٣) أي وزراء السلطان العثماني ببلاد الأناضول (تركيا).

يعطوه شيئًا، تحركت همتهم إلىٰ ترك السفر في طلب الدنيا، ونفروا من ذلك.

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أن الولاة والوزراء أتم نظرًا من غيرهم بيقين للنور الذي جعله الله تعالىٰ في قلوبهم يسوسون به الخلق، أو لكثرة ما جرَّبوه من الفقراء الذين يَرِدون عليهم يطلبون الدنيا، فيظهرون النُّسك والعبادة، وإطعام الطعام للواردين عليهم، ثم إذا أعطاهم السلطان مرتبًا يطعمون منه الفقراء مُدَيدة قصيرة، ثم يحولونه إلىٰ اسمهم واسم أولادهم، ويتخصصون به دون الفقراء، فإن قُدِّر أن الفقراء طلبوا ما يخصهم من ذلك المرتب، آذوهم وأخرجوهم من الزاوية بالحكَّام، فمن تكدر من الوزراء الذين منعوه فهو جاهل، فإنهم أهل اجتهاد، فربما تفرسوا في ذلك الشيخ الذي يطلب المرتب مثلًا عدم نفعه في الإسلام، ورأوا أن إعطاء تلك الدراهم للجند الذين يسافرون في الجهاد والتجاريد[1] أفضل وأشفق علىٰ بيت المال، وأحسن لدين ذلك الفقير الذي يأخذ مال بيت المال من غير استحقاق.

ولو تأمل الإنسان بعين الإنصاف لكان من الواجب عليه رد ما أُعطيه من بيت المال المُعد لمصالح الذين يجاهدون في سبيل الله، ويحمون بيضة الإسلام دونه، مع أن من شأن كل من يطلب الدنيا أن يكون مَهينًا في ملكوت السماء والأرض، إلا أن يكون يطلبها بالطرق الشرعية، فحكم الشيخ الذي يطلب الدنيا بعبادته وعلمه عند الوزراء كالطفل الذي لا يعرف ما يضره ولا ما ينفعه، ومعلوم أن الولي إذا أجاب الطفل إلىٰ كل ما يطلب أضر به. ومن فهم ذلك علم أنه لا اعتراض علىٰ الوزراء الذين منعوا هذا الشيخ مما طلب في الروم، كما لا اعتراض علىٰ ولاة مصر أيضًا إذا عارضوه فيما أتىٰ به من الروم، لأنه كالطفل عندهم، لاسيما إن كان قد طعن في السن، وقل نفعه في الوجود، ولا معه علم يدرِّسه، ولا طريق يرشد الناس إليها، فإن أضعف الجند أنفع من مثل هذا.

[توبيخ إياس باشا لبعض مشايخ المتصوفة]

وقد سافر شخص من متصوفة مصر إلىٰ الروم في أيام الوزير إياس باشاه[2] يطلب له

---

(١) جمع تجريدة، وهي الحملة العسكرية.

(٢) إياس باشا الوزير الأعظم للسلطان سليمان خان بن عثمان، كان له سيرة حسنة، وسياسة مستحسنة،

جوالي أو مسموحًا، فلما اجتمع بالوزير قال: أيش حرفتك في مصر؟ فقال: شيخ من أشياخ الطريق. فقال له: فما حاجتك في بلادنا هذه؟ فقال: جئتُ أطلب شيئًا من رزق السلطان. فقال له الوزير: هل تعلم أحدًا في مصر أعلىٰ منك درجة في علم الطريق؟ فقال: لا. فقال: أمرك يا شيخ غريب! لأن الحقَّ يطعمك ويسقيك من حيثُ كنت في بطن أمك لم ينسك يومًا واحدًا، حتىٰ صارت لحيتك بيضاء، ومع ذلك لا تثق بضمان الحقِّ تعالىٰ لرزقك، وإذا كان المريد في ابتداء أمره لابد أن يرمي ما بيده من الدنيا حتىٰ يصح له أن يضع قدمه في الطريق، فكيف تطلب أنت الدنيا في حال شيخوختك، وإدعائك أنه ليس فوقك أحد من مشايخ مصر؟ وكيف توصل الخلق إلىٰ حضرة الله تعالىٰ مع محبتك للدنيا؟ ومعلوم أن المريد لا يرضع من الشيخ إلا ما هو متلطخ به، بل لو قُدِّر أن شخصًا من المريدين زهد في الدنيا، ثم إنه اجتمع بك ورضع منك، لتلف حاله، فما درىٰ هذا الشيخ ما يقول.

ثم إن إياس باشاه قال له: إن شون[1] مولانا السلطان في مصر لا يعجز عن رغيفين لك، بل لو لقطتَ من الحب الذي يقع كلَّ يوم من الترَّاسين علىٰ باب الشون، لكفاك ذلك. ولو قُدِّر أن بوَّاب الشون منعك من لقط الحب المذكور أما كنت تنزل إلىٰ قرىٰ مصر أيام الجرين[2]؟ فإنك لو طلبتَ من كل بلد وَيبَة[3] قمح لأعطوها لك بسهولة، واستحوا أن يردوك، فكان يحصل لك من ذلك قمح كثير يكفي عيالك ولو كثروا، وتستريح من هذا النَّصَب والتعب الذي أنت فيه، ولم توقع أحدًا من أقرانك في حسدك والقرض في عِرْضك، فإن من المعلوم أن أقرانك لا يزالون يقعون في عِرْضك، وينسبونك إلىٰ محبة الدنيا وعدم العفة والقناعة من حين تسافر من بلادهم إلىٰ أن ترجع إليهم.

خالط فيها العلماء، وتودد إلىٰ الصلحاء، وكان من أكبر المحبين للشيخ رضي الدين الغزي، وكانت وفاته بالقسطنطينية سنة ٩٤٦هـ. الكواكب السائرة (٢/ ١٢٥)

(١) الشون: مخزن الغلة.

(٢) الجرين: الجُرْنُ، وهو الموضع الذي يُداس فيه البُرّ ونحوه.

(٣) الوَيْبَة: اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مُدًّا، وهو مكيال يختلف بحسب البُلدان.

وقد بلغني أن بعض الطلبة قال للوزير إياس: اجبروا بخاطر هذا الشيخ في هذه المرة. فقال: حرمانه أولىٰ، ليترك السعي في الدنيا بعد ذلك، ويمنع الناس من الطعن في أهل الطريق، ومن قياسهم جميع أهل الطريق في عصره عليه، فلا يصير أحدهم يعتقد أحدًا منهم. فاعلم ذلك، وتأمل ما فيه من توبيخ هذا الأمير لهذا الشيخ.

وكذلك بلغني عن الوزير هذا أنه قال: أمر هؤلاء العلماء والمشايخ عجيب! لأنهم يفتون بتحريم الأموال التي بأيدينا، ثم يسافرون إلينا ويأخذونها من بين أيدينا بسيف الحياء غصبًا علينا، فبأي دليل يحرمونها مادامت في أيدينا، ثم يحلونها إذا وصلت إليهم؟! انتهىٰ.

ولما سافر بعض إخواننا من مصر إلىٰ الروم في سنة أربع وستين وتسعمئة، فلا تسأل يا أخي ما وقع من الناس في حقه، ثم لما رجع من بلاد الروم وتوقف ولاة مصر في إعطائه ما رسم السلطان به له، فلا تسأل ما وقع فيه الناس بسببه، فصار بعضهم يقول: كان الشيخ فلان علىٰ بساط الرحمن، فصار علىٰ بساط الشيطان! وصار بعضهم يقول: أيش خلىٰ هذا لآخرته وهو يطلب الدنيا بعد أن بلغ الستين سنة؟! وبعضهم يقول: كنا نعتقده قبل أن يسافر الروم، فلما سافر ذهب اعتقادنا واعتقاد أصحابه فيه؛ فكان الجواب عنه وعن ولاة مصر الذين عارضوه بمثل ما تقدم في مثل هذا الجواب والذي قبله، فلا ينبغي اللوث به من جهة سفره، ولا بمن عارضه في الروم أو في مصر، فيُحمَل علىٰ أنه ما سافر إلا بعد أن كُشِفَ له عن الطعام الذي أكله مدة إقامته في الروم، وأنه رأىٰ ذلك في ألواح المحو والإثبات، وأن ذلك وما رُسِمَ له به من المرتب لم يزل مكتوبًا حتىٰ رجع إلىٰ بلاد مصر ووقف في الديوان، فلا يجوز لأحد اللوث به ولا الوقوع في عرضه بسبب سفره المذكور.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ربما رأىٰ الحقُّ جلَّ وعلا من عبده المقرَّب عجبًا بأحواله من ورع وزهد، وعفة وكرم، فسلَّط عليه من ينقصه في المجالس ويذكره بالسوء إلىٰ أن يزول منه ذلك العجب، فيكون ذلك له بمثابة الجماجم التي توضع في الزرع لترد عنه شرَّ العين.

ويُحتمَل أن الشيخ المذكور فعل ما ذكر بقصد واختيار، ليدفع عنه بالتظاهر بمحبة

الدنيا ما يظنه الناس فيه من العفة والقناعة، وترجيحه على المشايخ الذين لهم مرتبات ورِزَق[١] وغيرها، وقد وقع له بحمد الله ما قصد من قَلْب[٢] اعتقاد الناس فيه، ويوفر أجره في ورعه وزهده وسائر عباداته إلى الدار الآخرة، وشارك بذلك أكابر الأولياء في المقام، فإن الأكابر لا يكاد أحد منهم يظهر للناس من أعماله ما تميزه عنهم، ليذهب إلى الآخرة موفر الأجر لم ينقص منه شيء في الدنيا. وربما رأى الحقُّ جلَّ وعلا من العبد تقصيرًا في العبادة، فيسلِّط عليه طوائف ممن أشقاهم الله تعالى، فيلوثون به ويقطعون في عِرْضه، فيحكِّمه الله تعالى يوم القيامة في حسناتهم، فيأخذ منها ما يجبر خلل ذلك النقص الحاصل بالكسل مثلًا، وكأن هؤلاء الذين يقعون في عِرْضه يعملون له جميع أعمالهم ويعطونه ثوابها.

فاعلم ذلك، وإياك يا أخي والوقوع في عِرْض من تراه يتظاهر بحب الدنيا من الفقراء، فربما سلَّ منك جميع حسناتك، ونقلها في صحيفته وأنت لا تشعر، فصار رأس ماله بها كالجبال، وصار رأس مالك بما وقعتَ فيه كالهباء المنثور، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يجيب عن ولده كلما وقع في شيء من الرذائل، ويزجر عن ذلك غير ولده ويهجوه إذا وقع فيما ذُكِرَ، ولاث به الناس وقالوا فيه المثل السائر: «فإن كانت بقرة القاضي، فقال: الصغار يلعبون، والبقر تأدي».

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلى اللوث بهذا الشيخ، لأنه ربما كان عدم زجر ولده عن الرذائل إنما هو لشدة لصوقه بقلبه وشفقته عليه، من حيثُ كونه جزءًا منه، فلا يدعه ذلك اللصوق والشفقة يتمادى فيما يقع فيه من الرذائل، وذلك أبلغ من الزجر باللسان والهجر بعدم الكلام، بخلاف الأجنبي الذي ليس بينه وبينه ذلك اللصوق، ولا هذه الشفقة، ولا هذا الحنو، فإنه يحتاج إلى الزجر والتنفير عن الرذائل التي لعله يقع فيها في المستقبل، مما هو معلَّق على تلك المدافعة، حين كان اللصوق والشفقة من الشيخ ضعيفان لا يردعان ذلك الأجنبي عن تلك الرذائل، فلذلك احتاج إلى الزجر والتوبيخ والتقريع.

---

(١) تقدم بيان معناها في الحاشية.

(٢) بالأصلين: قبل. والصواب ما أثبتناه.

ثم هذا الأمر الذي ذكرناه إنما هو من شأن الفقراء الصادقين، والعلماء العاملين [مع أولادهم. أما عوام الناس فربما كان سبب عدم الزجر لأولادهم العصبية][1] والحمية الجاهلية، إذ ليس لهم قلب صادق مع الله تعالىٰ عادةً يكون علىٰ أولادهم كالمِجَن[2] تحميهم من الوقوع في الرذائل.

وربما كان سبب عدم زجر الشيخ ولده أو صاحبه مثلًا ما كُشِفَ له من سبق السعادة لولده، أو لذلك الصاحب، وأنه يموت علىٰ أكمل حال وأتم ولاية، فأجاب عن ولده وصاحبه، لعلمه بأن تلك الجناية مثلًا لا تضره. ثم إن انعكس الحكم علىٰ الشيخ، فأجاب عن الأجنبي دون ولده، حملناه كذلك علىٰ أنه كُشِفَ له عن ولاية ذلك الأجنبي دون ولده، فأجاب عنه تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ بذلك، من حيثُ إنه ولي لله عزَّ وجلَّ، لا من حيثُ الطبعُ أو الجنسيةُ.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ يقول: ولد العالم والصالح والجلَّاد وبواب الدرب لا يُرجَىٰ له فلاحٌ غالبًا. أما ولد العالم والصالح فيكتفي بتعظيم الناس له لأجل والده، وقضاء حوائجه، فيعيش في جاه والده إلىٰ أن يموت، فلا يتعب نفسه في اكتساب الفضائل. وأما الجلَّاد فهو من أصحاب الحرف الدنية التي لا يحصل فيها خلاص للذمة، فلا يحصل له رقي. وأما بوَّاب الدرب فلا يكاد يحدث نفسه بالانتقال من البوابة، فلا يترقي كذلك. وسمعتُه مرة أخرىٰ يقول: إنما كان الغالب علىٰ مشايخ الإسلام أن يكونوا من أولاد الفلاحين دون الأكابر من الأمراء والتجار وأركان الدولة، لأن أحدهم يتربىٰ في ضيق المعيشة ووزن الخراج والمغارم، والحبس والضرب والعري، فلا يزال كذلك يسأل الله تعالىٰ أن ينقله من الهم والضيق والهوان، فيستجيب له دعاءه، ويلهمه تعلم القرآن والعلم، فلا يزال كلما رأىٰ العزلة من الخلق يجد في الاشتغال، حتىٰ يصير مدرسًا مفتيًا إلىٰ أن ينفرد في بلده، فلا يكون هناك أعلم منه، فيولوه شيخ الإسلام

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

(٢) المِجَن: الساتر كالسيف ونحوه.

أو شيخ الطريق. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٠) ومما أجبتُ به عن الأمير أو شيخ العرب الذي عاند علماء زمانه ومشايخه، ولم يسمع منهم ما ينصحونه به، ولم يعتقد فيهم صلاحًا ولا خيرًا، ولاث به الناس وقالوا: فلان لا يعتقد في العلماء ولا في الصالحين، ولا يسمع لهم نصحًا، وهذا دليل علىٰ شقائه وسوء خاتمته.

والجواب: أنه لا لوم علىٰ الأمير أو شيخ العرب في خروجه عن يد العلماء والصالحين، إلا بعد تمهيد بساط له يعرف منه أن العلماء والصالحين لا يدعونه لحظِّ نفوسهم، ولا لبر يحصل لهم منه، وإنما يدعونه محبةً له وشفقةً عليه، ويبين له في ذلك البساط أن الفقراء قد خرجوا عن حب الدنيا، وصار أحدهم ينقبض خاطره إذا دخلت عليه، وينشرح إذا أدبرت عنه، ويحب كلَّ من صدَّها عنه أشد المحبة، فإذا مهد العالم أو الشيخ لذلك الأمير أو شيخ العرب هذا البساط، واعتقد صدقه فيما قال، فهناك يكون اللوم علىٰ ذلك الأمير أو شيخ العرب.

وأما طلب انقياده للعلماء والصالحين من غير تمهيد بساط، فذلك كالمحال، لأن الولاة في دائرة الحجاب عن طريق أهل الله عزَّ وجلَّ، ولا يشهدون مقامهم الذي هم فيه، ولذلك قال الله تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤] تمهيدًا لعذر فرعون من حيثُ التقديرُ الإلهيُّ الآخذ بناصيته إلىٰ الكفر والعناد، ليقيم من يدعوه إلىٰ الله العذر له باطنًا، وينهاه ويزجره ظاهرًا، قيامًا بواجب الشريعة، وما علىٰ الرسول إلا البلاغ.

وإيضاح ذلك أن الله قدَّر علىٰ الملوك والأمراء وسائر الحكَّام أمورًا تخالف ظاهر الشريعة، أو ظاهرها وباطنها من ظلم العباد، وارتكاب الفساد، وكلَّف العلماء والصالحين وجميع الرعية بالصبر تحت جورهم وظلمهم، **فكما أن الدار الآخرة محلُّ سلطان العلماء والصالحين، ومحلُّ تصريفهم بقولهم للشيء ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]، فكذلك الدنيا محل سلطان تصريف ولاتها، ومحل تنفيذ كلامهم**، فكلُّ فقير عارض أحدًا من حكّام الدنيا بغير إذن ولا تصريف له من الله، قُهِرَ وغُلِبَ، فكان في قول الله

تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا ﴾ [طه: ٤٤] فتح باب حسن السياسة منهما لكل من يدعونه من الجبَّابرين إلىٰ شرع ربهما، وفي الحديث: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[1]، وفي رواية: «إنما بعثتم مبشرين ولم تبعثوا منفرين»[2]. ولما أنف داود عليه الصلاة والسلام من مجالسة عصاة بني إسرائيل غيرةً لجناب الحقِّ تعالىٰ في انتهاكهم محارمه، أوحىٰ الله تعالىٰ إليه: «يا داود، المستقيم لا يحتاج إليك، والأعوج قد أنفتَ عن تقويم عوجه، فلماذا أُرسلت؟» فتنبه داود من غفلته عن ذلك، وصار يطبخ لهم الطعام، ويدعو العصاة إليه، ويعرض لهم بالنصح حتىٰ انقادوا له، وصلح حالهم.

وسمعتُ الأخ الصالح الأمير هندم كِيخْيا[3] الأمير إبراهيم الدفتردار يقول: أعظم الأولياء إذا عانده أمير، أتعب سرَّه بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ، ولو أنه كان مهَّد لذلك الأمير بساطًا أراه فيه ما لنفس الأمير في ذلك الأمر الذي دعاه إليه من الحظِّ والمصلحة في الدنيا والآخرة، لربما انقاد له ولم يعانده، وأراحه من قوله كلما يسجد لله سجدة: «يا الله يا الله يا الله أهلك الأمير فلانًا» ومن تعب البشر. انتهىٰ.

وقد تقدم في هذا الكتاب أن جبَّارًا كان يظلم أصحاب نبي الله داود ويؤذيهم، فكان داود يدعو عليه فلا يُجاب، فقال داود: يا رب، كم أدعوك علىٰ هذا الجبَّار ولا أرىٰ إجابة، وأنت تعلم ظلمه جوره، فأوحىٰ الله إليه: يا داود، إنما أبطيء بإجابة دعائك عليه، لأعلمك الحلم علىٰ من عصاك، فإني حليم علىٰ من عصاني لا أعاجله بالعقوبة. فسكت داود، ثم إن ذلك الجبَّار زاد في الظلم والجور، فدعا عليه داود، فلم ير إجابة، فقال: [يا ربِّ، كم أدعوك علىٰ هذا الجبَّار! فأوحىٰ الله إليه: يا داود، إنما أبطيء بإجابة دعائك عليه لأعاملك بمثل ذلك إذا ظَلَمتَ، فلا تستبعد سرعة إجابة دعاء من ظلمته؛ فسكت

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦١٢٨) وأبو داود (٣٨٠) والترمذي (١٤٧).

(٢) ذكره القاضي عياض في الشفا بلفظ: إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا منفرين (٢/ ٤٩٧).

(٣) الكيخيا: كلمة تركية تعني المشرف أو المراقب.

داود، ثم إن ذلك الجبَّار زاد في الظلم والجور، فدعا عليه داود فلم ير إجابة][1] فقال: يا رب، كم أدعوك فلا تجيب دعائي، فأوحىٰ الله إليه: يا داود، إني قضيتُ عليه في سابق علمي بأمور تقع علىٰ يديه في سنين عديدة أؤاخذه بها، فاصبر حتىٰ تمضي عليه تلك السنون، أفتريد أن أغير لأجلك ما سبق في علمي؟ انتهىٰ.

وقد خبرتُ أنا الولاة في هذا العصر أشدَّ الخبر، لاسيما بني بغداد، فلا أرىٰ نفسي إلا كالحاوي مع الأفاعي، فأنا أكره لهم الظلم والجور، وهم يكرهون معارضتي لهم، فتارة يرضون عني، وتارة يسخطون عليَّ، وتارة يبعث[2] الله تعالىٰ من يواظبهم [علىٰ] الاعتقاد في صدقي، وتارة ينزل في مواظبتهم رائحة الاعتقاد في حال كربهم وشدتهم. وقد عُرِفُوا بي وعُرِفتُ بهم، فلا أقدر علىٰ عدم الشفاعة في المظلومين، ولا هم يقبلون شفاعتي في كلِّ ما أشفع، لاسيما في رد الخيول والبقر والغنم التي ينهبونها من المتهومين ونحوهم. فأسأل الله تعالىٰ أن يدبرنا وإياهم بحسن التدبير. وقد ماتوا كلهم بالسيف، وبقي منهم عبد الله بن حجازي، وأنا وإياه علىٰ الحرب في أكثر الأيام، وما قاسيتُ من أحد ما قاسيتُ منه! فالله تعالىٰ يغفر له، ويريحنا منه بإصلاح الحال! آمين اللهم آمين.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من طلب انقياد الناس له بغير هذه الثلاث خصال، فقد رام المحال، وهي: الصلاح، والإحسان، والسيف. وكان يقول: إياكم أن تدعوا علىٰ ولاتكم، إنما الأدب مع الله أن تدعو لهم بالتدبير، ولرعيتهم بالصبر علىٰ جورهم. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨١) ومما أجبتُ به عن الأمير أو شيخ العرب إذا قال: أنا لا أعتقد في عالم أو صالح إلا إن أظهر لي كرامة، أو كاشفني عما يقع لي أو لغيري في المستقبل، أو عرف عدد مالي، أو أخذ بيدي في شدة ونحو ذلك؛ فلاث به الفقراء وقالوا: إنه قليل الاعتقاد في

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط في «ب».

(٢) بالأصلين: يبرح.

العلماء والصالحين [ولم يشترطوا في الصلاح][1] شيئًا من ذلك، وإنما شرطوا الاستقامة علىٰ الشريعة فقط، فحيث وجدنا العالم أو الصالح مستقيمًا علىٰ الشرع، وجب علينا اعتقاده، والعمل بما يرشدنا إليه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأمير الذي قال مثل ذلك، لأن وجود هذه الشروط التي شرطها هي الأمر الفارق بين الأولياء والعوام، فما لم يأتِ بها الوليُّ لا تمييز له عنا، فإن الكرامة للوليِّ كالمعجزة للنبي، هذا حكم السياج الذي فيه غالب الناس في هذا الزمان وفيما قبله، وإن كان ذلك ليس شرطًا في الاعتقاد عند أهل البصائر، إذ الوليُّ كلما ارتفع مقامه، خفي بين الناس وقلَّت كراماته بين أصحابه، فإن كثرة كرامات الولي إنما هي لقلة يقين أصحابه، وضعف إيمانهم بطريقه.

وأما الكشف للكامل فيرتفع جملةً، لما فيه الاطلاع علىٰ عورات الناس، وهذا أمر لا يلحظه العوام، بل يقولون: كلُّ شيخ لا يكاشفنا بما يقع لنا في مستقبل الزمان فهو نصَّاب لا فرق بيننا وبينه؛ ولا شك أن غالب الولاة اليوم عوام، فإذا قال أحد منهم: أنا لا أعتقد في الشيخ الفلاني إلا إن أظهر لي كرامة، فلا حرج عليه فيه، والأمر في ذلك راجع إلىٰ الشيخ، فإن رأىٰ في إظهار الكرامة لذلك الأمير فائدةً ترجح علىٰ إخفائها، فله أن يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في إظهارها، وإلا ترك التوجه إلىٰ الله في ذلك، إذ لا فائدة حينئذٍ في إظهارها.

ولذلك كان من شأني دائمًا إذا طلب أمير مني الصحبة لا أجيبه حتىٰ أتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في ذلك، فأقول: «اللهم إن كان في صحبة فلان خيرًا لي وله وللمسلمين، فسهِّل علينا أسباب ذلك، وإلا فاصرفه عنا واصرفنا عنه من فضلك وإحسانك» فإن سهَّل الله الأسباب كانت الخيرة في ذلك، وإن دفعه عنا كانت الخيرة في ذلك.

وكثيرًا ما يعتقد الأمير في الفقير إذا أخذ بيد الأمير في شدة وكاشفه بما يحصل له، ثم بعد مدة ينسىٰ الأمير ذلك، ويترك اعتقاده في ذلك الوليِّ، فلا ينبغي للوليِّ أن يأخذ

(١) زيادة يقتضيها السياق.

عليه في ذلك، ويطلب منه الاعتقاد فيه[1] كما كان في وقت الشدة، فإن ذلك أمر لم يجعله الحقُّ تعالىٰ لنفسه، بل ذكر عن بعض عباده ضد ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] الآية، فشيء لم يجعله الحقُّ تعالىٰ لنفسه، مع ظهور قدرته، ومع خلقه لهم ورزقه لهم وإيجادهم من العدم، كيف يطلبه عند ضعيف من أبناء جنسه؟!

وتأمل قول أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، كيف رد الله تعالىٰ عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] وما كانوا كاذبين إلا من حيثُ ظنُّهم أنهم إذا عادوا إلىٰ الدنيا يستمر معهم الذوق الذي كان معهم في النار، ولو أنهم علموا أنهم إذا عادوا يتغير عليهم ذلك الذوق بحكم القبضتين، ما قالوا ذلك. فقول الشيخ سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ: «إنه لا ينبغي لفقير أن يطلب من أمير صحة الاعتقاد فيه إلا بعد أن يأخذ ذلك الفقير بيد الأمير في الشدائد بعد أن انقطعت منه الحيل» مراده الاعتقاد عقب الأخذ بيده لا دائمًا، لما قررناه آنفًا من عدم وقوع ذلك في حقِّ الباريء جلَّ وعلا، وفي حقِّ أهل النار.

وقد قال لي شخص من أولاد ابن بغداد: أنا لا أعتقد فيك وأقبل شفاعتك وأخاف منك إلا إن رأيتُك تمشي علىٰ الماء أو في الهواء. فقلتُ: هذا أمر لا تجده في هذا الزمان في أحد من فقرائه حتىٰ تموت، وهي من مكائد إبليس بك حتىٰ يخرجك من الدنيا، أو من ولايتك من غير أجر ولا تفريج شيء من الكرب، ولو كنتَ من أهل الدين والخير لم تقل مثل ذلك، بل كنتَ تنظر في كلِّ شيء شفع فيه الفقير عندك، فإن وجدتَه موافقًا للشريعة وفيه خلاص لذمتك في الدنيا والآخرة، ألزمتَ نفسك به، وشكرتَ فضله علىٰ تنبيهك عليه، فإنه قل فقير أو عالم ينصحك أو ينهاك إلا علىٰ هذا الشرط.

---

(١) بالأصلين: منه. والصواب ما أثبتناه.

فكأن الفقير الذي يصحب أحدًا من ولاة الزمان يطلب يحرس التماسيح الهائجة علىٰ السمك أن [لا][1] تأكل منها سمكة وتموت التماسيح جوعًا، أو كأنه الحاوي مع الأفاعي وإن كان ذلك الفقير سببًا في ولاية ذلك الأمير بتوجهه إلىٰ الله تعالىٰ في ولايته [كان ضرر ذلك الأمير علىٰ الفقير أشد، لكونه صار شريكه في كلِّ ظلم وقع فيه بتوجهه إلىٰ الله في ولايته][2]، كما وقع لي ذلك في تولية واحد من أولاد بغداد، فإني توجهتُ إلىٰ الله تعالىٰ في توليته فولاه، فظلم العباد والبلاد ولم يشكر الواسطة، وقال: ما ولَّاني إلا الله تعالىٰ أو فلوسي الذي بذلتُها للحكَّام. فتوجهتُ إلىٰ الله تعالىٰ في عزله وقتله، لأخرج أنا وإياه من الإثم، وأطهره من ذنوب تلك الولاية، ولم أزل أتوسل إلىٰ الله بأنبيائه وأوليائه حتىٰ شنقوه في باب زويلة، وكان ذلك مني بحمد الله من شدة محبتي فيه لا بغضًا له، وذلك ليوافي القيامة مطهَّرًا من الذنوب كلها أو بعضها علىٰ ما سبق في علم الله عزَّ وجلَّ، فاعلم ذلك، وتأمل فيه أيها الفقير الذي برز للمشيخة في النصف الثاني من القرن العاشر، فإنه ينفعك إن عملتَ به، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سافر الحجاز، وقال الناس لأمير الحاج: إن هذا الشيخ هو غفير الدرب، فإياك أن تخل بواجب حقه. ثم إن ذلك الفقير حصل له مرض أو وقع من فوق جمله، فانكسر ظهره، أو عظم وركه، فلم يزل مريضًا في الذهاب والإياب، ولا تهنىٰ بحج ولا عمرة في رأي الناس، ولاث به بعض المجادلين وقالوا: أيش قام علىٰ فلان يعمل غفير الدرب مع عجزه عن مثل ذلك؟

والجواب: أن مرضه أو كسر عظمه المذكور من أعظم الأدلة علىٰ تحمله البلاء عن الركب بفدي جمالهم وأموالهم بنفسه، فاللائق بالناس مدحه، وأن يشكروا فضله لا اللوث به.

وقد وقع لسيدي عليِّ بن المُنيِّر مثل ذلك في حجه مع الأمير خضر في ستة أربع

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ساقط من «ب».

وستين وتسعمئة، فإن الأمير المذكور كشف رأسه وقَبَّل رجلي، وطلب مني الحج معه في تلك السنة، فقلتُ له: لعل الحج لم يكتبه الله لي في هذه السنة، ولكن بحمد الله تعالىٰ يرسل الله لك سيدي عليًّا المُنَيِّر يحج معك، وتكون سفرتك مباركة، فإن والده كان غفير الدرب نيفًا وستين سنة، فانشرح الأمير لذلك وأخذه معه، فوقع سيدي عليٌّ في منزلة [...][1] في الطلعة من فوق ظهر جمله، فانكسر عظم وركه، وما طاف إلا في بردة بين اثنين يحملانه، ولم يزل كذلك حتىٰ رجع إلىٰ بلاده، فعلمتُ أنه تحمل بلاء الركب في هذه السنة، وفداهم بنفسه ﷺ. وذكر بعض الناس أن تلك الوقعة إنما هي معارضة من أصحاب النوبة من أولياء الركب، والله أعلم بحقيقة الحال، فاعلم ذلك، وإياك والفضول وحمل الفقراء علىٰ المحامل السيئة، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٣) ومما أجبتُ به عن الذي سمع عن زوجته ريبة، فصبر ولم يطلقها، فلاث به بعض الأصحاب وقالوا له: كان من المروءة طلاقها، والنساء سواها كثيرًا، وقد روىٰ البيهقي: «أن رسول الله ﷺ قال: إن من الغيرة التي يحب الله الغيرة في الريبة»[2].

والجواب: أن ما فعله هذا الرجل من عدم الطلاق هو المروءة، لاسيما إن كان له منها أولاد، لأن فيه سترة له ولها ولأهلها من العار، إذ الطلاق عقيب الريبة تحقق المناط عند الناس، ويقولون: لولا رأىٰ الريبة بعينه ما طلَّق.

وأما الجواب عن قوله ﷺ: «إن من الغيرة التي يحب الله الغيرة في الريبة» فلا ينافي ذلك، لأن المراد أنه لا يرضىٰ بذلك في نفسه، وليس المراد به إشاعة ذلك، فافهم، فيحتاج من استُشير في عياله هل يفارقها أو لا إلىٰ نفوذ بصر وبصيرة في أن الفراق أولىٰ أو الإقامة أولىٰ. وأما من ليس عنده بصيرة كغالب الناس ممن عنده نخوة العرب من

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصلين. والظاهر أنها «إكرا».

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٦٥٩) من حديث جابر بن عتيك: «أن نبي الله ﷺ كان يقول: من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله، فأما التي يحبها الله فالغيرة في الريبة، وأما الغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة...» وابن ماجه (١٩٩٦) والنسائي (٢٥٥٨)، والبيهقي في السنن (١٤٨٠١).

الجهل بعواقب الأمور في الدنيا والآخرة، فلا ينبغي أن يُستشَار، لأنه ربما أشار بقتل الزوجة ظلمًا وعدوانًا، كما وقع لبعض أصحابنا من الفلاحين، قال له بعض الناس: سمعنا أن ابنتك رأوها مع الراعي لبهائمك. فقال لها والدها: قومي املي الجرة من البحر. وتبعها بدبوس، فأول ما طأطأت رأسها لتملأ الجرة ضربها، فانكبت علىٰ وجهها في البحر فماتت، ثم أتوا بالغطاس وأطلعوها، وجاءت القوابل فأخبرت أنها بكر، وكان والدها هذا صاحب ثروة وأموال كثيرة من نقود وجمال، وبقر وخيل وغنم، فماتت كلُّها، وحوَّل الله عنه النعمة، ثم عمي بعد أشهر.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك أن تشير علىٰ أحد بفراق زوجته، لاسيما إن كان ذلك فضولًا منك، ولم يستشرك فيه صاحب القضية. وإن وقع أنه استشارك، فقل له: شاور غيري في ذلك، وإياك والتعريض بذكرحكاية من وقع له مثل تلك القضية بحضرة من وقع له نظيرها، وتقول: قد أعجبني فلان في طلاق زوجته أول ما سمع عن زوجته الريبة، فإنك تصفر وجهه وتكلحه بين الناس، وذلك حرام.

وقد هجرت السيدة عائشة رضي الله عنها عليًّا رضي الله عنه زمانًا طويلًا، لقوله في قصة الإفك: «يا رسول الله، لن يضيق الله عليك والنساء سواها كثير»[1] وقالت: «كيف يشير علىٰ رسول الله ﷺ بفراقي؟» مع أن عليًّا رضي الله عنه لم يقل ذلك إلا ليخفض ما عند رسول الله ﷺ من الكرب بسبب مفارقتها، ولم يقصد بذلك المفارقة الحقيقية، فإنه يعلم شدَّة محبته لها ومحبتها له، وشدَّة كراهة أبي بكر للفراق، فكيف يشير بما فيه كدر [علىٰ] رسول الله ﷺ وعلىٰ عائشة وعلىٰ أبيها وأخوتها؟

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: إنما قدَّر الله تعالىٰ مثل تلك الإشاعة التي لا حقيقة لها بنص القرآن علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ عياله وألهمه الصبر ووقع ما وقع، ليتأسىٰ به أمته من بعده، وربما حمل عن أمته بتلك الواقعة ما لعلَّه كان يهلكهم حزنًا وغمًّا إذا وقع لهم ريبة في عيالهم الدَّيِّنة الخيرة أمِّ الأولاد التي علقت محبتها في قلوبهم،

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠).

كما حمل آدم عن بنيه بأكله من الشجرة، وما وقع له بسببها من الحزن والبكاء ما لعله كان يهلكهم حزنًا وغمًّا، ولم يزل الأكابر في كلِّ عصر يتحملون عن قومهم الشدائد، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك إلا بطريق شرعيٍّ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٤) ومما أجبتُ به عن الشخصين اللذين ذهبا إلىٰ شخص بينه وبين شخص معاداة ليصلحا بينهما، فانقلب أحد الشخصين مع العدو الذي ذهبا إليه، فلاث به الناس وقالوا: أنت ذهبت لتساعد صاحبك والَّا تساعد عليه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من انقلب مع العدو المذكور، لأنه ربما أظهر للعدو ما يفهمه منه المحبة له، ليميل إليه ويصغىٰ إلىٰ قوله، كما هو شأن أهل السياسة المؤلِّفين بين الناس، وذلك أن أحد العدوين[1] متىٰ ظهر له من الواسطة تقديم خصمه عليه، صار خصمًا، واحتاجا إلىٰ شخص ثالث ليؤلِّف بينها، فنعم ما فعل هذا الذي أظهر المحبة لمن ذهب إليه ليؤلِّف بينه وبين عدوه! ولو أن رفيقه الآخر كان كامل السياسة، لأظهر الآخر لذلك العدو المحبة، وتقديمه علىٰ من جاء يسعىٰ في التأليف بينه وبينه.

وقد وقع مثل هذا الأمر لصاحبي سيدي محمد بن الأمير[2] حين ذهب هو وأخوه سيدي شرف الدين[3]، ليؤلِّفا بيني وبين عبد الله بن بغداد، فإن سيدي شرف الدين جاء علىٰ عبد الله بالكلية، ومحمد أظهر له أنه يحبه أكثر مني، فمال إلىٰ سيدي محمد أكثر، وجاءني جماعة عبد الله وقالوا: ما رأينا أحدًا يحبُّك مثل سيدي شرف الدين، وأما أخوه

---

(١) بالأصلين: العدو.

(٢) قال سيدي الشعراني: محمد بن الأمير شيخ سوق أمير الجيوش، أشرف علىٰ الموت وهو بمكة، وأوصىٰ فرآني خرجت له من الحائط، وأخذت بيده، وقلت له: قم أنت طيب، فاستقل من ذلك المرض، وذكر أن رؤيته لي كانت يقظة، فإن صح ذلك فهو في غاية الاعتقاد؛ لأن من كان اعتقاده ضعيفًا لا ينهض به أن يراني في اليقظة. «المنن الكبرىٰ» (١/ ٤٣٣).

(٣) قال سيدي الشعراني: وأما شرف الدين فمرض وأنا مسافر بمكة حتىٰ أشرف علىٰ الموت، فرأىٰ نفسه عائمة في الخليج تحت قنطرة باب القوس، وهو يعالج التيار ليخرج من القنطرة، فذكر أني أخذت بيده، فأخرجته من تحت القنطرة، وخلص من ذلك المرض. «المنن الكبرىٰ» (١/ ٤٣٣).

فصار يداري عبد الله، والحال أن كلًّا منهما محب لي، ولكن كان محمد في ذلك الوقت أتم سياسة من أخيه، فاعلم ذلك يا أخي، واشكر فضل من ذهب إلىٰ عدوك يسعىٰ في الصلح بينك وبينه، فصار يوافقه فيما يقول في حقِّك، ولا يجيب عنك بكلمة واحدة، فإنه إنما فعل ذلك ليصطاده إلىٰ طريق التأليف.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا ذهبت إلىٰ خصم صاحبك لتؤلِّف بينهما، فإياك أن تجيء مع صاحبك، فإنه ينفر منك، ولا يسمع لك كلامًا، لأنه يفهم بأنك مع صاحبك بلا ظهور شيء يفهم عنك به ذلك، فكان من العقل أن تجيء علىٰ صاحبك، وتقيم الحجة لخصمه عليه، حتىٰ يظهر له أن الناس علموا أنه مظلوم مع صاحبك، فإن بذلك يحصل سرعة التأليف بينهما، بخلاف ما إذا أجبتَ عن صاحبك، وأقمتَ الحجة علىٰ خصمه، فإنه يطول زمن التنافر بين صاحبك وبينه كما جُرِّب.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ يقول: من أراد طول النزاع والعداوة بينه وبين خصمه، فليقم الحجة عليه، ويجعل نفسه مظلومًا وخصمه ظالمًا، فإن الآخر يرىٰ نفسه كذلك مظلومًا وخصمه ظالمًا، فلا يحصل بينهما ائتلاف ما داما كذلك. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سمع قارئًا يقرأ القرآن أو ينشد شعرًا في رسول الله ﷺ أو في الطريق، فقام وتواجد وبكىٰ، ثم ضم ذلك المنشد وقبَّله في فمه وخدِّه، والحال أن القارىء أو المنشد حسن الوجه، فلاث به الحاضرون وحملوه علىٰ أن ذلك بشهوة وأنه منفعل.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ مثل هذا الشيخ إلا إذا امتحناه بمنشد آخر مشوَّه الوجه، أو طاعن في السن، فإن سمعه وقام وتواجد وبكىٰ وقبَّله كما قبَّل الأمرد، سلمنا له حاله، وإلا فلنا حينئذٍ الإنكار عليه، عملًا بالاحتياط. ولنا أيضًا حمله علىٰ المحامل الحسنة كما هو اللائق بأحوال الفقراء.

ثم إن هذا المنكر لو تأمل في نفسه، لوجد اللوم علىٰ نفسه هو قبل ذلك الشيخ، فإنه لو جاهد نفسه وصفَّاها من الرذائل، لكان حمل ذلك الشيخ ببادئ الرأي علىٰ أنه ما قبَّله إلا بحقٍّ، تعظيمًا لذلك الكلام الذي طلع من فمه من قرآن أو مدح لرسول الله ﷺ ونحو ذلك، كما هو شأن غالب الفقراء.

فإن قلت: فما الجواب عن هذا المنكِر، لأنه ربما قصد بإنكاره الاحتياط للشيخ، خوفًا أن يتشبه به أحد من غير صدق فيهلك؟ فالجواب: تحمله أيضًا علىٰ المحامل الحسنة، هكذا الأمر الذي ذكر في السؤال ونحوه، كأن يفتح لهذا الشيخ ما هو أولىٰ مما صنع فيخفي تواجده، ويترك تقبيل ذلك القارئ مثلًا بفمه ويقبله بقلبه، فعُلِمَ أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ من أنكر، ولا علىٰ من سكت إلا بطريق شرعي واضح، والقرائن إحدىٰ الأدلة، لاسيما إن أجمع الحاضرون كلُّهم علىٰ أنه متفعل أو علىٰ أنه صادق، فلا ينبغي مخالفتهم، و«يد الله مع الجماعة»[1] فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٦) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أعطىٰ أخاه شيئًا يخيطه له حال مجلس ذكر أو صلاة علىٰ رسول الله ﷺ، فلاث به الحاضرون وقالوا للمعطي: قد أشغلتَه بذلك عن الذكر، وأسأتَ في حقه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الفقير، بل الواجب حمله علىٰ أنه ظنَّ بذلك الخياط أنه لا يشتغل بذلك عن الله عزَّ وجلَّ لكماله وتمكنه، كما أنه لا ينبغي أيضًا المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من أنكر، لأخذه بالاحتياط للخياط ولمن أعطاه ذلك المخيط، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٧) ومما أجبتُ به عن الأمير أو شيخ العرب الذي كان يقول لأصحابه قبل ولايته وأيام عزله: إن توليتُ أحسنتُ إليكم وقضيتُ حوائجكم، ورأيتُم مني خيرًا عظيمًا، فكونوا معي بالقلب في الدعاء إلىٰ الله تعالىٰ أن يوليني الولاية الفلانية. ثم لما ولَّاه الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٦)، وابن حبان (٤٥٧٧)، والحاكم (٣٩٨).

تعالىٰ تلك الولاية، لم ير منه أصحابه خيرًا ولا قضىٰ لهم حاجة، فلاث الناس به وقالوا: هذا من علامة النفاق، وهو من أهل قوله تعالىٰ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥] إلىٰ آخر الآيات.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ حمله علىٰ النفاق، لاحتمال أن أصحابه ما شكوا منه إلا لحكمه بالحقِّ عليهم، وعدم مداهنتهم فيه، لاسيما أهله وأقاربه. وأما عدم إحسانه فيجب حمله علىٰ أنه لم يجد في ولايته شيئًا حلالًا يعطيه لهم، فنزههم عن أن يلطِّخ قلوبهم وأبدانهم بشيء من الحرام والشبهات، وقد أنزل الله تعالىٰ في التوراة ما نصُّه: «إذا رأيتُم العالم أو الصالح يذمُّه أهله وجيرانه، فاعلموا أنه أقام العدل فيهم؛ وإذا رأيتُموه يمدحه أهله وجيرانه، فاعلموا أنه داهنهم في الدين». انتهىٰ. وهذا جري علىٰ الغالب، فقد يقيم الأمير أو الداعي إلىٰ الله تعالىٰ العدل في الرعية، ومع ذلك يمدحونه لحسن سياسته وحسن خلقه، وكان عمر بن الخطاب يقول: ما تركت لي كلمة الحق من صديق، أي في العامة، وإلا **فالصديق الحقيقيُّ أعظم أصدقائه من ينصحه في دينه، وينكر عليه إذا خالف طريق الصواب.**

وقد أجبت بذلك عن الولاة الذين صحبناهم من بني بغداد وبني عمر وغيرهم من الكشَّاف[1]، فما منهم أحد إلا وعد الفقراء بشدة الانقياد لهم إذا تولَّىٰ، وقبول شفاعتهم في المظلومين من جماعتهم، ثم إذا تولَّىٰ نسىٰ ذلك كله. وقد تقدم في هذا الباب أن الله تعالىٰ لم يجعل لنفسه أن تكون عبيده معه حال الرخاء مثل ما يكونون معه حال الشدَّة، وإن شيئًا لم يجعله الله تعالىٰ لنفسه، فلا ينبغي لعبد طلبه من الناس، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حكىٰ له بعض تلامذته شيئًا من أخلاق أحد من أقرانه من ورع وزهد وتوكل وغير ذلك مما لا يقدر هو علىٰ المشي عليه، فقال: هذه

(١) جمع كاشف، والكاشف: هو من يقوم بالتفتيش علىٰ الأراضي الزراعية.

أمور من جملة التنطعات في الدين، وقد أدركنا من الأشياخ جماعةً لا يصلح أن يكون هذا تلميذًا لهم، ولم يكن أحد منهم يفعل شيئًا من مثل ذلك؛ فلاث به جماعة الشيخ الأول وقالوا: هذا أقلّ من فلان! ولأي شيء لم يكن يقول: هذا ورع لم تبلغه أحوالنا ولا أحوال أمثالنا! ويبجِل به بين أصحابه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ الثاني، ولا علىٰ جماعة الشيخ الأول. أما الشيخ الثاني فلأنه ربما خاف من مدح الشيخ الأول تقوية قلوب الفقراء، فيميلوا إليه بالاعتقاد، ويشركوه مع شيخهم، فلا يصح لهم نفع علىٰ يده ولا يد شيخهم. وربما كان في غاية الاعتقاد في ذلك الشيخ الذي نقلوا عنه الورع والزهد.

وأما الجواب عن جماعة الشيخ الأول، فلأنهم ما تكلموا إلا بحسب مقامهم واعتقادهم في شيخهم، وحجابهم عن مقام الشيخ الثاني.

وقد دخلتُ مرةً علىٰ جماعة من الإخوان، فرأيتُ عندهم شيخًا صحبوه من غير علمي، فقبلتُ رجله بحضرتهم، بقصد تقوية اعتقادهم فيه، فمالوا إليه، فتبدد حالهم بيني وبينه، فاستغفرتُ الله تعالىٰ وتنكرتُ عليهم، وصرتُ أمدح ذلك الشخص، وأتظاهر لهم بأمور يقع فيها العوام، حتىٰ تحولوا إلىٰ ذلك الشيخ بالكلية، لكن بعد تعب شديد، فاعلم ذلك، وإياك والمزاحمة علىٰ كلِّ ما فيه رئاسة علىٰ إخوانك إلا بحقٍّ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أصلي الصلوات الخمس دائمًا تحت الميزاب في الحِجْر، أو خلف المقام، أو في مسجد المدينة المشرفة، أو علىٰ جبل «ق» أو علىٰ سد إسكندر ذي القرنين، أو في الجامع الأبيض برملة لُدّ(١)، أو في بيت المقدس، مع أن جماعة في الزاوية يصلون معه كلَّ صلاة من الخمس في زاويته لا يفارقهم وقتًا واحدًا، فلاث به الناس فـ[بعضهم] قالوا: ربما يكون هذا من الأبدال! وبعضهم يقول: هذا نصَّاب كذَّاب من عادته الكذب والدعاوىٰ التي لا يشهد له بها دليل ولا شيء من أحواله.

---

(١) رملة لد: إحدىٰ مناطق فلسطين، تقع علىٰ الطريق القديمة بين يافا والقدس. والجامع الأبيض -الآتي ذكره- يعود بناؤه للعصر الأموي، وقد تدمر في حرب (١٩٤٨م)، ولم يبق منه الآن غير مأذنة.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من أصحاب الخطوة، فيصلي في الأمكنة المذكورة بعد صلاته في زاويته أو قبلها. ويُحتمَل أن يكون ممن استحكم فيه الحضور مع الله تعالىٰ في هذه الأماكن لشرفها، أو لعلة موافقة لمزاجه، فبمجرد ما يحرِم يرىٰ روحه في مكان من هذه الأماكن، أو في كلِّها في وقت واحد. ومعلوم أن المدارَ علىٰ حضور الروح، فإذا حضرت في مكان تبعها الجسم ضرورةً. ويقع لي هذا الأمر كثيرًا، حتىٰ إني أضع يدي علىٰ الحجر الأسود، أو علىٰ قبر رسول الله ﷺ حال الصلاة، وتنطوي المسافة بيني وبين ذلك المكان، مع أني واقف مع المصلين في بيتي أو في الزاوية من غير تكلُّف في ذلك.

وسمعتُ سيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي وكان من أرباب الأحوال يقول: من أولياء الله تعالىٰ من يطوف المشرق والمغرب وهو نائم علىٰ فراشه أو جالس، ومنهم من يدور المشرق والمغرب بانقلابه من جنب إلىٰ جنب. قال: ومن أهل هذا المقام في زماننا هذا: الشيخ محمد بن عنان والشيخ علي الخواص، وكانا من أصحاب الخطوة في بدايتهما، فكان الشيخ محمد هذا يطوف المشرق والمغرب كلَّ ليلة، ويغزو بلاد الفرنج مع الفقراء كلَّ ليلة طول السنة. وكان الشيخ عليٌّ هذا يصلي الصلاة الخمس في أماكن متعددة كلَّ يوم، فتارة يصلي في الجامع الأبيض برملة لد، وتارة ببيت المقدس، وتارة بمكة، وتارة بالمدينة، وتارة بجبل «ق» أو سد إسكندر، ثم يرجع. ثم لما كمُل حالهما صارا يصليان في هذه الأماكن من غير مشي ولا انقلاب من جنب إلىٰ جنب. انتهىٰ.

وقد أعطاني الله تعالىٰ هذا المقام ليلة السبت، تاسع عشر صفر الخير، سنة خمس وستين وتسعمئة وأنا في التهجد، فكنتُ أجهد أن أشهد نفسي في زاويتي فلا أقدر أخرج من زاويتي بالحِجْر أو من الروضة النبوية، وكنتُ قبل ذلك لم أزل أرىٰ نفسي أصلي تحت النخيل بالعقبة علىٰ ساحل البحر، فلم أزل أقرب كل قليل إلىٰ بدر إلىٰ رابغ[1] إلىٰ الشجرة التي تجاه النازل من باب المصلىٰ حتىٰ دخلت مكة، فله الحمد علىٰ نعمه التي لا تُحصىٰ،

---

(١) رابغ: إحدىٰ محافظات منطقة مكة المكرمة.

وله الحمد علىٰ كل حال. فاعلم ذلك، وسلِّم للفقراء ما يدعونه من المقامات التي تكون للأولياء، وإياك والإنكار، فإن العبد ربما عوقب بحرمان كلِّ مقام أنكره عقوبةً له.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: ما ثم إلا كشف حجاب، فربما انكشف حجاب العبد، فرأىٰ نفسه في السماوات مع أهلها، أو مع أهل العرش أو الكرسي، وهو جالس في مكانه لم يبرح، ولولا ذلك ما كانوا يعرفون أسماء الملائكة التي لم يأتِ بها وحي، ولا عرفوا أسماء بوَّابي[1] السماوات. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزعم أن الجن يقرؤون عليه القرآن، ويرد عليهم الغلط واللحن، أو يزعم أنه يسمع الريح أو الرحا أو الطاحون أو الشجر وهم يقرؤون كذلك القرآن بلفظه المعروف عندنا، ولاث به الناس وقالوا: هذا أمر ما سمعنا به إلا في حقِّ الجن فقط. وأما في الريح وما ذكر معه، فلم يبلغنا ذلك عن أحد، ولكن قد كثر الكذب والدعاوىٰ الباطلة في هذا الزمان.

والجواب: أن سماع نطق الجمادات وقع للصحابة ومن بعدهم بالقرآن والذكر[2]، وكذلك الشجرة التي سجدت للتلاوة، كما ورد في الصحيح[3]، ولكن لم يزل

---

(١) بالأصلين: بوابين. والصواب ما أثبتناه.

(٢) كسماع ابن مسعود ﷺ لتسبيح الطعام، أخرج البخاري (٣٥٧٩) من حديث عبد الله قال: «كنا نعدُّ الآيات بركةً، وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقل الماء. فقال: اطلبوا فضلة من ماء. فجاءوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل فأدخل يده في الإناء، ثم قال: حي علىٰ الطهور المبارك، والبركة من الله. فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» وأحمد (٤٣٩٣) وغيرهما.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٤٢٤) من حديث ابن عباس قال: «جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رأيتني الليلة وأنا نائم كأني كنت أصلي خلف شجرةٍ، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود -قال ابن جريج: قال لي جدك: قال ابن عباس- فقرأ النبي ﷺ سجدةً ثم سجد. قال ابن عباس: فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة» وابن ماجه (١٠٥٣) وابن حبان (٢٧٦٨) والحاكم (٧٩٩) وقال الذهبي: صحيح.

المحجوبون ينكرون علىٰ من رُفِعَ حجابهم في كلِّ عصر. وكان الغزالي يقول: كلام الجمادات والوحوش والطيور وغيرها لا يشبه شيئًا من كلام البشر، ولا يُدْرَكُ إلا بالكشف، لأن حروفه لا تشبه حروفنا، وكذلك كلام الجن يخالفوننا في كلِّ حرف لم تنطبق عليه الشفتان، لأنهم لا يقدرون علىٰ النطق به، كما مر في باب الأجوبة عن الجن[1].

فإن قلتَ: فهل يثاب من سمع قراءة القرآن من الريح والرحا ونحوهما، كما يُثاب إذا سمع القرآن من الإنس؟ **فالجواب:** نعم، إذ لم يرد لنا دليل يمنع من ذلك، وقد قال بعض العارفين: إن كلام الحقِّ تعالىٰ إذا وقع يدخل في أسماع كلِّ شيء خلقه الله من العلويات والسفليات من جميع المكلَّفين، فلا يجهله أحد، وذلك لعدم تحيز كلام الحق تعالىٰ في جهة، حتىٰ الكفار، ولكن ينزل عليهم الحجاب بعد ذلك، كما أنهم أجابوا يوم «ألست بربكم» بالربوبية، ثم كفروا بالله بعد ذلك. انتهىٰ، هكذا قال هذا العارف، ولا يخلو من نظر، فليُتأمَل، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩١) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي يقول: ليس لوليٍّ بعد موته تصريف في الدنيا ولا حَلٌّ ولا ربط، بل هم مشغولون في البرزخ بما هم فيه من نعيم أو غيره، ووجوههم للآخرة، وظهورهم للدنيا، فلا يعرفون من يزورهم، ولا من يهدم قبورهم، ولاث به الفقراء وقالوا: هذا دليل علىٰ عدم اعتقاد هذا في طائفة الأولياء.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ مثل هذا الفقيه، لأنه فقيه اسمًا لا جسمًا، ولو أنه كان له إلمام بكتب الشريعة، لعرف أن جميع الأموات يدرون من يزورهم ومن يؤذيهم، ولكن لا ينطقون، أو ينطقون ولكن حُجِب أهل الدنيا عن سماع كلامهم رحمةً بالخلق، كما ورد: «لولا أن تدافنوا -أي تموتوا- لسألتُ الله تعالىٰ أن يسمعكم عذاب القبر»[2]. انتهىٰ. ولكن ربما كشف الله تعالىٰ الحجاب عن بعض الأولياء، فسمع كلام الميت

---

(١) لا يوجد في الكتاب باب في الأجوبة عن «الجن» بل ذكر ﷺ في المقدمة أنه أفرد كتابًا خاصًا في الأجوبة عن الجن والملائكة. وهذا يدعم ما ذكرناه في تحقيق اسم الكتاب.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٧)، وأحمد (١٣٠٨٠).

كما تسمعه البهائم، وذلك إذا أُعطي مقام كتمان الأسرار الذي فيه البهائم، فإن سماعها كلام الميت وعذابه[1] دون الآدميين ليس هو لشرفها عليهم، وإنما ذلك لكونها ليست من عالم التعبير، فكل ولي قدر علىٰ كتم الأسرار، سمع كلام الموتىٰ وعرف أحوالهم.

وقد يعطي الله تعالىٰ وليَّه الكبير كالإمام الشافعي، والإمام الليث، والسيدة نفيسة[2]، والسيد أحمد البدوي، وأضرابهم مَلَكًا عند قبره يقضي حوائج المتوجهين إليه علىٰ صورته، ويكون بينه وبينه ارتباط يعرف به الزائر وحاجته، وما يفعله معه من الأدب أو سوء الأدب.

ومما وقع لي مع الإمام الشافعي أنني دعيتُ إلىٰ وليمة في الروضة، فرأيتُ قبة الإمام الشافعي وأنا ذاهب، ولم أعطف علىٰ زيارته، فجاءني تلك الليلة في الروضة وقال: أنا عاتب عليك وعلىٰ الشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي شيخ الإسلام، وعلىٰ الشيخ نور الدين الشوني في قلة زيارتي، ولو كنتُ أقدر لزرتُكم! ولكن أمر البرزخ أشغلنا عنكم. فقلتُ له: قد زرتمونا هذا الوقت. فقال: هذه زيارة أرواح لا أجساد. انتهىٰ. فلولا أنه عرف مروري علىٰ قبره من بعيد ما عتب عليَّ.

وكذلك مما وقع لي مع السيدة نفيسة أنني زرتُها من عتبة باب ضريحها المكتوب عليه التاريخ، ولم أدخل حرمةً لها من حيثُ إنها حريم علىٰ كلِّ حال، فجاءتني تلك الليلة في المنام وقالت لي: إذا جئتَ لزيارتنا، فادخل واجلس تجاه وجهي، فقد أذنتُ لك. فمن ذلك اليوم وأنا أدخل وأجلس حيثُ أمرتني ، فلولا علمها بوقوفي علىٰ بابها إما بنفسها، أو علىٰ لسان مَلَك أخبرها، ما جاءتني وأذنت لي.

---

(١) بالأصلين: عذابهم.

(٢) السيدة، المكرمة، الصالحة، ابنة أمير المؤمنين الحسن بن زيد ابن السيد سبط النبي ﷺ الحسن بن علي العلوية، الحسنية، صاحبة المشهد الكبير المعمول بين مصر والقاهرة. تحولت هي من المدينة إلىٰ مصر مع زوجها الشريف إسحاق بن جعفر بن محمد الصادق - فيما قيل - ثم توفيت بمصر، في شهر رمضان، سنة:٢٠٨هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٠٦).

وكذلك وقع لي مع سيدي عمر بن الفارض أنني وقفتُ علىٰ بابه في وقت الظهيرة، فاستحييتُ أن أدقَّ الباب علىٰ الخادم، فزرتُه من عتبه الباب ورجعتُ، فجاءني إلىٰ الزاوية تلك الليلة وقال لي: اعذرني يا أخي، فإنني ما كنتُ حاضرًا ذلك الوقت، ولكن واحدة بواحدة جزاءً.

وكذلك وقع لي مع سيدي أحمد البدوي أن خليفته الشيخ عبد الكريم ﷺ ورد إلىٰ مصر ولم أعلم به، فأتاني سيدي أحمد البدوي وقال لي: زر خليفتي فقد دخل مصر من البارحة. فقلتُ له: فماذا آخذ له معي من الهدية؟ فقال: تملأ له جرة من الماء تحملها علىٰ ظهرك إليه من ساحل بيلاق. فقلتُ له: سمعًا وطاعة! فأصبحتُ من الفجر، فاشتريتُ له جرةً وملأتُها، وحملتُها علىٰ ظهري إلىٰ زاويته بخط درب الكافوري، فلما أخبرتُه بالواقعة قال: إنني بتُّ الليلة عطشان حين رأيتُ الماء مزبَّلًا. ثم قال: الحمد لله الذي نحن علىٰ بال سيدي أحمد! فانظر ملاحظته لخليفته من طندتا وهو في مصر، فلولا إشرافه علىٰ ما فيه خليفته في مصر ما جاءني وأمرني بزيارته، وأن أهدي إليه جرة من ماء بيلاق.

فعُلِمَ أن حياة الأولياء في قبورهم كحياة الشهداء، بل أولىٰ، لأنهم شهداء المحبة، ومعلوم أنهم أعلىٰ مقامًا عند أهل الكشف من شهداء السيوف، فاعلم ذلك، وسلِّم للأولياء أحوالهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي برز في النصف الثاني من القرن العاشر يأخذ العهد علىٰ المريدين، ويسلِّكهم ويدخلهم الخلوة، ثم يكتب لهم إجازة بالمشيخة قبل زوال رعونات نفوسهم، ثم يقع بينه وبينهم وقفة، فيطلب استعادة إجازته منهم، فيأتي أحدهم بها والشيخ في محفله، ويناديه باسم المجرَّد عن الكنية واللقب والشياخة، ويقول: هذه إجازتك! ويقطعها علىٰ رؤوس الأشهاد، فلاث الناس بهذا الشيخ وقالوا: هذا يدل علىٰ جهله بالطريق، ولو كان عنده كشف، لكان عرف من ينكث عهده من مريديه في حياته أو بعد موته، فكان يمتنع من إجازته بالمشيخة، ويحمي أهل الخرقة عن الكلام في عِرْضهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا بمن قطَّع إجازته من المأذون لهم بالمشيخة، لأن الشيخ ربما كان مطمح بصره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا التي يدخلها المحو والإثبات، فنظر الشيخ إليها، فرأىٰ فيها استحقاق هذا التلميذ أن شيخه يجيزه بالمشيخة، فأذن له، ثم تغير ذلك الحال، وأثبت نقصه، ولم يُكشَف للشيخ حال مريده بعد ذلك، فاسترجع منه إجازته رحمةً به، لئلا يكون هو ومريده المذكور من جملة الأئمة المضلِّين عن طريق القوم.

ولا لوم علىٰ المريد في تقطيع إجازة شيخه علىٰ رؤوس الأشهاد، بل ذلك مستحب، ليعلم الناس برجوع شيخه عن إجازته له، خوفًا علىٰ نفسه اللوَّامة أن تلبّس علىٰ نفسها وتكتم تلك الإجازة إلىٰ موت شيخها، ثم يخرجها للناس طلبًا لانقيادهم له، فنعم ما فعل هذا الشيخ وهذا المريد! **فإن الطريق كلها مبنية علىٰ الجِدِّ والصدق ضد صفات النفس الخبيثة**، فإن من شأنها الكسل والكذب والدعاوىٰ الباطلة. فاعلم ذلك، وإياك أن تتصدر للمشيخة في هذا الزمان، أو تأذن لأحد من المريدين بها إلا إن كان مطمح بصرك اللوح المحفوظ الذي لا محو فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لإخوانه: ادعوا الله تعالىٰ أن يجعل لي أتباعًا ينتسبون إليَّ إلىٰ يوم القيامة، كسيدي عبد القادر الجيلي، وسيدي أحمد ابن الرفاعي، وسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي ونحوهم، فلاث الناس به وقالوا: هذا من علامات الرياء، ولو أن هذا كان مخلصًا في أحواله، لتمنىٰ أنه لا يُنسَب إليه أحد من الفقراء، ولا شيء من أحوال الطريق، كما نُقِلَ عن الإمام الشافعي وغيره، فكانوا يودون أن الناس ينتفعون بعلومهم وآدابهم، ولا يُنسَب شيء من ذلك إليهم، ولكن أين المخلصون اليوم؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ في طلب الدعاء أن الله تعالىٰ يجعل له طريقةً وأتباعًا إلىٰ يوم القيامة؛ لأن غايته أن يكون تمنىٰ دوام الخير والتقوىٰ عليه وعلىٰ أتباعه، ليفوز برضا الله تعالىٰ عنه وعن أتباعه، ويبعد عن

مواطن سخطه. ومثل هذا مستحب طلبه بإجماع المسلمين، ولا يجوز حمله علىٰ أنه طلب مثل ذلك لحظ النفس، فإن ذلك بعيد عن الأشياخ أن يطلبوه. وقد طلب الأنبياء الذرية الطيبة الشاملة لأولاد الأرواح وأولاد الأصلاب، **والأشياخ علىٰ أقدام الرسل في الأخلاق والمقامات وإن تفاوت المقام.**

وقول الإمام مالك: «لو أحب القوم أن يُعرفَوا ما عرفوا» محمول علىٰ من يطلب معرفة الناس بمقامه لغرض فاسد.

وقد سألني الأخ الصالح الشيخ بدر الدين العادلي نزيل المدينة المشرَّفة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام في سنة أربع وستين وتسعمئة أن أسأل الله له أن يجعل له أتباعًا كأتباع مشايخ اليمن الذين يردون كل سنة في الموسم، فقلتُ له: إذا علم الله تعالىٰ نفع الفقير للفقراء، وقبل ذلك منه، فلا عليه أن ينتسبوا إليه أو لا. فقال: صحيح، ولكن نعمة الظهور قدْر زائد علىٰ نعمة الخفاء، فإن الله عالم بالسرائر بلا شك، والشكر علىٰ النعمة لا يكمل إلا إذا علم الناس بها، فأتباع الفقير نعمة ظاهرة عليه، بخلاف من لا أتباع له، فإن نعمته باطنه، فلا يظهر لها كمال شكر، لعدم ما يدل علىٰ وجودها. انتهىٰ. فسلمتُ له حاله، وقد بنىٰ رباطًا عظيمًا في المدينة للرجال والنساء، ومرادُه أن يكون له فيه سماط للمقيمين، فالله تعالىٰ يعطيه ما يؤمله من خيري الدنيا والآخرة، آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٤) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي أرسل وراءه الفقير، فوعده بالمجيء في وقت معين، فصار الفقير ينتظره، فلم يحضره وقدَّم الذهاب إلىٰ الباشاه مثلًا، فلاث به أصحاب الفقير وقالوا: كان الأولىٰ إجابة دعاء الفقير، قيامًا بناموس أهل الله تعالىٰ، ولأنه دعاه أولًا قبل الباشاه، فكان أحق بالإجابة، نظير ما قالوه في إجابة الوليمة، بجامع وجوب الحضور فيها، ولكن أين الذي يعرف مقدار الفقراء في هذا الزمان؟! وقد قال أشياخ الطريق: أقلُّ ما يكون من حرمة الفقير أن تجعل بدايته نهاية الأمير في التعظيم له.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الأمير في تقديمه الذهاب إلىٰ الباشاه علىٰ الذهاب إلىٰ الفقير، فقد تكون حرمة الفقير عنده أعظم من حرمة الأمير، ولكن قدَّم إجابة دعوة الأمير الذي هو أعلىٰ منه، لما يخشىٰ من ضرره له، بخلاف الفقير، فإن المعهود منه حسن الخلق، وعدم الرعونات، وعدم السعي في ضرر أحد بوجه من الوجوه.

وأيضًا فإن سلطان الولاة وتصريفهم إنما هو في هذه الدار، بخلاف الفقراء، فإن محلَّ تصريفهم وظهور مقامهم إنما هو الدار الآخرة. فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ من قدَّم عليك أميرًا في التعظيم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرد من أتاه من المريدين يطلب أخذه العهد عليه بأن يتوب من كلِّ ذنب يعلمه الله تعالىٰ، فلاث به المتشرِّعون وقالوا: كيف يرد من جاء تائبًا؟! هذا خلاف الشرع! وصاحبه من جملة قطَّاع الطريق عن الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بمجرد رده المريد عن أن يأخذ عليه العهد، لاحتمال أن يكون المانع له من ذلك رؤية الحقارة في نفسه، وشهود عصيانه، وكثرة مخالفاته من غير توبة صحيحة، فاستحيا من الله تعالىٰ أن يتصدر لأخذ العهد علىٰ غيره بالتوبة، لكونه ليس بأهل لذلك عادة، ولم يبلغ إلىٰ حد يشهد به وجوب الأمر بالمعروف عليه، ولو كان هو مرتكب ذلك المنكر، كما هو مقتضىٰ الشريعة.

ويُحتمَل أيضًا أنه ترك أخذ العهد علىٰ ذلك المريد شفقةً عليه، خوفًا أن يكون سبق في علم الله نقضه ذلك العهد، فيصير عليه -أي علىٰ المريد- بأخذه العهد معصيتان: المعصية التي وقع فيها، ومعصية نقضه عهد الله تعالىٰ، ولو أنه لم يأخذ عليه عهدًا، لكان عليه إثم معصية واحدة.

وقد دخل عطاء السُّلَمِي علىٰ جار له محتضر، وكان ذلك الجار مسرفًا علىٰ نفسه، فقال له عطاء: تب إلىٰ الله عزَّ وجلَّ قبل موتك، لتموت تائبًا؛ فإذا بالهاتف من ركن البيت يقول: إن كانت توبته مثل توبتك تنقضها كل يوم وليلة، فهذه توبة محلولة لا

تصلح للقبول. فغشي علىٰ عطاء من ذلك. انتهىٰ[١].

وقد تقدم في هذا الكتاب أن حكمة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ [الممتحنة: ١٢] عقب قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ إلىٰ آخر الآية هو كون النساء طلبن المعاهدة علىٰ شيء ليس في يدهنَّ، فإن خلق الأعمال في المستقبل إلىٰ الله تعالىٰ لا إلىٰ العبد، وليس علىٰ العبد إلا أن يتوب كلما وقع في الذنب، مع العزم في نفسه أنه لا يعود إلىٰ مثله. انتهىٰ[٢].

وكل من سلك الطريق عرف أنه لا أتعب من قلب الشيخ الذي له مريدون، فإنه مُطالَب بأن يستخرجهم من أفواه الشياطين ليلًا ونهارًا، فما ثم حفظ لغالب المريدين، بل أحدهم يقع في المخالفات ليلًا ونهارًا، فجهاد الشيخ في الشياطين دائم ليلًا ونهارًا تارةً من جهة نفسه، وتارةً من جهة مريديه.

وقد خبرتُ أنا هذا الباب أشدَّ خبر عن المريدين الذين دخلوا في عهد تربيتي، وخفتُ عليهم من إبليس، فإني قاسيتُ منهم تعبًا لا يعادله تعب! فلم أسكنهم علىٰ باب داري لتفضيلهم علىٰ الذين في الزاوية، وإنما ذلك رحمة بهم، رجاء أن الله تعالىٰ ينظر إلىٰ من كان علىٰ باب داري [بالرحمة علىٰ جاري عوائد فضله، وأنا إلىٰ الآن لم أمر عليهم وإن كانوا علىٰ باب داري] لكون الشيطان علىٰ باب داري لم يزل يتحرش بهم لا يغفل عنهم ساعة، ولما يبلغ[٣] أحدهم في الذكر المقام الذي يُحفَظ به العبد من الشيطان، ثم الداهية العظمىٰ أن يُرمَىٰ أحدُهم بفاحشة، فإني أذوب أسفًا عليه، وأشاركه في التأثير الذي حصل له من كلام الناس [في عِرْضه، وازدرائهم له، فأنا ولو قُدِّر أني صديق إبليس فيما أطيعه][٤] فيه من المخالفات، فأنا أعدىٰ عدو له من جهة تخويفي لأولئك المريدين

(١) تقدمت مثل هذه الحكاية عن مالك بن دينار، انظر الجواب (٩٩).

(٢) انظر الجواب (١٣٧).

(٣) بالأصلين: بلغ.

(٤) ساقط من «ب».



بالآيات والآثار ليلًا ونهارًا، فيقول: مادام هذا حيًا، فأنا لا أقدر علىٰ الوصول إلىٰ أحد منهم.وقد قال شخص مرة: أنا لا حاجة لي بحفظ فلان لي؛ فوقع تلك الليلة في تهمة بفاحشة، وخرج من الزاوية، **فيا شقاوة من خرج من تحت جناح مربيه!**

فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الشيخ الذي يرد من يطلب منه أن يأخذ عليه العهد إلا بطريق شرعي، فإنه لا لوم علىٰ من يحتاط لنفسه قبل أن يحتاط لغيره، وإنما ورد اللوم فيمن يأمر غيره بالخير وينسىٰ نفسه، وإن كان كلٌّ منهما واجبًا علىٰ العبد، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: قيام الليل واجب علىٰ سبيل فرض الكفاية أو العين، قيامًا بشعار الموكب الإلهيِّ كلَّ ليلة حين يبقىٰ من الليل الثلث، ويقول الله تعالىٰ: «هل من سائل؟ هل من مبتلىٰ؟»[1] إلىٰ آخر ما ورد، فلاث به المتشرِّعون وقالوا: هذا مذهب لم يبلغنا عن أحد من السلف أو الخلف أنه قال به. إنما قالوا: قيام الليل مستحب في حق الأمة، وواجب في حق رسول الله ﷺ علىٰ الأرجح.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أن يكون قال ذلك باجتهاد، قياسًا علىٰ ما قالوه في صلاة الجماعة من أنها فرض عين أو فرض كفاية، عملًا بمرتبتي الشريعة من تخفيف وتشديد، وكما أن شعار الدين يذهب بترك الناس كلِّهم حضور صلاة الجماعة والجمعة، فكذلك يذهب شعار الدين في دولة الباطن حين يقول الله تعالىٰ: هل من سائل فأبلغه سؤاله؟ هل من مبتلي فأعافيه؟ فلا يجيبه أحد، لعدم حضورهم كلهم حضرته فتأمل. وإذا تعارض مع المكلف نقلان فمن الحزم أن يأخذ بأحوطهما وأكثرهما تعظيمًا لله تعالىٰ، ولاشك أن الذي يرىٰ وجوب حضور الموكب الإلهيِّ كلَّ ليلة أكثر تعظيمًا لله تعالىٰ ممن يرىٰ ذلك تطوعًا إن شاء حضر، وإن شاء لم يحضر. والمسألة مبسوطة في كتب أئمة المذاهب، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة،وابن حبان (٩٢١).

(٩٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في أن يكشف له عن نقائص أصحابه التي يفعلونها في قعر بيوتهم، ويحجبه عن أعمالهم الصالحة التي يفعلونها في قعر بيوتهم، فلاث به بعض الفقراء وقالوا: لو أن هذا عكس الأمر لكان أولىٰ، فإن الاطلاع علىٰ نقائص الناس منهي عنه، لاسيما إذا كان وصل إليه بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ، فإنه كشف شيطاني أجمع القوم علىٰ وجوب التوبة منه إذا وقع من غير سؤال، فكيف إذا كان بسؤال؟! وأيضًا فإن من لازمه غالبًا احتقار كل من اطلع هذا علىٰ نقائصه، فيريد أن يجعله في المقام كالذي لم يطلع له علىٰ نقيصة، فلا يقدر، فلو أنه طلب الاطلاع علىٰ كمالات الناس لأفلح، وكان كشفًا مَلَكيًّا يرضاه الله تعالىٰ ورسوله، لكونه يفتح للعبد تعظيم حرمات المؤمنين، فيريد أن يحتقر صاحبه من اطلع علىٰ كماله فلا يقدر.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أنه ما طلب الاطلاع علىٰ نقائص أصحابه إلا ليرشدهم إلىٰ التوبة منها، ويذكر لهم عظمة من خالفوه سبحانه وتعالىٰ، ليأخذوا في العزم علىٰ أنهم لا يعودون إلىٰ مثل ذلك.

وأما قول المعترض: «إن من لازم الاطلاع علىٰ نقائص إنسان احتقاره» فهذا لا يكون في الأشياخ، إنما هو من شأن العوام، فإن **نظر الأشياخ دائمًا إنما هو إلىٰ التقدير الإلهيِّ الذي لا يقدر أحدٌ علىٰ ردِّه**، فهم عاذرون الخلق باطنًا تسليمًا للأقدار، معترضون عليهم ظاهرًا، قيامًا بواجب حقِّ الشريعة من غير احتقار لأحد من العصاة. وإن وقع منهم احتقار فهو من حيثُ أعمالُهم لا من حيثُ ذواتُهم.

وأما قول المعترض: «إن هذا الشيخ لو عكس الأمر، فسأل الله الاطلاع علىٰ كمالات الخلق لكان أولىٰ، لأن ذلك يطلعه علىٰ كمالات المؤمنين فيعظمهم ويعطيهم حقهم» فهو اعتراض غير سديد، لاحتمال أنه قصد بحجابه عن معرفة أعمال إخوانه الصالحة عدم إخراجها من ديوان السر إلىٰ ديوان العلانية، فيفوت إخوانه تضعيف الأجر الوارد في عمل السرِّ، وذلك من السوء في حقِّهم وإن كان الإخوان لم يقصدوا إظهار العمل، إذ لو اعتنىٰ أحدهم بإرشاد الشارع له إلىٰ ترجيح عمل السرِّ، لسأل الله تعالىٰ أن لا

يطلع أحدًا علىٰ عملهم، لا من طريق الظاهر ولا من طريق الكشف، فكان يفعل معهم ذلك، ولا يطلع أحدًا علىٰ عملهم من الجهتين المذكورتين، فضاعف له الأجر سبعين ضعفًا وأكثر كما ورد[١]، فعُلِمَ أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ من يسعىٰ في تطهير أصحابه بإرشادهم إلىٰ طريق الخلاص من الذنوب، ولا علىٰ من سعىٰ في عدم إخراج أعمالهم الصالحة من ديوان السرِّ إلىٰ ديوان العلانية، بل ذلك مطلوب من الأشياخ، لكمال شفقتهم علىٰ الأمة، ومن اعترض عليهم فهو جاهل بما قلناه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يشفع عند أمير وقع بينه وبينه وقفة، فانقطع الأمير عن التردد إليه، وترك الشيخ الشفاعة عنده، لعدم المحل القابل لذلك، فلاث به الناس وقالوا للشيخ: اذهب أنت إليه وصالحه، فإن الفقراء قد خرجوا عن رعونات النفوس، بخلاف الأمراء وأبناء الدنيا؛ فأبىٰ، فقالوا له: هذا إنما هو لمصالح الناس لا لأجلكم أنتم.

والجواب: أن عدم بداءة الشيخ لذلك الأمير أولىٰ، لأن أبناء الدنيا في دائرة، والفقراء في دائرة، فلا يحملون الشيخ إلا علىٰ المحامل الناقصة والعلل الفاسدة، لعدم دخولهم إلىٰ مقام الشيخ وكمال زهده في الدنيا وجاهها، ومطاعمها وملابسها، ومعلوم أن من لازم حملهم له علىٰ الأغراض الفاسدة سقوطَ حرمته من قلوبهم، وإذا سقطت حرمته، كذلك يبطل انقيادهم له، وقبول شفاعاته، فكما أن للملوك حرمة، كذلك للفقراء حرمة.

وقد مشيتُ مرة إلىٰ الأمير لأطيب خاطره من كلام بلغه عني، فطلع في رجلي خرَّاج كبير، فقاسيتُ منه شدة، كلُّ ذلك لعدم استحقاق ذلك الأمير المشي إليه، والعادة أن

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٣٩٤) من حديث أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الإبقاء علىٰ العمل أشد من العمل، إن الرجل ليعمل العمل فَيكتبُ له عملٌ صالحٌ معمولٌ به في السر يُضعَّفُ أجره سبعين ضعفًا، فلا يزال به الشيطان حتىٰ يَذكُرُه للناس ويعلنه فتكتب علانيته، ويُمحىٰ بضعيف أجره كله، ثم لا يزال به الشيطان حتىٰ يذكره للناس الثانية، ويُحبُ أن يُذكرَ ويُحمدَ عليه فَيُمحىٰ من العلانية ويُكتبَ رياء، فاتقىٰ الله امرؤٌ صان دينه، وإن الرياء شرك» قال البيهقي: هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين والله أعلم.

الأمراء هم الذين يلجؤون إلىٰ الفقراء في الشدائد لا العكس، وقالوا في مثلهم السائر: «الفقراء كبيت الراحة لا يأتيهم إلا محزوق[1]».

ثم إن قُدِّرَ أن أحدًا من الفقراء ذهب إلىٰ بيت أمير، فذلك من باب أدب الفقير مع الله الذي ولَّاه، لا لعلة أخرىٰ نفسانية، فافهم، وإذا تعارض عندك أمر فيه تعظيم للفقير فقدِّمه علىٰ ما فيه تعظيم الأمير، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ يدعو لأصحابه في أوقات الإجابة، وكلما دعا لأحدهم ازدادت عليهم المصائب، فلاث الناس به وقالوا: لو ترك هذا الدعاء لأصحابه لكان أولىٰ.

والجواب: أن مثل هذا القول جهل من قائله، بل الدعاء مطلوب شرعًا، فإن كان ذلك الأمر النازل علىٰ أصحاب الفقير معلَّقًا علىٰ الدعاء، حفظه الله منه أو خففه عليه؛ وإن كان مبرمًا، فقد فعل العبد ما كُلِّفَ وأظهر مقام العبودية والذل والافتقار لله عزَّ وجلَّ.

وقد سألتُ الله تعالىٰ مرة أن يلهمني الدعاء لأصحابي كلما قرب نزول البلاء بهم، فأجابني بحمد الله، فما ألهمتُ الدعاء لأحد منهم في ليلة إلا ونزل عليه البلاء ثاني ليلة أو ثالثها، ليخفف عنه البلاء بذلك الدعاء، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧]. وإن وقع أن البلاء لم يخفف، فقد فعل العبد ما كُلِّف به من الأدب مع الله تعالىٰ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريدي شيخ آخر: تعالوا خذوا عني الطريق، فإن شيخكم متكبر ولا يصلح للطريق! فلاث به الناس وقالوا: هذا من الحسد الظاهر! وقد قالوا: المريد لمن يريد، فلو أن أصحابه أرادوك لكانوا قدَّموك عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه لا يخلو إما أن يقول ما قال كشفًا أو ظنًّا، وكلاهما يجوز له النصح به وإن كان ذلك الشيخ الذي قال لتلامذته[2]: خذوا

(١) حزَقه البولُ: ضايقه حتَّىٰ احتاج أن يبول.

(٢) أي وإن كان الشيخ الثاني الذي قال الشيخ الأول لتلامذته: خذوا عني؛ أعلم من الشيخ الأول.

عني فإني أعلم منه بالطريق في نفس الأمر، كما أن الشيخ الثاني قد يكون صادقًا فيما قال في حق الشيخ الأول، وقد قال الأشياخ: من علامة الشيخ الذي يصلح لتربية المريدين أن يكون متواضعًا بحيث تطيب نفسه أن يأخذ عن أحد من أقرانه. فإن أردتَ يا أخي أن تعلم استحقاق شيخ للطريق، فامتحنه بهذه الميزان، كأن تقول له: فلان قال عنكم أنك لم تذق من الطريق شيئًا، ولو أنك أخذتَ عنه لعرَّفك طعم الطريق، فإن ذهب إليه وأخذ عنه بانشراح صدر، فهو صادق في المشيخة، وإن أبىٰ أو عبس وجهه فهو كاذب. انتهىٰ.

وقد يكون قول الشيخ الثاني في حق الأول ليس هو احتقارًا له، وإنما هو ليجد في العمل زيادةً علىٰ ما هو عليه، ويكون قوله لأصحابه: «تعالوا خذوا عني» إنما هو لئلا يشتغل بهم عن ربِّه، فأراد أن يحمل تربيتهم عنه، ويخلصه لربِّه عزَّ وجلَّ وحده. وإن قُدِّر أنهم يشغلون الشيخ الثاني أيضًا عن ربِّه، جعلنا ذلك من باب إيثاره أخاه علىٰ نفسه في تحمل ما يشغله عن ربه، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقر مشايخ الأحمدية والبرهانية والرفاعية وغيرهم علىٰ أخذ العهد، وعلىٰ إذنهم لتلامذتهم بالمشيخة والجلوس علىٰ السجادة، مع أنهم في غاية الجهل بقواعد الطريق، ولاث به الفقراء وقالوا له: هذا غش منك لهؤلاء الفقراء، فإن شيخهم نفسه لا يصلح تلميذًا، بدليل خصامه لأهل حرفته كلَّ قليل من جهة المشيخة، وترافعه هو وإياهم إلىٰ الحكَّام وغرامة الفلوس، وليس ذلك من شأن من شم رائحة طريق القوم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي أقرَّ مشايخ الخرق علىٰ دعواهم المشيخة، مع عدم مشيهم علىٰ قواعد الصوفية، لاحتمال أن يكون كُشِفَ له عن شيخ تلك الخرقة الأصلي أنه يربي أولاده بعد موته إلىٰ يوم القيامة، فيكون العمل في مشيخة المريدين عليه، والمشايخ الظاهرون بأخذ العهد بعد موته ليس المعوَّل عليهم، وإنما لهم من المشيخة الاسم فقط. وقد ثبت عن سيدي عبد القادر الجيلي، وسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي أن أحدهم كان يقول: أعطاني الله تعالىٰ الأخذ بيد مريدي إذا زاغ

عن الطريق، وإنقاذه من أسباب الهلاك ولو كان بيني وبينه مسيرة ألف عام.

وقد رأيتُ مرةً فقيرًا يمدح في الشارع ومعه دف يضرب به، فمدح سيدي إبراهيم الدسوقي، ثم قال: احضر يا سيدي إبراهيم! فما فرغ من كلامه إلا وسيدي إبراهيم واقف علىٰ يمينه جهارًا، وعلىٰ سيدي إبراهيم حلة خضراء، ورأيتُه بعيني. ومثل هؤلاء الفقراء يُسلَّم لهم حالهم إذا ادَّعوا المشيخة، ثم إذا رأينا أحدًا منهم خالف الشريعة، أنكرنا عليه وجوبًا، ولا نكتفي بأخذ شيخه الأصلي بيده، فقد لا يسقِط أخذُه بيده أو نهيُه مريده عن المنكرِ الحرجَ عنا، كما قالوا في الميت الذي غسلته الملائكة أو الحقُّ.

فعليك يا أخي بالتسليم للفقراء، مع مراعاة ميزان الشريعة وتقديمها علىٰ التسليم، **إذ التسليم لا يكون إلا فيما لم يظهر لنا مخالفته للشريعة**. أما ما ظهر لنا مخالفته لها، فالواجب علينا إنكاره، ولو لخليفة ذلك الشيخ الأكبر، كخليفة سيدي أحمد البدوي، وخليفة سيدي أحمد ابن الرفاعي وأضرابهما، وكلُّ من ادعىٰ أن له حالة بينه وبين الله خلاف ما جاءت به الشريعة فهو زنديق يجب علىٰ كلِّ مسلم تكذيبه، وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: من لم يحبس نفسه في قمقم الشريعة ويختم عليها بخاتم الحقيقة، فليس هو منا، ولا من أولادنا، ونحن بريئون منه في الدنيا والآخرة. انتهىٰ.

فسلِّم يا أخي لمشايخ الأحمدية والبرهانية مشيختهم علىٰ نظامهم، وكلما رأيتَ منهم مخالفة للشريعة، فنبههم عليها، ولا تعارضهم في مشيختهم، يطول علاجك معهم ولا يرجعون لك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٢) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية أو الحرفة إذا وقع علىٰ يديه قسمة دراهم أو طعام مثلًا، وفاضل بين الفقراء، ورجَّح بعضهم علىٰ بعض، فلاث به بعضهم وقالوا: الشيخ ما يرجح إلا الذي يخاف منه.

والجواب: أنه يجب حمل الشيخ علىٰ أنه ما رجَّح من رجَّح إلا بحق، أو دفع صائل، كأن يكون أفقر الجماعة وأكثرهم عيالًا، أو يرافع في عمال الوقف ويفتح عليهم باب

الأكل والبلص[١] من الحكَّام، ويعملون حساب وقف تلك الزاوية مثلاً بالمقلوب، فلا يسع الجابي والناظر إلا أن يحسبوا ذلك من جوامك[٢] الفقراء وعوائدهم، لأنه دفع صائل عنهم، فهو وإن نقص من معلومهم هو أخف من الذي يأخذه المفتش وأعوانه.

فاعلم ذلك، وإياك ونسبة أشياخ الطريق إلىٰ أنهم ما أعطوا ذلك المرافع إلا خوفًا منه أن يرافع فيهم، لأن الأشياخ منزهون عن أخذ ما لا يحل لهم حتىٰ يبرطلوا[٣] عليه من يخافون منه أن يرافع فيهم، وإنما خوفهم علىٰ[٤] أصحابهم أن يفتح ذلك المرافع للحكام بابًا ينصلهم منه، فرجع خوف الشيخ وترجيحه ذلك المرافع إلىٰ الخوف علىٰ غيره لا علىٰ نفسه، إذ هو كالسلطان في مال بيت المال لا يتصرف فيه إلا بالمعروف. ومعلوم أن ترجيح المرافع وإعطاءه زائدًا علىٰ إخوانه أصلح لهم لما قررناه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسارر إخوانه بذكر زلَّات أكابر العلماء والصالحين ويتحاشىٰ من ذكرها في الملأ، فلاث به بعض المتشرعين وقالوا: هذا من الغيبة المحرمة، وذلك لا يليق بأشياخ الطريق.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ، لأنه ربما حكىٰ مثل ذلك لإخوانه ليحذرهم من الوقوع في مثل ما وقع فيه ذلك العالم أو الصالح، وكأن لسان حاله يقول: إذا كان أكابرنا صار أحدُهم يقع فيما لا ينبغي، فكيف بأمثالنا من الأصاغر؟! فالواجب علىٰ أحدنا أن يأخذ حذره، ويبكي علىٰ نفسه. ولا يجوز حمل هذا الشيخ علىٰ أنه قصد بذكر زلات العلماء التشفي للنفس وإظهار نقائصهم لغرض نفساني، فإن ذلك بعيد وقوعه من الأشياخ. وقد كان سيدي الشيخ عليٌّ الخوَّاص يقول كثيرًا: إذا

---

(١) تقدم بيان معناه في الحاشية.

(٢) الجوامك: جمع جامكية، وهي الراتب المقرر لمن تنطبق عليه شروط الوقف.

(٣) برطل فلانٌ القاضي: رَشاهُ.

(٤) بالأصلين: عن.

كان الحلو ضرب مقارع في هذا الزمان، فكيف بالحامض؟! يعني إذا كان البلاء والنقص دخل علىٰ أكابرنا، فكيف بآحاد الناس؟!

فاعلم ذلك، وإياك وحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل السيئة وشره النفس وعدم الورع إذا رأيتَ أحدهم سافر إلىٰ كاشف أو شيخ عرب مثلًا، وأظهر أنه إنما سافر إلىٰ زيارة ذلك الوليِّ الذي في بلاده، كسيدي أحمد البدويِّ، أو سيدي إبراهيم الدسوقيِّ ﷺ ويقول: ما سافر هذا لسيدي أحمد أو سيدي إبراهيم إلا ليعلم به ابن بغداد أو شيخ البحيرة، فيدعوه إلىٰ الاجتماع به، وأنه جعل زيارة الأولياء شبكة يصطاد بها الدنيا بحسن عبارة، فإنك تتحمل بذلك أوزارهم، فقد يكون أحدهم حرَّر نيته لزيارة ذلك الولي، وأراد الاجتماع بذلك الشيخ العرب ليعظه ويوصيه بالرعية، ولا يتكلم في حق أحد بسوء إلا علىٰ وجه التحذير، والناقد بصير، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أرسل بعض الولاة إلىٰ زاويته مالًا ليفرقه علىٰ جماعة الزاوية فرده، فلاث به الفقراء وقالوا: لو أخذه وفرَّقه علىٰ أصحاب الحوائج والضرورات ولم يتناول هو منه شيئًا، كان أكمل وأسلم من الآفات التي تطرق من تميَّز عن أقرانه، وبالغ الناس في تعظيمه لأجل رده تلك الفلوس.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ الأشياخ فيما يفعلون لأنهم في مقام الاجتهاد أو الاحتياط لدينهم، فلو أن أحدهم ترجَّح عنده الأخذ، لكان أخذ، ولكن ترجح عنده الرد فرد، عملًا بالاحتياط لدينه ودين إخوانه، والسلامة مقدمة علىٰ الغنيمة، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك وقلبك من الاعتراض علىٰ الأشياخ إلا بدليل واضح لا خفاء فيه ولا يحتمل التأويل، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ أموال الولاة ويفرِّقها علىٰ إخوانه، ويأخذ منها لنفسه وأولاده، ولاث به الفقراء الذين ردوا ولم يأخذوا وقالوا: كان الأولىٰ لهذا رد هذه الفلوس، حفظًا لدينه ودين أصحابه.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهذا الشيخ، بل يجب حمله علىٰ أنه ما أخذ ذلك المال وفرَّقه وأخذ لنفسه منه إلا لاعتقاده حله، أو لعلمه بحاجته وحاجة أصحابه إلىٰ مثله، فإن الأموال التي بأيدي الخلائق الآن تكاد أن تكون علىٰ حد سواء! لعدم تورع التجار والمحترفين عن أخذ مال من يشتري منهم من الظلمة وأعوانهم، فحكم ما يأخذه الإنسان من الباشاه مثلًا حكم ما يأخذه من شيخ الزاوية عند من حقق النظر!

وربما يعرف الشيخ من جماعته تكدرهم إذا رد عنهم تلك الفلوس، أو ترك أورادهم في الزاوية غضبًا علىٰ الشيخ، وقالوا له بلسان الحال أو بلسان المقال: اكفنا وأولادنا وعيالنا ونحن نواظب علىٰ الأوراد، ونعطيك فيما تطلب منا. وقد كان ﷺ هينًا لينًا مع أصحابه، وكان إذا تكلَّموا في أمور الدنيا تكلَّم معهم، وإن تكلموا في أمر الآخرة تكلم معهم، وكان لا يزجرهم عن مباح، وكلُّ ما لم يثبت تحريمه من المال فالأصل فيه الإباحة. وكان ﷺ كثيرًا ما يقول لأصحابه إذا رأىٰ عندهم مزاحمة علىٰ المال المباح: «ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله»[1] فيرد الأمر إلىٰ عزمهم ومروءتهم.

فاعلم ذلك، واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، يحمك الله من الأعمال السيئة، ولا تحملهم علىٰ السوء، يقيض الله من يحملك علىٰ السوء، وربما يحصل إثم ذلك عليك، لتعاطيك الأسباب، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: من وقع في ذنب لم يتقدم له فعله، خَدَش دينه ولم يعد إلىٰ حالته الأولىٰ في الطهارة، ولو عبد الله تعالىٰ عبادة الثقلين؛ فلاث به بعض المتشرعين وقالوا له: قد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ومعلوم أن «التوَّاب» [هو كثير التوبة علىٰ العباد، ولا يكون كثير التوبة إلا لكثرة وقوعهم في الذنوب، وقد وعدهم بالمحبة علىٰ][2] التوبة والطهارة

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) ساقط من «ب».

من الذنوب، وقال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1]، وأجمع أهل السنة والجماعة علىٰ قبول التوبة بعد النقض ولو عاد في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة، فكيف لا يعود إلىٰ حاله الأول؟!

والجواب: أن محبة الله تعالىٰ لمن لم يقع في معصيته أعظم ممن وقع وتاب، بدليل عصمة الأنبياء، وحفظ الأولياء من الذنوب، وقبول التوبة لا ينافي نقص العاصي، فيقبل توبته مع نقصه في المقام عمن لم يذنب أصلًا. وأيضًا فإن قاعدة التشبيه أن لا يكون المشبَّه مثل المشبَّه به من كل وجه، فإنه قال في الحديث: «كمن لا ذنب له» أي في عدم المؤاخذة، ولكن زاد عليه الذي لا ذنب له برفع الدرجات.

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أن تلك الزلة التي وقع فيها الفقير بعد أن لم يكن تقدَّم له وقوعٌ فيها، صارت له كالخميرة للعجين، أو كالمادة للمعاصي، أو كالباب الذي تنحدر منه المعاصي عليه ولا يستطيع ردها عنه، بخلافه قبل ذلك حين كان الباب مغلقًا مدربسًا بدرباس[2] لا يمكن أن يخرج له منه ذنب.

فليحذر المريد من وقوعه في الذنب الواحد إلىٰ أن يموت، فقد علَّموا عليه في ديوان السماء وصار به من أهل الذنوب بيقين، ثم إن من أعظم ما يقع ممن تكرر منه الذنب الاستهانة به كلما وقع فيه، فيريد أن يستقبحه إذا وقع فيه مثل ما استقبحه أول وقوعه، فلا يصح له ذلك.

[التحذير من الركون إلى عدم مؤاخذة المشايخ للمريد بالذنب]

وليحذر من شيخه إذا لم يعاقبه علىٰ ذلك الذنب علىٰ الفور، وأظهر له التبسم وعدم المبالاة به، فإنه استدراج له. وليعلم أن الأشياخ يحرم عليهم التجاوز عن زلَّات المريدين، وإنما يؤخرون عقوبة المريد بغضًا فيه، تبعًا لبغض الحق تعالىٰ لذلك المريد،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الدرباس: الترباس، وهو مزلاج من حديد يُغلق به الباب من الداخل.

ولو أنهم علموا من الحقِّ رضاه عن ذلك المريد، لآخذوه بالذنب على الفور، وردوه إلىٰ حضرة ربه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحذروا من تأخير العقوبة من الله إذا أذنبتم، فإن ذلك غرور واستدراج، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي صنف شخص من أقرانه أو معاصريه رسالة ذكر فيها شيئًا من آداب القوم، فقالوا له: لم لا تطالع في كتاب فلان الذي صنفه في آداب القوم؟ فقال: نحن لا نتقيد بمثل ذلك! فلاث به أصحاب المؤلِّف وقالوا له: إن هذا الكتاب كله أخلاق نبوية، فكيف يقول: نحن لا نتقيد به؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يقول ما ذكر هضمًا لنفسه، أو اعترافًا بالعجز عن التقيد به لنقصه وقلة ورعه، لا احتقارًا لذلك [الذي] صنَّف تلك الرسالة، كما قد يتبادر إلىٰ أذهان الناس، اعتمادًا علىٰ القرائن، وعملًا بما عليه غالب الأقران من عدم إذعانهم لمعاصريهم، وعدم إظهارهم الحاجة إلىٰ مطالعة كلامهم.

وقد وقع مثل ذلك لأخي الشيخ يوسف الطهواي حين ذكروا له رسالة الأخلاق التي ألفتُها في آداب القوم، فقال مثل ما قال هذا الشيخ الثاني، وأجبتُ عنه بمثل هذا الجواب، وإن كان الأولىٰ له ولنا عدم التلفظ بكلام يظهر به للناس رائحة حسد أو كبر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون سهره في مجلس الذكر أو القرآن أو الأوراد دون سهر تلامذته إما بنعاس في المجلس، وإما بانصراف إلىٰ بيته أو خلوته، ولاث به بعض ضعفاء المريدين ولو في أنفسهم، ورأوا نفوسهم أصبر علىٰ العبادة من شيخهم.

والجواب: أنه لا ينبغي للمريدين المذكورين اللوث بشيخهم لأجل نعاسه أو تناعسه أو انصرافه عنهم، لأنه ربما كان الباعث له علىٰ الانصراف الرحمة للمريدين والشفقة عليهم، خوفًا عليهم أن يسأموا من العبادة، ويصير أحدهم يود الانصراف، ولكن يراعي في ذلك خاطر الشيخ، فتكون عبادته خِدَاجًا لا إخلاص فيها، لاسيما في

ليالي الشتاء الباردة. وقد كان الشيخ نور الدين الشوني ﷺ كثيرًا ما يقوم من المجلس إذا طال الليل، ويدخل الخلوة التي وراء ظهره في مجلس جامع الأزهر، فيجلس فيها لحظة يصلي علىٰ النبي ﷺ بقصد الراحة للحاضرين، فكل من وجد في نفسه سآمة ينصرف، ولا يمكث إلا بعض أفراد من الناس. وكذلك رأيت سيدي عليًا المرصفي يفعل. ويقع لي هذا كثيرًا في مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ ليلة الجمعة، فأدخل البيت وأمكث لحظة طويلة، ثم أخرج فربما أجد بعضهم انصرف، وربما أجدهم زادوا وزادت همتهم وقوتهم وأصواتهم، وربما أطالوا مجلس الذكر من ذات نفوسهم إلىٰ بعد الفجر، فأفرح بذلك أكثر مما أكون معهم، لخروجهم عن العلل في ذلك العمل.

فاعلم ذلك، وإياك أن ترىٰ نفسك أكثر عبادة وأقوىٰ همة من شيخك، فتحرم مدده، **فإن أعمال الأشياخ أواخر أعمارهم تصير غالبها قلبية، وربما كانت الذرة من أعمال أحدهم أعظم من الجبال من أعمال المريد**، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٩) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي ذهب إلىٰ فقير ليزوره، فدق الباب فلم يجبه الفقير، فقال: ما هذا التحجب؟! ولاث به بسبب ذلك، فقام له جماعة الفقير وقالوا: ترك مثل هذه الزيارة أولىٰ، لأن الأخ إذا حمل أخاه علىٰ المحامل السيئة إذا زاره، ارتكب الإثم، فكان ترك زيارته أولىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمثل هذا الفقيه، لأنه ما تكلَّم إلا علىٰ قدْر ما عنده، فينبغي تعليمه أولًا أحوال الفقراء وأدبهم، فإذا قبل ذلك، أقمنا عليه الميزان بعد ذلك، بدليل عدم تمكين النبي ﷺ الصحابة أن يزعجوا الأعرابي لما بال في المسجد، وقال: «صبُّوا عليه ذَنُوبًا من ماء، ثم قال له: يا أخي، إن المساجد لم تبنَ لمثل هذا، وإنما بُنيَت للصلاة والذكر وقراءة القرآن»[1]. فاعلم ذلك، وطوِّل روحك علىٰ كلِّ فقيه رأيتَ علمه موضوعًا في نفسه، فإنه لا يرجع إليك إلا بعسر، لحجابه عما أنت فيه، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(١٠١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير إذا أرسل أحدًا من جماعته في حاجة إلىٰ السوق مثلًا، فأبطأ عليه، أو استعمله في حاجة، فعكس مراده منها، فصاح به وأخرج خُلقه عليه، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا ينبغي من مثل الشيخ أن يقع فيه لأنه من الجهل، فإن الحاجة ما أبطأ بها إلا الوقت الذي جعله الحقُّ تعالىٰ لها لا الرسول.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بالشيخ أو العالم، فإن الأكابر أواخر أعمارهم لا يطلبون شيئًا من الدنيا إلا علىٰ وجه التداوي، لا علىٰ وجه التبسط في الدنيا، والتمتع بشهواتها، فإن طلبوا طعامًا لا يطلبونه إلا وقت الاضطرار، وكذلك القول في المأكل والمشرب والمنكح ونحو ذلك، فحكم أحدهم إذا صاح برسوله حكم المستغيث إذا أشرف علىٰ الهلاك، فهو يصيح بقوة وشدة، لينبه لإنقاذه من الهلاك كلَّ من قدر علىٰ إنقاذه، ولو أنه علم من الحاضرين أن قلب أحدهم معه في المشاركة فيما هو فيه، ما صاح علىٰ أحد.

وقد حدث لي مرة قَولِنج[1] وريح مقلوب، فأشرفتُ منه علىٰ الهلاك، فطلبتُ وعاءً لأتقيأ فيه علىٰ سبيل التداوي من القَولِنْج، فأبطأ عليَّ الشيخ ناصر الدين السندبصطي، فضربتُه علىٰ رأسه، لشدة ما أنا فيه، فقال: ما هنا إلا جَفْنة فيها رماد[2]، وأخاف أن أصبَّها علىٰ بلاط القاعة يتوسخ البلاط! فقدَّم هذا وسخ بلاط القاعة علىٰ طلوع روحي! فمثل هذا يستحق الصياح والإزعاج عند كلِّ عاقل!

فاعلم ذلك، وإياك إذا خدمتَ فقيرًا وخالفتَه وضربك أو صاح بك أن تتكدر منه، بل أقم له العذر، فإنه ما ضربك مثلًا إلا لتأخذ بيده، فيحصل لك الأجر، كما كان السيد عمر يضرب بالدِّرَّة من رآه يقصر في فعل خير، ولا يجوز حمله علىٰ سوء الخلق ولا حظ النفس. وأيضًا ما أرسلك لتشتري له طعامًا حتىٰ رعت أمعاؤه في بعضها بعضًا، أو لتشتري له فروة إلا بعد أن اشتد عليه البرد وخاف المرض، أو لتخطب له زوجة إلا بعد

---

(١) القَولِنْجُ: مرضٌ مِعَوِيّ مؤلم يصعب معه خروج البراز والرِّيح، وسببه التهاب القُولُون.

(٢) في الأصلين: من.

أن اشتدت عليه الغُلْمَة[1]، وضاق الوقت عن كسر شهوته بالصوم، وقس علىٰ ذلك.

(١٠١١) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يكثر من زيارة آحاد الناس من أبناء الدنيا وغيرهم، ولا يزور أحدًا من أقرانه في العلم والعمل، ولاث به بعض الناس وقالوا: إنما يزور فلان الناس لأغراض دنيوية، ولو أنه كان يريد الآخرة لزار العلماء والصالحين، ولكن عدو المرء من يعمل بعمله.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير، فربما كُشِفَ له أنه ليس لذلك العالم أو الصالح عنده مدد يمد به، وليس هو كذلك عنده مدد يمد به غيره، بخلاف أبناء الدنيا ربما كان لهم عنده مدد يمدهم به إذا وقع بصره عليهم، أو كان يتألفهم بالزيارة ليميلوا إليه، فيسمعوا نصحه، ولا هكذا العلماء والصلحاء الذين لا يزورهم.

وقد كان سيدي أحمد بن عقبة[2] ﷺ لا يزور أحدًا في مصر إلا إن كان معه مدد يمده به، أو مع ذلك المزور مدد كذلك يمد به الزائر، وربما كان يقف علىٰ باب زاوية شيخ ويقول بأعلىٰ صوته: هل عندكم لنا وديعة ندخل نأخذها منكم؟ فإن قالوا: نعم، دخل وإلا انصرف عنهم. فاعلم يا أخي ذلك، واحمل الفقراء علىٰ المحامل الحسنة، ولا ترجمهم بحجارتك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: إذا خرجت لزيارة شيخ فلا تشرك معه أحدًا ولا حاجة أخرىٰ تقع في الإثم؛ فلاث به بعض المتشرعين وقالوا: هذا تحجير علىٰ الناس بما لم يحجره الشارع عليهم فهو إلىٰ الإثم أقرب، فكيف يأثم مخالفه؟

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان قصده

---

(١) الغُلْمَةُ: شدَّةُ الشهوة للجماع.

(٢) أحمد بن عقبة اليماني الحضرمي ثم المكي، نزيل القاهرة، من كبار الأولياء، وهو شيخ سيدي زروق، وقد ترجم له سيدي زروق ترجمةً وافيةً في «مناقب الحضرمي» وقد قام شيخنا ومربينا د. محمد نصار بتحقيقها ونشرها بفضل الله. أقام بالقاهرة مدة حتىٰ مات في شوال سنة (٨٩٥هـ).

بعض الشرائع المتقدمة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: بادروا إلىٰ الوقوف تجاه وجهي إذا كنا نذكر قائمين، أو إلىٰ الجلوس تجاه وجهي إذا كنا نذكر جالسين، فمن فعل ذلك فقد تعرض لنزول الرحمة عليَّ وعليه، بخلاف من جلس خلف ظهري؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا له: هذا تحكم لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، فإن نزول الرحمة علىٰ الذاكرين قد ورد الأمر فيه عامًّا.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما أراد رحمةً خاصةً تنزل علىٰ ذلك المواجه له من حيثُ نظرُه إليه، فإن الله تعالىٰ ينظر إلىٰ كل جماعة بنظر كبيرهم من سلطان أو أمير أو شيخ، وربما نزل علىٰ الشيخ مدد حال الذكر، فصار بصره صِبَاغًا كلُّ من نظر إليه سعد.

وقد خرج سيدي يوسف العجمي من الخلوة مرةً، فتلفت علىٰ أحد من إخوانه، ليفيض عليه مدده، فلم ير أحدًا، فنظر إلىٰ كلب كان هناك، فانقادت له كلاب مصر، وصاروا إن مشىٰ مشوا معه، وإن وقف وقفوا معه، حتىٰ صار الناس ينذرون لهم الذبائح، فبلغ ذلك سيدي يوسف، فأرسل خلف الكلب، فلما وقف بين يديه قال: إخسأ؛ فأكلتْه الكلاب من وقته، فقال سيدي يوسف: آه لو وقعت تلك النظرة علىٰ إنسان، لصار يُقتدَىٰ به في مصر! انتهىٰ.

ومن هنا قال الأشياخ: ينبغي للمريد إن كان مستقيمًا أن يجعل جلوسه تجاه خلوة الشيخ أو بيته، فكلما خرج وقع بصره عليه. وأما إذا كان غير مستقيم فهو علىٰ نيته، فإن نوىٰ بذلك أن ينظر إليه الشيخ ويدعو له بالإصلاح فلا بأس، وإن علم منه شدة الغيرة لجناب الله تعالىٰ، ومقت كل من خالف أمره، فالأولىٰ له البعد عن الشيخ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا ألَّف كتابًا في الفقه أو علم

الحقيقة، ثم بدا له أن يغسله أو يمزقه مثلًا، فلاث به الأعداء وقالوا: لو لا أنه كان فيه قلة الإخلاص ما أتلفه.

والجواب: أن الشيخ قد يكون بمعزل عن هذا كلِّه، وأنه كان بينه وبين الله تعالىٰ أنه قبل ذلك الكتاب منه، لما فيه من الإخلاص ونفع المسلمين، وإذا قبل الله من العبد شيئًا، حفظه من الإتلاف، فأراد بغسله تحقيق ما وعده الله به، فقال: إن انغسل بالماء فقد تبين أن الحق تعالىٰ لم يقبله، وإن نزل في الماء ولم يبتل فقد قبله. وقد سبقه إلىٰ ذلك الإمام مالك، والحكيم الترمذي، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي في أمر كتابه «التنبيه» والشيخ محيي الدين النووي في «الروضة»، ويُحتمَل أنهم قصدوا بذلك اقتداء أصحابهم بهم في الامتحان لأنفسهم في الإخلاص والقبول.

وقد بلغنا أن الإمام مالكًا لما رمىٰ كتاب «الموطأ» في الماء طفا ولم يبتل، وكذلك كتاب «التنبيه»[1]. وأما الحكيم الترمذي فإنه جمع مؤلفاته في صندوق وقال لأصحابه: ارموها في الدجلة، واحكوا لي ما يقع فيها؛ فرموها فخرجت لهم يدان من الماء، فأخذت الصندوق، فلما حكوا ذلك له، قال: صدقتم! إن أملاك[2] الماء وعدوني أن يحفظوا مؤلفاتي عندهم في الدجلة إلىٰ أن يخرجوها بين يدي الساعة، ليحيي الله تعالىٰ بها الدين بعد اندراس كتب الشريعة وموت علمائها. وأما النووي فمنعه أصحابه من غسل «الروضة»، واعتقادنا فيه أنه من أكثر العلماء إخلاصًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵁ يقول: من تكدَّر ممن رمىٰ مؤلَّفه في بحر أو أحرقه، فهو دليل علىٰ عدم إخلاصه، لأن النية إذا صلحت في شيء، فلا علىٰ العبد بعد ذلك أن يدوم ذلك الشيء أو يتلف، اللهم إلا أن يتكدَّر لأجل فوات العمل بما فيه للمسلمين، فلا حرج عليه في ذلك، لأن محبة الخير لله محمود شرعًا، فالتأسف والحزن عليه مطلوب. فقلتُ له: فإن تكدَّر لفوات حظ نفسه؟ فقال: هو مذموم، إلا أن يرىٰ

---

(١) «التنبيه» لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي، أي وكذلك رمىٰ الشيرازي كتابه «التنبيه» والله أعلم.

(٢) كذا بالأصلين، ولعل صوابها «ملوك» أي ملوك الجن الصالحين في البحر.

تجرده عن نفسه، وأنها عنده وديعة وأمانة لله عزَّ وجلَّ، فيحب أن لا يفوتها شيء من الخير وفاءً بحقِّها، فهذا لا بأس به.

وقد وقع لصاحبنا الشيخ شهاب الدين ابن جحر[1] مفتي مكة ﷺ أنهم رموا كتابه «شرح الروض» في البحر بعد أن تعب في تحريره نحو خمس عشرة سنة، فلم يتغير من ذلك، فعلمتُ مرتبته في الإخلاص، فالله تعالىٰ يكثر في المسلمين مثله!

ويُحتمَل أن يكون الشيخ الذي أظهر لنا التغير علىٰ غسل الأعداء مؤلَّفه إنما فعل ذلك صوريًّا لا حقيقيًّا، كما يقع من بعض الأكابر إذا خاف علىٰ نفسه العجب بمدح الناس له بالإخلاص، وقولهم: فلان مخلص في عمله بلا شك، فإنهم لو غسلوا مؤلَّف أحد من أقرانه، لمات أسفًا وحزنًا علىٰ عدم حصول حظ نفسه الذي قصده بتأليفه، فكان إظهار الشيخ التأثر كالجماجم التي أمر الشارع أن توضع علىٰ رؤوس حصص الفلاحين، لترد العين عن الزرع أن يصيبه آفة[2].

ويُحتمَل أن الشيخ الذي أراد غسل كتبه أنه إنما يفعل ذلك ليمتحن عادته مع الله تعالىٰ،

---

(١) شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، أبو العباس. مولده في محلة أبي الهيتم (من إقليم الغربية بمصر) وإليها نسبته. مات أبوه وهو صغير، فكفله الإمامان الكاملان شمس الدّين بن أبي الحمائل، وشمس الدّين الشناوي، ثم إن الشمس الشناوي نقله من محلّة أبي الهيتم إلىٰ مقام سيدي أحمد البدوي، فقرأ هناك في مبادئ العلوم، ثم نقله في سنة ٩٢٤هـ إلىٰ جامع الأزهر، فأخذ عن علماء مصر. له مصنفات منها: «شرح المشكاة» و«شرح المنهاج» و«شرح الهمزية البوصيرية» و«شرح الأربعين النواوية». توفي: ٩٧٤هـ بمكّة في رجب، ودُفن بالمعلاة في تربة الطّبريين. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٥٤١-٥٤٢) «الأعلام» (١/ ٢٣٤).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البيهقي في «الكبرىٰ» (١١٧٥٣) من حديث عمر بن علي بن حسين: «أن رسول الله ﷺ أمر بتلك الجماجم تُجعلُ في الزرع من أجل العين» وقال: هذا منقطع. ورواه علي بن عمر بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جده قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة فقال: يا معشر قريش، إنكم تحبون الماشية فأقلوا منها؛ فإنكم بأقل الأرض مطرًا، واحترثوا، فإن الحرث مبارك، وأكثروا فيه من الجماجم» وقال: وهذا أيضًا مرسل. والبزار (٦٦٧) وأبو داود في «المراسيل» (٥٤١).

وعلامته التي جعلها علامة علىٰ صحة إخلاصه، لا شكًّا في الإيمان بدوام تلك العادة، وعدم حسن الظن بربه، بل لعلمه بسعة الإطلاق، وأن الحقَّ تعالىٰ لا تقييد عليه يفعل ما يشاء، فهو حسن الظن بالله، متهم نفسه، كما تقدم بسطه مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي فصَّل له جبة مثلًا، فنقص قماشها عن الكمال وعنده قماش من غير لونها، فقالوا له: كمِّل الجبة من هذا القماش؛ فأبىٰ، فلاث به بعض الفقراء وقال له: هذا من جملة رعونات النفس، ولا ينبغي لمثلكم أن يكون عنده رعونة. وقد كانت مرقعات السلف مجتمعة من ألوان شتىٰ، ورقع السيد عمر بن الخطاب ثوبه بقطعة جلد من جراب.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فقد يكون سالمًا من الرعونة، وإنما قصد بعدم تكميل الجبة البيضاء من القماش الأسود مثلًا العدل بين أجزاء الجبة، نظير ما ورد في النعل إذا انقطع من إحدىٰ الرجلين، وأنه يُستحَب للشخص أن ينعلهما جميعًا، أو يحفهما جميعًا[1]، وكذلك نظير ما ورد من النهي عن أن ينام الإنسان نصفه في الظل، ونصفه في الشمس[2]، عملاً بالعدل بين الجسم، وأهل الله تعالىٰ يعاملون الثياب وغيرها من الجمادات معاملة الحي، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ فيمن يؤذيه أن يكف عنه آذاه، أو يحسن إليه بهدية ليستحيي منه ويترك إيذاءه، فلاث به بعض الفقراء فقال: لا ينبغي للشيخ التوجه إلىٰ الله تعالىٰ في دفع شيء يؤذيه، ولا إرسال هدية لمن يؤذيه، بل يتحمل الأذىٰ من جميع الأنام، ثم يبريء ذمة كلٍّ من آذاه، وإنما شرَّع الشارع الهدية

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨٥٦) من حديث أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ قال: لا يمشي أحدكم في نعلٍ واحدة، ليحفهما جميعًا، أو لينعلهما جميعًا» ومسلم (٢٠٩٧).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٨٢١) من حديث أبي هريرة يقول: «قال أبو القاسم ﷺ: إذا كان أحدكم في الشمس، وقال مخلد: في الفيء فقلص عنه الظل، وصار بعضه في الشمس، وبعضه في الظل فليقم» وأحمد (٨٩٧٦) بنحوه، والبيهقي في «السنن» (٥٩٢١).

للمتشاحنين مثلًا إذا كانا لا يقدران علىٰ تحمل الأذىٰ من بعضهم بعضًا، ولا يقدران علىٰ كفِّ لسانهما عن عدوهما، وأما الشيخ فقد ترقىٰ عن مثل ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في توجهه إلىٰ الله وفي إرساله الهدية، فقد يكون إنما يفعل ذلك خوفًا علىٰ دين ذلك الظالم أن ينقص بزيادة الأذىٰ، فقصد بذلك التوجه أو الهدية تخفيف الإثم عنه، أي عن ذلك الظالم، وهو في نفسه قادر علىٰ أن يتحمل أضعاف ذلك الأذىٰ من الأعداء وغيرهم، «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1] هكذا معاملة الأكابر من العلماء العاملين لعامة المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا إمام كل من يحب الله، ولا شرب العشاق إلا بقية من مشروبي؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة، وقد سبق العشَّاق والمحبون لله عزَّ وجلَّ علىٰ هذا المدعي، وعشقوا وأحبوا، وشربوا من شراب الحب قبل أن يُخلَق هذا.

والجواب: قد يكون هذا الشيخ بمعزل عما ظنَّه الناس فيه، ويكون مراده: أنا إمام كل من يحب الله تعالىٰ من مريدي وأهل دائرتي، وأنهم ما شربوا كلُّهم إلا من فضلة شرابي، لإمدادي لهم دون غيري، وليس مراده أنه إمام لمن قبله من المحبين ومدير الكأس له، فإن ذلك لا يقوله عاقل.

ويُحتمَل أن يكون مراده بقوله: «أنا إمام كل من يحب الله» أي أنا أول من يجيب إلىٰ المحبة إذا دعي إليها، كما قال سيدي عمر بن الفارض:

وكـل فتـىٰ يهوىٰ فإني إمامـه

وكما يقول العبد لسيده: أنا أول عبد يطيع أمر سيده، فافهم ذلك، واحفظ لسانك في حق الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (١٤٢٥).

(١٠٢٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول: يحرم مال الكاهن الذي جمعه من الكهانة مُطلقًا ولو أحسن الكهانة؛ فلاث به فقيه فقال: مذهب أبي بكر الصديق أنه لا يحرم إلا إن كان لا يحسن الكهانة، بدليل قصة الطعام الذي أطعمه له غلامه وقال: كنتُ تكهنتُ لإنسان في الجاهلية ولا أحسن الكهانة، فأعطانيه، فقاءه أبو بكر من بطنه». قال: فلولا قوله «ولا أحسن الكهانة» ما كان أبو بكره قاءه.

والجواب: أن هذا الاستدلال ساقط بمرة، والصواب مع هذا العالم القائل بالتحريم مطلقًا، كما تشهد له قواعد الشريعة، وقد جاء النهي الصريح عن الشارع في تحريم حُلْوان الكاهن مطلقًا[1]، فعُلِمَ أنه ليس الباعث لأبي بكر علىٰ القيء كون الغلام لا يحسن الكهانة، وإنما الباعث له عليه كونه حُلْوانًا للكاهن فقط، فافهم ذلك، وإياك والغلط والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أقوال العلماء، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢١) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول: إذا صح الإكراه لعبد في فعل محظور، ارتفع الإثم عنه جملة، إلا من أُكره علىٰ قتل مسلم أو غيره بغير حقٍّ؛ فلاث به صوفيٌّ وقال: قد يؤاخذ الله تعالىٰ المكرَه لبقايا بقيت عليه عادة، كأن كان يقدر علىٰ تحمل الضرب أو الحبس مثلًا من ذلك المكرِه له، قال: ويدل لذلك قول السحرة: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

والجواب: أن هذا الاستدلال ضعيف، لأنه كان شرع لموسىٰ ولم تقره شريعتنا، كما قال ﷺ: «رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان، والأمر يُستكرهون عليه»[2]. انتهىٰ. والأصل عدم قدرة المكرَه -بفتح الراء- علىٰ تحمل الضرب والحبس مثلًا، وأنه لم يبق عليه بقية من الضرر يقدر علىٰ تحملها.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٣٧) من حديث أبي مسعودٍ الأنصاري ﷺ: «أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن ثمن الكلب، ومهرِ البغي، وحُلْوانِ الكاهن» ومسلم (١٥٦٧).

(٢) تقدم تخريجه.

[دفع توهم بعض الصوفية مؤاخذتهم بالخطأ والنسيان]

فإن قيل: إن الصوفية يؤاخذهم الله تعالىٰ بالخطأ والنسيان كثيرًا كما هو مذكور في كتبهم؛ **فالجواب:** الشارع أصدق من غيره، وقد لا يكون ذلك البلاء الذي نزل علىٰ العبد عقب خطئه ونسيانه نزل عليه من حيثُ الخطأُ والنسيانُ، بل نزل عقوبةً لأمر محقق وقع فيه العبد أحصاه الله تعالىٰ عليه ونسيه هو. فاعلم ذلك فإنه دقيق لم أرَ من نبَّه عليه، بل غالبُ الصوفية يعتقد أن كل ما وقع له من العقوبة عقب الخاطر المذموم أو الخطأ أو النسيان إنما هو بسبب ما ذكر، فيصادم كلام الشارع بغير علم ما فيه من رائحة التكذيب للشارع ودفع خصوصيته التي أعطاها الحق تعالىٰ له، وخفف بها عن أمته، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ترتيل القرآن أو الذكر أفضل من الاستعجال والهَذْرمة[1] فيهما، وعن الشيخ الذي يقول: الاستعجال والهَذْرمة أولىٰ؛ فلاث بكل منهما أصحاب الآخر وقال أصحاب الشيخ الأول: قد قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. وقال جماعة الشيخ الثاني: إن الاستعجال أفضل، مبادرةً لدفع الوسواس والخواطر التي ترد علىٰ القلب من أمور الدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بكل من الشيخين، ويُحمَل كلامها علىٰ حالين: أما الشيخ الأول، فلأن الترتيل فيه امتثال أمر الله تعالىٰ، ولما فيه من البيان واتساع الوقت لمن يتدبر في معاني القرآن ممن غلبت جثمانيتهم علىٰ روحانيتهم، فإن الجسم كثيف ثقيل لا يقدر صاحبه علىٰ سُرعة فهم المعاني إذا استعجل القارئ. وأما الشيخ الثاني فكلامه محمول علىٰ من غلبت روحانيته علىٰ جثمانيته، فصار يفهم المعنىٰ مع سرعة النطق بحروف الكلمة.

ويؤخذ من ذلك أن رسول الله ﷺ ما أُمر بترتيل القرآن في الصلاة وخارجها ليلًا ونهارًا إلا بحضرة أحد من أمته الضعفاء. أما مع غيبة الضعفاء وحضور الأقوياء الذين

---

(١) هَذْرَمَ القرآنَ: أسرع في قراءَته لا يتدبَّرُ معانيه.

غلبت روحانيتهم علىٰ جثمانيتهم، أو إذا كان وحده، فالأمر علىٰ التخير. وقد كان ﷺ مأمورًا بالبيان للأقوياء تارةً، وللضعفاء تارة.

ومما يدل علىٰ أن رسول الله ﷺ لم يكن مأمورًا بالترتيل للقرآن إذا كان وحده ما وقع لخواص أمته من قراءة القرآن ثلاثمئة وستين ألف مرة في اليوم والليل، إذ هم ورثته ﷺ في جميع المقامات التي يصح لهم إرثها، فلولا أنه ﷺ كان قد سبقهم إليها ما قدر أحد منهم علىٰ فعلها.

وقد كان سيدي الشيخ أبو مدين شعيب إذا هم أن يركب بغلته لا تستقر رجله في الركاب حتىٰ يقرأ القرآن ثمانين مرة، كما أخبر بذلك عن نفسه. وأما قراءة القرآن ألف مرة في كلِّ درجة، فأخبر شيخنا سيدي الشيخ علي المرصفي أن ذلك وقع له حال سلوكه حين[1] تجردت روحانيته عن جسمه. انتهىٰ.

ومن هنا كانت الأشياخ تعرف من غلبت روحانيته علىٰ جثمانيته من تلامذتهم وعكسه، فإن دعاهم الشيخ إلىٰ الاستعجال وسرعة النطق في الذكر ووافقوه، عرف غلبة روحانيتهم، وإلا عرف غلبة جثمانيتهم، فيأمرهم بزيادة الجلاء للقلب والجوارح، بزيادة الأعمال الصالحة والإخلاص فيها، فاعلم ذلك، فإنه نفيس لا تجده في كتاب، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ وجماعته إذا كانوا يقرؤون القرآن أو يصلون علىٰ النبي ﷺ، فسها الشيخ، فانتقل من آية إلىٰ آية، أو من كيفية صلاة إلىٰ أخرىٰ، أو غلط في ذلك، فتبعه أصحابه، فلاث بهم بعض الناس وقالوا: لو كان قلب هذا الشيخ وجماعته حاضرًا لما سهَوا ولا غلِطوا، ولكن قد ذهب الحضور والارتباط من القلوب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا بجماعته. أما الشيخ فقد يكون سبب سهوه أو غلطه عظيم ما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله عزَّ وجلَّ، فسرت تلك العظمة منه إلىٰ

(١) بالأصلين: حتىٰ. والصواب ما أثبتناه.

قلوب مريديه، فسهوا كذلك أو غلطوا، فسقط قول من قال بعدم ارتباط هؤلاء بشيخهم، لأنه لولا ارتباطهم به ما تبعوه في السهو والغلط. وهذا مقام في الكمال، وفوقه ما هو أكمل منه، وهو تجلي عظمة الله تعالىٰ للقلب، ولا يذهل عما هو فيه من القرآن، ولا عن عدد ما يقوله من الأذكار ذوات العدد. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «إنما أنسىٰ ليستن بي»[١]، أي وإلا فقد أعطاه الله تحمل أعظم تجلٍّ يكون من الحق تعالىٰ للخلق، ولذلك كان أشد قوة من جميع الرسل، كما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١] الآية، سواء فسرنا الجبل بالجبل المعهود، أو بأكابر الرسل والأولياء من الخلق، ومحال أن يذهل ﷺ في قراءته أو صلاته لشيء من أمور الدنيا أو الآخرة، فافهم والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يهجر من أساء الأدب معه أو مع غيره أكثر من ثلاثة أيام، ولاث به بعض الفقهاء وقالوا: لا يجوز شرعًا الهجر فوق ثلاث، كما صرَّح به في الحديث[٢]. وأيضًا فإن من شأن الفقراء العفو والصفح عمَّن جنىٰ عليهم، والهجر ينافي طريق الفقراء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في هجره بعض أصحابه أكثر من ثلاثة أيام إذا أساؤوا الأدب أو ارتكبوا معصية ما لم يتوبوا عنها، فقد صرَّح أشياخ الطريق بأن **كلَّ شيخ أمين علىٰ دين جماعته، ويحرم عليه الصفح والعفو عنهم**، لأن ذلك رخصة، والرخص تنافي حال السالكين لعدم الترقي فيها، والسالك من شأنه دوام الترقي، وقالوا: من صفح عن مريده أو عفا عنه فقد غشَّه وارتكب إثمًا، وقد قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]. وقال العلماء: الهجر الجميل هو الذي لا يكون معه حقد ولا تشفٍ للنفس، وإنما هو مصلحة وتأديب للمهجور، فيُحمَل حال الأشياخ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٠٦٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ: «أن رسول الله ﷺ قال: لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» ومسلم (٢٥٥٨).

علىٰ مثل ذلك، ولا يجوز حملهم علىٰ حظ النفس.

(١٠٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للكشَّاف ومشايخ العرب ونحوهم: إن بيدي تولية الولاة وعزلهم، وكلُّ من أعطاني كذا وكذا وليتُه، فيعطيه الولاة ما طلب، ثم لا يقع له ولاية، وإنما يدخله نائب السلطان الحبس، فلاث به الناس وقالوا: هذه طريقة النصَّابين! وقد أدركنا مشايخ مصر وغيرهم وما كان أحدهم يزيد علىٰ الدعاء لكل من طلب منهم حاجة، ولكن قد ذهب الصدق من الدنيا في هذا الزمان.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون بيده الولاية والعزل حين ذلك القول، ثم إن القطب عزله من تلك الولاية، فما قال: «بيدي الولاية والعزل» إلا قبل العزل، فهو صادق في قوله.

وأيضًا فإنه لا ينبغي اللوث به في أخذه الفلوس من ذلك الكاشف، فقد يكون إنما أخذها ليفرقها علىٰ الفقراء والمساكين، ليدعوا لذلك الكاشف مثلًا بقضاء الحاجة، ولا يأخذ هو منها شيئًا، فيحتاج من ينكر علىٰ هذا الشيخ إلىٰ شدة مخالطته ليلًا ونهارًا، حتىٰ يراه وهو يأكل من تلك الفلوس أو يلبس مثلًا، وإلا فلا ينبغي له الإنكار.

ولم يزل يأتيني مشايخ العرب والكشَّاف ويحكون لي عن بعض فقراء العصر أنهم أخذوا فلوسهم ولم يولوهم ما طلبوا، فأقول لهم: ارجعوا إليهم، فإن الأشياخ لا تكذب، وأُحسِّن اعتقادهم فيهم، فقال لي بعض الفقراء: هذا حرام عليك وغش للناس! فقلتُ له: فماذا أصنع؟! إن جرَحتُهم عندهم، فقد جرَحتُ أهل خرقة الفقراء، فإحساني الظن بهم أولىٰ. وقد حدث هذا الأمر كثيرًا في فقراء هذا الزمان، فأساء الولاة الظن بهم وسموهم «نصَّابين كذَّابين».

وقد أدركتُ سيدي عليًّا الخواص وهو يقبل من الأمير الرغيف فقط ويعده بقضاء حاجته ثم يرمي الرغيف للكلب ولا يأكل شيئًا منه، وكان مطمح بصره اللوح المحفوظ كما قيل، فكان إذا قال قولًا لابد أن يقع كما قال.

[كلُّ شيخٍ قطبٌ غوثٌ لجماعته]

فإن قلتَ: إن القطب لا يصح أن يُعزَل إلا بالموت لعدالته، ونرىٰ بعض الفقراء يدعي أنه القطب الغوث، ويأخذ من الأمير المئة دينار وأكثر، ويقول: بيدي الولاية والعزل، ثم لا يولي ذلك الأمير تلك الولاية، فما الجواب عنه؟ **فالجواب:** قد يكون مراده أنه قطب غوث لجماعته فقط، ومثل هذا يجوز في حقِّه[1] العزل، وربما وقع في الفسق فيستحق العزل. وبالجملة فكل فقير لا يعلم من نفسه يقينًا القدرة علىٰ ما يعد به الأمير، فليس له أخذ الجُعَالة[2] عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٦) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يهدي لأحد من أكابر الأولياء جبة أو قلنسوة أو نعلًا، فيلوث به الفقراء الصادقون ويقولون له: من شرط الفقير الذي يهدي شيئًا يُلبَس لمن هو أعلىٰ مقامًا منه أن لا يكون عصىٰ الله تعالىٰ في ذلك الملبوس، أو لم يغفل عن الله تعالىٰ حال لبسه، وإلا ففي الإهداء المذكور إساءة أدب مع ذلك الشيخ، وإن لزم منه الإحسان إلىٰ ذلك الملبوس إن قبله ذلك الشيخ.

والجواب: أن مثل هذه[3] الأمور تخفىٰ علىٰ كثير من الفقراء، فلا ينبغي اللوث بفقير أهدىٰ شيئًا إلىٰ من هو أكبر منه إلا بعد تعريفه بمقام الأدب في ذلك، فإذا علم طريق الأدب وخالف بعد ذلك، قلنا باللوث به.

وإيضاح ذلك أن الثوب الذي عصىٰ صاحبه ربه فيه مثلًا يُكَدِر جسد ذلك الشيخ الكبير إذا وضعه عليه، فلا ينبغي للمريد أن يرسل شيئًا من الملبوس لأحد من الأكابر إلا بعد استئذانه في ذلك.

وأيضًا فإن مقام الأكابر في التورع في ملابسهم فوق مقام المريدين بيقين، فربما أن

---

(١) أي الضمير في «حقه» يعود للفقير المدعي.

(٢) الجعالة: بضم الجيم أو فتحها أو كسرها، ما يُجْعلُ علىٰ العمل من أَجرٍ.

(٣) بالأصلين: هؤلاء.

أحدهم لا يصلي في ثوب بالغ المريد في التورع فيه من حيثُ القماشُ أو الثمنُ، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، هذا في حق المريد مع غير شيخه. أما شيخه فلا ينبغي أن يهدي إليه شيئًا مطلقًا، إلا إن كان يرىٰ نفسه وما يدخل يده ملكًا لشيخه أو من فضله أو إحسانه عليه، كما هو مبسوط في رسائل القوم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: لا أحد منكم يجتمع بشيخ غيري في هذا الزمان أبدًا؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا تحجير لم يأذن به الشارع، وقد نقل القشيريُّ وغيره عن جماعة كثيرين أن أحدهم كان يقول: صحبتُ نحو ثلاثمئة شيخ وكلهم أوصوني بكذا وكذا، فلم يكن عند أحد من السلف هذا التحجير.

والجواب: أن السلف الصالح إنما كانوا لا يحجرون علىٰ أحد يجتمع بهم من أصحابهم، لأن كلًّا من الأشياخ الذين كانوا موجودين في عصرهم كانوا مملوئين من الأمداد الربانية، وكان كلُّ واحد أهلًا لأن يهدي الأمة كلَّها، فلم يكن للتحجير علىٰ المريدين معنىٰ، فلما ذهب أولئك المشايخ إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، وخلف بعدهم خلف لم يسلكوا طريق الاستقامة التي كان عليها الأشياخ، وصارت الطريق في أفراد من الناس، حجروا علىٰ المريد أن لا يجتمع إلا بشيخ واحد ممن له عنده مدد يمده به، ثم إن رأوا شيخًا منهم قد عجز عن إمداد الجماعة الذين اجتمعوا كلهم قالوا لبعض جماعته: تعالَ اجتمع بنا لنربيك؛ يعني مساعدة لأخينا في الأخير، لا حبًّا للرئاسة علىٰ الناس، فهكذا كان الشيوخ ومن أدركناهم ممن خلفهم، **فإن الطريق في كل عصر لواحد، وباقي الدعاة إلىٰ الله إنما هم نوَّاب لذلك الواحد**، فكما كانت الطريق في بدايتها لواحد وهو رسول الله ﷺ، كذلك ينتهي أمر الناس في كلِّ عصر إلىٰ واحد وهو القطب، وسائر الدعاة أعوانه إلىٰ أن ينتهي الأمر إلىٰ الإمام المهدي.

فعُلِمَ أن كلَّ شيخ عَلِمَ عنده مدد المريد، ثم أرسله إلىٰ غيره فقد غشه، وكان عليه إثم قاطع الطريق علىٰ عباد الله تعالىٰ! فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق أشياخ عصرك

إذا تنازعوا في مريد، وطلب كلٌّ واحد أن يكون ذلك المريد له دون غيره، فإن كلًّا منهما مسارع للخير بإظهاره عزة الطريق والمزاحمة عليها، لا لغرض من الأغراض النفسانية.

فإن قال قائل: إن المريد لا يخلو من أن يكون له وديعة من المدد عند الشيخ أو لا يكون، فإن كان له وديعة، فليصبر ولا يستعجل عليه حتىٰ يأتي وقتها، وإن لم يكن له وديعة عنده، فلا فائدة في المنازعة في شأن ذلك المريد؛ **فالجواب**: أنه لا اعتراض علىٰ الأشياخ في مثل ذلك لانتفاء حب الرئاسة، فلابد أن يكون لهم غرض صحيح، فابحث عليه. وقد مدح الله تعالىٰ الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الزاهد في الدنيا إذا اجتمع هو وبعض العلماء في جنازة، وعزموا علىٰ الشيخ أن يصلي إمامًا دون ذلك العالم، فقدَّم الشيخ العالم وصلىٰ الشيخ مأمومًا، فلاث به بعض الحاضرين وقالوا له: إنما قدَّمك أهل الميت مصلحةً للميت من حيثُ إن دعاء الشيخ الزاهد في الدنيا أقرب إلىٰ الإجابة من دعاء العالم المحب في الدنيا.

والجواب: أن من مقام الشيخ أن لا يرىٰ نفسه أفضل من أحد من العوام، فضلًا عن العلماء، فربما كان الشيخ يرىٰ دعاء ذلك العالم أقرب إلىٰ الإجابة من دعائه هو، فقدَّمه مصلحةً للميت.

وأيضًا فإن المدار علىٰ الدعاء، وهو حاصل بصلاة الشيخ مأمومًا، وربما لحَظ الشيخ من ذلك العالم أنه لا يخلِص الدعاء للميت ويدعو بقلب إلا إن صلىٰ إمامًا. وأما إذا صلىٰ مأمومًا، فربما تحركت نفسه، واشتغل بكون ذلك ازدراءً له، فلا يقدر علىٰ إخلاص نيته، فقصد الشيخ بتقديمه إخلاصه الدعاء للميت. وأما الشيخ فإنه مخلص في الدعاء علىٰ كل حال، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه عن زيارة قبور الأولياء كالقرافة ونحوها، ويقول لهم: لازموني أفضل لكم؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: كيف تكون

ملازمة مثل هذا أفضل من زيارة الإمام الشافعي أو الإمام الليث أو ذي النون المصري مثلًا؟! هذه دعوىٰ لا برهان عليها!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ حتىٰ يُعلَم مراده، فقد يكون مراده أن الأولياء إذا ماتوا صارت ظهورهم في البرزخ إلىٰ الدنيا، فلا عليهم من أهلها إن ماتوا أو عاشوا، أو عصوا أو أطاعوا، لذهاب التكليف عنهم بالموت، وليس مراده أنه يرىٰ نفسه أفضل من هؤلاء الأولياء.

وأيضًا فإن المريدين ليس معهم مدد يمدون به من يزورونه من الأحياء والأموات إلا القراءة عند قبر كلٍّ واحد. ومعلوم أن الزائر لا يصل إلىٰ ذلك بغير المشي علىٰ قبور بعض الأولياء، لاسيما بنعل أو دابة، فما يحصل لهذا من الإثم بدوس الأولياء بالنعال وروث الدواب عليهم أرجح في الإثم من ترك زيارتهم بيقين.

وأيضًا إذا لم يكن شيخهم يكفيهم مددًا مع مشاهدتهم له ولأعماله، فالأموات لا يكفونهم من باب أولىٰ. وقد دخل عليَّ شخص وقال لي: ركبتُ اليوم بغلتي وزرتُ نحو سبعمئة شيخ، ولكن خاطركم عليَّ في الدَّين الذي عليَّ. فقلتُ له: إذا كنتَ لا تعتقد في سبعمئة شيخ أنهم يأخذون بيدك، فكيف يأخذ بيدك عبد الوهاب؟! فسكتَ وعلم من نفسه أن زيارته للأولياء إنما هو لحظ نفس.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من شرط مشروعية الزيارة من الأكابر للأموات أن يكون أحدهم ممن أعطاه الله تعالىٰ معرفة المنعَم والمعذَّب في قبره، ليقف يشفع في المعذَّب، ولا يفارقه حتىٰ يقبل الله شفاعته فيه، ويزول عنه العذاب. وأما زيارته للمنعَّمين في قبورهم، فلا يفارقهم حتىٰ يسجد لله تعالىٰ شكرًا نيابةً عنهم، ويسأل الله تعالىٰ لهم زيادة النعيم.

واعلم يا أخي أنه لا فرق فيمن يمد الأموات بين أن يكون من الأكابر كالعلماء والصالحين، أو من الأصاغر كالعوام والمذنِبين، فلا يُقال: كيف يمد مثل فلان الإمام

الشافعي مثلًا؟! لأنا نقول: كلُّ من كان فوقه مقام أعلىٰ من مقامه، فهو يقبل الزيادة بالإمداد، فافهم[1]، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشتكي أحد من المظلومين حاله مع من ظلمه، فيجمع الفقراء ويدعو علىٰ الظالمين، ويصير لهم ضجة عظيمة في المسجد، فلاث بهم بعض الفقهاء وقال: قد يكون ذلك الذي اشتكىٰ ظالـمًا علىٰ من ادعىٰ أنه ظلمه، كما يقع فيه غالب الناس، فيُهلِك الحرث والنسل إذا تولىٰ كاشفًا أو عاملًا في بلاد. فإذا عزلوه من كثرة ظلمه وسلبوا نعمته، يصير يحكي للناس أنه مظلوم، وينسىٰ السبب الذي استحق به ما وقع له، أو يذكره ولكن يكتمه عن الناس فجورًا ونفاقًا.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ وجماعته الذين يدعون علىٰ الظالمين، فقد يكون ثبت عندهم ظلم ذلك الشخص الذي دعوا عليه، فطلبوا من الله تعالىٰ أن يكفه عن ذلك الظلم، أو مقابلته بنظير ذلك كفارةً له. وقد يكون دعاؤهم علىٰ الظالم إنما هو دعاء له بالعفو والصفح، أو أن يرزقه الله التوبة وردَّ المظالم إلىٰ أهلها، فإن **الأشياخ من عالم الرحمة لا من عالم العذاب**، فإذا بلغهم ظلم ظالم دعوا له بالتوبة، وللمظلومِ[2] بأن يعفو عن ذلك الظالم، أو يصبر تحت جوره وظلمه إذا لم يظهر له سببه.

ويقع لي كثيرًا إذا اشتكىٰ لي أحد من العمال أو الكشَّاف من أحد ظلمه [أني] أجمع الفقراء وأصير أدعو للظالم والمظلوم، فيظن بعض الجهال أنني أدعو علىٰ ذلك الظالم بمجرد شكوىٰ ذلك المظلوم منه، والحال أنني إنما أدعو للظالم والمظلوم من باب

---

(١) إذًا فالفارق بين إمداد الأولياء للزائرين وإمداد الزائرين للأولياء: أن الزائر إنما يمد الوليَّ بثواب ما يقرأ ويهب له، فحقيقة الإمداد راجعة لثواب الزيارة الموهوب للوليّ أو الدعاء، فيزداد الوليُّ رفعة بثواب القراءة نفسها أو الدعاء. أما إمداد الوليّ للزائر فهو ببركته وهمته وتوجهه ومكانته عند الله تعالىٰ، وتصبغ روحانيته المريد المستمد منه بصباغ السلوك والترقي. ومن هنا كانت زيارة الأولياء لاسيما آل البيت وكبار مشايخ الطريق كسيدي أحمد البدوي ضرورة للسالك، لما يحصل له فيها من ترقيات وقطع عقبات الطريق.

(٢) أي ودعوا للمظلوم أيضًا.

حديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[1]. وكثيرًا ما أدعو بذلك سرًّا، وآمر الفقراء أن يؤمنوا من غير إعلامهم بما أدعو، رحمةً بهم وبالمدعو عليه، وإن كان ذلك لا يرضي المظلوم من الفقراء لو علم به.

وقد قالوا: إياك أن تشكو للعارف من أمر حدث عليك، لأنه ينظر الدنيا والآخرة، ويرىٰ ما ينفع العبد في الآخرة وما لا ينفعه، فربما رأىٰ ذلك الفقر أو العزل أو المرض يحصل لصاحبه الأجر في الآخرة، فيسأل الله تعالىٰ له دوامه، وأن يرزقه الصبر عليه، وهذا لو عُرِضَ علىٰ صاحب الحاجة ربما لا يرضيه، بل يطلب المال والولاية والعافية، وإن كان في ذلك نقص الأجر في الآخرة. هذا شان العارف، فإنه كالأب الشفيق علىٰ أديان أولاده وأبدانهم، فيمنعهم عن كل شيء يضرهم في أبدانهم وأديانهم، بخلاف الفقراء المتعبدين الذين لم يخرق بصرهم إلىٰ مشاهدة الدار الآخرة، فإنهم يدعون للسائل بحصول ما طلب، وإن كان فيه نقص درجته في الآخرة.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ فقير شكا إليه أحد من الكشَّاف مثلًا ممن ظلم ووعد فقراء الزاوية بقمح أو عدس أو غيرهما، ويصير يقول: كيف يدعي هؤلاء الصلاح وهم يدعون علىٰ الناس لأجل غرض من وعدهم بشيء من سحت الدنيا؟! فقد يكونون إنما يدعون له، ثم لا يقبلون منه تلك الهدية إذا أرسلها، كما يقع لي ذلك كثيرًا، فإن مذهبي تحريم قبول هدية علىٰ الشفاعات، سواء أكانت باللسان أو بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ، وقلَّ من الفقراء من يراعي ذلك الآن في الظاهر، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي يتردد إليه الأكابر من الكشَّاف ومشايخ العرب، وله عدو من أقرانه ينقصه في المجالس، فصار ينفِّر الأكابر عن ذلك العدو ويقول: الذي يجتمع بي لا يجتمع بفلان؛ فلاث الناس به وقالوا: إذا كان [هذا][2]

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٣) ومسلم (٢٥٨٤).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

فعل العلماء والصالحين مع بعضهم بعضًا، فما بقي أمثالنا يلام علىٰ مثل ذلك! ولكن صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر عن العلماء آخر الزمان من كونهم يصيرون يتغايرون علىٰ القرب من الملوك والأمراء، كتغاير الرجال علىٰ النساء[١].

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العالم أو الشيخ إذا صار ينفر الأمراء ومشايخ العرب مثلًا من أحد من أقرانه، فربما قصد بذلك الشفقة عليه من قربهم منه، خوفًا عليه من الركون إليهم، فيُحشَر معهم، أو خوفًا عليه أن يدخل في حملة أحدهم إذا عُزِلَ من ولايته مثلًا، فلا يقدر علىٰ توليته، فيخجل منه، فأراد بتنفير ذلك الأمير عن ذلك العدو أن يصير يحمل عنه حملة ذلك الأمير، ويتحمل عنه الخجل الذي كان يحصل له منه إذا لم يقدر علىٰ عوده إلىٰ ولايته مثلًا.

فإن قال قائل: فإذا كان هذا قصده، فيكون ذلك بحسن عبارة من غير مبالغة في تقطيع عِرْضه؛ **فالجواب**: يُحمَل علىٰ أنه عرف من ذلك الأمير أنه لو لم يبالغ في تنفيره عنه، لاعتقده وأضرَّ بحاله، فلذلك بالغ في تنقيصه عنده مبالغةً في الاحتياط له والشفقة عليه.

فإن قال قائل: فكيف صحت عداوة الشيخ لشيخ آخر وكلاهما من أهل التقوىٰ ومن أهل الزهد في الدنيا، ومن كان كذلك فلا يصير له عدو؟! **والجواب**: أننا لم نثبت وجود عداوة بينهما في نفس الأمر، وإنما هي عداوة عند الناس، أو هي عداوة صورية أظهرها الشيخان لغرض صحيح شرعي. وقد صحبتُ أنا من رجال هذا المقام جماعةً، منهم أخي الشيخ الصالح سيدي أفضل الدين، ومنهم الشيخ عمر البوصيري[٢]، فكان أحدهما إذا

---

(١) لم أقف عليه، وقد ذكره المؤلف من كلام كعب الأحبار في «تنبيه المغترين» ص١٥٧.

(٢) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ عمر البوصيري صحبته نحو عشرين سنة، ورأيت منه كشوفات وكرامات، ولم يأذن لي في إفشاء شيءٍ منها لأنه من الرجال الملامتية، ﷺ. وجمعني علىٰ الأولياء الذين يشفعون في أهل الموقف بعرفة كل سنة في سنة سبع وأربعين وتسعمئة في مسجد منىٰ، وكانوا كلهم من اليمن، أحدهم أمرد، ألوانهم كالزعفران من الصفرة رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم، آمين. لم يتيسر معرفة تاريخ وفاته. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٤٩٤) طبعة دار الإحسان.

تردد إليه أمير وبالغ في اعتقاده، يقول لأصحابه: نقصوني عنده، ونفِّروه عني، فإني عجزتُ وأنا أنفره عني، فلا ينفر، بل يزداد فيَّ اعتقادًا، ويظن أن ذلك مني هضم نفس ﷺ.

فإن قال قائل: الذي عندي أن هذين العالمين أو الشيخين ليسا بعلماء ولا بصلحاء، وإنما هما نصَّابَان[1]؛ **فالجواب:** أن ما مشينا عليه أولىٰ وأخلص للذمة، وقد يكونا شيخين صادقين في نفس الأمر كما ظنناه بهما، فما وقع جوابنا عنهم إلا علىٰ صدق وحق، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نزل بشيخ آخر من أقرانه بلاء أو مصيبة، فصار يقول للناس: هل تعرفون ما سبب المصيبة التي نزلت بفلان؟ هذا أنكر علىٰ الفقير فلان، فصدمه هذه الصدمة، وهذا يدل علىٰ عدم رسوخ قدمه في الصدق مع الله تعالىٰ، ولو أنه كان صادقًا مع الله تعالىٰ، ما قدر أحد مع الفقراء علىٰ سلبه مثلًا؛ فلاث الناس بهذا الشيخ وقالوا: إن مقصوده بهذا القول تحقير هذا الشيخ المصاب في عيون الناس لكونه عدوه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ الذي أخبر الناس أن ما أصاب فلانًا صدمة من فلان، لأنه قد يكون صادقًا في ذلك، **ثم لا يلزم من تأثير الأدنىٰ في الأعلىٰ حقارةُ مقام الأعلىٰ**، فقد يبتليه الله تعالىٰ ببلاء علىٰ يد أضعف الناس، كما ابتلىٰ النمرود[2] وبختنصر[3] مع شدة تجبرهما بالبعوضة، فأهلكهما بها، وكما أن الذبابة تلدغ الأسد في عينه، فيخر الدم منها، فلا يقدر الأسد علىٰ ردها عنه.

وقد يعطي الله تعالىٰ بعض عباده قوةً لم يعطها لمن هو فوقه في المقام، فتصير الأمور

---

(١) بالأصلين: نصابًا. والصواب ما أثبتناه.

(٢) النمرود، وهو الجبار الذي جادل سيدنا إبراهيم، وهو المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

(٣) بختنصر أحد الملوك الكلدان الذين حكموا بابل، وقد سلطه الله علىٰ بني إسرائيل.

تنفعل عن همته، فبمجرد ما تتوجه همته إلىٰ شيء، يلهم الله تعالىٰ بعض الولاة، فتفعله من غير سؤال باللفظ، كما وقع لي ذلك في سنة خمس وستين وتسعمئة، وذلك أن بعض الناس صاروا يسافرون إلىٰ السلطان ببلاد الروم، فيطلب أحدهم النظر علىٰ بعض الأوقاف التي في أيدي الناس حسبةً من غير معلوم، فيعطيهم السلطان ذلك، ظنًّا منه أن ذلك الناظر يريد خيرًا، وبعضهم صار يسأل السلطان في أي وظيفة شاء في يد أقرانه وأن يعزله له فيعطيه وظيفته، فحصل من ذلك لأهل مصر غاية الضرر، فهممتُ أني أكاتب الوزراء في ذلك، وأنهم يتوقفون في تقرير هؤلاء حتىٰ يأتي بعَرْض[1] من قاضي مصر بأنهم أهل لتلك الوظيفة، وأنهم أحق ممن هي في يده، فكتبتُ كتابًا، ووضعتُه عندي حتىٰ أرىٰ أحدًا يسافر به إلىٰ الروم، فجاء الخبر أن السلطان نادىٰ في ذلك اليوم الذي كتبتُ الكتاب فيه أن لا يُعطىٰ أحد وظيفة ولا نظر حسبة علىٰ وقف إلا إن أتىٰ بعرض من قاضي مصر، وأنهم راجعوا السلطان في ذلك، وقالوا: هذا ما هو القانون! فقال السلطان: أنا أجعله قانونًا. انتهىٰ.

فانظر يا أخي كيف أثرت همة مثلي في الولاة بالروم حتىٰ نادىٰ به السلطان في ديوانه؟! وحصل بذلك خير كبير إن دام. فاعلم ذلك، ولا تحتقر كيد العدو، فربما تموت الأفاعي من سموم العقارب، وإياك أن تقول في نفسك: إن مثلي لا يقدر مثلُ فلان علىٰ تأثير فيه، فإن الله قد يقدره علىٰ ذلك، وإذا كان الله تعالىٰ هو الفاعل حقيقة في كل فعل، فلا توقف في مثل ذلك، فإن الله يفعل ما يشاء، والحمد لله رب العالمين.



(١) أي عرض حال، وهو طلبٌ مكتوبٌ يُقدَّم إلىٰ صاحب الأمر إمّا تظلُّمًا وإمّا لاستجلاب نعمة.

الباب الحادي عشر

جملة أخرى من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(١٠٣٣) **ومما أجبتُ به عن العالم إذا توقف في بعض المسائل الظاهرة لآحاد الطلبة، فلاث بعض الأقران به وقالوا: فلان سُلِبَ العلم، ولم يبق معه سوىٰ الاسم.**

والجواب: أنه لا ينبغي نسبته إلىٰ ما ذُكِرَ، فقد يكون يعرف وجه تلك المسألة، ولكن لم ير أحدًا تكلم عليها، فخاف أن يتكلم بها، فيصير عليه وزرها إن كان فيها وزرًا، وإصرها إن كان فيها مشقة، فترك الكلام عليها تورعًا. وقد قال ابن النقيب[1] في «نكته علىٰ المنهاج» في قوله[2] في الكلام علىٰ أكمل الركوع: (**ويفرِّق أصابعه للقبلة**): لم أعرف حكمة ذلك. انتهىٰ. فقال الشيخ وليُّ الدين[3]: أي لا ينشرها يمينًا ولا شمالاً. وقال غيره: الحكمة في ذلك أن تسجد معه الأصابع للقبلة. وقال غيره: الحكمة في ذلك كون القبلة أشرف الجهات. فعُلِمَ أنه ينبغي حمل العالم إذا توقف في مسألة علىٰ التورع لا علىٰ الجهل بها، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أحمد بن لؤلؤ بن عبد الله الرومي، أبو العباس، شهاب الدين ابن النقيب: فقيه شافعي مصري مولده ووفاته بالقاهرة. كان أبوه روميًا من نصارىٰ أنطاكية. رباه أحدُ الأمراء وأعتقه وجعله نقيبًا فتصوف في البيبرسية بالقاهرة. ثم حفظ القرآن وتفقه وتأدب وجاور بمكة والمدينة مرات. له مصنفات منها: «تسهيل الهداية وتحصيل الكفاية» و«السراج في نكت المنهاج» و«الترشيح المذهب في تصحيح المهذب للشيرازي» و«عمدة السالك وعدة الناسك» توفي: ٧٦٩هـ. انظر: «الأعلام» (١/ ٢٠٠).

(٢) أي قول النووي صاحب «منهاج الطالبين» في الفقه الشافعي

(٣) ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين العراقي، ولد سنة ٧٦٢ هـ بالقاهرة، ولي القضاء بعد الجلال البلقيني، وحمدت سيرته، ولم يدار أهل الدولة فعزل قبل تمام العام علىٰ ولايته، من مصنفاته: «فضل الخيل»، «أخبار المدلسين»، «المستفاد في مبهمات المتن والإسناد» وغيرها، ت سنة ٨٢٦هـ. «الضوء اللامع» (١/ ٣٣٦)، «الأعلام» (١/ ١٤٨).

(١٠٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: إياك إن رأيتَ ربك في واقعة وقال: «غفرتُ لك مثلًا، أو ضمنتُ لك تسهيل رزقك» أن تثق بضمانه؛ فلاث به فقيه وقال: حسن الظن بالله تعالىٰ أولىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه ربما قصد بذلك القول عدم الركون إلىٰ سماع الهواتف الربانية، خوفًا عليه من أن يكون ذلك تلبيسًا من إبليس، فإن الله تعالىٰ أقدره علىٰ أن يمثل للعبد عرشًا وكرسيًا وغيرهما ويخاطبه منه، فإن أعطىٰ الله تعالىٰ ذلك العبد القوة والتأييد، عرف الفرقان بين العرش أو الكرسي الحقيقي وبين العرش أو الكرسي المتخيَّل، فأخذ عن الحقيقي، ورد ما جاءه من المتخيَّل.

ويُحتمَل أن يكون الشيخ قصد بذلك القول للمريد فتحَ باب المعرفة بالله تعالىٰ، ومعرفة إطلاقه، وأنه إذا قيَّد أمرًا فله الرجوع عنه، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧]، وقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، فدخل في قوله: ﴿مَن يَشَآءُ ﴾ تعذيب الطائع وتنعيم العاصي إلا ما أخرجه النص، نحو قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨]، فيحتاج السالك إلىٰ عينين: عين ينظر بها إلىٰ مقام الإيمان، فيقطع بالتصديق بما وعد الله تعالىٰ وتوعد، وأنه لا يخلف الميعاد؛ وعين ينظر بها إلىٰ مقام المعرفة بالله، وأن له أن يخلف ما وعد به أو توعد من خير أو شر.

وتأمل يا أخي إلىٰ ما في البخاري من حديث الرجل الذي تسلف ألف دينار من بني إسرائيل، وطلب منه المسلِف شهيدًا، فقال له المستسلف: كفىٰ بالله شهيدًا! وطلب منه وكيلًا يدفع عنه الألف إذا عجز عنها، فقال: كفىٰ بالله وكيلًا! كيف لم يكتفِ بإرسال الألف دينار التي جعلها في الخشبة وأرماها في البحر، ليرسلها الله إلىٰ صاحب الدين، بل أخذ ألفًا أخرىٰ وسافر، فوجد الألف التي في الخشبة قد وصلت إليه، فإنه لما جاء وقت الأجل الذي كان جعله، صار يترقب مجيء مركب يكون فيها المديون، فوجد الخشبة علىٰ جانب الساحل، فأخذها حطبًا لأهله ولا يعرف ما فيها، فلما نشرها وجد الألف والصحيفة، فلما

دخل المديون عليه بالألف، قال: إن الله تعالىٰ قد أدَّىٰ عنك![1] فكانت مسافرة المديون بالألف الأخرىٰ من سعة علمه بالحقِّ تعالىٰ، وأنه تعالىٰ لا يتقيد عليه، فلا يقدح ذلك في مقام إيمانه بأن الله تعالىٰ يؤدي عنه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزجر كلَّ من اجتمع عليه من جماعة أحد من أقرانه؛ فلاث به الناس وقالوا: وظيفة الشيخ أن يؤلِّف قلوب الذين يجتمعون عليه لا تنفيرهم.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، لأنهم لا يفعلون شيئًا إلا لحكمة، فربما كان سبب زجره لجماعة غيره تخليص بواطنهم من التعلُّق به مع شيخهم، فيقعون في الخيانة له، لاسيما من يترك مجلس شيخه ويجيء يذكر في مجلس غيره، فإن ذلك خروج عن طريق المريدين.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من شرط الأشياخ تأليف قلوب الناس علىٰ كلمة التوحيد، لاسيما من لا يتيسر له أن يذكر في بيته ولا حانوته، فمن نفَّر مثل هذا،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم. فقال: كفىٰ بالله شهيدًا. قال: فأتني بالكفيل. قال: كفىٰ بالله كفيلًا. قال: صدقت، فدفعها إليه إلىٰ أجلٍ مسمًّىٰ، فخرج في البحر فقضىٰ حاجته، ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفةً منه إلىٰ صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتىٰ بها إلىٰ البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفىٰ بالله كفيلًا، فرضي بك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفىٰ بالله شهيدًا، فرضي بك، وأني جَهَدتُ أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمىٰ بها في البحر حتىٰ ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلىٰ بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتىٰ بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيءٍ؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدىٰ عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألفِ الدينار راشدًا» وابن حبان (٦٤٨٧) وأحمد (٨٥٨٧).

فقد تسبب في قطعه عن طريق الله تعالىٰ. وهذا الأمر يقع لنا كثيرًا في مجلس الذكر مع أصحاب الأنفس الردية، كالذي يتمشيخ أو يجلسه أحد للمشيخة علىٰ طريق الأحمدية أو السهروردية أو غيرهم ممن لا يعرف قواعد الطريق علىٰ التحقيق، لاسيما إن طعن في السن، فإن مثل هذا لا يكاد يسمع لأحد ينصحه في دينه أو يأمره بموافقة الذاكرين في رفع الصوت أو خفضه، وربما قال: أنا لي في المشيخة من قبل أن تلدكم أمكم! وقد أنشدوا في مثل ذلك:

إن الغصون إذا لاينتها اعتدلت ولـن يلين إذا لاينته الخشب

أي بل ينكسر كخشب الجميزة اليابسة، بخلاف أغصان البان أو الآس أو الرمان، فينبغي للفقراء أن لا يشتغلوا بتقويم من طعن في السن إنما ذلك من وظيفة الشيخ. انتهىٰ.

ويقع لي كثيرًا أنني أزجر المريدين وأنصر المتمشيخ عليهم رحمةً به، لا سيما إن علمتُ أنه إن انقطع عن مجلسنا لا يذكر الله تعالىٰ وحده، وربما أجعله يفتتح بالجماعة تأليفًا له، وإن كره الفقراء ذلك، لئلا يترك ذكر الله تعالىٰ، **ومقصود الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ كلهم جمع الخلق علىٰ كلمة «لا إله إلا الله» محبةً في الله تعالىٰ، لا طلبًا للرئاسة عليهم في** المجلس، ومعاذ الله أن يقع صادق في مثل ذلك! فاعلموا ذلك أيها الإخوان وداووا كل من ورد عليكم أو كلوا أمره إلىٰ الشيخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشكو إليه مريده كثرة الغفلة عن الله عزَّ وجلَّ في صلاته وعباداته وغير ذلك، فيقول له: اشكر الله تعالىٰ الذي أكثر عليك الغفلة عنه؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: الغفلة عن الله تعالىٰ وعن عبادته مذمومة بإجماع المسلمين، فكيف يقول له: اشكر الله الذي أكثر عليك الغفلة؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الشيخ في مثل هذا القول، لاحتمال أنه تفرَّس فيه عدم قيامه بالأدب مع الله تعالىٰ إذا أكثر عليه الحضور معه في عباداته وغيرها، فإنه لا يقوم بواجب الأدب مع الله تعالىٰ إذا حضر معه إلا الأنبياء وكُمَّل

الأولياء. وأما غيرهم فربما مقت وطرد من سوء أدبه، فطلب الشيخ لمريده أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ كثرة غفلته عنه، حتىٰ يعلمه الأدب اللائق بأمثاله مع الله تعالىٰ لا مطلقًا، لأن ذلك لا يقوله عاقل، ولا شك أن الغفلة عن الله تعالىٰ هي من جملة السهو، وذلك محمول عن الأمة، فكان أولىٰ لهذا المريد من الحضور مع الله بلا أدب.

ومن شأن أشياخ الطريق أن يعلِّموا الناس الأدب مع الله تعالىٰ، لأنهم بوابو حضرات الأسماء والصفات، فكل من رأوه عازمًا علىٰ دخول الحضرة يعوِّقونه عن الدخول ويقولون له: «قف حتىٰ نعلمك الأدب اللائق بالحضرة ثم ادخل» كما أن أكابر العارفين بوابو حضرة الذات، فكل شيخ رأوه داخلًا حضرة الذات يقولون له: «قف حتىٰ نعلمك الأدب الخاص بحضرة الذات ثم ادخل».

[الفرق بين حضرة الأسماء والصفات وحضرة الذات]

والفرق بين الحضرتين أن حضرة الأسماء والصفات تتعلق بأمر العبادات والأدب معها الإخلاص في الأعمال من الشوائب، بخلاف حضرة الذات لا تتعلق إلا بالذات المقدس، وأدبها لا يقدر عليه كل شيخ كما هو مقرر بين أهل الكشف.

ويُحتمَل أن هذا الشيخ ما قاله له: اشكر الله علىٰ الغفلة عنه إلا من حيثُ التقديرُ الإلهيُّ عليه لا من حيثُ الكسبُ والاستهانةُ بالحضور مع الله تعالىٰ، وإذا كان كل شيء خطر بال العبد من التجليات الإلهية علىٰ قلبه لا يجوز له الوقوف معه، فأين الحضور؟! ومن هنا قال المحققون: كل شيء خطر ببالك فالله تعالىٰ بخلاف ذلك، فإذن ما تم لأحد من الأمة حضور مع الله تعالىٰ حقيقة، وإنما ذلك خاص بالأنبياء والمرسلين كما بيناه في كتاب «ميزان العقائد».

وقد سألت سيدي عليًّا الخواص ﵀ مرةً عن سيدي يوسف العجمي وغيره من أشياخ السلسلة هل كانوا أقطابًا؟ فقال: لا، إنما شأنهم تعليم الناس أدب الدخول للحضرة الإلهية لا غير. وأما القطبية فجلت أن يلمح سناها الأقدس غير من اتصف بها علىٰ نزاع في ذلك أيضًا. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشاوره أمير أو شيخ عرب في الاجتماع بأحد من أقرانه المشهورين بالمشيخة مثله، فقال: لا تجتمع بأحد غيري إن أردتَ صحبتي. فقال له الأمير: إني أريد ولاية وقد وعدني بها إن اعتقدتُه. فقال: ولو اعتقدتَ فيه القطبية الكبرىٰ لا يقدر علىٰ توليتك؛ فلاث به أصحاب الشيخ الآخر، وقالوا له: ما هكذا كان الأشياخ ينفِّرون الناس من الاعتقاد في أقرانهم!

والجواب: أنه لا ينبغي لأصحاب ذلك الشيخ اللوث بهذا الشيخ وحمله علىٰ أن يكره شيخهم، بل يجب حمله علىٰ أنه ما نفىٰ عنه القدرة علىٰ تولية الأمير تلك الوظيفة إلا لقلة اعتقاد الأمير في ذلك الشيخ، لا لنقص الشيخ عند الشيخ الآخر وكراهته، فإن منصب الأشياخ يجل عن مثل ذلك، فإن شرطَ المعتقِد أن يشرف علىٰ مقام الشيخ الذي اعتقده؛ لأنه حينئذٍ عرف مقامه. وأما من كان بعيدًا عن مقام الشيخ، فبعيد عليه أن يُقضَىٰ له علىٰ يديه حاجة، إلا إن كان علة قضاء الحاجة أمرًا آخر غير الاعتقاد من دنيا[1] أو حسن سياسة، فأراد الشيخ الأول من الأمير أن لا يجتمع علىٰ الشيخ الثاني لأجل توليته تلك الوظيفة حتىٰ يعلِّمه الأدب معه، وكمال الاعتقاد في صلاحه وولايته، لا بغضًا في ذلك الشيخ.

وقد قال الأشياخ: من علامة صحة اعتقاد الأمير في فقير أن لا يحتاج في تولية وظيفة حصلت له بواسطة توجه الفقير إلىٰ غرامة شيء من الفلوس للسلطان الذي يوليه أو نائبه، ومتىٰ أحتاج طالب الوظيفة المدعي كمال الاعتقاد في الفقير إلىٰ غرامة فلوس، فهو دليل علىٰ عدم صحة اعتقاده فيه، لا علىٰ نقص مقام الشيخ. انتهىٰ.

وهذا الأمر يقع علىٰ يدي كثيرًا، فإذا طلب مني أمير أو شيخ عرب توليته وظيفة، وعلمتُ منه قلة اعتقاد فيَّ، أُحسِّن اعتقاده في غيري وأرسله إليه، لعلمي بأنه لا يُقضَىٰ له علىٰ يدي حاجة إلا إذا رجحني علىٰ غيري، ولو أني علمتُ منه صحة الاعتقاد الكامل في جانبي ما أرسلتُه إلىٰ غيري، بل كنتُ أقضي حاجته وأكسب أجرها إن كانت ولاية صالحة. وأما الولاية التي فيها ظلم، فلا ينبغي لي قضاؤها، ولا إرساله إلىٰ أحد آخر يقضيها له.

---

(١) بالأصلين: ديني.

وكذلك من شأني إذا أراد مني أمير الصحبة لقضاء حاجة له علىٰ يدي، أقول له: أنا ليس بيدي حلٌّ ولا ربطٌ، فاذهب إلىٰ فلان وفلان -وأُعيِّن له مشايخ البلد- فخذ خاطرهم عليك، كلُّ ذلك خوفًا أن لا يقع له علىٰ يدي قضاء حاجة إذا تقيَّد عليَّ وحدي، فيقول ولو في نفسه: لو كنتُ اجتمعتُ بشيخ آخر غير هذا، لربما كان ولَّاني الوظيفة الفلانية، أو قضىٰ حاجتي، كما هو واقع كثيرًا في هذا الزمان، فيحتاج الفقير الذي يطلب من الأمير أن يتقيد عليه إلىٰ شيئين:

الأول: قسمة تلك الوظيفة لذلك الأمير.

الثاني: علم الشيخ بأنها تُقضىٰ علىٰ يديه، **وإلا فكل ما لا يقسم لا يصح لأحد أن يوصله لأحد، ولو كان القطب الغوث، فعُلِمَ أن الأشياخ دائرون مع مصالح العباد لا علىٰ حظوظ نفوسهم**، وأنهم ما حسَّنوا اعتقاد أحد في أحد أو نفَّروه إلا لغرض شرعي.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: إذا علمتُم أن الله تعالىٰ قسم لأحد علىٰ يديكم قضاء حاجة، فلا تتعبوه بإرساله إلىٰ غيركم، ونفَّروه عن غيركم ما استطعتُم، طلبًا لسرعة قضاء حاجته وإراحته من التعب، كما أشار إلىٰ ذلك قوله ﷺ: «أنا أول شافع وأول مشفَّع يوم القيامة»[1]، فإنه ﷺ أكثر الخلق تواضعًا، وما قال مثل هذا القول إلا ليُعلِم بذلك أمته، فلا يذهبون إلىٰ نبي بعد نبي يوم القيامة، كما ورد في حديث الشفاعة، وإنما يصبرون حتىٰ تأتي النوبة لرسول الله ﷺ ويقول: «أنا لها أنا لها»[2]، فقصد ﷺ بذلك إراحة أمته من التعب في ذلك اليوم العظيم، لا الفخر علىٰ إخوانه من الأنبياء، معاذ الله أن يقع ذلك من معصوم! ويؤيد ذلك قوله في آخر الحديث: «ولا فخر» أي ليس مرادي بهذا القول الفخر علىٰ غيري، وإنما قصدتُ به بيان الواقع في ذلك اليوم رحمةً

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٣٦١٦) والدارمي (٤٨) وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٩٥).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) بغير تكرار لفظ «أنا لها» وأبو داود الطيالسي (٢٨٣٤) واللفظ له.

بأمتي، فاعلم ذلك، وإياك وحمل الأشياخ علىٰ شيء من رعونات النفوس، فتخطيء طريق الأدب، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتصدر لإرشاد المريدين وينام الليل، ويلبس الثياب النفيسة، ويأكل الأطعمة اللذيذة، وينكح النساء المنعمَّات، وله نظام كالملوك، فلاث به بعض الأقران وقالوا له: هذا نظام غريب عن طريق الفقراء! وربما كان حرامًا من حيثُ إنه يقطع الطريق علىٰ غالب المريدين، فإنهم ينكرون علىٰ صاحب هذا الحال أشد الإنكار، ولو كان من أكبر الأولياء في نفس الأمر.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أن الله تعالىٰ يخرق له العادة، كما خرق له ذلك في الملابس والمناكح وغيرها، فلم ينقص له مقام بذلك صدقةً من الله تعالىٰ عليه. وقد يكون له حال يحمي مريديه من أن يتبعوه في مثل هذه الأفعال، كما وقع لسيدي الشيخ عبد القادر الجيلي، فقد بلغنا أنه كان يلبس الحُلَّة بألف دينار، وكذلك من تبعه علىٰ ذلك كسيدي علي بن وفا، وسيدي محمد الحنفي الشاذلي، وسيدي مدين، وسيدي الشيخ أبي الحسن البكري، وولده العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد رضي الله عنهم.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: طريق التقشف هي التي عليها جمهور المقرَّبين من الأنبياء والأولياء، ولله تعالىٰ طريق أخرىٰ أعطاها لبعض أفراد، وهو تجليه تعالىٰ لهم بصفة الجمال والأنس والبسط حتىٰ كأنهم في الجنة، فينبغي أن يُسلَّم لمثل هؤلاء أحوالهم. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لمريده حين قام من مجلس الذكر أواخر المجلس: قد فاتك في هذا الوقت أجر أفضل من الأجر الذي حصل لك طول عمرك؛ فلاث به فقيه وقال: من أين لك يا سيدي الشيخ ذلك؟! ومثل ذلك لا يكون إلا بوحي من الله عزَّ وجلَّ، وقد انقطع.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد سبقه إلىٰ ذلك الإمام أبو القاسم الجنيد ﷺ في قوله: لو أقبل عارف علىٰ الله تعالىٰ ألف سنة ثم أدبر عنه لحظة، كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر مما ناله. انتهىٰ. وذلك لأن كل لحظة متضمنة لجميع الأمداد السابقة، ويزيد علىٰ ذلك بحكم مدد الوقت، فإن جود الحق تعالىٰ فيَّاضٌ علىٰ الدوام، كما يعرف ذلك أهل الكشف[1]، فسلِّم لهم حتىٰ ينكشف حجابك، أو تصير إلىٰ الدار الآخرة، فإنه ما ثم نص عن الشارع يعارض في مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرىٰ أصحابه علىٰ حال ناقص، فلا يأمرهم ولا ينهاهم، فلاث به بعض الناس وقالوا: كان يجب علىٰ هذا نصح أصحابه لحديث: «الدين النصحية»[2].

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ إلا بعد الاجتماع عليه ومعرفة أحواله، فقد يكون قلبه مشغولًا بالله في حال وقوع أصحابه في النقص، أو ممن غلب عليه شهود محاسن الخلق دون مساوئهم، أو ممن كان محجوبًا بشهود الفاعل عن المفعول، فدهِش بين جمال الحقِّ تعالىٰ وجلاله، كما يقع ذلك غالبًا للأشياخ، ومعلوم أن العبد لا يُطالَب بالأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر إلا إذا كان مشاهدًا لأفعال الخلق، اللهم إلا أن يمن الله تعالىٰ علىٰ عبده بمقام الكمال، فيصير يشهد الفعل للحق من وجه، وللخلق من وجه آخر، فمثل هذا يصح عليه اللوم لو تصور.

ويقع لي كثيرًا أنني أحضر بقلبي مع الله تعالىٰ، فأغيب عن الخلق، فأقول قبل أن يستغرقني الحضور: «اللهم أنت وليي وولي أصحابي في حال غيبتي عنهم، فتولَ يا رب

---

(١) قال الشيخ الأكبر في «الفتوحات» الباب (٦٩): «قال أصحابنا: إذا فاتتك نظرة واحدة من الحق وقد كنت تشهد قبل ذلك مستصحِبًا عمرك كله، لكان ما فاتك في تلك النظرة خيرًا مما نلته فيما تقدم. والسبب في ذلك أن كل نظرة تكون للعبد من الحق تتضمن لذة كل نظرة تقدمتها، وتزيد علىٰ ذلك بما تعطيه حقيقتها، فقد فاته خير كثير، فعليه بقضاء ما فاته ليحصل له هذا العلم كما يقضي الصلاة إذا فاتت».

(٢) تقدم تخريجه.

أمرهم، وأدِّب من يستحق التأديب، وأسبغ النعم علىٰ من يستحق إسباغها، علىٰ حسب ما سبق به علمك، إنك علىٰ كلِّ شيء قدير» ثم لا عليَّ بعد ذلك استقاموا أو انعوجوا، لأن الله تعالىٰ هو وليُّهم في ذلك الزمان لا أنا كما هو في نفس الأمر، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعلم الحال التي يكون الحق تعالىٰ فيها راضيًا عني، والحال التي يكون فيها ساخطًا عليَّ، فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا غيب لا يعلمه إلا الله تعالىٰ!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن ذلك من الغيب الذي يُعلَم. وقد سأل رجل السَّرِّي السَّقَطِيَّ فقال: هل يعلم العبد أن الله تعالىٰ راضٍ عنه أو ساخط؟ فسكت السري، وكان الجنيد حاضرًا وهو دون البلوغ، فقال: أنا أعلم ذلك. فقال له السري: كيف ذلك؟! فقال: إذا كنتُ راضيًا عنه علمتُ أنه راضٍ عني؛ وإذا كنتُ ساخطًا علىٰ شيء من مقدوراته، علمتُ أنه ساخط عليَّ. فقال له السري: أخاف عليك يا محمد أن يكون حظك من الله لسانك. قال الجنيد: فلم أزل خائفًا منذ قال السري لي ذلك. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن كل عبد يحس برضا الله تعالىٰ عنه حال طاعته، وبسخطه عليه حال معاصيه، ويدرك في نفسه التفرقة بين الحالين، كما يدرك المؤمن التفرقة بين الإسلام والكفر، فلا اعتراض علىٰ الشيخ فيما قال. وقد يكون ممن أعطاه الله تعالىٰ الكشف عن اللوح المحفوظ، ورأىٰ فيه نفسه من السعداء أو من الأشقياء، كما وقع لبعض الأولياء، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير في طريق القوم إذا أنكر عليه علماء العصر ولاثوا به، وقالوا: هذا يفعل أفعالًا لم يأتِ بها كتاب ولا سنة؛ فلاث الناس به وقالوا: لو كان هذا شيخًا في الحقيقة ما أنكر عليه العلماء.

والجواب: أنه لا يقدح في أهل الطريق إنكار غيرهم عليهم، من حيثُ دقةُ مداركهم

في أسرار الشريعة، كما يشهد لذلك قصة موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع الخضر، اللهم إلا أن يخالف ذلك الشيخُ صريحَ الكتاب والسنة، أو يخالف الإجماع، فهذا يجب الاعتراض عليه والإنكار.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﵀ يقول: لا ينبغي التسليم للقوم إلا فيما كان طريقه الفهم، فإن الأفهام تختلف في كل عصر، ولا لوم إلا علىٰ من خالف صريح السنة. ثم قال لي: فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الطائفة، بل تربص في أمرهم، وانظر في أقوالهم وأفعالهم وعقائدهم بنور الله، فإنه لابد لك من ظهور ثلاثة أمور: إما موافقتها للكتاب والسنة، وإما مخالفتها لهما، وإما أن لا يظهر لك موافقة ولا مخالفة، فالأول لا يجوز الإنكار عليهم فيه، والثاني يجب إنكاره، والثالث أحسن الأحوال فيه الوقف. انتهىٰ. وهو كلام نفيس.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: لا يقع فيما يُنكَر عليه إلا الناقصون من الصوفية. أما الكامل فلا يقع في شيء يخالف ظاهر الشريعة، لحفظه وغيرته علىٰ الشريعة. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يطعن في شيخ آخر قد أجمع الناس علىٰ علمه وعمله وجلالته وورعه، وقدَّموه عليه وعلىٰ غيره من أشياخ بلده، فلاث الناس بالطاعن وقالوا: هذا كله حَسَدٌ وعداوة، وهو حرام علىٰ كلِّ مسلم، ومن فعل ذلك كان عليه إثم قاطع الطريق.

والجواب: أنه لا يجوز حمل الشيخ الذي طعن في الشيخ المذكور علىٰ أنه يكون سبب ذلك الحسد والعداوة، فقد يكون من أحب الناس إليه، وإنما طعن فيه ليرد عنه ضرر العين، أو خوفًا عليه من الوقوع في العجب بحاله، فإن الإنسان قلَّ أن يعتقده الناس ويجمعوا علىٰ جلالته وتقديمه علىٰ أقرانه ويسلم من خطور العجب بحاله، فقصد هذا الطاعن بما قاله من التجريح فيه الحفظَ لصاحبه من الوقوع في الإعجاب. وقد أدركتُ

من رجال هذا المقام جماعة كانوا يفرحون بمن يجرحهم وينقصهم بين الناس أكثر ممن يمدحهم، منهم أخي أفضل الدين ﷺ.

فاعلم ذلك أيها الأخ، وإياك أن تطعن في أحد من أقرانك حسدًا له وعداوة، وتدعي أنك قصدت بذلك الخير له، فإن الناقد بصير، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٤) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي يعتب على الشيخ أو العالم الكبير إذا لم يتردد إليه ويقول: إن مثلي ينبغي التردد إليه من مثلكما! فلاث الفقراء بذلك الأمير وقالوا: هذا سوء أدب من الأمير، وإخلال بمقام الأشياخ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الأمير، لاسيما إن كان من حذَّاق الناس، لاحتمال أن يكون قصده بذلك بيان مقام تواضعهما لمن كان يجهله، لا إزراء بمقامهم. ولا يجوز حمل هذا الأمير على التكبر كما قد يتبادر إلى الأذهان.

وأما الشيخ فإن تكدر من مثل ذلك، فلا يجوز اللوث به كذلك، لأنه ربما قصد ستر مقام نفسه في التواضع بين الناس، وهو في نفسه في غاية الانشراح لرؤيته أن حكمه حكم سيد دعا عبده إلى حضرته، فحقه أن يفرح بالقرب من سيده لا أنه يتكدر، فالشيخ هو العبد والأمير هو السيد، فعُلِمَ أنه لا ينبغي [مناقشة الشيخ في التكدر، وإنما الذي ينبغي][1] مناقشته هو لنفسه إذا ادعت مقام التواضع ويقول لها: أنت كاذبة في دعواك! ولو كنت متواضعة حقيقة، لم تتكدري ممن طلب منك الخدمة له والتردد إليه. والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي فرغ من مجلس ذكر أو قربت الصلاة، فكلَّمه إنسان فلطمه لطمة شديدة، فلاث به الحاضرون وقالوا: إن هذا الشخص لم يفعل شيئًا يقتضي جواز ضربه.

والجواب: أنه ينبغي حمله على أنه كان ذاهل العقل إما من سكر الحال الذي حصل له من الذكر، وإما من شدَّة عظمة الله التي تجلَّت له من حضرة الصلاة التي

(١) ساقط من «ب».

تكاد مفاصل الأنبياء والملائكة تنفصل منها، فضلًا عن غيرهم، ومع ذلك فلابد لهذا الشيخ من تمكين ذلك الملطوم من الاقتصاص منه في دار الدنيا، عملًا بظاهر الشريعة والحقيقة، فإن الحقيقة تطالبه بالسلوك إلىٰ مقام التمكين، بحيثُ لا يشغله من يكلمه عما هو متوجه إليه من خطاب الحق تعالىٰ أو ذكره.

وإن كان ذلك الشيخ يدعي مقام الكمال، حملناه علىٰ أنه فعل ذلك زجرًا لذلك الشخص أن يكلِّم فقيرًا عقب الذكر، أو حين قربت الصلاة، فيصيح عليه فيخرسه أو يكسحه، كما وقع لسيدي الشيخ تاج الدين الذاكر حين كلمته جاريته، وصارت مقعدة سبع سنين والشيخ يخدمها، ويزيل القذر من تحتها، ويغسل ثيابها، ولا يمكِّن غيره يفعل ذلك ويقول: أنا أحق بذلك لكوني سببه.

وقد وقع لي يومًا ذلك مع الشيخ إسماعيل النقيب ومع الشيخ عبد الله الجبرتي حين كلمني أحدهما لما قربت الصلاة، والآخر لما سلمتُ من الصلاة، فذكرا أني لطمتُ كلَّ واحد منهما لطمةً شديدةً لا تُحتمَل في الغالب، فلما صحوتُ مكنتُهما من الاقتصاص مني فسامحاني، فجزاهما الله عني خيرًا. وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاقه، فينبغي تسليمه لأهل الله حال الفعل لا حال الاقتصاص منهم إذا امتنعوا منه بالحال، كأن يبست يد الذي أراد الاقتصاص، فيُنكَر عليه حينئذٍ، لأنه منكر بعد منكر.

فإن قال قائل: فهل يسقط عن صاحب هذا الحال القصاص في الآخرة؟ **فالجواب:** قد قال الشيخ محيي الدين في «لواقح الأنوار»: إن منعه من الاقتصاص منه، ونصرة الحق تعالىٰ له هنا، وحمايته من اقتصاص المظلوم منه دليل علىٰ أنه تعالىٰ يريد مسامحته هناك، وإرضاء خصمه عنه في الآخرة.

فإن قال قائل: إن من شرط الكامل أن يكون مجموع القلب مع الله تعالىٰ لا يلهيه أحد من الخلق عن خطابه ولا مناجاته، فكيف أشغل قلبه عن ربه كلام هذا الشخص له عقب الذكر أو قرب قيام الصلاة؟ **فالجواب عنه كما تقدم أول الكلام:** إما أن هذا الشيخ لم يكن بلغ مرتبة الكمال، أو بلغها ولكن فعل ذلك زجرًا لذلك الشخص الذي

كلَّمه، لئلا يفعله مع صاحب حال فيؤذيه. وقد أجمع القوم علىٰ أن مراقبة الله تعالىٰ مع الأنفاس ليست من مقدور البشر، ولو صار لا يشهد بقلبه إلا الله، فلابد من حجاب ما يقع عليه في بعض الأوقات، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: إذا ضحك الفقير في وجه أحدكم[١]، فاحذروه ولا تخالطوه إلا بالأدب، فإن الفقراء قلوبهم في التقلب بين يدي الله تعالىٰ، فيسامحون بأكبر الذنوب، ويمقتون علىٰ أصغرها. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وسلِّم يا أخي للفقراء أحوالهم باطنًا، وأنكر عليهم ما خالف الشرع ظاهرًا، نصرةً للشرع لا اتباعًا لهوىٰ النفس، خوفًا أن يعطبوك، بخلاف ما إذا قصدتَ نصرة الشرع، فإنك تكون في حماية الله تعالىٰ لا يقدر أحد أن يعطبك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه من أهل الكشف، فرأىٰ إناء مدخنًا يشبه إناء السمك، فقال للحاضرين: كان في خاطرنا سمك، فالحمد لله أتانا به من غير سؤال! ثم كشفوا الإناء فإذا هو لبن، فلاث به الحاضرون وقالوا: كيف يدعي هذا الكشف؟! ما هذا إلا نصب علىٰ الخلق!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالأشياخ في مثل ذلك، فقد يكون يعرف أنه لبن، ولكن أراد أن يستر نفسه في الكشف، وقصد بذلك الكلام واقعة حال سبقت له قبل ذلك، وأنه اشتهىٰ سمكًا، فأتاه الله به من غير سؤال.

وقد يكون ممن يقلب الله له الأعيان، وكان علىٰ هذا القدم الشيخ بركات[٢] الذي

---

(١) بالأصلين: أحدهم. والصواب ما أثبتناه.

(٢) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ الكامل ذو الأحوال العظيمة والمكاشفات الغريبة مع الحال المستور، الشيخ بركات الخياط الذي كان مقيمًا بالدرب الأحمر خارج باب زويلة. كان أستاذًا في تفصيل الثياب للأكابر يقصدونه من سائر الحارات. وكان عليه جبة كأنها جبة سمَّاك، وكان يقول لمن طلب أن يخيط له: هات لي فوطة علىٰ ركبتي حتىٰ أخيط لك. خوفًا أن تتسخ ثياب الناس منه. مات ثالث شهر من دخول ابن عثمان مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة

دفن سيدي علي الخواص في زاويته، كان يقدم لضيفه لبنًا فيجده سمكًا، أو دجاجًا فيجده أوزًا، وبالعكس. وقد قدَّم لي مرة لحم خروف، فوجدتُه لحم طفل صغير، وأخذتُ مشط رجله بالخمس أصابع، ثم وضعتُها، فقال لي: كل منه، لحم ضاني[1]! وما ظهر لك فهو وهم! فلم أقدر أتناول منه شيئًا، فأخذه من يدي وأكله. وربما أخذ الحشيشة من بائعها، فيجدوها في يده حلاوة، فمثل هؤلاء كل من لم يرزقه الله تعالىٰ التسليم لهم، فبعده عنهم أولىٰ، لئلا يعطبوه بإنكاره عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أشهد الحق تعالىٰ عيانًا، وأشهد المخلوقات إيمانًا؛ فلاث به الناس وقالوا: إن الأصل شهود العبد المخلوقات عيانًا، والحق تعالىٰ إيمانًا، وإنما يصل العبد إلىٰ شهود ربه عيانًا بعد طول مجاهدة ورياضة علىٰ يد شيخ أو جذب إلهيٍّ.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد أنه وصل إلىٰ ذلك بالسلوك لا ابتداءً، كما هو الغالب علىٰ الفقراء. ويُحتَمل أن يكون شهد ذلك في ابتداء أمره من حيثُ القوةُ الإلهيةُ التي نفخت فيه الروح، فغاب بشهودها عن رؤية عبوديته وعجزه وضعفه، ومثل هذا لا يرجع إلىٰ شهود الخلق إلا بعد رياضة ومجاهدة.

وهذان المقامان وإن كانا كاملين بالنظر لمقابلهما، فشهود العبد نفسه وربه معًا ابتداءً وانتهاءً هو الكمال الذي ليس فوقه كمال؛ لأنه مقام الأنبياء وكمَّل الأولياء. وهذا أمر لا يُدرَك إلا ذوقًا. وقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] يشهد للمقامات الثلاثة، فمن شهد وجه ربوبيته فقط، أُمر بشهود عبوديته وبالعكس، وكل واحد في حال شهوده المقام الذي هو فيه لا يشهد مقابله إلا إيمانًا، ومن نفىٰ أحدهما أشرك أو عطَّل.

---

(٤٦٧) طبعة دار الإحسان.

(١) الأصوب لغة: لحم ضأن، ولكن لما كان الأقرب أن يقولها الشيخ بركات بالتسهيل والياء كعموم المصريين، تركناها علىٰ حالها.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إنما أمر العبد أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ليتنبه أهل الوحدة المطلقة لوجه عبوديتهم، ويتنبه أهل العبودية لنفي استقلالهم بالفعل. وأما الكاملون الذين يشهدون الأمر علىٰ ما هو عليه في نفسه، فهم يرون الفعل لله خلقًا ولهم إسنادًا. انتهىٰ. وقد بسطنا علىٰ ذلك في كتاب «الأخلاق الكبرىٰ»، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اجتمع به مريد لشيخ آخر، فقال له: من شيخك في الطريق؟ فقال: فلان. فقال له: وهل لشيخك طريق يؤخذ عنه؟! فأخبر المريد شيخه بذلك، فغضب وقال: كيف يخرجنا عن الطريق، ونحن علىٰ طريق أعظم من طريقه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في قوله: «وهل لفلان طريق» لاحتمال أن يريد طريقه التي هو عليها إنما هي الشريعة المطهرة، فهي طريق رسول الله ﷺ حقيقة لا طريقة ذلك الشيخ، فهو شهادة من هذا الشيخ لشيخ ذلك المريد بأنه علىٰ شريعة رسول الله ﷺ. ولا يجوز حمله علىٰ أنه نفاه من طريق القوم جملةً، لأن ذلك غيبة محرَّمة بإجماع المسلمين، ومنصب الأشياخ يجل عن مثل ذلك. ويؤيد ما ذكرناه من التأويل ما حكي أن بعض الناس رأىٰ رسول الله ﷺ في المنام، فسأله عن مذاهب الأئمة المجتهدين، فما نفىٰ رسول ﷺ عنهم خيرًا، فلما سأله عن مذهب الشافعي، قال ﷺ: أوللشافعي مذهب؟! إنما هو سني.

فإياك يا أخي أن تحمل أحدًا من أقرانك علىٰ المحامل السيئة إذا احتمل لفظه في حقِّك محملًا حسنًا، فإن حملتَه علىٰ المحامل السيئة، فذلك دليل علىٰ صورة باطنك أنت، وقد يكون هو علىٰ خلاف ذلك.

فإن قلت: فما تقولون في غضب الشيخ حين قال له مريده: إن فلانًا نفاك من الطريق؟ ومعلوم أن الغضب في مثل ذلك من جملة رعونات النفوس التي قلتُم إن مقام الأشياخ يجل عن الوقوع في مثله؛ **فالجواب**: أنه يجب حمله علىٰ أنه ما أظهر الغضب لنفسه،

وإنما أظهره خوفًا علىٰ المريدين أن يتزلزل اعتقادهم فيه، وظنهم فيه أنه ليس علىٰ طريق القوم، فيحرمون النفع به، فأظهر الغضب كهيئة المكذِّب لذلك الشيخ فيما قاله في حقه، وهو في باطنه في غاية هضم النفس، وأن الشيخ صادق في نفيه له عن الطريق، فإن الأشياخ لا يقع منها تزكية لنفوسهم قط فيما بينهم وبين الله تعالىٰ أبدًا، فهم يرون نفوسهم قد استحقوا الخسف بهم، وإنما الناس هم الذين يعظمونهم. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك وحمل الناس علىٰ المحامل السيئة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في صحبته أمير يحسن إلىٰ الفقراء، ثم تركه واجتمع بشيخ آخر، وصار ذلك الأمير يمدح الشيخ الثاني دون الأول، فقال الشيخ الأول للأمير: لا تعد تأتنا أبدًا، فإني لا أحب الشركة؛ فلاث به جماعة الشيخ الثاني وقالوا: فلان ما يحب أن تكون المشيخة في البلد إلا له وحده.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد لا أحب لك يا أمير أن تشركني مع صحبة سيدي الشيخ فلان، فإن مثلي لا يصلح أن يكون خادمًا له، فهو من باب الغيرة علىٰ أخيه العبد الصالح أن يشرك معه أحد، لا من باب الغيرة علىٰ نفسه هو أن يشرك الأمير معها أحدًا، هذا هو اللائق بمنصب العلماء العاملين، والأولياء والصالحين، فلا يجوز حملهم علىٰ غير ذلك من الرعونات. وكلامنا في أشياخ الطريق الصادقين. أما النصَّابون الذين برزوا في هذا العصر، وانكشف حالهم عند الخاص والعام، فلا ينبغي الإجابة عن أحوالهم، لأن ذلك يديم عليهم النصب والتمادي في الغي، فيهلكون في نفوسهم، ويهلكون غيرهم، وكيف ينبغي الجواب عن قوم أفعالهم تكذِّب المجيب عنهم؟!

ولما ورد الأمير عيسىٰ شيخ البحيرة وأخوه عامر علىٰ مصر، وأقاما فيها مدةً لضرورة وقعت لهما، كانا يقولان لي: إن الشيخ الفلاني أرسل خطه لنا يطلب منا شيئًا من الدنيا! وكيف يليق ذلك بالأشياخ؟! فكنتُ أقول لهما: إن ذلك امتحان لكما لا غير. فقال لي الأمير عامر: إن فلانًا قد أرسل خطه لي: فإنك إن أعطيتني كذا وكذا، توجهتُ إلىٰ الله

تعالىٰ في أعدائك، فقتلتُهم كلَّهم بالحال. فقلتُ له: قد يصدق الشيخ في ذلك، ولكن لا يقلبه إلا بطريق شرعي. فكان يقول: إن الله تعالىٰ ألقىٰ في قلبي كذب هؤلاء، فإن أحدهم يفتي بحرمة ما بأيدينا من المال، ثم ينصب علينا ويستخلصه من أيدينا لنفسه بطريق الحياء منا، فيجعله حرامًا في يدنا وحلالًا في يده من غير دليل له علىٰ ذلك، ولو أن هذا حقق النظر، لوجدنا أزهد منه في الدنيا، لأنه رغب فيما بأيدينا، ولم نرغب نحن فيما بيده. وأيضًا فإننا ما أعطيناه شيئًا إلا بعد أن زهدنا فيه، ولولا زهدنا فيما أخذه منا، لم يقدر علىٰ استخلاصه منا.

وقال لي مرة: قد عرفنا بإقامتنا في مصر[1] الناس، وعرفنا الصادق من المشايخ والكاذب. وذكر لي عن شيخ منهم أنه يبلع التمساح والفيل وينزلان من زوره! فقلتُ له: كيف؟! فقال: نحن تماسيح وأفيال في ظلمنا للبلاد والعباد، وقد بلعنا وأخذ مالنا بالنصب والحيل! انتهىٰ. فمثل هؤلاء الإجابة عنهم تنطع لخروجهم عن طريق القوم بالكلية.

وعُلِمَ من جميع ما قررناه أنه لا ينبغي لأمير الشرك بين الشيخين في الصحبة، لقلة فائدة ذلك، وضعف توجه كل شيخ منهما في قضاء حوائجه من عزل أو ولاية أو مرض، فليختر الأمير له شيخًا واحدًا يترجح عنده، فإنه أنفع له من كل وجه.

وقد جربتُ أنا هذا الباب أشدَّ تجريب، ولم أقدر أقضي لأحد أشرك معي غيري حاجة. وكذلك الحال في جماعة من أقراني. وربما ظن بعضهم بالفقير إذا قال: لا تشرك معي أحدًا في الصحبة أن الفقراء يكرهون بعضهم، وذلك ظن كاذب، إنما مرادهم تعجيل قضاء حاجة ذلك الأمير بالاستناد إلىٰ شيخ واحد، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: إذا جالست رسول الله ﷺ فإياك أن تشتغل به عن الله عزَّ وجلَّ، فإن الله تعالىٰ غيور؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: إن الله تعالىٰ لا يغار ممن يقف مع رسوله ﷺ.

---

(١) أي القاهرة، والمصريون يطلقون علىٰ القاهرة «مصر».

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل هذا القول، فربما عرف علوَّ همة المريد وشدة عزمه، فقصد بذلك ترقيه إلىٰ مشاهدة الحق تعالىٰ مع مشاهدة رسوله ﷺ معًا في آن واحد، فخوَّفه بقوله: «إن الله غيور» وإلا فالواجب علىٰ المريد شهود كلِّ واسطة بينه وبين الله تعالىٰ من غير وقوف معها، ليعرفه الطريق إلىٰ حضرة ربه، ومتىٰ رفع الواسطة ضلَّ وحار وتاه.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إياك أن تقف مع رسول الله ﷺ وتحجب به عن الله تعالىٰ، فإنك تؤذي رسول الله ﷺ بذلك، فإنه يغار علىٰ ربه عزَّ وجلَّ أن يشتغل أحد عنه بغيره من الخلق، فإن الله تعالىٰ كما يغار ممن يقف مع أحد دونه، فكذلك كل كامل يغار علىٰ ربه أن يقف معه مريده وينسىٰ ربه. انتهىٰ. ولا يخرج عبد علىٰ ذلك الأمر إلا إن صار يشهد السرَّ القائم بالوجود، وصار يكلم السرَّ القائم بالوجود[1] أولاً ثم الوجود ثانيًا.

وسمعتُ سيدي عليا المرصفي رحمه الله يقول: إذا بلغ الرجل مقام الكمال صار يرائي الله عزَّ وجلَّ، والناس يظنون به أنه يرائي الخلق، فإياكم أن تروا عارفًا بالله صلَّىٰ بجنبه أمير، فضم أكتافه وخشع، فتقولون: إنه يرائي الأمير، فإن ذلك سوء ظن بالعارف، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه خاشع من عظمة الله التي تجلَّت له في حجاب ذلك الأمير، فهو من باب «أروا الله من أنفسكم خيرًا»[2] فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه أن يجتمعوا بشيخ آخر ليأخذوا عنه الطريق ويقول: إن ذلك لا يجوز؛ فلاث به بعض العلماء وقالوا: هذا تحجير لم يأت

---

(١) بالأصلين: العبد.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٢٣٨) من حديث عبادة بن الصامت: «أن رسول الله ﷺ قال يومًا وحضر رمضان: أتاكم رمضان شهر بركة، فيه خير يُغشيكُم الله فيه، فتنزل الرحمة، وتُحطُّ الخطايا، ويستجاب فيه الدعاء، فينظُرُ الله إلىٰ تنافسكم، ويباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيرًا، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل» والحسن الخلال في «أماليه» (٦٦) والشجري في «الأمالي» (١٢٣٤).

به كتاب ولا سنة، وقد كان كلُّ واحد من السلف الصالح يصحب المئة شيخ وأكثر في وقت واحد، كما هو مذكور في «رسالة القشيري» وغيرها.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ إن كان في قيد الحياة إلا بعد الاجتماع به وسؤاله عن ذلك وعن مراده به، فربما [قصد بتحجيره علىٰ المريد الرحمة به وتقريب الطريق عليه، فإن لكلِّ شيخ مشربًا وذوقًا، فربما][1] قال كلُّ واحد لذلك المريد قولًا يخالف قول الآخر، أو يخالف هوىٰ نفس المريد، فينفر منه ويجتمع بمن يأمره بما تهواه نفسه فتهلك.

[السلوك عند السلف، والتقيد بشيخ عند الخلف]

وكان السلف الصالح ﷺ مطهَّرين من غالب هذه الأمراض التي حدثت فيمن بعدهم أو كلها، فكان أحدهم إذا اجتمع بأخيه يتذاكران في الطريق ومقاماتها، ويذكر كلُّ واحد منهما للآخر ما عنده من الذوق، فكانوا يلقحون بواطن بعضهم بعضًا بالاجتماع، ولا يظهر لأحد علىٰ أحد مشيخة، إنما هم إخوان متناصحون، فلما ذهب السلف الصالح وحدث في الناس الأمراض الكثيرة، حجروا علىٰ المريدين الاجتماع بشيخين فأكثر، وأمروهم بالتقيد علىٰ شيخ واحد، وذلك في أيام الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ وقالوا: «كما لم يكن للعالَم إلهان، ولا للمرأة زوجان، كذلك لا يكون للمريد شيخان» وربما ظن بعض من لا علم له بأحوال أهل الطريق أن تحجير الأشياخ علىٰ مريديهم أن لا يجتمعوا بغيرهم إنما هم لحبهم في الرئاسة، أو لعداوتهم لبعضهم بعضًا، وذلك ظن فاسد، وحاشا أشياخ الطريق من مثل ذلك! وتأمل يا أخي أشياخ الطريق كيف يجتمعون ببعضهم بعضًا، ولا يتقيد أحدهم علىٰ صاحب واحد، لاستغنائهم عن المداوة بعدم الأمراض.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: إنما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم

---

(١) ساقط من «ب».

القيامة ولا فخر»[1] رحمةً بأمته، فأخبرهم أنه أول شافع يوم القيامة، وأول مشفَّع، ليمكثوا في مكانهم ولا يذهبون إلىٰ نبي بعد نبي يسألونه الشفاعة كما ورد، فكأنه أمرهم أن يصبروا مكانهم حتىٰ تأتي نوبة نبيهم ﷺ ويقول: «أنا لها أنا لها»[2]. انتهىٰ. وفي ذلك دليل لتحجير الأشياخ علىٰ مريديهم أن لا يذهبوا لغيرهم، ويقتصروا علىٰ شيخهم الذي لهم وديعة عنده، والله تعالىٰ أعلم.

(١٠٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما دام للعبد عدو فهو عدو لله، والله يكرهه؛ فلاث بعض الفقهاء وقالوا له: هذا القول خطأ بالإجماع، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] من المجرمين، ومعلوم بالإجماع أن النبي يحبُّ الله والله يحبه، فكيف هذا القول؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فقد يريد بذلك العدو غير المجرمين، فإن عداوة المؤمنين الكاملين لا تكون إلا بحق، كأن يخرج ذلك العبد عن الشريعة المطهَّرة ويصر علىٰ ذلك ولا يرجع، فيعادونه ويكرهونه لله تعالىٰ لا لحظ نفس، ومعلوم أن الله تعالىٰ يكره من خرج عن شرعه، ولكن نحن لا نعلم ما عند الحق من ذلك إلا بعداوة المؤمنين لنا.

وقد يكون مشهد هذا الشيخ السرَّ القائم بذلك العبد من أسمائه تعالىٰ «المنتقم» أو «الضار» مثلًا، ومعلوم أن الاسم «المنتقم» أو «الضار» لا يحكم إلا فيمن يكرهه الله تعالىٰ بالأصالة، وربما كان النبي ﷺ أو الولي مأمورًا برد أهل الضلال إلىٰ طريق الهدىٰ فيعادونه، فلا يقدح ذلك في مقامه. وربما عصىٰ ذلك الشيخ أمر ربه فصار مكروهًا لبعض الناس تبعًا لكراهة الحق تعالىٰ له. ومن أراد أن يعرف ما قلناه فلينظر إلىٰ مادة الأرواح والسر القائم بها وإلىٰ مادة ذلك من الأسماء الإلهية، فيجد صدره لم يكرهه إلا لكراهة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الحق تعالىٰ له، هذا شأن العدو من المسلمين. أما المجرمون فلا.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﵀ يقول: إن الله تعالىٰ قد تفضل علىٰ العارفين بسماع الهواتف الربانية حين انقطع الوحي علىٰ لسان نبيهم، فصار أحدهم يعرف مقامه عند الحق تعالىٰ. انتهىٰ. وقد سمعتُه مرةً يقول لي: إذا مللتَ من مجالسة ربك في ذكر أو صلاة أو غيرهما، فاحكم علىٰ نفسك بعدم كمال محبتك للحقِّ جلَّ وعلا، واحكم علىٰ الحقِّ تعالىٰ بعدم محبته لك، فإنه لا يمل حتىٰ يمل عبده، ولو كان عبده محبًّا له ما مل من مجالسته. انتهىٰ.

وهذا قريب مما وقع لبعض العارفين حين رأىٰ الحقَّ جلَّ وعلا في منامه، وقال له: أنا أكرهك، وأنت تكرهني. فقال: يا رب كيف ذلك؟! فقال: لو كنتَ تحبني ما لحقك ملل من عبادتي، وأنا تبع لك في ذلك، كما أخبركم بذلك عني نبيكم في حديث: «إن الله تعالىٰ لا يمل حتىٰ تَمَلُّوا»[1] **فلو كنتم صادقين في محبتي ما مللتم، إذ المحب لا يمل من مجالسة محبوبه أبدًا**، والألف سنة عندي كاللمحة. انتهىٰ. فمن وجد عنده مللًا، فليحكم علىٰ نفسه بعدم الصدق في محبة الله تعالىٰ.

وقد رأىٰ أخي أفضل الدين أنه عند الميزان الأخروية، فجاؤوا بذنوبه فوضعوها في كفة، ووضعوا ملله في العبادة في كفة، فرجحت كفة الملل علىٰ جميع الذنوب. انتهىٰ.

وسمعتُ مرةً هاتفًا يقول لي: إياك أن تشتغل بمقابلة من عاداك وكرهك، وانظر في مادة ذلك العدو، فربما انتهت عداوته إلىٰ حضرات الأسماء، فتصير تعادي ربك ولا تشعر، فإذا وجدت أحدًا يكرهك، فخذ في التوبة والاستغفار، فإنه يغمز علىٰ كراهة ربك لك. انتهىٰ. ويؤيد ذلك حديث: «أنتم شهداء الله في الأرض، فمن أثنيتم عليه -أي أيها المسلمون- خيرًا فهو خير؛ ومن أثنيتم عليه شرًّا فهو شر»[2]. انتهىٰ. فجعل الشارع ثناء المسلمين بالخير أو الشرِّ علامةً علىٰ ما عند الحق تعالىٰ من ذلك العبد.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٥).

(٢) تقدم تخريجه.

[حكمة وجود العدو للنبي أو للولي]

فإن قلت: ما حكمة وجود العدو للنبي أو للولي؟ **فالجواب:** حكمة ذلك أن النبي أو الولي إذا نظر أحدهما في أفعال المجرم وأقواله، شكر الله الذي عافاه من ذلك. ويزيد الولي على النبي إن لم يحفظه الله من المعاصي أن يتنبه بكلام العدو في حقّه على نقائصه، فيأخذ في التوبة والاستغفار. والمِحَن نافعة للنبي والولي. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ على المحامل الحسنة ما استطعتَ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما عرف الله تعالىٰ حقيقةً أحد؛ فلاث به بعض المتصوفة وقال: قد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال ابن عباس: إلا ليعرفون؛ فحكم الحق تعالىٰ بالمعرفة لجميع الإنس والجن.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، بل كلامه في غاية التنزيه لله تعالىٰ، أي ما عرفه أحد علىٰ وجه الإحاطة لا مطلقًا، إذ كل مخلوق يعرف خالقه بالفطرة، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٥].

[معنى قول سيدنا علي: من عرف نفسه فقد عرف ربه]

وقال عليٌّ بن أبي طالب: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» أي ونفسه لا يحيط بها فلا يحيط بربه فلا يعرفه، لأنا لو أثبتنا للعبد معرفة نفسه، لسلمنا له الإحاطة بالحق تعالىٰ، ولا قائل بذلك. وإيضاح ذلك أن الحق تعالىٰ جعل النفس مع كونها مخلوقة مرتبة تعجيز للعبد، فكأنه تعالىٰ يقول: إن عرفتُم نفوسكم وأحطتُم بها، فقد صح لكم الترقي إلىٰ معرفتي والإحاطة بي.

ومرادُنا بالإحاطة بالنفس علمُ العبد بنفسه قبل أن يُخلق، وذلك لا يصح، فمن قال: إني عرفتُ نفسي وأحطتُ بها علمًا، فكأنه يقول: كنتُ موجودًا قبل روحي، وذلك محال، فافهم، فما بقي من معرفة الله تعالىٰ إلا الاستدلال بالآثار علىٰ وجود خالقها لا غير، فافهم، والله أعلم.

(١٠٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أخذ مؤلَّفًا لبعض المعاصرين أو غيرهم، فزاد فيه ونقص، وأضافه إلىٰ نفسه، فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا أمر لا يجوز، فإنه من باب «لعن الله من انتسب إلىٰ غير مواليه»[1] وذلك لما فيه من الكذب والمخادعة لله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون إنما أضافه إلىٰ نفسه ليقبل الناس علىٰ كتابته والعمل به، لما يعلم من شدة اعتقادهم فيه والعمل بقوله، بخلاف صاحب ذلك الكتاب، فقصد بإضافته إلىٰ نفسه انتفاع الناس به، ويسطر ثواب ذلك في صحائف صاحب ذلك التأليف لا صحائفه هو.

وقد رأيتُ من فعل مثل ذلك من العلماء والصوفية من مشايخنا، فأخذ الأول شرحًا علىٰ بعض كتبه من تركة بعض المعاصرين، فوجده شرحًا عظيمًا، ولكن كان صاحبه خامل الذكر، فأمر الناس بكتابته، فلم يسمع أحد له وقالوا: وهل كان فلان يعرف يشرح مثل أبي شجاع فضلًا عن غيره؟! فاستخار الله تعالىٰ وزاد فيه ونقص ونسبه إلىٰ نفسه، فسارع الناس إلىٰ كتابته، فقال المؤلِّف الثاني: اللهم إني أشهدك أنه ليس لي من هذا الشرح إلا الاسم فقط، فاجعل نفعك الناس به في صحائف فلان. هذا أمر شهدتُه من شيخنا المذكور.

وأخذ الشيخ الثاني رسالةً لبعض الفقراء الخاملين، فوجدها كلها فوائد، ولكن صاحبها خامل الذكر لا يعده الناس من أهل الطريق، فزاد فيها ونقص وأضافها لنفسه، فتسارع الناس إلىٰ كتابتها، فعلم بذلك مؤلفها الأصليُّ، ففرح وقال: جزىٰ الله فلانًا عنا خيرًا في إضافة تلك الرسالة إليه، لينتفع الناس بها، فإنه مشهور بالعلم والصلاح دوني. وقال المؤلف الثاني: اللهم إني أشهدك أنه ليس لي من هذه الرسالة إلا الرقم بالأنامل، فاجعلها في صحائف أخي فلان. هذا أمر شهدتُه من الشيخ الآخر، فإياك يا أخي، وحمل الأشياخ علىٰ الرياء ومحبة الصيت إذا فعل أحدهم مثل ذلك، فإن الأشياخ بعيد عليهم أن يخادعوا الله تعالىٰ ورسوله والمسلمين ولا يؤمنوا بيوم الحساب ﷺ، وإنما هم دائرون مع المصالح للمسلمين ولأنفسهم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(١٠٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: نوم المريد أقوىٰ في استعداده من يقظته؛ فلاث به بعض الأقران وقال: هذا خلاف ما أجمع عليه أشياخ الطريق، فإنهم جعلوا النوم أخا الموت وقالوا: لو أنه نَقْصٌ ما نزَّه الحق تعالىٰ نفسه عنه، وكذلك أجمع الأشياخ علىٰ أن السهر أحد أركان الطريق.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أمرًا خاصًا، إذ الإنسان في حال نومه يكون أرق حجابًا من يقظته، بدليل أنه يقع له رؤية الباري جلَّ وعلا في النوم، ولا يقع له ذلك في اليقظة، وتصعد روحه إلىٰ السماوات العلا في النوم، ولا يصعد في اليقظة. ويصح أن يكون مراد هذا الشيخ أن النوم أقوىٰ في استعداد ذلك المريد من يقظته إذا كان يقع في المعاصي كثيرًا، إذ النائم لا يُكتب عليه ذنب، ويصح أيضًا أن يكون مراده غير ذلك، والله أعلم.

(١٠٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يمر علىٰ شيخ آخر [كلَّ][1] قليل، ولا يرسل له السلام، مع كونه يزور أقرانه في بيوتهم، ويتردد إليهم كثيرًا، فلاث به أصحاب ذلك الشيخ وقالوا: إنه يكره شيخنا بيقين، وكل شيء[2] له قرائن، وانظروا إليه لما كان يحب فلانًا وفلانًا كيف يزورهم في بيوتهم، ويمر علىٰ شيخنا كل يوم، فلا يرسل له السلام في وقت من الأوقات.

والجواب: أنه لا يلزم من زيارته لبعض الناس أن يكون يحبُّهم أكثر، لاحتمال أن يكون إنما يزورهم مداواةً لقلوبهم، وتأليفًا لهم، لضعف رابطة المحبة بينه وبينهم، بخلاف هذا الشيخ الذي يمرُّ كلَّ قليل عليه ولا يرسل له السلام مثلًا، فإنما كان ربما بينه وبينه شدة المحبة والاتحاد في الباطن، فلم يحتج إلىٰ اجتماعه به بالجسم، كما عليه أهل الله تعالىٰ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: شيخ. والصواب ما أثبتناه.

وقد تقدم في هذه الأجوبة أن بعض الصالحين يكتفي في تردده لأخيه بالاجتماع القلبي بين يدي الله عزَّ وجلَّ في الصلوات الخمس وغيرها من العبادات، ويرتفع شوق كل منهما إلىٰ أخيه، إذ الاشتياق لا يكون إلا لغائب، وأهل الله قلوبهم مشاهدة لبعضهم بعضًا، فافهم هذا، مع أن الاجتماع بالجسم مع القلب أكمل كما لا يخفىٰ، من حيثُ إن لكل شيء حقًّا، فلا يغني الاجتماع الروحيُّ عن الجسميّ ولا عكسه، وهو السنة التي لا أكمل منها، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعرِّض لأصحابه أنه محتاج إلىٰ قمح أو فلوس أو ثياب أو غير ذلك، فيذهب أحدهم ويأتي بما طلب بتكلف، والحال أن الشيخ المذكور غني عن مثل ذلك، وهو أوسع دائرة من جميع أصحابه، فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر مخالف لما كان عليه السلف الصالح، وقد قالوا في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] أن المراد بالحكمة هي غنىٰ الداعي عن مال المدعوين، وذلك أنهم إذا رأوه محتاجًا لهم، هان في أعينهم، وحصل عندهم الإدلال عليه، وعُدِمُوا النفع به.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد بالتعريض لهم بما ذكر تحريضهم علىٰ الكرم والخروج عن البخل، ومواساتهم للإخوان، وجعل نفسه سلمًا لذلك، فإنه لو أمرهم بإعطاء إخوانهم الثياب والنقود مثلًا لربما شق عليهم ذلك، وربما نفروا منه، فأراد بتعريضه لهم أن يعطوه ما ذكر تمرينهم لهم علىٰ العطاء من غير مشقة عظيمة، ثم بانشراح صدر بعد ذلك، طلبًا للثواب الأخروي، ثم [بعد][1] انشراح[2] صدرهم[3] بذلك الثواب، يعطونه امتثالاً لأمر الله عزَّ وجلَّ، ثم بعد ذلك يرون الفضل لله تعالىٰ الذي جعلهم أهلًا للاستحقاق في ماله لينفقوا منه علىٰ عبيده.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: بانشراح. والصواب ما أثبتناه.

(٣) بالأصلين: صدره. والصواب ما أثبتناه.

ويقع لي ذلك كثيرًا مع أصحابي، فأعرض لهم بمواساة بعضهم بعضًا فلا يفعلون، فأطلب منهم ثوبًا واحدًا، فيأتوني بعدة ثياب، أو بدينار فيأتوا بعدة دنانير، فآخذها منهم، وأخرجها علىٰ إخوانهم من غير علمهم، ثم أبين لهم ما في عطائهم لي من العلل القادحة في الإخلاص، مع أني في غنية بحمد الله عن كلِّ ما يأتون به.

فاعلم يا أخي ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ اللوث بشيخ طلب من أصحابه الدنيا ولو شكوا لك منه، فإن الشيخ ليس هو تحت حكمك، وربما كان المريدون حكَّموا الشيخ قبل ذلك في جميع أمورهم، وقالوا له: خذ منا كل ما طلبت ولو بغير طيبة نفوسنا، تمرينًا لنا علىٰ الإنفاق، ثم نسوا ذلك، فإذا ذُكِّروا به، رضوا بأخذه أموالهم.

وقد فعل مثل ذلك سيدي الشيخ أبو المواهب الشاذلي بمكة حين صاروا يجلسون عنده في الحرم كل ليلة يتحدثون في أمور الدنيا، فقال لنقيبه: إن هؤلاء قد أشغلونا عن العبادة! ونحن ما جئنا هاهنا إلا للانقطاع للعبادة. فقال النقيب: فماذا نفعل؟ فقال: قل لهم: إن الشيخ قد احتاج مئة دينار، فاجمعوها له، فإن كانوا محبين فإنهم يجمعونها وإلا هربوا. فذكر النقيب لهم ذلك، فهربوا من تلك الليلة، وما حضر بعد تلك الليلة منهم أحد. وكان هناك شخص من أقران هذا الشيخ، فمزَّق عِرْضَه وصار يقول: إن فلانًا صار شحَّاذًا في مكة من أصحابه حتىٰ نفروا عنه! وأيش قام عليه بالمجاورة؟! وما خلىٰ له ولا بقىٰ والشيخ بمعزل عن جميع ما ظنه هذا الشخص.

ورأيت مثل ذلك أيضًا من بعض الفقراء لما حج في سنة ثلاث وستين مع عيسىٰ أمير الحج كان يرسل خادمه[1] كل يوم إلىٰ مطبخه، فيأخذ له طَبْلِيَّة[2] في الغداء، وطَبْلِيَّة في العشاء، وكذلك الحكم في الماء، ثم يفرقه علىٰ محاويج الحجاج، ولا يأكل منه شيئًا، فلا تسأل يا أخي عما ظنه به الأقران والشيخ بريء من جميع ما ظنوه به، فإني كنتُ جاره في الركب، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: فأخذه. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الطَّبْلِيَّةُ: منضدة مستديرة منخفضة يُرَقُّ عليها الخبز أو يؤكل عليها.

(١٠٥٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يفرح ويتفرج في البساتين ويبني الدور أيام نكد السلطان، فلاث به الفقراء وقالوا: من شرط الفقير الصادق شدة ارتباطه بإمامه في الباطن، وموافقته في الأمور المتعلقة بالقلب كالأفعال الظاهرة علىٰ حد سواء، فيحزن إذا حزن السلطان، ويفرح له إذا فرح بالميزان الشرعي. وأما فعل الفقير ضد ذلك فهو دليل علىٰ عدم ارتباطه بإمامه، ولا يخفىٰ ما في ذلك من نقص.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ المذكور إذا تفرج في البساتين مثلًا أيام نكد ولي الأمر، لأنه من الأمور التي تخفىٰ علىٰ غالب الناس، فينبغي تعليمه الحكم أولًا، ثم الاعتراض عليه بعد ذلك إن لم يكن له عذر آخر. وهذا الخلق لم أرَ له فاعلًا بعد سيدي عليٍّ الخواص وأخي أفضل الدين سواي وسوىٰ سيدي الشيخ عمر البوصيري ﷺ، وغالب الناس لا يعرف لذلك طعمًا.

وقد شددتُ النكير علىٰ إخواني الذين عملوا الأفراح وفرحوا أيام موت مصطفىٰ ولد السلطان سليمان[١]، وأيام ماتت الخاصكية[٢] وموت خدَّامها في أواخر رجب، سنة خمس وستين وتسعمئة، وقلت لهم: أما في نكد ولي أمركم وحزنه عبرة لكم؟! ويقع لي بحمد الله تعالىٰ حزن القلب إذا حصل للسلطان نكد وأمرض لأجله قهرًا، ولا يصير لي وجهة إلىٰ المباسطة لأحد من أصحابي، حتىٰ أعلم أن ذلك النكد زال عن السلطان، فالحمد لله علىٰ ذلك.

(١٠٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدرِّس في علوم الشريعة والحقيقة، ويبدي في درسه كلَّ عجيبة وغريبة في دقائق العلوم والأسرار، ثم لا يقوم [أحد][٣] من أهل مجلسه بشيء من ذلك، بل يذهب جميع ما أفاده لهم من قلوبهم، فلاث به بعض الأقران والحسدة

---

(١) السلطان الغازي سليمان خان الأول القانوني، ولد سنة ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٥م وهو عاشر ملوك آل عثمان، توفي سنة ٩٧٤ هـ. «تاريخ الدولة العلية» ص١٩٨.

(٢) زوجة السلطان. وكانت زوج السلطان تلقب بـ«خاصكي السلطان».

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

وقالوا: هذا يدل علىٰ عدم إخلاصه أو سخافة عقله، ولو أنه كان مخلصًا أو كامل العقل، لنبت علمه في القلوب، أو كلَّم الناس بما يفهمونه، وأخفىٰ عنهم ما لا يفهمون.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ وحمله علىٰ عدم الإخلاص أو خفة العقل، لاحتمال أن يكون من رجال الرحمة، أو من الذين يحضره الجان، فهو يدرس في العلم، ثم يخاف من الحاضرين أن [لا][1] يعملوا به، فيسأل الله تعالىٰ أن يذهب علمه من قلوبهم، حتىٰ يصير أحدهم كأنه لم يسمع بذلك العلم قط، فلا يسأله الله تعالىٰ عن العمل به يوم القيامة.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا ينبغي للعالم أن يلقي علىٰ الحاضرين العلم علىٰ مقدارهم فقط، بل يرسل الكلام بحسب ما يفتح الله تعالىٰ به علىٰ قلبه، فإنه قلَّ مجلس علم إلا ويحضره من يستحقه من الجن والإنس، كما يعرف ذلك أهل الكشف. فإياك يا أخي وبسط اللسان في أهل هذا المقام، فتقع في الإثم من غير علم.

وقد قال لي مرة شخص من علماء جامع الأزهر: أي فائدة لهذا الكلام الذي يتكلم به سيدي محمد البكري، مع أنه لا يقوم أحد من أهل مجلسه منه بشيء؟! فكان الجواب له ما تقدم.

وقد يكون كتمان ذلك الكلام يضرُّ بدن العارف، ويحصل له به خراريج، فهو يخرجه من جسده ليستريح منه، ثم إن كان سبق في علم الله تعالىٰ أن أحدًا ينتفع فذاك، وإلا كان له أجر نيته، فالحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لولا أنا في مصر لسرق اللصوص أمتعة الناس من دورهم، ولولا وجودي لكان غالب السوقة[2] لا يزن أحد منهم حقًّا، بل يأخذون شيئًا من كل شيء يزنونه للناس؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذه دعوىٰ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أي البائعين في السوق.

كاذبة! ولم يبلغنا ذلك عن أحد من الأولياء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من رجال المقامات في الوجود، فتكون المرتبة له والناس أعوانه، فتُحفَظ أموال الناس من أخذها بغير حق إما لحاله وتوجهه إلىٰ الله تعالىٰ، وإما لتحويطهم بالآيات والآثار. وهذا نظير ما قررناه في مقام عزرائيل وإبليس، فإن كلًّ واحد له أعوان، ويضاف فعل سائر أعوانه إليه، لكن تارة يظهر صاحب هذه المرتبة للناس من أهل الكشف، وتارة لا يعرفه أحد، وإن وقع جور من الأعوان فذلك إليهم لا إلىٰ صاحب تلك المرتبة، وإن وقع عدل فهو يُضاف إليه بالأصالة.

كما وقع أن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد تولىٰ الحسبة والولاية بمصر، فكان اللص إذا دخل بيتًا بقصد السرقة، يصير تائهًا في البيت لا يجد بابًا يخرج منه وهو حامل تلك الأمتعة التي سرقها إلىٰ أن يطلع النهار ويراه أهل الدار، فيطلقوه من غير ضرر له. وكان أهل الحوانيت يُعلِّق أحدهم الميزان، ويعلق القدَح علىٰ صبرة القمح مثلًا، ويضع الذراع علىٰ القماش، فيأتي المشتري فيقول له البائع[1]: زن لنفسك، وقس لنفسك؛ من بركة الشيخ تقي الدين ﷺ. فاعلم ذلك، وسلم للفقراء دعاويهم، فإن كان أحدهم صادقًا فقد وفيتَ بحقِّه، وإن كان كاذبًا فذلك إلىٰ الله لا إليك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اعتقده أمير الحج اعتقادًا زائدًا، وأراد ينفق عليه وعلىٰ جماعته من مصر إلىٰ مكة ذهابًا وإيابًا، فمشىٰ إليه شخص من أقرانه وقال لأمير الحج: هذا ليس بشيخ، ولا هو من أولياء الله تعالىٰ عزَّ وجلَّ، ولقد تعجب الناس من عقلك في اعتقادك في هذا، وثم في مصر من لا يصلح هذا خادمه؛ فيغير اعتقاده علىٰ ذلك الشيخ، فلاث به أصحابه وما خلوا ولا بقوا في عرض هذا الشيخ الذي غيَّر اعتقاد الأمير في شيخهم وقالوا: كلُّ هذا حسد منه الذي لم يعتقده أمير الحج.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهذا الشيخ الذي غيَّر اعتقاد الأمير علىٰ هذا الشيخ،

(١) بالأصلين: المشتري. والصواب ما أثبتناه.

لاحتمال أنه أراد بذلك الشفقة علىٰ دين أخيه أن يحج من مال أحد من الولاة، فيقول الحق تعالىٰ له إذا لبَّىٰ: «لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام، ومركبك حرام»[1]. ولا يجوز حمله علىٰ الحسد، فإن ذلك بعيد علىٰ الفقراء أن يقع أحدهم فيه، وإذا كان أحدهم لا يحسد علىٰ الحلال، فكيف يحسد علىٰ الحرام أو الشبهات؟!

وقد وقع لي مع ثلاثة من أمراء الحج، وهم حمزة والشيخ عيسىٰ بالبحيرة والأمير خير الدين خضر أنهم خرجوا لي عن الجمال وعَلِيقِها[2] وركوب جماعتي والقيام بهم ذهابًا وإيابًا، فنصح كل واحد منهم جماعة من الأقران وقالوا لهم: لو أخذتم معكم الشيخ فلان كان أكثر أجرًا لكم. فلما بلغني ذلك أحببتُ أولئك الجماعة الذين نفروهم، وازددتُ فيهم محبةً، لكونهم خافوا علىٰ نقص ديني بإجابتي لهم إلىٰ السفر علىٰ ذلك الحال، وإن كان من عادتي عدم الإجابة لأني غير معصوم. وإيضاح ذلك أنه نصحني بقدر ما عنده من الورع، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا. وهذا الأمر قد عز في غالب الناس، يعني رد ما يأتيهم من الولاة، بل ربما دعت الحاجة إلىٰ أن أحدهم يسأل المساعدة في الحج من الولاة، ومن لم يعطه غضب عليه وقال: فلان ليس فيه خير!

وبحمد الله لم يتغير اعتقاد هؤلاء الأمراء فيَّ، بل ازداد أحدهم فيَّ حسن ظن بالرد. وقد ظن بعضهم من كثرة كلام من نفره عني أنني إنما أرد جهرًا قيامًا لناموسي لا غير، ولو أن ذلك أتاني ولم يعلم به أحد من الناس ما رددتُه، فأرسل يقول لي: اقبلوا هذه الجمل، وهذا المال، ووالله لا نعلم أحدًا بذلك. فقلتُ: إنما يلبِّس الإنسان في معاملة الخلق، وأما

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٢٢٨) من حديث أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا خرج الرجل حاجًا بنفقةٍ طيبةٍ، ووضع رجله في الغرز، فنادىٰ: لبيك اللهم لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لبيك وسعديك، زادُك حلالٌ، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غيرُ مأزورٍ، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز، فنادىٰ: لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لا لبيك ولا سعديك، زادك حرامٌ ونفقتك حرامٌ، وحجك غير مبرور» والبزار (٨٦٣٨).

(٢) العَلِيقُ: ما يُقدَّم للدابة من طعام.

الحق تعالىٰ فلا تجوز معاملته بمثل ذلك، لأنه يعلم السر وأخفىٰ. فاعلم ذلك، واشكر من نصحك عن شيء ولو كنت من أبعد الناس أن تقع فيه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: إذا كان لكم حاجة إلىٰ الله تعالىٰ، أو إلىٰ أحد من عباده، فتوجهوا إلىٰ الله تعالىٰ، وتوسلوا إليه بي، يقضها لكم بسرعة، ولا تتوجهوا بأحد من الأولياء غيري، وإن مت فأتوا إلىٰ قبري، واسألوا الله بي في قضائها، يقضها لكم أسرع وأسرع؛ فلاث به جماعة من مريدي مشايخ العصر وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة ما سمعناها من أحد من أشياخه، فضلًا عن مثله.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أنه عرف منهم الصدق في الاعتقاد فيه دون غيره، فلم يرشدهم إلىٰ أحد من أقرانه ولا غيرهم، وإن كانوا أعظم منه في العلم والعمل والتقوىٰ، تقريبًا لطريق قضاء حاجتهم، فإن **سرعة قضائها تابع لقوة الاعتقاد في الواسطة**، وليس في قوله هذا ترجيح لنفسه لغرض غير صحيح كما قد يتبادر إلىٰ الذهن، فإن ذلك بعيد وقوعه من الفقراء، ولا يجوز حملهم عليه، فإن **الفقراء الصادقين دائرون مع المصالح للعباد حيث دارت**، فإن رأوا عقيدتهم فيهم صحيحة قالوا لهم: توجهوا إلىٰ الله بنا؛ وإن رأوا عقيدتهم صحيحة في غيرهم، رغبوهم في التوجه إلىٰ الله تعالىٰ بهم[1].

وقد كان سهل بن عبد الله التستري ﷺ يقول: إذا كان لكم إلىٰ الله تعالىٰ حاجة، فأقسموا عليه بي يقضها لكم. وكذلك كان معروف الكرخي يقول لأصحابه، مع أنه كان يحتقر نفسه غاية الاحتقار، حتىٰ إنه قال: أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد. فقالوا له: لم ذاك؟ قال: أخاف ألا يقبلني قبري، فأفتضح. فما قال لهم: «اسألوا الله بي» إلا لعلمه من أصحابه شدة اعتقادهم فيه كما مر إيضاحه في هذا الكتاب مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعاه بعض الأمراء إلىٰ وليمته فأبىٰ، فأكَّد عليه في ذلك وقال: لابد من حضورك عندي. فقال له: بشرط أن لا يحضر غيري من

---

(١) بالأصلين: فيه.

مشايخ البلد الذين كان عازمًا علىٰ دعوتهم لوليمته. فقال: لابد من حضورهم. فقال: وأنا الآخر لا أحضر؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا لا ينبغي وقوعه من المشايخ الذين هم قدوة للناس في البلد، وكان ينبغي له أن يبجل إخوانه، ويظهر الفرح والسرور بحضوره معهم، ولا يظهر عداوتهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا حمله علىٰ العداوة، وإنما يجب حمله علىٰ أنه قصد حفظهم من الأكل من طعام ذلك الأمير، محبةً في تطهيرهم من أكل الحرام والشبهات، وكأن لسان حاله يقول: يكفي واحد من الفقراء يتلطخ بأكل الحرام والشبهات وهو أنا.

وأيضًا فربما علم من أقرانه وقوع الميل والركون إلىٰ ذلك الأمير إذا دخلوا بيته وعظَّمهم وبجَّلهم، فاحتاط لإخوانه علىٰ جاري عوائد الفقراء الصادقين، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ سوء الظن بأحد من المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يلح علىٰ الولاة والظلمة في سؤالهم الفلوس والطعام والثياب وغير ذلك حتىٰ صار معروفًا عندهم بذلك ويقولون إذا رأوه داخلًا دارهم: جاءكم الثقيل الدم؛ ولاث به الفقراء وقالوا: هذا لا ينبغي وقوعه من فقير، لما يترتب عليه من الآفات وإزدرائه عند الولاة، وعدم قبول شفاعته عندهم، وقالوا: لو أنه كان لم يسألهم أو أعطوه شيئًا، فرده عليهم، لقبلوا شفاعته ولم يردها أحد منهم كما هو مشاهد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لاحتمال أن يكون كشفه أدىٰ إلىٰ أن ذلك الأمر الذي يسأل فيه الولاة ليس من رزقهم، وإنما هو رزق جماعة يعرفهم هو، فقصد بذلك السؤال الأجر والثواب بإيصاله الرزق إلىٰ أصحابه، فلم يسألهم رغبةً في الدنيا ولا لعلة نفسانية. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من كان بهذه الصفة وتقول: قد أبطل هذا منافع الناس علىٰ يديه بسؤال الظلمة ما بيدهم من السحت، وصاروا لا يقبلون له شفاعة؛ فإنه قد يكون من رجال الله الذي يأخذون من الولاة المال ويحمون نفوسهم من

وقوع الظلمة في احتقارهم بسبب ذلك ورد شفاعتهم، إما بأن ينسيهم الله تعالىٰ ذلك الأمر، وإما بحالهم القاهر لهم، فلا يمكن أحد منهم رد شفاعته مع كثرة سؤاله لهم. ويحمل عدم قبول الشفاعة بالسؤال علىٰ من ليس له حال يحميه من الإنكار والازدراء، أو علىٰ من لم ينسِ الله الظلمة [سؤالَه][1]، أو ثقل الحاجة في السؤال كما تقدم بسطه مرارًا.

(١٠٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهي بعض أصحابه عن محبة بعض المباشرين والتجار والأمراء من أصحابه ويقول: إياكم أن تحبوا أحدًا من أصحابي الذين يحسنون إليكم؛ فلاث به بعض الناس وقال: هذا خلاف ما أمرت به الشريعة المطهرة، فإنها إنما أمرت بالتحابب والهدايا وإطعام الطعام، وذلك لتأتلف قلوب المسلمين علىٰ بعضهم بعضًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد أن يُستفهَم عن ذلك، فإن مثل الشيخ لا يجهل ما أمرت به الشريعة، وموضوع مشيخته إنما هو جمع الناس علىٰ الخير، ولا يستقيم لهم ذلك إلا مع وجود التحابب والتوادد، لا التناغص والتقاطع، فإذا استفهمناه عن ذلك ورأيناه نهىٰ أصحابه عن التحابب لأصحابه لغير غرض شرعي، فهناك يسوغ لنا اللوث به، وأما إذا رأيناه نهاهم عما ذُكِر لغرض شرعي، فلا لوم عليه.

ومن الأغراض الصحيحة أن يرىٰ مريده قد قصَر نظره علىٰ ذلك الشخص الذي يحسن إليه، ونسىٰ ربه عزَّ وجلَّ في ذلك، مع أنه تعالىٰ هو المنعم الحقيقي، وكثيرًا ما يدخل قلب ضعفاء المريدين محبة من أحسن إليهم، فلا يبقىٰ لمحبة الله ورسوله في قلبه محل، فيخاف عليه المقت، لأن الحق تعالىٰ غيور لا يحب أن يرىٰ في قلب عبده محبةً لأحد سواه إلا بإذنه، كمحبة الأنبياء والأولياء، وجميع من لا يحصل بمحبتهم نقص في دين العبد، كأن يحصل بصحبة أحدهم الغفلة به عن الله عزَّ وجلَّ، أو يصير يجلس هو وإياه فيجران[2] قوافي الناس، ويقعان في أعراضهم كما هو الغالب علىٰ أصحاب هذا الزمان.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: يجرون.

وربما أعطىٰ الله تعالىٰ بعض الأشياخ نفوذ الهمة والمقت في كل مريد مال بقلبه إلىٰ سواه، لأن في ضمن ذلك الإعراض عن الله عزَّ وجلَّ، فيستحكم في ذلك المريد المقت، ويحوِّل الله تعالىٰ النعمة عن ذلك التاجر أو المباشر أو الأمير بسبب إتلافه بإحسانه قلب ذلك المريد، كما وقع لكثير من أهل عصرنا هذا، فالعاقل من أخذ حذره من الإحسان إلىٰ مريدي أحد من المشايخ إلا بإذنهم.

وقد رأيتُ شخصًا من أصحاب سيدي عليٍّ الخواص تعرَّف بشخص من أصحاب الشيخ، وصار يجالسه ليلًا ونهارًا كأنه لم يعرف الشيخ، فقال الشيخ: عن قريب يُعاقَب كلٌّ منهما؛ فسافرا إلىٰ مكة في البحر، فغرقا جميعًا.

وحكىٰ لي شيخنا الشيخ محمد الشناوي أنه مكث مدة صحبته لشيخه الشيخ محمد السروي لا يقدر يميل إلىٰ أحد سواه من الأولياء، فضلًا عن أبناء الدنيا، خوفًا من غيرة شيخه المذكور، قال: ومكر بي مرةً وأنا لا أشعر، فما كنتُ إلا هلكتُ، وذلك أنه أذن لي في تربية المريدين وتلقينهم الذكر في بلاد الغربية، فلما نزلتُ إلىٰ البلاد، انقلب الفلاحون والفقهاء إليَّ وكأنهم لم يعرفوا شيخي، مع أنه كان لقنهم الذكر، فورد علىٰ الشيخ رجل من أصحابه الذين لم يجتمعوا بي، فقال له الشيخ: أيش حال أصحابنا اليوم؟ فقال: إنه لم يبقَ لك أصحاب، وإنما صاروا كلهم أصحاب الشناويِّ لا يحلفون إلا بحياته، وكأنهم لم يعرفوك! فقال الشيخ: أنا آخذ وديعتي التي كانت سببًا لاجتماعهم عليه وصحبتهم له، ثم مد بيده من مصر إلىٰ ناحية الغربية، فسلب ما كان معي من المدد، فرأيتُ نفسي قاعًا صفصفًا، فسافرتُ إلىٰ الشيخ في مصر، وأقمتُ في رحبة الزاوية الحمراء خارج مصر[1] نحو أربعين يومًا حتىٰ رضي عني، ثم قال لي: يا محمد، إنما أذنتُ لك في تربية المريدين لأنظر أدبك معي، هل تمسك الأدب أم تعمل شيخًا حال حياتي؟ فإنك إذا أخذتَ مريدي شيخك، فيكون شيخك شيخًا علىٰ من؟! ثم إنه لقنني

(١) أي خارج القاهرة، كما سبق الإشارة إليه. والزاوية الحمراء سميت بذلك لأنها كانت قرية وخربت، ثم جددها قايتباي ودهن بيوتها بالأحمر. وهي الآن تتبع محافظة القاهرة بمصر.

الذكر ثانيًا وقال: هذا أول الصحبة الحقيقية، ولكن لا يفلح أحد ممن صحبك قبل هذا اليوم؛ فتمزقوا كلهم بعد أن كان أحدهم يرىٰ أزقة السماوات، وينظر الإنسان إذا خرج من داره لزيارته وبينه وبينه مسيرة يوم وأكثر. فاعلم ذلك، وإياك واللوث بالأشياخ إلا إن كنتَ أعلم منهم بطريق الشريعة والحقيقة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نزلت به مصيبة أو بلاء في نفسه أو ولده مثلًا، فصار يقول: اللهم لا تشمت بي الأعداء ولا فلان ولا فلان، ويسمي علماء عصره ومشايخه، فلاث به الناس وقالوا: هذا دليل علىٰ خبث باطن هذا الشيخ، وسوء ظنه بالعلماء والصالحين، فإن مثل هؤلاء العلماء والمشايخ الذين ذكرهم لا يقعون في الشماتة بأحد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل قوله: «اللهم لا تشمت بي العالم الفلاني أو الشيخ الفلاني» ولا يلزم من ذلك سوء ظنه بهم، لاحتمال أن يكون مراده أن الله تعالىٰ يحفظهم من الشماتة، لعلمه بعدم عصمتهم، فلما علم جواز وقوع ذلك منهم، سأل الله تعالىٰ أن يحفظهم من الوقوع في الشماتة، وليس فيه إثبات أنهم يشمتون به، فكان هذا الدعاء منه من باب الاحتياط لإخوانه من العلماء والصالحين من شدَّة محبته لهم، فأراد أن لا يقع أحد منهم في الشماتة كما يقع فيه الأعداء غالبًا، والأقران المزاحمون علىٰ انفرادهم بالرئاسة دون إخوانهم.

وقد قدَّمنا مرارًا أن الفقير يحتاج إلىٰ عدة عيون: **فعين** ينظر بها في مثل هذه المسألة إلىٰ عدم عصمة إخوانه من الشماتة، فيسأل الله لهم أن يحفظهم من الوقوع فيها، **وعين** ينظر بها إلىٰ كمالهم وحفظهم من مثل ذلك، فلا يحتاج أن يسأل الله تعالىٰ أن يحفظهم من الشماتة، **وعين** لا ينظر بها إلىٰ أي شيء من ذلك، بل يكون غافلًا عنه، كما عليه الفقراء الساذجون، **وعين** ينظر بها إلىٰ محبة الشماتة فيه، رياضةً لنفسه علىٰ تحمل ضرر الشماتة، فيكون مع الأعداء علىٰ نفسه، **وعين** يكره بها الشماتة بنفسه قيامًا بواجب حق نفسه من حيثُ إنها أَمَةُ الله جعلها عنده وديعة، وأمره بأن يذب عنها ويحفظها من كل شيء يدخل به عليها هم أو غم.

فعُلِمَ أنه ليس في قول هذا الشيخ: «ولا تشمت بي الأعداء» جزم بسوء الظن بهم، وإنما ذلك دعاء لهم بعدم وقوعهم في الشماتة. وعلىٰ ذلك يُحمَل ما جاء عن السيد هاورن عليه الصلاة والسلام[1]، فإن الأنبياء معصومون عن سوء الظن بأعدائهم جزمًا، وإنما ذلك من باب الاحتياط للأعداء، فإنهم يشمتون بعدوهم في العادة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ وعن جماعته الذين ضربوا من مدح شخصًا من أقران شيخهم في حضرتهم، وشمتوه وآذوه أشد الأذىٰ، ولم ينكر عليهم شيخهم ذلك، فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر لا يجوز فعله بإجماع المسلمين، إنما بلغنا مثل ذلك عن الروافض إذا سمعوا أحدًا يذكر أبا بكر الصديق ﷺ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ وجماعته حتىٰ يفحص عما يترتب علىٰ ذلك، فقد يكون مدح ذلك الشيخ مما يزلزل اعتقاد جماعة ذلك الشيخ الذي مُدِح غيره في حضرته، ويبطل نفعهم منه، فأدىٰ اجتهاد هذا الشيخ وجماعته إلىٰ ردع ذلك المادح، ورأوا جواز ضربه إن لم يترك ذلك المدح، ولا ينبغي لأحد الإنكار علىٰ من يفعل شيئًا باجتهاد إذا رأىٰ المصلحة فيه أعظم من تركه، كما كان عمر ﷺ يضرب بالدِّرَّة كلَّ من رآه خرج عن حد الاستقامة باجتهاده إذا لم يرد في ذلك شيء، فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ جماعة الشيخ في ضربهم من يزلزل اعتقادهم في شيخهم، ولا علىٰ الشيخ في تقريرهم علىٰ ضرب ذلك المادح.

ثم إنه ما كان ينبغي لذلك المادح أن يمدح شيخًا في مجلس شيخ آخر إلا بعد الامتحان، فاللوم عليه هو الذي ذكر شيخًا بحضرة من يكرهه ويسبُّه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وقال العلماء: لا يجوز ذكر أبي بكر الصديق بخير بحضرة الروافض لئلا يسبوا الصديق ﷺ، ويكون إثم ذلك علىٰ من ذكر، كما سيأتي بسطه في باب ذكر من آذاني وضرب من مدحني

---

(١) وقد تقدم الجواب عن ذلك في الجواب رقم (٤٣).

بمكة فراجعه[1]، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي اعتزل عن أهل عصره حتىٰ ترك ابتداء السلام عليهم إذا قدموا من سفر مثلًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا غاية الكبر، ولا يخفىٰ ما فيه من مخالفة السنة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لاحتمال أن يكون من أهل الاجتهاد، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن ترك السلام علىٰ هؤلاء هو أحسن لدينه، لما يتطرق إليه السلام والموادة لأهل الشر من السوء وذكر الناس بالغيبة والنميمة كما هو مشاهد. ومن شك في قولي هذا فليجالس من شاء من الأقران ويضبط عليه المجلس، فإنه لا يكاد يسلم من ذكر أحد من أقرانه بسوء أبدًا، وإن سلم من ذلك، فلا يسلم من تزكية نفسه [بغير][2] غرض صحيح، فيكون جليسه شريكه في الإثم.

فإن قال قائل: إن الأولىٰ بهذا المعتزل أن ينظر في الناس، فكل من رآه يتطرق إليه من السلام عليه شرٌّ، ترك السلام عليه، وكل من رآه لا يحصل له منه إلا الخير، سلَّم عليه؛ **قلنا**: هذا أمر لا يكاد يتخلص للعبد معرفته، فربما أخطأ ظنُّ العبد فيه، فسدَّ هذا المعتزل الباب باجتهاده، ورأىٰ أنه أولىٰ به وبالناس، ثم يسامحهم في كلِّ ما يقعون فيه في حقه. والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وقع شخص من أقرانه في زلة أو شطح عن ظاهر الشريعة إلىٰ جانب الحقيقة، فلم يستر عليه، بل صار يجتمع بالفقهاء المتعصبين علىٰ أهل الطريق، ويسبُّه ويرميه بالزندقة، فلاث به الفقهاء وقالوا: هذه ليست من صفة القوم، إنما صفتهم العفو والصفح والستر، ولكن قد صار الفقراء في حكم العوام في هذا الزمان.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالشيخ الذي لم يستر ذلك الشاطح، لأنه ربما أدىٰ

---

(١) جواب (١٤٢٠).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

اجتهاده إلىٰ أن عدم ستره وكثرة الإنكار عليه أولىٰ من مسامحته، خوفًا أن يثبت عنه ذلك الشطح، ويتبعه المريدون عليه، فرأىٰ أن تجريح شخص واحد وتوبيخه بين الناس أخف مفسدة من انتشار تلك البدعة في الطريق، مع شدة محبته لذلك الشاطح، وعدم كراهته له، علىٰ خلاف ما يتوهمه غالب الناس، كما تقدم بسطه في الباب الخامس فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقطع في عرض أقرانه في غيبتهم، وإذا اجتمع بأحد منهم قام له وعظَّمه ومدحه غاية المدح، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا من جملة النفاق، ولو أنه قصد بذلك الخير، لكان نصحه ووبخه فيما بينه وبينه، ومدحه بين الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون ممن غلب عليه الحياء الطبيعيُّ، أو غلب عليه شهود حقارة نفسه ونقصها وكثرة مخالفاتها عند الاجتماع بأقرانه، وخف ذلك الأمر عنه إذا غابوا، فأراد أن الناس يبلغونهم ذلك الطعن الذي سمعوه من هذا الشيخ، حتىٰ لا يخليهم من النصح. ثم إن كلامنا إنما هو فيمن كان متحققًا وقوع ذلك الشخص فيما نصحه لأجله، أما من لم يتحقق ذلك فلا يؤمر بنصحٍ بحكم الإشاعة، كما تقدم بيانه في هذا الكتاب مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧١) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا حضر في زَفة[1] ختان، ولاث به الفقراء وقالوا: هذا لا ينبغي لعالم ولا شيخ فقراء لما فيه من الازدراء للعلماء والصالحين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالعالم أو شيخ الزاوية إذا دُعي إلىٰ زفة ختان وحضر، لاحتمال أن يكون في مقام هضم النفس والتواضع بحيثُ لا يرىٰ نفسه متميزة عن آحاد العوام الذين حضروا تلك [الزفة][2].

ويُحتمَل أيضًا أن يكون غائبًا عن الخلق جملةً، وإنما هو حاضر بقلبه مع الله تعالىٰ لا

---

(١) الزَّفة: الموكب.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

علم له بتلك الزفة، كما عليه طائفة من العلماء والفقراء، كالشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي والشيخ عبد العال الجعفري.

ويُحتمَل أن يكون حاضرًا مع الخلق من أهل الزفة وغيرهم، ولكن أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن مراعاة خاطر أهل الزفة أرجح عند الله تعالىٰ من مراعاة ناموس العلم والمشيخة، وربما اتهم نفسه في مراعاة ناموس العلم والمشيخة، أو فتشها فرآها مراعية حظَّ نفسها لا حظ ناموس العلم، بقطع النظر عن مراعاة ازدراء الناس لها حين تحضر الزفة، فحضر الزفة مخالفةً لهوىٰ نفسه، فليفتش العالم أو الفقير نفسه إذا دُعِي إلىٰ زفة وقال في نفسه: هذا دعاني إلىٰ ما يزري بالفقير، فلا أجيبه حمايةً للخرقة، لاحتمال أن يكون امتناعه من ذلك لحظ نفسه لا حمايةً للخرقة.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ إذا دعاه أحد إلىٰ حضور زفة، يأتىٰ إلىٰ صاحب الزفة ويكشف رأسه له ويقول: أنا أقل يا أخي من أن أُدعَىٰ إلىٰ مثل ذلك، لدناءة أخلاقي، ورثاثة ثيابي. فيحقر نفسه عند الحضور، فلكل فقير مشهد، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم إذا دعي إلىٰ وليمة فأجاب، فقالوا له: إن عدوك فلان هناك، وربما رآك فقام وخرج وقال بحضرة الناس: والله لا أحضر مع هذا في مجلس! فقال: هذا لا يصدني عنه، وإن حضرتُ إن شاء الله قبَّلتُ رجله بحضرة الناس، وجعلتُها منقبةً له. فلاث به بعض الفقراء وقالوا له: لولا بقية رعونة عندك من رعونات نفسك، ما جعلتَ تقبيل رجل عدوك منقبةً له وتعظيمًا، وإنما كنتَ تجعل ذلك من جملة حقِّه عليك، كما يقبِّل المريد رجل شيخه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل قوله: إن تقبيله رجل عدوه منقبة لعدوه، لاحتمال أن يريد أن ذلك منقبة عند الناس لا عنده هو، فهو غافل عن شهود مقام نفسه جملةً، فلا يرىٰ مثل ذلك تعزيزًا لنفسه ولا منقبةً لعدوه عند نفسه، وإنما ذلك عند الناس، ومعلوم أن الله تعالىٰ لا يؤاخذ النفس إلا بما قصدت مما تضمنه اللفظ،

فالفقير إذا قبَّل رجل عدوه بحضرة الناس في المحافل، يرىٰ ذلك وقع من أهله في محله، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ إلا إن كنتُم أعلم منهم بالشريعة والحقيقة ودسائس النفوس، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دُعي إلىٰ وليمة، فقالوا له: إن عدوك فلان هناك؛ فرجع عن الحضور، فلاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه أن يحضر إجابةً للدعوة، عملًا بامتثال أمر الشارع. وأما كون ذلك الجاهل يتكدر أو يخرج فلا عليه منه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا حمله علىٰ أنه ترك الحضور خوفًا علىٰ ناموسه إذا رآه ذلك العدو وخرج مثلًا، بل ينبغي حمله علىٰ أنه مجتهد في ذلك، وأن اجتهاده أداه إلىٰ أن عدم حضوره أولىٰ، خوفًا علىٰ دين عدوه أن ينقص بوقوعه فيما يؤذي أخاه المسلم، حتىٰ إن الشيخ لو رجع وقال: «أخاف أن يقوم عدوي ويخرج عند دخولي، فيكون ذلك تعزيزًا لي» حملناه علىٰ أنه تعزيز له عند الناس لا عنده هو، كما مرت الإشارة إليه في الجواب قبله، فكان تركه للحضور إنما هو خوف علىٰ نقص دين عدوه من حيثُ قصدُه هو، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي صحب شخصًا من العلماء [فعُزِل العالم من وظائفه][1] فصار الناس يسلمون عليه ويعزونه كالمصاب بولد يعز عليه، فلم يذهب إليه هذا الشيخ ولا سلَّم عليه، فأخذ في نفسه علىٰ ذلك، ولاث به أصحاب العالم وقالوا: ما بقيٰ في هذا الزمان أحد تنفع صحبته!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال [أنه][2] ما ترك السلام علىٰ العالم إلا لاعتقاده فيه الكمال، وأن مثله يفرح لإخراج وظائفه عنه، ويحب التجرد من الدنيا وعلائقها، كما هو الغالب علىٰ العلماء، فيقول أحدهم: يا فرح الفقير الفلاني يأكل

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.



كما يأكل، ويلبس كما يلبس، ولا يُطالَب بحضور في وظيفة، ولا يحتاج إلىٰ تردد أحد من الولاة ولا غيرهم.

فإن قلتَ: فما الجواب عن تأثر هذا العالم ممن لم يسلِّم عليه ولا سلَّاه؟ **فالجواب**: أن العالم في مقام الاجتهاد في حقِّ أعمال نفسه وأقواله، فربما كان إخراج وظيفته التي يَكْفِه معلومُها عن سؤال الناس أرجح عنده من موت ولده، فتأثر خوفًا من حاجته إلىٰ الناس وإلىٰ من يسأله فلا يعطيه، ومن يشمت به، ومن يضحك عليه، فلا اعتراض علىٰ مثل هذا في تأثره بإخراج وظيفته مثلًا، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين مع جهلك بمشاهدهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٥) ومما أجبتُ به عن قول القاضي عياض: «وشذ الشافعي ﷺ فقال بوجوب الصلاة علىٰ النبي ﷺ في التشهد الأخير من الصلاة» وقد أنكر بعضهم علىٰ القاضي عياض هذه اللفظة وقالوا: إن في هذا الكلام قلة احترام لرسول الله ﷺ، وللإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي، وإنكارًا علىٰ المجتهد، وذلك لا يليق، إذ اللائق بمقامه ﷺ وما جاء به إلينا من الهدىٰ والبيان أن تكون صلاتنا عليه ﷺ واجبة في عموم الحالات، فضلًا عن تخصيصها بالصلاة فقط؛ فالجواب: أنه يجب حمل قول القاضي عياض علىٰ أنه قصد بذلك تعظيم رسول الله ﷺ وتعظيم الإمام الشافعي قطعًا، أي إن العلماء كلَّهم قالوا بالاستحباب فقط، وذلك ترخيص وتخفيف، ولا يخفىٰ ما في ذلك من قلة التعظيم اللائق بجنابه ﷺ، بخلاف الإمام الشافعي، فإنه خالف العلماء وقال بوجوب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ، وفاءً ببعض حقِّه علىٰ الأمة، وذلك أن من قال بالاستحباب راعىٰ حال ضعفاء الأمة، ومن قال بالوجوب راعىٰ حال أقوياء الأمة، فمن الأئمة المخفف عن ضعفاء الأمة ومنهم المشدِد.

وليس مراد القاضي عياض بقوله: «وشذ الإمام الشافعي» الشذوذ الذي هو ضد الصحيح في اصطلاح العلماء من الضعف، فيكون فيه قلة احترام لجناب رسول الله

ﷺ وتضعيف لكلام الشافعي، حاشا القاضي عياض من ذلك حاشاه! وكيف تظن بالقاضي عياض مثل ذلك وكتابه «الشفا» كله موضوع لتعظيم رسول الله ﷺ وبيان وجوب الوفاء بحقه؟!

وإيضاح ما قلناه أن الصلاة ذات الركوع والسجود في الأصل موضوعةٌ لمناجاة الله عزَّ وجلَّ والخضوع له وحده دون ذكر غيره من العباد، ولكن لما كان رسول الله ﷺ هو الحبيب الأعظم للحقِّ جلَّ وعلا، وأمرنا بذكره معه تعالىٰ كلما ذُكِر، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، ساغ للعلماء أن يأمروا الأمة بالصلاة عليه ﷺ في تلك الحضرة الشريفة، إما علىٰ سبيل الوجوب لمن يقدر علىٰ الجمع بين الاشتغال بالله تعالىٰ وبغيره في آن واحد، وإما علىٰ سبيل الاستحباب لمن لم يقدر علىٰ مثل ذلك، لأنه ﷺ هو الواسطة العظمىٰ بين الله تعالىٰ وبين عباده، فكانت الصلاة عليه وفاءً ببعض ما وجب له علينا من الحقوق.

ويؤيد ذلك ما ورد في الصحيح أن رسول الله ﷺ نادىٰ أُبي بن كعب[1] في الصلاة، فلم يجبه، فقال له النبي ﷺ: «أما سمعتَ قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]»[2]، فلو أن إجابة رسول الله ﷺ كانت تقدح في كمال الصلاة ما عتب رسول الله ﷺ كعب بن مالك علىٰ ذلك، بل كان يحمده علىٰ ذلك، إيثارًا لجناب الحقِّ جلَّ وعلا علىٰ جنابه.

ثم إن كل من تأمل وجد الناس في هذه المسألة قسمين: **قسم عظمت هيبة الله تعالىٰ**

---

(١) الحديث في الصحيح عن أبي سعيد بن المعلىٰ، وليس أُبي بن كعب.

(٢) الحديث عند البخاري (٤٧٠٣) عن أبي سعيد بن المعلىٰ قال: «مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتىٰ صليت ثم أتيت. فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: كنت أصلي. فقال: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد، فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكرته. فقال: الحمد لله رب العالمين. هيَ السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته» وأبو داود (١٤٥٨).

في قلبه، فذهل عن ذكر ما سواه؛ وقسم أعطاه الله تعالىٰ مع تلك الهيبة القوة مع الإقبال علىٰ مناجاته ومناجاة غيره، من غير أن يشتغل بأحد المشهدين عن الآخر، ولم يذهل عن شهود ربه بإقباله علىٰ الصلاة علىٰ نبيه ﷺ، بل أقبل عليه وفاءً بحقِّه، لكونه كان سببًا في هدايته وتعليمه أحكام الصلاة وغيرها، فلولا وجوده ﷺ وتعليمه للأمة شروط الصلاة وآدابها، ما اهتدىٰ أحد لها، ولا صحَّت له صلاة، ولا كان الحق تعالىٰ أذن له في الوقوف بين يديه أبدًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: ما دام المريد لم يبلغ مقام الكمال، فأشق ما عليه الاشتغال بمن أمره الله تعالىٰ بالإقبال عليه حال صلاته وذكره مثلًا، ثم إذا حصل له مقام الكمال، ذهبت تلك المشقة، وصار يجد الروح والراحة في الاشتغال بكل من أمره الحق تعالىٰ بمراعاته من الخلق.

وقد وقع للشبلي أنه أذَّن في حال بدايته فلما وصل إلىٰ قوله: «وأشهد أن محمدًا رسول الله» وقف وقال: وعزتك وجلالك لولا أمرتني بذكر غيرك ما ذكرتُه ولا تجرأتُ علىٰ ذكره. ثم لما بلغ مقام الكمال النسبي اللائق به، كان يقول: لا ينبغي لأحد أن يذكر الله تعالىٰ إلا ويذكر معه حبيبه ﷺ بأبي هو وأمي، لأنه لا يصح لأحد معرفة بالله تعالىٰ إلا وهو ﷺ واسطة له في ذلك، حتىٰ القطب الغوث لا يصح له أن يطأ في وجوه المعارف أمرًا لم ير قدم نبيه ﷺ أمامه فيه أبدًا، ولا يصح لأحد أن يعرف من صفات الحق تعالىٰ إلا ما عرَّفه له محمد ﷺ، ومن كان كذلك وجب علىٰ كلِّ مسلم أن يسأل الله تعالىٰ أن يصلي عليه ﷺ، مكافأةً له علىٰ بعض حقِّه عليه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من قال باستحباب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ فهو في حق أهل البدايات في مقامات الطريق؛ ومن قال بوجوبها فهو في حق النهايات، فلا تناقض. وعلىٰ ذلك حملوا قول أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه: «من شهد الحق تعالىٰ لم يرَ الخلق، ومن شهد الخلق لم يرَ الحق» وقوله: «من شهد الحق تعالىٰ أُمِرَ بشهود الخلق. ومن شهد الخلق أُمِرَ بشهود الحق» فإن الأول في حق أهل البدايات،

والثاني في حق أهل النهايات، إذ من الواجب على الكمَّل شهود الخلق مع الحق تعالىٰ وراثةً محمديةً، فإنه ﷺ كان مكلَّفًا بإقباله علىٰ الخلق حال إقباله علىٰ الحق، لا يحجبه أحد المشهدين عن الآخر، كما ذكره الجلال السيوطي رحمه الله أواخر كتابه «الخصائص».

ويصح أيضًا حمل القول بوجوب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ [علىٰ][1] حال الضعفاء، وحمل الاستحباب علىٰ حال الأقوياء، لأن الضعيف لولا شدد عليه بوجوب الصلاة علىٰ رسول الله، ما قدر علىٰ ذكره مع الله تعالىٰ حال مناجاته، لعظيم ما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله التي لا يقدر علىٰ تحملها.

واعلم يا أخي أن الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ جاءت مطلقة في الكتاب والسنة غير مقيدة بحال دون آخر، فاختار الإمام الشافعي أن يكون في تشهد الصلاة، لكن في الأول علىٰ وجه الاستحباب، وفي الثاني علىٰ سبيل الوجوب، ولعل العلة في ذلك كون العبد يكون في التشهد الآخر في غاية الهيبة والتعظيم، بخلافه في الأول، فإن من خصائص تجليات الحق تعالىٰ أنها كلما طال وقتها، ازدادت الهيبة في القلوب، عكس الحال في ملوك الدنيا، فلو أن الشافعيَّ أوجب الصلاة في التشهد الأول، لكلَّف العامة شططًا، فكان في إيجابها في التشهد الآخر رحمةً بالضعفاء، وكانت صلاتنا علىٰ رسول الله في حضرة الله تعالىٰ كالشكر له ﷺ من حيثُ إنه لولا تعليمه لنا الأدب، ما كان الحقُّ تعالىٰ أهلنا للوقوف بين يديه.

ومما يؤيد مشروعية ذكر رسول الله ﷺ في الصلاة قول سيدي عليٍّ الخواص رحمه الله: من جملة رحمة الله تعالىٰ بالضعفاء من أمثالنا خطور الأكوان علىٰ قلوبهم في الصلاة، ولولا ذلك لماتوا من شدة هيبة الله عزَّ وجلَّ. أما الأنبياء وكُمَّل ورثتهم فإنما قدروا علىٰ الإقبال علىٰ الله وحده من غير خطور شيء من الأكوان علىٰ قلوبهم، لما أعطاه لهم من القوة والعصمة. ومن هنا تعلم يا أخي أن شهود رسول الله ﷺ في الصلاة من جملة رحمة الله تعالىٰ بالأمة، لما في ذلك من الاستئناس به ﷺ في حضرة الله الخاصة. انتهىٰ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وكان سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول: وجوب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ خاص بمن لا يشتغل عن الله بذكر غيره، وعدم وجوبها خاص بمن يشتغل بها عن الله عزَّ وجلَّ. ويصح أن يكون الأمر بالعكس أيضًا كما مرت الإشارة إليه آنفًا، فاعلم ذلك، واحمل الأئمة علىٰ المحامل الحسنة، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ أحد منهم، فإنهم بنوا قواعد مذاهبهم علىٰ أصول صحيحة، والحمد لله رب العالمين[1].

(١٠٧٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكثر من مجالسة الولاة كالوالي والكاشف وشيخ العرب ونحوهم ويرىٰ أحدهم يأخذ البلص ويضرب الناس بغير حق وهو ساكت، فلاث الناس به وقالوا: هذا الشيخ قليل الدين لم يشم من طريق القوم رائحة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من أرباب الأحوال، فيصير يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ أن يكف ذلك الظالم عن ظلمه، وأن يصبر ذلك المظلوم علىٰ ما نزل به، أو أن الله تعالىٰ يحلم علىٰ هذا الظالم أو لا يعاجله بالعقوبة، أو يطلعه علىٰ البريء وعلىٰ غير البريء، كما كان الشيخ داود بن باخلا شيخ سيدي محمد وفا يفعل، فكان يجلس تجاه نائب إسكندرية علىٰ كرسيٍّ، فإذا دخل الشخص المطلوب فإن رآه بريئًا مسك الشيخ لحية نفسه ورفعها إلىٰ خارج؛ وإن رآه سرق مثلًا مسك لحيته ودفعها إلىٰ داخل، فيعلم نائب إسكندرية البريء من غيره، فيفعل بكلٍّ مقتضاه.

وربما كان الشيخ الجالس عند الوالي مثلًا يقول للجلَّاد إذا ضرب أحدًا: اضرب قويّ؛ وهو قابض بالقلب علىٰ يده، سترًا لحاله بين الحاضرين، حتىٰ لا يعرف أحد حاله. ويكون علىٰ علم الإخوان أنه ما ثم وليٌّ لله تعالىٰ إلا وهو متخلق بالرحمة علىٰ جميع العالم أكثر من والدتهم، فكيف يصح حمل أحد منهم علىٰ أنه يحب الأذىٰ لأحد بغير طريق شرعي؟! ولم يزل في بيت بني بغداد[2] وغيرهم شخص من أرباب الأحوال

---

(١) وتقدم جواب آخر عن قول عياض، فانظره (١٧٧).

(٢) بيت أمراء معروف في ذلك االعصر، وقد ذكرهم الإمام في هذا الكتاب مرارًا.

من أهل التستر لا يعرف غالب الناس حاله، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحفظوا قلوبكم وألسنتكم في حقِّ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٧) ومما أجبتُ به عن العلماء الذين فرَّق عليهم أحد من الولاة مالًا فقبلوه، فلاث بهم العامة وقالوا: هؤلاء يأكلون الحرام.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالعلماء بسبب أخذهم المال من الولاة، ولا ينبغي الحكم علىٰ مالهم بأنه حرام إلا بعد الفحص الشديد، بشرط أن يكون الفاحص يعلم قواعد الشريعة. ثم إنه لا يلزم من أخذ العالم المال المذكور أن يكون يأكله أو يلبس منه من غير طريق شرعي، إنما يجب حمله علىٰ أنه لا يصرفه إلا فيما أذن الله له أن يصرفه فيه.

ثم إن وقع أن بعضهم تورَّع ولم يقبل المال، سألنا الله تعالىٰ له أن يحفظه من فتنة ذلك، فإنه لابد أن الناس يرجحونه علىٰ من أخذ، ولا يخفىٰ ما في ذلك من الفتنة والشهرة بالورع، فالأولىٰ موافقة الفقير للناس في الأخذ إن لم يكن له أتباع يقتدون به، كما هو شأن الأفراد من الأولياء، وإلا فإن كان له أتباع فالأدب له الرد كما رد ﷺ جبال تهامة حين عرضها عليه جبريل أن يجعلها الله له ذهبًا وفضة تسير معه حيث سار[1]، فإنه ﷺ إنما ردها رحمةً بالضعفاء من أمته، فيأخذ أحدهم الدنيا ولا يعرف يخرج من فتنتها، وإلا فاعتقادنا في رسول الله ﷺ أن مال الدنيا كلِّها والآخرة بما فيهما لو كان بيده

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٩٣٧) من حديث ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ ذات يوم، وجبريل ﷺ علىٰ الصفا، فقال له رسول الله ﷺ: يا جبريل، والذي بعثك بالحق ما أمسىٰ لآل محمدٍ سفةٌ من دقيقٍ، ولا كفٌ من سويقٍ. فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدَّةً من السماء أفزعته، فقال رسول الله ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا، ولكن أمر الله إسرافيل، فنزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل، فقال: إن الله سمع ما ذكرت، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن يعرضن عليك إن أحببت أن أُسَيِّرَ معك جبال تهامة زمردًا، وياقوتًا، وذهبًا، وفضةً فعلت، فإن شئت نبيًا ملكًا، وإن شئت نبيًا عبدًا؟ فأومأ إليه جبريل أن تواضع، فقال: بل نبيًا عبدًا، ثلاثًا» والبيهقي في «الزهد الكبير» (٤٤٧) وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨٢٥٢) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه سعدان بن الوليد، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

لم يشغله ذلك عن ربه طرفة عين لعصمته.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحفظوا ألسنتكم في حق العلماء والصالحين، فربما حضر أحدهم تفرقة صدقات الولاة وأخذها سترًا لحاله، حتىٰ لا يتميز عن إخوانه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه سامح الخلق كلهم من جهة وقوعهم في عرضه، ثم نراه يجيب عن نفسه ويزجر من نقصه في المجالس، وينظر إليه نظر الغضب، فلاث به الحذاق من الناس وقالوا له: هذا الحال ينافي دعواك مسامحة الخلق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه إنما يزجر من ذكره بسوء من حيثُ تعديه حدود الله، بقطع النظر عن كون الحق في ذلك للخلق، لأنه لا فرق في وجوب الزجر لمن تعدىٰ حدود الله بين أن يكون ذلك من حيثُ الزاجرُ أو غيرُه، لأنه منكر في الجهتين.

ويُحتمَل أنه إنما زجر المنقِص له من حيثُ إنه أي الزاجر عبد الله تعالىٰ من باب التجريد، فغار علىٰ عبد ربه أن ينتهك أحد حرمته، أدبًا مع الله، بقطع النظر عن تخصيص ذلك به، كما تقدم بسطه في هذه الأجوبة مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٩) ومما أجبتُ به عن العالم الذي سأله أحد من إخوانه أن يعرف بينه وبين الأمير الذي يعتقده، فأجابه وقال: اذهب معي إليه، لأمهد لك طريقًا عنده، حتىٰ تكون عنده معظَّمًا مكرَّمًا، لا يحجبك عنه إذا أتيت إليه في وقت من الأوقات. ثم إنه لما ذهب معه إلىٰ ذلك الأمير سأله الأمير عنه، فقال: أيش حرفة هذا؟ فسكت ولم يجبه بشيء، فخجل أخوه من ذلك، ولاث به جماعة ذلك الأخ وقالوا له: حيث كنتَ عازمًا علىٰ السكوت إذا سُئلتَ عنه، كنتَ عرفتَه بذلك حتىٰ لا يذهب معك، ويحصل هذا الخجل العظيم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه رأىٰ بُعْدَ أخيه عن ذلك

الأمير وعدم معرفته به أكمل له في دينه، فاحتاط له بالسكوت، وإنما [لم][1] يجب الأمير بشيء ولم يعرفه به رحمةً بأخيه، لأنه إن عظَّمه في عين الأمير، أقبل عليه الأمير وأكرمه، وربما أهدىٰ إليه شيئًا، فمال ذلك الأخ إليه فهلك، لأنه ربما كان يقع في الظلم والجور، فتمسه النار كما قال الله تعالىٰ[2]، وخاف إن حقَّر أخاه عنده ولم يبين له مقامه أن يتكدر أخوه، فكان السكوت أولىٰ له.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي لهذا الأخ ولا جماعته أن يقعوا في عرض هذا الشيخ بسبب عدم تعريف ذلك الأمير مقامه، بل الواجب عليهم أن يشكروا فضله، حيثُ احتاط له، وحماه من الركون إلىٰ الذين ظلموا.

فإن قيل: إن بعض العلماء كالشيخ ناصر الدين الطبلاوي رحمه الله كان كثيرًا ما يدخل علىٰ الأمراء وقضاة العساكر بأحد طلبته، فيكبر به عنده، حتىٰ يجعل نفسه كأنه هو التلميذ، وذلك الطالب هو الشيخ -ووقع لي معه ذلك لما طلعتُ معه للباشاه إسكندر بمصر- فهلا كان هذا الشيخ فعل مثل ذلك؟ وسأل الله تعالىٰ لصاحبه عدم الركون إلىٰ ذلك الأمير. قلنا: مثل الشيخ ناصر الدين رجلٌ متمكنٌ في العلم والعمل، فلا يُقاس عليه، لأن الله تعالىٰ أقدَّره علىٰ [حماية نفسه وحماية أخيه، فلو أن هذا الشيخ قدر علىٰ][3] مثل ذلك، وتركه لكان عليه اللوم، لكن لما عجز عنه تركنا لومه والعتب عليه.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واشكروا فضل من نفَّر الأمراء وأبناء الدنيا عن الميل إليكم، خوفًا أن يشغلوكم عن عبادة ربكم بالميل إليهم بغير طريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أي في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

(٣) ساقط من «ب».

(١٠٨٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي استأذن عليه فقير ليدخل فمنعه، وقال له أصحابه: إن الشيخ لا يخرج اليوم لأحد، لأنه في جمعية قلبه مع ربه؛ فذهب الفقير ولبس له ثياب شخص من جماعة الباشاه كالجاويش، وجاء يستأذن وراطن[1] لهم، فأخبروا بذلك الشيخ، فخرج يهرول حافيًا وقال: نحن أقل من أن يذكرنا مولانا الباشاه علىٰ باله! وأقبل علىٰ ذلك الفقير كلَّ الإقبال لأجل ثيابه، فلاث الناس به، وقال له الفقير: يا بطال! الذي أتاك ولم تأذن له هو أنا، ولكن عرفتُ أنك يا أخي نصَّاب لستَ بصادق في طريق الفقراء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير، لاحتمال أن يكون ظن في الفقير أنه صاحب خلق حسن لا يتأثر بعدم الإذن له، ولا يقع في عِرْض الشيخ بسبب ذلك، أو ألقىٰ الله في سرِّ الشيخ أن ذلك الفقير ليس له حاجة، وإنما هو سلام فقط، أو أن نيته غير صالحة في الزيارة كما هو الغالب.

وأما جماعة الباشاة فلا يعرفون عذر الفقراء، ولا يحملونهم علىٰ المحامل الحسنة، وربما كان في الخروج لهم حافيًا مهرولًا يميل خاطرهم، ليصيروا يقبلون شفاعة الشيخ في مظلوم من رعيتهم، بخلاف ذلك الفقير. ولا يجوز حمل الشيخ علىٰ أنه عظَّم أهل الدنيا علىٰ الفقراء بغير طريق شرعيّ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل علىٰ بعض العلماء، فذكر بعض أقرانهم بسوء عندهم، فلاث به الحاضرون وقالوا: إذا كان العلماء صاروا يستغيبون بعضهم بعضًا، فما بقي أحدنا يلام كل ذلك اللوم إذا ذكر أخاه بسوء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ إذا دخل علىٰ أحد وذكر له أقرانه بسوء، بل يجب التربص وانتحال الأجوبة عنه، لاحتمال أن يكون إنما ذكر لذلك الشخص أقرانه بسوء صورةً فقط، من باب طرح العالم المسائل علىٰ إخوانه ليختبر أفهامهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: محل تحريم امتحان الناس إنما هو إذا كان

---

(١) راطن فلانًا: خاطبه بالأعجمية.

بغير غرض شرعي، أما من يمتحن أخاه ليخرجه من شبهة، أو لينظر حاله معه هل هو يكرهه ويحط فيه علىٰ عادة الأقران، ليأمره بالتوبة من ذلك، أم هو يحبه ليزيد في التأليف بينه وبينه في المحبة، كما هو شأن الأولياء الأكابر الذين يحتاطون لدين إخوانهم، فلا تحريم.

ولا يجوز حمل هذا الشيخ علىٰ الغيبة المحرَّمة لمن ذكره بسوء، لأن مقام الأشياخ يجل عن مثل ذلك، وكان علىٰ هذا القدم الشيخ ناصر الدين النحاس[1] نفعنا الله ببركاته. فاعلم ذلك يا أخي، واعمل به إن شئتَ بقصد تخليص أخيك من العداوة والبغضاء، لا بقصد التشفي من عرضه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨٢) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي يتاجر في الزيت الحار والجبن والسمن ونحو ذلك، ويشتري ذلك بالألف دينار وأكثر، ويحجر علىٰ الفلاحين أن لا يبيعوا جبنًا ولا سمنًا إلا له فقط دون الزياتين والجبَّانين عادةً، فلاث به العلماء وغيرهم وقالوا: تجارة الأمير خسارة، وتحجيره علىٰ الفلاحين أن لا يبيعوا إلا له تحجير علىٰ الناس، وذلك مخالف للشريعة.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الأمير، لاحتمال أن يكون فعل ذلك باجتهاد، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن يأكل من كسبه لا من مال السلطان، وأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن تجارته وأخذه السمن والزيت والجبن وبيعه للناس أرخص من أخذ الزياتين وبيعهم علىٰ العامة، لأن العادة أن الزيات يحسب ما يأخذه منه المحتسب والرسل والقصاد من جملة الثمن، فيأخذ من الناس الفلوس الزائدة علىٰ الثمن عادة، فإن الخبَّاز شريك المحتسب، بخلاف ما يأخذه الباشاه ويبيعه، فإن المحتسب وجماعته لا يقدرون أن يأخذوا منه درهمًا.

فإن قيل: في ضمن تجارة الباشاه التضييق علىٰ الناس؛ **فالجواب**: أن التضييق لم

---

(١) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ ناصر الدين النحاس. كان صانعًا عند الشيخ أبي النجا النحاس، يأكل من عمل يده، ومهما فضل عن نفقته، تصدق به. صحبته نحو خمس عشرة سنة حتىٰ مات. ووقع لنا معه عدة كرامات، فتركنا ذكرها لكونه كان يكره الشهرة. توفي: ٩٤٥هـ ودُفن عند سيدي علي الخواص خارج باب الفتوح، والله أعلم. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٤٧٥) طبعة دار الإحسان.

يكن مقصودًا بالذات، ولا يؤاخذ العبد إلا بما قصد، ويؤيده أن لازم المذهب ليس بمذهب على الراجح، فاعلم ذلك، واعرف زمانك، واحفظ لسانك في حق ولاة الأمور، فإنه لا قدرة لك على تحمل أوزارهم إذا أطلقتَ لسانك في حقِّهم بلا طريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يحسن بكسوة أو طعام إلى أحد من فقراء الزاوية إلا إن كان ذلك الفقير جازمًا بالإقامة عنده بقصد العبادة والخير، وإن عرف أنه عازم على الخروج من زاويته إلى مكان آخر، أو كان على غير نعت الاستقامة، لم يطعمه ولم يَكْسُه، فلاث به الحذَّاق من أهل العلم وقالوا: من أطعم لله وكسا لله لا يحتاج إلى شرط. وقد بلغنا أن مجوسيًّا استضاف إبراهيم الخليل ليلة، فقال له إبراهيم: أسلم وأنا أطعمك. فأوحى الله له: «يا إبراهيم، أنا أطعمه وأكسوه من حين كان طفلًا إلى أن شابت لحيته، يستضيف عندك ليلة واحدة، فتشرط عليه الخروج عن دينه» كهيئة العتاب لإبراهيم، قال المنكر: فلو كان هذا الشيخ محسنًا، لأحسن إلى كل برٍّ وفاجر.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض على هذا الشيخ، لاحتمال أن يريد بالشرط فتح باب محبة ملازمته، حتى يربيه ويعلمه الأدب وأحكام دينه، فتكون تلك الكسوة أو ذلك الإطعام كالمعين له على ما يطلبه من الخير، بخلاف من يكون عازمًا على مفارقة الشيخ للأمور الدنيوية، كقراءة القرآن بالفلوس في موضع آخر، أو على عمل خرقة، فإن للشيخ حرمانه[1] وإعطاء الكسوة والطعام لمن هو مقيم عنده قاطع للعلائق.

ويُحتمَل أن تلك الكسوة والطعام جاء على يد الشيخ من أصحابه، وعيَّنوا له صرفه إلى القاطنين عنده دون غيرهم. ويُحتمَل غير ذلك كما أوضحناه في كتاب «الأخلاق». فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض على شيخك إلا بطريق شرعيٍّ واضح كالشمس ليس دونها سحاب ولا حجاب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: جريانه. والصواب ما أثبتناه.

(١٠٨٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يجعل له مرقعة، ويضربها بالخياطة إلىٰ أن تصير زنتها نحو أربعين رطلًا، ومعلوم أن من شأن الفقير قصر الأمل، حتىٰ إنه يستبعد أنه يعيش حتىٰ يقطع الثوب الخَلِق السالم من التلبيد وطرح الرقاع بعضها فوق بعض، فضلًا عن الثوب الذي لا تلبيد فيه.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ من عمل له مرقعة، ولا حمله علىٰ أنه طويل الأمل إلىٰ الحدِّ الذي نهاه الشارع عنه، وإنما يجب حمله علىٰ الأغراض الصحيحة، كأن كان عنده شراميط[1] من ثياب الصالحين الذين أدركهم أو لم يدركهم، فأحب التبرك بها، فلبَّد بعضها علىٰ بعض، فكان الغرض من تلبيدها حصول دوام التبرك بها، لا طول مكثها عليه لغير غرض صحيح.

ويُحتمَل أنه جمعها من ثيابه هو التي كانت من وجه حلٍّ حين بليت وما بقيت تصلح للبس إلا بالترقيع والتطبيق لتخرقها وتقطيعها، فأراد أن يجعلها مرقعة ليطول مكثها عليه كذلك، وقد كانت مرقعة السيد إبراهيم بن أدهم زنتها ستين رطلًا، وربما دعا نفسه إلىٰ التطهر من الماء البارد في ليالي الشتاء فأبت، فينزل الماء بتلك المرقعة ويحلف أنه لا ينزعها حتىٰ تجف علىٰ جسمه، فربما بقيت عليه نحو الشهر حتىٰ تجف، وكذلك كانت مرقعة الشيخ أبي يزيد البسطامي، ومعلوم أن هؤلاء الأشياخ من كبار العارفين الذين ليس عندهم طول أمل، حتىٰ إن أبا يزيد قدَّم مرةً شخصًا للإمامة فأبىٰ، فألح عليه، فقال: بشرط أن لا أصلي بكم صلاة أخرىٰ. فأخره الشيخ أبو يزيد وقال: لا يصلح إذن أن تكون إمامًا بالناس حيثُ كان أملك يمتد إلىٰ وقت صلاة أخرىٰ من [غير موت! فانظر يا أخي كيف لم يصلِ خلف من ظن أنه يعيش إلىٰ وقت صلاة أخرىٰ][2]، فلولا أن مقام الشيخ أبي يزيد قصر الأمل ما أخَّر ذلك الإمام. وقد كان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ [يدمن لبس المرقعة شتاءً وصيفًا، وكانت من آثار الأولياء من المجاذيب والصحاة،

---

(١) شراميط: جمع «شرموطة»، وهي تعني الثوب البالي الممزق.

(٢) ساقط من «ب».

و][1] يقول: إن لبس المرقَّع من أخلاق الأنبياء والأولياء والملائكة. انتهىٰ.

ثم إن مرقعات الفقراء تارة تكون ملفقةً من لون واحد أبيض أو أسود، وتارةً من ألوان شتىٰ من أبيض وأسود وأخضر وأحمر، بحسب آثار الأولياء الذين كانوا يلبسونها حال حياتهم مثلًا، فكان تلوينها اتفاقًا للفقراء لا مقصودًا.

فاعلم ذلك، وإياك والإعراض عمَّن لبس مرقَّعة من الشراميط، مع أن عمامته من أرفع القماش وتقول: لا يليق بمن يلبس المرقعة إلا أن تكون عمامته شراميط، ليشاكل بعضه بعضًا؛ فقد تكون عمامته من وجه حلال، أو أراد الاقتداء بالسلف في الثياب دون العمامة أو عكسه، لاسيما في مثل يوم الجمعة، وعليك بحسن الظن بالمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعاه شخص من إخوانه إلىٰ طعامه، فسمع بذلك أمير من المحبين للشيخ، فحضر عند ذلك الشخص بعد أن تكلف وعمل ألوانًا من الطعام، ثم أرسل الشخص وراء الشيخ قاصدًا بعد قاصد، فلم يحضر، فصار الأمير وجماعة الشيخ الذين سبقوه في غاية الحصر، فبلغ ذلك بعض الناس، فاعترض علىٰ الشيخ وقال: هذا لا ينبغي من الشيخ، لأن فيه خلف الوعد، وفيه إدخال غم علىٰ صاحب الطعام وعلىٰ ذلك الأمير وعلىٰ الفقراء الذين حضروا، وجبر الخواطر مطلوب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لعدم حضوره، فإن الفقراء أهل اجتهاد، فربما بدا لهم بعد الإجابة أمر يرجِّح عدم الحضور علىٰ الحضور مما فيه مصلحة لهم أو للأمير أو لصاحب الطعام.

وقد دعاني مرة أخي سيدي أبو الفضل مباشر وقف السلطان قايتباي مرةً إلىٰ طعام عمله وتكلَّف فيه، فسمع بذلك الأمير حسين بن بغداد، فحضر إلىٰ عنده محبةً فيَّ، وصار ينتظرني من الظهر إلىٰ قريب المغرب، فنظرتُ فإذا في حضوري أنا والأمير خطور العجب

(١) ساقط من «ب».

علىٰ صاحب الطعام، لعزة حضوري الولائم وحدي، فضلًا عن حضوري مع أمير.

وكذلك وقع لي مع شخص من الأكابر، فأجبتُه إلىٰ الحضور، ثم نظرتُ فإذا في حضوري عنده مفاسد، منها عملي علىٰ غرضه الفاسد عندي، **فإن من المعلوم أن غرض غالب الأصحاب التي هي عندهم صحيحة ربما تكون عند الفقراء غير صحيحة**، فيتعود أحدهم علىٰ طلب أن الفقير يعمل علىٰ غرضه هو لا يخالفه، فأردتُ بعدم الحضور أن يتعودوا علىٰ عدم التحجير عليَّ، لكوني محجورًا عليَّ في فتح باب العمل علىٰ أغراض أصحابي، لاسيما والأمير حسن كان في بداية الصحبة، فأردتُ برجوعي امتحانه قبل الدخول في صحبته لي وتمكنه فيها، ليدخل في صحبتي من غير مطالبتي بالعمل علىٰ أغراضه الدنيوية.

وقد تقدم في هذه الأجوبة[1] **أن أكل طعام المعتقدين مكروه، لربطهم عقيدتهم فيه علىٰ وصف الصلاح، بخلاف طعام المحبين فإنه لا يُكرَه.**

[الفرق بين المحبِّ والمعتقد]

والفرق بين المحب والمعتقد أن المحب هو الذي يحبُّك كمحبة الوالدة لولدها، فلا تكاد تنفر بقلبها عنه إذا رأته علىٰ معصية، بل تقول: خزاك الله يا إبليس! لعب علىٰ عقل ابني وأوقعه في كذا وكذا. وأما المعتقد فما أطعم فقيرًا طعامًا وتكلَّف له إلا لاعتقاده أنه صالح، ولو رآه علىٰ معصية لفر منه.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: إن لم يكن الفقير كما ظنَّ المعتقد، فليس للفقير أن يأكل له طعامًا، بل بعضهم كره أن يأكل من طعام المدعين للمحبة التي هي فوق مقام الاعتقاد، خوفًا أن لا يكون صحت لصاحبهم المحبة الصادقة، فإنها عزيزة الوجود، فربما لا يوجد في الألف شخص واحد من الصادقين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الجواب (٢٩٥).

(١٠٨٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الورع الزاهد المشهور في مثل مصر بالدين والخير والاعتقاد العظيم إذا أرسل له الولاة من الروم وظيفة تدريس كانت لأحد من أشياخه أو لأحد من أقرانه من غير سؤال منه في ذلك. ثم لما وصلت إليه تذكرتُها أو مرسومُها، مال إليها بباطنه، أو أظهر الميل إليها بظاهره، فلاث به القوم الذين كانوا يعتقدونه أو يعتقدون شيخه الذي مات وقالوا: انظروا إلىٰ هذا الذي كان يظهر الزهد في الدنيا والتورع! كيف فرح بالدنيا؟! لاسيما إن كان لذلك الشيخ الذي مات ولد يستحق أن يدرِّس في تلك الوظيفة، فإن الإنكار يشتد عليه، ويقول الناس: كان الواجب عليه أن يردها لولد شيخه، أو يقاسمه في معلومها، أو يعطي له معلومها كاملًا، ولكن قد نفضنا أيدينا من جميع الناس في هذا الزمان.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا العالم الذي أخذ وظيفة شيخه أو صاحبه وأحرم ولده منها أو من معلومها أو بعضه، لاحتمال أن يكون كُشِفَ له عن انقضاء تلك المدة التي جعلها الله تعالىٰ لولد شيخه بعد موت والده، فقبلها علىٰ نور وبصيرة من الله تعالىٰ، غافلًا عن النظر إلىٰ ما فيها من المعلوم، كما يفعل ذلك أصحاب الكشف، فإن أحدهم إذا أعطاه الله تعالىٰ شيئًا يستحيي أن يرده علىٰ حضرته مطلقًا، أو لأحد من أقرانه، لما في ذلك من إظهار الغنىٰ عن فضل الله تعالىٰ، كأنه يقول: «يا رب أعطها لمن هو محتاج إلىٰ فضلك وصدقتك» ولا يخفىٰ ما في ذلك من سوء الأدب.

ويُحتمَل أنه إنما أخذ تلك الوظيفة بعد أن أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أنه أولىٰ بها من ولد شيخه، لاسيما إن كان وافقها شرطها لأعلم الحنفية أو الشافعية مثلًا، وأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أنه أعلم من ولد شيخه أو غيره، فقصد بأخذها حماية ولد شيخه من أخذ ذلك المعلوم مع كونه مفضولًا في العلم؛ لأنه شبهة علىٰ كلِّ حال. وكان في ذلك أيضًا زيادة الأجر في [صحيفة][1] صاحب ذلك الوقف بالعمل بشرطه، فلا ينبغي اللوث بالعالم الذي يُحتمَل أن يكون هذا قصده بأخذه الوظيفة، لأنه ربما كان غافلًا عن محبة معلوم تلك

---

(١) زيادة من عندنا لاستقامة السياق.

الوظيفة جملةً واحدة، واللوم لا يكون إلا علىٰ من عُلِمَ منه أنه أخذ تلك الوظيفة محبةً في معلومها لا إحياءً للشريعة، ولا حمايةً لولد شيخه عن الأكل مما غيره أحق به منه.

ويُحتمَل أنه قصد بأخذ تلك الوظيفة سترة نفسه بين أقرانه الذين يزاحمون علىٰ الدينار، فأراد بأخذها عدم تميزه عنهم بالورع والزهد والعفة، لا غير ذلك من الأغراض النفسانية، فلذلك أظهر الفرح والسرور بتلك الوظيفة، وقلبه فارغ من محبة معلومها، أو من الرئاسة فيها. ثم بتقدير محبته لتلك الوظيفة للأغراض النفسانية، فيُحتمَل أنه يتوب عقب كلِّ درس ويعزم علىٰ نزوله عنها إلىٰ ولد شيخه أو غيره، هذا لا يبعد وقوعه من عالم طول عمره علىٰ قدم الورع والزهد.

وقد وقع لبعض إخواننا مثل هذه القضية في وظيفة تدريس الخشابية بجامع عمرو[1]، وهو الشيخ الصالح الورع الزاهد الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني شارح «المنهاج» و«التنبيه» وتفسير القرآن العظيم، فأرسل له الولاة مرسومًا بهذه الوظيفة الشريفة من حيثُ رئاستُها ومعلومُها بغير سؤال منه، فقبلها طلبًا لعدم التميز من بين أقرانه، لعلمه بأنه إذا ردها علىٰ السلطان أو أعطاها لولد شيخه أو معلومها، يتميز عن أقرانه، ويقدمونه عليهم ضرورة، فالله تعالىٰ يرضىٰ عنه، ويديم عليه الزهد والورع إلىٰ الممات، آمين، آمين، آمين.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والوقوع في أعراض العلماء إذا أظهروا للناس محبة الدنيا، فربما يكون قصدهم بذلك السترة بين العباد، ولا يجوز حملهم علىٰ ما يتبادر إلىٰ الأذهان من محبة الدنيا، فإن ذلك حرام، وليس لأحد أن يفتش[2] عن قلوب الناس ومقاصدهم في معاملاتهم لربهم.

وإياك يا أخي أن تعيِّر من وقع في أخذ وظائف إخوانه بطريق تخالف مقام الورع، فإن الله تعالىٰ ربما ابتلاك بمثل ذلك، وقل لنفسك: إذا كان خيار الناس جرىٰ عليه المقدَّر

---

(١) جامع سيدنا عمرو بن العاص ﷺ أول مسجد في مصر، ويقع بحي مصر القديمة.

(٢) بالأصلين: ينعت.

في هذا الزمان بمثل هذه القضية، فكيف بمثلك من شرار الناس؟! وقد كان الحسن البصري ﷺ يقول: قد عيَّرنا أقوامًا بوقوعهم في شيء من الرذائل، فابتلينا بأقبح من ذلك بعد ثلاثين سنة. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه أن يأخذوا هدية أو صدقة من أحد عليه دين ولو إلىٰ أجل، فلاث به بعض المجادلين وقالوا: هذا تنطع في الدين، ولم يبلغنا عن أحد من السلف الصالح أنه تورَّع عن مثل ذلك، بل المنقول عنهم الأخذ من غير تفتيش عن مثل ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأن ما فعله هو الورع، إذ الأولىٰ أو الواجب صرف تلك الهدية أو الصدقة لمن له عليه دين، ومن قبل من صاحب هذا الحال هدية أو صدقة فهو كالمعين له علىٰ تأخير الحق الذي عليه، فهذا إن أحسن إليه ظاهرًا، فقد أساء عليه باطنًا.

ومن هنا كنتُ أردُّ هدايا العمال والكشَّاف والملتزمين، وآمر الفقراء بعدم قبولها مصلحةً لدينهم، لأن الولاة وحاشيتهم لا يسلمون من تبعات الخلائق، وربما كان جميع ما في أيديهم مستحَقًا لأصحاب التبعات، كما قالوا في مانع الزكاة إنه يصير ظالمًا علىٰ الفقراء والمساكين بأكله مالهم الذي جعله الله تعالىٰ لهم في ماله. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.



الباب الثاني عشر

في جملة أخرى من الأجوبة عن عموم المسلمين

فأقول وبالله التوفيق:

(١٠٨٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يُكرَه الصلاة على رسول الله ﷺ وسؤال الله تعالىٰ حاجةً في أوقات النهي؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا أمر لم يبلغنا فيه شيء عن النبي ﷺ، و لو كان مكروهًا لبينه لنا ولو في حديث واحد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون قال ذلك باجتهاد، فأدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ قياس كراهة الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ علىٰ الصلاة ذات الركوع والسجود، بجامع أنها مناجاة لله تعالىٰ، وقد منع الشرع من مناجاة الله في أوقات النهي عن الصلاة المعروفة، فكذلك القول في مطلق المناجاة، كما إذا قال الملَك: لا أحد يسألني في حاجة في الوقت الفلاني؛ فمن الأدب اجتناب السؤال حتىٰ يمضي الوقت. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة للاعتراض إلا بعلم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكسي الناس الواردين عليه الجوخ والمُضَرَّبَات والأصواف النفيسة، ولا يفعل ذلك مع أصحابه القاطنين عنده في الزاوية، فلاثوا به وقالوا: نحن كنا أحق بما يعطيه الشيخ لهؤلاء الواردين، لمواظبتنا معه علىٰ قراءة الأوراد، وانقطاعنا عنده.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له غرض صحيح في ذلك، كأن يؤلِّف الناس الواردين عليه، ليمتثلوا أمره في النصح، ويخبروا من وراءهم بذلك، فتتحرك همتهم للاجتماع به وسماع نصحه كذلك، كما وقع لرسول الله ﷺ، حتىٰ أعطىٰ شخصًا مرةً قطيع غنم بين جبلين، فقال لأصحابه: «هلموا إلىٰ محمد، فإن

محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. فأتى الناس إلى رسول الله ﷺ أرسالًا أرسالًا[(١)].

وكذلك وقع من الأنصار أنهم قالوا: «يا رسول الله تعطي المهاجرين العطاء، وتدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: إنما أُعطِي أقوامًا لما جبلهم الله تعالى عليه من الهلع، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعله الله عندهم من القناعة»[(٢)]. ومعلوم أن **الأشياخ على أقدام الرسل في التخلق بما قدروا عليه من أخلاقهم**. فلا[بد] في قومهم ممن يعترض عليهم إما لحجاب المعترض، وإما تشريعًا للإخوان، ولا بد أن طائفة من قومهم يقولون: سمعنا وأطعنا، وطائفة يقولون: سمعنا وعصينا، وطائفة يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] ولا بد من طائفة يقولون: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] وهكذا في سائر ما نقل عن أتباع الرسل. فعُلِمَ أن الشيخ لولا علم من جماعته صحة الاعتقاد فيما يدعوهم إليه، ما تعداهم إلى الأباعد، ولكانوا أحق بالعطاء، لكنه كما علم قوة إيمانهم وَهَبَ[(٣)] لعداهم، لأنهم لا يحتاجون إلى تأليف إلى ذلك، بخلاف الأجانب الذين يَرِدُون عليه.

وأيضًا فإن جماعة الشيخ حكمهم حكم الضرائر في العادة، فإذا أعطى أحدًا منهم شيئًا، تناظر البقية إلى أن يسوي بينهم في العطاء، وذلك يعسر على الشيخ، وقد يكونون نحو مئة نفس، فلا يقدر على كسوتهم، لقلة ما يدخل يده من الحلال المناسب لمقامه،

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٣١٢) من حديث أنس، عن أبيه قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه. قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة»، وأحمد (١٣٧٣٠).

(٢)) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٩٢٣) من حديث عمرو بن تغلب: أن رسول الله ﷺ أتي بمالٍ - أو سبيٍ - فقسمه، فأعطى رجالًا وترك رجالًا، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال: أما بعد فوالله إني لأعطي الرجلَ، وأدع الرجلَ، والذي أدعُ أحبُ إلي من الذي أعطي، ولكن أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن تغلب. فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم» وأحمد (٢٠٦٧٣).

(٣) بالأصلين: وهيبتهم. والصواب ما أثبتناه.

أو لتجرده عن الدنيا غالبًا، فإذا كان الإنسان يعجز عن العدل بين امرأتين ولو حرص كلَّ الحرص، فكيف بمئة نفس مثلًا؟! فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك وقلبك من الاعتراض على الأشياخ، وإلا خيف عليك المقت والعطب، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٠) ومما أجبتُ به عن الحكيم المسلم الذي يلاطف المرضى ويقول لأحدهم: أيش يوجعك؟ أو تشكي من أيش؟ ولا يصف للمريض شيئًا من ذات نفسه، فلاث به الناس وقالوا له: أنت طبيب ضعيف الحال، ولو كنتَ حاذقًا، لعرفت المريض بالرؤية أو بحبس العرق، كما يعرفه الطبيب اليهودي فلان.

والجواب عن هذا الطبيب: أنه لا يلزم من سؤاله المريض عن حاله أن يكون جاهلًا بالمرض، فقد يكون عالمًا به أكثر من اليهودي الذي ذكروه، وإنما يسأل المريض زيادةً في المعرفة بالمرض، ليقع الدواء على مرض يقينيّ، وذلك لأن المريض يخبر عن ذوق، والطبيب يخبر عن علم، ولا شك أن الذوق أعلى من مجرد العلم، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه إذا دخلوا على مريض يقولون له: «كيف تجدك؟»[1] ولا شك أن رسول الله ﷺ كان أعظم الناس كشفًا بأحوال العالم كلِّه، ومع ذلك كان يسأل المريض عن حاله، تشريعًا للأطباء من أمته ﷺ.

وقد ذكر المحققون أن سلام الله تعالى على عبد أعلى من سلام العبد على نفسه، وأن سلام العبد على نفسه أعلى من سلام أحد من الخلق عليه من سائر الأمة، لأنه زكى نفسه عن ذوق وجده في نفسه، بخلاف من زكاه غيره، فإنه إنما زكاه لحسن ظنه به، وفي

---

(١) من ذلك ما أخرجه الترمذي (٩٨٣) عن أنس بن مالك ﵁ أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟»، قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف».وابن ماجه (٤٢٦١). وما أخرجه البخاري (٣٩٢٦) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وعك أبو بكر، وبلال، قالت: فدخلت عليهما، فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ ... الحديث.

الحديث: «ولا يزكي علىٰ الله أحدًا»[١]، فما فوق مقام الذوق إلا علم الله تعالىٰ ورسوله لعصمته، فافهم.

وفي سؤال الحكيم للمريض احتياطًا للمال الذي يُصرَف علىٰ العقاقير مثلًا، فربما كان المرض لا يحتاج في علم المريض إلىٰ جميع تلك العقاقير، فإذا أخبر المريض عن مرضه، فقد خرج الطبيب عن اللوم في شراء جميع تلك الأدوية.

فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق الناس، فإن الغيبة حرام. وقد وقع لسفيان الثوريِّ أنه دخل عليه طبيبان يهوديان في مرض موته، فوصف كلُّ واحد منهما له شيئًا، فقال سفيان: لولا أخشىٰ أن تكون غيبة لقلتُ: إن أحدهما أطبُّ من الآخر. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مثلًا، ثم يمسح بيديه علىٰ وجهه ورأسه وصدره، وما وصلت يده إليه من بدنه، فلاث به بعض الناس وقال: إنما ورد مثل ذلك في الدعاء[٢]، أو مع النفث في اليدين عند قراءة القرآن[٣]، وأما المسح من قراءة القرآن بلا نفث، فلم نر في ذلك دليلًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه لا فرق بين ما يأتي من الله تعالىٰ محسوسًا، وبين ما يأتي معنويًا، فمن كان يرىٰ المدد أو الثواب ينزل في يده كان محسوسًا له، ومن كان محجوبًا عن ذلك كان مسحه يكفيه إيمانًا، فإن جود الحق تعالىٰ فياض، فلا يرد علىٰ حضرته سؤال سائل إلا أعطاه سؤله إما في الحال، وإما بعد مدة طويلة أو قصيرة.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٠٦١) ومسلم (٣٠٠٠).

(٢) إشارة إلىٰ ما أخرجه الترمذي (٣٣٨٦) عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء، لم يحطهما حتىٰ يمسح بهما وجهه» وقال: حديث غريب، والحاكم (١٩٦٧).

(٣) إشارة إلىٰ ما أخرجه البخاري (٥٠١٧) عن عائشة ﵂: «أن النبي ﷺ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما علىٰ رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»، وأبو داود (٥٠٥٦).

فإن قال قائل: كلام الله تعالىٰ [لا] يخرج من لسان هذا القاريء، فكيف ساغ له التمسح والتبرك به، وليس هو بجسم ولا منفصل عن الحق، بل هو صفة قائمة بالذات؟!

فالجواب: أن كلام الله تعالىٰ له وجهان: وجه إلىٰ الحق تعالىٰ، وذلك لا يصح لأحد تعقله، ووجه إلىٰ الخلق، وهذا هو الذي يصح تعقله، ثم بعد تعقله ليس هو مخلوق، وإنما هو قديم يظهره الله تعالىٰ بعد خفائه عند النطق لا بالنطق، نظير ما قالوه في الشبع والري، فإن الله تعالىٰ يخلق الشبع عند الأكل والري عند الشرب مجردًا عن وجود الأكل والشرب، فعُلِمَ أن تبرك العبد إنما هو من وجه كون ذلك النطق مخلوقًا.

فإن قال قائل: وأي مانع من التبرك بما هو مخلوق أيضًا كما ورد في الوضوء أو الغسل من أول نظر يكون في السنة؛ **قلنا:** لا مانع عند من كان هذا مشهده أيضًا، لاسيما وإطلاق القرآن علىٰ ما ينطق به العبد إطلاق حقيقي. فافهم، وإياك يا أخي والاعتراض علىٰ من يمسح وجهه وجسده عند تلاوة القرآن، سواء أشهد المدد الذي نزل في يديه، أو كان ذلك إيمانًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اشتُهر بين الناس بأنه من أصحاب الخطوة، وأنه إذا شاء وصل إلىٰ مكة في خطوة واحدة، والحال أنه إذا سافر يأخذ له جملًا وزادًا وراحلة، ويمشي في الطريق مع الناس، فلاث به بعض المنكرين وقالوا: لو كان هذا صاحب خطوة، ما احتاج إلىٰ جمل ولا مشي.

والجواب: أنه لا يلزم من اتخاذ الجمل والمشي في الطريق أن لا يكون من أصحاب الخطوة، فقد يقدره الله علىٰ أن يكون في المشرق والمغرب في مقدار لمحة، ولكنه اتخذ الجمل ليحمل عليه أحدًا من العاجزين في الطريق، أو اتخذه معه احتياطًا لنفسه، لاحتمال أنه يُسلَب ذلك المقام في الطريق، فإن الحق تعالىٰ لا يُقيَّد عليه. ويُحتمَل أنه اتخذه ليحمل عليه الزاد لمن يراه محتاجًا إليه، أو ليُكتَب له أجر اتباع السنة المحمدية، فإنه ﷺ حجَّ راكبًا[1]،

---

(١) أخرج البخاري (١٥١٧) عن أنس ﷺ «أن رسول الله ﷺ حج علىٰ رحل وكانت زاملته»، وابن ماجه (٢٨٩٠).

وهو صاحب المقام الأعظم، وما ثم مقام لأحد من الأولياء إلا وهو موروث عنه.

وقد اجتمعتُ بجماعة من أصحاب هذا المقام، منهم الشيخ عمر البوصيري له مدة طويلة يحج علىٰ هذا الحال، مع أنه من أصحاب الخطوة، وربما رأىٰ أحدًا من أهل الركب تعب، فمشىٰ بجنبه وقوَّىٰ همته، وربما أعطاه الله النظر، فيمد أهل الركب ودوابهم بالقوة، ولو أنه حج بخطوة واحدة، لفاته جميع ما ذكرناه، والأولياء متبعون ما هم مبتدعون.

وقد استُفتِي بعضُ العلماء عن صاحب الخطوة إلىٰ مكة هل يلزمه الحج؟ فأجاب: لا يلزمه الحج إلا إن قدر علىٰ الزاد والراحلة، كما درج عليه السلف والخلف. انتهىٰ. والحقُّ أنه يجب عليه، ويُحمَل اشتراط وجود الزاد والراحلة علىٰ الغالب في الناس. والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير إذا بلغه أن أحدًا من الأمراء أو مشايخ العرب قدم من سفر، فخرج يتلقاه من نحو مرحلة، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا من الفقراء ما خرج له ولا تلقاه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ أو العالم إلا إذا علمنا نيته الفاسدة بالكشف، أو من طريق التواتر، وأنىٰ لأمثالنا ذلك؟! فما بقي إلا أننا أسأنا به الظن، وذلك حرام، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ المقلِّد للإمام الشافعي أو غيره [إذا][١] خالف مذهب إمامه احتياطًا لدينه حين رأىٰ مذهب غير إمامه أحوط، فلاث به أقرانه المقلِّدون لإمامه، وقالوا: في هذا الذي فعلتَه قدح في مقام ورع إمامك، فإنه كان من أورع الناس؛ وذلك كمخالفة المقلد للشافعي إمامه في التحرز عن رشاش ماء الوضوء أو الغسل لما ورد أن الخطايا تخر من الماء، أو مع آخر قطر الماء[٢].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٤٤) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء - أو مع

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمثل هذا الشيخ، فإنه ما فعل إلا الورع، وذلك لا تختلف فيه المذاهب، ولا يقدح في الإمام الشافعي ﷺ، بل لو عرض ذلك عليه في حال حياته لسكت عنه، وإنما كان يسوغ له الإنكار إذا أمر هذا المتحرز الناس بذلك على سبيل الوجوب، لما في ذلك من المشقة.

وقد تورَّع الإمام أحمد حتى كان لا يأكل من شيء إلا إن علم تداول عشرة من الأيدي عليه في الحلِّ، وإلا توقف عن أكله، ولم ينكر ذلك عليه أحد من أهل عصره، ولا قالوا له: هذا أمر ما بلغنا عن الشارع، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين، إنما كان أحدهم يدع تسعة أعشار الحلال خوفًا أن يقع في الحرام، وكان[1] أبا يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة يقول: لا ينبغي الوضوء بالماء الذي تخر فيه الخطايا ولو لم يظهر للعامة تقذره. انتهى.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: لا ينبغي للمتطهر أن يتطهر بالماء الذي لم يكن مستبحِرًا إذا اختلفت فيه أيدي المتطهرين، لا سيما إن كان المتطهر وقع في كبيرة أو كبائر ذلك اليوم من رياء وشرب خمر وعقوق والدين ووقوع في نميمة، أو عدة صغائر، فإن الخطايا إذا خرجت من يده ووقعت في الماء في أول غسلة مثلًا، يعيدها إلى بدنه في ثاني غسلة أو ثالث غسلة، أو يغسل بها ما بعد ذلك من الأعضاء، لاسيما ذنوب اللسان والفرج، فإن وقع أنه أسلم قريبًا، أو وقع في ذنب وتاب عقبه على الفور ولم يذنب بعد ذلك، كان التحرز عن رشاش طهارته أخفَّ من التحرز عن غُسَالة ما لم يتب منه. كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «هادي الحائرين إلى رسوم أخلاق العارفين». فعُلِمَ أنه لا ينبغي الاعتراض على المقلِّد للشافعي إذا تحرز عن رشاش ماء الطهارة كما يتحرز عن الماء المتنجس، والحمد لله رب العالمين.

آخر قطر الماء - فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء - فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقيًا من الذنوب» والترمذي (٢).

(١) بالأصلين: لأن. والصواب ما أثبتناه.

(١٠٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للناس: تعالوا خذوا عني الطريق، أدفع عنكم البلايا والمحن؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا كذب من الشيخ، كيف يصح منه دفع البلايا والمحن التي قدَّرها الله تعالىٰ علىٰ العبد باجتماعه علىٰ عبد لا يقدر علىٰ دفع البلايا عن نفسه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل هذا القول، لاحتمال أنه كُشِفَ له أن يكون كلُّ من اجتمع عليه وسمع إرشاده الذي يرشده إليه، دفع الله عنه الأمور المعلَّقة علىٰ ذلك الإرشاد. ولا يجوز حمله علىٰ أنه يريد أنه يدفع الأمور المبَرمة، فإن ذلك مما يُنزَّه مقام الشيخ عن الوقوع في مثله.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: الأولياء علىٰ أقدام الرسل عليهم الصلاة والسلام في إرشاد الناس إلىٰ طرق سعادتهم التي قسمها الله تعالىٰ لهم، وليس بيدهم إسعاد أحد ولا إشقاؤه، ووظيفتهم تعليم الناس الأدب في البلاء النازل عليهم، أو النعم التي تفضل الله بها عليهم، وذلك لتندفع عنهم النقم، وتدوم عليهم النعم، وهذا لأن الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ أطباء القلوب والأبدان، وقد حدوا علم الطب بأن حقيقته إدخال الصحة علىٰ المرضىٰ، ودوام الصحة علىٰ الأصحاء. انتهىٰ.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي إضافة الغنىٰ أو الفقر إلىٰ فقير إذا صحبه شخص غني فافتقر، أو فقير فاستغنىٰ، بل ذلك معدود من الشرك بالله تعالىٰ؛ فينبغي للشيخ إذا علم من إنسان أنه ما صحبه إلا ليكثر ماله أو لينال ولاية أن يدفعه عنه كلَّ الدفع؛ لأنه يتعب قلبه، وإن أبىٰ حلف له بالله تعالىٰ أنه ليس بيده حَلٌّ ولا ربط مع الله تعالىٰ، لكن ربما اختار الفقير لأصحابه التقلل من الدنيا، فدعا لهم بذلك، فاستجاب الله تعالىٰ دعاءه، اقتداءً بالأنبياء والأصفياء، فظنَّ الناس أن ذلك بشؤم صحبة الشيخ، كما يقع فيه غالب المحجوبين، وهو ظن كاذب، **فإن أحدًا لا يقدر يجلب لأحد ذرة من الرزق زيادةً علىٰ ما قُسِمَ، ولا يدفع عنه ذرةً كذلك مما قسمه الله له وقدَّره عليه.**

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إذا طلب أمير من فقير أن يوليه ولاية لم

تقسم له، فلا ينبغي أن يوصله إلىٰ فقير آخر، خوفًا أن لا تُقسَم تلك الولاية له، فيقول: لو أني استندتُ إلىٰ فلان، لكان ولاني، فإن في ذلك إضافة النقص إلىٰ أخيه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان ووحدوا ربكم في الأفعال والأقوال، فإنه هو الخالق لها، والعبد محل لظهورها من جسده لا غير، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: الدنيا عنوان الآخرة، فمن أعطاه الله تعالىٰ الرزق الواسع في الدنيا، أعطاه كذلك في الآخرة، لظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]؛ فلاث به فقيه وقال: هذا خلاف ما عليه جماهير السلف والخلف من أن كل من وسع الله عليه في الدنيا، نقص مقامه الكريم في الآخرة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد بالتوسع في الدنيا مقام القناعة من حيثُ إنها كنز لا ينفد كما ورد في الحديث[1]، وصاحب هذا المقام لا يستبعد أن يكون المراد به أيضًا أهل الدنيا الذين قاموا بالقسط في أموالهم، وأنفقوا منها وتصدقوا.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من أولياء الله تعالىٰ من اختار التقلل من الدنيا والآخرة، واكتفىٰ بمشاهدة الحق تعالىٰ في نفسه، فكان أكبر الناس نعيمًا من حيثُ المشاهدةُ، ولا يرىٰ له مُلْكًا مع ربه في الآخرة كما كان في الدنيا، فلا يقدح في كماله عدم نسبة شيء من قصور الجنة وبساتينها إليه، ولو قدر أنها نُسبَت إليه، لتبرأ منها إلىٰ ربه، ولم ينسبها إلىٰ نفسه إلا بقدر ما يتحقق بنسبة العطاء إليه لا غير، لأجل الشكر عليها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمن يريد صحبته: لا أصحبك إلا إن طلقتَ زوجتَك التي تحبُّها، أو أسقطتَ حقَّك من وظيفتك الفلانية، أو تصدقتَ بثيابك النفيسة، ثم ظهرت أمارات السرور بذلك علىٰ وجهك؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا أمر

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (١٠٤) من حديث جابر ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: القناعة كنز لا يفنىٰ» والطبراني في «الأوسط» (٦٩٢٢) بنحوه. قال العجلوني في «كشف الخفاء» (١٩٠٠): قال الذهبي: وإسناده واهٍ.

لم يفعله الشارع مع أصحابه، ولا أحد من السلف الصالح، وهو باب في قطع الطريق علىٰ الطالبين.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ بمجرد هذا القول، لاحتمال أنه يريد بذلك امتحانه في معرفة صدقه في طلب الطريق إلىٰ معرفة الله عزَّ وجلَّ، فالصادق يحصل له السرور بكل شيء يقرِّبه إلىٰ حضرة ربه، والكاذب تظهر أمارات الكذب علىٰ وجهه بالتعبيس والكآبة، فإذا امتحنه كذلك فإما أن يستبشر الشيخ بفلاح ذلك المريد، وإما أن ينفض يده من التعب فيه، فليس قصد الشيخ بذلك القول تحقيق القول من المريد، بل لو قصد ذلك فلا حرج عليه، كما خرج ابن أدهم من ماله وملكه اختيارًا من ذات نفسه حين أراد طريق أهل الله وعلم أن ذلك يعوِّقه عن الله عزَّ وجلَّ.

فإن قال قائل: إن رسول الله ﷺ لم يمتحن أصحابه بمثل ذلك؛ **فالجواب:** بل وقع منه الامتحان لهم مرارًا، فقال لأبي بكر يومًا: «ما أصبح عند آل محمد اليوم قوت، فذهب وأتىٰ بماله كله، فقال له: ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟ فقال: الله ورسوله. وقال لعمر بن الخطاب مثل ما قال لأبي بكر، فذهب وأتىٰ بشطر ماله، فقال له: ما أبقيت لأهلك يا عمر؟ قال: شطر مالي يا رسول الله. قال: بينكما ما بين كلمتيكما. قال عمر: فما ظننتُ بعد ذلك أني ألحق بأبي بكر»[1]. وأما امتحانه ﷺ في العمل فكثير، **ولم يزل الامتحان للعلماء والصالحين مع تلامذتهم، ليعرفوا مقامهم في الترقي في العلم**. وبتقدير أنه ﷺ لم يأمرهم بالخروج من الدنيا باللفظ، فقد كان يسحبهم إلىٰ ذلك بالحال أو التعريض، **فإن كلَّ داعٍ إلىٰ الله تعالىٰ يحبُّ الكمال لجميع أصحابه.**

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما أخرج أبو داود (١٦٧٨) عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. قال: وأتىٰ أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلىٰ شيءٍ أبدًا» والترمذي (٣٦٧٥) والحاكم (١٥١٠).

وقد كان سيدي أبو الحسن الشاذلي يقول: نحن لا نأمر المريد بالخروج من الدنيا مع شدة التفاته إليها، وإنما نشغله بالذكر والعبادة علىٰ وجه الإخلاص حتىٰ يستنير قلبه، فإذا استنار ورأىٰ ما عند الله عزَّ وجلَّ للزاهدين في الدنيا، كان هو الخارج بنفسه من ذلك الخسيس إلىٰ ذلك النفيس. ومثال ذلك مثال من قال لهم رئيس السفينة: غدًا تثور ريح شديدة، وكلُّ من لا يرمي متاعه غرق، فلا يجيبه أحد في الحال، فإذا جاء الوقت وشاهدوا الغرق، كانوا هم المبادرين إلىٰ رمي أمتعتهم لنجاة نفوسهم، ولو أن شخصًا قال لأحدهم: لا ترم متاعك، واغرق أنت؛ لا يجيبه، بل يستخف عقله، فكذلك المريد إذا هبت عليه رياح السعادة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ شيخك إذا امتحنك، فإنه إنما يريد أن يجعلك جليس الحقِّ جلَّ وعلا، وقد عجز الأشياخ أن يسيروا بمريد ومعه علائق كثيرة من الدنيا، فلم يقدروا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ المشهور بين الناس بصحة الكشف، ثم إنه خرج لزيارة بعض إخوانه في داره فلم يجده، فلاث به بعض الناس وقالوا: لو كان هذا من أهل الكشف حقيقةً، لكان عرف هل صاحبه في الدار فيذهب إليه أم ليس فيها، فكان يريح نفسه من التعب.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون قصد بذلك الستر بين الناس، ليسلم من آفات الكشف، فإن الولاة إذا سمعوا شخصًا صحيح الكشف ترددوا إليه، وسألوه عن الأمور المستقبلة، كطلوع النيل في هذه السنة مثل التي قبلها أو دونه، ومن يتولىٰ ومن يُعزَل في هذه السنة، وهل في بطن هذه المرأة ذكر أم أنثىٰ ونحو ذلك.

وربما كان مطمح بصره ألواح المحو والإثبات، فرأىٰ فيها أنه لا يخرج من بيته في هذه الساعة، ثم مُحيَ ذلك وكُتِبَ فيها أنه يخرج، فخرج علىٰ حكم الرؤية الأولىٰ، ثم غفل عن الرؤية في الألواح ثانيًا.

ويُحتمَل أن يكون مطمح بصره اللوح المحفوظ، وأن أخاه خرج من داره في ذلك الوقت، وأنه لا يرجع في ذلك الوقت، ولكنه قصد بخروجه إليه التودد إليه، وإزالة ما لعله يخطر له من عدم الاعتناء به، وانقطاعه عن زيارته استهانة بجنابه، فإذا جاء أخوه وأخبروه بأن فلانًا جاء لزيارتك ولم يجدك، خف عنه ما كان يجده من ظنه الجفاء له. وقد ذكرنا مرارًا أن **الكُمَّلَ لا كشف عندهم، بل هم كآحاد الناس في ذلك.**

وقد بلغني عن بعض فقراء العصر أنه طلع في سفره إلىٰ الريف إلىٰ بلد، فلم يلتفت أحد إليه، فقال له رفيقه: كاشف لنا عن اسم هذا الصبي. [فقال][1]: قل له: قل لأمك تغدينا يا أحمد. فقال: يا عم أنا اسمي عائشة! فخجل غاية الخجل، وكان هذا الشيخ معدودًا من كمَّل المشايخ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أضرَّ به الفقر، فسافر إلىٰ الروم يطلب له جوالي أو مرتبًا من مال السلطان، فلاث به شيخ آخر له في مصر جوالي[2] ورِزَق وأوقاف، وقال: هذا لا يليق بالفقراء! إنما شأنهم الإقبال علىٰ عبادة ربهم حتىٰ تخدمهم الدنيا. فقال له المسافر: لو ذقتَ ضيق حالي لعذرتني في السفر وفي سؤال الناس في بلدي؛ فلاث به جماعة الشيخ القاطن وقالوا له: استحي! الشيخ إنما قال لك ذلك نصحًا لك. فقال: إن كان يحبني يشركني معه في الرِّزَق[3] التي معه وأنا أترك السفر.

والجواب عن الشيخ المسافر والقاطن: أنه ينبغي حمل كلٍّ واحد منهما علىٰ محمل حسن، فأما المسافر فلا لوم عليه في السعي فيما يستره بين الناس، ويكفه عن السؤال. وأما القاطن فيُحمَل علىٰ أنه قصد بذلك القول حمايةَ الخرقة عن اللوث بأحد من أهلها[4] إذا

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الجوالي: جمع جالية، وهو المال الذي كان يُؤخذ من أهل الذمة «الجزية». وهي من أحل الأموال، ولذلك جُعلت للعلماء والصالحين.

(٣) جمع رِزقة، وقد تقدم بيان معناها.

(٤) بالأصلين: خلقها.

رأوه يسافر في طلب الدنيا، وهو عاذره في الباطن، وحامل همه، ويود له كل خير. وأما عدم إشراكه معه في الرِّزَق التي في يده، فلا يلزم أن يكون ذلك بخلًا من الشيخ القاطن، فيُحتمَل أن يكون كُشِفَ له أنه لا رزق لذلك المسافر فيه. ويُحتمَل أنه قصد بعدم إجابته إلىٰ ما سأل اختباره في الصبر علىٰ ضيق المعيشة، ليعلِّمه طريق الوصول إلىٰ الصبر أو الرضا ونحو ذلك. فعُلِمَ أنه لا ينبغي أن يُقال للشيخ القاطن المثل السائر: «ما عند أهل الجنة خير من أهل النار». ومن قواعد الشريعة أن إنكار المنكر لا يتوقف علىٰ سلامة المنكِر من ذلك، بل يجب عليه الإنكار علىٰ نفسه وعلىٰ غيره، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يترك حضور مجلس الذكر مع المريدين، ويقول: أنا بحمد الله قد انكشف حجابي، والذكر لا يكون إلا لمحجوب عن مقام الشهود، فإن المدلول إذا شهده العبد، استغنىٰ عن الدليل؛ فلاث به شيخ آخر وقال: الحجاب لا يصح رفعه عن العبد إلا إن أحاط علمًا بالحق، وذلك لا يصح لأحد، وما قاله بعضهم من أنه تعالىٰ إذا حيطهم به أحاطوا لا ينافي ما قلناه، لأن معنىٰ تحيطهم به تعالىٰ أن يعلمهم أنه لا يصح لأحد الإحاطة به من كل وجه، كما لا يصح الجهل به من كلِّ وجه؛ فلاث بكلِّ شيخ جماعة الآخر ونصروا قول شيخهم.

والجواب عن الشيخين: أن الشيخ الأول من قوة شهوده بقلبه للحقِّ تعالىٰ، ظنَّ أن الحجاب ارتفع بالكلية، فقال ما قال. وأما الشيخ الثاني فمعه التحقيق، فلذلك تكلم كلُّ شيخ بمقامه، فلكلِّ قول من قوليهما وجه، ولكن الأولىٰ من الكامل إذا كان له أتباع أن يحضر معهم في الذكر، كما درج عليه الكُمَّل من الأولياء السابقين، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يهابه جماعته أن يجلس أحدهم إلىٰ جانبه أو يمر قريبًا منه وهو جالس، فلاث به الحذَّاق من أقرانه وقالوا: لو كان في نفسه متواضعًا كسيدي عبد العزيز الديريني وسيدي عبد الله المنوفي مثلًا، ما هابه أحدٌ ولا عظَّمه كلَّ

هذا التعظيم، ولكن قد صار الفقراء في هذا الزمان أصحاب تكبر وناموس كالأمراء، لقلة من يناقشهم من الصادقين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لمجرد ذلك، فقد يكون في نفسه في غاية التواضع، ولكن عظَّمه أصحابه من جهة هيبة ما هو عليه من التقوىٰ والعمل الصالح وشدة الخوف من الله تعالىٰ.

فإن قال قائل: لو كان في نفسه متواضعًا كما قلتم، لأجابته قلوب أصحابه بعدم الهيبة والتعظيم له، بحسب ما هو عليه من الذلِّ والتواضع، وقد وقع للفضيل بن عياض أنه دخل داره يومًا، فهرب منه الكلب وصعد الحائط خوفًا منه، فقال لنفسه: لو كنتِ متواضعةً كما تزعمين، ما خاف منك الكلب؛ **فالجواب:** يُقال لهذا المعترض: لا أحد من الخلق أكثر تواضعًا من رسول الله ﷺ، وقد دخلت عليه مرةً امرأةٌ، فأرعدت من هيبته، فقال لها: هوني عليك يا أمة الله، فإني إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[1]. انتهىٰ. فما بقي إلا أن تلك الهيبة والعظمة من جهة التقوىٰ والدين، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون جالسًا، فينزل عليه شيء في بدنه، فيصير كأن له شهر مريضًا، ويريد أن يقوم فلا يقدر، ويأتونه بالحكيم فيقول: ليس به مرض! ثم بطبيب آخر فيقول كذلك، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا نفاق يوهم به الناس أنه من أهل التحمل للبلاء عن الناس. وربما صدقه بعض المعتقدين علىٰ ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ لاحتمال صدقه، فإن الفقراء يقع لهم مثل ذلك كثيرًا، ويكون سببه إما تمهيدًا لعلوم تنزل علىٰ قلبه، أو لبلاء ينزل علىٰ الخلق يتحمله.

ويقع لي هذا الأمر كثيرًا، ثم إذا نزلت تلك العلوم علىٰ قلبي، أو زال البلاء الذي

---

(١)) تقدم تخريجه.

نزل على الناس، زال ذلك العارض عني لوقته. وكان على هذا القدم جماعة من السلف الصالح يمرضون لمرض الناس، وينكربون لكربهم، ويصير أحدهم يُعاد كما يُعاد المرضى، ثم في لمح البصر يذهب ذلك الأمر كأنه لم يكن بهم مرض. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي أنكر على من يزعم من الصوفية أن القرآن سقط منه كثير من الآيات حين جمعه الصحابة في المصحف الإمام، وقال: قد قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. فقال له الصوفي: صحيح ما قلتَ، ومن جملة حفظه عن الضياع اطلاعي على ما سقط منه، وتلاوتي له، وعملي به، فما حُفِظ إلا بي.

والجواب: أن كلام هذا الصوفي لا ينبغي سماعه، لمخالفته لما عليه جمهور السلف والخلف من الصحابة والتابعين[1]. كما لا ينبغي التسليم لمن يقول: أنا أنظر في اللوح المحفوظ [إذا خالف الشريعة][2]؛ لأننا لو سلمنا له ذلك، للزمنا التصديق له إذا قال: رأيتُ في اللوح المحفوظ كذا وكذا، مما يخالف ظاهر الكتاب والسنة. ثم بتقدير تسليم العلماء ذلك لمدعيه لأنه ممكن من باب خرق العوائد، لكن لا يجوز إشاعة تصديقه في الناس، لما يتطرق إلى الشريعة من الخلل بسبب ذلك، والحمد لله رب العالمين[3].

---

(١) وصف الجمهور هنا بمعنى إجماع العلماء، فقد وقع الإجماع على ذلك، ومنكره كافر. ولعل الإمام الشعراني ساق هذا الجواب للتنبيه على بعض الأقوال أو الأفعال لا يجوز تأويلها إذا خالفت القطعي مخالفة صحيحة، كقول هذا الصوفي، فهذا مما يجب تكذيبه ورده. وهذا ينبغي التنبه له جدًّا، فقد تلبَّس النفس على بعض الصوفية غير الكاملين، فيخالفون الشريعة، ويتأول لهم بعض السذج ويتابعونهم، فيخرجون من دائرة حسن الظن إلى الاعوجاج عن الصراط المستقيم. ومثل هذا الذي ينبغي أن يُنكَر إنكارًا بينًا تلفيق بعض المتمصوفة قراءةً جديدة للقرآن لفقها من العشر المتواترة، زاعمًا جواز ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ساق الإمام الشعراني هذا الجواب للتنبيه على بعض الأقوال أو الأفعال لا يجوز تأويلها إذا خالفت القطعي مخالفة صحيحة، كقول هذا الصوفي، فهذا مما يجب تكذيبه ورده. وهذا ينبغي التنبه له جدًّا، فقد تلبَّس النفس على بعض الصوفية غير الكاملين، فيخالفون الشريعة، ويتأول لهم بعض السذج ويتابعونهم، فيخرجون من

(١١٠٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي طلب من شيخ أشياء من العسل أو القمح، فقال له الشيخ: هات لك وعاءً، وتعالَ خذ ذلك فيه. فقال: إن كان لك غرض، فاحمله علىٰ مخّك وائتني به إلىٰ داري، والخيرة لك في ذلك؛ فلاث به جماعة الشيخ وقالوا: السائل لا يكون إلا متأدبًا! وهذا خروج عن سياج الأدب، فإن الحاجة لك لا للشيخ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا السائل، لاحتمال أن يكون في غاية الأدب مع الشيخ، وإنما أراد بتغليظه القول علىٰ الشيخ بحضرة جماعته أن يريهم ما هو عليه من محاسن الأخلاق، والصبر علىٰ سماع الكلام من جفاة الطبع، ليزدادوا اعتقادًا في شيخهم، ويقتدوا به في مثل ذلك، فليس ذلك من الفقير السائل امتحانًا للشيخ ولا سوء أدب معه. وقد سأل فقير الإمام زين العابدين بن الحسين بن أبي طالب شيئًا ينفقه في ذلك اليوم، فأخرج له بَدْرة[1] مملوءة فضة لا يستطيع الرجل يحملها إلا بمشقة، فقال: يا ابن رسول الله أعطني أجرة من يحملها. فقال: لم أدع عندي[2] شيئًا مما أخرجتُه لك. فقال: لابد! فأعطاه طيلسانه أجرة للحمّال، فقال السائل: أشهد أنك من أولاد رسول الله حقًّا. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقيِّد اللص إذا سرق شيئًا حيًّا أو ميتًا حتىٰ يأخذه الوالي ويفتضح بين الناس، فلاث به بعض الفقراء الصادقين وقالوا له: إن كان حيًّا يا سيدي الشيخ [فـ]ـالمؤمن أعظم حرمة من الدنيا وما فيها، والدنيا أحقر من الزبل في عيون الفقراء، [وإن كان ميتًا][3] فكيف تقيِّد من سرق لك نجاسة؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد تكون الدنيا كلُّها عنده لا تساوي

دائرة حسن الظن إلىٰ الاعوجاج عن الصراط المستقيم. ومثل هذا الذي ينبغي أن يُنكَر إنكارًا بينًا تلفيق بعض المتمصوفة قراءةً جديدة للقرآن لفقها من العشر المتواترة، زاعمًا جواز ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

(١) البَدْرة: كيس فيه مقدار من المال يُتعامل به، ويقدم في العطايا.

(٢) بالأصلين: عني. والصواب ما أثبتناه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

جناح بعوضة ، ولكنه غار للشرع الشريف أن ينتهك حرمتَه أحدٌ يتعدىٰ الحدود، أو كان قصد الشيخ بتقييده زجره في المستقبل عن سرقة مال الناس إذا مسكه الوالي وضربه وحبسه، من حيثُ إن ذلك أخف عليه من قطع يده.

وقد وقع لي أن شخصًا سرق من مقتاة البطيخ المتعلقة بي، فوجد البطيخ حيات، ومرة وجده محشوًّا دمًا موضع الماء، ومرة طلع له تمساح في البحر، فطرده حتىٰ رمىٰ البطيخ، ولم أعلم ذلك إلا بعد أن وقع وحكوه لي، فقد يكون هذا الشيخ ممن ينتصر الحقُّ تعالىٰ له في غيبته، لئلا تُنتهَك حرمتُه، وهو غافل عن جميع المقاصد، ومثل ذلك لا لوم عليه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يصلي قبل دخول الوقت في بلده، ويزعم أنه يسمع آذان العرش، وربما قال: أنا ما صليتُ إلا خلف إمام مكة؛ لكونه يسبق إمام مصر مثلًا بثلاث دَرَج مثلًا، فلاث به الفقهاء وقالوا ببطلان صلاته، وقالوا: الحكم للأرض الذي هو فيها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون ممن خرق الله له العوائد كما وقع لسيدي ياقوت العرشي وغيره. واجتمعتُ أنا بشخص خيَّاط من أهل هذا المقام، كان يجلس في شباك المدرسة الزمامية بخط البندقانيين بمصر، ونازعه بعض الناس يومًا، فأراه مؤذن العرش وإمام مكة، فمثل هذا يُسلَّم له حاله، ولكن ليس له أن يأمر أحدًا بالصلاة معه، ولو أنه أمر أحدًا بذلك لا يجوز له تصديقه، لأنه في دائرة، والخلق في دائرة، فكلٌّ واحد يعمل بحكم دائرته.

فإن قال قائل: هلا جعلتُم قول هذا الوليّ كالمخبر عن عيان وقبلتُم قوله؟ **فالجواب**: قد قلنا إنه في دائرة، والخلق في دائرة، لكن لو وقع في قلب أحد تصديقه، فهو محل نظر للعلماء، وأكثر من ذلك لا يُقال، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أصلي خلف أئمة السماء من

الملائكة في الصلوات الخمس، وربما قال: صليتُ اليوم الصبح أو العصر خلف إمام البيت المعمور[1]؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا أمر ما سمعناه عن أحد من الأولياء أبدًا!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون خرق الله تعالىٰ له العادة، فرأىٰ ملائكة السماء في السماء وهم يصلون، فاقتدىٰ بهم في الأرض كما يقتدي من هو بالمغرب بمن يصلي في بيت المقدس أو مكة.

فإن قال قائل: لم يبلغنا أن ملائكة السماء يصلون بإمام ومأموم في الصلوات الخمس ولا غيرها مما شرعت لنا فيه الجماعة، إنما ورد أن أحدهم علىٰ حالة واحدة من منذ خلقه الله تعالىٰ إلىٰ يوم القيامة[2]، فالساجد ساجد من منذ خلقه الله، والراكع راكع من منذ خلقه الله، والقائم قائم من منذ خلقه الله تعالىٰ وهكذا؛ **فالجواب: قد ثبت بين أهل الكشف والنقل أنه ﷺ أُرسِلَ إلىٰ الملائكة، لكن بالأمر فقط دون النهي؛** لأنهم لا يعرفون للمخالفة طعمًا، والرسول إنما يُرسَل بشيرًا ونذيرًا، فينذر من يقع في المخالفة بنزول العقاب عليه، ومن لا يعصي لا يحتاج إلىٰ نذير، فافهم. وثبت في الصحيح أنه ﷺ صلَّىٰ بالأنبياء ليلة المعراج في السماء إمامًا وصلت الملائكة خلفه[3]، وإذا ثبت هذا الأصل، فيُقاس الأمر في بقية الصلوات علىٰ الدوام. وهنا أسرار يعرفها أهل الله لا تُسطَر في كتاب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرج الطبراني (١٢١٨٥) من حديث ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: البيت المعمور في السماء يقال له الصراحُ، وهو علىٰ مثل بيت الحرام بحياله لو سقط لسقط عليه، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لم يرونه قط، وإن له في السماء حرمة قدر حرمة مكة قال: ويدخل البيت كل يوم سبعون ألف ملك لا يدخلونه أبدًا».

(٢)) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧٥١) من حديث جابر بن عبد الله قال: «قال رسول الله ﷺ: ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك راكع أو ملك ساجد، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنا لم نشرك بك شيئًا» وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١٤٠٣) والمرزوي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٥٩).

(٣)) ذكره أبو نعيم في دلائل النبوة (٥٤١)، قلت: الثابت كما في الصحيح أنه ﷺ أم الأنبياء في بيت المقدس ثم صعد إلىٰ السماوات. راجع صحيح مسلم (١٧٢).

(١١٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ربَّىٰ مريدًا وخرج عن طاعته، وعمل له جماعة مثل شيخه، وادعىٰ المشيخة وأنه فوق مقام شيخه، فصار الشيخ إذا دخل عليه جماعة من مريدي ذلك المريد يقول لهم: قولوا لسيدي الشيخ يدعو لنا؛ فلاث به بعض حذَّاق الفقراء وقالوا: هذا القول فيه هلاك لذلك المريد، ولا ينبغي لذلك الشيخ أن يكون سببًا في إهلاك مريده إذا خرج عن طاعته، لأنه يكون كمن ربىٰ غنمه حتىٰ صارت كبيرة، ثم تركها في البرية للذئب ورجع إلىٰ بلده، فذهب تعبه كلُّه في الباطل!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي صار يسأل الدعاء من ذلك المريد، لاحتمال أنه علم من طريق كشفه أنه يعود إلىٰ خدمته ويحصل له الفتح علىٰ يديه، فأراد تأليفه عليه بسؤاله الدعاء منه دون الكلام الجافي، لأنه ربما قابل الشيخ كذلك بالكلام الجافي، لأنه محجوب عن مقام الشيخ، فصار كالذين قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] فقصد الشيخ بذلك الرحمة بالمريد، لئلا يقع في حق الشيخ إذا كلمه الكلام الجافي، ويخجل منه إذا عاد إلىٰ صحبته، فلا ينبغي حمل الشيخ في ذلك علىٰ أن ذلك غش منه للمريد، بل هو حسن سياسة منه.

وقد كان أخي أفضل الدين يتلمذ لكلِّ من رأىٰ عنده نفسًا خبيثة، ويصير يقرأ عليه بعض رسائل القوم، ويسارقه بتعليمه الأدب شيئًا بعد شيء، ويقول: لو قلتُ له: تعالَ اقرأ عليَّ، لنفرت نفسه مني، ولم يسمع مني نصحًا. انتهىٰ. وقد عمل معي ذلك أول صحبتي له حين كنت متمشيخًا بنفسي وعملتُ لي مجلس ذكر وتلامذة، وكنتُ أغيب عنهم يوم عرفة، فلا يراني منهم أحد، فيقولون: إنه واقف بعرفات! وكان نصبي يمشي عليهم، فأنقذني الله تعالىٰ من ذلك ببركة أخي المذكور، فعرَّفني عيوبي شيئًا بعد شيء، حتىٰ رأيتُ نفسي أنجس من خرَّارة المذبح، فالحمد لله رب العالمين.

(١١٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعي إلىٰ وليمة وفيها شخص من أعدائه يعلم بالقرائن أنه إذا رآه دخل دار الوليمة، انتهض قائمًا وقال: لا يجمع أنا وفلان موضع أبدًا؛ فترك ذلك الشيخ الحضور، فلاث به حذَّاق الفقراء وقالوا: مثلكم لا ينبغي له مراعاة هذا

الأمر، بل يحضر ولا عليه من عدوه، لاسيما إن عجز عن سياسته وتقبيل يده ورجله إذا دخل، فإن الذي ينبغي للشيخ أن يحطَّ علىٰ نفسه ويقول لها: هذا كلُّه من كثرة تحريكي له قبل ذلك، أو من قلة السياسة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون بمعزل عما ذكرناه كله، وإنما خاف علىٰ ذلك العدو أن يمقته الله تعالىٰ بتعزيره للشيخ في ذلك المحفل العظيم، وتشميت الأعداء والحاسدين فيه حين ينتهض قائمًا إذا رآه، ويصير الناس يعزمون علىٰ جلوسه فلا يجلس، فكان امتناعه -أي الشيخ- عن الحضور إنما هو رحمة بذلك العدو، فإن الأشياخ قد خرجوا عن الرعونات النفسية أوائل دخولهم الطريق، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأتيه المحبون بالجبَّة البيضاء النقية البياض مثلًا، فيردها ويطلب الجبَّة الرمادية أو العَبْشَا[1]، فقال له بعض الناس: إن النظافة من الإيمان، والجبة البيضاء أو الثوب الأبيض من جملة النظافة، بخلاف العبشا مثلًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون قصد بذلك عدم التميز بين الناس، وقد قالوا: إذا رأيتُم بريق الفقير ونوره في ثيابه، فانفضوا أيديكم من صلاحه. وهذا الأمر قد عم في غالب المتمشيخين في هذا الزمان بأنفسهم، فيطلب أحدهم الجبَّة البيضاء النقية البياض، ليشاكل أبناء الدنيا في الرفاهية، وإن نازعه أحد يقول: هذه جبة [صوف][2]، وربما استدل بحديث: «من لبس الصوف، فقد بريء من الكبر»[3] مع أن هذا المدعي أكبر نفسًا من الأمراء، لو ذكره إنسان بكلمة نقص، أحس بأن السماء انطبقت علىٰ الأرض. وقد رأىٰ بعض السلف علىٰ فقير عباءة، فقال: فتش نفسك يا أخي، فربما كانت نفسك أعظم كبرًا في تلك العباءة من الأغنياء. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) من العَبْش، وهو الغباوة. والمراد هنا أنها باهتة مهترئة أو متسخة.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٧٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٢٩).

(١١١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينصح أقرانه دائمًا علىٰ لسان أحد من الأشياخ الذين مضوا، ويقول: كان الشيخ الفلاني يفعل كذا ويقول كذا؛ فلاث به بعض الفقراء وقالوا: نخشىٰ عليك يا سيدي الشيخ أن يُكتَب ذلك عليك من جملة الكذب.

والجواب: أنه لا يكون من الكذب إلا إذا اختلفت فيه الأفهام، وأما إذا كان من جملة الخير المشهور فهو كالإجماع، وفي ذلك من الفوائد: اختبار ذلك المنصوح أولًا علىٰ لسان شخص مجهول، فإن قبله وقال: هو كلام مليح، زاده منه؛ وإن أنكره وفرَّ من سماعه، اختصر المسألة معه، وعلم أنه لو كان أضاف ذلك النصح إلىٰ نفسه كان أشد إنكارًا. وكان أخي أفضل الدين يضيف دائمًا كلام النصح للغزالي إذا نصح به فقيهًا، ويقول: إنهم يقبلون كلام الغزالي، لكونه في الأصل منهم، والمقصود من النصح قبوله بأي وجه كان، ولو أني نقلتُ ذلك عن الصوفية، لربما ردُّوا ذلك أو قالوا: هذا منزع صوفي لا يلزمنا العمل به. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(١١١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: لا أحد منكم يقرأ علىٰ غيري أبدًا إلا إذا عجزتُ عن جواب سؤالكم؛ فلاث به العلماء وقالوا: كيف ينهىٰ أصحابه عن القراءة علىٰ علماء الشريعة، مع كونهم أعلم منه بيقين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون مراده أنه أعلم بمصالح جماعته من غيره، فلا يعطيهم من العلم إلا ما كُشِفَ له أنهم يعملون به، وما لم يُكشَف له أنهم يعملون به يصرفهم عنه، لئلا يعرضهم لدخول النار، كما صرحت به الأحاديث الصحيحة التي لا تحتمل التأويل، فقصد بقوله: «لا تقرؤوا علىٰ غيري» حفظهم من العلم الذي يدخله الرياء والعجب، وعن العمل الذي تدخله الآفات، بخلاف غيره، فإنه يبدر العلم علىٰ من حضره عمل به أو لم يعمل به، أخلص فيه أو راءىٰ فيه. وإيضاح ذلك أن الأشياخ قد خرقوا ببصرهم الإيماني إلىٰ الدار الآخرة، وعرفوا الأعمال المقبولة والأعمال المردودة، فعرفوا ما يأتون وما يذرون، فمن اتبعهم اهتدىٰ، ومن خالفهم ضلَّ.

وقد وقع لبعض أصحابي ذلك، فترك القراءة عليَّ لمطالبتي له بالإخلاص في العلم والعمل، وصار يقرأ علىٰ شخص من جامع الأزهر، ويسعىٰ علىٰ وظائف الناس الأحياء والأموات عند النظَّار، ويأخذها منهم بغير طريق شرعيّ، فلاح علىٰ وجهه المقت. فإياكم أيها الإخوان ثم إياكم أن تقرؤوا العلم إلا علىٰ العلماء العاملين، ليمدوكم بأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في صحبته أمير ثم إنه تركه واجتمع بشيخ آخر، وصار يمر علىٰ زاويته فلا يطلع له ويقول: لو رأينا عنده مددًا ما فارقناه؛ فلاث جماعة الشيخ الأول بالأمير وبذلك الشيخ، وقالوا للشيخ: كان الأولىٰ أنك ترد الأمير عن صحبتك، وتعرِّفه بمقام الشيخ. وقالوا له: قد كنت تقول: أنا لا أصلح خادمًا لسيدي الشيخ!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالشيخ الثاني، لأنه ربما قصد بعدم رده الأمير عن صحبته الخوف علىٰ الشيخ الأول، وقال: أنا أحقُّ بتحمل أوزاره عن أخي. وربما خاف علىٰ أخيه العجب بنفسه إذا رأىٰ الأمير يعظِّمه.

وأما الأمير فلا ينبغي اللوث به، لأنه ربما قصد بعدم طلوعه للشيخ الأول لما مرَّ عليه تعظيمه بذلك، لأنه كان خرج بنية زيارة الشيخ الثاني، فاستحيا من الشيخ الأول أن يُشرِكَ معه أحدًا في الخروج، وعزم علىٰ أنه يخرج له مرةً ثانيةً علىٰ نية زيارته فقط. ويُحتمَل أنه وجد الشيخ الثاني أعلىٰ مقامًا وأنفع له من الشيخ الأول، فاستحيا من أن يُشرِكَ معه الشيخ الأول، ويُحتمَل غير ذلك، والله أعلم.

(١١١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يُعْطِبُ الظلمة إذا ظلموا أحدًا من أصحابه، ويقيِّد اللصوص إذا سرقوا شيئًا من حارته، ثم صار الظلمة يظلمون أصحابه، واللصوص تسرق من حارته، بل من بيته، فلا يقيد أحدًا منهم ولا يُعْطِبُه، فلاث به بعض الناس وقالوا: فلان سُلِبَ الولاية والبركة التي كانت معه، ولو مات قبل ذلك كان استراح.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لعدم عطبه الظلمة أو تقييده اللص، لأنه تبع

بذلك سلفه الطاهر الذين كانوا يتحملون الأذىٰ، ويتركون الأذىٰ، وذلك أكمل ممن يأخذ حقه بيده، سواء أكان ذلك من طريق الظاهر أو من طريق الباطن، فإن البَرَّ هو من لا يؤذي الذر. وقد ينتصر الحقُّ تعالىٰ لبعض أوليائه لئلا ينتهك الناس حرمتهم، فلا يقدح ذلك في كمالهم، بل يزدادون به رفعةً في المقام عند الخلق، كما أن جماعة السلطان إذا رأوه يحب رجلًا ويأخذ له حقَّه ممن ظلمه بغير سؤال منه للسلطان، يصيرون كلُّهم يعظمونه لأجل السلطان ولله المثل الأعلىٰ في السماوات ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٥) ومما أجبتُ به عن الطبيب الذي لا يعلم بالداء إلا بعد سؤاله من المريض عن حاله، فلاث به بعض الناس وقال: لو كان هذا يعرف الطب، لعرف الداء من غير سؤال من المريض، لاسيما إن كان المريض يعسر عليه الكلام لشدة الوجع.

والجواب: أنه لا يلزم من سؤال الحكيم المريض عن حاله أن يكون جاهلًا بالداء، فقد يكون عالمًا به من جس نبضه مثلًا، ولكنه اتهم علمه ونفسه، وخاف أن يكون غُطِي عليه من أمره شيء، فطلب من المريض إخباره عن ألمه، ليداويه بقوله علىٰ بينة ومعرف. وإيضاح ذلك أن المريض يخبر عن ذوق، والطبيب يخبر عن علم، ولا شك أن الذوق مقدَّم علىٰ العلم.

ثم إنه لا يقع في مثل ذلك إلا الطبيب المتورِّع المشفِق علىٰ عباد الله تعالىٰ، بخلاف الطبيب المتهور أو الكافر، فإنه ربما وصف للمريض شيئًا كان فيه تلفه كما هو الواقع في هذا الزمان لجماعة من اليهود، فيصف أحدهم الحقنة للمريض في غير استحقاق فيهلك، ثم يرىٰ بذلك التقرب إلىٰ الله تعالىٰ. وقد أخبرني من أسلم من اليهود أن أحدهم إذا قدر علىٰ شيء يضر المسلم ولم يفعله معه، كان كمن استحل السبت. انتهىٰ. فتداوِ يا أخي بالمسلمين، وإياك وطب اليهود، وقد نصحتُك، والحمد لله رب العالمين[1].

(١١١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعاه شخص من أقرانه إلىٰ وليمة مع جملة

---

(١) انظر أيضًا الجواب (١٠٩٠).

فقراء البلد وعلمائها وأمرائها وتجارها، فحضروا كلهم إلا هو، فلاث الناس به وقالوا: لا يخلو إما أن يكون متكبرًا، فالكبر لا يليق بالفقراء؛ وإما أن يكون عدوًّا، فالفقراء لا ينبغي أن يكون بينهم عداوة، لأن بيت العداوة هو الدنيا، والفقراء قد ادعوا أنهم تركوها، فكيف تخلَّف هذا من دون الناس الذين دعوا؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث والاعتراض علىٰ هذا الشيخ في تخلفه، فربما كان له عذر شرعي امتنع من الحضور لأجله، والأعذار كثيرة مسطورة في كتب الفقه. ولا يجوز حمله علىٰ التكبر ولا علىٰ العداوة، فقد يكون عذره العجز عن المشي أو عن أجرة المركوب، أو لا يقدر علىٰ تحمل منَّة من يعطيه حماره بغير أجرة من أصحابه.

وقد يكون المانع له من الحضور خوفه من وقوعه في تزكية نفسه في أفعاله وأقواله ومعارفه، كما هو الغالب علىٰ بعض الفقراء إذا اجتمع بأحد من أقرانه الذين ثقل اجتماعهم به، فربما شرع يزكي نفسه عندهم من حين يجلس إلىٰ أن ينصرف، كأنه يقول: اعرفوا مقامي الذي خفي عليكم.

وربما كان المانع له من الحضور خوفه من أن يقوم أحد من أعدائه الذين حضروا ويخرج إذا رآه داخلًا، ويقول: والله لا اجتمع مع هذا في مجلس أبدًا، ولو علمتُ بأنه يحضر ما حضرتُ؛ فيحصل له بذلك غاية الخجل والتعزير وشماتة الأعداء، كما وقع ذلك لبعض إخواننا.

وربما كان المانع له من الحضور خوفه علىٰ دين عدوه المذكور أن ينقص بوقوعه في عرضه تعريضًا أو تصريحًا، لا خجله هو وتعزيره بين الناس. وهذا يقع كثيرًا لأرباب المجاهدات لنفوسهم، ويقولون لها: ما عرفك وعرف دسائسك ونفاقك وقلة دينك إلا فلان.

وربما كان المانع له من الحضور خوفه علىٰ صاحب الوليمة من وقوعه في العجب إذا دعا أهل مصر كلهم وأجابوه، ولم يتخلف أحد عن إجابته من أمراء وتجار ومباشرين وغيرهم، فقصد بعدم حضوره عدم مساعدته علىٰ حصول رؤية نفسه وعجبه، لكون

تخلف مثله يصير مقامه فيه نقص ما، فكأن حكم ذلك حكم القرون أو العظام التي تُعلَّق علىٰ باب قصر الملك تدفع عن القصر العين. وقد وقع ذلك من سيدي عليٍّ المرصفي في حقِّ بعض أقرانه، وقال: مراده أن يقول الناس: إنه لولا علو مقامه ما حضره مثل عليٍّ المرصفي. فقيل له: هلا حملتموه علىٰ محمل حسن؟ فقال: قد حملتُه علىٰ ذلك في الباطن، ولكن أخذتُ لأخي بالأحوط له في دينه مما لعله يخطر له في نفسه. انتهىٰ.

وربما كان المانع له من الحضور عدم وجوده نية صالحة في الحضور بحسب مقامه هو، كأن يحضر لا لعلة دنيوية ولا أخروية، كما كان عليه السلف الصالح، فإن أحدهم ربما كان يشتاق إلىٰ رؤية أخيه السنة كاملة وأكثر، فلا يجتمع به حتىٰ يجد النية الصالحة.

وربما كان المانع له من الحضور قصده أن يتخلف أحد من الفقراء بتخلفه، فلا يأكلون من ذلك الطعام الذي جباه صاحب الوليمة من الولاة والظلمة، كما هو الغالب في ولائم المتمشيخين في هذا الزمان، لاسيما إن عملوا طعامًا واسعًا كطعام الأمراء والأغنياء، فإن الفقير ما تميَّز عن أبناء الدنيا في العادة إلا بقلة المال، فإذا تبسط في طعامه فهو دليل علىٰ قلة تورعه وقلة تقواه، ولو أنه تورَّع لما وجد رغيفًا حافًا يأكله هو، فضلًا عن طبخ تلك الألوان والحلاوات المحشوة بالسكر والفستق وغير ذلك.

وربما كان المانع له من الحضور خوفه من إثارة الحسد في قلوب إخوانه الذين هناك إذا علم بالقرائن أنهم يرفعونه علىٰ أقرانه في القيام والتعظيم، والتصدير في المجلس، وكثرة الثناء عليه بالعفة والزهد، وكثرة العبادة وغير ذلك، فترك الحضور رحمةً بأعدائه.

وربما كان عليه ثياب دنسة وسخة تُزْرِي بلابسها، فخاف من حضوره في ذلك المحفل العظيم أن يقع أحد في ازدرائه، أو يشمت به أحد من أعدائه إذا رآه علىٰ تلك الحالة، أو إذا لم يقم له أحد ولم يحتفل به، فترك الحضور خوفًا علىٰ الناس من الوقوع في الإثم بسبب حضوره.

وربما كان المانع له من الحضور حسن ملبسه وكثرة البخور والروائح الطيبة التي

في بدنه وثيابه، فخاف إذا حضر أن يدخل غمًّا على أعدائه الذين هناك إذا رأوه على تلك الحالة، فرحمهم بعدم حضوره.

وربما كان له ذلك اليوم عذر من الأعذار المرخِّصة في ترك الجمعة والجماعة، كأن غسل ثوبه ذلك اليوم وهو مبلول لم يجف، واستحيا أن يستعير له ثوبًا يحضر به الوليمة.

وربما كان الباعث له على عدم حضوره خوف الشهرة إذا رأوه الناس في ذلك المحفل العظيم، أو خوف اعتقاد أحد من الولاة الحاضرين فيه إذا رأى الناس يعظِّمونه ويثنون عليه خيرًا، ولا يخفى ما في مثل ذلك من الآفات لأمثالنا، فكم هلك شخص في دينه من مثل ذلك! حتى كان ثابت البناني وسفيان الثوري وغيرهما لا يمكنون أحدًا يمشي معهما في شارع، ويقولون: كم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس وأذهبت من دين!

وربما كان الباعث له على عدم الحضور علمه من نفسه أنه يتكدر إذا أخروه من صدر المجلس مثلًا ليجلسوا أحدًا من أقرانه فيه، فيظهر بذلك رعونته بين الناس فيفتضح، وذلك لأن ظهور العورة الباطنة في التأذي، كظهور العورة الظاهرة على حد سواء.

وربما كان المانع له عن الحضور مراعاة خاطر عدوه الذي سبقه إلى دار الوليمة حين كان يعرف منه أنه يتأذى منه إذا دخل، أو يقوم ويخرج.

وربما كان المانع له من الحضور عدم تكليف صاحب الوليمة بمكافأته على الحضور إلى وليمته إذا عمل الآخر وليمة، لما يعلم من شدة نفرة نفسه من تحمل منن الناس.

فإن قال قائل: كان من الواجب عليه الحضور ويسقط عن أخيه المنة ؟ [قلنا: قد زادت المنة بإسقاط المنة][1] عنه فكانت منة بعد منة. وكان الجنيد إذا علم من أحد من إخوانه المكافأة على الزيارة والعيادة، يرسل له السلام أو هدية، ويقول له: أنت في القلب ولو تباعدت الأجسام منا.

---

(١) ساقط من «ب».

وربما كان المانع له من الحضور ظهور معايبه وانكشافها له حتىٰ صار يرىٰ أن جميع الحاضرين يرونها كما يراها هو فاستحيا أن يحضر في ذلك المحفل كما يستحيي من كان عريانًا أو سوأته مكشوفة أن يحضر مع أحد. ويقع لي مثل ذلك كثيرًا، فأنصرف من تلك الوليمة.

وربما كان له عذر في عدم الحضور يليق بمقامه هو لم نصل نحن إليه، كأن يكون في الوليمة من يكثر منه الغفلة عن الله، أو يخطر في باله شيء من المعاصي الظاهرة أو الباطنة، كالكبر والحسد، وكونه خيرًا من أحد من الحاضرين، وأعطاه الله تعالىٰ أن يمقت كلَّ من كان علىٰ تلك الحالة، فخاف علىٰ المسلمين من المقت المذكور، لاسيما المحبون للدنيا، فإن المقت يؤثر فيهم أكثر، والنظر إليهم يقسي القلب.

وقد دُعِيَ أخي أفضل الدين مرةً إلىٰ وليمة، فلم يحضر وقال: بلغني أن صاحب الوليمة أخَّر ليلة المطبخ صلاة المغرب عن أول وقتها، فلا أحضر وليمة وقع بسببها تأخير الوقوف بين يدي الله عن الوقت الذي أمر به. والأجوبة عن مثل ذلك كثيرة.

فإن قال قائل: كان اللائق بهذا الشيخ الذي تخلَّف عن الحضور إلغاء هذه الاحتمالات كلها والحضور أسوة أمثاله، ويستريح من هذه الغلبة كلها؛ **فالجواب:** أن الكامل يكنىٰ «أبا العيون» فلكل حال عنده عين ينظره بها، فهو يعتقد أن صاحب الوليمة من أهل الكمالات، وأنه سالم من جميع الآفات، ولكنه احتاط لنفسه ولأخيه مما لعله يخطر في باله من الأغراض النفسانية، كما مر بيانه في هذه الأجوبة عن الذي تخلف عن حضور الوليمة[1]، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعمل له وليمة، ويدعو الناس إلىٰ الحضور عنده، ولا يجيب هو أحدًا إلىٰ وليمة، فلاث به بعض أقرانه وامتنعوا من الحضور إلىٰ وليمته وقالوا: لأي شيء يطلب منا الإجابة إلىٰ دعوته ولا يجيب هو دعوتنا؟!

---

(١) الجواب (٢٤٣).

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ويجب حمله على حال من هذه الأحوال السابقة في الجواب قبله. وربما كان لزاويته معلوم من بيت المال مثلًا، وشرط السلطان أن يُعطَىٰ لشيخ هذه الزاوية مادام منقطعًا في زاويته لا يتردد لأحد، كما وقع لبعض إخواننا المقيمين في مواضع الانقطاع، كان يركب في مصر في الشفاعة عند الأمراء والأكابر كلَّ يوم، فكاتبوا عليه الولاة وقالوا له: إن كنتَ تلازم الزاوية، فنحن نصرف لك المعلوم، وإلا صرفناه لغيرك ممن يلازم زاويته؛ فلزم زاويته من ذلك اليوم، وصار يعتذر لإخوانه في عدم زيارتهم في مصر ويقول: لولا أن أصحاب الحديث حجروا عليَّ دخول المدينة لنزلتُ؛ فكان غالب الناس يظن أن مراده بأصحاب الحديث[1] الأولياء، والحال أن مراده بهم جماعة السلطان. وبالجملة فكان امتناع مثل هذا عن الدخول إلىٰ مصر أولىٰ من دخوله وقطع ذلك المعلوم الذي يُصرَف للفقراء والمساكين المقيمين عنده، والمترددين لزيارته، فإن في ذلك اكتساب الأجر لنفسه وللفقراء، ولجماعة السلطان وللسلطان، والأعمال بالنيات، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدخل المريدين الخلوة، ولا يحصل لأحد منهم ثمرة، فلاث به بعض الإخوان وقالوا: هذا من جملة المزاحمة علىٰ المشيخة، فإن من شرط الشيخ الذي يدخل المريد الخلوة أن يُكشَف له عن حصول ثمرة الخلوة لذلك المريد قبل أن يدخله الخلوة، فإن لم يُكشَف له عن ذلك، فخلوته عبث.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا إذا علمنا منه الدعوىٰ لمقام الأشياخ، فإن رأيناه متشبهًا بهم فقط، فلا اعتراض عليه، إذ لا منع من التشبه بالصالحين، فيُحمَل كلام المعترض على الشيخ علىٰ ما إذا كان الشيخ مدعيًا للكمال بغير حق. ويُحمَل هذا الشيخ علىٰ طلب التشبه دون دعوىٰ الكمال، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك آخر

(١) أي المحدثون من الأولياء، كما في الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم (٢٣٩٨) وغيره واللفظ له قال رسول الله ﷺ: «قد كان يكون في الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فعمر بن الخطاب»

الباب الثاني من رسالة «قواعد الصوفية» فراجعه تجد غالب المشايخ الظاهرين اليوم أنهم متشبهون فقط، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٩) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أذن له شيخه بالتصدر للمشيخة علىٰ الفقراء بأخذ العهد علىٰ الناس بالتوبة، وتعريفهم آداب الطريق، ثم صار يقع بعد الإذن في رعونات النفوس، فلاث الناس بشيخه وقالوا: اللوم إنما هو علىٰ شيخه الذي أذن له قبل علمه من طريق كشفه بأن نار بشريته خمدت.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بشيخ هذا الفقير لأنه لا يُشترَط في المأذون له العصمة بإجماع الشيوخ، وإنما الشرط فيه أن يكون أعلم بطريق الله تعالىٰ ممن يتلمذ له لا غير. وقد وقع بعض الأشياخ في معصية صورية بحضرة مريده، فلم يفارقه ولم يتغير اعتقاده فيه، فقال: يا ولدي، لم لا تفارقني حين رأيتني علىٰ المعصية؟! فقال له التلميذ: إني ما صحبتُك يا سيدي علىٰ أنك معصوم من جريان أقدار الحق تعالىٰ عليك، وإنما صحبتُك لكونك أعرف بالله تعالىٰ وبأحكامه مني. فقال له: زادك الله يا ولدي توفيقًا.

فاعلم ذلك، والزم الأدب مع أشياخ الطريق، فإن منهم من يكون مطمح بصره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا، ومنهم من يكون مطمح بصره اللوح المحفوظ -أي من المحو- فالأول ربما تغير علىٰ مريده الحال، والثاني لا يصح منه تغيير، وعلىٰ الأول غالب أشياخ الطريق، وعلىٰ الثاني كُمَّل العارفين فقط، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي عاهد الله تعالىٰ علىٰ أنه لا يؤاخذ أحدًا من الأمة بما جناه عليه ووقع فيه من غيبة أو أخذ مال أو ضرب أو حبس، ثم بعد ذلك نراه يشاحح الناس الذين آذوه، ويجيب عن نفسه ويكذِّبهم فيما أضافوه إليه من النقائص، فلاث الناس به وقالوا: قد نقض هذا عهده مع الله تعالىٰ، وما كان ينبغي له الوقوع في هذا العهد، فإن نقض العهد من صفات المنافقين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون غير مؤاخذ لذلك

الذي ظلمه في الباطن، وإنما يعاتبه ويكذبه تقبيحًا لصنيعه، حتىٰ لا يقع في أذىٰ أحد من الخلق بعد ذلك. وقد قالوا: يجب عليك إنكار المنكر المتعلّق بمن آذاك وفاءً بحق الله تعالىٰ وحق الشريعة، وأنه كما يجب عليك الإنكار علىٰ من ظلم غيرك، كذلك يجب عليك الإنكار علىٰ من ظلمك علىٰ حد سواء، ومسامحتك للظالم لا يبيح له الظلم، كما لا يباح الربا بالإباحة وطيب النفس. واعلم يا أخي أن في كلِّ معصية حقَّان: حق الله وحق للخلق، فغاية مسامحة العبد أن يكون في حقه هو. وأما حق الله تعالىٰ من حيثُ تعديه حدوده فهو فيه تحت المشيئة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعاه شخص من إخوانه إلىٰ وليمته، فجمع له جميع من يتردد إليه من التجار والدلالين وأصحاب الحرف والصنائع، وذهب بهم إلىٰ الوليمة، فضاق عنهم الطعام والمكان، فلاث الناس بهذا الشيخ وقالوا: ما خلىٰ هذا أحد من أهل حارته حتىٰ أتىٰ به! ولو كان هذا شيخًا لكان عنده ذوق وخفة، فإن من لا ذوق عنده فهو كالبهائم لا يصلح لأن يكون داعيًا إلىٰ طريق أهل الله تعالىٰ. وقال بعضهم: إنما فعل ذلك بقصد أن يعلم الناس بأنه شيخ عظيم له جماعة كثيرة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون غافلًا عن جميع ما ظنه الناس فيه، وإنما قصد بكثرة دعائه الناس معه كثرة حصول الأجر لصاحب الوليمة، وجبر الخاطر له. وربما قال له صاحب الوليمة: ادعُ جميع أصحابكم معكم؛ فدعاهم بإذن.

وربما كان الله تعالىٰ أعطىٰ هذا الشيخ القدرةَ علىٰ أن يعوِّض علىٰ صاحب الوليمة أضعاف ما بذل بدعائه ودعاء أصحابه له، كما كان عليه سيدي إبراهيم المتبولي، والشيخ علي الخواص ﷺ. وكان سيدي إبراهيم يقول: وعزة ربي كلُّ فقير لا يمد صاحب الوليمة بالبركة الخفية في رزقه طول عامه، فليس له أن يمد يده لطعامه. وربما كان قصد هذا الشيخ بكثرة حضور الناس معه الوليمة نزول الرحمة علىٰ صاحب الوليمة وأهله إذا قرؤوا القرآن وذكروا ربهم، لا قصد الأكل وغيره، والله تعالىٰ أعلم.

(١١٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أرسل له أخوه مكاتبة يترقق له فيها ويتواضع له بنحو قوله: العبد الذليل، المقصر المنكسر الخاطر يقبل مواطيء أقدام سيدي الشيخ فلان، ويسأله في النظر إليه بالرحمة، فلعل الله تعالىٰ يرحمه؛ فأجابه بكلام جاف يابس يستحيي الإنسان أن يكتبه لآحاد العوام، فلاث به الناس وقال: انظروا لطافة هذا ورقته ولطفه، وانظروا إلىٰ غلظة هذا وكثافة طبعه! ولكن هذا دليل علىٰ بقاء رعوناته، وعدم فطامه علىٰ يد شيخ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي أجاب أخاه بالغلظة والكلام الجافي، فقد يكون قصده بذلك إعلام أصحابه الذين لم يتقيدوا تحت حكمه بشدة تمكين أخيه في الطريق، وبيان كثرة رعوناته هو، ليرجحوا أخاه عليه في المحبة والاعتقاد، كما عليه المتمكنون من الفقراء.

وقد يكون قصده بالكلام الجافي علمه بالكشف أو بالقرائن أن أخاه إنما قصد بذلك التواضع المَلَق والسخرية به، وأنه في نفسه يرىٰ نفسه أفضل منه، فأراد بذلك الكلام الجافي بيان صدقه في التواضع، ليعرف مقامه حقيقةً، ويصير يعظمه ويحبه أكثر مما كان قبل ذلك.

وقد يكون قوله[1]: «أقبل مواطيء أقدام الأخ» إنما هو ليعلمه التواضع مع إخوانه حين ظهر له بالقرائن تكبره عليهم، كما كان سيدي محمد الشربيني يفعله مع أصحابه، فيقول في مراسلته: «من أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ خدَّام نعال الفقراء». انتهىٰ. وقد فعلتُ أنا ذلك كثيرًا مع إخواني، والأعمال بالنيات، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يراسل الظلمة بقوله: من فلان إلىٰ الأخ الصالح فلان؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: كيف يقول في الظالم أنه صالح؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد بقوله «صالح» أنه صالح لإحدىٰ الدارين، لأن أحدًا لا يخرج عن أن يكون من أهل واحدة منهما، لا أنه صالح الصلاح المشهور بين الناس. ويُحتمَل أنه لقبه بالصلاح لما شهده فيه من بعض

(١) أي قول المترقق في كلامه.

المحاسن التي رآه يفعلها من تفريج الكرب عن المساكين، وصدقته على المحتاجين، فهو صالح بالنسبة إلى أمثاله من الولاة. فإياك والإنكار على الفقراء في مثل ذلك، فإنهم لا يجهلون الأمر في ذلك، وإنما يقصدون بلين القول للظلمة ميل قلوبهم إلى قبول شفاعاتهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي استشاره شخص في أن يوقف على جماعته وقفًا، فقال له: إن جماعتي غير محتاجين إلى مثل ذلك؛ والحال أنهم محتاجون، فلاثوا به وقالوا: قد قال رسول الله ﷺ: «الأقربون أولى بالمعروف»[١].

والجواب: أنه لا ينبغي لهؤلاء اللوث بشيخهم، لاحتمال أن يكون كُشِفَ له عن كونه ليس هو من رزقهم، أو رأى فيه شبهة ونحو ذلك.

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك مع الأخت العزيزة أمة الرحمن البصرية من ذرية الحسن البصري ﵀، حين جاءت إلى مصر واستشارتني في أن تقف على جماعتي وقفًا، فقلتُ لها: إن كنتي ولا بد واقفة شيئًا فقفيه على الزيالع والأغراب الذين يردون على مكة المشرفة وليس معهم مال ولا زاد، واجعلي ناظره الذي يكون معه مفتاح الكعبة من بني شيبة[٢]، وكذلك قفي وقفًا على فقراء المدينة ممن لا معلوم له، أو له معلوم لا يكفيه، واجعلي الناظر عليه كلَّ من كان معه مفتاح مقصورة رسول الله ﷺ. ففعلت، وذلك لأن المستشار مؤتمن. وقد رأيتُ الفقير من الزيالع يصير يصيح في المسعى أو غيره من الجوع وهو مضطجع على التراب حتى يموت لا يجد رغيفًا يأكله، فرأيتُهم أحوج من جماعتي. وأخرجت لي مرة نحو خمسمئة دينار ذهبًا، فرددتُها عليها لكونها امرأة فقط لا لعلة أخرى، فإنه لا ينبغي لفقير أن يأكل من صدقة امرأة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بنو شيبة: هم سدنة الكعبة الذين جعل رسول الله ﷺ فيهم سدانة الكعبة وخدمتها، وهم خدمها وحملة مفتاحها إلى الآن.

وكذلك فعلتُ في وظائف مدرسة أم خوند بخط بين السورين[1] لما نزلتُ بها، وأعطاني الناظر وظائفها، استنبتُ الفقراء في القيام بها بالمعلوم كاملًا، ولم أتناول منه شيئًا مدة العشر سنين التي أقمتُها فيها، ثم ترقيتُ بحمد الله تعالىٰ إلىٰ عدم قبول شيء من أوقاف الرجال أيضًا إلا عند الضرورة الشرعية، فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ اللوم علىٰ من يرد عنك الدنيا، فإنه أراد لك الخير، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٥) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يصلح بين الناس، فيكتم عن كلِّ واحد ما قاله صاحبه فيه من السوء والنقائص، فلاث به بعض الفقراء وقالوا له: لو أنك ذكرتَ لكل واحد [ما][2] ذكره في الآخر من النقائص، لكان أحسن، ليبريء كل واحد منهما ذمة الآخر، ويقع الصلح علىٰ نقاء، فإن الصلح ربما وقع ثم أعلموا أحدهما بما قاله فيه الآخر من النقائص، فيتكدر من أخيه، ويزول[3] الصفاء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير الذي كتم عن كل من المتصارمين[4] ما قاله صاحبه فيه، لأنه مشىٰ علىٰ ظاهر قواعد الشريعة من أن **الكلام إذا لم يبلغ العبد كان أخف إثمًا مما بلغه**، ويفوِّض كلٌّ واحد أمره إلىٰ الله تعالىٰ. وأما ذكر الكلام الذي لم يكن بلغ الإنسان، فلا ينبغي ذكره إلا لمن علمنا منه الصفح والمسامحة وعدم المؤاخذة به. فيُحمَل حال من طلب من الفقير الذي يصلح بين الفقراء أن يذكر للآخر كلَّ ما سمعه من[5] صاحبه فيه علىٰ من يظن [في ذلك الفقير أنه يسامح، كما يحمل حال من

---

(١) مدرسة أم خوند: هي مدرسة أم السلطان شعبان بشارع باب الوزير بحي الدرب الأحمر التابع لمحافظة القاهرة عاصمة مصر.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بالأصلين: زال.

(٤) من الصَّرْم، وهو الهِجْران.

(٥) بالأصلين: عن.

كتم علىٰ حال من يظن][1] به أنه يشاحح، والأعمال بالنيات، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعمل عرسًا أو عقيقة أو ختانًا لأولاده، فيهدي الأكابر إليه الهدايا إذا حضروا وليمته من نقود وثياب وفواكه وغير ذلك، فلاث به الأقران وقالوا: إنما دعا فلان الأكابر إلىٰ وليمته فتحًا لباب الشحاذة منهم بالحال؛ ووقعوا في عرضه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، وإنما يجب حمله علىٰ أحسن المحامل، كأن ينبههم علىٰ طلب افتقاد إخوانهم ومساعدتهم إذا عمل أحدهم عرسًا أو مهمًا، أو يكون قد كُشِفَ له عن تلك الهدايا التي يهدونها له أن الحقَّ تعالىٰ قسمها له، فسأل الحقَّ تعالىٰ في وصولها إليه بسرعة، وجعل الولاة بابًا من أبواب حضرة الحقِّ تعالىٰ التي تخرج منه العطايا للناس من غير وقوف معهم، كما يقع ذلك كثيرًا للأكابر كسيدي علي بن وفا وسيدي مدين وسيدي محمد البكري، وأضرابهم ممن خرج من حكم الطبيعة عليه، وكمُل مقام زهده فيما في أيدي الناس.

وقد يكون مرادُ هذا الشيخ بدعاء الأكابر إلىٰ وليمته فتحَ باب التواضع لهم مع الفقراء، كما كان النبي ﷺ والخلفاء الأربعة ومن تبعهم. وقد يكون الباعث له علىٰ إحضارهم إلىٰ وليمته ما تقدَّم لبعض الناس معه من حمله الولاة علىٰ أنهم متكبرون، وأجاب هو عنهم، فلم يصغِ ذلك المجادل إلىٰ قوله، فأراه تواضعهم بالفعل، فأرسل إليهم فحضروا، إقامةً للحجة علىٰ المجادل، ليرجع عن حمله الأكابر علىٰ المحامل السيئة ويظن بهم خيرًا، مع كون قلبه فارغًا من تلك الهدايا، بل ربما لم تخطر له علىٰ بال. وقد قدمنا في هذه الأجوبة أن إبراهيم بن أدهم دعا سفيان الثوري إلىٰ داره من البصرة، وكان إبراهيم بالرملة، وقال: إنما دعوتُه من هذا المكان البعيد، لأريكم كثرة تواضعه وعدم رعونات نفسه. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ساقط من «ب».

(١١٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي طالع في رسالة أحد من أقرانه، فرأىٰ فيها مقامات وشروطًا في المشيخة لا يقدر هو علىٰ المشي عليها، فلاث بصاحب الرسالة وقال: هذه ينبغي غسلها؛ لأنها شروط ما رأينا أحدًا من أشياخنا تخلَّق بها؛ فلاث به أصحاب الشيخ الذي ألَّف الرسالة وقالوا: هذا القول منك جهل ورعونة نفس، فكان الأولىٰ بك إذا لم تقدر علىٰ المشي علىٰ تلك الشروط أن تطلب لك شيخًا يوصلك إليها، ولا تقول: ينبغي غسلها، وتجعل أشياخك جاهلين بها! ولم يزل العلماء يبينون لأهل زمانهم ما اندرس من مقامات سلفهم، ليتنبهوا لنقصهم، ويأخذوا في أسباب الترقي، كما فعل ابن الجوزي[1]، والإمام الغزالي في ربع المهلكات من كتاب «الإحياء».

والجواب عن هذين الشيخين: أنه لا ينبغي اللوث بأحدهما، بل يجب حمل الأول الذي ألَّف الرسالة علىٰ أنه قصد بذكر تلك الشروط والمقامات تحريك همة إخوانه لطلب الوصول إليها، لا هتك سريرة أحد من أهل زمانه المتمشيخين بغير حقٍّ، كما وقع لي ذلك في كتابي المسمَّىٰ بـ«منهج الصدق والتحقيق في تفليس غالب المدعين للطريق» فإني لما ألفتُه رأىٰ[2] فيه بعض الأقران، فرأىٰ فيه شروط تلقين الذكر، وشروط إلباس الخرقة، وشروط إرخاء العذبة، وشروط إدخال المريد الخلوة، فلم يرَ له قدرة علىٰ شروط شيء منها، فلا تسأل يا أخي عما وقع في عرضي، وقال: هذه الشروط التي ذكرها فلان لم يكن عليها أحد من أشياخ الطريق من الإمام أبي القاسم الجنيد إلىٰ عصرنا هذا، وإنما ذكرها فلان تعجيزًا لأمثالنا. فقالوا له: إن في هذا الكلام تجهيلًا لأهل الطريق؛ فلما بلغني ذلك أقمتُ له العذر في إنكاره، لكونه جردته تلك الشروط عن

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث. ولد ببغداد (٥٠٨هـ) ونسبته إلىٰ (مشرعة الجوز) إحدىٰ محال بغداد بالجانب الغربي. له نحو ثلاث مئة مصنف منها: «تلقيح فهوم أهل الآثار، في مختصر السير والأخبار» و«الأذكياء وأخبارهم» و«مناقب عمر بن عبد العزيز» و«تلبيس إبليس» توفي: ٥٩٧هـ. انظر: «الأعلام» (٣/ ٣١٦) «الوافي بالوفيات» (١٨/ ١٠٩) و«شذرات الذهب» (١/ ٤٧).

(٢) كذا بالأصلين، ولعلها: نظر.

صفات الفقراء، وأخرجته من طريقهم، وهتكت سريرته، وجعلته متفعلًا وإن لم يكن هو مقصودًا، وهذا أمر قلَّ أن يثبت له إلا من زالت منه جميع الرعونات البشرية.

وملخص شروط الأربعة أمور السابقة أن من شرط من يلقن الذكر للمريد علىٰ طريق المتحققين أن يُفرِغ عليه مع التلقين جميع ما قُسِمَ له من علوم الشريعة، فلا يحتاج بعد ذلك إلىٰ مطالعة في كتاب.

ومن شرط من يلبس الخرقة أن يَنزِع من المريد جميع الأخلاق الردية حال أمره بنزع ما عليه من قلنسوة أو رداء ونحوهما، ويُفرِغ عليه حال إلباسه له نظير تلك الخرقة جميع الأخلاق المحمدية التي قُسمَت لذلك المريد، فلا يحتاج بعد ذلك إلىٰ علاج خلق من الأخلاق الردية.

ومن شرط من يرخي العذبة للمريد أن يعطيه سرَّ النمو والزيادة في كلِّ شيء نظر إليه أو مسه بيده، فلو أنه مدَّ العمود الحجر أو الخشب لامتد معه.

ومن شرط من يدخل المريد الخلوة أن لا يخرج منها وهو يرىٰ أحدًا دونه في المقام، ويمشي علىٰ الهواء والماء، ويحل معضلات مسائل الشريعة كلِّها، ويصير زاهدًا في الدنيا بأسرها، ليس له رغبة في شهوة من شهواتها، فيدخل الخلوة جاهلًا ويخرج منها عالمًا، حتىٰ إنه يعرف مستند كلِّ قول في العالم، ويعرف من أي حضرة استند ذلك القول من حضرات الأسماء والصفات، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لولا أني أمد علماء مصر والشام أو العراق مثلًا أو كلهم، ما وصل أحد منهم إلىٰ مقام التدريس والإفتاء؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة، وهي إلىٰ الكذب أقرب، وكيف يصح له إمداد هؤلاء العلماء وهو لم يجتمع بهم قط؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فإن الله تعالىٰ رجالًا يمدون سائر أهل المراتب من العلماء والصالحين وغيرهم، فقد يكون هذا الشيخ منهم. كما تقدم تقريره

في هذه الأجوبة مرارًا[1]، ولا يُشترَط في صحة إمداده للعلماء مثلاً أن يجتمع بأحدهم ظاهرًا، ولا أن يظهر علمه للناس، لأن صاحب هذا الحال إنما هو كالقناة التي يجري فيها الماء من البئر أو النهر إلىٰ البستان.

وقد سمعتُ سيدي محمد بن عنان ﷺ يقول عن سيدي محمد الكويس[2] المجذوب بالخانقاه السرياقوسية[3]: إنه كان قاضي العرافين، وكان يمد قضاتها وعلماءها بالعلم والتأييد في الأحكام، ولولا هو ما وقف أحد عند قول أحدهم ولا فتواه، ولا نفذ حكم أحد من القضاة.

وكذلك أخبرني بعض الأولياء عن الشيخ زين الدين كان علىٰ باب جامع الأزهر جالسًا نحو عشرين سنة وهو مكشوف الرأس أنه كان يمد جميع من يشتغل بالعلم في الجامع، مع أنه لم يظهر للناس قط منه علم، بل ولا جواب مطابق للسائل! انتهىٰ. وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل تحت دائرة الولاية، فسلِّم يا أخي للفقراء دعاويهم تسلم، ولا تكذبهم تعطَب وتندم، إلا أن يدعوا باطلًا كالنبوة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٩) ومما أجبتُ به عن المجاذيب الذين ينهون خَدَّامهم عن الصلاة وعن حضور مجالس الذكر والعلم، ويقولون له: ما دمتَ تصلي أو تحضر مجلس الذكر، فأنا غضبان عليك. وربما يأتي أحدهم إلىٰ الصلاة فيخرِج خادمَه منها، فلاث به الناس وقالوا: هذا جنون ليس بجذب! لأن المجذوب في حضرة الله تعالىٰ ويعرف مقام تلك الحضرة، فكيف ينهىٰ الناس عن دخولها؟! وإنما ذلك جنون!

(١) انظر الجواب (٩٦١).

(٢) قال الإمام السخاوي: محمد الكويس أحد المعتقدين، مات في صفر سنة إحدىٰ وستين بخانقاه سرياقوس، وكان مقيمًا فيها، وبها دُفن، وكان يبالغ في اعتقاده الزين قاسم البلقيني. قال: وقد زرته في توجهي إلىٰ السفرة الشمالية فدعا لي. «الضوء اللامع» (١٠/ ١٢٤).

(٣) الخانقاه السرياقوسية: خانقاه أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ورتب فيها مئة صوفي. وكان موقعها في مدينة الخانكة الحالية، وهي تابعة لمحافظة القليوبية بمصر.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالمجاذيب إذا نهوا أصحابهم عن الصلاة، فقد يريد أحدهم أن يدخل خادمه حضرة الشهود التي لا تكليف فيها بعبادة إلا بالشهود فقط، كما هو مقام المجاذيب، ورأىٰ من طريق كشفه أنه لا يقدر علىٰ إدخال مريده تلك الحضرة إلا إن كمل انقياده له بالباطن والظاهر، وليس مراد المجذوب أن يخرج مريده من حضرة العبادة ثم لا يعوضه مكانها شيئًا، فافهم.

وإيضاح ذلك أن التكاليف كلَّها إنما هي في حق الصحاة من سكر الحال والاصطلام[1] بالأصالة، فما دام السكر غالبًا علىٰ الإنسان، فلا يُطالَب غالبًا بالعبادات علىٰ وجهها المعروف، اللهم إلا أن يمن الله تعالىٰ علىٰ أحد من المجاذيب بالتمكين، فيصير يصلي ويصوم ويحج ويفعل جميع التكاليف مع الحضور كالصحاة، فهذا لا يمنع من الصلاة وغيرها، بل يجب عليه كغيره، لاسيما من كان له أتباع.

وقد كان أبو بكر الشِّبْلي من أهل هذا المقام، لكن كان يُرَدُّ إلىٰ عقله وقت الصلاة. وكان الجنيد ﵁ يقول: الحمد لله الذي لم يجرِ[2] عليه -يعني الشبلي- لسان ذنب -يعني في الظاهر- ففيه رائحة أن الجنيد سلَّم للشبلي حاله لو أنه لم يرد إليه عقله حال الصلاة إلىٰ أن فاتته. وقيل له مرة: هل علىٰ صاحب الحال قضاء ما فاته من الصلوات إذا صحا من الحال؟ فقال: لا بد من القضاء. فاحمل يا أخي من رأيتَه من أرباب الأحوال ينهىٰ خادمه عن الصلاة علىٰ الجذب. **وأما الخادم فيجب عليك الإنكار عليه، وإعلامه بأن طاعة ذلك المجذوب في ترك الواجب لا تجوز.**

وقد رأيتُ الشيخ شهاب الطويل[3] المدفون بمصر العتيق بجوار شون السلطان

---

(١) الاصطلام: الوله الغالب علىٰ القلب، وهو قريب من الهيمان. معجم القاشاني (ص٥٥).

(٢) بالأصلين: يحجر. والصواب ما أثبتناه.

(٣) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ شهاب الطويل المجذوب النشيلي ﵁ من أولاد الشيخ خليل النشيلي أحد أصحاب سيدي أبي العباس المرسي ﵁. مات ﵁ سنة نيف وأربعين وتسعمئة، ودُفن بزاويته بمصر العتيقة قريبًا من شون السلطان، ﵁. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» الترجمة (٤٥٣) طبعة دار الإحسان.

يخرج خادمه من صلاة الجمعة، ويقول له: كلما أنهاك عن هذه الصلاة ما تجعل لك شغلًا إلا هي! وكان الناس يسلِّمون له حاله. وأما الشيخ عصفور المدفون بخط بين السورين بالقاهرة، فسمعتُه يقول لخادمه: ما دمتَ تصلي الجمعة، فأنا غضبان عليك، ولا بد أن يسرقوا ما في حانوتك وأنت تصلي؛ فكان الخادم لا يعتني بقوله، فصلَّىٰ يومًا الجمعة وخرج، فوجد حانوته قد سرق اللصوص جميع ما فيه وكان تاجرًا، فبقي يسأل الناس حتىٰ مات، وكان الشيخ عصفور يقول له: قد نهيتُك عن الصلاة فلم تسمع.

فكن يا أخي صاحب عينين: عين تنظر بها إلىٰ أحكام الشريعة، فتأمر الناس بالتقيد بها؛ وعين تنظر بها إلىٰ أحوال المجاذيب، فتسلِّم لهم حالهم، لا حال من وافقهم من غير جذب، فإن ذلك المجذوب ليس هو بصاحب شرع يُتَبَع. والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يُسأَل عن الأمير الذي يشفع عنده فلا يقبل له شفاعة، ثم يقبل شفاعة غيره ممن هو دونه في الطريق وكان من تلامذته قديمًا، ويقول: هذا لا يعتقد إلا المشايخ النصَّابين. وأما الصادقون فلا يعتقدهم، ولا يقبل لهم شفاعة؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا لا يليق بهذا الشيخ أن ينطق به، لأنه يوهم أنه من الصادقين، وأن غيره من الكاذبين في دعوىٰ الفقر[1]، وكان الأولىٰ به أن يقول عن ذلك الأمير إنه من أكبر المعتقدين في الفقراء، وإنما يرد شفاعتي لأني لستُ بصادق ولا مخلص في تلك الشفاعة، بخلاف غيري ممن قبل شفاعتهم، كما جرىٰ عليه السلف الصالح من التكبير بأهل حرفتهم، وهضم نفوسهم عن اللحوق بهم في مقام من المقامات.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في ذمة الأمير الذي رد شفاعته وقبل شفاعة غيره، ولا حمله علىٰ الحسد لأقرانه، ولا علىٰ أنه يحب انفراده بالشفاعة عند الأمير دونهم، فقد يكون قصد بجعل أقرانه نصابين عدم انهماك الناس علىٰ الاعتقاد فيهم، فيشغلونهم عن الله عزَّ وجلَّ، كما هو الغالب علىٰ من يتصدر للشفاعات عند

---

(١) بالأصلين: الفقراء.

الأمراء قبل خمود نار بشريته وزوال رعوناتها.

وقد يريد بالنصَّابين نفسه، وبالصادقين أقرانه، لكنه خاف علىٰ إخوانه، فاحتاط لهم، ونظر لهم بعين أخرىٰ، وهذا يقع للصادقين كثيرًا، فيصير يرىٰ نفسه أنه لا يصلح خادمًا لأحد من أقرانه فيما بينه وبين الله تعالىٰ، ثم يصير ينقصهم عند الناس، لينفروا منهم، خوفًا عليهم من وقوع أحدهم في العجب، والأعمال في مثل ذلك بالنيات، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشفع عند أمير ويقبل منه الهدايا، وربما يكون هو الذي يسأل الأمير في ذلك، فلاث به الفقراء وقالوا له: هذا خلاف الحالة التي كان عليها الأشياخ الذين أدركناهم، فكانوا ينهون بعضهم عن قبول هدايا الأمراء الذين يشفعون عندهم، ويقولون: من أراد أن شفاعته لا تُقبَل عند أمير، فليقبل منه هدية، أو يسأله في شيء من الدنيا.

والجواب: أن لله تعالىٰ رجالًا أعطاهم التمكين والتصريف، فيأخذون هدايا الأمراء، ولا يقدر أمير أن يرد لهم شفاعة، إلا إن كان سبق في علم الله تعالىٰ أنها لا تُقضَىٰ علىٰ يدهم.

وقد رأيتُ من رجال هذا المقام جماعةً، منهم الشيخ عبد القادر الدشطوطي، والشيخ عمر البوصيري، والشيخ محمد الشربيني، لاسيما إن كان أحدهم يقبل تلك الهدية، ويوسع بها علىٰ الفقراء والمساكين، ولا يلعق منها لعقة، أو لا يلبس منها خلقة، لكن لما كان أهل هذا المقام قليلين في كلِّ عصر، نهىٰ أشياخ الطريق بعضهم بعضًا عن قبول هدايا الأمراء مطلقًا سدًّا للباب، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تأتيه المرأة بمال جزيل، فيرده وعنده فقراء وأرامل وأيتام، وهو محتاج إلىٰ شيء يأكله وشيء يلبسه، فلاث الناس به وقالوا: لو كنتَ أخذتَه وصرفتَه علىٰ المحتاجين إليه بالطريق الشرعي، فنفعتَ صاحبة ذلك المال، ونفعتَ الناس لكان أولىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من مقامه أن لا يقبل هدية ولا صدقة من امرأة، لشرف همته وهمة أصحابه. وقد يكون في تلك الدراهم علة تقدح في إخلاص تلك المرأة، أو في دراهمها شبهة، أو علم منها رؤية نفسها عليه إذا قبل مالها، أو قصد بعدم تفرقتها علىٰ جماعته تعليمهم رفع الهمة عن أموال الناس وصدقاتهم، لاسيما النساء. وقد يكون لتلك المرأة قرابات ينتظرون منها البر في حياتها، أو الإرث لها بعد موتها، أو يكرهون من يزاحمهم في مال بوصية أو صدقة، فترك الشيخ ذلك رحمة بورثتها.

وقد وقع لي مثل ذلك لما وقفت عليَّ بنت الأمير خاص بك وعلىٰ ذريتي نصف القصر الكائن بخط بين القصرين، ومضىٰ عليه عشر سنين ولم أشعر بذلك، فلما علمتُ به مشيتُ إليها وقلتُ لها: قد بلغني أنك وقفتِ عليَّ نصفَ القصر الذي يخصُّكِ، وأنا لا أزاحم ولدك في ذلك؛ فرددتُه عليها غصبًا عليها، خوفًا علىٰ خاطر ولدها، فإني أعلم تكديره ممن يشاركه في سكنه بعد موت والدته، فلأجل هذه العلة تركتُ قبوله.وتقدم أن أمة الرحمن البصرية[1] أتتني بخمسمئة دينار ذهبًا، فرددتُها لكونها من امرأة، لا لعلة أخرىٰ من شبهة أو منة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تأتيه الأموال بلا سؤال فيردها، ثم إنه يدور يسأل الناس الدنيا في بقية النهار، فلاث به الناس وقالوا له: كيف ترد ما أتاك من غير سؤال وتصير تسأل؟! هذا جهل مبين!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون في ذلك المال الذي أتاه بلا سؤال علة من العلل، كأن رأىٰ فيه شبهة، أو علم من صاحبه رؤية نفسه عليه، أو عدم إخلاص فيه ونحو ذلك. وأيضًا فإن الفقير ابن وقته لا نظر له إلىٰ ماضٍ ولا آت، فكلُّ شيء دخل في يده، أنفقه علىٰ المحتاجين إليه من نفسه أو غيره.

فإن قلت: إن حملك للمعطي علىٰ أنه يرىٰ نفسه عليك بالعطاء فيه سوء ظن به، وأنت

---

(١) وهي من ذرية الحسن البصري.

وضعتَ كتابك هذا للأجوبة عن الناس، وحملهم عل المحامل الحسنة؛ **فالجواب**: أن الفقير يكنىٰ «أبا العيون» فعين ينظر بها إلىٰ احتمال المنة عليه ورؤية المعطي نفسه عليه بما أعطاه، فيرد ذلك عليه، وعين ينظر بها إلىٰ سلامته من شهود المنة عليه، لكنه يرد عليه العطاء من جهة أخرىٰ، فاعلم ذلك.

وقد تقدم في هذه الأجوبة أنني رددتُ خمسين ألف نصف أوصىٰ بها إليَّ القاضي شمس الدين ابن محاسن قاضي إسكندرية علىٰ ورثته[1]، لغنائي عنها حين أتتني، ولم أدخر منها شيئًا إلىٰ غد، لا لي ولا لغيري. وأتتني وصية من الخانكاه، فأعطيتُ الحامل لها نصفها، وفرقتُ الباقي في المجلس، ولم أبقِ لنفسي شيئًا منها. وفي ذلك عدة مصالح: منها حثي لمن حملها علىٰ أن يذكرني عند موصٍ آخر، فيوصي لي بمال آخر، فينتفع الموصي بتلك الوصية لوضعها في محلها باجتهادي له في الأصلح والأكثر ثوابًا، وينتفع بها حاملها بإعطائه نصف ما حمل، فقل من يعطيه مثل ذلك، بل ربما شح أن يعطيه العشر، وفي ذلك أيضًا إظهار مروءة وعدم تحمل منة أحد عليه، فربما أن ذلك الحامل رأىٰ له فضلًا علىٰ المحمول إليه بحملها إليه، وذكر اسمه عند المريض بالصلاح والخير حتىٰ أوصىٰ له. وبالجملة فلا يقدر علىٰ المشي علىٰ هذا الخلق إلا من كانت الدنيا لا تزن عنده جناح بعوضة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال له إنسان: مقصودي أن أرىٰ رسول الله ﷺ في المنام. فقال: أيش تعمل برؤيته ترك رؤيتك له في النوم أولىٰ؛ فلاث به الناس وقالوا: إن هذا جهل عظيم منك بالشريعة، وسوء أدب مع رسول الله ﷺ، فإنه ﷺ قال: «خير الرؤيا أن يرىٰ العبد ربه أو نبيه ﷺ»[2]. انتهىٰ، فكيف يجعل ترك رؤيا النبي ﷺ أولىٰ؟

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ نسبة هذا الشيخ إلىٰ الجهل وسوء الأدب،

---

(١) انظر الجواب (٨٩١).

(٢) لم أقف عليه، وقد ذكره المصنف في «القواعد الكشفية» ص١٢٣ وعزاه للطبراني.

فربما كان مراده أن رؤيته ﷺ في اليقظة أولىٰ من رؤيته في المنام، وربما كان مراد هذا الشيخ أيضًا بقوله للسائل: «ترك رؤيتك لرسول الله ﷺ أولىٰ» أي لئلا يكلف رسول الله ﷺ بالمجيء إليه في المنام، فهو من باب الإكرام والتعظيم لرسول الله ﷺ، لا من باب ترك التعظيم والحرمة، بل لو قدر أن رسول الله ﷺ طلب أن يجيء إلىٰ أحد من خواص أمته وعلم بذلك، لكان من الأدب أن يقبِّل رجل رسول الله ﷺ، ويسأله في عدم تكليف خاطره بالحضور إليه. هذا إن جعلنا المجيء لذات رسول الله ﷺ.

فإن جعلنا ذلك للمثال الذي تشكل من ذاته ﷺ للرائي، فذلك حكم آخر، فإن ذلك المثال الذي يقوم في ذهن الرائي ويأتي إليه ليس هو برسول الله ﷺ حقيقةً، وإن كان العرف يطلق علىٰ ذلك الرؤيا له ﷺ، ثم لا يفرق بين ذاته الحقيقية والمثال المذكور إلا كُمَّل أهل الكشف، فافهم.

فعلم أن من يقول: «أنا لا أشتهي رؤية رسول الله ﷺ في المنام» لا ينبغي اللوث به إلا بعد الاجتماع به، أو إرسال ورقة مثلًا باستفهامه عن مراده، فربما يكون مراده: أنا لا أشتهي رؤية رسول الله ﷺ في المنام لغناي عنها بالاجتماع في اليقظة، كما عليه أكابر الأولياء، أو لما فيه من كلفته ﷺ في المجيء إليَّ وعدم استحقاقي لذلك.

وقد قيل للشبلي مرةً: أتشتهي أن ترىٰ ربك؟ فقال: لا. فقيل له: لماذا؟ فقال: أنزه ذلك الجمال البديع المقدَّس عن رؤية مثلي. انتهىٰ. وكذلك ينبغي الجواب عمَّن قال: «أنا لا أشتهي رؤية رسول الله ﷺ» فربما كان مراده تنزيه جماله عن رؤية مثله.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ اللوث بالأشياخ إلا بعد أن لا تجد لكلامهم محملًا صحيحًا، وإن كان من تكلم بذلك عليه اللوم من حيثُ إنه شطح عن مقام الأدب اللفظي. وقد قال الأشياخ: «إن الشطح في الألفاظ من بقايا رعونات النفس، فإن المحقق لا يصدر عنه شطح أبدًا» فالواجب علىٰ الفقير السلوك علىٰ يد شيخ صادق إلىٰ أن يصل إلىٰ مقام التحقيق، ويصير معانقًا للأدب مع الله تعالىٰ ومع رسوله وأوليائه وعباده المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأتيه شخص بهدية عظيمة، فلا يكافئه عليها، ونراه يُهدِي لأبناء الدنيا الذين هم في غنية عن هديته، ولا نراهم يهدون إليه شيئًا، فلاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه مكافأة من أهدىٰ إليه، وترك الهدية لمن ليس له عليه يد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون إنما ترك المكافأة علىٰ تلك الهدية إيثارًا لأخيه علىٰ نفسه في الأجر الأخروي، كما يؤثره علىٰ نفسه في أمور الدنيا، كما عليه جماعة من السلف الصالح، حتىٰ كان بعضهم يبدأ بالسلام ليكون الرد علىٰ أخيه دونه من حيث إن ثواب الواجب أعظم من ثواب المندوب[1]، وكان علىٰ ذلك سفيان الثوري وجماعة، فيُحتمَل أن يكون مشهد الشيخ هذا المذهب، وإن كان الجمهور علىٰ خلافه، فيرون البداءة بالسلام من الأمور التي فَضَلَت فيها السنةُ علىٰ الواجب من حيثُ الأجرُ، وكان سيدي علىٰ الخواص ﵀ يقول: البداءة بالسلام أفضل في حق المتشاحنين، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، ورد السلام أفضل في حق من ليس بينهما شحناء. انتهىٰ

ويُحتمَل أيضًا أن يكون هذا الشيخ إنما ترك المكافأة لأخيه عملًا بوصيته له أنه لا يكافئه قط علىٰ هدية يرسلها له، وأنه يعلم منه التكدر علىٰ مثل ذلك، فكان في ترك مكافأته عمل بوصيته وعدم إدخال تكدير عليه.

وكان في إعطاء أبناء الدنيا الذين ليس لهم عليه يد في الإحسان تعليمهم الكرم، وأن يكون لهم اليد الطولىٰ علىٰ الناس من غير أن يكون للناس عليهم يد. وعلىٰ ذلك حملتُ ما يقع من بعض مشايخ الزوايا من إرسال الهدايا لأبناء الدنيا، وحرمان الفقراء المقيمين عندهم منها، وأنه لا لوم علىٰ شيخ الزاوية في ذلك، لاحتمال أن يكون رأىٰ في تلك الهدية شبهة لا تليق بالفقراء المقيمين عنده أن يأكلوا منها، أو علم منهم صدق المحبة فيه لله تعالىٰ لا للدنيا، فلم يحتج أحد منهم إلىٰ تأليف قلبه بالإحسان، بخلاف أبناء الدنيا، فإنه ليس عندهم تلك المحبة، فيحتاجون إلىٰ التأليف، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) وذلك لأن الابتداء بالسلام مندوب، ورده واجب.

(١١٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعلِّق في عنق أصحابه النعال، ويأمرهم أن يطوفوا في الشوارع والطرقات وهم علىٰ ذلك الحال، فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر لم يبلغنا وقوعه من أحد من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين، ولكن قالوا في المثل: خالفوا تعرفوا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه قصد بذلك تقريب الطريق علىٰ أصحابه حين علم أن فتحهم متوقف علىٰ زوال الكبر من نفوسهم بذلك دون كثرة الطاعات. ولا يُعترَض علىٰ هذا الشيخ بأحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من السلف الصالح، لصفاء سرائرهم، وعدم وجود الكبر عندهم، فكانت العبادات تكفيهم في علاج ما عندهم من الكبر، وتورثهم الذل والخضوع، لطيب عنصرهم وطهارته من الرعونات، بخلاف أهل هذا الزمان، فلا تزيدهم العبادة إلا كبرًا ورعونةً علىٰ ممر الأيام، فاجتهد الأشياخ واستنبطوا لهم علاجًا آخر مشاكلًا لأحوالهم يذوِّب نفوسهم حتىٰ تضمحل، ثم بعد ذلك ينشيء الله تعالىٰ لهم نفسًا أخرىٰ مطهرةً من الرعونات. وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: ربما يكون صفع المريد في عنقه، وهدم عمامته بين الناس أنفع له من صيام النهار وقيام الليل. انتهىٰ.

فإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ فيما يفعلونه مع مريديهم من أنواع الرياضات والمجاهدات لنفوسهم، فإن علاج الكبر ونحوه من الأمراض واجب، وما لا يتم الواجب إلا به هو واجب، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جاءته وصية مشتملة علىٰ مال جزيل أسوة مشايخ بلده، فمنهم من فرقها علىٰ جماعته ولم يأخذ لنفسه منها شيئًا، ومنهم من أخذ النصف، ومنهم من أخذها لنفسه، وكان هذا الشيخ ممن أخذها ولم يعط أحدًا منها شيئًا، فلاث الناس بمن أخذها لنفسه وقالوا: ليس لهذا في مقام الصلاح نصيب، وكان أقل ما يعمل أن يعطي النصف، ويأخذ النصف.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن أخذ الوصية كلَّها ولم يعطِ أحدًا منها شيئًا،

لاحتمال أنه يريد بذلك الستر علىٰ نفسه، وقصده أن يمسكها عنده حتىٰ يتقادم العهد ثم يعطيها لغيره، ولم يتناول منها لنفسه شيئًا. وكان علىٰ ذلك أخي أفضل الدين والشيخ محمد المُنيِّر وأضرابهما، فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ شيخك أو غيره إذا أخذ الوصية كلَّها ولم يفرِّق علىٰ جماعته منها شيئًا في أول يوم وثاني يوم وثالث يوم، لاحتمال أن يكون عزمه التفرقة بعد ذلك، فيحصل لك الخجل منه في تقطيعك في عرضه، كما وقع لي ذلك في وصية ابن القماح بناحية الخانكاه، فمقت عندي بسببها اثنان، مع أني فرقتُها كلها ولم آخذ منها شيئًا، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دق عالم عليه الباب ليدخل إليه لزيارة أو عيادة أو غير ذلك، فقال الشيخ للخادم: قل له يرجع، فإني لا أجتمع بأحد من أهل النفوس؛ فرد ذلك العالم وهو يسبه، ثم حكىٰ[1] ذلك لجماعته، فسبوه وبالغوا في اللوث به، وقالوا: نخشىٰ أن يكون مثل ذلك كفرًا! فإنه أزرىٰ بأهل العلم وحملة الشريعة!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ حتىٰ يجتمع به ويسأله عن مراده برد هذا العالم عن الدخول إليه، ثم يبني علىٰ ذلك مقتضاه، فربما يكون بمعزل عما ظنَّه ذلك العالم وجماعته فيه، وأنه في غاية التعظيم للعلماء ويرىٰ نفسه دونهم. وربما كان قصده بقوله لخادمه: «قل له: ارجع، الشيخ لا يجتمع بأحد من أهل النفوس» زيادة الأجر لذلك العالم، وترجيح عدم دخوله علىٰ دخوله، أخذًا من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٨]، فقال الشيخ: إن مثل هذا العالم لا يجهل أن رجوعه وعدم دخوله أكثر أجرًا؛ فاحتاط الشيخ لأخيه العالم، وطلب له الحظ الأوفر بشهادة الله في الآية السابقة، زيادةً في محبته لا بغضًا فيه ولا كراهة له. فافهم وتأمل فيما قلتُه لك، فإنه نفيس، واعمل به إذا أتيتَ أحدًا زائرًا ولم يفتح لك، أو سمعتَه يقول للخادم قل له: ما هو هون، أي يدق الناس فيه الثوم والبصل مثلًا.

---

(١) أي العالم.

وأما قوله: «أنا لا أجتمع بأحد من أهل النفوس» فليس فيه نسبة ذلك العالم إلىٰ رعونة النفس، وإنما أراد بالنفس الروح أو القلب أو السر، فإن معناهما واحد عند أهل الكشف، وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في مواضع من هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يحمل حملات الناس، ويشاركهم في همومهم، ويصير يلهث كالثور، فقال له إنسان: إذا جاءتك حملة، فتوجه لشيخك في قبره ليساعدك. فقال: لو كان شيخي حيًّا لعجز ولم يستطع أن يحمل عن أحد حملة؛ فلاث به أصحاب شيخه وقالوا: هذا سوء أدب مع شيخك، وكان الأولىٰ أن تعتذر بعذر آخر غير هذا، فإنه يؤذن بأنك أعلىٰ مقامًا من شيخك، ولا يخفىٰ ما فيه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، ولا يلزم من قوله: «لو كان شيخي حيًّا لعجز» احتقار شيخه، لاحتمال أن يريد أن شيخي إنما عجز لزيادة رحمته التي في قلبه علىٰ رحمتي، فصار يشارك كلَّ الناس وتسرقه الرحمة لهم، مع زيادة بلاء هذا الزمان [علىٰ بلاء الزمان الذي كان فيه شيخي، فهو تصريح بعلو مقام شيخه عليه في الرحمة، فافهم. وبذلك أجبتُ من قال لي: إذا كنت في حملة فتوجه إلىٰ قبر سيدي علي المرصفي، أو سيدي محمد الشناوي، أو سيدي علي الخواص، فإني قلتُ: لو كان هؤلاء أحياء لما احتملوا بلاء هذا الزمان][1]، فقال بعض الإخوان: إن فلانًا يدعي مقامًا فوق أشياخه، والحال أني ما قصدتُ إلا كونهم أكثر رحمة للأمة مني، والعجز تابع لكثرة الرحمة، بخلاف قليل الرحمة، فإنه يحمل من هموم الناس ما يطيق ويترك الباقي.

وأيضًا فإن الأولياء قدموا علىٰ البرزخ واستراحوا من تعب الدنيا، وجعلوا ظهرهم لأهلها، وما بقي عليهم لوم في عدم تحملهم هموم الناس، فإذا دققنا قوانينهم لأجل شيء من أحوال الدنيا، أدخلنا عليهم غمًّا وهمًّا.

فعُلِمَ أن من عقل العاقل في هذا الزمان أن يرشد الناس إلىٰ سدِّ الأبواب التي يأتي

(١) ساقط من «ب».

إليهم منها الكرب، فيستغنون عمَّن يحمل حملتهم. وأما إذا كانت الأبواب عليهم مفتوحة بالمعاصي وسوء النيات، فالهمُّ من لازمهم. وكان من وصية سيدي الشيخ أبي النجا سالم الغنوي لأصحابه ﷺ وهو محتضر: «اعلموا أن الوجود يقابلكم بحسب ما برز منكم من الأعمال» ليتداركوا نفوسهم بالتوبة إن وقعوا، أو يمنعوا نفوسهم من الوقوع إن كان ذلك الأمر متعلِّقًا علىٰ مدافعتهم له، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي رد من جاءه يطلب الطريق وأرشده إلىٰ غيره، أو زجره وقال: أنت لا تصلح لها؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا خلاف ما درج عليه الأشياخ، فإنه يكسر قلبه ويبرد همته.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون رأىٰ نفسه عاجزًا عن ملاحظة هذا الشخص في التربية، لكثرة مريديه، وعدم قدرته علىٰ الوفاء بنصحهم كلهم، فصار يرد كلَّ من جاءه ويرشده إلىٰ غيره ممن له قدرة علىٰ ملاحظته أو كان جماعته قليلين، احتياطًا لنفسه ولذلك المريد، ولو أنه كان يجد من نفسه القدرة علىٰ تربيته وملاحظته، ما رده ولا أرشده لغيره. وقد كانت تلامذة الجنيد ثمانين ألفًا، وكان يلاحظ الكلَّ ويربيهم وراثة محمدية. وكانت تلامذة سيدي أحمد الرفاعي المقيمون عنده في الرباط خمسة عشر ألفًا، يكفيهم الطعام والإدام صباحًا ومساءً. وكانت تلامذة سيدي عمر التوريزي[1] شيخ الشيخ دمرداش ثلاثين ألفًا، فكان إذا تكلَّم عليهم يقف واحد بعد واحد يبلِّغهم كلام الشيخ. وكان سيدي أحمد بن الرفاعي لا يحتاج إلىٰ مبلِّغ، بل يبلغ صوته الجماعة كلَّهم ويتعداهم إلىٰ أصحابه المقيمين خارج أم عبيدة في القرىٰ وراثة إبراهيمية[2]، فاعلم ذلك،

(١) شيخ طريق الخلوتية علىٰ الإطلاق. قُصد للأخذ عنه من جميع الآفاق، أصله من توريز العجم، وبها نشأ واشتهر ذكره وبعد صيته، ورحل إليه من مصر للأخذ عنه: الشيخ دمرداش، والشيخ شاهين، وغيرهما. توفي في القرن التاسع الهجري.

(٢) وراثة لمقام سيدنا إبراهيم في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ [الحج:٢٧] قال ابن كثير في تفسيرها: أي ناد في الناس داعيًا لهم إلىٰ الحج إلىٰ البيت الذي أمرناك ببنائه، فذُكر أنه قال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا

واعذر الأشياخ إذ ردوا من جاء يطلب الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤١) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول عن مشايخ عصره: إن أحدهم لم يبلغ إلىٰ مقام مريد. قال: لأن من شرط المريد الصادق أن يمشي علىٰ الماء والهواء، وهؤلاء لا يقدر أحدهم يفعل ذلك.

والجواب: أنه لا يقدح في كمال المشايخ عدم ظهور كرامة مما ذكر، فقد يكون أحدهم يقدر عليها، ولكن لا يفعلها، وإنما الكرامة عندهم المشي علىٰ الكتاب والسنة، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق كل من رأيته مستقيمًا علىٰ الكتاب والسنة، ولا تطالبه بغير ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٢) ومما أجبتُ به عن الشخص الذي دعي إلىٰ صحبة شيخ أو عالم، فأبىٰ وقال: حال هؤلاء لا يعجبني! ولاث به أصحاب ذلك الشيخ أو ذلك العالم وقالوا: هذا فسق منك، فإنه لا يكره القرب ممن يرشده إلىٰ طريق الخير إلا من ليس فيه خيرًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به بسبب هذا القول، بل يجب حمله علىٰ أنه قصد بذلك المدح لذلك الشيخ أو لذلك العالم، أي أحوال هؤلاء الحميدة لا تعجب نفسي الخبيثة، فهو ذم لنفسه ومدح لأهل الخير، وإذا احتمل الشيء أمرين حسنًا وقبيحًا، فمن الأدب الحمل له علىٰ الوجه الحسن، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نصح شيخًا آخر وقال له: احذر أن يكون كثرة الاعتقاد فيك إنما هو جزاء أعمالك ومجاهداتك طول عمرك؛ فلاث به جماعة

ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام علىٰ مقامه، وقيل علىٰ الحجر، وقيل علىٰ الصفا، وقيل علىٰ أبي قبيس (جبل قريب من الكعبة) وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتىٰ بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلىٰ يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك. هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد وابن جبير وغير واحدٍ من السلف، والله أعلم. وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة.

الشيخ المنصوح وقالوا له: ليس هذا نصحًا منك وإنما هو حسد؛ حيث لم تحصل من إقبال الناس مثل ما حصل له.

والجواب عن كلا الشيخين: أما الناصح فلأنه أخذ لأخيه بالاحتياط، فإن الغالب أن يكون كثرة اعتقاد الناس وإقبالهم علىٰ العبد إنما هو لما رأوه من كثرة زهده وورعه وعفته عن أموال الولاة وغير ذلك، ولذلك يسعون له في الجوالي والمرتبات والرِّزَق ويقولون: يستحق سيدي الشيخ أكثر من ذلك، وما قالوا: «يستحق أكثر من ذلك» إلا لما رأوه من كثرة عبادته، فكأنهم أعطوه ذلك في نظير عبادته، فلا يجوز حمل هذا الناصح علىٰ الحسد، بل الواجب أن يُقال له: جزاك الله تعالىٰ خيرًا.

وأما الجواب عن المنصوح فقد يكون ذلك الإقبال الذي حصل له من الناس، وإعطائه الجوالي والمرتبات فضلًا من الله تعالىٰ له، لا في نظير أعماله الصالحة، فلا ينقص له بذلك رأس مال، حمايةً من الله تعالىٰ له، كما عليه بعض الأفراد من أهل الطريق، كسيدي محمد البكري وأضرابه، فإن القرائن تشهد بإخلاصهم وصدقهم مع الله تعالىٰ، وربما يكون الإقبال والعطايا لم تخطر لهم علىٰ بال قبل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يُسأَل عن أحد[1] **من أقرانه، فيقول: ما بعدي في مصر إلا هو؛ فلاث به الفقراء وقالوا: هذه دعوىٰ لا تليق بالفقراء، فإنه جعل أخاه في الاعتقاد دونه.**

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، بل يجب حمله علىٰ الصدق، وأنه لولا رأىٰ مقامه أعلىٰ ما تلفظ بمثل ذلك، علىٰ أن في مثل ذلك بشارة لأخيه، وتحريضًا علىٰ الاجتماع به بعده.

فإن قال قائل: قد يكون ما رآه هذا الشيخ من علو مقامه إنما هو في ألواح المحو والإثبات، فكان الأولىٰ له ترك هذه الدعوىٰ خوفًا من المحو؛ **فالجواب**: وقد يكون

(١) بالأصلين: عمن أخذ. والصواب ما أثبتناه.

مطمح بصره اللوح المحفوظ أيضًا، فلا ينبغي الاعتراض عليه. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول عن الليالي والأيام الفاضلة كليالي رمضان وأيام عشر ذي الحجة ونحوها: إن هذه الأوقات ثقيلة علىٰ قلبي، فلاث به بعض الناس وقال: هذا دليل علىٰ غلظ حجاب هذا الشيخ وسوء أدبه، وكيف يقول عن الليالي والأيام التي أخبر الشارع أن الله تعالىٰ يحبها أنها ثقيلة علىٰ قلبه؟! ولو أنه كان مؤمنًا كاملًا، لكانت هذه الأوقات أخف ما يكون علىٰ قلبه، وقد قال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلىٰ الله فيها من عشر ذي الحجة»[1].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أنها ثقيلة لغلسة ذنبه، فكأنه يشكو مرضه لإخوانه ليدعوا بجلاء قلبه من الصدأ حتىٰ يحبب عليه الطاعات. ويُحتمَل أنه يريد أنها ثقيلة من حيثُ التكاليفُ التي أمر الحقُّ تعالىٰ عباده بها في الأيام الفاضلة، لا من حيثُ كونُ الحقِّ تعالىٰ يحبُّ ذلك. ويدل علىٰ ذلك كون الشارع أرشد أمته إلىٰ كثرة الأعمال الصالحة في هذه الأيام، ليحضروا بقلوبهم فيها بين يدي ربهم، فيحجبوا عن شهود نزول البلاء النازل عليهم كالمطر، فكان في طلبه ﷺ من أمته تكثير العمل الصالح رحمةً بأمته، **فإن من خصائص كون العبد في الحضرة الإلهية أن يزول عنه كلُّ همٍّ وغمٍّ**. ومما يدل علىٰ ثقل أيام ذي الحجة أيضًا الأمر للأمة بالتضحية فيها، ليندفع عنهم البلاء النازل فيها أو ليخفف عنهم. ومن هنا ورد النهي عن ادخار لحوم الأضاحي -وإن كان ذلك قد نُسِخَ- لأن لسان حال من يدخرها يقول: دعوني يدوم عليَّ وعلىٰ أهل بيتي البلاء، ولا نعطي أحدًا منه شيئًا، وهذا وإن كان محمودًا من جهة إيثاره نفسه بتحمل البلاء، والهروب من منة من يتحمل ذلك عنه من إخوانه، فهو مذموم من جهة مخالفة أمر الشارع، فإنه رحم الأمة بتفرقة ذلك علىٰ أهل بلدهم من الأغنياء والفقراء

---

(١) أخرجه البخاري (٩٦٩)، وأبو داود (٢٤٣٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

علىٰ وجه الصدقة أو الهدية، بحيثُ لا يكاد أحد يحس بذلك الجزء من البلاء الذي أصابه بأكل تلك القطعة اللحم مثلًا. فعُلِمَ أن الضرر لو كان يظهر في الناس ويتألمون به، ما أمر الشارع المضحي بتفرقة لحم أضحيته التي تضر بالناس، فافهم.

وعُلِمَ أن وجود العبد الثقل في نفسه من أوامر الله لا يقدح في كمال إيمانه، لأن الثقل ما أتاه إلا من خوف أنه لا يقوم بالعمل الذي كُلِّف به في هذه الأيام، من باب قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] يعني من حيثُ العملُ به، لا من حيثُ إن سماع كلامنا عليك ثقيل، كما أوضحنا الكلام علىٰ ذلك في أسرار الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لما حضرتُ أنا وفلان في الوليمة الفلانية صار فلان بحضرتي كالناموسة، وصرت أنا كالفيل أو كالجمل! فلاث به الناس وقالوا: إن فلانًا يزدري إخوانه ويقول عن شخص من أقرانه: إنه صار بحضرتي كالناموسة، مع أنه رفيقه في الاشتغال علىٰ مشايخه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد مدح صاحبه ووصفه بالتواضع، وأنه يرىٰ نفسه كالناموسة من كثرة تواضعه، بخلافي أنا، فإني صرتُ أرىٰ نفسي من شدة تكبري كالفيل أو كالجمل، وكان سيدي أفضل الدين رحمه الله يقول مثل هذا القول كثيرًا، والأعمال والأقوال بالنيات.

(١١٤٧) ومما أجبتُ به عن الفقير المجهول الذي يحرر الزيارة لإنسان علىٰ وقت غدائه أو عشائه فقط، وفي غير هذين الوقتين لا يزوره، فلاث به أصحاب المزور وقالوا: هذه زيارة لغير الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي حمله علىٰ أنه يجيء بقصد الأكل فقط دون شيء آخر معه، فيُحتمَل أنه حرَّر نيته قبل أن يخرج من بيته بقصد حصول الأجر لذلك المزور بحكم الأصل، وجعل حظ نفسه هو بحكم التبع لا بالقصد الأول. ويُحتمَل أن يقصد بمجيئه وقت الأكل حصول الاستمداد من صاحب الطعام من طريق الظاهر بالأكل، ومن طريق

الباطن بالدعاء، ليعامل الله تعالىٰ صاحب الطعام بنظير ذلك. وربما كان ذلك الفقير كُشِفَ له عن رزقه علىٰ يد ذلك الشخص، فصار يأتي إلىٰ رزقه، لعلمه بأن أحدًا لا يقدر أن يأكل منه لقمة. فاعلم ذلك، وإياك أن تحمله علىٰ أنه أتىٰ لحظ نفسه بقطع النظر عن حصول الأجر والثواب لصاحب الطعام مثلًا، فإن ذلك سوء ظن به، وهو لا يجوز، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي حسن الخلق واحتمال الأذىٰ من جميع الأنام من غير أن يحقد علىٰ أحد، ثم إنه حصل بينه وبين واحد من أقرانه وقفة، فطال زمن الهجران بينهما، ولم يبدأ أخاه بالكلام وتطييب الخاطر، فلاث به حذَّاق الفقراء وقالوا له: هذا ينافي حسن الخلق الذي تدعيه!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون كُشِفَ له عن مدة الهجر التي سبق في علم الله انتهاء الهجر إليها، فصار يرقبها حتىٰ تنقضي ويبدأه بالكلام وتطييب الخاطر. ويُحتمَل أن يكون كُشِفَ له أيضًا عن كون أخيه هو الذي سبق في علم الله تعالىٰ أنه يبدأ بالسلام، فصار يترقب ذلك الوقت، ليقع ما سبق في الأزل، لا أنه ترك ذلك استهانةً بحقِّ أخيه وعملًا لحظ نفسه هو.

ويُحتمَل أنه من شدة محبته الخير لأخيه صار يحب له أن يكون هو البادئ بالكلام وتطييب الخاطر، وأنه لا فرق بين حصول الأجر في ذلك له وبين حصوله لأخيه علىٰ حدٍّ سواء، وهو المقام الأوسط، لأن العبد أولًا يحب نفسه، ويرجح مصالحها علىٰ مصالح أخيه، ثم يترقىٰ في مقام الإيمان، فيصير يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، ثم يترقىٰ من ذلك إلىٰ ترجيح نفسه علىٰ غيره، عملًا بحديث: «ابدأ بنفسك»[1]، وبقولهم «الأقربون أولىٰ بالمعروف»، وقيل إنه حديث[2]، ولا أقرب إلىٰ الإنسان من نفسه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وليس فيما قررناه إيثار بالقرب حتىٰ يكون مكروهًا، لأن كراهة الإيثار بالقرب إنما هو في حقِّ من يتركها رغبةً عنها وتساهلًا فيها واستهانةً بها. وأما من يؤثر أخاه بها تحققًا لمحبة الخير لأخيه، فليس ذلك في حقِّه مكروهًا، لأنه طريق إلىٰ معرفة الإنسان كمال إيمانه أو نقصه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دُعِي إلىٰ جنازة أو وليمة، فتخلف فجاءه أصحاب الجنازة أو الوليمة، فصار يعتذر إليهم بأعذار ملفَّقة لا حقيقة لها كذبًا، فلاث به الناس وقالوا: ما أحوجك إلىٰ هذا الكذب؟! اعترف لهم بالذنب ثم استغفر الله عزَّ وجلَّ، فهو أولىٰ لك من الكذب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون في عبادة هي أولىٰ من الجنازة أو الوليمة، أو يكون اطلع من طريق كشفه أن الصلاة علىٰ تلك الجنازة أو حضور تلك الوليمة لم يُقسَم له، فصار مطمئن الخاطر ولم يضطرب لترك الحضور، واعتقد أن ذلك مما يدفع اللوم عنه، فعمل به، كما يقع في ذلك كثير ممن لم يسلك علىٰ يد شيخ، ولو أنه كان له شيخ لقال له: إن الاحتجاج بالقسمة الإلهية لا يدفع اللوم عنك، فإن للحق أن يكلِّف عباده بما لم يقسمه لهم من حيثُ الجزءُ الاختياريُّ. فاعرف يا أخي مقام من يتخلف عن الحضور، ثم اعترض عليه.

وأيضًا فإن الشيخ الذي تخلف عن الجنازة أو الوليمة مجتهد في أعماله، فيُحتمَل أنه رأىٰ الكذب في الاعتذار أهون من تركه، كأن يترتب علىٰ ذلك مفسدة هي أكبر من مفسدة ذلك الكذب، بل أقول: ينبغي لصاحب الجنازة أو الوليمة أن يرجع علىٰ نفسه باللوم، ويقول لها: أنت كنتِ السبب في وقوع الشيخ في الكذب في الاعتذار لكِ، ولو أنه علم منك حسن الخلق والظن الحسن، لما وقع في الكذب. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشرب القهوة هو وجماعته في المساجد بحضرة الناس وقت اجتماع الناس للصلاة، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: «إذا بليتم

فاستتروا»[1] وجعلوا ذلك ذنبًا كبلع الحشيش.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن القهوة حلال شربها كالماء، وإن أفتىٰ بعضهم بتحريمها فإنما ذلك لأمور عرضت لشاربيها لا لذاتها، كأن يتعاطوها علىٰ صورة شرب الخمر من عرض الكأس علىٰ بعضهم بعضًا، وإنشاد أشعار لائقة بذلك. وقد عم شرب القهوة في اليمن والحجاز ومصر والروم، ولا ينبغي الاعتراض علىٰ شاربها إلا بنص أو إجماع، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يستوطن مكانًا في المسجد[2] لا يجلس في غيره، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا له: قد نهىٰ النبي ﷺ عن إيطان مكان في المسجد كإيطان البعير[3]، والنهي وإن كان للتنزيه، فلا ينبغي المواظبة علىٰ ارتكابه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون ذلك منه نسيانًا للنهي، أو يُحمَل علىٰ أن الناس يهابون الجلوس في مكان الشيخ بعد أن عرفوا مواظبته للجلوس فيه، فيصير موضعه معطَّلًا من العبادة.

وقد أمرتُ مرةً شخصًا من أصحابنا أن يجلس مكان جلوسي في الورد، فجلس وحصل له رعدة، وسأل الإقالة من ذلك، فاعتبر غيره بذلك، فصرتُ أجلس وأنوي تفرقة ما يحصل من الثواب بتقدير قبول ذلك العمل علىٰ جميع بقاع المسجد، حتىٰ لا يحصل ترجيح البقاع علىٰ بعض في الجلوس، فأخرج عن العدل بين البقاع.

علىٰ أن العالم إذا جلس لتدريس العلم لم يجلس إلا والمكان خالٍ من الناس، ومن سبق إلىٰ مباح فهو أحق به من غيره بشرطه المعروف بين العلماء، ولا لوم إلا علىٰ من يقيم أحدًا من مكانه ثم يجلس فيه، لأن المساجد لا يجوز التحجير فيها. ولذلك

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بالأصلين: المجلس. والصواب ما أثبتناه.

(٣) تقدم تخريجه.

لما علم الله تعالىٰ من بني شيبة أنهم لا يوجدون في كلِّ وقت ليفتحوا لمن يريد دخول الكعبة، ألهم الله تعالىٰ قريشًا حين بنوا البيت بواسطة قلة وجود النفقة، فتركوا في الحجر قطعة من البيت نحو سبعة أذرع، فكل من أراد دخول البيت ولم يجد صاحب المفتاح دخل القطعة التي في الحِجْر.

وسمعت سيدي عليًا الخواص ﵁ يقول: لا لوم إلا علىٰ التحجير مع ضيق المسجد، وأما إذا كان المسجد واسعًا فلا حرج، بل لا يسمىٰ ذلك تحجيرًا حقيقة. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزعم أنه يحوِّط كلَّ ليلة حارته أو بلده من اللصوص بالآيات والأذكار الواردة في الشريعة، ثم أخذ اللصوص أمتعة جيرانه في تلك الليلة التي ذكر أنه حوطهم فيها، فلاث به الناس وقالوا: إما يكذب، وإما هو ناقص اليقين والإيمان، فلم ينفع تحويطه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون حوَّط مع قوة إيمانه، ولكن الله تعالىٰ غالب علىٰ أمره. ويُحتمَل أن تلك الأمتعة التي أُخِذَت تلك الليلة لم يقع بصر الشيخ عليها حتىٰ تُحفَظ، سواء بصره الظاهر أو الباطن، ومعلوم أنه لا بد في وجود الحفظ من تخيل ذلك المكان وما فيه في الذهن، بقرينة ما ورد أن الذي يحوط شيئًا بآية الكرسي أنه يحلق بأصبعه عليه.

ويُحتمَل أن الشيخ كامل الإيمان واليقين، ولكن الحق تعالىٰ أوقع اللصوص في ذلك من حضرة الإطلاق التي أخبر بأنه يغفر منها لمن يشاء، ويعذب منها من يشاء. وهذه الحضرة لا تتوقف ظهور أحكامها علىٰ قراءة شيء من آيات التحويط، بخلاف حضرة التقييد.

فإن قال قائل: لو كان هذا الشيخ كاملًا، لرأىٰ في اللوح المحفوظ أن اللصوص تأخذ تلك الأمتعة أو لا تأخذها، فكان في القسم الأول يستغني عن التحويط، لأنه حينئذٍ [لا][١]

(١) زيادة يقتضيها السياق.

فائدة له؛ **فالجواب**: بل له فائدة، وهي حصول الثواب بطلبه بالتحويط عدم إدخال الغم علىٰ أخيه بسرقة متاعه. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ في طريق الفقراء أو العالم الكبير إذا تعاطىٰ ولده أفعالًا مفسِّقة له، ولاث الناس به وقالوا: إن هذا الشيخ ليس له قدم في الصلاح، لأنه إذا كان يعجز عن رد الآفات عن ولده، فعن غيره أولىٰ، لأن الإنسان لا يتخذ له شيخًا إلا لكونه يحميه من الآفات في الدنيا والآخرة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو شيخ الطريق لما ذكر، لأنه يرىٰ الخلق كلَّهم من نفسه وغيره بحسب جريان الأقدار، وأن الحق تعالىٰ أعلم بمصالح عباده منهم بأنفسهم. وربما كان مطمح بصر الشيخ اللوح المحفوظ، فرأىٰ أن ولده لا بد أن يفعل ما قدَّره الله تعالىٰ عليه، فسلَّم للحق تعالىٰ، ولم يسأله ردَّ تلك الأقدار عن ولده، لأن ذلك لا يصح إلا في الأمور المعلَّقة. وأما المبرمة فسؤال الحقِّ تعالىٰ أن يردها من الجهل المبين. فاعلم ذلك يا أخي، وسلِّم للأشياخ، فإنهم أعلم الناس بالأدب مع الله تعالىٰ، ولا تطعن فيهم بجريان المقدَّرات الإلهية علىٰ أنفسهم، فضلًا عن أولادهم إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي مرض أحد من أصحابه وطال مرضه فلم يعده، ولاث الناس به وقالوا: حاشا أن يكون مثل هذا من الأولياء وهو في هذا الجفاء العظيم لأخيه المسلم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون ذلك المريض في مقام الامتحان، فخاف أن يدخل عليه، فيخفف عنه المرض باستناد ذلك المريض إليه، فتفوته الرياضة. وقد يكون الشيخ اطلع علىٰ أن ذلك المرض رفع درجات أو كفارات أو عقوبات ولم تنته مدتها، فرأىٰ أن عيادته لا تخفف عن المريض المرض، أو أنها تخففه فيفوته رفع

الدرجات والكفارات والتأديب، فاجتهد في الحضور وعدمه، فأدّىٰ اجتهاده إلىٰ أن عدم الحضور أنفع لذلك المريض في دينه، فتخلف ولم يحضر.

فإن قال قائل: إن الشارع قد أمر بعيادة المريض مطلقًا من غير شرط؛ **فالجواب**: سلّمنا ذلك، لكن الشرط ما أخذه العلماء والعارفون بالله إلا من ظواهر شريعته، كما قالوا: لا ينبغي عيادة المبتدع ولا الظالم ولا سؤال التخفيف عنه، وذلك ليتأدب ويكف عن الظلم. وأيضًا فإن مقام الأعمال الخارجة عن العلة ليس هو لكل الفقراء، وإنما هو للكُمَّل منهم خاصة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي شرط الواقف[1] له الإدخال والإخراج في كتاب وقفه، فسأله إنسان أن يرتب له شيئًا في ذلك الوقف فأبىٰ، وسأله ولده أو ابن عمه مثلًا أن يرتب له في ذلك الوقف فرتب له، فلاث الناس به وقالوا هذا أمر بالغرض! ولو أنه رتب لفلان شيئًا لكان أفضل من ترتيبه لولده أو ابن عمه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه ربما فعل ذلك بالاجتهاد، فرأىٰ أن ترتيب ذلك المرتب لولده أو قريبه أفضل وأكثر أجرًا للواقف، لاسيما وقد أمنه الواقف علىٰ وقفه ليفعل فيه الخير، وينفعه بعد موته، وجعل له ما لنفسه من الإدخال والإخراج لما علم من تصريفه الحسن. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، ولا تعترضوا علىٰ الأشياخ إلا بنص صريح لا يحتمل التأويل، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي الإسراع إلىٰ النزول لسجود التلاوة أكثر من الإسراع لسجود الصلاة؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقال: هذا شيء ما رأينا أحدًا من العلماء صرَّح به، ولعله من بدع الصوفية. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن ظاهر القرآن يشهد له، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَخِرُّونَ

---

(١) بالأصلين: الناظر.

لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، فإن الخرور في اللغة: انسياب الأعضاء جملة واحدة من غير بطء، ولا تقدم عضو على آخر، مبادرةً لحضرة السجود التي هي أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وفي قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ سر لطيف ومدح للساجدين بكونهم عبدوا الله تعالىٰ محبةً في امتثال أمره لا خوفًا من سطوته، فإن الاسم «الرحمن» لا يعطي ظاهره إلا الرحمة واللطف وعدم المؤاخذة. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار بالجهل، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي حسن الخلق وكثرة احتماله الأذىٰ من الناس، ثم إنه وقع بينه وبين أحد من أقرانه وقفة، فهجره زمانًا طويلًا لا يصالحه ولا يبدؤه بالسلام، فلاث به الناس وقالوا: أين دعواك حسن الخلق وكثرة احتمال الأذىٰ وأنت تهجر أخاك هذه المدة الطويلة بسماعك عنه كلمة مثلًا في حقك؟! هذه والله دعوىٰ لا دليل عليها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون باطنه يحبه، وإنما لم يبدأه بالسلام، ليكون لأخيه الحظ الأوفر علىٰ مذهب من يرىٰ ذلك، أو لكونه يشهد وقوع الخير علىٰ يديه ويد أخيه علىٰ حدٍّ سواء، عملًا بحديث: «لا يكمل إيمان أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]. ولا ينبغي حمل الشيخ علىٰ أنه هجره لحظ نفس، فإنه سوء ظن به، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ليس علىٰ وجه الأرض الآن جماعة أحسن حالًا من جماعتي، ولا مجلس أحسن من مجلسي، ولا طريقة أحسن من طريقتي أو مثلها؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة لا تليق بأحد من الفقراء أن يتلفظ بها!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أن ذلك أحسن من حيثُ

---

(١) تقدم تخريجه.

الحكمةُ الإلهيةُ، أو من حيثُ النظرُ لكلِّ ذات، فإن الله تعالىٰ ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠].

وأما قوله: «إنه ليس علىٰ وجه الأرض مثل جماعتي أو مثل مجلسي أو مثل طريقتي» فواضح أيضًا، لأن المثلية من كلِّ وجه ممتنعة الوجود، فلا بد من زيادة أو نقص في ذلك الكلام الذي يقع في مجلسه أو في الذوات وصفاتها. وقد قال العارفون: المثلية في هذا الوجود منقولة غير معقولة.

وقد يكون الشيخ قال ذلك من باب التحدث بالنعمة، كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: لا يكمل شكر عبد حتىٰ يشهد نعمته فوق نعمة الملوك. فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: يرىٰ الملوك من جملة ما سخَّره الله له، فإن بالملوك حفظ الله عليه ماله وحريمه ودينه. وكان ﷺ يقول: قيل لي، يا عليُّ ليس علىٰ وجه الأرض مجلس في علوم الحقائق أبهىٰ من [مجلسك، ولا مجلس في علم الحديث أبهىٰ من مجلس][1] الشيخ عبد العظيم المنذري[2]. انتهىٰ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحفظوا نفوسكم من الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في صحبة أمير، ثم إن ذلك الأمير صحب بعض المجاذيب واعتقده، وترك الاعتقاد والتردد لذلك الشيخ، فلاث به الناس وقالوا: قد غلب حال هذا المجذوب علىٰ الشيخ وأخذ منه الأمير.

والجواب: أنه لا ينبغي اعتقاد أن ذلك المجذوب أعلىٰ مقامًا من الشيخ، بل **كل مئة مجذوب لا يساوون مقام الشيخ الداعي إلىٰ الله تعالىٰ بحكم النيابة عن رسول الله ﷺ،**

---

(١) ساقط من الأصلين، مستكمل من «لطائف المنن» لابن عطاء الله السكندري.

(٢) عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري، أبو محمد، الإمام الحافظ المؤرّخ الكبير. ولد في شهر رمضان سنة ٥٨١هـ. في مصر. وقال: ابن قاضي شهبة: برع في العربية، والفقه، وسمع الحديث بمكة، ودمشق، وحرّان، والرّها، والإسكندرية، قال ابن ناصر الدّين: كان حافظًا كبيرًا، حجةً، ثقةً، عمدةً. له مصنفات منها: «التكملة لوفيات النقلة» و«الترغيب والترهيب» و«مختصر صحيح مسلم» توفي: ٦٥٦هـ. انظر: «شذرات الذهب» (١/ ٥٣) و«هدية العارفين» (١/ ٥٨٦).

بل سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: وعزة ربي، إن الفلاحين والمحترفين من المسلمين أعلىٰ مقامًا من هؤلاء المجاذيب السكارىٰ، لكثرة نفعهم وقيامهم بشعائر الدين وفروض الكفايات.

وبلغنا أن مجذوبًا كان طائرًا في الهواء، ثم نزل في زاوية سيدي الشيخ مدين، فجلس يكاشف الناس، فقال له سيدي مدين: كلُّ مئة عصفور لا يجوا حداية كالخروف. انتهىٰ.

ثم لا يخفىٰ أن الأشياخ تكره الركون إلىٰ الولاة المعتقدين فيهم الذين يقبلون شفاعاتهم، فكيف لا يكرهون من لا يعتقدهم ولا يميل إليهم؟! فيُحتمَل أن هذا الشيخ ترك الأمير اختيارًا لما رأىٰ اعتقاده تحول إلىٰ ذلك المجذوب، وعلم أن المجذوب لا تكليف عليه، ولا يُطالَب بأمر الأمير بمعروف ولا ينهيه عن منكر، فكأن ذلك المجذوب حجة للشيخ في ترك صحبة ذلك الأمير، لا أن المجذوب أقوىٰ حالًا ومقامًا من الشيخ، فاعلموا ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي العفة والزهد، ثم إنه بعد ذلك يرسل من مصر إلىٰ مدينة إسكندرية دينارًا واحدًا لبعض من عُرِفَ بالكرم هناك ليشتري له جوخة، فلاث به الناس وقالوا: هذا شحاذ لَبِق، لأن الدينار لا يكفي في ثمن الجوخة، ولكن قصده أن يأخذ منه جوخة بسيف الحياء، من غير أن يطالبه ببقية الثمن، وذلك ينافي دعواه العفة والزهد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون صاحبه الذي أرسل إليه الدينار بينه وبينه اتفاق قبل ذلك، كأن أوعده بأن يرسل له جوخة هدية من عنده وحلف علىٰ ذلك، فحلف الشيخ الآخر أنه لا يقبلها إلا إن وزن شيئًا من ثمنها، فأرسل له الدينار لأجل الحلف ولأجل هذا الاتفاق.

ويُحتمَل أن تكون الجوخة لشخص من العلماء والصالحين الزاهدين في الدنيا، وأنه رآه بردان، فقصد أن يشتري له جوخة تدفئه بعض ثمنها منه، وبعضه من ذلك الكريم

الذي في إسكندرية، لعلم الشيخ بطيبة نفس ذلك الكريم وحلّ كسبه.

ويُحتمَل أن الشيخ قصد بمثل ذلك ستر نفسه بين الناس بإظهار الشره والطمع بإرسال الدنيار ويأخذ به جوخة حين اشتُهر بالعفة، ورفعه الناس بذلك علىٰ أقرانه، كما يفعله الفقير المتمكن من حاله. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل إخوانك علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦١) ومما أجبتُ به عن خطيب جامع الأزهر الذي حط علىٰ العلماء الذين يقبلون مال الولاة، ويجيبون عنهم الأجوبة الحسنة، ويصفونهم بالعدل وعدم الظلم، حتىٰ أخرج العلماء عن دائرة أوصاف أهل الدين، ثم إنه أصبح يوم السبت، فدخل لبعض مشايخ العرب يشحذ منهم، ويطلب عادته من قمح وعسل وأرز ونقد، ووصف ذلك الشيخ عرب بالصفات التي ترجح علىٰ العلماء، فلاث به الناس وقالوا: أين خطبتك البارحة علىٰ المنبر وتوبيخك للعلماء الذين قبلوا مال الولاة؟! ولاشك أن مال الباشاه أحلُّ من مال مشايخ العرب الذين يبلصون الناس ويأخذون أموالهم بالتهم، ويمسكون الجار عن جاره، والقريب عن قريبه، ويأخذون منه المال الذي علىٰ جاره أو قريبه أو غيرهما بغير طريق شرعي، كما يعرف ذلك من خالط الولاة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الخطيب حتىٰ يُستفهَم عن سبب طلبه من شيخ العرب ما ذكر، فربما قصد بذلك زوال العجب بحاله لما مدحه الناس علىٰ حطِّه علىٰ العلماء، ونزهوه عن محبة الدنيا، فقصد بسؤاله لشيخ العرب أن يدخل في غُمار الناس، فلا يجوز لأحد الاعتراض علىٰ الخطيب قبل الاستفهام المذكور، وهل هو لنفسه، أو لغيره من أهل الضرورات، أو لأصحاب الحقوق الذين ظلمهم ذلك الشيخ العرب، وسألوا الخطيب أن يرد لهم ما أخذه ذلك الظالم وعرف أنه لو قال للظالم: رد إليهم حقهم، لا يجيبه، فطلب ذلك العسل أو الأرز أو القمح منه لنفسه حتىٰ يسمح به، ثم بعد ذلك يوصله إلىٰ أصحاب تلك الحقوق.

وكان هذا من شأن الشيخ كمال الدين المجذوب[١] في زمن يوسف[٢] ناظر الخواص، فكان يوسف هذا يعتقده ولا يخالفه في شيء يطلبه منه. وكان إذا جاءه مظلوم وقال له: إن يوسف أخذ مني ألف دينار مثلًا ظلمًا، يرسل الشيخ إليه أن يرسل له مع حامل الرسالة ألف دينار ولا يعوِّق عليه، فكان يوسف يرسلها للشيخ، فيعطيها الشيخ للمظلوم. وإن كان ليوسف علىٰ أحد من المفاليس دينار وعجز عنه وطلبه منه يوسف، يرسل الشيخ يقول: أرسل لي كذا وكذا بقدْر ذلك الدين، فإني محتاج إليه في هذا الوقت؛ فيرسله له، فيعطيه للمديون ويقول له: أعطه ليوسف في دينه، ثم يقول للحاضرين: «من خراهم[٣] في لحاهم يشعرون أو لا يشعرون» هذه عبارته. وكان يكتب له: «الذي يعلم به يوسف ابن اليهودية أن الحاجة داعية إلىٰ كذا وكذا» لا يستحيي منه، وكانت أمه يهودية حتىٰ ماتت، فاعلم ذلك يا أخي، واحمل الخطباء علىٰ أحسن المحامل، لتنتفع بوعظهم، ويكونوا قدوة لك، وإياك وحملهم علىٰ المحامل السيئة، فتعدم النفع وتقع في الإثم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي الزهد في الدنيا وعدم الالتفات بقلبه إليها وإلىٰ ما فاته منها، ثم إنه يقع منه نصف وهو مسافر إلىٰ بلاد الريف مثلًا ثم يتذكره، فيرجع إلىٰ ذلك بعد الميل[٤] والميلين وأكثر، فلاث به الفقراء وقالوا: تفتيشك علىٰ هذا النصف ورجوعك من نحو ميلين لأجله ينافي دعواك الزهد وعدم الالتفات إلىٰ الدنيا.

---

(١) كمال الدين المجذوب محمد بن صدقة بن عمر الدمياطي الشيخ، صاحب الكرامات والأحوال، وأحد الأولياء المشهورين، حفظ القرآن والتنبيه وألفية ابن مالك، وكان علىٰ طريقة حسنة كما سمعته من شيخنا ثم انجذب، مات في شوال ٨٥٤هـ. «الضوء اللامع» (٧/ ٢٧٠)، «نظم العقيان» ص١٥٠.

(٢) جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد البيري الحلبي نزيل القاهرة ولد سنة ٧٥٢ هـ كان أولاً بزي الفقهاء، وحفظ القرآن وكتبًا في الفقه والعربية، ثم قدم مصر بعد سنة سبعين وهو بزي الجند، ولا زال يترقىٰ، حتىٰ نفذ حكمه في الإقليمين مصر والشام، قتل سنة ٨١٢ هـ. «إنباء الغمر» (٢/ ٤٤٥)، «النجوم الزاهرة» (١٣/ ١٧٥).

(٣) الخرا: كلمة عامية تعني الغائط.

(٤) الميل: مِقياسٌ للطُّول ١٦٠٩ أمتار تقريبًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون ذلك النصف كان معه وديعة، فخاف من صاحبه أن يقول: ما آخذ إلا عين نصفي إما في الدنيا، وإما في الآخرة؛ فبالغ في التفتيش عليه لأجل ذلك. ويُحتمَل أن النصف كان له هو، ولكنه كان من وجه حلال لا يجد في ذلك الزمان مثله في الحل، وقد كان السلف الصالح يسافر أحدهم الشهر لأجل أكلة واحدة من حلال، فاحمل يا أخي إخوانك على المحامل الحسنة جَهدَك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٣) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق أو العالم الكبير إذا سمعناه يحلف بالطلاق الثلاث دفعة واحدة، ولاث به المتشرعون وقالوا: قد نهىٰ العلماء عن مثل ذلك لحصول الغرض بطلقة واحدة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الحالف، لاحتمال أن يكون ما جمع الطلقات الثلاث إلا احتياطًا لنفسه حين شك في وقوع الطلاق، واختلف المفتون في الوقوع وعدمه، فأراد بجمع الثلاث الأخذ بالاحتياط، وأن يستبريء لدينه وعرضه، كما أنه لا ينبغي اللوث علىٰ من شك في الحدث ثم أخرج ريحًا مثلًا ليتحقق الحدث، ويجدد طهارة صحيحة جازمة بالنية فيها.

فإن قال قائل: قد يكون في علم الله تعالىٰ أن زوجته تستحل وترجع إليه ثانيًا، وقد لعن الله المحلل والمحلل له. **فالجواب**: أن هذا الشيخ قد يكون غافلًا عما يترتب علىٰ طلاقه الثلاث جملة واحدة، أو مستحضرًا ذلك وهو مفوِّض إلىٰ الله تعالىٰ أمره، ثم يستغفر الله ويتوب إليه مع ذلك، فلا ينبغي اللوث به، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٤) ومما أجبتُ به عن العلماء الذين يخطِّئون أقرانهم بمجرد إشاعة الناس عنهم غلطًا في الشريعة، أو عقيدة فاسدة، أو أكل طعام حرام مثلًا، ولاث الناس بهم وقالوا: هذا من قلة ورع هؤلاء العلماء، ولو كانوا متورِّعين ما وقعوا في الحطِّ علىٰ أحد بمجرد الإشاعة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهم، لاحتمال أن يريدوا بذلك زجره عن تعاطي

الرذائل [التي تزري][1] به، حتىٰ تصير النقائص لا تُقبَل في حقِّه، ولو أنه كان حفظ ظاهره كلَّه لما كان الناس قبلوا ذلك عنه، بل كانوا يردون عنه أشدَّ الرد. ويُحتمَل أن العلماء قبلوا ذلك من باب ثبوت الوقف بالإشاعة، لشدة غيرتهم علىٰ الشريعة وعلمائها. وقد يكون حطهم علىٰ هذا الشيخ من باب الاجتهاد، فأدَّىٰ اجتهادهم إلىٰ أن إنكارهم علىٰ هذا الشيخ أفضل من جوابهم عنه أو سكوتهم مع وجود تلك الإشاعة.

وقد قدمنا في هذا الكتاب أن للأشياخ مؤاخذة بعضهم بعضًا بقبول التهم في حقِّهم، وعدم التحفظ من سد الأبواب التي تخدش مقام الأشياخ، كما إذا رأينا شيخًا في الطريق يتردد إلىٰ بيوت الظلمة من غير ضرورة شرعية، وأن ذلك أرجح من جوابهم عنه، علىٰ قاعدة أن الدفع مقدَّم علىٰ الرفع، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول ولو بالحال: لا أحد يجتمع بغيري في مصر مثلًا؛ فلاث به الناس وقالوا: فلان لا يحبُّ أن يكون لأحد من أقرانه اسم ولا مقام في قلب أحد من الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون ممن حبسه الله تعالىٰ في دائرة نفسه، ولم يرَ في بلده أحدًا أعلم منه بالشريعة ولا بالحقيقة، فأراد أن يجمع الناس علىٰ نفسه، ليقرِّب لهم الطريق، بقطع النظر عن ترجيح كونه شيخًا لهم، حتىٰ إنه لو برز في عصره من رآه أعرف منه بالشريعة والحقيقة، لدلَّ الناس عليه وجمع هو خاطره. فاحمل يا أخي إخوانك علىٰ المحامل الحسنة، وتصدَّر للمشيخة بسياسة وعدم ازدراء لأحد من إخوانك، واعمل علىٰ تحصيل مقام جمع الناس عليك بالحال دون القال، تسترح من عثرات اللسان، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حكىٰ عن نفسه أنه يقع له في الصلاة أنه يدعو المخبطين أو غيرهم من أهل السخرية إلىٰ بعض أماكن التنزهات مثلًا، ويصير ذهنه فيما

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

يقوله المخبظون، ويمثل نفسه جالسًا عندهم، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا خروج عن آداب الأشياخ في الصلاة، إنما المنقول عنهم أن أحدهم كان إذا دخل في الصلاة لا يخطر في باله غير الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون ممن تمكن في مقام شهود الحقِّ تعالىٰ مع كلِّ شيء بالوجود والخلق للأفعال، فإذا قُدِّر أنه رأىٰ غير الله، فهو يرىٰ الله معه، لابد من ذلك، وإذا رأىٰ الله معه سقط الكون وبقي الحق تعالىٰ وحده، لقول الجنيد ﵁: من شهد الخلق لم ير الحق، ومن شهد الحق لم ير الخلق. انتهىٰ. وفوق ذلك في التمكين ما هو أرقىٰ من ذلك، وهو شهود الخلق والحقِّ تعالىٰ معًا في آن واحد من غير أن يشغله شهود الخلق عن الحق. وقد بلغنا عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه كان يقول: إني لأدخل في الصلاة، فأرتب الجيش الذي أخرجه للجهاد فيها[1]. انتهىٰ. وحمله بعض العارفين علىٰ أن ذلك من جملة كماله ﵁، وأنه حكىٰ ذلك من باب التحدث بالنعم. وكذلك القول فيمن يخطر بباله شيء من الأكوان لا يقدح في كماله ولا في مقام توحيده الفعل لله تعالىٰ، فاعلم ذلك، واسلك طريق العارفين قبل أن تنكر عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي تساوي الأمكنة كلِّها عنده من حيثُ حضورُه مع الله تعالىٰ، ثم تراه يرجِّح المساجد علىٰ غيرها، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا يكذِّب دعواه أنه بين يدي الله في سائر الأماكن علىٰ حدٍّ سواء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن ترجيحه المسجد لا ينافي تساوي الأمكنة عنده بين يدي الله عزَّ وجلَّ، كما إذا كان أحدنا في حضرة مالك لمكان وأشار علينا بالجلوس في مكان مخصوص، لا يجوز لنا الجلوس في غيره، وإن كانت الأماكن

---

(١) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٠٣٤) قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، قال: صلىٰ عمر المغرب فلم يقرأ فيها، فلما انصرف قالوا له: يا أمير المؤمنين، إنك لم تقرأ، فقال: إني حدثت نفسي وأنا في الصلاة بعير وجهتها من المدينة، فلم أزل أجهزها حتىٰ دخلت الشام، قال: ثم أعاد الصلاة والقراءة.

كلها حضرته تعالىٰ، فتأمل، فلو أن صاحب الشهود أراد الاعتكاف في غير المسجد، لم يصح اعتكافه[1]، لأنه بغير إذن الشارع، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر أصحابه بالغسل كلما دخلوا الخلاء يوم شرب الدواء المسهل، ولو دخلوا في اليوم الواحد سبعين مرة ويقول: إن ذلك من السنة؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: بأي دليل يكون ذلك من السنة؟! ولم نر في مثل ذلك حديثًا واحدًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أنه من سنة السلف الصالح الذين كانوا يشددون علىٰ أنفسهم، كإبراهيم بن أدهم والسَّرِّي السَّقَطِي والشِّبْلي وأضرابهم. ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ أخذ هذا الغسل من عموم الأمر بالطهارة في عموم الأوقات، أدبًا مع الله تعالىٰ، من حيثُ إن العبد بين يدي الله عزَّ وجلَّ ليلًا ونهارًا شعر أو لم يشعر. ويُحتمَل أن هذا الشيخ قاس هذا الغسل علىٰ ما ورد في الغسل من الحجامة، ومن دخول الحمام وحلق العانة ونتف الإبط، بجامع أن كلًّا من هذه الأمور يضعف البدن، والماء ينعش الجسد من ذلك الضعف، بل ربما يكون الإسهال أقوىٰ من الحجامة في إضعافه البدن. فاعلم ذلك، وواظب علىٰ الغسل من الإسهال ولو مرة واحدة، فإن لم تستطع فعليك بالوضوء، **ولا تعود نفسك الكسل وارتكاب الرخص، فإن الرخص إنما هي للعوام لا لأهل الله عزَّ وجلَّ.**

فإن قال قائل: لو كان الغسل من الإسهال مأمورًا [به]، لبلغنا ذلك عن النبي ﷺ ولو في حديث؛ **والجواب**: أن رسول الله ﷺ كان يحب التخفيف عن أمته جهده، ويكل الفعل بالعزائم والتشديدات إلىٰ من يجد في نفسه قوة علىٰ ذلك. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إذ من شرط الاعتكاف أن يكون في مسجد.

(١١٦٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دخل علىٰ أمير يسلم عليه عند قدومه إلىٰ بلده من سفر مثلًا، فأعطاه الأمير شيئًا من الدنيا، فقبله منه بحضرة الناس، فلاثوا به وقالوا: كان الأولىٰ له أن يرد ذلك صيانة للخِرقة عن اللوث بها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون أخذ ذلك من الأمير قيامًا بناموس[1] الأمير، ثم بعد ذلك يرد ذلك علىٰ الأمير سرًّا. وقد فعل مثل ذلك الشيخ ناصر الدين الطبلاوي لما دخل علىٰ قاضي العسكر حين قدم من الحج، وأعطاه شاشين وخمسة دنانير، فقبلها منه، ولاث الناس به في ذلك. انتهىٰ. وذلك أحسن من الرد بحضرة الناس علىٰ ذلك الكبير، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الكلام في عِرْضِ العلماء والصالحين من غير تثبت، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٠) ومما أجبتُ به عن العالم إذا تكدر من طالبه حين ترك حضور درسه، وصار يحضر درس أحد من علماء شيخه، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا دليل علىٰ حب هذا العالم للرئاسة، وأنه يكره أن يكون في البلد عالم غيره، وما هكذا درج السلف الصالح، بل كانوا يحبون أن تكون أمة محمد ﷺ كلها علماء صلحاء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل تكدره من طالبه إذا قرأ علىٰ غيره، لاحتمال أن يكون تكدره لغرض شرعي، كما إذا علم من نفسه أنه أعلم من ذلك العالم الذي انتقل تلميذه إليه، وأحسن صبرًا علىٰ تفهيمه للمشكلات، فكان تكديره لله تعالىٰ لا لحظ نفس. وقد جعل بعضهم ذلك من باب حديث: «لا يبع أحدكم علىٰ بيع أخيه، ولا يخطب علىٰ خطبته»[2].

فإن قيل: يجب علىٰ العالم أن يعالج نفسه بالرياضة حتىٰ يصير لا يتكدر ممن يقرأ عليه إذا قرأ علىٰ غيره؛ **قلنا**: ليس كل عالم يتيسر له ذلك، بل يُقال: ولو شرع في علاج نفسه،

---

(١) بالأصلين: لناموس.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٤١٢).

حرم علىٰ غيره أن يفسد تلميذه عليه ما دام يتضرر بذلك، لحديث: «لا ضرر ولا ضرار»[1]، فالأولىٰ لمن أتاه طالب يريد القراءة عليه مكايدةً لشيخه حين طرده أن يقول له: اقرأ علىٰ غيري، فإن حفظ قلب شيخك عليَّ مقدم علىٰ قراءتك عليَّ وطيب خاطرك عليَّ.

وإن كان ذلك من باب إحياء الموات، فإن إحياء القلوب بالعلم كإحياء الأرض الميتة، وقد قال ﷺ: «من سبق إلىٰ مباح فهو له»[2]، فعُلِمَ أن كل من قال: «لا لوم علىٰ من يأخذ تلميذ غيره» فهو محمول علىٰ من لم يتأذَّ بذلك، كما هو حال المتمكنين في الطريق، وكل من قال: عليه اللوم بذلك فهو محمول علىٰ من يتأذىٰ بذلك من القاصرين، فالمدار في اللوم وعدمه علىٰ حصول الضرر وعدمه، ومع ذلك فالأولىٰ للعالم أن لا يقبل مريدًا ترك شيخه وأتىٰ إليه، ويقول له المثل السائر: «من لا له خير في قديمه ما له خير في حديثه»، لاسيما إن حصل بذلك غيبة وتنقيص للعالم الحديث وتحريك عداوة، فإنه يتعين طرده عنه جملة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه بلغ الغاية في مقام توحيد الأفعال لله تعالىٰ، ثم إنه نام يومًا عن التهجد مثلًا، فأصبح حزينًا علىٰ ذلك، فلاث به المريدون وقالوا له: أين دعواك التوحيد؟! فإن من شهد الفعل لله تعالىٰ دون نفسه لا يتأثر لفوات عمل من الأعمال، لاعتماده علىٰ عفو الله تعالىٰ لا علىٰ العمل، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] **يعني وهو عنه راضٍ** ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] **يعني ولا نفسه.**

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن تكديره من عدم قيام الليل لا ينافي توحيده؛ لأن شركة العبد نفسه في الفعل مع الله تعالىٰ لا يقدح في توحيده، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وغير ذلك من الآيات يفعلون يعملون يكسبون، فكان ندم هذا الشيخ كمالًا في مقامه، لمراعاته نسبة الأفعال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٣٠٧١)، والبيهقي في «السنن» (١١٧٧٩) والطبراني في «الكبير» (٨١٤).

إليه في الخير والشر كما أضافها الحق تعالىٰ إليه، ومن خرج عن ذلك فهو إما جبري وإما معتزلي، وكلاهما خروج عن الطريق المستقيم، فاعلم ذلك يا أخي، ولا تبادر إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أرسل كتابًا من مكة مثلًا يسلِّم فيه علىٰ أصحابه من العلماء والصالحين، فبدأ بالأسافل قبل الأعالي، ثم قال: وبالجملة، فالسلام علىٰ جميع معارفنا حتىٰ العالم الفلاني أو الشيخ الفلاني؛ فلاث أصحاب هؤلاء العلماء والصلحاء به وقالوا: هذا فيه ازدراء للعلماء والصالحين، وكان الأولىٰ تقديمهم علىٰ الظلمة والمباشرين الذين لا يصلحون أن يكونوا خدَّامًا لمن يُذكَر معهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنا نقول لهؤلاء: إن النطق بالسلام عليهم دفعة واحدة غير ممكن. ولو سلَّمنا أن ذلك ممكن، فلا ينبغي الاعتراض علىٰ الشيخ في تقديمه الأراذل علىٰ العلماء والصالحين، لاحتمال أن يكون له مقصد صحيح في ذلك، كأن يريد استمالة خاطر الظلمة والمكَّاسين إليه، ليمهد له بساطًا عندهم إذا رجع إلىٰ مصر مثلًا، فيقبلوا شفاعته في المظلومين، ويصونهم عن الوقوع في عرضه، بخلاف العلماء والصالحين، فإنه منهم في أمان من مثل ذلك، لما هم عليه من حسن الخلق والتواضع.

ويُحتمَل أن رأىٰ عند من أخرهم كبرًا وتعاظمًا علىٰ الناس، فأخرهم عنهم مشيًا علىٰ القواعد الإلهية في حديث: «من تواضع لله رفعه الله»، فإذا تنبهوا لأنفسهم وتواضعوا أكثر من إخوانهم، قدَّمهم عليهم، لاسيما إن كان الذي [أرسل][1] الكتاب شيخًا للمذكورين فيه وهم تلامذة له، فإنه لا حرج علىٰ الشيخ في ذلك.

ويُحتمَل أيضًا أنه سلَّم عليهم ورتبهم علىٰ حسب أعمارهم، لأن السلام أمان، فأعطىٰ الأمان من الموت لكلِّ واحد إلىٰ وقت انقضاء أجله. وكان ذلك من شأن سيدي إبراهيم المتبولي كما حكاه لي عنه شيخ الإسلام زكريا.

---

(١) تقدم تخريجه.

ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ سلَّم عليهم علىٰ حسب مراتبهم عند الله في التقديم والتأخير، كما كان عليه سيدي ياقوت العرشي وسيدي عليٌّ الخواص ﷺ، فلا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ بوجه من الوجوه إن شاء الله تعالىٰ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحذروا من المبادرة إلىٰ الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرسل هدية لأمير أو فقير ويقول لحامل الهدية: قل له:

وللكلب في زاد الكرام نصيب[١]

فلاث به أصحاب ذلك الأمير أو أصحاب ذلك الفقير وقالوا: كيف يجعل المسلم كلبًا؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أن الكرام الذين أنا متشبِّه بهم لا ينسون كلبهم، فكيف ينسون أخاهم الذي هو الأمير أو الفقير. ويُحتمَل أن يريد أن ذلك الأمير أو الفقير قد تكلَّب علىٰ شيء من شهوات الدنيا ولو في وقت من الأوقات كما هو الغالب، لأن الشيخ لا يتكلم بالكذب، وليس مراده بالكلب أن ذلك الأمير أو الفقير كلب كالكلاب المشهورة، والجامع بينهما التكلب. وفي كلام الشافعي ﷺ في ذم الدنيا:

وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلابٌ هَمُّهن اجتِذابها
فإن تجنبتها عشت سلمًا لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها[٢]

وفي كلام الجنيد ﵀: الدنيا جيفة، وكلابها محبوها، فمن طلب الجيفة فليصبر علىٰ مجالسة الكلاب. فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي طلب منه بعض أقرانه [أن يدخله][٣] **علىٰ الأمير أو قاضي العسكر الذي تقدمت له به صحبة، وقال: اشكرني عنده وبالغ في ذلك،**

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الأبيات للإمام الشافعي.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

فإن الكذب يجوز في بعض المواضع. فلما دخل ذلك الشيخ علىٰ الأمير قصَّر في وصفه كما أمره فيما يصفه، فلم يذكر إلا بعض أوصافه، فلاث به جماعة أخيه وقالوا له: لو لم تدخل أنت به لكان خيرًا له، والناس الذين يعرفون مقام الشيخ كثير.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في عدم الإطناب في مدحه كما طلبه أخوه، لأنه ربما خاف أن يبالغ[1] في وصفه بما ليس فيه، فيقيض الله تعالىٰ جماعة يذكرون لذلك الأمير ضد تلك الصفات التي وصفه بها كذبًا عقوبةً له ولواصفه علىٰ كذبهما، بخلاف من اقتصر في وصفه علىٰ الصدق، فإن الله تعالىٰ يقيض له من يؤيده ويذكره بالصفات الحسنة مجازاةً له علىٰ الصدق.

وسمعتُ سيدي الشيخ زكريا ﵀ يقول: ينبغي لمن يكون واسطة عند الأكابر في التعريف بمقام عالم أو فقير أن يكون متحدًا بمن يعرِّف ذلك الكبير به، فإن رآه لا يعظم فقيرًا إلا إن كان غيره من الأمراء معظِمًا له مترددًا إليه [قال: إن الباشاه مثلًا طلب الإذن لسيدي الشيخ في الزيارة، فلم يأذن له][2] وقال: نحن أحق بالزيارة أو سكت علىٰ الإذن فقط؛ وإن رآه لا يعظم إلا من حق له قدم في علم الشريعة والحقيقة. قال له: إن سيدي الشيخ رجل جامع بين علم الشريعة والحقيقة وله مؤلفات مفردة في ذلك لم يشاركه فيها أحد من أقرانه؛ وإن رآه لا يعظم إلا من انقطع عن التردد لأبناء الدنيا، قال له: إن سيدي الشيخ قد طلب أن يزوركم وهذا أمر ما وقع له مع غيركم، فإن قاعدته أنه لا يبدأ أحدًا من أبناء الدنيا بزيارة، وإنما يزوره مكافأة إذا تردد ذلك الكبير إليه مرارًا، أو رآه قد عزم علىٰ زيارته جازمًا بها، وقال: أنا أخرم قاعدتي في الزيارة لهذا الرجل لما بلغني عنه من الدين والخير وصفاء السريرة؛ وإن رآه [يعظِّم من][3] لا يأخذ معلومًا علىٰ وقف يكون

---

(١) بالأصلين: يطالب. والصواب ما أثبتناه.

(٢) سقط بالأصل.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

تحت نظره، ولا يقبل جوالي ولا مسموحًا، ويرد كل ما يأتيه من الولاة ورأىٰ الأمير يعظمه بذلك، ويصفه به وهكذا.

[تحذير النقيب من طلب اجتماع الشيخ بالأمير أو القاضي لغرض فاسد لبعض الناس]

وليحذر النقيب أن يكون الباعث له علىٰ طلب اجتماع الشيخ بالأمير أو القاضي غرضًا فاسدًا لبعض الناس، كأن يريد تعظيم الشيخ عند ذلك الأمير ليصير يشفع له في حاجته التي تعسر قضاؤها عنده، فإن ذلك لا ينبغي. وكذلك ليحذر من أن ينهي للشيخ كلامًا عن الأمير فيه تعظيم للشيخ، ليلين الشيخ للذهاب إلىٰ الأمير من غير تحقيق، فيذهب الشيخ إلىٰ الأمير فيجد الأمر بخلاف ذلك، فيَكلَح[1] الشيخ ويخجل، كما وقع لبعض الأقران أنه جعل له واسطة في اجتماعه علىٰ أمير، وكان الواسطة ساذجًا يعتقد أن استئذان خازندار الأمير إذن من الأمير، بناءً علىٰ إعلام الخازندار بذلك الأمير، والحال أن الخازندار ينسىٰ أن يبلغ الأمير الاستئذان، فخرج الشيخ معه يومًا إلىٰ أن دخل معه، فلم يجد عنده خبرًا من ذلك، فليحقق الشيخ الإذن ثم يدخل.

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد يكون نقيب الشيخ لا يعرف شيئًا من مقاماته مع خلطته به طول عمره، لعدم صلاحية النقيب للاطلاع علىٰ الأسرار، فلا يزال الشيخ مُطَلْسَمًا عليه حتىٰ يموت، ومثل هذا لا يصلح أن يكون واسطة في التعرف بين الشيخ وأحد من الأكابر لجهله، وإن كان يخدمه ليلًا ونهارًا، وإنما يكون واسطة بين الشيخ والأمير مثلًا من سلك الطريق وأشرف علىٰ مقام الشيخ واتحد به، وصار يدخل قلب الشيخ، ويترجم للأمير بما يراه فيه من الصفات الحسنة التي لا توجد عند أحد من أقرانه، وإن لم يكن كذلك فلا يهتدي أن يذكر إلا صفات نفسه هو، ومعلوم أن صفات مثله لا تورث الشيخ تعظيمًا، لأنه يرىٰ تلك الصفات ليست بكبير أمر حتىٰ يعظم الشيخ لأجلها. انتهىٰ.

---

(١) كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

وقد ظفرتُ طول عمري بنقيب واحد كان اسمه إبراهيم السندبصطي رحمه الله، كان يدخل قلبي ويترجمني للأمير حتىٰ لا يبقىٰ عند الأمير وقفة في كوني أعظم من جميع أقراني، ثم بعد ذلك يقضي علىٰ لساني منه ما شاء من حوائج المسلمين، فأسأل الله من فضله أن يجعلني رفيقًا له في الدار الآخرة.

فاجعل يا أخي من يعرف حالك واسطةً في التعرف بينك وبين من تريد من الأكابر وإن لم يكن منسوبًا إليك بالتربية، فإنه أولىٰ ممن خدمك ليلًا ونهارًا وهو جاهل بحالك. وممن صحبته علىٰ هذا الوجه من الإخوان سيدي إبراهيم بن الأمير، فإنه كالذي يدخل قلبي ويتكلم إذا أرسلته إلىٰ كبير، مع أنه لم يتدنس بمقام تربيتي، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا مني، اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يحذِّر الأمير الذي صحبه من أن يسمع فيه كلام الأعداء والحاسدين، فلاث به الحذاق من المريدين وقالوا له: إن السلف قد حذروا بعضهم بعضًا من القرب من الأمير أو من الركون إليهم، فكان الأولىٰ بهذا الشيخ أن لا يتعاطىٰ أسباب اعتقاد الأمير فيه وتعظيمه خوفًا من الركون إليه، فتمسه النار.

والجواب: أنه لا ينبغي للمريدين الاعتراض علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أن يكون تحذيره من سماع كلام الأعداء فيه له فيه غرض صحيح، كأن يقضي حوائج المسلمين عنده ويكفه عن الظلم، فإن الأمير ربما استثقل من شفاعة الشيخ، فصار يتمنىٰ أحدًا يجرحه عنده، لتزول حرمته من قلبه بالكلية، ويصير يرد شفاعته التي لا يقوم غيره مقامه فيها، كما وقع لي ذلك مع عامر بن بغداد وغيره، فكان أول ولايته يقبل شفاعاتي لا يكاد يرد منها شيئًا، فاجتمع به بعض جماعة ممن ينسب إلىٰ العلم، فأفسدوا عقيدته في الاعتقاد في سائر الأولياء الأحياء والأموات، حتىٰ إنه قال لي مرةً: أنا لا أعتقد في أحد من الخلق أن أحدًا منهم ينفع أو يضر إلا بإذن، فإذا تركتُ الاعتقاد فيهم فلا حرج عليَّ، لأن الأصل إرادة الله تعالىٰ، فلا حاجة لي بأحد منهم. فقلتُ له في أذنه سرًّا: إن رسول

الله ﷺ من الخلق بيقين. فقال لي في أذني: لا حاجة لي بشفاعة محمد يوم القيامة! [ثم انتبه][1] فرجع إلىٰ إيمانه وقال: تبتُ إلىٰ الله تعالىٰ عن هذا الاعتقاد، ولكن الله يجازي من كان السبب في ذلك من فقهاء السوء. ولم يزل بحمد الله تعالىٰ يعتقد في الصالحين حتىٰ مات، فأسأل الله تعالىٰ أن يحمي الأخ الصالح محمد بن داود من فقهاء السوء إذا تولَّىٰ البلاد إن شاء الله تعالىٰ في شهر [illegible][2] وتسعمئة آمين آمين. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم أن تبادروا إلىٰ الإنكار علىٰ من طلب من الأشياخ أن يُعظَّم عند الأمراء، فإن ذلك لغرض صحيح، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٦) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول لبعض تلامذة مشايخ الطريق إذا صحب أميرًا: قل لشيخك: لا تركن إلىٰ هذا الأمير أنت ولا جماعتك، فتمسكم النار؛ فلاث به جماعة الشيخ وقالوا: سلمنا أننا نركن إلىٰ الأمير لأجل إحسانه إلينا، فكيف يقول ذلك في حق الشيخ ﵁ مع علو مقامه في الزهد في الدنيا وأهلها؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم من حيثُ نهيه الشيخ مع جماعته عن الركون إلىٰ أمراء الجور، لأنه قد يريد بجمعه مع تلامذته في النهي عن الركون المذكور التأنيس لهم، لا صحة وقوع الشيخ في الركون إلىٰ الذين ظلموا، قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣] فجمع تعالىٰ نبيه مع عصمته في ضمير «تركنوا» و«تطغوا» تأنيسًا لأصحابه الذين تابوا معه، ولاشك أن ذلك إنما هو تأنيس لهم، لانعقاد إجماع المسلمين أنه ﷺ معصوم من الطغيان والركون، فاعلم ذلك، فإنه معنىٰ لطيف ربما لم يخطر لك علىٰ بال، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الصادق الخارج عن رعونات النفس إذا مرض

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) مكتوب في حاشية الأصل: تاريخ ولاية محمد بن داود عمر رحم الله والده رحمة واسعة.

أخوه فلم يعده مع طول مرضه شهورًا عديدة، فلاث به أصحاب أخيه وقالوا: هذا إخلال بحق الأخوة الوارد في حديث: «حق المسلم على المسلم ست» فذكر منها «وإذا مرض عاده، وإذا عطس شمَّته»[1].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه رأى ذلك المرض رفع درجات، أو كفارة لذنب وقع فيه، أو عقوبة على ذنب، فأدَّىٰ اجتهاد هذا الشيخ أن لا يعود هذا الأخ، لعدم قدرته على تخفيف المرض عن أخيه، وقال: لا فائدة للعيادة إلا تخفيف المرض بالدعاء له؛ وإن كان الأولىٰ للعبد أن يعود أخاه امتثالًا لأمر الشارع، فافهم. فلا ينبغي الاعتراض إلا على من ترك عيادة أخيه تهاونًا بحقِّه، لا غفلة ولا سهوًا ولا تأويلًا كهذا المجتهد، فإنه ربما قال عن المرض: إذا كان رفع درجات أو كفارة، فلا ينبغي لمؤمن سؤال رفعه، بل يدعو له بالتدبير والصبر. وأما إذا كان عقوبة فلا ينبغي الدعاء بترك العقوبة إلا إن أشرفت مدتها على الفراغ، فيشفع فيه إذا بقي درجة أو سوط ونحوهما، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي زاره قاضٍ، فلم يقم له الشيخ، فتحركت نفس القاضي، ولاث أصحابه بالشيخ وقالوا: كان الأولىٰ أن يقوم له تعظيمًا لمنزلة الشارع لو لم يكن إلا أنه من حملة العلم والقرآن.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون اطلع من طريق كشفه على ما في نفس هذا القاضي من الكبر، وأنه يحب من الناس القيام له فأشفق على دينه بعدم القيام له، خوفًا أن يزداد عذابًا بقيامه له، فإن في الحديث المتواتر مرفوعًا: «من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»[2]، فحكم الشارع ﷺ بتبوء هذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٢) وتمامه: «حق المسلم على المسلم ست» قيل: ما هن يا رسول الله؟، قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فسمته، وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه»، وأحمد (٨٢٧١).

(٢) تقدم تخريجه.

الشخص مقعده في النار بمجرد محبته للقيام، فكان من شفقة الشيخ عليه أن لا يوافقه في القيام، فتعظم محبته للقيام، فيشتد عذابه، فإن للمباشرة أثرًا زائدًا علىٰ حكم الفرض والتقدير، ثم إن هذا القاضي إذا تكدر منه في الدنيا سوف يشكر فضله عند كشف الغطاء.

فإن قال قائل: إنه لا ينبغي عمل الشيخ بكشفه إلا بعد عرضه علىٰ الكتاب والسنة وموافقته لهما، فأين الموافقة؟ **قلنا**: وجود تكدير القاضي قرينة علىٰ وجود محبته للقيام له، والقرائن إحدىٰ الأدلة كما هو مقرر في كتب الفقه. وبالجملة، فلا ينبغي لأصحاب الأنفس الردية زيارة أحد من الفقراء خوف المقت، إنما تكون الزيارة لمن اضمحلت رعونات نفسه، حتىٰ رأىٰ أن حضوره عند الفقير ينجِّس حضرته، ومثل هذا لا يخرج من حضرة الفقير إلا بفتوح.

وقد ظفرت طول عمري بثلاثة أنفس من قضاة مصر يكرهون القيام لهم، ويتكدرون ممن يقوم لهم، وهو نادر في ذوي المناصب. وقد قمتُ مرةً لواحد منهم، فتكدَّر وظهر لي صدقه، فلم أقم له بعد ذلك رحمةً به، فانظر يا أخي ما بين هذا وبين من يتكدَّر من عدم القيام له، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

(١١٧٩) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق أو العالم الكبير إذا ورد عليه كتاب السلطان الأعظم كسليمان ابن عثمان، فنهض له قائمًا تعظيمًا له من حيثُ إنه حامي بيضة الإسلام وجمع نظامه، فلاث به بعض المتنطعين وقالوا: لا ينبغي من هذا الشيخ أن يقوم لمثل ذلك فإنه بدعة، وغاية أمره أن يكون ككلام أحد من الأئمة المجتهدين، ولم يقل أحد باستحباب القيام له إذا ورد في كتاب من كتب العلم، بل لم يبلغنا استحباب القيام لشيء من كتب الأحاديث.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل قيامه لكتاب السلطان، فإنه أدب لا تأباه الشريعة، وقد قالوا: يستحب القيام لأهل الفضل، ولا فرق في القيام لذواتهم أو صفاتهم، فإن كلامهم الذي أملوه في المرسوم أو كتب بإذنهم وتقريرهم كذواتهم، فهو

ملحق في الاستحباب بكلام العلماء تعظيمًا لهم. ومعلوم أن الأدب لا تأباه الشرائع، فلا ينبغي الإنكار علىٰ فاعله ولو لم يرد فيه شيء بخصوصه.

وربما كان قيام ذلك العالم أو الشيخ لكتاب السلطان ينبني عليه مصالح للرعية إذا بلغ السلطان أن ذلك العالم أو النائب مثلًا قام لكتابه وعظَّمه وقبَّله ووضعه علىٰ عينيه.

وبالجملة فتعظيم السلطان مطلوب وكذلك سائر نوابه، لأنهم حماة دين الإسلام، ولا ينبغي اللوم إلا علىٰ من بالغ في التعظيم حتىٰ رأىٰ رفعته عن مقام العبيد، كما أشار إليه حديث: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيح، بل قولوا: عبد الله ورسوله»[1]. انتهىٰ.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي تعظيم قانون السلطان حتىٰ يكون نظير شرع رسول الله ﷺ في وجوب العمل به، بل السلطان نفسه لا يرضىٰ بمثل ذلك أدبًا مع رسول الله ﷺ. وبالجملة، فأفعال العلماء والصالحين غالبها اجتهاد، ولا اعتراض علىٰ المجتهدين فيما يترجح عندهم من نحو ما نحن فيه، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي مرض مرضًا شديدًا وله صاحب من الصوفية فلم يَعُدْه ولم يرسل له سلامًا، فلاث به جماعة ذلك العالم وقالوا: والله إن صحبة هؤلاء المتصوفة خسارة! ووقعوا في عرض ذلك المتصوف.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون رأىٰ عند ذلك العالم ركونًا واستنادًا إلىٰ الخلق دون الله تعالىٰ، فطلب الشيخ تخليصه من ذلك بعدم عيادته، ليستعد بذلك للمواهب الإلهية، فإن الحقَّ تعالىٰ لا يعطها إلا لمن صح استناده إليه دون خلقه إلا بإذنه، فاعلموا ذلك والحمد لله رب العالمين.

(١١٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير إذا أكل مع جماعة في وليمة أو غيرها من طعام الغير، وصار يلتقط اللحم من بين يدي إخوانه، ولاث به الحاضرون وقالوا: إذا كان هذا فعل العلماء والصالحين، فما بقي أحد يُلام علىٰ ترك الأدب.

---

(١) تقدم تخريجه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ في الطريق، فإن مثلهما لا يجهل سوء الأدب في ذلك، وينبغي حمله علىٰ السذاجة، فصار ينقي اللحم وهو غافل عن حكم الأدب في ذلك، أو علىٰ أنه فعل مثل ذلك إحسانًا للظن بإخوانه، وأنهم لا يتكدرون من مثل ذلك، قياسًا علىٰ نفسه هو، أو علىٰ أنه استأذن صاحب الطعام في أن يأكل كلَّ ما وصلت إليه يده من مطايب الطعام، فما أكل إلا حلالًا صرفًا، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في مجلسه جماعة لهم صوت جهوري، بحيث صار مجلسه يُضرَب به المثل في قوة عزم أهله، ثم إن الجماعة المذكورين فارقوه إلىٰ مجلس شخص من أقرانه، وانتقل ذلك العزم إلىٰ مجلسه، وضعف عزم أهل المجلس الأول، فتكدر شيخه من هؤلاء الجماعة، فلاث الفقراء به وقالوا: هذا يدل علىٰ عدم الإخلاص، فإن المخلص يحب الخير للناس من غير تخصيص بأن يكون ذلك علىٰ يديه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في تكدره من الجماعة المذكورين، حيث إن كشفه أدَّاه إلىٰ أن فتحهم لا يكون إلا علىٰ يديه، فرجع تكدره إلىٰ طلب حصول مصلحتهم، وإن كان في ضمن ذلك مصلحة [له][1] أيضًا من حيثُ الأجرُ والثوابُ الحاصلُ لهذا منهم علىٰ يديه. ولا يجوز حمل الشيخ علىٰ التكدر علىٰ الغرض النفساني، لأن الأشياخ منزَّهون عن ذلك في العادة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ورد عليه ضيوف من الفقراء من بلاد بعيدة، فلم يلتفت إليهم، ولم يقم بواجب حقِّهم من أكل وشرب وغير ذلك، مع سعة الدنيا التي في يديه، فلاث به الناس وقالوا: قد أمر رسول الله ﷺ بإكرام الضيف، لا سيما من جاء من بلاد بعيدة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له عذر في عدم

(١) ساقط من «ب».

الإقبال عليهم، كأن رأىٰ بينهم شحناء، وقد ورد في الحديث: «إن الله تعالىٰ لا يقبل عمل المتشاحنَين ويقول للملائكة: دعوا عمل هذين حتىٰ يصطلحا»[1]، فكان في عدم إقبال هذا الشيخ علىٰ أولئك الضيوف الذين بينهم مشاحنة مشي علىٰ الأخلاق الإلهية، فلم يطعمهم الشيخ ولم يسقهم الماء، ولا فرش لهم ولا دفاهم في الشتاء، زجرًا لهم وتنفيرًا، لا بخلًا عليهم وإخلالًا بحقهم من غير عذر، فاعلموا ذلك، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أفعال الشيخ، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير الذي مات له ولد، فقال في دعائه له: اللهم إني قد تجاوزتُ عن حقي الذي كان لي عليه، فتجاوز يا رب عن حقِّك الذي لك عليه؛ فلاث به بعض الناس وقال: إن في هذا القول رائحة سوء أدب مع الله تعالىٰ، حيثُ جعل نفسه أصلًا في التجاوز، وجعل ربه فرعًا فيه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، وليس في كلامه ما يشعر برائحة سوء أدب، بل هو في غاية الأدب مع الله تعالىٰ، فإنه يعلم من أخبار الشريعة وقواعدها أن الله تعالىٰ جعل رضاه في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما، فلا يرضىٰ تعالىٰ عن الولد إلا إن رضي عنه والداه، فكأن الشيخ يقول: يا رب، إنك علَّقتَ التجاوزَ عن ولدي علىٰ تجاوزي عنه، وهأنا قد تجاوزتُ عنه، فتجاوز يا رب عنه، فهو من باب قوله تعالىٰ ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: ١١٢] أي الذي وعدتني يا رب أنك تحكم به بيني وبين قومي في الآخرة، فليس لهذا الحق الذي يحكم به الله تعالىٰ مقابلٌ يخاف من وقوع الحكم به، فإن الله تعالىٰ لا يحكم إلا بالحق، فافهم، وإياك والمبادرة بالإنكار علىٰ الأكابر، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٦٥) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا؛ إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا» وأبو داود (٤٩١٦).

(١١٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول في دعائه: اللهم استر محمدًا ﷺ بين أمته ولا تخذله بينهم يوم القيامة؛ فلاث به بعض المجادلين وقال له: هذه دعوىٰ عريضة لا تكون إلا من الأعلىٰ للأدنىٰ، مثل قول الشيخ لمن سأله الدعاء: اللهم تب علىٰ فلان.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد بذلك خدمة رسول الله ﷺ، وفتح باب الرضا عنه بذلك، فإن الله تعالىٰ يحب كلَّ من كان يحب محمدًا ﷺ، فهو من باب سؤالنا ربنا أن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، ولكن ينبغي لهذا الداعي أن يشهد محمدًا ﷺ حاضرًا معه في تلك الحضرة، وأنه ﷺ أقرب إلىٰ الله تعالىٰ منه في جميع المقامات، فليحذر العبد بأن يقول مثل ذلك مع شهود نفسه [القرب][1] من حضرة الله تعالىٰ وبُعد محمد ﷺ منها كما يقع لبعضهم في حضرة خطابه للحقِّ جلَّ وعلا، فيمثل نفسه في حضرة الله في سجوده كقاب قوسين، ويمثل محمدًا ﷺ في قبره بالمدينة المشرفة بعيدًا عن تلك الحضرة، فإن فيه رائحة سوء الأدب، فإن الحق تعالىٰ لا يتحيز، وحضرة محمد ﷺ منه دائمًا أقرب الحضرات، فاعلم ذلك، واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٦) ومما أجبتُ به عن طالب العلم علىٰ مذهب الإمام مالك إذا صار يزور قبور أصحاب الإمام مالك[2] بالقرافة كل جمعة مثلاً، ولا يزور قبر الإمام الشافعي أبدًا، ولاث به أصحاب مذهب الإمام الشافعي وقالوا: إنه قليل الاعتقاد في الإمام الشافعي.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الطالب، ولا نسبته إلىٰ أنه غير معتقد للإمام الشافعي إذا لم يزره، لاحتمال أن تكون دائرة علمه ضيقة لا تسع اعتقاد شيخين معًا في آن واحد، فقال في نفسه: إن اعتقادي في الإمام مالك الذي هو شيخ الإمام الشافعي واعتقادي في الإمام أشهب[3] وابن القاسم يكفيني في طريق سيري في مذهبي. وأما الإمام

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) وتعرف بأسم مسجد السادات المالكية، قريبًا من جامع السيدة عائشة بنت جعفر الصادق.

(٣) أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم القيسي. يقال: اسمه مسكين، وأشهب: لقب له. فقيه الديار

الشافعي فربما خالف قواعد مذهبي في بعض المواضع، فإذا ملتُ إليه في الاعتقاد كأهل مذهبه، ربما تزلزلتُ عن اعتقادي في إمامي، فأنا معتقد في إمامي ومسلِّم لغيره من الأئمة، ولا أجهل فضلهم ولا علمهم.

ومثل هذا لا ينبغي اللوث به بحيث يُنسَب إلىٰ الضلال وبغض الإمام الشافعي، لما ذكرناه من حبسه في دائرة علم أئمة مذهبه، فهو كالمريد في طريق الصوفية لا يُطالَب أن يجتمع بغير شيخه، وإنما الواجب عليه ملازمة شيخه فقط حتىٰ يبلغ مراتب الكمال، وهناك يأخذ العلم من حيثُ أخذه الأئمة، فيصير يرىٰ أحدهم بعين الأخوة لا بعين الأستاذية، ولا يُطالَب بالتقيد علىٰ أحد، فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك من سوء الظن، ومن التعصب المؤدي إلىٰ تنقيص غير إمامك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٧) ومما أجبتُ به عن العالم الذي اشتُهرت تلامذته بالعلم أكثر منه، وصار أحدهم له قول في مذهبه أو مرجع لأقواله دون شيخه، فظن بعض الناس أن ذلك التلميذ أعلم من شيخه.

والجواب: أنه لا ينبغي لمسلم يخاف علىٰ دينه أن يظن هذا الظن، فقد يكون هذا العالم الذي علَّم العلم لذلك التلميذ من أهل التمكين في الإخلاص ومعاملة الله عزَّ وجلَّ بالصدق، فنفخ علمه في تلميذه واستتر هو بين الناس، فلم يشر أحد إليه بالأصابع، فأعطاه الله تعالىٰ أجر جميع علوم تلامذته، لأنها له بالأصالة، ولم ينقص من أجورهم شيئًا. ولم يزل العلماء العاملون يختارون الخفاء في هذه الدار، وينسبون ما فتح الله به عليهم إلىٰ غيرهم، حتىٰ كان الإمام الشافعي يقول: وددتُ أن الخلق يعملون بهذا العلم الذي استنبطتُه من الكتاب والسنة ولا يُنسَب إليَّ منه شيء. انتهىٰ.

فإياك يا أخي أن ترجِّح تلامذة العلماء الذين اشتُهروا بالعلم أكثر من أشياخهم،

المصرية في عصره. ولد: ١٤٠هـ. كان صاحب الإمام مالك. قال فيه الشافعي: ما أخرجت مصر أفقه من أشهب، لولا طيش فيه. توفي: ٢٠٤هـ انظر: «السير» (٩/ ٥٠٠) و«شذرات الذهب» (٣/ ٢٤).

وصار لهم الباع دونهم، كنافع[1] شيخ مالك، وكمسلم بن خالد الزنجي[2] شيخ الشافعي، وكالشيخ سلار بن [الحسن] كمال [الدين] الإرْبلي شيخ النووي، وكالشيخ عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل المالكي وأضرابهم. وإياك وأن تقول لمن تراه يطالع في العلم ليلًا ونهارًا ولا يدرِّس ولا يكتب علىٰ الفتيا مثل أقرانه وتقول: لو أن هذا اشتغل بتلاوة القرآن والذكر مثلًا، لكان أفضل له؛ فقد يكون ذلك الرجل من أولياء الله الذين يمدون جميع علماء بلادهم بعلوم الشريعة تدريسًا وإفتاءً وشرحًا للكتب[3]، ومثل هذا أجره موفر في غير آفة تدخل عليه في علمه، وقد يقيض الله تعالىٰ له أقوامًا من المخلصين يسألونه عن أمور دينهم أفرادًا لا يشعر أحد بهم، ويرزقهم العمل بكل ما يعلموه منه، ويحرم ذلك المدرس من الأجر بتعليمه العلم لأصحابه، كما هو الغالب في جماعة العلماء، فلا يُرَىٰ من يشهد له الناس بالعمل بعلمه منهم إلا القليل، والعاقل من حاسب نفسه في هذه الدار، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي مرض أخوه فلم يعده ودُعِي إلىٰ عيادته مرات فلم يجب، فلاث به أصحاب المريض وقالوا: إنه يكره شيخنا! كيف يمرض أخوه مدة شهر ولم يعده؟! فأين المحبة والصدق في الإخوة في هذا الزمان؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم من حيثُ تركُه عيادة أخيه، فقد يكون اطلع علىٰ أن مرضه رفع درجات، أو تكفير خطيئات، أو عقوبة ولكن لم يأت وقت انقضائها،

(١) أبو عبد الله نافع مولىٰ عبد الله بن عمر ﷺ من كبار الصالحين التابعين. وهو من المشهورين بالحديث، ومن الثقات الذين يؤخذ عنهم ويجمع حديثهم ويعمل به، وأهل الحديث يقولون: رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب لجلالة كل واحدٍ من هؤلاء الرواة. توفي: ١١٧هـ وقيل: ١٢٠هـ. انظر: «وفيات الأعيان» (٥/ ٣٦٧).

(٢) أبو خالد مسلم بن خالد المخزومي الزنجي المكي. مولىٰ بني مخزوم. ولد: ١٠٠هـ أو قبلها بيسير. روىٰ عنه: الإمام الشافعي، ولازمه، وتفقه به، حتىٰ أذن له في الفتيا. توفي: ١٨٠هـ. «السير» (٨/ ١٧٦) و«شذرات الذهب» (٢/ ٣٥٨).

(٣) انظر الجوابان: (٩٦١)، (١١٢٨).

سواء أكان ذلك العالم علم ذلك من طريق كشفه أو بالقرائن، فخاف على أجر أخيه أن ينقص إذا عاده بتخفيف المرض عنه بحضوره، فيفوته رفع الدرجات، أو تكفير الخطيئات، أو يحضر قبل انقضاء مدة العقوبة، فلا يحصل للمريض به فائدة. **فإياك يا أخي والمبادرة إلى الإنكار على كل من كان أعلم بالشرع منك، فإن له مشهدًا غير مشهدك.**

وهذا أمر محتاج إليه الطبيب أيضًا، فإنه ربما وصف للمريض الذي مرضه رفع درجات أو تكفير خطيئات ما يخفف عنه المرض، فيسيء في حقِّه باطنًا، وربما رجحت هذه الإساءة على أجر تخفيف المرض الذي طلبه المريض والطبيب. وربما وصف الطبيب دواءً يخفف مرض من كان مرضه عقوبةً له، فزادت القدرةُ الإلهيةُ العقوبةَ بشدة المرض على خلاف ما قصد الطبيب، فليكن الطبيب عارفًا بمراتب المرض، فلا يداوي مريضًا إلا في قسم العقوبة إذا أشرفت على انقضاء مدتها لا غير، ويجتنب مداواة من كان مرضه رفع درجات أو تكفير خطيئات أو لم تبلغ العقوبة فيه حدها.

وقد أرشدتُ أخي العبد الصالح العلامة الشيخ سري الدين ابن الصائغ[1] الطبيب بالبيمارستان بمصر إلى مثل ذلك، فصار لا يداوي إلا من أشرف على انقضاء عقوبته، وعرَّفتُه بأمارات مراتب المرض فعرفها، وهو أنه إن رأى المريض منشرحًا بالمرض ولا يطلب تحويل المرض عنه، فليعلم أنه رفع درجات، وإن رأى المريض يتألم بذلك المرض تألمًا شديدًا، ولكنه صار ليس عنده ضجر ولا سخط، فليعلم أنه كفارة لخطيئاته، وإن رآه متألمًا وعنده ضجر وسخط، فليعلم أن مرضه عقوبةً، فيصبر عن مداواته أدبًا مع الله تعالى حتى يرى السخط والضجر قد شرعا في النقص، فهناك يصف له الدواء، كما يصبر الشافع عن الشفاعة فيمن اشتد غضب الوالي عليه ومدَّه للضرب حتى يضربه ضربات، فإذا أخذ غضبه في الخفة، شفع فيه حينئذ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سري الدين بن أحمد بن سراج الدين المعروف بابن الصائغ، انتفع بأبيه في الطب، وتولى قديمًا تدريس الحنفية بالمدرسة البرقوقية، ومات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصوري ورئاسة الأطباء، كانت ولادته سنة ٩٤٥ هـ وتوفي في شهر ربيع الأول سنة ١٠٣٦ هـ. «خلاصة الأثر» (١/ ٢٠٤).

(١١٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكثر من حضور الولائم في بلده، فلا يكاد يفوته حضور وليمة، ولاث الناس به وقالوا: هذه سقاطة نفس لا تليق بأشياخ الطريق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد بذلك دخوله في غُمار الذين لا يؤبه لهم من الضباع الذين يحضرون الولائم، أو يكون من رجال الرحمة الذين يحضرون كلَّ موضع فيه معصية، فيحوطون العصاة من أن ينزل عليهم بلاء، وإن كان ذلك الطعام الذي يؤكل في الوليمة حرامًا، سألوا الله أن يغفر لمن أكله، ويرضي عنه أصحابه يوم القيامة.

ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ أيضًا ممن يتداوىٰ بالأكل من فضلة أكل المسلمين، فيحضر ويصبر حتىٰ يفرغ الناس من الأكل، فيتقدم ويلحس الأواني يبتغي الشفاء بذلك من مرض كان به، كما كان عليه طائفة من الفقراء. فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك من سوء الظن بالناس، فربما أن جميع أعمالك الصالحة عندك لا يرضىٰ بها واحد في مقابلة سوء ظنك به، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جاور بمكة المشرَّفة، ثم أرسل إلىٰ أصحابه في مصر مثلًا يقول لهم: كاتبونا بما يقع من الناس في مصر من الفواحش والرذائل؛ ليحيط بذلك علمًا، فلاث به بعض الناس وقالوا: كان عدم مجاورة هذا في مكة أفضل له! كيف يقيم في حضرة الله تعالىٰ الخاصة ويصير متلفتًا إلىٰ الاطلاع علىٰ عيوب الناس من أعدائه وغيرهم؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به بسبب ذلك، ولا حمله علىٰ محبته للاطلاع علىٰ نقائص الناس لغير غرض صحيح، بل يجب حمله علىٰ أنه ما طلب من أصحابه في مصر أن يطلعوه علىٰ أخبار الناس ونقائصهم إلا ليستغفر لهم، ويدعو لهم في تلك الأماكن المشرفة التي[1] يُرجَىٰ إجابة الدعاء فيها، أو ليأخذ الآخر حذره من أن يقع فيما وقعوا،

(١) بالأصلين: حتىٰ. والصواب ما أثبتناه.

أو ليشكر الله تعالىٰ الذي عافاه مما ابتلىٰ به كثيرًا من أقرانه وأعدائه. فاعلم [ذلك]، واحفظ لسانك في حق أهل العلم والصلاح وغيرهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرمز للناس تاريخ الأمور التي يحدثها الله تعالىٰ في الزمان المستقبل من حصول موت، أو تولية إنسان أو عزله. فلاث الناس به وقالوا: إن كان صادقًا في كشفه، فليخبرنا بذلك صريحًا، أو يكتبه بخط يقرؤه الخاص والعام، لنبني علىٰ كلٍّ مقتضاه من اعتقاد فيه الصلاح أو تركه، ولكن هذا يشبه قول بطرك النصارىٰ لهم: «إن هذه السنة تكون عظيمة علىٰ الناس» كلامًا مجملًا، فإن جاءت سنة مليحة قال: أنا قلت لكم ذلك، أو سنة شديدة قال: أنا قلت[١] لكم ذلك.

والجواب: أن الفقراء يتبعون[٢] في ذلك الرمز أخلاق الباريء جلَّ وعلا في رمزه أوائل السور من ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾و﴿الٓر﴾و﴿الٓمٓر﴾و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ ونحو ذلك، ووكل ذلك إلىٰ معرفة العلماء به سبحانه وتعالىٰ. وقد استخرج الشيخ محيي الدين من ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم:١-٢] في كتابه المسمىٰ بـ«عنقاء مَغْرب» يوم خروج المهدي، وولاية السلطان سليم ابن عثمان مصر وقتله ملكها وأمراءها، وأن ذلك يكون في سنة اثنين وعشرين، وأنه يدخل مصر أول يوم من سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة، فكان الأمر كما قال. وهذا هو سبب بناء السلطان المذكور علىٰ الشيخ محيي الدين بن العربي تكية في دمشق وشدة اعتقاده.

وسمعت سيدي عليًا الخواص ﵀ يقول: إذا كُشِفَ لأحدكم عن ولاية أحد أو عزله، فلا ينبغي له أن يفشي ذلك بين الإخوان، لأنه لا يعلم أحد ما في مكنون علم الله عزَّ وجلَّ. وأما ما ظهر فقد يكون مما يدخله المحو، وفي قدرة الله تعالىٰ أن يري العبد ما لا حقيقة له في نفس الأمر، كالسراب يحسبه الظمآن ماء، وكالمشعوذ يريك حلاوةً

---

(١) بالأصلين: ما قلت؛ في الموضعين، والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: يتبعوا، والمثبت الصواب نحويًّا.

وعسلًا، ونارًا تحرق عمامتك حتىٰ تصير رمادًا، ولا حقيقة لذلك، فالعاقل من كتم سرَّه الذي أطلعه الله تعالىٰ عليه حتىٰ يظهر الأمر للخاص والعام.

وكان ﷺ يقول: إذا كُشِفَ لكم عن وقت حدوث أمر في المستقبل، فاكتموا ذلك إلىٰ وقت ظهوره، فإن وافق ذلك وقت الكشف، فاحمدوا الله الذي أطلعكم علىٰ مثل ذلك، وإن خالف، فاعلموا أن محل الكشف من قلوبكم كان مستورًا عنكم بأكلكم شيئًا من الشهوات، أو وقوعكم في ذلك.

قال: وقد كُشِفَ لي عن مولود في بطن أمه أنه ذكر، ووضعتُ يدي علىٰ ذكره وأنثييه، ثم ولدت أمه أنثىٰ، فعلمتُ أن الله تعالىٰ أراد أن يعلمني بأن القدرة لها التغيير والتبديل لا تدخل تحت التحجير علىٰ قدْر ما يطلع عليه العباد. انتهىٰ.

وبالجملة، فمن فهم قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٤] عرف ما ذكرناه، فإنه إذا نهىٰ سيد المرسلين عن الجزم بشيء يقع في المستقبل فكيف بغيره؟! وذلك لأن خلق الفعل راجع إلىٰ الله لا إلىٰ العبد، ولا يعلم أحد ما في مكنون علم الله ولو ارتفعت درجته، لأن لله علمًا أخص لا يعرفه نبي مرسل، ولا ملَك مقرَّب. فاعلم يا أخي ذلك، وإياك أن تصرِّح بما أطلعك الله تعالىٰ عليه من الأسرار، فإنه تعالىٰ ربما حجبك بعد ذلك عن حضرة قربه، فلم يطلعك علىٰ شيء من أسراره، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٢) ومما أجبتُ به عن المريد الذي صحب شيخًا زمانًا طويلًا، ثم إن الشيخ أغلظ عليه يومًا شخص من أعدائه وما خلىٰ في عرضه ولا بقىٰ، والشيخ ساكت، فقال له هذا المريد: لولا أنك لك يا سيدي الشيخ زلة تحت يد هذه العدو لما سكتَّ له؛ فلاث به أصحاب الشيخ وقالوا: كيف تحمل شيخك علىٰ أنه ما سكت عن جواب عدوه إلا لوقوعه في زلَّة؟!

والجواب: أنه لا يقدح في محبة هذا المريد لشيخه حمله علىٰ أن له زلة، لأنه ما

حمله إلا علىٰ قدْر ما وصل إليه علمه من حال نفسه، ولو أنه كان مفتوح اليقين لحمله علىٰ حسن الخلق دون الزلة، فهو معذور لكونه حمله علىٰ[1] حال نفسه، وليس عليه اللوم إلا لو حمل الشيخ علىٰ دون حال نفسه هو. وقد وقع لي مثل ذلك مع بعض إخواني من التجار، فرأىٰ شخصًا يسبني وأنا ساكت، فقال للناس: لولا أن لفلان زلة عند فلان ما احتمل منه هذا السب العظيم! فأقمتُ له العذر في ذلك، لكونه حملني علىٰ حاله، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: قيل لي في هذه الليلة: ما علىٰ وجه الأرض مجلس في علم الحقائق مثل مجلسك؛ فبلغ ذلك بعض المجادلين، فقال: هذه دعوىٰ عريضة تشبه أن تكون علىٰ لسان إبليس، فإن علماء الحقيقة والشريعة لا يحيط بمراتبهم في العلم إلا الله، فالحكم علىٰ واحد منهم أنه فاق أهل الأرض كلَّهم إلىٰ الكذب أو الحدْس بالظن أقرب.

والجواب: أنه لا ينبغي تكذيب هذا الشيخ فيما نقله عن الهاتف، لاحتمال أن يكون مراد الهاتف انتفاء المثلية من حيثُ الحروفُ والألفاظُ التي تقع في تقرير الشيخ، فإن غيرها من سائر الألفاظ والحروف التي يتلفظ بها غير هذا الشيخ في سائر أقطار الأرض غيرها لا عينها، والمثلية تنتفي بزيادة حرف أو نقصه عن تقرير هذا الشيخ.

ويُحتمَل أن يكون هذا الهاتف إنما تكلَّم عن علم ويقين، فطاف جميع أقطار الأرض، فما رأىٰ أحدًا من العلماء يقرر الكلام مثل هذا الشيخ في الفصاحة والتحقيق، **وما كلُّ الرجال أعطوا الفرقان مع زيادة العلم، فقد يكون تقرير من كان أقل علمًا أوضح وأتقن ممن زاد عليه في العلم.**

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول: قيل لي في المنام: ليس علىٰ وجه الأرض الآن مجلس في علم الحقائق مثل مجلسك، ولا في مجالس الفقهاء مجلس

---

(١) بالأصلين: سعد. والصواب ما أثبتناه.

أوسع علمًا وتحقيقًا من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ولا في مجالس المحدثين مجلس أبهىٰ من مجلس الشيخ عبد العظيم المنذري. انتهىٰ. وحاشا [أحد من][1] أولياء الله تعالىٰ أن يخبر بخلاف الواقع أو ينقل الكذب.

قلتُ: وقد دخل عليَّ مرةً في الليل ثلاثة أملاك: أحدهم طوله نحو سبعة أذرع، وألوانهم كالزعفران، ووجوههم تخفق نورًا، فسلموا وجلسوا، فقال أطولهم: قد طفتُم الليلة مشارق الأرض ومغاربها، فهل رأيتُم بقعةً أكثر ذكرًا لله تعالىٰ وتلاوةً للقرآن مثل هذه البقعة؟ فقالوا: لا. فقال أحدهم للطويل: [إلىٰ] أي حد ينتهي انتشار مدد مجلس الذكر والصلاة علىٰ رسول الله ﷺ؟ فقال: ينتهي من جهة الحد البحري إلىٰ باب البحر، ومن جهة الحد الشرقي إلىٰ حد باب الشعرية علىٰ يسار الخارج منه، ومن جهة الحد القبلي إلىٰ حد باب جامع الحاكم المجاور للمنبر، ومن جهة الحد الغربي إلىٰ جامع ابن طولون. انتهىٰ. وقد ذكرنا في كتاب «المنن والأخلاق» جملة من الصفات التي منَّ الله تعالىٰ بها عليَّ، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٤) ومما أجبتُ به عن جماعة المسجد[2] الذين رتَّب لهم سلفهم شيئًا من الأوراد فيه عقيب الصلوات في المسجد، فتركوا تلك الأوراد من تسبيح وتهليل، وتحميد وتكبير، واستغفار وغير ذلك، فلاث بهم العقلاء من الناس وقالوا: مثل هذا إنما هو من جملة الأعمال الصالحة، وقد قال تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦]، فإذا عمل به غير هؤلاء، فإن التارك [ما][3] له الأجر والثواب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء الجماعة كلِّهم من المؤذنين والمجاورين والمترددين إلىٰ الصلاة في المسجد من أهل الحارة وغيرهم، لغلظ حجابهم، فلا ينبغي اللوث بهم إذا تركوا الورد المذكور إلا بعد تلطيف كثائف قلوبهم، وإرشادهم إلىٰ رفع

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) في «ب»: الشيخ.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.



حجبهم، حتىٰ يصير أحدهم يحب ربه ومجالسته في بيته ومناجاته، ويرىٰ الحظَّ الأوفر له في ذلك، ويشكر كل من ينبهه علىٰ قراءة ذلك الورد. ولا يرىٰ أنه يقدر علىٰ مكافأته بشيء من الدنيا، ولو أنه أعطاه ماله كله وثيابه، لا يرىٰ أنه كافأه علىٰ إرشاده إلىٰ النطق بكلمة واحدة من الورد مما يناجي به مولاه.

وقد وقع أن جماعة الزاوية والمؤذنين مكروا علىٰ قول «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» مئة مرة قبل صلاة الصبح في رمضان، فقال المجاورون: هذا علىٰ المؤذنين وليس هو علينا. وقال المؤذنون: هذا علىٰ المجاورين ليس هو علينا؛ وتركوا تمجيد ربهم ومناجاته، فعلمتُ أنهم في حجاب غليظ، فخرجتُ لهم ومهدتُ لهم بساطًا أعلمتُهم بما في ذلك من الفضل، وقلتُ لهم: قولوا: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» وأنا معكم؛ فزال بحمد الله ما كان عندهم من الكثائف والكسل، وصار لهم جولة وزجل بتسبيح ربهم وتحميده وتهليله وتكبيره، ورأوا الحظ الأوفر في ذلك لأنفسهم، فأزل يا أخي كثائف إخوانك، ثم أنكر عليهم إذا تركوا الخير، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أنشأ مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في مسجد من المساجد من غير معلوم دنيوي علىٰ ذلك إلىٰ أن مات، ثم خلفه واحد من جماعته، فاتفق أن الولاة أوقفوا علىٰ أهل ذلك المجلس وقفًا من ريع أو رِزْقة، فلاث الناس بهذا الخليفة وقالوا: ما كان علىٰ قدم الإخلاص إلا شيخه رحمه الله. **وأما هذا فإنما يصلي علىٰ رسول الله ﷺ ويذكر الله لأجل الوقف الذي علىٰ ذلك.**

والجواب: أن هذا سوء ظن بالخليفة، وذلك لا يجوز بإجماع المسلمين، فيُحتمَل أنه علىٰ قدم شيخه في الإخلاص لا التفات له إلىٰ ذلك المعلوم، أو جاوز مقام شيخه في الإخلاص، لكونه ورث مقامه وزاد عليه بما تفضل الله تعالىٰ به عليه من غير طريق شيخه، إذ الفقير ربما يرث عدة أشياخ كما مرَّ قريبًا. وإيضاح ذلك أن العبادة التي لها معلوم علم به الناس لا يطرق صاحبها رياؤها ولا حب سمعة ولا عجب، لكون الناس يحملونه علىٰ أنه لا يفعل تلك العبادة إلا لأجل الدنيا، فهي أبعد من الرياء والإعجاب،

بخلاف من عبد الله تعالىٰ بلا معلوم دنيوي، فإن الغالب أنه يطرقه الرياء والإعجاب، فكان الخليفة الذي جعلوا له معلومًا علىٰ ذلك المجلس أحسن حالًا وأبعد من الرياء ممن لا معلوم له، اللهم إلا أن يمنَّ الله تعالىٰ علىٰ الشيخ الأول بالإخلاص كسيدي الشيخ نور الدين الشوني [شيخ][1] مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في جامع الأزهر، فلا يلحق مقامه خليفة بعده، فهو فرد نادر في الخلق ﷺ، فقد أقام في مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ سبعين سنة في مقام سيدي أحمد البدوي، وجامع الأزهر قبل أن يقف خاير بك[2] نائب مصر ملك الأمراء[3] علىٰ مجلسه الرِّزْقة من غير سؤال حين صلىٰ الجمعة في جامع الأزهر في أواخر شهر رمضان، وأعجبه جماعة المجلس وهم يصلون علىٰ رسول الله ﷺ، فقال لي الشيخ: هذا يدل علىٰ أن همتنا فترت عن الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ وقف ملك الأمراء علينا رِزْقة. فقلتُ له: هذا لا يلزم، لاحتمال أن تكون هذه الرِّزْقة إنما جاءت علىٰ اسم الناس الذين يكونون بعدكم في المجلس من المحترفة والصنايعية وطلبة العلم، فتكون الرِّزْقة عونًا لهم علىٰ سهرهم في الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ، لما فيهم من الجزء الذي يحبُّ الدنيا إذا لم يغلب عليهم عسكر الإخلاص. فقال الشيخ: قد فرجتَ عني بذلك. فقلتُ له: أنتم من أعظم المحبين لرسول الله ﷺ، والمحب إذا رأىٰ الناس فتروا عن خدمة محبوبه إلا بعوض دنيويٍّ، فلا حرج عليه في السعي عليهم في جعل وقف عليهم، حتىٰ يتقووا في مقام الإخلاص. ثم ببركة قصده الصالح وحسن نيته، خلفه سيدي الشيخ شهاب الدين البلقيني[4] في المجلس

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) خاير بك: من كبار أمراء الدولة المملوكية. ولما وقعت مرج دابق، انضم للسلطان سليم الأول. ولاه سليم الأول ولاية مصر. وكانت وفاته سنة (٩٢٨هـ).

(٣) ملك الأمراء: من الألقاب التي اصطُلح عليها لكفَّال الممالك من نوَّاب السلطنة، كأكابر النُّوَّاب بالممالك الشامية ومن في معناهم. وذلك أنه قام فيهم مقام الملك في التصرُّف والتنفيذ، والأمراء في خدمته كخدمة السلطان.

(٤) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الأخ الصالح العلامة الورع الزاهد المجمع علىٰ جلالته الشيخ شهاب

علىٰ قدم الإخلاص، لا التفات له إلىٰ معلوم هو وجماعة المجلس من أصحاب الشيخ إلىٰ أن ماتوا، ثم خلف الشيخ شهاب الدين المذكور ولده الشيخ صالح[1] كذلك علىٰ قدم والده لا التفات له إلىٰ معلوم. فالحمد لله رب العالمين.

(١١٩٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يلقي علىٰ جماعته ما لا يطيقونه من أسرار القوم، فيتمزق أحدهم ويحلق لحيته، ويتجرد من الثياب وساتر العورة، فيلوث الناس به ويقولون: هذا دليل علىٰ جهل الشيخ بالتربية وجنون أصحابه.

والجواب: أن هذا من سوء الظن بالأشياخ والجهل بمقامهم، لاحتمال أن يكون الشيخ رأىٰ من طريق كشفه أن ذلك التمزيق والتخريب مما يقرِّب الطريق عليهم، وذلك لأن أحدهم مادام يستحيي من الناس ويراعيهم في حركاته وسكناته فهو في حجاب عن مقام الفتح، فإذا صار يرىٰ الناس كالجماد، فهناك يقرب من الفتح. وهذا من باب ارتكاب أخف المفسدتين، وله نظائر في الشريعة، فلا ينبغي الاعتراض علىٰ الأشياخ بسببه.

وكان هذا الحال من شأن سيدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي أبي السعود الجارحي ﷺ، وقد خلفه في هذا المقام أخونا الشيخ العارف بالله تعالىٰ الشيخ يوسف الطهواي نفعنا الله تعالىٰ ببركاته، فلم يزل كلَّ قليل يخرج من جماعته جماعة عن التقيد[2] بالعوائد التي فيها فقراء العصر، فيلوث الناس به وبهم، وذلك لا يجوز. وقد

الدين البلقيني ﷺ. كان غريبًا في أقرانه لكثرة زهده وورعه وحسن خلقه وحلاوة لسانه وضبطه. أخذ العلوم عن عدة من العلماء الأعلام، ومن أجلهم الشيخ شهاب الدين الرملي، لازمه ملازمة شديدة، حتىٰ أجازه بالفتيا والتدريس. توفي ﷺ سنة ستين وتسعمئة، ودُفن قريبًا من تربة السلطان قايتباي رحمه الله رحمة واسعة. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» الترجمة (٥٦٠) طبعة دار الإحسان.

(١) صالح بن أحمد شهاب الدين البلقيني، كان من كبار العلماء والزهاد، وله القدم الراسخة في التصوف وفقه الشافعي والمعقولات بأسرها، ولم يزل في إفادة واجتهاد بالعبادة إلىٰ أن توفي سنة ١٠١٥ هـ عن نحو ثمانين سنة. «خلاصة الأثر» (٢/ ٢٣٧).

(٢) بالأصلين: النقبة.

سبقه إلىٰ ذلك جماعة من أهل الطريق كالشِّبْلي وسمنون وحمدون القصَّار من مشايخ رسالة القشيري الجامعين بين الشريعة والحقيقة، فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك في حق القوم، فإن جميع ما معك من الأعمال التي هي عندك صالحة لا يرضىٰ بها واحد منهم في كلمة غيبة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ظهر وأقبل عليه المشايخ وأخذوا عنه، وصاروا يجرون الناس إلىٰ صحبته ويمدحونه، ثم في مدة يسيرة انطفىٰ اسمه، وتفرَّقت عنه أصحابه، فلاث به الناس وقالوا: هذا دليل علىٰ عدم الإخلاص.

والجواب: أن حمل هذا الشيخ علىٰ عدم الإخلاص لا يجوز، فيُحتمَل أنه وأصحابه مخلصون، وإنما أرادوا مقام الخفاء لهم ولشيخهم، من باب «عرفت فالزم» كما وقع لأخينا العبد الصالح كريم الدين خليفة الشيخ دمرداش في سنة خمس وستين وتسعمئة، فأخذ عنه جماعة من طلبة العلم وغيرهم، واشتُهر اسمه، فصار غالب أهل مصر في حديثه، ثم أعرضوا عن ذكر اسمه والحديث في شأنه، فظنَّ بعضُ الناس أن ذلك لعدم صدقه، والحال أنه إنما أظهر نفسه بإذن، وأخفىٰ نفسه بإذن، رضي الله عنه ونفعنا ببركاته.

فإياك يا أخي واللوث بأحد من مشايخ الطريق، فما كل مرة تسلم الجرة، فقد ينتصر الحق تعالىٰ لذلك الفقير، فيمقت من لاث به، فيموت علىٰ غير الإسلام، أو علىٰ غير نعت الاستقامة في طريق الإسلام، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير في طريق القوم إذا كان إمامًا أو خطيبًا أو مدرِّسًا، وصار يطالب الناظر أو الجابي بالمعلوم المرصَد علىٰ ذلك بشدة وعنف، فلاث به الناس وقالوا: هذا خلاف ما كان عليه المشايخ الذين أدركناهم أوائل النصف الأول من القرن العاشر.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون يقصد بذلك التستير في المقام حين بالغ الناس في اعتقاده وأشغلوه بكثرة التردد إليه عن الاشتغال بعبادة ربه، فأظهر

لهم محبته للدنيا، لينفروا عنه أو يخففوا التردد إليه، كما كان عليه الشيخ أبو السعود الجارحي، وسيدي عليٌّ الخواص، وأخي أفضل الدين الأحمدي، والشيخ ناصر الدين النحاس، والشيخ بركات الخياط، والشيخ محمد السلامي بمدينة الخانقاه السرياقوسية، فكان أحدهم إذا طلب إقبال الناس عليه لغرض شرعي يُظهِر لهم شيئًا من الكشوفات والمعارف، فيصيرون يتقابلون علىٰ بابه، وإذا طلب تفرقتهم يُظهِر لهم شيئًا من أحوال أبناء الدنيا، فيتفرقون عنه، وتارة يجمعهم عليه بالقلب، ويفرقهم بالقلب.

فاعلم ذلك، وإياك أن تزدري شيخ الزاوية أو المدرِّس للعلم إذا رأيتَه يطالب الناظر أو الجابي بعنف، فإنه ربما كان مخلصًا في تلك العبادة قد حرر نيته في فعلها امتثالًا لأمر الله، وإقامةً لشعار الشريعة، وطلبًا لتخليص ذمة ذلك الناظر أو الجابي من أكل شيء من مال ذلك الوقف بغير طريق شرعيّ، وليعظِّم الأجر للواقف بصرف ريع وقفه فيما شرطه، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي صحب أميرًا، فوجد شيخًا من أعداء ذلك الشيخ، فخاف أن يغير خاطر الأمير بالحط والتنقيص فيه عنده، فذهب إلىٰ ذلك العدو وصالحه وقبَّل رجله وقال: بالله عليك لا تذكرني بسوء عند الأمير. فعلم بذلك أقران الشيخ، فلاثوا به وقالوا: الدنيا أقل من أن يذل الفقير نفسه لأجلها، ولو كان هذا الشيخ صادقًا في الطريق، لأحب من ينفر عنه الأمراء والولاة، لأن ضررهم علىٰ الفقير أكثر من نفعهم له.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في مصالحته عدوه خوفًا أن ينفر الأمير منه، لاحتمال أن يكون صحب الأمير بنية صالحة في أمور الدنيا أو الآخرة، وصالح العدو كذلك بنية صالحة، ولا لوم إلا علىٰ من يذل نفسه لغير غرض شرعيّ.

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك لما صحبتُ محمدًا الدفتردار بمصر وحسن بن بغداد، فصالحتُ ذلك العدو الذي كان عند كل واحد منهما، ليصير يساعد لي علىٰ قبول الأمير شفاعتي في المظلومين ولا يعارضني عنده، فيقع في الإثم، ويفوت الأجر لي ولذلك

الأمير. وأقل ما في تجريح العدو لذلك الفقير عند الأمير أن الأمير يصير يُشَخِص تلك الأمور التي جُرِحَ بها الفقير في دينه، ويريد أن يجعله كمن عِرْضُه سالم من التجريح فلا يقدر. «فاعمل يا أخي علىٰ ذلك، وإياك أن تقول: أنا ما عليَّ من كلام العدو، فإن ذلك منك نقص عقل وقلة سياسة، والعاقل من دار مع الزمان وأهله، ولحق بلاحق اللاحق، ولم يتشبه بالأولياء الذي مضوا، فإنهم كان لهم كرامات وخوارق تحميهم من سماع الأمير الذي صحبوه لمن جرحهم من أعدائهم، وأما نحن فما ثم لأحدنا كرامة تحميه»، فالحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يكون يقظان حال سماعه لكلام اللغو مثلًا، وإذا جلس في مجلس ذكر أو قرآن أو علم، نعس في الحال، فلاث به الناس وقالوا: هذا يدل علىٰ انطماس البصيرة وموت القلب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير، لاحتمال أن يكون سبب نومه حصول الأمان له إذا دخل حضرة الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١]. وأيضًا فإن نوم العبد في حضرة الله تعالىٰ أخلص له، فربما كان هذا الفقير لا يقدر علىٰ القيام بالأدب [مع الله تعالىٰ حال اليقظة، فإذا نام صارت الأرواح تقدر علىٰ القيام بالأدب، لضعف تعلقها بالجسم][1] لضعف تعلقها بالجسد وقوة تعلقها بالملأ الأعلىٰ، فكأنها صارت من الملائكة، فعُلِمَ أن النوم في حق الضعفاء عند سماع الذكر والقرآن أولىٰ، بخلاف الأقوياء، كما أوضحنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «الأخلاق» والله أعلم.

(١٤٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يصبح ذابلًا نعسان عقب الليالي الفاضلة كليالي القدر، فيلحق الناس به ويلوثون به ويقولون: لو كان هذا صادقًا لأصبح يقظًا[2] مكحولًا سترةً لحاله، كما كان عليه السلف الصالح.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) بالأصلين: دهشًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون إنما أظهر النعاس والذبول لعلمه بأن هناك من يسيء به الظن وينسبه إلىٰ النوم في تلك الليالي الفاضلة، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن إظهار التناعس أولىٰ من إظهار النشاط وأرجح، لما فيه من حفظ الناس عن الوقوع في سوء الظن ببعضهم بعضًا، وهو في نفسه مع الله تعالىٰ علىٰ قدم الإخلاص ليس عنده التفات إلىٰ مدح الخلق ولا ذمهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رضي الله عنه يقول: الفقير الكامل لا تكون حركاته وسكناته إلا تبعًا لرضا الشارع، فإن لم يرد في ذلك نص من قبل الشارع، كان بحكم اجتهاده، فربما أدىٰ اجتهاده إلىٰ أن إخفاء عبادته أفضل، أو إظهارها أفضل، فعمل بذلك، فلا ينبغي الاعتراض عليه، كما أن له أن يظهر العز تارة والذل أخرىٰ بحسب المواطن اللائقة بذلك، كما ورد في تحريم التبختر إلا في الحرب. فاعلم ذلك، واعمل علىٰ جلاء مرآة قلبك لتدرك الأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها، وتخرج عن التلبيس، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أهدىٰ أحد إليه لحمًا أو حلوىٰ أو طعامًا وخبزًا، فوقف عليه شخص شريف أعمىٰ يسأله لقمةً من ذلك، فقال: يفتح الله عليك، ولم يعطه شيئًا، فلاث به الناس وقالوا: حاشا أن يكون أحد من أولياء الله تعالىٰ يفعل مثل ذلك! كيف يدعي هذا المشيخة وهو لا يسمح لفقير أعمىٰ شريف بِضْعة من رسول الله ﷺ؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون علم من طريق كشفه أن ذلك الشريف ليس له نصيب في ذلك، أو كان ذلك الطعام من وجه غير مرضي، فنزَّه مقام الشريف أن يطعمه منه، أو كان الذي أهداها إليه حلف بالله أو بالطلاق أن الشيخ يأكلها -أي تلك الهدية- وحده، ولا يطعم أحدًا منها شيئًا، فخاف عليه الحنث، فقدَّمه علىٰ غرض ذلك السائل لأجل شرطه عليه ونحو ذلك، ولم يمنعه منها بخلًا وشحًّا في النفس، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠٣) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا استعمل أحدًا من المجاورين في قضاء

حاجة وعوَّقه عن قراءة لوحه أو قراءة ورده، فلاث به الحذَّاق من الفقراء وقالوا: هذا لا ينبغي للشيخ، فقد قال القوم: «من أشغل مشغولًا بالله عن الله، أدركه المقت في الوقت».

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون علم من ذلك الفقير أنه لا يشتغل بتلك الحاجة عن الله عزَّ وجلَّ، لما هو عليه من شدة اليقظة وحياة القلب، أو لاحتمال أن ذلك الشيخ لا يستعمل أحدًا في حاجة تشغله عن الله عزَّ وجلَّ إلا أن يجعل له من عمله نصيبًا بقدر تلك العبادة التي فاتته، ويسأل الله أن يجعل ذلك في صحائف الفقير.

فإن قيل: قد تكون عبادة ذلك الفقير التي فاتته بالحاجة أصفىٰ وأخلص من عبادة الشيخ؛ **فالجواب**: هذا خلاف الغالب، فإن الغالب أن عبادة الشيخ هي التي تكون أصفىٰ وأخلص من عبادة المريد، وإنما الشيخ يهضم مقام نفسه في بعض الأوقات ويقول لإخوانه: إن عبادة هؤلاء الفقراء القاطنين عندنا أولىٰ في الإخلاص من عبادتنا، لعدم ذوقهم الرئاسة مثل ما ذقناها.

وهذا يقع لي كثيرًا، فربما استعملتُ أحدًا من الفقراء حال مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في خياطة جبَّة أو نحوها، فأجعل له نصيبًا من عبادتي، خوفًا أن يكون اشتغل عن ربه بذلك. فعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الشيخ إذا استعمل أحدًا من مجاوريه إلا بعد معرفته بأحوال الشيخ ومريده، فقد يكون خاطر المجاور بذلك طيبًا، ولا يشتغل بذلك عن ربه، وإن وقع أنه أظهر للناس أن الشيخ يستعمله كرهًا أو بسيف [الحياء][(١)] لم يُصغَ إلىٰ قوله، **لأن المريد في مقام التلبيس من النفس والشيطان**، وكلام الشيخ وحاله يقضي عليه دون العكس، فهو كطفل غير مميز شكا إلىٰ والده من معلمه الدَّين الخيِّر، فلا يُلتفَت إليه.

وأيضًا فقد يكون الفقير الذي شكا من الشيخ إنما شكا شكوىٰ صورية حين خاف علىٰ شيخه العجب بحاله إذا خدمه الفقراء وعدم خدمته هو لهم، فأراد هذا الفقير أن

---

(١) ساقط من «ب».

يفتح لشيخه الضعيف الحال في الطريق باب المكافأة لمن خدمه، ورؤيته عدم استحقاقه لتلك الخدمة، ليجد في العبادة ويأخذ في التخلق بأخلاق الصالحين من زهد وورع وإيثار، حتىٰ يصير الناس يرون خدمته شرفًا لهم، ويتقاتلون علىٰ خدمته. وهذا يقع كثيرًا من الفقراء الحاذقين الذين ربَّاهم الشيخ، فربما طلع ولده يتمشيخ علىٰ المجاورين وطلب أن يخدموه كما كانوا يخدمون والده، مع نقص حاله عن حال والده في الزهد والورع والعبادة، فيريد أحدهم أن يفتح لولد شيخه باب الترقي في الدرجات وخدمة نفسه مادام لم يلحق بمقام الأشياخ الصادقين.

فإن قال قائل: إن [في] جعل الشيخ لذلك المريد الذي استعمله في الحاجة نصيبًا من عمله نسبة الإيثار بالقُرَب، وقد كره العلماء ذلك؛ **فالجواب:** ليس ذلك من الإيثار بالقُرَب، وإنما يكون كذلك لو أن الشيخ ترك العمل وقال له: اعمله أنت؛ علىٰ أن قصد الأشياخ من عباداتهم إنما هي مجالسة الله تعالىٰ فيها، وذلك قد حصل. وأما الأجر والثواب فليس هو المقصود عندهم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخين اللذين اشتُهِرا في بلدهما بالعلم والصلاح والورع وغير ذلك، ومع ذلك فلم يزل كلٌّ واحد منهما يحط علىٰ الآخر وينقصه في المجالس ليلًا ونهارًا، ولا يكاد أحد يراهما مجتمعين في مكان واحد، بل إن دخل أحدهما مكانًا ورأىٰ الآخر فيه لم يدخله، فلاث الناس بهما وقالوا: إذا كان هذا حال العلماء والصالحين فما بقي أحدنا يلام علىٰ العداوة والبغضاء والشحناء لأهل حرفته وأقرانه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذين الشيخين، لاحتمال أن يكون كلٌّ منهما يحب الآخر أشد المحبة، وإنما يحط عليه وينقصه في المجالس خوفًا عليه من وقوع العجب منه بأعماله وأحواله من زهد وورع وعفة عن المحارم وغير ذلك، كما هو الغالب علىٰ كلٍّ من مدحه الناس وأثنوا عليه واعتقدوه وقدموه في المحبة والاعتقاد والهدايا علىٰ جميع أقرانه.

وقالوا: من صغىٰ إلىٰ مدح الناس وثنائهم عليه، هلك في دينه ولا يشعر، وتقول له

نفسه: لو لا أنك من الصالحين ما أطلق الله الألسنة في مدحك والقلوب في اعتقادك، فإن هؤلاء كلهم لا يكذبون؛ فيصير بكلامهم لا يرىٰ في نفسه إلا الكمال دون النقص. وإن وقع أن أحدًا نقصه في مجلس وبلغه ذلك، ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، وهذا عين الرياء والنفاق، فكان تنقيص كل واحد من هذين الشيخين جندًا من جنود الله عزَّ وجلَّ، لئلا يُعجَبا بأنفسهما.

وأما عدم اجتماعهما في مجلس واحد، فلا يجوز حمل كل واحد منهما علىٰ العداوة والبغضاء، فقد يكونان في غاية المحبة لبعضهما بعضًا، وإنما لم يجتمعا مخافة أن كلَّ واحد يقع في التزين بحاله وأعماله لصاحبه إما تصريحًا وإما تعريضًا. ومن شك فليجرب، أقل ما في ذلك أن عمل كل منهما يخرج من ديوان السرِّ ويدخله الرياء، كما شاهدنا ذلك من أنفسنا ومن غيرنا، فإن إبليس بالمرصاد لخواص هذه الأمة فضلًا عن أمثالنا!

وقد شاهدتُ من أخي أفضل الدين الحطَّ علىٰ كلِّ من اشتُهر بصلاح أو زهد أو كثرة عبادة ويقول: إني والله أحبه وأعظِّمه، وأرجحه عليَّ في الفضل، ولكن أخاف عليه من رؤية نفسه فيعجب بحاله، ويرىٰ نفسه أفضل من غيره ولو خطورًا علىٰ البال، فيهلك في دينه. وكان يقول: من أكثر من مدح أخيه في المجالس فهو من أعدىٰ عدو له في دينه. وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: عدوك الظاهر يصيبك في ظاهرك، وصديقك الظاهر يصيبك في باطنك، ولعدو يبصرك بعيوبك خير من صديق يستر عليك عيوبك. انتهىٰ.

وسمعتُه مرارًا يقول: إياك والميل إلىٰ من لقولك يسمع، ولفضلك ينشر، فإنه عدو لك في صور صديق. انتهىٰ. ولم يزل الأكابر يخافون من مدح بعضهم ومن الاجتماع، فإياك أن تحمل أحدًا من العلماء والصالحين علىٰ المحامل السيئة إذا رأيتَ كلَّ واحد منهما حطَّ علىٰ أحد من أقرانه في هذا الزمان، أو يدخل وليمة فيرىٰ أخاه هناك فيرجع، أو يجلس بعيدًا عنه، فإنه أخذ بالاحتياط لنفسه ولأخيه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جعل له مجلس علم أو ذكر أو قراءة ورد،

وصار يجاهد في أصحابه ويأمرهم بالحضور إلىٰ ذلك المجلس، وكلُّ من تأخر عنه يظهر له العبوسة، وربما هجره، فلاث به الأقران وقالوا: هذه مشيخة معمولة! وأيش قام علىٰ مثل فلان أن يعمل له مجلسًا ويصير يكره المسلمين إذا لم يحضروه؟! وكان الواجب علىٰ هذا أن يصبر عن المشيخة حتىٰ يقع له الإذن من الله تعالىٰ في مثل ذلك، ويجعل الخلق يحضرون مجلسه من داعية نفوسهم، ويحبونه من غير بر ولا إحسان، كما عليه الأشياخ الماضون، ولكن حب الرئاسة قلَّ أن يتركه أحد في هذا الزمان.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث بهذا الشيخ ولا حمله علىٰ الرئاسة، لاحتمال أن يكون الحقُّ جلَّ وعلا خلَّصه من رعونات النفوس، ومن حب الرئاسة، وإنما يحث أصحابه ويظهر لهم العبوسة إذا تخلفوا عن مجلسه محبةً في حصول الخير لهم، بقطع النظر عن كون ذلك علىٰ يديه هو، ومحبةً في رضا الله تعالىٰ ورسوله عنهم بإظهار تمجيده تعالىٰ وتحميده وتسبيحهم له وتهليلهم، ولو وقع أن أحدًا اطلع علىٰ باطن هذا الشيخ، وأنه إنما يحثهم علىٰ حضور مجلسه محبة في الرئاسة، فيجب علىٰ هذا المكاشف ستره في ذلك، كالعورة الظاهرة علىٰ حد سواء، ثم يجب عليه نصحه فيما بينه وبينه، لئلا يفوته النصح، ويقول له: إن الله تعالىٰ مطلع علىٰ السرائر والضمائر، فإذا رأىٰ في قلب عبد أنه إنما يحث عباده علىٰ ذكره محبةً فيه تعالىٰ، رفع درجته علىٰ أقرانه في الدنيا والآخرة واصطفاه؛ لعله يتنبه لنفسه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا علىٰ تحصيل حسن الظن بأهل عصركم، لئلا تحرموا بركتهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون يقرأ في القرآن ويذكر الله تعالىٰ أو يناجيه في دعاء خارج الصلاة، فيمر علىٰ قلبه حكمة، فيترك تلك القراءة أو المناجاة مثلًا، ويكتب تلك الحكمة، فلاث به بعض الناس وقال: تلاوة القرآن مثلًا أفضل من كتابة تلك الحكمة، لأن في كتب السنة ما يغني عنها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بسبب ذلك، لأنه في محلِّ الاجتهاد في ترجيح الأعمال، فربما رأىٰ أن معرفة تلك الحكمة المأخوذة من القرآن أنفع للناس من

تلاوته هو القرآن أو مناجاته لربه من حيثُ تعدي نفعها إلىٰ الغير، فإن ذلك أنفع وأفضل من العمل القاصر.

وقد كان الإمام الشافعي إذا مرَّ علىٰ قلبه حُكْمٌ حال تلاوته للقرآن من طريق الاستنباط، يقطع القراءة ولو في قيام الليل، ويكتب ذلك الحكم. وقد وقع أن الإمام أحمد بن حنبل كان يمدح الإمام الشافعي كثيرًا بين أهله، فبات الإمام الشافعي عنده ليلة، فاستلقىٰ علىٰ ظهره إلىٰ الصباح والإمام أحمد يصلي طول الليل، فقالوا له: أين ما كنتَ تمدحه في هذا الرجل ونحن لم نره يتهجد من الليل شيئًا؟! فقال لهم الإمام أحمد: قد استنبط الليلة من القرآن سبعين حكمًا، كلُّ حكم أفضل من قيامي أنا طول ليلتي. انتهىٰ.

وقد يعطي الله تعالىٰ الشيخ القوة علىٰ كتابة تلك الحكمة حال تلاوته للقرآن أو الذكر، فلا تشغله الكتابة عن التلاوة، ولا التلاوة عن الكتابة، كما كان عليه الشيخ يوسف الحريثي، فقد رأيتُه يكتب في كتب العلم وهو يتلو القرآن، ويسمع للأطفال القرآن، ويرد عليهم اللحنة والغلطة، ولا يشغله شيء عن شيء بإقدار الله تعالىٰ له علىٰ ذلك من طريق خرق العادة، فاعلم ذلك، واعمل علىٰ تحصيله، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يذهب إلىٰ بيت أمير ليعلمه العلم، فلاث به الأقران وقالوا: قد أهان هذا العلم، وكان الواجب عليه أن يأمر الأمير بالحضور إلىٰ بيته هو، فإن العلم يُسعَىٰ إليه، ولا يسعىٰ هو إلىٰ الطالب، وقد امتنع الإمام مالك من الذهاب إلىٰ تعليم ولد أمير المؤمنين وقال: لا أُذِل العلم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم بسبب ذهابه إلىٰ بيت ذلك الأمير، لاحتمال أن يكون اطلع علىٰ حسن نية الأمير في طلب العلم وتعظيمه له، وإنما منعه عن الذهاب إلىٰ بيت العالم اشتغاله بأمور المسلمين من قضاء حوائجهم عند السلطان وغيره. وقد كان سفيان الثوري ﵁ يقول: لو علمتُ من أحد حسن نيته في العلم، وعدم ازدرائه لي إذا ذهبتُ إليه، لذهبتُ إلىٰ بيته وعلمتُه له. انتهىٰ. وبالجملة فقد تغيرت المراسمُ في

هذا الزمان، وصار الناس لهم أعذار لا ينبغي شرحها، لاسيما من له عيال كثير وهو فقير، وذلك الأمير يحسن إليه بالطعام والكسوة، فاعلم ذلك، واعذر الناس بما تعذر به نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقدِم للأمير العسل النحل إذا جاءه زائرًا، ويقدِم للفقير المِلْح أو الصعتر، فلاث به بعض الناس وقالوا: لو عكس هذا كان أفضل، فإن إكرام الفقير إنما هو لله، وإكرام الأمير إنما هو للدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون علم من الفقير الزهد في مطاعم الدنيا التي لا ضرورة إليها، فخاف إن أخرج له عسل نحل أن يتكدر بسبب ذلك، لأنه إن أكله نقص مقامه؛ وإن رده وامتنع من أكله، أظهر مقام فقره الذي كان يكتمه، فلذلك أخرج له ما يحبه ويرضىٰ به عن ربه. وأما الأمير فإنه في مقام التأليف، ليميل إلىٰ الشيخ بالمحبة، ويصير يقضي حوائج الناس علىٰ يده، ولو أنه أخرج له مِلْحًا لربما نفرت نفسه منه، ولم يحصل بينه وبين الفقير ائتلاف، وعلىٰ ذلك درج أشياخنا ﭫ.

وقد كان سيدي عبد القادر الدشطوطي إذا زاره واحد من الولاة وحاشيتهم يقبل عليهم بالبشاشة والترحيب، ويضمهم إلىٰ صدره، وإذا زاره فقير لم يلتفت إليه كل ذلك الالتفات، فقالوا له في ذلك، فقال: إن الولاة وحاشيتهم يظلمون الناس، ونحتاج إلىٰ الشفاعة في المظلومين عندهم، فهو يحتاجون إلىٰ التأليف، بخلاف الفقير، فإن محبته لنا ثابتة لا يحوجنا إلىٰ تأليفه. فاعلم ذلك يا أخي، وتعلم الأجوبة عن المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر أصحابه بالاكتحال بالمِلْح، وضربهم نفوسهم الضرب المبرِّح كلما أخذهم النوم، فلاث به المتشرعون وقالوا له: هذا الفعل حرام! ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ أمر به أحدًا من أصحابه، بل روي أنه رأىٰ حبلًا في سقف لبعض زوجاته، فقالت: هذا حبل أتعلق به إذا أخذني النوم في صلاة الليل، فقال لها

ﷺ: «اكْلُفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتىٰ تملوا»[1].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بسبب ما يأمر به أصحابه، لأنه في مقام الاجتهاد فيما يقرِّب عليهم الفتح. وقد أجمعوا علىٰ أن **الطريق لا تُنال إلا بشدَّة الجَهْد، ومن طلبها بالرخص فاتته**، وقالوا: الطريق إلىٰ الله عزيزة لا تعطيك بعضها إلا إن أعطيتَها كلَّك.

فإن قيل: فما يشهد بذلك من القرآن؟ **فالجواب**: يشهد له قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فأوقف هدايتهم إلىٰ طريق معرفته علىٰ حصول المجاهدة، وكذلك يشهد له قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] أي بالعمل بما يشق عليه من الأحكام التي في القرآن مما هو فوق مقامه، ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ أي يعمل بقدر طاقته، ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي لا يجد للملل من الأعمال الصالحة طعمًا، كأكابر الأولياء الذين صاروا يتلذذون بالطاعات التي تشق علىٰ غيرهم، هكذا رأيتُه لبعض العارفين، وقال: ليس المراد بمن ظلم نفسه من يقع في المعاصي، فإن ذلك لا يسمَّىٰ مصطفىٰ. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ مجاهدات الفقراء لنفوسهم، فإنها قليل في حصول مرضاة الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي وصوله إلىٰ مقام الكمال في الإيمان، وأنه صار يحب لإخوانه المؤمنين مثل ما يحب لنفسه علىٰ حد سواء، ثم إنه حصل له مرتب في الجوالي مثلًا، فطلب واحد من إخوانه منه أن يشركه معه في تلك الجوالي فأبىٰ، فلاث به الناس وقالوا: هذا يكذِّب دعواه كمال الإيمان وأنه يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه كما سمعناه منه مرارًا.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث به، فربما كُشِفَ له أن ذلك الأخ لم يقسم الله تعالىٰ له نصيبًا في تلك الجوالي، ومع ذلك فهو كان يود أن الله تعالىٰ كان يقسم له

---

(١) تقدم تخريجه.

منها شيئًا أو يعطيه نظيرها، وهذا لا يقدح في كمال الإيمان. وربما كان سبب كونه لم يعطه شيئًا من الجوالي ظنه فيه أنه لا يحب الأكل من معلوم، لكثرة محبته في التجرد عن الدنيا وإمساكها، فعامله بما يحب.

فإن قيل: هذا الجواب واضح إذا لم يطلب أخوه منه ذلك، وفرض المسألة أن أخاه طلب منه أن يشركه معه في تلك الجوالي؛ **فالجواب**: أنه يُحتمَل أنه يعرف من أخيه التنزه عن الدنيا ومحبة من يصده عنها، وربما طلب منه الشركة في الجوالي سترًا لمقامه بين المحجوبين، لا بينه وبين أخيه. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة للإنكار على الفقراء إلا بعد معرفتك بأحوالهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي مقام كمال الزهد في الدنيا، ثم إنه وقع أن الولاة رتبوا له جوالي أو أعطوه رِزْقة مثلًا، ففرح بذلك وظهر السرور والانشراح عليه خلاف ما كان الناس يعرفونه منه قبل أن يحصل له ذلك، فلاث به الحذَّاق من الفقراء وقالوا: فرحك بالدنيا يناقض مقام الزاهدين فيها، فإن من شرط الزاهد في الدنيا الانقباض والعبوسة في وجهه إذا دخلت عليه الدنيا، لشدة نفرته منها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون إنما أظهر الفرح والسرور لشهوده أن ذلك العطاء من الحقِّ تعالىٰ لا من الخلق، فهو زاهد في الدنيا بقلبه، مظهر للسرور بجسده، اعترافًا بنعم الله تعالىٰ عليه. وفي كلام صاحب الحكم رحمه الله: «العبَّادُ إذا مُدِحُوا انقبضوا، لشهودهم ذلك المدح من الخلق، والعارفون إذا مُدِحُوا انبسطوا، لشهودهم ذلك من الملك الحق». انتهىٰ، وهو يؤيد ما ذكرناه من الجواب.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إذا تمكن الزاهد في مقام الزهد، صارت الدنيا تنفر منه، ولا تحوجه إلىٰ نفرته هو منها، وذلك لأنها لا ترىٰ لها محلًا في قلبه حتىٰ تدخل عليه. وكان رحمه الله يقول كثيرًا: اللهم اجعلنا ممن تزهد فيه الدنيا، ولا تجعلنا ممن يزهد هو فيها. فقلتُ له يومًا: كيف ذلك؟ فقال: إذا زهدنا نحن فيها، فلا بد لنا من بقية

ميل يكون عندنا لها، بخلاف ما إذا زهدت هي فينا، فإن زهدها فينا يدل علىٰ أنها لم تجد فينا بقية ميل إليها. انتهىٰ.

ويُحتمَل أن يكون إظهار الفرح والسرور من هذا الشيخ طلبًا لستر حاله بين الناس، لئلا يتميز عن أقرانه الذين يفرحون بالدنيا، مشيًا علىٰ قواعد السلف الصالح في سترهم أحوالهم عن الخلق، ثم إنهم يفرِّقون ما يدخل عليهم من الدنيا علىٰ المحاويج، ولا يأخذون لأنفسهم منه شيئًا سوىٰ غداء ذلك اليوم أو عشائه فقط.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله من أشد الناس كتمًا لأحواله، فقلتُ له يومًا: ألا تظهِر حالك للناس ليقتدوا بك فيه، فيحصل لك الأجر؟ فقال: ليتنا نخرج رأسًا برأس! وليس مثلنا أهلًا لأن يُقتدَىٰ به، لغلبة الحظوظ النفسانية علينا، ولا يُطالَب بالأخذ بيد أخيه من الغرق إلا من أَمِن من الغرق، وإلا غرقا إذا تعلقا ببعضهما بعضًا. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي له عادة بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في تولية الأمراء ومشايخ العرب، ويجيبه الحق تعالىٰ إلىٰ ما طلب، فتوجه يومًا في تولية أمير أيامًا، فلم يجبه الحق تعالىٰ إلىٰ ما طلب، فلاث الناس به وقالوا: ما لهذا وللدخول بين الله تعالىٰ وبين عباده مع جهله وعدم كشفه بأن تلك الولاية معلَّقة علىٰ توجهه هو إلىٰ الله فيها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون المانع من عدم إجابة الشيخ إلىٰ ما طلب إشراك ذلك الأمير أحدًا مع الشيخ، لا عدم صدق الشيخ وعدم كشفه، فإن الشركة في مثل ذلك مجرَّبة في عدم قضاء الحاجة، كما قاله سيدي علي بن وفا رحمه الله قال: وسبب ذلك أن الفقراء علىٰ مدرجة المشي علىٰ الأخلاق الإلهية، وقد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨] فأخبر تعالىٰ أنه لا يغفر أن يشرك به. فافهم، والله تعالىٰ أعلم.

(١٢١٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أعطاه الولاة شيئًا من المرتبات والجوالي

بغير سؤال منه فأخذه، ولاث به الحذاق من الفقراء وقالوا: إنما أعطاه الولاة ذلك لطلبه ذلك بالباطن، ولو أنه كان صادقًا في ترك الدنيا لدفعها عنه بالقلب، ولكن إبليس لبَّس عليه حاله وأتلفه، وعجَّل له ثواب أعماله الصالحة التي عملها طول عمره في الدنيا، فإنه لولا أظهرها للناس حتىٰ اعتقدوه، ما رتبوا له مرتبًا أبدًا كغيره من العوام، فقد رجع ثواب عمله طول عمره إلىٰ الدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون قلبه لا يميل إلىٰ الدنيا، ولكن الله تعالىٰ استخلفه في إنفاق ذلك المال، لما علم من حسن سياسته ومعرفته بالأماكن التي ينبغي الإنفاق فيها دون غيرها، بل ولو قُدِّر أنه سأل الولاة ذلك، فلا حرج عليه، لاحتمال أن يكون يعلم من نفسه أنه أعلم بمواضع إنفاقها من غيره، فقصد بذلك نفع نفسه ونفع صاحب المال بالأجر العظيم.

فعُلِمَ أن من القوم من يختار دفع الدنيا من يده كما هي مدفوعة من قلبه ولا يجبها[1]، ومنهم من يختار استجلابها بالنية الصالحة في القسمين[2]. فاعلم ذلك، وإياك أن تحمل القوم علىٰ محامل سيئة قياسًا علىٰ حالك أنت، فإنك ربما دفعت الدنيا ليُقال، وأخذتها شرهًا ومحبةً فيها وادخرتها ولم تسمح بإنفاقها لا علىٰ نفسك ولا علىٰ غيرك، وكنتَ مذمومًا في الحالين عكس حال القوم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي رسم أمير له بفلوس ليفرقها علىٰ فقراء البلد، فعلم بذلك شخص من أقرانه، فذهب إلىٰ الأمير وقبَّل رجله وقال: ما يفرِّق هذا المال إلا أنا؛ فرسم له الأمير بذلك ومنع الأول، فلاث الفقراء بالشيخ الثاني وقالوا: ما كان ينبغي له أن يزاحم أخاه علىٰ مثل ذلك، ويخل بمقام أخيه عند الأمير وينسبه إلىٰ الجهل بالإنفاق أو خوف اختلاس شيء من ذلك المال لنفسه، وإلا فلو كان يعتقد في أخيه أنه أعرف منه وأدين وأزهد لما كان زاحمه.

---

(١) أي ولا يستجلبها، وهي من الكلمات التي تركناها علىٰ حالها لغلبة الظن أن الإمام يحكيها بالعامية المصرية.

(٢) أي قسم استجلابها باليد، أو قسم استجلابها بالقلب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون قد علم من نفسه أنه أعرف بالمستحقين لذلك المال ومن هو مقدَّم في العطاء لكثرة ما عليه من الدَّين، أو لما عنده من كثرة العيال، فكان في ذلك احتياط لدين أخيه، ثم إنه بعد ذلك يجعل ثواب فعله في صحائف أخيه الذي كان الأمير رسم له بأنه يفرِّق ذلك المال، حتىٰ لا يضيع لأخيه أجر، كما عليه الفقراء المتمكنون الذين هم عبيد الله لا عبيد الثواب.

وكثيرًا ما رأيتُ أخي أفضل الدين يزاحم علىٰ تفرقة صدقات الناس وهداياهم، ويطلب أن يكون هو الفاعل لذلك، فقلتُ له يومًا: لِمَ تزاحمون علىٰ مثل ذلك مع غناكم عن الدنيا؟ فقال: إني أعرف بالمواضع التي تكون أرجح في ميزان صاحب ذلك المال من غيري، فإنه إذا أعطاني أحد جوخة أو مُضَرَّبَة مثلًا لا ألبسها إلا إن كنتُ أحوج من سائر الفقراء الذين أعرفهم في البلد، فإن كان غيري أحوج دفعتُها إليه وجعلتُ ثواب ذلك في صحائف صاحب تلك الصدقة أو تلك الهدية وإن كان ملَّكني إياها، فكما قصد نفعي فكذلك ينبغي لي أن أقصد نفعه، فانظر يا أخي هل يهتدي غالب الناس إلىٰ مثل هذا الأمر؟ فقلتُ له: هذا أمر لا يهتدي غالب الناس له، فإذن لكم المزاحمة علىٰ تفرقة أموال الناس وقبولها منكم لأنفسكم[1]. انتهىٰ.

وقد فعلتُ أنا بذلك مرارًا مع أخي العبد الصالح سيدي جلال الدين التاجر بخان الخليلي[2]، فأعطاني عدة أثواب فأقبلها منه ثم أدفعها لمن يكون أحوج إليها مني، ثم أجعل ثواب ذلك له لا لي، لأني لا أرىٰ لي ملكًا مع الله تعالىٰ في الدارين، وجميع ما يمنحني من الثواب في الآخرة هو ملكه تعالىٰ، فأنا آكل وأشرب وألبس وأسكن في الدنيا والآخرة من مال ربي وفي داره. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، ولا تعترضوا علىٰ الفقراء إلا إن كنتُم أعلم منهم بأمور الدنيا والآخرة، وأعرف بدسائس النفوس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أي إن كنتم أحوج إليها من غيركم.

(٢) خان الخليلي: أحد أسواق القاهرة، وما زال قائمًا إلىٰ الآن بالقرب من مسجد سيدنا الإمام الحسين.

(١٢١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حكىٰ له شخص حكاية عن شخص من أقرانه، فقال: لو خرج منك ريح في مجلس لكان أطهر لمجلسنا من ذكر اسم فلان؛ فلاث به الحاضرون وقالوا: هذا عين ازدرائه لهذا الشخص، ولا يخفىٰ تحريم ذلك، فإنه جعل الحدَث أفضل من ذكر اسم أخيه، وربما كان اسمه عبد الله أو محمد ونحو ذلك.

والجواب: أنه لا يخفىٰ بشاعة هذا اللفظ، ولكن لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد الفحص عن حاله، فربما كان هو وأصحابه في حال جمعية قلب في حضرة الله تعالىٰ، فلما سمعوا تلك الحكاية عن أخيهم، فرَّقت قلوبهم عن تلك الجمعية، ولا شك أنه لو كان أخرج ريحًا مثلًا، لكان أطهر[1]، لأن الريح لم يكن يحصل لهم منه تفرقة قلب، وفي الحديث: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»[2] أي غير الاشتغال به فيه. ولا ينبغي حمل الشيخ علىٰ أنه قصد بذلك القول احتقار ذكر اسم أخيه وازدراءه، فإن ذلك بعيد عن مقام الأشياخ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي زاره أمير وعند أطفال وأيتام ووجوه من الناس، وأجلس الأمير علىٰ السماط بين الأطفال بعد أن كان جلس مع الفقهاء والتجار مثلًا، فلاث به الحاضرون وقالوا: في إقامة الأمير من بين وجوه الناس وإجلاسه مع العميان والأطفال ازدراؤه وتنفير لقلبه، لاسيما إجلاسه بين أولاد الفلّاحين، وكان الأولىٰ للشيخ أن لا يفعل مثل ذلك، لأن مثل هذا الأمير إنما يليق بالشيخ أن يؤلِّفه بالإكرام والتعظيم لأجل قضائه حوائج الناس عنده، وقبول شفاعاته فيهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له حال يحمي به ذلك الأمير من النفرة، أو من عدم قبوله شفاعته في المظلومين مع ذلك الفعل الذي فعله معه. ويُحتمَل أنه إنما فعل ذلك مع الأمير لما رآه عنده من الكبر والصلف، فأراد أن يكسر نفسه

---

(١) بالأصلين: آخر. والصواب ما أثبتناه.

(٢) تقدم تخريجه.

بذلك. وقد كان سيدي يوسف العجمي يرمي عمامة الأمير شيخون ويضع البردعة علىٰ ظهره ويركبه، لما يعلم من حسن خلقه، أو ليمرِّنه علىٰ خرق الناموس ونحو ذلك، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حضر مجلس ورده أمير ساكن في حارة أحد من أقرانه الذين لهم مجلس ذكر في زاويتهم، ففرح بذلك وأظهر السرور، فلاث به الحذَّاق من الفقراء وقالوا: كان ينبغي لهذا الشيخ أن يحسِّن اعتقاده في ذلك الشيخ الذي في حارته، ويأمره بحضور مجلسه، قيامًا بواجب حق أخيه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بإظهاره الفرح والسرور الذي صار ذلك الأمير يحضر مجلسه ويترك مجلس الشيخ الذي في حارته [لاحتمال أن يكون رأىٰ أنه لا نصيب له في حصول خير علىٰ يد الشيخ الذي في حارته][1] ففرح بحضوره عنده، ثم إنه يجعل ثواب ذلك المجلس في صحيفة أخيه الذي في حارة الأمير، وفاءً بحقِّه حيثُ كان هو سببًا لحضور ذلك الأمير مجلسه دون مجلس أخيه لئلا ينقص له أجر، فإن الأولىٰ لذلك الأمير أنه كان يحضر مجلس الشيخ الذي في حارته، قياسًا علىٰ حديث: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[2]، فكان فرح الشيخ بحضور الأمير مجلسه إنما هو بحصول الثواب للأمير ولذلك الشيخ، ولو أنه حضر مجلس غيره من الفقراء لربما كان لا يهتدي أن يجعل ثواب ذلك الورد الذي حصل للفقير بحضور الأمير في صحائف الشيخ الذي في حارته، أو كان يفوته حضور مجلس آخر أصلًا، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يرد علىٰ الناس ما يعطونه له من النقود والثياب وغيرهما طول عمره، ثم صار يأخذ من الناس كلَّ ما يعطونه له، وربما سألهم

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الدارقطني(١٥٥٣)، والحاكم (٩٠١)والبيهقي في «السنن» (٤٩٤٢).

الدنيا وتكدَّر إن لم يعطوه شيئًا، فلاث به الناس وقالوا: نعوذ بالله من سوء الخاتمة! ولو أن هذا الشيخ مات قبل أن يحصل له ذلك، لكان أفضل.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، بل يجب حمله علىٰ أنه يرقىٰ إلىٰ مراتب الكُمَّل من الأولياء، وصار يستر حاله عن الناس بقبوله هداياهم أو سؤاله لهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ربما لاث الناس بالشيخ الذي كان الأمراء والأكابر يترددون إليه ويعرضون عليه الأموال فيردها، وكان كثيرًا ما يغلق بابه ولا يفتح لأحدهم، ثم صار يذهب إلىٰ بيوتهم ويسألهم الدنيا، فلا يأذنون له ولا يعطونه ما سأل، فيصير ملقًىٰ علىٰ أبوابهم كأراذل الناس، فظنَّ غالب الناس أنه سُلِبَ حاله، والحال أنه ترقىٰ إلىٰ مراتب الكمال في ستر حاله عن الناس، فصورته صورة محب الدنيا، والقصد مختلف[1]، ولاشك أن أخذه الدنيا سترًا لحاله أولىٰ من رده وتميزه علىٰ الأقران لما لا يخفىٰ. وأما عدم إذنهم له في الدخول وعدم إعطائه ما سأل فهو من أكبر علامات الزهد في الدنيا وصدقه فيه، فصار يدفع الناس والدنيا بقلبه، ويطلبهما بلسانه وظاهره.

وكان علىٰ هذا القدم سيدي يوسف العجمي ﷺ، فكان يطوف شوارع مصر كل يوم يسأل للفقراء القاطنين عنده بزاويته بالقرافة، فلا يكاد أحد يعطيه شيئًا، ثم إذا خرج أحد غيره من الفقراء يسأل، يأتي بالحمار محمَّلًا خبزًا وجُبْنًا وبصلًا وغير ذلك، فقالوا له في ذلك، فقال: أنا شخص فنيت بشريتي، فما بقي بيني وبين الناس مناسبة، فنفروا مني بدنياهم، بخلاف المريدين فإن بشريتهم باقية. انتهىٰ. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء إلا بعد مجاوزة مقامهم في العلم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقبِّل يد الولاة ويسألهم الدعاء، فلاث به بعض الناس وقالوا: في هذا استهانة بالخِرْقَة وأهلها، فإن اللائق إنما هو أن يكون الأمر بالعكس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون في مقام المحو لشهود

---

(١) راجع الجواب (٨٣٢) ففيه تفصيل مفيد حول مشابهة الكامل لغيره في صورة الفعل مع الاختلاف في القصد.

كمالاته كلِّها، فصار يرىٰ كمالات الناس ويعمىٰ عن مساوئهم، ومن كان كذلك فالناس كلهم عنده أفضل منه، فله تقبيل يدهم وسؤال الدعاء منهم. وقد كان سفيان الثوري إذا رأىٰ أحدًا من حاشية الولاة يسأله الدعاء، فقيل له في ذلك، فقال: ظننتُ أن الله تعالىٰ غفر له ذنوبه دوني. انتهىٰ.

وممن علمتُه علىٰ هذا القدم من العلماء الآن الشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي والشيخ سراج الدين الحانوتي الحنفي وجماعة ذكرناهم في كتاب «الطبقات» فكل الناس عندهم مغفور لهم وأفضل منهم.

وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من الفقراء من حجبه الله تعالىٰ عن رؤية مساويء الخلق جملة، لدوام كونه في حضرة الله تعالىٰ مع الملائكة والأنبياء والأولياء، ومعلوم أنه **لا يرىٰ مساويء الناس إلا من خرج من حضرة الله إلىٰ حضرة الشياطين**، وصاحب هذا المقام هو الذي سَلِمَ من سوء الظن بالناس، وسَلِمَ من ازدرائهم واحتقارهم.

[دفع توهم التعارض بين العمى عن مساويء الخلق وبين نصحهم وإرشادهم]

فإن قيل: ما ربحه هذا من جهة عماه عن مساويء الخلق خسره من جهة عدم نصح الناس وإرشادهم، لأنه لا يرىٰ فيهم عيوبًا(١)؛ **فالجواب**: ما ثم خسران من جهة عدم رؤيته مساويء الناس؛ لأنه قد يكون له عينان: عين ينظر بها إلىٰ محاسن الخلق، فيراهم أفضل منه، وعين يرىٰ بها مساوئهم، فيأمرهم وينهاهم من غير ازدرائهم، كما عليه الأكابر من العلماء بالله تعالىٰ.

وكان أخي أفضل الدين يقبِّل أيدي المباشرين والمُعلِّمين كالطباخين والخياطين والمقدَّمين في بيت الولاة وطريق الحج، ويسألهم الدعاء ويقول: هؤلاء عليهم مدار الملك(٢)، فكما لا يكمل الكون إلا بوجود العلماء والصالحين، كذلك لا يكمل

---

(١) بالأصلين: عبورًا. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: الملوك.

[الملك][1] إلا بوجود أصحاب الحرف النافعة. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي له قدم في الطريق، وصار يزور المريدين الذي تمشيخوا بغير شيخ ويقبِّل أيديهم وأقدامهم، ولا يقول أحدهم: استغفر الله تعالىٰ يا سيدي، بل يدعه يقبل رجله وهو ساكت، فلاث الناس بهما وقالوا: أما الشيخ القديم الهجرة فإنما فعل ذلك استهزاء بذلك المتمشيخ وضحكًا علىٰ لحيته، أو أنه سُلِبَ حتىٰ صار يقبِّل رجل مثل ذلك المتمشيخ. وأما المتمشيخ فما كان ينبغي له أن يمكِّن الشيخ الذي هو مثل والده في الطريق يقبِّل رجله.

والجواب عن الأول: أنه لا ينبغي اللوث به بسبب تقبيله رجل المتمشيخ، ولا حمله علىٰ الاستهزاء به أو السلب لحاله هو، وإنما يجب حمله علىٰ أنه رأىٰ ذلك المتمشيخ عنده بعض كبر، فأراد أن يعلمه التواضع، أو أنه ظنه أحسن حالًا منه وأقل ذنوبًا، فقبل رجله [تبركًا][2] ببركاته.

وأما الجواب عن الثاني: فلا ينبغي اللوث به في تمكينه الشيخ من تقبيل رجله، لاحتمال أن يكون قد غلب عليه التبرك بإحساس الشيخ يديه بفمه، وغفل عن كون ذلك سوء أدب لدهشته منه، فحُجِبَ بقوة التعظيم للشيخ والتبرك بيديه عما في ضمن ذلك عن سوء الأدب، فخلط عملًا صالحًا، وآخر سيئًا ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٢] و«عسىٰ» من الله واقعة بلا شك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تلقن علىٰ من هو دون تلامذته من المتمشيخين في عصره من تلامذة أقرانه أو غيرهم، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا يليق فعله من الأشياخ، لأنه كالاستهزاء بذلك المتمشيخ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون الشيخ رأىٰ مقام ذلك الفقير أعلىٰ من مقامه، أو أراد أن يرغِّب الناس في الأخذ عنه حين أدىٰ اجتهاده إلىٰ ذلك، وقد يكون سبب تلقينه عليه ما رآه عنده من الكبر، فأراد أن يتلمذ له ويسارقه بالرياضة والتربية شيئًا فشيئًا حتىٰ يخرجه عن ذلك الكبر. وقد فعلتُ أنا بذلك مع بعض من برز في عصرنا هذا، مع قلة بضاعته في الطريق، والأعمال بالنيات، فاعلموا ذلك، وإياكم والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكشف له علىٰ ما يقدره[1] الله تعالىٰ علىٰ بعض الأكابر من المعاصي أو التهم مما يقبل النقل من سائر المعلَّقات، فيتوجه إلىٰ الله تعالىٰ ويسأله أن يحوِّل ذلك إليه، ويرزقه القوة علىٰ تحمله، فلاث به بعض الناس وقالوا: مثل هذه الأمور لا تليق بمن جعله الله تعالىٰ قدوة، فإنها تنفر قلوب الخلق عنه، فما حصله من الأجر من جهة تحمله البلاء عن الناس، خسره من جهة قلة نفع الناس به.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له حال يحميه من نفرة الناس منه بسبب وقوعه في تلك المعصية أو في تلك التهمة، كما عليه الأكابر من المَلامتية[2]. ويُحتمَل أن يتحمل تلك المعصية أو تلك التهمة ولا يشعر به أحد مطلقًا.

فإن قيل: فهل يجب علىٰ هذا الشيخ التوبة من تلك المعصية التي حملها عن ذلك الشخص؟ **فالجواب**: نعم عليه التوبة كما كانت تجب علىٰ ذلك الشخص لو لم يسبق في علم الله أن أحدًا يتحملها عنه، والله أعلم، ويُسمَّىٰ هؤلاء المتحملون لتلك المقدرات

---

(١) بالأصلين: يذره.

(٢) الملامتية: هم الذين لم يظهروا مما في بواطنهم علىٰ ظواهرهم، وهم يجتهدون في تحقيق كمال الإخلاص، ويضعون الأمور مواضعها حسبما تقرر في عرصة الغيب، فلا تخالف إرادتهم وعلمهم الحق تعالىٰ وعلمه، ولا ينفون الأسباب إلا في محل يقتضي نفيها، ولا يثبتونها إلا في محل يقتضي ثبوتها؛ فإن من رفع السبب من موضع أثبته وأضعه فيه، فقد سفه وجهل قدره، ومن اعتمد عليه في موضع نفاه، فقد أشرك وألحد، وهؤلاء هم الذين جاء في حقهم: أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري. «التعريفات» للجرجاني (ص١٩٢).

المعلَّقة «رجال الرحمة». واجتمعتُ منهم بشخص كان يبيع الحشيشة في باب اللوق[1]، وكان كلٌّ من أخذها من يده يتوب من وقته ولا يعود يبلعها إلىٰ أن يموت، وكان سيدي عليٌّ الخوَّاص يرسلني إليه في الحملات الثقيلة فيقوم بها.

ومما وقع له أنه قال لأصحابه يومًا: إن القاضي فلان يقع في تهمة بجارية، وأنا أخاف أن يسيء الناس ظنهم بأمثاله، ومقصودي أتحملها عنه لله تعالىٰ. فقالوا له: افعل. فقال: وينبغي أن تحضروا معي حين يدعوني أهل الحارة إلىٰ مجلس حكمه، وتسمعوا ما يقوله فيَّ من التوبيخ، ومن قوله: يا شيخ النحس! أيش خليت لآخرتك؟! ولا يعرف ما حملتُه عنه، فكان الأمر كما قال! فصار القاضي يوبِّخه ويقول: يا شيخ السوء! بعد أن شابت لحيتك بقي يليق بك أن تولِّف الجواري، والشيخ يبتسم ولا يعرف بذلك غير أصحابه. انتهىٰ.

وهذا الشيخ هو من تلامذة الشيخ الذي سلب الشيخ سراج الدين البلقيني لما أنكر عليه، ووضع علمه في قلب الديك الدجاج، ولما تاب البلقيني أمره بأن يذبحه ويأكل قلبه، فيرد عليه علمه ﵁. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأولياء بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بالغ في نصح جماعته، فلم يستمعوا إلىٰ نصحه، فقال لهم: ماذا أصنع؟! أنا أريد لكم الخير والله تعالىٰ يريد بكم الشر! فلاث به المحبون[2] لله تعالىٰ من الفقراء وقالوا له: هذا سوء أدب مع الله تعالىٰ منك، لما فيه من رائحة أنا أشفق عليهم من ربهم، وأرحم بهم منه، فجعلتَ نفسك وأصحابك حلفًا علىٰ ربك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا حمله علىٰ أنه يدعي أنه أشفق علىٰ عباد الله من الله، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه أراد بهذا القول أن يحرِّكوا هممهم إلىٰ التوجه إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، فيسألوه الهداية إلىٰ الطريق المستقيم، ويساعدوا شيخهم

---

(١) باب اللوق: أنشيء سنة (٦٣٩ هـ) (١٢٤١ م) في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب كبوابة لميدان ألعاب الكرة والفروسية والرماية في المنطقة التي يقع بها حي باب اللوق حاليًا بالقاهرة.

(٢) بالأصلين: المحبين. والصواب ما أثبتناه.

ويحملوه على أنه لولا محبته لهم ما نصحهم، وأنه ما أراد بنصحهم إلا ليرضى عنهم ربهم دون أن يريد الرئاسة عليهم، كما قد يتبادر إلى أذهان الغُلْف من المحجوبين. وقد سبق مثله من قوم نوح فقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. وعلى ما قررناه يُحمَل قول نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] فإنه خرج عن حونه وقوته، وأرشدهم إلى أن يسألوا ربهم إصلاح الحال، وأعلمهم أنه هو وهم تحت تصريف أقدار الحقِّ جلَّ وعلا، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلى الإنكار على شيخ يقول لأصحابه: والله إني أودُّ لكم الخير، ولكن لله الأمر؛ فربما أراد بذلك إظهار محبته لهم، ليميلوا إلى سماع قوله ونصحه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يحط على شخص من أقرانه أشد الحط، ثم وقع أنه زاره، فلما دخل عليه قال له: والله إني لأحبك أشد المحبة، وما في إخواني أحد أحبه مثلك؛ فلاث به الجماعة الذين كانوا في صحبته وقالوا: هذا نفاق! من ساعة وهو يحط عليه، فلما اجتمع به حلف أنه يحبه! فكيف هذا الحال؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه كان يحط عليه لما يعلم من رضاه بذلك خوف العجب عليه، فلما اجتمع به رآه قد تغير عن ذلك الحال، فأدَّىٰ اجتهاده إلى أن يُظهِر له المحبة، ليصير يحمل حطه عليه على أغراض صحيحة، فإنهم قالوا: إن من يحط عليك حكمه حكم من يحوِّطك من إصابة العين، ومن يشكرك حكم من يصيبك بالعين. وإيضاح ذلك أن الفقير إذا اشتُهر بالصلاح والخير، طمحت العيون إلى رؤيته، واشتغلت الألسن بمدحه، وقلَّ من يملك نفسه عند ذلك ويصونها عن العُجْب، وقالوا: كم طيرت طقطقة النعال خلف الرجال من رأس! وأذهبت من دِين! فاعلم ذلك، وزد في محبة من يحط عليك من جميع إخوانك، وقدِّمه في المحبة على من يمدحك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٥) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقوم للناس في المحافل ويعظِّمهم فوق ما يستحقون، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا ينبغي فعله من العلماء، لأنه نفاق، وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: ما رفعتُ أحدًا فوق قدْره إلا حطَّ من مقداري بقدْر ما رفعتُ من قدْره.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لاحتمال أنه يريد بذلك تحصيل مصلحة أخرىٰ ترجح علىٰ رفعه الناس فوق مقدارهم، كما إذا أراد أن يصلح بين ذلك الشخص وبين من بينه وبينه عداوة سنين عديدة، فأراد بتعظيمه والقيام له أن يميل إليه بالمحبة، ليصير يسمع له في الصلح. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء، فإنهم لا يجهلون أحكام الشريعة، وهم أعلم بها منك، فربما أدَّىٰ اجتهادهم إلىٰ ترجيح أحد الأمرين بأدلة تخفىٰ علىٰ مثلك، ولا يحط من مقدارهم شيء بسبب ذلك. وكلام الإمام الشافعي محمول علىٰ ما إذا رفع من مقدار الناس لغير غرض صحيح، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يذكر لإخوانه نقص أعماله بعد أن كانت كاملة في العدد أو في الحضور فيها مع الله تعالىٰ، فلاث به بعض الحذَّاق من الفقراء وقال له: إن في ضمن شكواك لإخوانك نقص أعمالك رائحة عدم الرضا بما قسمه الله لك من الأعمال في ذلك اليوم أو الليلة مثلًا، كما أن [في] ضمنه أيضًا إظهار عملك السر الذي كان يضاعف علىٰ عمل العلانية سبعين ضعفًا وأكثر. وقد تكون تلك الأعمال من الأمور المبرمة التي لا تقبل الزيادة دون المعلَّقة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إذا شكا[1] بعض أعماله إلىٰ إخوانه، لاحتمال أن تكون زيادتها من الأمور المعلَّقة علىٰ سؤال إخوانه الزيادة فيها، كما وقع لي ذلك من أخي الشيخ الصالح علي الحصصي، فشكوتُ إليه مرةً قلة[2] عملي، فزاد ثاني ليلة، حتىٰ إني صرتُ أختم القرآن في ركعة، فعرفتُ أن ذلك كان معلَّقًا علىٰ دعاء أخي

---

(١) بالأصلين: سكن. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: بعد.

المذكور. وقد يكون هذا الشيخ ممن أعطاه الله القوة، فصار يدفع الناس أن يلحقوا[1] بإظهاره أعماله التي شكا نقصها. وأما كون ذلك في ضمنه رائحة عدم الرضا بالقسمة فإن[2] ذلك بعيد وقوعه من العلماء والأشياخ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي عمل له مجلس ذكر، فتسامع الناس به، فأتوا إليه من سائر الحارات، ثم صاروا ينقصون حتىٰ لم يبقَ في المجلس غير الشيخ وبعض جماعة، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا مخلصًا في أعماله، لكان الناس لم يزالوا في زيادة في مجلسه، ولكن أين الإخلاص اليوم؟! إنما صار فقراء هذا الزمان يتخذون المجالس مصيدةً للدنيا والرئاسة والجاه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا ينبغي حمله علىٰ عدم الإخلاص، بل يجب حمله علىٰ أنه توجه إلىٰ الله تعالىٰ في اجتماع الناس في مجلسه ليحصل لهم الخير والثواب كله، فله نيته الصالحة، ثم إنه اتهم نفسه في الإخلاص، فتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في تفرقة الناس عن مجلسه، تقديمًا لخلاص نفسه علىٰ حصول الثواب لغيره، فسأل الله تعالىٰ أن يفرِّقهم عن مجلسه، ويجمعهم علىٰ شخص لا يخاف علىٰ نفسه الرياء لجهله بذلك، أو ليمكِّنه في باب الإخلاص، ثم بعد ذلك يسأل الله أن يلهمهم فعل ذلك الذكر الذي كانوا يفعلونه في مجلسه حتىٰ لا ينقص لهم أجر، فإن أجابه الحقُّ تعالىٰ فذاك، وإلا حصل له أجر تمني الخير للمسلمين، فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والطعن في أشياخ الطريق بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يظهر المحبة العظيمة لأحد من أقرانه، ثم إنه إذا قدر أنه سمع أحدًا يذكر ذلك القول ويرجحه عليه وعلىٰ غيره، تكدَّر وظهر الغم علىٰ وجهه، فلاث به الناس وقالوا: هذا يكذِّب دعوىٰ فلان المحبة لفلان، فإن من شرط

---

(١) كذا بالأصلين: ولعلها يحدقوا.

(٢) بالأصلين: قبل. والصواب ما أثبتناه.

المحب أن يحصل عنده سرور إذا مدحوا محبوبه وعظَّموه ورجحوه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون تكدره إنما هو محبة فيه، لخوفه عليه من العجب بحاله حين يرجحه الناس علىٰ كلٍّ من في بلده من الأقران كما هو الغالب. وربما كان لهذا الشيخ عينان: عين يحزن علىٰ أخيه بها خوفًا من وقوعه في العجب؛ وعين يفرح لأخيه بها، ويحصل عنده بذلك السرور كما هو حال الأكابر. فإن أحدهم ربما كان له عدة أعين ينظر بها إلىٰ أمور متعددة. وفي كلام سيدي إبراهيم الدسوقي: لا يكمل الرجل عندنا في الطريق حتىٰ يكون له سبع عيون ينظر بها إلىٰ سبعة أقاليم الدنيا، وإلىٰ السموات السبع، والأرضين السبع. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في حارته أمير يعتقده اعتقادًا شديدًا، ثم حوَّل الله تعالىٰ اعتقاده ذلك إلىٰ أحد من أقران ذلك الشيخ، فظهر التأثير علىٰ وجهه، فلاث به الناس وقالوا: قد استراح الفقير من الأمير، فكان حقه أن يفرح ببعده عنه إلىٰ غيره، ثم يسأل الله تعالىٰ لذلك الغير أن يحميه من الفتنة بصحبة الأمير، ولكن قد صار الفقراء يتغايرون علىٰ الأمراء للحظوظ الدنيوية.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون تأثيره من شدة شفقته علىٰ دين أخيه، فكان [خوفه][1] عليه الفتنة هو الموجب لتكدره، **ولم يزل الصادقون يحبون أقرانهم ويحوِّطونهم خوفًا عليهم من حصول الآفات، ويحزنون عليهم إذا أقبل عليهم الناس بكثرة الاعتقاد، محبةً فيهم لا بغضًا لهم وحسدًا.**

ويُحتمَل أن يكون لهذا الشيخ عدة أعين: **فعين** يحزن بها علىٰ أخيه، **وعين** يفرح بها له إذا قام له ناموس، **وعين** يفرح بها لتحوُّل ذلك الأمير عنه خوفًا من الفتنة، **وعين** يحزن بها علىٰ ذلك الأمير لما كان يحصل علىٰ يديه من الخير والشفاعة في المظلومين، **وعين** لا يحزن بها ولا يفرح بشيء تفويضًا لله عزَّ وجلَّ، **وعين** يسأل الله تعالىٰ بها لأخيه أن

---

(١) ساقط من «ب».

تكون صحبة ذلك الأمير عليه مباركة، وأن يحوِّل الله تعالىٰ تلك الشفاعات التي كان يقبلها من الشيخ إلىٰ صحائف ذلك الأخ من غير أن ينقص للشيخ الأول أجر من حيثُ نيتُه الصالحة لأخيه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يبلغه وقوع أحد من إخوانه في ذنب، فيقول: الحمد لله الذي وقع فيه صاحبي دوني؛ فلاث به الحذَّاق من الفقراء وقالوا له: هذا جرح في كمال إيمان هذا الشيخ، لأن من كمال إيمانه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فكان الواجب عليه أن يحمد الله الذي عافاه دون التعرض للشكر علىٰ وقوع أخيه في الذنب دونه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له عدة أعين: **عين** ينظر بها تقدير الله تعالىٰ ذلك الذنب علىٰ أخيه دونه، فيرضىٰ بذلك ويفرح أدبًا مع الله تعالىٰ العليم الحكيم الخبير؛ وعين ينظر بها إلىٰ غضب الله تعالىٰ علىٰ أخيه حين أوقعه في الذنب، فإنه تعالىٰ لو أحبَّه لحماه من الوقوع في الذنوب؛ وعين ينظر بها إلىٰ كون أخيه كان سببًا لفدائه من التعرض لدخوله النار بذلك الذنب، من حيثُ إن الحقَّ تعالىٰ لو شاء لجعل الأمر بالعكس، فأوقعه في الدنيا وحمىٰ أخاه من الوقوع فيه، **ولم يزل الأكابر يتمنون لإخوانهم الخير من حضرة الإطلاق التي لا تقييد فيها**، كما قال عطاء السُّلَمِي ﷺ: «اللهم إنك قد أدخلتَ قلبي الرحمة علىٰ العصاة، فأسألك أن لا تعذب أحدًا من عصاة الموحدين» مع علمه ﷺ أنه لا بد من دخول طائفة من عصاة الموحدين للنار. وقد بلغنا عن أبي بكر الشبلي ﷺ أنه كان يقول: أتمنىٰ أن الله تعالىٰ يكبر جسمي حتىٰ يملأ به النار، ولا يُدْخِل أحدًا من أمة محمد فيها، لكونه تعالىٰ حقت منه الكلمة أن يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين. فقيل له: إن الكفار لا يصح عتقهم من النار. فقال: كلامي في عصاة الموحدين فقط، لكونهم أطاعوا الله وصدَّقوا المرسلين. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٣١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي الزهد في الدنيا والكرم والسخاء، ثم

إنه يشتكي الناس الذين له عليهم دين من بيوت الحكام، وربما اشتكىٰ إنسانًا من بيت القاضي علىٰ نصف فضة، وغرم بسببه عدة أنصاف، فلاث الناس به وقالوا: هذا الفعل ينافي دعواه الزهد والكرم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون متمكنًا في مقام الزهد والكرم، ولكنه أراد أن يعرِّف ذلك الشخص ثقل الدين وعظمه، وما فيه من العقوبة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فبالحبس والتغييب عن أصحاب الديون، وأما في الآخرة فقد ورد في الصحيح: «أن رسول الله ﷺ رأىٰ ليلة الإسراء قومًا في توابيت من نار، فسأل جبريل عنهم فقال: إنهم ماتوا وفي عنقهم أموال الناس»[1].

وكان علىٰ هذا القدم سيدي عليٌّ المرصفي، وسيدي عليٌّ الخواص، والشيخ شهاب الدين الوفائي[2] رأيتُه ذهب إلىٰ بيت قاضي العسكر يدعي علىٰ إنسان بعثمانيٍّ أخذه منه. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء، فإن أحدهم ما دخل

---

(١) لم أقف عليه. وفي المعجم الكبير للطبراني (٧٢٢٦) عن شُفي بن ماتع الأشجعي أن رسول الله ﷺ قال: «أربعة يؤذون أهل النار علىٰ ما بهم من الأذىٰ، يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور، يقول أهل النار بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء قد آذونا علىٰ ما بنا من الأذىٰ؟ قال: فرجل مغلق عليه تابوت من جمر، ورجل يجر أمعاءه، ورجل يسيل فوه قيحا ودما، ورجل يأكل لحمه، قال: فيقال لصاحب التابوت: ما بال الأبعد قد آذانا علىٰ ما بنا من الأذىٰ؟ قال: فيقول: إن الأبعد مات وفي عنقه أموال إلىٰ الناس ما نجد لها قضاء أو وفاء ... الحديث»، و«الصمت» لابن أبي الدنيا (١٨٦).

(٢) شهاب الدين أحمد بن عمر بن سليمان الجعفري الدمشقي الشافعي الصوفي الوفائي. له كتاب لطيف شرح فيه «الحكم العطائية» وضعه علىٰ أسلوب غريب، كلما تكلم علىٰ حكمة، اتبعها بشعر عقدها فيه فمن ذلك قوله:

أجل أوقات عارف زمن ... يشهد فيه وجود فاقته
متصفًا بالذي يقربه ... من ربه من وجود زلته

عقد فيه قول ابن عطاء الله: «خير أوقاتك وقت شهدت فيه وجود فاقتك، وترد إلىٰ وجود ذلتك». وفرغ من تأليف هذا الكتاب يوم الجمعة ثالث عشر ذي القعدة من السنة التي قبلها بمكة المشرفة تجاه البيت الحرام. توفي سنة (٩٢٠هـ). انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ١٣٨)

للطريق إلا بعد زهده في الدنيا، وإنما شاححوا الناس في الدنيا لقوة إيمانهم بيوم القيامة، وأن أحدًا لا يدخل الجنة وعليه حق لأحد، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ في العلم أو الطريق إذا كان يدعي الورع عن الحرام والشبهات، ثم إن قاضي العسكر أو الدفتردار أو الباشاه مثلًا عمل في بيته ختانًا أو عرسًا، وعمل وليمة ودعا العلماء إلىٰ الأكل منها، فحضر هذا الشيخ المتورِّع وأكل، فلاث الناس به وقالوا: لا يخلو عمل هذه الوليمة من أحد شيئين غالبًا: إما من فلوس القانون في المحاكم، وإما من هدايا الكشَّاف ومشايخ العرب والمحتسب وأضرابهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إذا حضر الوليمة، لاحتمال أن يكون له أحد من أعدائه يوقع بينه وبين قاضي العسكر العداوة، فحضر خوفًا من وقوع ما ذكر. وأما أكله ذلك الطعام، فيحتمل أن يكون أكل من رغيف أخذه معه في كمِّه، أو من طعام الوليمة حين أخبره صاحب الوليمة أو غيره بحل ذلك الطعام، وألقىٰ الله في قلبه صدقه، فإن القاضي ولو فسق فقوله لنا: «إن ذلك الطعام حلال» كافٍ في الجواز إذا صدقناه.

وقد أرسل لنا قاضي العسكر بمصر بقرة علىٰ يد قاضي المنوفية شيخ جلبي وقاضي الجيزة أحمد لما عمل ختان ولده، فرددتُها عليهما وقلتُ: ليس لي عادة بأكل طعام قاض ولو رأيتُه يمشي علىٰ الماء والهواء! فقالا: نحن نشهد عندك بحلها، وأنها من معلوم تدريسه بالروم، لا من فلوس القضاء ولا من هدايا العمال، فإن كنتَ تقبل شهادتنا، فقد شهدنا عندك بحلِّها، وإن كنت تردها فأنت مخيَّر. فاستحييتُ أن أردَّ شهادتهما، فقبلتُها علىٰ اسم المحتاجين، وقلتُ للمجاورين: إني لا أحب لأحد منكم الأكل منها؛ فمنهم من قُسِمَ له الأكل، ومنهم من لم يُقسَم له، فإن للعبد ترك الأكل من الحلال الصرف زهدًا في الدنيا ولا اعتراض عليه، فاعلم ذلك، واحذر من الأكل من طعام الولاة جَهْدك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ المال من أصحاب الكسب الخبيث،

ثم يصرفها مصرف المال الضائع، فلاث به المتورِّعون وقالوا: ترك مثل ذلك أولىٰ وأحوط للدين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون ذلك باجتهاد منه حيث رأىٰ نفسه أعرف بمصارف ذلك المال، وأن صرفه علىٰ المحاويج أولىٰ من بقائه في يد جامعه من خلق لا يحصون، وهو أحد المذهبين في أن «السلامة مقدمة علىٰ الغنيمة»، أو أن «الغنيمة مقدمة علىٰ السلامة». ثم لا فرق في الأكل من هذا المال بين الشيخ الذي أخذه وبين آحاد الناس إذا كان محتاجًا إلىٰ مثله، فاعلم ذلك.

(١٤٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير الذي يمتنع من حضور الولائم ويتعلل بشدة الحياء، فلاث به الناس وقالوا: عذرك في ذلك هو عذرك في صلاة الجماعة، فلم لا تتركها أيضًا؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأن حضور الولائم يغلب فيها الاشتغال بالخلق، وحضور الجماعة في الصلاة يغلب فيها الاشتغال بالحق، فلا يكاد أحد يشتغل بأحد دخل أو خرج، بخلاف الولائم، فربما استحيا العبد من إحداق الناس أبصارهم إليه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ القدوة بين الناس إذا كتب لأحد عقدًا منعه من الجماع، ولاث به الناس وقالوا: هذا من أنواع السحر، وذلك لا يجوز.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون قصد بذلك خيرًا للمعقود، كأن يمنعه من الزنا أو من اللواط دون الوطء الحلال، وكأن يمنع البدوي الذي يخطب بنات الفلاحين ويدخل بها من غير ولي ولا شهود ولا رضا والدها وأهلها، فمثل هذا لا ينبغي الإنكار علىٰ فاعله، لأنه من باب كف أهل المنكر عن الفعل الحرام باللسان أو باليد، إذ العقد المذكور ربما كان بالتلفظ بالكلمات أو بكتابتها في ورقة مثلًا. ثم إذا امتنع المعقود عن الحرام وزال ما عنده من شهوة تلك المعصية، فهناك نحله، فاعلم

ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين، فإنهم أعلم منك بالحلال والحرام، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للناس: أقل ما يتأدب أحدكم معي مثل ما يتأدبون مع الباشاه، فإن مقامي فوق مقامه؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عظيمة، وهي من جملة الكبر، وذلك لا يجوز لأبناء الدنيا، فكيف لمن يدعي الصلاح والولاية؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل قوله المذكور، لأنه ربما يكون صادقًا فيما قال، وذلك لأن التعظيم للعبد حقيقةً إنما يكون بحسب مقامه عند الله تعالىٰ عادة، ولا شك أن الزاهد في الدنيا أعلىٰ من الراغب فيها، فغاية ما يصل إليه الملوك الجائرون حبُّ الدنيا دون الآخرة، وأول مقام الفقير الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وإن لم يزهد في الدنيا فلا يصح له أن يضع قدمه في طريق أهل الله عزَّ وجلَّ إلىٰ حضرة الله، ثم إذا دخل حضرة الله تعالىٰ واستقر فيها، فهناك يصح له السير في معرفة الله تعالىٰ وما يجب له وما يستحيل علىٰ جنابه عزَّ وجلَّ، وهو معنىٰ قول شيخنا سيدي محمد المغربي: أولُ الطريق زهدُ العبد في نعيم الدارين وشهواتهما. انتهىٰ.

وكان أبو القاسم الجنيد إذا سأله شخص الصحبة يقول له: هل خدمتَ الملوك؟ فإن قال له: نعم؛ صحبه، وإن قال له: لا؛ يقول له: اذهب فاخدمهم سنين ثم تعال، فإن بداية الأدب مع الفقراء فوق نهاية الأدب مع الملوك. انتهىٰ. وإيضاح ذلك أن نهاية غضب الملوك علىٰ من أساء معهم الأدب أن يضروه في جسمه وماله مثلًا دون أن يصلوا إلىٰ قلبه، وأول غضب الفقراء علىٰ من أساء معهم الأدب أن يصيبوه في قلبه، فيتلفوا عليه دينه، ولا شك أن تلف الدين أعظم من تلف الجسم والمال.

وربما كان ذلك الفقير أحكم مقام الأدب مع الله، وصار يغضب لله ويرضىٰ لله، فصار الحق تعالىٰ يغضب لغضبه، ويرضىٰ لرضاه جزاءً وفاقًا، فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء، وحملهم علىٰ التكبر في شيء من أحوالهم،

فإن مقامهم الذل والانكسار دائمًا، قد محق الحق تعالىٰ نفوسهم بما تجلىٰ لقلوبهم من العظمة. ومن حملهم علىٰ الكبر فقد رجمهم بحجارته.

وقد تقدم في كلام أبي عبد الله القرشي(١) أحد أشياخ مصر الأجلاء في المئة الخامسة أنه كان يقول: من غض من ولي لله عزَّ وجلَّ ضُرِبَ بسهم مسموم في قلبه، ولم يمت حتىٰ تفسد عقيدته في الله ورسوله وأوليائه، فلا يظن بالله ورسوله وأوليائه إلا سوءًا، فيجني ثمرة ذلك بالذل في الدنيا، والخزي في الآخرة. انتهىٰ. ومعنىٰ الغض منهم تنقيصهم واحتقارهم عن المقام الذي ظهروا به للناس من التعظيم والتفخيم، وكأن هذا الغاض يقول: إن هذا الشخص لا يستحق هذا الاعتقاد والتعظيم الذي يفعله الناس معه، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يغلق في رمضان عليه باب داره مدة صومه رمضان، ولا يكلِّم أحدًا بكلمة لغو، فلاث به الإخوان وقالوا: هذا من فعل اليهود في يوم السبت، ولم يبلغنا ذلك عن أحد من السلف الصالح، مع شدة تحرزهم في رمضان وغيره.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأخذه لنفسه ولإخوانه بالاحتياط، فقل مجلس إلا ويحصل فيه غيبة، ولو بأن يذكر العبد عن أخيه ما يستحيي أن يواجهه به في العادة. وقد صح عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه كان يضع حجرًا في فِيهِ الأيام المتعددة، خوفًا من الوقوع في التكلم بما لا يعنيه. انتهىٰ. فتُحمَل حالُ هذا الشيخ علىٰ ما إذا خاف من اجتماعه بالناس الوقوع في الغيبة أو في سماعها، وحالُ السلف الذين كانوا يجتمعون بالناس في رمضان علىٰ ما إذا لم يخافوا الوقوع في ذلك، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) محمد بن أحمد بن إبراهيم. أبو عبد الله القرشي الهاشمي: زاهد. أندلسي الأصل، من الجزيرة الخضراء. أقام بمصر مدة، وسكن القدس وتوفي بها (٥٩٩ هـ) ودفن بماملا (مقبرة القدس القديمة). انظر: «الأعلام» (٥/ ٣١٩) و«الطبقات الوسطىٰ» للشعراني، الترجمة (٢٨٠) طبعة دار الإحسان.

(١٢٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزوره أمير أو يزور هو أميرًا، فيقول للأمير: لا تنسونا من برِّكم وإحسانكم، فإننا فقراء من الدنيا ليس لنا رِزْقَة ولا معلوم، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا ينبغي من هذا الشيخ، لأن الأمير يزدريه بذلك، وتذهب حرمته من قلبه، وذلك خلاف ما كان عليه السلف الصالح، فإنهم كانوا لا يقبلون من الأمراء شيئًا ولو أتاهم بغير سؤال.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بمجرد هذا الكلام، فربما كان يمتحن[1] الأمير بذلك القول، لينظر هل يمتثل أمره فيما يأمره به، فيدوم علىٰ صحبته، أو يغض منه ويزدريه بذلك فيفارقه، والحال أنه لو أجابه إلىٰ سؤاله ورسم له بشيء لا يأخذه. ويُحتمَل أنه اطلع علىٰ قلب ذلك الأمير حين اجتمع به، فعرف أنه لا خير فيه، فطرده عنه بذلك السؤال وإظهار الفاقة والفقر.

ويقع لي ذلك مع شيوخ العرب والكُشَّاف، فبعضهم يعرف حالي وزهدي في الدنيا، فلا يفارقني بذلك القول، ويحملني علىٰ أن ذلك مداعبة، وبعضهم يحملني علىٰ حبِّها، فيهرب مني، فلا يعود يزورني. وربما كنتُ أفعل مثل ذلك لئلا أتميز عن فقراء العصر، فإن غالبهم قد صار لا يصحب أميرًا إلا لغرض دنيوي، كما يُعرَف ذلك بالقرائن، ومثل هؤلاء يجب عليهم السلوك علىٰ يد الأشياخ الصادقين حتىٰ يخرجوهم من حب الناس. ويسبقني إلىٰ ذلك أخي الشيخ أفضل الدين، فكان إذا صحب أميرًا ويراه رفعه في الزهد والورع عن مقام غيره من الفقراء، يتظاهر له بترك الزهد والورع، ليصير عند ذلك الأمير مثل إخوانه في المرتبة، ويقول: **حبُّ التناهي غلط.** ثم إنه إذا قبل من ذلك الأمير شيئًا، يفرِّقه علىٰ المحتاجين إلىٰ مثل ذلك المال أو الطعام مثلًا، ولا يستعمل هو منه شيئًا، ثم يذهب إلىٰ أولئك الفقراء الذين يسألون الأمراء شيئًا من الدنيا ويعظهم فيما بينه وبينهم، ويقول لهم: أتريدون أن يلوث الناس بأهل الطريق ويهدمون ركن الورع الذي هو من أعظم أركان الطريق؟! وقد ورد في الصحيح مرفوعًا: «كل عبادي أناقشهم وأحاسبهم

---

(١) بالأصلين: يحتمل. والصواب ما أثبتناه.

يوم القيامة إلا الورِعون، فإني أستحييهم وأجِلُّهم عن أن أناقشهم»[1] أو كما قال.

فإياك يا أخي أن تظهر الغضب على أمير إذا رأيتَ منه ما لا يليق، بل ابعد عنه من غير إظهار غضب عليه، فقد وقع أن أميرًا قيل له: إن الشيخ الفلاني غضبان عليك. فقال: حيثما عادته واصلة إليه أيش يغضب؟! انتهى. فانظر كيف حمله ببادئ الرأي على أنه ما غضب عليه إلا من جهة الدنيا قياسًا على غيره من فقراء الزمان. فاعذر يا أخي الأمير في مثل ذلك، واحمل الفقراء على المحامل الحسنة، وإن لم تجد لهم محملًا حسنًا فاسكت. وإن سألتَ عن شيء من أفعالهم، فقل: الله أعلم بحالهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون في أعمال الدنيا نشيطًا ذا قوة، ثم إذا عمل شيئًا من أعمال الآخرة، ذهب ذلك النشاط، وفترت أعضاؤه، حتى صار أكثر صلاته للنافلة جالسًا، فلاث به الفقراء وقالوا له: هذا لا يليق بالشيخ الذي يكون له أتباع، فإنهم ربما اقتدوا بك في الكسل، ولأي شيء لا نراك تفتر منك الأعضاء إذا كنت في بناء حائط أو عمل مهم من طبخ طعام ونحو ذلك؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إذا صلَّى جالسًا مثلًا، لأنه ربما كان يحصل له خشوع في أعمال الآخرة لرفع الحجاب فيها غالبًا، بخلاف الأعمال الدنيوية، فإن من

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٦٥٠) من حديث ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل: ناجى موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام، فلما سمع موسى ﷺ كلام الآدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل، وكان فيما ناجاه به أن قال: يا موسى إنه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرب إلي المتقربون المتصنعون بمثل الورع عما حرمت عليهم، ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي. قال موسى: يا رب البرية كلها ويا مالك يوم الدين، ويا ذا الجلال والإكرام ماذا أعددت لهم؟ وماذا جزيتهم؟ قال: أما الزهاد في الدنيا فإني أبيحهم جنتي يتبوءون منها حيث شاءوا، وأما الورعون عما حرمت عليهم، فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب ونقشته؛ إلا الورعين، فإني أستحييهم وأجلهم وأكرمهم، وأدخلهم الجنة بغير حساب، وأما البكاءون من خشيتي فأولئك لهم الرفيع الأعلى لا يشاركون فيه» وفي «الأوسط» (٣٩٣٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٤٧) وابن أبي الدنيا في «الورع» (١٨١).

لازمها الحجاب عن شهود تجليات الحقِّ جلَّ وعلا، بل بينه وبين شهودها سبعون ألف حجاب، فلذلك كان لا تفتر له أعضاء في أعمال الدنيا ولو وقف فيها طول ليله ونهاره مثلًا، بخلاف الأعمال الأخروية، فربما حصل لقلبه التجلي أول دخوله فيها، فيهد أركانه.

ويقع لي مثل ذلك كثيرًا، فأكون أتحدث مع أصحابي وأنا جالس أو واقف لا أحس بتعب، ثم يقع لي شهود شيء من تجليات الحقِّ تعالىٰ لقلبي، فأسقط إلىٰ الأرض وأصلي النوافل جالسًا، فربما أساء بعضهم الظنَّ بي لجهله بحالي، فالله تعالىٰ يجعل جميع الإخوان ممن يقيم لإخوانه المعاذير، آمين، اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سبق الناس إلىٰ صحبة أمير، وصار يقف عند إشارته ويمتثل أمره، ويقبل شفاعاته، فزاحمه جماعة علىٰ صحبته لذلك الأمير، فصار ينفِّر الأمير من أولئك الإخوان، ويقول له: إياك أن تصغىٰ إلىٰ قول فلان أو فلان، فلاث به الناس وقالوا: هذا حرام عليك يا سيدي الشيخ، فإنه من جملة الغيبة.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا الشيخ في ذمه أحدًا من فقراء الزمان الذين زاحموه علىٰ صحبة ذلك الأمير، لاحتمال أن يكون أولئك الفقراء من جملة النصَّابين علىٰ الأمراء في أخذ فلوسهم بغير حق، لاسيما في هذا الزمان، فإنه برز فيه جماعات يدَّعون الصلاح عند العوام، ولا يتوضؤون ولا يتطهرون من نجاسة، ولا يراهم أحد يصلون مع وجود عقل التكليف، وإذا لامهم أحد علىٰ ذلك قالوا: نحن من المَلامتية الذين يظهرون القبيح، ويخفون المليح، كما وقع من بعضهم مع شيخ العرب عامر أخي عيسىٰ ببلاد البحيرة لما وقع بينهما العداوة وعُزِل عامر، فبعضهم ادعىٰ أنه يتوجه في عيسىٰ فيقتله بعد ثلاثة أيام، وبعضهم بعد سبعة أيام، وبعضهم بعد عشرة أيام ونحو ذلك، وأخذوا منه نحو خمسمئة دينار مفرَّقة، ولم يصح لأحد منهم ما ادعاه، فاشتكاهم عامر من مجلس الشرع، وحبس بعضهم وضرب بعضهم، وأخذ منهم بعض ما كانوا أخذوه منه، وكانت لهم صيحة في مصر، فمثل هؤلاء يجب علىٰ كلِّ مسلم نصح كلِّ أمير وجده يميل إليهم، لاسيما إن كان ذلك الأمير محبوسًا في البرج أو مُرَسَّمًا

عليه[١]، فإن أحدهم يدخل عليه ويقول له: انذر شيئًا للفقراء بحسب ما عندك من السخاء والكرم، ليتوجهوا في خلاصك، فإن ذلك في يد الفقراء؛ ويوهمونه أنهم من الصالحين، ومعلوم أن المحبوس كالغريق يستند علىٰ القش، وبعضهم يقول له: إن كنتَ لا تصدقنا اجعل المال عند أحد ممن تثق به، فإن خلصناك أخذناه، وإلا خذ مالك منه، كما وقع للأمير محيي الدين بن أبي أصبع، ولشيخ العرب أبي النصر شيخ بلاد منفلوط، فأخذوا منهما مالًا جزيلًا، ولم يقع لأحد منهما خلاص.

وبالجملة فالتولية والعزل للولاة إنما هو خاص بأصحاب النوبة ببلاد ذلك الأمير، ليس لغيرهم في ذلك قدم، ولو بلغ في العبادة الغاية. وتقدم في هذا الكتاب وغيره من كتبنا أن من علامة من يكون [من أصحاب][٢] النوبة القائمين في مصالح العباد أن يكون علىٰ سنة وهدىً من ربه عزَّ وجلَّ، عالمًا بدسائس النفوس، لا يولي أحدًا ولا يعزله إلا بالحكمة دون شيء من الأغراض الدنيوية، ولا يقبل شيئًا من هدايا صالحي زمانه، فضلًا عن الأمراء والمباشرين والتجار الذين يبيعون علىٰ الظلمة وأعوانهم، وإذا توجه في ولاية أحد أو عزله، يصير لا يأكل ولا يشرب ولا يجامع، ولا ينام ولا يضع جنبه إلىٰ الأرض، ولا يأكل شيئًا من شهوات الدنيا، ولا يضحك ولا يتنزه في بستان إلا لضرورة شديدة لا يحتملها الشيخ عادة، فأين مثل هذا الفقير يوجد الآن؟!

وقد قلتُ لواحد من هؤلاء النصَّابين: كيف تأخذ فلوس فلان وليس بيدك تصريف؟! فقال: إنما أكذب عليه لأدخل عليه السرور، كما يكذب الناس علىٰ أهل الحبوس، فإن حصل له ما طلب، قلنا له: إنا فعلنا لك ذلك؛ وإن لم يحصل له ما طلب، أخذنا ماله ولعنًا والديه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وخذ حذرك ممن لا يتقيد بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لعن الله الروافض؛ فلاث به الناس

---

(١) أي ممنوع من التصرف في أمواله وأملاكه.

(٢) ساقط من «ب».

وقالوا: قد يكون الرافضيُّ شريفًا من أولاد رسول الله ﷺ، أو غير شريف، ولكن يحب الله ورسوله، فكيف يجوز لعنه؟! أي الإخبار عن كون الحقِّ تعالىٰ طرده عن حضرته كما طرد إبليس، ومعلوم أن مثل ذلك يحتاج إلىٰ دليل خاص.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ من يلعن الروافض، بل يُحمَل علىٰ من يصح لعنه كمن ينكر صحبة أبي بكر وبراءة عائشة ﵂، **فإن الروافض علىٰ أقسام كثيرة: أقبحهم من يقول برسالة علي ﵁، وأخفهم حالًا من يفضل علي بن أبي طالب علىٰ أبي بكر وعمر فضلًا عن عثمان وغيره**، وغاية الرافضي الذي لا يكفر باعتقاده أن يُقال في حقِّه «مبتدع» وكل من لعنه يحتاج إلىٰ دليل خاص أو اجتهاد.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إنما قالوا: «من العجائب شريف سني» يعني يقدم الشيخين علىٰ جده عليٍّ أو جعفر أو عقيل أو العباس؛ لأن من كان من أولاد هؤلاء الأربعة محبوس في دائرة جده، لا يهتدي للخروج منها إلىٰ شهود فضل غيره عليه إلا بنور عظيم يطمس حكم العقل من الأنوار الربانية، وما كل شخص يصل إلىٰ هذا المقام، بل يموت وهو محبوس في دائرة جده، كما هو مشاهد في مشايخ الخرق، كالكيلانية والأحمدية والرفاعية والبرهانية والبسطامية والسهروردية، فلا تكاد ترىٰ واحدًا من أتباعهم يرىٰ فضل شيخ آخر عليهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: مسألة الأشراف الذين لا يرون فضل أحد علىٰ جدهم لا يحكم فيها إلا الله تعالىٰ ورسوله يوم القيامة. وأما نحن فخدَّامٌ للفريقين، فنعظم كلًّا منهما، ونكل علم الأفضلية إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأن الله تعالىٰ أو رسوله هو العالم بسرائر الخلق ومقامهم عنده، فلا يليق بأحدنا أن ينتصر للصحابة علىٰ أولاد رسول الله ﷺ ولا عكسه، لقصور علمنا وعقلنا عن إدراك الحقِّ في ذلك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحذر من قولك: «فلان رافضي كلب» إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اختصر كتابًا، فقيل له: ما سبب اختصارك له؟

فقال له: ذكر صاحبه فيه لتلاتًا[1] كثيرًا؛ فلاث به الناس وقالوا: مثل هذا غيبة في صاحب ذلك الكتاب، لأنك ذكرتَه بما يكره سماعه منك لو كان حيًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون ذكر مثل ذلك غافلًا، أو علىٰ وجه التعريف بحال الكتاب، لئلا يتعب أحد نفسه في مطالعة ذلك الحشو مثلًا، فيضيع عليه وقته، فقصد باختصاره ووصفه بأن فيه لتلاتًا النصح للإخوان. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دُعِي إلىٰ وليمة فأجاب، ثم قالوا له: إن فلانًا هناك، لشخص من أقرانه، فرجع من الطريق ولم يدخل دار الوليمة، فلاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا يليق بالأشياخ مراعاته، إنما ذلك للعوام الذين لا يقدرون علىٰ مجالسة عدوهم لضيق حالهم، وأما الشيخ الذي عرف الله تعالىٰ، فلا يجد من يرسل غضبه وعداوته عليه، لشهوده المعية الإلهية مع كلِّ عدو له.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا الشيخ الذي رجع من الطريق لأجل حضور عدوه، لاحتمال أن يكون من الكمَّل السالمين من الرعونات النفسية الذين لا يتكدرون من رؤية عدوهم، وإنما رجع رحمةً بعدوه حين أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أنه يتضرر برؤيته هو، فخاف علىٰ تضرره، مع أنه هو يحبه ويعظمه ويعتقده.

ويُحتمَل أن شمس معرفته كُسِفَت بعد أن كان أجاب، وصار لا يقدر علىٰ مجالسة عدوه إلا بإظهار العبوسة والكدر، فخاف أن يلحق عدوه بذلك، فيتكدر بإظهاره العبوسة عند رؤيته، وقد راعىٰ الحق تعالىٰ أضعف الناس حالًا، فقال: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورىٰ: ٤٠] فنفَّس عن صاحب الضيق والحرج الذي لا يقدر علىٰ احتمال الأذىٰ من عدوه. وقد أباح العلماء الانصراف من وليمة العرس إذا كان هناك من يتأذىٰ الإنسان به، أو لا يليق به مجالسته، فغاية أمر هذا الشيخ الذي رجع أنه عمل بالرخصة في

(١) أي كلامًا لا فائدة فيه.

محلِّها، فلا ينبغي اللوث به لأجل ذلك، فإن عاد إلىٰ مقام الكمال، اعترضنا عليه، لكونه كان يقدر علىٰ مجالسة من يكرهه ولم يفعل، كما نعترض علىٰ من يقدر علىٰ العفو عمن آذاه ويترك ذلك، فإن الله تعالىٰ قد عرَّض بالعفو والإصلاح للكُمَّل بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: لما نظر الكمَّل في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فهموا إطلاق اسم السيئة علىٰ سيئة المجازاة كإطلاق اسم سيئة البداءة علىٰ حد سواء، فقالوا: لا يجب أن تكون من أهل السوء، لاسيما وقد أكد الحقُّ سيئة المجازاة، بقوله ﴿مِّثْلُهَا﴾، فشمل أن تكون مثلها في اسم السوء، أو في تأثير صاحبه الذي أساء عليه بقدر تأثيره من غير زيادة، وذلك أمر يتعسر، فإنه قلَّ من يقابل صاحبه بالإساءة إلا ويزيد في اللفظ والتأثير، ويختلف السامعون لتلك الإساءة، ولا تكون المثلية إلا إذا كان السامعون لسيئة المجازاة هم السامعون بأعيانهم لسيئة البداءة، فلذلك اختار الكُمَّل أن يكون أجرهم علىٰ الله، وخرجوا عن مقام الضيق والحرج وعدم إحراج[1] عباد الله لله.

وقد دُعِيَ سيدي عليٌّ الخواص ﷺ إلىٰ وليمة، فلما وصل إلىٰ الباب، عرف أن الحاضرين يقومون له ويعظمونه ويرفعون مقامه علىٰ مقام فقير كان سبقه هناك، فرجع وقال: متىٰ وقع لي ذلك من الناس ربما تكدَّر أخي الذي هناك، وحصل له ضيق وحصر، وربما قام وخرج عند دخولي، فيصير الناس يستهزئون بأهل الخرقة، فكان عدم دخولي أولىٰ في حقِّي وحقِّه، وإن راعيتُ واحدًا أغضبتُ آخر، يعني صاحب الوليمة وعدوه الحاضر هناك.

فعُلِمَ أنه يجب حمل الشيخ الذي رجع أو الذي خرج عند دخول شيخ آخر علىٰ أحسن المحامل، كأن يحمله علىٰ أنه كان يود أنه يدخل الوليمة ويأكل هو وذلك الشيخ الحلو والحامض وينشرحا بذلك، لكنه لم يتفق له ذلك، وكذلك الحكم في الشيخ الذي

(١) بالأصلين: إكرام. والصواب ما أثبتناه.

خرج يجب حمله علىٰ إيثاره أخاه بذلك التعظيم الذي كان يحصل من الناس له لو كان لم يخرج، فأدىٰ اجتهاده إلىٰ أن إيثاره بذلك أرجح في الأجر، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في رسالة «الأنوار القدسية»، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول في حديث «ستفترق أمتي علىٰ نيف وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهو ما أنا عليه وأصحابي»[1] أن المراد بقوله: «كلها في النار إلا واحدة» أي في النار مرورها لا مكثها، فلاث به الناس وقالوا: هذا خلاف ما فسره الجمهور.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد جاء في رواية الإمام أحمد وغيره مرفوعًا: «إن المؤمنين كلهم يدخلون النار، فتكون عليهم بردًا وسلامًا، كما كانت علىٰ إبراهيم، حتىٰ إن النار لتشتكي من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا»[2]، ويؤيد ذلك ما جاء في رواية ابن النجار: «كلها في الجنة إلا واحدة»[3] قال بعضهم: وهم الزنادقة، إذ لا يُخلَّد في النار موحِّد، لعدم قبول النار له بأي طريق كان توحيده، لكن يؤيد الرواية الأولىٰ المشهورة قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) وقال: هذا حديث مفسر غريب، والطبراني في «الكبير» (٦٢)، والحاكم (٤٤٤)

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أحمد (١٤٥٢٠) عن أبي سمية قال: اختلفنا هاهنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعًا، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا هاهنا في الورود، فقال يردونها جميعًا، وقال سليمان مرة: يدخلونها جميعًا فقلت له: إنا اختلفنا في ذلك الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعًا، فأهوىٰ بإصبعيه إلىٰ أذنيه، وقال: صمتًا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود: الدخول. لا يبقىٰ برٌّ ولا فاجرٌ إلا دخلها، فتكون علىٰ المؤمن بردًا وسلامًا، كما كانت علىٰ إبراهيم، حتىٰ إن للنار - أو قال: لجهنم - ضجيجًا من بردهم، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]». والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٤) وعبد بن حميد (١١٠٦).

(٣) أخرج هذه الرواية العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢٠١)، قال العجلوني في «كشف الخفا» (١/ ١٦٩): ورواه الشعراني في الميزان من حديث ابن النجار وصححه الحاكم بلفظ غريب، وهو: ستفترق أمتي علىٰ نَيِّفٍ وسبعينَ فرقةً كلها في الجنة إلا واحدة، وفي رواية عند الديلمي: الهالك منها واحدة، قال العلماء: هي الزنادقة.

بذراع. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: فمن؟»[1] انتهىٰ. فيكون الناجي من النيف وسبعين فرقة واحدة فقط، وهي المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢] إن قلنا: المراد بـ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ هم الكافرون، وإن قلنا: المراد بهم من ظلم نفسه بفروع المحرمات، فيكون فيه تأييد للرواية الأخرىٰ، ويحمل علىٰ مرورهم علىٰ النار لا علىٰ الخلود فيها، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعو علىٰ أحد من الولاة بالهلاك أو الحبس والضرب، ويقول: إنما أقصد بذلك تطهيره من الذنوب. ثم إن الأمير تاب إلىٰ الله تعالىٰ وحسنت توبته، فاستدام الدعاء عليه، فقال له الناس: لو كان قصدك تطهيره بهلاكه، لكنتَ تركتَ الدعاء عليه، فإن التوبة كذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون اجتهاده أدَّىٰ إلىٰ أن تطهيره بالهلاك أكمل في حقه، وأخلص له من تبعات الخلائق، لكون التوبة لا ترضي أخصامه يوم القيامة، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة وإلا فاسكت، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا مات له ميت ومقبرته في داره أو ملاصقة لزاويته، فغسلوا ميته وكفَّنوه، ثم خرجوا به فداروا به الحارة من طريق بعيدة، ثم رجعوا به إلىٰ المقبرة التي في البيت مثلًا، فلاث به الناس وقالوا: سلَّمنا أن العوام لا يعرفون الأحكام الشرعية، فربما طافوا بميتهم الحارة وقالوا: نفعل ذلك ليودع الدنيا وينظرها قبل أن ينزل التراب، فكيف يليق بالعلماء أن يفعلوا مثل ذلك؟! ويفعلوا بميتهم كما يفعل الناس في زفة الختان، وما رغَّب الشارع في المشي مع الجنازة، ورغَّب في كثرة الخُطَىٰ للطاعات إلا ترغيبًا للعوام الذين يشق عليهم أن يعملوا عملًا إلا بأجرة دنيوية أو أخروية. وأما العلماء فمقام فوق ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن فعل ما ذكرناه من العلماء والصالحين، لأنه قد يكون اجتهاده أدَّىٰ إلىٰ مثل ذلك، فرأىٰ أن خروجه إلىٰ الحارة ثم رجوعه حيلةً حتىٰ يكثر الخُطَىٰ في الطاعات، وأن الله تعالىٰ يجازي أصحاب تلك الخطوات في الدوران بالميت، كما يجازي من كانت تربته بعيدة عن داره.

وقد يكون الباعث للعالم أو الصالح علىٰ الدوران بالميت إقسام أمّ الميت مثلًا علىٰ ذلك العالم بالله عزَّ وجلَّ أن لا يدفن ذلك الميت إلا بعد أن يشقوا به قصبة البلد إلىٰ جامع الأزهر مثلًا، ليصلوا فيه ثم يرجعوا به إلىٰ قبره في داره، فما فعل العالم ذلك إلا إجابةً لأم الميت حين أقسمت عليه بالله تعالىٰ لتبرد نار حزنها مما هي فيه من الألم والبكاء والعويل. وربما كان الماشون مع الجنازة لا يشق عليهم المشي عملًا علىٰ رضا أم الميت مثلًا. وبالجملة فلا ينبغي لأمثالنا الاعتراض علىٰ العلماء والصالحين، فإننا دونهم في العلم بيقين، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا حضر في جنازة، فقدَّم أحدًا ممن هو دونه في العلم للصلاة وتأخر هو، ولاث به الناس وقالوا: كان الأولىٰ له الصلاة مصلحةً لذلك الميت.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأن العالم وإن كان أعلم، فقد يخطر في نفسه أنهم ما قدَّموه إلا لكونه أعلم وأفضل، فصرف ذلك الخاطر عنه فلم ينصرف، فكان الأولىٰ تقديم من لم يخطر له ذلك من المفضولين. وإيضاح ذلك أن صلاة الجنازة إنما هي شفاعة، ومن يرىٰ نفسه أفضل فهو متكبر، والمتكبر لا ينبغي أن يكون شافعًا في غيره، لأنه عدوٌّ لله عزَّ وجلَّ، فكان اللائق بالشفاعة أكثر الحاضرين تواضعًا. وقد يكون العالم إنما قدَّم المفضول ليعلِّمه التواضع حيث أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن تعليم ذلك المفضول التواضع أولىٰ من صلاته هو علىٰ الجنازة إمامًا من غير تعليم، ورأىٰ أن دعاءه إمامًا ودعاءه مأمومًا واحد[1].

---

(١) بالأصلين: واحدًا. والصواب ما أثبتناه.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: إذا قدَّمكم العالم للصلاة علىٰ الجنازة فلا تطيعوه، فإن ذلك علامة منه علىٰ أنه رأىٰ نفسه دونكم، ومن رأىٰ نفسه كذلك فهو من المتواضعين، وهو أحق بالصلاة علىٰ الميت منكم. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإذا قدَّمك العلماء علىٰ أنفسهم، فاحذر أن ترىٰ نفسك بذلك، فيلزمك التأخر، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يطنب في تزكية نفسه، ويصف نفسه بالأخلاق الحسنة بحضرة الناس، ولاث به الناس وقالوا: هذا خلاف ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فقد ثبت عن العشرة المشهود لهم بالجنة أن أحدهم كان يقول: ليتني كنتُ كبشَ أهلي، فذبحوني وأكلوني ثم ألقوني عذرة. وكان عمر بن الخطاب يقول: ليتَ أمي لم تلدْني. وكان مالك بن دينار يقول من أراد أن ينظر إلىٰ قوم بلا عقول ولا إيمان بيوم الحساب فلينظر إلينا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ حين زكَّىٰ نفسه، لاحتمال أن يكون قصد بذلك إظهار نعم الله عليه، فإنه لا فرق بين قول العبد: إن الله خلقني ورزقني، وبين قوله: إني عالم صالح؛ لأن كلا الأمرين من نعم الله علىٰ العبد.

واعلم يا أخي أن كلَّ من صح توحيده وإيمانه، رأىٰ جميع ما معه من الفضائل ملكًا لله عزَّ وجلَّ، لا يدخل شيء منها في ملكه هو، ولا لوم عليه إلا لو كان يراها له، بقطع النظر عن مشاهدة كونها لله عزَّ وجلَّ.

فإن قال قائل: إن السلف الصالح كانوا يشهدون الأمور لله وحده، ومع ذلك سدُّوا باب الدعوىٰ جملة؛ **فالجواب**: أنهم راعوا الجزء الذي يدعي الملك في النوع البشري، فمالوا إلىٰ وجه العبودية وهو الذل والانكسار، لأنه هو معظم الأمور التي تعبدهم الله به في هذه الدار، وأما اعتراف العبد بفضل الله عليه فهو تحصيل للحاصل، والله أعلم.

فعُلِمَ أنه لا ينكر علىٰ هذا الشيخ إلا من لم يَكمُل في مقام الإيمان والتوحيد، أو من كمُل فيهما ولكن طلب من الشيخ أن يراعي الجزء البشري الذي يزاحم أوصاف

الربوبية. وإذا كانت الأغراض بذكر العبد محاسنه صحيحة، فلا اعتراض لذكره علمه وصلاحه وزهده وعفته، ليأخذ عنه المريدون ويقتدوا به في مثل ذلك، كما مشىٰ عليه العلماء الذين ذكروا مناقبهم في كتبهم، كالحافظ الذهبي والسيف الآمدي[1] والجلال السيوطي وأضرابهم، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك أوائل كتابنا المسمىٰ بـ«المنن والأخلاق» والحمد لله رب العالمين.

(١٤٤٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وقف وقفًا، وشرط فيه شروطًا تشق علىٰ المستحقين، كشرط أن يباشر كلُّ واحد وظيفته بنفسه ولا يستنيب فيها، أو بشرط أن يقرأ بحضور قلب مع الله تعالىٰ، وإن لم يحضر قلبه كذلك فما يأخذه كله شبهة، فلاث به المتشرعون وقالوا: ما ربحه هذا الواقف من جهة وقفه، خسره من جهة تحجيره علىٰ المستحقين والمشقة عليهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون مسامحًا للمستحقين بالقلب، وإنما شدد عليهم باللسان فقط، طلبًا لمباشرتهم القراءة وخدمتهم المسجد مثلًا، ليحصل لهم الأجر الكامل دون النائب، وفي قلبه أنهم لو لم يباشروا وظائفهم، لطاب علىٰ قلبهم أكل ذلك المعلوم، فاعلم ذلك، فإن **المشايخ أكثر الناس شفقةً، لكن الشفقة تارةً تكون من جهة تعب الجسم، وتارةً من جهة توفير الأجر**، وتوفير الأجر هو مقصود الأشياخ للمستحقين. وفي بعض الهواتف الربانية يقول الله عزَّ وجلَّ للملائكة: «اكتبوا عمل عبدي فلانًا، واكتبوا أين كان قلبه حال العمل هل هو حاضر معي أو حاضر مع غيري». انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) العلامة المصنف سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد التغلبي الآمدي الحنبلي، ثم الشافعي. أصله من آمد (ديار بكر) ولد بها، وتعلم في بغداد والشام. وانتقل إلىٰ القاهرة، فدرّس فيها واشتهر. وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه إلىٰ فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة، فخرج مستخفيًا إلىٰ (حماة) ومنها إلىٰ (دمشق). له مصنفات منها: «الإحكام في أصول الأحكام» و«منتهىٰ السول» و«أبكار الأفكار». توفي: ٦٣١هـ. انظر: «السير» (٢٢/ ٣٦٤) و«الأعلام» (٤/ ٣٣٢).

(١٢٥٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي وقع بينه وبين شخص من أقرانه عداوة، وعجز الناس في الصلح بينهما، فلم يقدروا علىٰ ذلك إلا بعد جَهْد، فلما أخذوه وخرجوا به للصلح، وقف بالطريق وقال: خاطري ما هو طيب بالصلح في هذا الوقت! ورجع، فلاث الناس به وقال: إذا كان العلماء يحقدون علىٰ بعضهم بعضًا كلَّ هذا الحقد، فما بقي أحد يُلام علىٰ مثل ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، فقد يكون قلبه صافيًا لأخيه كلَّ الصفاء، وإنما كان يظهر الوقفة بينه وبين أخيه ليقبِّح في عينه أخلاقه الردية. وأما رجوعه فلا يلزم منه أن يكون ذلك لعدم صفاء قلبه له، فقد يكون ذلك لعدم وجود نية صالحة يقابل بها أخاه، أو حدوث ازدراء في قلبه لأخيه، فتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في أن يطلعه علىٰ شيء من كمال أخيه، ليلقاه علىٰ وجه التعظيم له، لكونه أحسن حالًا من نفسه هو.

ويُحتمَل أنه عرف من أخيه هيجان نفسه إذ ذاك، وغلبة الرعونة عليه، فطلب التأخر عن لقائه، رجاء أن تخمد نفسه ثم يذهب إليه، خوفًا أن تظهر عليه رعونة أو شيء من الأخلاق الردية، فينقص مقامه في عيون الناس، فكان عدم لقائه إنما هو غيرة عليه وعلىٰ مقامه عند الناس.

ويُحتمَل أن يكون إنما يتوقف عن الاجتماع به حين خرج لمصالحته حين غلب علىٰ ظنه أنه يحمله علىٰ المحامل السيئة، كقوله في نفسه: إنما جاء فلان يصالحني خوفًا مني لا محبة فيَّ. انتهىٰ. فتأخر حتىٰ يزول ذلك الظن عنه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يتكرم علىٰ الناس قبل شهرته واتساع الدنيا عليه، ثم لما اشتُهر واتسعت عليه الدنيا، قبض يده عن الإحسان إلىٰ الناس، وصار الشريف يسأله خلقة أو فلسًا أو رغيفًا، فلا يعطيه شيئًا، فلاث به الناس وقالوا: هذا ما كان يتكرَّم ويطعم الناس ويكسوهم إلا جلبًا للدنيا، فلما حصلت له اطمأن خاطره وبخل.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون عما فهموه عنه بمعزل، وإنما

توقف في العطاء للسائل لعدم وجود نية صالحة يعطيه[١] بها، فتوقف حتىٰ يفتح الله عليه بالنية الصالحة، لاسيما الشريف فربما استحيا من الله عزَّ وجلَّ أن يعطيه شيئًا وهو يجد في نفسه عليه منَّةً، لكونه بضعة من رسول الله ﷺ، فتوقف حتىٰ يبصر المنَّة للشريف عليه في قبوله منه شيئًا، **فإن كلَّ من رأىٰ له منَّة علىٰ شريف، فهو كمن يرىٰ له منَّة علىٰ رسول الله ﷺ**، ولا يخفىٰ ما في ذلك من سوء الأدب، إذ الواجب علىٰ كل مؤمن إعطاء الشريف كل ما طلبه منه من النقود والثياب والأمتعة، حتىٰ إنه لو سأله جميع ما بيده، لأعطاه له ورأىٰ المنَّة للشريف عليه.

وقد كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين [إذا][٢] سأله أخوه حاجة هي حاضرة عنده، فلا يعطيها له ويقول: يا أخي حتىٰ أجد لك نية صالحة. فكان أخوه يصبر عليه ويشكره علىٰ عدم إعطائها له حيثُ لم يجد له نية صالحة. وكذلك كانوا يفعلون في الزيارة، فربما كان أحدهم بالأشواق إلىٰ رؤية أخيه، فيمكث السنة وأكثر حتىٰ يجد له نية صالحة، فعُلِمَ أنه لا يجوز نسبة الفقراء إلىٰ البخل بعد الكرم، وإنما ينبغي حمله علىٰ المحامل الحسنة اللائقة بأهل الخير والصلاح، وكلُّ وعاء بالذي فيه ينضح، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تردد إليه أميران يتنازعان في ولاية مثلًا، وطلب منه كل واحد أن يكون معه علىٰ خصمه، فقال للمتولِّي: لا بد من عزلك وتولية فلان -يعني خصمه- فلم يعزل ذلك المتولِّي، ولم يتولَّ ذلك المعزول، فلاث الناس به وقالوا: هذا من النصب علىٰ الدنيا، والكذب علىٰ الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من الأولياء المتمكنين الزاهدين في الدنيا، فلما عجز عن الصلح بين هذين الأميرين، نفَّرهما عنه بما قال لهما، وورَّىٰ في قوله. وكان علىٰ هذا القدم سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي رحمه الله، وقال لي

(١) بالأصلين: يعظمه. والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

مرة: إذا ابتليت بمثل ذلك، فافعل مثل ذلك، لتستريح من التعب بينهما. ومن التورية أن تريد بقولك للمتولي: «أنت باق في ولايتك» أي في هذا الوقت، وتريد بقولك للمعزول: «أنت تتولىٰ قريبًا» أي تتولىٰ بظهرك عنا إذا قمتَ من عندنا. انتهىٰ.

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك مع عبد الله بن بغداد ومع حسن بن حماد لما طلب كلُّ واحد أن يكون شيخًا للإقليم، فتغير اعتقاد عبد الله لما بلغه أنني قلتُ لحسن: أنت تتولىٰ قريبًا، [ولم يظن أنني قصدتُ به توليته عنا بظهره إذا قام من المجلس، وتغير اعتقاد حسن حين لم تصح له ولاية في الوقت الذي ظنه بقولي: «قريبًا»][1] مع أن الدنيا كلها قريب! كما قاله بعض العارفين في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] فقال: الدنيا كلها قريب، أي يقبل فيها التوبة ما دامت الشمس لم تطلع من مغربها. وسبقه إلىٰ ذلك ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

ثم لا يخفىٰ أنه لا يقع في إخبار الأميرين المذكورين بدوام الولاية أو التولية مثلًا من غير مطابقة لما يعلمه من طريق كشفه إلا المتمكنون من الأولياء الزاهدون في الدنيا التي في يد الأميرين، وإلا فالراغب في الدنيا لا يقدر علىٰ تعاطي أسباب التنفير لمن يرجو إحسانه وبرَّه أبدًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اشتُهِرَ بالصلاح وقضاء حوائج كلِّ من استند إليه عند الولاة بالقلب أو باللسان، وتميز بذلك عن جميع أقرانه، حتىٰ صار الناس يقولون: ما بقي باب معدٌّ لتفريج كرب الناس إلا باب فلان فقط في هذا البلد. ثم تغير عليه الحال، فصار لا يقضي حاجة لأحد استند إليه، فلاث الناس به وقالوا: قد سُلِبَ فلان مما كان فيه من الحال والقال، ورجع إلىٰ ما فيه الناس، وذاك دليل علىٰ أنه كان في ذلك متفعِّلًا، ولو أنه كان مخلصًا لله عزَّ وجلَّ، لدام عليه إلىٰ الممات.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث بهذا الشيخ، ولا بأقرانه الذين لم يشتهروا بالصلاح

---

(١) ساقط من «ب».

ولم يقضوا لأحد حاجة، ولا نسبته إلىٰ السلب، ولا أقرانه إلىٰ النقص، فقد يكون أحدهم اختار الستر في حاله بين العباد ودخوله فيما فيه أقرانه حتىٰ لا يتميز عنهم بحال ولا قال، ولا زهد ولا ورع ولا صلاح، ولا كثرة اعتقاد كما عليه المتمكنون من الرجال.

وكان ذلك من شأن أخي أفضل الدين رحمه الله كان إذا تميز عن إخوانه بخلق غريب محمود، يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في أن يحجب إخوانه عن شهود ذلك الخلق منه، فلا يصير أحد يميزه بالصلاح عن أحد من أقرانه.

فعُلِمَ أنه لا يلزم من عدم قضاء الفقير حوائج أصحابه بعد أن كان يقضيها أن يكون سُلِبَ أو نقص حاله، فقد يكون ذلك إنما حصل بتوجهه إلىٰ الله تعالىٰ واختياره ذلك لنفسه، خوفًا من فتنة الشهرة والتميز، لاسيما في النصف الثاني من القرن العاشر، فقد أخبرني سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله أنه سمع سيدي الشيخ إبراهيم المتبوليَّ رضي الله عنه يقول: إن عاش أحدكم حتىٰ أدرك النصف الثاني من القرن العاشر، فلا يطلب قضاء حوائج الناس عند الأمراء وغيرهم علىٰ يديه، فإن الله تعالىٰ يقبض قلوب أولياء ذلك الزمان عن التصريف، فلا يصير أحدهم يقدر علىٰ تفريج كربة لأحد إلا في النادر، ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]. انتهىٰ.

وقد وقع لي مثل ذلك مع أصحابي فيما قبل النصف الثاني. وأما في هذا النصف فتعسرت عليَّ الحوائج، وربما أتوجه الليلة كاملةً في قضاء حاجة أحد من إخواني، فلا أجد للإجابة أثرًا، فيُحتمَل أن يكون ذلك لفساد نيتي، ويُحتمَل أن يكون لعدم استحقاق صاحب تلك الحاجة.

[علامة عدم وجود أثر الإجابة]

فإن قيل: فما علامة عدم وجود أثر الإجابة؟ فالجواب: علامة ذلك أن تصير كلُّ شعرة في المتوجه لا ترجو من الحق تعالىٰ إجابة سؤالها، عكس حال من أراد الله تعالىٰ قضاء حاجته، فإن كلَّ شعرة من المتوجه تصير تظن أن الله تعالىٰ لا يرد سؤالها. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا أمر شخصًا بمعروف، فيوعده بالقتل كما وقع لعمر بن الخطاب ﷺ، وصار العالم أو الشيخ يخاف منه، فمشىٰ الناس بينهما في الصلح، فقال الشيخ: أنا لا أصلح معه حتىٰ يحلف لي بالله العظيم أنه لا يقتلني ولا يوالس[1] علىٰ قتلي؛ فلاث الناس به وقالوا: كيف يزعم هذا العالم أو الشيخ أنه كامل الإيمان لا يصيبه إلا ما كتب الله له مما لم يكن معلَّقًا علىٰ شرط، ثم يخاف من أحد من الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ أو العالم بسبب تحليف عدوه بالله العظيم أنه لا يقتله، لاحتمال أن يكون ما طلب من عدوه اليمين إلا لينفره من الوقوع في الإثم بسبب قتله [لا لنقص إيمانه بالأقدار الإلهية، فكأنه خاف علىٰ عدوِّه من الوقوع في الإثم بسبب قتله]، ولم يطمئن علىٰ عدوه إلا إن حلف علىٰ عدوه بالله العظيم أنه لا يقتله، وإن كان في ضمن حلفه المذكور طمأنينةً أيضًا للشيخ، لكنها بحكم التبع لا بالقصد الأول، بل يقال: إن الشيخ لو قصد بالحلف طمأنينة نفسه هو، فلا حرج عليه، لأن روحه أمانة عنده من الله تعالىٰ، والواجب علىٰ الأمين أن يدفع جميع الآفات عن تلك الوديعة بحيثُ لا يُنسَب في ذلك إلىٰ تقصير.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إنما خاف الأكابر من الأمة علىٰ أنفسهم لأنهم لا يرون نعمةً أنعمها الله عليهم أكبر من إخراجهم من العدم إلىٰ الوجود، فلذلك كانوا يخافون من كلِّ شيء يلحقهم بالعدم أو يقربهم إليه كالطعنة في البطن مثلًا. وسمعتُه يقول: لا لوم علىٰ الأكابر في خوفهم من الخلق؛ لأن مشهدهم أن الله تعالىٰ هو الفاعل في الخلق، وحركاتُهم كلُّها بتقديره، فرجع خوفهم من الخلق إلىٰ الخوف من الحقِّ جلَّ وعلا، لأنه هو الذي يسلِّطهم عليهم.

ويُحتمَل أن يكون ذلك العالم أو الشيخ من أقوىٰ الناس يقينًا وتحملًا للبلايا

---

(١) المُوَالَسَة : الخِداع .يقال: قد تَوالَسُوا عليه، أي تناصروا عليه في خِبٍّ وخَديعة .

والمحن، ولكن قصد بإظهاره الخوف أن يستره الله في عباده الصالحين، فلا يتميز عن أقرانه بشجاعة قلب ولا يقين.

فإن قال قائل: فهل الأولىٰ للشيخ إذا توعده أحد من الفسقة بالقتل أن يتوعده الآخر بالقتل أو يسكت عن ذلك؟ **فالجواب**: قد ذكر بعض فيمن خرج عليه قاطع طريق يريد قتله ليأخذ ماله أو يفسق في حريمه وجهين: **أحدهما**: وجوب الدفع ولو أدىٰ إلىٰ القتل؛ والثاني: ترك الدفع والاستسلام له، ليبوء بإثم القتل وحده. انتهىٰ.

والذي نقول به: إن ذلك راجع إلىٰ ما يؤدي إليه اجتهاد هذا العالم أو الشيخ، فإن أدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ وجوب الدفع عن نفسه ولو بقتل الصائل، وجب عليه ذلك، من حيثُ ما ورد أن قتل الإنسان نفسه أعظم عقوبة من عقوبته إذا قتل غيره[1]، فعُلِمَ مما قررناه أن حقَّ نفسه أعظم من حقِّ الأجنبي، لاسيما وهو باغٍ علىٰ الشيخ.

وإن أدىٰ اجتهاده إلىٰ ترك الدفع ومسامحة الصائل بدمه، وسؤال الله له المغفرة، فله ذلك، لاسيما ومشهد الشيخ أن الفاعل حقيقة هو الله، والصائل إنما هو آلة للقتل، فإن لله تعالىٰ الفعل بالآلة، والفعل بلا آلة، كما قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة: ١٤]، وكما قال: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وكما أشار إلىٰ المعنيين قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير الذي أرسل له أحد من الولاة مالًا بحضرة جماعته، فرده وأظهر الورع وقال: أما علم الأمير أننا لا نقبل مالًا فيه شبهة؟! ثم لما أرسل له الأمير مالًا وقال لرسوله: أعطه له إن وجدتَه وحده؛ فوجده كذلك فأعطاه له،

---

(١) فمن قتل غيره معه فسحة للتوبة، فلو تاب تاب الله عليه، أما قاتل نفسه فخالد مخلد في نار جهنم، أخرج البخاري (٥٧٧٨) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من تردىٰ من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردىٰ فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسىٰ سمًّا فقتل نفسه، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»، ومسلم (١٠٩).

فقبله وحمد الله علىٰ ذلك، فأخبر الرسول الناس بذلك، فلاثوا بالشيخ وقالوا: كلُّ هؤلاء إنما هم مراؤون بأعمالهم، لأنه إنما رد المال بحضرة جماعته خوفًا علىٰ ناموسه ونسبته إلىٰ أكل الشبهات، ولو أنه كان راعىٰ الله تعالىٰ لرده حين أتاه ولا أحد عنده.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ونسبته إلىٰ الرياء وأكل الشبهات، فقد يكون عما ظنَّه الناس فيه بمعزل، لاحتمال أن يكون سبب رده في المرة الأولىٰ كونه كان غير محتاج إلىٰ مثل ذلك المال، وعرف بالقرائن أن ذلك الأمير ما أرسله له إلا لظنه الحاجة إليه أسوة الفقراء المحتاجين، وقد صرح العلماء بأن القرائن إحدىٰ الأدلة، كما إذا رأىٰ أحد عمامة أخيه خَلِقَة، فأعطاه دراهم وقال له: اشترِ لك بها عمامة، لا يجوز له أن يصرفها في غير العمامة.

ويُحتمَل أن يكون إنما ردها في المرة الأولىٰ لكونه رأىٰ فيها شبهة، أو رؤية منَّة عليه من الأمير لا يقدر علىٰ احتمالها عادة، لما هو عليه من المروءة، ونحو ذلك من الأمور التي تغيب عن مراعاة الخلق والرياء لأجلهم.

وأما قبوله له للمال في المرة الثانية حين كان وحده، فيُحتمَل أنه رأىٰ نفسه محتاجًا إلىٰ مثل ذلك لنفقة نفسه وعياله والواردين عليه من الفقراء، أو رآه سالمًا من الشبهة لا منَّة عليه فيه، ولا تبعة في الآخرة، فأخذه بنية صالحة، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار من غير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول: أنا أحب وقوع المعاصي في الأرض، وأحبُّ دوامها للخلق في كل لحظة كما أحبَّها الله تعالىٰ؛ فلاث به طلبة العلم وقالوا: هذه عقيدة فاسدة لا يجوز ذكرها فضلًا عن اعتقادها!

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهذا العالم ببادئ الرأي، بل يجب علينا التربص والنظر في قواعد الشريعة قبل أن ننكر عليه، فقد يكون مراده: أنا أحب وجودها في الأرض من حيثُ القسمةُ الإلهيةُ والحكمةُ، لا من حيثُ التكليفُ والكسبُ لها، لكنه

أخطأ في التعبير عن ذلك بالمحبة، وكان الأولىٰ له أن يقول: أنا أريد وقوع المعاصي في الأرض كما أرادها الله تعالىٰ، إذ المحبة لها خصوص ترجيح وحث علىٰ الفعل شرعًا، بخلاف المعاصي تسري بها الإرادة سرًّا، فلا يعلم بها العاصي إلا بعد أن يقع فيها، ويصير يندم ويستغفر عكس حال الطاعات.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إذا تكلَّم العالم بكلام دقيق علىٰ أفهامنا، وجب علينا التسليم له فيه حتىٰ نستفهمه عن معناه، وهناك ننكر عليه إن رأيناه فاسدًا مخالفًا للقواعد الشرعية من كلِّ وجه لا يقبل تأويلًا. انتهىٰ.

وإيضاح ما قلناه أن من كمال الوجود ما جعل الله الوجود عليه من شقي وسعيد، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وغيرها من الآيات، وذلك لتحكم حضراتُ الأسماءِ كلُّها في أهلها من «غفور» و«رحيم» و«منتقم» و«مذل» و«جبَّار» و«توَّاب» وغير ذلك، فلا بد من وجود طائع وعاصٍ في كل طرفة عين، ولولا أن الرحمة سبقت الغضب -أي غلبته كما في رواية أخرىٰ[١] - لأهلك الله تعالىٰ غالب الخلق، لأن الرحمة لا تغلب الغضب إلا إذا كان العاصون أكثر من الطائعين، كما أشار إليه نقص عدد أسماء المؤاخذة عن عدد أسماء الحنان واللطف والكرم. ومن هنا كان السيد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: إياكم أن تطلبوا من الله تعالىٰ رفع المعاصي من الأرض جملة، لأنه جهل بأحكام الله تعالىٰ، ولولا أن الله تعالىٰ أراد وقوع المعاصي في الأرض لما خلق إبليس، إذ لا يقع أحد في معصيةإلا بوسوسته. انتهىٰ.

وبالجملة، فيحتاج صاحب الاعتقاد الصحيح الجامع لأطراف الشريعة أن يكون

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» والترمذي (٣٥٤٣) وابن ماجه (٤٢٩٥).

له عدة أعين: **فعين** ينظر بها إلىٰ كمال القسمة الإلهية إلىٰ شقي وسعيد، فلا يطلب رفع المعاصي جملةً من الأرض؛ **وعين** ينظر بها إلىٰ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيجب عليه ذلك من حيثُ الكسبُ قيامًا بواجب حقِّ الشريعة؛ **وعين** يحب بها أن لا يعصي أحدٌ ربَّه قيامًا بواجب حقِّه ظاهرًا، وإن كان تعالىٰ هو المقدِّر لتلك المعصية؛ **وعين** ينظر بها إلىٰ سعة رحمة الله تعالىٰ، وكونه هو الخالق لأفعال عباده، فيخفف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، **لاسيما إن كان ذلك المنكر مما صرَّح الشارع بأنه من علامات الساعة**، لئلا يعارض بالتشديد في منع الناس من الوقوع فيما أخبر به الشارع، ويسعىٰ في تكذيبه فيما أخبر بوقوعه بين يدي الساعة، كما تقدم بسطه في الجواب عن خطيئة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن الله تعالىٰ كما لم يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها؛ فلاث به طلبة العلم وقالوا: هذه عقيدة فاسدة، فقد أجمع أهل الحقِّ أنه لا يتحرك ذرة في الوجود إلا بإرادته.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث به حتىٰ يُسأل عن ذلك العلماء بالله وبأحكامه، فربما كان مراده أن الإرادة لا ترد إلا علىٰ معدوم فتوجده، ومعلوم أن وصف الزنا مثلًا بكونه فاحشة ما هو عين الزنا، وإنما هو حكم الله تعالىٰ فيه، وحكم الله تعالىٰ في الأشياء بتحريم أو وجوب أو ندب أو كراهة أو إباحة غير مخلوق، وما لم يجر عليه الخلق لا يوصف بكونه مرادًا للحق تعالىٰ.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ بغير علم، فقد علمتَ صحة قول هذا الشيخ: إن الله تعالىٰ كما لم يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها، لكون الحرام من جملة الأحكام الخمسة التي هي قديمة في علم الله عزَّ وجلَّ.

ومن هنا كان مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن قديم، لاشتماله علىٰ أحكام الدِّين

الخمسة، بل لو قال قائل: إن الله تعالىٰ لم يرد شيئًا في الوجود كله، لصدق من حيث كون جميع ما برز في الوجود تعلّق به العلم الإلهي أزلًا، فهو قديم في العلم، وإنما هو حادث في الظهور، أي بالنسبة إلىٰ علمنا لا إلىٰ علم الحق تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فخاطبه بالتكوين مخاطبة الموجود، وأضاف التكوين إلىٰ ذلك الشيء لا إلىٰ القدرة الإلهية، كما تقول لصاحبك إذا كان داخل بيتك: اخرج يا فلان؛ فيمتثل أمرك ويخرج، فليس لك فعل في وجوده، وإنما لك فعل في خروجه.

وكذلك يقال: إن إرادة الحق إنما تتعلق بإبراز ما كان كامنًا في العلم، لا بإيجاد ما كان في العلم. ومن علم ما أومأنا إليه فهم معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] [ونحوها من الآيات، لأن الله تعالىٰ لا يخبر بخلاف الواقع، وكذلك يُفهَم قول أكابر الأنبياء: (ربنا ظلمنا أنفسنا)][1]، فما قالوا ذلك إلا عن ذوق، فما تميز الحق تعالىٰ علىٰ هذا التقدير إلا بكونه يُسمَّىٰ فاعلًا، والعالم مفعولًا، إذ العالم كله لم يزل موصوفًا في العلم الإلهي بالإمكان دون الوجوب، فالإمكان له كالوجوب لله تعالىٰ، فعُلِمَ أنه يقال علىٰ فعل الزنا: إن الله تعالىٰ أراده وقضاه وقدَّره، ولا يقال في وصفه بالتحريم: إنه أراده، كما لا يُقال: إن الله تعالىٰ أراد أن يعلم معلوماته في الأزل، لأن ذلك محال.

فإن قال قائل: فكيف صح إطلاق الحق تعالىٰ الفاحشة علىٰ الفعل كما يتبادر إلىٰ الذهن؟ **فالجواب:** إنما صح ذلك لكون الوصف بالتحريم لا يفارقه ولا ينفك عنه، فصح إطلاق الفاحشة التي هي من أحكام الله القديمة، كما صح إطلاق الرجس علىٰ المشركين وعلىٰ الأنصاب والأزلام، مع أن ذواتها طاهرة في نفسها بالإجماع، لكن لما كان الرجس لا ينفك عن ذواتها، جاز إطلاق الرجس عليها شرعًا فافهم.

ولما عرضتُ هذا الجواب علىٰ سيدنا ومولانا الشيخ ناصر الدين اللقاني، قال لي: هذا جواب يُكتَب بنور الأحداق. انتهىٰ. وعلىٰ ما قررناه لك يجب عليك حمل قول

---

(١) ساقط من «ب».

أئمة السنة: إن الله تعالىٰ مريد للخير والشر، أي مريد لإظهارهما من مكنون علمه، لا مريد لإيجادهما في علمه، والله أعلم.

(١٢٥٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما بقي لي في مصر عدو مثلًا إلا فلان، فأسأل الله أن يهلكه قبلي حتىٰ لا يشمت بموتي؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا لا يليق بالأشياخ، إنما اللائق بأحدهم أن يتحمل أذىٰ الوجود كلِّه، ويود أنه لو دام أعداؤه إلىٰ أن يموت.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، وحمله علىٰ أنه عاجز عن احتمال أذىٰ ذلك العدو الذي تمنىٰ موته حتىٰ لا يشمت به، وذلك لاحتمال أنه ما طلب موت عدوه إلا خوفًا عليه من الوقوع في الشماتة لأجل حصول الإثم بسبب ذلك بحكم الأصالة، وإن كان في ضمن ذلك زوال الأذىٰ الحاصل بشماتته به، وذلك لأن **الأشياخ من مقامهم الدوران مع مصالح العباد لا مع حظوظ نفوسهم**، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٩) ومما أجبتُ به عن طالب العلم الذي إن دخل حمامًا قال للحارس: أعطني فوطة نظيفة لأني من أهل العلم؛ وإن وقف علىٰ جزار قال: أعطني لحمًا مليحًا لأني من أهل العلم، وهكذا في سائر معاملاته للناس، فلاث الناس به وقالوا: قد أفادنا فلان شرًّا بدعواه العلم، وهذا دليل علىٰ ريائه بالعلم وإعجابه وتكبره به علىٰ الناس، فهو أول من تُسعَر بهم النار كما ورد، لأنه لو عمل بعلمه ما ادعىٰ العلم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الطالب ولا نسبته إلىٰ الرياء بعلمه والإعجاب والتكبر به، لاحتمال أن يكون مراده تعظيم محل العلم الذي جعله الله تعالىٰ فيه، بقطع النظر عن تخصيص ذلك التعظيم بمحله هو. ومحكُّ صدقه في ذلك كونه يغار علىٰ عدم تعظيم أقرانه من طلبة العلم إذا وقع من أحد انتهاك لحرمتهم كما يغار علىٰ عدم تعظيمهم له علىٰ حدٍّ سواء، فلا ينبغي اللوث إلا إذا رأيناه تأثر عند انتهاك حرمته أكثر من تأثره بانتهاك حرمة غيره من أقرانه، لكن هذا المقام الذي ذكرناه لا يكون إلا لمن تصفَّىٰ من كدورات البشرية، وجرَّد نفسه من طلب التعظيم، وجعل التعظيم لصفة العلم فقط

من حيثُ كونُها وحيًا من الله، أو مما استُنبط من الوحي. فكأن قوله للحمامي وللجزار مثلًا: توصوا بي، إنما هي غيرة لما نُسِبَ إلىٰ الله لا لما نسب إليه هو.

وبتقدير أنه قصد تعظيم نفسه فلا حرج عليه، لأنه رأىٰ نفسه كالخريطة[1] أو الصندوق للمصحف، فطلب إكرامه وعدم انتهاك حرمته تبعًا للمصحف، ولا يعرف ما قلناه إلا من سلك طريق القوم، وعرف شرف الأرواح، وشرف ما أودعه الله تعالىٰ فيها، وعرف شرف مركبها، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ طلبة العلم بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي حضر جنازة أوصىٰ الميت بأنه لا يصلي عليه إمامًا إلا هو، فلما قال المؤذن: شيخ الإسلام يتقدم؛ تأخر هو وقدَّم شخصًا دونه في العلم، فلاث به الناس وقالوا: كان عمله بوصية الميت أولىٰ مصلحةً له.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لأنه ربما كان من أهل الاجتهاد في تقديم الأعمال بعضها علىٰ بعض، فرأىٰ صلاته مأمومًا أو منفردًا أمكن في طول الدعاء للميت، وأبعد عن رؤية الإعجاب بنفسه حين قدَّموه علىٰ جميع الحاضرين هناك.

وقد فعلتُ مثله في جنازة الحاج عليّ المنوفي رحمه الله لما أوصىٰ بأنه لا يصلي عليه إلا أنا، فألقىٰ الحقُّ تعالىٰ في قلبي لما قال المؤذن: شيخ الإسلام يتقدم: هل أنت شيخ الإسلام ولك من الذنوب كذا وكذا؟! فتأخرتُ، فقال لي فقير: خذ ذلك بتأويل علىٰ أنك شيخ من جهة شيب رأسك ولحيتك، تخرج عن العجب وتعمل بوصية الميت؛ فلم أستطع علىٰ قلبي يقبل ذلك بعد أن أُلقِيَ في قلبي أولًا ما أُلقِيَ.

وقد تقدم مرارًا في هذا الكتاب أن صلاة الجنازة شفاعة في الميت، ومن شرط الشافع أن لا يكون عليه ذنب تبعًا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأن مقام الشفاعة إنما هو لهم بالأصالة، فمن لم يكن محفوظًا من الوقوع في الذنوب، فهو متفعل في مقام الشفاعة، ولا

---

(١) الخَريطةُ: وعاءٌ من جلد أو نحوه يُشَدُّ علىٰ ما فيه.

التفات إلىٰ قول من سمَّاه «شيخ الإسلام».

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقير إذا قدَّموه لصلاة جنازة كرهًا عليه، فطوَّل علىٰ الناس حتىٰ ربما فارقه أكثرهم، لأنه ربما رأىٰ علىٰ ذلك الميت ذنوبًا كثيرة وتبعات، فصار يشفع فيه عند الله تعالىٰ حتىٰ قبل شفاعته فيها كلها، كما وقع للشيخ محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦١) ومما أجبتُ به عن طالب العلم إذا تقدَّم لصلاة الجنازة حين قال المؤذن: شيخ الإسلام يتقدم، فبادر إلىٰ التقدم وهناك من هو أعلم منه، فلاث الناس به وقالوا: ما كان ينبغي لفلان أن يتقدم، فإن المؤذن ما قال: شيخ الإسلام يتقدم إلا لفلان الذي هو في رتبة مشايخه في العلم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الطالب في تقدمه للصلاة علىٰ من هو أعلم منه، لاحتمال أن يكون علم من بعض أقران ذلك العالم وقوعهم في غيبته إذا تقدَّم للصلاة وأخرهم، فخاف عليهم من الإثم بسبب تقدمه عليهم، وسامح هو كلَّ من اغتابه من جهة تقدمه علىٰ من هو أعلم منه.

وقد رأيتُ شخصًا كان يقرأ علىٰ الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ عبد الحق السنباطي[1] وكانت لحيته بيضاء، ولحية الشيخ شهاب الدين سوداء، فلما قال المؤذن: شيخ الإسلام يتقدم؛ تقدم هو علىٰ شيخه، فقلتُ له: كيف تتقدم علىٰ شيخك؟ فقال: سبق إلىٰ ذهني رؤية شيبي، وسواد لحية شيخي، فحسبتُ أني أنا المطلوب. فاعلم ذلك، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ من تعدَّىٰ مقام الأدب حتىٰ تستفهمه عن ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) شهاب الدّين أحمد بن عبد الحقّ بن محمد السّنباطي المصري الشافعي. الواعظ بالجامع الأزهر، الإمام العالم العلّامة. أخذ عن والده وغيره، وكان معه بمكّة في مجاورته بها سنة ٩٣١هـ ووعظ بالمسجد الحرام في حياة أبيه، وفتح عليه في الوعظ حينئذ. توفي: ٩٥٠هـ. وقال الشعراوي: ولما مات أظلمت مصر لموته، وانهدم ركن عظيم من الدّين، وما رأيت في عمري كلّه أكثر خلقًا من جنازته إلّا جنازة الشّهاب الرّملي. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٠٢) و«الكواكب السائرة» (٢/ ١١٢).

(١٢٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال: لا أعلم في مصر أحدًا أعلم مني بالشريعة؛ ولاث الناس به وقالوا: قد نهىٰ الشارع عن دعوىٰ العلم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن الله تعالىٰ مسح من قلبه العلم بكون أحد في البلد أعلم منه، فقال ذلك بلسان الحال الذي هو فيه. وهذا يقع فيه الساذجون كثيرًا، لأن الإنسان كلما علت درجته سذِجَ قلبه.

[توجيه قول سيّدنا موسى: أنا أعلم من على وجه الأرض]

وهذا أحد الأجوبة عن السيِّد موسىٰ عليه الصلاة والسلام حين ادعىٰ أنه أعلم ممن علىٰ وجه الأرض، فإنه ما قال ذلك إلا بلسان حاله ذلك الوقت. وليس عليه لوم إلا لو كان علم أن في الناس أعلم منه ثم ادعىٰ العلم، ولذلك لم يعاتبه الحق تعالىٰ علىٰ دعواه العلم، وإنما قال له: بل عبدنا خضر أعلم منك؛ لينبهه علىٰ أن الإطلاق في محل التفصيل لا ينبغي، فإن العلم علىٰ قسمين: قسم يأتي من الله تعالىٰ علىٰ يد جبريل، وقسم يأتي من الله من غير واسطة جبريل، فما أتىٰ علىٰ يد جبريل][1] له حد ينتهي إليه في أحكام التكليف؛ وما أتىٰ بلا واسطة، فليس له حد ينتهي إليه، فقول موسىٰ ﷺ: لا أعلم أحدًا أعلم مني -أي بأحكام شريعة التوراة- صدق وحق، لكونها نزلت عليه وحده، فكان أعلم من غيره بها، ولم يُرِد عليه الصلاة والسلام علىٰ الحقيقة، لأن موسىٰ لا يجهل مثل ذلك، وما تعودت الرسل أخذ علوم التشريع إلا بواسطة الملَك من جبريل وغيره، فقد علمت أنه لم يكن مراد موسىٰ بكونه أعلم إلا علمه بأحكام الشريعة، لا علمه بأحكام التعريف الإلهي للأولياء من طريق الإلهام، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا عادىٰ من هو أعلىٰ مقامًا منه في العلم وآداب الطريق وإرشاد المريدين، وصار كلُّ من عَلِمَه يحب هذا الأعلىٰ، يذهب إليه وينقصه عنده ويقول: سألتُك بالله لا تعد تجتمع بفلان؛ فسمع منه بعض جماعة

---

(١) ساقط من «ب».

وانقطعوا عن التردد على[1] هذا الشيخ العظيم، فلاث بهم وبمن نهاهم عن هذا الشيخ الناس وقالوا: لا يجوز لفلان أن ينهىٰ الناس عن الاجتماع بمن هو أفضل منه في العلم والأدب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو شيخ الطريق بتنفيره الناس عن الشيخ الذي هو أعظم منه، لاحتمال أنه لم يرَ لهؤلاء الناس الذين نفَّرهم نصيبًا عند الشيخ من طريق كشفه، فخاف عليه أن يشغلوا وقته بالتردد إليه من غير نفع يحصل لهم منه وعكسه.

ويُحتمَل أنه خاف علىٰ الشيخ من وقوعه في العجب بكثرة ازدحام الناس عليه وتفضيله علىٰ غيره، وإن كان ذلك الشيخ محفوظًا من الوقوع في ذلك، **لأن كل ناصح لم يُكلَّف إلا بالنصح بحسب مقامه لا يذوق غير ذلك**، فلما خاف علىٰ نفسه من وقوعه في العجب كذلك خاف علىٰ غيره.

ثم ليتأمل جميع من لاث بهذا العالم أو الفقير في تنفير الناس يجد جميع من نفَّرهم لم يُقسَم لهم نصيب في صحبة ذلك العالم الكبير، وإن كان عليه هو الإثم من حيثُ قصدُه عدم حصول الخير للناس من عدوه وجماعته. ولم يزل هذا التنفير يقع من شخص معروف في مصر ويبلغني ذلك، فلا أتكدر منه، وأحمله علىٰ المحامل الحسنة، فاعلم ذلك يا أخي واتبعني في مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول له مريده: وعزتك وجلالك ما فعلتُ كذا، أو ما تركتُ كذا مثلًا وهو ساكت، فلاث به الناس وقالوا: هذا لفظ لا يجوز إطلاقه علىٰ مخلوق، إنما هو خاص بجناب الحقِّ جلَّ وعلا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بادئ الرأي حتىٰ تستفهمه عن قول هذا المريد، لاحتمال أن يكون مصطلمًا لا يعرف ما يُقال له، أو ظنَّ أن ذلك المريد يخاطب الله عزَّ وجلَّ، فلذلك سكت، ولو أن ذلك الشيخ كان حاضر العقل ما أقر مريده علىٰ خطابه له بمثل ذلك.

---

(١) بالأصلين: عن. والصواب ما أثبتناه.

ويُحتمَل أن المريد أراد بذلك اللفظ الحلف بتلك العزة والإجلال اللتين خلعهما الله تعالىٰ علىٰ شيخه بين الناس، وجعلهم ينقادون له، فإن كلَّ من رفع الله تعالىٰ رتبته لا يسلم من مثل ذلك، فأخطأ في التعبير بخلاف اللفظ المألوف بين الناس. وكأنه قال: وحقِّ مقامك الذي أعطاه الله تعالىٰ لك من العلم والورع والخشية. والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لم يزل يقول لأصحابه: لي كذا كذا سنة وأنا أشهد أن الله تعالىٰ ينظر إليَّ نظر الغضب؛ [فلاث الناس به وقالوا:](١) هذا دليل علىٰ أنه مرتكب كثيرًا من الكبائر، ولو أنه كان مطيعًا لربه، لشهد رضاه عنه ونحو ذلك من اللوث به.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا نسبته إلىٰ القرب من القنوط من رحمة الله، ولا كونه مرتكبًا شيئًا من الكبائر، بل ذلك من أعظم دليل علىٰ كمال مقامه وقربه من حضرة ربه عزَّ وجلَّ، **فإن نور الحضرة الإلهية كالشمس في الظهيرة، فكلُّ من قرب منه ظهر له من أحواله ما كان جاهلًا به.**

وإيضاح ذلك أن الإنسان كلما بعد عن حضرة الله تعالىٰ ونورها، خفيت عنه عيوبه، وكلما قرب منها ظهرت له عيوبه، فحكمه حكم من خُلِعَت عليه خلعة في ظلمة لا يعرف لونها هل بيضاء أو سوداء، فأخذ في الاجتهاد، فربما أدىٰ اجتهاده إلىٰ أنها بيضاء والحال أنها سوداء، وكذلك المريد الذي توالت عليه الطاعات من لازمه رؤية محاسنه غالبًا لحجابه بطاعاته عن حضرة ربه من حيثُ اعتمادُه عليها، فلا يكاد يرىٰ أن الله تعالىٰ يعذِّب مثله أبدًا، وأنه وفَّىٰ العبودية لله حقَّها، وما بقي علىٰ مثله لوم ولا حجة، فإذا منَّ الله تعالىٰ عليه بمقام الكمال، وقرب من نور الحضرة، ورأىٰ مساوئه، عرف حينئذ أنه استحق الخسف به لولا عفو الله عزَّ وجلَّ. وهذا هو المقام الذي كان فيه السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين، فاعلم ذلك يا أخي، وإذا بلغك عن فقير أنه يقول: إني والله قد استحقيت الخسف بي، فاشهد له بالكمال، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(١٢٦٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير الذي يموت له ولد، فيظهر الحزن عليه والبكاء، ولاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا يليق بالمشايخ، لأن الولد من الدنيا، وسماه الله تعالىٰ فتنة وعدوًا، فكيف يحزن عاقل علىٰ فراقه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ أو العالم عند إظهار الحزن علىٰ ولده، ولا حمله علىٰ أنه حزن عليه بحكم الطبع، وإنما اللائق حمله علىٰ أنه إنما حزن مشاركةً لأمِّ ذلك الولد في الحزن، أو غيرها من أهله، ومشاركةُ المسلمين في همومهم مطلوبة، كما أشار إليه حديث: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[1]، فصورة حزن هذا الشيخ صورة حزن الإنسان بحكم الطبع، والقصد مختلف، فإن اعتقادنا في الأكابر من العلماء والصالحين أن أهل الدنيا كلَّهم لو كانوا أولادًا لأحدهم وماتوا دفعةً واحدةً ما تغير من أحدهم شعرة. وعلىٰ ذلك حملنا قوله ﷺ: «وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[2] أي لمحزونون مشاركةً في الحزن لأمك إن صح أن حزنها كان بحكم الطبع، وإن كان حزنها صوريًا فهو تشريع لضعفاء الأمة منه ومنها، لكونهم لا يقدرون علىٰ كف أنفسهم عن الحزن مثلًا، كما أوضحنا الكلام علىٰ ذلك أواخر الباب العاشر من كتابنا المسمىٰ بـ«النور الساطع والسر القامع»، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للأمير الذي صحبه: إذا أرسلتَ لنا هدية، فأرسلها سرًّا، ولا تعلِم بها أحدًا من أصحابنا وجيراننا، مع أنه كان مشهورًا قبل ذلك بالورع العظيم، فلاث به أقرانه من العلماء والفقراء وقالوا: لو مات هذا قبل هذه الأيام، لكان الناس عبدوه، ولكن نعوذ بالله تعالىٰ من سوء الخاتمة، ومراعاة المقام عند الخلق دون الله تعالىٰ!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد التأمل في حاله وقصده، فقد يكون علىٰ قدم الورع ما زال عنه، [و] علم طيبة نفس ذلك الأمير بتلك الهدية الحلال، فقبلها

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

منه وأمره بإخفائها وإرسالها، سواء خوفًا أن يتبعه أحد على مثل ذلك مع عدم حلّ تلك الهدية، أو خوفًا من وقوع الناس في عِرْضه بغير علم. ولا يجوز حمله على أنه رجع عن مقام الورع، وخُتِم له بسوء. فاعلم ذلك يا أخي، وطهِّر قلبك من السوء، لتصير تنزه الناس عن السوء، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ جماعته عن قراءة القرآن وأحدهم جالس مع القدرة علىٰ القيام، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا أمر مخالف لأحوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين إلىٰ عصرنا هذا.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أنه أمرهم بذلك باجتهاد، فقاس القراءة خارج الصلاة علىٰ القراءة في الصلاة، بجامع أن كلًّا منهما مناجاة لله عزَّ وجلَّ، ومناجاة العبد ربه وهو واقف غاض طرفه بين يديه أعظم في الأدب.

وتأمل يا أخي جماعة السلطان إذا أتاهم منه مرسوم لا يقرؤونه إلا وأحدهم واقف تعظيمًا للسلطان، وما كان أدبًا مع الملوك فهو مع ملك الملوك أولىٰ، ولو وقع أن أحدًا من نوَّاب السلطان قريء عليه مرسوم السلطان وهو مضطجع بلا حاجة، لعاب ذلك عليه أهل الأدب.

ومما وقع أن خادمًا من خدَّام السلطان سليمان ابن عثمان رحمه الله سألني عن عدد ركعات الوتر، فشرعتُ أقرأ عليه حديث الوتر، فانتهض قائمًا ووضع يديه علىٰ صدره حتىٰ فرغتُ [من] الحديث، ثم جلس، فأعجبني أدبه وتعظيمه وإجلاله لحديث رسول الله ﷺ عن أن يسمعه وهو جالس.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رضي الله عنه يقول: لولا أن قراءة القرآن في غير القيام مذمومة، ما نهىٰ الشارع عن قراءته في الركوع، فإن القرآن صفة صمدانية، ولا يليق بتاليه إلا صفة العزِّ الذي هو القيام، بخلاف الركوع والسجود، فإنهما صفتا ذلّ وتواضع، ولولا علم الحقِّ جلَّ وعلا عجز الخلق عن احتمال تجليه لقلوبهم في القيام، لكان

أمرهم بتطويل القيام زيادةً عما ورد في السنة، فلذلك نفَّس عنهم بالركوع، وإن كان هو حضرة قرب دون القيام. انتهىٰ. وقد أوضحنا الكلام علىٰ ذلك وعلىٰ ما يرد عليه من الأسئلة والأجوبة في كتاب «الميزان» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لقاصده: اذهب إلىٰ أخينا فلان النصراني أو اليهودي، فقل له: كذا وكذا؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف يسمِّىٰ الكافر أخاه والحقُّ تعالىٰ قد نفىٰ الإخوة بيننا وبين الكفَّار في الدين إذا لم يتوبوا عن كفرهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، في[1] قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بجعله الكافر أخًا له، فإن الله تعالىٰ قد سمَّىٰ الأنبياء إخوةً لقومهم الكفار بقوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٥ - ١٠٦]، وبقوله ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًا﴾ [هود: ٥٠] أو نحو ذلك، وما أطلقه الحقُّ تعالىٰ علىٰ الأنبياء لا يجوز الاعتراض علىٰ من تبعهم فيه، **فالنبي وكلُّ داع إلىٰ الله تعالىٰ أخ للضال، وليس الضال بأخ للداعي**، لأن الداعي قد قام بحق الأخوة بدعائه أخاه[2] إلىٰ الهدىٰ، والمدعو لم يقم بحق الأخوة حين أبىٰ واستكبر عن اتباع الهدىٰ، وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ «ليس بأخيك من احتجتَ إلىٰ مداراته» فنفىٰ عمن احتجتَ إلىٰ مداراته الأخوة دونك.

[الحكمة في عدم وصف سيدنا محمد وموسى وإبراهيم وعيسى بالأخوة لقومهم]

فإن قال قائل: فما الحكمة في كون الحق تعالىٰ لم يقل في محمد وموسىٰ وإبراهيم وعيسىٰ أنه أخو قومه مثل ما قال في نوح ولوط وصالح ونحوهم؟ **فالجواب:** ذلك لحكمة لا تُذكَر إلا مشافهة! فلكل واحد منهم جواب ليس هو للآخر.

---

(١) بالأصلين: و.

(٢) بالأصلين: أخوه. والصواب ما أثبتناه.

فعُلِمَ أنه لا لوم إلا علىٰ من يحب الكافر مع كفره لا غير. فاعلم ذلك، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ إلا بعد تأمل أو استفهام منه عن مراده. والحمد لله رب العالمين.

(١٤٧٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الذي ترك زيارة علماء بلده ومشايخها، فلامه بعض الناس علىٰ ذلك، فقال: ما بقي مع أحد علم ولا أدب نأخذه منه؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يريد أنه ليس مع أحد منهم علم قُسِمَ لي آخذه منهم، لعدم قبول محلي لذلك. فلا يلزم من قوله المذكور نفي العلم عن علماء عصره ومشايخه، وكأنه يقول: إني محروم من علم علماء أهل عصري وأدبهم، لدنس قلبي وفتور عزمي عن العلم والعمل، فزيارتي لهم لماذا؟! لأن الزيارة إنما شُرِعَت **تلقيحًا للقلوب بالأصالة كتلقيح النحل الإناث بالذكور.**

ومن هذا يُعلَم الجواب أيضًا عن الشيخ الذي قال: ما منعني من زيارة إخواني إلا لكونهم ليسوا بأهل لقبول علمي وأدبي، فيُحمَل علىٰ أنه ما ترك زيارتهم إلا لما رآه من طريق كشفه أنهم ليسوا لهم قسم عنده من علمه وأدبه، فترك زيارتهم لعدم فائدتها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٧١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا صار يأمر غلمانه أن يكنسوا الزُّقَاق الذي هو ساكن فيه ويرشوه بالماء، ويغضب علىٰ الغلمان أشد الغضب إذا تركوا ذلك يومًا واحدًا، فلاث به أقرانه وقالوا: هذا أمر ما عهدناه إلا للأمراء والجند، ومثل العلماء والفقراء يكون أحدهم غائبًا عن مثل ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ، لاحتمال أن يكون مقصوده بالكنس والرش عدم حصول الغبار علىٰ وجوه المارين علىٰ بابه وعمائمهم وثيابهم، شفقةً عليهم وعلىٰ ثيابهم، لا ضخامةً وناموسًا، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي [يدخل][1] الخلوة الصادقة بالحقِّ جلَّ وعلا، ثم يخرج منها بغير كرامة، ولاث به الفقراء وقالوا: الخلوة الصادقة حضرة الله الخالصة، وما دخل أحد الحضرة الإلهية إلا وقد منحه الحق تعالىٰ شيئًا من الكرامات، فأَخْبِرْنا بما أفاض الله تعالىٰ عليك من الكرامات من مشي علىٰ الهواء أو علىٰ الماء، أو دخول النار من غير أن تؤثر فيك، ونحو ذلك. فقال: تعالوا أطلعكم علىٰ المشي علىٰ الماء أو علىٰ الهواء. ثم مشىٰ، فرآه الناس يمشي علىٰ الأرض دون الماء والهواء، فكذَّبوه وقالوا: هذه طريقة مكشوفة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا تكذيبه، فقد يكون صادقًا، ولكن الحاضرون يرونه يمشي علىٰ الأرض عقوبةً لهم لموضع إنكارهم، كما قال من أنكر علىٰ الأنبياء ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ [القصص: ٣٦] فالشيخ يرىٰ نفسه يمشي علىٰ الماء والهواء، ويشكر الله تعالىٰ علىٰ ذلك، والحاضرون يرونه يمشي علىٰ الأرض، ليحرمهم الله تعالىٰ الإيمان بكرامات الأولياء. فاعلم ذلك يا أخي، واعتبر بأهل الشعوذة، فإنهم يخيِّلون لك خلاف الواقع من حرق عمامة حتىٰ تصير رمادًا، ثم ردها في الحال صحيحة بلا حرق، ومن تخيلك زلابية وعسلًا، ولا حقيقة لذلك. وإن كنتَ تطلب الكرامة لتؤمن بها، فسلِّم للأولياء وهم يطلعونك علىٰ كراماتهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتعدىٰ بعض جماعته بعض الحدود، فيلوث الناس به ويقولون: لو كان هذا صالحًا، لم تقع جماعته في شيء من تعدي الحدود، ولكن قد ذهب الصالحون وما بقي إلا النصَّابون أرباب الدعاوىٰ الكاذبة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بوجه من الوجوه، فإنه لم يقل: أنا من الصالحين، بل هو من الذين يرون نفوسهم من أفسق الناس، فلا نظر له في عيب أحد حتىٰ ينصحه ويأمره بالاستقامة، بل ولو قال: إنه من الصالحين وهو صادق في دعواه، لا ينبغي اللوث به، فقد يكون ينصح جماعته ليلًا ونهارًا، ولكن محلهم ليس قابلًا للنصح،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

كما وقع لقوم نوح، فإنه دعاهم ليلًا ونهارًا، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا. وقد أجمعوا على أنه ليس من شرط الكامل نفوذ البصر في كلِّ مدعو. ولو صح ذلك لم يبق لقبضة الشقاء أهل يدخلون جهنم، وقد وعد الله تعالى جهنم يملؤها.

ولما غلبت الرحمة على رسول الله ﷺ وطلب أن يكون الناس كلُّهم مؤمنين، أنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الشورى: ٨] الآية، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] إلى آخر النسق. فاعلم ذلك، وإياك أن تقع في عرض أحد من الأشياخ إذا تعدَّى أحد من جماعتهم حدود الله، بل اعتقد في الأشياخ أنهم من أول من يتبرأ من جماعته إذا خالفوا ظاهر الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٧٤) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يُذكَر له شخص من علماء البلد أو مشايخها بخير، فيقول: ولم[1] هذا الإطناب العظيم؟! فإنه ولو وصلت رأسه السحاب هو دوننا في العلم، ومعدود عند الناس من أتباعنا؛ فلاث به جماعة هذا العالم أو الشيخ وقالوا: سلمنا أنه كان قرأ عليكم أو على والدكم، فقد يرفعه الله تعالى في العلم والشهرة عليكم، فكان من الأدب عدم تفضيلكم نفسكم عليه، وتصبرون حتى يفضلكم الله تعالى عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الذي فضَّل نفسه، لاحتمال أن يكون قال مثل ذلك حال غضب، وكلام الغضبان يُسامِح فيه العقلاء بالطريق الشرعي. وقد يكون هذا العالم ما فضَّل نفسه إلا بحق، ليفتح للناس باب أخذ العلم عنه، حين[2] تتحقق أنه أعلم ممن شكروه من أقرانه، بقرينة تواضعه مع الناس قبل ذلك وقوله: نحن من أقل الناس.

فإياك يا أخي أن تبادر إلى الاعتراض على من زكَّى نفسه بل تربص، فربما يكون أحد

---

(١) بالأصلين: لا. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: حتى. والصواب ما أثبتناه.

من تلامذة أقرانه قلَّ أدبه معه، وفضَّل ذلك القِرْن عليه فحرَّك نفسه، فالعاقل من رجع علىٰ نفسه باللوم، لكونه كان سببًا في تحريك نفس هذا العالم وإخراجه عن مقام التواضع المعهود منه قبل ذلك، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي لكلِّ إنسان أن يعظِّم الأغنياء ويتواضع لهم كما يتواضع للعلماء والصالحين من غير فرق، فلاث به الناس به وقالوا: هذا مخالف لظاهر ما ورد في الحديث: «من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه»[1]. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون مشهده أن الغني خازن لمال الله عزَّ وجلَّ، فأكرمه وتواضع له من حيثُ جعله الله محلًا لخزن أمواله، كما جعل العلماء والصالحين محلًا لخزن علمه وأسراره، فما عظَّم هذا الغني إلا لغرض صحيح. ويُحمَل الحديث علىٰ من تواضع للغني لغرض فاسد أو لغني كافر، فإن وضع المال عند الكافر إنما هو استدراج، لا لكرامته عليه تعالىٰ.

فإن قال قائل: هذا الجواب ربما لم يخطر علىٰ بال من أجبتَ عنه؛ **فلنسأله** حيث ما احتمل فعله أو قوله ذلك حملناه عليه، وخلَّصنا نحن نفوسنا من الوقيعة في عرضه، ومن سوء الظن به، وذلك أولىٰ عند كل عاقل، فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي يقول: ما بقي الآن أحد نجده يسلم العبد في مجلسه من الغيبة والوقيعة في الناس؛ مع أنه هو لم يزل يقع في أعراض الناس، فلاث الناس به وقالوا له: أنكر أنت علىٰ نفسك في وقوعك في عرض الناس، فإنه أولىٰ بك.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٧٠) من حديث ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: من أصبح محزونًا علىٰ الدنيا أصبح ساخطًا علىٰ ربه ومن أصبح يشكو مصيبته فإنما يشكو ربه ومن دخل علىٰ غنيٍّ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه ومن قرأ القرآن فدخل النار فهو ممن اتخذ آيات الله هزوًا» وأحمد في «الزهد» (٤٣٥) والشاشي في «مسنده» (٦٠٩)، قال السيوطي: وأورد ابن الجوزي الحديث في الموضوعات فلم يصب. «الدرر المنتثرة» ص١٨٩.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ، لاحتمال أن يريد بقوله: «ما بقي أحد» نفسه وغيره، فصار يحذِّر الناس من مجالسته ومجالسة غيره رحمةً به وبهم. وكذلك القول في وقوعه في عرض الناس يجب حمله علىٰ مسوغ شرعي يبيح مثل ذلك، كالتحذير من مجالستهم لكثرة وقوعهم في الغيبة، أو لمجاهرتهم بالمعاصي ونحو ذلك، لأن مثل الشيخ أو العالم الكبير لا يجهل أن قوله: «إن فلانًا يقع في الغيبة في الناس» من جملة الغيبة المحرَّمة، فاعلم ذلك يا أخي، واحمِ لسانك وقلبك من سوء الظن بالناس، وكن دائرًا مع الشرع في أقوالك وأفعالك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي القطبية، ولا يظهر للناس شيئًا من كثرة النسك والعبادة كما عليه القوم، بل طول ليله ونهاره في التنزهات والترفهات والمآكل اللذيذة والروائح الطيبة، حتىٰ ربما ذهب إلىٰ الحمام ثلاث مرات يغتسل من الجنابة، فلاث به أهل بلده وأهل حرفته من الفقهاء والفقراء وقالوا: ما بلغنا هذا الأمر قط عن قطب.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث بهذا الشيخ، ولا منازعته في دعوىٰ القطبية، إذ القطب من شأنه الخفاء في كل عصر، فتارة يختفي بالدعاوىٰ العريضة، وتارة يختفي بالصنائع والحرف التي يستبعدها الناس عادةً علىٰ الأولياء، كتاجر ومباشر وشرطي في بيت الولاة، وتارة يختفي بالمراكب النفيسة والمآكل الطيبة والروائح العاصفة من مسك وعنبر وكافور، وبخور بالند والعود، وتطبيق ثيابه بالزهور حتىٰ يصير يعرف الزُّقَاق بأنه مر فيه. وقد بلغنا ذلك من خلق رسول الله ﷺ ومن خلق عمه العباس، وخلق حذيفة بن اليمان[١] ودِحْية الكلبي[٢] ﭬ. وكذلك بلغنا ذلك عن الإمام أبي حنيفة والإمام مالك والإمام زين

---

(١)) حذيفة بن اليمان العبسي أبو عبد الله، صاحب سر رسول الله ﷺ، لم يشهد بدرًا، وشهد أحدًا وما بعدها، وهو الذي بعثه رسول الله ﷺ يوم الخندق ينظر إلىٰ قريش وكان عمر بن الخطاب ﭬ يسأله عن المنافقين، استعمله عمر علىٰ المدائن، فلم يزل بها حتىٰ مات سنة ٣٦ هـ. الاستيعاب (١/ ٣٣٤)، الإصابة (٢/ ٣٩).

(٢)) دحية بن خليفة بن فروة الكلبي، صحابي مشهور، أول مشاهده الخندق وقيل أحد، ولم يشهد بدرًا، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبريل عليه السلام ينزل علىٰ صورته، عاش إلىٰ خلافة

العابدين، وإن لم يكن هؤلاء أقطابًا، فما علىٰ وجه الأرض قطب!

وقد ذكر الشيخ محييٰ الدين في «الفتوحات المكية» أن من شأن القطب كثرة الجماع للنساء، والعشق للصورة الجميلة في المعنىٰ والحس، حتىٰ يكاد يذوب عشقًا، وأن نكاحه لمجرد اللذة والشهوة كنكاح أهل الجنة، لا بقصد إعفاف ولا نسل، وأنه لا يُطلَب منه كثرة عبادة في الظاهر كغيره، لاستغنائه بنوّابه من الأولياء، إذ القطب ليس مُعَدًّا لتربية المريدين وتسليكهم، وإنما المراد منه جمعية القلب علىٰ الله، وتلقي الأمداد النازلة عليه، ليفيضها علىٰ العالم لا غير[1]. انتهىٰ.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحفظوا ألسنتكم في حقِّ كلِّ من تظاهر بالولاية ولم يظهر عليه أثر من النسك والعبادة، وإلا فربما حكَّمه الله تعالىٰ في أعمالكم الصالحة، ونقلتها الملائكة إلىٰ صحائفه، فأصبح أكثر الناس أعمالًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قلَّ مريد أدبه عليه، فقال: أنا منكر علىٰ شيخك الذي لم يهذِّب نفسك؛ فلاث به أصحاب شيخ ذلك المريد وقالوا: لا يلزم من اجتماع الناس كلِّهم بالفقير أن يهذب أخلاقهم، لقوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بقوله: «أنا منكر علىٰ شيخك الذي لم يهذب خلقك» لاحتمال أن يكون قصد بذلك المدح له في أحد وجهين، وحُجِبَ عن الوجه الآخر، أي لو أنه ألقىٰ باله إليك لهذَّب أخلاقك بأقواله وأفعاله، ولكنه غفل عنك، فلم تتهذب لك أخلاق، فاعتقادُ هذا المنكر في شيخ المريد أنه لو ألقىٰ باله إليه لهذَّب أخلاقه مدحٌ له، ووصفه بالغفلة نقص له، لكنه لم يستحضر هذا الوجه، وقد مدح الله تعالىٰ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وبهذا أجبت عن ولد شيخنا سيدي محمد الرملي حين قال مثل ذلك لبعض أصحابنا، والحمد لله رب العالمين.

معاوية . «الإصابة» (٢/ ٣٢١).

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٢٧٠).

(١٢٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تصدر في بلده لإرشاد المريدين. وادعىٰ مقام الكمال، وهو مع ذلك يشاحح البائع أو المشتري في جديد نقرة، ولاث به الفقراء وقالوا: هذا دليل علىٰ أنه لم يشم من طريق القوم وكمال الإيمان رائحة. وفي الحديث ما يشهد لأن الحق تعالىٰ يحب الذي يكون سمحًا إذا باع، سمحًا، إذا اشترىٰ سمحًا إذا اقتضىٰ[1] أي طالب بحقه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي يشاحح الناس. فقد يكون عما ظنه الناس فيه بمعزل، وإنما يشاحح الناس ليقبُح في عيونهم التساهل بحقوق الناس في الدنيا والآخرة، أو حتىٰ لا يكون لأحد عليهم منة بالمسامحة، كما عليه الكُمَّل من أهل الله عزَّ وجلَّ. فاعلم ذلك، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أهل الله بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يقول لأخيه حال الغيظ: يا عرصة يا عتبة يا جميزة ونحو ذلك، فلاث به الفقراء وقالوا: هذه الألفاظ ظاهرها القذف وذلك لا يليق وقوعه من فقير.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير حتىٰ تجتمع به وتستفهمه عن مراده، فربما قصد بذلك المدح لأخيه، أي أنت كالعَرْصة[2] التي يطؤها البر والفاجر، وكذلك القول في العتبة، أو أنت في النبات في طريق الفقراء كشجرة الجميز التي لا تزلزل عروقها الرياح العواصف، وليس عليه إثم في وصف أخيه بمثل ذلك إلا إن قصد ما يقصده العيَّاق والزيط، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ حمل الناس علىٰ المحامل السيئة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير الذي يتخاصم مع أحد من المسلمين فيقول له: يا كلب يا واطي ونحو ذلك، فلاث به الناس وقالوا: مثل هذا لا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠٧٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترىٰ، وإذا اقتضىٰ» والترمذي (١٣٢٠).

(٢) العَرْصَةُ: البقعةُ الواسعةُ بين الدُّور لا بناءَ فيها.

يليق بآحاد العوام، فضلًا عن العلماء والصالحين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ أو العالم حتىٰ يُستفهَم عن مراده بذلك، فقد يريد أن ذلك الشخص متكلب في أفعال الخير والمعروف لا يكاد ينفك عنها، إذ الكلب مشتق من التكلب، وهو تعلق الكُلَّاب[1] الحديد في اللحم أو في عروة حبل، فيشمل تكلبه في فعل خير. ويُحتمَل تكلبه في فعل شرٍّ ومن جعله نصًّا في الشر والحقارة، فقد جار علىٰ اللفظ وحجر واسعًا. ثم إذا استفهمنا هذا الشيخ أو العالم عن مراده وأخبرنا به، بنينا عليه مقتضاه شرعًا، وهناك إما نلوث به أو نترك.

وكذلك القول في قوله: «يا واطي» فقد يريد أنه من شدة تواضعه كل من شاء يطؤه ويستهين بجنابه، ومع ذلك فهو يعفو ويصفح. ولا ينبغي حمله علىٰ النعل الذي يكون في الرجل، فإن مثل ذلك لا يجهل الأشياخ والعلماء تحريمه، ولا ينبغي اللوث إلا علىٰ من قال لفظًا لا يحتمل التأويل بوجه من الوجوه، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الكلام علىٰ آيات الصفات وأخبارها مما فيه رائحة تشبيه بالخلق، كالنسيان والاستهزاء والسخرية والمكر والخداع ونحوها، وأنه يجب تأويلها كما يجب تأويل اليد والقبضة والإصبع والجَنْب والمشي والهرولة وغير ذلك، وأنه يجب إضافتها إلىٰ كل ذات بما يليق بها من قدم أو حدوث، وأن الاسم متحد والحقيقة مختلفة، إذ القديم لا يصح لمخلوق تعقله علىٰ ما هو عليه، لعدم اجتماعه مع المخلوق في حدٍّ أو حقيقة أو جنس أو نوع، فاعلم ذلك، واحمِ سمعك وقلبك عن سماع القبيح وسوء الظن بالمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وقع لشخص من أعدائه عزل من وظيفة، أو موت ولد، أو غرق مال، أو طرد السلطان أو الأمير له بعد أن كان من خواص أصحابه، فأظهر الفرح والسرور، وعمل طعامًا، ودعا أصحابه إلىٰ التفرج في الأنهار والبساتين عقب ذلك، فلاث به الناس وقالوا: إذا كان مثل هذا الأمر صار يقع من المشايخ، فما بقي

---

(١) الكُلاَّبُ: حديدةٌ معوجَّة الرأس يُنْشَلُ بها الشيءُ أو يُعلَّق.

أمثالنا يلام علىٰ مثل ذلك، وكيف يدعي هذا الصلاح وهو يشمت بمصيبة أخيه المسلم؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بسبب فرحه وإظهاره السرور، لاحتمال أن يكون ذلك من حيثُ حصولُ الأجر والثواب لأخيه بذلك، وبعده عن مخالطة السلطان والأمير، فإنه قل من يتخلص من الركون إلىٰ السلطان أو الأمير إذا رأىٰ منه المحبة والتعظيم، فيصير يداهن السلطان والأمير ولا ينصحهما ولا ينهيهما عن جور أو ظلم يقع منهما. ولا يجوز حمل الأشياخ علىٰ أن ذلك الفرح والسرور والتنزه في الأنهار والبساتين علىٰ وجه التشفي للنفس والشماتة بالمسلم، فإن منصب الأشياخ يجل عن مثل ذلك، لخروجهم عن رعونات النفوس حال سلوكهم الطريق، وقربهم من حضرة الله عزَّ وجلَّ.

وإذا صح حملهم في فرحهم بمصيبة عدوهم علىٰ الفرح له من حيثُ حصولُ الثواب الأخروي، فكيف لا يصح حملهم علىٰ ذلك إذا فرحوا بمصيبة صديقهم من حيثُ الثوابُ كذلك، فالله تعالىٰ يرزقنا وإخواننا التطهر من الأدناس حتىٰ نصير نحمل إخواننا المسلمين علىٰ أحسن الأحوال إلىٰ الممات، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول: لو رأيتُ النبي ﷺ وأنا محتضر وقال لي: افعل كذا واترك كذا، ما فعلتُ به إلا بعد عرضه علىٰ شريعته التي بين أظهرنا؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: حكم رؤية المحتضر حكم أيام التكليف وحال الصحة واليقظة، ومن كشف الله عنه الحجاب ورأىٰ النبي ﷺ يقظة، فلا فرق بينه وبين الصحابي الذي يقول: قال لي رسول الله ﷺ: كذا وكذا، ويجب عليه العمل به، ولا يلحق مثل ذلك بمن رآه في منامه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لاحتمال أن يكون مراده أن رؤية المحتضر كرؤية من ذهب عقله من شدَّة ما يجده من الألم، فلا يصير علىٰ يقين من أن ذلك القول قول رسول الله ﷺ، وإن كانت رؤيته لا شك عنده فيها، فاحتاط هذا العالم لنفسه في العمل بما سمعه وهو محتضر، وتوقف علىٰ عرضه علىٰ الشريعة الظاهرة قبل العمل به، فنعم ما فعل!

وقد حكىٰ الإمام القرطبيُّ عن الإمام أبي جعفر القرطبي[1] أنه لما احتضر جاءه الشيطان فقال له: مت يهوديًا، مت نصرانيًا. فقال له: تقول لي ذلك وقد كتبتُ بيدي في كتاب الترمذي والنَّسائي عن النبي ﷺ أن الشيطان يأتي إلىٰ أحدكم عند الموت، فيقولُ: مت يهوديًا، مت نصرانيًا. قال: فأعجز الشيطان وذهب. انتهىٰ. قال الإمام أبو عبد الله القرطبي صاحب «التذكرة»: فلما سمعتُه يقول ذلك حال احتضاره، تصفحتُ كتاب الترمذي وبعض كتاب النسائي، فلم أقف علىٰ هذا الحديث فيهما، وهما نُسَخ، أي فإن لم يوجد في نسخة، [وُجِد في نسخة][2] أخرىٰ منهما وإلا فلا ينبغي روايته، لعدم من أجازه من المحدثين. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ أحد إلا إن كنتَ أعلم منه يقينًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعرض عليه الأمراء والأكابر طول عمره أن يجعلوا له جوالي أو مسموحًا أو مرتبًا في بيت المال فيأبىٰ، ثم لما طعن في السن ودخل في معترك المنايا، صار يزاحم الناس علىٰ الدنيا، وكلٌّ من مات وله مرتب يطلع للباشاه ويدخل للقاضي والدفتردار ويقول: أنا محتاج فقير، وربما خاصم من زاحمه في ذلك المرتب، فلاث به الناس من الأقران وغيرهم وقالوا: لو أن هذا عكس الأمر وتعفف عن أموال الولاة لكان أفضل، ولكن نعوذ بالله من سوء الخاتمة.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون بمعزل عما ظنه الناس فيه من محبة الدنيا، وإنما قصد بمزاحمته الناس علىٰ الدنيا وسؤال الولاة فيها ستر حاله قبل أن يخرج من الدنيا، فيفارق الناس علىٰ قلة الاعتقاد فيه والتعظيم

---

(١) أبو جعفر القرطبي أحمد بن علي بن أبي بكر المقرىء الشافعي. ولد سنة ثمان وعشرين بقرطبة، وسمع بها من أبي الوليد بن الدبّاغ، وقرأ القراءات علىٰ أبي بكر بن صاف ثم حجّ وقرأ القراءات علىٰ ابن سعدون القرطبي، ثم قدم دمشق فأكثر عن الحافظ ابن عساكر، وكتب الكثير، وكان عبدًا صالحًا خبيرًا بالقراءات. توفي: ٥٩٦هـ. انظر: «شذرات الذهب» (٦/ ٥٢٨).

(٢) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

له، ليجبر خلل النقص الذي كان حصل له باعتقاد الناس له طول عمره، ووصفهم له بالصلاح والزهد والورع والعفة، وتمييزهم له على سائر أقرانه الذين كانوا بالضد من حاله، وربما كان أقرانه أحسن حالًا منه في الباطن فيما بينهم وبين الله تعالىٰ، فخرجوا من الدنيا ولم ينقص من رأس أديانهم شيء، ولا كانوا يظهرون الزهد(١) والعفة سترًا لمقامهم طول عمرهم، فأراد هذا الشيخ أن يتدارك ما فرط منه، ويلحق بأقرانه في كمال المقام وعدم نقص الأجر قبل موته، ولا يذهب إلىٰ الآخرة صفر اليدين من ثواب أعماله، ويقال له في الآخرة: إنك قد استوفيتَ ثواب زهدك وورعك وعفتك باعتقاد الناس فيك في دار الدنيا، لتظاهرك بصفات الكمال، ولو أنك كنتَ سترتَ أعمالك الصالحة ولم تتميز عن الناس بشيء كما فعل أقرانك، لم يكن ينقص من ثواب أعمالك شيء.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من رأيتَه من العلماء والصالحين يزاحم علىٰ الدنيا أواخر عمره، لاحتمال أن يكون قصد بذلك فتح باب عدم اعتقاد الناس فيه حين وفَّىٰ ما كان عليه من تعليم الناس العلم وإرشاده للمريدين، وبلَّغ للناس ما أُمر بنشره من العلوم والآداب، وصار أجله بين عينيه، واشتغل بالتهيؤ للموت، والله يتولىٰ هداك، وهو يتولىٰ الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨٥) ومما أجبتُ به عن العالم الذي سمع عالمًا يروي حديثًا عن النبي ﷺ في صفة طلوع روح الكافر وروح المؤمن، وقال في الحديث: «فتصعد الملائكة بروح المؤمن حتىٰ ينتهي إلىٰ السماء التي فيها الله عزَّ وجلَّ»(٢)، فأنكر الحديث وقال: هذا حديث

---

(١) بالأصلين: عدم الزهد. والصواب ما أثبتناه.

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ وتمامه: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحًا، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتىٰ تخرج، ثم يعرج بها إلىٰ السماء، فيفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتىٰ ينتهي بها إلىٰ السماء

باطل، أو هو مؤول بأمر الله عزَّ وجلَّ، كما قال العلماء في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وفي مثل حديث: «ينزل ربنا»[١].

والجواب: أنه لا ينبغي القول بأن الحديث باطل، لأنه حديث صحيح رواه ابن ماجه في سننه، وفي رواية أخرىٰ «حتىٰ ينتهي به إلىٰ السماء السابعة التي فيها الله تعالىٰ» فالأولىٰ التأويل لا الرد. وقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله أنه تذاكر هو وبعض العلماء في هذا الحديث، فبادر إلىٰ الرد، فقال له ابن عبد البر: الحديث صحيح خرَّجه ابن ماجه في «السنن» فلا ترد الأخبار بمثل هذا القول، بل يجب التأويل علىٰ ما يليق، فإن الذين رووا[٢] هذه الرواية هم رووا الصلوات الخمس وأحكامها، فإن صدقوا هاهنا صدقوا هناك، وإن كذبوا هنا كذبوا هناك، ولا تحصل الثقة بأحد منهم فيما يرويه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ ردِّ شيء من الأحاديث إلا إن أحطتَ بكتب السنة كلِّها، ولم تجد فيها ما يشهد له، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨٦) ومما أجبتُ به عن العالم الذي قال: إن الأموات لتعلم بمن يذكرها بخير، وبمن يذكرها بسوء بعد موتها؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: إن الأموات قد انقطع عملهم بمثل ذلك، واشتغلوا بما هم فيه من النعيم أو العذاب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، فقد ورد «إن الميت ليؤذيه في قبره ما كان يؤذيه في بيته»[٣]. انتهىٰ. فيُحتمَل أن الميت يبلغ إليه من أحوال الأحياء وأقوالهم ما يؤذيه بلطيفة يخلقها الله تعالىٰ له، أو بملك يبلِّغه، أو علامة أو دليل أو غير ذلك، فإن الله علىٰ كل شيء قدير. ويؤيد ذلك ما جاء في النهي عن سب الأموات في نحو قوله ﷺ: «لا

التي فيها الله عز وجل....» والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٧٨) وأحمد (٨٧٦٩).

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) وغيرهما.

(٢) بالأصلين: ردوا. والصواب ما أثبتناه.

(٣) أخرجه الديلمي (٧٥٤) بلا سند، عن عائشة مرفوعًا، ويشهد له ما أخرجه أبو داود (٣٢٠٧) وابن ماجه (١٦١٦) وغيرهما، من حديث عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «كسر عظم الميت ككسره حيًا».

تسبوا الأموات، فإنهم أفضوا إلىٰ ما قدَّموا»[١]. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من العلماء إلا إن كنتَ أعلم منه، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٨٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان إذا سمع كلمة من عدوه في حق صديقه يتكدر لذلك، ويقوم ويقعد، ثم لما وقع بينه وبينه وقفة، صار يسمع الكلام الكثير من الأعداء في حق صديقه فلا يتغير، فلاث به الناس وقالوا: أمس كان يحب فلانًا ويجيب عنه، واليوم صار يكرهه ولا يجيب عنه كلمة واحدة، ما كان ذلك إلا لحظِّ نفس إقبالًا وإدبارًا!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون بمعزل عما فهمه الناس عنه، وأنه كان يعلم من صديقه الضعف حين كان يرد عنه، ولما حصل بينه وبينه وقفة علم قوته وتحمله لأضعاف ذلك، فترك الجواب عنه، لما يعلم من قوة إيمانه ورضائه بما يقدِّره الله تعالىٰ عليه علىٰ يد أعدائه، أو ترك الجواب عنه خوفًا أن ينقص أجر صديقه بالجواب، فطلب توفير الأجر له في الآخرة، ثم دعا للجاني عليه بالتوبة والمغفرة.

ولا يجوز حمل هذا الشيخ علىٰ الأغراض النفسية كما يقع فيه العوام، فما دام أحدهم صُلْحًا مع أخيه فهو يحمده، فإذا وقع بينه وبينه يصير يذمه، فإن الأشياخ قد ارتفعت درجاتهم عن مثل ذلك، وصاروا لا يفعلون شيئًا إلا إن رأوا رضا الله عزَّ وجلَّ في ذلك الفعل، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول: إن النفس هي الروح؛ فلاث به مجادل وقال: إن الروح غير النفس؛ ونقله عن جماعة من المتصوفة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، فقد ورد في الحديث ما يؤيده في حديث: «إن الروح إذا قُبِضَ، تبع بصرُه نَفْسَه»[٢]، فجعلهما اسمين لمسمىٰ واحد، فما دام العبد ذا حجاب فهو صاحب نَفْس، فإذا رفع حجابها صارت روحًا، ثم قلبًا، ثم سرًّا، وهي في

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣)، وأبو داود (٤٨٩٩).

(٢) أخرجه مسلم بلفظ «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» (٩٢٠)، وابن ماجه (١٤٥٤).

نفسها لطيفة واحدة، وقد أشار إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] لم يقل: «وما تدري روح» بقرينة ما يقع للأولياء من إخبارهم بالمكان الذي يموتون فيه، والله أعلم.

(١٤٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الذي حصل لأحد من أقرانه مصيبة، فأظهر للناس الشماتة فيه، أو لم يحضر عنده كما حضر غيره من أصحابه الذين يعزونه أو يونسونه مع جماعة الوالي إن كان أحدًا شكاه من بيته، ولاث به أصحاب الشيخ الذي نزلت به المصيبة وقالوا: إظهار الشماتة بالمسلم حرام.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشامت أو الذي لم يحضر عنده للتعزية أو الاستئناس، لاحتمال أن يكون إنما أظهر الشماتة به ليعرف الناس بمقام كماله الذي كانوا يجهلونه، فكأنه يقول: انظروا إلىٰ ثباته وعدم التأثر بشماتتي أو بعدم تأنيسي له!

ولا يجوز حمل هذا الشامت علىٰ أنه شمت فيه إظهارًا لعداوته وكراهته له، فإننا لم نعلم قصده، بل لو سمعناه يقول: إنما أظهرتُ الشماتة فيه لكوني أكرهه؛ حملناه علىٰ أن هذا الشامت إنما قال ذلك إظهارًا لنقصه هو، فكأنه يشتكي مرضه الباطن لإخوانه ليسألوا الله تعالىٰ له أن يمُنَّ عليه بزوال تلك الكراهة التي هي بغير حقٍّ، أو نحمله علىٰ أن إظهار تلك الكراهة أمر صوريٌّ وهو يحبه في الباطن أشد المحبة، ويعتقد صلاحه ودينه وأنه خير منه، وإنما فعل ذلك ليشينه بذلك في عيون الناس، خوفًا عليه من العين أو من العجب بحاله ونحو ذلك من المحامل الحسنة.

وقد حملتُ أنا بحمد الله أهل حارتي لما شمتَ بعضهم بنا لـمَّا وقع صغير في خرارة ميضأة الزاوية التي بالخليج ومات، وجاءت جماعة الوالي ليربطوا من كان حفر تلك الخرارة من الفقراء، أو من أمر بها حتىٰ يغرموه الدية مثلًا ولم أتأثر منهم، وقلتُ: يُحتمَل أنهم قصدوا بإظهار الشماتة بالفقراء وعدم تأثرهم بذلك إظهار مقام الفقراء، ولو كان مثل ذلك يبعد علىٰ أمثالهم، فقد يمنحهم الله ذلك المقام حين وقع لنا ما وقع، فإن الحقَّ تعالىٰ ليلًا ونهارًا في تحويل وتغيير لأفعال عباده ومقاصدهم.

وكذلك حملتُ أصحابي الذين هربوا من الزاوية حين بلغهم أن الوالي أتىٰ إلىٰ الزاوية يكشف علىٰ الصغير علىٰ أنهم ما هربوا من الزاوية إلا لكثرة اعتقادهم فيَّ، وأن مثلي لا يخذل الله ولا يسلمه لمن يؤذيه، لشدة اعتنائه به ومحبته له، أو لرؤيتهم العجز في نفوسهم عن تحمل الرعب الذي يحصل من كلام جماعة الوالي، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فإنه ربما طلع الحب الفرنجي علىٰ بدن أحدهم من الاضطراب[1]، فكان هروبه من الزاوية أولىٰ من حضوره.

ثم بتقدير أن يكون الشامت بالضد مما ذكرناه كله، وأنه إنما شمتَ علىٰ طريقة العوام والأعداء حقيقة، فلا ينبغي التكدير منه، بل اللائق أن يشكره علىٰ ذلك، لكونه بيَّن لنا عداوته لنا، ليأخذ أحدنا حذره منه، كما أن من حضر معنا في وقت الشدَّة عرفنا بمحبته لنا، لنركن إليه بعض الإركان ولا نحذره كما نحذر ذلك العدو، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي دخل علىٰ شيخ يدعي الزهد في الدنيا، فرأىٰ عنده ثيابًا زائدة عن حاجته في فصل الشتاء أو الصيف، أو رآه جالسًا علىٰ بساط أو طَرَّاحة مثلًا، فخرج من عنده يقطع في عرضه، فلاث به أصحاب ذلك الشيخ وقالوا: هذا أمر مباح لا يجوز الاعتراض علىٰ فاعله شرعًا.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهذا الفقير الذي اعترض علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أنه قصد بذلك تنبيهه علىٰ السعي في كمال مقام الزهد في الدنيا، وأن لا يدع عنده من أمتعتها إلا ما يحتاج إليه في ذلك الوقت لا غير، ويخرِج عن يده كلَّ شيء يراه زائدًا، عملًا بقوله ﷺ لأبي هريرة: «يكفيك من الدنيا كزاد الراكب»[2].

---

(١) بالأصلين: الطربة.

(٢) لم أقف عليه من حديث أبي هريرة ﵁، وإنما وقفت عليه من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب (١٧٨٠)، والحاكم وصححه (٧٨٦٧)، وعن سلمان ﵁ أخرجه ابن ماجه (٤١٠٤)، وأحمد (٢٣٧١١)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٧٨٩١).

[سيدنا أبو ذر رضي الله عنه على المقام العيسوي]

وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يرىٰ تحريم الادخار لشيء من نقود الدنيا وطعامها وملابسها، وهو مقام عيسوي، فإن عيسىٰ عليه السلام لم يكن يحبس من الثياب إلا ما يكون عليه في الصيف أو الشتاء، ورُفِعَ إلىٰ السماء يوم رُفِعَ وعليه جبة صوف، ونعل من صوف، وكساء من صوف، فهما عليه في السماء لا يخلقان ولا يبليان حتىٰ ينزل آخر الزمان. وقد بلغنا عليه السلام أنه لم يكن له قصعة يأكل فيها ويقول: قصعتي بطني، وملعقتي يدي. وكذلك لم يكن له مخدة يضع رأسه عليها إذا نام، فوضع يومًا طوبة تحت رأسه، فأتاه إبليس وقال: يا عيسىٰ، رغبتَ في الدنيا بعد زهدك فيها، وصرتَ تنام علىٰ مخدة! فرماها عليه السلام في وجه إبليس، وصار ينام بلا مخدة حتىٰ رُفِعَ إلىٰ السماء.

فاعلم ذلك، وإياك أن تدخل علىٰ فقير فتراه جالسًا علىٰ طَرَّاحة فتحمله علىٰ أنه جلس عليها ترفهًا، وإنما الواجب عليك أن تحمله علىٰ أنه إنما جلس عليها لعذر شرعي، أو علىٰ أنها ملك لزوجته، مع أن اللائق بأمثالنا في هذا الزمان أن لا يُنكَر عليه إلا ما كان حرامًا أو مكروهًا، وأما المباح فذلك أعلىٰ مقام يكون فيه، اللهم إلا أن يأمر أحدًا من أصحابه بالإنكار عليه إذا رأوه في مباح من الرُّخَص، ليذكروه بذلك فيتركه، فلا حرج.

ومما وقع أن شخصًا دخل عليَّ يومًا، فوجدني جالسًا علىٰ فروة فوق طَرَّاحة صغيرة لوجع كان بمقعدتي، فخرج يَقْرِض في عِرْضِي ويقول: رأيتُ فلانًا جالسًا علىٰ فروة فوق طَرَّاحة، فبعض الناس يقول: هذا أمر مباح، وبعض الناس يقول: هذا لا ينبغي لفقير؛ فلم أتكدَّر بحمد الله منه، وحملتُه علىٰ تنبيهي علىٰ ترك الترفه ما أمكن، إذ النفس ربما جلست علىٰ فروة أو طَرَّاحة لعذر ثم زال ذلك العذر، فتساهلت بالجلوس علىٰ ذلك ترفهًا، فجزاه الله تعالىٰ عني من أخ خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا أمر من يخل بواجب حق شريف أن يأتي بالشهادتين ويقول: برئتُ من كلِّ دين يخالف دين الإسلام؛ فلاث به فقيه

وقال: هذا أمر لا يخرج به الإنسان من دين الإسلام، وإن كان حق ذلك الشريف عظيمًا عند الله تعالىٰ. وقد خطب الإمام عليُّ بن أبي طالب ابنةَ أبي جهل علىٰ فاطمة ، وغضب النبي ﷺ لأجل غضب فاطمة، ثم خطب الناس وقال: إن فاطمة بَضْعة مني، يريبني ما يريبها، ويؤذيني ما يؤذيها، ولكن إن أراد ابن أبي طالب أن يتزوج علىٰ ابنتي، فليترك خطبة ابنة أبي جهل»[1] ولم يبلغنا أنه ﷺ أمر عليًا أن يجدد إسلامه بإتيانه بالشهادتين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه ما أمر تلميذه حين أخلَّ بواجب حقِّ الشريف إلا لكونه رآه فعل ذلك استهانةً بمقام الشريف، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن الاستهانة بالولد تسري إلىٰ الاستهانة بجده ﷺ، ورأىٰ حضرة الباطن في حضرة الله عزَّ وجلَّ كحكم حضرة الظاهر علىٰ حد سواء في الحكم عند الله تعالىٰ، وإن تراخت عنها في ظاهر الشريعة، فلا اعتراض علىٰ هذا الشيخ في أمره مريده بتجديد الشهادتين، لأنه أخذ له بالاحتياط في أحكام الدار الآخرة، حيث اطلع من طريق كشفه أو من طريق اجتهاده علىٰ أنه ما أخل بواجب حق الشريف إلا استهانة بجنابه.

وتأمل يا أخي لو أنه صرَّح بما في قلبه من الاستهانة، لحكم العلماء بارتداده عن الدين، وقتلوه إن لم يرجع إلىٰ الإسلام، فما تركنا قتل من أخلَّ بواجب حق الشريف إلا حملًا له إلا أنه معظِّم له في الباطن ومحب له، وإنما فعل معه ما فعل غفلةً عن مقام رسول الله ﷺ أو ذهولًا أو نسيانًا في ذلك الوقت، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٩٢) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي يرد شفاعة بعض الفقراء عنده في بعض من حبسه علىٰ مال أو تأديبًا، ولاث الناس به، فقال: إن هؤلاء الفقراء ما يشفعون عندي إلا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٧٢٩) من حديث المسور بن مخرمة قال: «إن عليًا خطب بنت أبي جهل فسمعت بذلك، فاطمة فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل، فقام رسول الله ﷺ، فسمعته حين تشهد، يقول: أما بعد أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني وإني أكره أن يسوءها. والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله، عند رجل واحد فترك علي الخطبة. والترمذي (٣٨٦٩).

لأجل هدية يأخذونها من جهة من يشفعون فيه؛ فلاث به أصحاب الفقير وقالوا: حاشا شيخنا من ذلك!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالأمير بسبب قوله ذلك حتىٰ يجتمع به ويُعْلِمُه بحال الفقير وعفته وزهده في مثل ذلك، فإن هذا الأمر قد كثر في غالب من يدعي الفقر في هذا الزمان، فقاس الأمير حال هذا الشيخ علىٰ غيره، لعسر تمييز الصادق من غيره عليه، فإن الأمير في دائرة، والفقراء في دائرة.

وأيضًا فإن الأمير ربما قاس الفقير علىٰ نفسه هو أو علىٰ جماعته من خازندار وبردار وغيرهما، فإنه يراهم لا يشفعون عنده إلا بجُعَالة(١) يأخذونها من ذلك الشخص، فقاس الفقراء علىٰ ذلك، فأعلِم يا أخي الأمير بأحوال الفقراء، ثم اعترض عليه بعد ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اشتُهر بالزهد والورع والعفة ومحبة إخمال الذكر، وميَّزه الناس علىٰ أقرانه بذلك، ثم سمعناه يقول لشخص من جماعة أمير أو قاضي العسكر: اذكر للأمير أو للقاضي صفاتي الحسنة، فلعله يصير يحبني ويتفقدني بهدية أو صدقة مثل أقراني؛ فلاث الناس به وقالوا: إن فلانًا قد نكص علىٰ عقبيه، ورجع عن محبة الخمول، وصار يطلب الشهرة والشهامة بعد ذلك المقام العظيم، ولو أنه كان مات قبل ذلك لكان خيرًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون أراد بذلك القول طلب الخفاء وعدم التميز عن أقرانه حين أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ ترجيح ذلك علىٰ الشهرة بالخير والصلاح، فإن قوله: «فلعل الأمير يصير يفتقدني بهدية أو صدقة» أخفىٰ في طلب الخفاء، فإن الناس يقل اعتقادهم فيه بذلك، فيختفي بين أقرانه، كما عليه السادة المَلامتية ﵃.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ إلا إن كنتَ أعلىٰ مقامًا منهم في

(١) الجُعَالَةُ: ما يُجعلُ علىٰ العمل من أجرٍ أو رِشْوَةٍ.

العلم بمكائد النفوس، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي وسَّع الله تعالىٰ عليه في الدنيا، ومع ذلك فيقتر علىٰ نفسه وأولاده وزوجته وغيرهم، ولاث به الناس وقالوا: هذا بخل عظيم؛ ونظموا فيه أبياتا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا نسبته إلىٰ البخل العظيم، لاحتمال أن يكون رأىٰ فيما بيده من الدنيا أنه حرام أو شبهة، فلم تطب نفسه بأن يأكل منه ولا يلبس، ولا يمكِّن أولاده وعياله من ذلك المال أو الطعام أيضًا، محبةً فيهم وخوفًا عليهم من مناقشة الحساب يوم القيامة، فلذلك صار يقتر علىٰ نفسه وعياله بقدر الضرورة، ويود أن الله تعالىٰ حماه من ذلك، وقسم له شيئًا من الحلال، فلا يُجابُ لسبق العلم الإلهي بذلك.

فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من تراه من أشياخ الطريق والعلماء يفعل مثل ذلك، فإن جميع الأموال التي بيد العبد اليوم قلَّ أن تسلم من الشبهات. وقد كان الفضيل بن عياض يطوي هو وأولاده الليالي والأيام لا يجدون من الحلال الذي يناسبهم ما يسد الرمق، وسف إبراهيم بن أدهم التراب مرات حين لم يجد الحلال. فعُلِمَ أنه لا يتوسع في هذا الزمان في المآكل والمشارب وغيرها إلا كل جاهل، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩٥) ومما أجبتُ به عن المشايخ ببلاد الريف إذا وردوا علىٰ صاحبهم في مصر، وأقاموا عنده في الضيافة زمانًا طويلًا، سواء أكانوا مشايخ الفلاحين أو مشايخ الزوايا من الفقراء، ولاث بهم الناس بسبب طول إقامتهم وقالوا: أما كان لهؤلاء ذوق؟! يقيمون عند صاحبهم حتىٰ يحرجوه، ونسوا قوله ﷺ: «لا يحل لضيف أن يثوي عند أخيه أكثر من ثلاثة أيام إلا بإذنه، لئلا يحرجه»[١].

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦١٣٥) من حديث أبي شريح الكعبي: «أن رسول الله ﷺ قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يومٌ وليلةٌ، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتىٰ يحرجه» وأبو داود (٣٧٤٨).

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء المشايخ، لاحتمال أن يكونوا لم يتحققوا بضيقه وتحرجه، فقاسوا حاله علىٰ حالهم في الكرم، ولم يُعَرِض هو لهم بأنهم ضيَّقوا عليه، فكان لهم العذر في ذلك، وقصدوا له حصول الأجر والثواب بذلك، لقوة إيمانهم بما وعد الله به المنفق من الإخلاف عليه بأضعاف ما بذل، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار بغير طريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩٦) ومما أجبتُ به عن الفقراء الذي يزورون أخاهم، فينامون عنده بأصحابهم، فيزيدون في العبادة تلك الليلة علىٰ [غير][1] عادتهم في بيوتهم، فلاث بهم من كان معهم من أصحابهم ولو في الباطن وقالوا: ما كنا نظن أن أحدًا من هؤلاء يقع في الرياء ويظهر للناس عملًا زائدًا علىٰ أقرانه!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء الفقراء، بل يجب حملهم علىٰ أن ذلك وقع منهم اتفاقًا من غير قصد في الزيادة، أو اختلف عليهم الموطن الذي ينامون فيه، فقلَّ نومهم وزادوا في العمل علىٰ ما كانوا يفعلونه في المكان المألوف. ويُحتمَل أنهم قصدوا بذلك تنهيض همة إخوانهم، وتقوية عزمهم علىٰ قيام الليل ونحو ذلك، ولا يجوز حملهم علىٰ الرياء بوجه من الوجوه، والله غفور رحيم.

(١٢٩٧) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أمره شيخه بالاستفتاح بالجماعة في مجلس الذكر، ثم عزله من ذلك وأمر غيره، فتكدر لأجل ذلك، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا من علامة الرياء وحب الرياسة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير في تكدره بالعزل، ولا حمله علىٰ حب الرئاسة، وإنما يجب حمله علىٰ أن تكدره إنما هو خوف من شيخه من أن يكون غضب عليه وأبعده عن حضرته بعد أن كان قرَّبه وجعله موضع سرِّه. ومعلوم أن **تكدُّر الفقير**[2]

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: الفقراء. والمثبت أنسب للسياق.

وغيرهم وقالوا: كان الواجب علىٰ هذا الشيخ أن يجبر خاطر صاحبه ولو بثوب وشيء من الطعام، ولكن قد ذهب أهل المروءة من الدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ من جهة عدم عمله كسوة أو طعامًا لأخيه الذي حج، ولا يجوز نسبته إلىٰ البخل ولا إلىٰ قلة المروءة، لاحتمال أنه قصد بذلك إعتاق أخيه الحاج من المنة، أو خاف عليه من إدخال الهم والغم عليه بإعطائه هدية لا يجد معه شيئًا يكافئه عليها، لاسيما إن كان ذلك الحاج من أهل المروءة، [وكثرت الكساوي والأطعمة عليه من أصحابه حتىٰ عجز عن مكافأتهم عليهم، فكان حكمه حكم المديون الذي كثرت عليه المطالبون في وقت واحد، فكان من حذق أصحاب المروءة][1] عدم إهداء شيء له تخفيفًا عليه، لأنه ربما قال: أنا حائر في شيء أقابل به فلان علىٰ كسوته وهديته، وما كان لي بها حاجة، ولكن استحييتُ أن أردَّ هديته عليه، فيتكدر خاطره. فمثل هذا المُهدِي أراد أن يسر الحاج بهديته فأهمه[2] بها. وليس اللوم إلا علىٰ من ترك الهدية لأخيه بخلًا وشحًّا، وأما من قصد بترك الهدية عدم إدخال هم المكافأة عليه فلا بأس.

وأيضًا فإن جميع الأموال التي في أيدي العباد إنما جُعِلت للمحتاجين، ومن كثرت عليه الكساوي والأطعمة فليس هو بمحتاج إلىٰ تلك الهدية، فكانت كالعبث. وقد فعلتُ أنا مثل ذلك، وتركتُ كسوة ولد شيخي سيدي علي ابن الشناوي لما حج وكثرت عليه الكساوي، فالحمد لله رب العالمين.

(١٣٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشاوره أحد في سفر التجارة، فيقول له: لا تسافر وإن سافرتَ كانت سفرة خرا عليك. فسافر وربح ربحًا كثيرًا، فلاث الناس به وقالوا: قد كذَّب اللهُ تعالىٰ هذا الشيخَ في قوله: إنها سفرة خرا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يريد بـ«الخرا» كثيرة الربح، فإن

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) بالأصلين: فأخبره.

الشارع قد ضرب ما يخرج من ابن آدم من الغائط مثلًا للدنيا، كما ورد في كتب تفسير المنام: من رأىٰ أنه يغوط علىٰ نفسه، حصل له مال بقدر ما يغوط، فصح كلام هذا الشيخ علىٰ هذا التقرير، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ليس علىٰ وجه الأرض أحد الآن أُعطِي ما أعطيتُ من العلوم والأمداد، بل قد أعطاني ما لم يعطه لأحد من الأنبياء والأولياء الذين قبلي؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ ما سمعنا أحدًا قال مثلها، وهذا دليل علىٰ سخافة عقله.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أن عين ما أعطانا ما هو عين ما أعطىٰ الأنبياء والأولياء السابقين قبلي، بل هو غيره للاتساع الإلهي. وهذا نظير ما أجبنا به عن السيد سليمان عليه الصلاة والسلام في قوله ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، فإنه ما قال ذلك إلا بيانًا للواقع لا تحجيرًا علىٰ القدرة، ولا تفضيلًا لنفسه علىٰ غيره، فإن ما يعطيه الله لأحد بعد سليمان هو نظير ما أعطاه لا عينه لمن تأمل.

وكذلك قول العبد: إني [لا] أشرب من بحر بيلاق هذا طول عمري، فإنه صادق في قوله لأن الماء الجاري في هذا الوقت ما هو الجاري قبل ذلك. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار من غير علم، فإن المثلية في الوجود منقولة غير معقولة، فلا بد من زيادة جنس علىٰ جنس في الأجسام والألوان والمعارف، ولولا ذلك ما تميز زيد عن عمرو، ولكانت عين أحدهما هي عين الآخر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي صلىٰ بالناس إمامًا في المغرب فطوَّل بهم، فلاث به الفقراء الحاذقون وقالوا: قد شوشت علىٰ الفقراء وكلفتهم بما لا يطيقون بوقوفهم بين يدي الله تعالىٰ في وقت تجليه بالعظمة حتىٰ هم بعضهم أن ينوي الخروج من الجماعة ويتم صلاته منفردًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه ظن بالمأمومين أن الله تعالىٰ

أعطاهم القدرة على طول الوقوف بين يديه في وقت التجلي المذكور كما أعطاه، فكان تطويله إنما هو لحسن ظنه بهم، ولذلك قال ﷺ لمن طوّل بالناس من أصحابه لحسن ظنه بهم: «اقدروا الناس بأضعفهم، فإن فيهم القوي والضعيف وذا الحاجة»[١]. ونهى معاذ بن جبل[٢] عن تطويله بالناس وقال: «أفتّان أنت يا معاذ؟!»[٣] أي أمختبر أنت يا معاذ قوتهم على طول الوقوف مع ثقل التجلي وعدم قوتهم؟! وليس لك ذلك، بل راعِ حال الأكثر من الناس من العاجزين وذوي الأشغال المتعِبة.

وإنما طوَّل ﷺ في المغرب في بعض الأحيان وصلى فيها بـ«الأعراف» حين علم أن جميع من خلفه كان قادرًا على طول الوقوف بين يدي الله في حال ذلك التجلي، ولذلك قال العلماء: إن المأمومين إذا كانوا محصورين ورضوا بالتطويل، فلا حرج عليه في التطويل، بخلاف ما إذا كانوا في العكس.

[القراءة في الصلاة تابعة لثقل التجلي الإلهي ولخفته ولتوسطه]

واستحبوا القراءة في المغرب بقصار المفصَّل[٤] مراعاةً لحال أكثر الناس، لكون التجلي الإلهي فيه أعظم. واستحبوا القراءة في الصبح والظهر بطِوَاله، لكون التجلي

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٩٨٧) من حديث مطرِّف بن عبد الله بن الشخير قال: سمعت عثمان بن أبي العاص، يقول: «كان آخر ما عهد إليَّ النبي ﷺ حين أمَّرني على الطائف قال لي: يا عثمان، تجاوز في الصلاة، واقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير، والصغير، والسقيم، والبعيد، وذا الحاجة» وأحمد (١٧٩١٠).

(٢) أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري، الخزرجي، المدني، البدري، شهد العقبة شابًا أمرد. كان أعلم الأمة بالحلال والحرام. وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ. أسلم وهو فتى، وآخى النبي ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي طالب. توفي:١٨هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٤٣) و«الأعلام» للزركلي (٧/ ٢٥٨).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧٠٥) ومسلم (٤٦٥).

(٤) قال السيوطي في «الإتقان»: «للمفصل طوال، وأوساط، وقصار، قال ابن معن: فطواله إلى عم، وأوساطه منها إلى الضحى، ومنها إلى آخر القرآن قصاره، هذا أقرب ما قيل فيه». والمفصل يبدأ من سورة «ق»، سمي بذلك لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

الإلهي فيها أخف من التجلي في وقت العصر والعشاء، لأن التجلي فيهما تجلٍّ أوسط، فكانت القراءة في الصلاة تابعة لثقل التجلي ولخفته ولتوسطه، كما يعرف ذلك المصلون علىٰ الحقيقة. وأما المحجوبون عن ذلك، فلا يدركون شيئًا من ذلك، فاعلم ذلك، واحمل إمامك علىٰ المحامل الحسنة فيما إذا طوَّل وفيما إذا قصَّر عن القراءة المشروعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كسا شيخًا آخر جبته بحضرة الناس، ثم أرسل بعد ذلك يقول له: رد عليَّ جبتي، فإني ندمتُ علىٰ إعطائها لك، لأني ما كسوتُها لك إلا لتكف عن عِرْضِي وعن غيبتي في المجالس ولم ترجع؛ فلاث بهذا الشيخ جماعة الشيخ الذي قَبِل الجِبَّة وقالوا: ما كان ينبغي له أن يعطي الجبة إلا بعد تحرير نيته.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه قصد بطلب جبته إظهار حسن خلقه وصبره علىٰ نسبته إلىٰ الغيبة في أقرانه، وعدم جوابه عن نفسه، ليقتدي به أصحابه. ويُحتمَل أنه وصل إليه بطريق صحيحة أنه يقع في أعراض أقرانه، فأراد بطلبه الجِبَّة منه أن ينبهه علىٰ التوبة والندم من وقوعه في عرض الناس وقلبه فارغ من طلب الجبة.

وقد فعلتُ مثل ذلك مع بعض أشياخ العصر، فشَرْمَط الجبة وفتقها من شدَّة الغضب، وبالغ في سبِّي وأرسلها، وقال: لسنا محتاجين إلىٰ جبة مثلك! فعرفنا بذلك أحوال فقراء العصر، وأخذنا حذرنا من الوقوع في مثل ذلك إلا بعد علمنا بزوال رعونات نفس من نعطيه شيئًا من ثيابنا، بحيث يقبل كلامنا، ويحمل كلامنا علىٰ المحامل الحسنة من تنبيهه علىٰ ترك الغيبة إن كان وقع فيها، أو تحذيره من الوقوع فيها في المستقبل، أو وقوع أحد من أصحابه فيها. وإنما جعلناه هو الذي يقع لعلمنا بأنه يحمل في حقِّه مثل ذلك ولا يتكدر، لزوال رعونات نفسه، إذ الفقير إذا زالت رعونات نفسه يصير يقبل في حقِّ نفسه كلَّ رذيلة، ويرىٰ ذلك بعض ما فيه، بخلاف من لم تزل رعوناته، فإنه لا يكاد يقبل في حق نفسه رذيلة من الرذائل.

ويُحتمَل أنه ما شرمط الجبَّة وفتقها وبالغ في سبِّي إلا نظنه فيَّ حسن الخلق، فأراد أن يبين لأصحابه حسن خلقي، ووقع في شرمطتها من باب الاجتهاد، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن بيان فضلي للناس ليقتدوا بي في حسن الخلق مقدَّمًا علىٰ عدم شرمطة الجبة وتفتيقها، لهوان الدنيا في عينه، ومحبة حصول الخير لإخوانه المسلمين. عكس من كان يحب الدنيا ويعظِّمها. فاعلم ذلك، وانتحل لإخوانك الأجوبة الحسنة ما أمكن بطريقه الشرعيِّ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قرَّر في درسه معنىٰ النبي والرسول علىٰ مصطلح العلماء، وقال: إن كلَّ رسول نبي ولا عكس، ثم قال: إن لنا حالة ثالثة يكون الرسول فيها غير نبي؛ ولم يبينها، فلاث به طلبة العلم وقال: هذا أمر ما سمعنا به، ولا رأيناه في كلام أحد!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه أورد تلك الحالة الثالثة علىٰ تعريفهم النبي والرسول من أن النبي إنسان أُوحِي إليه بشرع ليعمل به في نفسه ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو من أُمِرَ بتبليغ ذلك إلىٰ غيره أيضًا، فخرج ما لو أُوحِي إليه بأمر ليبلغه إلىٰ غيره، مع كونه لم يتعلق به، ولم يؤمر بالعمل به، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨] أو ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ ﴾ [النور: ٣٠]، فإن هذه حالة يكون فيها رسولًا فقط غير نبي.

وإيضاح ذلك أن للنبي ثلاث حالات: **حالة** يكون فيها نبيًّا فقط؛ **وحالة** يكون فيها نبيًّا ورسولًا، وهو ما لو أُمِرَ بتبليغ الوحي الذي أُمِرَ هو أن يعمل به عينه؛ **وحالة** يكون فيها رسولًا فقط، وهو ما لو أُمِرَ بتبليغ شيء يتعلق بغيره مما لم يُؤمَر هو بالعمل به. فقولهم: «كل رسول نبي ولا عكس» محله ما لو أُمِرَ بتبليغ عين ما أُمِرَ هو بالعمل به لغيره، فصح قول الشيخ: إنه ليس كلُّ رسول نبيًّا.

وأما علىٰ غير ما عرَّف العلماء به النبي والرسول، فإن كل رسول نبي. أما نبوته فيقول

الحقُّ تعالىٰ له: قل لأمتك كذا. وأما رسالته فبنفس تبليغه فافهم، فإنها نكتة لعلك لم تسمعها قبل ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر أصحابه أن لا يكلمه أحد منهم في مسألة دينه إلا بعد أن ينتصب قائمًا بين يديه، وينهاه عن سؤاله في حاجة وهو جالس، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا ناموس لا يكون إلا للملوك والأمراء، وأما الفقراء فإنما شأنهم الذل والانكسار، ورؤيتهم الحقارة في نفوسهم، ويكرهون القيام والتعظيم لهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ من جهة أمره لأصحابه أن لا يسألوه في حاجة إلا وأحدهم قائم، لأن القيام ليس هو لأجله، وإنما هو للشرع والحكم الذي يسألونه عنه. وقد ثبت في السنة ما يشهد لذلك، فروىٰ مسلم وغيره عن أبي ذر قال: «انتهيتُ إلىٰ رسول الله ﷺ وهو جالس في ظلِّ الكعبة، فلما رآني قال: هم الأخسرون ورب الكعبة. قال: فجئتُ حتىٰ جلستُ معه فلم أتقار[١] أن قمتُ. فقلتُ: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالًا إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله ومن خلفه وأمامه، وقليل ما هم»[٢] الحديث. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخوَّاص ؒ يقول: من الأدب أن لا يسأل مريد شيخه عن مسألة إلا وهو واقف بين يديه إلا أن يكون في حلقة درس، ولا ينبغي لفقيه أن يعترض علىٰ الأشياخ في أمرهم مريدهم أن لا يسألهم عن مسألة إلا وهو واقف، لأنه أولىٰ بالاتباع للشريعة وأداتها من الملوك، بل هم الملوك حقيقة، لأن ملوك الدنيا قد لا يكون أحدهم ملكًا في الجنة، بخلاف الفقير، فإنه ملك في الدنيا بزهده وورعه وقناعته واعتقاد الناس وظنهم [فيه][٣] الصلاح والولاية. وأما في الآخرة فلا يخفىٰ حكمهم وقربهم من رسول الله ﷺ.

---

(١) أي لم ألبث.

(٢) أخرجه مسلم (٩٩٠)، والبخاري (٦٦٣٨).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.



وقد كان الجنيد رحمه الله يقول: مُلْك الفقراء أعظم من مُلْك الملوك؛ لأن الفقراء قد زهدوا فيما رغبت فيه الملوك من الدنيا ومناصبها وشهواتها. وكان إذا جاءه شخص يطلب منه الصحبة، يقول له: خدمتَ الملوك أم لا؟ فإن قال نعم، صحبه؛ وإن قال: لا، لم يصحبه ويقول له: اذهب فاخدم الملوك، واعرف أدبهم، ثم تعالىٰ اصحب الفقراء. انتهىٰ.

فانظر كيف جعل الجنيد الأدب مع الفقراء فوق الأدب مع ملوك الدنيا، وجعل أدب ملوك الدنيا سُلَّمًا للترقي للأدب مع الفقراء.

وما رأيتُ لهذا الأدب فاعلًا من أحد من أقراني، وأولُ ما نبهني علىٰ ذلك أغا سرور أحد خدَّام مولانا السلطان سليمان ابن عثمان، فإنه سألني عن حديث، فلما شرعتُ فيه وقلتُ: «عن رسول الله ﷺ...» نهض قائمًا، فلم يزل واقفًا حتىٰ فرغتُ من الحديث ثم جلس، فقلتُ له في ذلك، فقال: كيف يليق من عبد أن يسمع حديث رسول الله ﷺ وهو جالس؟! مع أن مرسوم السلطان لا يُقرَأ إلا والسامع قائمًا تعظيمًا له، ومعلوم أن السلطان من جملة خدَّام رسول الله ﷺ، فكلامه إذا قُرِيء أولىٰ بالأدب معه. فأعجبني أدبه وبكيتُ.

ومن هنا كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: إذا فقدتم من يعلمكم أدب الفقراء، فانظروا في آداب أركان الدولة مع أكابرهم. فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ الأشياخ إلا بعلم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٧) ومما أجبتُ به عن النصراني أو اليهودي الذي مرَّ عليه أهل العلم والقرآن وهم في جنازة، فلم ينهض قائمًا، ولاثوا به وقالوا: يا كلب يا قليل الأدب، أما تقوم لمشايخ الإسلام؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا النصراني، بل ينبغي التربص، فربما يكون عاجزًا عن القيام لمرض، أو جاهلًا بوجوب التعظيم للمسلمين. ففتش يا أخي عن حال ذلك النصراني أو اليهودي أولًا، ثم ابنِ علىٰ كلِّ شيء مقتضاه، وزجرك للنصراني وجعله كلبًا ببادئ الرأي تهوُّر ونقص عقل، فإن الله تعالىٰ لا بد أن يأخذ حقَّ

كلِّ من جنيتَ عليه بغير حقّ ولو كافرًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٨) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي ينكر على الصوفية ويخرجهم عن دائرة الشريعة، وإذا لاموه على ذلك يقول: إن الصوفية كذلك ينكرون علينا؛ فلاث به الفقراء وقالوا: فرق عظيم بين إنكارك وإنكارهم، لأنك تنكر عليهم لجهلك بطريقهم، وهم ينكرون عليك ليرقوك إلى المقامات العالية، مع أن ما ينكرونه عليك له وجه عندهم يوافق الصواب.

والجواب: أنه لا ينبغي التلوث بالفقيه الذي ينكر على الصوفية، لأنه ما أنكر إلا ما خرج عن دائرة علمه وعقله، ومعلوم أن الإنكار مشروع لمثل هذا، ولا ينبغي الإنكار على الفقيه إلا إذا كان إنكاره عنادًا أو تعصبًا تشفيًا للنفس، فحمل الفقيه على المحامل الحسنة أولى بكل عاقل. ومن هنا قالوا: من شأن الفقراء أن الناس ينكرون عليهم، ولا ينكرون هم على أحد، لوسع علمهم وحملهم للناس على المحامل الحسنة. وبتقدير إنكارهم فلا ينكرون إلا على من خالف نصًّا وإجماعًا لا غير. انتهى.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي للفقيه أن يقول: كما أن الفقراء ينكرون علينا، كذلك نحن ننكر عليهم، لأن إنكار الفقراء بحق، وإنكارك يا أخي بغير حق، لعدم دخولك دائرة الصوفية، لأنها ثاني مرتبة للشريعة مما يلي القطب، فقد قطع الفقير دائرة الفقهاء قبل أن يدخل إلى دائرة الفقراء، بخلاف الفقيه فإنه من الدائرة الأولى، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو الفقير المشهور بالعلم والصلاح إذا كان زفر اللسان، كثير الوقيعة في الناس، فربما يجلس المجلس فيحرقون في العلماء والصالحين والتجار والمباشرين والمحترفة والفلاحين وغيرهم، ولاث به الناس وقالوا: حاشا لله أن يكون هذا من العلماء والفقراء!

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار على مثل هذا إلا إن كان المنكِر قد خرق إلى صميم قلبه، ورأى قصده الفاسد بذلك السب والشتم، فإنه يحتمل أن يكون من رجال الله الأكابر الذين حكَّمهم في الوجود، وجعل جميع من فيه كالأطفال، فهوَّن عليهم أحوالهم الناقصة

أو الكاملة عندهم، ليرقيهم إلىٰ ما هو أعلىٰ منها، ولا يكون ذلك من الغيبة في شيء. وقد يكون الحق تعالىٰ أعطاه ستر المقام، وغفر له ذلك السبَّ والشتم الذي يفعله مع الناس، ومعلوم أن معاصي أهل الإسلام تحت المشيئة في المؤاخذة والمسامحة. فيُحتمَل أن الله تعالىٰ مسامح هذا العالم أو الفقير في كلِّ ما يفعل علىٰ حسب ما سبق في علمه. أو أنه تعالىٰ يَمُنُّ عليه بالتوبة كلما يقع في ذنب، ثم يبدل ذلك الذنب بحسنة مكانه كما صرح به القرآن.

فإن قال قائل: إن هذا الساب أو الشامت لا نراه يتوضأ ولا يصلي؛ قلنا له: يُحتمَل أن يكون من أصحاب الخطوة الذين يذهبون من مشرق الأرض إلىٰ مغربها في لحظة، فيصلون في أماكن بعيدة ثم يرجعون. ويُحتمَل أن أحدهم يضرب الحجاب بينه وبين الناس في مكانه من غير انتقال، فيتوضأ ويصلي ولا يراه أحد، كما كان يقع لسيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي، فأخبرني بعض الفقراء قال: كنتُ جالسًا مع سيدي الشيخ عبد القادر يوم الجمعة في جامعه خارج باب الشعرية، فأذَّن المؤذن بين يدي الخطيب، ولم أرَ الشيخَ علىٰ باله صلاة، فأنكرتُ عليه في نفسي، فوضع كمَّه علىٰ رأسي وقال: افتح عينك؛ ففتحتُهما [وإذا نحن في الحِجر تحت المِيزاب بمكة، فصلينا الجمعة خلف الإمام، فلما سلَّم وضع كمه علىٰ رأسي ثانيًا، وقال: افتح عينيك؛ ففتحتهما][1] وإذا نحن في الجامع خارج باب الشعرية. فقال لي: هل بقي عندك شك في أن عبد القادر يصلي؟ فقلت: لا. فقال: وإياك والإنكار. هكذا أخبرني صاحب الواقعة، فيُحتمَل أن يكون هذا الفقير الذي يسب الناس ولا يرونه يتوضأ ولا يصلي من هؤلاء الرجال، والله أعلم، فاخرق يا أخي ببصرك إلىٰ قلبه، وانظر ما له وكيف حاله، ثم أنكر، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن الله قد أعطاني من المقامات الباطنة كذا وكذا؛ والحال أنه لم يظهر علىٰ ظاهره من ذلك رائحة، فلاث به الفقراء وقالوا: قد ورد في الحديث: «إن المتشبع بما لم ينل كلابس ثوبي زور»[2].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) تقدم تخريجه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه ربما قصد بذلك الشكر لله تعالىٰ علىٰ أمور أعطاها له في قلبه لا يمكن إظهارها للناس، إما لدقتها عليهم، وإما حفظًا لها عن خروجها عن عمل السرِّ المضاعَف في الأجر. وما ورد من النهي عن شبع العبد بما لم ينل محمول علىٰ من يفعل ذلك فخرًا وتكبرًا علىٰ إخوانه، لا علىٰ قصد الشكر لله تعالىٰ، فحكم ذلك حكم من يقول: أنا غارق في فضل الله عزَّ وجلَّ، فلا حرج عليه في ذلك، لأنه من باب المبالغة في الشكر لله تعالىٰ، والله أعلم.

(١٣١١) ومما أجبتُ به عن بعض أولاد المشايخ الذي مات والده، وصار يفضله علىٰ جميع فقراء العصر ويقول: ما بقي بعد والدي أحد يستحق أن يُعتقَد! وربما عارضه أحد في ذلك فنقص علماء البلد وصوفيتها وقال فيهم العجر والبجر، حتىٰ يكون ذلك منه المرات، وكرهه غالب العلماء والصالحين، وصاروا لا يقولون له: سلام عليكم إلا خوفًا من لسانه، فلاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: هذا من جملة الفسق، وحاشا أن يكون مثل هذا من أولاد الصالحين[1].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من أولياء الله الأكابر، كما مرَّ نظيره قريبًا، فقصد بتنقيص العلماء والصالحين من أهل عصره رفع همتهم عن الوقوف مع مقاماتهم الناقصة، كما هو مشاهد في أدوار العلماء والصالحين، فكل دور ينقص عن مقام الدور الذي قبله.

فإن قلت: إن تنقيص الناس وشتمهم وذكر نقائصهم لا يسوغ مثله لأجل طلب ترقي العلماء والصالحين في المراتب؛ **فالجواب**: قد يكون الحقُّ تعالىٰ يغفر لهذا الشخص كلَّ كلام نقص به الناس عقب كلِّ كلمة. وأيضًا فربما كان هذا الشخص غافلًا عن كون التنقيص حرامًا، ولا يؤاخذ العبد إلا بالعمل مع العلم بالتحريم. وبتقدير العلم بالتحريم، فيُحتمَل أن والد هذا الشيخ كان مات علىٰ نعت اعتقاد الناس له خاصهم

---

(١) بالأصلين: الفلاحين.

وعامهم، فنزل البرزخ مُعْجبًا بنفسه، فقيَّض الله تعالىٰ له ولده فنقص الناس، فنقصوا أباه كذلك، وأخرجوه من دائرة الصلاح في البرزخ، فكان حكمه حكم من تكلَّم الناس فيه حال حياته وأزالوا عنه العجب، إذ البرزخ له وجه إلىٰ أحكام الدنيا، بدليل قبول سجدة أهل الأعراف منهم يوم القيامة. وقد تقدم أنه لا ينبغي مؤاخذة من كثرت أعداؤه وخصومه من الناس، لأنه صاحب مصيبة، فلا ينبغي لأحد أن يزيد عليه مصائب أخر، بل اللائق مسامحته، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسمع من يسب العلماء والصالحين الأحياء والأموات وهو قادر أن يقول: هذا حرام عليك بإجماع المسلمين. فلم يتلفظ له بكلمة، فلاث الحاضرون به وقالوا: اللهم إن مثلنا يخاف من إطلاق لسانه فيه زيادة علىٰ سب من ذكر، فأنت يا سيدي الشيخ ما عذرك وهو يخاف منك ومن جماعتك؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من أهل مقام الإحسان الذي يغيِّرون المنكر بتوجههم إلىٰ الله تعالىٰ بقلوبهم، كما قررناه في معنىٰ حديث: «من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1]، أي من أن معنىٰ تغيير المنكر بالقلب أن يتوجه العبد إلىٰ الله بقلبه في إزالة ذلك المنكر، فيحول بين الزاني والزنا وبين شارب الخمر وشربه، وبين الناطق بالفحش ونطقه، فيجيب الله تعالىٰ سؤاله، وتنفلق جرة الخمر بقدرة الله، ويمتنع الزاني من الزنا بقدرة الله، ويسكت الناطق بالفحش بقدرة الله، وأن هذا هو معنىٰ الحديث عند أهل الله عزَّ وجلَّ، فإنه هو التغيير الحقيقي. وأما قول العبد بقلبه: «اللهم هذا منكر لا أرضاه» فليس فيه تغير للمنكر، بل هو باق علىٰ حاله لمن تأمل. وأما قوله ﷺ: «وذلك أضعف الإيمان» أي لأن هذا المقام لا يكون إلا لمن دخل مقام الإحسان، وصارت أفعاله مستمَدة من القدرة الإلهية علىٰ الكشف[2] والشهود. ومعلوم أن حجاب إيمان

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بالأصلين: الكسر. والصواب ما أثبتناه.

هذا يضعف -أي يرق- لغلبة سلطان مقام الإحسان عليه، فلذلك ضعُف إيمانُه وقوي شهوده، فإن ضعف الإيمان له وجهان: وجه للذم ووجه للمدح، فمن لم يكن عنده داعية لإزالة المنكر فهو مذموم، ومن كان عنده داعية لإزالته بالقلب فهو محمود.

وتقدم عن سيدي عليّ الخواص رحمه الله أنه كان يقول: إزالة المنكرات باليد للولاة ومن داناهم ممن يضرب فاعل المنكر ولا يقدر هو يمد يده إليه، وإزالتها باللسان للعلماء العاملين الذين يمتثل الناس أمرهم ولا يخالفونهم، وإزالتها بالقلب لأكابر العارفين أهل مقام الإحسان الذين صارت قوتهم من قوة الله، وبطشهم من بطش الله، وخواطرهم من الله، كما أشار إليه حديث: «فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، ويده التي يبطش بها، ولسانه الذي ينطق به»(١) إلىٰ آخره.

فيجب حمل هذا الشيخ الذي سمع سبَّ العلماء والصالحين ولم ينكر علىٰ الساب علىٰ أنه من أهل مقام الإحسان، وأنه توجه إلىٰ الله تعالىٰ في أن يسكته، فنادته هواتف الحق تعالىٰ: حتىٰ يفرغ التقدير الذي قدَّرتُه عليه من السب؛ وإن كان **النهي عن المنكر لا يناقض التسليم عند الأكابر**، فافهم والله أعلم.

(١٣١٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أخرج للضيف سلة عنب، أو قفة كبيرة ملآنة رطب أو فاكهة، فوضع للضيف منها بعض حبات، ووضع السلة في خزانته، فلاث به الضيوف وقالوا: هذه من علامات البخل والشح، فإن التبسط في الطعام للضيف مطلوب شرعًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا حمله علىٰ البخل، فقد يكون كُشِفَ له عن مقدار ما يخص أولئك الضيوف من تلك الفاكهة، فقدَّمه لهم علىٰ نور وبصيرة، وادخر الباقي لمن كُشِفَ له أنه من رزقهم، كما عليه الفقراء الصادقون. وإذا كان المريد يخرج عن البخل من أول قدم يضعه في الطريق حتىٰ يتجلىٰ له توحيد الملك لله وحده، فكيف يُحمَل من طعن في السن من الأشياخ علىٰ البخل؟! هذا شيء بعيد! لاسيما إن

---

(١) تقدم تخريجه.

سافر أولئك الضيوف ولم يأكلوا شيئًا آخر منه، فإنه يتبين عدم قسمة الحق تعالىٰ لهم شيئًا مما ادخره الشيخ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا إخوانكم على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يذكر الله تعالىٰ [في] مجلس الذكر في زاويته، ثم يُقرَأ عليه الفقه والنحو والأصول ونحو ذلك عقب مجلس الذكر. فلاث به بعض المتصوفة وقالوا: هذا دليل علىٰ أنه لم يذق من علم التوحيد شيئًا، إذ لو ذاق منه ذرة لخرس عقب مجلس الذكر ولم يستطع أن ينطق، لأن حضرة الله تعالىٰ حضرة بهت وخرس، ولذلك سنَّ الأشياخ للمريدين الصمت عقب مجلس الذكر، وقالوا: إن المريد إذا فعل ذلك ربما يُفتَح عليه بما لا يُفتَح عليه بالمجاهدة والرياضة نحو ثلاثين سنة. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل قراءته الفقه والنحو وغيرهما عقب مجلس الذكر، وذلك من أقوىٰ علامة علىٰ كماله، فيقرأ علىٰ رسول الله ﷺ شرعه في حضرة ربه، ويعرض عليه ما قاله علماء أمته في شرح كلامه، وما استنبطوه مما تشهد[1] له شريعته بالصحة والموافقة، فتقر بذلك عينه ﷺ، ولذلك لذة لا يقدر قدْرها، وقد ذقناها والحمد لله رب العالمين، **فما رأيتُ ألذ من قراءة العلم الشرعي عقب مجلس الذكر أبدًا بحضرة الله تعالىٰ وحضرة رسوله ﷺ.**

فعُلِمَ أن من جعل هذا الشيخ محجوبًا هو المحجوب، إذ الكامل هو من يشهد الحقَّ تعالىٰ مع الخلق، والخلق مع الحق، والحكم الشرعي مع الحاكم به والمحكوم به عليه، لا يحجبه أحد المشاهد عن بعضها.

فاعلم ذلك يا أخي، واعمل علىٰ تحصيل هذا المقام، لتفوز بمجالسة الله ومجالسة رسوله ومجالسة الأئمة المجتهدين وأتباعهم حال تدريسك، كما عليه أكابر الأولياء كسيدي عبد القادر الجيلي ﷺ، فقد بلغنا أنه كان يدرِّس في كلِّ يوم في عدة علوم إلىٰ أن

---

(١) بالأصلين: لم تشهد. والصواب ما أثبتناه.

مات، مع إجماع الأولياء على قطبيته، ولا شك أن العلم من جملة المأمورات الشرعية، وكيف يكون المأمور الذي يقرِّب إلى حضرة الله يحجب عن الله؟! هذا لا يقوله عاقل، ولا من شم رائحة الطريق، وإنما هو من قول بعض الجهلة المدَّعين للطريق بغير سلوك ولا رياضة ولا مجاهدة ولا أدب، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: العقل في الصدر؛ مستدلًا بقوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ **[الإسراء: ٥٠-٥١]، وقال: صفة الكبر إنما تكون في القلب لأنها من أوصافه، فلاث به بعض المجادلين وقال: الصحيح أن العقل في الرأس لا في القلب.**

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن ظاهر هذه الآية يؤيد قوله، كما أنها تؤيد أيضًا من قال: الفهم في القلب، لأنه من صفاته. وفي الحقيقة المعترِض والمعترَض عليه لم يتواردا على محل واحد إلا من حيثُ الأوصافُ التي في القلب، أما نفس العقل [فما] عُلِمَ دليل صريح في محله هل هو في الرأس أو في الصدر، فليتأمل هذا كله على سبيل الفهم الظاهر.

وأما الفهم الباطن، فالمراد بالصدور هنا الرجوع من حضرة شهود الحقِّ جلَّ وعلا، فإن صفة الكِبَر لجرم شيء من المخلوقات لا يحصل إلا في حال إدبار العبد عن الحضرة. وأما في حال إقباله وسيره إليها، فيصغر عند العبد كل شيء في الوجود، لاستهلاكه في شهود الذات الواحدية لا الأحدية، لأن الأحدية لا تقبل وجود أحد معها، بخلاف الواحدية. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] أي في حال رجوعهم من حضرة شهود الحق تعالى، أما حال ورودهم فلا يقدر الشيطان يدخل بين العبد والرب، ولو أنه دخل لاحترق في لمح البصر، فلا يصح منه وقوع وسوسته. هذا ما ظهر لي في هذا الوقت، فمن وجد كلامًا أوضح في المعنى من هذا، فليكتبه في هذا الموضع نفعًا للناس، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٦) ومما أجبتُ به عن مولانا السلطان الأعظم في سكوته ونوَّابه علىٰ قبض جماعتهم المكوس، مع كونها محرَّمة بإجماع المسلمين، وقد قال بعضهم: إن كل من قبض المكْس[1] فسق وخرج عن استحقاق الولاية الدينية.

والجواب: أن الواجب الأدب مع مولانا السلطان ونوَّابه، وحمل السلطان علىٰ أنه سكت علىٰ ذلك باجتهاد، كما حملنا غيره في الأزمان الإسلامية علىٰ ذلك، لأنه ربما أدَّىٰ اجتهاده [أنه] إذا سامح التجار في المكوس أن أموالهم تكثر ويجتمعون علىٰ أحد من المنازعين له في الملك، وينفقون علىٰ عسكره، فتقوىٰ علىٰ عسكر السلطان المتولي، فيحصل بذلك القتل والنهب والخروج من الأوطان، فإذا نقَّصوا مال التجار بأخذ المكوس من أموالهم، بطلت تلك الفتنة.

ولا يجوز حمل السلطان ونوابه علىٰ أنهم فعلوا ذلك رغبةً في الدنيا من غير مراعاة مصالح المسلمين، أو بجهل تحريمه، وحاشا مولانا السلطان أن يستحل ما أجمع المسلمون علىٰ تحريمه! بل هو من باب ارتكاب أخف المفسدتين. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق من بوجوده يستقيم الدين، ويحتمي المسلمون به من تحكم الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يمرُّ علىٰ زاوية أخيه المئة مرة وأكثر، ولا يطلع زاويته، ولا يسلم عليه، ولا يرسل له السلام، فلاث به الناس وقالوا: هذا من أعظم علامة علىٰ نفسه وعلىٰ أنه عدو له.

والجواب: أن عدم زيارة ذلك الشيخ لأخيه وعدم إرسال السلام له لا يقدح في كماله، بل هو من أكبر العلامات علىٰ وجود كماله، إذ **الكامل من شأنه أن يشهد جميع الوجود في الدنيا والآخرة حاضرًا عنده**، والحاضر عند الإنسان لا يصح فيه اشتياق له، لأن الشوق لا يكون إلا لغائب ورد علىٰ العبد، فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل ذلك الشيخ الذي يمر ولا

---

(١) المَكْسُ: الضَّريبةُ.

يزور ولا يسلم على العداوة، بل يجب على العبد الفرح والسرور بعدم زيارة أخيه له، من حيثُ كونُ ذلك علامة على كمال أخيه وقربه من حضرة الله عزَّ وجلَّ، كما أوضحنا ذلك في الباب التاسع من كتاب «النور الساطع والسر القامع»، والحمد لله رب العالمين.

[الكامل قد ينقص تارة ويكمل أخرى]

فإن قال قائل: إنا نرى هذا الكامل يزور بعض الإخوان دون بعض، فهل هو ينقص تارة ويكمل أخرى؟ **فالجواب**: نعم، والأمر كذلك، فإن الوليَّ تحت جريان الأقدار، فتارة يمنُّ الله تعالى عليه بالزيادة، وتارة يمنُّ عليه بالنقص، كالبئر الذي يُسقى منها البستان، فتارةً يفيض ماؤها، وتارةً ينزح، فعُلِمَ أن الكامل لا يؤمر بزيارة أحد من إخوانه إلا إن تنزل لعقول المحجوبين، وإذا نقص عن مقام الكمال أُمِرَ بزيارة الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بينه وبين أخيه وقفة ويدعي مقام الكمال، وربما دخل عليه إنسان يزوره، فيجعل يده في يده ويقول: هذا عهد الله أنك لا تجتمع بفلان -يعني ذلك الإنسان الذي بينه وبينه وقفة- فلاث به الفقراء الحاذقون وقالوا: ما فعله هذا الشيخ ينافي مقام الكمال، فإن الكامل لا يرى في الناس إلا الكمال على صورة نفسه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه فعل ذلك تنزلًا لذلك الشخص الذي بينه وبينه وقفة، تأديبًا له وزجرًا عما وقع فيه من الرذائل، أو ليأخذ بذلك حذره في المستقبل، **ولم تزل أفعال الأشياخ واقعة بالاجتهاد، فلا يحبون أحدًا ولا يكرهونه إلا بطريق شرعي.**

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إذا بلغكم أن أحدًا ينقصكم في المجالس، ويقرض في أعراضكم، فارجعوا بالقلوب إلى حضرة ربكم، فإنه تعالى ما سلَّط عليكم الناس إلا بعد شرودكم عن حضرته، ولو كنتُم في حضرته لحماكم من كلِّ ما يؤذيكم.

وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: عليكم بعدم التظاهر بالأعمال الصالحة التي تميزكم عن إخوانكم جهدكم، فإن كلَّ من تظاهر بالأعمال الصالحة حتى أطفأ نور

إخوانه، فقد تعرَّض لأن يكون هدفًا لسهام الأقران، لأن ما كلُّ أحد يقدر على الصبر على ارتفاع أقرانه عليه، إذ هو بمثابة من يكشف سوأة إخوانه للناس حتى لا يخفى نقصهم على أحد، وكأن ما نقص الناس أحدًا من الفقراء وهو مستقيم مع الله في الباطن أبدًا، وإنما يقع تنقيصهم له إذا انعوج في الباطن مع الله، فيقيض الله له من ينقصه ليتنبه لنفسه، كما سيأتي إيضاحه في الخاتمة إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول في مناجاته: اللهم إني أعترف بين يديك أني لا أعلم أحدًا يوافي القيامة أكثر أوزارًا مني ولا أقبح، وتارةً يقول: اللهم إن ذنوبي قد رجحت على ذنوب الأولين والآخرين فاغفر لي؛ فلاث به بعض المجادلين وقالوا له: هذا الاعتراف من قسم الكذب، ولا ينبغي للعبد مناجاة ربه إلا بالصدق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون اعتقاده أن الله تعالى يغفر ذنوب غيره من الموحدين دونه، كما عليه عمل السلف الصالح في هضم نفوسهم بين يدي الله عزَّ وجلَّ، وإذا كان العبد في مقام التملق لمولاه، فلا يطالب بتحقيق الأمر في التملق، لأنه محجوب عن كلِّ شيء فيه تزكية لنفسه، كما بسطنا الكلام على ذلك في رسالة مستقلة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا يصح الحضور مع الله تعالى لأحد من الأمة في الصلاة ولا غيرها؛ فلاث به بعض المتصوفة وقالوا: هذا مخالف لما قاله السلف والخلف في ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأنه قد مال إلى التنزيه لله عزَّ وجلَّ، وقليل من الناس من يذوق هذا المقام، لأنه مقام الأنبياء وكُمَّل الأولياء. وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: مقام الحضور مع الله من أعزِّ المقامات، لأن العبد إن شهد نفسه في جانب والحق تعالى في جانب، فقد حيَّز الحقَّ تعالى، ومن حيَّزه فما حضر معه؛ وإن شهد نفسه [غير الحق تعالى فما عرفه، وإذا لم يعرفه فلا يصح له معه حضور؛ وإن شهد

نفسه][1] غيرًا وعينًا معًا فما عرفه، وإن شهدها لا غيرًا ولا عينًا فما عرفه، وإذا لم يعرفه فما حضر معه، وإذا [كان كل شيء خطر ببال العبد فالله تعالىٰ بخلافه، فلا يصح لأحد الحضور معه، وما حضر معه تعالىٰ إلا من عرفه تعالىٰ][2] في سائر مراتب التنكرات بعين واحدة أو بعدة أعين لا تزاحم عين ما شهدته عين أخرىٰ كما أوضحناه في الباب التاسع من كتاب «النور الساطع والسر القامع» فراجعه، وإياك ودعوىٰ الحضور مع الله تعالىٰ إلا بكشف صحيح بحكم الإرث للأنبياء، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي عرض لجماعة الباشاه مثلًا أن يرسلوا له شيئًا من الذهب أو الفضة أو القمح أو العدس مثلًا، ثم لما أرسلوا ذلك له ردَّه وأظهر الزهد والعفة وقال: أنا لستُ محتاجًا إلىٰ شيء من صدقات الولاة ولا هداياهم؛ فلاث به حاشية الأمير وغيرهم وقالوا: هذا ملعبة بالأمراء! وخفة عقل من سيدي الشيخ، كيف يعرِّض لنا بأن نقول للأمير إنه يرسل له شيئًا، ثم لما أرسله له أظهر الزهد والعفة وكذبنا عند الأمير؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون الأمير سأله الصحبة، فأراد الشيخ امتحانه بذلك قبل أن يدخل في صحبته، لينظر هل يقف عند إشارة الشيخ أو عند إشارة نفسه، إذ الفقراء أعزُّ نَفْسًا من الملوك، فمن لم يدخل تحت طاعة الفقراء لا يصحبوه. ولا ينبغي حمل الشيخ علىٰ خفة العقل ولا علىٰ أنه يلعب بالأمير، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٢) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يدعي كراهة الرياء والنفاق [ثم يقع في الرياء][3] ويتبعه الناس علىٰ ذلك، وأن ذلك لا يقع منه باختياره، وإنما الجبر الإلهي يوقعه فيه، فلاث به الحذَّاق من الفقراء الصادقين وقالوا له: هذه حجة لا تنهض عند الله

---

(١) سقط من «ب».

(٢) سقط من «ب».

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

تعالىٰ؛ لأنه ما كلَّفك إلا بما لك فيه قدرة مما هو مقرَّر في كتب الشريعة. ثم بتقدير أنك مجبور، فلم لا دفعت الناس عن اتباعك علىٰ الرياء، فإن الصادق من شرطه أن يدفع الآفات عنه[١] بصدقه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا المدعي، لاحتمال أن يكون صادقًا في كراهته للرياء. ولا يلزم من كونه صادقًا أن يدفع غيره عن اتباعه، فهو كاره وقوع الرياء من نفسه ومن غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. فاعلم ذلك، واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعاه الباشاه إلىٰ الحضور عنده مع العلماء والفقراء لغرض من الأغراض، فحضروا كلهم وتخلف هو من دون الناس، وقال: لا أحبُّ أن أحضر مع أحد من هؤلاء عند الباشاه، ولا أحضر إلا وحدي؛ فلاث به الأقران وقالوا: ما تخلَّف فلان إلا لكونه لا يطلع له طالعة مع الأكابر الذين يحضرون، فخاف إن حضر أن لا يظهر له مقام، أو أحب أن يتميز عن علماء البلد بقول الناس: ما بقىٰ في البلد أحد يكره التردد إلىٰ الولاة غير فلان، أو أنه ترك الحضور مع الناس لئلا يطلع أحد علىٰ الدراهم التي يعطيها له الباشاه، فيقول الناس: إنه غير ورع ونحو ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون بمعزل عما قاله الناس كلهم فيه، كأن يكون إنما تخلَّف عن الحضور مع[٢] العلماء لينصح الباشاه سرًّا بينه وبينه، فإن تعالىٰ قد أخذ العهد علىٰ العلماء بنصح ولاتهم. ومعلوم أن نصح الرعية لإمامهم في الملأ لا يقدر عليه كلُّ أمير، لقيام نفسه غالبًا، وإظهارًا لناموس الملك أمام[٣] العوام. وربما كان في الحاضرين أحد يتلمح من الباشاه أن يعطيه شيئًا من الدنيا،

---

(١) كذا بالأصل، ولعلها: عن غيره.

(٢) بالأصلين: عن.

(٣) بالأصلين: بإظهار.

فيأخذ في معارضة الشيخ حين ينصح الأمير، ويجيب عن الأمير ويصفه بالعدل وعدم الجور، فيحصل اللغط والغوغاء، بخلاف ما إذا حضر الشيخ وحده، فإنما يمد باعه في الأمير، ويبالغ في نصحه بحسن سياسة ولطف، ويوفي بالعهد الذي أخذه الله تعالىٰ علىٰ العلماء.

وقد دعاني الباشاه إسكندر بمصر في سنة ست وستين وتسعمئة للحضور مع العلماء في القلعة، فقلتُ: سمعًا وطاعة؛ فلما تخلفتُ أرسل لي الجاويش مرة ثانية، فقلتُ له: قل للباشاه: قال لكم: سمعًا وطاعة، ولكن لا يحضر عندكم إلا وحده، فإني أخاف أن أداهن الباشاه بحضرة الناس خوفًا أن أخجله، فيتبعني الناس علىٰ ذلك، ويصير إثمه في عنقي. فقال لي الجاويش: هذا ليس بعذر. فقلتُ له: أخاف أن ينظر أحد إلىٰ الفتيح الذي يعطيه لي، وأنا لا أحبُّ أن يعلم أحد بأني أخذتُ مالًا من أحد من الولاة. فقال: يعطيك الفتيح بجنب لا يعلم به أحد. فقلتُ له: إني لا أرضىٰ بأن يعطيني مثل ما يعطي الناس. فقال لي: أنت طماع! خذ مثل إخوانك! فقلتُ له: إني أخاف إذا أعطاني الباشاة مالًا أكثر من أصحابي أن يأخذوه مني قهرًا في الطريق. فقال: نحن نشيعك به إلىٰ الزاوية. فلما رأيتُ الحثَّ عليَّ في الحضور، وتخلُّفَ جماعة عن الحضور إن لم أحضر، أرسلتُ للأمير حمزة أمير الحاج أن يأخذ لي الإذن من الباشاه لأحضر إجابةً لامتثال ولي الأمر، فحضرتُ ونصحتُه بما قدرتُ عليه، والحمد لله رب العالمين.

وأرسل لي الباشاة المذكور مرةً أخرىٰ أن أحضر مع العلماء لما كثر لوث العامة به في مصر، وشكوا من كثرة غلاء الأسعار، وطلب من العلماء أن يكتبوا له محضرًا بالعدل والرخاء، فقلتُ للجاويش: سمعًا وطاعة، وعزمتُ أني لا أحضر خوفًا أن أزلق في الكتابة، فيتبعني الناس علىٰ ذلك، مع أني لم أخالطه ولم أعامله، فتكون كشهادة الزور، ثم أرسلتُ ورقةً إلىٰ الأخ العزيز الأمير إبراهيم الدفتردار مضمونها أن مولانا الباشاه أرسل إلىٰ العبد ليحضر مع العلماء في القلعة، والمسؤول أن تقبلوا من العبد

قراءة ختم ويهديه في صحائفكم إن رددتُموه عني، فإني لا أنا صالح عند نفسي حتىٰ يتبرك بي، وبتقدير أني صالح ويتبرك بي، فليس من الأدب أن يدعوني إلىٰ داره بغير عذر حتىٰ يتبرك بي. وأيضًا فإن كان يدعوني في الأكل من طعامه فلستُ جيعانًا، وإن كان يدعوني ليعطيني مالًا، فلستُ بمحتاج لماله، وإن كان ليستشيرني في أمر، فأنا أعلم أنه لا يعمل بإشارتي، وإن كان لأكتب له في المحضر بأنه عادل عفيف عن أموال رعيته، فلم أخالطه حتىٰ أعرف ذلك، إنما يعرف ذلك العمَّال الذين تحت يده. انتهىٰ. فلما وصلت إليه الورقة قال: هذا نَفَس صالح، وشكرني علىٰ ذلك.

وأما ما كان من العلماء الذين حضروا، ففرَّق علىٰ كلٍّ واحد أربعة دنانير، وقاسوا من العامة ما لا خير فيه من باب زويلة إلىٰ القلعة، وقالوا للعلماء: نطالبكم بهذه الشهادة بين يدي الله! فلم يكتب له أحد من العلماء في المحضر، فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والدخول في أمور الولاة إلا إن كنت علىٰ الحقِّ، وعلمتَ أن لك حالًا يحميك منهم، وذلك بأن تكون زاهدًا في الدنيا، حرًّا عن رق شهواتها، فإن الولاة إنما حكَّمهم الله في مادة الدنيا فقط، ومن زهد في الدنيا، فلا يقدر أحد من الولاة يتصرف فيه بضرب ولا حبس ولا غير ذلك من وجوه الأذىٰ ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١٣٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لكلِّ من دخل له زائرًا: إن كنتَ تزورني لا تزر فلانًا، فإنه عدوي؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا من أكبر علامات الحسد والعداوة، فكيف يدعي هذا الصلاح والاستقامة ويرىٰ نفسه تستحق الزيارة دون غيره؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون الباعث به علىٰ منع الناس من زيارة فلان خوفه عليه من الاشتغال بالزائرين عن الله تعالىٰ، ووقوعه في العجب بنفسه، كما هو الغالب علىٰ الفقراء من أمثالنا في هذا الزمان. ولا ينبغي حمل هذا الشيخ علىٰ الحسد والعداوة، لأن ذلك بعيد من مقام الأشياخ. وقد يكون هذا

الشيخ قديم الهجرة في الطريق، ويرىٰ الشيخ الذي ظهر في عصره كاليتيم في حجر وليِّه، فهو يخاف عليه أن يلعب به الشيطان، وقد كان الجنيد ﷺ يقول: قد كنَّا نعهد الفقراء يلعبون بالشيطان كالأُكْرَةُ(١)، فصار الشيطان يلعب بالفقراء. انتهىٰ، فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي الصلاح والكرم باللسان أو بالقرائن، ثم لا يراه الناس يطعم فقيرًا ولا ضيفًا نزل به لقمة، ولاث به الناس وقالوا: هذا أمر ينافي الصلاح، فما أجبل الله وليًّا من أوليائه إلا علىٰ السخاء وحسن الخلق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل عدم إطعامه الطعام في هذا الزمان، لاحتمال أن يكون لا يجد شيئًا من الحلال يطعم منه الناس، ويقول: يكفي أني آكل من هذا الطعام، وأتحمل الإثم بسببه، فلا أضيف إلىٰ نفسي أمرًا آخر أُحاسَب عليه، فيكون لهم المهنأة بأكلهم وعليَّ الحساب -وهذا من باب «السلامة مقدَّمة علىٰ الغنيمة»- وإن ترك الضيافة من طعام الشبهة مثلًا أرجح في ميزاني من أجر الضيافة من الشبهات.

وقد يكون هذا الشيخ الذي لا يطعِم الناس شيئًا ممن اعتنىٰ الله تعالىٰ به، وحفظ عليه مقام العبودية، فلم يجعل لأحد علىٰ يديه رزقًا، حفظًا له من أن يرىٰ له فضلًا علىٰ أحد من عباد الله، فينقص من مقام عبوديته. وقد يعطيه الله تعالىٰ مع ذلك ثواب من عال الناس كلِّهم بالنية الصالحة، فلا ينقص له مال، كما عليه أكابر الأولياء، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ الفقراء معه إلىٰ بيوت الأمراء ويسألهم للفقراء شيئًا من القمح أو الأرز أو العدس أو العسل ونحو ذلك، فإذا أعطاه ذلك الأمير ما طلبه للفقراء، اختص به أو فرَّقه وفاضل بين الفقراء باختياره، فلاث به

---

(١) الأُكْرَةُ: الكرة.

الفقراء وقالوا له: كيف تأخذ شيئًا علىٰ اسم الفقراء وتتصرف فيه تصرف الملَّاك؟! ما هذا إلا قلة دين!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد الفحص عن أمره. فقد يكون السؤال وقع من الشيخ علىٰ اسم الفقراء فلم يجبه الأمير إلىٰ ذلك، وإنما قال له: أنا لا أعرف حال هؤلاء الفقراء، وما أعطي إلا لك، فافعل في ذلك ما شئتَ. فما فرَّق هذا الشيخ واختص إلا بما هو له وحده دون الفقراء، فلا اعتراض عليه. وهذا الأمر يقع للفقراء كثيرًا، فيكرم الناس فقراءهم بالهدايا وغيرها ما داموا تحت نظرهم، فإذا خرجوا عن طاعتهم، فلا تسمح نفوسهم لهم بشيء، وإن كانت العلة مركبة من الشيخ والفقراء.

وقد وقع لي ذلك كثيرًا مع الولاة، فيهدون للزاوية شيئًا علىٰ اسم الفقراء، ولا يذكرون لي اسمًا أدبًا معي. ثم إذا رددتُه عليهم، أخذوه ولم يعطوا الفقراء من ذلك شيئًا، منهم الأمير خضر أمير الحاج، والشيخ عيسىٰ شيخ عرب البحيرة وغيرهما. فليحذر[1] فقراء الزاوية من الاعتراض علىٰ شيخهم كما عليه طائفة المستحقين في زاوية الشيخ، فإن ذلك سوء أدب، وليتربصوا في الإنكار علىٰ الشيخ حتىٰ يجتمعوا بذلك الشخص الذي أحسن إليهم ويسألوه عن حقيقة الأمر، فإذا قال: أنا ما أرسلتُه إلا لكم، فلهم الاعتراض حينئذٍ علىٰ الشيخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يترك زيارة إخوانه ويتعلل بعدم وجود شيء يأخذه في يده لهم هدية إما مطلقًا، وإما من جهة الحل، فهو يتربص عن زيارتهم حتىٰ يجد شيئًا حلالًا يزورهم به، فلاث به أصحاب أقرانه وقالوا: هذا الأمر ليس بحجة في عدم الزيارة، ومن هو الذي يطلب من هذا شيئًا؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به لانقطاعه عن زيارتهم حتىٰ يجد هدية من حلال، لاحتمال أن يكون صادقًا في ذلك، كما عليه أهل المروءات. وكان علىٰ هذا القدم الشيخ

---

(١) بالأصلين: فليزم. والصواب ما أثبتناه.

أحمد الكعكي[١] والشيخ عبد القادر الظاهري[٢] كانا لا يزوران أحدًا من إخوانهما إلا بشيء يهديانه إليه من ملبس أو مأكل أو غير ذلك، فاعلم ذلك، واحمل إخوانك على المحامل الحسنة حسب الطاقة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر المجاورين عنده بالاجتماع على السماط، فيأكلون مع بعضهم بعضًا، ولا يتركون ذلك تكبرًا، [ولا يأكل هو معهم][٣] فلاثوا به وقالوا: كيف يأمرنا الشيخ بالأكل ولا يأكل هو معنا، فلو أنه جلس معنا لكان أولى له، وكان يعلمنا الأدب في الأكل، ويخرج عن التميز عنا، كما درج عليه السلف الصالح.

والجواب: أن الأشياخ مجتهدون في الأمور، فربما علموا من حضورهم مع الفقراء انحصارًا وضيقًا لصدورهم وخجلًا من الشيخ، كما هو الغالب على المريدين. وربما كان عدم حضور الشيخ أنفع للفقراء من حيثُ إن مقامه أنه يعزم على كلِّ من مرَّ عليه، فربما كثروا فأكلوا غداء الفقراء أو عشاهم، وضروا بحالهم[٤]. وقد يكون الشيخ طاويًا تلك الأيام، وقد يكون ذلك الطعام الذي يأكل منه المجاورون لا يليق بمقام الشيخ أن يأكل منه لعلة تقدح في حلِّه بالنظر لمقامه هو دون المجاورين. وربما خاف على المريدين إذا خالطهم من استهانة [به] في عيونهم، لاسيما إن داعبهم ومزح مع بعضهم. وأيضًا فإن الأشياخ قد خرجوا عن الكبرياء والعظمة في نفوسهم حتى صاروا يرون

---

(١) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ الصالح العابد الزاهد العارف بالله تعالى الشيخ أحمد الكعكي ﷺ كان يتكلم في مشكلات التوحيد بلسان غريب لا يكاد يفهمه أكابر العلماء فضلًا عن غيرهم. وكان ورده في اليوم والليلة أربعين ألف صلاة على النبي ﷺ واثنا عشر ألف تسبيحة، ويقول: إن ذلك كان ورد أبي هريرة ﷺ. مات رحمه الله خامس عشر رجب سنة اثنين وخمسين وتسعمئة، ودُفن في زاوية شيخه ببيلاق سيدي حسين أبي علي. انظر: «الطبقات الوسطى» للإمام الشعراني الترجمة (٤٢٦) طبعة دار الإحسان.

(٢) ذكر الشيخ المناوي في «الكواكب الدرية» (٣/ ٣٥٣) في ترجمة الشيخ بركات الخياط أن الشيخ عبد القادر الظاهري دفن معه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) بالأصلين: بحاله. والصواب ما أثبتناه.

نفوسهم من أحقر الخلق، ويتشرفون بالأكل مع الفقراء بخلاف المريدين، وربما تركوا الجلوس مع العميان على الأكل تكبرًا خوفًا أن يزدريهم أبناء الدنيا الذي يجالسونهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير الذي يسافر الحجاز، ثم يسأل ناظر السحابة[1] في شيء من الزاد وفي الركوب له أو لجماعته مثلاً فيمنعه، فيقول له: لا بد أني أرافع فيك للحكَّام، وأكتبُ فيك محضرًا بأنك أكلتَ ما في السحابة، وتصرَّفتَ فيه بغير شرط الواقف؛ فيعطيه ما طلب، أو يركبه خوفًا من شرِّه، فيلوث الناس بذلك الشيخ أو العالم ويقولون: إذا كان المشايخ والعلماء صاروا لا يأخذون شيئًا من الصدقات إلا بالمرافعة في الناس والأذى لهم، فما بقي أحدنا يلام على مثل ذلك!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ بقوله المذكور لناظر السحابة، لأنه ربما رآه يتصرف فيها بغير غرض صاحبها، فيمنع الفقراء العاجزين الذين لا لسان لهم ولا يد، ويعطي ويُركِب من يعطيه أجرة الركوب أو يشكره بالباطل بين الولاة وغيرهم. وأيضًا فإن الشيخ أو العالم ربما يكون أتم نظرًا من ذلك الناظر، فأراد أن يجري الثواب الجزيل لذلك الواقف أكثر مما يفعل ذلك الناظر. وأما تخويفه بشهادته فيه عند الحكام ومرافعته فيه عندهم، فيُحمَل على أنه قول بلا فعل حتى ينقاد له فقط.

وقد رأيتُ من فعل مثل ذلك من العلماء مع ناظر السحابة حين رآه يُرْكِب الأروام في السحابة بفلوس ويمنع الفقراء والمساكين، فجزاه الله تعالى خيرًا. فإياك يا أخي والمبادرة إلى الإنكار على العلماء والمشايخ إلا بعد الفحص الشديد عن مرادهم بما فعلوه أو قالوه، فإنهم أعرف بأمور الشريعة، وأخوف لله تعالى منك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للخياط: خِطْ لي هذه الجبَّة خياطةً

---

(١) ناظر السحابة: المسؤول عن المياه والأطعمة المحمولة على الإبل والمعدة لشرب وأكل الحجاج في ذهابهم وإيابهم.

مليحةً، ونبتها لي؛ فلاث به بعض الفقراء وقالوا: من شرط الفقراء أن يكون أحدهم قصير الأمل كما درج عليه السلف الصالح، حتىٰ إن بعضهم كان ثوبه أو نعله يتفتق فلا يخيطه، ويقولون: الموت أقرب من ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير بذلك، فربما كان أقصر الناس أملًا، وإنما أراد بذلك ستر حاله بين الفقراء حتىٰ لا يمدحوه علىٰ قصر الأمل، أو يكون يعلم من نفسه منازعتها له في خياطة كلِّ شيء انفتق، فأراد بتنبيت الخياطة سد باب منازعة النفس، وأراد أنها تقبل علىٰ عبادة ربِّها من غير التفات إلىٰ ما[1] [انفتق][2]، كما قالوا في الطعام والشراب إذا تاقت نفس العبد إليه وأراد الصلاة[3]، فاعلم ذلك، واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣١) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يعتقد في المجاذيب ويعطيهم المال فيرمونه في التراب أو البحر أو غير ذلك من وجوه الإتلافات وينكر الناس عليه ذلك، فلا يلتفت إليهم، بل يزيد في الإعطاء للمجاذيب كل ما طلبوه منه، فلاث به المتشرِّعون وقالوا له: هذا حرام عليك لما فيه من إتلاف المال لغير غرض شرعيٍّ.

والجواب عن هذا العالم: أنه ربما كان يعتقد في ذلك المجذوب أنه من أهل الكشف، فكُشِفَ له أن ذلك المال ليس هو من رزق ذلك العالم، وإنما هو رزق شخص آخر، فرماه في البئر أو البحر مثلًا، وصار يحفظه بالقلب عن أن يصل إليه أحد غير صاحبه الذي قسم الله له ذلك الرزق. وربما كُشِفَ له أن ذلك المال أو الطعام حرام، ولم يطلعه الله علىٰ صاحبه الأصلي، فأراد حرمان ذلك العالم من أكله ودخوله في تبعته في الدنيا والآخرة، وصار يحفظه بالقلب إلىٰ أن يقع في يد من يستحقه من أصحاب الضرورات.

---

(١) بالأصلين: نار. والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٧٢) من حديث أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ قال: إذا قُدِّمَ العَشَاءُ، فابدءوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب، ولا تعجلوا عن عشائكم» ومسلم (٥٥٧).

وقد وقع أن سيدي الشيخ فرجًا المجذوب[١] أخذ من رجل دينارًا في بحر النيل ورماه في البحر، فابتلعته سمكة، فأخذها شخص ليأكلها، فوجد الدينار في بطنها فأخذه، ثم إنه لقي الشيخ فرج فقال: يا سيدي، إن فلانًا أخذ مني دينارًا ظلمًا، فقال: قد أخذتُه لك منه، ورميتُه في البحر، فابتلعته سمكة لتحفظه لك. فقال: يا سيدي، قد وقع ذلك لي البارحة وأخذته من بطنها! فقال: قد رددنا لك حقَّك، وخلصنا غريمك من الحساب يوم القيامة. انتهى. فاعلم ذلك، واحمل العلماء على المحامل الحسنة، فإنهم أعلم منك بأحكام الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نقل لشيخ آخر كلامًا ظاهره أنه نميمة، كقوله: إن فلانًا قد تكرر منه الوقوع في عِرْضِك في المجالس؛ فقام الشيخ المنقول له الكلام وقعد وتغير وظهر منه التكدر والغيظ، فلاث الفقراء بهذين الشيخين وقالوا عن الشيخ الناقل إنه نمام، وعن الشيخ الثاني إنه غير صادق في الطريق، ولو أنه كان صادقًا لدفع عنه النمام بالقلب وطهَّر حضرته من سماع الغيبة والنميمة.

والجواب: أنه قصد بإعلام الشيخ بأن فلانًا يقع في عِرْضِك أنه يستغفر له ويصفح عنه، ويسأل الله تعالى أن يتوب عليه، ولم يقصد بذلك إفساد ما بين الشيخ وبين ذلك الشخص المنقول عنه أنه يقع في عرضه. ومعلوم أن الأحكام تدور مع العلل غالبًا، وهذا منها، لاسيما إن كان الشيخ الناقل يعلم من الشيخ المنقول إليه الكلام أنه ثابت القدم في معرفة الله عزَّ وجلَّ قد زالت رعونات نفسه، واتسعت أخلاقه، فصار يحتمل الأذى من الثقلين لو قاموا عليه بالأذى في صعيد واحد وراثةً محمديةً.

فإن قال قائل: إن الجزء البشري يَدِقُّ في الأولياء ولا ينقطع، فكان الأولى للشيخ الناقل أن لا ينقل للشيخ الثاني شيئًا من ذلك، لاحتمال أن يصادف قيام بشرية ذلك الشيخ

---

(١) فرج المجذوب كان له كشف وكرامات، وكان يجمع الدراهم من الناس، ويفرقها على المحاويج، ثم يبيت لا يملك شيئًا ليله، انقطع آخر عمره في البيمارستان، وله كرامات، ودفن عند الشيخ شهاب الدين المجذوب بباب الشعرية. «الطبقات الكبرى» للشعراني (٢/ ٧٣٣)، «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٣٥).

من حيثُ الجزءُ البشريُّ الذي فيه، ودرء المفاسد مقدَّم علىٰ جلب المصالح؛ **فالجواب**: قد قلنا: إن هذا الشيخ ما نقل ذلك إلا لوثوقه بثبات ذلك الشيخ في معرفة الله تعالىٰ وبعد زوال الرعونات البشرية منه، فكان ذلك الباقي ضعيفًا لا يكاد يظهر به تأثر من ذلك العدو، فكان ملحقًا بالعدم لضعفه وقلته. وقد يكون الشيخ الناقل ما نقل ذلك إلا وهو ماسك قلب المنقول إليه عن التغير، أو بعد أن توجه إلىٰ الله تعالىٰ أن يَعقِل قلبه عن ملاحظة تنقيص ذلك العدو [له جملة، حتىٰ كأنه لم يبلغه عنه شيء من الكلام أصلًا][1].

[وأما الجواب عن الشيخ الثاني][2] في تكدره وتغيره، فيحمل علىٰ أنه ما تكدَّر لحظ نفسه، وإنما تكدر خوفًا علىٰ دين ذلك المقراض أن ينقص بسببه هو، من حيثُ إنه لولا وجوده ما كان يجد من يقع في عرضه، فهكذا فليُحمَل كلام الأشياخ وأحوالهم.

وقد حكىٰ لي شيخي الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري أن امرأة من البغايا جاءت إلىٰ الشيخ أبي بكر الحديدي[3] في الأبطح والحج نازل بمكة، فقالت له: تبغي؟ فقال لها: تبغي أيش؟! فقالت: ما يطلبه الرجال من النساء! فقال: في مكة؟! فقالت: نعم، لأنها بلد المغفرة! فقال لها: اذهبي إلىٰ ذلك الرجل. فأرسلها للشيخ محمد بن عنان وهو جالس في الخيمة. فقالت له: تبغي؟ فقال: تبغي أيش؟! فذكرت له، فرماها بالحصىٰ، ثم قام وجرىٰ وراءها بالعصا، فقال: من أرسل هذه لي؟ فقالوا: الشيخ أبو بكر. فضحك القوم كلُّهم وكانوا نحو ثلاثة عشر وليًّا، منهم: سيدي أبو العباس الغمري، والشيخ محمد المُنيِّر، والشيخ علي بن الجمال[4]، والشيخ محمد السروري، والشيخ

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) أبو بكر الحديدي، أخذ الطريق عن سيدي أحد بن مصلح المنزلاوي، ورافق الشيخ محمد المنير في الحج أربعين سنة، كان يغلب عليه البسط والانشراح، ومع ذلك شديد الحرص علىٰ السنة لا يسامح أحداً في شيء من أدائها، توفي بالمدينة المنورة سنة ٩٢٥هـ. «الكواكب السائرة» (١/ ١٢٠).

(٤) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ الصالح سيدي علي بن الجمال النبتيتي ﷺ رأيته وأنا صغير،

محمد بن داود، وقالوا كلُّهم للشيخ محمد بن عنان: إنما أرسلناها لك لتدعو لها وتنظر إليها نظرة، فلعل الله يتوب عليها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي مات شيخه وجلس للمشيخة بعده، وصار يقول لجماعة شيخه: لو عاش شيخي ورأىٰ مقامي اليوم لكان أخذ عني الطريق؛ فلاث به جماعة شيخه وقالوا له: هذا سوء أدب منك في حقِّ شيخك، وبتقدير وجود مدد معك، فأصله من مدد الشيخ رحمه الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ من أجل هذا القول، لاحتمال أن تعظيم شيخه قائم في قلبه، وإنما قصد بذلك عدم تعلق قلوبهم بشيخهم، ليتعلقوا به فيرقيهم في مقامات الطريق التي استفادها من شيخهم، أو التي كان شيخهم عازمًا علىٰ ترقيهم إليها، ولكن اخترمتُه المنية، فقصد هذا الشيخ بتَلمَذتهم له أن يرقيهم بحكم النيابة عن شيخه، ويجعل ثواب ذلك في صحيفة شيخه، كما وقع لي ذلك مع بعض جماعة شيخي الشيخ محمد الشناوي. فلا يجوز حمل هذا المدَّعي علىٰ أنه قصد بتلك الدعوىٰ الازدراء بمقام شيخه، حاشا الأخ عن مثل ذلك.

ويُحتمَل أن هذا الشيخ ترقىٰ عن مقام شيخه، فقال: «لو رآني شيخي وأنا في هذا المقام لأخذ عني» كلامًا صحيحًا ودعوىٰ صادقة، فكأنه يحكي للناس تواضع شيخه، وزوال الرعونات النفسية منه، وأنه دائر مع الفوائد حيث دارت، فيأخذ عن مريده إذا رأىٰ الحقَّ تعالىٰ أفاض عليه من جوده ما لم يفضه علىٰ نفسه هو، كما يصل الإنسان إلىٰ مقام يصير يأخذ العلم والمعارف عن نفسه، مع أن تلك المعارف كانت فيه ولا يشعر، فلما ظهرت من نفسه تلقاها عنها، فكذلك يكون حكم المريد للشيخ أن يأخذ عنه، وإن كان ذلك المدد الذي مع المريد أصله مفاض من الشيخ، فافهم. وقد وقع مثل ذلك

وكان رجلًا مهيبًا، دعا لي بدعوات وجدت بركتها. وكان سيدي أبو العباس الغمري يجله ويعظمه ويصفه بالرجولية. توفي سنة نيف وتسعمئة، ودُفن ببلده نبتيت، ﷺ. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٣٨٦) طبعة دار الإحسان.

لسيدي يوسف العجمي، فإنه أخذ عن بعض تلامذته لما علاه في المقام ﷺ. فاعلم ذلك فإنه نفيس، وانتحل للأشياخ الأجوبة الحسنة ما أمكن، وإن لم تجد لهم جوابًا يليق بهم فأمسك[١]، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أتاه مريد يطلب الطريق إلىٰ الله تعالىٰ بعد موت شيخه، فعبس في وجهه وصاح به: اخرج يا منافق من مجلسي! فلاث به الفقراء وقالوا: طريق الأشياخ إنما هو تأليف الناس علىٰ الطريق لا تنفيرهم عنها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه رأىٰ عند هذا المريد استهانةً بالطريق، فأراد أن يعرف مقدار محبته لها، ليدخل إليها بهمَّة وصدق، وقلب الشيخ ماسك قلبه عن النفرة عنها، فصار يزجره بلسانه فقط وهو ماسك قلبه، ليريه عزَّة الطريق. ويُحتمَل أنه أراد أن يهدم بذلك ما عنده من تعلق القلب بشيخه الذي مات ليبني له بناءً جديدًا، فإن **الأشياخ مجتهدون في الطريق، فلا يبني شيخ علىٰ بناء شيخ آخر، وإن كانت الشريعة تجمعهم**، فاعلم ذلك فإنه نفيس.

ولم أزل أفعله مع أصحاب الأشياخ الذين ماتوا إذا اجتمعوا عليَّ بعد موت أشياخهم. وكثيرًا ما يأتيني أحدهم يسألني في حاجة، فأجد قلبه متعلِّقًا بشيخه الذي مات، فأرسله إلىٰ قبره وأقول له: توجه إلىٰ شيخك، واسأله في حاجتك، فإنه يقضيها لك إن شاء الله تعالىٰ. فإذا سأله ولم يرَ إجابة، فهناك يأتيني بقلب إن شاء الله تعالىٰ، فأقضي حاجته إن كانت متعلِّقة علىٰ توجهي له، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان بجواره مُنكَر وهو يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في إزالته فلم يزُل، فجاء شيخ آخر سكن في الحارة، فتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في ذلك المنكر، فأزاله في أول ليلة، فقال الناس: هذا هو الشيخ الصادق! ولاثوا بالشيخ الأول وقالوا: كم له يوم وهو يتوجه في إزالة هذا المنكر فلم يزُل! ما ذلك إلا لعدم الصدق.

---

(١) في «أ»: فاسكت.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالشيخ الأول؛ لاحتمال أن يكون صدقَ في التوجه، ولكن لم يكن جاء وقت انقضاء ذلك المنكر، فلما توجه الشيخ الثاني في إزالته، صادف انقضاء وقته، ولو أنه كان توجه الآخر إلىٰ الله تعالىٰ في إزالته قبل أن ينقضي زمنه، لم يُجَب إلىٰ سؤاله، نظير ما قررناه مرارًا في زوال المرض بسؤال بعض الفقراء، وبطب بعض الأطباء، فيدعو الفقير ويطب الطبيب ذلك المريض، فلا يجد المريض شفاءً، فيأتي فقير آخر أو طبيب آخر، فيدعو أو يطب، فيصادف انقضاء المرض، فيقول الناس: هذا هو الشيخ الصادق، أو هذا هو الطبيب العارف، والحال أن العلَّة فيه إنما هي مصادفته انقضاء المرض.

وكثيرًا ما يكون ذلك المرض مبرَمًا، فلا يُجاب أحد إلىٰ زواله. [وكذلك الحال في المنكر][1] فمن الأولياء من يعرف كونه مبرَمًا، فلا يسأل فيه ويغلب عليه التسليم فيسكت، فيقول الناس: ما بقي أحد يأمر بمعروف ولا ينهىٰ عن منكر! والحال أن ذلك الولي إنما سكتَ أدبًا مع الله تعالىٰ حيث لم يترتب علىٰ سكوته مفسدة، وإلا أنكر خوفًا أن يتجرأ أحد علىٰ فعل ذلك المنكر ثانيًا. ومن الأولياء من لم يطلعه الله تعالىٰ علىٰ كونه مبرَمًا ويظن أنه معلَّق، فينكر ذلك المنكر، ولا يقدر علىٰ إزالته، فيلوث به الناس ويقولون: لو كان صادقًا لأزاله! فاعلم ذلك، **والزم الأدب مع أشياخ عصرك**.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: ربما كان مطمح بصر الشيخين ألواح المحو والإثبات، فنَظَرَ أحدُهما إلىٰ الإثبات فظنَّ أنه مبرَم، والحال أنه يدخله المحو، فلما توجه الشيخ الثاني صادف محو ذلك المنكر، فكان السبب في إزالته انقضاء زمن المنكر لا توجه الشيخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعرف معاني جميع القرآن والسنة؛ فلاث به العلماء وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة ما سمعنا بمثلها عن أبي بكر الصديق، فضلًا عن غيره.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن للقرآن بطنًا وظهرًا، فالبطن ما اختص الله تعالىٰ بعلمه، والظهر ما ظهر للخلق، فما أنزل الله تعالىٰ كتابه إلا وهو يريد من عباده أن يفهموا جميع معانيه الظاهرة. ويجوز أن يجمع الله تلك المعاني كلَّها في واحد من الخلق بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، ولعل هذا الشيخ منهم، فلا ينبغي [الإنكار][1] عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٧) ومما أجبتُ به عن الميت من الأشياخ الذي جاء إلىٰ بعض إخوانه في المنام وقال: إني متشوش منك لعدم قيامك لي في الوقت الفلاني لما قدمتُ عليك؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا يدل علىٰ أنه مات وهو متضمخ بالرعونات النفسية لم يتب منها.

والجواب: أنه لا ينبغي حمله علىٰ أنه مات علىٰ شيء من رعونات النفوس، وإنما ينبغي حمل ذلك علىٰ أنه تأديب للرائي، ليصير يراعي مراتب الناس، ولا يخل بترك القيام لمن يستحق القيام بطريقه الشرعيِّ.

ومما وقع لي أنني رأيتُ الشيخ نور الدين الشوني في المنام بعد موته، فقال لي ﵁: علمني هذه الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ. فقلتُ له: وما هي؟ فقال: «اللهم اجعل أفضل صلواتك أمدًا، وأنمىٰ بركاتك سرمدًا، وأزكىٰ تحياتك فضلًا وعددًا... إلىٰ آخرها» فإني رأيتُها تعدل كلَّ مرة منها عشرة آلاف صلاة؛ فعلمتُ أنه أراد إرشادي لها، لأصلي بها علىٰ رسول الله ﷺ، لأن الشيخ قد انقطع عمله، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يصلي علىٰ ميت، ثم إذا فرغ من الصلاة عليه قبَّل رجل ذلك الميت، مع أنه ربما كان مشهورًا بالفسق، فلاث به الحاضرون وقالوا: هذه بدعة ما بلغنا أن أحدًا من السلف فعلها. وأما تقبيل أبي بكر الصديق ﵁ جبين رسول الله ﷺ[2] فلا يُقاس عليه.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٧٠٩) من حديث ابن عباس، وعائشة: «أن أبا بكر ﵁ قبَّل

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه لحظ من أحد من الحاضرين ازدراءً لذلك الميت، فطلب إزالته بإظهار تعظيمه وتقبيل رجله، وأن يفتح لهم باب التنصل من تبعته، لوقوعهم في عرضه يومًا من الدهر، أو فتح باب الاعتقاد فيه، لاسيما بتقبيل شيخ معتقَد في الطريق، حتىٰ ربما يتوهم أنه لولا علو مقام ذلك الميت علىٰ مقام الشيخ ما قبَّل رجله. وأيضًا ربما غفر الله تعالىٰ لذلك الميت باحتقار الناس له كما ورد[1]، وجعله شفيعًا في كلِّ من صلَّىٰ عليه، فكان تقبيل رجله بحضرة من لا يعتقده كالمذكِّر له يوم القيامة، ليشفع فينا عند ربه.

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك لما صُلِّي علىٰ الشيخ عليّ العراقي علىٰ باب جامع الأزهر، فإني سمعتُ بعضهم يقول: لو كان هذا صالحًا، ما سافر إلىٰ بلاد الروم بطلب زيادة الدنيا. فقلتُ للمنكِر: لا اعتراض علىٰ الأشياخ في سفرهم لطلب أرزاقهم التي جعلها الله تعالىٰ متوقفة علىٰ السفر، فيسافر أحدهم في طلب الدنيا وقلبه فارغ من محبتها. ثم لما قبَّلتُ رجله وهو في النعش عظُم في عين الحاضرين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يمرض صاحبه فلا يعوده، ويرسل له أخوه مرارًا أن يعوده فلا يفعل، فلاث به الفقراء وقالوا: عيادة المريض سنة، لاسيما وقد طلب المريض منه ذلك، فصار عليه حقًّا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في ترك عيادة أخيه، لاحتمال أن يكون لحظ من المريض شدَّةَ الميل إلىٰ الخلق، والاعتمادَ عليهم دون الله تعالىٰ، فطلب الشيخ بعدم عيادته نفرةَ نفس المريض من إخوانه، لينفر منهم ويعتمد في جميع أموره علىٰ الله تعالىٰ دونهم. وقد قال العارفون: لا ينبغي عيادة مريض رأيناه يميل إلىٰ تردد الناس إليه، فكم

النبي ﷺ وهو ميت»، والنسائي (١٨٣٩).

(١) بوَّب الإمام النووي في رياض الصالحين باب تحريم احتقار المسلمين وذكر تحته حديث جندب ﷺ أن رسول الله ﷺ حدث «أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالىٰ قال: من ذا الذي يتألىٰ علي أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك» أخرجه مسلم (٢٦٢١)، وابن حبان (٥٧١١).

ضيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس! وكم أذهبت من دين! انتهىٰ.

ويُحتمَل أن هذا الشيخ لحظ من المريض أنه ناظر إلىٰ شيء يصرفه في مرضه، فكلُّ من دخل يعوده ينظر هل معه شيء، فأراد هذا الشيخ أن يحصِّل له شيئًا ينفقه في مرضه ثم يحضر به. ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ كُشِفَ له عن كون ذلك المرض عقوبةً أو كفارةً أو رفعَ درجات، فطلب دوام المرض للكفارة ورفع الدرجات، ثم يحضر عنده يدعو له إذا أشرفت العقوبة علىٰ الفراغ، فإن **الشفاعة قبل وقتها لا بقيد وقتها تحجير علىٰ الله وتغيير لما سبق به علمه**، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٠) ومما أجبتُ به عن **الشيخ الذي يكون ينعس في ورده في الليل مثلًا، فيضع إنسان في فم هذا الشيخ قطعة سكر فيستيقظ، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا أمر عجيب يدل علىٰ ضعف داعيته للأعمال الأخروية**، وقوة داعيته إلىٰ شهوات الدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بسبب ذلك، لأن الكامل يُكنىٰ «أبا العيون» فعين يحب بها مناجاة الله تعالىٰ، ولا يحتاج في ذلك إلىٰ رشوة؛ وعين يحب بها الشهوات التي لا يستطيع ردَّ قسمتها له، فلا ينبغي اللوث به، لأنه أعطىٰ الجزء الذي فيه يحب الشهوات الدنيوية حظَّه، فإن الكُمَّل يطالبون بتوفية نفوسهم حظَّها، خوفًا من ظلمها باستعمالها في العبودات والمجاهدات، مع عدم الإحسان إليها بالعلف كالحكم في الدواب، وقد قالوا: تقول النفس لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتُك. انتهىٰ. **فالكامل لا يضره توفية الجزء الذي فيه يحب شهوات الدنيا حقَّه**، بل ذلك عدل منه، فإنه لو أمر ذلك الجزء بالإقبال علىٰ مناجاة الله تعالىٰ كبقية الأجزاء التي في جسده لما قدر، نظير الملل الذي يقع من العبد، ولذلك نهىٰ الشارع عن الصلاة عند غلبة النوم، لأن النائم لا يصير عنده كمال إقبال علىٰ الله تعالىٰ في مناجاته. وقد قال معروف الكرخي: من أدب العارف أن يبرِّد الماء لنفسه أيام الصيف، ليعطي نفسه حقَّها، بخلاف المريد، لأنه في مقام المجاهدة والمخالفة لأغراض النفوس. وقال العارفون:

إنما سمّىٰ الله تعالىٰ الذي ظلم نفسه مصطفًىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ [فاطر: ٣٢] أي بتحميلها من العبادات ما لا تطيق، تشجيعًا لها وخروجًا عن الميل إلىٰ الكسل والراحات كما هو الغالب علىٰ المريدين. ثم إذا خرج عن الكسل والميل إلىٰ الراحات، فحينئذٍ يُؤمَر بالعدل بين أعضائه وروحه، فيشرب الماء البارد، وينام علىٰ أوطيء الفراش، ويأكل أطيب الطعام، ويلبس ألين الثياب، ويترك الخشونات كلَّها جملةً، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «المنن والأخلاق» وذكرنا فيها أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي كان يأمر خواص أصحابه بالإحسان إلىٰ نفوسهم، بل خرج بوجوب موافقة نفوسهم في شهواتها إذا صارت لا تحب إلا ما يحب الله، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤١) ومما أجبتُ به عن العبد الذي يجد عنده خجلًا من الناس إذا اطلعوا علىٰ زلَّته أعظم من الخجل الذي يحصل له إذا عصىٰ ربه ولم يطلع علىٰ ذلك أحد من الناس، فلاث به الفقراء وقالوا: هذه استهانة بنظر الله إليه، وذلك كبيرة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العبد، لاحتمال أن يكون الباعث علىٰ شدة الخجل من الناس كونهم يهتكونه ويعيرونه، بخلاف ربه فإنه يستره، فلذلك اطمأن بحسن ظنه بربه ولم يشتد خجله منه. وأيضًا فإن الله تعالىٰ هو المقدِّر علىٰ العبد ذلك وخالق لعمله، فربما يغلب علىٰ العبد هذا المشهد، فيخف الأمر عليه، فليس قلة الخجل من الله تعالىٰ استهانةً بنظره تعالىٰ إلىٰ العبد كما قد يتوهم، بل ورد أن الله تعالىٰ إذا أراد إنفاذ قضائه وقدره، سلب ذوي العقول عقولهم(١) الحديث، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعمم عمامته ثم ينظر إليها ويهدها ثم يعممها، ثم يحلها مرارًا، فلاث الناس به وقالوا: إذا كان هذا فعل مشايخ هذا الزمان،

---

(١) تقدم تخريجه.

فما بقي علىٰ أمثالنا لوم في عجبه بثيابه وعمامته، ولكن قد ذهب الفقراء الذين كانوا لا ينظرون إلىٰ ظواهرهم ﷺ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد بذلك تنفير جماعة يحصل له من اعتقادهم فيه سوء، فأراد تنفيرهم عنه بحَلِّ عمامته المرة بعد المرة وأن يقولوا: لو كان هذا فقيرًا صادقًا لم يلتفت إلىٰ ظاهره الذي لا ينظر الله تعالىٰ إليه كما ورد[1]. ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ عرف كيفية عمامة رسول الله ﷺ أو عمامة أحد من الصالحين بطريق صحيحة، فأراد أن يلفها كهيئة السنة، فصار كلما يعمها يجدها مخالفة للسنة حتىٰ رآها وافقت السنة، فاكتفىٰ بها، والله أعلم.

(١٣٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: لا تقيسوا أحدًا علىٰ حالي، ولا تقيسوا حالي علىٰ حال أحد، فإني قد خرجتُ من الدوائر؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد بقوله: «لا تقيسوا أحدًا علىٰ حالي» يعني الناقص «ولا تقيسوا عليَّ أحدًا» كذلك، وعظِّموا مقام الناس ونزِّهوه عن مقامي، فهو تعظيم للناس واحتقار لنفسه. ولا يجوز حمل كلام هذا الشيخ علىٰ تعظيم نفسه واحتقار غيره، كما قد يتبادر إلىٰ الأفهام الضعيفة.

وقد ثبت مثل هذا اللفظ عن السيد عبد القادر الجيلي، كان يقول: «أنا من فوق معلومات الخلق، فلا تقيسوني بأحد، ولا تقيسوا عليَّ أحدًا». انتهىٰ. وإيضاح ذلك أن الله تعالىٰ ما رفع هؤلاء الأولياء فوق مقامات الناس إلا بالتواضع، فكيف يصح في حقِّهم أنهم يتركون التكبر في بداياتهم ويفعلونه في نهاياتهم؟! هذا أبعد من البعيد، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول عن أحد من أقرانه: بعيد أن مثله يقبل

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»، وابن ماجه (٤١٤٣).

الله له عملًا؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا من علامة عداوته لفلان وحسده له.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد أنه بلغ في التوحيد مقامًا صار لا يرىٰ له عملًا مع الله تعالىٰ حتىٰ إن الحق تعالىٰ يتقبله منه، فهو مدح له لا ذم، وإن كان الكمال هو شهود العبد نسبة العمل[1] له من الوجه الذي أضافه الحق تعالىٰ إليه بقوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ونحو ذلك. ويُحتمل أيضًا أن يكون قصد بقوله: «بعيد أن الله يتقبل من فلان عملًا» تنبيهه علىٰ ما عنده من الشحناء من بعض إخوانه، ليبادر إلىٰ التوبة من الشحناء، ويصفي قلبه له، لما ورد أن المشاحن لا يُرفع له إلىٰ السماء عمل[2]، فهو إرشاد له إذا بلغه ذلك الكلام، ليخرج عن صفة الشحناء، من باب الأمر بالمعروف بحسن عبارة لا غيبة فيها ولا حسد، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي له مجلس ذكر في حارة شخص آخر له مجلس ذكر، فقال صاحب المجلس الذي في حارته: اترك مجلسك وتعالَ بجماعتك اذكر معنا حتىٰ نعلمك الإخلاص، وتخرج عن الرياء؛ فلاث به جماعة الشيخ الآخر وقالوا: إن هذا ليس بنصح، وإنما هو من باب الحسد، وعلامة علىٰ ريائه هو، ولو أنه لم يكن عنده حسد ولا رياء ما قال هذا الكلام.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون محقًّا في قوله صادقًا، فأراد لأخيه بلوغ درجة الإخلاص المعروف بين القوم، وإلا فمن المعلوم عندهم أن من شهد في نفسه الإخلاص احتاج إخلاصُه إلىٰ إخلاص.

ولا يلزم من قول الشيخ الآمر لأخيه بأن يذكر معه الحسد ولا العداوة ولا الرياء، لاسيما إن كان الشيخ المأمور من جملة تلامذة الشيخ الآمر، كما يقع ذلك كثيرًا لجماعة

---

(١) في «ب»: العبد. والصواب ما أثبتناه.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٦٥) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيُغفَر لكل عبدٍ لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا» وأبو داود (٤٩١٦).

الأشياخ، فيجعل له مجلس ذكر في حارته في حُجَّة بُعْدِ زاوية الشيخ عنه، ويكون قصده المشيخة بذلك، فأراد شيخه بقوله له: «اترك مجلسك واذكر معنا» تخليصه من الرياء وحظِّ النفس. وبتقدير أن يكون ذلك المريد عمل مجلس الذكر بإذن الشيخ، فللشيخ منعه من ذلك متىٰ أراد، لحدوث علة قادحة في ذلك.

ثم إن قُدِّر أن ذلك التلميذ قال لشيخه: إن تركتَ مجلسك تركتُ أنا الآخر مجلسي؛ فمن الأدب أن يترك الشيخ مجلسه إن كان ذلك طريقًا إلىٰ هداية ذلك المتمشيخ، لحديث: «لأن يهدي الله تعالىٰ بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمُر النعم»[1] أي أن يجعلها في سبيل الله تعالىٰ، ولكن ينبغي للشيخ أن يأمر الجماعة الذين كانوا يحضرون ذلك المجلس بالذكر سرًّا حتىٰ لا يفوتهم مجالسة الله تعالىٰ في ذكره. ثم إذا خلص ذلك المريد من الرياء وأذعن لشيخه، فمن الأدب تجديد الإذن له في اتخاذ مجلس الذكر، كما يرجع الشيخ كذلك إلىٰ مجلسه. وقد فعل بعضهم بهذا الخلق مع مريده لما قال له: إن كنتُ أنا مرائيًا فأنت الآخر كذلك، فاترك أنت الآخر مجلسك حتىٰ تنصلح نيتك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمن يريد صحبته من التجار أو الفقهاء مثلًا: ارم متاعك في البحر، أو أسقط حقَّك من جميع وظائفك، أو طلِّق زوجتك، أو فرِّق جميع مالك علىٰ الفقراء والمساكين، ثم تعالَ. فوافقه ذلك المريد علىٰ ذلك، ولاث به المتشرِّعون وقالوا: هذا فعل حرام لما فيه من إضاعة المال، أو مكروه لكونه نزل عن وظيفته التي منها قوته، أو طلَّق زوجته الموافقة له من غير وقوع ضرر منها أو لتصدقه بما هو محتاج إليه، وقالوا: إنه لم يبلغنا مثل ذلك عن أحد من الصحابة والتابعين، وما نرىٰ وقوع مثل ذلك إلا من شدَّة جهل هذا الشيخ بقواعد الشريعة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد الفحص عن مقامه وحاله، فقد

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٣٦٦١) واللفظ له، والبخاري (٢٩٤٢).

يكون الحقُّ تعالىٰ أعطاه القدرةَ علىٰ ردِّ ذلك المال الذي رماه مريده في البحر أو تصدَّق به، وعلىٰ رجوع تلك الوظائف أو الزوجة، فيأمره بذلك باللسان ويمسكه له بالقلب، فلا يقدر أحد يصل إليه من صيَّاد ولا غيره، ولا يقدر أحد يسعىٰ علىٰ تلك الوظيفة، ولا يتزوج تلك المرأة، حتىٰ يفرغ من زمن الامتحان ثم يرد عليه ماله بتمامه، ووظائفه بكمالها، وزوجته من غير مسيس أحد لها، كما وقع لسيدي يوسف العجمي ولسيدي مدين، ولسيدي محمد الغمري، وأتىٰ كلٌّ منهم بذلك المال من البحر وهو يقطر ماء، ويمد يده من زاويته بمصر إلىٰ بحر النيل، واستخراجها منه من غير مؤنة، فلا اعتراض إلا علىٰ شيخ يعجز عن رد ما خرج عنه مريده من المال وغيره، لما في ذلك من إضاعة المال المنهي عنها، ولما فيه من تلفت القلب إلىٰ تلك الزوجة والمال بعد فراغ الامتحان، حتىٰ لو أن الشيخ قال للمريد: إني أردُّ لك ما خرج منك بعد ذلك، وصدَّقه حرم عليه لبطلان الامتحان.

وقد قالوا: كما لا يُطالب المقلِّد إمامه بدليل علىٰ جواز ما حرَّمه غيره من الأئمة، كذلك المريد لا يطالِب شيخه بدليل علىٰ تجويزه رمي ذلك المال في البحر. وأيضًا من **شأن الشيخ الكامل في الطريق أن يبلغ درجة الاجتهاد المطلق** كما درج عليه الصادقون.

وقد وقع لأبي حفص الحدَّاد أنه زجر مريدًا وقال: إن كنتَ في طاعتي فادخل التنور واجلس في النار؛ فدخل من بكرة النهار إلىٰ آخره، فما ذكره الشيخ إلا عند الغروب. فقال: ادعوه؛ فدعوه فوجدوا النار لم تحرق شيئًا من ثيابه فضلًا عن جلده، لأن الله عند ظن عبيده به، وكذلك الشيخ هو عند ظن مريده به، فلما اعتقد المريد أن بركة الشيخ تمنع عنه أن تحرقه النار كان الأمر كما ظن.

فإن قال قائل: إن العارف بالله تعالىٰ يعلم أن حضرة الحقِّ حضرة إطلاق، فكما أقدر الشيخ علىٰ استخراج مال مريده من البحر، ربما رجع الحق عن ذلك وعجز الشيخ عن استخراج ذلك؛ **فالجواب**: أن للأشياخ علامات يعرفون بها الأمور التي يدخلها المحو والتي لا يدخلها محو، وذلك مما علم الشيخ أنه لا يدخله محو.

[دليل الصوفية في امتحان المريد بإتلاف ماله]

فإن قلت: فهل للفقراء دليل في الامتحان للمريد بإتلاف ماله؛ قلنا: نعم، قصة أيوب، فإن الله تعالىٰ سلَّط علىٰ ماله [التلف][1]، ثم لما خرج حبُّه من قلبه رد عليه ماله وأهله ومثلهم معهم، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي طلب مريدُه الخروج من أمواله كلِّها أو بعضها فمنعه، فلاث به الفقراء من أقرانه وقالوا: كان الواجب عليه أن لا يمنعه من ذلك تقربيًا للطريق عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون علم من ذلك المريد أن نار عزمه تخمد عن قريب، ويحصل له الندم علىٰ ماله، وإذا ندم بطل ترقيه في الطريق بذلك، فأراد الشيخ أن يسارقه بالخروج من حبِّ الدنيا شيئًا فشيئًا، حتىٰ يكون هو الخارج منها بحقٍّ وصدق من غير حصول التفات إليها بعد ذلك، كما وقع لإبراهيم بن أدهم، وقد أشار إلىٰ ذلك رسول الله ﷺ بقوله لكعب بن مالك لما أراد الانخلاع من ماله كلِّه في قصة توبته بقوله له: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»[2] فإنه ﷺ خاف عليه من خمود نار ذلك الفرح الذي حصل له بالتوبة، ويصير يقول في نفسه: لو أني أبقيتُ لنفسي وعيالي شيئًا من مالي، لكان خيرًا لي من الحاجة إلىٰ الناس.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ؓ يقول: نحن لا نقول للمريد: ألقِ متاعك في البحر، ولا تَصَدَّق به مثلًا، بل نتركه علىٰ حاله، ونمهد له بساط الزهد في الدنيا، ونريه ما له من الحظ والمصلحة إذا خرج من ماله، حتىٰ يكون هو الخارج من ماله بنفسه، لما رأىٰ لنفسه في ذلك من الحظ والمصلحة.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٧٥٧) ومسلم (٢٧٦٩).

وكان يقول: لا ينبغي للشيخ أن يقول لمريد: اخرج عن مالك إلا بعد تمهيد بسط وبيان أمارة طلب النجاة بذلك، نظير ما إذا قال رئيس المركب للركَّاب: غدًا وقت الظهر تثور ريح شديدة، من لم يرم متاعه هلك، فارموا متاعكم من هذا الوقت؛ فلا يجيبه أحد، فإذا جاء الموعد وتحققت الحقائق وثارت الريح، كان العاقل من رمى متاعه لأجل نجاة نفسه، ولو أن شخصًا قال لأحدهم: لا ترموا متاعكم في البحر وغرقوا أنتم؛ استخفوا عقله، فهكذا أمر المريد إذا هبت عليه ريح التوفيق والهداية إلى الطريق، كان هو الخارج من الدنيا بنفسه اختيارًا. فعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة إلى الاعتراض على الأشياخ فيما يفعلون إلا بنصٍّ أو إجماعٍ أو قياسٍ جليٍّ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يصلي بلا خشوع، فدخل عليه أمير فخشع وغض طرفه وسكَّن أطرافه، فلاث الناس به وقالوا: انظروا إلى هذا الشيخ المرائي!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون مشهده تعظيم صفات الحقِّ جلَّ وعلا حيثُ ظهرت والأدب معها، فلما حضر ذلك الأمير ذكَّرتْه عظمتُه بعظمة الله تعالى وجلاله، فخشع لله تعالى وخضع له وهو غائب عن مراءاة ذلك الأمير بعبادة الله تعالى، فإن الشيخ لا يخفى عليه تحريم الرياء، بل هو يناقش المريدين فيه ليلًا ونهارًا، فكيف يقع هو فيه؟!

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفيَّ رحمه الله يقول: لا يصح في حقِّ الكامل رياء أبدًا. فقلتُ له: كيف ذلك وهو غير معصوم؟! فقال: لأن شهود التوحيد الذوقي يمنعه من أنه يرى لنفسه عملًا حتى يرائي به. انتهى. فاعلم ذلك، وإياك والإنكار على أشياخ الطريق إلا إن دخلت دائرتهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في مجلسه مدَّاح يُطْرِب أهل المجلس حتى يحصل له نقوط[1] عظيم، فحصل له تكدير من المادح، فنهاه عن المدح في مجلسه،

---

(١) النقوط: جمع نقطة، والنقطة مال يدفع على سبيل الهدية والإعانة.

فلاث الناس بالشيخ وقالوا: قدَّرنا أنه تكدَّر من المدَّاح، فأي عذر له في نهيه المدَّاح أن يمدح رسول الله ﷺ؟! ما ذلك إلا جهل عظيم!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا حمله على المحامل السيئة، ولا على بغضه مدح رسول الله ﷺ، لاحتمال أنه اطلع من طريق كشفه على فساد نية المادح، وأنه ليس الباعث له على مدح رسول الله محبته ﷺ، وإنما الباعث له على مدحه محبة النقوط، أو قول الحاضرين: هذا أدخل من المادح الفلاني، ونحو ذلك من الأغراض النفسانية، فأراد الشيخ بإبطاله أن يعلمه الأدب اللائق برسول الله ﷺ من الإخلاص في مدحه، حتى يكون الباعث له على مدح رسول الله ﷺ محبته لا غير، ليحصل له الثواب، ويصير رسول الله ﷺ يحبُّه، فإن **رسول الله ﷺ على الأخلاق الإلهية**، فكما أن الله تعالى يكره من يعبده رياء وسمعة وعجبًا، كذلك رسول الله ﷺ يكره من يمدحه رياء وسمعة، لا محبة فيه ولا في الصلاة عليه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٠) ومما أجبتُ به عن العلماء الذين يدرسون طلبتهم دائمًا من الكراس دون ظهر القلب، وإذا جاءهم طلبتُهم في بعض الأوقات يقرؤون درسهم قالوا لهم: ما طالعنا لكم شيئًا، فتعالوا غدًا؛ فلاث بهم الناس وقالوا: هذا عجز من هؤلاء، ولا فرق حينئذٍ بينهم وبين طلبتهم، فأي فائدة للأشياخ حينئذ؟! وما هكذا كان الأشياخ الذين أدركناهم، بل كان أحدهم بمجرد ما يأذن له شيخه في تدريس العلم يصير يدرِّس من غير كراس حتى يموت، ولكن هذا كله من أكل الحرام والشبهات، فإنه يُظلِم القلب، فلا يصير ينتقش فيه علم، كالكتابة بالحبر على قعر الدَّسْت[1]، فصار العلم في ألسنتهم لا في قلوبهم.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهؤلاء العلماء لأجل تدريسهم العلم من الكراس، وقولهم لطلبتهم: «ما طالعنا لكم شيئًا». ولا يلزم من تدريسهم من الكراس أن يكونوا جاهلين بالعلم، أو ليس العلم في قلوبهم، لاحتمال أن يريد أحدهم بذلك السترة بين الأقران وغيرهم، وعدم تميزه على الناس بتدريس العلم عن ظهر قلب. ويُحتمَل أن

---

(١) الدَّسْتُ: مِرجل كبير من نحاس.

تكون مطالعته إنما هي زيادة اعتناء بتحقيق العلم وتحريره، فإنه أمانة. فيراجع فهمه فيه المرة بعد المرة، ليكون على يقين من موافقة فهمه للمنقول مثلًا.

وكان على هذا القدم جماعة من العلماء الذين أدركناهم. كالشيخ عبد الحق السنباطي[1]، والشيخ نور الدين المحلي[2]، وشيخ الإسلام ابن أبي شريف، والشيخ زكريا، فكانوا ﵏ يحفظون العبارة، ولكن يحتاطون للطلبة استبراءً لدينهم. وممن كان على هذا القدم من الأشياخ الماضين: الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، والإمام الغزالي، والرافعي، والنووي. وقيل لسيدي أحمد الزاهد: لم تمسكون الكراس وأنتم بحمد الله لا تحتاجون إلى مثل ذلك؟ فقال: يا ولدي، الستر مطلوب في هذه الدار، فإن الجالس فيها كالجالس في بيت الخلاء، فيستحب له غلق الباب عليه حتى يقضي حاجته، وإلا هتكت سريرته وظهرت عورته. انتهى. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أكثر علماء بلده في تجريحه والحط عليه، فلاث الناس به وقالوا: لولا أن هذا الشيخ على ضلال وبدعة، ما حطَّ عليه علماء الشريعة هذا الحطَّ العظيم، فإن العلماء لا تجتمع على ضلالة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بمجرد ذم العلماء له وحطهم عليه، بل ينبغي للعبد التربص عن الذم حتى يجتمع بالعلماء ويسألهم عن سبب ذمهم له، فربما

---

(١) عبد الحق بن محمد السنباطي شيخ الإسلام الحبر العلامة الفهامة القاهري الشافعي خاتمة المسندين. ولد ٨٤٢ هـ، كان جلداً في تحصيله، مكباً على الاشتغال حتى برع، وانتهت إليه الرئاسة بمصر في الفقه والأصول والحديث، وكان عالماً عابداً متواضعاً طارحاً للتكليف. من رآه شهد فيه الولاية والصلاح قبل أن يخالطه، جاور بمكة وبها توفي سنة ٩٣١ هـ. «الكواكب السائرة» (١/ ٢٢٣).

(٢) علي بن محمد بن محمد بن محمد بن علي النور أبو الحسن المحلي ثم القاهري الشافعي تلميذ بقاعي ويعرف بابن قريبة -بقاف مضمومة ثم راء بعدها تحتانية ثم موحدة- وبعد ذلك بالمحلي. قال الإمام الشعراني: كان كالجبل الراسي في كمال العقل والهيبة، على وجهه الخشية والوقار، غزير الدمعة إذا ذكرت أحوال السلف. وكان مشهورًا في مصر بحل مشكلات العبارات في الفقه والأصول والمعاني والبيان وغير ذلك. توفي: ٩٢٢هـ. انظر: «مفاكهة الخلان» (٣١٩) و«الضوء اللامع» (٦/ ١٨) و«الطبقات الوسطى» الترجمة (٥٣٣) طبعة دار الإحسان.

كان ذلك من إشاعة بعض الحسدة عن الشيخ حتىٰ ينفروا الناس عنه، ويقول الناس: لولا أن هذا علىٰ بدعة ما حط عليه العلماء. وبتقدير أن يكون ذم العلماء له بحق لوقوعه في ذنب، فيُحتمَل أن الله تعالىٰ يتوب عليه من كلٍّ ذنب عقب الفراغ منه، فلا يصبح ويمسي إلا مغفورًا له، و«التائب من الذنب كمن لا ذنب له». **ولا يجوز لأحد أن يعتقد في أخيه الإصرار علىٰ الذنب لأنه سوء ظن به**. وقد يكون وقوع العلماء لشبهة قامت عندهم في عقيدة الشيخ، مع أن اعتقاده موافق لاعتقاد أهل السنة والجماعة، فينقل الله تعالىٰ أعمال أولئك العلماء إلىٰ صحائف هذا الشيخ يوم القيامة، حتىٰ تصير أعماله كالجبال الرواسي، ويأتي هؤلاء العلماء إلىٰ الآخرة بأعمال كالذر والهباء. ويُحتمَل أن الله تعالىٰ يعطي الشيخ المنازل العالية في الجنة بكلام العلماء فيه، ثم يغفر للعلماء ذنوبهم، لقصدهم بالوقوع في الشيخ نصرة الشريعة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.



الخاتمة الموعود بذكرها في الخطبة

في ذكر بعض الأجوبة عمَّن وقع في عرضي من الأقران وغيرهم إما بقصد إيذائي أو التأديب لي

وإنما أجبتُ عنهم إظهارًا لما أنعم الله تعالىٰ به عليَّ من حسن الخلق، وليقتدي بي الإخوان في ذلك، ويحملوا كلام أعدائهم على المحامل الحسنة، كما يشهد لي بذلك ما ذكرتُه عن الناس من الأجوبة في جميع الكتب، بل أقول: إني بحمد الله تعالىٰ بلغتُ في مقام الرياضة لنفسي أنها صارت تتوسل إلى الله تعالىٰ في قضاء حوائجها بأشد أعدائها، وتقول: اللهم بحقِّ فلان عليك، وبما بينك وبينه من المحبة، اغفر لي أو يسّر عليَّ قضاء هذه الحاجة مثلًا. ولولا رؤيتي أن عدوي أفضل عند الله مني ما صحّ لي أن أتوسل به إلى الله تعالىٰ في قضاء حاجتي، فلله تعالىٰ الفضل علىٰ ذلك، وهو مقام عزيز قلَّ من يتخلق به من أهل هذا العصر، وغالبهم يقابل العدو بمثل كلامه أو يسكت عنه. وأما الجواب عنه وحمله علىٰ المحبة والتأديب، فلا تكاد تجد أحدًا من المتخلقين به إلا قليلًا.

[وجوب حمل من أجاب عن نفسه وردَّ كلام الأعداء على المحامل الحسنة]

وينبغي حمل من أجاب عن نفسه ورد كلام الأعداء فيه كالجلال السيوطي رحمه الله علىٰ محمل حسن أيضًا، كأن قصد بزجرهم وتوبيخهم سدَّ باب الوقيعة في غيره من العلماء لجنابهم، لكونهم حملة الشريعة. ولا ينبغي حمل ذلك علىٰ أنه قصد التشفي للنفس والانتصار لها، بل أخبرني شيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري رحمه الله أنه حضر وفاة شيخنا الشيخ جلال الدين في روضة مقياس النيل بمصر، فقال له: يا سيدي، أسألكم المسامحة لمن أذاكم من الأقران تخلقًا بأخلاق رسول الله ﷺ. فقال: قد سامحتُهم من حين آذوني، ولكني قصدتُ بالرد عليهم تحذيرهم من مثل ذلك. انتهىٰ.

إذا علمتَ ذلك، [فأقول] وبالله التوفيق:

(١٣٥٢) مما أجبتُ به عمَّن رماني بالبهتان والزور، ونقصني في المجالس وغير ذلك، ولاث به أصحابي وقالوا له: هذا لا يجوز لك وتفسق بذلك، بأنه إنما وقع في إيذائه لي

وهو في غفلة عن ربه، وعن كوني أنا وإياه في حضرته تعالىٰ إما كشفًا وإما إيمانًا، أو أنه إنما آذاني لغفلته عن كوني عبد الله أو من أمة محمد ﷺ، ولو أنه كان حاضر العقل لما كان آذىٰ [عبد] الله في حضرته، ولا من هو من أمة نبيِّه محمد سيِّد الأولين والآخرين.

ويُحتمَل أنه ما آذاني [إلا] اختبارًا لي لينظر هل أصبر علىٰ ذلك أو أتقلق منه وأضجر، فيفرح بيَ في الأول، ويحزن عليَّ في الثاني، ثم يصير يربيني حتىٰ أصير أتحمل من البلاء أضعاف ذلك. ويُحتمَل أنه ما آذاني إلا لإخلالي بواجب حقِّه، أو لمخالفتي لأغراضه المباحة، حتىٰ كاد يتميز من الغيظ. ويُحتمَل أنه ما آذاني إلا لما رأىٰ عندي من دعوىٰ الصلاح بغير حقٍّ، فأراد بذلك أن يظهر لي كذبي، لأتوب من تلك الدعوىٰ. ويُحتمَل أنه قصد بإيذائه لي إظهار مقامي للناس وصبري[1] عليه بظنه فيَّ الصلاح وأني لا أتأثر، فاعتقد أني أصبر علىٰ الأذىٰ ولا أتقلق منه حتىٰ يظهر مقامي في الفقر لمن كان جاهلًا بي، فيحبني ويأخذ عني العلم والأدب ونحو ذلك من المحامل.

ولا يجوز لي حمله علىٰ أنه آذاني حسدًا وعدوانًا ظاهرًا وباطنًا، لأن ذلك كالمحاربة لله تعالىٰ والمكابرة في المحسوس عندي! وهذا خلق غريب لم أرَ له فاعلًا من أقراني إلا قليلًا، فلا يكاد يُرَىٰ أحدٌ يقيم العذر للذي آذاه أبدًا، إنما يقابله بالأذىٰ الظاهر من قول أو فعل، أو يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل فيه، ويعتقد أن قوله «حسبنا الله ونعم الوكيل» فيه أخف من مقابلته، والحال أنها أشدُّ، **لأن الحقَّ من شأنه غالبًا أن يخذل من آذىٰ من احتسب به عليه**، فينبغي لكلٍّ من قام عليه قائم أن يتطلب من الله تعالىٰ وجه الحكمة في قيام ذلك الشخص عليه، فإن الله تعالىٰ حكيم عليم، ثم إن أطلعه الله تعالىٰ علىٰ وجه تلك الحكمة، شكر فضل الله تعالىٰ، وإلا سلَّم لمولاه كما يسلِّم المقلِّد للمجتهد، والمريد للشيخ، ولله المثل الأعلىٰ.

ولما شفعتُ عند الوزير عليٍّ الباشاه بمصر وقَبِل شفاعتي دون أقراني، تحزبوا عليَّ من كلِّ جانب، وكتبوا فيَّ قصصًا يجرحونني فيها، ورموها في الديوان، لينفروا الوزير

(١) بالأصلين: ووقعي.

مني، فبادرتُ إلىٰ الشكر لله تعالىٰ، وحملتُهم علىٰ أنهم قصدوا بذلك راحة سري وبدني من التعب في المستقبل في إطباق العمال عليَّ لأشفع لهم في عدم الحبس أو الترسيم أو العقوبة إذا تجمد عليهم شيء من مال السلطان. فلا يسعني إلا أن أشفع، ولا يسع الباشاه والدفتردار أن يجيباني إلىٰ ما أطلب، لأنهما مرصدان لتحصيل مال السلطان وجمعه ليرسلاه[1] له، وأنا كالمعارض لهما بتلك الشفاعات. فأصير أقاومهم في تعب، وآخر الأمر يمنعاني من الدخول إليهما شافعًا، فخاف عليَّ من ذلك الذين كتبوا القصص في تجريحي، فجزاهم الله تعالىٰ عني خيرًا في الدنيا والآخرة.

ثم إن الوزير عليًّا بحمد الله تعالىٰ لم يتغير اعتقاده فيَّ، وأرسل إليَّ السلام من الروم، وقال لي قبل أن يسافر لما أرسل لي القصص التي أرموها في الديوان: أنا أعلم أن العالم له أعداء، والصالح له أعداء، والباشاه مثلي له أعداء، وكلام الأعداء لا ينبغي لأحد قبوله، لأنه أشد من قول الأعداء، لأن قولهم كالرواية وقبوله كالإجازة.

فافهم واحمل يا أخي أعداءك علىٰ المحامل الحسنة حسب طاقتك ولو متفعلًا، حتىٰ يحصل لك الإدمان والتمرين، وتقوىٰ كما قوي أهل الله تعالىٰ، وتصير تكتفي بعلم الله فيك، ولا تطلب لك مقامًا عند أحد من الخلق دونه، وإلا فمن لازمك التعلُّق كالعوام.

وقد سمعتُ أخي الشيخ أبا الفضل رحمه الله يقول: قد حصل لي خير كبير بسماع كلام الأعداء فيَّ وعدم مقابلتي لهم، وصار عندي من القوة ما لو قام أهل مصر كلُّهم عليَّ ما تغيرتُ. فقلتُ له: إنه مقام نفيس! فقال: ولا هو بذاك! فإنه مقام إبليس. فقلتُ له: كيف؟ فقال: لأن جميع أهل الأرض من الجن والإنس يلعنه ولا يتغير منه شعرة. فقلتُ له: إن رسول الله ﷺ أظهر التأثر من أعدائه لما آذوه بمكة وكذَّبوه، وصار يعرض نفسه علىٰ القبائل، ليؤوه وينصروه فلا يجيبه أحد. فقال رضي الله عنه: إنما فعل رسول الله ﷺ ذلك ليقتدي به أصحابه في تحمل البلاء، وهو مشاهد لأفعال الله تعالىٰ غير واقف مع الأعداء، كما هو معلوم من مقامه الشريف. وإذا كان آحاد الأولياء يشاهدون مجاري الأقدار الإلهية

---

(١) بالأصلين: ليرسلانه. والصواب نحويًّا ما أثبتناه.

في الخلق شاؤوا أم أبوا ولا يقفون مع الخلق، فكيف بسيد الأنبياء والمرسلين؟! ومعلوم عند العارفين أن أحدًا لا يتكدر من أمر إلا إن شهده من الخلق، ولو أنه شهده من الحق تعالىٰ، ما تغيرت منه شعرة، وكيف يتغير من فعل الحكيم العليم علىٰ الكشف والشهود؟!

وقد سمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: حكم من يريد أن يكدِّر أحدًا من أهل الله بكلام يقوله فيه حكم ناموسة نفخت علىٰ جبل تريد إزالته بنفختها. انتهىٰ. وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: ينبغي للفقير أن يحزن علىٰ موت أعدائه من حيثُ إنهم كانوا سببًا لحصول الأجر له، لا من حيثُ كونُهم عصوا الله تعالىٰ بذلك.

وقد مات مرة عدوٌّ لأخي أفضل الدين كان يؤذيه، فأظهر الحزن عليه وقال: ما أظنُّ أحدًا بقي يأتي بعده يحصل لنا علىٰ يديه الخير مثله. فقلتُ له: فأين مرارة الأذىٰ؟ فقال: ذهبت عني بحلاوة الثواب والتخلق بأخلاق الصالحين. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٣) ومما أجبتُ به عن الأعداء في الظاهر والأصدقاء في الباطن لما دسوا عليَّ في كتابي المسمَّىٰ بـ«البحر المورود في المواثيق والعهود» وغيره أمورًا تخالف ظاهر الكتاب والسنة، ثم سكبوها في الكتاب كأنهم المؤلِّف له، ثم أعطوها لجماعة داروا بها في جامع الأزهر وغيره، فما أظنُّ سلم من الوقوع في عرضي إلا القليل من العلماء وطلبتهم، كالشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ شهاب الدين الرملي، والشيخ شهاب الدين ابن الشبلي[1]، والشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني، والشيخ نور الدين الطندتاي[2] نفعنا الله ببركاتهم، بأن الحامل لمن دسَّ في كتبي ما ذُكِرَ إنما هو شدة الحسد الذي قام عنده،

---

(١) أبو العباس أحمد بن شهاب الدين: محمد بن أحمد بن يونس المصري، المعروف: بابن الشبلي، الحنفي، المتوفیٰ: سنة ١٠٢١هـ. «كشف الظنون» (٢/ ١٢٢٤).

(٢) نور الدين علي الطندتاي الشافعي، الشيخ العالم الراسخ المحقق، أخذ الفقه عن شهاب الدين الرملي، وأخذ الطريق عن الشيخ محمد الشناوي، والشيخ علي المرصفي، وكان يأمر إخوانه بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وأجيز بالإفتاء والتدريس، فأفتىٰ ودرس في حياة شيوخه «الكواكب السائرة» (٣/ ١٧٥)

فلم يطق حمله، فتنفس بما فعله من الدس، ليخفف عن نفسه التهمة والنعمة التي كان عنده مني، مع اعتقاده فيَّ الصلاح وأنني لا أتغير من ذلك، وأنني قد سامحتُ جميع من جنىٰ عليَّ من هذه الأمة المحمدية، إكرامًا لمن هم من عبيده سبحانه وتعالىٰ، ثم لمن هم من أمته ﷺ، لكونهم إخوتي في الإسلام، ثم لكونهم كانوا سببًا في حصول الأجر لي. كما أخبرني من دار بالكراريس وقال: إنما كنتُ محدوفًا[1] عليك من جماعة؛ فعذرتُه في ذلك وسامحتُه دنيا وأخرىٰ.

وأما من وقع في عرضي من العلماء فحملتُه علىٰ نصرة جنب الشريعة، وسلامة الباطن في تصديق أعدائي وأن مثلهم لا يكذب، ومن نصر الشريعة وجبت محبتُه، لاسيما المؤلِّف من أمثالنا، فربما زل القلم بشيء يخالف الشرع لعدم عصمتنا، فمن وقع في عرضي معذور، وإن كان الواجب عليه التثبت، لكن الإنسان خُلِقَ من عجل. ولو أن هؤلاء الذين وقعوا في عرضي كانوا أرسلوا إلي تلك المواضع المدسوسة لينظروا جوابي فيها ثم يثبتوا عليه مقتضاه، لكان خيرًا لهم، فإنه لا يخلو أن أقول: هذا ليس بكلامي، فلا يجوز نسبته إليَّ؛ وإما أن أقول: هو كلامي، فعليَّ الخروج من عهدته إما بتأويله بعبارة أخرىٰ، وإما أن أضرب عليه في الكتاب وأشكر فضلهم، لكن لم يتفق لهم ذلك، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فالله تعالىٰ يسامحهم ويعفو عنا وعنهم في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٤) ومما أجبتُ به عمن أشاع عني في مصر أنني ادعيتُ الاجتهاد المطلق، ولاث به أصحابي وقالوا: إنما فعل ذلك ليشنَّ عليَّ الغارة، كما وقع للشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله، بأنه قد يكون يعتقد فيَّ أنني مجتهد مطلق، وقصد بذلك إظهار مقامي للناس، **إذ الاجتهاد المطلق أمر سهل بين القوم**، لأنهم يصلون في العلم إلىٰ علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وذلك أعلىٰ مما ينتهي إليه الاجتهاد، لأن غايته الظن، ولذلك

---

(١) أي مُسلَّطًا عليك.

يقع للمجتهد الرجوع عن قوله، ولو أنه كان علىٰ يقين من[1] موافقته للشريعة ما رجع، إذ اليقين لا يقبل ذلك، لكونه يخبر بالأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها.

ولا يجوز حمل هذا الشخص الذي أشاع عني الاجتهاد علىٰ أنه قصد بذلك شنَّ الغارة عليَّ، لأني لم أسمع ذلك منه، ولا ثبت ذلك عندي ببينة عادلة. ولو أنه ثبت بإخباره لي أو ببينة حملتُه علىٰ أنه قصد بذلك اختباري، ليظهر للناس فضيلتي بالصبر عليه، وعدم المقابلة له بالسوء.

واعلم يا أخي أن **الاجتهاد سارٍ في علماء الشريعة في كلِّ عصر باستنباطهم الأحكام من كلام بعضهم بعضًا، كما استنبط الأئمة المجتهدين الأحكام من الكتاب والسنة،** [وإن تفاوتوا في قوة الاستنباط وضعفه، فإن فاتح الباب في الاستنباط من الكتاب والسنة] بمثابة فاتح الكنز أو حافر البئر في أرض معطشة، والمستنبط من أقوال العلماء كحافر القناة ومالي الخوابي[2] من البئر ليشرب الناس منها.

وقد رأيتُ بخط الجلال السيوطي ﷺ ما نصُّه: الاجتهاد المطلق علىٰ نوعين: مجتهد مطلق غير منتسب كالأئمة الأربعة، ومجتهد مطلق منتسب متقيِّد بقواعد إمامه لا يخرج عنها وهو كثير، كأصحاب الوجوه في المذهب المخرِّجين لها من أقوال الإمام. فأما غير المنتسب فلم يَدَعِه بعد الأئمة الأربعة غير الإمام محمد بن جرير الطبري[3] ولم تسلم العلماء له. وأما المنتسب فهو الذي ادعيتُه كغيري من العلماء الماضين، كابن

---

(١) بالأصلين: مما. والصواب ما أثبتناه.

(٢) جمع خابية، وهي وعاء كبير من الطين يوضع فيه الماء.

(٣) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري الإمام، العلم، المجتهد، عالم العصر، أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، من أهل آمل طبرستان. مولده: سنة ٢٢٤ هـ. قال الذهبي: كان ثقةً صادقًا حافظًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه، والإجماع والاختلاف، علامةً في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات وباللغة، وغير ذلك. له مصنفات منها: «جامع البيان في تفسير القرآن» و«اختلاف الفقهاء» و«المسترشد» في علوم الدين. توفي: ٣١٠هـ. انظر: «السير» (١٤/ ٢٦٧) و«طبقات الشافعية الكبرىٰ» للسبكي (٣/ ١٢٠).

سريج والقفَّال[1] وابن دقيق العيد والشيخ تقي الدين السبكي في مذهبنا وأضرابهم. وأما في مذهب غيرنا، فكابن القاسم وأشهب وأصبغ في مذهب الإمام مالك. وكالإمام محمد بن الحسن وأبي يوسف في مذهب الإمام أبي حنيفة. وكابن بطة[2] في الحنابلة. هذا كلام الجلال السيوطي بحروفه. فاعلم ذلك، واحمل أقرانك وغيرهم على المحامل الحسنة، ولا تدخل في مناقشتهم في الباطن. فإن ذلك إلى الله. والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٥) ومما أجبتُ به عن الذين أشاعوا عني الاجتهاد المطلق في بلاد الروم. وأن أتباعي الآن في مصر نحو ثلاثين ألفًا، وأرسلوا ذلك في قصة إلى مولانا السلطان سليمان ابن عثمان، وأرشوا محمدًا الغزولي بمال وكسوة حتى حملها لباب السلطان وطلع بها أول يوم فقُبِلَت، ورسم السلطان بمرسوم لنائب مصر وللقاضي ليحرروا أمري، فعلم بذلك ولد شيخنا الشيخ أبو اللطف[3]، فدار على الوزراء والأكابر بإصطنبول. وأخبرهم بأن ذلك افتراء عليَّ، وأنني أمشي في مصر بلا حمار، وليس معي أحد من الأتباع، فرجعوا عن المرسوم، وحصل اللطف بأبي اللطف، ثم إن الغزولي طلع يأخذ المرسوم، فوجد الأمر قد تغير، فطلب المرسوم فضربوه وأخرجوه من الديوان، فكتب على باب حد السرايا: «الشيخ عبد الوهاب الشعراني سلطان البرين والبحرين» بقلم غليظ، لينظر ذلك السلطان، فيسأل عني ويوقع فيَّ فعلًا كما يفعل مع الخارجي الذي خرج على السلطان،

---

(١) الإمام الكبير شيخ الشافعية القفال أبو بكر عبد الله بن أحمد بن عبد الله المروزي الخراساني. حذق في صنعة الأقفال حتى عمل قفلًا بآلاته ومفتاحه، زنة أربع حبات، فلما صار ابن ثلاثين سنة، آنس من نفسه ذكاءً مفرطًا، وأحب الفقه، فأقبل على قراءته حتى برع فيه، وصار يُضرب به المثل، وهو صاحب طريقة الخراسانيين في الفقه. كثير الآثار في مذهب الإمام الشافعي. له «شرح فروع محمد بن الحداد المصري» في الفقه. توفي: ٤١٧هـ. انظر: «السير» (١٧/ ٤٠٥) و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٥/ ٥٣).

(٢) ابن بطة عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان أبو عبد الله العكبري، عالم بالحديث فقيه من كبار الحنابلة، لزم بيته أربعين سنة فصنف كتبه وهي تزيد على مئة، وكان مستجاب الدعوة، توفي سنة ٣٨٧ هـ. «السير» (١٦/ ٥٢٩) و«الأعلام» (٤/ ١٩٧).

(٣) بالأصلين: الطيب. والصواب ما أثبتناه.

فرآها شخص من أصحابي هناك فمسحها من الحائط، وقد لاث جميع أصحابي بمن كتب القصة وبمن حملها إلىٰ الباب.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بمن فعل ذلك، لاحتمال أن يكون قصده أن يشهرني بالعلم في الروم، وكتب اسمي علىٰ باب السلطان ليسأل عني، فإذا سأل عني أخبره الناس الواردون من مصر عني، فأحسن إليَّ. ولا يجوز حملهم علىٰ أنهم قصدوا إضراري بذلك، لأننا لم نسمعهم يقولون ذلك، وقد مدح الله تعالىٰ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ﴾[الزمر: ١٨] وهذا من ذلك. ومصداق أنهم قصدوا بذلك الخير نفوذ همتهم بأن صار السلطان يعرفني ويرسل لي السلام، ويطلب مني الدعاء، وكذلك الوزير رستم والوزير علي. وقد أرسل لي السلطان سليمان ابن السلطان سليم بساطًا أصلي عليه وأدعو له كلما صليتُ عليه، وها هو الآن عندي، أرسله مع جاويش في سابع شهر رمضان سنة أربع وستين وتسعمئة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٦) ومما أجبتُ به عن الذين تكدروا وحصل عندهم غمٌّ وهمٌّ لما أرسل لي السلطان البساط دون جميع أقراني في مصر، بأن غمهم ليس هو لأجل رفعتي عليهم عند السلطان، وإنما غمُّهم وهمُّهم علىٰ نفوسهم التي لم تتقيد بالعمل بعلمها، ولا جالست الحقَّ جلَّ وعلا في ذكره حتىٰ رفعها علىٰ من لم يذكره، كما يتبادر ذلك إلىٰ الأذهان من أن سبب الشهرة إنما إظهار الأعمال الصالحة، حتىٰ إنه بلغني أن شخصًا من أقراني شاور أصحابه أن يجلس مثلي في زاوية، ويجعل له مجلس ذكر، وقال: ليس عبد الوهاب أشطر مني! ويُحتمَل أن غم هؤلاء وهمهم إنما هو علىٰ نفوسهم التي لم تتواضع لله تعالىٰ، فلو تواضعت لرفعها فوق مقدارها.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: رفعة العبد علىٰ قدر تواضعه، فمن رأىٰ نفسه دون ألف نفس مثلًا، رفعه الله عليهم، أو مئة ألف ألف نفس رفعه الله عليهم، وهكذا. ومن هنا كان **رسول الله ﷺ أعلىٰ الخلق كلِّهم مقامًا، لأنه بلغ في التواضع حدًّا لم يشاركه فيه أحد**. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٧) ومما أجبتُ به عن الذي قام عليَّ وأخرجني من السكن من كذا كذا زاوية، ولاث به أصحابي وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فيه، وصاروا يدعون عليه، بأنه ربما سلطه الله تعالىٰ عليَّ لحكمة، وجعله غافلًا عما يترتب علىٰ إخراجي من الأذىٰ، لا يكاد يخطر ذلك علىٰ باله ولا يقصده. ومن الحكمة أن يصير لي أسوة بالأنبياء والأولياء، فقد صح إخراجهم من أوطانهم المرة أو المرتين أو المرات، فأخرجوا نوحًا وإبراهيم وهودًا وصالحًا وشعيبًا، وهكذا إلىٰ نبيِّنا محمد ﷺ، فأخرجوه من مكة إلىٰ المدينة، ثم أرادوا إخراجه من المدينة، فمنعهم الله تعالىٰ عنه، كما أشار إليه قوله تعالىٰ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إلا قليلا﴾ [الأحزاب: ٦٠] فبعضهم مات وبعضهم خرج. وكذلك وقع للأولياء الإخراج من أوطانهم، كالشيخ أبي يزيد، ومحمد بن الفضل البلخي، والإمام البخاري، والإمام الشافعي، والشيخ أحمد بن الرفاعي، وسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي، وسيدي إسماعيل الإنبابي، والشيخ أبي الحسن الشاذلي، والشيخ أبي العباس المرسي، والشيخ محمد بن عنان، وخلائق لا يحصون ذكرناهم في «الطبقات» لكن منهم من مات غريبًا، ومنهم من رجع إلىٰ وطنه بعد غيبة طويلة، فربما قصد هذا الذي أخرجـ[ـني] أن يكون لي بهؤلاء الأنبياء والأولياء أسوة، ولا يجوز حمله علىٰ أنه قصد بذلك محض الأذىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: قد يكون خروج بعض الأنبياء والأولياء من أوطانهم تشريعًا لضعفاء قومهم، وإلا فاعتقادنا في أكابر الأولياء فضلًا عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن أحدهم يحتمل من البلاء والأذىٰ أضعاف ما وقع من قومه، لأن الأكابر لا يشهدون فاعلًا في الوجود إلا الله، فكيف يصح لهم التكدر مما يفعله الحق معهم بلا واسطة أو بواسطة خلقه؟! كما يعرف ذلك من سلك الطريق ذوقًا، فلو أن النبي صبر ولم يهاجر من وطنه الذي أوذي فيه، لكان ذلك عذابًا علىٰ أمته لعدم صبرهم وعدم من يقتدون به في المهاجرة، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ

ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهذه المسألة منها.

فاعلم ذلك، واحمل الذين آذوك وأخرجوك من وطنك على المحامل الحسنة، ثم سامحهم بحقِّك في الدنيا والآخرة. وأما حق الله فذلك إليه إن شاء يؤاخذهم من حيثُ تعديهم حدوده بإيذائك، وإن شاء يغفر لهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٨) ومما أجبتُ به عن الأعداء والحاسدين إذا نقصوني في المجالس، ورموني بما لم أعلم أنه وقع مني، ولاث بهم أصحابي وقالوا لهم: هذا حرام عليكم، بأنهم ما نقصوني إلا بعد شهودهم رفعة مقامي[1] عند الناس، ولولا ذلك ما أتعبوا نفوسهم في تنقيصي، فكأنهم بتنقيصي يعترفون لي بأني أعلى مقامًا منهم، فلا التفات إلى تنقيصهم لي بعد ذلك، لأنه كاللغو. وأما رميهم لي بما لم أعلم أنني وقعتُ فيه، فلهم بذلك الفضل عليَّ من حيثُ إنهم حذروني مما لعله يقع مني في المستقبل، لأتوجه إلى الله تعالى في محوه وفي تدبيره لي إن كان لا يُمحَىٰ. وما رأينا أحدًا يشتغل بتنقيص أحد من الأسافل الذين لا يعبأ الناس بهم أبدًا، إنما يشتغلون بمن علا عليهم من أقرانهم وقدَّمه الناس عليهم في العلم والعمل، والزهد والورع والعفة ونحو ذلك، فيريدون بتنقيصه أن يتبعهم الناس على ذلك، ويصير مثلهم لا يلتفت أحد إليه.

وفي كلام الجلال السيوطي رحمه الله: لم تزل الأشراف تُبْتلَىٰ بالأطراف، فكان آدم مبتلىٰ بإبليس، وكان نوح مبتلىٰ بقومه، وكان الخليل مبتلىٰ بالنمرود، وكان داود مبتلىٰ بجالوت، وكان موسىٰ مبتلىٰ بفرعون، وهكذا. انتهىٰ. ونحن نقول: لم تزل الأطراف تبتلىٰ بالأشراف! فكلُّ من نصحنا في ديننا وقوَّم عوجنا فهو من الأشراف، وقد ابتُلي بنا، فجزاه الله تعالىٰ عنا خيرًا. آمين اللهم آمين.

ويُحتمَل أنهم قصدوا بتنقيصي في المجالس فتح باب رؤيتي نقائصي حين رأوني وقد غرقتُ في العُجْب، وصرتُ أستحسن أحوالي لا أرىٰ فيها نقصًا، كما يفعله الأشياخ مع

---

(١) بالأصلين: مقامهم. والصواب ما أثبتناه.

مريديهم، فلو تأمل الواحد منا لوجد عدوه أنفع من صديقه، لأن عدوه يظهر له معايبه، وصديقه يحسن له أحواله في عينه، ويمدحه في المجالس حتىٰ يكاد يهلك من العُجب.

وكان الشيخ أبو العباس المرسيٰ يقول إذا بلغه أن أحدًا رماه ببهتان: اللهم إن كان صادقًا فاغفر لي، وإن كان كاذبًا فاغفر له. وكان يقول: عدو تصل به إلىٰ تنظيف باطنك خير لك من صديق يقطعك عن طريق مولاك. وكان يقول: الصديق يصيبك في قلبك، والعدو يصيبك في ظاهرك، فمراعاة من يصيبك في باطنك أولىٰ، لأنه محل نظر الحق تعالىٰ إليك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واشكر فضل أعدائك وفضل أصدقائك بحسب نفعهم لك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٩) ومما أجبتُ به عن الذي أرسل معه الباشاه مثلًا مالًا ليفرقه علىٰ العلماء العاملين والزهاد والصالحين، ليدعوا الله تعالىٰ بطلوع النيل لما توقف عن الزيادة، ففرَّق علىٰ العلماء والفقراء الذين في البلد وتعداني مع شهرتي، ولاث به جماعتي وقالوا: هذا يكره شيخنا، ولو أنه كان يحبه لأعطاه قبل غيره.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهذا، بل يجب حمله علىٰ أنه عظمني أن يعطيني شيئًا من مال الولاة، لكونه لا يسلم من دخول الشبهة فيه غالبًا، لا سيما في وقت الحاجة إلىٰ دعائي، فخاف من توقف دعائي عن[1] الإجابة إن قبلتُ ذلك المال وأكلتُ منه أو لبستُ، فحرمني منه تبعًا لما سبق في علم الله من عدم قسمته لي، فلا يجوز اللوث به، بل يجب مدحه علىٰ ذلك، وما حرمني دون غيري إلا لشدة محبته لي، وخوفه علىٰ ديني، ورجائه قبول دعائي، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي عمل نقيبًا علىٰ العلماء في وليمة عملها الباشاه، وصار يُدخِل إلىٰ الطعام من شاء، ويمنع من شاء ولو كان أفضل من الداخل، فلما دخلتُ مع الناس منعني وقال لي: ارجع يا فلان! والناس يسمعون فأبيتُ، فدفعني أرماني علىٰ

---

(١) بالأصلين: عنىٰ.

ظهري، فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر لا يجوز، بأنه قد يكون الباشاه عيَّن له أسماء جماعة معينين من العلماء والصالحين، فقال: ادعهم إلىٰ الوليمة، ولم يتعرض لغيرهم، فدعا من عيَّن الباشاه فقط، ومعلوم من قواعد الشريعة أن لصاحب الوليمة أن يمنع من دخل بغير دعوة، لحديث: «من حضر الدعوة بغير دعوة، دخل مُغِيرًا وخرج سارقًا»[1].

ويُحتمَل أن يكون هذا الذي منعني قصد بمنعي من الدخول ودخول أقراني اختبار خلقي حين رآني أدعي محاسن الأخلاق، فقال: أمنعه حتىٰ أريه خلقه، ليستغفر الله إن كان سيئًا، ويشكره إن كان حسنًا، كما يفعل الأشياخ مع مريديهم إذا ادعوا مقامًا من المقامات التي لم يتمكنوا فيها، فإني إذا انشرحتُ لمنعي من الدخول وسررتُ بذلك، تبين لي وللحاضرين حسن خلقي. وإن عبس وجهي وظهرت الكآبة عليه، فكأني أنادي علىٰ نفسي بأني لم أشم من حسن الخلق رائحة، فشخص يظهر لي الدعاوىٰ الكاذبة لأتوب منها كيف يجوز لي التأثير منه مع دعواي الصلاح؟! ويُحتمَل أن يكون إنما منعني من الأكل شفقةً عليَّ، لاعتقاده فيَّ الصلاح دون من مكَّنهم من الدخول للأكل، كما تقدم في حرماني من الفلوس.

وقد أجبتُ بهذا الجواب عن ولد شيخي أبي اللطف حين عمل نقيبًا علىٰ العلماء والصالحين بإذن الباشاه إسكندر في سنة أربع وستين وتسعمئة حين توقف النيل، فأدخل المقياس جماعة، وجعل في جامع الحوش جماعة، فأراد شخص ممن هو في الجامع أن يدخل المقياس ليأكل من سماط الباشاه كالعلماء والصالحين فمنعه، فلا تسأل يا أخي ما عملوه فيه، وكان الأولىٰ عدم التكدر منه، لأن الباشاه أقامه نقيبًا عرِّيفًا، فاعلم ذلك، ورِضْ نفسك يا أخي علىٰ يد شيخ صادق، ليخرجك من الرعونات، وإلا تعب سرُّك، ووقعت في أعراض كل من خالف هواك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٧٤١) من حديث عبد الله بن عمر: «قال رسول الله ﷺ: من دعي فلم يجب فقد عصىٰ الله ورسوله، ومن دخل علىٰ غير دعوة دخل سارقًا وخرج مغيرًا» والبيهقي في «السنن» (١٣٤١٢) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٢٨).

(١٣٦١) ومما أجبتُ به عمَّن اعترض عليَّ في جوابي عن العلماء والصالحين الذين أرسلهم [الوالي] ليقرؤوا القرآن في المقياس، ويسألوا الله تعالىٰ في زيادة النيل حين توقف، وعمل لهم طعامًا وفرَّق عليهم دراهم، ولاث بهم أقرانهم الذين لم يحضروا ولم يأخذوا فلوسًا وقالوا: لا ينبغي الجواب عن هؤلاء، بل الذي ينبغي الحط عليهم زجرًا لهم وتنفيرًا.

والجواب: أن اعتراضهم علينا سائغ في الأصل، لكن لا ينبغي لأحد التشديد في الإنكار إلا بعد ثبوت أن ذلك الطعام أو المال حرام، فقد يكون الولاة حسبوا حساب الدعاء، وتحرزوا في طعامهم عن الحرام والشبهات كما يفعلون أيام رمضان، فإنه بلغني أن جميع الولاة يتحرزون في هذا الشهر من أكل الحرام والشبهات، ويضعون عندهم ما يعتقدون حله، والدعاءُ بطلوع النيل أهمُّ عندهم من فطر أحدهم في رمضان علىٰ شبهة، لا سيما الباشاه والدفتردار، فإن المال المتعلق بهم لجهة السلطان ينقص إذا قل ري البلاد.

وقد يحضر مع العلماء والصالحين المذكورين أحد من أصحاب النوبة كما هو الغالب، فيكتفي الناس بدعائه، ويصير حضور غيره أُنسًا بلا درك. وقد يكون في حملة القرآن من أعطاه الله إجابة الدعاء ولو أكل من الشبهات تعظيمًا له من حيث كونه عرشًا لاستواء القرآن علىٰ قلبه الحاوي لعلم الأولين والآخرين، فمثل هذا يساعد أصحاب النوبة في طلوع النيل.

وكان سيدي علي الخواص ممن قلَّده الأولياءُ السؤالَ في طلوع النيل ونزوله وختام الزرع حتىٰ يدخل الحب المخازن ويخرجوه ثاني سنة للزراعة، وكنا نذهب معه أول جمعة تأتي من ليلة نزول النقطة[1]، فكان يلبس مرقعة ويتعمم بعمامة كلِّها شراميط ويمشي حافيًا، فإذا وصلنا إلىٰ ساحل مصر، أمرنا بالوضوء، وألا يخرج أحدنا بولًا ولا غائطًا ولا ريحًا في الروضة، تعظيمًا للمقياس ويقول: إنه محل نظر الله بالخير إلىٰ أهل مصر وقراها.

---

(١) نزول النقطة: كان نهر النيل يبدأ فيضانه في أوائل الموسم الصيفي، وتحديدًا ليلة الحادي عشر من يونيو، وفيه يُبدأ عادةً بقياس قاع النيل. ثم يبدأ النيل بالتوحم وهو في عرف المصريين تلون مائه بالخضرة المسببة عن أصول النباتات المائية.

وكان يصحب معه الذهب والفضة و الخُشْكَنَان[1] المحشوَّ سُكَّرًا، ويصير يفرق علىٰ كلِّ من لقيه إلىٰ أن يدخل المقياس، وكان يعطي المعداوي دينارًا، وخادم المقياس دينارًا، ويكسح ما في سلم المقياس من الطين ويضعه في قاعة المقياس، ويحمل معه شيئًا إلىٰ حارته وبيته، فيفرِّق في خوابي البيوت والمساجد من أجل البركة. وكان يأمرنا بكشف الرأس إذا نزل إلىٰ آخر درجة من سلم المقياس ودعا، ويقول: قولوا معي: آمين. ويبكي حتىٰ تبتل مرقعته من دموعه. انتهىٰ.

فربما حضر مع العلماء والصالحين الذين حضروا في المقياس يسألون الله طلوع النيل أحد من أصحاب النوبة وأجابه الله، فلم يحتج أحد إلىٰ دعاء، فليتنبه العلماء والصالحون لمثل ذلك، وليحذروا من ظنهم أن النيل ما طلع إلا بدعائهم، إلا إن كان ذلك علىٰ سبيل حسن الظن بالله وصِلَاته، لأن شروط مثل ذلك عزيز وجودها في أمثالنا، لأن الله لا يجيب دعاء أحد وفي ظاهره أو باطنه صفة يكرهها الله تعالىٰ، فأي شخص منا يدعي سلامته من مثل ذلك وكلُّ واحد يرىٰ نفسه أكبر من أخيه وأن دعاءه أقرب إلىٰ الإجابة من دعاء أخيه؟! ولو لم يكن إلا محبة أحدنا للدنيا التي هي رأس كلِّ خطيئة، فكيف يُجاب دعاء من تضمخ بمادة كلِّ خطيئة علىٰ وجه الأرض في ظاهره وباطنه؟! فعُلِمَ أن اعتراض المنكرين عليَّ وعلىٰ الذين أكلوا من طعام الولاة صحيح، وأن الأولىٰ بنا الدعاء بالزيادة مع عدم الأكل من طعام الولاة وأخذه، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٢) ومما أجبتُ به عن الأعداء والحاسدين الذين رموني بالرياء والعُجْب، والنفاق والحسد والكبر، ونحو ذلك من كبائر الباطن، ولاث أصحابي بهم وكذَّبوهم وبرؤوني من ذلك.

والجواب: أن الأعداء المذكورين لا يجوز تكذيبهم، فإن هذه الكبائر الباطنة كائنة في كلِّ شخص ككمون النار في الحجر والشجر، ماعدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم، ولله الحمد الذين لم يرموني بالمعاصي الظاهرة التي هي مشهودة للخاص

(١) الخُشْكَنَان: خبزةٌ تُصنع من خالص دقيق الحِنْطة، وتملأ بالسُّكَّر واللَّوز أو الفستق وتُقْلَىٰ.

والعام، فكانت الفضيحة تعظم بذلك، فكان من لطفهم بنا أن رمونا بأمور غير محسوسة قد تخفىٰ علىٰ كثير من الناس.

ولا يجوز حملهم علىٰ أنهم رمونا بالمعاصي الباطنة إلا لعجزهم عن إثبات المعاصي الظاهرة، فخافوا أن يكذِّبهم الناس، فعدلوا إلىٰ الباطنة ورمونا بها لعلها تُقبَل منهم، لأن ذلك سوء ظن بالأعداء، من باب ظلم دون ظلم، فجزىٰ الله تعالىٰ الأعداء خيرًا في رميهم لي بالمعاصي الباطنة التي ربما تخفىٰ عليَّ وعلىٰ أصحابي، لآخذ حذري منها وأفتش نفسي، فإن نفس أصحابي الذين يدعون محبتي لا يكاد أحد منهم يحذِّرني من شيء من ذلك، فاعلم [ذلك]، واحمل أعداءك علىٰ المحامل الحسنة، فإنك تربح الأجر بسببهم، وإياك وحملهم علىٰ المحامل السيئة المتبادِرة إلىٰ الأذهان تخسر مع الخاسرين، وقد يكون سوء ظنك بهم أعظم من سوء ظنهم بك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٣) ومما أجبتُ به عن الذين تسلطوا عليَّ بالأذىٰ ليلًا ونهارًا من غير ذنب ظاهر، ولاث بهم أصحابي وقالوا: ما لكم ولهذا الرجل؟! وما رآه أحد منكم يشرب مُسْكِرًا، ولا يخرج الصلاة عن وقتها، ولا يزني، ولا يذكر أقرانه بسوء عند الولاة، ولا يزاحم علىٰ الدنيا، ما ذاك إلا محض تعصب عليه بالباطل!

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهم، لأن تعصبهم عليَّ ليس هو بالباطل، وإنما هو بحقٍّ، وذلك أن الله تعالىٰ لا يسلِّط خلقه علىٰ أحد إلا إن كان خارجًا عن حضرته، وما دام يرىٰ العبد نفسه بين يدي ربه عزَّ وجلَّ فلا يسلط عليه أحدًا، فاللوم عليَّ الذي خرجتُ من حضرة ربي إلىٰ شهوات نفسي حتىٰ تسلَّط عليَّ هؤلاء بالأذىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفيَّ رحمه الله يقول: إن إبليس وجميع من تسلَّط بالأذىٰ علىٰ أحد لا يتسلط إلا [علىٰ] من غفل عن ربه عزَّ وجلَّ، حتىٰ إن بعض رجال رسالة القشيري كثرت عليه الغفلة، فسأل الله أن يسلِّط عليه أحدًا يذكره بربه، فأرسل الله له أسدًا، فكان كلما غفل يعضه ويجرح بدنه. انتهىٰ. وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إذا

تسلَّط الناس عليك بالأذىٰ، فاشتغل بالله وأكثر من ذكره، يردهم عنك، وإياك أن تشتغل بمقابلتهم، فيدوم الضرر عليك، وتُمزِّق دينَ نفسك. وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: إذا بالغ أحد في إيذائك، فاعلم أنك بالغتَ في الغفلة عن ربك، فأكثر من ذكره، أو اسكت وراقب ربك بقلبك، فإن خصمك يرجع عنك. فقلتُ له: وهل هذا خصمي؟ فقال: إنما سميتُه خصمًا تبعًا للعرف، وإلا فهو من أعزِّ الأصدقاء. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، واشكر من آذاك ولا تذمه، فإنه نفعك بالأجر وذكَّرك بربك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٤) ومما أجبتُ به عمن ربيتُه وأحسنتُ إليه بما جعله الحقُّ تعالىٰ علىٰ يدي، فلما كبر صار يؤذيني ويبالغ في إيذائي حسب الطاقة، وينقل عني لمن يحبني أنني أكرهه ولا أكلمه إلا رياءً ومَلَقًا[1]، ولاث به أصحابي وقالوا له: لو كنتَ ولد حلال لفعلت معه مثل ما فعل معك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأن المعاملة حقيقة في الإحسان إليه إنما هي طلب لمرضاة الله عزَّ وجلَّ، وكلما كافأني علىٰ إحساني إليه بالشكر والمدح في المجالس والخدمة ربما يحصل منه المكافأة وزيادة، وربما طلبت النفس منه ذلك، فذهبتُ إلىٰ الآخرة صِفْر اليدين من الأجر، فمقابلته لي بالإساءة أعظم في الإحسان من إحساني إليه؛ لأن غاية إحساني إليه إنما هو بأمور الدنيا التي ربما دخل فيها الدخيل، فلا يصل إلىٰ الآخرة منها شيء، بخلاف المسيء فإنه يحسن إليَّ بخالص أعماله يوم القيامة يوم فقري وفاقتي، كما ورد في الحديث من أخذ المظلوم حسنات الظالم، فإن لم يكن للظالم حسنات أو كانت وسبقه الناس إلىٰ أخذها، أخذ من سيئات المظلوم ووضعت علىٰ ظهر الظالم، ثم قُذِفَ به في النار[2].

---

(١) المَلَق: الود عكس ما يضمره القلب.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطىٰ هذا

وهذا خلق غريب في الناس في هذا الزمان، فقل من ينتبه له. وقد منَّ الله تعالىٰ عليَّ بالتخلق به، فأنا أجد في نفسي المحبة لمن أساء عليَّ أكثر ممن أحسن إليَّ بأمور الدنيا. وصاحب هذا المشهد لا يرىٰ إلا محسنًا له من سائر الخلق، فمن لم يحسن إليه بماله، أحسن إليه بترك منته عليه؛ ومن لم يحسن إليه بالإحسان العادي وبالغ في الإساءة عليه، فهو محسن إليه بصالح أعماله، ولا يخلو أحد من هذه الثلاثة أمور.

وقد سمعتُ سيدي عليًا الخواص يقول: ينبغي لكلِّ من أطلق لسانه في أعراض الناس أن يكثِر من الأعمال الصالحة، حتىٰ لا يأخذه نوم في ليل أو نهار، ليعطي أخصامه منها يوم القيامة، وهيهات أن يتحصل منها شيء يعطيه لهم يوم القيامة! لعدم سلامة أعمالنا من الآفات التي تحبطها. وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقول لشخص من المقاريض كان يقرأ كلَّ يوم ختمة ويقول: نحن بحمد الله بخير: لو علمتَ يا ولدي تحكُّم المظلومين يوم القيامة في أعمال الظالمين، ما طمعت نفسُك بشيء من أعمالك!

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تطلب لك مقامًا عند الخلق إن أردتَ أن تتخلق بهذا الخلق الشريف، فإن من لازم من يطلب المقام عند الخلق أن يتكدر ممن يقرض في عرضه ويذكره بالنقائص بين الناس، لأنه كلما يبني له مقامًا بأعماله يهدمه هذا المقراض، بخلاف من يطلب المقام عند الله، فإنه يعظم مقامه عند الله بكلام الناس في عرضه، وكلما هدم مقامه بغيبة أو معصية بناه بكلام الناس فيه ورآه قَوِيَ بذلك، فالحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٥) ومما أجبتُ به عن الجندي الذي لمستُه في زحمة لمسةً خفيفةً، فضربني بالدبوس ضربًا شديدًا، فلاث به أصحابي وقالوا: هذا ما يستحق هذا الضرب العظيم! ولكن أيش تقول الناس في الناس الكفرة؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الجندي، فربما كانت اللمسة وقعت علىٰ خُرَاج

من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضىٰ ما عليه أُخذ من خطاياهم فُطرحت عليه، ثم طرح في النار» والترمذي (٢٤١٨).

في بدنه له مدة طويلة لا ينام الليل من شدَّة وجعه، فلما أخذ في الختام لمستُه، فانسلخ ثانيًا، فكاد أن يخرج عقله، فضربني وهو في غير عقل. وقد يكون هذا الضرب الذي وقع من هذا الجندي ليس هو بسبب اللمسة، وإنما هو بسبب ذنب تقدَّم مني يستحق مثل ذلك الضرب، فإن الله حكيم عليم، ولا يظلم الناس شيئًا، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]. **ومن تأمل بعين الحقيقة، وجد الناس الذين يؤذونه كزبانية جهنم علىٰ حدٍّ سواء**، من حيثُ ما آخذوه إلا بذنوبه وإن كان علىٰ المكلَّف الإثم في الدنيا دون الزبانية.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: كثيرًا ما يتهم الناس أحدًا يفعل فاحشة مثلًا بامرأة معيَّنة، وتقوم البينة بذلك زورًا، وهو يعلم أنه لم يجتمع بتلك المرأة قط، فيصير الناس يقولون: مسكين هذا! اتهموه هذه الليلة بفلانة وأقاموا عليه البينة بأنهم رأوه في بيتها! والحال أنه الليلة بات عندنا من المغرب إلىٰ طلوع الشمس! فيظنون أن تلك المعاقبة بسبب تلك التهمة، والحال إنما هي بسبب أمر محقق وقع فيه قبل ذلك، وظنَّ أن الله تعالىٰ غفر له.

فاعلم ذلك يا أخي، وأقم[1] العذر لمن ضربك حتىٰ كسر عظمك وسلخ جلدك، وتفكر في ذنوبك السالفة، تجد نفسك تستحق ما وقع لها، لاسيما إن كنتَ تدعي الصلاح، فإن الصالحين تُشدَّد عليهم العقوبةُ دون غيرهم، فربما أكل الإنسان سبعين عصا بسبب تناوله شهوة مباحة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٦) ومما أجبتُ به عن الفقهاء الذين ينكرون عليَّ ويبالغون في الحط عليَّ، ولاث أصحابي بهم وقالوا: لم يزل الإنكار والوقفة بين العلماء والصوفية، ولو سلَّم الفقهاء لهم لكان أولىٰ، كما سلَّم موسىٰ عليه الصلاة والسلام للخضر.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالعلماء إذا أنكروا علىٰ أحد من الفقراء، لأنهم ما

---

(١) بالأصلين: افهم. والصواب ما أثبتناه.

أنكروا عليه إلا لكونه يفعل أو يقول ما لا يوافق ظاهر الشريعة، فاللوم عليه هو الذي يفعل ما يخالف ظاهر الشريعة لا على الفقهاء الذين أنكروا عليه، لأنهم ما فعلوا إلا ما أوجبه الله تعالىٰ عليهم من حيثُ كونُ الشارع ﷺ أمنهم علىٰ شريعته، وأمرهم بقتال كلِّ من خالفها وأن يحموها من كلِّ مبتدع، فيا سعادة من كان مقيمًا بمثل جامع الأزهر أو مخالطًا لأهله! فإن أحدهم لا يكاد يقر أحدًا علىٰ ما يخالف ظاهر الشريعة أبدًا، فهم جند من جنود الله لكلِّ من انعوج عن طريق الاستقامة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تتكدروا من الفقهاء إذا أنكروا عليكم، لأنهم مجتهدون في الفهم، والواجب عليهم إنكار كل ما خالف عندهم ظاهر الشريعة، فكيف تطلبون منهم ترك فعل ما أوجبه الله تعالىٰ عليهم؟! انتهىٰ. وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يتكدر من إنكار الفقهاء عليه إلا جاهل أحمق [و] من أتىٰ بأعماله طالبًا للمقام عند الخلق بغير طريق شرعي. انتهىٰ. وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: الواجب علىٰ الفقير أن يشكر فضل الفقيه إذا أنكر عليه، لأنه حماه من أن يُكتَب من الأئمة المضلِّين، فيكون عليه وزر كلِّ من تبعه علىٰ تلك البدعة مثلًا زيادةً علىٰ الوزر الحاصل له هو.

وكان سفيان الثوري إذا وقع منه شيء يخالف ظاهر ما كان عليه السلف الصالح ينادي بأعلىٰ صوته بين أصحابه: لا أحد يتبعني علىٰ الشئ الفلاني، فإني خالفتُ فيه هدي السلف. وكان يقول: يجب علىٰ كلِّ من وقع في بدعة أن يحذِّر الناس من اتباعه فيها ويقول: أنا بريء ممن يتبعني عليها، ليخلص من تبعتها. انتهىٰ. فاشكر يا أخي فضل كلِّ من أنكر عليك، لأنه قبَّح في عينك ذلك الفعل الذي ربما وقعت فيه أو تقع، لتأخذ حذرك منه، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٧) ومما أجبتُ به عن الذين نقصوني عند الأمير الذي يعتقدني ويقبل شفاعتي وبالغوا في تنقيصي، ولاث أصحابي بهم وقالوا لهم: هذا حرام عليكم بإجماع المسلمين،

كيف يجوز لكم أن تجرحوا شخصًا يشفع في المكروبين والمظلوم عند الولاة؟! إنما كان الواجب عليكم ذكره بالكمالات عند الأمير.

والجواب: أن ما فعله هؤلاء أفضل مما طلبه أصحابي لي، فإن من شأن النفس محبة القرب من الأمراء لذاتهم في حجة الشفاعة عندهم في المظلومين. ومن لازم اعتقادهم فيه وتقبيل رجله وقبول شفاعاته الركونُ إليهم ضرورة مخلوطًا بحظ نفس، فيُعَرِض هذا نفسه لأن تمسه النار يوم القيامة، فجزاء هؤلاء الذين نقصوني عند ذلك الأمير الذي يعتقدني الشكر لا الذم، ويجب تقديمهم في المحبة علىٰ من رباني عند ذلك الأمير وحسَّن اعتقاده فيَّ، لأنهم نفَّروا الأمير مني حتىٰ صار لا يشتهي أن يراني، ولولا ذلك لما نفرت نفسي منه، ولا زال مني الركون إليه. فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه، ودر مع الحق حيث دار، ولا توافق حظ نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٨) ومما أجبتُ به عن جاري إذا تخاصمت زوجته مع زوجتي وتعدىٰ أذاه إليَّ، مع كونه من العلماء والصالحين عند الناس، ولاث الناس به وقالوا له: كلام زوجتك إنما هو مع جارتها، فأيش دخلك أنت في ذلك؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالجار، بل اللوم عليَّ وعلىٰ زوجتي التي لم تعمل علىٰ مرضاة زوجته، مع ادعائنا أننا أعلىٰ منه مقامًا، وأعرف منه بطريق السياسة وبإكرام الجار. ولولا أن الشارع علم منا كثرة الإخلال بحق الجار ما أمرنا بالصبر علىٰ إيذائه لنا، ولعل النكتة في ذلك كثرة اللقاء وعدم البر والمقاسمة لكلِّ شئ دخل بيننا من الهدايا وغيرها، فتحكي له زوجته ما يدخل لنا وما يقع منا، فيصغي إليها بحكم الطبع، ويصدقها في كلِّ ما تقوله، فلا يسع العاقل إلا مخالطة جاره ومسامحته. ولو أني كنتُ أفتقد جاري وأقاسمه في كلِّ شئ دخل داري لما وقع لي منه أذىٰ، بل كان هو يحارب من يؤذيني، فاللوم عليَّ لا عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٩) ومما أجبتُ به عمَّن نفَّر أبناء الدنيا عني وحط فيَّ عندهم حتىٰ تركوا التردد

إليَّ، ولاث به أصحابي وقالوا له: أيش عمل لك صاحبنا حتىٰ تفعل معه هذا كلّه؟!

والجواب: أن كلَّ من نفَّر أبناء الدنيا عن فقير لا يجوز لأحد اللوث به، بل يجب شكره وحمده علىٰ ذلك، فإنه لا فائدة في مجالسة هؤلاء إلا تضييع الزمان، [فربما أشغلوا مجالسهم بالدنيا][1] أو حرقوا في الناس من التجار والعلماء والفقراء والولاة وغيرهم، فلا يقوم المجالِس لهم إلا وقد تحمل من الأوزار أمثال الجبال، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا فيما صنع. وقد عدَّ العارفون من الأمور التي تقسي القلب رؤية المحبين للدنيا، وقالوا: إن النظر إليهم سهم مسموم.

وهذا الخُلق قليل من يتخلق به في هذا الزمان، بل ربما تخاصم الفقراء مع من ينفِّر أبناء الدنيا عنهم، لاسيما من كان حوله بر من الأغنياء ومشايخ العرب. ولا يتخلص فقير من كراهة من ينفِّر أبناء الدنيا عنه إلا بالزهد في الدنيا، بحيثُ يصير ينقبض للدنيا إذا دخلت عليه.

ثم إن نفَّر هذا الشخص كذلك أبناء الآخرة عني حتىٰ صاروا لا يجالسني أحد منهم، شكرتُه علىٰ ذلك أيضًا، لأن أبناء الآخرة مشغولون بالعبادة لا يتفرغون لي، واجتماعهم معي يعطلهم عن العبادة ويعطلني، مع غنىٰ كلٍّ واحد منا عن صاحبه. فينبغي حمل هذا الشخص الذي ينفِّر عنا أبناء الدنيا وأبناء الآخرة علىٰ المحامل الحسنة، وأنه قصد لنا الخير ببعد الناس عنا، ولا يجوز حمله علىٰ أنه فعل ذلك بغضًا فينا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٠) ومما أجبتُ به عمَّن طلبتُ صحبته فأبىٰ وقال: أخاف أن يسرق طبعي من صفاتك النجسة، فلاث به أصحابي وقالوا: اعكس تُصِب؛ بأنه قد أصاب بعدم إجابتي إلىٰ صحبته، أخذًا بالاحتياط لي وله، **وما يفرح بكثرة الأصحاب إلا كلُّ سخيف العقل**، فإن من أقل حقوق الصاحب أن أحبَّ له ما أحبُّ لنفسي من المآكل والمشارب والملابس وغيرها، حتىٰ لو مالت نفسه إلىٰ امرأتي التي أحبُّها فمن حقِّه أن أطلقها له!

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

ومن حقِّ الصاحب أيضًا أن أوفِ عنه دَينه كلما حصل عليه دَين، ولا أحوجه لأن يطلب هو مني ذلك، ومن حقِّه أن لا أنام ولا أقرب من عيالي ولا أتهنى بأكل ولا شرب إذا حصل له كرب حتى يزول الكرب، ومن حقِّه أن أدخل عنه النار يوم القيامة إذا استحق دخولها، ثم لا أرى لي فضلًا عليه إذا قمتُ بجميع حقوقه، فأيُّ فقير يدعي الوفاء بما قلناه من أهل النصف الثاني من القرن العاشر، فجزى الله تعالى من لم يصحبنا خيرًا! فإنه أراح سرَّنا من التعب والوقوع في الخيانة في الصحبة. وربما كان فينا أخلاق ردية فسرق طبعه منها، كما هو الغالب في أمثالنا، فكان وزر ذلك علينا، فالحمد لله رب العالمين.

(١٣٧١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا مات لي ولد عزيز، أو نزل بي هم أو كرب، وسلَّم الناس عليَّ وعزوني، ولا يسأل هو عني، فلاث به أصحابي وقالوا: بناقص صحبة هذا الذي قلبه فارغ منك[١]!

والجواب: أنه يجب حمل هذا العالم أو الشيخ على ظنِّه أننا لا نعتب عليه في مثل ذلك، وأن ما نزل بنا نقدر على تحمل أضعافه. وقد وقع للفضيل بن عياض مثل ذلك يوم مات ولده عليٌّ، فعزاه الناس إلا واحد من أصحابه، فقالوا له في ذلك، فقالوا: إننا إذا وثقنا بمحبة أحد لنا لا يضرُّنا وقوع مثل ذلك منه. انتهى.

ويُحتمَل أنه من شدة اهتمامه بأمرنا غمَّه الحزن مثلنا، فصار يحتاج إلى من يعزيه، لشدة ما عنده من الرقة والشفقة علينا. وربما كان صاحبنا المذكور له عذر باطن لا يقدر على إفشائه لنا، وربما كان خرقته رفيعة وعزم شخص من الأراذل على شكواه من أحد من الولاة ليفتشوا على ما بيده من الأوقاف وهو خائف من ذلك، فاحمل يا أخي إخوانك على المحامل الحسنة حسب الطاقة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٢) ومما أجبتُ به عن صاحبي إذا نزل بي غمٌّ أو همٌّ كأن رميتُ بعمل الزَّغَل[٢]

---

(١) بالأصلين: مني.

(٢) الزَّغَلُ: الغِشُّ، ولعل المراد به هنا السحر أو ما شابه.

مثلًا، وسألتُه أن يذهب معي إلىٰ بيت الوالي فأبىٰ ولم يلتفت إليَّ بوجه من الوجوه. فلاث به أصحابي وقالوا: رحم الله الفقراء الماضين الذين كان أحدهم يفدي صاحبه بنفسه.

والجواب: أنه قد يكون ممن هو مُرْصَد لتحمل هموم الناس سرًّا، وهو يكتم ذلك عن الناس، وكثرت عليه الهموم ذلك اليوم حتىٰ أحس بأن بدنه ذائب. كالذي شرب رطلًا من السم، ثم جئتُ أنا الآخر له، فنظر فلم يجد نفسه يقدر علىٰ زيادة، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ويقع لي ذلك كثيرًا فلا يجيء آخر النهار إلا وبدني ذائب، فربما جاءتني امرأة تشكو من زوجها أو من ضرتها، فلا أقدر أصغىٰ إلىٰ قولها، فتقول لي: ما بقي أحد يحمل همَّ أحد! فاعلم ذلك، واحمل إخوانك علىٰ المحامل الحسنة لاسيما الفقراء الصادقين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٣) ومما أجبتُ به عمَّن عرض لي بأنه يأخذ عليَّ العهد بالتوبة من كلِّ معصية من مشايخ الأحمدية والرفاعية وغيرهم، ولاث به أصحابي وقالوا له: أنت غالط في نفسك! مثل سيدي الشيخ يحتاج إلىٰ أن يأخذ عليه العهد مثلك؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، بل الواجب شكره، لأنه ذكرني بالتوبة من المعاصي، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وقد بلغنا أن جماعةً من رعاة البهائم لقوا سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني، فظنوا أنه نصراني، لكون عمامته كان فيها شراميط زرق، فقالوا له: قل: أشهد أن لا إله إلا الله. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ فركبوه حمارًا وكسوه عمامة وقميصًا، وأطلقوا أصواتهم بالذكر معه حتىٰ طلعوا به بلدهم، فعرفه الناس وأخذوا يزجرون الصبيان عما فعلوه، فقال لهم سيدي عبد العزيز: ما فعلوا معي إلا خيرًا! جددوا عليَّ الإسلام وكسوني وأركبوني وأسمعوني ذكر الله. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، ولا ترَ نفسك تصلح تلميذًا لأحد من مشايخ الخرق المذكورة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٤) ومما أجبتُ به عن الذين يصدقون فيَّ ما يقوله الحسدة والأعداء، ويقولون: ليس ذلك ببعيد عن فلان لعدم عصمته؛ فلاث بهم أصحابي، فقالوا[1]: الوقف يثبت بالإشاعة، وقد أشيع ذلك عن فلان.

والجواب: أنه ينبغي حمل هؤلاء على سلامة الباطن واعتقادهم أن أحدًا لا يكذب، فحكوا ذلك عني وهم غافلون عن حكم ذلك في الشرع، كما يقع فيه كثير من الفقراء الساذجين، فإذا وجدتَ يا أخي أحدًا من هؤلاء، فإياك والمبادرة إلى الاعتراض عليه في تصديقه لما يسمعه في حقِّ الناس إلا بعد أن تعرفه بما يترتب على ذلك من الإثم. وقد رأيتُ من الفقراء من يسمع شيئًا، فيصير كل من دخل يقول له: ما دريت أيش جرى لفلان؟! ويظهر الحزن عليه، والحال أن تلك الحكاية كذب كما أخبرني بذلك من كذب عليه، فامتلأت البلد بذلك مع أنه لا حقيقة له.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من صمم على كلام سمعه وقال: إن الناس لا يشيعون شيئًا إلا وله صحة؛ فقولوا له: أتلتزم معنا أن كلَّ شيء قاله أعداؤك فيك يكون حقًّا؟ فإذا قال: لا؛ فقولوا له: وكذلك الحكم في غيرك، قد يكون ما أشاعوه عنه كذبًا. فإن قال: ما يقوله الناس عني كذب، وما قالوه عن فلان صحيح؛ قلنا له: هذه دعوى لا دليل عليها، وحينئذٍ يسكت ولا يجد جوابًا.

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تتكدر ممن لا يستبعد عليك الوقوع في أكبر الكبائر، فإنه مشى على قواعد الشريعة، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، واحفظ لسانك في حق الناس، ولا تصدِق فيهم ما يقوله الأعداء في حقِّهم، فإن جميع أعمالك الصالحة عندك لا تفي بكلمة واحدة أشعتَها عن إنسان إذا شحَّ عليك يوم القيامة ولم يسامحك، وإذا رأيتَ العيب بعينك فاستره، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٥) ومما أجبتُ به عمَّن قال لي: يا حمار يا شيطان؛ ولاث به أصحابي وقالوا

---

(١) أي الذين صدقوا إشاعة الأعداء.

له: كيف تقول مثل ذلك لحملة القرآن وطلبة العلم؟!

والجواب: أنه ربما أراد بذلك ما قاله الإمام الشافعي ..., فإنه كان يقول: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان». وكم أغضبني ناس فلم أغضب لثخانة جلدي، وكم استُرضِيتُ عمَّن جنى عليَّ فلم أرضَ. ومعلوم أن من كمال فعل الرجل أن يغضب إذا استُغضِب إظهارًا لأن كلام أخيه قد أثر فيه، ثم إذا استرضاه رضي وسامح أخاه بما وقع منه في حقِّه. وهذا دأب الفقير مادام سالكًا. فإذا كمل سلوكه كان له ميزان آخر خلاف هذا، فلا يغضب إذا استُغضِب. كما حُكي أن شخصًا خيَّاطًا طلب أن يُغضِب الإمامَ الشافعيَّ، فعمل له الكم الأيسر كعين الخرج[1]، والكم الآخر ضيقًا جدًّا، فأول ما رآه الإمام قال: عملتَ حسنًا، الكم الضيق أخف على الكاتب، والكم الواسع يضع فيه الكتب.

قال بعضهم: والتحقيق أن من شأن البشر أنه يغضب ممن أغضبه، ولكنه يكظم الغيظ ويتحمل الأذى من الخلق، طلبًا لمرضات الله تعالى. فاعلم ذلك، واحمل من سمَّاك حمارًا أو شيطانًا على المحامل الحسنة، كأن يريد بالحمار من يتحمل الأثقال من صاحبه، وبالشيطان من بعُد عن[2] حضرة الله تعالى ولو في ساعة من ليلة أو نهار، لأن الشيطان مشتق من الشَّطَن وهو البُعْد، فوصفك بالاحتمال، ونبهك على عدم البعد عن حضرة ربك، فجزاه الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٦) ومما أجبتُ به عمَّن وقعتُ في بلية وسألتُه أن يأخذ بيدي فيها، فلم يلتفت إليَّ، ولاث به أصحابي وقالوا له: ياما ساعدك سيدي الشيخ ورد عنك أخصامك!

والجواب: أنه ربما يكون له عذر باطن، أو خاف أن يحصل له بمساعدته لي ضرر لا يطيقه. وكان سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من أدرك منكم النصف الثاني من القرن

(١) الخُرْجُ: وِعاءٌ من شعَرٍ أو جلدٍ ذو عِدْلَيْن، ويوضعُ على ظهرِ الدابَّةِ لوضع الأمتِعة فيه، فتكون عينه واسعة.

(٢) بالأصلين: من.

العاشر، فلا يعتب أحدًا علىٰ عدم إحسانه إليه، أو عدم مساعدته في البلاء الذي نزل عليه، فإن القلوب تشتغل عن بعضها بعضًا بالبلاء النازل عليها، فلا يصير أحد له وجهة إلىٰ غيره، ومن كلَّف أحدًا أن يشاركه في بلائه، فقد كلَّفه شططًا، والأمر في زيادة إلىٰ قيام الساعة، حتىٰ إن بعض الناس رأىٰ شخصًا قد تدلىٰ صرمه من دبره وهو يجره علىٰ الأرض وهو في غاية التألم، فقال له: بالله عليك أعطني هذا الذي تدلىٰ لأطعمه لقطتي، فإنها جيعانة! وقد صار غالب الناس الآن حكمهم كصاحب هذه القطة قلبه فارغ من الألم الذي فيه صاحب الصرم، كما يُعلَم من فحوىٰ كلامه، فاعرف زمانك يا أخي، وأقم المعاذير للناس، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٧) ومما أجبتُ به عن الذين يقولون: إن أعمال هؤلاء المشايخ الذين برزوا في هذا الزمان كعبد الوهاب وفلان وفلان في حكم الفسقة، ولو تأمل الناس الذين يعتقدونهم في أعمالهم، لوجدوها كأعمال من لا يؤمن بيوم الحساب؛ ولاث أصحابي وغيرهم بهم وقالوا: إذا كان هؤلاء المشايخ أعمالهم كأعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، فمن بقي يؤمن بيوم الحساب؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث علىٰ هؤلاء وتشبيههم أعمالنا بأعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، فإن ذلك حق وصدق، فإن شرط من يؤمن بيوم الحساب أن يتعطل منه الملائكة الذين يكتبون السيئات، فلا يصير كاتب الشمال يجد شيئًا يكتبه من حين بلغ العبد إلىٰ أن يموت، ومتىٰ كتب شيئًا من السيئات، فصاحبها كمن لا يؤمن بيوم الحساب حين ارتكبها، فإنه لو آمن بيوم الحساب ما وقع فيما يُسخِط ربَّه عزَّ وجلَّ ويدخله الجحيم.

وقد قلتُ يومًا للأخ العزيز الحاج علي الفرارجي: لا يكمل العبد حتىٰ لا يجد كاتب الشمال شيئًا يكتبه طول عمره. فقال: أما أنا فكاتب اليمين متعطل معي دائمًا لا يجد شيئًا يكتبه! فأعجبني صدقه ونطقه بمثل ذلك من غير تأمل. فوالله إن بعض الناس اليوم ليس معه سوىٰ الإيمان باللسان! وليتأمل لو أوقد أحد من الولاة لعبد نارًا أو أججها، ثم زيَّن

له امرأة جميلة وقال له: أزنِ بهذه لأحرقك بهذه النار، لا يجد عنده داعية ولو مكث يأمره بالزنا ألف عام، لكون النار مشهودة له، وكذلك صاحب الإيمان الكامل بيوم الحساب لا يجد عنده داعية لمخالفةِ أبدًا، لكون الجزاء بالعقوبة، ومن شرط الإيمان الكامل عند المحققين أن يكون العذاب الذي وعد الله به من عصاه كالحاضر على حدٍّ سواء، ومتى رجح العبد العذاب الحاضر في الوقوع على العذاب الذي وعده الله به، فإيمانه كلا إيمان.

وقس على ذلك يا أخي المأمورات الشرعية التي يتركها العبد لو أنه شهد الجزاء المرتب على تركها أو الثواب المترتب على فعلها يقينًا، ما ترك شيئًا منها ولكان يفعلها. وليتأمل تارك الزكاة مثلًا لو أجج الولاة له نارًا وقالوا له: لا تخرج زكاتك لنصفحها لك صفائح ونكويك، لا يفعل إلا إذا أُكرِه على ذلك بما هو أشد من الكي بالصفائح. ولو أن يهوديًا جلس بشكارة ذهب مثلًا وقال: من أخرج زكاته من المسلمين أعطيتُه بكلٍّ نصف دينارًا ذهبًا، وصار يدفع للناس ذلك ويضاعف لهم بحسب اختياره كيف يزدحم الناس عليه يخرجون زكاتهم، ليأخذوا أضعافها، وقد وعد الله تعالى العبد بالمضاعفة إذا أخرج زكاته أو تصدق تطوعًا، فلم يؤمن أحد بذلك إلا باللسان، وذلك لا يسعد به العبد في الآخرة.

ومن شك في قولي هذا وادعى كمال الإيمان، امتحناه بأن نأتيه بالفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والغرباء الذين مرضوا والمديونين المحبوسين ونحوهم، ونقول له: أخرج مالك على هؤلاء، ويعوضك الله تعالى خيرًا؛ فإن أخرج ماله بعزم وانشراح صدر وإظهار سرور، فهو كامل الإيمان بيوم الحساب؛ وإن انقبض خاطره وامتنع، فهو ناقص الإيمان بيوم الحساب. وهذه ميزان تطيش على الذر يظهر بها حال العبد عند الله يوم القيامة من هذه الدار.

وقد كان الحسن البصري سيد التابعين مع علمه وورعه واجتهاده في العبادة ليلًا ونهارًا يقول: والله لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، لقلتُ له: صدقتَ لا تكفر عن يمينك. ولذلك كان مالك بن دينار يقول: [لو حلف حالف أن أعمالنا أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب؛ لقلنا له: صدقت ولا تكفر عن

يمينك][1] وكان الفضيل بن عياض يقول: كيف يدعي أحدنا أن أعماله أعمال من يؤمن بيوم الحساب، وجميع أعماله تجره إلىٰ النار. انتهىٰ.

فقد بان لك أن من قال: أعمال عبد الوهاب أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب صدق وحق، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! فاعلم ذلك، وإذا نقصك أحد فلا تبادر إلىٰ تكذيبه، بل تربص وفتش نفسك، فلعلك تجده صادقًا، فتأخذ في التوبة والاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٨) ومما أجبتُ به عمَّن كذبني في دعواي أنني سامحتُ جميع من جنىٰ عليَّ في مال أو عِرْض أو بدن من هذه الأمة المحمدية دنيا وأخرىٰ لغير علة ثواب وغيره، ولا أطالب أحدًا منهم بحقٍّ في الدار إكرامًا لمن هم عبيده عزَّ وجلَّ، ثم لمن هم من أمته ﷺ، ولو أنني أتيتُ يوم القيامة صفر اليدين من جميع الحسنات ماعدا الشهادتين لا أرجع عن مسامحتي لهم، ولاث بهم أصحابي وقالوا: هذا أمر ممكن، فكيف يسوغ لكم تكذيب مدعيه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن كذبني في ذلك، فإنه مقام عزيز الوجود منَّ الله تعالىٰ به عليَّ وأنا طائف بالكعبة في سنة سبع وأربعين وتسعمئة، وذلك أني ألهمتُ هذا الدعاء: «اللهم إني أسألك بك أن تصلي وتسلم علىٰ سيِّدنا محمد وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين، وأن تفرغ عليَّ من الأخلاق المحمدية ما أتحمل به الأذىٰ من جميع الأنام، ولا أؤاخذ أحدًا منهم بحقٍّ في الدارين» فسمعتُ الهاتف من ناحية الميزاب يقول: قد أعطيناك ذلك. ثم ألهمتُ: «اللهم أفرغ عليَّ من الأخلاق المحمدية ما أتجمل به بين يديك في الدنيا والآخرة» فعلَّق الهاتف ذلك علىٰ شرط أرجو الله حصوله قبل أن أموت إن شاء الله تعالىٰ، فالمكذِّب لي في دعواي لهذا الخلق معذور، وذلك لأنه فتش في نفسه فلم يجد نفسه تقدر علىٰ التخلق به فأنكره، فذوقه صحيح، وحكمه بأنه ذلك لا يقع من مثلي غير صحيح.

ولما دس الأعداء في كتبي ما دسوا من العقائد الزائفة وأشاعوها عني في مصر

(١) سقط بالأصل، وقد استكملناه من قول سيدنا مالك كما ذكره الإمام الشعراني في بعض الأجوبة بهذا الكتاب.

وقُرَّاها والحجاز وغيره، سامحتُ الكلَّ فيما وقعوا فيه من عرضي. وسامحتُ جميع من صدَّقهم علىٰ ذلك، وإن لم أكن أعلم بهم فالله يعلمهم. فقال لي بعض الإخوان: كنتَ صبرتَ للدار الآخرة حتىٰ تنظر أمرك فيها، فربما احتجتَ إلىٰ الأخذ من حسناتهم في نظير ما وقعوا في عِرْضِكَ. فقلتُ له: أنا أستحيي من الله أن أرىٰ حقًا علىٰ أحد من عبيده في الدنيا والآخرة، وأستحيي من رسول الله ﷺ أن أشاحح أحدًا من أمته، أو أحوجه ﷺ إلىٰ أن يسألني في المسامحة لذلك الشخص يوم القيامة بعد أن أمرني بالعفو والصفح في شريعته في الدنيا، وكيف يصير ﷺ يحُلُّ بشفاعته العقد وأن أربطها بمشحِحتي؟! هذا غاية سوء الأدب مع رسول الله ﷺ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٩) ومما أجبتُ به عمَّن ذكر بعض الناس اسمي بحضرته، فقال: اسكتوا لا توقعونا في غيبة أحد؛ ولاث به أصحابي وقالوا له: هذا دليل علىٰ أن الشيخ عندك فاسق حتىٰ تخاف من وقوعك في غيبته عمدًا[1] عند[2] ذكر اسمه، ولأي شيء لم تقل لهم: أسمعونا ذكر فلان وصفاته الحسنة؟!

والجواب: أنه لا يجوز حمل هذا الشخص علىٰ أنه ما أمر الناس بالكف عن ذكر اسمي إلا لكونه قليل الاعتقاد فيَّ، فقد يقصد بذلك خوف وقوع غيره من أعدائي وحسادي فيَّ إذا ذكر أحد من أصحابي فضائلي عندهم بحسب اعتقادهم، فيحصل الإخلال بواجب حقي والإثم لأولئك الأعداء، وهذا أمر مطلوب شرعًا. وإذا اشتُهِر إنسان بخير كزهد وورع وتميز عن أقرانه، فقلَّ أن يسمع أحد منهم شيئًا من ذلك إلا ويأخذ في معارضته عادة، ومن شك فليجرب. والله إني لأعلم جماعة الآن لا يقدرون علىٰ أن يذكرني أحد بخير، فكان حكم من كف الناس عن ذكر اسمي حكم من كف الناس عن الترضي عن أبي بكر وعمر عند الروافض خوفًا أن يسبوهما، وكوصف الشيخ محييٰ الدين بن عربي وسيدي عمر بن الفارض عند من لا يعتقدهما، فإن وقع

---

(١) بالأصلين: عندنا. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: عن. والصواب ما أثبتناه.

سب من أحد الروافض أو غيرهم ممن لا يعتقد في أولياء الله، كان ذلك في صحيفة من ذكر اسمهم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٠) ومما أجبتُ به عن الذي يقع في عِرْضي بعد موتي ما دام في قيد الحياة بعدي، ولاث به أصحابي بعد موتي وقالوا له: هذا حرام عليك! وهو أشد من غيبتك له في حال حياته؛ فإنك ترجو مسامحته لك في حال حياته، ولا هكذا الأمر بعد موته.

والجواب: أن هذا قد فعل معي خيرًا، فلا يجازيه عليه إلا الله تعالىٰ، لأنه كالذي خرج لي عن جميع حسناته التي عملها طول عمره، فكأني لم أمت ولم ينقطع لي عمل، فكيف أشاححه في الآخرة؟! بل الواجب عليَّ مسامحته ورد حسناته إليه، لأنه لا أحد أسوأ حالًا يوم القيامة من مثل هذا الشخص، لأن أخصامه الذين وقع في عرضهم لا يحصون، فكيف أزاحم الأخصام بلحيتي البيضاء وعمامتي الصوف ودعواي المروءة والفتوة، وأطلب حقي ممن استغرقت الحقوقُ أعمالَه، وصار الناس يحطون علىٰ ظهره من أوزارهم؟! نسأل الله أن يعافينا من مثل ذلك، فإنه أمر لا يليق فعله ممن شم رائحة طريق القوم.

وربما كان هذا الذي استغابني بعد موتي له حقٌّ عليَّ، بأن وقعت في عِرْضه في وقت أو أوقات، فمكَّنه الله تعالىٰ بعد موتي من أخذ حقِّه مني بنظير غيبتي فيه، مسارعةً لخلاصي منها قبل يوم القيامة، فلا تعوِقني عن دخول الجنة إن كنت من أهلها، وقد ورد أن العبد ليدخل قبره ومعه من السيئات أمثال الجبال، فلا يزال يخفف من سيئاته بوقوع الناس في عِرْضِه، حتىٰ يخرج من قبره وليس عليه سيئة[1]. انتهىٰ.

فاعذر يا أخي عدوك إذا استغابك بعد موتك، فيا طول ما قهرته وأكمدته! وأدخلت عليه الغمَّ والهمَّ بإقبال الولاة والأكابر عليك، وشدة اعتقادهم فيك دونه، فإن مثل هذا من باب قهر الرجال الذي استعاذ منه رسول الله ﷺ[2]، وقد كان يود أن يتنفس بغيبتك

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٣٦٩) من حديث أنس بن مالك قال: «كان النبي ﷺ يقول:

في حياتك، فكان يخاف من أصحابك أن يبلغوك، فتؤذيه بأضعاف ما استغابك به، وربما كلمتَ الأمير الذي يعتقدك، فأخرج عنه وظائفه، فاشكر يا أخي فضل من استغابك بعد موتك، فإنه بمثابة من يزن عنك الدَّين الذي عليك في الآخرة بوقوعه في عِرضِك.

وسمعتُ أخي الشيخ عمر البحطيطي الأزهري يقول: ما أحد أكثر إحسانًا إليَّ ممن آذاني في عِرضي أو بدني أو مالي في دار الدنيا، فإنه يأتيني بذلك أحوج ما أكون إليه، فإن شئتُ أخذتُه، وإن شئتُ تركتُه، وما أحد أكثر أمانة من الآدمي. انتهىٰ. فافرح يا أخي بمن تظن به أنه يستغيبك بعد موتك علىٰ سبيل الفرض والتقدير، فإنه يريد أن يجري لك عملًا صالحًا في صحيفتك بعد موتك، اقتداءً بمن سبقك من الصالحين الذين اعتنىٰ الله تعالىٰ بهم، وأجرىٰ لهم حسنات من شاء ممن أشقاهم في الآخرة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨١) ومما أجبتُ به عن الذين كذبوني لما سمعوا عني أنني أقول: لا أدخل الجنة إن كنت من أهلها حتىٰ أشفع في جميع من آذاني في دار الدنيا قبل أن أدخل، وقالوا: بلغ من كذبه ونصبه ودعاويه الباطلة أن يدعي الصلاح في الآخرة، وما كفاه دعواه ذلك في الدنيا!

والجواب: أن من كذبني في ذلك معذور، فإنه مقام عزيز في الفتوة لا يكون لكلِّ أحد من الفقراء، وقد قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[يونس: ٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، ثم إن ذلك التكذيب لا يقع إلا من عدو عدا عن طريقي، فجهل حالي من شدة الدخان الذي علىٰ قلبه، فهو معذور في الباطن، وإن كان لسان الشريعة يقضي بذنبه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إن أصحاب الفتوة من القوم لا يقنعون بمسامحة من آذاهم في دار الدنيا، بل يبدؤون بالشفاعة فيه يوم القيامة إن لم يكن الحقُّ تعالىٰ قبل استغفارهم لمن آذاهم في دار الدنيا، وذلك كلُّه منهم مبادرة لإزالة خجل من

اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال» والترمذي (٣٤٨٤).

آذاهم يوم القيامة حين يرىٰ مقامهم عند الله عزَّ وجلَّ. وإنما لم يكونوا يبدؤون بالشفاعة فيمن أحسن إليهم، لأن هذا حسنته تشفع فيه، بخلاف من أساء.

[رؤيا الشيخ التلاوي شفاعة المصنف فيمن أذاه ودس في كتبه]

ولما سامحتُ أهل جامع الأزهر في وقوعهم في عِرْضي لما دس الحسدة في كتبي ما دسوا من الأمور التي تخالف ظاهر الشريعة، لينفروا الناس من مطالعتها، رأىٰ الشيخ محمد التلاوي المالكي أنني راكب علىٰ فرس عال بسرج مذهب، ولجام مكلل بالجوهر، وأهل جامع الأزهر كلهم بين يدي، ورأىٰ العالم الذي كان دس في كتبي ما دس ورماني بالزور ماشيًا أمامي وهو ماسك بلجامي يقود به، فقال الشيخ محمد: من هذا الراكب؟ فقالوا له: فلان. فقال: ومن هذا الذي يقود به؟ فقالوا: فلان. فقال: ما خبر هؤلاء؟ فقال: إن فلانًا الراكب ذاهب إلي بين يدي الله تعالىٰ يشفع فيمن وقع في عِرضِه. انتهىٰ. فسررتُ بذلك غاية السرور، فاعلم ذلك، وصدِّق الفقراء فيما يخبرون عن أنفسهم في المواجيد، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٢) ومما أجبتُ به عمَّن كذبني لما ادعيتُ أنني أحبُّ من أساء عليَّ وقطع عِرْضِي أكثر ممن أحسن إليَّ وأجاب عني، ولاث به أصحابي وقالوا له: إنك غير مؤمن بأحوال الأولياء، ونخشىٰ عليك المقت.

والجواب: أن هذا أمر لا يذوقه إلا من سلك الطريق وخرج من رعونات النفوس، وزهد في الدنيا وجاهها وفي المقام عند أهلها، وعامل الله تعالىٰ وحده، وهو مقام عزيز قَلَّ من يتخلق به، فمن كذَّب من ادعاه فهو معذور، لعدم اجتماعه بمن تخلَّق به، وإلا فكون المحسن إلينا بأعماله الصالحة أرجح عند المؤمن ممن أحسن إليه بعَرَض من الدنيا واضح، وما بقي إلا قوة الإيمان بأحوال يوم القيامة لا غير، فمن قوي إيمانه رأىٰ المحسن إليه بأعماله الصالحة أرجح، ومن ضعف إيمانه فهو بالعكس، فاعلم ذلك، وسامح من كذَّبك في تخلقك بالمقامات العالية، فإنه معذور، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٣) ومما أجبتُ به عمَّن كذبني لما ادعيتُ تساوي الذهب والتراب عندي، ولاث به أصحابي، بأنه معذور في إنكاره ذلك، لعزة وجود من تحقق به من الفقراء اليوم، وإلا فهو مقام يصل إليه السالك أول دخوله في الطريق، ولولا ذلك ما صح له بدء في طريق الآخرة، فإياك يا أخي أن تقول: والله مشايخ الإسلام لم يدعوا ذلك؛ لأنا نقول: إن بداية السالك في طريق القوم أن يترك الدنيا بأسرها، ويزهد في كل شيء يشغله عن ربه عزَّ وجلَّ من ذهب وغيره، وإن لم يتسوَّ عنده الذهب والتراب على حد سواء، لا يصح له إخلاص في شيء من أعمال الآخرة، بل هي مخلوطة بالآفات، ولو لم يكن سوى طلب الأجر عليها، ولو لم يعطه الله شيئًا سخط. وقد نقل الفخر الرازي عن طائفة من المحققين أن من عبد الله لثواب أو خوفًا من عقاب لا تصح عبادته، وقال: إنه كالمكره عليها بالخوف إن تركها، ولولا ذلك ما عبد ربه. انتهى.

وقد تقدَّم في هذا الكتاب أن أمر العارف يرجع إلى صورة بلا نية(١)، فيرجح الذهب على التراب، ويدور مع الحكمة التي جعلها الله تعالى في الوجود، فتكون صورته صورة محب الدنيا، والحال أن قلبه فارغ من صحبتها، ويطلب الثواب على عبادته من باب فضل الله عليه، لا من باب الاستحقاق، إظهارًا للفاقة والحاجة، وهروبًا من صورة الغنى إذا لم يطلب ثوابًا من الله تعالى، فإن الله تعالى ما خلق الثواب إلا لعبده، لأنه غني عن العالمين، والعمل يطلب الثواب بذاته.

وسمعتُ شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: تساوي الذهب والتراب يقع للمريدين، ولولا ذلك ما قدر أحدهم يبني في الآخرة شيئًا. وما استبعد حصول ذلك للمريدين إلا من لم يسلك الطريق. انتهى. فسلِّم يا أخي للفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٤) ومما أجبتُ به عمَّن سمعني وأنا أقول: ما استغابني أحد وصدَّقه الناس فيما قال إلا وتكدرتُ على دينه أكثر من تكدري على تقطيعه في عِرضِي؛ فكذبني وقال:

---

(١) الجواب (٨٣٢) وفيه تفصيل مفيد حول مشابهة الكامل لغيره في صورة الفعل مع الاختلاف في القصد.

هذا خروج عن طبع البشر، فإن غاية ما يصل الناس إليه إذا استغابهم أحد أن يسكتوا ولا يقابلوه بسوء، مع تكدرهم منه في الباطن وكظمهم الغيظ.

والجواب: أن من كذبني في ذلك معذور، لعدم ذوقه له، وحجابه بدعواه الكمال، فلما ادعىٰ ذلك ولم يجد ذلك في نفسه أنكره، وكأن لسان حاله يقول: إذا كنتُ أنا مع علمي وتقواي لا أقدر علىٰ التخلق بذلك، فكيف بمن هو دوني؟! ولو أن هذا المكذِّب سلك أوائل الطريق، لذاق ما قلناه. **ولم يزل الناس الذين لم يسلكوا طريق القوم يقولون عن كلِّ مقام لم يذوقوه: هذا مقام الخواص، مع أنه مقام أهل البداية**، وذلك كأن يعبد العبد ربه لا خوفًا من ناره ولا رجاءً لثوابه، فإنه مقام يصل إليه العبد في أول ذوقه لمقام توحيد الفعل لله تعالىٰ، فيُكشَف له عن كون الفاعل هو الله وحده، فيصير يشهد أفعاله كلها لغيره لا يطلب عليها ثوابًا، ولا يخاف علىٰ نفسه من عقاب، ويصير ذوقه يمنعه من شهود أن له مدخلًا في الفعل، فإن كان له شيخ رقاه إلىٰ شهود نسبة الفعل إلىٰ نفسه عملًا بالشريعة؛ وإن لم يكن له شيخ هلك مع الهالكين.

ومن فهم ما ذكرناه من توحيد الفعل لله وحده خلقًا وإيجادًا، لم يتكدر ممن استغابه، لأنه ناظر إلىٰ تقدير الله ذلك عليه، لا إلىٰ من قُدِّر ذلك علىٰ يديه. ومن غاب عن هذا المشهد من الفقراء، فله طريق آخر يسامح به من استغابه، وهو رحمته لمن جنىٰ عليه ولمن أعانه من حيثُ تعديهم حدود الله، فهم لا يحبون أن أحدًا يؤاخذ بسببهم في الدنيا والآخرة، لعلو همتهم وكثرة فتوتهم.

وقول المعترض: «إن هذا الخلق خارج عن طبع البشر» صحيح في حقِّ من لم يسلك طريق القوم، وأما السالك فيقلب ذلك إلىٰ وجه آخر من باب الإيثار علىٰ النفس ورؤية الشفقة علىٰ دين أخيه أكثر مما يشفق علىٰ دين نفسه، فاعلم ذلك. فإن أردتَ عدم الإنكار عليك إذا ادعيتَ شيئًا من المقامات العالية، فأعلم المنكِر بتخلق الفقراء بها، فإذا آمن بها ثم أنكَر، فأنكِر عليه وإلا فهو معذور، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٥) ومما أجبتُ به عمَّن أنكر عليَّ إذا أجبتُ عن نفسي وادعيتُ أن ذلك لغرض شرعي، ولاث بي وقال: لو كنتَ صالحًا لكنتَ رضيتَ بعلم الله تعالىٰ فيك، فإن العبد إذا أساء عليه أحد بين يدي حاكم عادل لا يجور في حكمه ليس له أن ينتصر لنفسه ولا يجيب عنها.

والجواب: أن إنكار هذا عليَّ سائغ، [فكان ينبغي ألا أجيب عن نفسي][1] ولو لغرض شرعي، فما كلُّ أمر جوَّزه الشرع يكون فعله أرجح، فقد يجوِّزه وغيره أحب إليه منه، كما تقدم تقريره في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ: ٤٠] الآية[2]، فلو أني سكتُّ علىٰ من أساء عليَّ ولم أجب، لكان أحب إلىٰ الله تعالىٰ، وفي الحديث: «أن شخصًا قال في عِرض أبي بكر بحضرة رسول الله ﷺ وأبو بكر ساكت، فلما بالغ في عِرْض أبي بكر، شرع أبو بكر في الجواب عن نفسه، فنهض النبي ﷺ قائمًا وقال لأبي بكر: كان مَلَك يجيب عنك وأنت ساكت، فلما أجبت عن نفسك ذهب الملَك وجاء الشيطان، فلم أكن لأجلس في مكان حضره الشيطان»[3]. انتهىٰ. فعُلِمَ أن تكذيب هذا الشخص لي، ونفي مقام الصلاح عني لا ينبغي أن أتكدر منه، لخفاء الوجه الذي ادعيتُ أني أجيب لأجله عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٦) ومما أجبتُ به عن الذي جرحني في مجلس كان أهله يمدحونني فيه، ثم دخل هذا الشخص وأخذ يذمني فيه، وبلغ أصحابي ذلك فلاثوا به.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر التفسير في الجواب (١٢٤٣).

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٨٩٦) من حديث أبي هريرة أنه قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر، فآذاه، فصمت عنه أبو بكر ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر، فقال أبو بكر: أوجدت علي يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان» وأحمد (٩٦٢٤) بنحوه، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٢٤٢).

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشخص، فقد يريد بذلك النفع لي خوفًا عليَّ من الإعجاب بنفسي إذا بلغني مدحي في المحافل، كما هو الغالب في أمثالنا، فكان ذمه لي بعد مدحي مصلِحًا لي كالملح في الطعام، فاللائق بي مدحه لا ذمه ولا التكدر منه، فجزاه الله عني خيرًا. ولا يجوز حمله علىٰ أنه قصد بذلك تنقيصي بغضًا فيَّ، فإنه سوء ظن به، وإذا حصل النفع لي، فلا عليَّ من قصده إضراري، فاعلم ذلك يا أخي واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٧) ومما أجبتُ به عمَّن نسبني إلىٰ الرياء لما أقمتُ إنسانًا يجيب عني كلَّ من آذاني وقلتُ: أنا تابع في ذلك رسول الله ﷺ، فإنه ندب حسَّانًا يجيب عنه المشركين نصرةً للدين وللشارع، وقال: لا يجوز مثل ذلك لأمثالنا، إنما ذلك لمن أخلص لله في دعائه إلىٰ الله كالأنبياء والمحفوظين من الأولياء.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ من أنكر عليَّ ذلك، فإن مثلي لا يسلم من حظِّ النفس في دعائه، أقل ما هناك طلبه الأنس بكثرة أشكاله في المرتبة دون محض إقبالهم علىٰ الله تعالىٰ. ومن شك في قولي هذا من المدعين للإخلاص، فليعرض علىٰ نفسه ما لو برز شخص من أقرانه يدعو إلىٰ الله، فانقلب إليه جميع أصحابه، ولم يبقَ حوله منهم أحد، وصاروا يبالغون في الاعتقاد في الشيخ الجديد، ويحطون علىٰ الشيخ العتيق، فإن تكدر من الشيخ العتيق شعرة، فليعلم صدق من نسبه إلىٰ الرياء بنصب من يشافه عنه. فليحذر الذي عمل شيخًا في النصف الثاني من القرن العاشر من مثل ذلك، وليفتش نفسه، فربما كان يدعي أن رد ذلك الشخص عنه ليس هو لحظ نفس، وإنما ذلك لتحصل براءته عند المدعوين، فينقادوا له لا غير، والناقد بصير، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٨) ومما أجبتُ به عن شيخي إذا وقعت فيَّ مصيبة أو نزلت بيَّ محنة، فتوسلت به في دفعها، فلم يأخذ بيدي، ولم يلتفت إليَّ بوجه من الوجوه وأخذتُ علىٰ نفسي منه، بأنه لا ينبغي لي أن أعتب عليه في ذلك، فربما قصد بعدم مساعدتي في خلاصي من تلك

المحنة التمرين والإدمان علىٰ تحمل الشدائد الآتية في مستقبل الزمان. فإن البلايا في كثرة كلما تقارب الزمان، فلو أخذ بيدي في تلك المحنة حتىٰ خففها عني ثم نزلت بي محنة عقبها، لهدت أركاني لنزولها عليَّ من غير إدمان سابق.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إياك أن تأخذ بيد صاحبك في كل شدة، بل اترك ذلك في بعض الأوقات، ليحصل له الإدمان على الشدائد المستقبلة، وعلى تحمل شدائد الدار الآخرة، فمن تحمل عن صاحبه شدائده في الدنيا، فقد أساء عليه في صورة إحسانه إليه. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: لولا نزول البلايا والمحن على الناس في الدنيا، لذابت عظامهم إذا شاهدوا أهوال يوم القيامة، لكونهم لم يتقدم لهم إدمان[1] علىٰ ذلك في دار الدنيا، ومن فرح هنا حزن هناك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٩) ومما أجبتُ به عمَّن أنكر عليَّ تقريبي لصديقي الذي يجيب عني الأعداء والحاسدين، وجفائي لعدوي الذي ينقصني في المجالس أو عكسه، ولاث به أصحابي وقالوا: الشيخ أعرف منك بالأحوال، ولا يفعل شيئًا إلا لحكمة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به لإنكاره عليَّ ما ذُكر، أما تقريبي لصديقي لأجل جوابه عني فهو هلاك لي، لأنه يسد بجوابه عني رؤية مساوئي، فكان الأولىٰ أخذ حذري منه. وأما إنكاره عليَّ جفائي لعدوي فلا ينبغي اللوث به كذلك، فإن في جفائي له سد باب رؤية نقائصي، حتىٰ لا أكاد أرىٰ في نفسي عيبًا، فأهلك ولا أشعر، فكان الأولىٰ بي القرب منه لا جفاءه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٠) ومما أجبتُ به عن الذي ينقل إليَّ أخبار الناس ونقائصهم، ولاث به أصحابي وقالوا: هذا لا يجوز لك تأتي إلىٰ الفقراء فتحملهم الإثم بذكر نقائص الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوم عليه وحده من هذا الوجه فقط، بل اللوم عليَّ كذلك

---

(١) بالأصلين: أمان، والصواب ما أثبتناه.

الذي غفلتُ عن ربي، حتىٰ وجد الناقل لعيوب الناس عندي محلًّا لذلك، فلو كان محلي مطهَّرًا من القاذورات ما ساق الشيطان إليَّ هذا الشخص بقاذورات الناس. وهذا نظير ما سمعتُه من سيدي محمد الشربيني مرارًا[1] من قوله: اللهم اجعلني ممن تزهد فيه الدنيا، ولا تجعلني ممن يزهد فيها لعلة خفة الحساب مثلًا، أي لأن الدنيا لا تزهد في عبد إلا إذا لم ترَ لها محلًا تقيم عنده فيه، فيصير الأصحاب يسحبون الدنيا إليه، والدنيا تتأخر وتنفلت من يدهم من شدة معرفتها بنفرة قلبه منها.

فليحذر الفقير الساذج من إصغائه إلىٰ قول من ينقل إليه أحوال الناس التي يستحيي العبد أن يواجههم بها، فإن ذلك حرام بإجماع، وليزجر كلَّ من نقل إليه غيبة أحد، لئلا يعود إليه ثاني مرة، ويقول له: أما وجد إبليس أحدًا يرسله قاصدًا في هذه القاذورات غيرك؟! ولا أحد أخس في عينه مني؟!

وقد كان سيدي علي الخواص ﷺ إذا نقل إليه أحد عن عدوه كلامًا يقول له: اجلس، ثم يرسل إلىٰ عدوه ويقول: هذا نقل عنك أنك قلتَ كذا وكذا في حقِّي هل هو صحيح؟ فإن قال: لا، وجب تكذيب النمَّام وتصديق العدو، وإن قال: نعم قلتُ ذلك فيك؛ قال له: اللهم اغفر لك إن كنتَ كاذبًا، واغفر لي إن كان ما قلتَه عني صدق، ثم يأخذ الفقير من ذلك الناقل حذره حسب الطاقة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: يجب علىٰ الشيخ أن يحث الفقراء علىٰ ترك نقل النميمة في الزاوية، وإن كان لابد لهم من نقلها، فلينقلوها للشيخ ليبني علىٰ ذلك مقتضاه بحسن سياسة، وإلا خربت الزاوية، وأرمىٰ الشيطان بين الفقراء العداوة والبغضاء حتىٰ يرحلوا من الزاوية من شدة الكدر والنكد، ويحذرهم من نقل أحدهم النميمة، ومن قوله إذا قيل له: من أخبرك بها؟ قال: شخص لا ينبغي ذكره، فإن بذلك يركض الشيطان في الزاوية، وإنما نهىٰ الشرع عن نقل النميمة حيث حصل بها فساد. وأما إذا حصل بها صلاح فلا بأس بذكرها، وفي القرآن العظيم قال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ

---

(١) ذكر في «الوسطىٰ» أنه التقىٰ به مرةً واحدةً فقط.

لِيَقۡتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] فافهم. ويكون على علم الفقراء أن الشيخ نائب الحق تعالى في مناقشة إخوانه ومحاسبتهم على كلِّ ما يقع منهم، ليخف زمن وقوفهم للحساب يوم القيامة، ويدلهم على ما يكفر ذنوبهم في هذه الدار، ليدخل أحدهم قبره وهو قليل الذنوب من تبعات الخلائق وغير ذلك، فاعلم ذلك. ولا يفتك[1] إذا نقل أحد إليك تهمة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩١) ومما أجبتُ به عمَّن رآني تكدرتُ من كلام قيل فيَّ وقال: ليس لفلان قدم في طريق القوم، وما كنتُ أظنه في هذا الجهل العظيم بنفسه؛ ولاث به أصحابي وقالوا: إنما يتكدر الشيخ لغرض صحيح.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إذا نفى مثلي من طريق القوم، فإن تلك طريق قد نبت فيها الشوك وأحدنا غارق في شهوة بطنه وفرجه وجاهه ومحبة الاعتقاد فيه ليلًا ونهارًا، فكيف يصح لمثله الخروج عن حظ نفسه إلى الأغراض الصحيحة؟! فيجب على أحدنا الرياضة على يد شيخ مرشد حتى يخرج عن رعونات نفسه، ويصير يتكدر لغرض صحيح. وليعلم الفقير أنه لو عبد الله تعالى حتى صار في رتبة القطب لابد أن الناس فيه قسمان: محب ومبغض، كما قال الإمام مالك رحمه الله لعبد الرحمن بن القاسم[2] لما اختفى أيام الفتنة: ما تقول الناس فيَّ؟ فقال له: يا أبا عبد الله، المحب لا يقول إلا خيرًا، والمبغض لا يخفى عليكم حاله. فقال الإمام مالك رحمه الله: ما زال الناس كذلك لهم محب ومبغض، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلِّها علينا بالذم. انتهى. فعُلِمَ أن من خفة عقل الشخص أن يطلب من الناس كلِّهم أن يحبوه، فإن ذلك لا يصح لأحد، ولو

(١) بالأصلين: لم يفتنك. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

(٢) عبد الرحمن بن القاسم العُتقي المصري، أبو عبد الله، ويعرف بابن القاسم، عالم الديار المصرية، كان ذا مال ودنيا فأنفقها في العلم، فقيه جمع بين الزهد والعلم، وتفقه بالإمام مالك، مولده ووفاته بمصر، له المدونة وهي من أجل كتب المالكية رواها عن الإمام مالك، توفي سنة ١٩١ هـ. «تاريخ الإسلام» (٤٤/ ١١٤٩)، «الأعلام» (٣/ ٣٢٣).

كان في فضل الإمام أبي بكر الصديق ﷺ. وقد أنشدني شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله:

اعمل لنفسك صالحًا لا تحتفل   بظهور قيل في الأنام وقال
فالخلق لا يرجىٰ اجتماع قلوبهم   لابد من مثن عليك وقالي

انتهىٰ، فاعلم ذلك، واعذر من كذَّبك في دعواك الإخلاص في المقامات العالية، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٢) ومما أجبتُ به عن الذي يفضل أقراني عليَّ ويقول عني: إن فلانًا لا يصلح أن يكون من طلبة فلان؛ ولاث به أصحابي وقالوا له: اعكس تُصِب، بأنه لا ينبغي اللوث به، فإنه مجتهد في الترجيح، ليدل الناس علىٰ مقام الراجح ليقوم الناس بواجب حقِّه، وعلىٰ مقام المرجوح ليبادر إلىٰ الاشتغال بالعلم، ليصير الآخر راجحًا علىٰ غيره. ويُحتمَل أنه من كثرة محبته فيَّ جعلني مرجوحًا، خوفًا عليَّ من العُجْب في علمي وعملي، وأنا عنده في العلم أرجح من غيري، و**الخمول نعمة وغالب النفوس تأباه.**

وقد تقدم أن السلف الصالح كان أحدهم يتحرز من مدح أخيه، خوفًا من نقص أجره في الآخرة إذا أحدق الناس عيونهم إليه وعظَّموه. وسمعتُ سيدي عليًّا البحيريَّ رحمه الله يقول: إذا فاضل أحد بينك وبين أحد من العلماء والصالحين، فقل: الحمد لله الذي رأىٰ مقامي قريبًا من مقام العلماء والصالحين حتىٰ فاضل بيني وبينهم، ولو أني كنتُ عنده في مرتبة العوام ما فاضل بيني وبين أحد منهم، واحذر أن تتكدر من ذلك، فإنه دليل علىٰ قلة الإخلاص في العلم. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٣) ومما أجبتُ به عن المنكرين عليَّ إذا عملتُ مولدًا أو عرسًا، ودعوتُ إليه العلماء والصالحين والأمراء والتجار والمباشرين، ولاثوا بي وقالوا: هذا كلُّه رياء وسمعة، بأنهم قد أصابوا في إنكارهم عليَّ، لتكليفي العلماء في الحضور، وربما كان أحدهم مشغولًا في تحرير مسائل في الشريعة يتعدىٰ نفعها إلىٰ المسلمين، فيتعوق عن ذلك بحضوره عندي. وربما كان الصالح في محل جمعية في خلوته مع ربِّه عزَّ وجلَّ،

فحصل له التفرقة بخروجه إلىٰ وليمتي. وربما كان الأمير مشغولًا بتدبير أمر المملكة الذي به نظام شمل العالم. وربما كان التاجر مشغولًا بأموره وتهيئة ما اشتراه منه الناس ليسلِّمه إليهم. وربما كان المباشر وراءه كتابة في الديوان أو مباشرة في وقف ودعاه المفتش إلىٰ عمل حسابه ذلك اليوم، فيحضر وقلبه مشغول. وربما طوَّل المقرئون أو المنشدون في ذلك المحفل، فصار أحدهم متقلقًا. ويخاف علىٰ كسر خاطر صاحب الوليمة إن خرج، خوفًا أن يقوم الناس ويتبعوه في الانصراف. وربما حصل له حصر بول أو غائط، فصار في غاية التشويش، فما لمثلي أن يدعو أحدًا من الأكابر إلىٰ وليمته أبدًا إلا بنية صالحة وأنى لنا بها!

وسمعتُ سيدي عليًّا الخوَّاص رحمه الله يقول: من النية الفاسدة أن يدعو الفقير الأكابر وغيرهم فخرًا ورياء، ويتكدر ممن يسمعه يقول: كان مولد الشيخ الفلاني أكثر جماعة من مولد فلان. وسمعتُه يقول: لا ينبغي لفقير أن يدعو أحدًا من العلماء وغيرهم إلىٰ وليمته إلا إن جعل لهم من أعماله الصالحة بقدر ما فاتهم بحضور مولده.

ونقل الخطَّابيُّ وغيره أن أكابر السلف الصالح من الصحابة والتابعين لم يكونوا يدعون أحدًا إلىٰ بيوتهم، وإنما كانوا يحملون الطعام إلىٰ المسجد ويبيحونه لكلِّ الناس، خوفًا من آفة التعيين، فاعلم ذلك، واشكر فضل من أنكر عليك دعاء الأكابر إلىٰ وليمتك، فإنه نصحك، لاسيما إن كان في الطعام شبهة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٤) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي دخل علىٰ عبد الله بن بغداد حين كان بيني وبينه عداوة من أجل تردد عدوه إليَّ، وقال له: أنا من عصبتك، وعبدُ الوهاب من صف عدوك؛ فلاث به أصحابي وقالوا: هذا حرام علىٰ هذا الفقيه لما فيه من الفتنة، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون قصد بذلك تنفير عبد الله مني حتىٰ لا يلحقني التعب من جهة صحبته والركون إليه لغرض دنيوي، ووقوعي في الإثم

بسبب عدم إنكاري عليه ما يقع فيه من ظلم الرعية وأخذ أموالهم بغير حقٍّ شرعي. ويُحتمَل أنه ما قال له: أنا من عصبتك إلا ليميل إليه عبد الله، ثم إنه يسارقه بأسباب الصلح بيني وبينه، فهو من باب المداراة لا من باب رمي الفتنة بيني وبين عبد الله أو زيادتها فافهم، فجزى الله هذا الفقيه عني خيرًا، آمين.

(١٣٩٥) ومما أجبتُ به عمَّن اعترض عليَّ في قولي: اللهم اجعل جميع من يستغيب العلماء والصالحين وغيرهم يستغيبني أنا، لأني أسامح من اغتابني، وربما أن غيري لا يسامحه؛ ولاث به أصحابي وقالوا له: هذا مقام يناله الفقراء، فما لك وله؟! فقال: إنما اعترضتُ عليه لكونه لا يقدر على مثل ذلك عادةً، فخفتُ عليه أن يخل بعهده مع الله تعالى، مع أن في قوله: إنه يسامح الناس دون غيره تزكية للنفس وتجريحًا للناس.

والجواب: أن الصواب مع هذا المعترض عليَّ، فإن النفس كثيرة الدعوى، كثيرة الخيانة، فالعبد وإن أحب أن يفدي العلماء والصالحين بنفسه لا ينبغي له إفشاء ذلك، لكونه مقامًا عزيزًا تستلذ النفس بشفوفها به على أبناء جنسها، فجزاه الله عني خيرًا، فإن عمل السرِّ يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفًا، اللهم إلا أن يريد العبد إظهار مثل ذلك ليقتدي به أصحابه فلا بأس. وعليه يُحمَل قول سيدي عليٍّ الخواص ﵀ مع كونه كان كتومًا لأعماله: والله إني لأودُّ أن أفدي جميع العلماء والصالحين بنفسي في جميع ما ينقصهم الناس به، لكونهم حملة الشريعة، وفي تجريحهم تجرؤ للناس على ارتكاب الرذائل إذا صدَّقوا أعداءهم في التنقيص، والإخلال بواجب حقوقهم، فربما وقع أحدهم في معصية أو نُسِبَ إلى فاحشة فقال: أيش هو أنا بالنسبة إلى فلان العالم أو الصالح؟! فيصير يستشهد به ويثبت ذلك الجرح في حقِّه لا يكاد يزول بحيلة من ذهنه، فيعدم الناس النفع بالعلماء والصالحين، ولا هكذا مثلي، فإني رجل مجهول الحال في الدنيا لستُ معدًّا للاقتداء بي. انتهى. فاعلم ذلك، واقبل النصح ممن أمرك بكتم أعمالك، وكذَّبك في دعواك القوة على تحمل جميع النقائص التي يرمي الأعداء بها العلماء والصالحين، فإنه مقام عزيز، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٦) ومما أجبتُ به عن عدوي إذا نزلت فيَّ مصيبة وأظهر للناس الشماتة. [ولاث به أصحابي وقالوا: إن إظهار الشماتة][1] **بالمسلم لا يجوز.** بأنه ربما جهل تحريم مثل ذلك، ولو أنه علم تحريمه لم يشمت بي. فينبغي لمن أنكر عليه ذلك أن يفتش حال ذلك الشامت قبل أن ينكر عليه، فإن رآه جاهلًا بمثل ذلك أعلمه بتحريمه ثم بعد ذلك ينكر عليه، بشرط أن يكون عامدًا ذاكرًا للتحريم، فإن كان ناسيًا أو غافلًا أو ساهيًا، فيدعو له بالمغفرة ويسامحه، ليسامحه الله تعالىٰ إذا وقع الآخر في شماتة أحد.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي رحمه الله يقول: لا يخلو عدوك من أمرين إذا آذاك: إما أن يكون إيذاؤه لك بحق، فالتكدير منه حمق؛ وإما أن يكون بغير حق، فالغضب منه كذلك حمق، ويجب عليك الدعاء له بالتوبة والاستغفار له، لأنه مبتلىٰ في دينه، واللائق بك الدعاء له لا الدعاء عليه، لأنك تزيده بذلك مقتًا من الله تعالىٰ، وأين أخوه الإسلام التي أخاها الحق تعالىٰ بينك وبينه بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؟! فاعذر[2] يا أخي من شمت بك، وإياك والشماتة بأحد من المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٧) ومما أجبتُ به عمَّن أنكر عليَّ وصولي إلىٰ مقام صرتُ أحب العالم الذي أنكر عليَّ وأخرجني عن اتباع الشريعة أكثر ممن اعتقد صلاحي وولايتي، وجعلني من رؤوس أهل السنة والجماعة، ولاث بي وقال: هذه دعوىٰ عريضة، لخروج صاحبها عن طبع البشر.

والجواب: أن هذا المنكر معذور في إنكاره، لأنه مقام عزيز، ولا يناله إلا أفراد من الناس، وقوله: «إن صاحب هذا المقام خارج عن طبع البشر» صحيح، لأن الفقير إذا سلك بالرياضة صار مَلَكيًا روحانيًا لا رعونة عنده، بل هو دائر مع الحق حيث دار ولو كان فيه هلاكه، **وما يتمكن أحد في مقام محبة رسول الله ﷺ إلا وصار يحب كلَّ من أنكر عليه، نصرةً لجانب شرع حبيبه محمد ﷺ أكثر من نفسه،** بل يصير يكره نفسه إذا خرجت عن

---

(١) سقط من «ب».

(٢) بالأصلين: فاعذر.

ظاهر الشريعة، ويتمنىٰ لها التأديب والعقوبة، ويجعل اللوم عليها لا علىٰ المنكرين عليه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من تكدَّر ممن أنكر عليه فهو جاهل بمراد الشارع ﷺ، فإنه أمَّن علماء الشريعة عليها بعده، وأوجب عليهم الذب عنها بحسب اجتهادهم، ولو أن العبد كان كامل المحبة للشرع، لغار عليه أكثر من غيرته لجانب الحقيقة، لأن السلطان للشرع في هذا الدار، وأما الحقيقة فإنما ظهور سلطانها في الجنة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٨) ومما أجبتُ به عمَّن أنكر عليَّ إذا نقل أحد إليَّ نميمة، أو استغاب أحدًا في مجلسي وقال: لو كان باطنك مطهَّرًا ما تجرَّأ أحد أن ينقل إليك غيبة ولا نميمة؛ فلاثوا به أصحابي وقالوا له: هذا أمر ليس في قدرة العبد ردُّه، ولم يزل الأكابر من السلف الصالح الذين لا يصلح أحدنا أن يكون خادمًا لهم يقع في مجلسهم الغيبة والنميمة، ولكن ينكرون علىٰ ناقلها، ولم يبلغنا أن أحدًا من إخوانهم المتورِّعين أنكر عليهم في وقوع ذلك في مجلسهم.

والجواب: أن المنكر علينا مصيب، فإنه لا يُجلَب إلىٰ السوق إلا ما يُباع فيه. وأما كون السلف الصالح لم يكن أحدهم يدفع النمَّام عن مجلسه، فلا يقدح ذلك في كمالهم، لغلبة ظنهم الخير في الناس، وأنهم لا يذكرون لهم نميمة ولا غيبة، والدفع لشئ إنما يكون بعد تحققه، فعُلِمَ أن الواجب علينا تنظيف باطننا من سائر الرذائل حتىٰ لا تجد الرذائل لها موضعًا تقيم فيه عندنا، ثم بعد ذلك نجعل اللوم علىٰ أنفسنا سدًّا لباب ذكر نقائص الناس في مجلسنا إلىٰ أن نصل إن شاء الله تعالىٰ إلىٰ المقام الذي ذكره المنكِر علينا من وصولنا إلىٰ دفع النمَّام عن مجلسنا بالقلب، فإنه لولا خبث باطننا ما ساق إبليس لنا من يزيدنا قذرًا بذكر عيوب الناس. ولا ينبغي الإنكار علىٰ المنكر علينا، لأنه طلب لنا النظافة التامة، وظنَّ فينا أننا من الصالحين حتىٰ كلفنا بدفعنا النمَّام بالقلب عن مجلسنا حتىٰ لا يدخله أبدًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٩) ومما أجبتُ به عن العالم الذي سمعني أقول: إني أحب من يؤذيني وينقصني في المجالس أكثر ممن يحبني[1] ويجيب عني ويمدحني، وأحب أن أقاسمه يوم القيامة في حسناتي إن كان لي حسنات هناك، ثم لا أرىٰ أنني كافأته علىٰ ما فعله معي من الخير؛ فكذبني وقال: هذه دعوىٰ باطلة، لأن ذلك خروج عن طبع البشر!

والجواب: أن هذا الذي كذبني معذور، لأنه مقام لا يكون إلا لبعض أفراد من الفقراء الصادقين، فلما نظر هذا العالم فلم يجد أحدًا من أهل عصره تخلق به، أنكره عليّ، ومثل هذا يجب عليّ مسامحته لجهله بحصول ذلك لمثلي. ولا ينبغي اللوم عليه إلا لو كان يعلم مني ذلك، ثم أنكره حسدًا وعدوانًا، لا خوفًا عليّ من العُجْب.

وممن أدركتُه قد تخلق بهذا المقام سيدي عليًا المرصفي، وسيدي الشيخ محمد الشناوي، وأخي أفضل الدين رحمهم الله تعالىٰ، فكانوا يحبون مقاسمة أعدائهم في أموالهم في الدنيا، وفي حسناتهم في الآخرة، وهو خلق غريب من أعظم أخلاق الرجال. وقد مَنَّ الله تعالىٰ عليّ بالتخلق به، فأنا بحمد الله أحبُّ مقاسمة أعدائي لي في جميع ما يدخل يدي من الأموال، وفي حسناتي في الآخرة إن كان لها وجود من غير توقف، ثم لا أرىٰ بذلك منَّة عليهم.

وقد قيض الشيطان لي جماعة بعد جماعة في مصر لم يزالوا يرموني بالبهتان والزور الذي لا أعلم أنني وقعتُ فيه، فأشكر فضلهم علىٰ ذلك، وأرىٰ فضلهم عليّ بذلك، من حيثُ إنهم ذكَّروني بعيوبي ونقائصي التي نسيتُها من كثرة مدح الناس لي ووصفي بالصلاح، فجزاهم الله -يعني الأعداء- خيرًا، فإني لا أقوم لهم بجزاء، ولم أزل أزداد فيهم محبة، وأذكرهم بالكمالات كلما نقصوني وآذوني، لاسيما الذين دسوا في كتبي ما دسوا من العقائد الزائفة، وأشاعوها عني في جامع الأزهر وغيره، فإني ذكرتُهم في طبقات العلماء العاملين، وسألتُ الله تعالىٰ أن يغفر لهم، وعاهدتُ أصحابي لا أدخل الجنة إلا إن دخلوها قبلي.

---

(١) بالأصلين: يكرهني. والصواب ما أثبتناه.

وإيضاح شهودي منّة الأعداء عليّ كلما آذوني أنهم حكموني بذلك في حسناتهم في الدار الآخرة كما ورد في الصحيح[1]، فآخذ منها ما شئتُ بقدر حقي الذي يعنيه الحق تعالىٰ هناك، حتىٰ كأن حسناتهم من جملة أعمالي أنا، وهذا أعز من الإحسان إليّ بالدراهم والدنانير في دار الدنيا، ثم كلما آذوني أكثر كلما أحببتُهم أكثر، وسمحت نفسي بمقاسمتهم في حسناتي، مع أنهم بكثرة إيذائهم لي قد بالغوا في إثبات حقي عليهم، وتحكيمي في حسناتهم، فكما أهدوا إليّ حسناتهم في الآخرة وإن لم يقصدوا ذلك، فكذلك من المعروف إهدائي لهم حسناتي، وإن كان إهدائي ذلك بطيبة نفس مني، وإهداؤهم لي كرهًا عليهم، لأنه حيثُ ما حصل لي النفع فلا عليّ قصدوا ذلك أم لم يقصدوه، فكانت مقاسمتي لهم في حسناتي من باب المكافأة لهم علىٰ إحسانهم.

ثم لما تحققتُ بذلك أعطاني الله تعالىٰ عدم أخذي شيئًا من حسناتهم في الآخرة، ولو حكمني الله تعالىٰ فيها شفقةً عليهم، لأن حكم هؤلاء في الآخرة حكم الرجل الذي ارتكبته الديون لسائر الخلائق، وصاروا عليه حِلَقًا حِلَقًا وليس معه شيء، فكان من المعروف مسامحتي له، ولا أدخل عليه كربًا فوق ما هو فيه من الكرب. وقد قالوا: الرجل هو من يكون له اليد علىٰ الناس في الدنيا والآخرة.

وأنا بحمد الله إن شهدتُ لي اليد علىٰ أعدائي من وجه، فأنا أشهد أن لهم اليد عليّ من وجوه عديدة: منها أنهم بإيذائهم لي وصبري عليهم حصل لي الإدمان علىٰ تحمل الأهوال في الدنيا والآخرة؛ ومنها أنهم فتحوا لي بإيذائهم وتنقيصهم باب شهود نقائصي وعيوبي كما مرَّ؛ ومنها أنهم أزالوا عُجْبي بأعمالي وأحوالي بذكر نقائصي، حتىٰ صرتُ أرىٰ نفسي من أقل الناس دينًا، عكس ما كنتُ أشهده في نفسي قبل ذلك؛ ومنها أنهم حكموني في حسناتهم بذلك.

ومن إساءتي أنا عليهم كوني كنتُ[2] سببًا لمقت الله تعالىٰ لهم، وهتك سوءاتهم،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) كذا بالأصلين.

وإن لم أقصد أنا ذلك، كما وقع لشخص معروف في مصر أنه افترىٰ عليَّ أمورًا فسامحتُه فيها، فما مضت ليلة حتىٰ كبسوه بفاحشة، واحتاط به أهل حارته مع جماعة الوالي، فامتلأت مصر بذلك، ومثل هذا لو أني أعطيتُه جميع أعمالي الصالحة في نظير ما حصل له من الهتيكة، لم أراني كافيه علىٰ ما حصل له بسببي، ووالله إني لأستغفر الله تعالىٰ له، وأهدىٰ في صحائفه كلَّ عمل رجوتُ قبوله إلىٰ وقتي هذا.

وقد حكىٰ الشيخ محيي الدين بن العربي عن شيخه ابن الخطاب[1] رحمه الله قال: رأيتُ رب العزة في المنام، فقلتُ: يا رب علمني شيئًا أرويه عنك بلا واسطة. فقال: يا ابن الخطاب، من أحسن إلىٰ من أساء إليه، فقد أخلص لله شكرًا، ومن أساء إلىٰ من أحسن إليه، بدَّل نعمة الله كفرًا. قال: فقلتُ: يا رب حسبي. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ وأنت لم تسلك طريقهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي أنكر عليَّ إنكاري علىٰ من يتداوىٰ بإشارة يهودي أو نصراني وقال: لم يزل السلف الصالح من العلماء يتداوون بإشارة الكفار، من حيثُ إن ذلك أمر راجع إلىٰ أحكام الدنيا دون الدين، وقال: ثبت عن سفيان الثوري وبشر الحافي وعمر بن عبد العزيز أنهم تداووا بإشارة حكماء اليهود، ودخل علىٰ سفيان الثوري طبيبان يهوديان، فلما خرجا قال: لولا أخشىٰ أن تكون غيبة، لقلتُ: إن أحدهما أطب من الآخر. ولما مرض عمر بن عبد العزيز عرضوا بوله علىٰ الحكيم الكافر، فقال: هذا بول رجل قد قطع الخوف من الله تعالىٰ كبده! وأطال هذا في الاستدلال عليَّ.

والجواب: أن علة منعي التطبب[2] بالكفار مما يخفىٰ علىٰ مثل هذا العالم، وهي خوف الميل إلىٰ الكافر بالطبع إذا حصل الشفاء علىٰ يديه بواسطة انتهاء مدة المرض، فيصير يعترف للكافر بالفضل كلما رآه، ويقول: فضلك سابق عليَّ يا معلم، فيريد هذا

---

(١) علي بن الخطاب الجريري. كان من أكابر الصالحين ومن رؤوس الأولياء الشامخين. صدره للسالكين مشروح، وبابه للمريدين مفتوح، وهو من شيوخ مشايخ العارف ابن عربي رحمه الله. «الكواكب الدرية» (١٩١/ ٢).

(٢) بالأصلين: الطبيب. والصواب ما أثبتناه.

الذي شفي من مرضه علىٰ يدي الكافر أن يعاديه بالقلب كما أمره الله تعالىٰ فلا يقدر. وقد كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: دوموا علىٰ عداوتكم للكفار تقليدًا للحقِّ تعالىٰ ولو رأيتموهم عملوا من الخيرات ما عملوا. انتهىٰ. ومن هنا كره بعض العارفين قبول هدية الكافر من حيثُ إنه يصير نعود إليه بالود. ويؤيد ذلك حديث: «جبلت القلوب علىٰ حب من أحسن إليها»[١]. انتهىٰ. وإنما قبل ﷺ هدية المقوقس[٢] وغيره من الكفار تأليفًا لقلوبهم علىٰ الإسلام، ولعصمته ﷺ من أن يميل إلىٰ أحد من أعداء الله عزَّ وجلَّ.

وقد منَّ الله تعالىٰ عليَّ ببغض اليهود والنصارىٰ، مع شدة اعتقادهم فيَّ الصلاح، ولم يصدني عن بغضهم كثرة اعتقادهم فيَّ، وذلك لي بحكم الإرث الإبراهيمي من أبينا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، فإنه محبوب إلىٰ سائر الطوائف لا نعلم أحدًا يكرهه منهم، وكثيرًا ما يرسل اليهود والنصارىٰ أولادهم لأدعو لهم، فأتعجب من ذلك غاية التعجب وأقول: كيف يصح لهم الاعتقاد في أهل الإسلام مع أن دينهم يخالفه؟! وهذا من جملة ما خصني الله تعالىٰ به عن غالب أقراني. فاعلم ذلك يا أخي، واعذر العالم إذا أنكر عليك شيئًا لم يذقه ولا عرف علته، فإنه معذور، لاسيما إن كان ضد ذلك هو المنقول عن سلفه من العلماء، كما تقدم عن سفيان وبشر وعمر بن عبد العزيز، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠١) ومما أجبتُ به عن الذين آذوني في مصر، وهم ثلاثة أنفس لا غير، وسائر أهل مصر برد وسلام، وكان هؤلاء الثلاثة أعداء لبعضهم بعضًا، ولكنهم اجتمعوا عليَّ لمزاحمتي لهم في اسم الفقر لا غير، فإني لم أزاحم أحدًا منهم في وظيفة، ولا تزوجتُ لأحدهم مطلقة، ولا زاحمتُه في رئاسة حتىٰ درجوا إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، وقد ذكرتُ مناقبهم في «طبقات العلماء والصالحين» وترحمتُ عليهم، وقصدتُ بذكرهم في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) المُقَوْقِس: هو لقب واسمه جريج بن مينا، أرسل له النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه بعد صلح الحديبية، أهدىٰ المقوس للنبي ﷺ السيدة مارية وأختها سيرين، وبلغة شهباء، وحمارًا أشهب، وثيابًا، وعسلًا، وقد ظل المقوقس علىٰ نصرانيته إلىٰ أن مات. راجع الإصابة (٦/ ٢٩٥).

«الطبقات» دوام الترحم عليهم مادام الكتاب موجودًا.

إذا علمت ذلك، فمما آذوني به أنهم دخلوا خلوتي، فشموا عندي رائحة نبق[1] حامض، فظنوا أنه خمر، فأشاعوا عليَّ أني أشرب الخمر، ولولا شربي له ما كان عندي، فلما نازعهم الناس في ذلك، أتوا بهم علىٰ غفلة وقالوا لهم: شموا. فقالوا: نشم رائحة خمر! فأخرجتُ لهم وعاء النبق، فاستغفروا الله تعالىٰ وانصرفوا.

ومما آذوني به إشاعتهم عني أني أبغض أبا بكر وعمر ، حتىٰ جاءني الأمير يوسف بن أبي أصبع يومًا، فقال لي: قل: رضي الله عنهما، فكررها عليَّ مرارًا وأنا أقول: رضي الله عنهما. فقلتُ[2]: سله لم هذا الأمر؟ فقال: بلغني من جماعة أنك تبغضهما! ففتشتُ عن سبب هذه الإشاعة، فرأيتُ سببها محبة العجم المقيمين عند مقام الإمام زين العابدين لي، فقالوا: لولا أنه رافضي ما أحبَّه الروافض[3].

ومما آذوني به إشاعتهم عني أنني ادعيتُ الاجتهاد المطلق كالإمام الشافعي ، وحصل بذلك فتنة فأخمدت، حتىٰ انتصر لي الشيخ نجم الدين الغيطي وأجاب عني بخمسين جوابًا.

ومما آذوني به إشاعتهم عني أنني أخطئ الأئمة المجتهدين، ففتشتُ عن سبب ذلك، فقالوا: إن كلَّ مجتهد يقول: إن الحق معه دون غيره، وهذا يجيب عن الأئمة، فيرد تخطئة من خطأهم! وهذا محض تعصب منهم! فإن حمل كلام الأئمة علىٰ محامل حسنة ليس بتخطئة لهم.

ومما آذوني به وهو أعظم الأمور دسهم في كتبي العقائد الزائغة، والمسائل الخارقة

---

(١) النبق: نوع من ثمار الأشجار أصغر من الزيتونة، يعرفه المصريون باسم «النبأ».

(٢) أي قال الإمام في سره.

(٣) ومحبة الروافض له وراثة إبراهيمية، فإن صاحب مقام الوراثة الإبراهيمية تحبه جميع الطوائف مسلمهم وكافرهم، كما تقدم قريبًا.

لإجماع الأئمة، وإشاعتهم عني ذلك مدة سنة، فلا يعلم عدد من استغابني ووقع في عرضي إلا الله عزَّ وجلَّ.

ومما آذوني به إشاعتهم عني أنني من الفرق الهالكة، ففتشتُ عن سبب ذلك، فرأيتُهم أخذوا ذلك من تأليفي علوم القرآن العظيم المأخوذة من طريق الكشف دون الفكر والنظر، فإني ذكرتُ نحوًا من ثلاثة آلاف علم لا يمكن لأحد ولو ارتفعت رتبته في علم المعاني والبيان أن يستخرج منها علمًا واحدًا، وسردتها على عدد سور القرآن العظيم، وقد أخذها الشيخ شهاب الدين ابن عبد الحق، فمكثت عنده نحو شهر، فقال: الأولى لك إلقاؤها في البحر. فقلتُ: هل هي باطلة؟ فقال: لا، ولكن لعدم وصول الفهم إليها، فإني عجزتُ أن أعرف مآخذ علم منها فلم أقدر، وما عجزتُ أنا عنه، فغيري أعجز، لأني أقول في نفسي إنني عالم مصر والشام والحجاز والروم ولم أفهم منها علمًا واحدًا.

ومما آذوني به أنني أقول بجواز تقديم الصبح في وقت العشاء، والظهر في وقت الصبح، والمغرب في وقت العصر، وأرسلوا بذلك كتابًا من مكة، فما رجعتُ من سفر الحج إلا ومصر ملآنة بتلك الإشاعة، وهي بهتان وزور، وإنما نقلتُ لصاحبنا الشيخ شمس[1] الدين الخطيب الشربيني عن محمد بن سيرين وابن المنذر أنهما كانا يقولان: يجوز لمن وراءه حاجة أن يقدم الصلاة عن وقتها ما لم يتخذ ذلك عادة؛ فالتقطها شخص من هؤلاء الثلاثة وقال: فلان يقول بتقديم الصلاة عن وقتها بغير عذر شرعي، وأفتى أهل المركب بذلك، فلا تسأل يا أخي عن عدد من اغتابني في مصر وقراها.

ومما آذوني به إشاعتهم عني في مصر أنني أقول بجواز إعطاء المكوس للمكَّاسين ابتداءً من غير خوف ضرر، ففتشتُ عن ذلك، فرأيتُ سببه أنني نقلتُ عن سيدي إبراهيم المتبولي أنه كان يقول: أعطوا الخفراء خفارتهم في نحو غزة وقِطِّية[2] قبل أن يسألوكم، ولا تظنوا أن ذلك من المَكْس الحرام كما يتوهمه بعضهم، فإن المكس إنما هو ما يأخذه

---

(١) بالأصلين: شهاب. والصواب ما أثبتناه.

(٢) قطية: قرية كانت تقع في شبه جزيرة سيناء في الطريق بين مصر والشام. وقد اندثرت الآن.

الظلمة ممن هو آمن من قطَّاع الطريق، وأما من جاء في خفارة سيف السلطان فليس هو بمكس، بدليل أن السلطان إذا مات ولم تحصل ولاية لأحد، تصير الطريق مخوفة لا يتجرأ تاجر يخرج بماله في البراري والقفار خوفًا من قطَّاع الطريق، فإن قدر أن أحدًا خرج في ظل سيف نفسه أيام موت السلطان فما يأخذونه منه مكس. هذا ما نقلتُه عنه وقلتُ عقبه: هكذا قال الشيخ فليتأمل.

[ذكر بعض العهود التي دُست في «المواثيق والعهود»]

ومما آذوني به أنني أقول: يجب على العبد أن يشهد على معاملته ثمانية شهود في هذا الزمان، وأنه لا يكفي في ذلك شاهدان ولا أربعة، وأنه يستحب الوقوف على المشعوذين والحلقية وخيال الظل ونحو ذلك، وأن بنات الخطا لهم فضل على الحرائر، ولولاهن لوقع العيَّاق على الحرائر. **وهذه الأمور من جملة ما دسوه في كتاب «العهود»**.

ومما آذوني به مكاتبتهم للسلطان سليمان بأنني خارجي، وأن أتباعي الآن نحو ثلاثين ألفًا، وإن لم أخرج من مصر حصل خلل في المملكة.

ومما آذوني به أنني أمنع جماعتي من الاشتغال بالعلم وأقول لهم: اشتغلوا بالذكر فقط، والحال أن قراءة كتب الفقه والأصول والنحو تقرأ عندنا طول السنة. وبقي أمور كثيرة تبنو عنها الأسماع.

والجواب عن جميع من آذاني: حصول شبهة قامت عندهم في كلامي بحسب إشاعة هؤلاء الثلاثة الذين تقدم ذكرهم، وظن الناس فيهم الخير والصلاح، وأن مثلهم لولا ثبت عندهم ذلك ما أشاعوه، مع اعتقادهم فيَّ أنني أميٌّ ليس لي قدم في علم الشريعة، [كبعض المتمشيخين في عصرهم من الساذجين الذين يعتقدون المشيخة بالجلَّاس][1] من غير علم كمشايخ الأحمدية من السمران ونحوهم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين. وإياك والمبادرة إلى الإنكار عليَّ في إجابتي عن أعدائي، فإنه مقام يصله

---

(١) ساقط من «ب».

السالك في أوائل بدايته في الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٣) ومما أجبتُ به عمَّن قال لي: يا فاسق يا قليل الدين؛ ولاث به أصحابي وقالوا له: حاشا الشيخ من مثل ذلك، إنما هذه فتنتك أنت.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشخص إلا بعد أن يفتشني أصحابي ويجدوني سالمًا من الكبائر والصغائر والمكروهات، وهناك يجوز لهم الرد عني. وأما قبل التفتيش فإن وجدوني سالمًا منها، ساغ لهم الرد عني، وإلا فالواجب عليهم تأييد من نسبني إلىٰ الفسق وقلة الدين، فمنها الزنا واللواط، وتقديم الصلاة وتأخيرها، والكذب علىٰ رسول الله ﷺ عمدًا، وأكل الربا وسائر الحرام، والغش في المعاملات، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة، وشهادة الزور، وقذف المحصنات والمحصنين، والغلول في الزكاة، واليمين الغموس، والحلف بملة غير الإسلام كاذبًا، واعتياد الكذب، والقضاء في خصومة بغير علم، والرئاسة والقيادة، فالأولىٰ: الاستحسان علىٰ الأهل، والثانية: الاستحسان علىٰ الأجانب، وتحليل المرأة إذا حنث فيها «لعن الله المحلل والمحلل له»[1]، وعدم التنزه من البول، وترك غسل الجنابة حتىٰ يخرج وقت الصلاة -قال بعضهم: وفي ذلك كبيرتان- والفجور عند المخاصمة، والكذب في أغلب الأحوال، وكتمان العلم الشرعي عن مستحِقه، وتعليمه للدنيا أو للرئاسة والتعظيم دون قصد العمل به، والغيبة والنميمة، والقذف والسرقة ولو إبرة، والسكوت علىٰ الغيبة والنميمة، وقطيعة الرحم بأن لا يصلها ببر ولا إحسان، وعقوق الوالدين، وهو مخالفتهما فيما طلباه منه من المباح، وألحق بعضهم بذلك عقوق العم والخالة، وأكل مال اليتيم بغير حق، والمراء في العلم، والجدال بغير علم، وضرب المسلم بغير حق أو زيادة علىٰ التأديب، وكتمان الشهادة وليس هناك غيره يكمل به النصاب، والخيانة للناس لاسيما الصاحب والجار، والسعاية عند الولاة بما يضر المسلمين، ومحاربة العلماء والصالحين وكراهتهم بغير حق، وإحراق الحيوان بالنار ولو برغوث أو قملة،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٩٣٦).

والنظر إلىٰ المرأة الأجنبية لاسيما امرأة الجار، والنظر إلىٰ الأمرد بشهوة، وإيذاء المسلمين بغير حق، وإلزام المسلم أو الذمي بما لا يلزم أو المساعدة علىٰ ذلك أو الرضا به، وترك رد السلام، والمنُّ بما يفعله من الخير ولو في نفسه، وتكذيب المسلم بغير حق، والتجسس علىٰ الناس في حديثهم الذي يخفونه عنه، ولعن من لا يستحق اللعن، وتخطي رقاب الناس يوم الجمعة، وتصديق الكاهن والمنجم، والاستطالة في عرض المسلم، والدعاء بالويل والهلاك عند المصيبة وتقرير فاعله عليه، والطعن في أنساب الناس، وتبرؤ الإنسان من نسبه الخسيس عند الناس، وانتسابه إلىٰ غير أبيه، والهجر فوق ثلاث لحظ نفس، وتعذيب الحيوان بغير حق سواء بالضرب أو بالأعمال الشاقة، وكفران نعمة المحسن، وتكفير المسلم بغير حق، وترك الإنكار علىٰ الظلمة، ولبس الحرير أو فرشه ليجلسوا عليه في بيوتهم إلا بطريق شرعي، وتمكين الناس من أن يقفوا بين يديه وهو جالس، وأذىٰ الجار بحيث يشكو منه، ومسابقة الإمام في الركوع والسجود، وعدم الإنكار علىٰ العبد إذا أبق من سيده إذا وجدوه[1] عنده، وأن يحدث في الدين ما ليس منه، وسوء العشرة للأرقاء، وعدم الإحسان إلىٰ البهائم، وسوء الظن بعباد الله، والتلفظ بالكلمة التي تعظم مفسدتها ويشتد ضررها ولا يلقي صاحبها إليها بالًا، ومشاحة العامل في أجرته بعد فراغ العمل بغير حق، وبغض أحد من الأشراف والأنصار، والاستجمار في حيطان الناس بغير إذنهم، والبغي علىٰ الناس، والوقيعة في الصالحين والعلماء، والضحك من غير عجيب كخروج الريح من إنسان، والإشراف علىٰ بيوت المسلمين، وكثرة الخصومات للناس ولو بحق في زعمه، والتبختر في المشي عامدًا، والوصال في الصوم علىٰ الأرجح، ولمس الأجنبية بغير حاجة والخلوة بها، وكشف العورة في الخلوة بغير حاجة.

ومن الكبائر الإصرار علىٰ الصغيرة أو احتقارها والتهاون بستر الله تعالىٰ، أو يكون فاعلها عالمًا يقتدي به. قال بعضهم: ويتحقق الإصرار بأن يذنب في وقت صلاة ولا

---

(١) بالأصلين: تولوه.

يتوب حتىٰ يخرج وقت تلك الصلاة، فهذه جملة من الصغائر والكبائر الظاهرة.

وأما كبائر الباطن فهي أغمض وأشد، وذلك كالكبر والرياء، والنفاق والحسد، والمكر والغل والحقد، وسوء الظن بالله أو بعباده، والغضب حمية جاهلية، والبخل والشح، وحب الصيت والسمعة، وإهمال السنن المحمدية هوانًا بها، واحتقار المسلم، والخوض بالفكر في ذات الله، وشدة الطمع فيما في أيدي الناس، وخوف الفقر، أو السخط علىٰ مقدور الله عزَّ وجلَّ، والاستهزاء بالفقراء، والمعرة بذكر الله معهم بالحركة المزعجة واقفًا أو جالسًا، لأنه تكبر علىٰ ذكر الله، وقد كان الصحابة إذا ذكروا الله يميلون كما تميل الشجرة في الريح العاصف، والحرص علىٰ المال، والتنافس في الدنيا والمباهاة بشيء من ملبوسها أو مأكولها أو مركوبها ونحو ذلك، والمداهنة في دين الله، وحب المدح من الناس بما لا يفعله ولا يقصده من الطاعات، والاشتغال بذكر عيوب الناس في المجالس ونسيان عيب نفسه، ونسيان نعم الله من عافية وقوت يوم وأمان في بيته من اللص، والعجب بالأعمال الصالحة، واتباع الأهواء المضلة عن طريق الله، والخداع لله، كأن يجاهر ربه بالمعصية ويصبح يظهر الخشوع والإطراق للناس، وعدم قبول النصح من الناصح ولو عدوًّا، وانتصار الإنسان لنفسه بالباطل، وغضبه لحظ نفسه، ونحو ذلك مما هو مذكور في كتب الشريعة.

فإياكم أيها الإخوان أن تجيبوا عني من سمَّاني فاسقًا أو مرائيًا أو معجبًا بعملي أو حسوديًّا ونحو ذلك وتلوثوا إلا بعد أن تفتشوني التفتيش التام، ولا تجدوا فيَّ شيئًا من الأخلاق المذمومة، وفي القرآن العظيم: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [النساء: ١٠٩]، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٣) ومما أجبتُ به عمَّن قال في حقي: إني أستحق [الخسف] بي والمسخ لصورتي، وأن جميع ما أنا فيه نصب علىٰ الخلق، ولاث به أصحابي وكذبوه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا القائل، فإنه صادق فيما قال، وأين الذي يدعي في هذا الزمان سلامته من الذنوب التي يستحق بها الخسف؟! وأنه مخلص في جميع أحواله وليس عنده نصب على أحد؟! وقد درج السلف الصالح كلُّهم ﷺ على رؤيتهم في نفوسهم أنهم قد استحقوا الخسف بهم لولا عفو الله، وأنه تعالى لو خسف بهم الأرض لكان عدلًا منه. وقد طلب جماعة من الفقراء كرامة من سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني فقال: يا أولادي وهل يُطلَب من عبد العزيز كرامة في آخر القرن السادس أكثر من أن الله تعالى يمسك به الأرض ولا يخسفها به، وقد استحق الخسف به من سنين عديدة؟! ثم قال: والله ما أرفع قدمي وأضعها وأجد الأرض ثابتة تحتي وفي عيني قطرة دمع.

وسمعتُ سيدي عليًا البحيري ﷺ يقول: لا تظن يا أخي أن قول أحد من الفقراء: «إننا قد استحقينا الخسف بنا والمسخ بالصور لولا عفو الله» من باب التملق إلى الله تعالى وهضم النفس، وأنهم يظنون بنفوسهم الصلاح والخير، فإن ذلك ظن كاذب، وإنما يقولون ذلك من باب العلم واليقين نظرًا لما يستحقه جلال الله عزَّ وجلَّ من العبادات والآداب. قال: وقد خسف الله تعالى بقوم كان ذنوبهم أقل عددًا من ذنوبنا وأخف قبحًا، فروى الإمام أحمد البزار وغيرهما مرفوعًا «بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[1].

وفي البخاري عن ابن عباس مرفوعًا «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه إذ خسف الله تعالى به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[2]، قال ابن عباس: وذلك بزقاق أبي لهب بمكة. قال: ومن رآه حين خُسِفَ به العباس ﷺ. وروى البزار ورواته رواة الصحيح مرفوعًا: «أن رجلًا كان في حلة حمراء يتبختر ويختال فيها، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[3]. وروى الترمذي وغيره مرفوعًا: «يبيت

---

(١) أخرجه أحمد (١١٣٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨٨) بنحوه، والترمذي (٢٤٩١) وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢٩٥٥).

قوم من هذه الأمة علىٰ لعب ولهو، فيصبحوا وقد مُسِخوا قردة وخنازير، وليصيبنهم خسف وقذف حتىٰ يصبح الناس فيقولون: خُسِفَ الليلة بدار فلان، وليرسلن عليهم حجارة من السماء كما أُرسِلَت علىٰ قوم لوط علىٰ قبائل فيها وعلىٰ دور بشربهم الخمر ولبسهم الحرير واتخاذهم القينات وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم»[1]. وروىٰ البخاري تعليقًا وأبو داود «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخمر والحرير يمسخ منهم قردة وخنازير إلىٰ يوم القيامة»[2]، فانظر يا أخي إلىٰ هذه الأمور التي خسف الله بأهلها الأرض تجد ذنوبنا أعظم منها بيقين أو مثلها، فكم نظر أحدنا إلىٰ عطفيه لما لبس ثوبًا جديدًا، وكم نظر إلىٰ عمامته بعد أن عممها، وكم أصلح طياتها موافقة لهوىٰ نفسه، وكم تبختر أحدنا في مشيته، وكم رفع نفسه علىٰ أقرانه، وكم بات أحدنا علىٰ محبة الدنيا التي هي رأس كلِّ خطيئة، وكم بات علىٰ بطر وشره وضحك ولعب ولهو، وكم وكم وكم!

وقد نقل ابن الجوزي أنه وقع في أيام الخليفة المطيع لله[3] تعالىٰ بمصر زلازل عظيمة حتىٰ خربت عدة بلاد وسكن الناس الصحراء، ووردت أيضًا محاضر شرعية أن

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الحاكم (٨٥٧٢) من حديث أبي أمامة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «يبيت قوم من هذه الأمة علىٰ طعام وشراب ولهو، فيصبحون قد مسخوا خنازير، وليخسفن بقبائل فيها وفي دور فيه، حتىٰ يصبحوا فيقولوا خسف الليلة ببني فلان خسف الليلة بدار بني فلان، وأرسلت عليهم حصباء حجارة كما أرسلت علىٰ قوم لوط، وأرسلت عليهم الريح العقيم فتنسفهم كما نسفت من كان قبلهم بشربهم الخمر، وأكلهم الربا، ولبسهم الحرير، واتخاذهم القينات، وقطيعتهم الرحم» ووافقه الذهبي، وأبو داود الطيالسي (١٢٣٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٢٦).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري معلقًا (٥٥٩٠) من حديث أبي مالك الأشعري، والله ما كذبني: «سمع النبي ﷺ يقول: ليكونن من أمتي أقوام، يستحلون الحر والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلىٰ جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم - يعني الفقير - لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلىٰ يوم القيامة» وأبو داود (٤٠٣٩) بنحوه..

(٣) المطيع لله الفضل بن المقتدر جعفر بن المعتضد العباسي أبو القاسم، ولد سنة ٣٠١ هـ، بويع بالخلافة بعد خلع المستكفي، وكانت أيامه أيام ضعف وفتور، فلج في آخر أيامه، وثقل لسانه فخلع نفسه وعهد إلىٰ ابنه الطائع لله. وتوفي بعد شهرين وأيام سنة ٣٦٤ هـ. «السير» (١٥/ ١١٣)، «الأعلام» (٥/ ١٤٧).

الله تعالىٰ خسف بأرض الري بمئة وخمسين قرية، وصارت كلها نارًا، وتقطعت الأرض وخرج منها دخان، وقذفت الأرض جميع ما في بطنها من عظام الموتىٰ في القبور. انتهىٰ.

ووقع ببلاد تبريز[1] بالعجم زلازل مات منها تحت الهدم نحو مئة ألف إنسان، ولبس الناس المسوح وصاروا يجأرون إلىٰ الله تعالىٰ، وكذلك خسف الله تعالىٰ بسبع جزائر من البحر بأهلها بنواحي عكا في أيام الملك الظاهر بيبرس أبي الفتوحات[2] بعد أن أمطرت السماء دمًا سبعة أيام. ولم يزل يبلغنا وقوع الخسف والزلازل ببلاد الروم وغيرها إلىٰ عصرنا هذا، مع أن فيهم العلماء والصالحين، ولكن في الحديث: «إذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح»[3].

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رضي الله عنه يقول: لا يستبعد وقوع الخسف به في هذا الزمان إلا كلُّ جاهل مغرور بحلم الله عليه. قال: ومن استبعد وقوع الخسف بمثله، فليعرض جميع ما فعله من الزلات التي ستره الله تعالىٰ فيها علىٰ نفسه وينظر، يجدها أكثر من ذنوب من خسف الله بهم الأرض قبلنا، فإن غاية ذنوب من قبلنا ثلاثة أو أربعة أو نحو ذلك، فهي دون ذنوب أحدنا بيقين. ولو حلف حالف بالله أن أحدنا استحق الخسف به لم يحنث. وتقدم قول مالك بن دينار رحمه الله: لو حلف حالف أن أعمالنا أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب؛ لقلنا له: صدقت ولا تكفر عن يمينك. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة

---

(١) تبريز: إحدىٰ أهم وأبرز المدن في إيران وعاصمة مُحافظة أذربيجان الشرقيَّة.

(٢) الملك الظاهر ركن الدين بيبرس. كان شهمًا شجاعًا، عالي الهمة، بعيد الغور، مقدامًا جسورًا، معتنيًا بأمر السلطنة، يشفق علىٰ الإسلام، متحليًا بالملك، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله، وإقامة شعار الملك، كثير الفتوحات، وقد حرر عدة مدن من أيدي الفرنج. وهو الذي أحيا الخلافة العباسية بعد أن بقي المسلمون ثلاث سنوات بلا خليفة. توفي سنة (٦٧٦هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» (١٠/ ٢٠٧) و«الأعلام» (٢/ ٧٩).

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج البخاري (٣٣٤٦) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه. وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» ومسلم (٢٨٨٠).

للجواب عن نفسك إذا نسبك أحد إلىٰ الفسق والنصب، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٤) ومما أجبتُ به عن الذي أشاع عني في مصر أنني نصَّاب، وأنني نصبتُ علىٰ الأمير خضر أمير الحاج في سنة أربع وستين وتسعمئة، وقلتُ له: أعطني جمالًا ومالًا بقدر ما يكفيني ويكفي جماعتي وأنا أسافر معك، وأحمل حملتك أن تُرَدَّ أنت وجميع الركب وجماله سالمين من غير موت ولا غلا؛ ولاث بي الناس في مصر بتلك الإشاعة، فلا يعلم عدد من استغابني إلا الله تعالىٰ.

والجواب: أنهم معذورون في ذلك، فإنه قبَّل بطن رجلي وكشف رأسه وسألني أن أحج معه في تلك السنة، وحلف أنه لا يخرج من عندي إلا إن أجبتُه علىٰ ذلك فأجبتُه، ففهم الناس بحكم العادة بالنظر لأمثالي أنه يصرف عليَّ وعلىٰ جماعتي ذهابًا وإيابًا، فاستبعد الناس ذلك علىٰ مثلي، فمنهم من استبعد ذلك حسدًا، ومنهم من استبعد ذلك احتقارًا ، ومنهم من شنع عليَّ محبةً فيَّ وشفقةً علىٰ ديني من أني أحج بمال الولاة. وقد أبرأتُ ذمة أهل الحسد والاحتقار، فإن الحسد لا يكون إلا مع نعمة، وأما الاحتقار فهو من أهله في محله، فجزىٰ الله تعالىٰ عني جميع المنكرين خيرًا، فإنهم قبَّحوا في عيني ما لعله كان يحسن في عيني كما وقع لغيري. وما أقبح قول الناس: العالم الفلاني أو الفقير الفلاني حج هذه السنة في فضل الأمير الفلاني!

فاعلم يا أخي ذلك، واعذر من يحسدك إذا وقع لك مثل ما وقع لي، فإن غالب الناس يسألون أمراء الحج في مثل ذلك فلا يجيبون، ونحن نُسأَل فلا نجيبهم، ولا يخفىٰ ما في ذلك من الرئاسة وقيام الجاه الذي لا يحتمله الأقران، فينبغي لمن أشاع الناس عنه من العلماء والصالحين مثل ما أشاعوا عني أن يترك الحج في تلك السنة صيانةً للناس عن الوقوع في غيبته وإن كان له نية صالحة، ويحج من مال نفسه شفقةً علىٰ أديان الأقران من النقص، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٥) ومما أجبتُ به عمَّن آذاني بارتكابه الآثام بسبب تعظيم الناس لي وشدة اعتقادهم

فيَّ، وقال: إن فلانًا من السحرة، فسحر قلوب الناس إلىٰ محبته قهرًا عليهم؛ وبتُّ تلك الليلة بلا عشاء من حيثُ تكديري علىٰ نقص دينه بسببي حين آخذتُ نفسي بالسبب وباللازم.

والجواب: أن مثل هذا الشخص معذور في [اتهامه][1] حيثُ تساهلتُ في إظهار ما صلح من أعمالي وأخلاقي، وابتديتها للناس حتىٰ عظموني واعتقدوا فيَّ، ولو أني احتطتُ لنفسي لما ظهر مني شيء يعظمني الناس لأجله، فكان عليَّ اللوم بذلك من حيثُ إني كنتُ سببَ لازدراء الناس لأقراني، وبخس مقامهم، فرجع إثم ذلك الازدراء والبخس عليَّ.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ؓ يقول: كلُّ فقير لا يستر نفسه ويخفي أعماله الصالحة في هذه الدار فهو مفتون، ولا ينبغي له أن يلوم أحدًا من أقرانه إذا نقصه، كما لا ينبغي له لومه في إساءته به الظن إذا سلك مسالك التُّهم.

وسمعته ؓ يقول: الفقراء الصادقون [لا يتكدرون ممن نقصهم، لأنه سعىٰ في حفظ رأس أموالهم الذي هو الدين][2]، وإنما يتكدرون علىٰ نقص دين ذلك الحاسد مثلاً، لأنه ما وقع في إثم الحسد إلا بسببهم، ومن شأنهم أنهم يؤاخذون نفوسهم باللازم ويشكرون كلَّ من أذاهم من حيثُ إن في إيذائه الأجر، لا من حيثُ وقوعه في الإثم، فهم أصحاب عيون: عين ينظرون بها إلىٰ إظهار كمالاتهم للناس بحيث يُعظَّمُون لأجلها، فيستغفرون الله [بسبب ذلك؛ وعين ينظرون بها إلىٰ كون إيذاء الناس لهم يحصل لهم به الأجر فيشكرون؛ وعين ينظرون بها إلىٰ حصول الإثم لمن آذاهم، فيستغفرون الله][3] له ولهم.

فعلم أن من كان من أهل الطريق لا يتكدر ممن آذاه أبدًا لخروج أهل الطريق عن حظوظ نفوسهم، فقولي «ومما أجبتُ به عن من آذاني» مرادي بذلك حصول الأذىٰ لي من حيثُ شفقتي علىٰ دينه لا حصول الأذىٰ لي بقطع النظر عن شفقتي عليه، فإني بحمد الله مؤمن بيوم الحساب مشاهد لما فيه الأجر والثواب، ومن كان كذلك لا يتأذىٰ ممن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) ساقط من «ب».

يسعىٰ في تحصيل الأجر له، بل يفرح لذلك ويحب فاعله كما يحب من يغسل له ثوبه إذا تدنس، ويحجمه أو يفصده ويخرج عنه الدم الفاسد الذي يضره، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٦) ومما أجبتُ به عن العدو الذي عجزتُ وأنا أسوق السياقات عليه أنه يطيب خاطره عليَّ، فلم يرضَ، ولاث به أصحابي وقالوا: إذا كان قتل لك قتيلًا وفعل معك ما فعل وطلب مصالحتك، وجب عليك مصالحته، لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

والجواب: أن اللوم في ذلك عليَّ لا عليه حيثُ تماديتُ في قلة سياسته، وخالفته فيما يطلبه مني من الأغراض، فإنه لو كان عندي سياسة وموافقة له في أغراضه ما تكدَّر مني كلَّ ذلك التكدير، ولا كرهني هذه الكراهية.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: مما يقع فيه الساذجون من الفقراء فضلًا عن غيرهم إخلالهم بواجب حقوق إخوانهم، حملًا لهم علىٰ عدم تكدرهم بمثل ذلك، فلا يتفقد أحدهم أخاه بهدية، ولا يرد عنه غيبة، ولا يمدحه إذا علم منه محبة ذلك، وإذا ذهب إلىٰ ونيمة لا يعلمه، وإذا رأىٰ أحدًا يفرق زكاة لا ينبه عليه، وإذا عمل مولدًا لا يحضره، وإذا ضعف لا يعوده، وإذا مات له ولد لا يعزيه أو لا يظهر له الحزن ونحو ذلك، وربما اجتمعت هذه الخصال كلُّها في إنسان، فتولد بسببها الحقد، فيتعب في إزالته من باطن أخيه.

وقد درج السلف الصالح كلُّهم علىٰ إقامة العذر لأخيهم علىٰ أنفسهم، ويقولون لأخيهم: اللوم علينا الذين خالفناك في أغراضك، ولو أننا وافقناك لما كرهتنا أبدًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٧) ومما أجبتُ به عن الجماعة الذين وقفوا علىٰ الباب فما سمعتُهم، فرجعوا وهم يسبونني ويقولون: هذا متكبر يزدري أهل العلم! فلاث بهم أصحابي وقالوا: هذا لا يجوز لكم، لأنه لم يسمعكم. وبتقدير أنه سمعكم، فله منعكم من الدخول متىٰ شاء ولو بلا عذر.

والجواب: أنه لا يجوز المبادرة إلىٰ اللوث بهؤلاء الجماعة، فربما عرفوا بقرائن

الأحوال مني الكبر وعدم التواضع. ومعلوم أن القرائن إحدى الأدلة. فاللوم عليَّ لا عليهم، فإنهم لو عرفوا مني شدة التواضع وأن نفسي كالتراب ما كان خطر لهم هذا الخاطر. وأيضًا فربما كنتُ ذلك اليوم عصيتُ الله تعالىٰ، وأفسدتُ ما بيني وبينه، فسلط عليَّ من آذاني وسبني بحكم النيابة عن الحقِّ جلَّ وعلا، فإنه حيي ستير، وقد استحقيت اللعن منه بمخالفتي لأمره، وربما استحيا الحقُّ جلَّ وعلا مني أن يلعنني فألهم بعض العبيد الذين عندهم قلة حياء فسبوني وشتموني، رحمةً منه تعالىٰ وتنبيهًا على التوبة مما وقعتُ فيه، كما قال الفُضَيل بن عياض: إني لأقع في مخالفة فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي. وقالوا: من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس. فعلم أني لو كنتُ صادقًا في التواضع ظاهرًا وباطنًا، لكان هؤلاء الجماعة يبرئوني من الكبر وازدراء العلماء.

ومما وقع أن صاحبي الشيخ العالم الصالح شمس الدين الخطيب الشربيني جاء هو وجماعة من طلبة العلم من جامع الأزهر، فدقوا الباب وأنا غائب، فلم يجبهم أحد، فرجعوا وهم يقولون: هذا شخص متكبر يزدري أهل العلم لا يجوز زيارة مثله! فلما أعلموني بذلك حملتُهم علىٰ أنهم قالوا ذلك في حقِّي من باب الاحتياط لديني، والتنبيه علىٰ أني أصلح ما بيني وبين الله تعالىٰ، وعلىٰ أني أفتح باب التفتيش لنفسي، فربما كانت تحب زيارة العلماء وطلبة العلم لها، وإذا كانت تحب ذلك، صح قول الجماعة أن زيارة مثلي لا يجوز. وكذلك حملتُ الشيخ شمس الدين علىٰ أن ذلك التنبيه لي الذي وقع من أصحابه إنما كان بسبب همته ومحبته الخير لي، فلما فاته ثواب اللقاء، أبدله بثواب التنبيه علىٰ ما وقعتُ فيه بيني وبين الله حتىٰ أهانني سبحانه وتعالىٰ، فأهانني عباده بحكم التبعية لربهم، فجزىٰ الله الجميع عني خيرًا، فإنهم أحسنوا لي أفضل من إحسان من اجتمع بي ومدحني بالكرم وحسن الخلق والتواضع، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٨) ومما أجبتُ به عمَّن طعن فيَّ وجرحني عند الأمير الذي يقبل شفاعتي أو عند أحد من قضاة العساكر أو الدفتردار ونحوهم، وقبل ذلك منه، وصار يرد شفاعتي ويلحقني بالفسقة عرفًا بعد أن كان يعتقد فيَّ الولاية الكبرىٰ، بأنه وافق بتجريحي وتنقيصي خيرًا، كأن

خاف عليَّ العُجْب بنفسي حين صار ذلك الأمير أو القاضي يرد شفاعة علماء مصر وفقرائها مثلًا في تلك الواقعة ويقبل شفاعتي من دونهم، وإن لم يكن ذلك العُجْب ثابتًا عندي، فيكفيني ذمًّا خطور العُجْب عندي، فربما مقتني الله تعالىٰ حين استحليتُ العُجْب بنفسي ولم أدفعه فورًا، فنعم ما فعل هذا الشخص الذي جرحني. وأما تفويته الأجر الذي كان لي في تلك الشفاعة فيمكن تحصيل بدله بالنية الصالحة. وقد يكون ذلك الشخص المشفوع فيه لا يستحق الشفاعة فيه، لتماديه علىٰ الإصرار علىٰ ذلك الذنب الذي طلبتُ الشفاعة فيه لأجله، وإذا احتمل فعل الذي جرحك يا أخي أمران: حسن وقبيح، فاحمله علىٰ الحسن.

وقد أجبتُ عن الذين نقصوا بعض مشايخ أهل العلم الذين كانوا يشفعون عند القاضي برويز قاضي العسكر بمصر سنة أربع وستين، فإن بعض أشياخنا كان يشفع عنده فلا يرد له شفاعة، فمشىٰ إلىٰ القاضي جماعة من أقرانه وقالوا له: إن الناس لاثوا بك بقبولك شفاعة فلان في الأمور التي يشفع عندكم فيها، وقالوا: لا ينبغي لمولانا أفندي أن يقبل شفاعة فلان؛ لأنه رجل بهلول أو مجذوب كلُّ من أنهىٰ إليه شيئًا صدَّقه وقبله منه، وجاءكم يشفع عندكم فيها. فقال القاضي: أنا ما قبلتُ شفاعته إلا لشكر جماعة من العلماء فيه. فقالوا له: غشوك يا مولانا فيه لأغراضهم الفاسدة. فرجع القاضي عن قبول شفاعته، وانقطع شيخنا عنه. وإنما قالوا للقاضي: «إنه بهلول أو مجذوب» لأن ظاهره محفوظ، فما قدروا علىٰ تجريحه في دينه، لتكذيب الحس لهم في ذلك بأعماله الصالحة، فحملوه علىٰ قصور النظر والهبَال.

فينبغي لكلِّ من تصدَّر للشفاعة عند الولاة وله أعداء وحسدة أن لا يشفع عند أحد من الأكابر إلا بعد مشاورته، فيقول: أنا عازم علىٰ الشفاعة عندكم في فلان، فإن كنتُم تقبلوني فأعلموني أحضر وإلا رددتُه عنكم بحسن عبارة. انتهىٰ. وذلك لاحتمال أن يكون أحد من الأقران جرَّحه عنده ولم يشعر. فاعلم ذلك، واحمل أقرانك علىٰ ما حملنا عليه أقراننا وأقران شيخنا، واحفظ[1] نفسك من الوقيعة في الناس بغير طريق

---

(١) بالأصلين: بحفظ. والصواب ما أثبتناه.

شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٩) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي كان يعتقدني ويقبل شفاعتي ثم أنكر عليَّ وصار يقول: أنا لا أعتقد إلا من أظهر لي كرامة؛ فلاث به أصحابي وقالوا: الفقير إنما يشفع عندك فيما خالف الشرع، وذلك لا يحتاج إلىٰ كرامة. لأنه إنما يأمرك بشرع نبيك الثابت المقرَّر الذي لا شك فيه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الأمير، لأنه تكلَّم بحسب ما عنده من أن كلَّ من لم تظهر له كرامة فهو وإياه علىٰ السواء لا تمييز له عنه، لأن الكرامة تكون كالمعجزة للنبي، ولا يجب علىٰ أحد اعتقاد الولاية في إنسان إلا بعد ظهور كرامة تميزه عن العامة، هذا حكم العوام. وأما العارفون فلا يطلبون من الوليِّ إلا استقامته علىٰ الشريعة المطهرة لا غير، فتلك أعظم الكرامات. ولم يرد لنا قط في حديث أن من كُشِفَ له عن ملكوت السماوات والأرض أو طار أو تربَّع في الهواء، أو مشىٰ علىٰ الماء يُكتَب له حسنة أبدًا.

وقد قال سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ: كلُّ فقير طلب من أمير أن ينقاد له [ويعتقده ويقبل شفاعته من غير ظهور كرامة، أو تصريف فيه بولاية أو عزل][١] أو كشف عما يقع له في المستقبل فقد رام المحال. فاعلم ذلك، وإياك أن تتكدر من أمير رد شفاعتك إلا إن أظهرت له كرامة، فإنه ما طلب منك ذلك إلا لدعواك الصلاح والولاية، فاخرج عن هذه الدعوىٰ وهو لا يعود يطلب منك شيئًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي طعن فيَّ عند الأمير الذي كان يعتقد فيَّ وغيَّر اعتقاده فيَّ، حتىٰ صار يمر علىٰ زاويتي كلَّ يوم وهو ذاهب إلىٰ ذلك الشيخ، وكلَّما دخل ذلك الأمير له يقول له: إياك أن تطلع زاوية فلان النصَّاب الشيطان؛ ولاث أصحابي بذلك الشيخ وبذلك الأمير.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بكلٍّ من الشيخ والأمير، بل ينبغي حمل الشيخ علىٰ

---

(١) ساقط من «ب».

أنه قصد بطعنه فيَّ عند الأمير سلامتي من الميل إليه، فأحشر معه يوم القيامة، وما قدر علىٰ انقطاع ذلك الأمير عني [إلا][1] بكثرة طعنه فيَّ، فهو طالب لي الخير، وربما كان يعتقد فيَّ أنني أفرح لذلك قياسًا علىٰ نفسه هو لو أني [فعلتُ][2] معه مثل ذلك، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا، سواء قصد ما حملناه عليه أم لا.

وأما الجواب عن الأمير فربما قصد ببعده عني رحمتي من حمل أوزاره أو مشاركته فيها يوم القيامة إذا دام علىٰ تردده إليَّ، فقصد تحويل الأمر إلىٰ غيري محبةً فيَّ. وربما قام بباطنه تعظيمي فاستحيا أن يجالسني، فصار يتردد إلىٰ من لم يقم بقلبه[3] تعظيم له مثلي، وصار يتحدث هو وإياه بانشراح صدر. وربما رأىٰ من ذلك الشيخ الذي تركني وذهب إليه كرامات وخوارق لم يجدها عندي، فقدَّمه عليَّ بحق، لأن الكرامة للولي كالمعجزة للنبي في التأييد وصحة الاعتقاد فيه كما مر. [وربما مرَّ ذلك][4] الأمير علىٰ زاويتي بعد أن خرج لزيارة ذلك الشيخ، فاستعظمني في عينه أن يشركني مع ذلك الشيخ، وعزم علىٰ أنه يخرج بعد ذلك بقصد زيارتي فقط. وربما استحيا كذلك من الشيخ الثاني أن يشرك مثلي معه في زيارته، فقام بواجب حقه عليه. وقد أجبتُ بنحو ذلك عمَّن طعن فيَّ عند عيسىٰ شيخ البحيرة، ومحمد بن داود بن عمر، فجزىٰ الله تعالىٰ كلَّ من نفَّر الولاة عني خيرًا، آمين اللهم آمين.

(١٤١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اطلع علىٰ كتابي المسمىٰ بـ«منهج الصدق والتحقيق في تفليس غالب المدعين للطريق» فرأىٰ فيه شروط تلقين الذكر، وشروط إلباس المريد الخرقة، وشروط إرخاء العذبة، وشروط الخلوة، ورأىٰ تلك الشروط مفقودة فيه، فتميز غضبًا وغيظًا، وصار يبحث عن زلاتي ويسأل عنها كلَّ من ورد عليه من أهل مصر،

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بالأصلين: بقلبي. والصواب ما أثبتناه.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.



ليصير يهجوني بها، حتىٰ إن بعض الأعداء أخبره بمسائل كان بعض الأعداء دسَّها في كتاب «العهود» فكاد أنه يكفرني، والحال أني بريء منها كما بينتُه في خطبة الكتاب حين غيرتُها بعد سنين. فقالوا له: إن هذه المسائل مدسوسة علىٰ فلان؛ فلم يلتفت إلىٰ ذلك، فلاث به أصحابي ومعارفي وصاروا ينسبونه إلىٰ الجهل بالشريعة والحقيقة. وقالوا له: إن شيخنا لم يؤلِّف الكتاب لأجلك وحدك. وإنما صنَّفه لعامة الفقراء. فذكر لهم شروط الأشياخ التي كانوا عليها في كلِّ مرتبة. فكان الأولىٰ بهذا المعترض إذا لم ير عنده شيئًا من تلك الشروط أن يتطلبها علىٰ يد شيخ ناصح ليوصله إليها. ولا ينسب سلعة الصالح إلىٰ الجهل بها نصرةً لنفسه. وخوفًا أن يقول الناس عنه: إنك لست بشيخ علىٰ ما ذكره فلان، بل كان الواجب عليه أن يحزن علىٰ نفسه ويندم ويستغفر الله الذي عمل شيخًا من غير اجتماع شروط المشيخة فيه، ويهضم نفسه ويقول: استراحت العرايا من شر الصابون! ولم يزل الأولياء في كلِّ عصر يبينون مقام الكمل من الأولياء ومقام المتشبهين بهم ليُعطَىٰ كلُّ أحد مقامه، كما عليه أبو القاسم القشيري والحارث المحاسبي وأبو طالب المكي والإمام الغزالي والإمام السهروردي وغيرهم، كلُّ ذلك نصحًا منهم للناس من أهل عصرهم ومن بعدهم. انتهىٰ.

والجواب: أنني أنا الظالم الذي أطلقتُ هذه الشروط في حقِّ الأكابر والأصاغر، مع أنها خاصة بالأكابر لا المتشبهين بهم كأمثالنا، فكأن حكمي في ذكر هذه الشروط حكم من كشف سوأة شيخ معتبر في محفل عظيم من المعتقدين والمنكرين، وقل من يثبت إذا كُشِفَت عورته بحضرة من يعتقده ولم يتغير، فكان عليَّ اللوم في ذكري لهذه الشروط مع الإطلاق. وربما كان الباعث لي علىٰ ذكرها التشفي في الأقران الذين يلقنون الذكر ويلبسون المريد الخرقة ويدخلونه الخلوة ويرخون له العذبة، ولا يخفىٰ حرمة ذلك لفساد القصد. وربما جرأني علىٰ ذلك كوني لم أتصدر لفعل هذه الأمور في بلدي، ولو أني كنتُ متصدرًا لها ربما لم أبسط اللسان بذكر هذه الشروط التي تعري من عمل شيخًا من ثياب المشيخة، وتسلخه منها كما تسلخ الحية من ثوبها، لخوفي علىٰ نفسي

أن أنكشف كغيري ويظهر للخاص والعام أني متفعل في المشيخة، ولا يخفىٰ ما يلحق العبد من الأذىٰ إذا صار لا يلتفت أحد إليه ولا يقبل يده ولا رجله ولا يأخذ منه عهدًا ولا يتلقن عليه ذكرًا، وأصل ذلك كلُّه عدم الفطام علىٰ يد شيخ.

وقد ظفر شخص ممن يخلي في مصر المريدين بنسخة من مؤلفاتي فيها شروط الخلوة وبيان ثمراتها، فلا تسأل يا أخي ما وقع فيه من عِرضِي، وسامحتُه دنيا وأخرىٰ من جهتي، وسألتُ الله تعالىٰ أن يسامحه من جهته من حيثُ تعديه حدوده بوقوعه في عِرضِي من غير سبب يبيح ذلك، فإن من ألَّف كتابًا وحطَّ فيه عمَّن يخرج عن الشريعة وعن طريق الأشياخ من غير تعيين لأحد لا تجوز غيبته، فالعاقل من حفظ لسانه عن كلِّ شيء يلزم منه تنقيص أحد من أقرانه بـ[غير][1] طريقه الشرعي.

فإن قلت: فما هذه الشروط التي قامت القيامة علىٰ من ذكرها بسببها؟ **فالجواب**:

أما شرط من يلقن الناس كلمة «لا إله إلا الله» مثلًا علىٰ وجه التحقق دون التشبه بالقوم، فهو أن يكون من أهل الكمال بحيث يقدره الله تعالىٰ علىٰ أن يفرغ علىٰ المريد حال قوله «لا إله إلا الله» جميع علوم الشريعة التي قُسِمَت لذلك المريد، فلا يصير يحتاج إلىٰ مطالعة كتاب بعد ذلك إلىٰ أن يموت، فإن لم يقدره الله تعالىٰ علىٰ ذلك، فليصرح للناس بأنه متشبه بالقوم لا متحقق، ليخرج عن التدليس والتلبيس، كما كان عليه جماعة من الأشياخ الذين أدركناهم أوائل النصف الأول من القرن العاشر.

وأما شرط من يرخي العذبة للمريد فهو أن يعطيه الله تعالىٰ القوة علىٰ أن يخلع علىٰ المريد حال إرخائه له العذبة سرَّ النمو والزيادة لكلِّ شيء مسه المريد أو نظر إليه، حتىٰ لو مد العمود الحجر أو الخشب لامتد معه، فيكون إرخاء العذبة لهذا المريد إشارة إلىٰ ما أُعطي من سر النمو والزيادة زائدًا علىٰ غيره من الناس، من باب التحدث بالنعمة واتباعًا للسنة. وقد بلغنا أن علي بن أبي طالب ﵁ كان إذا مد العمود الخشب امتد معه بعد أن أرخىٰ رسول الله ﷺ [له] العذبة، وكان يتوضأ وضوءًا كاملًا من كف كما رواه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

البيهقي[١]، فمن لم يعطه الله تعالىٰ القدرة علىٰ أن يفرغ علىٰ المريد ما ذكرناه فهو متشبه لا محقق. وربما أرخىٰ بعض المريدين العذبة بقصد التمشيخ. وذلك حرام كما أفتىٰ به الحافظ ابن حجر رحمه الله.

وأما شرط من يلبس المريد الخرقة من رداء أو قلنسوة أو غيرهما بأي لون كان من أسود أو أحمر أو أخضر أو أبيض، فشرطه أن يقدره الله تعالىٰ علىٰ أن ينزع من المريد جميع الأخلاق الردية حال نزعه تلك القلنسوة أو الرداء مثلًا، ثم يفرغ عليه حال إلباسه نظيرها جميع ما قُسِمَ من الأخلاق المحمدية، فلا يحتاج بعد ذلك إلىٰ علاج خلق من الأخلاق يتركه أو يتخلق به هكذا قاله الإمام الجنيد والشبلي والشيخ عبد القادر الجيلي والشيخ محيىٰ الدين بن العربي وغيره، فمن لم يقدره الله تعالىٰ علىٰ مثل ذلك فليصرِّح للناس بأنه متشبه في ذلك لا متحقق، وأنه لا فرق بينه وبين آحاد الناس ولا تخصيص، فإن لم يصرِّح بما ذكر فعليه اللوم لتلبيسه علىٰ الناس وفتح باب تنقيص مشايخ السلف رضي الله عنهم، ونسبتهم إلىٰ العجز عن ذلك، ليدخل معهم في ذلك ويدخلوا معه.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لمريد أن يقول: أنا خليفة الشيخ الفلاني إلا إن كان علىٰ قدم الصدق والكمال من الزهد والورع والصوم والصدقة[٢] وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن كلِّ ما يسخط الله تعالىٰ، وذلك لئلا يزري بشيخه ويقول من لم ير شخصه: إن شيخه كان علىٰ هذا النقص الذي عليه مريده، فاعلم ذلك.

وأما شرط من يدخل المريد الخلوة فأن يقدره الله تعالىٰ علىٰ أن يحمي المريد من سائر القواطع، فيدخله رصاصًا ويخرجه ذهبًا خالصًا، سالمًا من سائر الرعونات الخاصة بالخلوة، **فإن لكلِّ فعل من أفعال القوم رعونات تزول به**، كما أن لكلِّ مأمور شرعي ذنوب تُكَفَّر[٣] به من وضوء وصلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وغير ذلك.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) كذا بالأصل، ولعلها: الصبر.

(٣) بالأصلين: الكفر.

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: أقل ثمرات الخلوة في يوم وليلة أن يدخل صاحبها الخلوة جاهلًا، فيصبح عالمًا، بحيث يقرر جميع مذاهب المجتهدين، ويعرف منازعها كلَّها بما حصل له في الخلوة من أنوار الكشف، وأن يصير يمشي على الهواء والماء، ويدخل النار فلا تؤثر فيه، ويركب السبع فلا يعصي عليه، ويصير يعرف ما يمر في خواطر الناس، وما يفعله الناس في قعر بيوتهم، ومن لم يعطه الله ذلك في خلوته فهي عبث. انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ثمرات الخلوة وعلومها أواخر الباب التالي من كتاب «قواعد الصوفية» فراجعه، واعذر كلَّ حاسد من أقرانك إذا ميَّزك الله تعالى عليه بعلم أو جاه أو زهد أو ورع ونحو ذلك، وأقم له العذر باطنًا، وأنكر عليه ظاهرًا كما تنكر عليه إذا حسد غيرك، فإن كليهما محرَّم، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٣) ومما أجبتُ به عمَّن أذاني وكرهني ومزَّق عِرْضي حين نفَّرتُ عنه شيخ عرب أو أمير كان يعتقده ويحسن إليه، وزعمتُ أني إنما فعلتُ معه ذلك لشدَّة محبتي فيه، وخوفي عليه أن يميل إلى ذلك الأمير أو شيخ العرب الذي يظلم الناس فتمسه النار.

والجواب عن هذا الشيخ: أن ما فعلتُه معه خفيٌّ على غالب الناس، مؤذِنٌ بالعداوة عندهم، فلا يكاد أحد يرى أن ذلك من المحبة له، فعليَّ اللوم في ذلك الذي لم أمهد له بساطًا قبل ذلك يؤذِن بأن مثل ذلك إنما يقع مني محبةً له. ولخفاء وجه ذلك صار الناس يقولون في المثل السائر: «من أحبك أطعمك، ومن بغضك أحرمك» لاسيما والخالي اليوم من العلل أعز من الكبريت الأحمر، فلا يكاد يُرَى فقير يصحب أحدًا من أبناء الدنيا إلا لعلة دنيوية، فالعاقل من عامل الناس بقدر ما يُحتمَلونه ويشكرون فضله عليه.

وقد صحب شيخ العرب عامر شيخ البحيرة شيخًا ووعده بفلوس كثيرة وقمح وأرز وعسل، فعلمتُ بذلك فنفرتُه عنه، فلا تسأل يا أخي ما أراد يفعل معي، حتى لو أمكنه أن يثبت عليَّ الكفر ويضرب عنقي لفعل، وأقمتُ له العذر في ذلك، لأنه خلق غريب لا يفعله إلا من غلب على قلبه مراعاة الله تعالى في عباده، ورآهم كالأطفال الجاهلين

بالعواقب، فخالف أهواءهم وقال: إن تكدروا مني في الدنيا، فسوف يشكروني في الآخرة. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٣) ومما أجبتُ به عمَّن عاداني وكرهني حين دعوتُ له بالأمراض وضيق المعيشة وقلة الأولاد، أخذًا من حديث: «اللهم من آمن بي وصدقني وعلم أن ما جئتُ به الحق من عندك، فاقلل ماله وولده، وقصر أجله»[(١)]**. وفي رواية: وعجل منيته.**

وقد وقع لي ذلك مع شخص من فقهاء المغاربة، فقال: ترك عدوًّا لي من قديم الزمان! ومكثتُ نحو سنة أعتذر له، مع أني بحمد الله ما دعوتُ له إلا بما فهمته من دعاء رسول الله ﷺ لمن آمن به، وعلم أن ما جاء به ﷺ هو الحقُّ من عند ربه. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٤) ومما أجبتُ به عن العدو الذي لا يفتر عن تنقيصي عند الأمير الذي أشفع في الناس عنده، ولاث به أصحابي وقالوا: هذا كلُّه حسد لسيدي الشيخ.

والجواب: أنه لا ينبغي حمله على الحسد، وإنما يجب حمله على المحبة لي والشفقة خوفًا عليَّ أن يكثر اعتقاد ذلك الأمير فيَّ، فأركن إليه بقلبي ضرورة على جاري عوائد الناس، فإن كلَّ من بالغ في الاعتقاد فيهم أحبوه وركنوا إليه ضرورة، حتى إن أحدهم ربما يصير يجيب عن ذلك الأمير ويحمل جوره وظلمه على محامل حسنة، ويقيم الحجة له على المظلومين، فأراد هذا الأخ لي أن يقطع مادة الركون إلى ذلك الأمير حتى لا تمسني النار بسبب ذلك.

وأيضًا فقد ذكرنا في كتاب «الأخلاق» أن من شرط من يصحب أمراء الجور أن يوطن نفسه على تحمل تبعاتهم عنه في الآخرة وفاءً بصحبتهم، أو على مشاركتهم في تحملها، ومن صحبهم بغير هذا الشرط فهو غش، فأي شخص منا يدعي أن له قدرة على تحمل تبعات نفسه فضلًا عن الظلمة؟! فجزى الله تعالى هذا الأخ الذي نفَّر عني ذلك الأمير

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٣٣)، (٦٧٤) والطبراني في «مسند الشاميين» (١٤٠٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٦١).

خيرًا، وأدخله الجنة بغير حساب آمين، اللهم آمين.

(١٤١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يغفل عن الحطِّ فيَّ والتنقيص لي بين أصحابه وتلامذته، فلاث به أصحابي وقالوا: هذا أمر مفسِق للعوام فضلًا عن الأشياخ.

والجواب: أنه لا ينبغي لأصحابي اللوث بهذا الشيخ لمجرد حطه فيَّ وتنقيصي، لاحتمال أنه رأىٰ من طريق كشفه أنه لا نصيب لأحد من تلامذته عندي، ورآهم محبين لي مرجحين لي عليه، فما قدر علىٰ تخليصهم من الميل إليَّ إلا بإظهار تنقيصي بينهم، لينفروا مني، ويصلوا إلىٰ نصيبهم في الأدب والتربية الذي جعله الحق تعالىٰ لهم عنده.

فإن قال قائل: إن مثل ذلك لا يبيح غيبة من أحبوه؛ **قلنا:** الشيخ مجتهد في الطريق، فربما أدىٰ اجتهاده إلىٰ أن أثم تنقيصي أحق من فوات تأديب تلامذته وتعريفهم الآداب المتعلقة بالله عزَّ وجلَّ. وأيضًا فربما كان اعتقاده فيَّ حسنًا، وأني لا أتغير من كلام قيل فيَّ، كما عليه أشياخ الطريق، ومعلوم أن الغيبة ما حُرِّمت إلا من جهة ما فيها من الأذىٰ للمؤمنين والمؤمنات، فمن لا يتأذىٰ بها ربما يقول بعض العلماء بتخفيف الإثم فيها، ويؤيد ذلك ما في الحديث من قوله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا أصبح يقول: اللهم إني تصدقتُ بعِرضِي اليوم علىٰ عبادك»[1] انتهىٰ. فلولا طيبة نفس أبي ضمضم بذلك، ما سمح أبي ضمضم بالوقيعة في عرضه، ولا قال الشارع: «أيعجز أحدكم... إلىٰ آخره».

وأيضًا فإن كلَّ من قوي إيمانه شاهد أحوال يوم القيامة بقلبه كأنها رأي عين، ومن كان هذا مشهده رأىٰ تحكيم الحقِّ تعالىٰ له يوم القيامة في حسنات خصمه يأخذ منها ما شاء، فإن فنيت وضع من سيئات نفسه علىٰ ظهر خصمه إذا شاء -يعني المظلوم- فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وأجيبوا عمَّن وقع في عرضي بهذه الأجوبة ونحوها، ولا تدنسوا دينكم بالحطِّ علىٰ من حطَّ عليَّ في حياتي وبعد مماتي، فإني صفحتُ عن جميع من عليه حق في مال أو عَرَض من جميع هذه الأمة المحمدية، كما مرَّ في هذا الباب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٢٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٥).

(١٤١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جلس بجانبه شخص في محفله، فقال له: تنحَ عني بعيدًا، فقد آذيتني بقربك مني، أنه يجب حمله علىٰ أنه رأىٰ نفسه تدنس كلَّ من قرب منها، فقال لجليسه: إنه يتدنس بمجالسته، فيؤذي نفسه ويؤذي الشيخ من حيث سرقةُ جليسه من طبعه هو، لا من جهة أنه تأذىٰ بازدرائه له، أي لجليسه، فإن ذلك سوء ظن به وهو لا يجوز كما بيناه في الباب السابع والخمسين من كتاب «الفلك المشحون». والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أكثر من الحط عليَّ لما ألفتُ كتبًا في أخلاق القوم وبينتُ فيها ما اندرس من أخلاقهم، حتىٰ صار الناظر فيها يقول: ما بقي الآن أحد علىٰ قدم صدق، وصار يسلخ مشايخ العصر من طريق الصدق في الطريق كما انسلخت الحية من ثوبها، ولاث به أصحابي وقالوا له: هذا منك خروج عن الطريق، وما كان الواجب عليك إلا أن تمدح سيدي الشيخ في تبيينه معالم الطريق التي اندرست بعد أشياخه، كما جرىٰ عليه السلف الصالح، كأبي طالب المكي، والحارث المحاسبي، وأبي القاسم القشيري، والغزالي وأضرابهم. وأما حطك عليه يا سيدي الشيخ فذلك علامة علىٰ كثرة رعونات نفسك وحسدك ومحبتك في الرئاسة، فتريد أن لا يكون لأحد في بلدك اسم في الطريق غيرك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي حطَّ عليَّ لما ألفتُ هذه الكتب، وأظهرتُ فيها المناقشات في الأعمال والأقوال، لاحتمال أن يكون اطلع من طريق كشفه علىٰ ما في سريرتي من حصول العجب بأخلاقي وأحوالي حين تميزتُ بها علىٰ أقراني، وصار أهل زماني[1] يقدمونني في الاعتقاد والترجيح علىٰ كلِّ فقير في البلد، فقصد بالحط عليَّ زوال ذلك العجب الذي حصل بالتميز، كما هو الغالب علىٰ أمثالنا. ولا يجوز حمله علىٰ الحسد وحب الرئاسة وغير ذلك مما يتعلق بالسرائر، فإن ذلك أمره إلىٰ الله لا إلىٰ الخلق، حتىٰ إن بعضهم قال: إن الكشف بذلك قد يخطئ لنقص المكاشف.

---

(١) بالأصلين: أحوالي. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

فإن قال أحد من أصحابي: لم يزل الأشياخ تناقش أهل عصرها في كلِّ زمان، حتىٰ إنهم ربما أخرجوا الناس عن حقائق الإيمان واليقين تبعًا للشارع ﷺ في بيانه لأمته حقائق الإسلام والإيمان وغيرهما بنحو قوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(١)، وبقوله: «المؤمن من أمنه الناس علىٰ أنفسهم وأموالهم»(٢)، ونحو ذلك؛ قلنا: إن الشارع كان ذلك منه بوحي من ربِّه عزَّ وجلَّ، ولا كذلك غيره، فقد يخالط ذلك خفي حظ أو تشف في الأقران حين أقام الناس عليهم تلك الموازين التي ذكرها ذلك المؤلِّف وميزوه بها عن أقرانه كما هو الغالب، فكان الأولىٰ لهذا المؤلِّف أن يبقي لإخوانه رائحة عذر، كما أشار إليه حديث: «إن من البيان لسحرًا»(٣). قال الحسن البصري: ولا نرىٰ السحر إلا حرامًا. انتهىٰ.

فمثال من يكشف القناع عن حال أقرانه الناقص مثال من كشف سوأتهم للناس وقال لهم: انظروا إلىٰ عورات هؤلاء من نساء ورجال. ولاشك أن ذلك في غاية القبح، وقل من يصبر علىٰ رؤية الناس عورته، وكلُّ أحد منا مستور بثيابه بين الناس، ويسأل ربه أن يستر فضائحه عنهم في الدنيا والآخرة. ولو أن أحدنا نظر نفسه بعين الإنصاف والاعتبار، لرأىٰ ذاتها كأنها كلها عيوب ضُمَّ بعضها إلىٰ بعض، فصارت كأنها صورة إنسان.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعذروا من حطَّ علينا حين [قلنا ما](٤) قلناه من أحوال القوم بكتبنا، وأخرجناه عن دائرة المشيخة التي يدعيها، واشكروا [فضله في تنبيهنا علىٰ ما خفي علينا من فضائحنا، أو علىٰ تحذيره لنا مما يقع منا في المستقبل، أو علىٰ](٥) حصول الأجر لنا، وسعيه في رفع درجاتنا بوقوعه في عرضنا وإن لم يقصد هو ذلك، فإنه

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٠) ومسلم (٤٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٤)، وابن حبان (٤٨٦٢)، وأحمد (٢٣٩٥٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) ساقط من «ب».



إذا حصل لنا الأثر، فلا التفات لنا إلىٰ القصد المخالف لذلك، ولكن اسألوا الله تعالىٰ للأعداء أن لا يؤاخذهم بالحظ فينا بأن يصلح بينهم في ذلك مقابلة لهم علىٰ ما حصل لنا من الأجر بسببهم، فإن من شأن الفقير أن يحتاط لنفسه ولإخوانه ويؤاخذ نفسه باللازم.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا ذمَّك الناس فافرح من حيث سعيهم في إزالة ما فيك من العجب بأحوالك، وسامحهم من قلبك، وادع لهم بالمغفرة من قبل حق الله تعالىٰ حين تعدوا حدوده واستغابوك بغير طريق شرعي، فكما نفعوك بذمهم فيك، فانفعهم بالمدح والشكر لهم، وسؤال أن الله تعالىٰ يغفر لهم. انتهىٰ.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعذروا من حطَّ فيَّ حين كشفتُ سوأته بما ذكرتُه في كتبي، وطالعوها وخذوا المناقشات التي فيها في حقِّ نفوسكم، ولا تتعدوها إلىٰ أقرانكم يفوتكم النفع بها، ولا تجدوا من يرشدكم إليها من أهل عصركم إلا نادرًا، فإني لا أعلم أحدًا من أهل الطريق من عهد الجنيد إلىٰ وقتنا هذا صنَّف مثلها، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية لما حط عليَّ ونقصني في المجالس لما عمل المفتش حساب وقف زاويتي الذي هو تحت نظري، وطلع لي فائض عليه نحو الثلث، وقال له المباشرون عندي والشهود أني لا آخذ معلوم نظر أبدًا، وكلُّ شيء دخل تحت يدي من زراعاتي وغيرها أضفتُه إلىٰ ريع الوقف من غير رجوع به علىٰ أحد في الدنيا والآخرة، وفضَّلني المفتش علىٰ جميع علماء مصر ومشايخها، وقالوا: جميع من عملنا حسابه طلع عليه إلا عبد الوهاب؛ ولاث أصحابي بهؤلاء المشايخ وقالوا: بدل ما تحطون علىٰ الشيخ الذي تعفف عن مال[1] الوقف الذي تحت نظره، كنتُم تتبعونه في فعله وتشكرونه علىٰ ذلك، فهو أفضل لكم.

والجواب عن جميع العلماء والمشايخ الذين لاثوا بي: أنهم كالمعذورين في الحط عليَّ، لأني كشفتُ سوأتهم بما فعلتُه في وقفي بين الأعداء والحاسدين، فاللوم عليَّ الذي

---

(١) بالأصلين: حل. والصواب ما أثبتناه.

لم أكن توجهتُ إلىٰ الله تعالىٰ في ستري في ذلك عن المفتشين، وستر أقراني فيما طلع في جهتهم من مال الأوقاف. ولو أني كنتُ توجهتُ إلىٰ الله أن يستر أقراني فيما طلع في جهتهم عن المفتشين، لربما كان الحقُّ تعالىٰ أجابني إلىٰ ذلك لموضع صدقي، كما أني لو كنتُ شفقتُ علىٰ إخواني وسألتُ الله تعالىٰ أن يطلع حسابي سواء بسواء من غير زيدة أتميز بها علىٰ أقراني، لربما كان الحق تعالىٰ أجابني إلىٰ ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا يكمل الرجل حتىٰ يكون علىٰ قدم في العبدة لا يقدر أحد من أهل عصره يمشي عليه، ومع ذلك فلا يكاد أحد يشعر بكماله لما هو عليه من شدة حبِّه للخفاء في هذه الدار، فمثل هذا هو الذي يخرج من الدنيا بأعماله الصالحة كاملة موفرة لا يدخل عليها إعجاب ولا إحباط. وأما من ظهر كماله للناس فربما استوفىٰ أجر عمله في الدنيا من كثرة ثناء الناس عليه وكثرة تعظيمه، فيذهب إلىٰ الآخرة صفر اليدين من الحسنات. انتهىٰ.

ولما أقرأ أخي أفضل الدين الأطفال القرآن كان يرد خبزهم وخميسهم، فبلغ ذلك سيدي عليًّا الخواص، فقال: يا أفضل الدين، إن الله تعالىٰ لا يحب من عمل عملًا ليُشكَر عليه، فقال له: يا سيدي، أنتم تعلمون أني لم أقصد ذلك بما فعلتُ، وإنما قصدتُ تنزيه نفسي عن إقراء كتاب الله لعباده بغرض الدنيا. فقال له: حيثما شُكِرتَ علىٰ ذلك، فلا فرق بين أن تقصد ذلك أم لا، ولو كنتَ محتاطًا لنفسك لتوجهتَ إلىٰ الله تعالىٰ أن لا يطلع أحدًا من الخلق علىٰ شيء من أعمالك التي تتميز بها علىٰ إخوانك، فكان الحق تعالىٰ يسترك في أعمالك، ولا يُطلِع أحدًا علىٰ كمالك ولو كنت علىٰ عبادة الثقلين. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعذروا الناس في هذا الزمان بما تعذرون به نفوسكم إذا حصل منكم حسد أو عجب أو كبر، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق الذي دخل في محفل كبير مشتمل علىٰ أمراء وعلماء وفقراء وتجار وغيرهم، فوجدهم كلَّهم يمدحونني ويذكرون محاسني، حتىٰ فهم منهم أنهم يرجحونني علىٰ كلِّ فقير في مصر، فأخذ في معارضتهم

وذكر شيئًا من نقائصي، فلاث به الحاضرون وقالوا: هذا من علامة الحسد، وأي شيء كان يضره لو وافق الناس في ذكر المحاسن أو سكت؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا حمله على الحسد والعداوة، لاحتمال أن يكون قصد بذكر نقائصي سدَّ باب العجب عني بشيء من أحوالي، فإنه قلَّ عبد **يجمع غالب إخوانه على فضله وترجيحه على أقرانه إلا ويحصل عنده العجب بحاله أو يخطر له**، فكان تنقيص هذا الشيخ لي كالرقية من شرِّ العين، فلا ينبغي اللوث به، بل يجب حمله على النية الصالحة، وتجب محبته، لأنه حفظ عليَّ ديني على ما وقع فيه من مدحتي، فإنه كاد أن يذهبني[1]، فجزاه الله تعالى عني خيرًا.

ويقرب من هذا في نفعي أيضًا من سمع الناس يمدحونني فانقبض لذلك، وظهر التعبيس على وجهه، فإنه لا ينبغي اللوث به، بل يجب حمله على أنه خاف عليَّ العجب بذلك المدح، وكان على هذا القدم أخي أفضل الدين رحمه الله إذا ذمَّه أحد ونقصه في المجالس، يقول: والله إن قلب هذا نيِّر، ولولا محبته لي ما نبهني على نقصي. فاعلم ذلك يا أخي، وبالغ في محبة من ذمَّك في هذه الدار، فإنه أنفع لك ممن يمدحك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أمر جماعته بضرب من مدحني في مجلسه أو أقرَّهم على ضربه، ولاث الناس به وقالوا: هذا حمق وجهل عظيم لا يليق وقوعه ممن شم رائحة طريق القوم، إذ الضرب لا يكون إلا لمن وقع في حد أو تعزير، بشرط أن يكون ذلك الضرب بأمر حاكم شرعي.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون مأذونًا له في تعزير كلِّ من وقع في معصية من وليِّ الأمر، وربما كان يرى المبالغة في المدح من الكذب الذي يستحق صاحبه التعزير لتحريمه. ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ إنما أمر بضرب

---

(١) بالأصلين: يذهب ذنبي. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

صاحبي أو أقرَّ أصحابه عليه لما يعلم من حسن خلق صاحبي وظنه حسن خلقي، وأني لا أنتصر لمن مدحني إذا آذاه أحد علىٰ وجه حمية الجاهلية، فأراد أن يعلِّم أصحابه الاقتداء بي وبصاحبي في حسن الخلق، والحال أنه من أشد المحبين لي. ويُحتمَل أنه فعل ذلك خوفًا عليَّ من أن أصغي إلىٰ المدح، فأعجب بحالي، فأقع في الكبائر، من باب اجتهاده في حفظ ديني من النقص لا حسدًا لي ولا بغضًا. وقد كان أخي أفضل الدين رحمه الله يحط علىٰ بعض أصحابي وينقصه في المجالس ليبلغوه ذلك، مع كونه من أشد المحبين له ويقول: أخاف عليه من وقوعه في العجب إذا مدحه الناس وأجمعوا علىٰ جلالته ورجحوه في المقام علىٰ سائر أقرانه. انتهىٰ.

وقد وقع أن بعض المشايخ رضي الله عنه سأل أمير الحاج شيئًا من الزاد والأُدْم في طريق الحاج، فلاث به بعض الناس وقالوا: ما شيخ إلا فلان الذي هو في غاية الفقر والحاجة، وما رأيناه يقبل شيئًا عن أحد ولو جاءه من غير سؤال؛ فسألتُه عن سبب ذلك، فقال لي: أردتُ بذلك أن أميِّز مقام ذلك الشيخ علىٰ مقامي عند الناس. فقلتُ له: قد يلحقه العجب بذلك. فقال: إنما سألتُ أمير الحاج وأنا ماسك قلوب الناس أن يلقوا بالهم إلىٰ ذلك، وما قصدتُ إلا ترجيح مقامه عليَّ عند أمير الحاج لا غير، كما أني ما سألتُ أمير الحاج إلا وأنا ماسك قلبه عن أن يسمح لي بشيء، لغنائي عن ذلك بحمد الله، فإن من شأن الفقراء الصادقين أن يسألوا الناس بألسنتهم حال كونهم سائلين الله تعالىٰ أن يقسي قلوبهم عليهم ولا يعطوهم شيئًا، لأنهم إنما يفعلون مثل ذلك بيانًا لمقام إخوانهم وترجيحه علىٰ مقامهم. انتهىٰ.

ونظير ما قلناه ما ورد من قول السيد موسىٰ عليه الصلاة والسلام في مناجاته: «يا رب، نبي يأتي من بعدي يكون أتباعه أكثر من أتباعي -يعني محمدًا ﷺ- فقال له الحقُّ تعالىٰ: تأدب يا موسىٰ، فإنه لولا محمد ما خلقتُك، ولا خلقتُ سماء ولا أرضًا» الحديث، فإن موسىٰ بإجماع المسلمين ما قال ذلك حسدًا لمحمد ﷺ، وإنما قال ذلك لعلمه من طريق الوحي والكشف أن الله تعالىٰ ينزل وحيًا عليه في شرف محمد ﷺ،

[ويبين علو مقامه عليه بين الملائكة والجن والإنس، لشدة محبة السيد موسىٰ في محمد ﷺ][١] فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الحسد لأحد من خلق الله عزَّ وجلَّ، فاعلم ذلك فإنه نفيس والحمد لله رب العالمين.

وليكن ذلك آخر «طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بجميع العباد» وذلك علىٰ يد مؤلفه عبد الوهاب بن أحمد الشعراني بمصر المحروسة في مستهل شهر الله المحرم، سنة ست وستين وتسعمئة، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، [فرحم الله من انتفع بشيء منه ودعا لمؤلفه بمجاوزة الصراط إلىٰ الجنة][٢].

ختام النسة «أ»

وكان الفراغ من كتابته من خط مؤلفه لولد ولد مؤلِّفه، من أحيىٰ سنة جَده بجِده وجَدّه الذي أحيىٰ الله بوجوده الوجود، وبلَّغ ببركته في الدارين المقصود، دام بدوام النيرين

هو الشيخ يحيىٰ ابن الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ عبد الوهاب الشعراني

هو المؤلف لهذا الكتاب قدَّس الله روحه، ونوَّر ضريحه بمحمد وآله

علىٰ يد كاتبه أحمد خادم الأبواب الشعرانية

وذلك بتاريخ يوم الأربعاء المبارك،

سادس جمادىٰ الثاني من شهور سنة ١٠٢٢

من الهجرة النبوية

علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام

آمين

(١) ساقط من «ب».

(٢) زيادة من «أ».

ختام النسخة «ب»

وكان الفراغ من كتابة هذا الكتاب الشريف

يوم الاثنين المبارك خامس عشر شهر شوال،

من شهور السنة الحادية عشر بعد المئة والألف من الهجرة النبوية

علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام

والحمد لله حمدًا كثيرًا علىٰ الدوام

وكتبتُ هذه النسخة المباركة لسيدنا ومولانا السيد الحسيب النسيب، السيد حسن أفندي، نقيب السادة الأشراف بمصر حالًا، أحيا الله بوجوده الأنام، وجعله قائمًا بإحياء سنة جده سيدنا محمد خير الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام بمنّه، آمين.

وذلك علىٰ يد الفقير إلىٰ الله تعالىٰ

محمد بن إبراهيم النجاحي بلدًا، الشافعي مذهبًا،

غفر الله له ولوالديه، ولمن دعا لهم بالمغفرة، ولكلّ المسلمين أجمعين

آمين يا رب العالمين

آمين

وصلّىٰ الله وسلّم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم



فهرس المحتويات


الكتب النادرة التي ترفع لأول مرة


تم بحمد الله

ينشر هذا الكتاب لأول مرة، وهو فريد في موضوعه، إذ يتناول قضية حسن الظن بالعباد كلهم في اثني عشر بابًا، بداية من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومرورًا بالصحابة والتابعين وكبار علماء الإسلام ومشايخ الطريق والعلماء، وانتهاء بسائر المسلمين من الأمراء والأطباء والتجار والعوام، كما أجاب عن بعض الأفعال الصادرة عن غير المسلمين.

ثم ختم بخاتمة أجاب فيها عن بعض من آذوه.

وقد بلغت الأجوبة في هذه الموسوعة العظيمة (١٤٢٠) جوابًا.

وقد تضمنت الأجوبة مع ذلك دررًا من الفوائد العلمية، والإشارات العرفانية، والتوجيهات السلوكية.







